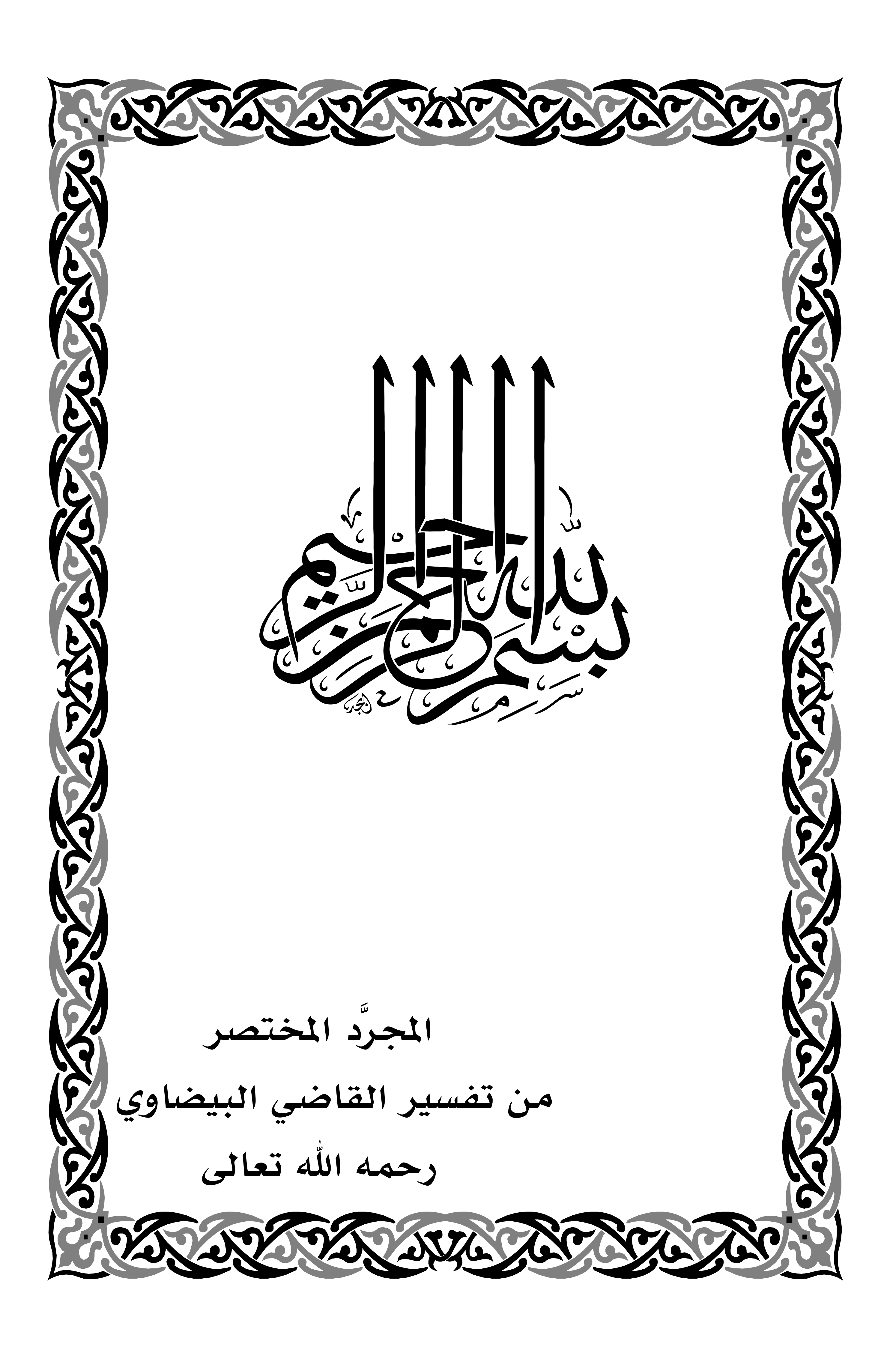


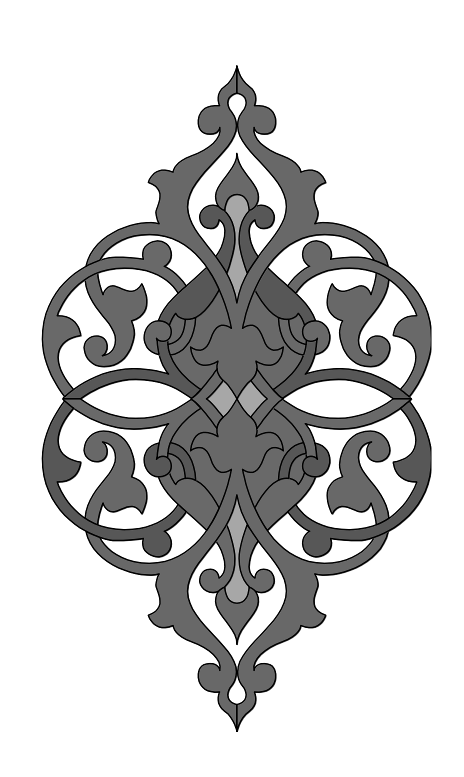
المجرَّد المختصر

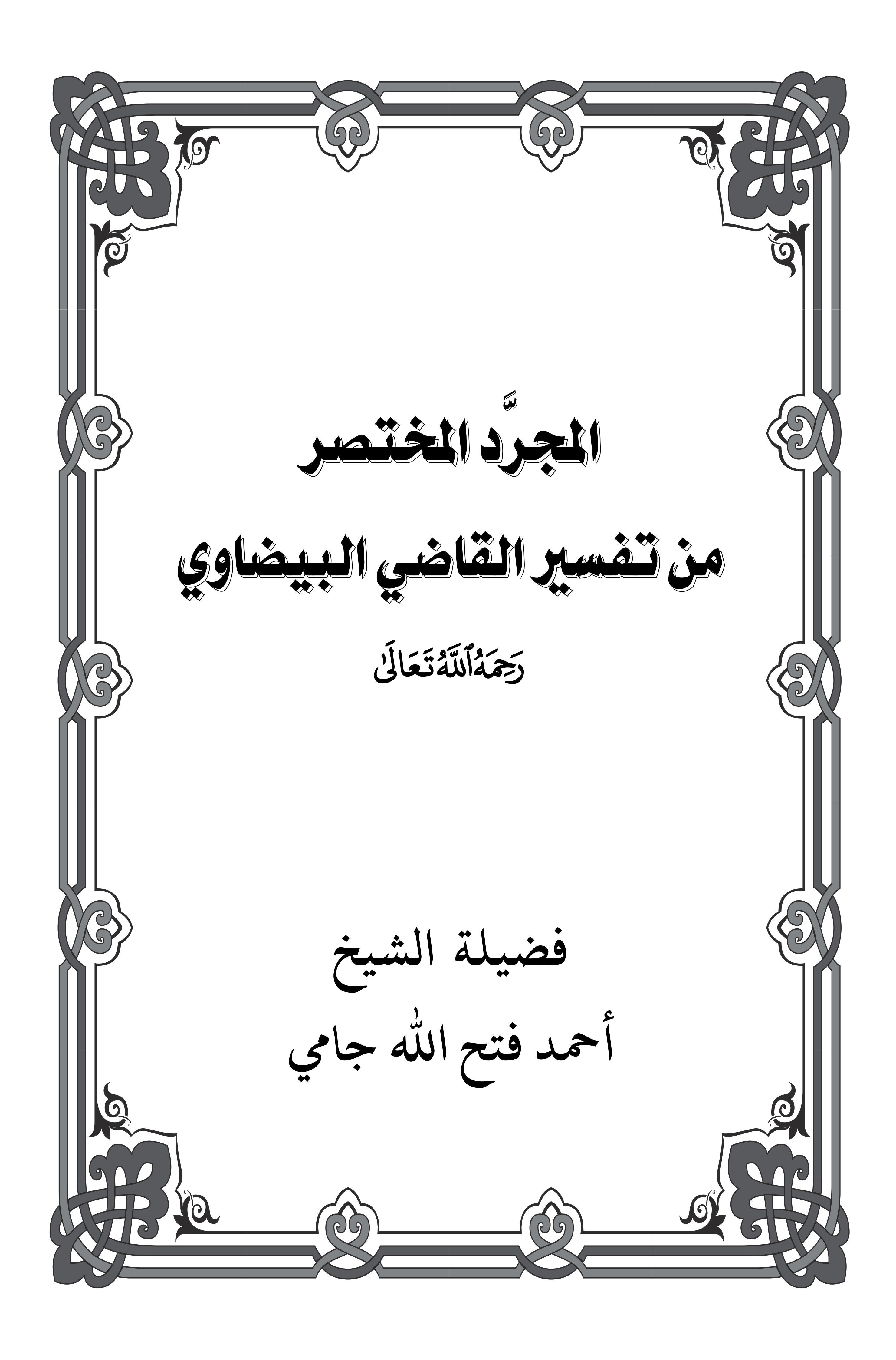
من تفسير القاضي البيضاوي

رحمه الله تعالى

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م





المجرَّد المختصر

من تفسير القاضي البيضاوي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ

فضيلة الشيخ

أحمد فتح الله جامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَرْجَمَة

فضيلة الشيخ أحمد فتح الله جامي حفظه الله تعالى

هو الإمام العارف بالله تعالى، المجدِّد المربِّي سيدي الشيخ أحمد بن فتح الله جامي، شيخ الطريقة الشاذلية القادرية، الموشيُّ مولداً، الخالديُّ نسباً، الشافعي مذهباً. نشأ في أسرة شريفة، اشتهرت بالتقوى والصلاح والعلم، إضافة إلى الشجاعة وإغاثة الملهوف. وكان جدُّه الشيخ عبد الله جامي رحمه الله تعالى من العلماء البارزين في وقته، وهكذا أجداده من الشيخ إسماعيل إلى الشيخ ملا جامي رحمهم الله تعالى.

أما والد شيخنا ـ فتح الله جامي ـ رحمه الله تعالى فكان معروفاً بشجاعته وإقدامه، وكان حريصاً على أن يكون ولدُه طالبَ علم ويسلك طريق العلماء، فجعله عند من يعلِّمه العلم الشريف، وهو الشيخ حق شوناس رحمه الله تعالى. توفي والد شيخنا حفظه الله تعالى وشيخنا لم يتجاوز من العمر ثماني سنوات، فكان هو القائم بتربية أخيه محمد وأخواته، ولما تمَّ له من العمر عشرون عاماً بدأ بتحصيل العلم بشكل جدِّي دائم، وفي نفس الوقت بدأ بالسير والسلوك في مجاهدة النفس في الطريقة النقشبندية، وتابع سيره وسلوكه وتحصيله في طلب العلم، وطلبُهُ الوحيد البحثُ عن الأستاذ التقيِّ النقيِّ لتحصيل العلم على يديه، وأكرمه الله تعالى بذلك، فجميع أساتذته من أهل التصوُّف الخالص.

فأخذ علم الفقه واللغة العربية عن الشيخ عبد الهادي العمري البوطي رحمه الله تعالى، وهو مأذون في الطريقة النقشبندية، وتابع ذلك على يد الشيخ عبد الرحمن العمري البوطي رحمه الله تعالى، وأخذ منه الكثير من العلوم الأخرى، وكذلك أخذ العلوم عن الشيخ محمد ظاهر الملاذكردي، فهو أستاذ أستاذه الشيخ عبد الرحمن العمري رحمهما الله تعالى.

وكان حفظه الله تعالى متوكِّلًا على الله تعالى معتمداً عليه، لم يتعلق بأسباب العيش، وإنما همُّه الاجتماع بالعلماء الأتقياء الصادقين.

قال حفظه الله تعالى عن هذا الجانب:

(أخذت علومي من المتقين، وتأدَّبتُ بآدابهم، حتى أجازوني بالإجازات العلمية، وهذا من فضل الله تعالى. لقد عشت مع المتقين، وأخذت الطريق من الصادقين)، ولقد بلغ من محبَّته للشرع الشريف الدرجات العالية ، فكان غيوراً على شرع الله تعالى.

وقال أيضاً: (الشريعة حبل الله تعالى النازل من السماء إلى الأرض، وهو الطريق الوحيد للخلاص من الغرق في بحر الدنيا، ومن ادَّعى طريقاً آخر لذلك ضلَّ وأضلَّ)، وسلوك هذا الطريق هو اتِّباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتِّباع من اتَّبع رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو اتِّباع لشرع الله عز وجل، كما يؤكِّد على أهمية الالتزام بعقيدة أهل السنة والجماعة، واتِّباع المذاهب الأربعة، ويوجِّه المسلمينَ عامة وأهلَ الطريق خاصة لكثرة الذكر، وقراءة القرآن الكريم بالتدبُّر، والإخلاص في العبادة.

أخذ الطريقة النقشبندية عن سيدي إبراهيم حقي رحمه الله تعالى، ولازمه فترة طويلة من حياته، ويقول حفظه الله تعالى: (رُبِّيت على يد الشيخ إبراهيم حقي رحمه الله تعالى، وبقيت معه حتى آخر لحظة من حياته، حيث غسَّلته وكفَّنته بيدي رحمه الله تعالى)، وبعد وفاته أخذ يبحث عن مرشد له، وبقي سبعة عشر عاماً على هذا الحال.

وخلال هذه الأعوام كان مجاهداً لنفسه على طريقة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، وكان يكثر من خلواته، حتى تعرَّف على شيخه في الطريقة الشاذلية القادرية سيدي الشيخ عبد القادر عيسى الحلبي رَحِمَهُٱللَّهُتَعَالَى، ودخل الطريقة، وأدخله خلوة لمدة عشرة أيام، ثم أذن له بالورد العام، وبعد أعوام أعطاه الإذن بالورد العام والخاص، وهو الخليفة للشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله تعالى.

يقول حفظه الله تعالى: طوال هذه الأعوام بعد وفاة شيخي الأول وأنا أبحث عن المرشد، كنت في معية سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى بروحانيَّته، وكنت أرى الذي أراه، ولكن ليس طلبي كشفاً ولا كرامة، طلبي غير هذا، حتى أكرمني الله تعالى بسيدنا الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله تعالى.

وكان له اهتمام بمسلك الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله تعالى ورسائله (رسائل النور).

ويقول كذلك: طريقة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى سلوكي، وطريقة الإمام الشاذلي رحمه الله تعالى مشربي، فالأولى في الرياضات، والثانية في الذكر.

وهو حفظه الله تعالى كثير الشفقة على خلق الله تعالى، فكلُّ من خالطه عرف مدى رحمته بالخلق، وكثيراً ما سمعنا منه حفظه الله تعالى: (سعادة المرء في شيئين: التعظيم لأوامر الله تعالى، والشفقة على خلق الله تعالى)، وخصوصاً على الأيتام والمساكين، وكذلك على المهاجرين الذين تركوا أوطانهم، وتأثُّره الشديد بأحوال المسلمين وما يصيبهم، وكثرة دعائه لهم، وتحذيره من إهراق دماء المسلمين المعصومين، والانجراف وراء الفتن والقتل، وتحذيره من أهل العقائد المنحرفة والمذاهب الباطنية وأفكار الخوارج وأعمالهم.

أما عن تعلُّقه بالقرآن الكريم وعشقه لكلام ربِّنا جلَّ وعلا فكان يقول حفظه الله تعالى: (القرآن روحنا، القرآن شرفنا، القرآن عزُّنا)، ودائماً يوجِّه أحبابه ومريديه إلى كثرة قراءة القرآن بالتدبُّر، مع الرجوع للتفاسير

المختصرة لفهم معاني القرآن الكريم، وكان توجُّهه إلى القرآن منذ بداية حياته، فكان من ثمار ذلك كتاب: «نداء المؤمنين في القرآن المبين»، و«صفات المؤمنين في القرآن المبين»، وكتاب «تنزيه القلوب»، و«منتخبات من آيات القرآن الكريم»، وتوَّج هذا الاشتغال بالقرآن وتفاسيره باختصار الكتاب الذي بين أيدينا، وهو تفسير الإمام القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى، مجرداً عن النحو والصرف واللغة ليستفيد منه الناس، ويكون تسهيلاً على القارئ ليفهم ويتدبَّر معاني القرآن العظيم، فجزاه الله تعالى عنا وعن المسلمين خيراً، وجعل عمله هذا في ميزان حسناته، وأدخل به السرور على قلب سيدنا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وقد انتشر الطريق بفضل الله تعالى وبركة أهل السلسلة، وصدقِ شيخنا وتجرُّده الكامل عن نفسه، في أرجاء الأرض شرقاً وغرباً، فقد وصلت آثار توجيهاته ووصاياه وحكمه إلى دول شتى وبلدان عدة، من ماليزيا إلى مصر وتونس والجزائر، حتى وصلت إلى المسلمين في كندا وأمريكا وأوربا، وكذلك إلى غير المسلمين حتى دخل بعضهم في الإسلام، وتأتيه الأسئلة من كلِّ بقاع الأرض من عامة المسلمين وعلمائهم، فيجيبهم بقدر الإمكان، ويبيِّن لهم وجوب اتباع الشريعة، وأن الشريعة أصلٌ، والطريقة فرعٌ، ويبيِّن لهم اعتقاد أهل السنة والجماعة وآداب الطريق.

ونختم بوصية كان لها أثر بالغ بين المؤمنين، وهي من الوصايا المهمَّة التي كثيراً ما يوصي بها سيدنا الشيخ حفظه الله تعالى: (لا بدَّ عليكم أن تتفكَّروا بالمعبود قبل العبادة، أي: تتفكَّروا في عظمته وربوبيَّته ووحدانيَّته جلَّ وعلا، وهو بعلمه جلَّ وعلا معنا، ينظر إلينا ومطَّلع على خفايا صدورنا، يعني لا بد من التعلُّق بالمعبود قبل الدخول في العبادة، لا تتفكَّروا في ذاته جلَّ وعلا، نحن بين يديه ولكن بدون تشبيه، فهو جلَّ وعلا كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

** ** **

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَرجَمَة

الإمام المفسِّر القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى

هو العلَّامة المفسر قاضي القضاة، ناصر الدين، أبو سعيد، عبد الله بن عمر بن علي البيضاوي الشيرازي، الشافعي، والبيضاوي نسبة إلى بيضاء، وهي بلدة من بلاد فارس، ولم تذكر المصادر سنة ولادته.

قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في «بغية الوعاة»: كان إماماً علَّامة، عارفاً بالفقه والأصلين والعربية والمنطق، نظاراً صالحاً، متعبِّداً، شافعيّاً.

وقال ابن قاضي شهبة رحمه الله تعالى في «طبقاته»: صاحب المصنَّفات، وعالم أذربيجان، وشيخ تلك الناحية.

وقال الإمام السبكي رحمه الله تعالى في «طبقاته الكبرى»: ولي القضاء بشيراز، ودخل تبريز، وناظر بها، وقال عنه رحمه الله تعالى: كان إماماً مبرزاً نظاراً خيراً، صالحاً متعبداً .

تتلمذ الإمام البيضاوي رحمه الله تعالى على جملة كبيرة من الشيوخ، منهم: والده الإمام أبو القاسم عمر بن محمد بن علي البيضاوي، والشيخ شرف الدين عمر البوشكاني الزكي، كان من أكابر العلماء العاملين، وكذلك تتلمذ على الشيخ محمد بن محمد الكحتائي، صحبه البيضاوي واقتدى به في الزهد والعبادة، رحمهم الله تعالى.

له مؤلفات كثيرة، من أشهرها هذا التفسير المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، تلقَّاه العلماء بالقبول، وذاع ذكره في سائر الأقطار، وسار مسير الشمس في رابعة النهار، واشتغل به العلماء إقراءً وتدريساً وشرحاً حتى بلغت شروحه وحواشيه زهاء مئة وثلاثين حاشية، وظلَّ يُدرَّس بالأزهر وغيره من معاهد العلم قروناً عديدة، وهو كتاب عظيم الشأن غنيٌّ عن البيان، يحتوي فنوناً من العلم وَعْرة المسالك، وأنواعاً من القواعد مختلفة الطرائق.

وله أيضاً كتاب «المنهاج» مختصر من الحاصل والمصباح و«شرحه» (في أصول الفقه) وهو «منهاج الوصول إلى علم الأصول»، وكتاب «الطوالع» وهو «طوالع الأنوار» (في أصول الدين والتوحيد)، قال السبكي رحمه الله تعالى: وهو أجلُّ مختصر أُلِّف في علم الكلام، وغيره الكثير من المؤلفات.

ولي القضاء بشيراز، وتوفي رحمه الله تعالى بمدينة تبريز سنة (٦٩١ هـ) إحدى وتسعين وستمائة.

** ** **

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقَـدّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، الذي منَّ علينا بنعمة القرآن العظيم، الذي هو كلام ربِّنا عزَّ وجلَّ صدقاً وحقّاً.

والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، الذي أُنزل القرآنُ العظيم على قلبه الشريف، ليُخرج به العبادَ من الظلمات إلى النور، ويجعلهم يفرِّقون به بين الحقِّ والباطل، والحسن والقبيح، والرشد من الغيِّ.

ورضي الله تبارك وتعالى عن أصحابه الكرام الذين خصَّهم ربُّنا عزَّ وجلَّ بتلقِّي القرآن من فمه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أقول مستعيناً بالله تعالى: أما بعد، فإنَّ أعظم نعمة مَنَّ الله عزَّ وجلَّ بها على البشر هي نعمة القرآن، لذلك وجب عليهم الحمد على هذه النعمة، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١].

فالقرآن العظيم كلام ربِّ العالمين، وتفسيره هو من أرفع العلوم قدراً، ومن أجلِّها خطراً، ومن أعظمها أجراً، ومن أشرفها ذكراً، لأن القرآن العظيم مصدر الهداية والنور، يهدي به جلَّ وعلا من يشاء من عباده.

ومن فضل الله عزَّ وجل علينا أن شغلنا بخدمة القرآن، وتفهُّم معانيه وتحصيل علومه؛ ولما كان تفسير القرآن العظيم للقاضي البيضاوي رحمه الله تعالى، المسمى بـ«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» من التفاسير المشهورة، حيث جمع فيه المفسِّر رحمه الله تعالى بين التفسير والتأويل على مقتضى قواعد اللغة العربية، وذلك أخذاً من تفسير الكشاف للزمخشري رحمه الله تعالى؛ وقرَّر فيه الأدلَّة على أصول أهل السنة، وذلك أخذاً من التفسير الكبير للفخر الرازي رحمه الله تعالى؛ ومن تفسير الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى ما يتعلَّق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات؛ وضمَّ لتفسيره بعضَ الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، واهتمَّ بذكر القراءات، وتعرَّض في تفسيره للنحو والصرف واللغة، كما تعرَّض لبعض المسائل الفقهية، وخاض في مباحث الكون والطبيعة، وبذلك قمَّص تفسيره باللغة والبيان والنحو والصرف والبلاغة والإعراب والقراءات.

لذلك عمدنا إلى تفسيره رحمه الله تعالى، واختصرناه تيسيراً على الأمة، فطرحنا هذه الأمور كلَّها، وأبقينا على معاني القرآن العظيم المجرَّدة من هذه الأمور، حرصاً منَّا على قارئ القرآن أن يقرأه بتدبُّرٍ وإمعان وتفكُّر، حتى لا تغيب معاني القرآن، فأبعدنا في هذا المختصر ما أثبته البيضاوي رحمه الله تعالى من المسائل اللغوية من نحو وصرف وما شابه ذلك، وأبعدنا القراءات التي كثيراً ما يذكرها رحمه الله تعالى، كما أبعدنا المسائل الاعتزاليَّة، والقضايا الفقهيَّة، إلا ما كان ضروريّاً من المسائل الفقهيَّة، وهو رحمه الله تعالى كان معتمَداً في التفسير والشريعة والاعتقاد؛ ومن أراد الرجوع للُّغة والنحو والصرف والبلاغة والإعراب وعلوم اللغة العربية فليرجع إلى مصادرها، كالمتون التالية وشروحها: ألفية ابن مالك، وكتاب قطر الندى، وكتاب شرح المغني للشيخ محمد العمري الميلاني، وكتاب الآجرومية، وكتاب حلِّ معاقد القواعد للإمام التفتازاني، وكتاب عقود الجمان للسيوطي، وغيرها من المتون والشروح.

وإذا لم يذكر المفسِّر رحمه الله تعالى تفسير بعض الآيات بسبب استغراقه في اللغة والقراءات، قمنا بإثبات تفسيرها من كتب التفاسير الأخرى، وعزونا كلَّ كلام لمصدره؛ كما بيَّنَّا معاني الكلمات المغلقة بالرجوع إلى الحواشي ومعاجم اللغة إيضاحاً للمعنى.

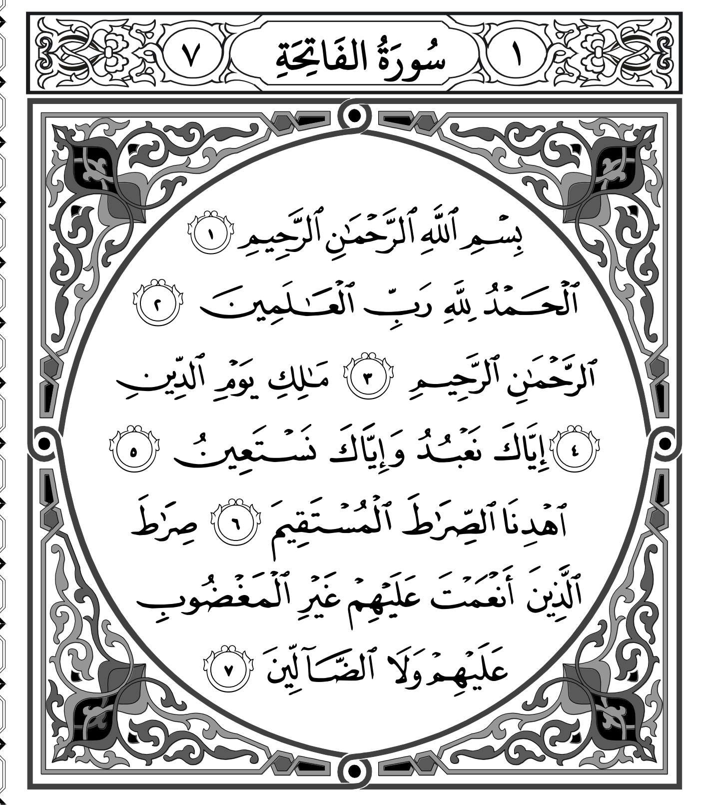
وإذا أردنا بيان أمر من الأمور التي تتعلَّق بالعقيدة أو العبادة أو الأخلاق أو نصيحة للمؤمنين من خلال بعض الآيات الكريمة، صدَّرنا لذلك بـ(أقول).

ولا ننسى دعاءنا ودعاء المسلمين لمن أعاننا على القراءة والترتيب من إخواننا جزاهم الله خيراً. اكتفينا بعدم ذكر أسمائهم بـ«إخواننا» جزاهم الله خيراً، وخصوصاً السيد الشريف خالد الأزهري.

نسأل الله عزَّ وجلَّ أن ينوِّر بصائرنا بكتابه العظيم، وأن يجعله قائداً لنا إلى جنات النعيم، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين آمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

خادم الطريقة الشاذلية القادرية

أحمد فتح الله جامي



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفاتحة

مكيَّة، وآيُها سبع آيات

(١) ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ من الفاتحة، ومن كل سورة، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك والشافعي رحمهم الله تعالى. وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها ومالك والأوزاعي رحمهم الله تعالى، ولم ينصَّ أبو حنيفة رحمه الله تعالى فيه بشيء، فظُنَّ أنها ليست من السورة عنده. وسئل محمد بن الحسن عنها فقال: ما بين الدفتين كلام الله تعالى. وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «فاتحة الكتاب سبع آيات، أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم» [رواه الإمام الدارقطني رحمه الله تعالى]. والإجماع على أن ما بين الدفَّتين كلام الله سبحانه وتعالى. والاسم إن أريد به اللفظ فغير المسمى، وإن أريد به ذات الشيء فهو المسمى (أقول: وفي الحقيقة ثبت عندي أن الاسم عين المسمى [أحمد فتح الله جامي]، إن شئت ارجع إلى المقصد الأسنى لشرح أسماء الله الحسنى للإمام الغزالي رحمه الله تعالى) ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان بُنيا للمبالغة من رَحِمَ، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أبلغ من ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، لأن زيادة البناء تدلُّ على زيادة المعنى.

(٢) ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ (الحمد: هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها) ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ الربُّ في الأصل: مصدر بمعنى التربية؛ وهي: تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً. والعالَم: اسم لما يعلم به، غلب فيما يُعلَم به الصانع تعالى، وهو كلُّ ما سواه من الجواهر والأعراض (أقول: وكلُّ شيء يدلُّ على الخالق سبحانه وتعالى على الإطلاق)، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدل على وجوده وهو الله جل وعلا، وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلَّب العقلاءَ منهم فجمعه بالياء والنون كسائر أوصافهم.

(٣) ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ كرره للتعليل (أقول: الرحمن عام يشمل المؤمنين وغير المؤمنين، والرحيم خاصٌ بالمؤمنين).

(٤) ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ المالك: هو المتصرِّف في الأعيان المملوكة كيف يشاء. والمَلِك: هو المتصرِّف بالأمر والنهي في المأمورين. ويوم الدين يوم الجزاء. وقيل: الدِّينُ الشريعة. وقيل: الطاعة، والمعنى: يوم جزاء الدين.

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميَّز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين، خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصُّك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدلَّ على الاختصاص، وللترقي من البرهان (أي: الدلائل) إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود،

فكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً؛ بنى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه جل وعلا، والنظر في آلائه، والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفَّى (أي: أتبع) بما هو منتهى أمره، وهو أن يخوض لجة الوصول، ويصير من أهل المشاهدة فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً (أقول: لا تتفكَّروا بذاته جلَّ وعلا، وتعلَّقوا بصفاته، وتفكَّروا بمصنوعاته، الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]) اللهم اجعلنا من الواصلين للعين دون السامعين للأثر (أقول: الواصلين إلى العين لا يدل على أن يصل لعين الخالق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وكلُّ ما خطر على البال فالله تعالى بخلافه). والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، والاستعانة طلب المعونة. وقدَّم المفعول للتعظيمِ، والاهتمامِ به، والدلالةِ على الحصر، ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه نعبدك ولا نعبد غيرك، وتقديمِ ما هو مقدَّم في الوجود، والتنبيهِ على أنَّ العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولًا وبالذات، ومنه إلى العبادة، لا من حيث أنها عبادة صدرت عنه، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ووصلة بينه وبين الحق (أقول: وألا يغترَّ بعبادته)، فإن العارف إنما يحقُّ وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس وغاب عما عداه، حتى أنه لا يلاحظ نفسه ولا حالًا من أحوالها إلا من حيث أنها ملاحظة له ومنتسبة إليه (أقول: على المؤمن أن لا ينظر إلى عبادته، بل ينظر إلى خالقه جلَّ وعلا، وأنه تعالى ناظر إليه، لا يتعلق بالذكر بل يتعلق بالمذكور، يعني التعلق بالمعبود قبل العبادة، هذا مهم، أكثر الناس تعلَّقوا بالعبادة لا بالمعبود، هذا لا يحصل إلا بكثرة الدوام على ذكر الله تعالى، فيصل بالكثرة إلى المعبود، ولذا قيَّد الله تعالى الذكر في القرآن الكريم بالكثرة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، حتى يصلوا إلى الحقيقة، حينذاك ينسى عبادته ويتعلق بمعبوده، أي: بخالقه، ولذا قال: يناجيه شفاهاً).

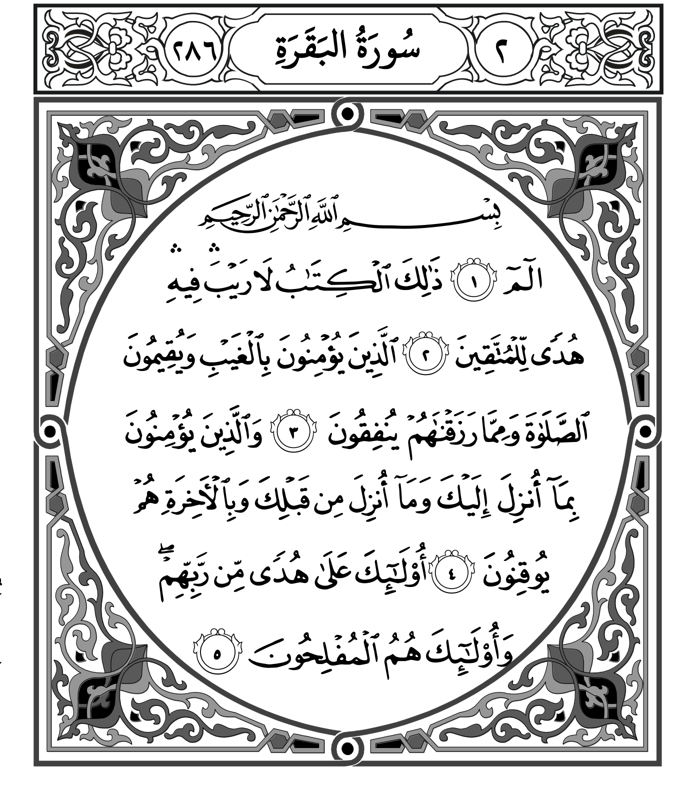
(٦) ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ بيان للمعونة المطلوبة فكأنه قال: كيف أعينكم؟ فقالوا: ﴿ٱهْدِنَا﴾. أو إفراد لما هو المقصود الأعظم. والهداية دلالة بلطف، ولذلك تستعمل في الخير، وقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وارد على التهكُّم. وهداية الله تعالى تتنوَّع أنواعاً لا يحصيها عدٌّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] ولكنها تنحصر في أجناس مترتبة: **الأول**: إفاضة القوى التي بها يتمكَّن المرء من الاهتداء إلى مصالحه، كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة. **الثاني**: نصب الدلائل الفارقة بين الحقِّ والباطل والصلاح والفساد (أقول: وهي الشريعة والسنة النبوية، ثم ينتقل هذا إلى القلب، فلا بدَّ للمؤمن أن يستعمل قلبه بمقتضى رضا الله جل وعلا)، وإليه أشار حيث قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] (أقول: الحمد لله على دين الإسلام، وعلى هداية الله تعالى لنا لهذا الدين القويم). **الثالث**: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عَنَى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. **الرابع**: أن يكشف على قلوبهم السرائر (أقول: القلوب المنغمسة مغلقة، أيُّ شي متعلق بها يكون مانعاً لنزول الأسرار الإلهية، وآكدها حبُّ الدنيا وحبُّ المنصب؛ حبُّ المنصب كحبِّ الدنيا بل أشدُّ،

قال عليه الصلاة والسلام: «إنا والله لا نولِّي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]، وهو طبيب القلوب عليه الصلاة والسلام لا يعطي لمن يريد، وهو أشفق على العبد من والديه، لئلا يخسر في دينه) ويريهم الأشياء كما هي بالوحي أو الإلهام والمنامات الصادقة، (أقول: ولذا بالجلوس مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستفاد من الوحي، وهو للأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وبالجلوس مع الأولياء يستفاد من الإلهامات، وهذا لعامة المؤمنين الصادقين الذين غسلوا قلوبهم من حبِّ الدنيا) وهذا قسم يختصُّ بنيله الأنبياء والأولياء، وإياه عنى بقوله تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. فالمطلوب إما زيادة ما منحوه من الهدى، أو الثبات عليه، أو حصول المراتب المرتبة عليه. فإذا قاله العارف بالله الواصل عنى به: أرشدنا طريق السير فيك لتمحو عنا ظلمات أحوالنا (البشرية)، وتميط (أي: تزيل) غواشي أبداننا، لنستضيء بنور قدسك فنراك بنورك (لا بعيوننا) (أقول: من هو العارف بالله تعالى؟ هو الذي آمن بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وتمسَّك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، هذا هو العارف المؤمن، والدرجات عند الله تعالى لا تُحصى). والصراط المستقيم: المستوي، والمراد به طريق الحق، وهو ملَّة الإسلام.

(٧) ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ توكيد وتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكد وجه وأبلغه؛ لأنه جعل كالتفسير والبيان له (يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]). والإنعام: إيصال النعمة، وهي الحالة التي يستلذها الإنسان. ونعم الله تعالى وإن كانت لا تُحصى فإنها تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي. والأول (أي: الدنيوي) قسمان: موهبي وكسبي، والموهبي قسمان: روحاني: كنفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى كالفهم والفكر والنطق. وجسماني: كتخليق البدن والقوى الحالَّة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء. والكسبي: تزكية النفس عن الرذائل، وتحليتها بالأخلاق السنيَّة والملكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة وحصول الجاه والمال. والثاني (وهو الأخروي): أن يغفر له ما فرط منه ويرضى عنه، ويبوِّئه في أعلى عليين مع الملائكة المقربين أبد الآبدين. والمراد هو القسم الأخير، وما يكون وصلة إلى نيله من القسم الآخر، فإن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ والمعنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال. والغضب: ثوران النفس وإرادة الانتقام، فإذا أسند إلى الله تعالى أريد به المنتهى والغاية، والضلال: العدول عن الطريق السوي عمداً أو خطأً.

قيل: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ اليهود، لقوله تعالى فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]. و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ النصارى، لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً﴾ [المائدة: ٧٧]. وقد روي مرفوعاً. ويتجه أن يقال: ﴿المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ العصاة، و﴿الضَّالِّينَ﴾ الجاهلون بالله، لأن المنعَم عليه من وفِّق للجمع بين معرفة الحقِّ لذاته والخير للعمل به، والمخلُّ بالعمل فاسق مغضوب عليه، لقوله تعالى في القاتل عمداً: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ٩٣]. والمخلُّ بالعلم جاهل ضالٌّ، لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

«آمين» اسم للفعل الذي هو استجبْ.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة البقرة

مدنيَّة وآيها مئتان وست وثمانون آية

(١) ﴿الٓمٓ ١﴾ (وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وهي سرُّ القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها، ونَكِلُ العلم فيها إلى الله سبحانه وتعالى [السراج المنير للخطيب الشربيني رحمه الله تعالى]).

(٢) ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ذلك إشارة إلى ﴿الٓمٓ﴾ إنْ أُوِّل بالمؤلَّف من هذه الحروف أو فُسِّر بالسورة أو القرآن. والمراد بالكتابِ الكتابُ الموعود إنزاله بنحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ معناه أنه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر الصحيح في كونه وحياً بالغاً حد الإعجاز. والريبة هي قلق النفس واضطرابها، سمي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة. وفي الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] فإن الشك ريبة والصدق طمأنينة.

﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ يهديهم إلى الحق. واختصاصه بالمتقين لأنهم المهتدون به والمنتفعون بنصه، وإن كانت دلالته عامة لكل ناظر من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار قال تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. أو لأنه لا ينتفع بالتأمل فيه إلا من صقل العقل واستعمله في تدبر الآيات والدلائل والنظر في المعجزات، وتعرف النبوات، لأنه كالغذاء الصالح لحفظ الصحة فإنه لا يجلب نفعاً ما لم تكن الصحة حاصلة، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ [الإسراء: ٨٢].

والمتقي في عرف الشرع اسم لمن يقي نفسه مما يضرُّه في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦].

الثانية: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦].

الثالثة: أن يتنزَّه عما يشغل سرَّه عن الحقِّ ويتبتل إليه بشراشره (أي: بكليَّته) وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إما موصول بالمتقين إن فسر التقوى بترك ما لا ينبغي مترتبة عليه ترتيب التحلية على التخلية. أو موضحة إن فسر بما يعمُّ فعل الحسنات وترك السيئات لاشتماله على ما هو أصل

الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر الطاعات والتجنب عن المعاصي غالباً (أقول: وإن لم تدخل في مفهوم الإيمان)، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين، والزكاة قنطرة الإسلام» [رواه البيهقي رحمه الله تعالى في شعب الإيمان] (أقول: الحديث في فضائل الأعمال ولو كان ضعيفاً يجوز الأخذ به، بل مستحبٌّ كما قال الإمام النووي رحمه الله تعالى).

والإيمان في اللغة: عبارة عن التصديق؛ وأما في الشرع: فالتصديق بما علم بالضرورة أنه من دين سيدنا محمد ﷺ كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء.

أو مجموع ثلاثة أمور: اعتقاد الحق، والإقرار به، والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين.

فمن أخلَّ بالاعتقاد وحده فهو منافق، ومن أخلَّ بالإقرار فكافر، ومن أخلَّ بالعمل ففاسق وفاقاً.

والذي يدلُّ على أنه التصديق وحده أنه سبحانه وتعالى أضاف الإيمان إلى القلب، فقال جل وعلا: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وعطف عليه العمل الصالح في مواضع لا تحصى وقرنه بالمعاصي فقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضلَ من إيمانٍ بغيبٍ، ثم قرأ هذه الآية.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يعدِّلون أركانها ويحفظونها من أن يقع زيغ في أفعالها (أقول: هذا صعب حتى على المتقين؛ لأنهم يدخلون الصلاة ولم يتعلَّقوا بالمعبود، وإذا لم يتفكروا في المعبود يشرد القلب، أما من تعلق بالمعبود فإن المعبود يمنعه عن الوساوس والخطرات، بشرط أن يدوم بقلبه على الحضور مع المعبود، أكثر المؤمنين مع وجود إيمانهم يدخلون في العبادة بدون تعلُّق بالمعبود، حينذاك يفتح باب الوساوس والخطرات للشيطان).

فإنه إذا حوفظ عليها كانت كالنافق (أي: الرائج) الذي يُرغَب فيه، وإذا ضيعت كانت كالكاسد المرغوب عنه؛ أو يتشمَّرون لأدائها من غير فتور ولا توان. والحقيق بالمدح من راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ الظاهر من هذا الإنفاق صرف المال في سبيل الخير فرضاً كان أو نفلاً.

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأضرابه، معطوفون على ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، داخلون معهم في جملة المتقين دخول أخصين تحت أعم، إذ المراد بأولئك الذين آمنوا عن شرك وإنكار، وبهؤلاء مقابلوهم، فكانت الآيتان تفصيلاً للمتَّقين، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. أو معطوفون على المتقين وكأنه قال: هدًى للمتقين عن الشرك والذين آمنوا من أهل الكتاب.

والإنزال نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل، ولعل نزول الكتب الإلهية على الرسل بأن يتلقفه الملك من الله تعالى تلقفاً روحانياً (أقول: الملائكة ليسوا عند ربهم جل وعلا وإنما يلهمهم إلهاماً يتلقفونه من الله جل وعلا)، أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به فيبلغه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. والمراد بما أُنزل إليك القرآن بأسره والشريعة عن آخرها (أقول: والشريعة مقيدة بنزول القرآن لأن أصحاب المذاهب الأربعة اجتهدوا واستنبطوا الأحكام من القرآن)، وبما أُنزل من قبلك التوراة والإنجيل وسائر الكتب السابقة، والإيمان بها جملةً فرض عين (عند أهل السنة والجماعة)، وبالأول دون الثاني تفصيلاً من حيث إنا متعبدون بتفاصيله فرض ولكن على الكفاية، لأن وجوبه على كل أحد يوجب الحرج وفساد المعاش.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ أي: يوقنون إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى. واليقين: إتقان العلم بنفي الشك والشبهة عنه نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يوصف به علم البارئ تعالى.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ كأنه لما قيل: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ قيل: ما بالهم خُصُّوا بذلك؟ فأجيب بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى آخر الآيات.

تنبيه: تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله كل أحد، وذلك لإظهار قدرهم والترغيب في اقتفاء أثرهم.

وقد تشبَّث به الوعيديَّة (وهم فرقة من الخوارج) في خلود الفساق من أهل القبلة في العذاب (أقول: وهذا يدلُّ على فساد اعتقادهم كالمعتزلة)، وردَّ بأن المراد بالمفلحين الكاملون في الفلاح، ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم، لا عدم الفلاح له رأساً (قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: إن الله تعالى المتعزِّز برداء العظمة والكبرياء، المتفرِّد بالمجد والبهاء، لا يغفر أن يشرك به، أي: لا يستر ولا يعفو عن انتقام الشرك به بإثبات الوجود لغيره، ويغفر مادون ذلك من الكبائر والصغائر لمن يشاء من التائبين وغيرهم).

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾

(٦) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾**﴾ لما ذكر خاصة عباده وخلاصة أوليائه بصفاتهم التي أهَّلتهم للهدى والفلاح عقَّبهم بأضدادهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغني عنهم الآيات والنذر.

(٧) ﴿**خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ**﴾ تعليل للحكمِ السابق وبيان لما يقتضيه. ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة، وإنما المراد بها أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم، وانهماكهم في التقليد، وإعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق، وأسماعهم تَعافُ استماعه، فتصير كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لا تجتلي الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصير كأنها غُطي عليها وحيل بينها وبين الإبصار.

﴿**وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾**﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه.

(٨) ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ**﴾ لما افتتح سبحانه وتعالى بشرح حال الكتاب وساق لبيانه ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله تعالى وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، وثنَّى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً ولم يلتفتوا لفتة رأساً، ثلَّث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للتقسيم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله تعالى، لأنهم موَّهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاءً، ولذلك طوَّل في بيان خبثهم وجهلهم واستهزأ بهم وتهكم بأفعالهم وسجل على عمههم (أي: ضلالهم) وطغيانهم، وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ﴿**وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾**﴾ إنكار ما ادَّعوه ونفي ما انتحلوا (أي: ادَّعوا) إثباته. والآية تدلُّ على أنَّ من ادَّعى الإيمان وخالف قلبُه لسانَه بالاعتقاد لم يكن مؤمناً.

(٩) ﴿**يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ وخداعهم مع الله سبحانه ليس على ظاهره لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية، ولأنهم لم يقصدوا خديعته، بل المراد إما مخادعة رسوله ﷺ، أو على أن معاملة الرسول عليه الصلاة

والسلام معاملة الله سبحانه وتعالى من حيث إنه خليفته، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وإما أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصنع الله تعالى معهم بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده جل وعلا أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار، استدراجاً لهم، وامتثال الرسول ﷺ والمؤمنين أمرَ الله تعالى في إخفاء حالهم، وإجراء حكم الإسلام عليهم، مجاراةً لهم بمثل صنيعهم، صورةُ صنيع المتخادعين.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ المعنى: أن دائرة الخداع راجعةٌ إليهم وضررها يحيق بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ لا يحسون بذلك لتمادي غفلتهم.

(١٠) ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (فائدة: وحيث أطلق القلب في لسان الشرع فليس المراد به الجسم الصنوبري الشكل، فإنه للبهائم والأموات، بل المراد به معنى آخر يسمى بالقلب أيضاً، وهو جسم لطيف قائم بالقلب اللحماني قيام العرض بمحلِّه، أو قيام الحرارة بالفحم، وهذا القلب الذي يحصل منه الإدراك وترتسم فيه العلوم والمعارف [حاشية الجمل على الجلالين]).

والمرض حقيقةٌ فيما يعرض للبدن فيخرجه عن حدِّ الاعتدال الخاص به، ويوجب الخلل في أفعاله؛ ومجازٌ في الأعراض النفسانية التي تخلُّ بكمالها، كالجهل وسوء العقيدة والحسد والضغينة وحبِّ المعاصي، لأنها مانعة من نيل الفضائل، أو مؤدية إلى زوال الحقيقية الأبدية؛ والآية الكريمة تحتملهما، فإن قلوبهم كانت متألمة تحرُّقاً على ما فات عنهم من الرياسة، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، وزاد الله سبحانه وتعالى غمَّهم بما زاد في إعلاء أمره وإشادة ذكره عليه الصلاة والسلام؛ ونفوسهم كانت موصوفة بالكفر وسوء الاعتقاد ومعاداة النبي ﷺ ونحوها، فزاد الله سبحانه وتعالى ذلك بالطبع، أو بازدياد التكاليف وتكرير الوحي وتضاعف النصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ أي: بسبب كذبهم. والكذب: هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به؛ وهو حرام كله لأنه عُلل به استحقاق العذاب حيث رُتب عليه.

(١١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فإن الإخلال بالشرائع والإعراض عنها مما يوجب الهرج والمرج ويخلُّ بنظام العالم؛ والقائل هو الله تعالى، أو الرسول ﷺ، أو بعض المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ وإنما قالوا ذلك: لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ [فاطر: ٨].

(١٢) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ ردٌّ لِما ادَّعوه أبلغَ ردٍّ.

(١٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ من تمام النصح والإرشاد فإن كمال الإيمان بمجموع الأمرين: الإعراض عما لا ينبغي، وهو المقصود بقوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾، والإتيان بما ينبغي، وهو المطلوب بقوله: ﴿آمِنُوا﴾ ﴿كَمَآ

﴿ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ والمراد به الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العقل. والمعنى: آمِنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص، متمحِّضاً عن شوائب النفاق، مماثلًا لإيمانهم. واستُدل به على قبول توبة الزنديق، وأن الإقرار باللسان إيمان (أقول: بشرط أن يوافق القلب) ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ وإنما سَفَّهُوهُم لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي: كصهيب وبلال؛ أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم إن فسر الناس بعبد الله بن سلام وأشياعه. والسفه: خفة وسخافة رأي يقتضيهما نقصان العقل، والحلم يقابله ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ رَدٌّ ومبالغة في تجهيلهم.

(١٤) ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بيان لمعاملتهم مع المؤمنين والكفار ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ المراد بشياطينهم الذين ماثلوا الشيطان في تمردهم، وهم المظهرون كفرهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ أي: في الدين والاعتقاد ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ لأن المستهزئ بالشيء المستخف به مُصِرٌّ على خلافه.

(١٥) ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ يجازيهم على استهزائهم؛ سُمِّي جزاء الاستهزاء باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئةً، إما لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القدر؛ أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ بهم، أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ الطغيان تجاوز الحدِّ في الكفر ﴿يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ يتردَّدون تحيُّراً.

(أقول: الله سبحانه وتعالى يجازيهم على استهزائهم بالمؤمنين ويمدهم بالقوى والطاقات ضمن سننه الثابتة لاستكمال ابتلائهم في الحياة الدنيا).

(١٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ المعنى أنهم أخلُّوا بالهدى الذي جعله الله تعالى لهم بالفطرة التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا محصلين الضلالة التي ذهبوا إليها، أو اختاروا الضلالة واستحبُّوها على الهدى.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

(١٧) ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾**﴾ وظلماتهم: ظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]. أو ظلمة الضلال، وظلمة سخط الله تعالى، وظلمة العقاب السرمدي، أو ظلمة شديدة كأنها ظلمات متراكمة.

(١٨) ﴿**صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ**﴾ لمَّا سدُّوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحقِّ، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ويتبصَّروا الآيات بأبصارهم، جُعِلُوا كأنما أُيفت مشاعرهم (أي: أصابتها آفة) وانتفت قواهم ﴿**فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾**﴾ لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه، أو عن الضلالة التي اشتروها.

(١٩ـ٢٠) ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾**﴾ شبه في الأول ذوات المنافقين بالمستوقدين، وإظهارهم الإيمان باستيقاد النار وما انتفعوا به من حقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد وغير ذلك بإضاءة النار ما حول المستوقدين، وزوال ذلك عنهم على القرب بإهلاكهم وبإفشاء حالهم وإبقائهم في الخسار الدائم والعذاب السرمد بإطفاء نارهم والذهاب بنورهم. وفي الثاني أنفسهم بأصحاب الصيب، وإيمانهم المخالط بالكفر والخداع بصيِّب (أي: سحاب كثيف) فيه ظلمات ورعد وبرق، من حيث إنه وإن كان نافعاً في نفسه لكنه لما وجد في هذه الصورة عاد نفعه ضراً، ونفاقهم حذراً عن نكايات المؤمنين وما يطرقون به من سواهم من الكفرة بجعل الأصابع في الآذان من الصواعق حذر الموت، من حيث إنه لا يرد من قدر الله تعالى شيئاً، ولا يخلص مما يريد بهم من المضارِّ، وتحيُّرهم لشدة الأمر وجهلهم بما يأتون ويذرون بأنهم كلما صادفوا من البرق خفقة (أي: لمعة) انتهزوها فرصة مع خوف أن تخطف أبصارهم، فخطوا خطًى يسيرة، ثم إذا خفي وفتر لَمَعانُهُ بقوا متقيدين لا حراك بهم.

وقيل: شبه الإيمان والقرآن وسائر ما أوتي الإنسان من المعارف التي هي سبب الحياة الأبدية بالصَيِّب الذي به حياة الأرض. وما ارتكبت بها من الشبه المبطلة واعترضت دونها من الاعتراضات المشككة

بالظلمات. وشبه ما فيها من الوعد والوعيد بالرعد، وما فيها من الآيات الباهرة بالبرق، وتصامِّهم عما يسمعون من الوعيد بحال من يهوله الرعد فيخاف صواعقه فيسد أذنيه عنها، مع أنه لا خلاص لهم منها وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. واهتزازَهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه أو رفد (أي: نصيب) تطمح إليه أبصارهم، بمشيهم في مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم، وتحيرهم وتوقفهم في الأمر حين تعرض لهم شبهة أو تعِنُّ (أي: تعرض) لهم مصيبة، بتوقُّفهم إذا أظلم عليهم.

ونبَّه سبحانه بقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ على أنه تعالى جعل لهم السمع والأبصار ليتوصلوا بها إلى الهدى والفلاح، ثم إنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة، وسدُّوها عن الفوائد الآجلة، ولو شاء الله تعالى لجعلهم بالحالة التي يجعلونها لأنفسهم، فإنه على ما يشاء قدير.

(٢١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ لما عدَّد فِرَق المكلَّفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هَزّاً للسامع وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها، وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة. و«يا» حرف وضع لنداء البعيد، وقد ينادَى به القريب تنزيلاً له منزلة البعيد. إما لعظمته كقول الداعي: يا رب، ويا الله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، أو للاعتناء بالموعود له وزيادة الحثِّ عليه. وكلُّ ما نادى الله تعالى له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا إليها ويقبلوا بقلوبهم عليها، وأكثرهم عنها غافلون (أقول: بلاؤنا مصيبتنا الغفلة عن ربِّنا جل وعلا، وهو معنا بعلمه سبحانه وتعالى) ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المستوجبين جوار الله سبحانه وتعالى. نبَّه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين، وهو التبري من كلِّ شيء سوى الله تعالى، إلى الله تعالى، وأن العابد ينبغي أن لا يغترَّ بعبادته، ويكون ذا خوف ورجاء، قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] (أقول: وهذا يحصل بطريق الطريق، وصحبةِ أهل الحق، اللهم ارزقنا اتِّباع نبيِّك وسننه عليه أفضل الصلاة والسلام). والآية تدلُّ على أن الطريق إلى معرفة الله تعالى والعلم بوحدانيته واستحقاقه للعبادة، النظر في صنعه والاستدلال بأفعاله، وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه ثواباً، فإنها لما وجبت عليه شكراً لما عدده عليه من النعم السابقة فهو كأجير أخذ الأجر قبل العمل.

(٢٢) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ المعنى: إن تتقوا لا تجعلوا لله تعالى أنداداً. واعلم أنَّ مضمون الآيتين هو الأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى، والنهي عن الإشراك به تعالى، والإشارة إلى ما هو العلة والمقتضى. وبيانه أنه رتب الأمر بالعبادة على صفة الربوبية إشعاراً بأنها العلة لوجوبها، ثم بين ربوبيته بأنه سبحانه وتعالى خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون إليه في معاشهم من المُقِلَّة (أي: الأرض، لأنها تُقِلُّ ما عليها أي: ترفعه وتحمله) والمُظِلَّة (أي: السماء، لأنها تُلقي ظِلَّها على ما تحتها) والمطاعم والملابس، فإن الثمرة أعمُّ من المطعوم، والرزق

أعم من المأكول والمشروب. ثم لما كانت هذه الأمور التي لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته سبحانه وتعالى، رتب تعالى عليها النهي عن الإشراك به؛ ولعله سبحانه أراد من الآية الأخيرة ـ مع ما دل عليه الظاهر وسيق فيه الكلام ـ الإشارةَ إلى تفصيل خلق الإنسان وما أفاض عليه من المعاني والصفات على طريقة التمثيل، فمثَّل البدن بالأرض، والنفس بالسماء، والعقل بالماء، وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصَّلة بواسطة استعمال العقل للحواس وازدواج القوى النفسانية والبدنية بالثمرات المتولِّدة من ازدواج القوى السماوية الفاعلة والأرضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار، فإن لكلِّ آية ظهراً وبطناً، ولكل حدٍّ مطلعاً.

(٢٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ لما قرَّر وحدانيته تعالى، وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم بها، ذكر عقيبه ما هو الحجة على نبوَّة محمد ﷺ، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي غلبت فصاحة كلِّ بليغ، مع كثرتهم وإفراطهم في المضادَّة وتهالكهم في المغالبة. والحكمة في تقطيع القرآن سوراً: تنشيط القارئ، وتسهيل الحفظ، والترغيب فيه ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: بسورة كائنة من مثله (أي: مثل سور القرآن الكريم) ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ المعنى: وَادْعُوا للمعارضة من حضركم، أو رجوتم معونته من إنسكم وجنِّكم وآلهتكم غير الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر على أن يأتي بمثله إلا الله سبحانه. فائدة: إذا تجاوزت وقاية الله تعالى فلا يقيك غيرُه (آمنت بالله تعالى).

(٢٤) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الحجارة: وهي جمع حجر، والمراد بها الأصنام التي نحتوها وقرنوا بها أنفسهم وعبدوها طمعاً في شفاعتها والانتفاع بها واستدفاع المضار لمكانتهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. عذبوا بما هو منشأ جرمهم كما عذب الكانزون بما كنزوه. أو بنقيض ما كانوا يتوقعون زيادة في تحسرهم. وقيل: الذهب والفضة التي كانوا يكنزونها ويغترون بها.

وفي الآيتين ما يدلُّ على النبوَّة من وجوه:

الأول: ما فيهما من التحدي والتحريض على الجد وبذل الوسع في المعارضة بالتقريع والتهديد، وتعليق الوعيد على عدم الإتيان بما يعارض أقصر سورة من سور القرآن، ثم إنهم مع كثرتهم واشتهارهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوا لمعارضته، والتجؤوا إلى جلاء الوطن وبذل المهج.

الثاني: أنهما يتضمنان الإخبار عن الغيب على ما هو به، فإنهم لو عارضوه بشيء لامتنع خفاؤه عادة، سيما والطاعنون فيه أكثر من الذابِّين عنه في كلِّ عصر.

الثالث: أنه ﷺ لو شك في أمره لما دعاهم إلى المعارضة بهذه المبالغة، مخافة أن يعارض فتدحض حجته. وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ دلَّ على أنَّ النار مخلوقة معدَّة الآن لهم (لمن مات على الكفر).

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

(٢٥) ﴿**وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ**﴾ عطف على الجملة السابقة، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه، على حال من كفر به وكيفية عقابه، على ما جرت به العادة الإلهية من أن يشفع الترغيب بالترهيب، تنشيطاً لاكتساب ما ينجي، وتثبيطاً عن اقتراف ما يردي. وإذا ظهر ذلك فمن كفر به استوجب العقاب، ومن آمن به استحق الثواب، وذلك يستدعي أن يخوف هؤلاء ويبشر هؤلاء. وإنما أمرَ الرسولَ ﷺ، أو عالم كل عصر، أو كل أحد يقدر على البشارة بأن يبشرهم؛ ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة تفخيماً لشأنهم وإيذاناً بأنهم أحقاء بأن يبشَّروا ويهنَّؤوا بما أعد لهم.

وعطف العمل على الإيمان مرتباً للحكم عليهما إشعاراً بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين والجمع بين الوصفين، فإن الإيمان الذي هو عبارة عن التحقيق والتصديق أُسٌّ (أي: أساس)، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناءَ بأُسٍّ لا بناء عليه، ولذلك قلما ذكرا منفردين. وفيه دليل على أنها خارجة عن مسمى الإيمان، إذ الأصل أن الشيء لا يعطفُ على نفسه ولا على ما هو داخل فيه.

ومقتضى وعده تعالى لا على الإطلاق، بل بشرط أن يستمر عليه حتى يموت وهو مؤمن، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿**كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا**﴾ وإن للآية الكريمة محملاً وهو أن مستلذات أهل الجنة في مقابلة ما رزقوا في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة في اللذة بحسب تفاوتها، فيحتمل أن يكون المراد من ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ أنه ثوابه، ومن تشابهها تماثلها في الشرف والمزية وعلو الطبقة. (أقول: والله تعالى إذا عفا وأدخل عبده الجنة لا يكون نعيمه جل وعلا بقدر عمل العبد في الدنيا) ﴿**وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ**﴾ مما يستقذر من النساء ويذمُّ من أحوالهنَّ، كالحيض والدرن (أي: الوسخ) ودنس الطبع وسوء الخلق، فإن التطهير يستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال ﴿**وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴿٢٥﴾﴾ دائمون.

واعلم أنه لما كان معظم اللذات الحسية مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكح، على ما دل عليه الاستقراء، كان ملاك ذلك كله الدوام والثبات، فإن كل نعمة جليلة إذا قارنها خوف الزوال كانت منغصة غير صافية من شوائب الألم؛ بَشَّرَ المؤمنين بها، ومثَّل ما أعدَّ لهم في الآخرة بأبهى ما يستلذُّ به منها، وأزال عنهم خوف الفوات بوعد الخلود، ليدلَّ على كمالهم في التنعُّم والسرور.

(٢٦) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا**﴾ أي: لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يمثل بها لحقارتها. والحياء: انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم. وإذا وصف به الباري تعالى كما في الحديث: «إن الله حييٌّ كريم، يستحيي إذا رفع العبد يديه أن يردَّهما صفراً حتى يضع فيهما خيراً» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. فالمراد به الترك اللازم للانقباض، كما أن المراد من رحمته وغضبه إصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنييهما ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ**﴾ إحمادٌ لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم، وذم بليغ للكافرين على قولهم؛ والحَقُّ الثابت الذي لا يسوغ إنكاره يعمُّ الأعيان الثابتة والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة ﴿**وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ**﴾ الإرادة: نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها عليه، وتقال للقوة التي هي مبدأ النزوع، والأول مع الفعل والثاني قبله، وكلا المعنيين غير متصور اتصاف الباري تعالى به. ﴿**يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ**﴾ جواب ماذا، أي: إضلال كثير وإهداء كثير ﴿**وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦**﴾ والفاسق في الشرع: الخارج عن أمر الله تعالى بارتكاب الكبيرة، وله درجات ثلاث:

الأولى: التغابي وهو أن يرتكبها أحياناً مستقبحاً إياها.

الثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبالٍ بها.

الثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها، فإذا شارف هذا المقام وتخطى خططه خلع ربقة الإيمان (أي: عقد الإيمان) من عنقه، ولابس الكفر (أقول: إن لم يتب؛ وإذا تاب إن شاء الله تعالى يرجع إلى الإيمان ويعفو عنه ربُّنا تبارك وتعالى بكرمه). وما دام هو في درجة التغابي أو الانهماك فلا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي هو مسمى الإيمان، ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩].

(٢٧) ﴿**ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ**﴾ صفة للفاسقين. وهذا العهد: إما العهد المأخوذ بالعقل، وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على توحيده ووجوب وجوده وصدق رسوله ﷺ، وعليه أُوِّلَ قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِم﴾ [الأعراف: ١٧٢] (أقول: أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، منهم إذا خلقوا يتذكرون هذا العهد، ومنهم ينسون هذا العهد، وإذا نسوا هذا العهد يقعون في المخالفات. كلهم كافرهم ومؤمنهم قالوا: بلى، ومنهم نسوا ذاك العهد بإرادة الله تعالى، ومنهم لم ينسوا). أو: المأخوذ بالرسل على الأمم، بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه، ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا

حكمه، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ونظائره.

وقيل: عهود الله تعالى ثلاثة: **عهد** أخذه على جميع ذرية آدم بأن يقروا بربوبيته، **وعهد** أخذه على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، **وعهد** أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه (أقول: سواء أخذوا به أو لم يأخذوا به لأنه يؤدي التبليغ، نحن أُمرنا بالتبليغ).

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يحتمل كلَّ قطيعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة (بدون عذر)، وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطي شرٍّ، فإنه يقطع الوصلة بين الله تعالى وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الذين خسروا بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية، واستبدال الإنكار والطعن في الآيات بالإيمان بها، والنظر في حقائقها والاقتباس من أنوارها، واشتراء النقض بالوفاء، والفساد بالصلاح، والعقاب بالثواب.

(٢٨) ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ والمعنى أخبروني على أي حال تكفرون ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي: أجساماً لا حياة لها، عناصر وأغذية، وأخلاطاً ونطفاً، ومضغاً مخلقة وغير مخلقة ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ بخلق الأرواح ونفخها فيكم (وكل ما فارق الجسد من نطفة أو شعر فهو موات، وقوله فأحياكم في الأرحام بأن جعل فيكم الأرواح [تفسير الوسيط للواحدي]) ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عندما تُقضى آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالنشور يوم ينفخ في الصور، أو للسؤال في القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ بعد الحشر، فيجازيكم بأعمالكم. أو تنشرون إليه من قبوركم للحساب؛ فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه! أو الخطاب مع القبيلين، فإنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد والنبوة، ووعدهم على الإيمان، وأوعدهم على الكفر، أكَّد ذلك بأن عدد عليهم النعم العامة والخاصة، واستقبح صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة، فإن عظم النعم يوجب عظم معصية المنعم. أو مع المؤمنين خاصة لتقرير المنة عليهم، وتبعيد الكفر عنهم على معنى: كيف يتصور منكم الكفر وكنتم أمواتاً جهالًا فأحياكم بما أفادكم من العلم والإيمان، ثم يميتكم الموت المعروف، ثم يحييكم الحياة الحقيقية، ثم إليه ترجعون، فيثيبكم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

والحياة حقيقة في القوة الحساسة أو ما يقتضيها، وفيما يخص الإنسان من الفضائل، كالعقل والعلم والإيمان من حيث إنها كمالها وغايتها، والموت بإزائها يقال على ما يقابلها في كل مرتبة، قال تعالى: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧]، وقال: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وإذا وُصف به الباري تعالى أريد بها صحة اتصافه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا، أو معنى قائم بذاته يقتضي ذلك على الاستعارة.

(٢٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بيان نعمة أخرى مرتبة على الأولى، فإنه خلقهم أحياء

قادرين مرة بعد أخرى، وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم ويتم به معاشهم. ومعنى ﴿لَكُم﴾ لأجلكم وانتفاعكم في دنياكم باستنفاعكم بها في مصالح أبدانكم بوسط (أي: بواسطة) أو بغير وسط، ودينكم بالاستدلال والاعتبار والتعرف لما يلائمها من لذات الآخرة وآلامها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قصد إليها بإرادته ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ فيه تعليلٌ، كأنه قال: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كلها، خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع؛ واستدلالٌ بأن من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عليماً، فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع لا يتصور إلا من عالم حكيم رحيم؛ وإزاحةٌ لما يختلج في صدورهم من أن الأبدان بعد ما تبددت وتفتتت أجزاؤها واتصلت بما يشاكلها، كيف تُجمع أجزاءُ كلِّ بدن مرة ثانية بحيث لا يشذُّ شيء منها ولا ينضمُّ إليها ما لم يكن معها فيعاد منها كما كان، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

واعلم أن صحة الحشر مبنيَّة على ثلاث مقدِّمات، وقد برهن عليها في هاتين الآيتين: أما الأولى: فهي أن موادَّ الأبدان قابلة للجمع والحياة، وأشار إلى البرهان عليها بقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، فإن تعاقب الافتراق والاجتماع والموت والحياة عليها يدل على أنها قابلة لها بذاتها، وما بالذات يأبى أن يزول ويتغير. وأما الثانية والثالثة: فإنه عز وجل عالم بها وبمواقعها، قادر على جمعها وإحيائها، وأشار إلى وجه إثباتها بأنه تعالى قادر على إبدائها وإبداء ما هو أعظم خلقاً وأعجب صنعاً، فكان أقدر على إعادتهم وإحيائهم، وأنه تعالى خلق ما خلق خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت واختلال، مراعياً فيه مصالحهم وسد حاجاتهم. وذلك دليل على تناهي علمه وكمال حكمته جلَّت قدرته ودقَّت حكمته سبحانه وتعالى.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

(٣٠) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم، فإن خلق آدم وإكرامه وتفضيله على ملائكته بأن أمرهم بالسجود له إنعام يعم ذريته. والملائكة كما وصفهم في محكم تنزيله فقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وهم العليون والملائكة المقربون. وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاء وجرى به القلم الإلهي ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون﴾ [التحريم: ٦]. والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله تعالى في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفه الله تعالى في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه، وتلقي أمره بغير وسط (أقول: أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلهم قابلية لأخذ الفيض من الله تعالى، ولذا خص الله تعالى الوحي بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أما سائر البشر فيأخذون من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم من جنسهم)، ولذلك لم يستنبئ ملكاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [الأنعام: ٩]، ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم واشتعلت قريحتهم (والقريحة: ملكة يستطيع الإنسان بها ابتداع الكلام وإبداء الرأي) بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار أرسل إليهم الملائكة، ومن كان منهم أعلى رتبة كلَّمه بلا واسطة، كما كلَّم موسى عليه السلام في الميقات، ومحمداً ﷺ ليلة المعراج. وفائدة قوله تعالى هذا للملائكة تعليم المشاورة (أقول: بهذا يعلِّمنا ربُّنا جلَّ وعلا المشاورة، ولذا قال جلَّ وعلا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩])، وتعظيم شأن المجعول، بأن بشَّر عزَّ وجل بوجوده سكان ملكوته، ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهارُ فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم وجوابه، وبيانُ أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ تعجُّبٌ من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي

بهرت تلك المفاسد وألغتها، واستخبار عما يرشدهم ويزيح شبهتهم، كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره، وليس باعتراض على الله تعالى جلت قدرته، ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُون * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧] وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو تلقٍّ من اللوح، أو استنباط عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم، أو قياس لأحد الثقلين (الإنس والجن) على الآخر ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ والمعنى: أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك! وكأنهم علموا أن المجعول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره: شهوية وغضبية تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء، وعقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة. ونظروا إليها مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه، وهو باعتبار تينك القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاده فضلًا عن استخلافه، وأما باعتبار القوة العقلية فنحن نقيم ما يتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاسد؟ وغفلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطواعة للعقل متمرِّنة على الخير، كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف، واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذي هو المقصود من الاستخلاف، وإليه أشار تعالى إجمالًا بقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ والتسبيح تبعيد الله تعالى عن السوء والنقصان، وكذلك التقديس، و﴿بِحَمۡدِكَ﴾ أي: متلبسين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتك ووفَّقتنا لتسبيحك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نطهِّر نفوسنا عن الذنوب لأجلك.

(٣١) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ إما بخلقِ علم ضروريٍّ بها فيه، أو إلقاءٍ في روعه؛ والمعنى أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة، مستعدّاً لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات، والمتخيلات والموهومات، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تبكيت (أي: توبيخ) لهم وتنبيه على عجزهم عن أمر الخلافة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة لعصمتكم.

(٣٢) ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ اعتراف بالعجز والقصور، وإشعار بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه، وإظهار لشكر نعمته بما عرفهم، ومراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه سبحانه وتعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه خافية ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ المحكم لمُبدَعاته، الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة.

(٣٣) ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ أي: أعلِمْهم ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ فإنه تعالى لما علم ما خفي عليهم من أمور السموات والأرض، وما ظهر لهم من أحوالهم الظاهرة والباطنة، علم ما لا يعلمون. وفيه تعريض بمعاتبتهم على ترك الأَولى، وهو أن يتوقَّفوا مترصِّدين لأن يبين لهم. وقيل: ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾، ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ استبطانهم أنهم أحقَّاء بالخلافة، وأنه تعالى لا يخلق خلقاً أفضل منهم. واعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة بل العمدة فيها.

(٣٤) ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ لمَّا أنبأهم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له، اعترافاً بفضله وأداء لحقِّه، واعتذاراً عما قالوا فيه. والسجود في الأصل تذلُّل مع تَطامُن (أي: انخفاض)، وفي الشرع: وضع الجبهة على قصد العبادة؛ والمأمور به إما المعنى الشرعي فالمسجود له بالحقيقة هو الله تعالى، وجُعل آدم قبلة لسجودهم تفخيماً لشأنه، وإما المعنى اللغوي وهو التواضع لادم تحيةً وتعظيماً له كسجود إخوة يوسف له ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ امتنع عما أمر به استكباراً ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ أي: في علم الله تعالى.

(أقول: وكان من الكافرين لاستكباره على الأمر الوجوبي، مع أنه في علمه تعالى كان كافراً).

(٣٥) ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ الجنة دار الثواب ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا﴾ واسعاً رافهاً ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ أيَّ مكان من الجنة شئتما ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ فينبغي أن لا يحوما حول ما حرَّم الله تعالى عليهما مخافة أن يقعا فيه، وجعله سبباً لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، أو بنقص حظهما بالإتيان بما يخلُّ بالكرامة والنعيم.

(٣٦) ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ أي: من الكرامة والنعيم ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ والمعنى: متعادين يبغي بعضكم على بعض بتضليله ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ موضع استقرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ تمتع ﴿إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ يريد به وقت الموت أو القيامة.

(٣٧) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٣]، وقيل: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة. ومعنى التوبة: هو الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجاع على عباده بالمغفرة، أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة. وأصل التوبة: الرجوع، فإذا وصف بها العبد كان رجوعا عن المعصية، وإذا وصف بها الباري تعالى أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ المبالغ في الرحمة. وفي الجمع بين الوصفين وعدٌ للتائب بالإحسان مع العفو.

قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

(٣٨) ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ أي: اهبطوا للتكليف (أقول: أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض)، فمن اهتدى الهدى نجا ومن ضلَّه هلك ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ والمعنى: إن يأتينكم مني هدى بإنزال أو إرسال فمن تبعه منكم نجا وفاز.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ كفروا بالآيات جَناناً، وكذبوا بها لساناً. والآية تقال للمصنوعات من حيث إنها تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته. والمراد ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآيات المنزلة. وفيها دلالة على أن الجنة مخلوقة وأنها في جهة عالية، وأن التوبة مقبولة، وأن متبع الهدى مأمون العاقبة، وأن عذاب النار دائم، وأن الكافر فيه مخلد، وأن غيره لا يخلد فيه بمفهوم قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، وعقبها تعداد النعم العامة تقريراً لها وتأكيداً، فإنها من حيث إنها حوادث محكمة تدلُّ على محدث حكيم له الخلق والأمر وحده لا شريك له، ومن حيث اشتمالها على خلق الإنسان وأصوله وما هو أعظم من ذلك تدل على أنه قادر على الإعادة كما كان قادراً على الإبداء، خاطب أهل العلم والكتاب منهم، وأمرهم أن يذكروا نعم الله تعالى عليهم، ويوفوا بعهده في اتباع الحق واقتفاء الحجج، ليكونوا أول من آمن بسيدنا بمحمد ﷺ وما أنزل عليه فقال:

(٤٠) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أولاد يعقوب ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالتفكر فيها والقيام بشكرها. وتقييد النعمة بهم لأن الإنسان غيور حسود بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله تعالى على غيره حمله الغيرة والحسد على الكفران والسخط، وإن نظر إلى ما أنعم الله تعالى به عليه حمله حبُّ النعمة على الرضى والشكر.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بحسن الإثابة والعهد؛ فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإنزال الكتب، ووعد لهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما عرض عريض، فأول مراتب الوفاء منَّا هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومن الله تعالى حقن الدم والمال، وآخرها منَّا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلاً عن غيره (أقول: هذا حقيقة التصوف وحقيقة المؤمن وحقيقة عباد الله المخلَصين) ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم. وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أوفوا بعهدي في

اتباع محمد ﷺ أوفِ بعهدكم في رفع الآصار والأغلال. وعن غيره: أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوفِ بالمغفرة والثواب. أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوفِ بالكرامة والنعيم المقيم (أقول: الطريق المستقيم هو طريق الشريعة والسنة النبوية). والمعنى: أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعة أوفِ بما عاهدتكم من حسن الإثابة ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ فيما تأتون وتذرون، وخصوصاً في نقض العهد. والآية متضمِّنة للوعد والوعيد، دالَّة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالى.

(٤١) ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ إفراد للإيمان بالأمر به والحث عليه لأنه المقصود والعمدة للوفاء بالعهود، وتقييد المنزل بأنه مصدق لما معهم من الكتب الإلهية من حيث إنه نازل حسبما نعت فيها، أو مطابق لها في القصص والمواعيد والدعاء إلى التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، وفيما يخالفها من جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار في المصالح من حيث إن كل واحدة منها حق بالإضافة إلى زمانها، مراعى فيها صلاح من خوطب بها، حتى لو نزل المتقدم في أيام المتأخر لنزل على وفقه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لو كان موسى حيّاً لما وسعه إلا اتِّباعي» [أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى بلفظ قريب] تنبيهٌ على أن اتباعها لا ينافي الإيمان به، بل يوجبه، ولذلك عرَّض بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ بأن الواجب أن يكونوا أول من آمن به، ولأنهم كانوا أهل النظر في معجزاته والعلم بشأنه والمستفتحين به والمبشِّرين بزمانه ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تستبدلوا بالإيمان بها والاتباع لها حظوظ الدنيا، فإنها وإن جلت قليلة مسترذلة بالإضافة إلى ما يفوت عنكم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان. قيل: كان لهم رئاسة في قومهم ورسوم وهدايا منهم، فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله ﷺ فاختاروها عليه ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن الدنيا.

(٤٢) ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ والمعنى: لا تخلطوا الحقَّ المنزل عليكم بالباطل الذي تخترعونه وتكتمونه حتى لا يميز بينهما، أو ولا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله، أو تذكرونه في تأويله ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ كأنهم أمروا بالإيمان وترك الضلال، ونهوا عن الإضلال بالتلبيس على من سمع الحق والإخفاء على من لم يسمعه، أو لا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمانه ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ عالمين بأنكم لابسون كاتمون، فإنه أقبح، إذ الجاهل قد يُعذر.

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني صلاة المسلمين وزكاتهم. وإخراج الزكاة يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم، ويطهر المال من الخبث والنفسَ من البخل ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي في جماعتهم.

(٤٤) ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ تقرير مع توبيخ وتعجيب. والبر: التوسع في الخير، ولذلك قيل: البرُّ ثلاثة: بِرٌّ في عبادة الله تعالى، وبِرٌّ في مراعاة الأقارب، وبِرٌّ في معاملة الأجانب ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: تتلون التوراة؛ وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قُبحَ صنيعكم فيصدكم عنه، أو أفلا عقل لكم يمنعكم عما تعلمون وخامة عاقبته. والآية

ناعية على من يعظ غيره ولا يتَّعظ بنفسه سوءَ صنيعه وخبثَ نفسه، وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الخالي عن العقل، فإن الجامع بينهما تأبى عنه شكيمته (أي: عزته)، والمراد بها حثُّ الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوَّم فيقيِّم غيره، لا منع الفاسق عن الوعظ (أقول: لأن منعه مخالف للاستفادة).

(٤٥) ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ والمعنى: استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكُّلاً على الله تعالى، أو بالصوم الذي هو صبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس، والتوسُّل بالصلاة والالتجاء إليها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية، من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما، والتوجه إلى الكعبة والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الحق، وقراءة القرآن، والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطيبين، حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب (أقول: لا بد للعبد قبل أن يتلبس بالعبادة أن يتفكر في قرب علم الله تعالى إياه ونظر الله جل وعلا له) روي أنه عليه الصلاة والسلام «كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» [الحديث رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى].

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: وإن الاستعانة بهما، أو الصلاة؛ وتخصيصها بردِّ الضمير إليها لعظم شأنها واستجماعها ضروبا من الصبر، أو جملة ما أمروا به ونهوا عنه ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لثقيلة شاقة، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٢] ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ المخبتين (أي: المتواضعين).

(٤٦) ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ (أقول: كلُّ ظنٍّ يأتي في القرآن من المؤمنين بمعنى اليقين، ومن الكافرين بمعنى الشك) أي: يتوقَّعون لقاء الله تعالى ونيل ما عنده، أو يتيقنون أنهم يحشرون إلى الله تعالى فيجازيهم. وإنما لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم فإن نفوسهم مرتاضة بأمثالها، متوقعة في مقابلتها ما يستحقر لأجله مشاقُّها ويستلذُّ بسببه متاعبُها، ومن ثمة قال عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» [الحديث رواه الإمام النسائي رحمه الله تعالى].

(٤٧) ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كرَّره للتأكيد وتذكير التفضيل الذي هو أجل النعم خصوصاً، وربطه بالوعيد الشديد تخويفاً لمن غفل عنها وأخلَّ بحقوقها ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾ أي: عالمي زمانهم، يريد به تفضيل آبائهم الذين كانوا في عصر موسى عليه الصلاة والسلام وبعده، قبل أن يغيروا بما منحهم الله تعالى من العلم والإيمان والعمل الصالح، وجعلهم أنبياء وملوكاً مقسطين. واستدل به على تفضيل البشر على الملك.

(٤٨) ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ أي: اتقوا ما فيه من الحساب والعذاب ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق، أو شيئاً من الجزاء (وفي المدارك للنسفي رحمه الله تعالى: لا تجزي نفس مؤمنة عن نفس كافرة شيئاً) ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: من النفس العاصية (أي: الكافرة) (أقول: يوم القيامة، النفس المؤمنة لا تفيد النفس الكافرة لا شفاعةً ولا فداءً ولا عدلاً ولا هم ينصرون، ولكن هذا لا يدلُّ على نفي شفاعة المؤمنين الصادقين للمخالفين، فإن شفاعة المؤمنين للعاصين ثابتة، وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي رحمهما الله تعالى: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، نرجو الله تعالى أن يشفِّع فينا نبيَّنا عليه الصلاة والسلام) ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾ يُمنعون من عذاب الله تعالى.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

(٤٩) ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ**﴾ محنةٌ إن أشير بذلكم إلى صنيعهم، ونعمةٌ إن أشير به إلى الإنجاء، وأصله الاختبار، لكن لما كان اختبار الله تعالى عباده تارة بالمحنة (أي: الشدة) وتارة بالمنحة (أي: العطاء) أطلق عليهما ﴿**مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ بتسليطهم عليكم، أو ببعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم ﴿**عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾**﴾ صفة بلاء. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر اختبار من الله تعالى، فعليه أن يشكر على مسارِّه ويصبر على مضارِّه ليكون من خير المختبَرين.

(٥٠) ﴿**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾**﴾ روي أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل، فخرج بهم، فصبَّحهم فرعون وجنوده، وصادفوهم على شاطئ البحر، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فظهر فيه اثنا عشر طريقاً يابساً فسلكوها، فقالوا: يا موسى نخاف أن يغرق بعضنا ولا نعلم، ففتح الله تعالى فيها كوى فتراءَوا وتسامعوا حتى عبروا البحر، ثم لما وصل إليه فرعون ورآه منفلقاً اقتحم فيه هو وجنوده، فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين. واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل، ومن الآيات الملجئة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى عليه الصلاة والسلام، ثم إنهم بعد ذلك اتخذوا العجل وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ونحو ذلك، فهم بمعزل في الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن الاتباع عن أمة محمد ﷺ، مع أن ما تواتر من معجزاته أمور نظرية دقيقة تدركها الأذكياء، وإخبارُه عليه الصلاة والسلام عنها من جملة معجزاته على ما مرَّ تقريره.

(٥١) ﴿**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**﴾ لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام أن يعطيه التوراة، وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة، وعبَّر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور ﴿**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ**﴾ إلهاً أو معبوداً ﴿**مِن بَعْدِهِ**﴾ من بعد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿**وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾**﴾ بإشراككم.

(٥٢) ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ حين تبتم، والعفو محو الجريمة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: الاتخاذ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: لكي تشكروا عفوه.

(٥٣) ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني التوراة الجامع بين كونه كتاباً منزلًا وحجة تفرق بين الحق والباطل. وقيل: أراد بالفرقان الشرع الفارق بين الحلال والحرام، أو النصر الذي فرَّق بينه وبين عدوه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] يريد به يوم بدر ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ لكي تهتدوا بتدبُّر الكتاب والتفكُّر في الآيات.

(٥٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ فاعزموا على التوبة والرجوع إلى من خلقكم بُرآء من التفاوت، ومميَّزاً بعضكم عن بعض بصور وهيئات مختلفة ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ إتماماً لتوبتكم بالبخع (وهو قتل الإنسان نفسه)، أو قطع الشهوات كما قيل: من لم يعذب نفسه لم ينعِّمها ومن لم يقتلها لم يحيها ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ من حيث إنه طهرة من الشرك، ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ كأنه قال: ففعلتم ما أُمرتم به فتاب عليكم بارئكم. وذكر البارئ جلَّ وعلا وترتيب الأمر عليه إشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة، حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة، وأن من لم يعرف حقَّ منعمه حقيق بأن يستردَّ منه، ولذلك أُمروا بالقتل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ الذي يُكثر توفيق التوبة أو قبولها من المذنبين، ويبالغ في الإنعام عليهم.

(٥٥) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نقرَّ لك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل؛ فإنهم ظنوا أنه تعالى يشبه الأجسام فطلبوا رؤيته رؤية الأجسام في الجهات والأحياز المقابلة للرائي، وهي محال، بل الممكن أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية، وذلك للمؤمنين في الآخرة ولأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا.

(أقول: أو كما يحصل لبعض الأولياء، يرون عظمة الله تعالى مثل الخيمة، استولت عظمته جلَّ وعلا على الكونين، هذا الوصف لأهل الطريق، ولكن أكثر أهل الطريق بعدوا عنه وتمسَّكوا بالمشيخة).

(٥٦) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بسبب الصاعقة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ نعمة البعث.

(٥٧) ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ سخَّر الله تعالى لهم السحاب يظلهم من الشمس حين كانوا في التيه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ المنُّ: (شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار، طعمه كالشهد)، والسلوى: (طائر السماني) قيل: كان ينزل عليهم المنُّ مثل الثلج ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ بالكفران لأنه لا يتخطَّاهم ضرره.

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ**﴾ يعني بيت المقدس ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا**﴾ واسعاً ﴿**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا**﴾ مخبتين (أي: متواضعين)، أو ساجدين لله تعالى شكراً على إخراجهم من التيه ﴿**وَقُولُوا حِطَّةٌ**﴾ (أي: مسألتنا أن تحط عنا خطايانا) ﴿**نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**﴾ بسجودكم ودعائكم ﴿**وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾**﴾ ثواباً. جعل الامتثال توبة للمسيء وسبب زيادة الثواب للمحسن، وأخرجه عن صورة الجواب إلى الوعد إيهاماً بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله، فكيف إذا فعله؟ وأنه تعالى يفعل لا محالة.

(٥٩) ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ**﴾ بدَّلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا ﴿**فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾**﴾ عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم، والمراد به الطاعون. روي أنه مات في ساعة أربعة وعشرون ألفاً.

(٦٠) ﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ**﴾ لما عطشوا في التيه ﴿**فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ**﴾ اللام فيه للعهد على ما روي أنه كان حجراً طوريّاً مكعَّباً حمله معه، وكانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، تسيل كل عين في جدول إلى سبط (أي: قبيلة)، وكانوا ست مئة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً؛ أو حجراً أهبطه آدم عليه السلام من الجنة، ووقع إلى شعيب عليه السلام، فأعطاه لموسى عليه السلام مع العصا؛ أو الحجر الذي فرَّ بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل، وبرَّأه الله تعالى به عما رموه به من الأدرة (وهي نفخة تكون في الخصية)، فأشار إليه جبريل عليه السلام بحمله؛ أو للجنس، وهذا أظهر في الحجة ﴿**فَانفَجَرَتْ**﴾ (أي: سالت بكثرة) ﴿**مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ أي: عينهم التي يشربون منها ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ**﴾ يريد به ما رزقهم الله تعالى من المنِّ والسلوى وماء العيون ﴿**وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾**﴾ أي: لا تعتدوا بالإفساد.

(٦١) ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ**﴾ سله لنا بدعائك إياه ﴿**يُخْرِجْ لَنَا**﴾ يظهر ويوجد ﴿**مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ**﴾ من الإسناد المجازي ﴿**مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ**﴾ أقرب منزلة وأدون قدراً ﴿**بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾ يريد به المن والسلوى فإنه خير

في اللذة والنفع وعدم الحاجة إلى السعي (والسلوى هو السُّمانَى، كانت تحشره عليهم الريح الجنوب، وكانت الريح تقطع حلوقها وتشق بطونها وتمعط شعورها، وكانت الشمس تنضجها، فكانوا يأكلونها مع المنِّ، وأكثر المفسرين على أنهم يأخذونها فيذبحونها [روح البيان: ١/١٤٢]) ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ انحدروا إليه من التيه ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ رجعوا به.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ بسبب كفرهم بالمعجزات التي من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر وإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى وانفجار العيون من الحجر. أو بالكتب المنزلة: كالإنجيل والفرقان وآية الرجم، والتي فيها نعت محمد ﷺ من التوراة. وقتلهم الأنبياء، فإنهم قتلوا شعياء وزكريا ويحيى عليهم السلام وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم، وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ أي: جرَّهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيين. فإن صغار الذنوب سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها. وكرر الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما هو بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

(٦٢) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ بألسنتهم، يريد به المتديِّنين بدين محمد ﷺ، المخلصين منهم والمنافقين ﴿**وَٱلَّذِينَ هَادُواْ**﴾ أي: اليهود ﴿**وَٱلنَّصَٰرَىٰ**﴾ سمُّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها: ناصرة ﴿**وَٱلصَّٰبِـِٔينَ**﴾ قوم بين النصارى والمجوس ﴿**مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا**﴾ من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدِّقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه. وقيل: من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في الإسلام دخولاً صادقاً ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ الذي وعد لهم على إيمانهم وعملهم ﴿**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾**﴾ حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب.

(٦٣) ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ**﴾ باتباع موسى عليه السلام والعمل بالتوراة ﴿**وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ**﴾ حتى أعطيتم الميثاق. روي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله فوقهم حتى قبلوا ﴿**خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ**﴾ ما آتيناكم من الكتاب بجد وعزيمة ﴿**وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ**﴾ ادرسوه ولا تنسوه، أو تفكروا فيه فإنه ذكر بالقلب، أو اعملوا به ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾**﴾ لكي تتقوا المعاصي، أو رجاء منكم أن تكونوا متقين.

(٦٤) ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾ أعرضتم عن الوفاء بالميثاق بعد أخذه ﴿**فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ**﴾ بتوفيقكم للتوبة، أو بمحمد ﷺ يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه ﴿**لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾**﴾ المغبونين بالانهماك في المعاصي، أو بالخبط (أي: التخبط) والضلال في فترة من الرسل.

(٦٥) ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ**﴾ بصيد السمك ﴿**فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾**﴾ جامعين بين صورة القردة والخسوء: وهو الصغار والطرد. وقوله: ﴿ **كُونُواْ** ﴾ ليس بأمر، إذ لا قدرة لهم عليه، وإنما المراد به سرعة التكوين، وأنهم صاروا كذلك كما أراد بهم.

(٦٦) ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: المسخة، أو العقوبة ﴿نَكَالًا﴾ عبرة تنكل المعتبر بها، أي: تمنعه ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم في زبر الأولين، واشتهرت قصتهم في الآخرين ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ من قومهم، أو لكلِّ متَّقٍ سمعها.

(٦٧) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ لأن الهزء في مثل ذلك جهل وسفه؛ نفى عن نفسه ما رمي به، وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعاً له.

(٦٨) ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ﴾ أي: ما حالها وصفتها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ لا مسنة ولا فتية ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ما ذكر من الفارض والبكر ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ما تؤمرونه.

(٦٩) ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ الفقوع: نصوع الصفرة ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي تعجبهم.

قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾

(٧٠) ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ اعتذار عنه، أي: إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ إلى المراد ذبحها، أو إلى القاتل. واحتج به أصحابنا على أن الحوادث بإرادة الله سبحانه وتعالى، وأنَّ الأمر قد ينفكُّ عن الإرادة، وإلا لم يكن للشرط بعد الأمر معنًى (قال شيخ زاده رحمه الله في الحاشية: وقوله: «وأن الأمر قد ينفكُّ عن الإرادة» لا كما زعمت المعتزلة من أنَّ الأمر عين الإرادة، وأن كلَّ ما أمر الله تعالى به فقد أراده). (أقول: ولذا فإن الحوادث كلَّها تنسب إلى الله جلَّ وعلا، الحوادث الحاضرة الآن في سوريا نراها بأم عيوننا، هذا بإرادته جل وعلا، إذا لم تنسب الحوادث إلى إرادة الله تعالى يكون شركاً، لأن إسناد الحوادث إلى الأسباب شرك، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم).

(٧١) ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ أي: لم تُذلَّل لكراب الأرض (أي: لحرث الأرض) وسقي الحرث، و﴿لَّا ذَلُولٞ﴾ صفة لبقرة، بمعنى: غير ذلول ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ سلَّمها الله تعالى من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لون فيها يخالف لون جلدها ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بحقيقة وصف البقرة وحققتها لنا ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ لتطويلهم وكثرة مراجعاتهم، أو لخوف الفضيحة في ظهور القاتل، أو لغلاء ثمنها؛ إذ روي: أن شيخاً صالحاً منهم كان له عِجلة، فأتى بها الغيضة (الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتفُّ) وقال: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر، فشبت وكانت وحيدة بتلك الصفات، فساوموها من اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء جلدها ذهباً.

(٧٢) ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ خطاب للجميع لوجود القتل فيهم ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ اختصمتم في شأنها ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ مظهره لا محالة.

(٧٣) ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾ أيَّ بعض كان ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله على كمال قدرته ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ لكي يكمل عقلكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء

الأنفس كلها. ولعله سبحانه وتعالى إنما لم يحيه ابتداء وشرط فيه ما شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل والشفقة على الأولاد، وأن من حق الطالب أن يقدم قربة (أقول: أي طالب الحق وطالب رضا الله تعالى وطالب خلاصه يوم القيامة)، والمتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالي بثمنه، كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه ضحَّى بنجيبة اشتراها بثلاث مئة دينار (ونجائب الإبل خيارها) (أقول: وهذا مقيَّد بالإخلاص)؛ وأن المؤثِّر في الحقيقة هو الله تعالى، والأسباب أمارات لا أثر لها، وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي، فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التي هي القوة الشهوية حين زال عنها شره الصبا ولم يلحقها ضعف الكبر، وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة في طلب الدنيا، مسلمة عن دنسها لا سمة بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلى نفسه، فتحيا حياة طيبة، وتعرب عما به ينكشف الحال، ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ (أي: التدافع) والنزاع. (قال شيخ زاده في حاشيته على القاضي: «قال بعض أهل المعرفة عند قوله تعالى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ تنبيه على أن أمدح الأحوال للعبد أن يكون في معاملته مع الله تعالى على لون واحد (أي: على الإخلاص)، لا يتطرق إليه هموم الدنيا، ولا يطرأ عليه اتباع الهوى». اللهم بفضلك أزل عنا الهوى، وضع مكانه التقوى).

(٧٤) ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ والمعنى: أنها في القساوة مثل الحجارة أو أزيد عليها، أو أنها مثلها، أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد ﴿**وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ**﴾ والمعنى: أن الحجارة تتأثر وتنفعل فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء، وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردَّى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به، وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالى ﴿**وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾**﴾ وعيد على ذلك.

(٧٥) ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ**﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿**أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ**﴾ أن يصدقوكم، أو يؤمنوا لأجل دعوتكم، يعني اليهود ﴿**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ**﴾ طائفة من أسلافهم ﴿**يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ**﴾ كنعت محمد ﷺ، وآية الرجم. أو تأويله، فيفسرونه بما يشتهون ﴿**مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾ أي فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريبة ﴿**وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾**﴾ أنهم مفترون مبطلون.

(٧٦) ﴿**وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا**﴾ بأنكم على الحق، وأن رسولكم هو المبشَّر به في التوراة ﴿**وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟**﴾ أي: الذين لم ينافقوا منهم عاتبين على من نافق ﴿**أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ**﴾ بما بين لكم في التوراة من نعت محمد ﷺ ﴿**لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ**﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه. ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾**﴾ والمعنى: أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم في إيمانهم.

أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٧) ﴿**أَوَلَا يَعۡلَمُونَ**﴾ يعني هؤلاء المنافقين، أو اللائمين ﴿**أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾**﴾ ومن جملتها إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان، وإخفاء ما فتح الله تعالى عليهم، وإظهار غيره، وتحريف الكلم عن مواضعه ومعانيه.

(٧٨) ﴿**وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ أي: التوراة ﴿**إِلَّآ أَمَانِيَّ**﴾ والمعنى: لكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المحرِّفين، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ﴿**وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾**﴾ ما هم إلا قوم يظنون لا علم لهم (أقول: الظنُّ إذا جاء من المؤمنين فهو بمعنى اليقين، وإذا جاء من أمثال هؤلاء فهو بمعنى الشك).

(٧٩) ﴿**فَوَيۡلٞ**﴾ أي: تحسَّر وهلك. وقيل: إنه واد أو جبل في جهنم ﴿**لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ**﴾ يعني المحرِّفين ﴿**ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ**﴾ كي يحصِّلوا به عرضاً من أعراض الدنيا، فإنه وإنْ جَلَّ قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العقاب الدائم ﴿**فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ**﴾ يعني المحرَّف ﴿**وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾**﴾ يريد به الرِّشا.

(٨٠) ﴿**وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ**﴾ المسُّ: اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسَّة به ﴿**إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا**﴾ خبراً أو وعداً بما تزعمون ﴿**فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ**﴾ أي: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله تعالى عهده؛ وفيه دليل على أنَّ الخُلفَ في خبره سبحانه وتعالى مُحالٌ ﴿**أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾**﴾.

(٨١) ﴿**بَلَىٰ**﴾ إثبات لما نفوه من مساس النار لهم زماناً مديداً ودهراً طويلاً على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم ﴿**مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ**﴾ قبيحة ﴿**وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ**﴾ أي استولت عليه، وشملت جملة أحواله حتى صار كالمحاط بها لا يخلو عنها شيء من جوانبه؛ وهذا إنما يصح في شأن الكافر، لأن غيره وإن لم يكن له سوى تصديق قلبه وإقرار لسانه فلم تحط الخطيئة به، ولذلك فسَّرها السلف بالكفر.

وتحقيق ذلك: أن من أذنب ذنباً ولم يقلع عنه استجره إلى معاودة مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه، حتى تستولي عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه، فيصير بطبعه مائلاً إلى المعاصي مستحسناً إياها معتقداً أن لا لذة سواها، مبغضاً لمن يمنعه عنها، مكذِّباً لمن ينصحه فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ [الروم: ١٠] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ ملازموها في الآخرة كما أنهم ملازمون أسبابها في الدنيا ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ دائمون (أقول: إن لم يتب ولم يرجع ومات على هذا الكفر)، أو لابثون لبثاً طويلاً (أقول: هذا لمن كان له إيمان مع هذه الأخلاق المخالفة). والآية كما ترى لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة (من المؤمنين أهل القبلة) وكذا التي قبلها.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يشفع وعده بوعيده، لترجى رحمته ويخشى عذابه؛ وعطفُ العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مسماه.

(٨٣) ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (يعني في التوراة) ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إخبار في معنى النهي ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ أي: قولًا حسناً ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يريد بهما ما فرض عليهم في ملتهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ ولعل الخطاب مع الموجودين منهم في عهد رسول الله ﷺ ومن قبلهم على التغليب، أي: أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ﴾ يريد به من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ، ومن أسلم منهم ﴿وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ قوم عادتكم الإعراض عن الوفاء والطاعة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٤) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ والمراد به أن لا يتعرَّض بعضهم بعضاً بالقتل والإجلاء عن الوطن. وإنما جعل قتل الرجل غيره قتل نفسه لاتصاله به نسباً أو ديناً، أو لأنه يوجبه قصاصاً.

وقيل: لا تفعلوا ما يرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل في الحقيقة، ولا تقترفوا ما تمنعون به عن الجنة التي هي داركم، فإنه الجلاء الحقيقي ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق واعترفتم بلزومه ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ توكيد، (أي: وأنتم تشهدون على أنفسكم شهادةَ من يشهد على غيره).

(٨٥) ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ استبعاد لما ارتكبوه بعد الميثاق والإقرار به والشهادة عليه ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ والتظاهر: التعاون ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ روي أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فإذا اقتتلا عاون كل فريق حلفاءه في القتل وتخريب الديار وإجلاء أهلها، وإذا أسر أحد من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه. وقيل معناه إن يأتوكم أسارى في أيدي الشياطين تتصدوا لإنقاذهم بالإرشاد والوعظ مع تضييعكم أنفسكم، كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني الفداء ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ يعني حرمة المقاتلة والإجلاء ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير، وضرب الجزية على غيرهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ لأنَّ عصيانهم أشدُّ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ تأكيد للوعيد، أي: الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لا يغفل عن أفعالهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

(وما الله تعالى المستوي على عروش الذرات الكائنة في العالم، رطبها ويابسها، شهادتها وغيبها بغافل ـ أي: مشغول بشيء يشغله ـ عما تعملون أنتم، بل شأنكم وحالكم وأعمالكم كلها عنده مكشوف معلوم له سبحانه وتعالى، بالعلم الحضوري بحيث لا يشذُّ عن حيطة علمه شيء فيها أصلًا، كما قال أولياؤنا رضي الله عنهم).

(٨٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بنقص الجزية في الدنيا، أو التعذيب في الآخرة ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾ بدفعها عنهم (أقول: قال أحد الأولياء رحمهم الله تعالى: إن أفراداً قلائل من كلِّ أربعين شخصاً هم الذين يخرجون من الدنيا مع الإيمان، والباقون يخرجون بدون إيمان، سبب هذا طاعون المادة، نعوذ بالله تعالى).

(٨٧) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ﴾ أي: أرسلنا على أثره الرسل، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات، أو الإنجيل. وعيسى بالعبرية أيشوع (أي: المبارك) ومريم (أي: العابدة) ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ بالروح المقدسة وأراد به جبريل عليه السلام.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ بما لا تحبُّه ﴿ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ عن الإيمان واتباع الرسل ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام ﴿وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام. وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس، فإن الأمر فظيع، أو للدلالة على أنكم بعد فيه فإنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ، لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة.

(٨٨) ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ مغشاة بأغطية خلقية لا يصل إليها ما جئت به ولا تفقهه. والمعنى أنها أوعية للعلم لا تسمع علماً إلا وعته، ولا تعي ما تقول ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ ردٌّ لما قالوه، والمعنى أنها خلقت على الفطرة والتمكُّن من قبول الحق، ولكنَّ الله تعالى خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم ﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ فإيماناً قليلاً يؤمنون (وقيل: أي لم يؤمن منهم إلا قليل).

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

(٨٩) ﴿**وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ يعني القرآن ﴿**مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ**﴾ من كتابهم (كالتوراة) ﴿**وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟**﴾ أي: يستنصرون على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت في التوراة. أو يفتحون عليهم ويعرِّفونهم أن نبياً يبعث منهم وقد قرب زمانه ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟**﴾ من الحق ﴿**كَفَرُوا۟ بِهِۦ**﴾ حسداً وخوفاً على الرياسة ﴿**فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾**﴾ أي: عليهم، على أنهم لُعنوا لكفرهم.

(٩٠) ﴿**بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ**﴾ معناه باعوا، أو اشتروا بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم خلَّصوا أنفسهم من العقاب بما فعلوا ﴿**أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ**﴾ هو المخصوص بالذم ﴿**بَغْيًا**﴾ طلباً لما ليس لهم وحسداً ﴿**أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ**﴾ أي: حسدوه على أن ينزل الله تعالى ﴿**مِن فَضْلِهِۦ**﴾ يعني الوحي ﴿**عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ**﴾ على من اختاره للرسالة ﴿**فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ**﴾ للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق. وقيل: لكفرهم بمحمد ﷺ بعد عيسى عليه السلام، أو بعد قولهم عزير ابن الله ﴿**وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾**﴾ يراد به إذلالهم، بخلاف عذاب العاصي (المؤمن) فإنه طهرة لذنوبه.

(٩١) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ**﴾ يعم الكتب المنزلة بأسرها ﴿**قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا**﴾ أي بالتوراة ﴿**وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ**﴾ والمراد به القرآن ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ**﴾ فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ﴿**قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾**﴾ اعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة والتوراةُ لا تسوغه. وإنما أسنده إليهم لأنه فعل آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه.

(٩٢) ﴿**وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ**﴾ يعني الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] ﴿**ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ**﴾ أي: إلهاً ﴿**مِنۢ بَعْدِهِۦ**﴾ من بعد مجيء موسى عليه

السلام، أو بعد ذهابه إلى الطور ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته، أو بالإخلال بآيات الله تعالى.

(٩٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي: قلنا لهم: خذوا ما أمرتم به في التوراة بجدٍّ واسمعوا سماع طاعة ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ تداخلهم حبُّه ورسخ في قلوبهم صورته، لفرط شغفهم به، كما يتداخل الصبغُ الثوبَ، والشرابُ أعماقَ البدن ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾: بيان لمكان الإشراب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠] ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم وذلك لأنهم كانوا مجسِّمة أو حلولية، ولم يروا جسماً أعجب منه، فتمكَّن في قلوبهم ما سوَّل لهم السامريُّ (أقول: الذي تمكَّن حبُّ الدنيا في قلبه يعمى عن جميع الخيرات) ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أي: بالتوراة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ تقرير للقدح في دعواهم الإيمان بالتوراة، أو إن كنتم مؤمنين بها فبئسما يأمركم به إيمانكم بها، لأن المؤمن ينبغي أن لا يتعاطى إلا ما يقتضيه إيمانه، لكن الإيمان بها لا يأمر به، فإذاً لستم بمؤمنين.

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

(٩٤) ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً**﴾ خاصة بكم كما قلتم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١] ﴿**مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ**﴾ سائرهم، أو المسلمين ﴿**فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾**﴾ لأنَّ من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها وأحبَّ التخلُّص إليها من الدار ذات الشوائب (أي: الدنيا)، كما قال علي رضي الله تعالى عنه: «لا أبالي سقطت على الموت أو سقط الموت عليَّ». وقال عمار رضي الله تعالى عنه بصفِّين: «الآن ألاقي الأحبة محمداً وحزبه». وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتضر: «جاء حبيب على فاقة، لا أفلح اليوم من قد ندم».

(٩٥) ﴿**وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ من موجبات النار، كالكفر بمحمد ﷺ والقرآن، وتحريف التوراة. وهذه الجملة إخبار بالغيب، وكان كما أخبر، لأنهم لو تمنوا لنُقل واشتهر، فإن التمني ليس من عمل القلب ليخفى، بل هو أن يقول: ليت لي كذا، ولو كان بالقلب لقالوا: تمنينا. وعن النبي ﷺ: «لو تمنوا الموت لغصَّ كلُّ إنسان بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهودي» [رواه الإمام أحمد بلفظ قريب] ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾**﴾ تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم، ونفيه عمن هو لهم.

(٩٦) ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ**﴾ فإن حرصهم شديد، إذ لم يعرفوا إلا الحياة العاجلة ﴿**وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟**﴾ محمول على المعنى، وكأنه قال: أحرص من الناس على الحياة ومن الذين أشركوا ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ**﴾ على أنه أريد بالذين أشركوا اليهود، لأنهم قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿**لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ حكاية لودادتهم ﴿**وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ**﴾ أي: وما أحدهم بمن يزحزحه من العذاب تعميره، والزحزحة التبعيد ﴿**وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾**﴾ فيجازيهم.

(٩٧) ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ**﴾ دخل عمر رضي الله تعالى عنه مدارس اليهود يوماً، فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا، يطلع محمداً على أسرارنا، وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسلام، فقال: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة،

فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد وافقك ربك يا عمر» [رواه الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره] ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فإنه القابل الأول للوحي، ومحلُّ الفهم والحفظ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره وتيسيره ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ والمعنى: من عادى منهم جبريل عليه السلام فقد خلع ربقة الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي، لأنه نزل كتاباً مصدقاً للكتب المتقدمة.

(٩٨) ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أراد بعداوة الله تعالى مخالفته عناداً أو معاداة المقربين من عباده، وصدَّر الكلام بذكره تفخيماً لشأنهم كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. وأفرد الملكين بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع، إذ الموجب لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد، ولأن المحاجة كانت فيهما، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر.

(٩٩) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: المتمرِّدون من الكفرة، (والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب [النسفي]).

(١٠٠) ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ نَقَضَهُ، وإنما قال: ﴿فَرِيقٌ﴾ لأن بعضهم لم ينقض ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ردٌّ لما يتوهم من أن الفريق هم الأقلون، أو أن من لم ينبذ جهاراً فهم مؤمنون به خفاء.

(١٠١) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يعني التوراة، لأن كفرهم بالرسول المصدق لها كفرٌ بها فيما يصدقه، ونبذٌ لما فيها من وجوب الإيمان بالرسل المؤيدين بالآيات ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثَّل لإعراضهم عنه رأساً بالإعراض عما يرمى به وراء الظهر لعدم الالتفات إليه ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أنه كتاب الله تعالى، يعني أن علمهم به رصين ويقين ولكن يتجاهلون عناداً. واعلم أنه تعالى دل بالآيتين على أن جُلَّ اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفرقة جاهروا بنبذ عهودها وتخطي حدودها تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيون بقوله: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوا لجهلهم بها وهم الأكثرون، وفرقة تمسكوا بها ظاهراً ونبذوها خفية عالمين بالحال بغياً وعناداً وهم المتجاهلون.

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

(١٠٢) ﴿**وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ**﴾ أي: نبذوا كتاب الله تعالى واتبعوا كتب السحر التي تقرؤها أو تتبعها الشياطين من الجن والإنس أو منهما ﴿**عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ**﴾ أي: عهده ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ**﴾ تكذيب لمن زعم ذلك. وعبَّر عن السحر بالكفر ليدلَّ على أنه كفر، وأن من كان نبياً كان معصوماً منه ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ**﴾ باستعماله (أي: باستعمال السحر) ﴿**يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ**﴾ إغواءً وإضلالًا؛ والمراد بالسحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس، فإن التناسب شرط في التضامِّ (أي: الجمع) والتعاون، وبهذا تميَّز الساحر عن النبيِّ والوليِّ ﴿**وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ**﴾ عطف على السحر وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله تعالى للناس، وتمييزاً بينه وبين المعجزة ﴿**بِبَابِلَ**﴾ بلد من سواد الكوفة ﴿**هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ**﴾ عطف بيان للملكين ﴿**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ**﴾ أي: ما يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويقولا له: إنما نحن ابتلاء من الله تعالى، فمن تعلَّم منا وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به. وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور، وإنما المنع من اتباعه والعمل به ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ**﴾ أي: من السحر ما يكون سبب تفريقهما ﴿**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ**﴾ لأنه وغيره من الأسباب غير مؤثر بالذات، بل بأمره تعالى وبجعله ﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ**﴾ لأنهم يقصدون به العمل، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿**وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ**﴾ إذ مجرد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدارين. وفيه أن التحرز عنه أولى.

﴿**وَلَقَدۡ عَلِمُواْ**﴾ أي اليهود ﴿**لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ**﴾ أي: استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله تعالى ﴿**مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ**﴾ نصيب ﴿**وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾**﴾ يتفكرون

فيه، أو يعلمون قبحه على اليقين، أو حقية ما يتبعه من العذاب؛ والمثبت لهم هو العقل الغريزي أو العلم الإجمالي بقبح الفعل، أو ترتب العقاب من غير تحقيق. وقيل: لو كانوا يعملون بعلمهم، فإن من لم يعمل بما علم فهو كمن لم يعلم.

(١٠٣) ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ**﴾ بالرسول والكتاب ﴿**وَٱتَّقَوْاْ**﴾ بترك المعاصي، كنبذ كتاب الله تعالى واتباع السحر ﴿**لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ**﴾ أي: لأثيبوا مثوبة من عند الله تعالى خيراً مما شروا به أنفسهم ﴿**لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾**﴾ أن ثواب الله تعالى خير مما هم فيه، وقد علموا لكنه جَهَّلَهُم لترك التدبر، أو العمل بالعلم.

(١٠٤) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا**﴾ الرعي: حفظ الغير لمصلحته، وكان المسلمون يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام: راعنا، أي: راقبنا وتأنَّ بنا فيما تلقِّننا حتى نفهمه، وسمع اليهود فافترصوه (أي: وجدوا الفرصة) وخاطبوه به مريدين نسبته إلى الرعن، أو سبَّه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابُّون بها، وهي راعينا، فنُهي المؤمنون عنها، وأُمروا بما يفيد تلك الفائدة ولا يقبل التلبيس، وهو ﴿ٱنظُرْنَا﴾ بمعنى انظر إلينا أو انتظرنا ﴿**وَٱسْمَعُواْ**﴾ وأحسنوا الاستماع حتى لا تفتقروا إلى طلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول، لا كسماع اليهود ﴿**وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾**﴾ يعني الذين تهاونوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وسبُّوه.

(قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرْعِها سمعَك، فإنه خير يؤمر به أو شر ينهى عنه).

(أقول: هذا الخطاب من الله تعالى لك، ومعلوم أنك مؤمن بحمد الله تعالى، فلا بدَّ أيها الأخ المؤمن أن تعمل بمقتضى إيمانك، ولا تتبع خطوات الشيطان، ولا يركبنَّك الهوى، واتبع سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام حتى تكون من الفائزين).

(١٠٥) ﴿**مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾ نزلت تكذيباً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير ﴿**أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ وفُسِّر الخير بالوحي. والمعنى أنهم يحسدونكم به وما يحبون أن ينزل عليكم شيء منه، وفُسِّر بالعلم وبالنصرة. ولعل المراد به ما يعمُّ ذلك ﴿**وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ**﴾ يستنبئه ويعلِّمه الحكمة وينصره، لا يجب عليه شيء، وليس لأحد عليه حقٌّ ﴿**وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾**﴾ إشعار بأنَّ النبوَّة من الفضل، وأن حرمان بعض عباده ليس لضيق فضله جلَّ وعلا، بل لمشيئته وحكمته سبحانه وتعالى.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

(١٠٦) ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا**﴾ نزلت لما قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه. ونسخ الآية بيان انتهاء التعبُّد بقراءتها، أو الحكم المستفاد منها، أو بهما جميعاً؛ وإنساؤها إذهابها عن القلوب ﴿**نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ**﴾ أي: بما هو خير للعباد في النفع والثواب، أو مثلها في الثواب ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾**﴾ فيقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ أو بما هو خير منه. وذلك لأن الأحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلاً من الله تعالى ورحمة، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص، كأسباب المعاش فإن النافع في عصر قد يضر في عصر غيره (أقول: وهو جلَّ وعلا يدبِّر شؤون عباده بما تقتضيه الحكمة).

(١٠٧) ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ**﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأمته، وإنما أفرده لأنه عليه الصلاة والسلام أعلمُهم ومبدأ علمهم ﴿**أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾**﴾ وإنما هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلحكم.

(١٠٨) ﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ**﴾ والمراد أن يوصيهم بالثقة به وترك الاقتراح عليه ﴿**وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾**﴾ ومَنْ ترك الثقة بالآيات البينات وشك فيها واقترح غيرها فقد ضل الطريق المستقيم حتى وقع في الكفر بعد الإيمان. ومعنى الآية: لا تقترحوا فتضلوا وسط السبيل، ويؤدي بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان.

(١٠٩) ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ**﴾ يعني أحبارهم ﴿**لَوْ يَرُدُّونَكُم**﴾ أن يردوكم ﴿**مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا**﴾ مرتدين ﴿**حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم**﴾ أي: تمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشهّيهم ﴿**مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ**﴾ بالمعجزات والنعوت المذكورة في التوراة.

﴿**فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟**﴾ العفو: ترك عقوبة المذنب، والصفح: ترك تثريبه (أي: لومه) ﴿**حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ**

﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ الذي هو الإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ فيقدر على الانتقام منهم.

(١١٠) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أمرهم بالصبر والمخالقة (أي: المعاشرة بالخلق الحسن) واللجأ إلى الله تعالى بالعبادة والبر ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ كصلاة وصدقة ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ثوابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ لا يضيع عنده عمل.

(١١١) ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ إشارة إلى الأماني المذكورة، وهي أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأن يردوهم كفاراً، وأن لا يدخل الجنة غيرهم ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ في دعواكم.

(١١٢) ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص له نفسه، أو قصده ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ الذي وعد له على عمله ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ثابتاً عنده لا يضيع ولا ينقص ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ في الآخرة.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

(١١٣) ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ**﴾ أي: على أمر يصحُّ ويعتدُّ به ﴿**وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ**﴾ أي: قالوا ذلك وهم من أهل العلم والكتاب ﴿**كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**﴾ كعَبَدَة الأصنام والمعطِّلة؛ وبَّخهم على المكابرة والتشبه بالجهال ﴿**فَٱللَّهُ يَحْكُمُ**﴾ يفصل ﴿**بَيْنَهُمْ**﴾ بين الفريقين ﴿**يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾**﴾ بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العقاب.

(١١٤) ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ**﴾ عام لكلِّ من خرب مسجداً، أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة ﴿**أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ**﴾ بالهدم أو التعطيل (أقول: إني رأيت هذا في مسجد قريتنا في زمان أتاتورك، المسجد كبير قسموه أقساماً، قسم يقعد فيه رئيس الشرطة، وقسم للجندرما، أي: الجيش، وقسم يربطون فيه أفراسهم؛ هذا ممن منع مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، عليه من الله تعالى ما يستحقُّ، ليس بيدنا شيء؛ وهو لم يكن مستقلًا، فهو مخلوق للخالق جلَّ وعلا، وهو كذلك مثل الشيطان) ﴿**أُو۟لَـٰٓئِكَ**﴾ أي: المانعون ﴿**مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ**﴾ ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخشوع، فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو ما كان الحقُّ أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين ﴿**لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ**﴾ قتل وسبي، أو ذلة بضرب الجزية ﴿**وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾**﴾ بكفرهم وظلمهم.

(١١٥) ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ**﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي: له الأرض كلها، لا يختص به مكان دون مكان، فإن منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو الأقصى فقد جعلت لكم الأرض مسجداً ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟**﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿**فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ**﴾ أي: جهته التي أمر بها، فإن إمكان التولية لا يختص بمسجد أو مكان ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ**﴾ بإحاطته بالأشياء. أو برحمته، يريد التوسعة على عباده ﴿**عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾**﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها. وفي الآية تنزيه للمعبود جلَّ وعلا أن يكون في حيز وجهة.

(١١٦) ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت لما قال اليهود: عزير ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، ومشركو العرب: الملائكة بنات الله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيه والحاجة وسرعة الفناء ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ردٌّ لما قالوه، واستدلال على فساده. والمعنى أنه تعالى خالق ما في السموات والأرض، الذي من جملته الملائكة وعزير والمسيح ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ منقادون لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه (أقول: فكلُّهم مخلوقه جلَّ وعلا).

(١١٧) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مبدعهما ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ أي: أراد شيئاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ أي: احدُثْ فيحدث؛ وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال، بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته جلَّ وعلا بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف (أقول: أمره جلَّ جلاله ليس متعلِّقاً باللفظ، إنما هو بإرادته جلَّ وعلا، والفاء للتعقيب، وذكر اللفظ لضيق العبارة، ولإيصال المعنى لعقولنا، وإذا أراد الله تعالى شيئاً فإن وجود ذلك الشيء متعلِّق بخلقه وإيجاده وتكوينه سبحانه، وإرادته متعلِّقة بذاته جل وعلا، وهي صفة أزلية، وهذا الكلام عبارة عن سرعة حصول المخلوق بإيجاده وكمال قدرته جلَّ وعلا على ذلك، فإذا توجَّهت إرادته جلَّ وعلا لشيء يكون. وهذه الألفاظ المباركة تأتي في القرآن في ثمانية مواضع: في سورة البقرة الآية / ١١٧/ ، وفي سورة آل عمران / ٤٧/ و/ ٥٩/ ، وفي سورة الأنعام / ٧٣/ ، وفي سورة النحل / ٤٠/ ، وفي سورة مريم / ٣٥/ ، وفي سورة ياسين / ٨٢/ ، وفي سورة غافر / ٦٨/).

(١١٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: جهلة المشركين، أو المتجاهلون من أهل الكتاب ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ هلا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة، أو يوحي إلينا بأنك رسوله ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ حجة على صدقك ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ من الأمم الماضية ﴿مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ﴾ فقالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وقالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ﴾ [المائدة: ١١٢] ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾ أي يطلبون اليقين، أو يوقنون الحقائق لا يعتريهم شبهة ولا عناد.

(١١٩) ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ متلبِّساً مؤيداً به ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ فلا عليك إن أصرُّوا أو كابروا (أقول: دعوى بدون دليل) ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾ (أقول: أي: ولا تسأل أنت عن إعراض أصحاب الجحيم) ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلَّغت (والجحيم: المتأجِّج من النار، نعوذ بالله تعالى منها).

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

(١٢٠) ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ مبالغةٌ في إقناط الرسول ﷺ من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، فكيف يتبعون ملته. والمِلَّةُ: ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: هدى الله تعالى الذي هو الإسلام هو الهدى إلى الحق، لا ما تدعون إليه ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ آراءهم الزائفة ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الوحي، أو الدين المعلوم صحته ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ يدفع عنك عقابه.

(١٢١) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به مؤمني أهل الكتاب ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ بمراعاة اللفظ عن التحريف، والتدبُّر في معناه، والعمل بمقتضاه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بكتابهم دون المحرِّفين ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

(١٢٢-١٢٣) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ لمَّا صدَّر قصتهم بالأمر بذكر النعم، والقيام بحقوقها، والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأهوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم مبالغة في النصح، وإيذاناً بأنه فذلكة القضية (أي: ملخَّصها ومحصولها) والمقصود من القصة.

(١٢٤) ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ كلَّفه بأوامر ونواهٍ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فأداهنَّ كَمَلًا (أي: كاملًا) وقام بهنَّ حقَّ القيام، لقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ بيان لقوله: ﴿ابْتَلَى﴾ فتكون الكلمات ما ذكره من الإمامة، وتطهير البيت، ورفع قواعده، والإسلام ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: وبعض ذريتي (وسمي بنو آدم ذرية من حيث إن الله تعالى فرقهم على الأرض وبثهم فيها [حاشية شيخ زاده]).

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ إجابة إلى ملتمسه، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلَمة، وأنهم لا ينالون الإمامة لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وإنما ينالها البررة الأتقياء منهم. وفيه دليل على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكبائر قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة.

(١٢٥) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي: الكعبة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار، أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره ﴿وَأَمْنًا﴾ وموضع أمن لا يُتعرض لأهله، كقوله تعالى: ﴿حَرَماً آمِناً﴾ [القصص: ٥٧]. أولا يؤاخذ الجاني الملتجئ إليه حتى يخرج، وهو مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ الخطاب لأمة محمد ﷺ، وهو أمر استحباب. ومقام إبراهيم عليه السلام هو الحِجر الذي فيه أثر قدمه، أو الموضع الذي كان فيه الحجر حين قام عليه ودعا الناس إلى الحج. روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر رضي الله تعالى عنه وقال: «هذا مقام إبراهيم، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: أفلا نتخذه مصلى، فقال: لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. وقيل: المراد به الأمر بركعتي الطواف، لما روى جابر رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام: لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أمرناهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ بأن طهِّرا بيتي، يريد طهِّراه من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به، أو أخلصاه ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين عنده، أو المعتكفين فيه ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: المصلين.

(١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ يريد به البلد، أو المكان ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ذا أمن ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ والمعنى: وأرْزُقُ من كفر، قاس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرزق على الإمامة، فنبه سبحانه على أن الرزق رحمة دنيوية تعمُّ المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدين ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ والكفر وإن لم يكن سبباً للتمتيع لكنه سبب لتقليله، بأن يجعله مقصوراً بحظوظ الدنيا، غير متوسَّل به إلى نيل الثواب، ولذلك عطف عليه ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي: ألزُّه (أُلجئه) إليه لزَّ المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ وهو العذاب.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

(١٢٧) ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ**﴾ والقَواعِد جمع قاعدة، وهي الأساس، ورفعُها البناءُ عليها ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ**﴾ أي: يقولان: ربَّنا تقبَّلْ منا ﴿**إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ**﴾ لدعائنا ﴿**ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾**﴾ بنياتنا.

(١٢٨) ﴿**رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾ مخلصين لك، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان، أو الثبات عليه ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ**﴾ أي: واجعل بعض ذريتنا؛ وإنما خصا الذرية بالدعاء لأنهم أحقُّ بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصا بعضهم لما أعلما أن في ذريتهما ظلمة، وعَلِما أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى، فإنه مما يشوش المعاش، ولذلك قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا (أقول: إلا من طهَّر الله تعالى قلبه من حبِّ الدنيا، وغلب على قلبه حبُّ الله تعالى، وحبُّ الرسول عليه الصلاة والسلام، هذا للخواصِّ) وقال بعضهم: أراد بالأمة أمةَ محمد ﷺ ﴿**وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا**﴾ متعبداتنا في الحج ﴿**وَتُبْ عَلَيْنَآ**﴾ استتابة لذريتهما، أو عما فرط منهما سهواً؛ ولعلهما قالا هضماً لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما ﴿**إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾**﴾ لمن تاب (اللهم ارزقنا التوبة الصحيحة).

(١٢٩) ﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ**﴾ في الأمة المسلمة ﴿**رَسُولًا مِّنْهُمْ**﴾ ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ، فهو المجاب به دعوتهما، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي» [أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] ﴿**يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ**﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل التوحيد والنبوة ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ القرآن ﴿**وَٱلْحِكْمَةَ**﴾ ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿**إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿**ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾**﴾ المحكِم له.

(١٣٠) ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ**﴾ استبعاد وإنكار لأن يكون أحد يرغب عن ملته الواضحة الغراء، أي: لا يرغب أحد من ملته ﴿**إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ**﴾ إلا من استمهنها (أي: جعلها مَهينة حقيرة) وأذلَّها

واستخفَّ بها ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ حجة وبيان لذلك، فإن من كان صفوة العباد في الدنيا مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة، كان حقيقاً بالاتباع له لا يرغب عنه إلا سفيه أو متسفِّه أذلَّ نفسه بالجهل والإعراض عن النظر.

(١٣١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم، وأنه نال ما نال بالمبادرة إلى الإذعان وإخلاص السر حين دعاه ربه وأخطر بباله دلائله المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام.

(١٣٢) ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ﴾ التوصية هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ أي ووصى هو أيضاً بها بنيه ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ والمقصود هو النهي عن أن يكونوا على خلاف تلك الحال إذا ماتوا، والأمر بالثبات على الإسلام.

(١٣٣) ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: ما كنتم حاضرين إذ حضر يعقوب الموت وقال لبنيه ما قال، فلم تدَّعون اليهودية عليه؟ وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: ما شاهدتم ذلك وإنما علمتموه بالوحي ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي: أيّ شيء تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما.

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ المتفق على وجوده وألوهيته ووجوب عبادته. وعدّ إسماعيل من آبائه تغليباً للأب والجد، أو لأنه كالأب لقوله عليه الصلاة والسلام: «عمُّ الرجل صِنْوُ أبيه» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. كما قال عليه الصلاة والسلام في العباس رضي الله عنه: «هذا بقية آبائي» [أخرجه الإمام الطبراني رحمه الله تعالى] ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

(١٣٤) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ﴾ يعني إبراهيم ويعقوب عليهما السلام وبنيهما ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ﴾ لكلٍّ أجرُ عملِه. والمعنى: أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم (أقول: هذه الوصايا من القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى نصيحة جيدة).

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

(١٣٥) ﴿**وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ**﴾ المعنى: مقالتهم أحد هذين القولين، قالت اليهود: كونوا هوداً. وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿**تَهْتَدُواْۗ**﴾ جواب الأمر.

﴿**قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ**﴾ أي: بل نتبع ملة إبراهيم ﴿**حَنِيفًاۖ**﴾ مائلاً عن الباطل إلى الحق ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾**﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدَّعون اتباعه وهم مشركون.

(١٣٦) ﴿**قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ**﴾ الخطاب للمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ١٣٧] ﴿**وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا**﴾ القرآن ﴿**وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ**﴾ الصحف، وهي وإن نزلت إلى إبراهيم عليه السلام، لكنهم لما كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها فهي أيضاً منزلة إليهم، كما أن القرآن منزل إلينا، والأسباط حفدة يعقوب ﴿**وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ**﴾ التوراة والإنجيل ﴿**وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ منزلاً عليهم من ربهم ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**﴾ كاليهود، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴿**وَنَحْنُ لَهُۥ**﴾ أي: لله تعالى ﴿**مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾**﴾ مذعنون مخلصون.

(١٣٧) ﴿**فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ**﴾ من باب التعجيز والتبكيت، كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] إذ لا مثل لما آمن به المسلمون، ولا دين كدين الإسلام. والمعنى: إن تحروا الإيمان بطريق يهدي إلى الحق مثل طريقكم، فإن وحدة المقصد لا تأبى تعدد الطرق ﴿**وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ**﴾ أي: إن أعرضوا عن الإيمان أو عما تقولون لهم فما هم إلا في شقاق الحق، وهو المناوأة (أي: المعاندة) والمخالفة ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ**﴾ تسلية وتسكين للمؤمنين (الخطاب لرسول الله ﷺ ويدخل فيه المؤمنون)، ووعد لهم بالحفظ والنصرة على من ناوأهم (أي: عاندهم) ﴿**وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾**﴾ إما من تمام الوعد، بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مجازيكم لا محالة، أو وعيد للمعرضين، بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه (أقول: بحسب علمه جلَّ وعلا).

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: صبغنا الله تعالى صبغته، وهي فطرة الله تعالى التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا، فإنها حلية الإنسان، كما أن الصبغة حلية المصبوغ، وقد هدانا الله تعالى هدايته وأرشدنا حجته، وطهر قلوبنا بالإيمان تطهيره. وسماه صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ لا صبغة أحسن من صبغته جلَّ وعلا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي: لا نشرك به كشرككم.

(١٣٩) ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ في شأنه واصطفائه نبيّاً من العرب دونكم. روي أن أهل الكتاب قالوا: الأنبياء كلُّهم منَّا، فلو كنت نبيّاً لكنت منَّا، فنزلت. ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا اختصاص له بقوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده (أقول: لأن النبوَّة من رحمته جلَّ وعلا) ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا؛ كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحلونه (يدَّعونه) إفحاماً وتبكيتاً (توبيخاً وتعنيفاً)، فإن كرامة النبوة تفضُّل من الله تعالى على من يشاء والكل فيه سواء. وكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله تعالى في إعطائها، فلنا أيضاً أعمال ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ موحِّدون، نخصُّه بالإيمان والطاعة دونكم.

(١٤٠) ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾ وقد نفى الأمرين عن إبراهيم ـ على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام ـ بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧]، واحتج عليه بقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ٦٥]. وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدين وفاقاً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ يعني شهادة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بالحنيفيَّة والبراءة عن اليهودية والنصرانية. والمعنى: لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة. أو منا لو كتمنا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام بالنبوَّة في كتبهم وغيرها ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ وعيدٌ لهم.

(١٤١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم. قيل: الخطاب فيما سبق لهم، وفي هذه الآية لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم.

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٖ قِبْلَةَ بَعْضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

(١٤٢) ﴿**سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ الذين خفت أحلامهم (أي: عقولهم)، واستمهنوها (أي: جعلوها مَهينة) بالتقليد والإعراض عن النظر. يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين ﴿**مَا وَلَّىٰهُمْ**﴾ ما صرفهم ﴿**عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ**﴾ يعني بيت المقدس ﴿**قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ**﴾ لا يختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام (أي: بالتزام) أمره لا بخصوص المكان ﴿**يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾**﴾ وهو ما ترتضيه الحكمة وتقتضيه المصلحة، من التوجه إلى بيت المقدس تارة والكعبةِ أخرى.

(١٤٣) ﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ أي: كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم ﴿**جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا**﴾ أي: خياراً، أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل. وسطاً: استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهوُّر والجبن (أقول: في الإسلام لا إفراط ولا تفريط). واستُدل به على أن الإجماع حجة، إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت (أي: اختلت) به عدالتهم (أقول: فعلينا جميعاً أن لا نتعلَّق بعقلنا ولا بعلمنا، لا بدَّ أن نأخذ بإجماع المسلمين).

﴿**لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ**﴾ أي: لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل وأرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام، فبلغوا ونصحوا، ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات والإعراض عن الآيات، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين من قبلكم أو بعدكم. روي «أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله تعالى ببينة التبليغ ـ وهو أعلم بهم ـ إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق عليه الصلاة والسلام، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم»

[وأصل الحديث في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

﴿**وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ**﴾ أي: الجهة التي كنت عليها ﴿**إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ**

﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ إلا لنمتحن به الناس ونعلم من يتبع الرسول ﷺ ممن لا يتبعه (أقول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: هو جلَّ وعلا عالم، ولكن ليظهر لنا).

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى حكمة الأحكام ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: ثباتكم على الإيمان، أو صلاتكم إلى القبلة المنسوخة، لما روي: أنه عليه السلام لما وجه إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات يا رسول الله قبل التحويل من إخواننا؟ فنزلت. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ فلا يضيع أجورهم ولا يدع صلاحهم.

(١٤٤) ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ تردُّد وجهك في جهة السماء تطلُّعاً للوحي، وكان رسول الله ﷺ يقع في روعه (أي: خاطره) ويتوقع من ربه أن يحوِّله إلى الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، وأقدم القبلتين، وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود، وذلك يدلُّ على كمال أدبه ﷺ حيث انتظر ولم يسأل ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ فلنمكِّننَّك من استقبالها ﴿تَرْضَاهَا﴾ تحبُّها وتتشوَّق إليها، لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله تعالى وحكمته ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ اصرف وجهك ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نحوه. والحرام: المحرَّم، أي: محرم فيه القتال ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ خصَّ الرسول ﷺ بالخطاب تعظيماً له وإيجاباً لرغبته، ثم عمَّم تصريحاً بعموم الحكم وتأكيداً لأمر القبلة وتحضيضاً للأمة على المتابعة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملةً، لعلمهم بأن عادته تعالى تخصيص كل شريعة بقبلة، وتفصيلاً: لتضمن كتبهم أنه ﷺ يصلي إلى القبلتين ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ وعد ووعيد للفريقين.

(١٤٥) ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ برهان وحجة على أن الكعبة قبلة ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ المعنى: ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة، وإنما خالفوك مكابرة وعناداً ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ قطعٌ لأطماعهم ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة (بيت المقدس)، والنصارى مطلع الشمس. لا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك، لتصلب كل حزب فيما هو فيه.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ على سبيل الفرَض والتقدير، أي: ولئن اتَّبعتهم مثلًا بعدما بان لك الحقُّ وجاءك فيه الوحي ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ (أقول: والآية وردت على سبيل الفرض والتقدير، وحاشاه ﷺ أن يتبع أهواء الكفرة المجرمين، والخطاب في الظاهر لرسول الله ﷺ والمراد أمته).

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

(١٤٦) ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ يعني علماءهم ﴿**يَعۡرِفُونَهُۥ**﴾ الضمير لرسول الله ﷺ، وإن لم يسبق ذكره لدلالة الكلام عليه ﴿**كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ**﴾ أي: يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم ﴿**وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦**﴾ تخصيص لمن عاند، واستثناء لمن آمن.

(١٤٧) ﴿**ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ**﴾ والمعنى أن الحقَّ ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه، لا ما لم يثبت كالذي عليه أهل الكتاب ﴿**فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧**﴾ الشاكِّين في أنه من ربك، أو في كتمانهم الحق عالمين به، وليس المراد به نهي الرسول ﷺ عن الشكِّ فيه، لأنه غير متوقَّع منه (أقول: والخطاب له ﷺ والمراد أمته).

(١٤٨) ﴿**وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ**﴾ ولكل أمة قبلة ﴿**هُوَ مُوَلِّيهَاۖ**﴾ أي: هو موليها وجهه، أو الله تعالى موليها إياه ﴿**فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ**﴾ من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين ﴿**أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ**﴾ أي: في أي موضع تكونوا من موافق ومخالف مجتمع الأجزاء ومفترقها يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء (أقول: لو أن عشرين ذئباً أكلوا جسد شخص واحد، وصارت كلُّ قطعة منه في معدة ذئب، يأت به الله تعالى جميعاً للحشر، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة). أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقِلل الجبال (أي: أعالي الجبال) يقبض أرواحكم، أو أينما تكونوا من الجهات المتقابلة يأت بكم الله تعالى جميعاً ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨**﴾ فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع.

(١٤٩) ﴿**وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ**﴾ ومن أيِّ مكان خرجت للسفر ﴿**فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ**﴾ إذا صليت ﴿**وَإِنَّهُۥ**﴾ وإن هذا الأمر ﴿**لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩**﴾.

(١٥٠) ﴿**وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ**﴾ كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته، وجري العادة الإلهية على أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين على ما نبينه.

﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ**﴾ المعنى أن التولية عن الصخرة إلى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وأن محمداً ﷺ يجحد ديننا ويتبعنا في قبلتنا؛ والمشركين بأنه يدَّعي ملة إبراهيم

عليه السلام ويخالف قبلته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي: لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم فإنهم يقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحباً لبلده، أو بدا له فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم، فإن مَطَاعِنَهم لا تضركم ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا ما أمرتكم به ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي: وأمرتكم لإتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم. وفي الحديث: «تمام النعمة دخول الجنة» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في الأدب المفرد] وعن علي رضي الله تعالى عنه: «تمام النعمة الموت على الإسلام».

(١٥١) ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، أو في الآخرة كما أتممتها بإرسال رسول منكم ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يحملكم على ما تصيرون به أزكياء ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ بالفكر والنظر، إذ لا طريق إلى معرفته سوى الوحي.

(١٥٢) ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ بالطاعة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ بجحد النعم وعصيان الأمر (أقول: على المؤمن أن يتذكر ما أنعمه الله تعالى عليه من دين الإسلام واتباع الشريعة واتباع السنة، وأن يقدِّم ذلك على مطلوباته الحاصلة بحساسية النفس، وإذا لم يفعل المؤمن الأوامر الإلهية ولم يقدِّمها على حظوظه فإنه يخسر، فعليه أن يتنبَّه إلى هذه الأمور، وإذا طلبت نفسه شيئاً لا بد أن يزنه بميزان الشريعة، فإذا كان موافقاً للشريعة فإنه موافق لرضا الله تعالى، وإذا كان موافقاً للسنة معناه موافقٌ لمحبة الله تعالى، حتى يميِّز حصة النفس من أوامر الله تعالى. والآية فيها تهديد من ربِّ العالمين للمؤمن كذلك، لا للكافر فقط، لأن المؤمن أعطاه ربه الإيمان والإسلام، وليس في الدنيا ولا في الآخرة أفضل من هذه النعم، فنعمة الإسلام سبب نجاته في الآخرة من عذاب الله تعالى).

(١٥٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وحظوظ النفس (أقول: يدخل في ضمنه مخالفة الشريعة والسنة النبوية، بعدم الصدقة على الفقراء وعدم إخراج زكاة المال الذي أعطاكم إياه ربكم من فضله، وعدم الإنفاق على الأقارب والأرحام وغيرهم، والذي يبخل فيما آتاه الله تعالى فإنما يبخل بحظوظ نفسه وليس بإيمانه، فإيمانه يشجعه على الدفع ونفسه تمنعه عنه) ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي أمُّ العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ بالنصر وإجابة الدعوة (أقول: فإذا أردنا أن نمتثل ما أمرنا به ربنا فإنه جل وعلا يعيننا بالنصر وإجابة الدعوة، وإذا خالفنا لا بدَّ أن نرجع ونستغفر ونثبت على ما أمرنا الله تعالى به، هذا الخطاب من الله تعالى لك، ومعلوم أنك مؤمن بحمد الله تعالى، محال عندك أن تنفي صفة الإيمان عن نفسك، فأنت مؤمن ألبتة، وعلى هذا فأنت داخل في جملة المشمولين بهذا النداء الإلهي، فلا بدَّ لك أن تجتهد لنيل هذا الربح العظيم، ولا تضيِّعه بمتابعة النفس وإغواء الشيطان وبالحرص على الدنيا الدنيئة، فالله تعالى يهديك الصراط المستقيم؛ فاستعن على أمورك في دنياك بالصلاة، وكذلك على أمور آخرتك. اللهم وفِّقنا لذلك آمين).

وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

(١٥٤) ﴿**وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ**﴾ أي: هم أموات ﴿**بَلْ أَحْيَآءٌ**﴾ أي: بل هم أحياء ﴿**وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾**﴾ ما حالُهم؛ وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يُحسُّ به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي. وعن الحسن رحمه الله تعالى: إن الشهداء أحياء عند ربهم تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الرَّوح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً فيصل إليهم الألم والوجع. والآية نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر. وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت درَّاكة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى ومزيد البهجة والكرامة.

(١٥٥) ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم**﴾ ولنصيبنكم إصابة من يختبر لأحوالكم، هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء؟ ﴿**بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ**﴾ أي: بقليل من ذلك؛ وإنما قلَّله بالإضافة إلى ما وقاهم منه ليخفف عليهم، ويريهم أن رحمته لا تفارقهم (أقول: لقد أعطاك الله تعالى عمراً طويلاً بالصحة والعافية، وعشت بالنعمة والصحة والعافية، والآن أعطاك الابتلاء والمرض، فلا بدَّ من الصبر على قضائه جلَّ وعلا حلوه ومرِّه) ﴿**وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ**﴾ وعن الشافعي رضي الله تعالى عنه: الخوف: خوف الله جلَّ وعلا، والجوع: صوم رمضان، والنقص من الأنفس: الأمراض، ومن الثمرات: موت الأولاد (عبَّر عنهم بالثمرات لأنهم ثمرة الفؤاد)، وعن النبي ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم روح ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿**وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾**﴾ (على هذه البلايا، أو المسترجعين عند البلايا، لأن الاسترجاع تسليمٌ وإذعان [تفسير النسفي]).

(١٥٦) ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾**﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لمن تتأتى

منه البشارة؛ والمصيبة تعمُّ ما يصيب الإِنسان من مكروه؛ وليس الصبر بالاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب بأن يتصور ما خلق لأجله، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكر نعم الله تعالى عليه ليرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استردَّه منه، فيهوِّن على نفسه، ويستسلم له.

(١٥٧) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ الصلاة في الأصل: الدعاء، ومن الله تعالى: التزكية والمغفرة، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوُّعها، والمراد بالرحمة اللطف والإِحسان ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ للحق والصواب، حيث استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى.

(١٥٨) ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾ هما علمان لجبلين بمكة ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ من أعلام مناسكه ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ﴾ الحج لغة: القصد، والاعتمار: الزيارة، فغلبا شرعاً على قصد البيت وزيارته على الوجهين المخصوصين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ كان إساف على الصفا ونائلة على المروة (إساف ونائلة اسمان لصنمين)، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما، فلما جاء الإِسلام وكسرت الأصنام تحرَّج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك، فنزلت. والإِجماع على أنه مشروع في الحج والعمرة ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا﴾ أي: فعل طاعة فرضاً كان أو نفلاً، أو زاد على ما فرض الله تعالى عليه من حج أو عمرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ مثيب على الطاعة لا تخفى عليه.

(١٥٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ كأحبار اليهود ﴿مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ كالآيات الشاهدة على أمر محمد ﷺ ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾ وما يهدي إلى وجوب اتباعه والإيمان به ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾ لخصناه ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في التوراة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ أي: الذين يتأتى منهم اللعن عليهم من الملائكة والثقلين.

(١٦٠) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسدوا بالتدارك (أقول: قبل فوات زمان التدارك) ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ ما بيَّنه الله تعالى في كتابهم لتتمَّ توبتهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالقبول والمغفرة ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة.

(١٦١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي: ومن لم يتب من الكاتمين حتى مات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ استقر عليهم اللعن من الله تعالى ومن يُعتد بلعنه من خلقه.

(١٦٢) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أي: في اللعنة، أو النار ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ أي: لا يمهلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

(١٦٣) ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ خطاب عام، أي: المستحقُّ منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يعبد أو يسمى إلهاً ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ كالحجة عليها، فإنه لما كان مولى النعم كلها أصولها وفروعها وما سواه إما نعمة أو منعم عليه لم يستحق العبادة أحد غيره سبحانه وتعالى.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

(١٦٤) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (وفي سورة الطلاق قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، كما بيَّن الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله تعالى أن عوالم طبقات الأرض سبعٌ ثابتةٌ بشهادة كثير من أهل الكشف وأصحاب الشهود [انظر اللمعات ص١٠٢]) ﴿وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تعاقبهما ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ أي: بالذي ينفعهم، والقصد به إلى الاستدلال بالبحر وأحواله ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالنبات ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ في مهابها وأحوالها، ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مسخَّرٌ للرياح تقلِّبه في الجو بمشيئة الله تعالى ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون عقولهم.

(١٦٥) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ من الأصنام. وقيل: من الرؤساء (والمراد بالأنداد رؤساء الكفار) الذين كانوا يطيعونهم، لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] ولعل المراد أعم منهما وهو ما يشغله عن الله تعالى ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعظمونهم ويطيعونهم ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ كتعظيمه والميل إلى طاعته سبحانه. والمحبة ميل القلب، ومحبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه، ومحبة الله تعالى للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة وصونه عن المعاصي.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأنه لا تنقطع محبتهم لله تعالى، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراض فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب، ولذلك كانوا يعدلون عن آلهتهم إلى الله تعالى عند الشدائد، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ إذ عاينوه يوم القيامة؛ وأجرى المستقبل مجرى الماضي لتحقُّقه، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: لو يعلمون أن القوة لله تعالى جميعاً إذا عاينوا العذاب لندموا أشد الندم. وقيل: ولو يرى الذين ظلموا أندادهم لا تنفع لعلموا أن القوة لله تعالى كلها، لا ينفع ولا يضرُّ غيره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾.

(١٦٦) ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: إذ تبرَّأ المتبوعون من الأتباع ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ والأسباب: الوصل التي كانت بينهم من الاتباع والاتفاق على الدين، والأغراض الداعية إلى ذلك.

(١٦٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ أي: ليت لنا كرة إلى الدنيا فنتبرأ منهم ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ أصله مبالغة في الخلود والإقناط عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا.

(١٦٨) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا﴾ نزلت في قوم حرَّموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ﴿طَيِّبًا﴾ يستطيبه الشرع ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى فتحرِّموا الحلال وتحلِّلوا الحرام (أقول: الهوى في نفس الإنسان، والشيطان يوسوس له ويأتيه من الخارج، مع هذا فإنه يتبع الشيطان ويتبع هواه، حينذاك ينشرد عن الاستقامة، هذه مصيبتنا لمن لم يتنبَّه لاتباع الهوى، ولم يقف على حيل الشيطان، قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]) ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة وإن كان يظهر الموالاة لمن يغويه، ولذلك سماه ولياً في قوله تعالى: ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(١٦٩) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ بيانٌ لعداوته ووجوب التحرز عن متابعته. واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم. والسوء والفحشاء: ما أنكره العقل واستقبحه الشرع ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ كاتِّخاذ الأنداد وتحليل المحرمات وتحريم الطيبات. وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأساً؛ وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظنٌّ مستند إلى مدرك شرعي فوجوبه قطعي.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

(١٧٠) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ**﴾ أي: ما وجدناهم عليه. نزلت في المشركين، أُمروا باتِّباع القرآن وسائر ما أنزل الله تعالى من الحجج والآيات، فجنحوا إلى التقليد ﴿**أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾**﴾ أي: لو كان آباؤهم جهلة لا يتفكرون في أمر الدين ولا يهتدون إلى الحق لاتبعوهم. وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد. وأما اتباع الغير في الدين إذا علم بدليل ما أنه محق ـ كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام ـ فهو في الحقيقة ليس بتقليد، بل اتباع لما أنزل الله جلَّ وعلا.

(١٧١) ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ**﴾ المعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر معهم، فهم في ذلك كالبهائم التي ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه ﴿**صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾**﴾ أي: بالفعل، للإخلال بالنظر.

(١٧٢) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ**﴾ لما وسَّع الأمر على الناس كافة وأباح لهم ما في الأرض سوى ما حرم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا ويقوموا بحقوقها فقال: ﴿**وَاشْكُرُواْ لِلَّهِ**﴾ على ما رزقكم وأحل لكم ﴿**إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾**﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه مولى النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر.

(أقول: والحكمة في تكرر الأكل لتكرر الطاعات، فلا بد لمن يأكل تكراراً أن يجاهد في العبادة تكراراً، حتى يمتاز عن الحيوانات ، فكما أن الطعام غذاء للجسد، فكذلك العبادات غذاء للروح، والأكل بلا طاعات يقوي الجسد ولا يقوي الروح، وهو مصيبة على المؤمن من جانب، وطاعة من جانب آخر، فإن كان يتقوَّى به على معصية الله تعالى فهو مصيبة في حقِّه، وإن كان يتقَّوى به على طاعة الله تعالى فهو طاعة. وإن كان يأكل بالأمر فإنه يأخذ بمقدار الكفاية بدون زيادة ولا نقصان، بعد تحريه عن الحلال، وزهده بما في أيدي الناس، ولا بدَّ للإنسان من أن يتفكَّر أن ما كان له فسيصل إليه، وما كان لغيره فلن يصل إليه).

(١٧٣) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أكلها، أو الانتفاع بها، وهي التي ماتت من غير ذكاة، والحديث ألحقَ بها ما أُبِينَ (أي: فُصِلَ) من حَيٍّ؛ والسمك والجراد استثناهما الشرع ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: رُفع به الصوت عند ذبحه للصنم ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ بالاستئثار على مضطر آخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾ (ولا متجاوز) سدَّ الرمق، أو الجوعة؛ وقيل: غير باغٍ على الوالي، ولا عادٍ بقطع الطريق ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تناوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعل ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ بالرخصة فيه.

(١٧٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عوضاً حقيراً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ إما في الحال، لأنهم أكلوا ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار، أو في المآل، أي: لا يأكلون يوم القيامة إلا النار ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عبارة عن غضبه عليهم، وتعريض بحرمانهم حال مقابليهم في الكرامة والزلفى من الله تعالى ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لا يثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ مؤلم.

(١٧٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ في الدنيا ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ في الآخرة، بكتمان الحق للمطامع والأغراض الدنيوية ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ تعجب من حالهم في الالتباس بموجبات النار من غير مبالاة.

(١٧٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ذلك العذاب بسبب أن الله تعالى نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ والإشارة إما إلى التوراة، واختلفوا بمعنى تخلفوا عن المنهج المستقيم في تأويلها وحرَّفوا ما فيها؛ وإما إلى القرآن: واختلافهم فيه قولهم سحر، وتقوُّل، وكلام علمه بشر، وأساطير الأولين ﴿لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ لفي خلاف بعيد عن الحق.

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾﴾

(١٧٧) ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ البرُّ كل فعل مَرْضِيٍّ؛ والخطاب لأهل الكتاب، فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حولت، وقيل: عام لهم وللمسلمين، أي ليس البر مقصورا بأمر القبلة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: ولكنَّ البرَّ الذي ينبغي أن يُهتَمَّ به برُّ من آمن بالله تعالى، والمراد بالكتاب الجنس، أو القرآن ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: على حبِّ المال، كما قال عليه الصلاة والسلام لما سئل: أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر» [رواه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ يريد المحاويج منهم، ولم يقيد لعدم الالتباس. وقدَّم ذوي القربى لأن إيتاءهم أفضل كما قال عليه الصلاة والسلام: «صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذوي رحمك اثنتان، صدقة وصلة» [أخرجه الإمام أحمد والترمذي وقال: حديث حسن] ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾ جمع المسكين، وهو الذي أسكنته الخلة (أي: الحاجة والفقر) ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر (أي: المسافر المنقطع عن ماله) ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال، ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ ابتياع الرقاب لعتقها ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ الزكاة المفروضة، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها، ومن الثاني أداؤها والحث عليها ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وعن الأزهري: البأساء في الأموال كالفقر، والضراء في الأنفس كالمرض ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ وقت مجاهدة العدو ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ في الدين واتباع الحق وطلب البر ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ عن الكفر وسائر الرذائل. والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالَّة عليها صريحاً أو ضمناً، فإنها بكثرتها وتشعُّبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس (عن الشح). وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ إلى ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾. وإلى الثاني بقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ إلى ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها؛ ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده بالتقوى، اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق.

(١٧٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ كان في الجاهلية بين حيَّين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طول على الآخر، فأقسموا لنقتلنَّ الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وأمرهم أن يتباوؤوا (أي: يتساووا) ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: شيء من العفو. وذكره بلفظ الأخوة الثابتة بينهما من الجنسية والإسلام ليرقَّ له ويعطف عليه ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ والمراد به وصية العافي بأن يطلب الدية بالمعروف فلا يعنف، والمعفو عنه بأن يؤديها بالإحسان وهو أن لا يمطل ولا يبخس ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الحكم المذكور في العفو والدية ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: قتلَ بعد العفو وأخذ الدية ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾ في الآخرة.

(أقول: جِرم (جسم) الإنسان صغير، ولكنَّ جُرمه كبير، والعقاب على قدر الجُرم لا على قدر الجِرم، لذا صاحب الجِرم الصغير إذا أنكر شرع الله عزَّ وجل لا يليق له إلا نار جهنم، والعياذ بالله تعالى، وما أكثر التهديد في القرآن لهذا الإنسان وهو في غفلته مستغرق، ولا يرجع إلى رشده ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]. فاتخذ أيها المؤمن الصادق سبيلَ رسول الله ﷺ تسعد في الدارين، وتكن من أهل العدل، وإلا تكون ظالماً، لأن كلَّ سبيل غير سبيل رسول الله ﷺ ظلم وعدوان).

(١٧٩) ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتُصَّ منه في الدنيا لم يؤاخَذ به في الآخرة ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ذوي العقول الكاملة. ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ في المحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له، أو عن القصاص فتكفوا عن القتل.

(١٨٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: حضرت أسبابه وظهرت أماراته ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالاً. وقيل: مالاً كثيراً، لما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رجلاً أراد أن يوصي فسألته: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف، فقالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ وإن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك [رواه البيهقي وابن أبي شيبة وعبد الرزاق رحمهم الله تعالى] ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وكان هذا الحكم في بدء الإسلام فنسخ بآية المواريث ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾.

(١٨١) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ غيَّره من الأوصياء والشهود ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي: وصل إليه وتحقق عنده ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ لأنهم هم الذين حافوا (أي: جاروا) وخالفوا الشرع ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)﴾ وعيد للمبدل بغير حق.

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(١٨٢) ﴿**فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ**﴾ أي: توقَّع وعلم ﴿**جَنَفًا**﴾ ميلاً بالخطأ في الوصية ﴿**أَوْ إِثْمًا**﴾ تعمُّداً للحيف (أي: الجور) ﴿**فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ**﴾ بين الموصى لهم بإجرائهم على نهج الشرع ﴿**فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾**﴾ وعد للمصلح.

(١٨٣) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ**﴾ (أي: فُرِضَ) ﴿**عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ يعني الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام؛ وفيه توكيد للحكم وترغيب على الفعل وتطييب على النفس. والصوم في اللغة: الإمساك عما تنازع إليه النفس، وفي الشرع: الإمساك عن المفطرات بياض النهار، فإنها معظم ما تشتهيه النفس (أقول: فالمؤمن إيمانه يريد الصوم ولا يريد المخالفة، والنفس والشهوة تريد المخالفة) ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾**﴾ المعاصي فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء» [رواه الشيخان رحمهما الله تعالى وغيرهما] (أقول: أيامك معدودة في الحياة الدنيا، وكل معدود له نهاية، فاغتنم فرصة حياتك بحسن الإقبال على الله تعالى، من خلال اتباعك للنبي ﷺ، انظر كيف كان صيامه ﷺ، وحاول أن تتابعه في ذلك حتى تدخل في مقام الإحسان، عندها تكون عبادتك لربك عز وجل بين مقامي المراقبة والمشاهدة، ومن دخل في هذا المقام لا يعصي مولاه، فإن زلت قدمه فإنه لا يصر على المعصية بل ينزع ويستغفر، وهذا لا يسقط من عناية الله عز وجل).

(١٨٤) ﴿**أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ**﴾ مؤقتات بعدد معلوم، أو قلائل؛ والمراد بها رمضان ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا**﴾ مرضاً يضرُّه الصوم ويعسر معه ﴿**أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ**﴾ أو راكب سفر، وفيه إيماء إلى أن من سافر أثناء اليوم لم يفطر ﴿**فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ أي: فعليه صوم عدد أيام المرض أو السفر من أيام أخر إن أفطر ﴿**وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ**﴾ وعلى المطيقين (أي: بشدة) للصيام إن أفطروا ﴿**فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾ نصف صاع من بُرّ، أو صاع من غيره عند فقهاء العراق، ومُدٌّ عند فقهاء الحجاز. رُخِّص لهم في ذلك أول الأمر لما أمروا بالصوم فاشتدَّ عليهم لأنهم لم يتعوَّدوه، ثم نسخ (ذهب أكثر العلماء إلى أنها منسوخة، ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ [تفسير الخازن]) ﴿**فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا**﴾ فزاد في الفدية ﴿**فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ**﴾.

﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ أيها المطيقون أو المرخصون في الإفطار، ليندرج تحته المريض والمسافر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية أو تطوع الخير أو منهما ومن التأخير للقضاء ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ ما في الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة. وقيل: معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبُّر علمتم أنَّ الصوم خير لكم من ذلك.

(١٨٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ أي: صيام شهر رمضان ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك ليلة القدر، أو أنزل فيه جملة إلى سماء الدنيا ثم نزل منجَّماً إلى الأرض (على قلب الرسول عليه الصلاة والسلام) وفيه إشعار بأن الإنزال فيه سبب اختصاصه بوجوب الصوم ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: هداية للناس بإعجازه، وآيات واضحات مما يهدي إلى الحق ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه من الحِكَم والأحكام ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافراً فليصم فيه ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مخصصاً له، لأن المسافر والمريض ممن شهد الشهر، ولعل تكريره لذلك، أو لئلا يتوهم نسخه كما نسخ قرينه ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر، فلذلك أباح الفطر في السفر والمرض ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ أي: وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، والمرخص بالقضاء، ومراعاة عدة ما أفطر فيه، والترخيص ﴿لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ إلى آخرها، والمعني بالتكبير تعظيم الله تعالى بالحمد والثناء عليه، وقيل: تكبير يوم الفطر.

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ أي: فقل لهم: إني قريب (وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ هو على الإضمار - والله أعلم - كأنه قال: وإذا سألك عبادي: أين أنا عن إجابتهم؟ فقل لهم: إني قريب الإحسان والبر والكرامة لمن أطاعني. ويحتمل: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ قرب العلم والإجابة، لا قرب المكان والذات كقرب بعضهم من بعض في المكان؛ لأنه سبحانه كان ولا مكان، ويكون على ما كان، وكذلك قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وكقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُون﴾ [الواقعة: ٨٥] كل ذلك يرجع إلى قرب العلم والإحاطة وارتفاع الجهات، لا قرب الذات على ما ذكرنا [تفسير الإمام الماتريدي رحمه الله تعالى: ٤٨/٢])، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم (ونياتهم)، واطلاعه على أحوالهم بحال من قَرُبَ مكانه منهم. روي أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت [أخرجه ابن أبي حاتم والطبري في التفسير رحمهما الله تعالى] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ تقرير للقرب، ووعد للداعي بالإجابة ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾ أمر بالثبات والمداومة عليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ راجين إصابة الرشد، وهو إصابة الحق (أقول: لعل وعسى في القرآن تأتي بمعنى التحقيق).

واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقَّبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم (ومطَّلع على نياتهم) مجيب لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثّاً عليه، ثم بيَّن أحكام الصوم فقال تعالى:

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

(١٨٧) ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ**﴾ ليلة الصيام: الليلة التي تصبح منها صائماً. والرفث: كناية عن الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ**﴾ استئناف يبين سبب الإحلال، وهو قلَّة الصبر عنهنَّ وصعوبة اجتنابهنَّ لكثرة المخالطة وشدة الملابسة ﴿**عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ**﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظِّها من الثواب ﴿**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾ لما تبتم مما اقترفتموه ﴿**وَعَفَا عَنكُمْۖ**﴾ ومحا عنكم أثره ﴿**فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ**﴾ لما نسخ عنكم التحريم ﴿**وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ**﴾ واطلبوا ما قدره لكم وأثبته في اللوح المحفوظ من الولد، والمعنى: أن المباشر ينبغي أن يكون غرضُه الولدَ، فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرعِ النكاح، لا قضاءَ الوطر (أقول: فإذا قطع الأمل عن الولد من الجانبين عليه أن يحفظ دينه ولذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وإذا نظر إلى النساء الأجنبيات وتحرَّكت في نفسه الشهوة، عليه أن لا يترك الحلال، لقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أَيُّمَا رَجُلٍ رَأَى امْرَأَةً تُعْجِبُهُ فَلْيَقُمْ إِلَى أَهْلِهِ، فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا» [أخرجه الدارمي رحمه الله تعالى]، فكما أن الإنسان الذكر لديه شهوة لا بدَّ أن يقيس المرأة على نفسه، لأن شهوة النساء أقوى من شهوة الرجال، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم). وقيل: النهي عن العزل، وقيل: عن غير المأتي، والتقدير: وابتغوا المحل الذي كتب الله تعالى لكم (أقول: ولا تتجاوزوا إلى غيره كما يفعل فساق الرجال) ﴿**وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ**﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غبش الليل بخيطين أبيض وأسود. وفي تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالة على جواز تأخير الغسل إليه، وصحة صوم المصبح جنباً (لكن مع الكراهة) ﴿**ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ**﴾ بيان لآخر وقته، وإخراج الليل عنه ونفي صوم الوصال ﴿**وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ**﴾ معتكفون فيها. والاعتكاف: هو اللبث في المسجد بقصد القربة. والمراد بالمباشرة: الوطء ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ**﴾ أي الأحكام التي ذكرت ﴿**فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾ نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن لكل

ملك حمى وإن حمى الله محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» [والحديث أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي ولا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله تعالى (بالشرع) ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ (أقول: بالرشوة لتأكلوا بعض أموال الناس خارج أحكام الشرع) أي: ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقٗا﴾ طائفة ﴿مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ بما يوجب إثماً، كشهادة الزور واليمين الكاذبة ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح. وهي دليل على أن حكم القاضي لا ينفذ باطناً، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له قطعة من نار فليأخذها أو ليذرها» [الحديث رواه الشيخان رحمهما الله تعالى].

(١٨٩) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رضي الله عنهما فقالا: (ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط، ثم يزيد حتى يستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ) ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ فإنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمره، فأمره الله تعالى أن يجيب بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس يوقتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات الموقتة يعرف بها أوقاتها، وخصوصاً الحج، فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء. والمواقيت: جمع ميقات، من الوقت، والوقت: الزمان المفروض لأمر.

﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه، وإنما يدخلون من نقب أو فرجة وراءه، ويعدُّون ذلك برّاً، فبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر بر من اتقى المحارم والشهوات ولم يجترئ على مثلها (أي: مثل هذه المخالفات).

﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ إذ ليس في العدول برٌّ، فباشروا الأمور من وجوهها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾ لكي تظفروا بالهدى والبر.

(١٩٠) ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جاهدوا لإعلاء كلمته وإعزاز دينه ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ قيل: كان ذلك قبل أن أُمروا بقتال المشركين كافة، المقاتلين منهم والمحاجزين (أي: المانعين). وقيل: معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك، دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم فإنهم بصدد قتال المسلمين وعلى قصده. ويؤيد الأول ما روي: أن المشركين صدُّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابل فيُخْلُوا له مكة شرفَّها الله تعالى ثلاثةَ أيام، فرجع رسول الله ﷺ لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم أو الشهر الحرام وكرهوا ذلك، فنزلت ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ بابتداء القتال، أو بقتال المعاهد، أو المفاجأة به من غير دعوة، أو المثلة، أو قتل من نهيتم عن قتله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ لا يريد بهم الخير.

وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

(١٩١) ﴿**وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾ حيث وجدتموهم في حل أو حرم ﴿**وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ**﴾ أي: من مكة، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح ﴿**وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ**﴾ أي: المحنة التي يفتتن بها الإنسان ـ كالإخراج من الوطن ـ أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها (أقول: ولكن لا يستشعر بهذا التعب كل واحد إذا لم يحصل له، ولذا نرى أكثر الأغنياء لا يشفقون على المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً. وسعادة المؤمن في أمرين: تعظيم أوامر الله تعالى، والشفقة على خلق الله تعالى) ﴿**وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ**﴾ أي: لا تفاتحوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام ﴿**فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ**﴾ فلا تبالوا بقتالهم فإنهم الذين هتكوا حرمته ﴿**كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾**﴾ مثل ذلك جزاؤهم يُفعل بهم مثل ما فعلوا.

(١٩٢) ﴿**فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ**﴾ عن القتال والكفر ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾**﴾ يغفر لهم ما قد سلف.

(١٩٣) ﴿**وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ شرك ﴿**وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ**﴾ خالصاً له ليس للشيطان فيه نصيب (أقول: يوجد من الناس من يعين الشيطان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠]) ﴿**فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ**﴾ عن الشرك ﴿**فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾**﴾ أي: فلا تعتدوا على المنتهين، إذ لا يحسن أن يظلم إلا من ظلم. أو أنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين، وينعكس الأمر عليكم.

(١٩٤) ﴿**ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ**﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجهم لعمرة القضاء فيه، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحرمته، فقيل لهم: هذا الشهر بذاك وهتكه بهتكه، فلا تبالوا به ﴿**وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ**﴾ احتجاج عليه، أي: كل حرمة وهو ما يجب أن يحافظ عليها يجري فيها القصاص؛ فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله، وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم إن قاتلوكم. كما قال: ﴿**فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ**﴾ في الانتصار ولا تعتدوا إلى ما لم يُرخص لكم ﴿**وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾**﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

(١٩٥) ﴿**وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ ولا تمسكوا كلَّ الإمساك ﴿**وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ**﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش، أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه، فإن ذلك يقوي العدو ويسلِّطهم على إهلاككم. ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنه قال: لما أعزَّ الله تعالى الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت. أو بالإمساك وحب المال، فإنه يؤدي إلى الهلاك المؤبد، ولذلك سمي البخل

هلاكاً ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ﴾ أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضَّلوا على المحاويج ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾.

(١٩٦) ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ أي: ائتوا بهما تامَّين مستجمعي المناسك لوجه الله تعالى، وهو على هذا يدلُّ على وجوبهما. وما روى جابر رضي الله تعالى عنه «أنه قيل: يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج؟ فقال: لا، ولكن إن تعتمر خير لك» [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى]، فمعارض بما روي: «أن رجلاً قال لعمر رضي الله تعالى عنه: إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليَّ أهللت بهما جميعاً، فقال: هديت لسنة نبيك ﷺ» [رواه أبو داود والنسائي رحمهما الله تعالى] (أقول: أن ينوي بالعمرة والحج، فإذا حصل له نية الدخول بالعمرة والحج فقد أتمَّهما جميعاً). وقيل: إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة (أي: دار) أهلك، أو أن تفرد لكلٍّ منهما سفراً (أقول: أو أن تهلَّ بالعمرة ثم تدخل في الحج، قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ قال القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى: أي: فمن استمتع بعد التحلُّل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾) أو أن تجرده لهما لا تشوبهما بغرض دنيوي، أو أن تكون النفقة حلالاً ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مُنعتم، وهو كل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ﴾ والمعنى: إن أحصر المحرم وأراد أن يتحلَّل تحلَّل بذبح هدي تيسَّر عليه ـ من بدنة أو بقرة أو شاة ـ حيث أحصر عند الأكثر، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى يبعث به، ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار (أي: اليوم الذي عينه) فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أي: لا تحلوا حتى تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ محله، أي: مكانه الذي يجب أن ينحر فيه. وحمل الأولون بلوغ الهدي محله على ذبحه حيث يحل الذبح فيه حلاً كان أو حرماً، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يجب القضاء ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كجراحة وقمل ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه فدية إن حلق ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة: «لعلك آذاك هوامُّك؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: احلق وصم ثلاثة أيام، أو تصدق بفرق على ستة مساكين، أو انسك شاة» [رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. والفرق ثلاثة آصع ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ الإحصار، أو كنتم في حال سعة وأمن ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج في أشهره. وقيل: فمن استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ﴾ فعليه دم استيسره بسبب التمتع، فهو دم جبر أن يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إنه دم نسك، فهو كالأضحية ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدي ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾ في أيام الاشتغال به بعد الإحرام وقبل التحلل. قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه. ولا يجوز صوم يوم النحر وأيام التشريق عند الأكثرين ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ﴾ إلى أهليكم، وهو أحد قولي الشافعي رضي الله تعالى عنه، أو نفرتم وفرغتم من أعماله، وهو قوله الثاني ومذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ﴾ مبينة كمال العشرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الحكم المذكور عند الشافعية ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عندنا (أي: الشافعية) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصاً في الحج ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦﴾ لمن لم يتقه كي يصدكم العلم به عن العصيان.

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

(١٩٧) ﴿**ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ**﴾ أي: وقته أشهر ﴿**مَّعْلُومَٰتٌ**﴾ معروفات وهي: شوال وذو القعدة وتسعة من ذي الحجة بليلة النحر عندنا، والعشر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وذي الحجة كله عند مالك رحمه الله تعالى. (أقول: من أراد تفصيل أحكام الحج لا بدَّ أن يراجع مناسك الحج في كتب الفقه حتى تتبين له الأحكام جميعاً، لأن الفقهاء رحمهم الله تعالى أعلم بمعاني القرآن وتفاصيلها في مناسك الحج وغيرها من الأحكام).

﴿**فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ**﴾ فمن أوجبه على نفسه ﴿**فَلَا رَفَثَ**﴾ فلا جماع، أو فلا فحش من الكلام ﴿**وَلَا فُسُوقَ**﴾ ولا خروج عن حدود الشرع بالسيئات وارتكاب المحظورات ﴿**وَلَا جِدَالَ**﴾ ولا مراء مع الخدم والرفقة ﴿**فِى ٱلْحَجِّ**﴾ في أيامه؛ وما كان مستقبحاً في نفسه ففي الحج أقبح (أقول: وكذلك الأخلاق المخالفة للشريعة المستقبحة شرعاً أو عرفاً إذا كانت في الحج فهي أقبح).

﴿**وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ**﴾ حثٌّ على الخير عقَّب به النهي عن الشر ليستبدل به ويستعمل مكانه ﴿**وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ**﴾ وتزوَّدوا لمعادكم (يعني لآخرتكم) التقوى فإنه خير زاد ﴿**وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾**﴾ فإن قضية اللب خشية الله تعالى وتقواه. حثَّهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه، وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص أولي الألباب بهذا الخطاب.

(١٩٨) ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟**﴾ أي: في أن تطلبوا ﴿**فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ عطاء ورزقاً منه، يريد الربح بالتجارة ﴿**فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ**﴾ دفعتم منها بكثرة. وفيه دليل على وجوب الوقوف بها، لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده، وهي مأمور بها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ [البقرة: ١٩٩] ﴿**فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ**﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء. وقيل: بصلاة العشاءين ﴿**عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ**﴾ جبل يقف عليه الإمام، ويسمى «قزح». وإنما سمي مشعراً لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرام لحرمته. ومعنى ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ

الْحَرَامِ﴾: مما يليه ويقرب منه فإنه أفضل، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسِّر ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ كما علَّمكم، أو اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: الهدى ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ أي: الجاهلين بالإيمان والطاعة.

(١٩٩) ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: من عرفة لا من المزدلفة ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه (أقول: واستغفروا الله تعالى من مخالفتكم للشريعة) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه (بالعفو).

(٢٠٠) ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾ فإذا قضيتم العبادات الحجية وفرغتم منها ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾ فاكثروا ذكره وبالغوا فيه ﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ والمعنى: فاذكروا الله تعالى كذكر قوم أشد منكم ذكراً ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ تفصيل للذاكرين إلى مقلٍّ لا يطلب بذكر الله تعالى إلا الدنيا، ومكثر يطلب به خير الدارين. والمراد الحثُّ على الإكثار والإرشاد إليه ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ اجعل إيتاءنا ومنحتنا في الدنيا ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠﴾ أي: نصيب وحظ؛ لأن همه مقصور بالدنيا.

(٢٠١) ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ يعني: الصحة والكفاف وتوفيق الخير ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ يعني الثواب والرحمة ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ بالعفو والمغفرة. قال علي رضي الله تعالى عنه: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار المرأة السوء.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار.

(أقول: خصص الشهوة لأن أشد المعاصي على الشخص المؤمن أو المؤمنة الشهوة، هذا من الطبيعة البهيمية، نحن مع إيماننا وإسلامنا مبتلَوْن بهذا، اللهم احفظنا).

(٢٠٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الفريقين ﴿لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ أي: من جنسه، وهو جزاؤه. أو مما دعوا به نعطيهم منه ما قدَّرناه ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم في مقدار لمحة (سئل سيدنا علي رضي الله عنه: كيف يحاسب الله تعالى الخلق على كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم على كثرتهم [روح البيان]).

۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

(٢٠٣) ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ كبِّروه في أدبار الصلاة وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ فمن استعجل النفر ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ يوم النحر والذي بعده، أي: فمن نفر في ثاني أيام التشريق بعد رمي الجمار عندنا، وقبل طلوع الفجر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ باستعجاله ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مجامع أموركم ليعبأ بكم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ للجزاء بعد الإحياء.

(٢٠٤) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ يروقك ويعظم في نفسك ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: ما يقوله في أمور الدنيا وأسباب المعاش، أو في معنى الدنيا، فإنها مراده من ادعاء المحبة وإظهار الإيمان ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ يحلف ويستشهد الله تعالى على أن ما في قلبه موافق لكلامه (أقول: هذا مجرد نفاق، فعلى المؤمن أن لا يغترَّ بأمثال هذا. ما دام هذا وقع من المنافقين مع رسول الله ﷺ وهو مؤيد بالوحي الإلهي، والله تعالى يوقظه، فنحن مع ضعفنا لا بد أن نحذر من هذا) ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ شديد العداوة والجدال للمسلمين. قيل: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله ﷺ ويدعي الإسلام. وقيل: في المنافقين كلهم.

(٢٠٥) ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أدبر وانصرف عنك ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف، إذ بيَّتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل (هذا يطلق على ما حصل مع الشعب السوري) ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ لا يرتضيه فاحذروا غضبه عليه.

(٢٠٦) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر باتقائه ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ﴾ كفته جزاء وعذاباً. وجهنم: عَلَمٌ لدار العقاب، وهو في الأصل مرادف للنار ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ أي: الفراش.

(٢٠٧) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ﴾ يبيعها، أي: يبذلها في الجهاد، أو يأمر بالمعروف وينهى عن

المنكر حتى يُقتل ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ طلباً لرضاه. قيل: إنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي رضي الله تعالى عنه، أخذه المشركون وعذبوه ليرتدَّ، فقال: إني شيخ كبير لا ينفعكم إن كنت معكم ولا يضركم إن كنت عليكم، فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي، فقبلوه منه وأتى المدينة ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء وكلفهم بالجهاد فعرَّضهم لثواب الغزاة والشهداء.

(٢٠٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ السلم: الاستسلام والطاعة، والمعنى: استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملة ظاهراً وباطناً، والخطاب للمنافقين (أقول: لا بدَّ للمؤمن أن يحفظ باطنه، لأنَّ الله تعالى مطَّلع عليه، وإذا كان الله تعالى مطلعاً عليه فلا عبرة لإظهاره أو إخفائه، فعلى المؤمن أن يكتفي بعلم الله تعالى، ومن فعل خلاف ذلك فهو من النفاق)، أو ادخلوا في الإسلام بكلِّيتكم ولا تخلطوا به غيره (أقول: فلا تُدخلوا في نيَّتكم وعملكم غير الإسلام)، والخطاب لمؤمني أهل الكتاب، فإنهم بعد إسلامهم عظموا السبت وحرموا الإبل وألبانها، أو في شرائع الله تعالى كلها بالإيمان بالأنبياء والكتب جميعاً، والخطاب لأهل الكتاب، أو في شعب الإسلام وأحكامه كلها فلا تُخِلُّوا بشيء، والخطاب للمسلمين ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ ظاهر العداوة (أقول: أمرنا الله جل وعلا بالدخول في الإسلام في جميع أحكامه كافة صغيرها وكبيرها، سننها وفرائضها، وأولها الإيمان بأركانه الستة، وكذلك الشهادة، والصلاة والزكاة والصوم والحج من أركان الإسلام، ولكن بهذه الأمور كلها بدون الإيمان لا يكون المؤمن مؤمناً، ولا يكون المسلم متَّصفاً بالإسلام ما لم يبن أركان الإسلام على الإيمان).

(٢٠٩) ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ عن الدخول في السلم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه الانتقام (تهديد من الله تعالى لمن خالف أمر الله تعالى وشرعه) ﴿حَكِيمٌ ٢٠٩﴾ لا ينتقم إلا بحقٍّ (أي: لا ينتقم ظلماً).

(٢١٠) ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يأتيهم أمره أو بأسه، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] (أقول: وهو أمر الخالق جلَّ وعلا لفصل القضاء بينهم، وينتهي أمر الخلائق بالفصل بينهم، وهذا القول على التأويل، والله تبارك وتعالى أعلم بمراده، والذهاب والإياب من لوازم الحوادث، وهو سبحانه وتعالى منزَّه عن لوازم الحدوث) ﴿فِي ظُلَلٖ﴾ جمع ظُلَّة، وهي ما أظلَّك ﴿مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ السحاب الأبيض، وإنما يأتيهم العذاب فيه لأنه مظنَّة الرحمة، فإذا جاء منه العذاب كان أفظع لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أصعب، فكيف إذا جاء من حيث يحتسب الخير؟ (أقول: كما حصل لبعض الأقوام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيم﴾ [الأحقاف: ٢٤] ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فإنهم الواسطة في إتيان أمره، أو الآتون على الحقيقة ببأسه ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ أُتِمَّ أمر إهلاكهم وفُرِغَ منه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾.

(فائدة في قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح: هذا من المكتوم الذي لا يُفسَّر، وروى عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن ابن عباس رضي الله عنهما: تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير يعلمه العلماء، وتفسير تعرفه العرب، وتفسير لا يقدر عليه أحد لجهالته، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل ومن ادعى علمه فهو كاذب [تفسير السمرقندي]).

سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾

(٢١١) ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أمر للرسول ﷺ، أو لكل أحد. والمراد بهذا السؤال تقريعهم ﴿كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾ معجزة ظاهرة، أو آية في الكتب شاهدة على الحق والصواب على أيدي الأنبياء ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: آيات الله تعالى فإنها سبب الهدى الذي هو أجل النعم، بجعلها سبب الضلالة وازدياد الرجس ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ من بعد ما وصلت إليه وتمكن من معرفتها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة.

(٢١٢) ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ حسنت في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها (أقول: لا بدَّ أن نتجنَّب عن محبة الدنيا والتهالك عليها كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة، لا يضرُّ وجود المال، ولا يضرُّ الأخذ بالأسباب حتى يحصِّل المال، ولكن بقلوبكم لا تتعلَّقوا بالمال، واستنكفوا عن حبِّ الدنيا، اليوم يعطي وغداً يأخذ، فاحذروا من التهالك على الدنيا)، والمزيِّن في الحقيقة هو الله تعالى إذ ما من شيء إلا وهو فاعله، وكلٌّ من الشيطان (يزين حب المال في قلبه) والقوة الحيوانية (البهيمية) وما خلقه الله تعالى فيها من الأمور البهية والأشياء الشهية مزيِّن بالعَرَض ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب، أي: يسترذلونهم ويستهزئون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العقبى.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ لأنهم في عليين وهم في أسفل السافلين، أو لأنهم في كرامة وهم في مذلة، أو لأنهم يتطاولون عليهم فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا، وإنما قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بعد قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ليدلَّ على أنهم متَّقون، وأن استعلاءهم للتقوى ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ في الدارين ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾﴾ بغير تقدير فيوسع في الدنيا استدراجاً تارةً - نعوذ بالله - وابتلاءً أخرى.

(٢١٣) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ متفقين على الحق فيما بين آدم وإدريس، أو متفقين على الجهالة والكفر في فترة إدريس، فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وعن كعب: (الذي علمته من عدد الأنبياء

مئة وأربعة وعشرون ألفاً، والمرسل منهم ثلاث مئة وثلاثة عشر، والمذكور في القرآن باسم العَلَم ثمانية وعشرون) ﴿**وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ يريد به الجنس، ولا يريد به أنه أنزل مع كل واحد كتاباً يخصُّه، فإن أكثرهم لم يكن لهم كتاب يخصهم، وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم ﴿**بِٱلْحَقِّ**﴾ أي: ملتبساً بالحق شاهداً به ﴿**لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾ أي: الله جلَّ وعلا، أو النبي المبعوث عليه الصلاة والسلام، أو كتابه ﴿**فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ**﴾ في الحق الذي اختلفوا فيه، أو فيما التبس عليهم ﴿**وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ**﴾ في الحق، أو الكتاب ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ**﴾ أي: الكتاب المنزل لإزالة الخلاف أي: عكسوا الأمر فجعلوا ما أنزل مزيحاً للاختلاف سبباً لاستحكامه ﴿**مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ**﴾ حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا ﴿**فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ**﴾ أي للحق الذي اختلف فيه من اختلف ﴿**مِنَ ٱلْحَقِّ**﴾ بيان لما اختلفوا فيه ﴿**بِإِذْنِهِۦ**﴾ بأمره أو بإرادته ولطفه ﴿**وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)**﴾ لا يضلُّ سالكه.

(٢١٤) ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ**﴾ خاطب به النبي ﷺ والمؤمنين بعد ما ذكر اختلاف الأمم على الأنبياء بعد مجيء الآيات تشجيعاً لهم على الثبات مع مخالفيهم ﴿**وَلَمَّا يَأْتِكُم**﴾ ولم يأتكم ﴿**مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم**﴾ حالهم التي هي مَثَلٌ في الشدة ﴿**مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ**﴾ وأزعجوا إزعاجاً شديداً بما أصابهم من الشدائد ﴿**حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ**﴾ لتناهي الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر ﴿**مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ**﴾ استبطاء له لتأخره ﴿**أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)**﴾ استئناف على إرادة القول، أي: فقيل لهم ذلك اسعافاً لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر، وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات، ومكابدة الشدائد والرياضات، كما قال عليه الصلاة والسلام: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

(٢١٥) ﴿**يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ**﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «أن عمرو بن الجموح الأنصاري رضي الله تعالى عنه كان شيخاً ذا مال عظيم، فقال: يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟ فنزلت» ﴿**قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ**﴾ سئل عن المُنفَق فأجيب ببيان المصرف لأنه أهمُّ، فإنَّ اعتداد النفقة باعتباره ﴿**وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢١٥)**﴾ أي: إن تفعلوا خيراً فإن الله تعالى يعلم كنهه ويوفي ثوابه.

كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

(٢١٦) ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ شاق عليكم مكروه طبعاً ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ وهو جميع ما كلفوا به، فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ وهو جميع ما نهوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه وهو يفضي بها إلى الردى. وإنما ذكر «عسى» لأن النفس إذا ارتاضت ينعكس الأمر عليها ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما هو خير لكم ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ ذلك، وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة وإن لم تعرف عينها.

(٢١٧) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ روي «أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة، قبل بدر بشهرين، ليترصَّد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة، فقالت قريش: استحلَّ محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، ويبذعر (يفزع ويلجأ) فيه الناس إلى معايشهم. وشق ذلك على أصحاب السرية، وقالوا: ما نبرح حتى تنزل توبتنا، وردَّ رسول الله ﷺ العير والأسارى». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة وهي أول غنيمة في الإسلام». والسائلون هم المشركون كتبوا إليه في ذلك تشنيعاً وتعييراً. وقيل: أصحاب السرية ﴿قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ بدل اشتمال من الشهر الحرام ﴿قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ﴾ أي: ذنب كبير ﴿وَصَدٌّ﴾ صرف ومنع ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الإسلام، أو ما يوصل العبد إلى الله سبحانه وتعالى من الطاعات ﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله تعالى ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: وصدٌّ عن المسجد الحرام ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ﴾ أهل المسجد الحرام، وهم النبي ﷺ والمؤمنون ﴿أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ مما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن، وهو خبر عن الأشياء الأربعة المعدودة من كبائر قريش ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ أي: ما ترتكبونه من الإخراج والشرك أفظع مما ارتكبوه من قتل الحضرمي ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم، وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم ﴿إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم، وإيذان بأنهم لا يردونهم ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن

﴿دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ قيَّد الردة بالموت عليها في إحباط الأعمال، كما هو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى (وأبو حنيفة رحمه الله تعالى لم يقيد إحباط العمل بالموت على الردة)، والمراد بها الأعمال النافعة ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ لبطلان ما تخيلوه (أي: الكفار) وفوات ما للإسلام من الفوائد الدنيوية ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ بسقوط الثواب ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ كسائر الكفرة.

(٢١٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نزلت أيضاً في أصحاب السرية لما ظُنَّ بهم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب ولا قاطع في الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لما فعلوا خطأً وقلةَ احتياط ﴿رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ بإجزال الأجر والثواب.

(٢١٩) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ﴾ روي أنه نزل بمكة قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ [النحل: ٦٧] فأخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: أَفتِنا يا رسول الله في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا، فأمَّ أحدهم فقرأ: «قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣] فقلَّ من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنهما في نفر فلما سكروا افتخروا وتناشدوا، فأنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار، فضربه أنصاري بلحى بعير (وهو العظم الذي فيه الأسنان) فشجه، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. وهي حرام مطلقاً، وكذا كلُّ ما أسكر عند أكثر العلماء ﴿وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ سمي به القمار لأنه أخذ مال الغير بيسر، والمعنى: يسألونك عن تعاطيهما، لقوله تعالى: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ﴾ أي: في تعاطيهما ﴿إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ من حيث إنه يؤدي إلى الانتكاب (الإعراض والعدول) عن المأمور، وارتكاب المحظور ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ من كسب المال والطرب والالتذاذ ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ أي: المفاسد التي تنشأ منهما أعظم من المنافع المتوقعة منهما.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ قيل: سائله أيضاً عمرو بن الجموح رضي الله تعالى عنه، سأل أولًا عن المنفَق والمصرِف، ثم سأل عن كيفية الإنفاق ﴿قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ العفو نقيض الجهد، وهو أن ينفق ما تيسَّر له بذله ولا يبلغ منه الجهد. وروي أن رجلًا أتى النبي ﷺ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم، فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه، حتى كرَّر عليه مراراً، فقال: هاتها مغضباً، فأخذها فخذفها خذفاً (أي: قذفها) لو أصابه لشجَّه، ثم قال: «يأتي أحدكم بماله كلِّه يتصدَّق به ويجلس يتكفَّف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى» [رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: مثل ما بين أن العفو أصلح من الجهد ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ في الدلائل والأحكام.

فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾

(٢٢٠) ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ في أمور الدارين فتأخذوا بالأصلح والأنفع فيهما، وتجتنبون عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر مما ينفعكم ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾ لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً﴾ [النساء: ١٠] الآية، اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم والاهتمام بأمرهم، فشق ذلك عليهم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ أي: مداخلتهم لإصلاحهم، أو إصلاح أموالهم خير من مجانبتهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾ حثٌّ على المخالطة، أي: إنهم إخوانكم في الدين، ومن حق الأخ أن يخالط الأخ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ وعيد ووعد لمن خالطهم لإفساد وإصلاح، أي يعلم أمره فيجازيه عليه ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾ أي: كلَّفكم ما يشق عليكم، من العنت وهي المشقة، ولم يجوِّز لكم مداخلتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يقدر على الإعنات ﴿حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾﴾ يحكم ما تقتضيه الحكمة وتتَّسع له الطاقة.

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ أي: ولا تتزوَّجوهن. والمشركات تعمُّ الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣١] ولكنَّها خصَّت عنها بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]. روي «أنه عليه الصلاة والسلام بعث مرثداً الغنوي إلى مكة ليخرج منها أناساً من المسلمين، فأتته عناق، وكان يهواها في الجاهلية، فقالت: ألا تخلو؟ فقال: إن الإسلام حال بيننا، فقالت: هل لك أن تتزوج بي؟ فقال: نعم، ولكن أستأمِرُ رسول الله ﷺ، فاستأمره، فنزلت» [سبب النزول رواه أبو داود رحمه الله تعالى] ﴿وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ﴾ أي: وَلَامرأة مؤمنة، حرة كانت أو مملوكة، فإن الناس كلهم عبيد الله تعالى وإماؤه ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾ بحسنها وشمائلها ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾ ولا تُزوِّجوا منهم المؤمنات حتى يؤمنوا، وهو على عمومه ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾ تعليل للنهي عن مواصلتهم، وترغيب في مواصلة المؤمنين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي: الكفر المؤدي إلى النار، فلا يليق موالاتهم ومصاهرتهم ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي: إلى الاعتقاد والعمل الموصلين إليهما ﴿بِإِذۡنِهِۦۖ﴾

أي: بتوفيق الله تعالى وتيسيره، أو بقضائه وإرادته (أقول: عندما يأتي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ يكون مثل حال الصائم في حزيران أو في يوم أشدَّ منه حَرّاً، فإذا قال المؤذن: الله أكبر، يشرب الماء بإذنه تعالى) ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ لكي يتذكروا، لما ركز في العقول من ميل الخير ومخالفة الهوى.

(٢٢٢) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ روي «أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحُيَّض ولا يؤاكلونها، كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدحداح في نفر من الصحابة عن ذلك، فنزلت» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى بمعناه] ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي: الحيض شيء مستقذر مؤذ من يقربه ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوا مجامعتهنَّ ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ تأكيد للحكم وبيان لغايته، وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فإنه يقتضي تأخير جواز الإتيان عن الغسل. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه إذا طهرت لأكثر الحيض جاز قربانها قبل الغسل ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: المأتى الذي أمركم الله تعالى به وحلَّله لكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من الذنوب ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ أي: المتنزهين عن الفواحش والأقذار، كمجامعة الحائض والإتيان في غير المأتى.

(٢٢٣) ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. شُبِّهْنَ بها تشبيهاً لما يلقى في أرحامهن من النطف بالبذور ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ وهو كالبيان لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ من أي جهة شئتم، روي «أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من دبرها في قُبُلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت» [وسبب النزول في الصحيحين] ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ ما يدَّخر لكم من الثواب. وقيل: التسمية عند الوطء ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالاجتناب عن معاصيه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ فتزوَّدوا ما لا تفتضحون به (يوم القيامة) ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ الكاملين في الإيمان بالكرامة والنعيم الدائم.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نزلت في الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح لافترائه على عائشة رضي الله تعالى عنها. ومعنى الآية: ولا تجعلوا الله تعالى حاجزاً لما حلفتم عليه من أنواع الخير، فيكون المراد بالأَيمان الأمورُ المحلوف عليها، كقوله عليه الصلاة والسلام لابن سمرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير وكَفِّرْ عن يمينك» [رواه أبو داود رحمه الله تعالى]. أو لا تجعلوا الله تعالى معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذمَّ الحلَّاف بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]. و﴿أَن تَبَرُّوا۟﴾ علة للنهي، أي: أنهاكم عنه إرادة بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس، فإن الحلَّاف مجترئ على الله تعالى، والمجترئ عليه لا يكون براً متقياً ولا موثوقاً به في إصلاح ذات البين ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ بنيَّاتكم.

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

(٢٢٥) ﴿**لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ**﴾ المعنى: لا يؤاخذكم الله تعالى بعقوبة ولا كفارة بما لا قصد معه، ولكن يؤاخذكم بهما أو بأحدهما بما قصدتم من الأيمان وواطأت فيها قلوبكم ألسنتكم.

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان، ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٌ**﴾ حيث لم يؤاخذ باللغو ﴿**حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾**﴾ حيث لم يعجّل بالمؤاخذة على يمين الجدِّ تربُّصاً للتوبة.

(٢٢٦) ﴿**لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ**﴾ أي: يحلفون على أن لا يجامعوهن ﴿**تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ**﴾ التربُّص: الانتظار والتوقف، أي: للمُولِي حقُّ التلبُّث في هذه المدة فلا يطالب بفيء ولا طلاق (والمراد بالفيء التكفير عن اليمين والرجوع إلى الزوجة)، ولذلك قال الشافعي رحمه الله تعالى: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ويؤيده ﴿**فَإِن فَآءُو**﴾ رجعوا في اليمين بالحنث ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾**﴾ للمولي إثم حنثه إذا كفَّر.

(٢٢٧) ﴿**وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ**﴾ وإن صمموا قصده ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ**﴾ لطلاقهم ﴿**عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾**﴾ بغرضهم فيه.

(٢٢٨) ﴿**وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ**﴾ يريد بها المدخول بهن من ذوات الأقراء لما دلت عليه الآيات والأخبار أن حكم غيرهن خلاف ما ذكر ﴿**يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ**﴾ تهييج وبعث لهنَّ على التربُّص (وهو الانتظار)، فإن نفوس النساء طوامح إلى الرجال، فأُمِرن بأن يقمعنها ويحملنها على التربُّص ﴿**ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ**﴾ أي: يتربَّصْنَ مضيَّها. و﴿قُرُوءٍ﴾ جمع قرء، ويطلق للحيض، لقوله عليه الصلاة والسلام: «دعي الصلاة أيام أقرائك» [رواه الدارقطني رحمه الله تعالى، وأصله في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى] وللطهر الفاصل بين الحيضتين ﴿**وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ**﴾ من الولد أو الحيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحقِّ الرجعة، وفيه دليل على أن قولها مقبول في ذلك ﴿**إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ**﴾ ليس المراد منه تقييد نفي الحل بإيمانهن، بل التنبيه على أنه ينافي الإيمان، وأن المؤمن لا يجترئ عليه ولا ينبغي له أن يفعل ﴿**وَبُعُولَتُهُنَّ**﴾ أي: أزواج المطلقات ﴿**أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ**﴾ إلى النكاح والرجعة إليهن ﴿**فِي ذَٰلِكَ**﴾ أي: في زمان التربُّص ﴿**إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ**﴾ بالرجعة لا لإضرار المرأة.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولهنَّ حقوق على الرجال مثل حقوقهم عليهن في الوجوب واستحقاق المطالبة عليها، لا في الجنس ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ زيادة في الحق وفضل فيه، لأن حقوقهم في أنفسهم، وحقوقهنَّ المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها، أو شرف وفضيلة لأنهم قُوَّام عليهنَّ وحُرَّاس لهنَّ يشاركونهنَّ في غرض الزواج ويخصون بفضيلة الرعاية والإنفاق (أقول: قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، هذه القوامة ليست بالضرب والشتم والظلم، بل بالنصيحة حتى يفهمن ويرجعن إلى الحق) ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام ممن خالف الأحكام ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ يشرعها لحكم ومصالح.

(٢٢٩) ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي: التطليق الرجعي اثنتان. وقيل: معناه التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، ولذلك قالت الحنفية: الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ بالمراجعة وحسن المعاشرة ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ بالطلقة الثالثة، أو بأن لا يراجعها حتى تَبِينَ ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ أي: من الصدقات ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي: الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بترك إقامة أحكامه من مواجب الزوجية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ على الرجل في أخذ ما افتدت به نفسها واختلعت، وعلى المرأة في إعطائه.

(أقول: وإذا أرادت الزوجة أن تفتدي نفسها بترك شيء من مهرها ليطلقها فلا إثم في ذلك).

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما حد من الأحكام ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تتعدوها بالمخالفة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ تعقيبٌ للنهي بالوعيد مبالغةً في التهديد، واعلم أن ظاهر الآية يدل على أن الخلع لا يجوز من غير كراهة وشقاق، ولا بجميع ما ساق الزوج إليها فضلاً عن الزائد، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. والجمهور استكرهوه ولكن نفذوه فإن المنع عن العقد لا يدلُّ على فساده.

(٢٣٠) ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ والمعنى فإن طلقها بعد الثنتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعد ذلك الطلاق ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ حتى تتزوَّج غيره ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أن يرجع كل من المرأة والزوج الأول إلى الآخر بالزواج ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما حدَّه الله تعالى وشرعه من حقوق الزوجية ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ يفهمون ويعملون بمقتضى العلم.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

(٢٣١) ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ أي: آخر عدتهن ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ**﴾ إذ لا إمساك بعد انقضاء الأجل، والمعنى فراجعوهن من غير ضرار، أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل ﴿**وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا**﴾ ولا تراجعوهن إرادة الإضرار بهنَّ ﴿**لِّتَعْتَدُواْۚ**﴾ لتظلموهن بالتطويل أو الإلجاء إلى الافتداء.

﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ**﴾ بتعريضها للعقاب ﴿**وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ**﴾ بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها.

﴿**وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾ التي من جملتها الهداية وبعثة محمد ﷺ، بالشكر والقيام بحقوقها ﴿**وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ**﴾ القرآن والسنة أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما ﴿**يَعِظُكُم بِهِۦۚ**﴾ بما أنزل عليكم ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾**﴾ تأكيد وتهديد.

(٢٣٢) ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿**فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ**﴾ المخاطب به الأولياء، والعضل: الحبس والتضييق ﴿**إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم**﴾ أي: الخُطَّاب والنساء ﴿**بِٱلْمَعْرُوفِۗ**﴾ بما يعرفه الشرع وتستحسنه المروءة ﴿**ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۗ**﴾ لأنه المتعظ به والمنتفع ﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ أي: العمل بمقتضى ما ذكر ﴿**أَزْكَىٰ لَكُمْ**﴾ أنفع ﴿**وَأَطْهَرُۗ**﴾ من دنس الآثام ﴿**وَٱللَّهُ يَعْلَمُ**﴾ ما فيه من النفع والصلاح ﴿**وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾**﴾ لقصور علمكم.

(٢٣٣) ﴿**وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ**﴾ أمرٌ عبَّر عنه بالخبر للمبالغة، ومعناه الندب أو الوجوب ﴿**حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ**﴾ أكده بصفة الكمال لأنه مما يتسامح فيه ﴿**لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ**﴾ أي: ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة، وهو دليل على أن أقصى مدة الإرضاع حولان ولا عبرة به بعدهما.

﴿**وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ**﴾ يعني الوالد، فإن الولد يولد له وينسب إليه ﴿**رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ**﴾ أجرة لهن ﴿**بِٱلْمَعْرُوفِۚ**﴾ حسب ما يراه الحاكم ويفي به وسعه ﴿**لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ**﴾ تعليل لإيجاب المُؤَن والتقييد بالمعروف،

ودليل على أنه سبحانه وتعالى لا يكلف العبد بما لا يطيقه ﴿لَا تُضَآرَّ وَالِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ أي: لا يكلِّف كلُ واحد منهما الآخرَ ما ليس في وسعه، ولا يضاره بسبب الولد ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ﴾ المراد بالوارث وارث الأب وهو الصبي، أي: مؤن المرضعة من ماله إذا مات الأب.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي: فصالاً (يعني: فطاماً) صادراً عن التراضي منهما والتشاور بينهما قبل الحولين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ﴾ في ذلك وإنما اعتبر تراضيهما مراعاة لصلاح الطفل، وحذراً أن يقدم أحدهما على ما يَضُرُّ بِهِ لغرض أو غيره.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي: تسترضعوا المراضع لأولادكم ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المراضع ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ ما أردتم إيتاءه ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ أي: بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مبالغة في المحافظة على ما شرع في أمر الأطفال والمراضع ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ حث وتهديد.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

(٢٣٤) ﴿**وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**﴾ أي: والذين يُتوفَّون منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصن بعدهم ﴿**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ**﴾ أيها الأئمة أو المسلمون جميعاً ﴿**فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ**﴾ من التعرض للخُطّاب وسائر ما حرم عليهن للعدة ﴿**بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع، ومفهومه أنهن لو فعلن ما ينكره فعليهم أن يكفُّوهن، فإن قصروا فعليهم الجناح ﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾**﴾ فيجازيكم عليه.

(٢٣٥) ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ**﴾ والمراد بالنساء المعتدات للوفاة، وتعريض خطبتها أن يقول لها: إنك جميلة أو نافعة، ومن غرضي أن أتزوج، ونحو ذلك ﴿**أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ**﴾ أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً ﴿**عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ**﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن، وفيه نوع توبيخ ﴿**وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا**﴾ أي: فاذكروهن، ولكن لا تواعدوهنَّ نكاحاً أو جماعاً ﴿**إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا**﴾ وهو أن تعرِّضوا ولا تصرِّحوا، أي: لا تواعدوهنَّ مواعدة إلا مواعدة معروفة، أو إلا مواعدة بقول معروف ﴿**وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ**﴾ أي: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح ﴿**حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ**﴾ حتى ينتهي ما كتب من العدة.

﴿**وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ**﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿**فَٱحْذَرُوهُ**﴾ ولا تعزموا ﴿**وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ**﴾ لمن عزم ولم يفعل خشية من الله سبحانه وتعالى ﴿**حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾**﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

(٢٣٦) ﴿**لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ**﴾ لا تبعة من مهر. وقيل: من وزر، لأنه لا بدعة في الطلاق قبل المسيس ﴿**إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ**﴾ أي: تجامعوهن ﴿**أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾ والفرض تسمية المهر.

﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ**﴾ أي: فطلقوهن ومتِّعوهن، والحكمة في إيجاب المتعة جبر إيحاش الطلاق ﴿**عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ**﴾ أي: على كلٍّ من الذي له سعة والمقتر ـ الضيق الحال ـ ما يطيقه ويليق به؛ ومفهوم الآية

يقتضي تخصيص إيجاب المتعة للمفوضة التي لم يمسها الزوج ﴿مَتَٰعَۢا﴾ تمتيعاً ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦﴾ الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال، أو إلى المطلقات بالتمتيع.

(٢٣٧) ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ أي: فالواجب نصف ما فرضتم لهن ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ أي: المطلقات فلا يأخذن شيئاً ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ أي: الزوج المالك لعقده وحله ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ وعفو الزوج عبارة عن الزيادة على الحقِّ؛ فمن طلَّق قبل المسيس استحقَّ استرداد النصف، فإذا لم يسترده فقد عفا عنه. وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول، فأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحقُّ بالعفو ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ أي: ولا تنسوا أن يتفضَّل بعضكم على بعض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾ لا يضيع تفضلكم وإحسانكم.

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

(٢٣٨) ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ بالأداء لوقتها والمداومة عليها ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وهي صلاة العصر، لقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم ناراً» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]، وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها واجتماع الملائكة ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ ذاكرين له في القيام، والقنوت الذكر فيه. وقيل: خاشعين. وقال ابن المسيّب رضي الله تعالى عنه: المراد به القنوت في الصبح.

(٢٣٩) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فصلوا راجلين أو راكبين ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وزال خوفكم ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ صلوا صلاة الأمن، أو اشكروه على الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ ذكراً مثل ما علَّمكم من الشرائع وكيفية الصلاة حالتي الخوف والأمن ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

(٢٤٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ والمعنى: أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولاً بالسكنى والنفقة، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ [البقرة: ٢٣٤] ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ عن منزل الأزواج ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ كالتطيب وترك الإحداد ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ مما لم ينكره الشرع، وهذا يدل على أنه لم يكن يجب عليها ملازمة مسكن الزوج والحداد عليه، وإنما كانت مخيَّرة بين الملازمة وأخذ النفقة، وبين الخروج وتركها ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ينتقم ممن خالفه منهم ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ يراعي مصالحهم.

(٢٤١) ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ أثبت المتعة للمطلقات جميعاً.

(٢٤٢) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وعد بأنه سيبين لعباده من الدلائل والأحكام ما يحتاجون إليه معاشاً ومعاداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها.

(٢٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ يريد أهل داوردان، قرية قبل واسط، وقع فيها طاعون فخرجوا هاربين، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفرَّ من قضاء الله تعالى وقدره. أو قوماً من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ففروا حذر الموت، فأماتهم الله تعالى ثمانية أيام ثم أحياهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أي: ألوف كثيرة ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ أي: قال لهم: موتوا، فماتوا، كقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. والمعنى أنهم ماتوا ميتة رجل واحد من غير علة، بأمر الله تعالى ومشيئته ﴿ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ قيل: مرَّ حزقيل عليه السلام على أهل داوردان وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم، فتعجَّب من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله تعالى، فنادى فقاموا يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أَنتَ. وفائدة القصة تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وحثهم على التوكل والاستسلام للقضاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أحياهم ليعتبروا ويفوزوا، وقص عليهم حالهم ليستبصروا ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ أي: لا يشكرونه كما ينبغي، ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار.

(٢٤٤) ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لما بيَّن أنَّ الفرار من الموت غيرُ مخلِّص منه، وأن المقدَّر لا محالة واقعٌ، أمرهم بالقتال، إذ لو جاء أجلهم ففي سبيل الله تعالى، وإلا فالنصر والثواب ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المتخلِّف والسابق ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ بما يضمرانه، وهو من وراء الجزاء.

(٢٤٥) ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ إقراض الله سبحانه وتعالى مثل لتقديم العمل الذي به يطلب ثوابه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ إقراضاً حسناً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضاً حلالاً طيباً. وقيل: القرض الحسن المجاهدةُ والإنفاق في سبيل الله تعالى ﴿فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ فيضاعف جزاءه، أخرجه على صورة المغالبة للمبالغة ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كثرة لا يقدرها إلا الله سبحانه وتعالى. وقيل: الواحد بسبع مئة ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ يقتِّر على بعض ويوسِّع على بعض حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسَّع عليكم كيلا يبدِّل حالكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ فيجازيكم على حسب ما قدمتم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

(٢٤٦) ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ**﴾ الملأ: جماعة يجتمعون للتشاور ﴿**مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ**﴾ أي: من بعد وفاته ﴿**إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ**﴾ هو يوشع، أو شمعون، أو شمويل عليهم السلام: ﴿**ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ أقم لنا أميراً ننهض معه للقتال يدبر أمره ونصدر فيه عن رأيه ﴿**قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟**﴾ والمعنى: أتوقع جبنكم عن القتال إن كتب عليكم ﴿**قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا**﴾ أيْ: أيُّ غرض لنا في ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجبه ويحث عليه، من الإخراج عن الأوطان والإفراد عن الأولاد؟ وذلك أن جالوت ومن معه من العمالقة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فظهروا على بني إسرائيل فأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء الملوك أربع مئة وأربعين ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ**﴾ ثلاث مئة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾**﴾ وعيد لهم على ظلمهم في ترك الجهاد.

(٢٤٧) ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ**﴾ (فقال النبي لهم، وهو من نسل هارون بن عمران أخي موسى عليهم السلام): ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا**﴾ من أين يكون له ذلك ويستأهل ﴿**وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ**﴾ والحال أنَّا أحقُّ بالملك منه وراثة ومكنة، وأنه فقير لا مال له يعتضد به؟

﴿**قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾**﴾ لمَّا استبعدوا تملُّكه لفقره وسقوط نسبه ردَّ عليهم ذلك؛ أولاً: بأن العمدة فيه اصطفاء الله سبحانه وتعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم. وثانياً: بأن الشرط فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن ليكون أعظم خطراً في القلوب وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة

الحروب، لا ما ذكرتم، وقد زاده الله تعالى فيهما، وكان الرجل القائم يمدُّ يده فينال رأسه. وثالثاً: بأن الله تعالى مالك الملك على الإطلاق فله أن يؤتيه من يشاء. ورابعاً: أنه واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره.

(٢٤٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لما طلبوا منه حجة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملَّكه عليهم ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الصندوق ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الضمير للإتيان، أي: في إتيانه سكون لكم وطمأنينة، أو للتابوت أي: مودع فيه ما تسكنون إليه، وهو التوراة ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ رضاض الألواح (أي: كِسَرُها)، وعصا موسى عليه السلام وثيابه، وعمامة هارون عليه السلام ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل: رفعه الله تعالى بعد موسى عليه السلام، فنزلت به الملائكة عليهم السلام وهم ينظرون إليه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ (إن في رجوع التابوت إليكم علامةً أن الله تعالى قد ملَّك طالوت عليكم إن كنتم مصدِّقين [النسفي]).

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

(٢٤٩) ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ**﴾ انفصل بهم عن بلده لقتال العمالقة ﴿**قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ**﴾ معاملكم معاملة المختبر ﴿**فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي**﴾ فليس من أشياعي، أو ليس بمتَّحد معي ﴿**وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي**﴾ أي: من لم يذقه ﴿**إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**﴾ استثناء من قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ ﴿**فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾ أي: القليل الذين لم يخالفوه ﴿**قَالُوا**﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿**لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾ لكثرتهم وقوتهم ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ**﴾ أي: قال الخلَّص منهم الذين تيقَّنوا لقاء الله تعالى وتوقَّعوا ثوابه، أو علموا أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ بحكمه وتيسيره ﴿**وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)**﴾ بالنصر والإثابة.

(٢٥٠) ﴿**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾ أي: ظهروا لهم ودنوا منهم ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)**﴾ التجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، وفيه ترتيب بليغ، إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً.

(٢٥١) ﴿**فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ فكسروهم بنصره ﴿**وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**﴾ أي ملك بني إسرائيل ولم يجتمعوا قبل داود على ملك ﴿**وَالْحِكْمَةَ**﴾ أي: النبوة ﴿**وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**﴾ كالسرد (صناعة الدروع) وكلام الدواب والطير ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)**﴾ ولولا أنه سبحانه وتعالى يدفع بعض الناس ببعض وينصر المسلمين على الكفار ويكف بهم فسادهم لغَلَبوا وأفسدوا في الأرض، أو لفسدت الأرض بشؤمهم.

(٢٥٢) ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ**﴾ إشارة إلى ما قصَّ من حديث الألوف وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام الجبابرة وقتْلِ داودَ جالوت ﴿**نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ**﴾ بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ ﴿**وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)**﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع.

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

(٢٥٣) ﴿**تِلْكَ ٱلرُّسُلُ**﴾ إشارة إلى الجماعة المذكورة قصصها في السورة ﴿**فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ بأن خصصناه بمنقبة ليست لغيره ﴿**مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ**﴾ وهو موسى عليه الصلاة والسلام ﴿**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ**﴾ بأن فضله على غيره من وجوه متعددة، أو بمراتب متباعدة، وهو محمد ﷺ، فإنه خصَّه بالدعوة العامة والحجج المتكاثرة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه كأنه العلم المتعين لهذا الوصف المستغني عن التعيين. وقيل: إبراهيم عليه السلام خصصه بالخلة التي هي أعلى المراتب. وقيل: أُوْلُو العزم مِنَ الرسل (أقول: قصصنا عليك من أنبائهم، هم رسل الله تعالى حقاً، وهم متفاوتون في الفضل والمنزلة والمراتب العلية، منهم من خصصهم الله تعالى بالتكليم من غير سفير مثل موسى عليه الصلاة والسلام، ومنهم من رفع قدره وفضله على سائر المرسلين، كخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى أجمعهم) ﴿**وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ**﴾ خصه بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ**﴾ هدى الناس جميعاً ﴿**مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم**﴾ من بعد الرسل ﴿**مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ**﴾ أي: المعجزات الواضحة، لاختلافهم في الدين وتضليل بعضهم بعضاً ﴿**وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ**﴾ بتوفيقه التزام دين الأنبياء تفضلاً ﴿**وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ**﴾ لإعراضه عنه بخذلانه ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟**﴾ كرَّره للتأكيد ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾**﴾ فيوفق من يشاء فضلاً، ويخذل من يشاء عدلاً. والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفاوتة الأقدام، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض، ولكن بقاطع، لأن اعتبار الظن فيها يتعلَّق بالعمل، وأن الحوادث بيد الله سبحانه وتعالى تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً إيماناً أو كفراً.

(٢٥٤) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم**﴾ ما أوجبتُ عليكم إنفاقه ﴿**مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ**

﴿فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فرطتم والخلاص من عذابه، إذ لا بيع فيه فتحصلون ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب، ولا خلة حتى يعينكم عليه أخلاؤكم أو يسامحوكم به، ولا شفاعة ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] حتى تتكلوا على شفعاء تشفع لكم في حط ما في ذممكم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ يريد: والتاركون للزكاة هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، أو وضعوا المال في غير موضعه، وصرفوه على غير وجهه.

(٢٥٥) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ المعنى: أنه المستحقُّ للعبادة لا غيره ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الذي يصح أن يعلم ويقدر، وكلُّ ما يصح له فهو واجب لا يزول لامتناعه عن القوة والإمكان ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السِّنَة: فتور يتقدَّم النومَ، والجملة نفي للتشبيه وتأكيد لكونه حياً قيوماً، فإن من أخذه نعاس أو نوم كان مؤوف الحياة (أي: مصاباً بآفة) قاصراً في الحفظ والتدبير ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقريرٌ لقيوميَّته واحتجاج به على تفرُّده في الألوهية ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ بيان لكبرياء شأنه سبحانه وتعالى، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه ليستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة، فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة، أي: مخاصمة ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما قبلهم وما بعدهم، أو أمور الدنيا وأمور الآخرة، أو ما يحسونه وما يعقلونه، أو ما يدركونه وما لا يدركونه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ من معلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يعلموه، و هذا يدل على تفرده بالعلم الذاتي التام الدال على وحدانيته سبحانه وتعالى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تصوير لعظمته وتمثيل مجرد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ولا كرسي في الحقيقة ولا قاعد. وقيل: كرسيه مجاز عن علمه أو ملكه، مأخوذ من كرسي العالِم والملِك (كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: استوى على عروش ذرائر المخلوقات). وقيل: جسم بين يدي العرش، ولذلك سمي كرسياً، محيط بالسموات السبع ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: ولا يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي: حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه ﴿ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ المستحقَر بالإضافة إليه كلُّ ما سواه. وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في الألوهية، متصف بالحياة، واجب الوجود لذاته موجد لغيره، إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزه عن التحيز والحلول، مبرأ عن التغير والفتور، لا يناسب الأشباح ولا يعتريه ما يعتري الأرواح، مالك الملك والملكوت، ومبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفع عنده إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ، العالِم وحده بالأشياء كلها، جليها وخفيها، كليها وجزئيها، واسع الملك والقدرة كلَّ ما يصح أن يُملك ويُقدر عليه، لا يؤوده شاق، ولا يشغله شأن، متعال عما يدركه، وهو عظيم لا يحيط به فهم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي، من قرأها بعث الله تعالى ملكاً يكتب من حسناته ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة» [أخرجه الإمام مسلم

رحمه الله تعالى]، وقال: «من قرأ آية الكرسي في دبر كلِّ صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت» [أخرجه النسائي رحمه الله تعالى في السنن الكبرى].

(٢٥٦) ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ إذ الإِكراه في الحقيقة إلزام الغير فعلاً لا يَرى فيه خيراً يحمله عليه، ولكن ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ تميَّز الإِيمان من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإِيمان رشدٌ يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غَيٌّ يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإِيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإِكراه والإِلجاء ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ بالشيطان، أو الأصنام، أو كل ما عبد من دون الله تعالى، أو صد عن عبادة الله تعالى ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ طلب الإِمساك من نفسه بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ لا انقطاع لها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بالأقوال ﴿عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ بالنيات، ولعله تهديد على النفاق.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

(٢٥٧) ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾ محبُّهم ومتولي أمورهم، والمراد بهم من أراد إيمانه وثبت في علمه أنه يؤمن ﴿**يُخْرِجُهُم**﴾ بهدايته وتوفيقه ﴿**مِّنَ الظُّلُمَاتِ**﴾ ظلمات الجهل واتباع الهوى وقبول الوساوس والشبه المؤدية إلى الكفر ﴿**إِلَى النُّورِ**﴾ إلى الهدى الموصل إلى الإيمان ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ**﴾ أي الشياطين، أو المضلات من الهوى والشيطان وغيرهما ﴿**يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ من النور الذي منحوه بالفطرة إلى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك في الشهوات، أو من نور البينات إلى ظلمات الشكوك والشبهات ﴿**أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)**﴾ وعيد وتحذير.

(٢٥٨) ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ**﴾ تعجيب من محاجة نمروذ وحماقته ﴿**أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**﴾ لأن آتاه، أي: أبطره إيتاء الملك وحمله على المحاجَّة ﴿**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ بخلق الحياة والموت في الأجساد ﴿**قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ بالعفو عن القتل وبالقتل ﴿**قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ أعرض إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الاعتراض على معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج بما لا يقدر فيه على نحو هذا التمويه دفعاً للمشاغبة، وهو في الحقيقة عدول عن مثال خفي إلى مثال جلي من مقدوراته التي يعجز عن الإتيان بها غيره، لا عن حجة إلى أخرى. ولعل نمروذ زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله تعالى، فنقضه إبراهيم بذلك. وإنما حمله عليه بطر الملك وحماقته، أو اعتقاد الحلول (أقول: والحلول والتناسخ محال) ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾ فصار مبهوتاً ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية. وقيل: لا يهديهم محجة الاحتجاج، أو سبيل النجاة، أو طريق الجنة يوم القيامة.

(٢٥٩) ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ**﴾ وهو عزير بن شرحيا ﴿**وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾ خالية ساقطة حيطانها على سقوفها ﴿**قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء،

واستعظاماً لقدرة المحيي ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ فألبثه ميتاً مئة عام ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ بالإحياء ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ القائل هو الله تعالى. وقيل: ملَكٌ أو نبيٌّ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كقول الظانِّ ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير بمرور الزمان ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: وفعلنا ذلك لنجعلك آية. روي أنه أتى قومه على حماره وقال: أنا عزير، فكذبوه، فقرأ التوراة من الحفظ ـ ولم يحفظها أحد قبله ـ فعرفوه بذلك، وقالوا: هو ابن الله. وقيل: لما رجع إلى منزله كان شاباً وأولاده شيوخاً، فإذا حدَّثهم بحديث قالوا: حديث مئة سنة ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ يعني عظام الحمار أو الأموات الذين تعجَّب من إحيائهم ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ كيف نحييها، أو نرفع بعضها على بعض ونركبه عليه ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أنَّ الله تعالى على كلِّ شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

(٢٦٠) ﴿**وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ**﴾ إنما سأل ذلك ليصير علمه عياناً (أي: سألتك المعاينة لأخرج من العلم إلى العين) ﴿**قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ**﴾ بأني قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة؟ قال له ذلك ـ وقد علم أنه أغرقُ الناس في الإيمان ـ ليجيب بما أجاب به، فيعلم السامعون غرضه ﴿**قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ**﴾ أي: بلى آمنت، ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكون قلب بمضامة العيان إلى الوحي والاستدلال (أقول: هذا ليس شكاً من سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولكن ليخرج من العلم إلى العيان).

﴿**قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ**﴾ قيل: طاوساً وديكاً وغراباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة، وفيه إيماء إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يتأتى بإماتة حب الشهوات والزخارف الذي هو صفة الطاووس، والصولة المشهور بها الديك وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب، والترفع والمسارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام. وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان ﴿**فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ**﴾ فأملهنَّ واضممهنَّ إليك لتتأملها وتعرف شياتها (أي: علاماتها وألوانها) لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء ﴿**ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا**﴾ أي: ثم جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك ﴿**ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ**﴾ قل لهن: تعالين بإذن الله تعالى ﴿**يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ**﴾ ساعيات مسرعات طيراناً أو مشياً. روي أنه أُمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها فيمسك رؤوسها ويخلط سائر أجزائها ويوزعها على الجبال ثم يناديهن، ففعل ذلك، فجعل كلُّ جزء يطير إلى الآخر، حتى صارت جثثاً، ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهنَّ. وفيه إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية فعليه أن يقبل على القوى البدنية فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سَوْرتها (أي: سطوتها)، فيطاوعنه مسرعات متى دعاهنَّ بدعاية العقل أو الشرع. وكفى لك شاهداً على فضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وَيُمْنِ الضراعة في الدعاء وحسن الأدب في السؤال أنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه، وأراه عُزيراً بعد أن أماته مئة عام.

﴿**وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ**﴾ لا يعجز عما يريده ﴿**حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾**﴾ ذو حكمة بالغة في كل ما يفعله ويذره.

(٢٦١) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ أسند الإنبات إلى الحبة لما كانت من الأسباب كما يسند إلى الأرض والماء، والمنبِت على الحقيقة هو الله تعالى؛ والمعنى: أنه يخرج منها ساق يتشعَّب لكل منه سبع شعب، لكلٍّ منها سنبلة فيها مئة حبة ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ تلك المضاعفة ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ بفضله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿عَلِيمٌ ٢٦١﴾ بنيَّة المنفق وقدر إنفاقه.

(٢٦٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗىۙ﴾ والمنُّ: أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه. والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه، و«ثم» للتفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ (أي: ثواب إنفاقهم) ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ (من بخس الأجر) ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾ (من فوته؛ أو: لا خوف من العذاب، ولا حزن بفوت الثواب [النسفي]).

(٢٦٣) ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ ردٌّ جميل ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾ وتجاوز عن السائل إلحاحَه، أو نيل المغفرة من الله تعالى بالرد الجميل، أو عفو من السائل بأن يعذره ويغتفر رده ﴿خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقٍ بمنٍّ وإيذاء ﴿حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ عن معاجلة من يمن ويؤذي بالعقوبة.

(٢٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ كإبطال المنافق الذي يرائي بإنفاقه ولا يريد به رضا الله تعالى ولا ثواب الآخرة ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي فمثل المرائي في إنفاقه ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ كمثل حجر أملس ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ مطر عظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ أملس نقياً من التراب ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ لا ينتفعون بما فعلوا رياء ولا يجدون له ثواباً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ إلى الخير والرشاد. وفيه تعريض بأن الرئاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بدَّ للمؤمن أن يتجنب عنها.

(أقول: لا بدَّ أن تقطع أصول عرق الرياء بالكلية، وأصوله ثلاثة أمور:

أولاً: حبُّ الدنيا والتعلق بشهواتها الظاهرة والباطنة.

ثانياً: اللذَّة العاجلة وترجيحها على الآخرة.

ثالثاً: الالتفات إلى الخلق في مدحهم أو ذمهم.

فرضاً لو سجدت الكائنات لمخلوق، ومدحوه، فلا بدَّ للساجد والمسجود له من الموت، والرجوع إلى الله عز وجل، فلا بدَّ أن نتَّعظ بموعظة الله عز وجل ونتفكَّر).

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

(٢٦٥) ﴿**وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ وتثبيتاً لبعض أنفسهم على الإيمان، فإن المال شقيق الروح، فمن بذل ماله لوجه الله تعالى ثبَّت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه ثبَّتها كلها. وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال ﴿**كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ**﴾ أي: ومثل نفقة هؤلاء في الزكاة كمثل بستان بموضع مرتفع، فإن شجره يكون أحسن منظراً وأزكى ثمراً ﴿**أَصَابَهَا وَابِلٌ**﴾ مطر عظيم القطر ﴿**فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا**﴾ ثمرتها ﴿**ضِعْفَيْنِ**﴾ مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل ﴿**فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**﴾ أي: فالذي يصيبها طلٌّ، أو فطل يكفيها لكرم منبتها وبرودة هوائها لارتفاع مكانها. والطَّلُّ: هو المطر الصغير القطر، والمعنى: أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لا تضيع بحال، وإن كانت تتفاوت باعتبار ما ينضمُّ إليها من أحواله ﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾**﴾ تحذير عن الرياء وترغيب في الإخلاص.

(٢٦٦) ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ**﴾ أي: كبر السن، فإن الفاقة والعالة في الشيخوخة أصعب ﴿**وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ**﴾ صغار لا قدرة لهم على الكسب ﴿**فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ**﴾ والمعنى: تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ويضم إليها ما يحبطها كرياء وإيذاء في الحسرة والأسف إذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال من هذا شأنه؛ وأشبههم به من جال بسرِّه في عالم الملكوت، وترقى بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور، والتفت إلى ما سوى الحقِّ، وجعل سعيه هباء منثوراً ﴿**كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾**﴾ أي: تتفكَّرون فيها فتعتبرون بها.

(أقول: هذه الآية تحذرنا من الرياء، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم).

(٢٦٧) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ**﴾ من حلاله، أو جياده ﴿**وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ**﴾ أي: ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمرات والمعادن ﴿**وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ**

﴿تُنفِقُونَ﴾ أي: ولا تقصدوا الرديء من المال، أو مما أخرجنا لكم ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ أي: وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ إلا أن تتسامحوا فيه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يتصدَّقون بحشف التمر (أي: أردئه) وشِراره (الشِّرار: جمع شَرّ) فنُهوا عنه (أقول: لا بدَّ للإنسان أن يطهِّر حاله تجاه خالقه من المادة والخيانة والرذالة) ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم ﴿حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ بقبوله وإثابته.

(٢٦٨) ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ في الإنفاق ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾ ويغريكم على البخل، والعرب تسمي البخيل فاحشاً. وقيل: المعاصي ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي: يعدكم في الإِنفاق مغفرة لذنوبكم ﴿وَفَضْلاًۗ﴾ خلفاً أفضل مما أنفقتم في الدنيا، أو في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسع الفضل لمن أنفق ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ بإنفاقه.

(أقول: لا أحد أصدق من الله تعالى وهو القائل جل شأنه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، أخبرك ربك تبارك وتعالى أن الشيطان لك عدو، وأمرك أن تعاديه، ومعاداتُه في مخالفته وعدم الإصغاء لوسوسته، قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، فكن على حذر منه، فإذا هجم عليك فاستعذ بالله تعالى، فإنه تعالى يراك ويراه، وكن مخلصاً لله عز وجل عسى أن يصطفيك ويجعلك من المخلصين، فإن أصبحت منهم كنت عند الله تعالى عبداً محبوباً، وهو القائل تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، فلا يغوينَّك الشيطان، كما قال تعالى حاكياً عن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ـ٤٠] فلا سبيل عليهم).

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ﴾ تحقيق العلم وإتقان العمل (أقول: الحكمة هي علم القرآن والسنة) ﴿مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى.

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

(٢٧٠) ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في حقٍّ أو باطل ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فيجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها (أي: ينذرون في المعاصي)، أو يمنعون الصدقات ولا يوفون بالنذر ﴿مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ من ينصرهم من الله تعالى ويمنعهم من عقابه.

(٢٧١) ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ فنعمّ شيئاً إبداؤها ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي: تعطوها مع الإخفاء ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم، وهذا في التطوع ولمن لم يُعرف بالمال فإن إبداء الفرض لغيره أفضل لنفي التهمة عنه ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ ترغيب في الإسرار.

(٢٧٢) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد والحثُّ على المحاسن، والنهي عن القبائح كالمنِّ والأذى وإنفاق الخبيث ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ صريح بأن الهداية من الله تعالى وبمشيئته، وأنها تخص بقوم دون قوم ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ من نفقة معروفة ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم، فلا تمنُّوا عليه ولا تنفقوا الخبيث ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ وكأنه قال: وما تنفقون من خير فلأنفسكم غير منفقين إلا لابتغاء وجه الله تعالى وطلب ثوابه ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، أو ما يُخلَف للمنفق استجابة لقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. روي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار ورضاع في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم، فكرهوا لما أسلموا أن ينفعوهم، فنزلت. وهذا في غير الواجب أما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكفار ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ أي: لا تنقصون ثواب نفقاتكم.

(٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ أي: اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أحصرهم

الجهاد ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به ﴿ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذهاباً فيها للكسب. وقيل: هم أهل الصُّفَّة، كانوا نحواً من أربع مئة من فقراء المهاجرين يسكنون صُفَّةَ المسجد، يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ من أجل تعفُّفهم عن السؤال ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ من الضعف ورثاثة الحال، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحاً، وهو أن يلازم المسؤول حتى يعطيه، والمعنى أنهم لا يسألون، وإن سألوا عن ضرورة لم يلحوا.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ ترغيب في الإنفاق وخصوصاً على هؤلاء.

(٢٧٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: يعمُّون الأوقات والأحوال بالخير. نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، تصدَّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل وعشرة بالنهار، وعشرة بالسرِّ، وعشرة بالعلانية. وقيل: في أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه، لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدَّق بدرهم ليلاً ودرهم نهاراً ودرهم سراً ودرهم علانية ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

(٢٧٥) ﴿**ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ**﴾ أي: الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، ولأن الربا شائع في المطعومات وهو زيادة في الأجل، بأن يباع مطعوم بمطعوم أو نقد بنقد إلى أجل، أو في العوض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه ﴿**لَا يَقُومُونَ**﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿**إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ**﴾ إلا قياماً كقيام المصروع ﴿**مِنَ ٱلۡمَسِّۚ**﴾ أي: الجنون ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ**﴾ أي: ذلك العقاب بسبب أنهم نَظَموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح، فاستحلوه استحلاله ﴿**وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ**﴾ إنكار لتسويتهم، وإبطال للقياس لمعارضته النص ﴿**فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ**﴾ فمن بلغه وعظ من الله تعالى وزجر كالنهي عن الربا ﴿**فَٱنتَهَىٰ**﴾ فاتعظ وتبع النهي ﴿**فَلَهُۥ مَا سَلَفَ**﴾ تقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه ﴿**وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ**﴾ يجازيه على انتهائه إن كان عن قبول الموعظة وصدق النية ﴿**وَمَنۡ عَادَ**﴾ إلى تحليل الربا ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾**﴾ لأنهم كفروا به.

(٢٧٦) ﴿**يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ**﴾ يُذهب بركته، ويُهلك المال الذي يدخل فيه ﴿**وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ**﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما نقصت زكاة من مال قط» [صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ**﴾ لا يرتضي، أو لا يحب محبته للتوابين ﴿**كُلَّ كَفَّارٍ**﴾ مصر على تحليل المحرمات ﴿**أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾**﴾ منهمك في ارتكابه.

(٢٧٧) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ بالله تعالى ورسوله ﷺ وبما جاءهم منه ﴿**وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾ عطفهما على ما يعمُّهما لإنافتهما (أي: لارتفاعهما) على سائر الأعمال الصالحة ﴿**لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ**﴾ من آتٍ ﴿**وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾**﴾ على فائت.

(٢٧٨) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ**﴾ واتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا ﴿**إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾**﴾ بقلوبكم فإن دليله امتثال ما أمرتم به.

(٢٧٩) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: فاعلموا بها، مِنْ أذن بالشيء إذا علم به ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء (أي: فعل الربا) واعتقاد حلِّه ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ بالمطل والنقصان.

(أقول: استشعرْ هول الموقف بين يدي الله عز وجل يوم القيامة، عندما تكون على جسر جهنم، فتنظر أيمن منك فلا ترى إلا ما قدمت، وتنظر أشأم منك فلا ترى إلا ما قدمت، وتنظر تلقاء وجهك فلا ترى إلا النار، وأنت بين يدي الملك القهار الذي يعلم السر وأخفى، فماذا تقول لربك عز وجل يوم القيامة؟ إن سألك: عبدي كيف اجترأت على أكل مال الحرام من ربا وغيره؟ لتستح من الله عز وجل، فدائرة الحلال تكفيك أيها المؤمن، ولا تنس أنه ما أعطاك إلا لحكمة، وما منعك إلا لحكمة، فمقياس الكرامة ليس المال، بل مقياسها التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ومن التقوى ترك الربا، وترك أخذ أموال الناس بالباطل وبسيف الحياء. نسأل الله تعالى أن يرزقنا القناعة، وأن يخرجنا من الدنيا على السلامة من وبالها، إنه على كل شيء قدير).

(٢٨٠) ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: وإن كان الغريم ذا عسرة ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فعليكم نظرة، وهي الإنظار ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسار ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾ بالإبراء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أكثر ثواباً من الإِنظار، أو خير مما تأخذون لمضاعفة ثوابه ودوامه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ ما فيه من الذكر الجميل والأجر الجزيل.

(٢٨١) ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت، فتأهبوا لمصيركم إليه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

(٢٨٢) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ**﴾ أي: إذا داين بعضكم بعضاً ﴿**إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى**﴾ معلوم بالأيام والأشهر ﴿**فَٱكۡتُبُوهُۚ**﴾ لأنه أوثق وأدفع للنزاع، والجمهور على أنه استحباب ﴿**وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ**﴾ من يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص، وهو في الحقيقة أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجيء مكتوبه موثوقاً به معدلاً بالشرع.

﴿**وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ**﴾ ولا يمتنع أحد من الكتَّاب ﴿**أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ**﴾ مثل ما علمه الله تعالى من كتبة الوثائق، أو لا يأب أحد أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليمها، كقوله: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

﴿**فَلۡيَكۡتُبۡ**﴾ تلك الكتابة المعلمة. أَمر بها بعد النهي عن الإِباء عنها تأكيداً ﴿**وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ**﴾ وليكن المملي مَن عليه الحق، لأنه المقر المشهود عليه ﴿**وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ**﴾ أي: المملي أو الكاتب ﴿**وَلَا يَبۡخَسۡ**﴾ ولا ينقص ﴿**مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ**﴾ أي: من الحق، أو مما أملي عليه ﴿**فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا**﴾ ناقص العقل مبذراً ﴿**أَوۡ ضَعِيفًا**﴾ صبياً أو شيخاً مختلاً ﴿**أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ**﴾ أو غير مستطيع للإِملال بنفسه لخرس أو جهل باللغة ﴿**فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ**﴾ أي: الذي يلي أمره.

﴿**وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ**﴾ واطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان ﴿**مِن رِّجَالِكُمۡۖ**﴾ من رجال المسلمين ﴿**فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ**﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين ﴿**فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ**﴾ فليستشهد رجل وامرأتان ﴿**مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ**﴾ لعلمكم بعدالتهم ﴿**أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ**﴾ علة اعتبار العدد أي: لأجل أن إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتها ذَكَّرتها الأخرى ﴿**وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ**﴾ لأداء الشهادة.

﴿**وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ**﴾ ولا تملُّوا من كثرة مداييناتكم أن تكتبوا الدين أو الحق أو الكتاب ﴿**صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا**﴾ صغيراً كان الحق أو كبيراً ﴿**إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ**﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المديون ﴿**ذَٰلِكُمۡ**﴾ إشارة إلى أن تكتبوه ﴿**أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ**﴾ أكثر قسطاً ﴿**وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ**﴾ وأثبت لها وأعون على إقامتها ﴿**وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ**﴾

وأقرب في أن لا تشكوا في جنس الدين وقدره وأجله والشهود ونحو ذلك ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾ استثناء من الأمر بالكتابة، والتجارة الحاضرة تعمُّ المبايعة بدَين أو عين، وإدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد، أي: إلا أن تتبايعوا يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوا، لبعده عن التنازع والنسيان.

﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾ هذا التبايع، أو مطلقاً لأنه أحوط. والأوامر التي في هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ وهو نهيهما عن ترك الإِجابة والتحريف والتغيير في الكتبة والشهادة ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ﴾ الضرار أو ما نهيتم عنه ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ خروج عن الطاعة لاحق بكم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ في مخالفة أمره ونهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾ كرر لفظة «الله» في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حثٌّ على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيمٌ لشأنه جلَّ وعلا .

(أقول: كن حريصاً على مطعمك ومشربك وملبسك أن يكون حلالاً، فمن أكل الحلال تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾، وهذا هو العلم اللدني الذي لا يمنحه الله تعالى إلا لمن ارتقى سلم التقوى، فشمر عن ساعد الجد؛ وتابع النبيَّ ﷺ في أقوالك وأفعالك وأحوالك كلها، تسعد في الدارين بإذن الله تعالى. وكن حافظاً ألا تَخدع ولا تُخدع، وإذا تخدع الآخرين ينتقل إليك مال الغير مع وزره، وإذا تُخدع يبقى الهمُّ معك، تقول: هذا خدعني! يمكن أن تُحِلَّ هذا، ولكن ليس قطعياً أن الآخر يُحِلُّك، فيبقى الوبال عليك إلى يوم القيامة، يقتضي منك ما أكلت من ماله، نسأل الله العظيم أن يحفظنا من ذلك، آمين).

۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

(٢٨٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ﴾ فالذي يستوثق به رهان، أو فليؤخذ رهان ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: بعض الدائنين بعض المديونين، واستغنى بأمانته عن الارتهان ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ أي: دَينه؛ سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ﴾ في الخيانة وإنكار الحق.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ﴾ أيها الشهود، أو المديونون؛ والشهادة شهادتهم على أنفسهم ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ﴾ أي: يأثم قلبه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ تهديد.

(٢٨٤) ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ﴾ خلقاً وملكاً ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: ما فيها من السوء والعزم عليه، لترتب المغفرة والعذاب عليه ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ﴾ يوم القيامة ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ مغفرته ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ﴾ تعذيبه ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ فيقدر على الإحياء والمحاسبة.

(٢٨٥) ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ شهادة وتنصيص من الله تعالى على صحة إيمانه والاِعتداد به، وأنه جازم في أمره غير شاك فيه ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ﴾ أي: يقولون: لا نفرق ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا﴾ أجبنا ﴿وَأَطَعْنَا ۖ﴾ أمرك ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ نطلب غفرانك ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ المرجع بعد الموت، وهو إقرار منهم بالبعث.

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ إلا ما تسعه قدرتها فضلاً ورحمةً، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ﴾ من شر لا ينتفع بطاعتها ولا يتضرر بمعاصيها غيرها.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ أي: لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط وقلة مبالاة، أو بأنفسهما، إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلاً، فإن الذنوب كالسموم، فكما أن تناولها يؤدي إلى الهلاك وإن

كان خطأ، فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضي إلى العقاب وإن لم يكن عزيمة، لكنَّه تعالى وعد التجاوز عنه رحمةً وفضلاً (بعد التوبة)، فيجوز أن يدعو الإنسان به استدامة واعتداداً بالنعمة فيه.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عبئاً ثقيلاً يأصر صاحبه، أي: يحبسه في مكانه، يريد به التكاليف الشاقة ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ والمراد به ما كُلِّف به بنو إسرائيل؛ من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة، وخمسين صلاة في اليوم والليلة، وصرف ربع المال للزكاة. أو ما أصابهم من الشدائد والمحن.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من البلاء والعقوبة، أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ وتعطف بنا وتفضل علينا ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيدنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ فإن من حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، أو المراد به عامة الكفرة.

وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» [رواه ابن ماجه رحمه الله تعالى].

تمَّ بحمد الله تعالى وتوفيقه استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة البقرة فله جلَّ وعلا الفضل والمنة والثناء الحسن الجميل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة آل عمران

مدنيَّة وآياتها مئتان

(١ـ٢) ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ٢﴾ (أقول: الحيُّ: حياته جل وعلا ذاتية لا روحية، وحياة الآخرين روحيَّة عارضيَّة، وهي بحياته سبحانه وتعالى) (والقيُّوم هو القائم بالقسط، والقائم على كلِّ نفس بما كسبت [النسفي]).

(٣) ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن نجوماً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل، أو بالصدق في أخباره، أو بالحجج المحقِّقة أنه من عند الله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ٣﴾ جملة على موسى وعيسى عليهما السلام.

(٤) ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل تنزيل القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ المراد به قومهما ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي:

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ ٣ — ٢٠٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

الكتب الفارقة بين الحق والباطل، أو القرآن، وكرَّر ذكره بما هو نعت له مدحاً وتعظيماً وإظهاراً لفضله، من حيث إنه يشاركهما في كونه وحياً منزلاً ويتميز بأنه معجز يفرق بين المحق والمبطل (أقول: عَطفَ الخاص على العام بعد ذكر الكتب السماوية الثلاثة)، أو المقصود بالفرقان: المعجزات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُمنع من التعذيب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾ لا يقدر على مثله منتقم.

(٥) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ٥﴾ أيُّ شيء كائن في العالم، كلياً كان أو جزئياً، إيماناً أو كفراً. فعبَّر عنه بالسماء والأرض إذ الحسُّ لا يتجاوزهما. وقوله تعالى:

(٦) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ـ أي: من الصور المختلفة ـ كالدليل على القيوميَّة، والاستدلال على أنه عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيرُه جملةَ ما يعلمُه، ولا يقدر على مثل ما يفعله ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٦﴾ إشارة إلى كمال قدرته وتناهي حكمته.

(٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أُحكمت عبارتها بأن حُفظت من الإجمال

والاحتمالات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصله، يُرَدُّ إليها غيرها ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ محتمِلات، لا يتضح مقصودها لإجمالٍ أو مخالفةِ ظاهرٍ إلا بالفحص والنظر، ليظهر فيها فضل العلماء، ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها وبإتعاب القرائح (أي: العقول) في استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات معالي الدرجات. وأما قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]. فمعناه أنها حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ، وقوله: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ [الزمر: ٢٣] فمعناه أنه يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة اللفظ.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عدول عن الحقِّ، كالمبتدعة ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره أو بتأويلٍ باطل ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ طلبَ أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ وطلبَ أن يؤولوه على ما يشتهونه (أقول: نعوذ بالله من هذه الأفكار الفاسدة).

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الذي يجب أن يُحمل عليه ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الذين ثبتوا وتمكنوا فيه (أي: في العلم). ومن وقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسَّر المتشابه بما استأثر اللهُ بعلمه سبحانه وتعالى.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ استئناف موضِّح لحال الراسخين ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ أي: كلٌّ من المتشابه والمحكم من عنده سبحانه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ مدحٌ للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر (وصدق الإيمان)، وإشارةٌ إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرد العقل عن غواشي الحسِّ (أقول: العقل المنور بالوحي الإلهي خالٍ عن غواشي الحسِّ، والذي يخرج عن الاستقامة لا يخرج إلا بهذا الحسِّ، وإلا فإن إيمانه لا يَقبل هذا).

(٨) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ من مقال الراسخين. والمعنى: لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويلٍ لا ترتضيه سبحانك. قال عليه الصلاة والسلام: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] (أقول: قلب الإنسان تحت سيطرة خالقه جلَّ وعلا، فإذا أراد أن يثبته ينظر إلى حقيقته من أيِّ جنس هو من معادن البشر، فيثبت قلبه عليه، ومع هذا فإن الله تعالى قادر على أن يفسخ عزائم الإنسان ويحوِّلها إلى غير الاستقامة) ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحق والإيمان بالقسمين من المحكم والمتشابه ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ﴾ تُزلفنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقاً للثبات على الحق، أو مغفرة للذنوب ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ لكل سؤل. وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله تعالى، وأنه جلَّ وعلا متفضِّل بما ينعم على عباده، لا يجب عليه شيء.

(٩) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ لحساب يوم، أو لجزائه ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والجزاء. نَبهوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين ما يتعلَّق بالآخرة فإنها المقصد والمآل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ فإن الإلهية تنافيه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

(١٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ**﴾ أي: من رحمته، أو طاعته، أو من عذابه ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾**﴾ حطُبها.

(١١) ﴿**كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ**﴾ أي: لن تغني عنهم كما لم تغنِ عن أولئك، أو توقد بهم كما توقد بأولئك ﴿**وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ**﴾ عطف على آل فرعون ﴿**كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾**﴾ تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة.

(١٢) ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ**﴾ أي: قل لمشركي مكة ستُغلبون، يعني يوم بدر. وقيل: لليهود، فإنه عليه الصلاة والسلام جمعهم بعد بدر في سوق بني قينقاع، فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش، فقالوا لا يغرنك أنك أصبت أغماراً (أي: قليلي الخبرة) لا علم لهم بالحرب، لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، فنزلت. وقد صدق الله تعالى وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم، وهو من دلائل النبوة ﴿**وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾**﴾ بئس المهاد جهنم، أو ما مهدوه لأنفسهم.

(١٣) ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ**﴾ الخطاب لقريش أو لليهود، وقيل: للمؤمنين ﴿**فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ**﴾ يوم بدر ﴿**فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ**﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين، وكان قريباً من ألف، أو مثلي عدد المسلمين، وكانوا ثلاث مئة وبضعة عشر، وذلك كان بعد ما قلَّلهم في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم وتوجهوا إليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، مدداً من الله تعالى للمؤمنين. أو يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين، وكانوا ثلاثة أمثالهم، ليثبتوا لهم ويتيقَّنوا بالنصر الذي وعدهم الله تعالى به في قوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] (بإذن الله تعالى) ﴿**رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ**﴾ رؤية ظاهرة معاينة ﴿**وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ**﴾ نصره، كما أيد أهل بدر ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ أي: التقليل والتكثير، أو غلبة القليل عديم العدة على الكثير شاكي السلاح (أي: تام السلاح) ﴿**لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾**﴾ أي لعظةً لذوي البصائر. وقيل: لمن أبصرهم.

(١٤) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي: المشتهَيات، سماها شهوات مبالغةً وإيماء إلى أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهوتها. والمزيِّن هو الله تعالى، لأنه الخالق للأفعال والدواعي، ولعله زينه ابتلاء، أو لأنه يكون وسيلة إلى السعادة الأخروية إذا كان على وجه يرتضيه الله تعالى، أو لأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع. وقيل: الشيطان، فإن الآية في معرض الذم ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ بيان للشهوات. والقنطار: المال الكثير. والمسومة: المعلَّمة (أقول: في ذاك العصر الفرس الجواد، وفي هذا العصر الطيارات والسيارات) والأنعام: الإِبل والبقر والغنم ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى ما ذُكر ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ أي: المرجع. وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدَّجة (أي: الناقصة المعيبة) الفانية.

(١٥) ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ يريد به تقرير أن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يستقذر من النساء (أي: من النساء في الدنيا) ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ أي: بأعمالهم، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، أو بأحوال الذين اتقوا، فلذلك أعد لهم جنات. وقد نبَّه بهذه الآية على نعمه، فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وأوسطها الجنة ونعيمها. (أقول: من رجح هذا على ذاك يكون موافقاً لرضا الله تعالى).

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

(١٦) ﴿**ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾**﴾ صفة للمتقين. وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كافٍ في استحقاق المغفرة أو الاستعداد لها.

(١٧) ﴿**ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾**﴾ حصرٌ لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب، والتوسل إما بالنفس، وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما؛ وإما بالبدن، وهو إما قولي وهو الصدق، وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة؛ وإما بالمال، وهو الإنفاق في سبل الخير. وأما الطلب فبالاستغفار، لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها. وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن العبادة حينئذ أشق، والنفس أصفى، والرُّوع (أي: القلب) أجمع للمجتهدين (أي: في العبادة). قيل: إنهم كانوا يصلون إلى السحر، ثم يستغفرون ويدعون، (كما قال الله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]).

(١٨) ﴿**شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ بيَّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها وإنزال الآيات الناطقة بها ﴿**وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ**﴾ بالإقرار ﴿**وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ**﴾ بالإيمان بها والاحتجاج عليها ﴿**قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ**﴾ مقيماً للعدل في قَسْمه وحُكمه ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ كرره للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليبني عليه قوله: ﴿**ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾**﴾ فيُعلم أنه الموصوف بهما سبحانه وتعالى.

(١٩) ﴿**إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ**﴾ أي: لا دين مرضي عند الله تعالى سوى الإسلام، (كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥])، وهو التوحيد والتدرع (من الدرع، وهو التحصن) بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ (أقول: هذا في زمان الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام، أما قبله فما كان موافقاً للكتب المنزلة) ﴿**وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ من

اليهود والنصارى ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: بعد ما علموا حقيقة الأمر وتمكَّنوا من العلم بها بالآيات والحجج ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ حسداً بينهم وطلباً للرئاسة، لا لشبهة وخفاء في الأمر ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ وعيد لمن كفر منهم (أقول: ولمن خالف كذلك).

(٢٠) ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ في الدين وجادلوك فيه بعد ما أقمت الحجج ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أخلصت نفسي وجملتي له، لا أشرك فيها غيره، وهو الدين القويم الذي قامت عليه الحجج ودعت إليه الآيات والرسل. وإنما عبَّر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والحواس.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ الذين لا كتاب لهم، كمشركي العرب ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ كما أسلمتُ لمّا أوضحت لكم الحجة، أم أنتم بعدُ على كفركم؟ ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ فقد نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أي: فلم يضروك، إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ وعد ووعيد.

(٢١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ (أقول: أي: بغير حق ثبت عندهم) ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ هم أهل الكتاب الذين في عصره عليه الصلاة و السلام، قَتل أوَّلُهم الأنبياءَ ومتابعيهم، وهم رضوا به وقصدوا قتل النبي ﷺ والمؤمنين ولكن الله تعالى عصمهم.

(٢٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ يدفعون عنهم العذاب.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

(٢٣) ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ**﴾ أي: التوراة، أو جنس الكتب السماوية ﴿**يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ**﴾ الداعي محمد عليه الصلاة والسلام، وكتاب الله تعالى القرآن، أو التوراة ﴿**ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ**﴾ استبعادٌ لتوليهم مع علمهم بأن الرجوع إليه واجب ﴿**وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾**﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض.

(٢٤) ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ إشارة إلى التولي ﴿**بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ**﴾ بسبب تسهيلهم أمرَ العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائغ والطمع الفارغ ﴿**وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾**﴾ من أن النار لن تمسهم إلا أياماً قلائل.

(٢٥) ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ**﴾ استعظام لما يحيق بهم في الآخرة، وتكذيب لقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾.

﴿**وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ**﴾ جزاء ما كسبت. وفيه دليل على أن العبادة لا تحبط، وأن المؤمن لا يخلد في النار، لأن توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها، فإذن هي بعد الخلاص منها (أقول: هذا إذا تاب قبل الموت فتوبته مقبولة ما لم يغرغر، وإذا شاء جل وعلا يغفر بدون توبة) ﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾**﴾.

(٢٦) ﴿**قُلِ ٱللَّهُمَّ**﴾ أصله يا الله ﴿**مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ**﴾ يتصرَّف فيه تصرف الملاك فيما يملكون ﴿**تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ**﴾ تعطي منه ما تشاء مَن تشاء وتسترد ما تشاء ﴿**وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ**﴾ في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان ﴿**بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾**﴾ (أقول: وفي ضمنه أمرٌ لرسول الله عليه الصلاة والسلام بأن يقول: بيدك الخير). ذكرَ الخير وحده لأنه المقضي بالذات، والشر مقضي بالعرَض، إذ لا يوجد شر جزئي ما لم يتضمن خيرًا كلياً (أقول: خلق الشرِّ ليس بشرٍّ، وإنما فعل الشرِّ شرٌّ)، أو لمراعاة الأدب في الخطاب.

(٢٧) ﴿**تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾**﴾ عقَّب ذلك ببيان قدرته على معاقبة (أي: تتابع) الليل والنهار والموت والحياة وسعة

فضله، دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة (أي: متابعة) الذل والعز، وإيتاء الملك ونزعه. والولوج: الدخول في مضيق، وإيلاج الليل والنهار: إدخال أحدهما في الآخر بالتعقيب أو الزيادة والنقص. وإخراج الحي من الميت وبالعكس: كإنشاء الحيوانات من موادها وإماتتها، أو إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة منه، وقيل: إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

(٢٨) ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما، حتى لا يكون حبهم وبغضهم إلا في الله تعالى، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذهم أولياء ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: من ولايته في شيء يصحُّ أن يسمى ولاية، فإن موالاة المتعادِيَين لا يجتمعان (أقول: حق المؤمن أن يحب من يحب الله تعالى، ويكره من يكره الله تعالى) ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه. وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي المنهي في القبح. وذكر النفس ليُعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى، فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة.

(أقول: يحذركم يا أهل العزائم عن نفسه على وجه المبالغة بأن لا تأمنوا عن سخطه، ولا تغفلوا عن غضبه، ولا تميلوا عنه سبحانه بارتكاب ما نهيتم عنه).

(٢٩) ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إنه يعلم ضمائركم من ولاية الكفار وغيرها إن تخفوها أو تبدوها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيعلم سركم وعلنكم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه. والآية بيان لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾، فكأنه قال: ويحذركم نفسه لأنها متصفة بعلم ذاتي محيط بالمعلومات كلِّها، وقدرة ذاتيَّة تعمُّ المقدورات بأسرها، فلا تجسروا على عصيانه، إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب بها (اللهمَّ لا تؤاخذنا بذنوبنا يا ربَّ العالمين).

يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

(٣٠) ﴿**يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ**﴾ أي: تتمنى كلُّ نفس يوم تجد صحائف أعمالها، أو جزاء أعمالها من الخير والشر، حاضرةً لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهولِهِ أمداً بعيداً ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ**﴾ كرره للتأكيد والتذكير ﴿**وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾**﴾ إشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم، فترجى رحمته ويخشى عذابه.

(٣١) ﴿**قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي**﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمالٍ أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه. والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله تعالى، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله، لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقرِّبه إليه، فلذلك فُسرت المحبة بإرادة الطاعة، وجُعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ في عبادته والحرص على مطاوعته ﴿**يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ**﴾ أي: يرضَ عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم، فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم في جوار قدسه ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾**﴾ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع نبيه ﷺ.

(٣٢) ﴿**قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ**﴾ فيما يأمركم به من التوحيد ﴿**فَإِن تَوَلَّوۡاْ**﴾ أي: أعرضوا عن الطاعة ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾**﴾ لا يرضى عنهم ولا يثني عليهم (أقول: هذا في حقِّ الكافرين، لا المؤمنين المخالفين).

(٣٣) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾**﴾ بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية، ولذلك قووا على ما لم يقوَ عليه غيرهم. لمَّا أوجب طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام وبيَّن أنها الجالبة لمحبة الله تعالى عقَّب ذلك ببيان مناقبهم تحريضاً عليها. وبه استُدل على فضلهم على الملائكة.

(٣٤) ﴿**ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ**﴾ أي: إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض ﴿**وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾**﴾ بأقوال الناس وأعمالهم، فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، أو سميعٌ بقول امرأة عمران (والدة السيدة مريم عليهما السلام) عليمٌ بنيَّتها.

(٣٥) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ أي قالت: اللهم إن لك علي نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خدمه، فحملت بمريم ﴿مُحَرَّرًا﴾ معتقاً لخدمته لا أشغله بشيء ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ ما نذرته ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ لقولي ونيتي.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ بمعنى: وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرتُ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أجيرها بحفظك ﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ المطرود. وعن النبي ﷺ: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسِّه، إلا مريم وابنها» [رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه، إلا مريم وابنها، فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

(٣٧) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ فرضي بها في النذر مكان الذَّكَر ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: بوجه حسن يَقبل به النذائر، وهو إقامتها مقام الذَّكر. روي أن حنة لما ولدتها لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار، وقالت: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، فقال زكريا عليه السلام: أنا أحقُّ بها، عندي خالتها فأبوا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشرين، فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم، فطفا قلم زكريا عليه السلام ورسبت أقلامهم، فتكفَّلها زكريا عليه السلام ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: الغرفة التي بنيت لها، أو المسجد، أو أشرف مواضعه ومقدمها، سمي به لأنه محل محاربة الشيطان، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ روي: أنه كان لا يدخل عليها غيره، وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبواب مغلقة عليك؟ وهو دليل جواز الكرامة للأولياء ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلا تستبعده. قيل: تكلَّمت صغيرة كعيسى عليه السلام، ولم ترضع ثدياً قط، وكان رزقها ينزل عليها من الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضلاً به.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

(٣٨) ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ**﴾ في ذلك المكان أو الوقت. لمَّا رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى ﴿**قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً**﴾ كما وهبتها لحنَّة العجوز العاقر. وقيل: لما رأى الفواكه في غير أوانها انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ، فسأل وقال: ﴿هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾ لأنه لم يكن على الوجوه المعتادة وبالأسباب المعهودة ﴿**إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾**﴾ مجيبه.

(٣٩) ﴿**فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ**﴾ أي: من جنسهم، فإن المنادي كان جبريل عليه السلام وحده ﴿**وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ أي: بعيسى عليه السلام. سمي بذلك لأنه وُجد بأمره تعالى دون أب، فشابه البدعيات التي هي عالم الأمر (والبدعيات هي الأمور التي أُنشئت على غير مثال سابق) ﴿**وَسَيِّدٗا**﴾ يسود قومه ويفوقهم، وكان فائقاً للناس كلهم في أنه مَا هَمَّ بمعصية قط ﴿**وَحَصُورٗا**﴾ مبالغاً في حبس النفس عن الشهوات والملاهي ﴿**وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾**﴾ ناشئاً منهم، أو كائناً من عداد من لم يأت كبيرة ولا صغيرة.

(٤٠) ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ**﴾ استبعاداً من حيث العادة، أو استفهاماً عن كيفية حدوثه ﴿**وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ**﴾ أدركني كبر السن وأثَّر فيَّ ﴿**وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ**﴾ لا تلد؟ ﴿**قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾**﴾ أي: يفعل ما يشاء من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر.

(٤١) ﴿**قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ**﴾ علامة أعرف بها الحبَل لأستقبله بالبشاشة والشكر، وتزيح مشقة الانتظار ﴿**قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ**﴾ أن لا تقدر على تكليم الناس ثلاثاً ﴿**إِلَّا رَمۡزٗاۗ**﴾ إشارة بنحو يد أو رأس ﴿**وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا**﴾ في أيام الحبسة ﴿**وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ**﴾ من الزوال إلى الغروب، وقيل: من العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر الليل ﴿**وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾**﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى.

(٤٢) ﴿**وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾**﴾ (أقول: على نساء العالمين في زمانها) كلَّموها شفاهاً كرامة لها. والاصطفاء الأول تقبلها من أمها ولم يقبل قبلها أنثى،

وتفريغها للعبادة، وإغناؤها برزق الجنة عن الكسب، وتطهيرها عما يستقذر من النساء. والاصطفاء الثاني هدايتها، وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات السنية؛ كالولد من غير أب، وتبرئتها مما قذفتها به اليهود بإنطاق الطفل، وجعلها وابنها آية للعالمين.

(٤٣) ﴿ **يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾** ﴾ أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها. وقيل: المراد بالقنوت إدامة الطاعة كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩]، وبالسجود الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُود﴾ [ق: ٤٠]، وبالركوع الخشوع والإخبات.

(٤٤) ﴿ **ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ** ﴾ أي: ما ذكرنا من القصص من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ**﴾ للاقتراع، والمراد تقرير كونه وحياً ﴿**أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ**﴾ أي: يلقونها ليعلموا أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾**﴾ تنافساً في كفالتها.

(٤٥) ﴿ **إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ** ﴾ المسيح لقبه، وهو من الألقاب المشرفة، ومعناه: المبارك ﴿**وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ**﴾ الوجاهة في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة ﴿**وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾**﴾ من الله تعالى.

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

(٤٦) ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً كلامَ الأنبياء من غير تفاوت ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ تعجُّب، أو استفهام عن أنه يكون بتزوج أو غيره ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ القائل جبريل عليه السلام ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ إشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك.

(٤٨) ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ كلام مبتدأ ذُكر تطييباً لقلبها وإزاحة لما همها من خوف اللوم لمّا علمت أنها تلد من غير زوج.

(٤٩) ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ والمعنى: أقدِّر لكم وأصور شيئاً مثل صورة الطير ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيصير حياً طياراً بأمر الله تعالى. نبَّه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الأكمه: الذي ولد أعمى، أو الممسوح العين.

روي أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى، من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام، وما يداوي إلا بالدعاء ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كرر ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكُّون فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ موفَّقين للإيمان، فإن غيرهم لا ينتفع بالمعجزات، أو مصدِّقين للحقِّ غير معاندين.

(٥٠) ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: وجئتكم مصدقاً ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام كالشحوم والثروب (أي: الشحم الرقيق يغشى الكرش والأمعاء) والسمك ولحوم الإبل والعمل في السبت ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾.

(٥١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ أي: جئتكم بآية أخرى ألهمنيها ربكم، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، فإنه دعوة الحق المجمَع عليها فيما بين الرسل، الفارقة بين النبي والساحر ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في المخالفة ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه. ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد، وقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العملية، فإنه بملازمة الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي. ثم قرَّر ذلك بأن بيَّن أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «قل آمنت بالله ثم استقم» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

(٥٢) ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك بالحواس ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَن الذين يضيفون أنفسهم إلى الله تعالى في نصري؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حواريُّ الرجل خالصته؛ سمي به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نيَّتهم ونقاء سريرتهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار دين الله تعالى ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لتشهد لنا يوم القيامة حين يشهد الرسل لقومهم وعليهم.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

(٥٣) ﴿**رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾**﴾ أي: مع الشاهدين بوحدانيتك، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس.

(٥٤) ﴿**وَمَكَرُواْ**﴾ أي: الذين أحس منهم الكفر من اليهود، بأن وكلوا عليه من يقتله غِيلة (أي: على غفلة منه) ﴿**وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ**﴾ حين رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل. والمكر من حيث إنه في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يُسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة ﴿**وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾**﴾ أقواهم مكراً وأقدرهم على إيصال الضرر مِنْ حَيْثُ لَا يحتسب.

(٥٥) ﴿**إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ**﴾ أي: مستوفي أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى.

﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي ﴿**وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ من سوء جوارهم أو قصدهم ﴿**وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ**﴾ يغلبونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر ﴿**ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾**﴾ من أمر الدين.

(٥٦) ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا**﴾ (بالقتل والسبي والجزية والذلة) ﴿**وَٱلۡأٓخِرَةِ**﴾ (بالنار) ﴿**وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾**﴾ (أي: مانعين منه [تفسير السراج المنير للخطيب الشربيني رحمه الله تعالى]) (أقول: هذا إذا ماتوا على ما هم عليه من الكفر ولم يتوبوا).

(٥٧) ﴿**وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ**﴾ تفسير للحكم وتفصيل له ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾**﴾ تقرير لذلك (أقول: يوفي المؤمنين أجورهم إذا لم ينحرفوا ولم يرتدُّوا؛ إلا إذا تابوا ورجعوا قبل الموت، كما قال جلَّ وعلا في سورة البقرة [آية: ٢١٧]: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾).

(٥٨) ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وغيره ﴿**نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ**

﴿ٱلۡحَكِيمِ ۝٥٨﴾ المشتمل على الحِكم، أو المحكم الممنوع عن تطرُّق الخلل إليه، يريد به القرآن الكريم (اللهم لا تحرمنا من بركته والعمل به).

(٥٩) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ إن شأنه الغريب كشأن آدم عليه الصلاة والسلام ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ وهو أنه خلق بلا أب كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم. والمعنى: خلق قالبه من التراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ أي: أنشأه بشراً.

(٦٠) ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات، أو لكل سامع.

(٦١) ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾ في عيسى عليه السلام ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: من البينات الموجبة للعلم ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾ أي: يدع كلٌّ منا ومنكم نفسَه وأعزَّة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ﴿ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ﴾ أي: نتباهل بأن نلعن الكاذب منا ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾.

روي أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا: حتى ننظر، فلما تخالوا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ: ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوَّته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهَلَ قومٌ نبياً إلا هلكوا، فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادِعوا الرجل وانصرِفوا، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي رضي الله عنه خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمِّنوا»، فقال أسقفهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلًا من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، فأذعنوا لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعاً من حديد، فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو تباهلوا لمُسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على الشجر» [أخرجه أبو نعيم رحمه الله تعالى في الدلائل]. وهو دليل على نبوَّته عليه الصلاة والسلام، وفضلِ من أتى بهم من أهل بيته.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٞۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصْرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسْلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٢) ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ**﴾ يفيد أن ما ذكره في شأن عيسى ومريم عليهما السلام حق دون ما ذكروه ﴿**وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ**﴾ تأكيدٌ للرد على النصارى في تثليثهم ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾**﴾ لا أحد سواه يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة ليشاركه في الألوهية (أقول: المؤمنون ولو عاشوا أذلاء في الدنيا لكنهم ينظرون بقلوبهم إلى الآخرة، ولا محالة أن الجميع يخرجون من الدنيا إلى الآخرة، وهناك يستريح المؤمنون).

(٦٣) ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾**﴾ وعيدٌ لهم. وهو يدل على أن التولي عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفساد للدين والاعتقاد المؤدي إلى فساد النفس، بل إلى فساد العالم.

(٦٤) ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب، ويفسرها ما بعدها ﴿**أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ**﴾ أن نوحده بالعبادة ونخلص فيها ﴿**وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـٔٗا**﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة، ولا نراه أهلاً لأن يُعبد ﴿**وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ**﴾ ولا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل. روي أنها لما نزلت: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: ما كنا نعبدهم يا رسول الله قال: «أليس يُحِلُّون لكم ويحرِّمون فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم، قال: هو ذاك» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى وحسنه] ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ**﴾ عن التوحيد ﴿**فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾**﴾ أي: لزمتكم الحجة فاعترِفوا بأنا مسلمون دونكم.

(٦٥) ﴿**يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ**﴾ تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وزعم كل فريق أنه منهم، وترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. والمعنى أن اليهودية والنصرانية حدثتا بنزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وكان إبراهيم عليه السلام قبل موسى عليه السلام بألف سنة، وعيسى عليه السلام بألفين، فكيف يكون عليهما؟ ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾**﴾ فتدَّعون المحال.

(٦٦) ﴿ **هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ** ﴾ أي: أنتم هؤلاء الحمقى، وبيانُ حماقتكم أنكم جادلتم فيما لكم به علم مما وجدتموه في التوراة والإِنجيل عناداً، أو تدعون وروده فيه، فلمَ تجادلون فيما لا علم لكم به ولا ذِكر له في كتابكم من دين إبراهيم عليه السلام ﴿**وَٱللَّهُ يَعْلَمُ**﴾ ما حاججتم فيه ﴿**وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٦٦**﴾ وأنتم جاهلون به.

(٦٧) ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا** ﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة، ﴿**مُّسْلِمًا**﴾ منقاداً لله تعالى (قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]) ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٦٧**﴾ تعريض بأنهم مشركون، لإِشراكهم به عزيراً والمسيح، وردٌّ لادِّعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام.

(٦٨) ﴿ **إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ** ﴾ إنَّ أخصهم به وأقربهم منه ﴿**لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ**﴾ من أمته ﴿**وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ**﴾ لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم على الأصالة، ﴿**وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٨**﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى لإِيمانهم.

(٦٩) ﴿ **وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ**﴾ نزلت في اليهود لمّا دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ﴿**وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ**﴾ وما يتخطاهم الإِضلال ولا يعود وباله إلا عليهم، إذ يضاعف به عذابهم ﴿**وَمَا يَشْعُرُونَ ٦٩**﴾ وزره واختصاص ضرره بهم.

(٧٠) ﴿ **يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ**﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد ﷺ ﴿**وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ٧٠**﴾ أنها آيات الله تعالى، أو (تكفرون) بالقرآن وأنتم تشهدون نعته في الكتابين، أو تعلمون بالمعجزات أنه حقٌّ.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾

(٧١) ﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ**﴾ بالتحريف وإبراز الباطل في صورته. قال عليه الصلاة السلام: «المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَي زور» [رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما] ﴿**وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ**﴾ نبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام ونعته ﴿**وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾**﴾ عالمين بما تكتمونه.

(٧٢) ﴿**وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ**﴾ أي: أَظهِروا الإيمان بالقرآن أول النهار ﴿**وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾**﴾ واكفروا به آخره لعلهم يشكُّون في دينهم ظناً بأنكم رجعتم لخلل ظهر لكم.

(٧٣) ﴿**وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ**﴾ ولا تقروا عن تصديقٍ قلبٍ إلا لأهل دينكم (وهو قول اليهود) ﴿**قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ**﴾ يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه ﴿**أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ**﴾ والمعنى أن الحسد حملكم على ذلك ﴿**أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ**﴾ فيدحضوا حجَّتكم ﴿**قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾**﴾ (أقول: أي بمشيئته وإرادته جلَّ وعلا).

(٧٤) ﴿**يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾**﴾ ردٌّ وإبطال لما زعموه بالحجة الواضحة.

(٧٥) ﴿**وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ**﴾ كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه، استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأداه إليه ﴿**وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ**﴾ كفنحاص بن عازوراء، استودعه قرشي آخر ديناراً فجحده ﴿**إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ**﴾ إلا مدة دوامك قائماً على رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي والترافع وإقامة البينة.

﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ**﴾ أي: ليس علينا في شأن من ليسوا من أهل الكتاب ولم يكونوا على ديننا عتاب وذم ﴿**وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾**﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلُّوا ظلم من خالفهم، وقالوا: لم يجعل لهم في التوراة حرمة.

(٧٦) ﴿**بَلَىٰ**﴾ إثبات لما نفوه، أي: بلى عليهم فيهم سبيل ﴿**مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾**﴾

أشعرَ بأن التقوى ملاك الأمر، وهو يعمُّ الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي.

(٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ بما عاهدوا الله تعالى عَلَيْهِ من الإيمان بالرسول ﷺ والوفاء بالأمانات ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمننَّ به ولننصرنَّه ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يسرُّهم، أو بشيء أصلاً. والظاهر أنه كناية عن غضبه عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فإن من سخط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ ولا يثني عليهم بالجميل ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ على ما فعلوه. قيل: إنها نزلت في أحبار حرَّفوا التوراة وبدلوا نعت محمد ﷺ وحكم الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا**﴾ يعني المحرِّفين ﴿**يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ**﴾ يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزَّل إلى المحرَّف ﴿**لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ تشنيع عليهم وبيان لأنهم يزعمون ذلك ﴿**وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾**﴾ تأكيدٌ وتسجيل عليهم بالكذب على الله تعالى والتعمد فيه.

(٧٩) ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ تكذيب وردٌّ على عبَدة عيسى عليه السلام ﴿**وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**﴾ والربَّانيُّ منسوب إلى الربِّ، وهو الكامل في العلم والعمل ﴿**بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾**﴾ بسبب كونكم معلِّمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له، فإن فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل.

(٨٠) ﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ**﴾ أي: ما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً ﴿**أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾**﴾ دليل على أنَّ الخطاب للمسلمين.

(٨١) ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ**﴾ فإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأمم به أولى ﴿**قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ**﴾ أي: عهدي؟ ﴿**قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا**﴾ أي: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿**وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾**﴾ وأنا أيضاً على إقراركم وتَشاهُدِكم شاهدٌ، وهو توكيد وتحذير عظيم.

(٨٢) ﴿**فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ**﴾ بعد الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة ﴿**فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ المتمرِّدون من الكفرة.

(٨٣) ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾ أي: طائعين بالنظر واتباع الحجة، وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجئ إلى الإسلام، كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت (أقول: المؤمنون طوعاً والكافرون كرهاً) ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾**﴾ (فيجازَون على الأعمال [النسفي]).

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

(٨٤) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ (أقول: أي: قل يا أكمل الرسل بلسان الجمع: آمنا بالله تعالى) أمرٌ للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان. والقرآنُ كما هو منزل عليه منزل عليهم بتوسط تبليغه إليهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالتصديق والتكذيب ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ منقادون، أو مخلصون في عبادته.

(٨٥) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ أي: غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقدٌ للنفع واقع في الخسران.

(٨٦) ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ استبعادٌ لأن يهديهم الله تعالى، فإن الحائد عن الحق بعد ما وضح له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان، فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه.

(٨٧ـ٨٨) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو العقوبة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (أي: يمهلون).

(٨٩) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد الارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يقبل توبتهم، ﴿رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ يتفضل عليهم. قيل: إنها نزلت في الحارث بن سويد حين ندم على ردَّته، فأرسل إلى قومه أن سلوا: هل لي من توبة؟ فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية، فرجع إلى المدينة فتاب.

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ كاليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد الإيمان بموسى عليه السلام والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لأنهم لا يتوبون، أو لا يتوبون إلا إذا أشرفوا على الهلاك. فكنَّى عن عدم توبتهم بعدم قبولها، تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ الثابتون على الضلال.

(٩١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مبالغةٌ في التحذير وإقناط، لأن من لا يُقبل منه الفداء ربما يُعفى عنه تكرماً (أقول: العفو للمؤمنين وليس للكافرين) ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ في دفع العذاب.

لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

(٩٢) ﴿**لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ**﴾ أي: لن تبلغوا حقيقة البرِّ الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا برَّ الله تعالى الذي هو الرحمة والرضا والجنة ﴿**حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ**﴾ أي: من المال أو ما يعمُّه وغيره، كبذل الجاه في معاونة الناس، والبدن في طاعة الله تعالى، والمهجة في سبيله. «روي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة ﵁ فقال: يا رسول الله إن أحبَّ أموالي إلي بَيْرَحَاء، فضعها حيث أراك الله، فقال: بخ بخ ذاك مال رابح أو رائح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» [الحديث متفق عليه]. وذلك يدل على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل، وأن الآية تعمُّ الإنفاق الواجب والمستحب ﴿**وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ**﴾ أي: من أي شيء محبوب أو غيره ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾**﴾ فيجازيكم بحسبه.

(٩٣) ﴿**كُلُّ ٱلطَّعَامِ**﴾ أي: المطعومات، والمراد أكلُها ﴿**كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ**﴾ حلالاً لهم ﴿**إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ**﴾ يعقوب عليه السلام ﴿**عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ**﴾ كلحوم الإبل وألبانها. وقيل: كان به عرق النسا، فنذر إن شفي لم يأكل أحبَّ الطعام إليه، وكان ذلك أحبَّه إليه ﴿**مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ**﴾ أي: من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حُرِّم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديداً ﴿**قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾**﴾ أمرٌ بمحاجَّتهم بكتابهم وتبكيتهم بما فيه من أنه قد حُرِّم عليهم بسبب ظلمهم ما لم يكن مُحرَّماً.

(٩٤) ﴿**فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ**﴾ ابتدعه على الله تعالى بزعمه أنه حرَّم ذلك قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومَن قبلهم ﴿**مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ**﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾**﴾ الذين لا ينصفون من أنفسهم، ويكابرون الحق بعد ما وضح لهم.

(٩٥) ﴿**قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ**﴾ أي: ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون ﴿**فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا**﴾ أي: ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم عليه السلام ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾**﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعريض بشرك اليهود.

(٩٦) ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ**﴾ أي: وُضع للعبادة وجعل متعبَّداً لهم، والواضع هو الله تعالى ﴿**لَلَّذِي بِبَكَّةَ**﴾ للبيتُ الذي بِبكَّةَ، وهي لغة في مكة. «سئل عليه الصلاة والسلام عن أول بيت وضع للناس فقال:

المسجد الحرام، ثم بيت المقدس. وسئل كم بينهما؟ فقال: أربعون سنة» [الحديث متفق عليه] ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم، ولأن فيه آيات عجيبة كما قال تعالى:

(٩٧) ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، وأن ضواري السباع تخالط الصيود في الحرم ولا تتعرَّض لها، وأنَّ كلَّ جبار قصده بسوء قهره الله تعالى كأصحاب الفيل ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: منها مقام إبراهيم عليه السلام. والمراد بالآيات أثر القدم في الصخرة الصماء وغوصها فيها إلى الكعبين، وسبب هذا الأثر أنه لما ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة فغاصت فيه قدماه ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ أي: ومنها أَمْنُ مَنْ دخله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ قصدُه للزيارة على الوجه المخصوص ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وقد فسر رسول الله ﷺ الاستطاعة «بالزاد والراحلة» [أخرجه الترمذي وابن ماجه رحمهما الله تعالى] وهو يؤيد قول الشافعي رضي الله تعالى عنه إنها بالمال، ولذلك أوجب الاستنابة على الزَّمِن (أي: المريض مرضاً يدوم زماناً طويلًا) إذا وجد أجرة من ينوب عنه. وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى إنها بالبدن، فيجب على من قدر على المشي والكسب في الطريق. وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إنها بمجموع الأمرين ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ وضع كَفَرَ موضع من لم يحج، تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه، وتسمية ترك الحج كفراً من حيث إنه فعل الكفرة.

(٩٨) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بآياته السمعيَّة والعقليَّة الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره. وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، لأن معرفتهم بالآيات أقوى، وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها، لا ينفعكم التحريف والاستسرار.

(٩٩) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾ كرَّر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقريع ونفي العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب. وسبيلُ الله تعالى دينه الحق المأمور بسلوكه، وهو الإسلام ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: باغين طالبين لها اعوجاجاً بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه عوجاً عن الحق، بمنع النسخ وتغيير صفة رسول الله ﷺ ونحوهما (أقول: عوجاً أي: انحرافاً وضعفاً حتى يضعف اعتقاد المسلمين) ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أنها سبيل الله تعالى؛ والصدُّ عنها ضلال وإضلال ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ وعيدٌ لهم. ولما كان المنكر في الآية الأولى كفرهم وهم يجهرون به ختمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾، ولما كان في هذه الآية صدهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١٠٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ وإنما خاطبهم الله تعالى بنفسه بعد ما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يخاطب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقَّاء بأن يخاطبهم الله تعالى ويكلِّمهم.

وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠١) ﴿**وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ**﴾ إنكار وتعجيب لكفرهم في حال اجتمع لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان الصارفة عن الكفر ﴿**وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ**﴾ ومن يتمسَّك بدينه أو يلتجئ إليه في مجامع أموره ﴿**فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾**﴾ فقد اهتدى لا محالة.

(١٠٢) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ**﴾ حق تقواه وما يجب منها، وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقيل: هو أن تنزه الطاعة عن الالتفات إليها وعن توقع المجازاة عليها ﴿**وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾**﴾ أي: ولا تكونُنَّ على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت. (أقول: جدير بك أن يكون أمرك مبدوءاً بالتقوى ومختوماً بها، ولا سبيل لضمان حسن الخاتمة إلا بمتابعة النبي ﷺ في ما جاء به عن ربه عز وجل، فكن متمسكاً بالكتاب والسنة، مجاهداً لنفسك ولأهوائك، ومحافظاً على سلامة قلبك بكثرة ذكرك لله تعالى بالحضور التام الدائم، وراجياً مولاك أن يتقبل منك هذا، ولا تعتمد على أعمالك الصالحة، مع اعتقادك أن عبادتك غير لائقة بربك عز وجل. اللهم اجعلنا من الذين سبقت لهم منك الحسنى برحمتك يا أرحم الراحمين).

(١٠٣) ﴿**وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ**﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه. استعار له الحبل من حيث أن التمسك به سبب للنجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردي، وللوثوق به والاعتماد عليه ﴿**جَمِيعٗا**﴾ مجتمعين عليه ﴿**وَلَا تَفَرَّقُواْۚ**﴾ أي لا تتفرقوا تفرقكم في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً ﴿**وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ**﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام المؤدي إلى التآلف وزوال الغلِّ ﴿**إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ**﴾ في الجاهلية متقاتلين ﴿**فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ**﴾ بالإسلام ﴿**فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا**﴾ متحابِّين مجتمعين على الأخوة في الله تعالى. وقيل: كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين، فوقع بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مئة وعشرين سنة، حتى أطفأها الله تعالى بالإسلام، وألَّف بينهم برسوله ﷺ ﴿**وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ**﴾ لكفركم، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم في النار ﴿**فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ**﴾ بالإسلام ﴿**كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ**﴾ دلائله ﴿**لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾**﴾ إرادةَ ثباتِكم على الهدى وازديادكم فيه.

(١٠٤) ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ «من» للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، واجب على الكل، حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً، ولكن يسقط بفعل بعضهم (أقول: فعلى كلِّ من يعلم كلمة من الإسلام أن يقول. مثلاً: إذا رأى المسلمُ المصلي مسلماً آخر لا يصلي لا بدَّ أن ينصحه، ولا ينتظر حتى يأتي عالم ليقول له). أو للتبيين، بمعنى وكونوا أمة يدعون كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. والدعاء إلى الخير يعمُّ الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ المخصوصون بكمال الفلاح. والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حسب ما يؤمر به. والنهي عن المنكر واجب كله، لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. والأظهر أن العاصي يجب عليه أن يَنهى عما يرتكبه، لأنه يجب عليه تركه وإنكاره، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر.

(١٠٥) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ كاليهود والنصارى، اختلفوا في التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه. والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول دون الفروع (أقول: وهذا بالنسبة للمجتهدين لا لكلِّ أحد) لقوله عليه الصلاة والسلام: «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ وعيد للذين تفرَّقوا، وتهديد على التشبُّه بهم.

(١٠٦) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ بياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه. وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفةِ وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، وهم المرتدون، أو أهل الكتاب، كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أمرُ إهانةٍ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ جزاء لكفركم.

(١٠٧) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعني الجنة والثواب المخلد، عبَّر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله تعالى ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

(١٠٨) ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الواردة في وعده ووعيده ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ إذ يستحيل الظلم منه لأنه لا يحقُّ عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يُمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق، كما قال تعالى:

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

(١٠٩) ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾**﴾ فيجازي كلًّا بما وعد له وأوعد.

(١١٠) ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ**﴾ دلَّ على خيريَّتهم فيما مضى، ولم يدل على انقطاع طرأ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ٢٣] ﴿**أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ أي: أظهرت لهم ﴿**تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ**﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمَن به ﴿**وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ**﴾ إيماناً كما ينبغي ﴿**لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ**﴾ مما هم عليه ﴿**مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأصحابه ﴿**وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾**﴾ المتمرِّدون في الكفر.

(١١١) ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ**﴾ ضرراً يسيراً، كطعن وتهديد ﴿**وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ**﴾ ينهزموا ولا يضروكم بقتل وأسر ﴿**ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾**﴾ ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم.

(١١٢) ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ**﴾ هدر النفس والمال والأهل، أو ذل التمسُّك بالباطل والجزية ﴿**أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ**﴾ وُجدوا ﴿**إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ**﴾ أي: ضربت عليهم الذلَّة في عامة الأحوال، إلا معتصمين أو ملتبسين بذمة الله تعالى، أو كتابه الذي آتاهم، وذمة المسلمين ﴿**وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ رجعوا به مستوجبين له ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ**﴾ فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ**﴾ بسبب كفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء. والتقييد بغير حق، مع أنه كذلك في نفس الأمر، للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: الكفر والقتل ﴿**بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾**﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر، والاستمرار عليها يؤدي إلى الكفر.

(١١٣) ﴿**لَيْسُواْ سَوَآءًۗ**﴾ في المساوئ ﴿**مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ**﴾ أي: مستقيمة عادلة، وهم الذين

أسلموا منهم ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ يتلون القرآن في تهجدهم. عَبَّر عنه بالتلاوة في ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ في المدح.

(١١٤) ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ صفات أخر لأمةٍ وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود، فإنهم (أي: اليهود) منحرفون عن الحق، غير متعبِّدين في الليل، مشركون بالله تعالى ملحدون في صفاته، واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته، مداهنون في الاحتساب، متباطئون عن الخيرات ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ممن صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقُّوا رضاه وثناءه.

(١١٥) ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ فلن يضيع ولا ينقص ثوابه ألبتة (أقول: وما يفعلوه من أعمال الخير قلَّ أو كثر، فلن يعدم ثوابه، بل يشكره الله تعالى لهم ويجازيهم عليه بفضله، بشرط الإخلاص).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ بشارة لهم وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحُسْنِ العمل، وأن الفائز عند الله تعالى هو أهل التقوى (اللهم اجعلنا بفضلك مع الذين أنت راضٍ عنهم).

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

(١١٦) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ**﴾ من العذاب ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ**﴾ ملازموها ﴿**هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾**﴾.

(١١٧) ﴿**مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ**﴾ ما ينفق الكفرة قربةً، أو مفاخرة وسمعة، أو المنافقون رياء أو خوفاً ﴿**فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ**﴾ برد شديد ﴿**أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ**﴾ بالكفر والمعاصي ﴿**فَأَهْلَكَتْهُۚ**﴾ عقوبة لهم، لأن الإهلاك عن سخط أشد ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾**﴾ أي: ما ظلم المنفقين بضياع نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم لما لم ينفقوها بحيث يعتد بها.

(١١٨) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً**﴾ وهو الذي يعرِّفه الرجل أسراره ثقة به. شُبِّه ببطانة الثوب كما شبه بالشِّعَار، قال عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شعار والناس دثار» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] (والشعار: ما وَلِي جَسَدَ الإنسان دون ما سواه من الثياب، والدِّثار: الثوبُ الذي يكون فوق الشِّعار) ﴿**مِّن دُونِكُمْ**﴾ من دون المسلمين ﴿**لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا**﴾ أي: لا يقصرون لكم في الفساد ﴿**وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ**﴾ تمنَّوا عنتكم، وهو شدة الضرر والمشقة ﴿**قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ**﴾ أي: في كلامهم، لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم ﴿**وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ**﴾ مما بدا، لأن بُدُوَّه ليس عن روية واختيار ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۖ**﴾ الدالة على وجوب الإخلاص وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾**﴾ ما بُيِّن لكم.

(١١٩) ﴿**هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ**﴾ أي: أنتم أولاء الخاطئون في موالاة الكفار تحبونهم ولا يحبونكم ﴿**وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ**﴾ بجنس الكتاب كله. والمعنى: إنهم لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضاً، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم. وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم.

﴿**وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا**﴾ نفاقاً وتغريراً ﴿**وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ**﴾ تأسُّفاً وتحسُّراً، حيث لم يجدوا إلى التشفِّي سبيلاً ﴿**قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ**﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام

وأهله حتى يهلكوا به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ فيعلم ما في صدورهم من البغضاء والحنق (أي: شدة الغضب والغيظ). أي: قل لهم ذلك، ولا تتعجَّب من إطْلاعي إياك على أسرارهم، فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

(١٢٠) ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حدِّ حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة، وشمتوا بما أصابهم من ضرٍّ وشدة ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على عداوتهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ موالاتهم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ﴾ بفضل الله عز وجل وحفظه الموعود للصابرين (قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣])، والمتقين (قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سورة [التوبة: ٤]). ولأن المُجدَّ في الأمر المتدرِّب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال جريئاً على الخصم (أقول: لأنه يحوِّل الأمور إلى الله تعالى، وإذا لم تقتضِ إرادته تعالى أن يمنع الأمر عنه لا بد أن يصبر).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في عداوتكم عليم فيعاقبهم عليه ﴿مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: محيط علمه، فيجازيهم بما هم أهله (أقول: لا بدَّ من الصبر، هذا كلُّه امتحان في الدنيا يجري على المسلمين، فلا بدَّ للمسلم أن لا يغفل عن ربِّه وخالقه، لأنه لا يغيب عنه شيء جل وعلا).

(١٢١) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ أي: واذكر إذ غدوت ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: من حجرة عائشة رضي الله عنها ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزلهم، أو تسوي وتهيئ لهم ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ﴾ مواقف وأماكن لهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ بنياتكم. روي أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة، فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه، وقد دعا عبد الله بن أبيّ بن سلول ولم يدعه من قبل، فقال هو وأكثر الأنصار: أقم يا رسول الله بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدَعْهم فإن أقاموا أقاموا بشرِّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار بعضهم إلى الخروج، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني رأيت في منامي بقرة مذبوحة حولي فأوَّلتها خيراً، ورأيت في ذُباب سيفي (أي: طرفه) ثلماً (أي: كسراً) فأوَّلته هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأوَّلتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعُوهم، فقال رجال فاتَتْهم بدر وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا، وبالغوا، حتى دخل ولبس لَأْمَتَهُ (أي: سلاحه)، فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم، وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال: لا ينبغي لنبيٍّ أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل»، فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بشعب أُحُد يوم السبت، ونزل في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وسوى صفهم، وَأَمَّر عبد الله بن جبير رضي الله تعالى عنه على الرماة، وقال: انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا [رواه البيهقي في الدلائل بألفاظ متقاربة].

إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

(١٢٢) ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر ﴿أَن تَفۡشَلَا﴾ أن تجبُنا وتضعُفا.

روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج في زهاء ألف رجل، ووعد لهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخذل ابن أبيٍّ في ثلاث مئة رجل وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري وقال: أنشدكم الله والإسلام في نبيكم وأنفسكم، فقال ابن أبيّ: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فهمَّ الحيان باتباعه، فعصمهم الله تعالى، فمضوا مع رسول الله ﷺ [رواه الطبري في التفسير بألفاظ متقاربة].

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ أي: عاصمهما من اتباع تلك الخطرة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره، لينصرهم كما نصرهم ببدر.

(١٢٣) ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ لضعف الحال وقلة المراكب والسلاح ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الثبات ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصره.

(١٢٤) ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يوم أُحُد، وكان مع اشتراط الصبر والتقوى عن المخالفة، فلما لم يصبروا عن الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ لم تنزل الملائكة ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ إنكار أن لا يكفيهم ذلك، وإنما جيء بلن إشعاراً بأنهم كانوا كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ أي: بلى يكفيكم. ثم وعد لهم الزيادة على الصبر والتقوى حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم﴾ أي: المشركون ﴿مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ من ساعتهم هذه ﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في حال إتيانهم بلا تراخ ولا تأخير ﴿مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ معلَّمين.

(١٢٦) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ ولتسكن إليه من الخوف ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لاَ من العدة والعدد. وهو تنبيه على أنه لا

حاجة في نصرهم إلى مدد، وإنما أمدهم ووعد لهم به بشارة لهم وربطاً على قلوبهم، من حيث أن نظر العامة إلى الأسباب أكثر، وحثاً على أن لا يبالوا بمن تأخر عنهم ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالَب في أقضيته ﴿ٱلْحَكِيمِ ١٢٦﴾ الذي ينصر ويخذل بوسط (أي: بواسطة) وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة.

(١٢٧) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ والمعنى: لينقص منهم بقتل بعض وأسر آخرين، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من صناديدهم ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو يخزيهم ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ فينهزموا منقطعي الآمال.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ والمعنى: أن الله تعالى مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور لإِنذارهم وجهادهم. روي أن عتبة بن أبي وقاص شجَّهُ يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟ فنزلت [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. وقيل: همَّ أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه سبحانه بأنَّ فيهم مَنْ يؤمن ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ قد استحقوا التعذيب بظلمهم.

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، فله الأمر كله لا لك ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ صريح في نفي وجوب التعذيب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢٩﴾ لعباده، فلا تبادر إلى الدعاء عليهم.

(١٣٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ لا تزيدوا زيادات مكرَّرة، ولعل التخصيص بحسب الواقع، إذ كان الرجل منهم يُربي إلى أجل ثم يزيد فيه زيادة أخرى حتى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما نهيتم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٣٠﴾ راجين الفلاح.

(أقول: احذر من نفسك أن تسوِّل لك الحرام، وهذا الخطاب لك، فأنت تأبى أولاً لأنك مؤمن، والإيمان صفتك. عليك بامتثال أمر الله تعالى، وانتبه من رقدة الغفلة، ودع الجمع والشح والحرص على حطام الدنيا. فالرزق مقسوم، ودائرة الحلال تكفينا، والخروج منها من سوء أدبنا. فاستحيِ من الله تعالى حق الاستحياء، حتى تنال مقام المتقين الذين وعدهم الله تعالى بالجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١]).

(١٣١) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي أفعالهم. وفيه تنبيه على أن النار بالذات معدَّة للكافرين، وبالعرَضِ للعصاة (أقول: أي من المؤمنين، ولكن بالنتيجة المؤمنون لا يخلَّدون في النار، والكافرون لا يخرجون من النار).

(١٣٢) ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣٢﴾ أتبعَ الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾

(١٣٣) ﴿**وَسَارِعُوٓاْ**﴾ بادروا وأقبلوا ﴿**إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ**﴾ إلى ما يُستحَق به المغفرة، كالإِسلام والتوبة والإِخلاص ﴿**وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ**﴾ أي: عرضها كعرضهما. وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة على طريقة التمثيل، لأنه دون الطول ﴿**أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣**﴾ هيئت لهم. وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة.

(١٣٤) ﴿**ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ**﴾ صفة مادحة للمتقين ﴿**فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ**﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أو الأحوال كلها، إذ الإِنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، أي: لا يخلون في حالٍ ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير ﴿**وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ**﴾ الممسكين عليه الكافِّين عن إمضائه مع القدرة ﴿**وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ**﴾ التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته ﴿**وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤**﴾ (أقول: نعم هو لمن تخلَّق بأخلاق القرآن الكريم بعد رياضات كاملة وحجة وافية، ولمن كان متمسِّكاً بسنة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام).

(١٣٥) ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً**﴾ فعلة بالغة في القبح كالزنى ﴿**أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ**﴾ بأن أذنبوا أيَّ ذنب كان ﴿**ذَكَرُواْ ٱللَّهَ**﴾ تذكَّروا وعيده أو حُكمه أو حقَّه العظيم ﴿**فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ**﴾ بالندم والتوبة ﴿**وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ المراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة، والحثُّ على الاستغفار، والوعد بقبول التوبة ﴿**وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ**﴾ ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين ﴿**وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥**﴾ (قُبْحَها) أي: ولم يصرُّوا على قبيح فعلهم عالمين به.

(١٣٦) ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ**﴾ ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم أن لا يدخلها المصرون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم. وتنكير «جنات» يدل على أن ما لهم أدونُ مما للمتقين الموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية المتقدمة، وكفاك فارقاً بين القبيلين أنه فصَّل آيتهم بأن بيَّن أنهم محسنون مستوجبون لمحبة الله تعالى، وذلك لأنهم حافظوا على حدود الشرع، وتخطوا إلى التخصُّص بمكارمه، وفصَّل آية هؤلاء بقوله:

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ لأن المتدارِك لتقصيره كالعامل لتحصيل بعض ما فوَّت على نفسه، وكم بين المحسن والمتدارك والمحبوب والأجير.

(١٣٧) ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وقائع سنَّها الله تعالى في الأمم المكذِّبة ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم.

(١٣٨) ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي: إنه مع كونه بياناً للمكذبين فهو زيادة بصيرة وموعظة للمتقين.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد. والمعنى: لا تضعفوا عن الجهاد بما أصابكم، ولا تحزنوا على من قُتل منكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم شأناً، فإنكم على الحق وقتالكم لله تعالى وقتلاكم في الجنة، وإنهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم في النار؛ أو وأنتم الأعلون في العاقبة، فيكون بشارة لهم بالنصر والغلبة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: لا تهنوا إن صحَّ إيمانكم، فإنه يقتضي قوة القلب بالوثوق بالله تعالى.

(١٤٠) ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ المعنى: إن أصابوا منكم يوم أُحُد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثله، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا، فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم ترجون مِنَ الله تعالى مَا لَا يرجون ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نصرِّفها بينهم، لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى؛ والمراد بها أوقات النصر والغلبة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حرف ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ ويكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد شهداء أُحُد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين. وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة، وإنما يُغلِّبهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

(١٤١) ﴿**وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم ﴿**وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾**﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم.

(١٤٢) ﴿**أَمۡ حَسِبۡتُمۡ**﴾ بل أحسبتم، ومعناه الإنكار (أي: لا تحسبوا) ﴿**أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ**﴾ أي: ولمَّا تجاهدوا. وفيه دليل على أنَّ الجهاد فرض كفاية (أقول: أما إذا هجم العدو على المسلمين، حينذاك يكون الجهاد فرض عين) ﴿**وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾**﴾.

(١٤٣) ﴿**وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ**﴾ أي الحرب، فإنها من أسباب الموت، أو الموت بالشهادة (قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله تعالى منازل الشهداء ولو مات على فراشه» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]).

والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً، وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله ﷺ مشهداً لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة، فألحوا يوم أحد على الخروج ﴿**مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ**﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته ﴿**فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾**﴾ أي: فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم. وهو توبيخ لهم على أنهم تمنَّوا الحرب وتسبَّبوا لها، ثم جَبُنوا وانهزموا عنها.

(١٤٤) ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ**﴾ فسيخلوا كما خلوا بالموت أو القتل ﴿**أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ**﴾ إنكارٌ لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلوِّ الرسل قبله وبقاء دينهم متمسَّكاً به. روي أنه لما رمى عبدُ الله بن قميئة الحارثي رسولَ الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه ـ وكان صاحب الراية ـ حتى قتله ابن قميئة، وهو يرى أنه قتل النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأ الناس، وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو: إليَّ عباد الله، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرَّق الباقون. وقال بعضهم: ليت ابن أبيٍّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قُتل، ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم، فقال أنس بن النضر عم

أنس بن مالك رضي الله عنهما: يا قوم إن كان قُتل محمَّد ﷺ فإنَّ ربَّ محمَّد ﷺ حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده، فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقولون وأبرأ إليك منه، وشد بسيفه فقاتل حتى قتل، فنزلت [سيرة ابن هشام].

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بارتداده، بل يضرُّ نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه، كأنس رضي الله تعالى عنه وأضرابه.

(١٤٥) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بمشيئة الله تعالى، أو بإذنه تعالى لملك الموت عليه السلام في قبض روحه. والمعنى: أنَّ لكلِّ نفس أجلاً مسمًّى في علمه تعالى وقضائه لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون بالإحجام عن القتال والإقدام عليه. وفيه تحريض وتشجيع على القتال، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: مؤقتاً لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ تعريضٌ لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم وأخذوا ينهبون، فلما رأى الرماة ذلك أقبلوا على النهب (أي: الغنيمة) وخلَّوا مكانهم، فانتهز المشركون وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: من ثوابها ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ الذين شكروا نعمة الله تعالى فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

(١٤٦) ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ ربانيون علماء أتقياء، أو عابدون لربهم ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فما فتروا ولم ينكسر جِدهم لما أصابهم من قتل النبي أو بعضهم ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ عن العدو أو في الدين ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ وما خضعوا للعدو ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ فينصرهم ويعظم قدرهم.

(١٤٧) ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي: وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها، وإضافة ما أصابهم إلى سوء أعمالهم والاستغفار عنها، ثم طلب التثبيت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون عن خضوع وطهارة، فيكون أقرب إلى الإجابة.

(١٤٨) ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ فآتاهم الله تعالى بسبب الاستغفار واللجأ إلى الله تعالى النصرَ والغنيمةَ والعزَّ وحسنَ الذكر في الدنيا، والجنةَ والنعيمَ في الآخرة، وخصَّ ثوابها بالحُسن إشعاراً بفضله، وأنه المعتد به عند الله تعالى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

(١٤٩) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ**﴾ أي: إلى الكفر ﴿**عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾**﴾ نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم، ولو كان محمد عليه الصلاة والسلام نبياً لما قُتل.

(١٥٠) ﴿**بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ**﴾ ناصركم ﴿**وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾**﴾ فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره.

(١٥١) ﴿**سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ**﴾ يريد ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ﴿**بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا**﴾ أي: بسبب إشراكهم به آلهة ليس على إشراكها حجة، ولم ينزل عليهم به سلطان ﴿**وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾**﴾.

(١٥٢) ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ**﴾ أي: وعده إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر، وكان كذلك حتى خالف الرماة، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم بالنبل والباقون يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم ﴿**إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ**﴾ تقتلونهم ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ**﴾ جبنتم وضعف رأيكم، أو ملتم إلى الغنيمة، فإن الحرص من ضعف العقل (أقول: الحرص وصف خبيث في كثير من المسلمين، فإذا سلبه الله تعالى من الإنسان سلبه، وإذا لم يسلبه يبقى معه إلى أن يموت. اللهم طهِّر قلوبنا) ﴿**وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ**﴾ يعني اختلاف الرماة حين انهزم المشركون، فقال بعضهم: فما موقفنا هٰهنا، وقال آخرون: لا نخالف أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، فثبت مكانه أميرهم في نفر دون العشرة، ونفر الباقون للنهب، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿**وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ**﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا**﴾ وهم التاركون المركز للغنيمة ﴿**وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ**﴾ وهم الثابتون محافظة على أمر الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ**﴾ ثم كفَّكم عنهم حتى حالت الحال فغلبوكم ﴿**لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾ على المصائب ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها ﴿**وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ**﴾ تفضُّلاً، ولِمَا علم من ندمكم على المخالفة ﴿**وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾**﴾ يتفضَّل عليهم بالعفو.

(أقول وبالله التوفيق: في الآية فائدة عظيمة لمن تفكَّر وتدبَّر. تشير الآية الكريمة أولاً إلى أن إحاطة علم الله تعالى شاملة لجميع الأشياء، وهو مطلع على نيات عباده وما في ضمائرهم من الإخلاص مع إرادة الدنيا، أو الإخلاص المجرد مع قطع النظر عن الدنيا، وهم يريدون وجهه تعالى فقط. ليس هناك أحد أفضل على الله تعالى من أصحاب رسول الله ﷺ بعد النبيين صلوات الله وسلامه عليهم.

اسمع ما قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما شعرنا أنَّ أحداً من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد، ونزلت الآية الكريمة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ فهؤلاء يقتبسون من أنوار الرسول ﷺ وأخلاقه القرآنية، مع يقينهم الصادق، وهم كالنجوم يهتدى بهم، انظر كيف عاتبهم الله تعالى في مخالفة واحدة، وآخذهم بمخالفة واحدة. فعلى المؤمن أن يختار أمر الرسول ﷺ وطاعته على هوى نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وعليه ألا يترك سبيله ومنهجه كي ينال شفاعته ﷺ إن شاء الله تعالى. اللهم وفِّقنا لذلك آمين).

(١٥٣) ﴿**إِذْ تُصْعِدُونَ**﴾ الإصعاد: الذهاب والإبعاد في الأرض ﴿**وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ**﴾ لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره ﴿**وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ**﴾ كان يقول إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، من يكرّ فله الجنة ﴿**فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ**﴾ في جماعتكم المتأخرة ﴿**فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ**﴾ المعنى: فجازاكم الله تعالى عن فشلكم وعصيانكم غمّاً متَّصلاً بغمٍّ، من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول ﷺ ﴿**لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ**﴾ لتتمرنوا على الصبر في الشدائد، فلا تحزنوا فيها بعد على نفع فائت ولا ضرٍّ لاحق ﴿**وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾**﴾ عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

(١٥٤) ﴿**ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا**﴾ أنزل الله تعالى عليكم الأمن حتى أخذكم النعاس. وعن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه: غشينا النعاس في المصافِّ (أي: في صفِّ القتال) حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه ﴿**يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ**﴾ أي: النعاس. والطائفة المؤمنون حقاً ﴿**وَطَآئِفَةٌ**﴾ هم المنافقون ﴿**قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ**﴾ أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمهم إلا هم أنفسهم وطلب خلاصها ﴿**يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ**﴾ أي: يظنون بالله تعالى غير الظن الحق الذي يحقُّ أن يُظنَّ به ﴿**يَقُولُونَ**﴾ أي: لرسول الله ﷺ ﴿**هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ**﴾ هل لنا مما أمر الله تعالى ووعد من النصر والظفر نصيب؟ ﴿**قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ**﴾ أي: الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] ﴿**يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ**﴾ أي: يقولون مُظهرين أنهم مسترشدون طالبون النصر، مبطنين الإِنكار والتكذيب ﴿**يَقُولُونَ**﴾ أي: في أنفسهم وإذا خلا بعضهم إلى بعض: ﴿**لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ**﴾ كما وعد محمد عليه الصلاة والسلام أن الأمر كله لله تعالى ولأوليائه ﴿**مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا**﴾ لما غلبنا، أو لما قتل من قتل منا في هذه المعركة ﴿**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ**﴾ أي: لخرج الذين قدَّر الله تعالى عليهم القتل إلى مصارعهم، ولم تنفعهم الإِقامة بالمدينة ولم ينجُ منهم أحد، فإنه سبحانه وتعالى قدَّر الأمور ودبرها في سابق قضائه، لا معقِّب لحكمه ﴿**وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ**﴾ وليمتحن الله تعالى ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإِخلاص والنفاق ﴿**وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ**﴾ وليكشفه ويميزه، أو يخلصه من الوساوس ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾**﴾ بخفيَّاتها قبل إظهارها. وفيه وعد ووعيد، وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء، وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين.

(١٥٥) ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟**﴾ يعني إن

الذين انهزموا يوم أحد إنما كان السبب في انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه، واقترفوا ذنوباً لمخالفة النبي ﷺ بترك المركز، والحرص على الغنيمة أو الحياة، فمُنعوا التأييد وقوة القلب ﴿**وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ**﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ**﴾ للذنوب ﴿**حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾**﴾ لا يعاجل عقوبة المذنب كي يتوب.

(١٥٦) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ يعني المنافقين ﴿**وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ**﴾ معنى أخوَّتهم اتفاقهم في النسب أو المذهب ﴿**إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها ﴿**أَوْ كَانُواْ غُزًّى**﴾ جمع غازٍ ﴿**لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ أي: ولا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول والاعتقاد، ليجعله حسرة في قلوبهم خاصة ﴿**وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ**﴾ ردٌّ لقولهم، أي: هو المؤثر في الحياة والممات، لا الإقامةُ والسفر، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي، ويميت المقيم والقاعد ﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾**﴾ تهديدٌ للمؤمنين على أن يماثلوهم.

(١٥٧) ﴿**وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ**﴾ أي: متُّم في سبيله ﴿**لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾**﴾ والمعنى أن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل، وإن وقع ذلك في سبيل الله تعالى فما تنالون من المغفرة والرحمة بالموت خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا.

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

(١٥٨) ﴿**وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ**﴾ أي: على أيِّ وجه اتفق هلاككم ﴿**لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ** ﴿١٥٨﴾﴾ لإلى معبودكم الذي توجَّهتم إليه وبذلتم مُهَجكم (أي: روحكم) لوجهه جل وعلا لا إلى غيره لا محالة تحشرون، فيوفي جزاءكم ويعظم ثوابكم.

(١٥٩) ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ**﴾ أي: إن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله تعالى، وهو ربْطُهُ على جأشه (أي: ثباته عند الشدائد) وتوفيقه للرفق بهم، حتى اغتمَّ لهم بعد أن خالفوه عليه الصلاة والسلام ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا**﴾ سيِّئ الخلق جافياً ﴿**غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ**﴾ قاسيه ﴿**لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ لتفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك ﴿**فَٱعْفُ عَنْهُمْ**﴾ فيما يختص بك ﴿**وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ فيما لله تعالى ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ**﴾ أي: في أمر الحرب، إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يشاوَر فيه، استظهاراً برأيهم وتطييباً لنفوسهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ**﴾ فإذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى ﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ**﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أصلح لك، فإنه لا يعلمه سواه جلَّ وعلا ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ** ﴿١٥٩﴾﴾ فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح.

(١٦٠) ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿**فَلَا غَالِبَ لَكُمْ**﴾ فلا أحَد يغلبكم ﴿**وَإِن يَخْذُلْكُمْ**﴾ كما خذلكم يوم أُحُد ﴿**فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ**﴾ من بعد خذلانه، أو من بعد الله تعالى، بمعنى إذا جاوزتموه فلا ناصر لكم. وهذا تنبيه على المقتضي للتوكل، وتحريض على ما يستحقُّ به النصر من الله تعالى، وتحذير عما يَستجلب خذلانَهُ ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴿١٦٠﴾﴾ فلْيخصُّوه بالتوكُّل عليه لما علموا أنْ لا ناصر لهم سواه وآمنوا به جلَّ وعلا.

(١٦١) ﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ**﴾ وما صحَّ لنبيٍّ أن يخون في الغنائم، فإن النبوة تنافي الخيانة ﴿**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ يأت بالذي غله يحمله على عنقه كما جاء في الحديث، أو بما احتمل من وباله وإثمه ﴿**ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ**﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً ﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴿١٦١﴾﴾ فلا ينقص ثواب مطيعهم، ولا يزاد في عقاب عاصيهم.

(١٦٢) ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالطاعة ﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾ رجع ﴿بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بسبب المعاصي ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢﴾.

(١٦٣) ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ شبِّهوا بالدرجات لما بينهم من التفاوت في الثواب والعقاب ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ عالم بأعمالهم، ودرجاتها صادرة عنهم، فيجازيهم على حسبها.

(١٦٤) ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنعم على من آمن مع الرسول ﷺ من قومه. وتخصيصُهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ من نسبهم، أو من جنسهم عربياً مثلهم، ليفهموا كلامه بسهولة، ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: القرآن، بعد ما كانوا جهالاً لم يسمعوا الوحي ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ يطهرهم من دنس الطباع وسوء الاعتقاد والأعمال ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: القرآن والسنة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ والمعنى: وإن الشأن كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر.

(١٦٥) ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ أي: أقلتم حين أصابتكم مصيبة، وهي قتل سبعين منكم يوم أحد، والحال إنكم نلتم ضعفها يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين: من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله تعالى النصر؟ ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ أي: مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز، فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والمطاوعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ فيقدر على النصر ومنعه، وعلى أن يصيب بكم ويصيب منكم.

وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

(١٦٦) ﴿**وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ**﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين، يريد يوم أُحد ﴿**فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ**﴾ فهو كائن بقضائه جَلَّ وَعَلَا ﴿**وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾**﴾.

(١٦٧) ﴿**وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ**﴾ وليتميز المؤمنون والمنافقون، فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء ﴿**وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ**﴾ تقسيم للأمر عليهم، وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن الأنفس والأموال ﴿**قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ**﴾ لو نعلم ما يصحُّ أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه، لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة ﴿**هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ**﴾ لانخذالهم وكلامهم هذا، فإنهما أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم.

﴿**يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ**﴾ يُظهرون خلاف ما يضمرون، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ﴿**وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾**﴾ من النفاق، وما يخلو به بعضهم إلى بعض، فإنه يعلمه جل وعلا مفصَّلاً بعلم واجب، وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات.

(١٦٨) ﴿**ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ**﴾ أي: لأجلهم، يريد من قتل يوم أُحُد من أقاربهم أو من جنسهم ﴿**وَقَعَدُواْ**﴾ أي: قالوا قاعدين عن القتال: ﴿**لَوۡ أَطَاعُونَا**﴾ في القعود بالمدينة ﴿**مَا قُتِلُواْۗ**﴾ كما لم نقتل ﴿**قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾**﴾ أي: إن كنتم صادقين أنكم تقدرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه فإنه أحرى بكم. والمعنى: أن القعود غير مغنٍ عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة، وكما أن القتال يكون سبباً للهلاك والقعود سبباً للنجاة قد يكون الأمر بالعكس.

(١٦٩) ﴿**وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ**﴾ نزلت في شهداء أُحُد، وقيل في شهداء بدر. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد ﴿**بَلۡ أَحۡيَآءٌ**﴾ أي بل هم أحياء ﴿**عِندَ رَبِّهِمۡ**﴾ ذوو زلفى منه (أي: ذوو قربى ومنزلة) ﴿**يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾**﴾ من الجنة، وهو تأكيد لكونهم أحياء.

(١٧٠) ﴿**فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ**﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله

تعالى والتمتُّع بنعيم الجنة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يسرون بالبشارة ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ أي: بإخوانهم المؤمنين الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: الذين من خلفهم زماناً أو رتبة ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ المعنى: أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وحال من تركوا من خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدرها خوفُ وقوعِ محذورٍ، وحزنُ فواتِ محبوبٍ. والآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس بل هو جوهر مدرِك بذاته لا يفنى بخراب البدن، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه، ويؤيد ذلك قوله تعالى في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ [غافر: ٤٦]. وفيها حث على الجهاد، وترغيب في الشهادة، وبعث على ازدياد الطاعة، وإحماد لمن يتمنى لإِخوانه مثل ما أُنعم عليه، وبشرى للمؤمنين بالفلاح.

(١٧١) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادةٍ عليه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ من جملة المستبشر به، عطف على ﴿فَضْلٍ﴾.

(١٧٢) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ صفةٌ للمؤمنين ﴿مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ (يوم أحد والقرح: ألم الجراح وأذى الهزيمة) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ روي أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب أصحابه للخروج في طلبه، وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج عليه الصلاة والسلام مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه القرح، فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين فذهبوا، فنزلت [أخرجه البيهقي رحمه الله تعالى في دلائل النبوة].

(١٧٣) ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ يعني الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس، أو نعيم بن مسعود الأشجعي ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ والمعنى أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا، بل ثبت به يقينهم بالله تعالى، وازداد إيمانهم، وأظهروا حميَّة الإِسلام، وأخلصوا النية عنده ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كافينا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ ونعم الموكول إليه هو جلَّ وعلا.

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾

(١٧٤) ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ فرجعوا من بدر ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عافيةٍ وثبات على الإيمان وزيادة فيه ﴿وَفَضۡلٖ﴾ وربح في التجارة، فإنهم لما أتوا بدراً وافوا بها سوقاً فاتجروا وربحوا ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ من جراحة وكيد عدو ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجرأتهم وخروجهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلُّب في الدين وإظهار الجرأة على العدو، وبالحفظ عن كلِّ ما يسوؤهم، وإصابة النفع مع ضمان الأجر، حتى انقلبوا بنعمة من الله تعالى وفضل.

(١٧٥) ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يريد به المثبِّط نعيماً، أو أبا سفيان ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ القاعدين عن الخروج مع الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري، فجاهِدوا مع رسولي ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله تعالى على خوف الناس.

(١٧٦) ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ يقعون فيه سريعاً حرصاً عليه، وهم المنافقون من المتخلفين، أو قوم ارتدوا عن الإسلام. والمعنى: لا يحزنك خوف أن يضروك ويعينوا عليك لقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ أي: لن يضروا أولياء الله تعالى شيئاً بمسارعتهم في الكفر، وإنما يضرون بها أنفسهم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ نصيباً من الثواب في الآخرة. وهو يدلُّ على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر. وفي ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية، حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظٌّ من رحمته ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ مع الحرمان عن الثواب.

(١٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾﴾ تعميم للكفرة بعد تخصيصِ مَن نافق من المتخلفين أو ارتد من العرب.

(١٧٨) ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ﴾ أي: أن الإملاء خير لأنفسهم، والإملاء:

الإمهال وإطالة العمر ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ (أي: إنما نمهلهم ونؤخِّر آجالهم ليزدادوا إثماً) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾ (في الآخرة [الخازن]).

(١٧٩) ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين في عصره (أقول: هذه الدنيا مُظهرة لما ثبت في قلوبهم، لا يخرج أحد من علمه جل وعلا، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور). والمعنى: لا يترككم مختلطين لا يُعرف مخلصكم من منافقكم حتى يميز المنافق من المخلص بالوحي إلى نبيه بأحوالكم، أو بالتكاليف الشاقة التي لا يصبر عليها ولا يذعن لها إلا الخلص المخلصون منكم، كبذل الأموال والأنفس في سبيل الله تعالى، ليختبر النبي ﷺ به بواطنكم ويستدل به على عقائدكم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ وما كان الله تعالى ليؤتي أحدكم علم الغيب فيطلع على ما في القلوب من كفر أو إيمان، ولكن الله تعالى يجتبي لرسالته من يشاء فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ بصفة الإِخلاص، أو بأن تعلموه وحده مطلعاً على الغيب، وتعلموهم عباداً مجتبين لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى، ولا يقولون إلا ما أوحي إليهم ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ حق الإيمان ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ النفاق ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٩﴾ لا يُقادَر قدره (أقول: الميزان هو الشريعة والسنة النبوية، فمن كان موافقاً للشريعة والسنة النبوية يكون مقبولاً عند الله تعالى، ومن حوَّل وجهه عن الشريعة والسنة وجعل ظهره إليهما نفوض أمره إلى الله تعالى).

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ﴾ أي: ولا يحسبن البخلاءُ بخلَهم هو خيراً لهم ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: البخل ﴿شَرٌّ لَّهُمْۖ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ والمعنى: سيُلزَمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل الله له شجاعاً في عنقه يوم القيامة» [الحديث رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ وله ما فيهما مما يتوارث، فما لهؤلاء يبخلون عليه بماله ولا ينفقونه في سبيله. أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه في سبيله بهلاكهم، وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المنع والإِعطاء ﴿خَبِيرٌ ١٨٠﴾ فيجازيكم.

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

(١٨١) ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قالته اليهود لما سمعوا: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. والمعنى: أنه لم يخفَ عليه، وأنه أعد لهم العقاب عليه ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: سنكتبه في صحائف الكتَبَة، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله، لأنه كلمة عظيمة، إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول عليه الصلاة والسلام ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ أي: وننتقم منهم بأن نقول لهم: ذوقوا العذاب المحرق، وفيه مبالغات في الوعيد. وذكره هٰهنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم، ومعظمُ بخله به للخوف من فقدانه، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال.

(١٨٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من قتل الأنبياء، وقولهم هذا، وسائر معاصيهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ عطف على «ما قدَّمت»، وسببيَّته للعذاب من حيث أن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضي إثابة المحسن ومعاقبة المسيء.

(١٨٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أَمَرَنا في التوراة وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل، وهو أن يقرَّب بقربان، فيقوم النبيُّ فيدعو، فتنزل نار سماوية فتأكله ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ تكذيب وإلزام بأن رسلًا جاؤوهم قبله ـ كزكريا ويحيى عليهما السلام ـ بمعجزات أخر موجبة للتصديق وبما اقترحوه فقتلوهم.

(١٨٤) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ من تكذيب قومه واليهود. والزُّبُر جمع زَبُور، وهو الكتاب المقصور على الحِكَم. والكتاب في عرف القرآن ما يتضمَّن الشرائع والأحكام.

(١٨٥) ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ وعد ووعيد للمصدق والمكذب ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ﴾ تُعطَون جزاء أعمالكم ـ خيراً كان أو شراً ـ تاماً وافياً ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ يوم قيامكم من القبور. ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ بُعِّد عنها ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ بالنجاة ونيل المراد. وعن النبي ﷺ: «من أحبَّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر، ويؤتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ أي: لذَّاتها وزخارفها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ شبَّهها بالمتاع الذي يدلَّس به (أي: تُخفى عيوبه) على المستام (الذي يريد الشراء) ويُغر حتى يشتريه، وهذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي له متاعُ بلاغ.

(١٨٦) ﴿لَتُبۡلَوُنَّ﴾ أي: والله لتُختبَرُنَّ ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ بتكليف الإنفاق وما يصيبها من الآفات ﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾ بالجهاد والقتل والأسر والجراح وما يَرِدُ عليها من المخاوف والأمراض والمتاعب ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ من هجاء الرسول ﷺ والطعن في الدين وإغراء الكفرة على المسلمين. أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطِّنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال، ويستعدوا للقائها حتى لا يرهقهم نزولها ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على ذلك ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ مخالفة أمر الله تعالى ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني الصبر والتقوى ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

(١٨٧) ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ**﴾ أي: اذكر وقت أخذه ﴿**مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ يريد به العلماء ﴿**لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ**﴾ حكايةٌ لمخاطبتهم ﴿**فَنَبَذُوهُ**﴾ أي: الميثاق ﴿**وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ**﴾ فلم يراعوه ولم يلتفتوا إليه ﴿**وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ**﴾ وأخذوا بدله ﴿**ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ**﴾ من حطام الدنيا وأعراضها ﴿**فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾**﴾ يختارون لأنفسهم. وعن النبي ﷺ: «من كتم علماً عن أهله أُلجم بلجام من نار» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى].

(١٨٨) ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ**﴾ الخطاب للرسول ﷺ. والمعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق، بمفازةٍ: بمنجاة من العذاب، أي: فائزين بالنجاة منه ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾**﴾ بكفرهم وتدليسهم.

(١٨٩) ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ**﴾ فهو يملك أمرهم ﴿**وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾**﴾ فيقدر على عقابهم.

(١٩٠) ﴿**إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾**﴾ لَدلائلُ واضحةٌ على وجود الصانع ﷻ ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم.

(١٩١) ﴿**ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ**﴾ أي: يذكرونه دائماً على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين (أي: وهؤلاء العقلاء هم الذين يذكرون الله تعالى وعظمته دائماً وأبداً، يتذكَّرون جلال الله سبحانه، ولا يغفلون عنه في جميع الأحوال، سواء كانوا في أسواقهم وأعمالهم، أو مضطجعين في فرشهم للنوم [التفسير الواضح الميسر]). وقيل: معناه يصلُّون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم، لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب تومئ إيماءً» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. فهو حجة للإمام الشافعيِّ رضي الله تعالى عنه في أنَّ المريض يصلي مضطجعاً على جنبه الأيمن مستقبلاً بمقاديم بدنه (أي: أجزاء البدن الأمامية من الرأس واليدين والرجلين والصدر)

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات، لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: يتفكرون قائلين ذلك. والمعنى: ما خلقتَه عبثاً ضائعاً من غير حكمة، بل خلقته لِحِكم عظيمة، من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإِنسان وسبباً لمعاشه، ودليلاً يدلُّه على معرفتك ويحثُّه على طاعتك، لينال الحياة الأبديَّة والسعادة السرمديَّة في جوارك ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (أي: فنجِّنا من عذاب جهنَّم) للإِخلال بالنظر فيه والقيام بما يقتضيه.

(١٩٢) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ (أي: أهنته أو أهلكته أو فضحته [النسفي]) ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ لأن ظلمهم سبب لإِدخالهم النار وانقطاع النصرة عنهم في الخلاص منها، ولا يلزم من نفي النصرة نفي الشفاعة (للمؤمنين).

(١٩٣) ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ﴾ المراد به الرسول عليه الصلاة والسلام، وقيل: القرآن ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا، فإنها ذات تبعة ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ صغائرَنا، فإنها مستقبحة، ولكن مكفَّرة عن مجتنب الكبائر ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ مخصوصين بصحبتهم معدودين في زمرتهم. وفيه تنبيه على أنهم يحبون لقاء الله تعالى، ومن أحبَّ لقاء الله تعالى أحبَّ اللهُ تعالى لقاءه.

(١٩٤) ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: ما وعدتنا على تصديق رسلك من الثواب ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ بأن تعصمنا عما يقتضيه ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي.

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

٤ سُورَةُ النِّسَاءِ ١٧٦

(١٩٥) ﴿**فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ**﴾ إلى طلبتهم ﴿**أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ**﴾ لأن الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر؛ وهي جملة معترضة بيَّن بها شركة النساء مع الرجال فيما وُعد للعمال. روي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء، فنزلت [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿**فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ**﴾ والمعنى: فالذين هاجروا الشرك أو الأوطان والعشائر للدين ﴿**وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي**﴾ بسبب إيمانهم بالله تعالى ومن أجله ﴿**وَقَٰتَلُواْ**﴾ الكفار ﴿**وَقُتِلُواْ**﴾ في الجهاد ﴿**لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ**﴾ لأمحونَّها ﴿**وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ أي: أثيبهم بذلك إثابة من عند الله تعالى تفضُّلاً منه ﴿**وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾**﴾ على الطاعات، قادر عليه جل وعلا.

(١٩٦) ﴿**لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾**﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته. والمعنى: لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ، ولا تغترَّ بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم. روي أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاءٍ ولينِ عيشٍ فيقولون: إن أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت.

(١٩٧) ﴿**مَتَٰعٌ قَلِيلٌ**﴾ أي: ذلك التقلُّب متاع قليل لقصر مدته في جنب ما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين. قال عليه الصلاة والسلام: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ فلينظر بم يرجع» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿**ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾**﴾ أي: ما مهَّدوا لأنفسهم.

(١٩٨) ﴿**لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ والنُّزُل: ما يُعَدُّ للنازل من طعام وشراب وصلة ﴿**وَمَا عِندَ ٱللَّهِ**﴾ لكثرته ودوامه ﴿**خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾**﴾ مما يتقلب فيه الفجار، لقلَّته وسرعة زواله.

(١٩٩) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه رضي الله عنهم ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابَين (التوراة والإنجيل) ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعله المحرِّفون من أحبارهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ما خُصَّ بهم من الأجر ووعده في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩٩﴾ المراد أن الأجر الموعود سريع الوصول، فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء.

(٢٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ على مشاقِّ الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ وغالبوا أعداء الله تعالى بالصبر على شدائد الحرب، وأعدى عدوكم في الصبر على مخالفة الهوى، وتخصيصُه بعد الأمر بالصبر مطلقاً لشدّته ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للغزو، وأنفسكم على الطاعة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ فاتقوه بالتبرِّي عما سواه لكي تفلحوا غاية الفلاح، أو واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المترتبة التي هي الصبر على مضض الطاعات، ومصابرة النفس في رفض العادات، ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات، المعبَّر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة، والله تعالى أعلم.

تم بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة آل عمران وصلى الله تعالى على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النساء

مدنيَّة وهي مئة (وست) وسبعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب يعمُّ بني آدم ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ وخلق منه أمكم حواء ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ المعنى: ونَشَرَ منهما بنين وبنات كثيرة. وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلَّت عليه الآيات التي بعدها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي: يسأل بعضكم بعضاً فيقول: أسألك بالله تعالى ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ أي: اتقوا الله تعالى واتقوا الأرحام فَصِلوها ولا تقطعوها (أقول: صِلْ من قطعك، أحياناً أنت تصل وهو يقطع، لا بد أن لا تقطع بقطعه). وقد نبَّه سبحانه وتعالى إذ قرن الأرحام باسمه الكريم جل وعلا على أن صلتها بمكان منه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الرحم معلقة بالعرش تقول: ألا من وصلني وصله الله تعالى، ومن قطعني قطعه الله تعالى» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ حافظاً مطَّلعاً (أقول: لا بدَّ للعبد المؤمن بإيمانه أن يحفظ مراقبته، ويحذر من أن يراه ربه في معصية. اللهم طهِّر قلوبنا من كلِّ وصف يباعدنا عن هذه المراقبة والمشاهدة).

(٢) ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ أي: إذا بلغوا ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ ولا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم، أي: لا تنفقوهما معاً ولا تسوّوا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام، وهو فيما زاد على قدر أجره ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾﴾ ذنباً عظيماً.

(٣) ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: إن خفتم أن لا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهنَّ فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهنَّ؛ إذْ كان الرجل يجد يتيمة ذات مال وجمال فيتزوَّجها ضناً (أي: بخلًا) بها، فربما يجتمع عنده منهنَّ عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهنَّ ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ

﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ فانكحوا واحدة وذروا الجمع ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ سوَّى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السراري (أي: الجواري) لخفة مؤنهنَّ وعدم وجوب القسم بينهنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التقليل منهنَّ أو اختيار الواحدة أو التسري ﴿أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾ أقرب من أن لا تميلوا (وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: أقرب ألا تكثر عيالكم فتفتقروا).

(٤) ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مهورهن ﴿نِحۡلَةٗۚ﴾ أي: عطية ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ والمعنى: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق عن طيب نفس ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ فخذوه وأنفقوه حلالاً بلا تبعة.

(٥) ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ نهيٌ للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رشد لهم أموالهم فيضيعوها ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ أي: تقومون بها وتنتعشون (أي: تقوم بمعاشكم) ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتحصلوا من نفعها ما يحتاجون إليه ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾ عِدَة جميلة تطيب بها نفوسهم.

(٦) ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ اختبروهم قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين، والتهدي إلى ضبط المال وحسن التصرف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ حتى إذا بلغوا حدَّ البلوغ بأن يحتلم، أو يستكمل خمس عشرة سنة عندنا (أي: عند الشافعية)، وثماني عشرة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ فإن أبصرتم منهم رشداً ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ من غير تأخير عن حدِّ البلوغ ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ مسرفين ومبادرين كِبَرَهم ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾ من أكلها ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ بقدر حاجته وأجرة سعيه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «أن رجلاً قال له: إن في حجري يتيماً أفآكل من ماله؟ قال: كل بالمعروف غير متأثل مالاً (أي: غير متَّخذ منه أصل مالٍ للتجارة ونحوها) ولا واق مالك بماله» [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ بأنهم قبضوها، فإنه أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة ووجوب الضمان ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ محاسباً، فلا تخالفوا ما أُمرتم به، ولا تتجاوزوا ما حُدَّ لكم.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

(٧) ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ**﴾ يريد بهم المتوارثين بالقرابة ﴿**مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾**﴾ نصيباً مقطوعاً واجباً لهم.

(٨) ﴿**وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ**﴾ ممن لا يرث ﴿**وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ**﴾ فأعطوهم شيئاً من المقسوم تطييباً لقلوبهم وتصدُّقاً عليهم، وهو أمر ندب للبُلَّغ من الورثة (أقول: وإذا كان في الورثة صغار لا يجوز أن يعطى شيءٌ لمن لا يرث) ﴿**وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾**﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنُّوا عليهم.

(٩) ﴿**وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ**﴾ أمرٌ للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم. أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوِّزون حرمانهم؟! ﴿**فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾**﴾ أمرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعد ما أمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى، ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب.

(١٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا**﴾ ظالمين، أو على وجه الظلم ﴿**إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ**﴾ ملء بطونهم ﴿**نَارًا**﴾ ما يجرُّ إلى النار ويؤول إليها ﴿**وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾**﴾ سيدخلون ناراً وأيَّ نار.

(١١) ﴿**يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ**﴾ يأمركم ويعهد إليكم ﴿**فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ**﴾ في شأن ميراثهم، وهو إجمال، تفصيله: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ**﴾ أي: يُعدُّ كل ذكر بأنثيين حيث اجتمع الصنفان، فيضعف نصيبه (أقول: هنا بدأ بعلوم الفرائض، وترك قسماً من ذوي الفرائض، وقسماً من أحكام الحجب. والحجب قسمان: حجب حرمان، وحجب نقصان، كلُّ هذه الأحكام أخذها العلماء رحمهم الله تعالى من القرآن الكريم والسنة النبوية، خلافاً للشيعة. ولا تُعلم هذه الأحكام بالمقدار الذي يذكره المفسرون رحمهم الله تعالى، فعلوم الفرائض منبسطة معلومة عند أهل الديانة، فعلينا أن نرجع إلى علم الفرائض).

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ أي: إن كان الأولاد نساء خلصاً ليس معهنَّ ذكر ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: نساء زائدات على اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المتوفى منكم ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ﴾ ولأبوي الميت ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ﴾ أي: للميت ﴿وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فحسب ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ مما ترك ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ متعلق بما تَقدَّمه من قسمة المواريث كلها، أي: هذه الأنصباء للورثة من بعد ما كان من وصية أو دين ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم، فتحرَّوا فيهم ما أوصاكم الله تعالى به، ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يأمركم ويفرض عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والرتب ﴿حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ فيما قضى وقدَّر.

۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿**وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ**﴾ أي: ولد وارث من بطنها، أو من صلب بنيها، أو بني بنيها وإن سفل، ذكراً كان أو أنثى، منكم أو من غيركم ﴿**مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ**﴾ فَرَضَ للرجل بحقِّ الزواج ضعفَ ما للمرأة كما في النسب.

﴿**وَإِن كَانَ رَجُلٌ**﴾ أي: الميت ﴿**يُورَثُ كَلَٰلَةً**﴾ وهو من لم يخلف ولداً ولا والداً، والمراد بها قرابة ليست من جهة الوالد والولد ﴿**أَوِ ٱمْرَأَةٌ**﴾ عطف على رجل ﴿**وَلَهُۥٓ**﴾ أي: وللرجل، واكتفى بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه ﴿**أَخٌ أَوْ أُخْتٌ**﴾ أي: من الأم ﴿**فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ**﴾ سوَّى بين الذكر والأنثى في القسمة لأن الإدلاء بمحض الأنوثة، ومفهوم الآية أنهم لا يرثون ذلك مع الأم والجدة، كما لا يرثون مع البنت وبنت الابن، فخُصَّ فيه بالإجماع ﴿**مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ**﴾ أي: غير مضار لورثته بالزيادة على الثلث ﴿**وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ**﴾ بالمُضار وغيره ﴿**حَلِيمٌ ﴿١٢﴾**﴾ لا يعاجل بعقوبته.

(١٣) ﴿**تِلْكَ**﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر اليتامى والوصايا والمواريث ﴿**حُدُودُ ٱللَّهِ**﴾ شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لا يجوز مجاوزتها ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ (في جميع الأوامر والنواهي التي من جملتها ما فُصِّل في الآيتين «١١-١٢» [المقتطف]) ﴿**يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾**﴾ (الذي لا فوز وراءه [المقتطف] أقول: وهو رضا الله تعالى).

(١٤) ﴿**وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾**﴾ (أقول: هذا لمن لم يتب و يرجع ويستغفر ومات على ما هو عليه من الكفر).

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿**وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ**﴾ الفاحشة: الزنى، لزيادة قبحها وشناعتها ﴿**فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ**﴾ فاطلبوا ممن قذفهنَّ أربعة من رجال المؤمنين تشهد عليهن ﴿**فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ**﴾ فاحبسوهن في البيوت واجعلوها سجناً عليهن ﴿**حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ**﴾ أي: يتوفاهن ملائكة الموت. قيل: كان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام فنسخ بالحدِّ ﴿**أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾**﴾ كتعيين الحدِّ المخلِّص عن الحبس، أو النكاح المغني عن السفاح.

(١٦) ﴿**وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ**﴾ يعني الزانية والزاني ﴿**فَـَٔاذُوهُمَاۖ**﴾ بالتوبيخ والتقريع ﴿**فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ**﴾ فاقطعوا عنهما الإيذاء، أو أعرضوا عنهما بالإغماض والستر ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾**﴾ علة الأمر بالإعراض وترك المذمَّة.

(١٧) ﴿**إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ**﴾ أي: إن قبول التوبة كالمحتوم على الله تعالى بمقتضى وعده ﴿**لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ**﴾ متلبِّسين بها سفهاً، فإن ارتكاب الذنب سفه وتجاهل ﴿**ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ**﴾ من زمان قريب، أي: قبل حضور الموت لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ**﴾ وعدٌ بالوفاء بها وعد به وكتب على نفسه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا**﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة ﴿**حَكِيمٗا ﴿١٧﴾**﴾ والحكيم لا يعاقب التائب.

(١٨) ﴿**وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ**﴾ والمراد بالذين يعملون السوء: عصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات: المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم، وبالذين يموتون: الكفار ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾**﴾ تأكيد لعدم قبول توبتهم، وبيان أن العذاب أعدَّه لهم، لا يعجزه عذابهم متى شاء جل وعلا.

(١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ كان الرجل إذا مات وله عَصَبة (أي: قرابة لأبيه) ألقى (أي: العصبةُ) ثوبَهُ على امرأته (أي: على امرأة الميت) وقال: أنا أحقُّ بها، ثم إن شاء تزوَّجها بصداقها الأول، وإن شاء زوَّجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها لتفتدي بما ورثت من زوجها، فنُهوا عن ذلك ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: ولا تمنعوهنَّ من التزويج. والخطاب مع الأزواج، كانوا يحبسون النساء من غير حاجة ورغبة حتى يرثوا منهنَّ أو يختلعْنَ بمهورهنَّ ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفُّف ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ بالإِنصاف في الفعل والإِجمال في القول (أي: التلطُّف فيه) ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ أي: فلا تفارقوهن لكراهة النفس، فإنها قد تكره ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً، وقد تحبُّ ما هو بخلافه؛ وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير؛ والمعنى: فإن كرهتموهنَّ فاصبروا عليهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

(أقول: عاشروهن بالمعروف، فكما تكون هذه الزوجة رفيقتك في الدنيا الفانية تحبُّها لحسنها، أو لمالها، أو لمودتها، أو للحظوظ النفسانية، لا بدَّ لك أن تحبَّ دينها كي يحفظها الله تعالى من العذاب، حتى تكون الرفيقة في الجنة، وإلا تكون خائناً في أداء الأمانة التي ائتمنت عليها، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. والصابر على أخلاقهنَّ يعدُّ من المجاهدين، فلا تترك هذه المجاهدة حتى تدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. أما الغيرة الشرعية فلا يُصبر عليها، والأخلاق الباقية فهي من الطبيعة البشرية).

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ**﴾ تطليق امرأة وتزوج أخرى ﴿**وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا**﴾ مالاً كثيراً ﴿**فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾**﴾ استفهام إنكار وتوبيخ، أي: أتأخذونه باهتين وآثمين؟ والبهتان: الكذب الذي يُبهت المكذوبَ عليه.

(٢١) ﴿**وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**﴾ إنكار لاسترداد المهر، والحال أنه وصل إليها بالملامسة، ودخل بها وتقرَّر المهر ﴿**وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾**﴾ عهداً وثيقاً، وهو حقُّ الصحبة والممازجة، أو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

(٢٢) ﴿**وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ**﴾ فإنه لا مؤاخذة عليه (أقول: وهذا كان من عادة الجاهلية) ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا**﴾ أي: إنَّ نكاحهنَّ كان فاحشة عند الله تعالى ما رخَّص فيه لأمةٍ من الأمم، ممقوتاً عند ذوي المروءات، ولذلك سمي ولد الرجل من زوجة أبيه المقتي (أي: المنسوب إلى نكاح المقت من زوجة أبيه) ﴿**وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾**﴾ سبيل من يراه ويفعله.

(٢٣) ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ**﴾ ليس المراد تحريم ذواتهنَّ، بل تحريم نكاحهنَّ، لأنه معظم ما يقصد منهنَّ؛ وأمهاتكم تعمُّ من ولدتك أو ولدت من ولدك وإن علت، وبناتكم تتناول من ولدْتَها أو ولدْتَ مَن ولدَها وإن سفلت، وأخواتكم من الأوجه الثلاثة، وكذلك الباقيات، والعمة والخالة وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القربى والبُعدى ﴿**وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ**﴾ (أقول: لا أخوات أخواتكم من الرضاعة) نَزَّلَ الله تعالى الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة أماً والمراضعة أختاً، قال عليه الصلاة والسلام: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» [متفق عليه] ﴿**وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ**﴾ ذكر أولاً محرَّمات النسب، ثم محرَّمات الرضاعة لأن لها لحمة كلحمة

النسب، ثم محرَّمات المصاهرة فإن تحريمهنَّ عارض لمصلحة الزواج. والربائب: جمع ربيبة، والربيب: ولد المرأة من آخر. وقوله: ﴿دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أي: دخلتم معهنَّ الستر، وهي كناية عن الجماع، قال رسول الله ﷺ في رجل تزوَّج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها: «إنه لا بأس أن يتزوَّج ابنتها، ولا يحلُّ له أن يتزوَّج أمها» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ تصريح بعد إشعار دفعاً للقياس ﴿وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ زوجاتهم ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾ (أقول: وكذا زوجة ابنك من الرضاعة، قال في بدائع الصنائع «٣/٤»: وكذلك تحرم حليلة ابن الرضاع وابن ابن الرضاع على أبي الرضاع وأبي أبيه كما في النسب) ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ والظاهر أن الحرمة غير مقصورة على النكاح، فإن المحرَّمات المعدودة كما هي محرَّمة في النكاح فهي محرَّمة في ملك اليمين ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ معناه: لكن ما قد سلَفَ مغفورٌ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٢٤ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٦﴾

(٢٤) ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ذوات الأزواج ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سُبِين ولهنَّ أزواج كفار، فهنَّ حلال للسابين، والنكاح مرتفع بالسبي لقول أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أصبنا سبايا يوم أوطاس ولهنَّ أزواج كفار، فكرهنا أن نقع عليهن، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت الآية، فاستحللناهن [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: لو سُبي الزوجان لم يرتفع النكاح، ولم تحلَّ للسابي ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: كتب الله تعالى عليكم تحريم هؤلاء كتاباً ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ ما سوى المحرَّمات المذكورة. وخص عنه بالسُّنة ما في معنى المذكورات كسائر محرَّمات الرضاع، والجمع بين المرأة وعمَّتها وخالتها ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ والمعنى: أحل لكم ما وراء ذلكم إرادة أن تبتغوا النساء بأموالكم بالصرف في مهورهن، أو أثمانهن (في حال شراء الجارية)، في حال كونكم محصنين غير مسافحين، والإِحصان: العفة، والسفاح: الزنى ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ من جماع أو عقد عليهنَّ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهنَّ ﴿فَرِيضَةٗۚ﴾ بمعنى مفروضة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾ فيما يزاد على المسمى أو يحط عنه بالتراضي. وقيل: نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ثم أصبح يقول: «يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. وهي النكاح المؤقت بوقت معلوم، سمي بها إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتيعها بما تعطى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح ﴿حَكِيمٗا ٢٤﴾ فيما شرع من الأحكام.

(٢٥) ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾ غنى واعتلاء ﴿أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: ومن لم يستطع منكم أن يعتلي نكاح المحصنات، أو من لم يستطع منكم غنى يبلغ به نكاح المحصنات، يعني الحرائر،

لقوله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يعني الإماء المؤمنات ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ فاكتفوا بظاهر الإيمان فإنه العالم بالسرائر وبتفاضل ما بينكم في الإيمان، فرُبَّ أَمَةٍ تَفضُل الحرَّة فيه، ومن حقكم أن تعتبروا فضل الإيمان لا فضل النسب (أقول: أي: والله تعالى أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان، فربما كان إيمان الأَمَةِ أرجح من إيمان الحرَّة، وإيمان المرأة من إيمان الرجل، فلا ينبغي للمؤمن أن يطلب الفضل والرجحان إلا باعتبار الإيمان والإسلام، لا بالأحساب والأنساب، فبينكم وبين أرقائكم المؤاخاة الإيمانية والجنسية الدينية، لا يَفضُلُ حر عبداً إلا برجحان الإيمان وقدم الدين) ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أنتم وأرقاؤكم متناسبون، نسبكم من آدم عليه السلام، ودينكم الإسلام ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ يريد أربابهن ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أدوا إليهن مهورهن ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بغير مطل وإضرار ونقصان ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ عفائف ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ غير مجاهرات بالسفاح ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أخلاء في السر ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ بالتزويج ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ زنى ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ يعني الحرائر ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ من الحد، وهو يدلُّ على أن حدَّ العبد نصف حدِّ الحرِّ، وأنه لا يُرجم لأن الرجم لا ينتصف ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نكاح الإماء ﴿لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ لمن خاف الوقوع في الزنى ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وصبركم عن نكاح الإماء متعففين خير لكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن لم يصبر ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ بأن رخص له.

(٢٦) ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ما تعبَّدكم به من الحلال والحرام، أو ما خفي عنكم من مصالحكم ومحاسن أعمالكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مناهج من تقدمكم من أهل الرشد لتسلكوا طرقهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويغفر لكم ذنوبكم، أو يرشدكم إلى ما يمنعكم عن المعاصي ويحثكم على التوبة، أو إلى ما يكون كفارة لسيئاتكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بها ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ في وضعها.

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

(٢٧) ﴿**وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ**﴾ كرَّره للتأكيد والمبالغة ﴿**وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ**﴾ يعني الفجرة ﴿**أَن تَمِيلُواْ**﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات ﴿**مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾**﴾ بالإضافة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندور غير مستحلٍّ لها (أقول: جزاه الله خيراً قيَّد بقوله: «غير مستحلٍّ» حفظاً لإيمانهم).

(٢٨) ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ**﴾ فلذلك شرع لكم الشرعة الحنيفيّة السمحة السهلة، ورخَّص لكم في المضايق، كإحلال نكاح الأَمَة ﴿**وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾**﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاقَّ الطاعات (أقول: اللهم إنا نريد أن نتشبَّث بمن تخلَّق بأخلاق القرآن، اللهم وفِّقنا لذلك).

(٢٩) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ**﴾ بما لم يبحه الشرع كالغصب والربا والقمار ﴿**إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ**﴾ أي: تجارة صادرة عن تراضي المتعاقدين. وقيل: المراد بالنهي المنع عن صرف المال فيما لا يرضاه الله تعالى، وبالتجارة صرفه فيما يرضاه ﴿**وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ**﴾ بالبخع (أي: قتل النفس تأسفاً وتحزناً على ما فات) كما تفعله جهلة الهند، أو بإلقاء النفس إلى التهلكة ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾**﴾ أي: أمر ما أمر ونهى عما نهى لفرط رحمته عليكم.

(٣٠) ﴿**وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ**﴾ إشارة إلى القتل، أو ما سبق من المحرمات ﴿**عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا**﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحق وإتياناً بما لا يستحقه. وقيل أراد بالعدوان التعدي على الغير، وبالظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب ﴿**فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ**﴾ ندخله إياها ﴿**وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾**﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه.

(٣١) ﴿**إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ**﴾ كبائر الذنوب التي نهاكم الله تعالى ورسوله ﷺ عنها (وهي الشرك بالله تعالى بأنواعه، من إثبات الوجود لغيره وإسناد الحوادث إلى الأسباب وغير ذلك، كما قال

أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم) ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ نغفر لكم صغائركم ونمحها عنكم (وخطاياكم اللاحقة لنفوسكم من لوازم بشريتكم ومقتضى طبيعتكم، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم) واختُلف في الكبائر، والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتَّب الشارع عليه حداً أو صرح بالوعيد فيه. وقيل: ما عُلم حرمته بقاطع. وعن النبي ﷺ أنها سبع: «الإشراك بالله تعالى، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والربا، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين» [والحديث رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ الجنة وما وعد من الثواب (أقول: فعلى العاقل المنوَّر أن لا يفعل المعاصي سواء كانت صغيرة أو كبيرة، إذ ربما يكون تحت هذه الصغيرة غضب الله تعالى، فيصيبه بها غضب الله جلَّ جلاله؛ لأن هذه الصغيرة عملْتَها بإصرار في ظاهرك، وعن علم في باطنك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء: ١٨]؛ والله تبارك وتعالى ينظر إلى قلبك، فذلك هو المعتبر عنده جل وعلا، فيرى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور أنك عملتها بدون جهل، مع العلم بها والتمادي فيها. وتأجيلُ التوبة ليس من شأن الإيمان والخشية من الله تعالى. والإنسان من طبيعته الغفلة، ومن مقتضى إيمانه التنبه والندامة على المعاصي، إذ يمكن على هذه الحالة أن تكون الكبيرة صغيرة إذا صاحبتها التوبة العاجلة، والصغيرة كبيرة إذا صاحبها الإصرار، ولابد للمؤمن أن لا يسوف التوبة، ولا يكون مصراً على الصغائر، نسأل الله تعالى السلامة من كلِّ ذنب مخالف لرضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ، سواء كان قولًا أو فعلًا).

(٣٢) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال، فلعل عدمه خير. والمقتضي للمنع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ أي: لكل من الرجال والنساء فضل ونصيب بسبب ما اكتسب ومن أجله، فاطلبوا الفضل من الله تعالى بالعمل لا بالحسد والتمني ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ﴾ أي: لا تتمنوا ما للناس واسألوا الله تعالى مثله من خزائنه التي لا تنفذ. وهو يدلُّ على أنَّ المنهيَّ عنه هو الحسد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ فهو يعلم ما يستحقُّه كلُّ إنسان فيفضل عن علم وتبيان.

(٣٣) ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ﴾ أي: ولكل تركة جعلنا وراثاً يلونها ويحرزونها (أي: ينالونها) ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: الأزواج، على أن العقد عقد النكاح ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ تهديد على منع نصيبهم.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾

(٣٤) ﴿**ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ**﴾ يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية (أقول: لا بالضرب والشتم، بل بالنصيحة) ﴿**بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ**﴾ بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير، ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خُصُّوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر، والشهادة في مجامع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة ونحوها، والتعصيب (أي: كونه عَصَبة بنفسه) وزيادة السهم في الميراث، والاستبداد بالفراق ﴿**وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ**﴾ في نكاحهنَّ، كالمهر والنفقة.

﴿**فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ**﴾ مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج ﴿**حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ**﴾ أي: يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال، وقيل: لأسرارهم (أقول: الأسرار التي بين المرأة وزوجها يحرم عليها أن تبوح بها) ﴿**بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ**﴾ بحفظ الله تعالى إياهن بالأمر على حفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له ﴿**وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ**﴾ عصيانهن وترفعهن عن مطاوعة الأزواج ﴿**فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ**﴾ في المراقد، فلا تدخلوهنَّ تحت اللحف، أو لا تباشروهنَّ فيكون كناية عن الجماع ﴿**وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ**﴾ يعني ضرباً غير مبرِّح ولا شائن، والأمور الثلاثة مرتبة ينبغي أن يتدرج فيها ﴿**فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ**﴾ بالتوبيخ والإيذاء. والمعنى: فأزيلوا عنهنَّ التعرض، واجعلوا ما كان منهنَّ كأنْ لم يكن (أقول: يعني أغمضوا عيونكم عن مخالفتهن) فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾**﴾ فاحذروه، فإنه أقدر عليكم منكم على مَنْ تحت أيديكم، أو أنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم.

(٣٥) ﴿**وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا**﴾ خلافاً بين المرأة وزوجها ﴿**فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ**﴾ فابعثوا أيها الحكام متى اشتبه عليكم حالهما لتبيين الأمر أو إصلاح ذات البين، رجلاً وسطاً يصلح للحكومة والإصلاح من أهله وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح، وهذا

على وجه الاستحباب، فلو نُصِّبا من الأجانب جاز ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ الضمير الأول للحكمين والثاني للزوجين، أي: إن قصدا الإِصلاح أوقع الله تعالى بحسن سعيهما الموافقة بين الزوجين. وفيه تنبيه على أن من أصلح نيَّته فيما يتحرَّاه أصلح الله تعالى مبتغاه (أقول: ولكن أكثرنا يقدِّم حظوظ نفسه على مبتغى ربِّه، ولذا يفوح من فمه كلامٌ يدلُّ على نفسه، لا يتكلَّم بجوهرة روحه كلاماً موافقاً لعظمته جلَّ وعلا).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾ بالظواهر والبواطن، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق (أقول: لا بد أن نجعل بواطننا موافقة لرضا الله تعالى، لا بالظاهر فقط، فهو مطَّلع على النيَّات جلَّ وعلا).

(٣٦) ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ صنماً أو غيره، أو شيئاً من الإِشراك جلياً أو خفياً ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ وأحسنوا بهما إحساناً ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وبصاحب القرابة ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: الذي قرب جواره. وقيل: الذي له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ البعيد، أو الذي لا قرابة له ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ الرفيق في أمر حسن، كتعلُّم وتصرُّف وصناعة وسفر ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر أو الضيف ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ العبيد والإِماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا﴾ متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ﴿فَخُورًا ٣٦﴾ يتفاخر عليهم.

(٣٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ الغنى والعلم، فهم أحقاء بكلِّ ملامة ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ أي: من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله جلَّ وعلا، ومن كان كافراً لنعمة الله جلَّ وعلا فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإِخفاء.

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

(٣٨) ﴿**وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ**﴾ عطف على الذين يبخلون ﴿**وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ**﴾ ليتحروا بالإنفاق مراضيه وثوابه ﴿**وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾**﴾ تنبيه على أن الشيطان قرينهم، فحملهم على ذلك وزيَّنه لهم.

(٣٩) ﴿**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ**﴾ أيُّ تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله تعالى؟ وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب، لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة، والعوائد الجميلة ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾**﴾ وعيد لهم.

(٤٠) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾ لا ينقص من الأجر ولا يزيد في العقاب أصغر شيء كالذرة، وهي النملة الصغيرة، ويقال لكل جزء من أجزاء الهباء ﴿**وَإِن تَكُ حَسَنَةً**﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة ﴿**يُضَٰعِفْهَا**﴾ يضاعف ثوابها ﴿**وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ**﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل زائداً على ما وعد في مقابلة العمل ﴿**أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾**﴾ عطاء جزيلاً.

(٤١) ﴿**فَكَيْفَ**﴾ أي: فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿**إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ**﴾ يعني نبيهم يشهد على فساد عقائدهم وقبح أعمالهم ﴿**وَجِئْنَا بِكَ**﴾ يا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿**عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾**﴾ تشهد على صدق هؤلاء الشهداء، لعلمك بعقائدهم، واستجماع شرعك مجامع قواعدهم.

(٤٢) ﴿**يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ**﴾ أي: يود الكفرة والعصاة في ذلك الوقت أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى، أو لم يبعثوا، أو لم يخلقوا وكانوا هم والأرض سواء ﴿**وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾**﴾ ولا يقدرون على كتمانه، لأن جوارحهم تشهد عليهم.

(٤٣) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ**﴾ أي: لا تقوموا إليها

وأنتم سكارى حتى تنتبهوا وتعلموا ما تقولون في صلاتكم ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على قوله: ﴿وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ﴾ والجنب الذي أصابته الجنابة ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: لا تقربوا الصلاة جنباً في عامة الأحوال إلا في السفر، وذلك إذا لم يجد الماء وتيمم ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ غاية النهي عن القربان حال الجنابة. وفي الآية تنبيه على أن المصلي ينبغي أن يتحرَّز عما يلهيه ويشغل قلبه، ويزكي نفسه عما يجب تطهيرها عنه.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ مرضاً يخاف معه من استعمال الماء، فإن الواجد له كالفاقد، أو مرضاً يمنعه عن الوصول إليه ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لا تجدونه فيه ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أو ماسستم بشرتهنَّ ببشرتكم، وبه استدلَّ الإمام الشافعي رحمه الله تعالى على أن اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهن (أقول: وهذا مذهب الأحناف؛ لأن اللمس عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى بمعنى الجماع) ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ فلم تتمكَّنوا من استعماله، إذ الممنوع عنه كالمفقود ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي: فتعمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً. ولذلك قالت الحنفية: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلد ومسح به أجزأه. وقال أصحابنا: لا بد من أن يعلق باليد شيء من التراب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ فلذلك يسَّر الأمر عليكم ورخَّص لكم.

(أقول: السُّكْرُ على أربعة أقسام:

سكر بالخمر، وسكر بالدنيا، وسكر بالهوى، وسكر بمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ.

الأول: سكر بالخمر، فقد نهى الله تعالى عنه بالآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

الثاني: سكر بالدنيا، نبَّه الله تعالى عليه بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

الثالث: سكر بالهوى، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

الرابع: سكر بمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِلّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. حبُّ الله تعالى يذهل القلب عن الدنيا والنفس، ويبقى فيه همٌّ واحد، وهو حبُّ الله تعالى وحده، وحبُّ الرسول عليه الصلاة والسلام، يصدق بمتابعة السنة المطهرة، لأن المحبة تقتضي الطاعة، وإلا فدعواه باطلة).

(٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ من رؤية البصر أو القلب ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حظاً يسيراً من علم التوراة، لأن المراد أحبار اليهود ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ يختارونها على الهدى ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ سبيل الحق.

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

(٤٥) ﴿**وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ**﴾ منكم ﴿**بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ**﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وما يريدون بكم فاحذروهم (أقول: الله تعالى أعلم بعداوة نفوسكم والشيطان، فعلينا جميعاً أن نستعيذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن شرور الشيطان اللعين، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك» [رواه الإمام البيهقي رحمه الله تعالى] نستعيذ بالله تعالى من شرور نفوسنا الأمارة) ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا**﴾ يلي أمركم ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾**﴾ يعينكم، فثقوا عليه واكتفوا به عن غيره.

(٤٦) ﴿**مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ**﴾ أي: من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم، أي: يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله تعالى فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها، أو يؤولونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله تعالى فيه ﴿**وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا**﴾ قولك ﴿**وَعَصَيۡنَا**﴾ أمرك ﴿**وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ**﴾ أي: مدعواً عليك بلا سمعت لصمم أو موت، أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه ﴿**وَرَٰعِنَا**﴾ انظرنا نكلمك أو نفهم كلامك ﴿**لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ**﴾ فتْلًا بها وصرفاً للكلام إلى ما يشبه السبَّ ﴿**وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ**﴾ استهزاء به وسخرية ﴿**وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ**﴾ لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأعدل ﴿**وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ**﴾ ولكن خذلهم الله جلَّ وعلا وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم ﴿**فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾**﴾ أي: إلا إيماناً قليلًا لا يُعبأ به، وهو الإيمان ببعض الآيات والرسل، أو إلا قليلاً منهم آمنوا أو سيؤمنون.

(٤٧) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ**﴾ من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها، يعني الأقفاء، أو ننكسها إلى ورائها في الدنيا، أو في الآخرة ﴿**أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ**﴾ أو نخزيهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت، أو نلعنهم على لسانك كما لعنَّاهم على لسان داود عليه السلام ﴿**وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ**﴾ وعيده، أو ما حكم به وقضاه ﴿**مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾**﴾ نافذاً وكائناً، فيقع لا محالة ما أُوعدتم به إن لم تؤمنوا.

(٤٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ لأنه بتَّ الحكم على خلود عذابه، وأنَّ ذنبه لا ينمحي عنه أثره، فلا يستعدُّ للعفو، بخلاف غيره ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ تفضُّلاً عليه وإحساناً (من التائبين وغيرهم، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم). والآية حجَّة على الخوارج الذين زعموا أنَّ كلَّ ذنب شركٌ، وأن صاحبَه خالدٌ في النار ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ ارتكب ما يستحقر دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب.

(٤٩) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾ يعني أهل الكتاب قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] وفي معناهم من زكى نفسه وأثنى عليها ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن تزكيته تعالى هي المعتد بها دون تزكية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حَسَن وقبيح، وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ بالذم أو العقاب على تزكيتهم أنفسهم بغير حق ﴿فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شق النواة يضرب به المثل في الحقارة.

(٥٠) ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله تعالى وأزكياء عنده ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ بزعمهم هذا، أو بالافتراء ﴿إِثۡمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ لا يخفى كونه مأثماً من بين آثامهم.

(٥١) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ نزلت في يهود كانوا يقولون: إن عبادة الأصنام أرضى عند الله جلَّ وعلا مما يدعوهم إليه محمد عليه الصلاة والسلام. وقيل: في حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد عليه الصلاة والسلام منكم إلينا فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا. والجِبْت: في الأصل اسم صنم، فاستعمل في كلِّ ما عبد من دون الله تعالى. والطاغوت: يطلق لكل باطل من معبود أو غيره ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ أقوم ديناً وأرشد طريقاً.

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

(٥٢) ﴿**أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾**﴾ يمنع العذاب عنه بشفاعة أو غيرها.

(٥٣) ﴿**أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ**﴾ إنكارُ أن يكون لهم نصيب من الملك، وجحدٌ لما زعمت اليهود من أن الملك سيصير إليهم ﴿**فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾**﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون أحداً ما يوازي نقيراً، وهو النقرة في ظهر النواة.

(٥٤) ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ**﴾ بل أيحسدون رسول الله ﷺ وأصحابه، أو العرب، أو الناس جميعاً، لأن من حسد على النبوة فكأنما حسد الناس كلهم ﴿**عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ**﴾ يعني: النبوة والكتاب والنصرة والإعزاز وجعل النبي الموعود منهم ﴿**فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ**﴾ الذين هم أسلاف محمد ﷺ وأبناء عمه ﴿**ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ**﴾ النبوة ﴿**وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾**﴾ فلا يبعد أن يؤتيه الله تعالى مثل ما آتاهم.

(٥٥) ﴿**فَمِنْهُم**﴾ من اليهود ﴿**مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ**﴾ بمحمد ﷺ ﴿**وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ**﴾ أعرض عنه ولم يؤمن به ﴿**وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾**﴾ ناراً مسعورة يعذَّبون بها.

(٥٦) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا**﴾ بأن يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة أخرى ﴿**لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ**﴾ أي: ليدوم لهم ذوقه. وقيل: يخلق لهم مكانه جلد آخر والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية المدركة لا لآلة إدراكها، فلا محذور ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا**﴾ لا يمتنع عليه ما يريده ﴿**حَكِيمًا ﴿٥٦﴾**﴾ يعاقِب على وفق حكمته.

(٥٧) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾**﴾ دائماً لا تنسخه الشمس، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة.

(٥٨) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا**﴾ خطاب يعمُّ المكلفين والأمانات، وإن نزلت يوم

الفتح في عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة، وأبى أن يدفع المفتاح ليدخل فيها رسول الله ﷺ وقال: لو علمتُ أنه رسول الله ﷺ لم أمنعه، فَلَوَى عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ يدَه وأخذه منه وفتح، فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس رضي الله تعالى عنه أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة، فنزلت، فأمره الله تعالى أن يردَّه إليه، فأمر علياً رضي الله تعالى عنه أن يردَّه ويعتذر إليه، وصار ذلك سبباً لإِسلامه، ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبداً ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ أي: وأن تحكموا بالإِنصاف والسوية إذا قضيتم بين من ينفذ عليه أمركم أو يرضى بحكمكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ أي: نعم شيئاً يعظكم به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ بأقوالكم وأحكامكم وما تفعلون في الأمانات.

(٥٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين في عهد الرسول ﷺ وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية؛ أمر الناس بطاعتهم بعد ما أمرهم بالعدل تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق. وقيل: علماء الشرع، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ أنتم وأولو الأمر منكم ﴿فِي شَيۡءٖ﴾ من أمور الدين، وهو يؤيد الوجه الأول، إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد في حكمه بخلاف المرؤوس ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فارجعوا فيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى كتابه ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ بالسؤال عنه في زمانه عليه الصلاة والسلام، والمراجعة إلى سنته بعده عليه الصلاة والسلام ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ فَإِنَّ الإِيمان يوجب ذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرد ﴿خَيۡرٞ﴾ لكم ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ عاقبة أو أحسن تأويلاً من تأويلكم.

(أقول: ويفهم من هذه الآية الكريمة: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ أن إطاعة الله تعالى فرضٌ قطعيٌّ ما دام المكلف حياً، وهكذا إلى قيام يوم القيامة؛ وإطاعة الرسول ﷺ، كذلك فرض في حياته، وقيّد هذا بذاته الشريفة وبالوحي، وبعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى بقيت سنته ﷺ في أمته، فعلى المكلف أن يتبعها. ولمعرفة هذه السنة لا بدَّ من علماء الدين الذين يرجّحون الدين على الدنيا، فلا يمكن أن تلعب هذه الدنيا بهم، وهم مجتمعون على الصدق الذي أوصى الله تعالى به عباده بقوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] لا ينتهي هؤلاء الصادقون من أمة سيد المرسلين ﷺ إلى قيام الساعة).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

(٦٠) ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ**﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن منافقاً خاصم يهودياً، فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي، فلم يرض المنافق بقضائه وقال: نتحاكم إلى عمر، فقال اليهودي لعمر: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه وخاصم إليك، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للمنافق: أكذلك؟ فقال نعم. فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله تعالى ورسوله ﷺ» فنزلت، وقال جبريل: إن عمر قد فرَّق بين الحق والباطل، فسمي الفاروق. والطاغوت على هذا كعب بن الأشرف، وفي معناه من يحكم بالباطل ويؤثر لأجله، سمي بذلك لفرط طغيانه، أو لتشبهه بالشيطان، أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث إنه الحامل عليه كما قال: ﴿**وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ**﴾ (عن الحق) ﴿**ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾**﴾ (مستمراً حتى الموت [المدارك للنسفي رحمه الله تعالى]).

(٦١) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**﴾ (للمنافقين) ﴿**تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ**﴾ (للتحاكم) ﴿**رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾**﴾ (يعرضون عنك إلى غيرك ليغروه بالرشوة فيقضي لهم. [المدارك للنسفي])

(٦٢) ﴿**فَكَيْفَ**﴾ يكون حالهم ﴿**إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ**﴾ كقتل عمر رضي الله عنه المنافق، أو النقمة من الله تعالى ﴿**بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ من التحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك ﴿**ثُمَّ جَاءُوكَ**﴾ حين يصابون للاعتذار ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾**﴾ ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين، ولم نرد مخالفتك.

(٦٣) ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ من النفاق، فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾ أي: عن عقابهم لمصلحة في استبقائهم أو عن قبول معذرتهم

﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك وكُفَّهم عما هم عليه ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: خالياً بهم فإن النصح في السر أنجع ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم، أمره بالتجافي عن ذنوبهم والنصح لهم والمبالغة فيه بالترغيب والترهيب، وذلك مقتضى شفقة الأنبياء عليهم السلام.

(٦٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بسبب إذنه في طاعته وأمره المبعوثَ إليهم بأن يطيعوه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من ذلك ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة والإِخلاص ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبت لهم شفيعاً ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة.

(٦٥) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فوربِّك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ ضيقاً مما حكمت به ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ وينقادوا لك انقياداً بظاهرهم وباطنهم.

وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾

(٦٦) ﴿**وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ**﴾ تعرضوا بها للقتل في الجهاد، أو اقتلوها كما قتل بنو إسرائيل ﴿**أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم**﴾ خروجهم حين استتيبوا من عبادة العجل ﴿**مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ**﴾ إلا أناس قليل وهم المخلصون ﴿**وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ**﴾ من متابعة الرسول ﷺ ومطاوعته طوعاً ورغبة ﴿**لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ**﴾ في عاجلهم وآجلهم ﴿**وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾**﴾ في دينهم، لأنه أشد لتحصيل العلم ونفي الشك أو تثبيتاً لثواب أعمالهم.

(٦٧) ﴿**وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾**﴾ وإذاً لو تثبتوا لآتيناهم.

(٦٨) ﴿**وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾**﴾ يصلون بسلوكه جناب القدس، ويفتح عليهم أبواب الغيب.

(٦٩) ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم**﴾ مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق وأعظمهم قدراً ﴿**مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ**﴾ قسمهم أربعة أقسام بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحث كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم، وهم: **الأنبياء** الفائزون بكمال العلم والعمل، المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل. ثم **الصديقون** الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان، حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها. ثم **الشهداء** الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في إظهار الحق حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله تعالى. ثم **الصالحون** الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته. ولك أن تقول: المنعَم عليهم هم العارفون بالله تعالى، وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان (أقول: يعبدون الله تعالى كأنَّهم يرونه، كما جاء في الحديث الشريف: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [متفق عليه]) أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان. والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريباً وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو لا فيكونون كمن يرى الشيء بعيداً وهم الصديقون، والآخرون إما أن يكون عرفانهم بالبراهين القاطعة وهم العلماء الراسخون في العلم الذين هم

شهداء الله تعالى في أرضه، وإما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم وهم الصالحون ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ في معنى التعجب (أقول: فعلى المرء أن يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن يتبع أولياء الله تعالى، فإن الأنبياء لهم وحي إلهيٌّ، والأولياء لهم إلهام ربانيٌّ [تفسير روح البيان]). روي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عن حاله، فقال: ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأني عرفت أنك ترتفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك، وإن لم أدخل فذاك حينٌ لا أراك أبداً. فنزلت [رواه الطبراني في الصغير والواحدي في أسباب النزول] (أقول: هذا ينطبق على أهل التصوف الحقيقيين، فإنهم يشتاقون إلى لقاء شيخهم ومرشدهم، سبب هذا أنهم بفيوضات شيوخهم يطهرون، وببعدهم عن شيوخهم لا يحصل هذا التطهير، هذا مثل كنز يريد الإنسان أن يستخرجه، لكن ذلك لا يمكن إلا بواسطة خبير تعلَّم وتدرَّب على استخراج المعادن المدفونة، وهذا يحصل لمشايخ الطريق الحقيقيين، من أنكر هذا يكون كمن في عينه مانع من رؤية الشمس، يقال له: هل تُرى الشمس؟ فيقول: لا، فالعذر منه لا من الشمس؛ إنا لله وإنا إليه راجعون).

(٧٠) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم، أو إلى فضل هؤلاء المنعم عليهم ومزيتهم ﴿ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾ بجزاء من أطاعه، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله.

(٧١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ تيقَّظوا واستعدوا للأعداء (أقول: كما أُمرتَ أن تأخذ حذرك من عدوك الظاهر أُمرتَ أن تأخذ حذرك من عدوك الباطن، وعدوك الباطن نفسك وشيطانك فلا تأمن من نفسك مهما بلغت المراتب، لأنها قد ترجع إلى أصلها أمارة بالسوء. وأما شيطانك فعداوته واضحة بنص الكتاب. جاهد نفسك بقلة الطعام والكلام والنوم، وكن على حذر منها إذا شبعت من حلال. وجاهد شيطانك بكثرة الذكر لله تعالى، لأنه ليس له سبيل على الذاكرين لله تعالى بقلب حاضر. نرجو الله تعالى أن يعيننا على أنفسنا وأهوائنا وشياطيننا، إنه على ما يشاء قدير).

﴿فَٱنفِرُواْ﴾ فاخرجوا إلى الجهاد ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ مجتمعين كوكبة واحدة. والآية وإن نزلت في الحرب، لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات (أقول: طبيعة الإنسان الكسل، هذا واحد، والثاني أنه عدو ما لم يعلم فينكره. والفوات إما أن يحصل بالموت أو بفوات ملاقاة من يطلب منه، أكثر الناس لا يميزون بين الجوهر والشيء المزين، الجوهر بأصله جوهر أما المزين بظاهره فليس كالجوهر الحقيقي ولكن أكثر الناس عن هذا غافلون).

(٧٢) ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب لعسكر رسول الله ﷺ، المؤمنين منهم والمنافقين. والمبطئون: منافقوهم تثاقلوا وتخلَّفوا عن الجهاد ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ كقتل وهزيمة ﴿قَالَ﴾ أي: المبطئ ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢﴾ حاضراً فيصيبني ما أصابهم.

(٧٣) ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ كفتح وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ للتنبيه على ضعف عقيدتهم، وأن قولهم هذا قول من لا مواصلة بينكم وبينه، وإنما يريد أن يكون معكم لمجرد المال.

(٧٤) ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ أي: الذين يبيعونها بها، والمعنى: إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ وعد له الأجر العظيم غَلَبَ أو غُلِبَ، ترغيباً في القتال وتكذيباً لقولهم: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ وإنما قال: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة، أو الدين بالظفر والغلبة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

(٧٥) ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ**﴾ أي: وفي سبيل المستضعفين، وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو ﴿**مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ**﴾ بيان للمستضعفين، وهم المسلمون الذين بقوا بمكة بصدِّ المشركين، أو ضعفهم عن الهجرة مستذَلِّين ممتحَنِين ﴿**ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾**﴾ فاستجاب الله تعالى دعاءهم بأن يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خير ولي وناصر بفتح مكة على يد نبيه ﷺ، فتولاهم ونصرهم، ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد رضي الله عنه فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعزَّ أهلها.

(٧٦) ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ فيما يصلون به إلى الله تعالى ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ**﴾ فيما يبلغ بهم إلى الشيطان ﴿**فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ**﴾ لما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان، ثم شجَّعهم بقوله: ﴿**إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾**﴾ أي: إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين ضعيف لا يؤبه به، فلا تخافوا أولياءه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه.

(٧٧) ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ**﴾ أي: عن القتال ﴿**وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾ واشتغلوا بما أمرتم به ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ**﴾ يخشون الكفار أن يقتلوهم كما يخشون الله تعالى أن ينزل عليهم بأسه ﴿**أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ**﴾ استزادة في مدة الكف عن القتال حذراً عن الموت ﴿**قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ**﴾ سريع التقضي ﴿**وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾**﴾ أي: ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم، فلا ترغبوا عنه، أو من آجالكم المقدرة.

(٧٨) ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ في قصور أو حصون مرتفعة ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ**﴾ أي: وإن تصبهم نعمة كخصب نسبوها إلى الله سبحانه وتعالى، وإن تصبهم بلية كقحط أضافوها إليك ﴿**قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ أي: يبسط ويقبض حسب إرادته ﴿**فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾**﴾ يوعظون به، وهو القرآن، فإنهم لو فهموه وتدبَّروا معانيه لعلموا أنَّ الكلَّ من عند الله سبحانه وتعالى.

(٧٩) ﴿**مَّآ أَصَابَكَ**﴾ يا إنسان ﴿**مِنْ حَسَنَةٍ**﴾ من نعْمَةٍ ﴿**فَمِنَ ٱللَّهِ**﴾ أي: تفضلاً منه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى. قيل: ولا أنت؟ قال: ولا أنا» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿**وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ**﴾ من بلية ﴿**فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ لأنها السبب فيها لاستجلابها بالمعاصي ﴿**وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾**﴾ على رسالتك بنصب المعجزات.

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

(٨٠) ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ**﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام في الحقيقة مبلِّغ، والآمر هو الله سبحانه وتعالى ﴿**وَمَن تَوَلَّىٰ**﴾ عن طاعته ﴿**فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾**﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

(٨١) ﴿**وَيَقُولُونَ**﴾ إذا أمرتهم بأمر: ﴿**طَاعَةٞ**﴾ أي: مِنَّا طاعة ﴿**فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ**﴾ خرجوا ﴿**بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ**﴾ أي: زورت خلاف ما قلت لها، أو ما قالت لك من القبول وضمان الطاعة ﴿**وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ**﴾ يثبته في صحائفهم للمجازاة ﴿**فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ**﴾ قلل المبالاة بهم، أو تجاف عنهم ﴿**وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ**﴾ في الأمور كلها سيما في شأنهم ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٨١﴾**﴾ يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم.

(٨٢) ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ**﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه ﴿**وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ**﴾ أي: ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار ﴿**لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾**﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً، وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ومطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دلَّ عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية.

(٨٣) ﴿**وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ**﴾ مما يوجب الأمن أو الخوف ﴿**أَذَاعُواْ بِهِۦۖ**﴾ أفشوه كما كان يفعله قوم من ضعفة المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ، أو أخبرهم الرسول ﷺ بما أوحي إليه من وعد بالظفر، أو تخويف من الكفرة أذاعوا به لعدم حزمهم، فكانت إذاعتهم مفسدة ﴿**وَلَوۡ رَدُّوهُ**﴾ أي: ولو ردوا ذَلك الخبر ﴿**إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ**﴾ إلى رأيه ورأي كبار أصحابه البصراء بالأمور ﴿**لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ**﴾ يستخرجون تدابيره بتجاربهم وأنظارهم. وقيل: كانوا يسمعون أراجيف المنافقين فيذيعونها فتعود وبالاً على المسلمين، ولو ردُّوه إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم حتى يسمعوه منهم ويعرفوا أنه هل يذاع أو لا يذاع لعَلِم ذلك هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر، أي: يستخرجون علمه من جهتهم ﴿**وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ**﴾ بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتاب

﴿لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ بالكفر والضلال ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ أي: إلا قليلًا منكم تفضَّل الله تعالى عليه بعقل راجح اهتدى به إلى الحق والصواب، وعصمه عن متابعة الشيطان.

(٨٤) ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن تثبطوا وتركوك وحدك ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إلا فعل نفسك، لا يضرُّك مخالفتهم وتقاعدهم، فتقدَّمْ إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد، فإن الله تعالى ناصرك لا الجنود ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، إذ ما عليك في شأنهم إلا التحريض ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني قريشاً، وقد فعل بأن ألقى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قريش ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ تعذيباً منهم، وهو تقريع وتهديد لمن لم يتبعه ﷺ.

(٨٥) ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ راعى بها حق مسلم ودفع بها عنه ضراً أو جلب إليه نفعاً ابتغاء لوجه الله تعالى، ومنها الدعاء لمسلم. قال عليه الصلاة والسلام: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ يريد بها محرَّماً ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب من وزرها مساوٍ لها في القدر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ مقتدراً.

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ الجمهور على أنه في السلام، ويدلُّ على وجوب الجواب إما بأحسن منه، وهو أن يزيد عليه: ورحمة الله، فإن قاله المسلِّم زاد: وبركاته، وهي النهاية؛ وإما بردِّ مثله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ يحاسبكم على التحية وغيرها.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾

(٨٧) **﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾** أي: والله ليحشرنَّكم من قبوركم إلى يوم القيامة **﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾** (أي: لا شك فيه) **﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾** إنكار أن يكون أحد أكثر صدقاً منه جل وعلا، فإنه لا يتطرَّق الكذب إلى خبره بوجه لأنه نقص وهو على الله تعالى محال.

(٨٨) **﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾** فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين **﴿فِئَتَيۡنِ﴾** أي: فرقتين، ولم تتفقوا على كفرهم **﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾** ردهم إلى حكم الكفرة، أو نكسهم بأن صيرهم للنار **﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾** أن تجعلوه من المهتدين **﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾﴾** إلى الهدى.

(٨٩) **﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾** تمنوا أن تكفروا ككفرهم **﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾** فتكونون معهم سواء في الضلال **﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾** فلا توالوهم حتى يؤمنوا وتتحققوا إيمانهم بهجرة هي لله ورسوله ﷺ لا لأغراض الدنيا **﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾** عن الإيمان الظاهر بالهجرة أو عن إظهار الإيمان **﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾** كسائر الكفرة **﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾** أي: جانبوهم رأساً ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة.

(٩٠) **﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾** أي: إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم، ويفارقون محاربتكم **﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ﴾** أي: أو الذين جاؤوكم كافِّين عن قتالكم وقتال قومهم. استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم من ترك المحاربين فلحق بالمعاهدين، أو أتى الرسول ﷺ وكفَّ عن قتال الفريقين **﴿حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾** والحصر الضيق والانقباض **﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾** أي: عن أن يقاتلوكم **﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾** بأن قوى قلوبهم وبسط صدورهم وأزال الرعب عنهم **﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾** ولم يكفوا عنكم **﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾** فإن لم يتعرضوا لكم **﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾** الاستسلام والانقياد **﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾﴾** فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

(٩١) **﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾** هم أسد وغطفان، وقيل: بنو عبد الدار، أتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا المسلمين، فلما رجعوا كفروا **﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ﴾** دعوا إلى الكفر وإلى قتال المسلمين **﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾** عادوا إليها وقُلبوا فيها أقبح قلب **﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾** وينبذوا إليكم العهد **﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾** عن قتالكم **﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾** حيث تمكنتم منهم **﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾﴾** حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغدرهم.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صحَّ له وليس من شأنه ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ والخطأ ما لا يضامُّه القصد إلى الفعل أو الشخص، أو ما لا يقصد به زهوق الروح غالباً، أو ما لا يقصد به محظور، كرمي مسلم في صف الكفار مع الجهل بإسلامه، أو يكون فعل غير المكلف ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعليه تحرير رقبة، والتحرير: الإعتاق ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ محكوم بإسلامها وإن كانت صغيرة ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ إلا أن يتصدَّقوا عليه بالدية. سمي العفو عنها صدقة حثّاً عليه وتنبيهاً على فضله. وعن النبي ﷺ: «كلُّ معروف صدقة» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين، أو في تضاعيفهم ولم يعلم إيمانه فعلى قاتله الكفارة دون الدية لأهله، إذ لا وراثة بينه وبينهم، ولأنهم محاربون ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: وإن كان من قوم كفرة معاهدين أو أهل الذمة فحكمه حكم المسلمين في وجوب الكفارة والدية، ولعله فيما إذا كان المقتول معاهداً، أو كان له وارث مسلم ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فعليه صيام شهرين متتابعين ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: شرع ذلك توبة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بحاله ﴿حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ فيما أمر في شأنه.

(٩٣) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ لما فيه من التهديد العظيم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمداً». ولعله أراد به التشديد، إذ روي عنه خلافه. والجمهور على أنه مخصوص بمن لم يتب، لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ [طه: ٨٢] ونحوه؛ وهو عندنا إما مخصوص بالمستحلِّ له، كما ذكره عكرمة

رحمه الله تعالى وغيره، أو المراد بالخلود المكث الطويل، فإنَّ الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سافرتم وذهبتم للغزو ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ فاطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ لمن حياكم بتحية الإسلام ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ وإنما فعلتَ ذلك متعوِّذاً ﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تطلبون ماله الذي هو حطام سريع النفاذ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ﴾ لكم ﴿كَثِيرَةٞ﴾ تغنيكم عن قتل أمثاله لماله ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي: أول ما دخلتم في الإِسلام تفوهتم بكلمتي الشهادة فحُصِّنت بها دماؤكم وأموالكم من غير أن يعلم مواطأة قلوبكم ألسنتكم ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالاشتهار بالإيمان والاستقامة في الدين ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْۚ﴾ وافعلوا بالداخلين في الإِسلام كما فعل الله تعالى بكم، ولا تبادروا إلى قتلهم ظناً بأنهم دخلوا فيه اتقاء وخوفاً، فإن إبقاء ألف كافر أهون عند الله تعالى من قتل امرئ مسلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾ عالماً به وبالغرض منه، فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه.

(أقول: تدلُّ هذه النظرة على سماحة الأخلاق الإسلامية واتساع صدور المسلمين، فالأصل عندهم أن كلَّ الناس طيبون، ويجب أن نحسن الظن بهم جميعاً ونتقبل ظواهرهم، تاركين أسرارهم للمولى سبحانه حذراً من أن نقع في حكم ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. أنت مأمور أن تعامل الناس حسب الظاهر، والله تعالى يتولى السرائر، أنت بمقدورك أن تعلم شيئاً من الظاهر، ولا تعلم كلَّ الظاهر، فكيف بالسرائر؟! ففوِّض أمور البشر إلى الله تعالى الذي يعلم السرَّ وأخفى، وأحسن الظن فيهم، فلا بدَّ للمؤمن ألا يتسرَّع إلى تكذيب من صدق بلسانه، وألا يرغب إلى كاذب بكثرة سواده، ولا بد أن يكون خبيراً).

لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

(٩٥) ﴿**لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ**﴾ عن الحرب ﴿**مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ**﴾ أي: لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة ﴿**فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا**﴾ من القاعدين والمجاهدين ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ**﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنة، لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم، وإنما التفاوت في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب ﴿**وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾**﴾ كأنه قيل: وأعطاهم زيادة على القاعدين أجراً عظيماً.

(٩٦) ﴿**دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً**﴾ كرر تفضيل المجاهدين، وبالغ فيه إجمالاً وتفصيلاً تعظيماً للجهاد وترغيباً فيه. وقيل: الأول: ما خولهم في الدنيا من الغنيمة والظفر وجميلِ الذِّكْر، والثاني: ما جعل لهم في الآخرة. وقيل: المجاهدون الأولون من جاهد الكفار، والآخرون من جاهد نفسه ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا**﴾ لما عسى أن يفرط منهم ﴿**رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾**﴾ بما وعد لهم.

(٩٧) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ**﴾ بمعنى أن الله تعالى يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها، أي: يمكِّنهم من استيفائها فيستوفونها ﴿**ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ**﴾ في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة ﴿**قَالُوا۟**﴾ أي: الملائكة توبيخاً لهم (بعد وفاتهم): ﴿**فِيمَ كُنتُمْ**﴾ في أيِّ شيء كنتم من أمر دينكم؟ ﴿**قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ اعتذروا مما وبخوا به بضعفهم وعجزهم عن الهجرة، أو عن إظهار الدين وإعلاء كلمة الله تعالى ﴿**قَالُوٓا۟**﴾ ـ أي: الملائكة ـ تكذيباً لهم وتبكيتاً: ﴿**أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا**﴾ إلى قطر آخر كما فعل المهاجرون إلى المدينة والحبشة؟ ﴿**فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ**﴾ لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار ﴿**وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾**﴾ أي: جهنم، وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكَّن الرجل فيه من إقامة دينه.

(٩٨) ﴿**إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾**﴾ صفة للمستضعفين. واستطاعة الحيلة: وجدان أسباب الهجرة وما تتوقف عليه، واهتداء السبيل: معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

(٩٩) ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ ذكر بكلمة الإِطماع ولفظ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ويترصد الفرصة ويعلق بها قلبه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾.

(١٠٠) ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾ أي: طريقاً يراغم قومه بسلوكه أي: يفارقهم على رغم أنوفهم ﴿وَسَعَةٗۚ﴾ في الرزق وإظهار الدين ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾ والمعنى: ثبت أجره عند الله تعالى ثبوت الأمر الواجب. والآية الكريمة نزلت في جندب بن ضمرة رضي الله عنه، حمله بنوه على سرير متوجِّهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت، فصفق بيمينه على شماله فقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك ﷺ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك ﷺ، فمات رضي الله تعالى عنه (أقول: وفي هذه الآيات توجيه من الله سبحانه وتعالى للهجرة من أجل المحافظة على الدين. قال في التفسير الواضح الميسر: وفي الآية ترغيب في الهجرة لكلِّ من لم يستطع أن يقيم شعائر الدين في وطنه، فيجب أن يهاجر إلى بلد يستطيع أن يعبد الله تعالى فيه دون أذى أو ضرر، فأرض الله تعالى واسعة. وقال في روح البيان: وفي الآية الكريمة إرشاد إلى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكَّن الرجل فيه من إقامة أمور دينه بأيِّ سبب كان، قال رسول الله ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة» [رواه الثعلبي عن الحسن رحمه الله تعالى مرسلاً])

(١٠١) ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سافرتم ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بتنصيف ركعاتها ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ١٠١﴾ بمعنى كراهة أن يفتنكم، وهو القتال والتعرض بما يكره.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾

(١٠٢) **﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾** عامةُ الفقهاء على أنه تعالى علَّم الرسول ﷺ كيفيتها ليأتمَّ به الأئمة بعده، فإنهم نواب عنه، فيكون حضورهم كحضوره **﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾** فاجعلهم طائفتين، فلتقم إحداهما معك يصلون، وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو **﴿وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ فَإِذَا سَجَدُواْ﴾** يعني المصلين **﴿فَلۡيَكُونُواْ﴾** أي: غير المصلين **﴿مِن وَرَآئِكُمۡ﴾** يحرسونكم، يعني النبي ﷺ ومن يصلي معه **﴿وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ﴾** لاشتغالهم بالحراسة **﴿فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾** جعل الحذر آلة يتحصن بها الغازي، فجمع بينه وبين الأسلحة في وجوب الأخذ **﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾** تمنوا أن ينالوا منكم غِرَّة في صلاتكم فيشدُّون عليكم شَدَّة واحدة (والغِرَّة: الغفلة عن العدوِّ).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ﴾ رخصة لهم في وضعها إذا ثقل عليهم أخذها بسبب مطر أو مرض **﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾** أمرهم مع ذلك بأخذ الحذر كي لا يهجم عليهم العدو **﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾﴾** وعدٌ للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم، لتقوى قلوبُهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقُّظ والتدبُّر، فيتوكَّلوا على الله سبحانه وتعالى.

(١٠٣) **﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾** أديتم وفرغتم منها **﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾** فداوموا على الذكر في جميع الأحوال، أو إذا أردتم أداء الصلاة واشتد الخوف فأدوها كيف ما أمكن **﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾** سكنت قلوبكم من الخوف **﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾** فعدلوا واحفظوا أركانها وشرائطها وائتوا بها تامة **﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾﴾** فرضاً محدود الأوقات، لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ ولا تضعفوا ﴿فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾ في طلب الكفار بالقتال ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ إلزام لهم وتقريع على التواني فيه بأن ضرر القتال دائر بين الفريقين غير مختصٍّ بهم، وهم يرجون من الله تعالى بسببه من إظهار الدين واستحقاق الثروات ما لا يرجو عدوهم، فينبغي أن يكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم وضمائركم ﴿حَكِيمًا ١٠٤﴾ فيما يأمر وينهى.

(١٠٥) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها. فقال: دفعها إليَّ طعمة، وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودي، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ بما عرَّفك الله تعالى وأوحى به إليك ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ﴾ أي: لأجلهم والذبِّ عنهم ﴿خَصِيمًا ١٠٥﴾ للبرآء.

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

(١٠٦) ﴿**وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ**﴾ مما هممت به ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾**﴾ لمن يستغفره.

(١٠٧) ﴿**وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ**﴾ يخونونها، فإن وبال خيانتهم يعود عليها ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا**﴾ مبالغاً في الخيانة مصراً عليها ﴿**أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾**﴾ منهمكاً فيها. روي: أن طعمة هرب إلى مكة وارتدَّ، ونقب حائطاً بها ليسرق أهله، فسقط الحائط عليه فقتله.

(١٠٨) ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ يستترون منهم حياء وخوفاً ﴿**وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ**﴾ ولا يستحيون منه، وهو أحقُّ بأن يُستحيا ويُخاف منه ﴿**وَهُوَ مَعَهُمْ**﴾ لا يخفى عليه سرهم فلا طريق معه إلا ترك ما يستقبحه ويؤاخذ عليه ﴿**إِذْ يُبَيِّتُونَ**﴾ يدبِّرون ويزوِّرون ﴿**مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ**﴾ من رمي البريء، والحلف الكاذب، وشهادة الزور ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾**﴾ لا يفوت عنه شيء.

(١٠٩) ﴿**هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾**﴾ محامياً يحميهم من عذاب الله تعالى.

(١١٠) ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا**﴾ قبيحاً يسوء به غيره ﴿**أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ**﴾ بما يختص به ولا يتعدَّاه ﴿**ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ**﴾ بالتوبة ﴿**يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا**﴾ لذنوبه ﴿**رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾**﴾ متفضِّلاً عليه.

(١١١) ﴿**وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ**﴾ فلا يتعدَّاه وباله، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾**﴾ فهو عالم بفعله حكيم في مجازاته.

(١١٢) ﴿**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً**﴾ صغيرة، أو ما لا عمد فيه ﴿**أَوْ إِثْمًا**﴾ كبيرة، أو ما كان عن عمد ﴿**ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾**﴾ بسبب رمي البريء وتبرئة النفس الخاطئة.

(١١٣) ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ**﴾ بإعلام ما هم عليه بالوحي، والضمير لرسول الله ﷺ ﴿**لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ**﴾ أي: من بني ظفر ﴿**أَن يُضِلُّوكَ**﴾ عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال ﴿**وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ**﴾ لأنه عاد وباله عليهم ﴿**وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍۚ**﴾ فإن الله سبحانه وتعالى عصمك، وما خطر ببالك كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر، لا ميلاً في الحكم ﴿**وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ**﴾ من خفيات الأمور، أو من أمور الدين والأحكام ﴿**وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾**﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة.

۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

(١١٤) ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ**﴾ من تناجيهم ﴿**إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ**﴾ أي: إلا نجوى من أمر، أو بمعنى: ولكن مَنْ أمر بصدقة ففي نجواه الخير. والمعروف: كلُّ ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل ﴿**أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ أو إصلاح ذات البين ﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾**﴾ وصف الأجر بالعظم تنبيهاً على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا.

(١١٥) ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ**﴾ يخالفه عليه الصلاة والسلام ﴿**مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ**﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات ﴿**وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل ﴿**نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ**﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، ونخلِّ بينه وبين ما اختاره ﴿**وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ**﴾ وندخله فيها ﴿**وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾**﴾ جهنم. والآية تدلُّ على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة واتباع غير سبيل المؤمنين.

(١١٦) ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ كرره للتأكيد ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾**﴾ عن الحق، فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة.

(١١٧)﴿**إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا**﴾ يعني اللات والعزى ومناة ونحوها ﴿**وَإِن يَدْعُونَ**﴾ وإن يعبدون بعبادتها ﴿**إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾**﴾ لأنه الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها، فكأن طاعته في ذلك عبادة له.

(١١٨) ﴿**لَّعَنَهُ اللَّهُ**﴾ طرده الله تعالى من رحمته ﴿**وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾**﴾ عطف عليه، أي: شيطاناً مَريداً جامعاً بين لعنة الله جلَّ وعلا وهذا القولِ الدالِّ على فرط عداوته للناس. وقد برهن سبحانه وتعالى أولاً على أن الشرك ضلال في الغاية، ثم استدل عليه بأنه عبادة الشيطان، وهي أفظع الضلال لثلاثة أوجه:

الأول: أنه مَريد (أي: متمرِّد) منهمِك في الضلال لا يعلق بشيء من الخير والهدى، فتكون طاعته ضلالاً بعيداً عن الهدى.

والثاني: أنه ملعون لضلاله، فلا تستجلب مطاوعته سوى الضلال واللعن.

والثالث: أنه في غاية العداوة والسعي في إهلاكهم، وموالاة من هذا شأنه غاية الضلال فضلاً عن عبادته.

(١١٩) ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحقِّ ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأماني الباطلة كطول الحياة وأن لا بعث ولا عقاب ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يشقُّونها لتحريم ما أحلَّ الله تعالى ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ عن وجهه صورةً أو صفةً ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على مَا أَمَرَ الله تعالى بِهِ ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ إذ ضيَّع رأس ماله، وبدَّل مكانه من الجنة بمكان من النار.

(١٢٠) ﴿يَعِدُهُمْ﴾ ما لا ينجزه ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر؛ وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة، أو بلسان أوليائه.

(١٢١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ مَعدِلاً ومهرباً.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾

(١٢٢) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ**﴾ أي: وعدُه جلَّ وعلا وعدٌ حقٌّ ﴿**وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾**﴾ والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه بوعد الله جل وعلا الصادق لأوليائه، والمبالغة في توكيده ترغيباً للعباد في تحصيله.

(١٢٣) ﴿**لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ**﴾ أي: ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يُنال بأمانيكم أيها المسلمون، ولا بأماني أهل الكتاب، وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح ﴿**مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ**﴾ عاجلاً أو آجلاً لما روي «أنها لما نزلت قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فمن ينجو مع هذا يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أما تحزن؟ أما تمرض؟ أما يصيبك اللأواء (ضيق المعيشة وشدة المرض)؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: هو ذاك» [أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] ﴿**وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾**﴾ ولا يجد لنفسه إذا جاوز موالاة الله تعالى ونصرته من يواليه وينصره في دفع العذاب عنه.

(١٢٤) ﴿**وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾ بعضها أو شيئاً منها، فإنَّ كلَّ أحد لا يتمكَّن من كلِّها، وليس مكلَّفاً بها ﴿**مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ**﴾ شرَطَ اقتران العمل به في استدعاء الثواب المذكور تنبيهاً على أنه لا اعتداد به دونه فيه ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾**﴾ بنقص شيء من الثواب وإذا لم ينقص ثواب المطيع فبالحري أن لا يزاد عقاب العاصي، لأن المجازي أرحم الراحمين جلَّ وعلا.

(١٢٥) ﴿**وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ**﴾ أخلص نفسه لله تعالى، لا يعرف لها ربّاً سواه ﴿**وَهُوَ مُحۡسِنٞ**﴾ آت بالحسنات تارك للسيئات ﴿**وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ**﴾ الموافقة لدين الإسلام المتفق على صحتها ﴿**حَنِيفٗاۗ**﴾ مائلاً عن سائر الأديان إلى دين الإسلام ﴿**وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾**﴾ اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله.

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ خلقاً وملكاً، يختار منهما من يشاء وما يشاء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ إحاطة علم وقدرة، فكان عالماً بأعمالهم فيجازيهم على خيرها وشرها.

(١٢٧) ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ في ميراثهن ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حكمه فيهن ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: يتلى عليكم في شأنهن ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي: فرض لهن من الميراث ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإن أولياء اليتامى كانوا يرغبون فيهن إن كن جميلات ويأكلون مالهن، وإلا كانوا يعضلونهن طمعاً في ميراثهن ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ عطف على يتامى النساء، والعرب ما كانوا يورِّثونهم كما لا يورِّثون النساء ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ أي: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم، أو للقوَّام بالنصفة (أي: بالإنصاف) في شأنهم ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ وعد لمن آثر الخير في ذلك.

وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿١٣٤﴾

(١٢٨) ﴿**وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا**﴾ توقعت منه لما ظهر لها من المخايل (أي: العلامات) ﴿**نُشُوزًا**﴾ تجافياً عنها وترفُّعاً عن صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها ﴿**أَوۡ إِعۡرَاضٗا**﴾ بأن يُقِلَّ مجالستها ومحادثتها ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ**﴾ أن يتصالحا بأن تحط له بعض المهر، أو القسم، أو تهب له شيئاً تستميله به ﴿**وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ**﴾ من الفرقة أو سوء العشرة، أو من الخصومة ﴿**وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ**﴾ ومعنى إحضار الأنفس الشح جعلها حاضرة له مطبوعة عليه، فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها والتقصير في حقها ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغي إذا كرهها أو أحب غيرها ﴿**وَإِن تُحۡسِنُواْ**﴾ في العشرة ﴿**وَتَتَّقُواْ**﴾ النشوز والإعراض ونقص الحق ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ**﴾ من الإحسان والخصومة ﴿**خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾**﴾ عليماً به وبالغرض فيه فيجازيكم عليه.

(١٢٩) ﴿**وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ**﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل ألبتة، وهو متعذر ﴿**وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ**﴾ أي: على تحري ذلك وبالغتم فيه ﴿**فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ**﴾ بترك المستطاع والجور على المرغوب عنها، فإن ما لا يُدرَك كلُّه لا يُترَك كلُّه ﴿**فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ**﴾ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة. وعن النبي ﷺ: «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل» [أخرجه أصحاب السنن رحمهم الله تعالى] ﴿**وَإِن تُصۡلِحُواْ**﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهنَّ ﴿**وَتَتَّقُواْ**﴾ فيما يُستقبل من الزمان ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾**﴾ يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

(١٣٠) ﴿**وَإِن يَتَفَرَّقَا**﴾ أي: وإن يفارق كل منهما صاحبه ﴿**يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا**﴾ منهما عن الآخر ببدل أو سُلُوٍّ (والسُّلُوُّ: أن ينسى كلَّ ما كان بينهما) ﴿**مِّن سَعَتِهِۦۚ**﴾ غناه وقدرته ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾**﴾ مقتدراً متقناً في أفعاله وأحكامه جلَّ وعلا.

(١٣١) ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ**﴾ تنبيه على كمال سعته وقدرته ﴿**وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ**﴾

﴿ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى ومَن قبلهم ﴿وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: وقلنا لهم ولكم: إِن تكفروا فإنَّ الله تعالى مالك الملك كلِّه، لا يتضرَّر بكفركم ومعاصيكم، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم، وإنما وصَّاكم لرحمته (بكم) لا لحاجته سبحانه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم ﴿حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ في ذاته، حُمِد أو لم يحمَد.

(١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فإنَّ جميع المخلوقات تدلُّ بحاجتها على غناه، وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميداً ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ فإنَّه توكَّل بكفايتهما.

(١٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يُفْنِكُمْ ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾ ويوجد قوماً آخرين مكانكم أو خلقاً آخرين مكان الإِنس ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ من الإِعدام والإِيجاد ﴿قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ بليغ القدرة لا يعجزه مراد.

(١٣٤) ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يجاهد للغنيمة ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ فما له يطلب أخسَّهما؟ فليطلبهما كمن يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ عالماً بالأغراض فيجازي كلا بحسب قصده.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

(١٣٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ بالحق، تقيمون شهاداتكم لوجه الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تقرُّوا عليها، لأن الشهادة بيان للحق سواء كان عليه أو على غيره ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾ ولو على والديكم وأقاربكم ﴿إِن يَكُنْ﴾ أي: المشهود عليه ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة، أو لا تجوروا فيها ميلاً أو ترحُّماً ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ﴾ بالغني والفقير وبالنظر لهما، فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما صلاحاً لما شرعها ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ﴾ لأن تعدلوا عن الحقِّ، أو كراهة أن تعدلوا، من العدل ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق، أو حكومة العدل ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ عن أدائها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ فيجازيكم عليه (أقول: علينا معاشر المؤمنين أن نتمسك بالشريعة المحمدية، فهي نزلت من الرب الكريم جل وعلا بواسطة جبريل عليه السلام على رسوله الكريم ﷺ، ونحن مسؤولون عن الحق سواء كان هذا الحق حق الله تعالى، أو حق أنفسنا، أو حق العباد، فلا بد أن نراعي ذلك، ولا يحملنا الحرص على الدنيا والطمع فيها على أن نأكل أموال الناس بغير حق، أو نكتم الشهادة، ويجب أن نتبع في أمورنا جميعاً ديناً ودنيا سنةَ سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام، وألا نتبع الهوى. نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن نكون صادقين في فعلنا وقولنا، في المعاملات الظاهرة والباطنة، مع الله تعالى ومع عباد الله تعالى، بحرمة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم).

(١٣٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب للمسلمين، أو للمنافقين، أو لمؤمني أهل الكتاب ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه، أو آمنوا به بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: ومن يكفر بشيء من ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ عن المقصد، بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه.

(أقول: الإيمان ثلاث مراتب:

١- الإيمان التقليدي.

٢- الإيمان بالاستدلال والبراهين.

٣- الإيمان الذوقي الشهودي وما فوقه.

أما الإيمان التقليدي: فهو وإن كان مقبولاً عند بعض المجتهدين إلا أن صاحبه مقلِّد، ويدخل فيه الإيمان العلمي، يسمع من هذا ويقرأ هذا حتى يحصل الإيمان، وهذا هو الإيمان الغيبي.

وأما الإيمان بالاستدلال والبراهين: وهو إيمان المتكلِّمين، فكذلك ليس قوياً بالنسبة لإيمان من فوقهم.

قال الإمام الشاذلي رحمه الله تعالى: نحن نعرف ربَّنا بدون دليل.

وأما الإيمان الذوقي والشهودي وما فوقهما: فله مراتب حتى يصل إلى إيمان الصديقين، كما في الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] أي: إن لم تكن من أهل الذوق والشهود، وأن تنظر بعين قلبك إلى ربك جل وعلا، عليك على الأقل أن تفهم وتتيقن بأنه يراك).

(١٣٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني اليهود، آمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ حين عبدوا العجل ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ﴾ بعد عوده إليهم ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ١٣٧﴾ إذ يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبهم ضربت بالكفر وبصائرهم عميت عن الحق، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم.

(١٣٨) ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾ يدلُّ على أن الآية في المنافقين، وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السرِّ مرَّة بعد أخرى، ثُمَّ ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين.

(١٣٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أيتعزَّزون بموالاتهم؟ ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩﴾ لا يتعزَّز إلا من أعزَّه الله تعالى، وقد كتَبَ العزَّة لأوليائه فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٣]، ولا يُؤْبَهُ بعزَّة غيرهم بالإضافة إليهم.

(١٤٠) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ في الإثم، لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو الكفر إن رضيتم بذلك، أو لأن الذين يُقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار كانوا منافقين، ويدلُّ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ يعني القاعدين والمقعود معهم.

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

(١٤١) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مظاهرين لكم، فأسهموا لنا مما غنمتم ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الحرب فإنها سجال ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا للكفرة: ألم نغلبكم ونتمكَّن من قتلكم فأبقينا عليكم؟ والاستحواذ: الاستيلاء ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به قلوبهم، وتوانينا (أي: فترنا وقصَّرنا) في مظاهرتهم (أي: مناصرتهم)، فأشركونا فيما أصبتم ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ حينئذ أو في الدنيا. والمراد بالسبيل: الحجة.

(١٤٢) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ (وخداعهم مع الله سبحانه ليس على ظاهره؛ لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية، ولأنهم لم يقصدوا خديعته، بل المراد إما مخادعة رسوله ﷺ، أو على أن معاملة الرسول عليه الصلاة والسلام معاملة الله سبحانه وتعالى من حيث إنه خليفته، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وإما أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصنع الله تعالى معهم بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده جل وعلا أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار، استدراجاً لهم، وامتثال الرسول ﷺ والمؤمنين أمرَ الله تعالى في إخفاء حالهم، وإجراء حكم الإسلام عليهم، مجاراةً لهم بمثل صنيعهم، صورةُ صنيع المتخادعين. أقول: فهو مقابلة اللفظ باللفظ على سبيل المشاكلة) ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين كالمكره على الفعل ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ليخالوهم مؤمنين ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ إذ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه، وهو أقلُّ أحواله؛ أو لأنَّ ذكرهم باللسان قليل بالإضافة إلى الذكر بالقلب. وقيل: المراد بالذكر الصلاة. وقيل: الذكر فيها؛ فإنهم لا يذكرون فيها غير التكبير والتسليم.

(١٤٣) ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ والمعنى: مردَّدين بين الإيمان والكفر، من الذبذبة ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، أو لا صائرين إلى أحد الفريقين بالكلية ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ

لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ إلى الحق والصواب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

(١٤٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ فإنه صنيع المنافقين وديدنهم فلا تتشبهوا بهم، ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ حجة بيِّنة فإن موالاتهم دليل على النفاق أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه.

(أقول: قال الله تعالى جل وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، والمراد بالأخوَّة أخوَّة الإيمان والإسلام، ولأنهم من أمة سيد المرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ومن لم يكتف بهذه الأخوة، وبهذه الأمة، مع هذا النص القطعي، ويتخذ عدو الله تعالى، وعدو رسوله عليه الصلاة والسلام صديقاً من ناحية حطام الدنيا، أو من ناحية الخوف، أو من ناحية أنَّ بينهم مودَّة الجاهلية، فهذا إيمانه بلسانه، وهو من المقلِّدين، وإيمان المقلِّدين أضعف الإيمان عند ربِّ العالمين، علينا أن نعتقد أنَّ الضارَّ والنافع هو الله جل وعلا، والناصر هو الله جل وعلا).

(١٤٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهو الطبقة التي في قعر جهنم. وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة، إذ ضموا إلى الكفر استهزاء بالإسلام وخداعاً للمسلمين. وأما قوله عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كُنَّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ونحوه فمن باب التشديد والتغليظ، وإنما سميت طبقاتها السبع (لجهنم) دركات لأنها متداركة متتابعة بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ يخرجهم منه.

(١٤٦) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا به أو تمسَّكوا بدينه ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يريدون بطاعتهم إلا وجهه سبحانه وتعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ ومن عدادهم في الدارين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ فيساهمونهم فيه.

(١٤٧) ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ﴾ أيتشفى به غيظاً أو يدفع به ضرراً أو يستجلب به نفعاً وهو الغني المتعالي عن النفع والضر؟ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ مثيباً، يقبل اليسير ويعطي الجزيل ﴿عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ بحقِّ شكركم وإيمانكم.

۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

(١٤٨) ﴿**لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ**﴾ إلا جهر من ظُلِم، بالدعاء على الظالم والتظلُّم منه ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا**﴾ لكلام المظلوم ﴿**عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾**﴾ بالظالم (أقول: أي: لا يحب إظهار الفضائح وإفشاء القبائح، ولا الفحش في القول أو الإيذاء باللسان، إلا المظلوم، فإنه يباح له أن يذكر الظالم بما فيه من السوء، وأن يجهر بالدعاء عليه ليحذره الناس، والله سميع عليم).

(١٤٩) ﴿**إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا**﴾ طاعة وبراً ﴿**أَوْ تُخْفُوهُ**﴾ أو تفعلوه سراً ﴿**أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ**﴾ لكم المؤاخذة عليه ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾**﴾ أي: يُكثِر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام، فأنتم أولى بذلك؛ وهو حثٌّ للمظلوم على العفو بعد ما رخص له في الانتصار حملاً على مكارم الأخلاق.

(١٥٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ**﴾ بأن يؤمنوا بالله تعالى ويكفروا برسله عليهم الصلاة والسلام ﴿**وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ**﴾ نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم ﴿**وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾**﴾ طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة، إذ الحق لا يختلف، فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل.

(١٥١) ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ هم الكاملون في الكفر، لا عبرة بإيمانهم هذا ﴿**حَقًّا ۚ**﴾ أي: يقيناً محققاً ﴿**وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾**﴾.

(١٥٢) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ**﴾ أضدادهم ومقابلوهم ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ**﴾ الموعودة لهم ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا**﴾ لما فرط منهم ﴿**رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾**﴾ عليهم بتضعيف حسناتهم.

(١٥٣) ﴿**يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ**﴾ نزلت في أحبار اليهود، قالوا: إن كنت صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى به موسى عليه السلام ﴿**فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ**﴾ أي: إن

استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى عليه السلام أكبر منه ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ أي: مجاهرين معاينين له ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ نار جاءت من قِبَل السماء فأهلكتهم ﴿بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾ بسبب ظلمهم، وهو تعنتهم وسؤالهم ما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها، وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقاً ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ هذه الجناية الثانية التي اقترفها أيضاً أوائلهم، والبينات: المعجزات ﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣﴾ تسلُّطاً ظاهراً عليهم، حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن اتخاذهم.

(١٥٤) ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ بسبب ميثاقهم ليقبلوه ﴿وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ على لسان موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، والطور مطلٌّ عليهم ﴿وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ على لسان داود عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ على ذلك، وهو قولهم: سمعنا وأطعنا.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

(١٥٥) ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ**﴾ أي: فخالفوا ونقضوا، ففعلنا بهم ما فعلنا بنقضهم ﴿**وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ**﴾ بالقرآن، أو بما جاء في كتابهم ﴿**وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ**﴾ أوعية للعلوم، أو في أكنَّة مما تدعونا إليه ﴿**بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ**﴾ فجعلها محجوبة عن العلم، أو خذلها ومنعها التوفيق للتدبر في الآيات والتذكر في المواعظ ﴿**فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾**﴾ منهم، كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه، أو إيماناً قليلاً، إذ لا عبرة به لنقصانه.

(١٥٦) ﴿**وَبِكُفْرِهِمْ**﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿**وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾**﴾ يعني (افتراءً كبيراً وهو) نسبتها إلى الزنى.

(١٥٧) ﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ**﴾ أي: بزعمهم، ويحتمل أنهم قالوه استهزاء ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ وإنما ذمَّهم الله سبحانه وتعالى بما دلَّ عليه الكلام من جراءتهم على الله سبحانه وتعالى، وقصدهم قتل نبيه المؤيد بالمعجزات الباهرة، وتبجُّحهم به، لا بقولهم هذا على حسب حسبانهم، ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى عليه السلام والمقتول ﴿**وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ**﴾ في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿**لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ**﴾ لفي تردُّد ﴿**مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ**﴾ أي: لكنهم يتبعون الظن ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾**﴾ كما زعموه بقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾.

(١٥٨) ﴿**بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ**﴾ ردٌّ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه عليه السلام ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا**﴾ لا يُغلَب على ما يريده ﴿**حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾**﴾ فيما دبَّره لعيسى عليه الصلاة والسلام.

(١٥٩) ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ**﴾ أي: وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمننَّ به. والمعنى: ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمننَّ بأن عيسى عبد الله ورسوله قبل أن يموت، ولو حين أن تزهق روحه ولا ينفعه إيمانه ﴿**وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾**﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله سبحانه وتعالى.

(١٦٠) ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: فبأيِّ ظلم منهم ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ يعني ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٦] ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ ناساً كثيراً، أو صداً كثيراً.

(١٦١) ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ دون من تاب وآمن.

(١٦٢) ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأصحابه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: منهم أو من المهاجرين والأنصار ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: يؤمنون بالكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ على جمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح.

۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾

(١٦٣) ﴿**إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ**﴾ جواب لأهل الكتاب عن اقتراحهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأن أمره في الوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿**وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ**﴾ خصَّهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيماً لهم، فإن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أول أولي العزم منهم (بعد سيدنا نوح عليه السلام)، وعيسى عليه السلام آخرهم، والباقون أشرف الأنبياء ومشاهيرهم عليهم صلوات الله تعالى وسلامه ﴿**وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾**﴾ (سمي به الكتاب المنزل على داود عليه السلام).

(١٦٤) ﴿**وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ**﴾ أي: من قبل هذه السورة، أو اليوم ﴿**وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾**﴾ وهو منتهى مراتب الوحي خص به موسى عليه السلام من بينهم، وقد فضل الله تعالى محمداً ﷺ بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم.

(١٦٥) ﴿**رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ**﴾ فيقولوا: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ [طه: ١٣٤] فينبهنا ويعلمنا ما لم نكن نعلم ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا**﴾ لا يُغلب فيما يريد ﴿**حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾**﴾ فيما دبَّر من أمر النبوَّة وخصَّ كلَّ نبيٍّ بنوع من الوحي والإعجاز.

(١٦٦) ﴿**لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ**﴾ من القرآن المعجز الدالِّ على نبوَّتك ﴿**أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ**﴾ (أقول: وهو العلم الحضوري، أو في كتاب مبين وهو القرآن المبين، ويدلُّ على العلم الإلهي) أنزله ملتبساً بعلمه الخاص به، وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كلَّ بليغ ﴿**وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ**﴾ أيضاً بنبوَّتك ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾**﴾ أي: وكفى بما أقام من الحجج على صحَّة نبوَّتك عن الاستشهاد بغيره.

(١٦٧) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾**﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، ولأن المضلَّ يكون أغرق في الضلال وأبعد من الانقلاع عنه.

(١٦٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ محمداً عليه الصلاة والسلام بإنكار نبوته، أو الناسَ بصدِّهم عما فيه صلاحهم وخلاصهم ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨﴾.

(١٦٩) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ لجري حكمه السابق ووعده المحتوم على أن من مات على كفره فهو خالد في النار ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾ لا يصعب عليه ولا يستعظمه.

(١٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ لمَّا قرَّر أمر النبوة وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم بها ووعيد من أنكرها، خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الردِّ ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يعني: وإن تكفروا فهو غني عنكم، لا يتضرَّر بكفركم كما لا ينتفع بإيمانكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٗا ١٧٠﴾ فيما دبَّر لهم.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

(١٧١) ﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ**﴾ الخطاب للفريقين؛ غَلَت اليهود في حطِّ عيسى عليه الصلاة والسلام حتى رموه بأنه ولد من غير رشدة، والنصارى في رفعه حتى اتخذوه إلهاً ﴿**وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ**﴾ يعني تنزيهه عن الصاحبة والولد ﴿**إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ**﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها ﴿**وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ**﴾ وذو روح صدر منه، لا بتوسُّط ما يجري مجرى الأصل والمادة له (أقول: أي ذو روح خلقه الله تعالى كسائر الأرواح، لا نافخ ولا منفوخ) ﴿**فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ**﴾ أي: الآلهة ثلاثة الله سبحانه وتعالى والمسيح عليه السلام ومريم ﴿**ٱنتَهُواْ**﴾ عن التثليث ﴿**خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ**﴾أي: واحد بالذات، لا تعدُّد فيه بوجهٍ ما ﴿**سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ**﴾ أي: أسبِّحه تسبيحاً من أن يكون له ولد، فإنه يكون لمن يعادله مثل، ويتطرَّق إليه فناء ﴿**لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ**﴾ ملكاً وخلقاً، لا يماثله شيء من ذلك فيتخذه ولداً ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾**﴾ تنبيه على غناه عن الولد سبحانه وتعالى.

(١٧٢) ﴿**لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ**﴾ لن يأنف ﴿**أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ**﴾ من أن يكون عبداً له، فإن عبوديَّته شرف يتباهى به، وإنما المذلَّة والاستنكاف في عبوديَّة غيره ﴿**وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ**﴾ أي: ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله جل وعلا ﴿**وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾**﴾ فيجازيهم.

(١٧٣) ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾**﴾ كأنه قال: فسيحشرهم إليه جميعاً يوم يحشر العباد للمجازاة، فإن إثابة مقابليهم والإحسان إليهم تعذيب لهم بالغمِّ والحسرة.

(١٧٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ عنى بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن. أي: قد جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبق لكم عذر ولا علة (أقول: خطاب لجميع البشر، أي: لقد جاءكم أيها الناس أكبر حجة وأعظم برهان من رب العزة والجلال، وهو محمد رسول الله ﷺ، جاء بالقرآن العظيم المعجز).

(١٧٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ في ثواب قدَّره بإزاء إيمانه وعمله رحمة منه، لا قضاء لحقٍّ واجب ﴿وَفَضۡلٖ﴾ إحسان زائد عليه ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ﴾ إلى الله سبحانه وتعالى ﴿صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ هو الإِسلام والطاعة في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة.

يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾

٥ سُورَةُ المَائِدَةِ ١٢٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾

(١٧٦) ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ في من مات ولم يكن له ولد ولا والد ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ﴾ والمراد بالأخت الأخت من الأبوين أو الأب ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي: والمرء يرث أخته إن كان الأمر بالعكس ﴿إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ وفائدة الإخبار عنه باثنتين التنبيه على أن الحكم باعتبار العدد دون الصغر والكبر وغيرهما ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ أي: يبين الله تعالى لكم ضلالكم الذي من شأنكم إذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه، أو يبين لكم الحق والصواب كراهة أن تضلوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾﴾ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والمات.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة النساء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المائدة

مدنيَّة، وآيها مئة وعشرون آية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ الوفاء: هو القيام بمقتضى العهد، والعقد: العهد الموثق. ولعل المراد بالعقود ما يعمُّ العقود التي عقدها الله سبحانه وتعالى على عباده وألزمها إياهم من التكاليف، وما يعقدون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ تفصيلٌ للعقود؛ والبهيمةُ: كلُّ حي لا يميِّز، وإضافتها إلى الأنعام للبيان، ومعناه البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية، وألحق بها الظباء وبقر الوحش ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ تحريمه ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ الحُرُمُ جمع حرام، وهو المحرِم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ من تحليل وتحريم.

(أقول: علامة امتثال أوامر الله تعالى والانتهاء عن نواهيه خوفُك ووجلك من الله تعالى عند مجيء الأمر والنهي، وأن تذلَّ له في نفسك، وتتواضع للخلق من غير حاجة إليهم ولا طمع فيما في أيديهم. اللهم أحي قلوبنا بالتوكُّل عليك وبالطاعة لك وبالذكر لك، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم).

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ يعني مناسك الحج، جمع شعيرة، وهي اسم ما أشعر، أي: جُعل شعاراً، سُمي به أعمال الحج ومواقفه لأنها علامات الحج وأعلام النسك. وقيل: دين الله جل وعلا، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ﴾ [الحج: ٣٢] أي: دينه ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه أو بالنسيء (والنسيء: تأخير الأشهر الحرم أو تقديمها) ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ ما أهدي إلى الكعبة ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ أي: ذوات القلائد من الهَدي. والقلائدُ جمع قلادة، وهي ما قُلِّد به الهدي، ليُعلم به أنه هديٌ فلا يُتعرض له ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ قاصدين لزيارته ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ﴾ أن يثيبهم ويرضى عنهم ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ﴾ إذنٌ في الاصطياد بعد زوال الإِحرام ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يحملنَّكم ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ شدة بغضهم وعداوتهم ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لأن صدوكم عنه عام الحديبية ﴿أَن تَعْتَدُواْۘ﴾ بالانتقام ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ على العفو والإِغضاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ للتشفي والانتقام ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ فانتقامه أشد.

(أقول: ابحث جاهداً عن تلك الفئة التي تعينك على البر والتقوى، لأنها أصبحت نادرة في هذا الزمان، أما الذين يعينونك على الإثم والعدوان فما أكثرهم؛ جاهد نفسك في عدم مجالسة هذه الفئة من الناس، لأنهم يضرون دينك ودنياك، وخاصة إن كانوا من تلك الفئة التي تؤيد هواها بالحجة الشرعية، ابحث عمن يعينك على البرِّ والتقوى، وهم لا يوجِّهونك لأنفسهم، بل لله عز وجل، اللهم وجِّه قلوبَنا إليك).

حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

(٣) ﴿**حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ**﴾ بيانُ ما يتلى عليكم. والميتة ما فارقه الروح من غير تذكية ﴿**وَٱلدَّمُ**﴾ أي: الدم المسفوح ﴿**وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ**﴾ أي: رفع الصوت لغير الله تعالى به كقولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه ﴿**وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ**﴾ أي: التي ماتت بالخنق ﴿**وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ**﴾ المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت ﴿**وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ**﴾ التي تردَّت من علوٍ أو في بئر فماتت ﴿**وَٱلنَّطِيحَةُ**﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿**وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ**﴾ وما أكل منه السبع فمات، وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما اصطادته لم تحل ﴿**إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ**﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. والذكاة في الشرع بقطع الحلقوم والمريء بمحدَّد ﴿**وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ**﴾ النصب واحد الأنصاب، وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويَعدُّون ذلك قربة ﴿**وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ**﴾ أي: وحُرِّم عليكم الاستقسام بالأزلام، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح، مكتوب على أحدها: أمَرَني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث غُفلٌ (والغُفْل ما لا علامة فيه)، فإن خرج الآمر مضوا على ذلك، وإن خرج الناهي تجنبوا عنه، وإن خرج الغفل أجالوها (أي: أعادوها) ثانياً. فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم لهم بالأزلام ﴿**ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ**﴾ إشارة إلى الاستقسام. وكونُه فسقاً لأنه دخولٌ في علم الغيب، وضلال باعتقاد أن ذلك طريق إليه، وافتراء على الله سبحانه وتعالى إن أريد بـ«ربي» الله، وجهالةٌ وشركٌ إن أريد به الصنم ﴿**ٱلۡيَوۡمَ**﴾ لم يُردْ به يوماً بعينه، وإنما أراد الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية ﴿**يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ**﴾ أي: من إبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث وغيرها، أو من أن يغلبوكم عليه ﴿**فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ**﴾ أن يَظهروا عليكم ﴿**وَٱخۡشَوۡنِۚ**﴾ وأخلصوا الخشية لي.

﴿**ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ**﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد (وفي السراج المنير للشربيني رحمه الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: الفرائض والسنن والحدود والجهاد والحلال والحرام، فلم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض) ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بالهداية والتوفيق أو بإكمال الدين أو بفتح مكة وهدم منار الجاهلية ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ اخترته لكم ديناً من بين الأديان، وهو الدين عند الله تعالى لا غير. ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ المعنى: فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير مائل له ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ لا يؤاخذه بأكله.

(٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ كأنهم لما تُلي عليهم ما حُرِّم عليهم سألوا عما أُحلَّ لهم ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ ما لم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه، أو ما لم يدل نصٌّ ولا قياس على حرمته ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ وصيدُ ما علمتم. والجْوارحُ كواسب الصيد ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ معلِّمين إياه الصيد ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله تعالى، أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى، أو مما علمكم الله تعالى أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما لم تأكل منه، لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه: «وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على نفسه» [متفق عليه] وإليه ذهب أكثر الفقهاء ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ المعنى: سموا عليه عند إرساله، أو لما أمسكن، بمعنى سموا عليه إذا أدركتم ذكاته ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في محرماته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ فيؤاخذكم بما جلَّ ودقَّ.

(٥) ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعم الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم (وكذلك طعامهم حل لكم) ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: الحرائر أو العفائف، وتخصيصهن بعثٌ على ما هو الأولى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وإن كن حربيات، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تحلُّ الحربيات ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورَهنَّ ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعفَّاء بالنكاح ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنى ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ مُسرِّين به. والخِدْن: الصديق، يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ يريد بالإِيمان شرائع الإِسلام، وبالكفر به إنكاره والامتناع عنه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾

(٦) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أردتم القيام، أو إذا قصدتم الصلاة؛ لأن التوجه إلى الشيء والقيام له قصدٌ له؛ وظاهر الآية يوجب الوضوء على كلِّ قائم إلى الصلاة وإن لم يكن مُحْدِثاً، والإجماع على خلافه (أقول: هذا من السنة)، لما روي «أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: صنعتَ شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال: عمداً فعلتُه» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. والمعنى: إذا قمتم إلى الصَّلاة محدِثين. وقيل: الأمر فيه للندب ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أَمِرُّوا الماء عليها ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين في المغسول ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ الباء مزيدة، وقيل: للتبعيض. واختلف العلماء في قدر الواجب؛ فأوجب الشافعي رضي الله تعالى عنه أقلَّ ما يقع عليه الاسم (اسم المسح) أخذاً باليقين. وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: مسح ربع الرأس، لأنه عليه الصلاة والسلام مسح على ناصيته، وهو قريب من الربع ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ عطفاً على وجوهكم، ويؤيده: السنة الشائعة، وعمل الصحابة رضوان الله عليهم، وقول أكثر الأئمة رحمهم الله تعالى ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ فاغتسلوا ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ (مرضاً يُخاف معه من استعمال الماء، فإنَّ الواجد كالفاقد، أو مرضاً يمنعه عن الوصول إليه) ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ (لا تجدونه فيه) ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ (فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين) ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ (أو ماسستم بشرتهنَّ ببشرتكم، وبه استدلَّ الإمام الشافعيُّ رحمه الله تعالى على أنَّ اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهنَّ) ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾ (فلم تتمكَّنوا من استعماله، إذ الممنوع عنه كالمفقود) ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ (أي: فتعمَّدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً، ولذا قالت الحنفيَّة: لو ضرب المتيمِّم يده ومسح به أجزأه. وقال أصحابنا: لا بدَّ من أن يعلق باليد شيء من التراب) ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ أي: ما يريد الأمر بالطهارة للصلاة أو الأمر بالتيمم تضييقاً عليكم ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ لينظِّفكم، أو ليطهِّركم عن الذنوب، فإن الوضوء تكفير للذنوب، أو ليطهِّركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء ﴿وَلِيُتِمَّ﴾ بشرعه ما هو

مطهِّر لأبدانكم ومكفِّر لذنوبكم ﴿نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ في الدين، أو ليتمَّ برخصه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ نعمته (أقول: لا بدَّ للعبد المسلم الخائف أن يستعدَّ للصلاة قبل دخول وقتها بإسباغ الوضوء، وينتظر الصلاة في المكان الذي أراد الصلاة فيه، ويشتغل بالذكر يعني بِـ«لا إله إلا الله» حتى يقطع من القلب شواغل الدنيا، ويهيئ قلبه لمناجاة ربِّه جل و علا، ويقبل بقلبه على ربِّه في صلاته، وتصلي روحه في قالبه، وحينئذ يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] فهذه الصلاة التي تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وإذا أراد العبد أن يعرف ما بينه وبين ربه من صلة، فلينظر في صلاته، فبمقدار ما يعقل من صلاته فتلك حصته، ومن الله تعالى التوفيق، والله تبارك وتعالى يهدي إلى سواء السبيل).

(٧) ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالإسلام، لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، أو ميثاقه ليلة العقبة، أو بيعة الرضوان ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ في إنساء (أي: نسيان) نعمه ونقض ميثاقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ أي: بخفياتها، فيجازيكم عليها فضلاً عن جليات أعمالكم.

(٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ المعنى: لا يحملنَّكم شدَّة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفياً مما في قلوبكم (من الغيظ) ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ أي: العدل أقرب للتقوى. صرَّح لهم بالأمر بالعدل، وبين أنه بمكانٍ من التقوى، بعد ما نهاهم عن الجَور وبين أنه مقتضى الهوى؛ وإذا كان هذا للعدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين؟! ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ فيجازيكم به (أقول: القواعد الأساسية للبشر هي الشريعة الغراء التي وصلت إليهم منذ بعثة النبي ﷺ، هي قواعد أبدية أزلية، والمكلف مسؤول عنها في آخرته؛ وربنا جلَّ جلاله العالِم الذي لا يعزب عن علمه سبحانه وتعالى شيء من ماض وحاضر ومستقبل، فهو أعلم بحال العباد ابتداء ومآلاً. وعلى هذا لا بدَّ للمسلم: ١- أن ينقاد للحكم الإلهي. ٢- وأن يكون استمتاعه في الدنيا موافقاً للقانون الإلهي وهو عين الإيمان، ولذا لا يلزم علينا أن ننقد على من يتكلم بالهوى، ويظهر علمه بالهوى، بينه وبين الله جلَّ وعلا، إذا دقَّق المؤمن يطَّلع عليه، ولكن القول لا يفيد لأنه ضدُّ نفسه، وإذا كان ضد نفسه لا يقرُّ بالعدل. ٣- وأن يجري الأحكام الشرعية على جوارحه، كما أجراها أصحاب رسول الله ﷺ في عصرهم على أنفسهم الطيبة الطاهرة).

(٩) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (أي: أقروا بالإيمان بألسنتهم) ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (تصديقاً لهذا الإقرار) ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾ (والأجر العظيم هو الجنة [السراج المنير للشربيني رحمه الله تعالى]).

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾

(١٠) ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾**﴾ هذا من عادته تعالى، أن يُتبِع حال أحد الفريقين حال الآخر وفاءً بحقِّ الدعوة، وفيه مزيد وعدٍ للمؤمنين وتطييب لقلوبهم.

(١١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ**﴾ روي «أنه عليه الصلاة والسلام أتى قريظة ومعه الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم يستقرضهم لدية مسلمَين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأً يحسبهما مشركَين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، اجلس حتى نطعمك ونقرضك، فأجلسوه وهمُّوا بقتله، فعمد عمرو بن جحاش إلى رحى عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله جل وعلا يده فنزل جبريل عليه السلام فأخبره فخرج». وقيل: «نزل رسول الله ﷺ منزلاً وعلق سلاحه بشجرة وتفرق الناس عنه، فجاء أعرابي فسلَّ سيفه وقال: من يمنعك مني؟ فقال: الله! فأسقطه جبريل من يده، فأخذه الرسول ﷺ وقال: من يمنعك مني؟ فقال: لا أحد، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ» فنزلت [متفق عليه]. ﴿**إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ**﴾ بالقتل والإهلاك ﴿**فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ**﴾ منعها أن تمد إليكم، وردَّ مضرتها عنكم ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾**﴾ فإنه الكافي لإيصال الخير ودفع الشر.

(أقول: اعتصم بمولاك إله العالمين، والزم الباب بالتضرُّع والابتهال والبكاء آناء الليل وأطراف النهار مع المتضرعين، فإنه لا نجاة من هذا الأمر إلا برحمة الله تعالى، ولا سلامة من هذه الفتن إلا بنظره وتوفيقه وعنايته، فتنبَّه من رقدة الغافلين، وجاهد نفسك في مرضاة مولاك، والمستعان بالله تعالى على كلِّ حال، فإنه خير معين، وهو تعالى أرحم الراحمين).

(١٢) ﴿**وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ**﴾ شاهداً من كل سبط، ينقب عن أحوال قومه ويفتش عنها، أو كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به. روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر أمَرَهم الله سبحانه وتعالى بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون، وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً، فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها فإني ناصركم، وأمرَ

موسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أمِروا به، فأخذ عليهم الميثاق واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدِّثوا قومهم، فرأوا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم ونكثوا الميثاق، إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا، ويوشع بن نون من سبط أفرائيم بن يوسف عليه السلام.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ بالنصرة ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ أي: نصرتموهم وقويتموهم ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ بالإِنفاق في سبيل الخير (أقول: أي: أنفقتم من أموالكم في سبيل الخير طلباً لرضا الله جل وعلا، وهو ما كان من طيِّب، أو ما لا يتبعه منٌّ ولا أذى، أو ما كان من مال حلال) ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم ﴿مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ ضلالاً لا شبهة فيه ولا عذر معه.

(١٣) ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ﴾ طردناهم من رحمتنا ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ لا تنفعل عن الآيات والنذر ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ استئنافٌ لبيان قسوة قلوبهم، فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله سبحانه وتعالى والافتراء عليه ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا﴾ وتركوا نصيباً وافياً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ من التوراة، أو من اتباع محمد ﷺ. والمعنى أنهم حرَّفوا التوراة وتركوا حظهم مما أنزل عليهم فلم ينالوه ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ خيانةٍ منهم، أو فرقةٍ خائنةٍ. والمعنى أن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم، لا تزال ترى ذلك منهم ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾ لم يخونوا، وهم الذين آمنوا منهم ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ تعليلٌ للأمر بالصفح وحثٌّ عليه.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾

(١٤) ﴿**وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ**﴾ أي: وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم ﴿**فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ**﴾ (أقول: أي: نقضوا عهداً) ﴿**فَأَغۡرَيۡنَا**﴾ فألزمنا ﴿**بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ**﴾ بين فِرَق النصارى، أو بينهم وبين اليهود ﴿**وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾**﴾ بالجزاء والعقاب.

(١٥) ﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ**﴾ كنَعتِ محمد ﷺ، وآية الرجم في التوراة، وبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام بأحمد ﷺ في الإنجيل ﴿**وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ**﴾ مما تخفونه، لا يخبر به إذا لم يضطر إليه في أمرٍ دينيٍّ ﴿**قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾**﴾ يعني القرآن، فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال، والكتابُ الواضح الإعجاز. وقيل: يريد بالنور محمداً ﷺ.

(١٦) ﴿**يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ**﴾ من اتبع رضاه بالإيمان منهم ﴿**سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ**﴾ طرق السلامة من العذاب ﴿**وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ**﴾ من أنواع الكفر إلى الإسلام ﴿**بِإِذۡنِهِۦ**﴾ بإرادته أو بتوفيقه ﴿**وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾**﴾ طريقٍ هو أقرب الطرق إلى الله سبحانه وتعالى، ومؤدٍّ إليه لا محالة.

(١٧) ﴿**لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ**﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، وقيل لم يصرِّح به أحد منهم، ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً وقالوا لا إله إلا واحدٌ لزمهم أن يكون هو المسيح،فُنسب إليهم لازم قولهم، توضيحاً لجهلهم وتفضيحاً لمعتقدهم ﴿**قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا**﴾ فمن يمنع من قدرته وإرادته شيئاً ﴿**إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ**﴾ احتج بذلك على فساد قولهم. وتقريرُه: أن المسيح عليه السلام مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ﴿**وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾**﴾ إزاحةٌ لما عرض لهم من الشبهة في أمره. والمعنى أنه سبحانه وتعالى قادر على الإطلاق، يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض، ومن أصل كخلق ما بينهما، فينشئ من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات، ومن أصل يجانسه، إما من ذَكَرٍ وحده كما خلق حواء، أو من أنثى وحدها كعيسى عليه السلام، أو منهما كسائر الناس.

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾

(١٨) ﴿**وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ**﴾ أشياع ابْنَيهِ: عزير والمسيح عليهما السلام ﴿**قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ**﴾ أي: فإن صح ما زعمتم فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم، فإنَّ من كان بهذا المنصب لا يَفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودات ﴿**بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ**﴾ ممن خلقه الله تعالى ﴿**يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ**﴾ وهم من آمن به وبرسله ﴿**وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ**﴾ وهم من كفر. والمعنى أنه يعاملكم معاملة سائر الناس لا مزية لكم عنده ﴿**وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ**﴾ كلها سواء في كونها خلقاً وملكاً له ﴿**وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾**﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

(١٩) ﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ**﴾ أي: الدينَ ﴿**عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ أي: جاءكم على حين فتور من الإرسال، وانقطاع من الوحي ﴿**أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ**﴾ كراهةَ أن تقولوا ذلك وتعتذروا به ﴿**فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ**﴾ أي: لا تعتذروا بـ﴿مَا جَآءَنَا﴾ فقد جاءكم ﴿**وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾**﴾ فيقدر على الإرسال تترى كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، إذْ كان بينهما ألف وسبع مئة سنة وألف نبي، وعلى الإرسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كان بينهما ست مئة أو خمس مئة وتسع وستون سنة وأربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي. وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أحوج ما يكونون إليه.

(٢٠) ﴿**وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ**﴾ فأرشدكم وشرفكم بهم، ولم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء ﴿**وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا**﴾ أي: وجعل منكم أو فيكم. وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء بعد فرعون، حتى قتلوا يحيى عليه السلام وهموا بقتل عيسى عليه السلام ﴿**وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾**﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها مما آتاهم الله جل وعلا. وقيل: المراد بالعالمين عالَمي زمانهم.

(٢١) ﴿ **يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ** ﴾ أرض بيت المقدس. سُمِّيت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومسكن المؤمنين ﴿**ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ**﴾ قَسَمها لكم، أو كتبَ في اللوح أنها تكون مسكناً لكم، ولكن إن آمنتم وأطعتم، لقوله لهم بعد ما عصوا: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦] ﴿**وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ**﴾ ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، أو لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق على الله سبحانه وتعالى ﴿**فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١**﴾ ثواب الدارين.

(٢٢) ﴿ **قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ**﴾ متغلِّبين لا تتأتى مقاومتهم ﴿**وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢**﴾ إذ لاَ طَاقَة لَنَا بهم.

(٢٣) ﴿ **قَالَ رَجُلَانِ** ﴾ كالبٌ ويوشع ﴿**مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ** ﴾ أي: يخافون الله سبحانه وتعالى ويتقونه. وقيل: رجلان من الجبابرة أسلما وسارا إلى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿**أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا** ﴾ بالإيمان والتثبيت ﴿**ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ** ﴾ بابَ قريتهم، أي: باغِتوهم (يعني: فاجئوهم) وضاغِطوهم (أي: زاحموهم) في المضيق وامنعوهم من الإصحار (أي: الدخول في الصحراء) ﴿**فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ** ﴾ لتعسر الكرِّ عليهم في المضايق من عظم أجسامهم، ولأنهم أجسام لا قلوب فيها ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣**﴾ أي: مؤمنين به ومصدِّقين بوعده.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

(٢٤) ﴿**قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾**﴾ قالوا ذلك استهانةً بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وعدمَ مبالاةٍ بهما.

(٢٥) ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ**﴾ قاله شكوى بَثِّه وحزنِهِ إلى الله سبحانه وتعالى لَمَّا خالفه قومه وأيس منهم، ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام، والرجلان المذكوران وإن كانا يوافقانه لم يثق بهما لِما كابَدَ من تلوُّن قومه ﴿**فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾**﴾ بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه.

(٢٦) ﴿**قَالَ فَإِنَّهَا**﴾ فإن الأرض المقدسة ﴿**مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ**﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها بسبب عصيانهم ﴿**أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ**﴾ أي: يسيرون فيها متحيرين لا يرون طريقاً ﴿**فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾**﴾ خاطبَ به موسى عليه الصلاة والسلام.

(٢٧) ﴿**وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ**﴾ قابيل وهابيل، أوحى الله سبحانه وتعالى إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر، فسخط منه قابيل لأن توأمته كانت أجمل، فقال لهما آدم: قرِّبا قرباناً، فمن أيكما قُبِلَ تزوجها، فَقُبِلَ قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل سخطاً وفعل ما فعل ﴿**بِٱلۡحَقِّ**﴾ أي: ملتبساً بالصدق موافقاً لما في كتب الأولين ﴿**إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا**﴾ والقربان اسم ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من ذبيحة أو غيرها ﴿**فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ**﴾ لأنه سَخِطَ حكم الله سبحانه وتعالى، ولم يُخلص النية في قربانه، وقَصَدَ إلى أخس ما عنده ﴿**قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ**﴾ توعَّده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه، ولذلك ﴿**قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾**﴾ أي: إنما أُتيتَ من قِبَلِ نفسك بترك التقوى لا من قبلي، فلِمَ تقتلني؟

(٢٨) ﴿**لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾**﴾ قيل: كان هابيل أقوى منه، ولكن تحرَّج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله سبحانه وتعالى، لأن الدفع لم يبح بعدُ، أو تحرياً لما هو الأفضل.

(٢٩) ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ المعنى: إنما أستسلمُ لك إرادة أن تحمل إثمي لو بسطتُ إليك يدي، وإثمك ببسطك يدك إلي.

(٣٠) ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ فسهَّلته له ووسعته ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ ديناً ودنيا، إذ بقي مدة عمره مطروداً محزوناً.

(٣١) ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ روي أنه لما قتله تحيَّر في أمره ولم يدرِ ما يصنع به، إذ كان أولَ ميت من بني آدم، فبعث الله تعالى غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة. والمراد بسوأة أخيه جسده الميت ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ كلمةُ جزع وتحسر. والمعنى: يا ويلتي احضري فهذا أوانك. والويلة: الهلكة ﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ لا أهتدي إلى مثل ما اهتدى إليه! ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ على قتله، لِما كابد فيه من التحير في أمره وحمْلِهِ على رقبته سنةً أو أكثر على ما قيل، وتلمذه للغراب، واسوداد لونه، وتبري أبويه منه.

مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾

(٣٢) ﴿**مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ**﴾ بسببه قضينا عليهم ﴿**أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ**﴾ أي: بغير قتلِ نفسٍ يوجب الاقتصاص ﴿**أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ أو بغير فساد فيها؛ كالشرك أو قطع الطريق ﴿**فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا**﴾ من حيث أنه هتك حرمة الدماء وسَنَّ القتل وجرَّأ الناس عليه، أو من حيث أن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم ﴿**وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ**﴾ أي: ومن تسبب لبقاء حياتها بعفوٍ أو منعٍ عن القتل أو استنقاذٍ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً. والمقصود منه تعظيم قتلِ النفسِ وإحيائِها في القلوب، ترهيباً عن التعرُّض لها وترغيباً في المحاماة عليها ﴿**وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾**﴾ أي: بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيداً للأمر وتجديداً للعهد كي يتحاموا عنها كثيرٌ منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به. والإسراف: التباعد عن حد الاعتدال في الأمر (أقول: المؤمن له وقفة عند حدود الله تعالى، والكافر ليس له حدود فلا يقف، كما نرى ونشاهد، خصوصاً في سوريا والعراق، اللهمَّ أزلْ هذا البلاء عن المسلمين، نتشفَّع إليك بمحمَّد عليه الصلاة والسلام وبالقرآن الكريم).

(٣٣) ﴿**إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ أي: يحاربون أولياءهما، وهم المسلمون، جعلَ محاربتهم محاربتهما تعظيماً، وأصل الحرب: السلبُ، والمراد به هٰهنا قطع الطريق ﴿**وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا**﴾ أي: مفسدين (أقول: لا بد للمؤمن أن يتمسك بالشريعة، وإلا يهلك، ولو كان غنياً أو فقيراً، عالماً أو جاهلاً) ﴿**أَن يُقَتَّلُوٓاْ**﴾ أي: قصاصاً من غير صلبٍ إن أفردوا القتلَ ﴿**أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ**﴾ أي: يصلبوا مع القتل إن قتلوا وأخذوا المال ﴿**أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ**﴾ تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن أخذوا

المال ولم يَقتلوا ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أو ينفوا من بلد إلى بلد بحيث لا يتمكنون من القرار في موضعٍ إن اقتصروا على الإِخافة. وفسَّر أبو حنيفة رحمه الله تعالى النفي بالحبس ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ذلٌّ وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ لعظم ذنوبهم.

(٣٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ استثناءٌ مخصوص بما هو حقُّ الله سبحانه وتعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أما القتل قصاصاً فإلى الأولياء، يسقط بالتوبة وجوبه لا جوازه. وتقييد التوبة بالتقدُّم على القدرة يدلُّ على أنها بعد القدرة لا تُسقِط الحدَّ، وإن أَسقطت العذاب، وأن الآية في قُطَّاع المسلمين، لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

(٣٥) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: ما تتوسَّلون به إلى ثوابه والزلفى منه؛ مِنْ فعل الطاعات وترك المعاصي ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ بالوصول إلى الله سبحانه وتعالى والفوز بكرامته.

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من صنوف الأموال ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم، وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

(٣٧) ﴿**يُرِيدُونَ**﴾ (يطلبون أو يتمنَّون) ﴿**أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾**﴾ (دائم [النسفي]).

(٣٨) ﴿**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا**﴾ السرقة: أخذ مال الغير في خفية. وإنما توجبُ القطعَ إذا كانت من حرزٍ، والمأخوذ ربع دينار أو ما يساويه ﴿**جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ**﴾ (أي: عقوبة منه) ﴿**وَٱللَّهُ عَزِيزٌ**﴾ (غالب لا يُعارَض في حكمه) ﴿**حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾**﴾ (فيما حكم من قطع يد السارق والسارقة [النسفي]) (والنَّكال هو العذاب الذي يكون عبرةً لغيره).

(٣٩) ﴿**فَمَن تَابَ**﴾ من السراق ﴿**مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ**﴾ أي: بعد سرقته ﴿**وَأَصْلَحَ**﴾ أَمْرَهُ بالتقصي عن التبعات والعزم على أن لا يعود إليها ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾**﴾ يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة. وأما القطع فلا يسقط بها عند الأكثرين لأن فيه حق المسروق منه.

(٤٠) ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل أحد ﴿**يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ**﴾ تعذيبه ﴿**وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ**﴾ المغفرةَ له ﴿**وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾**﴾.

(٤١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ**﴾ أي: صنيع الذين يقعون في الكفر سريعاً، أي: في إظهاره إذا وجدوا منه فرصةً ﴿**مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ**﴾ أي: من المنافقين ﴿**وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾ أي: قابلون لما تفتريه الأحبار ﴿**سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ**﴾ أي: لجمعٍ آخرين من اليهود لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبراً وإفراطاً في البغضاء. والمعنى على الوجهين: أي: مُصغون لهم قابلون كلامَهم، أو سماعون منك لأجلهم وللإنهاء إليهم ﴿**يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ**﴾ أي: يُميلونه عن مواضعه التي وضعه الله تعالى فيها؛ إما لفظاً: بإهماله أو تغيير وضعه، وإما معنىً: بحمله على غير المراد وإجرائه في غير مورده ﴿**يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ**﴾ أي: إن أوتيتم هذا المحرَّف فاقبلوه واعملوا به ﴿**وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ**﴾ بل أفتاكم محمد ﷺ بخلافه ﴿**فَٱحْذَرُواْۚ**﴾ أي: احذروا

قبول ما أفتاكم به (أقول: البشر كلهم من حيث الطبيعة البشرية مخالفون للشريعة والسنة النبوية، إلا من عصمه الله تعالى، فهذا مستثنى). «روي أن شريفاً من خيبر زنى بشريفة وكانا محصنَين، فكرهوا رجمهما، فأرسلوهما مع رهط منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله ﷺ عنه، وقالوا: إنْ أمَرَكم بالجلد والتحميم (تسويد الوجه) فاقبلوا، وإن أمَرَكم بالرجم فلا، فأمَرَهم بالرجم، فأبوا عنه، فجعل ابن صوريا حكماً بينه وبينهم، وقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: أنشدك الله الذي لاَ إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى عليه السلام، ورفع فوقكم الطور، وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه، هل تجدون فيه الرجم على من أُحصِن؟ قال: نعم، فوثبوا عليه، فقال: خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب، فأمر رسولُ الله ﷺ بالزانييْن فرُجما عند باب المسجد» [أخرجه ابن جرير الطبري وله أصل مختصر في الصحيحين].

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ ضلالته أو فضيحته ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ فلن تستطيع له من الله تعالى شيئاً في دفعها ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ من الكفر (أقول: الاعتبار بالقلب، فبعض المؤمنين يخرج من فمه ما كان موافقاً لنفسه لا لإيمانه) ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ هَوانٌ بالجزية والخوف من المؤمنين ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾ وهو الخلود في النار.

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٢) ﴿**سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾ كرَّره للتأكيد ﴿**أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ**﴾ أي: الحرام، كالرشا ﴿**فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ**﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إذا تحاكموا إليه بين الحُكم والإعراض ﴿**وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ**﴾ بأن يعادوك لإعراضك عنهم، فإن الله سبحانه وتعالى يعصمك من الناس ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ**﴾ أي: بالعدل الذي أَمَرَ الله تعالى بِهِ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾**﴾ فيحفظهم ويعظم شأنهم.

(٤٣) ﴿**وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ**﴾ تعجيبٌ من تحكيمهم مَنْ لا يؤمنون به، والحالُ أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم، وإن لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم ﴿**ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ**﴾ ثم يُعرِضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد التحكيم ﴿**وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾**﴾ بكتابهم، لإعراضهم عنه أولاً، وعما يوافقه ثانياً، أو بك وبه.

(٤٤) ﴿**إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى**﴾ يهدي إلى الحق ﴿**وَنُورٌ ۚ**﴾ يكشف عما اشتبه من الأحكام ﴿**يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ**﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، أو موسى عليه السلام ومَنْ بعدَه، إن قلنا: شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ ﴿**ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟**﴾ صفةٌ أجريت على النبيين مدحاً لهم، وتنويهاً بشأن المسلمين، وتعريضاً باليهود، وأنهم بمعزلٍ عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقتفاء هديهم ﴿**لِلَّذِينَ هَادُوا۟**﴾ وهو يدل على أن النبيين أنبياؤهم ﴿**وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ**﴾ زهَّادُهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم ﴿**بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ**﴾ بسبب أمر الله تعالى إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف ﴿**وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ**﴾ رقباء لا يتركون أن يغيَّر، أو شهداء يبيِّنون ما يخفى منه، كما فعل ابن صوريا ﴿**فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ**﴾ نهيٌ للحكام أن يخشوا غير الله تعالى في حكوماتهم ويداهنوا فيها خشية ظالمٍ أو مراقبة كبيرٍ ﴿**وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى**﴾

ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو الرشوة والجاه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ مستهيناً به منكراً له (أقول: أي: من لم يؤمن ولم يصدق؛ لأنَّ من آمن ولم يحكم فلا يكون من الكافرين) ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ لاستهانتهم به وتمرُّدهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله: «الكافِرُونَ، والظَّالِمُونَ، والفاسِقُونَ»، فكفْرُهم لإنكاره، وظلْمُهم بالحكم على خلافه، وفسقُهم بالخروج عنه. ويجوز أن تكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حالٍ انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمة لها، أو لطائفة؛ كما قيل هذه في المسلمين لاتصالها بخطابهم، و«الظالمون» في اليهود، و«الفاسقون» في النصارى.

(٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وفرضْنا على اليهود ﴿فِيهَا﴾ في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ أي: أن النفس تُقتَل بالنفس ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ ومعناها كذلك العين مفقوءة بالعين، والأنف مجدوعة بالأنف، والأذن مصلومةً (أي: مقطوعة) بالأذن، والسن مقلوعة بالسنِّ ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي: ذات قصاص ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقِّين ﴿بِهِ﴾ بالقصاص، أي: فمن عفا عنه ﴿فَهُوَ﴾ فالتصدُّق ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ للمتصدِّق، يكفِّر الله تعالى به ذنوبه، وقيل: للجاني، يُسقط عنه ما لزمه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ مِن القصاص وغيره ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٦) ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: وأتبعناهم على آثارهم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (أي: قبله مما أتى به موسى عليه السلام) ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ (أي: بيان للأحكام) ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ (أي: لما فيها من الأحكام) ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (أي: كلُّ ما فيه يهتدون به ويتعظون فترق قلوبهم ويعتبرون به [السراج المنير للشربيني رحمه الله تعالى]).

(٤٧) ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ﴾ (وهم أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام) ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ﴾ (أي: من الأحكام) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ عن حكمه، أو عن الإيمان إن كان مستهيناً به.

(٤٨) ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من جنس الكتب المنزلة ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ ورقيباً على سائر الكتب، بِحفْظِه عن التغيير، ويشهد لها بالصحة والثبات ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ﴾ إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة ﴿وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ طريقاً واضحاً في الدين ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعةً متفقةً على دينٍ واحدٍ في جميع الأعصار من غير نسخٍ وتحويلٍ. وقيل: المعنى لو شاء الله تعالى اجتماعكم على الإسلام لأجبركم عليه (أقول: هذا يكون إيماناً جبريّاً، والله تعالى لا يقبل هذا الإيمان، لأنه جلَّ وعلا أَنزل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام الكتاب، وأمره بالتبليغ، فلا جبر ولا حلول ولا تناسخ) ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لكل عصر وقرن، هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى الحكمة الإلهية، أم تزيغون عن الحق وتفرِّطون في العمل؟ ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ فابتدروها انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل السبق والتقدم ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ وعدٌ ووعيدٌ للمبادِرين والمقصِّرين ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل والعامل والمقصر.

(٤٩) ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ عطفٌ على الكتاب. أي: أنزلنا إليك الكتاب والحكم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أن يضلوك ويصرفوك عنه (اللهم احفظنا من الانحراف عن دين الإسلام وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني ذنبَ التولي عن حكم الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ لمتمرِّدون في الكفر معتدون فيه (أقول: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الناسين للعهود الأصلية الناقضين للمواثيق الفطرية ﴿لَفَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن مقتضى الأحكام الإلهية وحِكَمه المكنونة فيها، بمتابعة الأهْوِيَة الباطلة، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم).

(٥٠) ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الذي هو الميل والمداهنة في الحكم. والمراد بالجاهلية المِلَّةُ الجاهلية التي هي متابعة الهوى (أقول: متابعة الهوى كما أنها منهيٌّ عنها للكافر، كذلك منهيٌّ عنها للمؤمن) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: هذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنْ لا أحسن حكماً من الله سبحانه وتعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾

(٥١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ**﴾ فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب ﴿**بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ**﴾ أي: فإنهم متفقون على خلافكم، يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادَّتكم ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ**﴾ أي: ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم. وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتراءى ناراهما» (أي: يجب أن يتباعدا بحيث إذا أوقدت ناراهما لم تلمح إحداهما الأخرى [حاشية شيخ زاده]) [والحديث أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي رحمهم الله تعالى] أو لأن الموالين لهم كانوا منافقين ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١**﴾ أي: الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، أو المؤمنين بموالاة أعدائهم.

(أقول: أقلع عن صحبة الأغيار الذين خالف قولهم فعلهم، ولا تتكل على نفسك، ولا تدَّعِ العلم بدون العمل فإن دعواك العلم بدون العمل باطل، فالعلم دليل العمل، واختر صحبة الأخيار فإنهم ينصحونك واقبل بصحبتهم فإنك ترشد بإرشادهم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

(٥٢) ﴿**فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ**﴾ يعني ابن أُبيٍّ وأضرابه ﴿**يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ**﴾ أي: في موالاتهم ومعاونتهم ﴿**يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ**﴾ يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار ﴿**فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ**﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين ﴿**أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ**﴾ يقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء (والشأفة: قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوَى فتذهب. يقال: استأصل الله تعالى شأفته، أي: أذهبه الله تعالى كما أذهب تلك القرحة بالكي)، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم ﴿**فَيُصۡبِحُواْ**﴾ أي: هؤلاء المنافقون ﴿**عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢**﴾ على ما استبطنوه من الكفر والشك في أمر الرسول ﷺ، فضلاً عما أظهروه مما أَشْعَرَ على نفاقهم.

(٥٣) ﴿**وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ**﴾ يقوله المؤمنون بعضهم لبعض تعجُّباً من حال المنافقين وتبجُّحاً (أي: فرحاً) بما منَّ الله سبحانه وتعالى عليهم من الإخلاص ﴿**حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ**

﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾ شهادةٌ لهم بحبوط أعمالهم. وفيه معنى التعجب، كأنه قيل أحبط أعمالهم فما أخسرهم.

(٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ وهذا من الكائنات (أي: الحوادث) التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها، وقد ارتدَّ من العرب في أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج وكان رئيسهم ذا الحمار الأسود العنسي، تنبَّأ باليمن واستولى على بلاده ثم قتله فيروز الديلمي ليلة قُبِضَ رسول الله ﷺ من غدها، وأخبر الرسولُ ﷺ في تلك الليلة، فسُرَّ المسلمون، وأتى الخبر في أواخر ربيع الأول. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة، تنبَّأ وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله «ﷺ»، أما بعد: فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجاب: من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، فحاربه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بجند من المسلمين، وقتله وحشي قاتل حمزة. وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد، تنبَّأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالداً، فهرب بعد القتال إلى الشام، ثم أسلم وحسُن إسلامه. وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه سبعٌ: فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيري، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبِّئة زوجة مسيلمة، وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد، وكفى الله تعالى أمرهم على يده. وفي إمارة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: غسان قوم جبلة بن الأيهم، تنصَّر وسار إلى الشام ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فسوف يأتي الله تعالى بقوم مكانهم؛ ومحبة الله تعالى للعباد إرادةُ الهدى والتوفيقُ لهم في الدنيا، وحسنُ الثواب في الآخرة. ومحبةُ العباد له إرادةُ طاعته والتحرزُ عن معاصيه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ شِدادٍ متغلبين عليهم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ بمعنى أنهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله تعالى والتصلُّب في دينه ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ يمنحه ويوفِّق له ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ ٥٤﴾ بمن هو أهله.

(أقول: الارتداد نوعان:

الأول: الخروج من الدين والعياذ بالله تعالى.

والآخر: خروج من أخلاق الإسلام، وهذا شائع في زماننا. فكما أن الله تعالى ينهانا عن الارتداد ينهانا كذلك عن الخروج من الأخلاق الحميدة إلى الذميمة كالإسراف وعدم الغيرة، والكذب، والمخادعة، وعدم الخشوع في الصلاة، وعدم الاهتمام بالأمانات، وغير ذلك من المخالفات. كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أي: فليحذر الذين يخالفون أمر الرسول ﷺ ويتركون سبيله ومنهجه وسنته أن تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا، أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة. أيها المؤمن حاسب نفسك، وزن عملك بميزان القرآن، واحكم بعد ذلك، ثم قل الحق ولو على نفسك).

(٥٥) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لمّا نهى عن موالاة الكفرة ذَكَرَ عقيبه من هو حقيق بها، وإنما قال: ﴿وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ وَلم يقل: أولياؤكم؛ للتنبيه على أن الولاية لله سبحانه وتعالى على الأصالة، ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ متخشِّعون في صلاتهم وزكاتهم. وقيل هو حال مخصوصة بـ«يؤتون»، أي: يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصاً على الإحسان ومسارعة إليه (أقول: والإحسان كما جاء في الحديث الشريف: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [متفق عليه]). وإنها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمه. وإن صح أنه نزل فيه فلعله جيء بلفظ الجمع لترغيب الناس في مثل فعله فيندرجوا فيه.وعلى هذا يكون دليلاً على أن الفعل القليل في الصلاة لا يبطلها.

(٥٦) ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومن يتخذهم أولياء ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ كأنه قيل: ومن يتولَّ هؤلاء فهم حزب الله تعالى، وحزب الله هم الغالبون، وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعريضاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل الحزب: القومُ يجتمعون لأمرٍ حَزَبَهُم.

(٥٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلت في رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث، أظهرا الإِسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادُّونهما. وقد رتب النهيَ عن موالاتهم على اتخاذِهم دينَهم هزواً ولعباً، إيماءً إلى العلة، وتنبيهاً على أنَّ مَن هذا شأنه بعيد عن الموالاة جدير بالمعاداة والبغضاء. والنهي عن موالاة من ليس على الحق رأساً، سواء مَنْ كان ذا دين تبع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كأهل الكتاب، ومَنْ لم يكن كالمشركين ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك المناهي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ لأن الإيمان حقاً يقتضي ذلك. وقيل: إن كنتم مؤمنين بوعده ووعيده جلَّ وعلا.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

(٥٨) ﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ**﴾ أي: اتخذوا الصلاة أو المناداة. وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة. روي: أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: «أشهد أن محمداً رسول الله» قال: أَحْرَقَ الله الكاذب، فدخل خادمه ذات ليلة بنارٍ، وأهلُه نيام، فتطاير شررها في البيت، فأحرقه وأهله ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾**﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهزء به، والعقل يمنع منه.

(٥٩) ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ**﴾ هل تنكرون منا وتعيبون ﴿**إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ**﴾ أي: الإيمانَ بالكتب المنزّلة كلها ﴿**وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾**﴾ أي: ما تنكرون منا إلا مخالفتكم، حيث دخلنا في الإيمان وأنتم خارجون منه.

(٦٠) ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ**﴾ أي: من ذلك المنقوم (في قوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾) ﴿**مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ**﴾ جزاءً ثابتاً عند الله سبحانه وتعالى ﴿**مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ**﴾ وهم اليهود، أبعدهم الله تعالى من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، ومسخَ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت، وبعضهم خنازير وهم كفار أهل مائدة عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿**وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ**﴾ المراد مِنْ الطاغوت العجلُ، وقيل الكهنة، وقيل كل من أطاعوه في معصية الله تعالى ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ**﴾ أي: الملعونون ﴿**شَرٌّ مَّكَانًا**﴾ جعل مكانهم شراً ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم ﴿**وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾**﴾ قَصْدِ الطريق المتوسّط بين غلوّ النصارى وقدح اليهود.

(٦١) ﴿**وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا**﴾ نزلت في يهود نافقوا رسول الله ﷺ، أو في عامة المنافقين ﴿**وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ**﴾ أي: يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك ﴿**وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾**﴾ أي: من الكفر. وفيه وعيدٌ لهم.

(٦٢) ﴿**وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ**﴾ أي: من اليهود أو من المنافقين ﴿**يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ**﴾ أي: الحرام، وقيل: الكذب

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الظلم، أو مجاوزة الحد في المعاصي. وقيل: الإِثْمُ ما يختص بهم، والعدوانُ ما يتعدى إلى غيرهم ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي: الحرام، خصه بالذكر للمبالغة ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لبئس شيئاً عملوه.

(٦٣) ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ (أي: المدَّعون للتخلي من الدنيا إلى سبيل الربِّ جل وعلا) ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ (أي: العلماء) ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي: الحرام، هذا تحضيضٌ لعلمائهم على النهي عن ذلك ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أبلغُ من قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، من حيث أن الصنع عمل الإنسان بعد تدرُّب فيه وتروٍّ وتحري إجادةٍ، ولذلك ذمَّ به خواصهم، ولأن ترك الحِسبة (أي: ترك النهي) أقبحُ من مواقعة المعصية، لأن النفس تلتذُّ بها وتميل إليها، ولا كذلك ترك الإنكار عليها، فكان جديراً بأبلغ الذم.

(٦٤) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: هو مُمسك يقتِّر بالرزق ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ دعاءٌ عليهم بالبخل والنكد، أو بالفقر والمسكنة، أو بغلِّ الأيدي حقيقة، يُغلون أسارى في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (أقول: أي فضله وغناه جلَّ وعلا) ثَنَّى اليد مبالغةً في الردِّ ونفي البخل عنه تعالى، وإثباتاً لغاية الجود، فإن غاية ما يبذله السخيُّ من ماله أن يعطيه بيديه؛ وتنبيهاً على منح الدنيا والآخرة؛ وعلى ما يعطي للاستدراج، وما يعطي للإكرام ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: هو مختار في إنفاقه، يوسع تارة ويضيق أخرى، على حسب مشيئته ومقتضى حكمته، لا على تعاقب سعة وضيق في ذات يد ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: هم طاغون كافرون، ويزدادون طغياناً وكفراً بما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ وإثارة شرٍّ عليه ردَّهم الله سبحانه وتعالى، بأن أوقع بينهم منازعةً كفَّ بها عنه شرهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: للفساد. وهو اجتهادهم في الكيد وإثارة الحروب والفتن وهتك المحارم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فلا يجازيهم إلا شراً.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٥) ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟**﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به ﴿**وَٱتَّقَوْا۟**﴾ ما عددنا من معاصيهم ونحوه ﴿**لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ**﴾ التي فعلوها ولم نؤاخذهم بها ﴿**وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾**﴾ فيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يجبُّ ما قبله وإن جلَّ، وأن الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يُسلم.

(٦٦) ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ**﴾ بإذاعة ما فيهما من نعت محمد عليه الصلاة والسلام والقيام بأحكامهما ﴿**وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ يعني سائر الكتب المنزلة، فإنها من حيث إنهم مكلفون بالإيمان بها كالمنزل إليهم. أو القرآن ﴿**لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾ لوسَّع عليهم أرزاقهم، بأن يفيض عليهم بركات منَ السماء والأرض، أو يُكثر ثمرة الأشجار وغلة الزروع، أو يرزقهم الجنان اليانعة الثمار، فيجتنونها من رأس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض. بيَّن بذلك أن ما كفَّ عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا لقصور الفيض (الإلهي)، ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أُمروا به لوسَّع عليهم وجعل لهم خير الدارين ﴿**مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ**﴾ عادلة غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿**وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾**﴾ أي: بئس ما يعملونه. وفيه معنى التعجب. أي: ما أسوأ عملهم، وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه والإفراط في العداوة.

(٦٧) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ جميعَ ما أنزل إليك، غير مراقب أحداً ولا خائف مكروهاً ﴿**وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ**﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك ﴿**فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ**﴾ فما أديت شيئاً منها، لأن كتمان بعضها يضيِّع ما أُدِّي منها، كترك بعض أركان الصلاة، فإن غرض الدعوة ينتقض به ﴿**وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ عِدَةٌ وضمانٌ من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه ﷺ من تعرض الأعادي، وإزاحةٌ لمعاذيره ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾**﴾ لا يمكِّنهم مما يريدون بك. وعن أنس رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يُحرَس حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة أَدَمٍ (جلد)، فقال: «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله تعالى من

الناس» [رواه الترمذي رحمه الله تعالى]. وظاهر الآية يوجب تبليغ كل ما أُنزل، ولعل المراد به تبليغ ما يتعلق به مصالح العباد، وقَصَدَ بإنزاله إطلاعهم عليه، فإنَّ من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه.

(٦٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: دينٍ يُعتدُّ به ويصحُّ أن يسمى شيئاً، لأنه باطل ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ومن إقامتها الإيمانُ بمحمَّد ﷺ، والإذعان لحكمه؛ فإن الكتب الإلهية بأسرها آمرةٌ بالإيمان بمن صدَّقته المعجزة، ناطقةٌ بوجوب الطاعة له. والمراد إقامة أصولها وما لم يُنسخ من فروعها ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم، فإنَّ ضرر ذلك لاحقٌ بهم لا يتخطَّاهم، وفي المؤمنين مندوحةٌ لك عنهم.

(٦٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (بألسنتهم، يريد به المتديِّنين بدين محمد ﷺ، المخلصين منهم والمنافقين) ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ (أي: اليهود) ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ (قوم بين النصارى والمجوس) ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ (سمُّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها: ناصرة) ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدِّقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه. وقيل: من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في الإسلام دخولاً صادقاً) ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب).

ولما كان الصابئون مع ظهور ضلالهم وميلهم عن الأديان كلِّها يُتاب عليهم، إن صحَّ منهم الإيمان والعمل الصالح، كان غيرُهم أولى بذلك.

(٧٠) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ليذكِّروهم وليبيِّنوا لهم أمر دينهم ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاقِّ التكاليف ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

(٧١) ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: وحسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم ﴿فَعَمُواْ﴾ عن الدين أو الدلائل والهدى ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن استماع الحق، كما فعلوا حين عبدوا العجل ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: ثم تابوا فتاب الله تعالى عليهم ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ كرَّة أخرى ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ فيجازيهم على وفق أعمالهم.

(٧٢) ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ أي: إني عبدٌ مربوبٌ مثلكم، فاعبدوا خالقي وخالقكم ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أي: في عبادته، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يُمنع من دخولها، فإنها دار الموحِّدين ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ فإنها المُعدَّة للمشركين ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾﴾ أي: وما لهم أحد ينصرهم من النار.

(٧٣) ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ مستحِقٌّ للعبادة جل وعلا، موصوف بالوحدانية سبحانه وتعالى، متعالٍ عن قبول الشركة ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ولم يوحِّدوا ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ أي: ليمسنَّ الذين بقوا منهم على الكفر، أو ليمسَّنَّ الذين كفروا من النصارى. وفيه تنبيه على أنَّ العذاب على مَن دام على الكفر ولم ينقلع عنه، فلذلك عقَّبه بقوله:

(٧٤) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ﴾ أي: أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائغة، ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد (أقول: الاتحاد والحلول والتناسخ مُحالٌ في الدين) ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾﴾ يغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا.

(٧٥) ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: ما هو إلا رسول كالرسل قبله، خصَّه الله سبحانه وتعالى بالآيات كما خصَّهم بها، فإن إحياء الموتى على يده ميسور (بإرادة الله تعالى)؛ فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى عليه السلام، وهو أعجب؛ وإنَّ خلقه من غير أب فقد خلق آدم عليه السلام من غير أب وأم وهو أغرب ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق،

أو يصدِّقن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ ويفتقران إليه. بيَّن أولًا أقصى ما لهما من الكمال، ودلَّ على أنه لا يوجب لهما ألوهية، لأن كثيراً من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبَّه على نقصهما، وذَكَرَ ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكونا من عداد المركَّبات الكائنة الفاسدة، ثم عَجب لمن يدَّعي الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ كيف يُصرَفون عن استماع الحق وتأمُّله.

(٧٦) ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام. وهو وإن مَلَك ذلك بتمليك الله سبحانه وتعالى إياه لا يملكه من ذاته، ولا يملك مثل ما يضر الله تعالى به من البلايا والمصائب وما ينفع به من الصحة والسعة ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ بالأقوال والعقائد، فيجازي عليهما إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرٌّ.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٧) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: غلوّاً باطلاً فترفعوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلى أن تدَّعوا له الألوهية، أو تضعوه فتزعموا أنه لغير رشدة (أي: ولد زنى، نعوذ بالله تعالى) ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد ﷺ في شريعتهم ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام، بعد مبعثه ﷺ، لمَّا كذبوه وبغوا عليه.

(٧٨) ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: لعنهم الله تعالى في الزبور والإنجيل على لسانهما، وقيل: إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت لعنهم الله تعالى على لسان داود فمسخهم الله تعالى قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى عليه السلام ولعنهم فأصبحوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: ذلك اللعن الشنيع المقتضي للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حُرِّم عليهم.

(٧٩) ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة منكر فعلوه ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ تعجيبٌ من سوء فعلهم مؤكَّد بالقَسَم.

(٨٠) ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: لبئس شيئاً قدموه ليَردوا عليه يوم القيامة ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

(٨١) ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ يعني نبيهم. وإن كانت الآية في المنافقين فالمراد نبينا عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ إذ الإيمان يمنع ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ خارجون عن دينهم، أو متمردون في نفاقهم.

(٨٢) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ لشدة شكيمتهم (أي: بغضهم) وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى وركونهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرُّنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ لِلِين جانبهم ورقة قلوبهم وقلة حرصهم على الدنيا وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإِقبال على العلم والعمل والإِعراض عن الشهوات محمودة وإن كانت من كافر.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٣) ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ**﴾ وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأبِّيهم عنه ﴿**مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾ المعنى: أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم، فكيف إذا عرفوا كله؟ ﴿**يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا**﴾ بذلك أو بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿**فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾**﴾ من الذين شهدوا بأنه حق، أو بنبوته عليه الصلاة والسلام، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة. (أقول: هذا مهمٌّ في درجة الإيمان والإحسان، اللهم ألحقنا بهم رضي الله عنهم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين).

(٨٤) ﴿**وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾**﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي، وهو الطمع في الانخراط مع الصالحين والدخول في مداخلهم.

(٨٥) ﴿**فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا**﴾ أي: عن اعتقادٍ ﴿**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾**﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور (أقول: والإحسان كما قال رسول الله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى]).

(٨٦) ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾**﴾ عطَفَ التكذيب بآيات الله تعالى على الكفر وهو ضرب منه (أي: قسم منه)، لأن القصد إلى بيان حال المكذبين، وذَكَرَهم في معرض المصدِّقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب.

(٨٧) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ أي: ما طاب ولذَّ منه. كأنه لمَّا تضمَّن ما قبله مدحُ النصارى على ترهُّبهم، والحثُّ على كسر النفس ورفض الشهوات، عقَّبه النهيَ عن الإفراط في ذلك والاعتداء عما حدَّ الله سبحانه وتعالى بجعل الحلال حراماً، فقال: ﴿**وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾**﴾ ويجوز أن يراد به ولا تعتدوا حدود ما أَحلَّ الله تعالى لكم إلى ما حرَّم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أُحلَّ وتحليل ما حُرِّم، داعية إلى القصد بينهما.

(٨٨) ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ أي: كلوا ما حلَّ لكم وطاب مما رزقكم الله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾.

(أقول: إذا طلبت نفسك الشراب والطعام والراحة فأعطها بقدر ما تقوم به وتقوى على طاعة الله عز وجل، ولا تسترسل معها في كل مطلب، بل أعطها بمقدار ما سمح لك الشرع الشريف، وإلا تسقط من رتبة الإنسانية إلى رتبة البهيمية والعياذ بالله تعالى، لذا فالطعام مصيبة على المؤمن من جانب، وطاعة من جانب آخر، فإن كان يتقوى به على معصية الله تعالى فهو مصيبة في حقه، وإن كان يتقوى به على طاعة الله تعالى فهو طاعة، وإن كان يأكل بالأمر فإنه يأخذ منه بمقدار الكفاية بدون زيادة ولا نقصان بعد تحريه عن الحلال، وزهده بما في أيدي الناس، ولا بد للإنسان من أن يتفكر بأن ما كان له فسيصل إليه، وما كان لغيره فلن يصل إليه، فعليه ألا يذل نفسه لأحد من المخلوقات لأن الذي أوجده من العدم قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] أين العقول؟؟ لذا وجب علينا أن نتمسك بأذيال من يعرف الله تعالى، حتى يوصلنا إلى الله تعالى، ويوقفنا على هذا).

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ هو ما يبدو من المرء بلا قصد، كقول الرجل: لا والله، وبلى والله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ بما وثَّقتم الأيمان عليه بالقصد والنية. والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم، أو بنكث ما عقدتم ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ فكفارة نكثه، أي: الفعلة التي تُذهب إثمه وتستره ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ من أَقْصَدِه في النوع أو القَدْرِ؛ وهو مُدٌّ لكل مسكين عندنا، ونصف صاع عند الحنفية ﴿أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾ أو إعتاق إنسان ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ واحداً منها ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ﴾ فكفارته صيام ثلاثة أيام ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ وحنثتم ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ بأن تضنُّوا بها (أي: تبخلوا) ولا تبذلوها لكل أمر، أو بأن تبرّوا فيها ما استطعتم، أو بأن تكفِّروها إذا حنثتم؛ قال عليه الصلاة والسلام «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليكفِّر عن يمينه وليأتِ الذي هو خير» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أعلام شرائعه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩﴾ نعمة التعليم، أو نِعمه الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

(٩٠) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ**﴾ أي: الأصنام التي نصبت للعبادة ﴿**وَٱلۡأَزۡلَٰمُ**﴾ الأقداح ﴿**رِجۡسٞ**﴾ قذرٌ تعاف عنه العقول. كأنه قال: إنما تعاطي الخمر والميسر ﴿**مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ**﴾ لأنه مسبَّب عن تسويله وتزيينه ﴿**فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾**﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه. واعلم أنه سبحانه وتعالى أكَّد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية بأن صدَّر الجملة بـ﴿إِنَّمَا﴾، وقرنهما بالأنصاب والأزلام، وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان، تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شرٌّ بحت أو غالب، وأمر بالاجتناب عن عينهما، وجعله سبباً يرجى منه الفلاح، ثم قرَّر ذلك بأنْ بيَّن ما فيهما من المفاسد الدينية والدنيوية المقتضية للتحريم، فقال تعالى:

(٩١) ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ**﴾ وإنما خصَّهما بإعادة الذكر وشرَحَ ما فيهما من الوبال تنبيهاً على أنهما المقصود بالبيان، وذكَرَ الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة. وخَصَّ الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم، والإشعار بأن الصادَّ عنها كالصادِّ عن الإيمان، من حيث أنها عماده والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدَّم من أنواع الصوارف فقال تعالى: ﴿**فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾**﴾ إيذاناً بأن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت (أقول: بقي شيء آخر وهو خوف من الله تعالى، أو رحمة الله جلَّ وعلا بالتوبة).

(٩٢) ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ**﴾ فيما أمرا به ﴿**وَٱحۡذَرُواْۚ**﴾ ما نهيا عنه، أو مخالفتهما ﴿**فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾**﴾ أي: فاعلموا أنكم لم تضروا الرسول ﷺ بتوليكم، فإنما عليه البلاغ وقد أدى، وإنما ضررتم به أنفسكم.

(٩٣) ﴿**لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ**﴾ مما لم يحرَّم عليهم، لقوله: ﴿**إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾ أي: اتقوا المحرَّم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة ﴿**ثُمَّ ٱتَّقَواْ**﴾ ما حُرِّم عليهم بعدُ كالخمر ﴿**وَّءَامَنُواْ**﴾ بتحريمه ﴿**ثُمَّ ٱتَّقَواْ**﴾ ثم استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي ﴿**وَّأَحۡسَنُواْۚ**﴾ وتحرَّوا

الأعمال الجميلة واشتغلوا بها. (أقول: أو اتَّقوا الكفر ثم الكبائر ثم الصغائر). روي «أنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم: يا رسول الله! فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟» فنزلت. ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث، استعمال الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله تعالى، ولذلك بدَّل الإيمان بالإحسان في الكرَّة الثالثة إشارة إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث؛ المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يُتقى، فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب، والشبهات تحرزاً عن الوقوع في الحرام، وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ فلا يؤاخذهم بشيء. وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً، ومن صار محسناً صار لله تعالى محبوباً.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ نزلت في عام الحديبية، ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم مُحْرِمون ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ليتميز الخائف من عقابه وهو غائب منتظَر لقوة إيمانه، ممن لا يخافه لضعف قلبه وقلة إيمانه (أقول: وهو غائب عنا لا عن علمه جلَّ وعلا، لأن إيماننا كلَّه غيبي) ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الابتلاء بالصيد ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ فالوعيدُ لاحقٌ به، فإنَّ مَن لا يملك جأشه في مثل ذلك (أي: لا يضبط نفسه)، ولا يراعي حكم الله تعالى فيه، فكيف به فيما تكون النفس أميل إليه وأحرص عليه!

(٩٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: مُحْرِمون. وأراد بالصيد ما يؤكل لحمه، لأنه الغالب فيه عرفاً ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «خمس يُقتلنَ في الحلِّ والحرَم: الحِدَأة والغراب والعقرب والفأرة والكلب العقور» [الحديث أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى]. وفي رواية أخرى: «الحية» بدل «العقرب»، مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذٍ ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ ذاكراً لإحرامه، عالماً بأنه حرامٌ عليه قتلُ ما يقتلُه ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ بمعنى: فعليه جزاءٌ يماثل ما قَتل من النَّعم ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ ومعنى بلوغه الكعبة ذبحُه بالحرم والتصدق به ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ والمعنى عند الشافعي رضي الله تعالى عنه: أو أن يكفِّر بإطعام مساكين ما يساوي قيمة الهدي من غالب قوت البلد، فيعطي كل مسكين مُداً ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أو ما ساواه من الصوم، فيصوم عن طعام كل مسكين يوماً ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: فعليه الجزاء أو الطعام أو الصوم، ليذوق ثقل فعله وسوء عاقبة هتكه لحرمة الإِحرام، أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله تعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من قتل الصيد مُحرماً في الجاهلية أو قبل التحريم أو في هذه المرة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى مثل هذا ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ ممن أصرَّ على عصيانه.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

(٩٦) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ ما صِيدَ منه مما لا يعيش إلا في الماء، وهو حلال كله، لقوله عليه الصلاة والسلام في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما قذفه أو نضب عنه (انحسر عنه ماء البحر) ﴿مَتَـٰعًا لَّكُمْ﴾ تمتيعاً لكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ولسيارتكم (أي: للمسافرين) يتزودونه قديداً ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ أي: الصيدُ فيه، قال عليه الصلاة والسلام: «لحم الصيد حلال لكم، ما لم تصطادوه أو يُصَدْ لكم» [أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: مُحْرِمين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

(٩٧) ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ انتعاشاً لهم، أي: سببَ انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجَّه إليه الحجاج والعمار، أو ما يقوم به أمر دينهم ودنياهم ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ المراد بالشهرِ الشهرُ الذي يؤدى فيه الحج، وهو ذو الحجة ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ (ما أُهدي إلى الكعبة) ﴿وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ (أي: ذوات القلائد من الهدي، والقلائد جمع قلادة، وهي ما قُلِّد به الهدي، ليُعلَم به أنه هديٌ فلا يُتعرَّض له) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الجعل، أو إلى ما ذكر من الأمر بحفظ حرمة الإِحرام وغيره ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنَّ شَرْعَ الأحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها دليلٌ على حكمة الشارع وكمال علمه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق.

(٩٨) ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ وعيدٌ ووعدٌ لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصرَّ عليه (أي: على انتهاك المحارم) ولمن أقلع عنه.

(٩٩) ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ أي: الرسول ﷺ أتى بما أُمر به من التبليغ، ولم يبقَ لكم عذر في التفريط ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ من تصديقٍ وتكذيبٍ وفعلٍ وعزيمةٍ.

(١٠٠) ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ حكمٌ عام في نفي المساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الرديء

من الأشخاص والأعمال والأموال وجيِّدها. رغَّب به في مصالح العمل وحلال المال ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير. والخطابُ لكل معتبِر، ولذلك قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: فاتقوه في تحري الخبيث وإن كثر، وآثروا الطيب وإن قلَّ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ راجين أن تبلغوا الفلاح. روي أنها نزلت في حُجَّاج اليمامة، لما هَمَّ المسلمون أن يوقعوا بهم، فنُهوا عنه وإن كانوا مشركين.

(١٠١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ المعنى: لا تسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء إن تظهر لكم تغمّكم، وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: عن أشياء عفا الله تعالى عنها ولم يكلِّف بها. إذ روي أنه لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] قال سراقة بن مالك: أكلَّ عام؟ فأعرضَ عنه رسول الله ﷺ، حتى أعاد ثلاثاً فقال: «لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم، فاتركوني ما تركتكم» فنزلت [الحديث رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم، ويعفو عن كثير.

(١٠٢) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: بسببها، حيث لم يأتمروا بما سألوا جحوداً.

(١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه أهل الجاهلية وهو أنهم إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي: شقوها وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شُفيتُ فناقتي سائبة ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدتهما قالوا: وصلت الأنثى أخاها فلا يذبح لها الذكر، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى وقالوا: قد حمى ظهره ﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بتحريم ذلك ونسبته إلى الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: الحلالَ من الحرام، والمبيحَ من المحرِّم، أو الآمر من الناهي، ولكنهم يقلدون كبارهم. وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ولكن يمنعهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٤) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ بيانٌ لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد وأنْ لا سند لهم سواه ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** ﴿١٠٤﴾﴾ أي: أَحَسْبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين؟ والمعنى: أن الاقتداء إنما يصحُّ بمن عُلم أنه عالم مهتدٍ، وذلك لا يُعرف إلا بالحجة، فلا يكفي التقليد.

(١٠٥) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾ أي: احفظوها والزموا إصلاحها ﴿**لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ لا يضركم الضُّلَّال إذا كنتم مهتدين. ومن الاهتداء أن ينكر المنكرَ حسب طاقته، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من رأى منكم منكراً واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴿١٠٥﴾﴾ وعدٌ ووعيدٌ للفريقين، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخَذ بذنب غيره. (أقول: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يُترك إلا عند العجز، لأنه عبادة، والمحتسب يحس بفائدته كما يحس وينتفع بالعبادة الجسمانية. وهذه الفائدة تحصل بحسب الإخلاص والتوجه والشفقة على الأمة. فعلى المحتسب أن يراعي الأحكام الشرعية، وأن يُخرج نفسه من البين، حتى يتم أمر الإخلاص، وينال التبليغ وثوابه).

(١٠٦) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ**﴾ المراد بالشهادة الإشهاد في الوصية ﴿**إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**﴾ إذا شارفه وظهرت أماراته ﴿**حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ**﴾ أي: من أقاربكم أو من المسلمين ﴿**أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾ أي: سافرتم فيها ﴿**فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ**﴾ أي: قاربتم الأجل (أقول: الموت ليس مصيبة لكل أحد، بل هو مصيبة لمن لم يكن على الاستقامة الشرعية والسنة النبوية، وإلا فالموت جسر وصول إلى الآخرة وإلى الله جل وعلا) ﴿**تَحْبِسُونَهُمَا**﴾ تقفونهما وتصبِّرونهما ﴿**مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ**﴾ صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار. وقيل أيّ صلاة كانت ﴿**فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ**﴾ إن ارتاب الوارث منكم ﴿**لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا**﴾ المعنى: لا نستبدل بالقسَم أو بالله

عَرضاً من الدنيا، أي: لا نحلف بالله تعالى كاذبين لطمعٍ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقسَم له قريباً منا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: إن كتمنا.

(١٠٧) ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ فإن اطُّلع ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي: فَعَلا ما أوجب إثماً، كتحريفٍ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ من الذين جنى عليهم، وهم الورثة ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ الأحقان بالشهادة لقرابتها ومعرفتها ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أصدق منها وأولى بأن تُقبل ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ وما تجاوزنا فيها الحق ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ الواضعين الباطل موضع الحق، أو الظالمين أنفسهم إن اعتدينا. روي أن تميماً الداري وعدي بن بداء خرجا إلى الشام للتجارة، وكانا حينئذ نصرانيَّين، ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه، وكان مسلماً، فلما قدموا الشام مرض بديل فدوَّن ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما به، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات، ففتشاه وأخذا منه إناء من فضة فيه ثلاث مئة مثقال منقوشاً بالذهب فغيَّباه، فأصاب أهلُه الصحيفة، فطالبوهما بالإناء فجحدا، فترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى مختصراً].

فحلَّفهما رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر عند المنبر وخلى سبيلهما، ثم وُجد الإناء في أيديهما، فأتاهما بنو سهم في ذلك، فقالا: قد اشتريناه منه، ولكن لم يكن لنا عليه بيِّنة فكرهنا أن نُقِرَّ به، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزلت ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾، فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي رفاعة السهميان فحلفا واستحقاه.

(١٠٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحكم الذي تقدَّم، أو تحليف الشاهد ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أن ترَدَّ اليمين على المدعين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما توصَوْن به سمعَ إجابةٍ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوماً فاسقين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يهديهم إلى حُجة أو إلى طريق الجنة.

(أقول: موضوع الشهادة ذيل طويل، ذكره العلماء رحمهم الله تعالى في كتب الفقه، والمهم لنا الصدق في القول والفعل في المعاملات أينما نكون، وهو من مقتضى الإيمان الذي وعدنا ربنا تبارك وتعالى عليه وعداً منجزاً فقال: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢] أي: ويبشر المصدِّقين بالقرآن الذين يعملون بالأحكام وبمقتضى الإيمان أن لهم جنة، أياً من كان، في أي زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] في القول والفعل. عصمنا الله تعالى وإياكم من مخالفة أمره، ونسأله أن لا يجعلنا ممن أضاع أنفاس عمره، إنه هو الموفق والمرشد والوهاب).

۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

(١٠٩) ﴿**يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ**﴾ أي: لا علم لنا بما كنت تعلمه ﴿**إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾**﴾ فتعلم ما نعلمه مما أجابونا وأظهروا لنا، وما لا نعلم مما أضمروا في قلوبهم. وفيه التشكي منهم وردُّ الأمر إلى علمه بما كابدوا منهم. وقيل: المعنى لا علم لنا إلى جنب علمك، أو لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة.

(١١٠) ﴿**إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ**﴾ المعنى: أنه سبحانه وتعالى يوبِّخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم وتعديد ما أظهر عليهم من الآيات، فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة، وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة ﴿**إِذۡ أَيَّدتُّكَ**﴾ قوَّيتك ﴿**بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ**﴾ بجبريل عليه السلام ﴿**تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ**﴾ تكلمهم في الطفولة والكهولة على سواء ﴿**وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي**﴾ (أي: تقدِّ وتصوِّر شيئاً مثل صورة الطير) ﴿**فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ**﴾ (فتصير حياً طياراً بأمر الله تعالى؛ نبَّه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه) ﴿**وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ**﴾ (الأكمه الذي ولد أعمى أو الممسوح العين) ﴿**وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ**﴾ (كرَّر ﴿بِإِذۡنِي﴾ دفعاً لتوهُّم الألوهيَّة، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية) ﴿**وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ**﴾ يعني اليهود حين هموا بقتله ﴿**إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾**﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين.

(١١١) ﴿**وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ**﴾ (أي: ألهمت) أو: أمرتهم على ألسنة رسلي ﴿**أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾**﴾ مخلصون.

(١١٢) ﴿**إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ**﴾ من أمثال هذا السؤال ﴿**إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾**﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي، أو صدقتم في ادعائكم الإيمان.

(١١٣) ﴿**قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا**﴾ بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال بكمال قدرته سبحانه وتعالى ﴿**وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا**﴾ في ادِّعاء النبوة، أو أن الله تعالى يجيب دعوتنا ﴿**وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾**﴾ إذا استشهدتنا، أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

(١١٤) ﴿**قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ**﴾ لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، أو أنهم لا يُقلعون عنه، فأراد إلزامهم الحجة بكمالها ﴿**ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا**﴾ أي: يكون يوم نزولها عيداً نعظمه ﴿**لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا**﴾ روي أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذه النصارى عيداً ﴿**وَءَايَةً مِّنكَ**﴾ دالةً على كمال قدرتك وصحة نبوتي ﴿**وَٱرْزُقْنَا**﴾ المائدة والشكر عليها ﴿**وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾**﴾ أي: خير من يرزق، لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

(١١٥) ﴿**قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**﴾ إجابة إلى سؤالكم ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾**﴾ أي: من عالمي زمانهم، أو العالمين مطلقاً. فإنهم مُسخوا قردة وخنازير، ولم يعذَّب بمثل ذلك غيرهم (أقول: كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: فكفروا بعد ذلك فمسخوا عن لوازم الإنسانية بالمرَّة، ورُدوا إلى مرتبة الحيوانية وأخبثها، و العياذ بالله من غضبه جل جلاله). روي: أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، ثم قام فتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس (أي: بلا قشر) ولا شوك، تسيل دسماً، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خلٌّ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله! أمِن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما، ولكن اخترعه الله سبحانه وتعالى بقدرته، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله تعالى ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله! لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى؟ فقال: يا سمكة احيي بإذن الله تعالى، فاضطربت، ثم قال لها عودي كما كنت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمُسخوا. وقيل: كانت تأتيهم أربعين يوماً غباً (يوماً تأتي ويوماً لا تأتي)، يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون، حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غَنيَ مدة عمره، ولا مريض إلا برئ ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس لذلك، فمسخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً (أقول: قيمة العبد عند الله تعالى بقدر موافقته لشرع الله تعالى ولسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، لا بقدر غناه).

وعن بعض الصوفية: المائدة هٰهنا عبارة عن حقائق المعارف، فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن، وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها، فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام: إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه، فسأل لأجل اقتراحهم، فبين الله سبحانه وتعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له، فيضل به ضلالاً بعيداً.

(أقول: هذا يدلُّ على أن من حصل له إلهامات ربانية، إذا نزلت على قلبه عليه أن لا يغترَّ بها، لأنها ليست ملكه، حينذاك يتملَّك ملك خالقه، وبهذا يحصل له العجب والكبر، فيتضرَّر به المنصف).

(١١٦) ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أنزِّهك تنزيهاً من أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك (أقول: ما في نفسك أي: ما في ذاتك) ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.

(١١٧) ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ﴾ أي: رقيباً عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه، أو مشاهداً لأحوالهم مِن كفرٍ وإيمانٍ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ بالرفع إلى السماء ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ المراقب لأحوالهم، فتمنع من أردت عصمته من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ مطلع عليه مراقب له.

(١١٨) ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ﴾ أي: إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه. وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادُك وقد عبدوا غيرك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ فلا عجزَ ولا استقباح، فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب، فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، فإن عذبتَ فعدلٌ وإن غفرتَ ففضلٌ. وعدم غفرانِ الشرك مُقتضى الوعيد.

(١١٩) ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾ (أراد بالصادقين النبيين، وقال الكلبي: ينفع المؤمنين إيمانهم [السراج المنير]) ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعته ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ بثوابه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ (وأمَّا الكاذبون في الدنيا فلا ينفعهم صدقهم في ذلك اليوم كالكفار لمّا يؤمنون عند رؤية العذاب [السراج المنير]) (أقول: يقول الله تعالى يومَ القيامة مشيراً إلى صدق عيسى عليه السلام: هذا اليوم يوم العدالة الإلهية).

(١٢٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ تنبيهٌ على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه،، وإنما لم يقل ومن فيهن تغليباً للعقلاء وقال وَما فِيهِنَّ اتباعاً لهم غير أولي العقل إعلاماً بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والنزول عن رتبة العبودية، وإهانة لهم وتنبيهاً على المجانسة المنافية للألوهية.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المائدة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سورة الأنعام ٦ ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام

مكيَّة غير ست آيات، أو ثلاث آيات، من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾، وهي مئة وخمس وستون آية

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أخبر بأنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد، ونبَّه على أنَّه المستحقُّ له على هذه النعم الجسام حُمد أو لم يُحمد، ليكون حجة على الذين هم بربِّهم يعدلون، وجمع السمٰوات دون الأرض ـ وهي مثلهنَّ ـ لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات، وقدَّمها لشرفها وعلوِّ مكانها وتقدُّم وجودها (قال الله تعالى في سورة الطلاق [١٢]: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾) ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أنشأهما. وجمع الظلمات لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة الضلالُ، وبالنورِ الهدى، والهدى واحد والضلال متعدد ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ المعنى: أن الله سبحانه وتعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمةً على العباد، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته. أو أنه سبحانه وتعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يَقدر على شيء منه، والمعنى أن الكفار يعدلون بربهم الأوثان أي: يسوّونها به سبحانه وتعالى.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي: ابتدأ خلقكم منه، فإنه المادة الأولى، وإن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أجل الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أجل القيامة (أقول: أي وقت القيامة. وقال الحسن: الأوّل: بين وقت الولادة إلى وقت الموت، والثاني: من وقت الموت إلى البعث) ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ استبعادٌ لامترائهم (أي: لشكّهم) بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن مَن قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدرَ على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المستحقُّ للعبادة فيهما لا غير ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ

﴿مَا تَكْسِبُونَ ٣﴾ من خير أو شر، فيثيب عليه ويعاقب. ولعله أريد بالسر والجهر ما يخفى وما يظهر من أحوال الأنفس، وبالمكتسَب أعمالَ الجوارح (أقول: النفس الأمارة تُعدِم صدق صاحبها، لأن هذه النفس الخبيثة من شؤونها ادعاء الربوبية، لكن صاحبها لا يعلم ذلك إلا بنور الوحي الإلهي، فيعرف ضعفه، ويعرف قدرة خالقه جل وعلا).

(٤) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٤﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه. (أقول: منهم معرِضون كفراً، ومنهم مؤمنون لكنهم غافلون).

(٥) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني بالقرآن ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٥﴾ أي: سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، أو عند ظهور الإسلام وارتفاع أمره.

(٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أهلِ زمانٍ، والقرن مدةُ أغلبِ أعمار الناس، وهي سبعون سنة ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً وقرَّرناهم فيها، أو أعطيناهم من القوى والآلات ما تمكَّنوا بها من أنواع التصرف فيها ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ما لم نجعل لكم من السعة وطول المقام يا أهل مكة، أو ما لم نعطكم من القوة والسعة في المال والاستظهار في العدد والأسباب ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم﴾ أي: المطر أو السحاب ﴿مِّدْرَارًا﴾ أي: مغزاراً ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لم يغنِ ذلك عنهم شيئاً ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ وأحدثنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ بدلاً منهم. والمعنى أنه سبحانه وتعالى كما قَدَرَ على أن يهلك مَنْ قبلكم كعاد وثمود وينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده يَقدِر أن يفعل ذلك بكم.

(٧) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ مكتوباً في ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فمسُّوه ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧﴾ تعنتاً وعناداً.

(٨) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هلَّا أنزل معه ملَك يُعْلمنا أنه نبي ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ المعنى: أن الملك لو أنزل بحيث عاينوه كما اقترحوا لَحَقَّ إهلاكهم، فإن سنة الله تعالى قد جرت بذلك فيمن قبلهم ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ بعد نزوله طرفة عين.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

(٩) ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾**﴾ المعنى: ولو جعلنا قريناً لك ملكاً يعاينونه أو الرسول ملكاً لمثَّلناه رجلاً كما مُثِّل جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، وإنما رآهم كذلك الأفرادُ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوتهم القدسية؛ ولو جعلناه رجلاً للبسنا أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم، فيقولون: مَا هذا إِلَّا بَشَرٌ مثلكم.

(١٠) ﴿**وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ**﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ عما يرى من قومه ﴿**فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾**﴾ فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به، حيث أُهلكوا لأجله، أو فنزل بهم وبال استهزائهم.

(١١) ﴿**قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾**﴾ كيف أهلكهم الله تعالى بعذاب الاستئصال كي تعتبروا. والفرق بينه وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ [النمل: ٦٩] أن السير ثَمَّةَ لأجل النظر، ولا كذلك هٰهنا. ولذلك قيل: معناه إباحة السير للتجارة وغيرها، وإيجاب النظر في آثار الهالكين.

(١٢) ﴿**قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ خلقاً وملكاً. وهو سؤال تبكيت ﴿**قُل لِّلَّهِ**﴾ تقريرٌ لهم وتنبيهٌ على أنه المتعيِّن للجواب بالاتفاق، بحيث لا يمكنهم أن يذكروا غيره ﴿**كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ**﴾ التزمها تفضُّلاً وإحساناً؛ والمراد بالرحمة ما يعمُّ الدارين، ومن ذلك الهدايةُ إلى معرفته، والعلمُ بتوحيده بنصب الأدلة، وإنزالُ الكتب، والإمهالُ على الكفر ﴿**لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ قَسَمٌ للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر. أي: ليجمعنَّكم في يوم القيامة، فيجازيكم على شرككم ﴿**لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾ في اليوم أو الجمع ﴿**ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ**﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم ﴿**فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾**﴾ أي: أن عدم إيمانهم مسبَّبٌ عن خسرانهم، فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان.

(١٣) ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: ما اشتملا عليه، أو من السكون ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل مسموع ﴿ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾ بكل معلوم، فلا يخفى عليه شيء. ويجوز أن يكون وعيداً للمشركين على أقوالهم وأفعالهم.

(١٤) ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ إنكارٌ لاتخاذ غير الله تعالى ولياً، لا لاتخاذ الوليِّ، والمراد بالولي المعبودُ. (أقول: هذا لمن يعبد الصنم ويتخذه ولياً، وليس المقصود به أولياء المسلمين) ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مبدعُهما ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ يَرزُق ولا يُرزَق. والمعنى: كيف أشركُ بمن هو فاطر السماوات والأرض ما هو نازل عن رتبة الحيوانية؟ (أقول: قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: وهو يُطعِم المحتاجين ولا يُطعَم، لتنزُّهه جل وعلا عن الأكل والشرب. خُصَّ سبحانه بعدم الاتصاف بهذه الصفة لأنها من أقوى أسباب الإمكان وأجلِّ أمارات الحدوث وأظهرها، والباقي متفرِّعٌ عليها) ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ لأن النبي ﷺ سابقٌ أمتَه في الدين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾.

(١٥) ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ مبالغةٌ أخرى في قطع أطماعهم، وتعريضٌ لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب (أقول: الخطاب لرسول الله ﷺ على سبيل الفَرَض، لكن رسول الله ﷺ معصوم، عصمته بالله جلَّ جلاله، والمراد هو تحذير الأمة من معصية الله جل وعلا، والله تعالى أعلم بمراده؛ وقد وردت هذه الآية في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم: هذه الآية، وفي سورة الزمر الآية ١٣، وفي سورة يونس الآية ١٥).

(١٦) ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: من يُصرف العذاب عنه ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ﴾ نجَّاه وأنعم عليه ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ أي: الصرف أو الرحمة.

(١٧) ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ ببليَّة، كمرض وفقر ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ فلا قادر على كشفه ﴿إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ بنعمة، كصحَّة وغنى ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ فكان قادراً على حفظه وإدامته، فلا يقدر غيره على دفعه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

(١٨) ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ تصويرٌ لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أمره وتدبيره ﴿ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ بالعباد وخفايا أحوالهم (أقول: فإذا اطَّلع الإنسان على أن الله جل وعلا مطلعٌ على خفاياه لا يجترئ أن يخالفه ظاهراً ولا باطناً، وبكثرة الذكر ينوَّر القلب ويزول عنه الحجاب وتظهر له هذه الحقيقة، وهذه حقيقة التصوف).

قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾

(١٩) ﴿**قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ**﴾ نزلت حين قالت قريش: يا محمد ﷺ! لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله ﴿**قُلِ ٱللَّهُۖ**﴾ أي: الله تعالى أكبر شهادة؛ ثم ابتدأ ﴿**شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ**﴾ أي: هو شهيد بيني وبينكم. ويجوز أن يكون ﴿ٱللَّهُ شَهِيدُۢ﴾ هو الجواب، لأنه سبحانه وتعالى إذا كان الشهيد كان أكبر شيء شهادة ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ**﴾ أي: بالقرآن، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة (أقول: قال ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، ولم يقل: لأبشركم، لأن البشارة تكون للمؤمنين، والخطابُ هنا للمشركين) ﴿**وَمَنۢ بَلَغَۚ**﴾ أي: لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين (أي: الجن والإنس)، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن بلغه إلى يوم القيامة. وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومَنْ بعدهم، وأنه لا يؤاخَذ بها من لم تبلغه (أقول: من لم يبلغه القرآن بنهيه وأمره ليس مسؤولًا، لكن لا بد أن يتفكَّر بعقله ويرجع إلى الله تعالى) ﴿**أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ**﴾ تقريرٌ لهم مع إنكار واستبعاد ﴿**قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ**﴾ بما تشهدون ﴿**قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ**﴾ أي: بل أشهد أن لا إله إلا هو ﴿**وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾**﴾ يعني الأصنام.

(٢٠) ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ**﴾ يعرفون رسول الله ﷺ بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل ﴿**كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ**﴾ بحُلاهم (أي: بأوصافهم). ﴿**ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ**﴾ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴿**فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾**﴾ لتضييعهم ما به يُكتسب الإيمان.

(٢١) ﴿**وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا**﴾ كقولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿**أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ**﴾ كأن كذبوا بالقرآن والمعجزات وسموها سحراً ﴿**إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾**﴾ فضلاً عمن لا أحد أظلم منه.

(٢٢) ﴿**وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ**﴾ أي: آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله تعالى ﴿**ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾**﴾ أي: تزعمونهم شركاء.

(٢٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: كفرهم، والمراد عاقبته. وقيل: معذرتهم التي يتوهمون أن يتخلصوا بها ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ يكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفعهم، من فرط الحيرة والدهشة.

(٢٤) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بنفي الشرك عنها ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ من الشركاء.

(٢٥) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرآن. والمراد أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم. اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول؟ فقال: والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأراه حقاً، فقال أبو جهل: كلا. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهةَ أن يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (أي: صَمَماً) يمنع من استماعه ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي: بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم جاءوك يجادلونك ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فإنَّ جَعْلَ أصدقِ الحديث خرافات الأولين غايةُ التكذيب.

(٢٦) ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن القرآن، أو عن الرسول ﷺ والإيمان به ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ بأنفسهم (أي: يبعدون عنه)، أو ينهون عن التعرُّض لرسول الله ﷺ وينأون عنه، فلا يؤمنون به ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ وما يهلكون بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أنَّ ضرره لا يتعدَّاهم إلى غيرهم.

(٢٧) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: ولو تراهم حين يُوقَفون على النار حتى يُعاينوها، أو يطلعون عليها، أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها، لرأيت أمراً شنيعاً ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ تمنِّياً للرجوع إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

(٢٨) ﴿**بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ**﴾ المعنى: أنه ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم أو قبائح أعمالهم، فتمنَّوا ذلك ضجراً لا عزماً على أنهم لو رُدُّوا لآمنوا ﴿**وَلَوْ رُدُّوا۟**﴾ أي: إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور ﴿**لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ**﴾ من الكفر والمعاصي ﴿**وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾**﴾ فيما وعدوا به من أنفسهم.

(٢٩) ﴿**وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ**﴾ (أي: ما الحياة) ﴿**إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾**﴾ (أي: ليس هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا عودة إلى الحياة بعد الموت [المقتطف من عيون التفاسير]).

(٣٠) ﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ**﴾ مجازٌ عن الحبس للسؤال والتوبيخ. وقيل معناه: وُقفوا على قضاء ربهم أو جزائه، أو عرفوه حق التعريف ﴿**قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا**﴾ إقرارٌ مؤكد باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء ﴿**قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾**﴾ أي: بسبب كفركم.

(٣١) ﴿**قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ**﴾ إذ فاتهم النعيم واستوجبوا العذاب المقيم؛ ولقاءُ الله تعالى البعثُ وما يتبعه ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً**﴾ فجأة ﴿**قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا**﴾ أي: تعالي فهذا أوانك ﴿**عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا**﴾ قصّرنا ﴿**فِيهَا**﴾ في الحياة الدنيا، أو في الساعة، يعني في شأنها والإيمان بها ﴿**وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ**﴾ تمثيلٌ لاستحقاقهم آصار الآثام ﴿**أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾**﴾ بئس شيئاً يزرونه وزرهم.

(٣٢) ﴿**وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**﴾ أي: وما أعمالها إلا لعب ولهو يلهي الناس ويشغلهم عما يعقبه منفعةٌ دائمةٌ ولذة حقيقية ﴿**وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾ لدوامها وخلوص منافعها ولذاتها. وقوله: لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ تنبيهٌ على أن ما ليس من أعمال المتقين لعب ولهو. (أقول: لا بد للمؤمن أن يقيس أعماله، هل هي من أعمال المتقين أم لا؟ وإذا لم تكن منها عليه أن يتوب) ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾**﴾ أيَّ الأمرين خير.

(٣٣) ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ**﴾ في الحقيقة ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ ولكنهم يجحدون بآيات الله تعالى ويكذبونها. روي أن أبا جهل كان يقول: ما نكذبك، وإنك عندنا لصادق، وإنما نكذب ما جئتنا به. فنزلت.

(٣٤) ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ. وفيه دليل على أن قوله: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ ليس لنفي تكذيبه مطلقاً ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ أي: صبروا على تكذيبهم وإيذائهم، فتأسَّ بهم واصبر ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ فيه إيماء بوعد النصر للصابرين ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ لمواعيده ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ أي: بعض قصصهم وما كابدوا من قومهم.

(٣٥) ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ﴾ عظُمَ وشقَّ ﴿إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ عنك وعن الإيمان بما جئت به ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ﴾ مَنفذاً تنفذ فيه إلى جوف الأرض فتُطلع لهم آية، أو مصعداً تصعد به إلى السماء فتُنزل منها آية. والمقصود بيان حرصه ﷺ البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ أي: ولو شاء الله تعالى جَمْعهم عَلَى الهدى لوفَّقهم للإيمان حتى يؤمنوا، ولكن لم تتعلَّق به مشيئته (أقول: لم تتعلق مشيئة الله تعالى بتوفيقهم لأنهم لا يطلبون) ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ بالحرص على ما لا يكون، والجزع في مواطن الصبر، فإن ذلك من دأب الجهلة (أقول: وهذا ولو كان ظاهراً للرسول عليه الصلاة والسلام، لكن المقصود به أمته، أو هو تأديب من الله تعالى لرسوله ﷺ؛ وأمثالُ هذا في القرآن كثير).

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(٣٦) ﴿**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ**﴾ إنما يجيب الذين يسمعون بفهمٍ وتأمُّل، وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون ﴿**وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ**﴾ فيعلمهم حين لا ينفعهم الإيمان ﴿**ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾**﴾ للجزاء.

(٣٧) ﴿**وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ**﴾ أي: آية مما اقترحوه، أو آية أخرى سوى ما أنزل من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عناداً ﴿**قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً**﴾ مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل (أي: زعزعته)، أو آية إن جحدوها هلكوا ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾**﴾ أنَّ الله تعالى قادر على إنزالها، وأن إنزالها يستجلب عليهم البلاء، وأن لهم فيما أُنزل مندوحة عن غيره.

(٣٨) ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ تدبُّ على وجهها ﴿**وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ محفوظةٌ أحوالها مقدَّرةٌ أرزاقها وآجالها. والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره جل وعلا، ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ**﴾ يعني اللوح المحفوظ (أقول: أو علم الله تعالى الحضوري، أو في كتاب مبين هو القرآن الكريم. كلُّ هذا يدلُّ على علم الله جلَّ وعلا كما قال أولياؤنا). فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من جليلٍ ودقيقٍ، لم يهمل فيه أمر حيوان ولا جماد. أو القرآن، فإنه قد دُوِّن فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين، مفصلاً أو مجملاً ﴿**ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾**﴾ يعني الأمم كلها، فينصف بعضها من بعض، كما روي: أنه يأخذ للجمَّاء من القرناء. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حشرُها موتُها.

(٣٩) ﴿**وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ**﴾ لا يسمعون مثل هذه الآيات الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظم قدرته سماعاً تتأثر به نفوسهم ﴿**وَبُكْمٌ**﴾ لا ينطقون بالحق ﴿**فِى ٱلظُّلُمَٰتِ**﴾ أي: خابطون (متحيرون) في ظلمات الكفر، أو في ظلمة الجهل وظلمة العناد وظلمة التقليد ﴿**مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ**﴾ من يشأ الله تعالى إضلاله يضلله ﴿**وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾**﴾ بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه.

(٤٠) ﴿**قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ**﴾ استفهام وتعجيب ﴿**إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ**﴾ كما أتى مَنْ قبلكم ﴿**أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ**﴾

وهَوْلُها ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ وهو تبكيت لهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠﴾ أنَّ الأصنام آلهة!

(٤١) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصُّونه بالدعاء ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفه ﴿إِن شَآءَ﴾ أي: يتفضَّل عليكم، ولا يشاء في الآخرة ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١﴾ وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت، لما ركز في العقول من أنه القادر على كشف الضر دون غيره، أو وتنسونه من شدَّة الأمر وهوله.

(٤٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أي: فكفروا وكذبوا المرسلين فأخذناهم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالشدة والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الضر والآفات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢﴾ يتذلَّلون لنا ويتوبون عن ذنوبهم.

(٤٣) ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ معناه نفيُ تضرعهم في ذلك الوقت، مع قيام ما يدعوهم، أي: لم يتضرعوا ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ استدراكٌ على المعنى، وبيانٌ للصارف لهم عن التضرُّع، وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

(٤٤) ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أنواع النعم، مراوَحة عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، وامتحاناً لهم بالشدَّة والرخاء، إلزاماً للحجة وإزاحة للعلة، أو مكراً بهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾ أُعجبوا ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من النعم، ولم يزيدوا غير البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقِّه سبحانه وتعالى ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾ متحسِّرون آيسون.

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

(٤٥) ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ أي: آخرُهم، بحيث لم يبق منهم أحد ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ على إهلاكهم، فإن هلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمةٌ جليلة يحق أن يُحمد عليها.

(٤٦) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أصمكم وأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ بأن يغطي عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾ أي: بذلك، أو بما أخذ وختم عليه، أو بأحد هذه المذكورات ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نكرِّرها تارة من جهة المقدمات العقلية، وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يُعرِضون عنها.

(٤٧) ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ من غير مقدمة ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بتقدمة أمارة تُؤذن بحلوله ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ أي: ما يُهلَك به هلاكَ سخطٍ وتعذيب ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

(٤٨) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ المؤمنين بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَۖ﴾ الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليُقترَح عليهم ويُتلهَّى بهم (أقول: هذا كف في فم الأحمق) ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ ما يجب إصلاحه على ما شُرِع لهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ بفوات الثواب.

(٤٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جعَلَ العذاب ماسّاً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

(٥٠) ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ مقدوراته أو خزائن رزقه ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ ما لم يوحَ إليَّ ولم يُنصب عليه دليل ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ تبرَّأ عن دعوى الألوهية والملَكية، وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر، رداً لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مدعاه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ﴾ مثلٌ للضال والمهتدي، أو الجاهل والعالم، أو مدعي المستحيل كالألوهية والملكية ومدعي

المستقيم كالنبوة ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فتهتدوا أو فتميِّزوا بين ادعاء الحق والباطل، أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه (أي: لا خلاص عنه).

(٥١) ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المؤمنون المفرِّطون في العمل، أو المجوِّزون للحشر، مؤمناً كان أو كافراً، مقرّاً به أو متردداً فيه، فإن الإنذار ينجع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ لكي يتقوا.

(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بعد ما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا، أَمَرَهُ بإكرام المتقين وتقريبهم وأن لا يطردهم ترضيةً لقريش. روي أنهم قالوا: لو طردت هؤلاء الأعبُد - يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وسلمان رضي الله تعالى عنهم - جلسنا إليك وحادثناك فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين»، قالوا: فأقِمهم عنا إذا جئناك، قال: «نعم» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. والمرادُ بذكر الغداة والعشي الدوامُ، وقيل: صلاتا الصبح والعصر ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يدعون ربهم مخلصين فيه. قيَّد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه مَلاك الأمر، ورتَّب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم وينافي إبعادهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ليس عليك حساب إيمانهم، فلعل إيمانهم عند الله تعالى أعظم من إيمان من تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا. أو ليس عليك اعتبار بواطنهم وإخلاصهم لما اتسموا بسيرة المتقين، وإن كان لهم باطن غير مرضي كما ذكره المشركون وطعنوا في دينهم فحسابهم عليهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم. وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: لا تؤاخَذ بحسابهم ولا هم بحسابك حتى يهمك إيمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعاً فيه ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ فتبعدهم ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

(٥٣) ﴿**وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ**﴾ ومثل ذلك الفتن، وهو اختلاف أحوال الناس في أمور الدنيا ﴿فَتَنَّا﴾ أي: ابتلينا ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ في أمر الدين، فقدَّمنا هؤلاء الضعفاء على أشراف قريش بالسبق إلى الإيمان ﴿**لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ**﴾ أي: أهؤلاء مَنْ أنعم الله تعالى عليهم بالهداية والتوفيق لما يسعدهم دوننا، ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء. وهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير ﴿**أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾**﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه، وبمن لا يقع منه فيخذله.

(٥٤) ﴿**وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ**﴾ الذين يؤمنون هم الذين يَدْعون ربهم، وَصَفهم بالإيمان بالقرآن واتباع الحجج بعد ما وَصَفهم بالمواظبة على العبادة، وأمَرَه بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم، ويبشرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله، بعد النهي عن طردهم، إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يقرَّب ولا يُطرد، ويُعز ولا يُذل، ويبشَّر من الله تعالى بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة. وقيل: إنَّ قوماً جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظاماً فلم يردَّ عليهم شيئاً، فانصرفوا فنزلت ﴿**أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ**﴾ أي: من عمل ذنباً جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد ﴿**ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ**﴾ بالتدارك والعزم على أن لا يعود إليه ﴿**فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾**﴾.

(٥٥) ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ**﴾ أي: آيات القرآن في صفة المطيعين والمجرمين المصرِّين منهم والأوَّابين (أي: الراجعين) ﴿**وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾**﴾ ولتستوضح يا محمد ﷺ سبيلهم، فتعامل كلًّا منهم بما يحق له.

(٥٦) ﴿**قُلْ إِنِّي نُهِيتُ**﴾ صُرِفت وزُجِرت بما نُصب لي من الأدلة وأُنزل عليَّ من الآيات في أمر التوحيد ﴿**أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ**﴾ عن عبادة ما تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله تعالى، أو ما تدعونها آلهة ﴿**قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ**﴾ تأكيدٌ لقطع أطماعهم، وإشارةٌ إلى الموجب للنهي (عن إبعاد هؤلاء الفقراء، حتى يأتوا هم) وعلةٌ

للامتناع عن متابعتهم، واستجهالٌ لهم، وبيانٌ لمبدأ ضلالهم، وأن ما هم عليه هوى وليس بهدى، وتنبيهٌ لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: وما أنا في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم، وفيه تعريض بأنهم كذلك.

(٥٧) ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ البينة الدلالة الواضحة التي تفصل الحق من الباطل، وقيل: المراد بها القرآن والوحي، أو الحجج العقلية، أو ما يعمها ﴿مِّن رَّبِّى﴾ من معرفته، وأنه لا معبود سواه ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ (بالله جل وعلا) أي: كذبتم به حيث أشركتم به غيره ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تعجيل العذاب وتأخيره ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: القضاء الحق، أو يصنع الحقَّ ويدبِّره ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ القاضين.

(٥٨) ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ أي: في قدرتي ومكنتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي، وانقطع ما بيني وبينكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ في معنى الاستدراك، كأنه قال: ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يمهل منهم.

(٥٩) ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه، أو ما يتوصل به إلى المغيبات. والمعنى أنه المتوصِّل إلى المغيبات المحيط علمه بها ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها وتأخيرها من الحِكَم، فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلَّقت به مشيئته. وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغةٌ في إحاطة علمه بالجزئيات ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (أقول: أي في اللوح المحفوظ، أو في علمه الحضوري تعالى وتقدَّس، قال أولياؤنا رحمهم الله تعالى: الكتاب المبين في القرآن علم الله تعالى).

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

(٦٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ يُنيمكم فيه ويراقبكم. استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز، فإن أصله قبض الشيء بتمامه ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه. خصَّ الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ﴾ أي: يوقظكم ﴿فِيهِ﴾ في النهار ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ بالموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ بالمجازاة عليه. وقيل: الآية خطاب للكفرة، والمعنى أنكم ملقَوْن كالجيف بالليل، وكاسبون للآثام بالنهار، وأنه سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم، يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم، ثم إليه مرجعكم بالحساب ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بالجزاء.

(٦١) ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ ملائكةً تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون. والحكمةُ فيه أن المكلَّف إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان أزجر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ بالتواني والتأخير. والمعنى: لا يجاوزون ما حُدَّ لهم بزيادة أو نقصان.

(٦٢) ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى حكمِه وجزائه ﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾ الذي يتولى أمرهم ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ يومئذ لا حكم لغيره فيه ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة، لا يشغله حساب عن حساب (أقول: لا بدَّ للعبد أن لا يقيس علم ربِّه جلَّ وعلا على نفسه. سئل سيدنا علي رضي الله عنه: كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم على كثرتهم).

(٦٣) ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ من شدائدهما ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ معلِنين ومسِرِّين ﴿لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ (الظلمات) ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ (لله تعالى).

(٦٤) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ غمٍّ سواها ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد.

(٦٥) ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقارون ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم ﴿شِيَعًا﴾ فِرَقاً متحزبين على أهواء شتى ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يقاتل بعضكم بعضاً ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (أقول: أي يعلمون أنَّ ما هم عليه باطل).

(٦٦) ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ أي: بالعذاب، أو بالقرآن ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواقع لا محالة، أو الصدق ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ بحفيظ وُكل إليَّ أمركم فأمنعكم من التكذيب أو أجازيكم، إنما أنا منذر والله تعالى الحفيظ.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ خبرٍ، يريد به إما بالعذاب أو الإيعاد به ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ وقتُ استقرارٍ ووقوع ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ عند وقوعه في الدنيا أو الآخرة.

(٦٨) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تجالسهم وقُمْ عنهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ بعد أن تذكره ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ دلالةٌ على أنهم ظَلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام.

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿**وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾ وما يلزم المتقين من قبائح أعمال وأقوال الذين يجالسونهم ﴿**مِّنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ**﴾ شيء مما يحاسبون عليه ﴿**وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ**﴾ ولكن عليهم أن يذكِّروهم ذكرى ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويُظهروا كراهتها ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾**﴾ يجتنبون ذلك حياء أو كراهة لمساءتهم.

(٧٠) ﴿**وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا**﴾ أي: بَنَوا أمر دينهم على التشهي، وتدينوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً، كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذي كُلِّفوه لعباً ولهواً حيث سخروا به، أو جعلوا عيدهم الذي جُعل ميقات عبادتهم زمانَ لهو ولعب. والمعنى: أعرضْ عنهم ولا تبالِ بأفعالهم وأقوالهم ﴿**وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا**﴾ حتى أنكروا البعث ﴿**وَذَكِّرْ بِهِۦٓ**﴾ أي: بالقرآن ﴿**أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ مخافة أن تُسْلَم إلى الهلاك وتُرهَن بسوء عملها. والبسلُ: المنع. ﴿**لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**﴾ يدفع عنها العذاب ﴿**وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ**﴾ وإن تفْدِ كل فداء ﴿**لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟**﴾ أي: أُسْلموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة ﴿**لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾**﴾ المعنى: هم بين ماءٍ مغلي يتجرجر في بطونهم ونارٍ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم.

(٧١) ﴿**قُلْ أَنَدْعُوا۟**﴾ أنعبد ﴿**مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا**﴾ ما لا يقدر على نفعنا وضرنا ﴿**وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا**﴾ ونرجع إلى الشرك ﴿**بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ**﴾ فأنقذنا منه (قبل أن ندخل فيه) ورزقنا الإسلام ﴿**كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ**﴾ كالذي ذهبت به مردة الجن إلى المَهامِهِ (جمع مَهْمَه، وهو: المفازة البعيدة) ﴿**فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ**﴾ متحيراً ضالاً عن الطريق ﴿**لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى**﴾ أي: يهدونه إلى الطريق المستقيم ﴿**ٱئْتِنَا**﴾ يقولون له: ائتنا ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ**﴾ الذي هو الإسلام ﴿**هُوَ ٱلْهُدَىٰ**﴾ وحده، وما عداه ضلال ﴿**وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾**﴾.

(٧٢) ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ﴾ أي: وأُمرنا أن نسلم، وأن أقيموا الصلاة. روي: أن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فنزلت. وعلى هذا كان أمر الرسول ﷺ بهذا القول إجابة عن الصديق رضي الله تعالى عنه تعظيماً لشأنه وإظهاراً للاتحاد الذي كان بينهما ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢﴾ يوم القيامة.

(٧٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ قائماً بالحقِّ والحكمة ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ المعنى: أنه الخالق للسموات والأرضين، وقوله الحق نافذ في الكائنات ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: هو عالم الغيب ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ (أي: السر والعلانية) ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (في الإفناء والإحياء) ﴿ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ (بالحساب والجزاء [تفسير النسفي]).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

(٧٤) ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ**﴾ وفي كتب التواريخ أن اسمه تارح (قال الألوسي رحمه الله تعالى: والذي عوَّل عليه الجمع الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام، وأنه ليس في آباء النبي ﷺ كافر أصلًا، لقوله ﷺ: «لم أزل أُنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» [تفسير الألوسي: ٧/ ١٩٤]) ﴿**أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ**﴾ عن الحق ﴿**مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾**﴾ ظاهر الضلالة.

(٧٥) ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ ربوبيتها وملكها. وقيل: عجائبها وبدائعها. والملكوت أعظم الملك، والتاء فيه للمبالغة ﴿**وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾**﴾ (ليكون من الموقنين عياناً كما أيقن بياناً [النسفي]).

(٧٦) ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ**﴾ فإن أباه وقومه كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال. وجَنَّ عليه الليل: سترَهُ بظلامه. والكوكب كان الزهرة أو المشتري. وقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على سبيل الوضع، فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم، ثم يكرُّ عليه بالإفساد، أو على وجه النظر والاستدلال. وإنما قاله أول أوان بلوغه ﴿**فَلَمَّآ أَفَلَ**﴾ أي: غاب ﴿**قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾**﴾ فضلاً عن عبادتهم، فإن الانتقال والاحتجاب بالأستار يقتضي الإمكان والحدوث وينافي الألوهية.

(٧٧) ﴿**فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا**﴾ مبتدئاً في الطلوع ﴿**قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾**﴾ استعجزَ نفسه واستعان بربه في درك الحق، فإنه لا يُهتدى إليه إلا بتوفيقه، إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً لتغير حاله لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذه إلهاً فهو ضال.

(٧٨) ﴿**فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ**﴾ كبَّره استدلالاً أو إظهاراً لشبهة الخصم ﴿**فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾**﴾ من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدِث يحدثها ومخصِّص يخصصها بما تختص به. ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدها ومبدعها الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال تعالى:

(٧٩) ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (أي: للذي دلَّت هذه المحدَثات على أنه منشئها) ﴿حَنِيفًا﴾ (أي: مائلًا عن الأديان كلِّها إلى الإسلام) ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (بالله تعالى شيئاً من خلقه [تفسير النسفي]).

(٨٠) ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ وخاصموه في التوحيد ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ في وحدانيته سبحانه وتعالى ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ إلى توحيده ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي: لا أخاف معبوداتكم في وقت، لأنها لا تضر بنفسها ولا تنفع ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها. ولعله جواب لتخويفهم إياه من آلهتهم وتهديد لهم بعذاب الله تعالى ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط به علماً، فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه من جهتها ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز.

(٨١) ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ ولا يتعلق به ضرٌّ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ وهو حقيق بأن يُخاف منه كل الخوف، لأنه إشراك للمصنوع بالصانع، وتسوية بين المقدور العاجز والقادر الضار النافع ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ ما لم ينزل بإشراكه كتاباً، أو لم ينصب عليه دليلاً ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أي: الموحِّدون أو المشركون. وإنما لم يقل: أيُّنا أنا أم أنتم؟ احترازاً من تزكية نفسه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ما يحقُّ أن يُخاف منه.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

(٨٢) **﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾** المراد بالظلم ها هنا الشرك، لما روي أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة رضي الله تعالى عنهم وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس ما تظنون، إنما هو ما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى]. وقيل: الظلم هو المعصية.

(٨٣) **﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾** أرشدناه إليها، أو علمناه إياها **﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾** في العلم والحكمة **﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾** في رفعه وخفضه **﴿عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾** بحال من يرفعه واستعداده له.

(٨٤) **﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ﴾** أي: كلاً منهما (وفي ضمنه سيدنا إسماعيل عليه السلام) **﴿وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾** من قبل إبراهيم عليه السلام؛ عَدَّ هداه نعمة على إبراهيم عليه السلام من حيث إنه أبوه، وشرف الوالد يتعدَّى إلى الولد **﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾** الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ الكلام فيه **﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾** أي: ونجزي المحسنين جزاء مثل ما جزينا إبراهيم عليه السلام، برفع درجاته وكثرة أولاده والنبوة فيهم.

(٨٥) **﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾** هو ابن مريم، وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت **﴿وَإِلۡيَاسَۖ﴾** قيل: هو إدريس جدُّ نوح عليهما السلام، وقيل: هو من أسباط (أي: أحفاد) هارون أخي موسى عليهما السلام **﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾** الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي والتحرُّز عما لا ينبغي.

(٨٦) **﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ﴾** هو يونس بن متَّى عليه السلام **﴿وَلُوطٗاۚ﴾** هو ابن هاران أخي إبراهيم عليهما السلام **﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾** بالنبوة. وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق.

(٨٧) **﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ﴾** أي: فضلنا كلًّا منهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، فإن منهم من لم يكن نبياً ولا مهدياً **﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾** (أي: اخترناهم) **﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾﴾** تكرير لبيان ما هُدوا إليه.

(٨٨) ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما دانوا به ﴿يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾ دليل على أنه متفضل عليهم بالهداية ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع فضلهم وعلوِّ شأنهم ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها.

(٨٩) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به الجنس ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الحكمة، أو فَصْلَ الأمر على ما يقتضيه الحق ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ والرسالة ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بهذه الثلاثة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني قريشاً ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي: بمراعاتها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورون ومتابعوهم.

(٩٠) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ فاختص طريقهم بالاقتداء. والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين، دون الفروع المختلف فيها ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على التبليغ أو القرآن ﴿أَجْرًاۖ﴾ جُعلاً من جهتكم، كما لم يسأل من قبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أُمِر بالاقتداء بهم فيه ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: التبليغ أو القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ إلا تذكيراً وموعظة لهم.

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

(٩١) ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ**﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد ﴿**إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ**﴾ حين أنكروا الوحي وبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك من عظائم رحمته وجلائل نعمته أو في السخط على الكفار وشدة البطش بهم حين جسروا على هذه المقالة. والقائلون هم اليهود، قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن بدليل نقض كلامهم وإلزامهم بقوله: ﴿**قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ**﴾ وتضمَّن ذلك توبيخهم على سوء جهلهم بالتوراة، وذمَّهم على تجزئتها بإبداء بعضٍ انتخبوه وكتبوه في ورقات متفرقة، وإخفاء بعض لا يشتهونه ﴿**وَعُلِّمْتُم**﴾ على لسان محمد ﷺ ﴿**مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ**﴾ زيادةً على ما في التوراة وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم ﴿**قُلِ ٱللَّهُۖ**﴾ أي: أنزله الله تعالى. أَمَرَهُ بأن يجيب عنهم إشعاراً بأن الجواب متعيِّن لا يمكن غيره، وتنبيهاً على أنهم بهتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب ﴿**ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾**﴾ في أباطيلهم، فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة.

(٩٢) ﴿**وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ**﴾ كثير الفائدة والنفع ﴿**مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ يعني التوراة، أو الكتب التي قبله ﴿**وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ**﴾ أي: ولتنذر أهل أمِّ القرى، وإنما سمِّيت مكَّة بذلك لأنها قبلة أهل القرى ومحجُّهم وأعظم القرى شأناً ﴿**وَمَنْ حَوْلَهَاۚ**﴾ أهل المشرق والمغرب ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾**﴾ فإنَّ من صَدَّق بالآخرة خاف العاقبة، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبُّر حتى يؤمن بالنبيِّ والكتاب ويحافظ على الطاعة؛ وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين، وعلم الإيمان.

(٩٣) ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا**﴾ فزعم أنه بعثه نبياً، كمسيلمة والأسود العنسي، أو اختلق عليه أحكاماً، كعمرو بن لحي ومتابعيه ﴿**أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ**﴾ كعبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يكتب لرسول الله ﷺ فلما نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] فلما بلغ قوله

تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ قال عبد الله: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] تعجباً من تفصيل خلق الإنسان، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتبها فكذلك نزلت، فشكَّ عبد الله وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إليَّ كما أوحي إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ كالذين قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ولو ترى الظالمين ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ شَدَائِدِه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ بقبض أرواحهم، أو بالعذاب ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ أي: يقولون لهم: أخرجوها إلينا من أجسادكم تغليظاً وتعنيفاً عليهم، أو أخرجوها من العذاب وخلصوها من أيدينا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يريد به وقت الإماتة، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهوان. يريد العذاب المتضمن لشدة وإهانة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ كادعاء الولد والشريك له، ودعوى النبوة والوحي كاذباً ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون.

(٩٤) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه من الدنيا (أقول: من كان له عقل لا يتعلَّق بالمادة، يأخذ بالأسباب ولا يتعلق بها) ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا، فشُغلتم به عن الآخرة ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ﴾ ما قدَّمتم منه شيئاً ولم تحتملوا نقيراً (النقير يضرب مثلاً في الشيء القليل) ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ أي: شركاء لله تعالى في ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: تقطَّع وصلكم وتشتَّت جمعكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ ضاع وبطل ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أنها شفعاؤكم، أو أنْ لا بعث ولا جزاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾

(٩٥) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ**﴾ بالنبات والشجر. وقيل: المراد به الشقاق الذي في الحنطة والنواة (والنوى ما في جوف التمر) ﴿**يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ**﴾ يريد به ما ينمو من الحيوان والنبات ﴿**مِنَ ٱلۡمَيِّتِ**﴾ مما لا ينمو كالنطف والحَب ﴿**وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ**﴾ ومخرج ذلك من الحيوان والنبات ﴿**ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ**﴾ أي: ذلكم المحيي المميت هو الذي يحقُّ له العبادة ﴿**فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾**﴾ تُصرَفون عنه إلى غيره.

(٩٦) ﴿**فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ**﴾ شاقُّ عمود الصبح عن ظلمة الليل أو عن بياض النهار ﴿**وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا**﴾ يسكن إليه التعِب بالنهار لاستراحته فيه ﴿**وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ**﴾ أي: على أدوار مختلفة تُحسب بهما الأوقات ويكونان علَمَي الحسبان ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ إشارةٌ إلى جعلهما حسباناً. أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿**تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ**﴾ الذي قهرَهما وسيَّرهما على الوجه المخصوص ﴿**ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾**﴾ بتدبيرهما والأنفع من التداوير الممكنة لهما.

(٩٧) ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ**﴾ خلقها لكم ﴿**لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ**﴾ في ظلمات الليل في البر والبحر ﴿**قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ**﴾ بيّنَّاها فصلاً فصلاً ﴿**لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾**﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٩٨) ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ**﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿**فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ**﴾ أي: فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداع في الأرحام أو تحت الأرض (أقول: في الأرحام ونحوها، وقيل: في الأصلاب، أو مستودع في الأرض التي يموت فيها، كما قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه). ﴿**قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾**﴾ ذَكَرَ مع ذكر النجوم يعلمون، لأن أمرها ظاهر، ومع ذكر تخليق بني آدم يفقهون، لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر.

(٩٩) ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ**﴾ من السحاب أو من جانب السماء ﴿**فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ**﴾ بالماء ﴿**نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ**﴾ المعنى: إظهار القدرة في إنبات الأنواع المختلفة المسقية بماء واحد، كما في قوله سبحانه

وتعالى: ﴿يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات أو الماء ﴿خَضِرًا﴾ شيئاً أخضر ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي: وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوان (القنوان: العنقود في النخلة) ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة من المتناول، أو ملتفة قريب بعضها من بعض ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي: بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة والقدر واللون والطعم ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي: ثمر كل واحد من ذلك ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يثمر ضئيلاً لا يكاد ينتفع به ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ وإلى حال نضجه كيف يعود ضخماً ذا نفع ولذة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: لآيات دالة على وجود القادر الحكيم وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المفنَّنة (المتنوِّعة) من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها، ويرجِّح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها، ولا يعوقه عن فعله نِدٌّ يعارضه أو ضِدٌّ يعانده، ولذلك عقَّبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال:

(١٠٠) ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ بأن عبدوهم ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ المعنى: وقد علموا أن الله تعالى خالقهم دون الجن، وليس من يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾ افتعلوا وافتروا له ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه ويروا عليه دليلاً ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (أي: تنزَّه الله تعالى عما يصفون) وهو أن له شريكاً أو ولداً.

(١٠١) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: من أين أو كيف يكون له ولد ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ يكون منها الولد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ لا تخفى عليه خافية. وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه:

الأول: أنَّ من مبدعاته السمٰوات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرَّأةٌ عنها، لاستمرارها وطول مدتها، فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره، ولا نظير له فلا ولد.

والثاني: أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين، والله سبحانه وتعالى منزَّه عن المجانسة.

والثالث: أن الولد كفؤ الوالد، ولا كفؤ له لوجهين: الأول: أنَّ كلَّ ما عداه مخلوقه فلا يكافئه. والثاني: أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكلِّ المعلومات، ولا كذلك غيره بالإجماع.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾

(١٠٢) ﴿**ذَٰلِكُمُ**﴾ إشارة إلى الموصوف جلَّ وعلا بما سبق من الصفات ﴿**ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ**﴾ (أقول: قوله: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾، أي: شاءه، وذلك لإخراج الواجب، وهو ذاته جل وعلا وصفاته، فإنهما من جملة الشيء، إذ هو الموجود، لكنهما ليسا من متعلقات الإرادة) ﴿**فَٱعۡبُدُوهُۚ**﴾ حكمٌ مسبَّب عن مضمونها، فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾**﴾ أي: وهو مع تلك الصفات متولي أموركم، فكِلُوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم، ورقيب على أعمالكم، فيجازيكم عليها.

(١٠٣) ﴿**لَّا تُدۡرِكُهُ**﴾ أي: لا تحيط به ﴿**ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ**﴾ يحيط علمه بها ﴿**وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾**﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار.

(١٠٤) ﴿**قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ**﴾ البصائر: جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبدن، سميت بها الدَّلالةُ، لأنها تُجلِّي لها الحق وتبصِّرها به ﴿**فَمَنۡ أَبۡصَرَ**﴾ أي: أبصر الحق وآمن به ﴿**فَلِنَفۡسِهِۦۖ**﴾ أبصر، لأن نفعه لها ﴿**وَمَنۡ عَمِيَ**﴾ عن الحق وضل ﴿**فَعَلَيۡهَاۚ**﴾ وباله ﴿**وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾**﴾ وإنما أنا منذر، والله سبحانه وتعالى هو الحفيظ عليكم (وعليَّ) يحفظ أعمالكم (وأعمالنا) ويجازيكم عليها. وهذا كلام وردَ على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام.

(١٠٥) ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ**﴾ من الصرف، وهو نقل الشيء من حال إلى حال ﴿**وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ**﴾ الدرس: القراءة والتعلم ﴿**وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾**﴾ فإنهم المنتفعون به.

(١٠٦) ﴿**ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ**﴾ بالتديُّن به ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾**﴾ ولا تحفل (أي: ولا تهتم) بأهوائهم، ولا تلتفت إلى آرائهم.

(١٠٧) ﴿**وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ**﴾ توحيدهم وعدم إشراكهم ﴿**مَآ أَشۡرَكُواْۗ**﴾ وهو دليل على أنه سبحانه وتعالى لا يريد إيمان الكافرين، وأن مراده واجب الوقوع ﴿**وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ**﴾ رقيباً ﴿**وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾**﴾ تقوم بأمورهم.

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ولا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ على جهالة بالله سبحانه وتعالى وبما يجب أن يُذكر به. وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها، فإنَّ ما يؤدي إلى الشرِّ شرٌّ ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يمكِّنهم منه ويحملهم عليه، توفيقاً (من فضله جلَّ وعلا للمؤمنين) وتخذيلاً (للكافرين) ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾ بالمحاسبة والمجازاة عليه.

(١٠٩) ﴿وَأَقۡسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الداعي لهم إلى هذا القسَم والتأكيد فيه التحكُّمُ على الرسول ﷺ في طلب الآيات (المعجزات) واستحقار ما رأوا منها ﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ هو قادر عليها، يُظهر منها ما يشاء، وليس شيء منها بقدرتي وإرادتي ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ﴾ وما يدريكم. استفهام إنكار ﴿أَنَّهَآ﴾ أي: أن الآية المقترحة ﴿إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩﴾ أي: لا تدرون أنهم لا يؤمنون. أنكر السبب مبالغة في نفي المسبَّب. وفيه تنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون بها. والخطاب للمؤمنين، فإنهم يتمنون مجيء الآية طمعاً في إيمانهم، فنزلت. وقيل: للمشركين.

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ أي: وما يُشعركم أنا حينئذ نقلب أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه، وأبصارهم فلا يبصرونه، فلا يؤمنون بها ﴿كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: بما أنزل من الآيات ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ وندَعهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين (اللهم ربَّنا اجعلنا بفضلك من المؤمنين).

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

(١١١) ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ كما اقترحوا ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ لما سبق عليهم القضاء بالكفر ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء من أعم الأحوال، أي: لا يؤمنون في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله تعالى إيمانهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ أنهم لو أُتُوا بكل آية لم يؤمنوا، فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم، مع أن مطلق الجهل يعمهم. أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم.

(١١٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ أي: كما جعلنا لك عدواً جعلنا لكل نبي سبقك عدواً. وهو دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله سبحانه وتعالى وخلقه ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ مرَدَة الفريقين ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أو بعض الجن إلى بعضٍ، وبعض الإنس إلى بعض ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ الأباطيل المموهة ﴿غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ إيمانهم ﴿مَا فَعَلُوهُ ۖ﴾ أي: ما فعلوا ذلك، يعني معاداة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإيحاء الزخارف. (أقول: لا يلزم من هذا أن الله تعالى يبخل بإيمانهم ـ حاشاه ـ بل الله تعالى يعلم أزلاً أنهم لا يؤمنون) ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ وكفرَهم.

(١١٣) ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الصغو: الميل ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ وليكتسبوا ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ من الآثام.

(١١٤) ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أي: قل لهم يا محمد ﷺ: أفغير الله تعالى أطلب من يحكم بيني وبينكم ويفصل المحقَّ منَّا من المبطل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن المعجز ﴿مُفَصَّلًا ۚ﴾ مبيَّناً فيه الحق والباطل، بحيث ينفي التخليط والالتباس. وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه وتقريره مُغنٍ عن سائر الآيات ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ تأييدٌ لدلالة الإعجاز على أن القرآن حقٌّ منزل من عند الله سبحانه وتعالى، يعلم أهل الكتاب به لتصديقه ما عندهم، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم

يمارس كتبهم، ولم يخالط علماءهم. وإنما وصف جميعهم بالعلم لأن أكثرهم يعلمون، ومن لم يعلم فهو متمكن منه بأدنى تأمل ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (أي: الشاكّين) في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل، لجحود أكثرهم وكفرهم به، فيكون من باب التهييج، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. أو خطاب الرسول ﷺ لخطاب الأمة. وقيل: الخطاب لكل أحد، على معنى أن الأَدلة لما تعاضدت على صحته فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه (أي: يشك).

(١١٥) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بلغت الغايةَ أخبارُه وأحكامه ومواعيده ﴿صِدْقًا﴾ في الأخبار والمواعيد ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأقضية والأحكام ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا أحد يبدِّل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل، أو لا أحد يقدر أن يحرفها، على أنَّ المراد بها القرآن فيكون ضماناً لها من الله تعالى بالحفظ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] أو لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ بما يضمرون فلا يهملهم.

(١١٦) ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أكثر الناس، يريد الكفار أو الجهال (أقول: يدخل فيه جهال المسلمين) أو أتباع الهوى (أقول: هذا شامل للكفار والمسلمين. من اتبع الهوى يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. هذا يشمل الكلّ، لأنه لم يقل مسلماً أو كافراً، بل كل من اتخذ إلهه هواه) ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن الطريق الموصل إليه، فإن الضال في غالب الأمر لا يأمر إلا بما فيه ضلال ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو جهالاتهم وآراءهم الفاسدة، فإن الظن يطلق على ما يقابل العلم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ يكذبون على الله سبحانه وتعالى فيما ينسبون إليه؛ كاتخاذ الولد، وجعْلِ عبادة الأوثان وصلة إليه، وتحليل الميتة.

(١١٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ (أي: هو تعالى أعلم بالفريقين، بمن ضلَّ عن سبيل الرشاد، وبمن اهتدى إلى طريق الإيمان والسعادة [المقتطف]).

(١١٨) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ المعنى: كلوا مما ذكر اسم الله تعالى على ذبحه، لا مما ذكر عليه اسم غيره أو مات حتف أنفه ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ فإن الإِيمان بها يقتضي استباحة ما أحلَّه الله سبحانه وتعالى واجتناب ما حرَّمه.

وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

(١١٩) ﴿**وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ**﴾ وأيُّ غرض لكم في أن تتحرجوا عن أكله، وما يمنعكم عنه؟ ﴿**وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ**﴾ مما لم يحرَّم بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: ٣] ﴿**إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ**﴾ مما حرَّم عليكم، فإنه أيضاً حلال حال الضرورة ﴿**وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ**﴾ بتحليل الحرام وتحريم الحلال ﴿**بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ**﴾ بتشهِّيهم من غير تعلق بدليل يفيد العلم ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾**﴾ بالمجاوزين الحق إلى الباطل والحلال إلى الحرام.

(١٢٠) ﴿**وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ**﴾ ما يعلَن وما يُسَرُّ، أو ما بالجوارح وما بالقلب (قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: وذروا ظاهر الإثم: أي: الإقدام عليه والاتصاف به، وباطنَه أي: إخطاره وإجراءه على القلب) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾**﴾ يكتسبون.

(١٢١) ﴿**وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ**﴾ فإن الفسق ما أُهِلَّ لغَيْرِ الله تعالى بِهِ ﴿**وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ**﴾ ليوسوسون ﴿**إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ**﴾ من الكفار ﴿**لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ**﴾ بقولهم: تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم، وتدَعون ما قتله الله سبحانه ﴿**وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ**﴾ في استحلال ما حرَّم ﴿**إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾**﴾ فإن من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك (أقول: التعبير عن هذه الإطاعة بالشرك من باب التغليظ لا على الحقيقة).

(١٢٢) ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ**﴾ مثَّل به من هداه الله سبحانه وتعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل ﴿**كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ**﴾ وهو مثلٌ لمن بقي على الضلالة لا يفارقها بحال ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ كما زُيِّنَ للمؤمنين إيمانهم ﴿**زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾**﴾ والآية نزلت في حمزة رضي الله تعالى عنه، وأبي جهل، وقيل: في عمر أو عمار رضي الله تعالى عنهما، وأبي جهل.

(١٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي: كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها، جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها. وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس والمكر بهم ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وباله يحيق بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ ذلك.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ يعني كفار قريش ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ يخصُّ الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده فيجتبي (أي: يختار) لرسالاته مَنْ علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ﴾ ذُلٌّ وحقارة بعد كِبْرهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ جزاءً على مكرهم.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

(١٢٥) ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ يعرِّفه طريق الحق ويوفِّقه للإيمان ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيتسع له ويفسح فيه مجاله. وهو كناية عن جعل النفس (أقول: أي ذات الإنسان، وليس نفسه الأمارة) قابلةً للحق، مهيَّأة لحلوله فيها، مصفَّاة عما يمنعه وينافيه ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بحيث ينبو (أي: ينفر) عن قبول الحق، فلا يدخله الإيمان ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ شبَّهه مبالغةً في ضيق صدره بمن يزاول (أي: يحاول) ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مَثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة. ونبَّه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ يجعل العذاب أو الخذلان عليهم.

(١٢٦) ﴿وَهَٰذَا﴾ إشارة إلى البيان الذي جاء به القرآن، أو إلى الإسلام، أو إلى ما سبق من التوفيق والخذلان ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ فيعلمون أن القادر هو الله سبحانه وتعالى، وأن كل ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه، وأنه عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم.

(١٢٧) ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ دار الله تعالى، أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دارُ السلامة من المكاره، أو دارٌ تحيتهم فيها سلام ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في ضمانه، أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ مُواليهم أو ناصرهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزائها فيتولى إيصاله إليهم.

(١٢٨) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ يعني الشياطين ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: من إغوائهم وإضلالهم، أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، والجنُّ بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: البعث، وهو اعتراف بما فعلوه

من طاعة الشيطان واتباع الهوى وتكذيب البعث، وتحسُّرٌ على حالهم ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا الأوقات التي يُنقلون فيها من النار إلى الزمهرير. وقيل: إِلَّا مَا شاءَ الله تعالى قبل الدخول، كأنه قيل: النار مَثْوَاكُمْ أبداً إلا ما أمهلكم ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم.

(١٢٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ نكِل بعضَهم إلى بعض، أو نجعل بعضهم يتولى بعضاً فيغويهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ من الكفر والمعاصي.

(١٣٠) ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الرسل من الإِنس خاصة، لكن لما جُمعوا مع الجن في الخطاب صحَّ ذلك ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ يعني يوم القيامة ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بالجرم والعصيان، وهو اعتراف منهم بالكفر واستيجاب العذاب ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ ذمٌّ لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة (أي: الناقصة)، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

(١٣١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى إرسال الرسل عليهم السلام ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه وهم غافلون لم ينبَّهوا برسول (أقول: الله تعالى أرسل الرسل والكتب السماوية ليقطع معاذير البشر ولتحقيق العدل).

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٢) ﴿**وَلِكُلٍّ**﴾ من المكلَّفين ﴿**دَرَجَٰتٌ**﴾ مراتب ﴿**مِّمَّا عَمِلُواْۚ**﴾ من أعمالهم ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾**﴾ فيخفى عليه عمل أو قدرُ ما يستحقُّ به من ثواب أو عقاب.

(١٣٣) ﴿**وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ**﴾ عن العباد والعبادة ﴿**ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ**﴾ يترحَّم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم، ويمهلهم على المعاصي. وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه، بل لترحُّمه على العباد، وتأسيسٌ لما بعده وهو قوله: ﴿**إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ**﴾ أي: ما به إليكم حاجة، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها العصاة ﴿**وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ**﴾ من الخلق ﴿**كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾**﴾ أي: قرناً بعد قرن، لكنه أبقاكم ترحُّماً عليكم.

(١٣٤) ﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ**﴾ من البعث وأحواله ﴿**لَأٓتٖۖ**﴾ لكائنٌ لا محالة ﴿**وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾**﴾.

(١٣٥) ﴿**قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ**﴾ على غاية تمكنكم واستطاعتكم. والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم ﴿**إِنِّي عَامِلٞۖ**﴾ على ما كنت عليه من المصابرة والثبات على الإسلام ﴿**فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ**﴾ بمعنى: أَيُّنا تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار الحسنى التي خلق الله تعالى لها هذه الدار ﴿**إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾**﴾ وضعَ الظالمين موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة.

(١٣٦) ﴿**وَجَعَلُواْ**﴾ أي: مشركو العرب ﴿**لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ**﴾ خلق ﴿**مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ**﴾ روي: أنهم كانوا يعيِّنون شيئاً من حرث ونتاج لله تعالى، ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئاً منهما لآلهتهم، وينفقونه على سدَنتها (خُدَّام الأصنام) ويذبحونه عندها، ثم إن رأوا ما عيَّنوا لله تعالى أزكى بدَّلوه بما لآلهتهم، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حباً لآلهتهم. وفي قوله ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ تنبيهٌ على فرط جهالتهم، فإنهم أشركوا للخالق في خلقه جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجَّحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له. وفي قوله: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به ﴿**سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾**﴾ حكمهم هذا.

(١٣٧) ﴿**وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ**﴾ بالوأد ونحرهم لآلهتهم ﴿**شُرَكَآؤُهُمۡ**﴾ من الجن أو من السدَنة ﴿**لِيُرۡدُوهُمۡ**﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿**وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ**﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام، أو ما وجب عليهم أن يتديَّنوا به ﴿**وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ**﴾ ما فعل المشركون ما زُيِّن لهم ﴿**فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾**﴾ ما يفترونه من الإفك.

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾

(١٣٨) ﴿**وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ**﴾ إشارة إلى ما جُعل لآلهتهم ﴿**أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ**﴾ يعني حرام ﴿**لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ**﴾ يعنون خدم الأوثان، والرجال دون النساء ﴿**بِزَعۡمِهِمۡ**﴾ من غير حجة ﴿**وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا**﴾ في الذبح، وإنما يذكرون أسماء الأصنام عليها ﴿**ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ**﴾ لأن ما قالوه تقوُّل على الله سبحانه وتعالى ﴿**سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾**﴾ بسببه.

(١٣٩) ﴿**وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ**﴾ حلال للذكور خاصةً دون الإناث إن وُلد حيّاً لقوله: ﴿**وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ**﴾ فالذكور والإناث فيه سواء ﴿**سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ**﴾ أي: جزاءَ وصفِهم الكذب على الله سبحانه وتعالى في التحريم والتحليل ﴿**إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾**﴾.

(١٤٠) ﴿**قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ**﴾ يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي والفقر ﴿**سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ**﴾ لخفة عقلهم، وجهلهم بأن الله سبحانه وتعالى رازق أولادهم لا هم ﴿**وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ**﴾ من البحائر ونحوها ﴿**ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾**﴾ إلى الحق والصواب.

(١٤١) ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ**﴾ من الكروم ﴿**مَّعۡرُوشَٰتٖ**﴾ مرفوعات على ما يحملها ﴿**وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ**﴾ ملقيات على وجه الأرض ﴿**وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ**﴾ ثمرُه الذي يؤكل في الهيئة والكيفية ﴿**وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ**﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم ولا يتشابه بعضها ﴿**كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ**﴾ من ثمر كل واحد من ذلك ﴿**إِذَآ أَثۡمَرَ**﴾ وإن لم يدرك ولم يينَع (ينضج) بعدُ. وقيل: فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حقِّ الله تعالى ﴿**وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ**﴾ يريد به ما كان يتصدَّق به يوم الحصاد ﴿**وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ**﴾ في التصدُّق ﴿**إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾**﴾ لا يرتضي فعلهم.

(١٤٢) ﴿**وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ**﴾ أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يُفرش للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره (للمَعْز) وصوفه (للغنم) ووبره (للإبل) ﴿**كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ**﴾ كلوا مما أحل لكم منه ﴿**وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ**﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم ﴿**إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾**﴾ ظاهر العداوة.

ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

(١٤٣) ﴿**ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ**﴾ زوجين اثنين: الكبش والنعجة ﴿**وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ**﴾ التيس والعنز ﴿**قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ**﴾ ذكرِ الضأنِ وذكرِ المعزِ ﴿**حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ**﴾ أم أنثييهما ﴿**أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ**﴾ أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿**نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ**﴾ بأمرٍ معلوم يدل على أن الله تعالى حرم شيئاً من ذلك ﴿**إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾**﴾ في دعوى التحريم عليه.

(١٤٤) ﴿**وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ**﴾ والمعنى إنكار أن الله تعالى حرَّم شيئاً من الأجناس الأربعة، ذكراً كان أو أنثى أو ما تحمل إناثها ﴿**أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ**﴾ بل أكنتم شاهدين حاضرين ﴿**إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ**﴾ حين وصاكم بهذا التحريم، إذ أنتم لا تؤمنون بنبيٍّ، فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسماع ﴿**فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا**﴾ فنسبَ إليه تحريم ما لم يحرِّم، والمراد كبراؤهم المقرِّرون لذلك ﴿**لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾**﴾ (أي: الذين في علمه يختمون على الكفر [النسفي]).

(١٤٥) ﴿**قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ**﴾ أي: في القرآن، أو فيما أوحي إليَّ مطلقاً. وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يُعلم بالوحي لا بالهوى ﴿**مُحَرَّمًا**﴾ طعاماً محرَّماً ﴿**عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً**﴾ أن يكون الطعام ميتةً ﴿**أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا**﴾ أي: مصبوباً، كالدم في العروق، لا كالكبد والطحال ﴿**أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ**﴾ فإن الخنزير أو لحمه قذر لتعوُّده أكل النجاسة ﴿**أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ**﴾ وإنما سمى ما ذُبح على اسم الصنم فسقاً لتوغُّله في الفسق ﴿**فَمَنِ ٱضۡطُرَّ**﴾ فمن دعته الضرورة إلى تناول شيء من ذلك ﴿**غَيۡرَ بَاغٖ**﴾ على مضطرٍّ مثلِهِ ﴿**وَلَا عَادٖ**﴾ قدرَ الضرورة ﴿**فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾**﴾ لا يؤاخذه.

(١٤٦) ﴿**وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ**﴾ كل ما له إصبع؛ كالإبل والسباع والطيور، وقيل كل ذي مخلب وحافر ﴿**وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ**﴾ الثروب (أي: الشحوم على الأمعاء) وشحوم الكلى ﴿**إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ**﴾ إلا ما علقت بظهورهما ﴿**أَوِ ٱلۡحَوَايَآ**﴾ (الشحم الذي على العظم) أو ما اشتمل على الأمعاء ﴿**أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ**﴾ هو شحم الإلية لاتصالها بالعصعص ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ التحريم أو الجزاء ﴿**جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ**﴾ بسبب ظلمهم ﴿**وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾**﴾ في الإِخبار أو الوعد والوعيد.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

(١٤٧) ﴿**فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ**﴾ يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله، فإنه لا يهمل ﴿**وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾**﴾ حين ينزل، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين، وذو بأس شديد على المجرمين.

(١٤٨) ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ إخبارٌ عن مستقبل ووقوع، مخبَره يدل على إعجازه ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ**﴾ أي: لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء، كقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، لما فعلنا نحن ولا آباؤنا ﴿**كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ أي: مثل هذا التكذيب لك في أن الله تعالى منع من الشرك ولم يحرِّم ما حرَّموه كذَّب الذين من قبلهم الرسل ﴿**حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا**﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم ﴿**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ**﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم ﴿**فَتُخْرِجُوهُ لَنَا**﴾ فتظهروه لنا ﴿**إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ**﴾ ما تتبعون في ذلك إلا الظن ﴿**وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾**﴾ تكذبون على الله سبحانه وتعالى.

(١٤٩) ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**﴾ البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات ﴿**فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾**﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها، ولكن شاء هداية قومٍ وضلالَ آخرين (قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: ولكن لم تتعلَّق مشيئته بهدايتكم، لذلك أصررتم واستكبرتم).

(١٥٠) ﴿**قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ**﴾ أحضِروهم ﴿**الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا**﴾ يعني قدوتهم فيه ﴿**فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ**﴾ فلا تصدقهم فيه، وبيِّن لهم فساده، فإن تسليمهم موافقةٌ لهم في الشهادة الباطلة ﴿**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ**﴾ كعبدة الأوثان ﴿**وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾**﴾ يجعلون له عديلاً.

(١٥١) ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ**﴾ أقرأ ﴿**مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ**﴾ أيَّ شيء حرم ربكم ﴿**عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ أي: وأحسنوا بهما إحساناً ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ**﴾ من أجل فقر ومن خشيته ﴿**نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ**﴾ كبائر الذنوب، أو الزنى ﴿**مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ كالقود (أي: القصاص) وقتل المرتد، ورجم المحصن ﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ إشارة إلى ما ذكر مفصلاً ﴿**وَصَّاكُم بِهِ**﴾ بحفظه ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾**﴾ ترشدون، فإن كمال العقل هو الرشد.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

(١٥٢) ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ أي: بالفعلة التي هي أحسن ما يفعل بماله، كحفظه وتثميره ﴿**حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**﴾ حتى يصير بالغاً ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**﴾ بالعدل والتسوية ﴿**لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ**﴾ في حكومةٍ ونحوها ﴿**فَاعْدِلُوا**﴾ فيه ﴿**وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ**﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم ﴿**وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا**﴾ يعني ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع ﴿**ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)**﴾ تتعظون به.

(١٥٣) ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا**﴾ الإشارة فيه إلى ما ذكر في السورة، فإنها بأسرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة ﴿**فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾ الأديان المختلفة، أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحدٌ ومقتضى الهوى متعدد، لاختلاف الطبائع والعادات ﴿**فَتَفَرَّقَ بِكُمْ**﴾ فتفرقكم وتزيلكم ﴿**عَن سَبِيلِهِ**﴾ الذي هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان ﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ الاتباع ﴿**وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)**﴾ الضلال والتفرق عن الحق.

(١٥٤) ﴿**ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا**﴾ للكرامة والنعمة ﴿**عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ**﴾ على كل من أحسن القيام به، وهو موسى عليه أفضل الصلاة والسلام ﴿**وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين ﴿**وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم**﴾ لعل بني إسرائيل ﴿**بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤)**﴾ أي: بلقائه للجزاء.

(١٥٥) ﴿**وَهَٰذَا كِتَابٌ**﴾ يعني القرآن ﴿**أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ**﴾ كثير النفع ﴿**فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)**﴾ بواسطة اتباعه، وهو العمل بما فيه.

(١٥٦) ﴿**أَن تَقُولُوا**﴾ كراهة أن تقولوا ﴿**إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا**﴾ اليهود والنصارى ﴿**وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ**﴾ قراءتهم ﴿**لَغَافِلِينَ (١٥٦)**﴾ لا ندري ما هي، أو لا نعرف مثلها.

(١٥٧) ﴿**أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ**﴾ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا ﴿**فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ حجةٌ واضحة تعرفونها ﴿**وَهُدًى وَرَحْمَةٌ**﴾ لمن تأمل فيه وعمل به ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾ بعد أن عرف صحتها، أو تمكَّن من معرفتها ﴿**وَصَدَفَ**﴾ أعرض أو صدَّ ﴿**عَنْهَا**﴾ فضلَّ وأضلَّ ﴿**سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ شدته ﴿**بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)**﴾ بإعراضهم أو صدِّهم.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

(١٥٨) ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ**﴾ أي: ما ينتظرون، يعني أهل مكة ﴿**إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ**﴾ ملائكة الموت أو العذاب ﴿**أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ**﴾ أي: أمرُه بالعذاب (أقول: الإتيان من صفات الحوادث، واللهُ جلَّ وعلا منزَّه عنها، ولكن يتجلى للقضاء يوم الحساب جل وعلا، أو يأتي عذابه أي: يطلبون إتيان ربك عناداً كما طلب اليهود من موسى عليه السلام حين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]) أو كل آياته، يعني آيات القيامة والعذاب والهلاك الكلي، لقوله: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ**﴾ يعني أشراط الساعة ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا**﴾ كالمحتضر، إذ صار الأمر عياناً، والإيمانُ برهانيٌّ ﴿**لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا**﴾ المعنى: أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدِّمة إيمانها، أو مقدمة إيمانها غير كاسبة في إيمانها خيراً ﴿**قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾**﴾ وعيدٌ لهم، أي: انتظروا إتيان أحد الثلاثة (وهي: أن تأتيهم الملائكة، أو يأتي ربك، أو يأتي بعض آيات ربك) فإنا منتظرون له، وحينئذ لنا الفوز وعليكم الويل.

(١٥٩) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ**﴾ بدَّدوه، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو افترقوا فيه ﴿**وَكَانُوا۟ شِيَعًا**﴾ فرقاً تشيِّع كل فرقة إماماً (أخرج أبو داود والترمذي وصحَّحه وابن ماجه وابن حبان وصحَّحه الحاكم، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلُّهم في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، كلُّهم في الهاوية إلا واحدة»، واستثناء الواحدة من فرق كلٍّ من أهل الكتابين إنما هو بالنظر إلى العصر الماضي قبل النسخ، وأما بعده فالكلُّ في الهاوية، وإن اختلفت أسباب دخولهم. ومن غريب ما وقع أن بعض متعصبي الشيعة الإمامية من أهل زماننا واسمه حمد، روى بدل «إلا واحدة» في هذا الخبر: إلا فرقة، وقال: إن فيه إشارة إلى نجاة الشيعة، فإن عدد لفظ فرقةٍ بالجمل وعدد لفظ شيعةٍ سواء، فكأنه قال عليه الصلاة والسلام: إلا شيعة، والمشهور بهذا العنوان هم الشيعة الإمامية، فقلت له بعد عدة تزييفات لكلامه: يُلزم هذا النوع من الإشارة أن تكون كلباً، لأن عدد كلب وعدد حمد سواء، فأُلقم الكلب حجراً [تفسير الألوسي]) ﴿**لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ**﴾ أي: من السؤال

عنهم وعن تفرقهم، أو من عقابهم، أو أنت بريء منهم ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يتولَّى جزاءهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ بالعقاب.

(١٦٠) ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ أي: عشر حسنات أمثالها فضلًا من الله تعالى، وهذا أقلُّ ما وعد من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين وبسبع مئة وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بالعشر الكثرة دون العدد ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

(١٦١)﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بالوحي والإِرشاد إلى ما نَصب من الحجج ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ (مستقيماً معتدلاً) ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾.

(١٦٢) ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ عبادتي كلها، أو قرباني، أو حجي ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإِيمان والطاعة ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾.

(١٦٣) ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ خالصة له لا أشرك فيها غيراً ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ القول أو الإِخلاص ﴿أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

(١٦٤) ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾ فأشركُه في عبادتي! وهو جواب عن دعائهم له عليه الصلاة والسلام إلى عبادة آلهتهم ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ أي: وكلُّ ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾ فلا ينفعني في ابتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾ بتبيين الرشد من الغي، وتمييز المحق من المبطل.

(١٦٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً، أو خلفاء الله تعالى في أرضه تتصرَّفون فيها، على أنَّ الخطاب عامٌّ. أو خلفاء الأمم السالفة، على أنَّ الخطاب للمؤمنين ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ في الشرف والغنى ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ من الجاه والمال ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لأن ما هو آت قريب، أو لأنه يسرع إذا أراده ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ وصَفَ العقاب ولم يضفه إلى نفسه، ووصفَ ذاته بالمغفرة، وضم إليه الوصف بالرحمة، تنبيهاً على أنه تعالى غفور بالذات، معاقب بالعرَض، كثير الرحمة مبالغ فيها، كثير العقوبة مسامح فيها.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الأنعام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

٧ سُورَةُ الأَعۡرَافِ ٢٠٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأعراف

مكيَّة غير ثمان آيات، من قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾. محكمة كلها. وقيل: إلا قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

وآيها مئتان وخمس أو ست آيات

(١-٢) ﴿**الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ**﴾ المراد به السورة أو القرآن ﴿**أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ**﴾ أي: شكٌّ، فإن الشاك حرِجُ الصدر ﴿**لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾**﴾ أي: لتنذر به وتذكِّر.

(٣) ﴿**ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ**﴾ يعمُّ القرآن والسنة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣-٤] (أي: محمد عليه الصلاة والسلام) ﴿**وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ**﴾ يُضلونكم من الجن والإِنس ﴿**قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾**﴾ أي: تذكُّراً قليلًا.

(٤) ﴿**وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ**﴾ وكثيراً من القرى ﴿**أَهۡلَكۡنَٰهَا**﴾ أردنا إهلاك أهلها، أو أهلكناها بالخذلان ﴿**فَجَآءَهَا**﴾ فجاء أهلَها ﴿**بَأۡسُنَا**﴾ عذابنا ﴿**بَيَٰتًا**﴾ بائتين (بالليل) كقوم لوط ﴿**أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾**﴾ أي: قائلين (نائمين) نصف النهار كقوم شعيب. وفي التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب، ولذلك خصَّ الوقتين، ولأنهما وقت دعة واستراحة فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع.

(٥) ﴿**فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ**﴾ أي: دعاؤهم واستغاثتهم، أو ما كانوا يدَّعونه من دينهم ﴿**إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾**﴾ إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه تحسراً عليه.

(٦) ﴿**فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ**﴾ عن قبول الرسالة وإجابتهم الرسل ﴿**وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾**﴾ عما أجيبوا به. والمراد من هذا السؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم.

(٧) ﴿**فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم**﴾ على الرسل والمرسَل إليهم ما كانوا عليه ﴿**بِعِلۡمٖۖ**﴾ عالِمين بظواهرهم وبواطنهم، أو بمعلومنا منهم ﴿**وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾**﴾ عنهم، فيخفى علينا شيء من أحوالهم (أقول: ولكنَّ الإنسان غافل عن هذه الحقيقة، اللهم نبِّهنا لأمره ونهيه).

(٨) ﴿**وَٱلۡوَزۡنُ**﴾ أي: القضاء، أو وزن الأعمال، وهو مقابلتها بالجزاء. والجمهور على أن صحائف الأعمال

توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة (أي: العدالة) وقطعاً للمعذرة؛ كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم. ويؤيده ما روي: أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مد البصر، فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ معناه العدل السويُّ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ حسناته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ الفائزون بالنجاة والثواب.

(٩) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فُطرت عليها الناس (أقول: تضييع هذه الفطرة السليمة بيد الإنسان، فهو يفسدها إما بنفسه وإما بالدنيا وإما بالمادة أو بالشيطان) واقتراف ما عرَّضها للعذاب ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ فيكذبون بدل التصديق.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مكَّناكم من سكْناها وزرعها والتصرُّف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أسباباً تعيشون بها ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ فيما صنعتُ إليكم.

(١١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوَّر ثم صوَّرناه ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ ممن سجد لآدم (أقول: لأنه في علم الله تعالى كان من الكافرين).

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

(١٢) ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ**﴾ أي: أن تسجد ﴿**إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾ دليلٌ على أن مطلق الأمر للوجوب والفور ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ**﴾ (أقول: الذي يتمسَّك بالأنا، هذا فعل الشيطان، ولذا يقول أولياؤنا: الأنا تدَّعي الربوبية). قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جوابٌ من حيث المعنى استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله، كأنه قال: المانع أني خير منه، ولا يحسُن للفاضل (وهو الشيطان) أن يسجد للمفضول (وهو آدم)، فكيف يحسُن أن يؤمر به. فهو الذي سَنَّ (أي: أحدث) التكبُّر (أقول: فمن تكبَّر يكون شريكاً للشيطان) ﴿**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾**﴾ تعليل لفضله عليه، وقد غلط في ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] أي: بغير واسطة (أقول: يعني بإرادتي وقدرتي، لأن الله تعالى منزَّه عن الجوارح)، وباعتبار الصورة كما نبَّه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (أقول: هذا للتشريف، وفي الحقيقة لا نافخ ولا منفوخ) ﴿فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، وباعتبار الغاية وهو مَلاكه، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لمَّا بيَّن لهم أنه أعلم منهم، وأن له خواص ليست لغيره.

(١٣) ﴿ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا**﴾ من السماء أو الجنة (أقول: من ملكوت السماء، فلا يصحُّ ولا يستقيم لك أن تتكبَّر عن أمري وطاعتي وتسكن دار قدسي، أو من الجنة) ﴿**فَمَا يَكُونُ لَكَ**﴾ فما يصحُّ ﴿**أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا**﴾ وتعصي، فإنها مكان الخاشع والمطيع. وفيه تنبيه على أن التكبُّر لا يليق بأهل الجنة (أقول: وكذلك لا يليق للمؤمن أن يتكبَّر بإيمانه، لأن النتيجة عند الله تعالى لا عندك، فإذا كنت الآن موافقاً يمكن أن تنقلب بعد ذلك. قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]). وأنه سبحانه وتعالى إنما طرده وأهبطه لتكبُّره، لا لمجرد عِصيانه (أقول: أي ليس لمجرد عصيان الأمر الوجوبي، بل لعصيانه وتكبُّره) ﴿**فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾**﴾ ممن أهانه الله تعالى لتكبُّره. قال عليه الصلاة والسلام: «من تواضع رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله» [أخرج نحوه الإمام أحمد رحمه الله تعالى].

(١٤) ﴿ **قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾**﴾ أمهلني إلى يوم القيامة فلا تمتني، أو لا تعجل عقوبتي.

(١٥) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ يقتضي الإجابة إلى ما سأله ظاهراً، لكنه محمول على ما جاء مقيداً بقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨]، وهو النفخة الأولى، أو وقت يعلم الله تعالى انتهاء أجله فيه. وفي إسعافه إليه ابتلاء العباد، وتعريضهم للثواب بمخالفته.

(١٦) ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: بعد أن أمهلتني لأجتهدنَّ في إغوائهم بأي طريق يمكنني، بسبب إغوائك إياي بواسطتهم ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ ترصُّداً بهم (مراقباً لهم) كما يقعد القطاع للسابلة (أي: للمارة) ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ طريق الإسلام (أقول: من لم يطَّلع على إغوائه وهو يسترسل سواء كان كبيراً أو صغيراً أو عالماً، وإذا تتكلَّم مع عالم ينتفخ في داخله ويظهر الاحمرار؛ خلق الله تعالى هذا لتجريب العباد، أيّهم يتبعونه وأيّهم لا يتبعونه، فهذا امتحان للبشر، هذا جسائسه لقلب المؤمن مثل الكهرباء، إذا وضع يده على الكهرباء يموت، ولكن هذا بوسوسته يكون مسيطراً على المسلم، ولكن حق المسلم أن يتمسَّك بالشريعة والسنة النبوية، والنفس مقصود الشيطان وآلته، تكلَّم مع الناس ترى تحرُّكهم بهذه الوسوسة والخطرات، يتعلَّقون بشيء تافه لضعفهم وتعلُّقهم بالوسوسة).

(١٧) ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي: من جميع الجهات الأربع. مثَّل قصده إياهم بالتسويل (أي: الفساد) والإضلال من أي وجه يمكنه بإتيان العدو من الجهات الأربع، ولذلك لم يقل: مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أرجلهم. وقيل: لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه، ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان منه يوحش الناس. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من بين أيديهم: من قِبل الآخرة، ومن خلفهم: من قبل الدنيا، وعن أيمانهم وعن شمائلهم: من جهة حسناتهم وسيئاتهم. ويحتمل أن يقال من بين أيديهم: من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز عنه، ومن خلفهم: من حيث لاَ يعلَمون ولا يقدرون، وعن أيمانهم وعن شمائلهم: من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرَّزوا، ولكن لم يفعلوا لعدم تيقُّظهم واحتياطهم ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ مطيعين. وإنما قاله ظناً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠] لمَّا رأى فيهم مبدأ الشر متعدداً ومبدأ الخير واحداً، وهو الملَك الملهِم، وقيل: سمعه من الملائكة.

(١٨) ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ مذموماً ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام فيه لتوطئة القسم، وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

(١٩) ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ﴾ أي: وقلنا يا آدم ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم.

(٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ ليُظهر لهما. على أنه أراد أيضاً بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما، ولذلك عبَّر عنهما بالسوأة. وفيه دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيحٌ مستهجن في الطباع ﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ما غُطيِّ عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا﴾ إلَّا كراهة أن تكونا ﴿مَلَكَيْنِ

أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ الذين لا يموتون، أو يخلدون في الجنة. واستُدلَّ به على فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وجوابه: أنه كان من المعلوم أن الحقائق لا تنقلب، وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضاً ما للملائكة من الكمالات الفطرية، والاستغناء عن الأطعمة والأشربة، وذلك لا يدلُّ على فضلهم مطلقاً (أقول: وحينذاك سيدنا آدم عليه السلام لم يكن نبياً، وبعد ذلك صار نبياً).

(٢١) ﴿ **وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١**﴾ أي: أقسَم لهما على ذلك.

(٢٢) ﴿**فَدَلَّىٰهُمَا**﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة. نبَّه به على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة ﴿**بِغُرُورٖۚ**﴾ بما غرَّهما به من القسَم، فإنهما ظنَّا أن أحداً لا يحلف بالله تعالى كاذباً ﴿**فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا**﴾ أي: فلما وجدا طعمها آخذين في الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت (تطاير) عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما ﴿**وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ**﴾ أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ﴿**عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ**﴾ قيل: كان ورق التين ﴿**وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢**﴾ عتابٌ على مخالفة النهي، وتوبيخٌ على الاغترار بقول العدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٣) ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا**﴾ أضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة ﴿**وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾**﴾ دليلٌ على أن الصغائر معاقَب عليها إن لم تُغفر (أقول: «إن لم تُغفر» هذا من الله تعالى، ومن العبد: إن لم يتب، عُذِّب به أو لم يُعذَّب يكون له نقصاً في الحقيقة).

(٢٤) ﴿**قَالَ ٱهْبِطُوا۟**﴾ الخطاب لآدم وحواء ولإبليس ﴿**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾**﴾ إلى أن تقضى آجالكم.

(٢٥) ﴿**قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾**﴾ للجزاء.

(٢٦) ﴿**يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا**﴾ أي: خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة (يعني نزول أمره)، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] ﴿**يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ**﴾ التي قصد الشيطان إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. روي: أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله تعالى فيها، فنزلت. ولعله ذكر قصة آدم مقدمة لذلك، حتى يُعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم ﴿**وَرِيشًا ۖ**﴾ ولباساً تتجمَّلون به ﴿**وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ**﴾ خشية الله تعالى، وقيل: الإيمان (أقول: أما إذا لم يستعمل المؤمن مقتضى الإيمان، فما فائدته وهو يخالف أمر الله تعالى؟) ﴿**ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ**﴾ كأنه قيل لباس التقوى المشار إليه خيرٌ ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: إنزال اللباس ﴿**مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ**﴾ الدالة على فضله ورحمته ﴿**لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾**﴾ فيعرفون نعمته، أو يتعظون فيتورَّعون عن القبائح.

(٢٧) ﴿**يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ**﴾ لا يمحننَّكم (أي: يضلَّنكم) بأن يمنعكم دخول الجنة بإغوائكم ﴿**كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ**﴾ كما مَحَنَ أبويكم بأن أخرجهما منها. والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيهم عن اتباعه والافتتان به ﴿**يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ**﴾ إسناد النزع إليه للتسبب ﴿**إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ**﴾ تعليلٌ للنهي وتأكيد للتحذير من فتنته. وقبيلُهُ: جنوده. ورؤيتُهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا تقتضي امتناع رؤيتهم وتمثُّلهم لنا (أقول: من جاهده باطناً ودفع وساوسه يظهر له

عياناً؛ هذا كله من: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من خذلانهم وحملهم على ما سوَّلوا لهم (أقول: ليس جميع المؤمنين بريئين منه).

(٢٨) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ فعلة متناهية في القبح كعبادة الصنم وكشف العورة في الطواف ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ اعتذروا واحتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله سبحانه وتعالى، فأعرَضَ عن الأول لظهور فساده، وردَّ الثاني بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، والحثِّ على مكارم الخصال.والمراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. وقيل: هما جوابا سؤالين مترتبين، كأنه قيل لهم لما فعلوها: لم فعلتم؟ فقالوا: وجدنا عليها آباءنا. فقيل ومن أين أخذ آباؤكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها. وعلى الوجهين يمتنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه لا مطلقاً.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إنكارٌ يتضمن النهي عن الافتراء على الله تعالى.

(٢٩) ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ بالعدل، وهو الوسط من كل أمر، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها، أو أقيموها نحو القبلة ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل وقتِ سجودٍ، أو مكانه وهو الصلاة، أو في أيِّ مسجد حضرتكم الصلاة، ولا تؤخِّروها حتى تعودوا إلى مساجدكم ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾ أي: الطاعةَ، فإن إليه مصيرَكم ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ كما أنشأكم ابتداء ﴿تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ بإعادته، فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

(٣٠) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفَّقهم للإيمان ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾ بمقتضى القضاء السابق (في الأزل) ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعليلٌ لخذلانهم أو تحقيق لضلالهم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ يدلُّ على أن الكافر المخطئ والمعاند سواء في استحقاق الذم.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

(٣١) ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ ثيابكم لمواراة (أي: لستر) عوراتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ لطواف أو صلاة، ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة؛ وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ ما طاب لكم ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره عليه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كلْ ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة (تكبر). وقال علي بن الحسين بن واقد رحمه الله تعالى: قد جمع الله تعالى الطب في نصف آية، فقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: لا يرتضي فعلهم.

(٣٢) ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ من الثياب وسائر ما يُتجمل به ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من النبات كالقطن والكتان (نوع من القطن)، والحيوان كالحرير (وهو حرام على الذكور) والصوف، والمعادن كالدروع ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ المستلذات من المآكل والمشارب. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجمُّلات الإِباحةُ ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالأصالة، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فتبَعٌ ﴿خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: كتفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لهم (أقول: حُكي أن يحيى بن زيد النوفلي كتب إلى مالك ابن أنس رضي الله عنهما: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على رسوله محمَّد في الأولين والآخرين. من يحيى بن يزيد بن عبد الملك، إلى مالك بن أنس، أما بعد: فقد بلغني أنك تلبس الدِّقاق، وتأكل الرِّقاق، وتجلس على الوطيء، وتجعل على بابك حاجباً، وقد جلست مجلس العلم، وقد ضربت إليك المطي، وارتحل إليك الناس، واتخذوك إماماً ورضوا بقولك؛ فاتق الله تعالى يا مالك، وعليك بالتواضع؛ كتبت إليك بالنصيحة مني كتاباً ما اطَّلع عليه غيرُ الله سبحانه وتعالى، والسلام". فكتب إليه مالك رحمه الله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. من مالك بن أنس، إلى يحيى بن يزيد، سلام الله عليك، أما بعد: فقد وصل إليَّ كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والأدب، أمتعك الله بالتقوى، وجزاك بالنصيحة خيراً، وأسأل الله تعالى التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم، فأما ما ذكرت لي أني آكل الرِّقاق، وألبس الدِّقاق، وأحتجب، وأجلس على الواطئ، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله

تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا، والسلام". فانظر إلى إنصاف مالك رحمه الله تعالى إذ اعترف أنَّ ترك ذلك خير من الدخول فيه، وأفتى أنه مباح، وقد صدق فيهما جميعاً [إحياء علوم الدين])

(٣٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ما تزايد قبحه، وقيل: ما يتعلق بالفروج ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرَها وسرَّها ﴿وَالْإِثْمَ﴾ وما يوجب الإثم، تعميمٌ بعد تخصيص. وقيل: شرب الخمر ﴿وَالْبَغْيَ﴾ الظلم أو الكبر؛ أفرده بالذكر للمبالغة ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلق بالبغي مؤكِّدٌ له معنًى ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ تهكمٌ بالمشركين، وتنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان (أقول: البرهان هو الشريعة والسنة النبوية) ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ بالإلحاد في صفاته سبحانه وتعالى، والافتراء عليه كقولهم: اللهُ أَمَرَنا بِها.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة أو وقت لنزول العذاب بهم. وهو وعيدٌ لأهل مكة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ انقرضت مدتهم، أو حان وقتهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾ أي: لا يتأخرون ولا يتقدمون أقصر وقت، أو لا يطلبون التأخر والتقدُّم لشدة الهول.

(٣٥) ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ شرطٌ ذكرَهُ بحرف الشك («إما» أصله: إنْ ما) للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب (أقول: غير واجب على الله تعالى، لكن الله تعالى لا يخاطب العوام، وإنما يخاطب الرسل بالوحي ويأمرهم بالتبليغ، لأن الرسل من جنس الناس يختلطون بهم، فالله تعالى أرسل الرسل وأعطى الكتب، فلم يبقَ لأحد من الناس عذر، وبهذا تثبت وتظهر العدالة الإلهية. وإذا سأل أحد: كيف يصل أمر الله تعالى إلى مخلوقاته؟ فالجواب: الرسل نوَّابه، مع عدم وجوب إرسالهم على الله تعالى) (وفي تفسير روح البيان عند قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ﴾ كائنون ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: من جنسكم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ أي: يبيِّنون لكم أحكامي وشرائعي. ومقتضى الظاهر كلمة «إذا» بدل «إن»، لكون الإتيان محقَّق الوقوع في علم الله تعالى، لكنه سيق المعلوم مساق المشكوك للتنبيه على أن إرسال الرسل أمر جائز لا واجب عقلاً، حتى لا يقدر على عدم إرساله، ولا واجب شرعاً، لأنه لا يجب على الله تعالى شيء لا عقلاً ولا شرعاً، لكن مقتضى الحكمة إرسال الرسل لما فيه من الحكم والمصالح للعباد) ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)﴾.

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)﴾ والمعنى: فمن اتَّقى التكذيب، وأصلح عمله منكم؛ والذين كذَّبوا بآياتنا منكم. وإدخال الفاء في الخبر الأول، دون الثاني، للمبالغة في الوعد، والمسامحة في الوعيد.

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ممن تقوَّل على الله تعالى ما لم يقله، أو كذَّب ما قاله ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ مما كُتب لهم من الأرزاق والآجال. وقيل: الكتاب اللوح المحفوظ، أي: مما أثبت لهم فيه ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي: يتوفون أرواحهم ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عنا ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)﴾ اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه.

قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾

(٣٨) ﴿**قَالَ ٱدۡخُلُواْ**﴾ أي: قال الله تعالى لهم يوم القيامة، أو أحد من الملائكة ﴿**فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم**﴾ أي: كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم يوم القيامة ﴿**مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ**﴾ يعني كفار الأمم الماضية من النوعين ﴿**فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ**﴾ أي: في النار ﴿**لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ**﴾ التي ضلت بالاقتداء بها ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا**﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿**قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ**﴾ دخولاً أو منزلة، وهم الأتباع ﴿**لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا**﴾ سنُّوا لنا الضلال فاقتدينا بهم ﴿**فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ**﴾ مضاعفاً لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿**قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ**﴾ أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم ﴿**وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾**﴾ ما لكم، أو ما لكل فريق (من العذاب).

(٣٩) ﴿**وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ**﴾ أي: فقد ثبت أن لا فضل لَكُمْ علينا، وإنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب ﴿**فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾**﴾ من قول القادة، أو من قول الله تعالى للفريقين.

(٤٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا**﴾ أي: عن الإيمان بها ﴿**لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ**﴾ لأدعيتهم وأعمالهم، أو لأرواحهم، كما تفتح لأعمال المؤمنين وأرواحهم لتتصل بالملائكة ﴿**وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ**﴾ أي: حتى يدخل ما هو مَثَلٌ في عظم الجِرم وهو البعير فيما هو مَثَلٌ في ضيق المسلك وهو ثقبة الإبرة، وذلك مما لا يكون، فكذا ما يتوقف عليه ﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ ومثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿**نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾**﴾.

(٤١) ﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ**﴾ فراش ﴿**وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ**﴾ أغطية ﴿**وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾**﴾ عبَّر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى، إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الأوصاف الذميمة، وذكَرَ الجُرم مع الحرمان من الجنة، والظلم مع التعذيب بالنار، تنبيهاً على أنه أعظم الإجرام.

(٤٢) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾**﴾ على عادته سبحانه وتعالى في أن يشفع الوعيد بالوعد.

(٤٣) ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ أي: نخرج من قلوبهم أسباب الغل، أو نطهِّرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التوادُّ (أقول: حقٌّ أهل التصوف كلهم أن يكونوا هكذا في الدنيا، ولكن قلب المؤمن ليس خالياً، سُلِّط عليه الكبر والأنانية، لا نقول: كونوا مثل الملائكة، ولكن تمسَّكوا بالشريعة والسنة النبوية ﷺ).

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ زيادةً في لذتهم وسرورهم ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ لولا هداية الله تعالى وتوفيقه ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ فاهتدينا بإرشادهم. يقولون ذلك اغتباطاً وتبجُّحاً (فرَحاً) بأن ما علموه يقيناً في الدنيا صار لهم عين اليقين في الآخرة ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ إذا رأوها من بعيد، أو بعد دخولها ﴿أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ أي: أعطيتموها بسبب أعمالكم.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾

(٤٤) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾ (أقول: تصديقاً للخبر) إنما قالوه تبجُّحاً بحالهم وشماتةً بأصحاب النار وتحسيراً لهم ﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ﴾ قيل: هو صاحب الصور ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ بين الفريقين ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

(٤٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة للظالمين مقررة، أو ذمٌّ ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ زيغاً وميلاً عما هو عليه ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

(٤٦) ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ أي: بين الفريقين، أو بين الجنة والنار، ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ وعلى أعراف الحجاب أي: على أعاليه، وهو السور المضروب بينهما ﴿رِجَالٞ﴾ طائفة من الموحِّدين قصروا في العمل، فيُحبسون بين الجنة والنار حتى يقضي الله سبحانه وتعالى فيهم ما يشاء ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا﴾ من أهل الجنة والنار ﴿بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها، كبياض الوجه وسواده، وإنما يعرفون ذلك بالإلهام أو تعليم الملائكة ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: إذا نظروا إليهم سلموا عليهم ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

(٤٧) ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ﴾ تعوُّذاً بالله ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: في النار.

(٤٨) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ من رؤساء الكفرة ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ كثرتكم، أو جمعُكم المال ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عن الحق، أو على الخلق.

(٤٩) ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ من تتمة قولهم للرجال. والإشارة إلى ضعفاء أهل الجنة الذين كانت الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون أن الله تعالى لا يدخلهم الجنة ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: قيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى، بعد أن حُبسوا حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا (أقول: هذا الفضل أوسع من أعمالنا، اللهم لا تحرمنا منه).

(٥٠) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ أي: صبوه ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من سائر الأشربة، أو من الطعام ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ منعهما عنهم منع المحرَّم عن المكلف.

(٥١) ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ (أقول: هذه صفة الكافر، فعلى المؤمن أن يتجنَّب هذا التغرير، لئلا يوصف بوصف الكافر) ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نفعل بهم فعل الناسين فنتركهم في النار ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ فلم يُخطروه ببالهم ولم يستعدُّوا له ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ وكما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدٗى وَرَحْمَةٗ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعٗا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرَۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٢) ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم**﴾ (يعني أهل مكة) ﴿**بِكِتَٰبٖ**﴾ (أي: القرآن العظيم) ﴿**فَصَّلْنَٰهُ**﴾ بيَّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصَّلة ﴿**عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيماً ﴿**هُدٗى وَرَحْمَةٗ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾**﴾.

(٥٣) ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ**﴾ هل ينتظرون ﴿**إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ**﴾ إلا ما يؤول إليه أمره من تبيُّن صدقه بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿**يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ**﴾ تركوه ترك الناسي (أي: نبذوه وراء ظهورهم) ﴿**قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ**﴾ أي: قد تبين أنهم جاءوا بالحق ﴿**فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ**﴾ اليوم ﴿**أَوْ نُرَدُّ**﴾ أو هل نرد إلى الدنيا ﴿**فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾ (في الدنيا) ﴿**قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ**﴾ بصرف أعمارهم في الكفر ﴿**وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾**﴾ بطل عنهم فلم ينفعهم.

(٥٤) ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ**﴾ أي: في ستة أوقات، أو في مقدار ستة أيام، فإن المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن حينئذ. وفي خلق الأشياء مدرّجاً مع القدرة على إيجادها دفعةً دليلٌ للاختيار، واعتبارٌ للنُّظَّار، وحثٌّ على التأنِّي في الأمور ﴿**ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ**﴾ استوى أمره أو استولى (قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: ثم استوى على العرش أي: على عروش المظاهر والمكونات الكائنات والأقطار منزَّهاً عن الجهات والاستواء والاستقرار والتمكُّن مطلقاً). وعن أصحابنا أنَّ الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف. والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه، منزَّهاً عن الاستقرار والتمكُّن. والعرش: الجسم المحيط بسائر الأجسام ﴿**يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ**﴾ يغطيه به ﴿**يَطْلُبُهُۥ حَثِيثٗا**﴾ يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء ﴿**وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ**﴾ بقضائه وتصريفه ﴿**أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ**﴾ فإنه الموجد والمتصرف ﴿**تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾**﴾ تعالى بالوحدانية في الألوهية، وتعظَّم بالتفرُّد في الربوبية.

وتحقيق الآية والله سبحانه وتعالى أعلم: أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً فبيَّن لهم أنَّ المستحقَّ للربوبية

واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم، فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]. وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية، فخلق جسماً قابلاً للصور المتبدلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال، وأشار إليه بقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ﴾ أي: ما في جهة السفل ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولًا وتصويرها ثانياً، كما قال تعالى بعد قوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْواتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] أي: مع اليومين الأوَّلين، لقوله تعالى في سورة السجدة [آية: ٤]: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، ثم لما تمَّ له عالم الملك عمد إلى تدبيره، فدبر الأمر مِنَ السماء إِلَى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالي والأيام.

ثم أمرهم بأن يدعوه متذلِّلين مخلصين فقال:

(٥٥) ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: ذوي تضرع وخفية، فإن الإخفاء دليل الإخلاص. (أقول: ولذا لا بد للمسلم أن يكون رقيباً على حاله لئلا ينشرد عن الإخلاص) ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ المجاوزين ما أُمِروا به في الدعاء وغيره. نبَّه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به، كرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصعود إلى السماء. وقيل: هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه.

(٥٦) ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي (أقول: الكفر للكفار، والمعاصي للمسلمين) ﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ ببعث الأنبياء وشرع الأحكام ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ذوي خوف من الردِّ لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم، وطمعٍ في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ ترجيحٌ للطمع، وتنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة.

(٥٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا﴾ بشرى ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قُدَّام رحمته، يعني المطر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ أي: حملت ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء ﴿سُقْنَـٰهُ﴾ أي: السحاب ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ بالبلد أو بالسحاب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل أنواعها ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها (أقول: أي يردُّ أرواحهم إلى أبدانهم، إذا مات الإنسان فإن الروح لا يموت، بعد خروج الموتى من الأجداث يلتحق الروح بالأبدان) ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ فتعلمون أن من قَدِرَ على ذلك قَدِرَ على هذا.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

(٥٨) ﴿**وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ**﴾ الأرض الكريمة التربة ﴿**يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ**﴾ بمشيئته وتيسيره ﴿**وَٱلَّذِى خَبُثَ**﴾ أي: كالحَرَّة (أي: الأرض ذات الحجارة السود) والسبخة (الأرض المالحة) ﴿**لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا**﴾ قليلاً عديم النفع ﴿**كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ**﴾ نرددها ونكررها ﴿**لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** ﴿٥٨﴾﴾ نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها.

(٥٩) ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ**﴾ أي: اعبدوه وحده ﴿**مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴿٥٩﴾﴾ إن لم تؤمنوا. وهو وعيد وبيان للداعي إلى عبادته. واليوم: يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان.

(٦٠) ﴿**قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ**﴾ أي: الأشراف، فإنهم يملؤون العيون رواء (الرواء: المنظر الحسن) ﴿**إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ**﴾ زوال عن الحق ﴿**مُّبِينٍ** ﴿٦٠﴾﴾ بيِّن.

(٦١) ﴿**قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ**﴾ أي شيء من الضلال. بالَغَ في النفي كما بالغوا في الإثبات، وعرَّض لهم به ﴿**وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴿٦١﴾﴾ كأنه قال: ولكني على هدى في الغاية، لأني رسول من الله سبحانه وتعالى.

(٦٢) ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٦٢﴾﴾ أي: أعلم من قدرته وشدة بطشه، أو من جهته بالوحي أشياء لا علم لكم بها.

(٦٣) ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ رسالة أو موعظة ﴿**عَلَىٰ رَجُلٍ**﴾ على لسان رجل ﴿**مِّنكُمْ**﴾ من جملتكم أو من جنسكم. فإنهم كانوا يتعجَّبون من إرسال البشر، ويقولون: ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهذا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ﴿**لِيُنذِرَكُمْ**﴾ عاقبة الكفر والمعاصي ﴿**وَلِتَتَّقُوا۟**﴾ منهما بسبب الإنذار ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴿٦٣﴾﴾ بالتقوى. وفائدةُ حرف الترجي التنبيهُ على أن التقوى غير موجب، والترحمَ من الله سبحانه وتعالى تَفضلٌ، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه، ولا يأمن من عذاب الله تعالى.

(٦٤) ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ**﴾ وهم مَنْ آمن به، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة ﴿**وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ**﴾ بالطوفان ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ** ﴿٦٤﴾﴾ عميَ القلوب غير مستبصرين.

(٦٥) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ عذاب الله تعالى.

(٦٦) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ إذ كان من أشرافهم مَنْ آمن به كمرثد بن سعد ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ متمكِّناً في خفة عقل، راسخاً فيها، حيث فارقتَ دين قومك ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

(٦٧) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (أي: ليس بي والحمد لله أدنى شيء من شوائب السفاهة والخفَّة، ولكنَّني مرسل إليكم بالهداية من ربِّ العالمين سبحانه وتعالى [المقتطف من عيون التفاسير: ٢/ ٢٣٥]).

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

(٦٨) ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾**﴾ (أي: ليس بي ما تزعمون، وإنما أنا رسول ناصح مرسل إليكم بالهداية من ربِّ العالمين جلَّ وعلا [المقتطف من عيون التفاسير: ٢/ ٢٣٥]).

(٦٩) ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ**﴾ سبق تفسيره [في الآية: ٦٣]. وفي إجابة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكفرةَ عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا، والإعراض عن مقابلتهم كمالُ النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح (أقول: والسكوت جواب الأحمق).

﴿**وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**﴾ أي: في مساكنهم، أو في الأرض، بأن جعلكم ملوكاً، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى بحر عمان. خوَّفهم من عقاب الله تعالى، ثم ذكَّرهم بإنعامه ﴿**وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً**﴾ قامة وقوة ﴿**فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ**﴾ تعميمٌ بعد تخصيص ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾**﴾ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح.

(٧٠) ﴿**قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا**﴾ استبعدوا اختصاص الله تعالى بالعبادة والإعراض عما أشرك به آباؤهم، انهماكاً في التقليد وحباً لما أَلِفوه (أي: اعتادوه) ﴿**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ**﴾ من العذاب ﴿**إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾**﴾ فيه.

(٧١) ﴿**قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم**﴾ قد وجب أو حقَّ عليكم ﴿**مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ**﴾ عذاب ﴿**وَغَضَبٌ**﴾ إرادةُ انتقام ﴿**أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ**﴾ أي: في أشياء سميتموها آلهة وليس فيها معنى الإلهية، لأنَّ المستحقَّ للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأنها لو استحقت كان استحقاقها بجعله تعالى، إما بإنزال آية أو بنصب حجة. بيَّن أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمى، وإسناد الإطلاق إلى من لا يؤبه (أي: لا يُعتد) بقوله إظهاراً لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم. واستُدل به على أن الاسم هو المسمى ﴿**فَٱنتَظِرُوٓا۟**﴾ نزول العذاب بكم ﴿**إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾**﴾.

(٧٢) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ في الدين ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ عليهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: استأصلناهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ٧٢﴾ تعريضٌ بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإيمان.

(٧٣) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ قبيلة أخرى من العرب، سُموا باسم أبيهم الأكبر ثمود ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ إضافةُ الناقةِ إلى الله تعالى لتعظيمها، ولأنها جاءت من عنده بلا وسائط وأسباب معهودة، ولذلك كانت آية ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ العشب ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهى عن المسِّ الذي هو مقدِّمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغةً في الأمر وإزاحةً للعذر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾.

وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾

(٧٤) ﴿**وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ أرض الحِجر ﴿**تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا**﴾ أي: تبنون في سهولها، أو من سهولة الأرض بما تعملون منها كاللبن والآجر ﴿**وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ**﴾ أي: بيوتاً من الجبال ﴿**فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ**﴾ (التي أنعم الله تعالى بها عليكم) ﴿**وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾**﴾ (فإنَّ حقَّ الآلاء أن تُشكر فلا يغفل عنها، فكيف بالكفر؟! [المقتطف من عيون التفاسير]).

(٧٥) ﴿**قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ**﴾ عن الإيمان ﴿**لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ**﴾ أي: للذين استضعفوهم واستذلوهم ﴿**لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ**﴾ قالوه على الاستهزاء ﴿**قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾**﴾ عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو نَعَم تنبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن به ومن كفر.

(٧٦) ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾**﴾ على وجه المقابلة، ووضعوا ﴿**ءَامَنتُم بِهِۦ**﴾ موضع ﴿**أُرۡسِلَ بِهِۦ**﴾ ردّاً لما جعلوه معلوماً مسلَّماً.

(٧٧) ﴿**فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ**﴾ فنحروها ﴿**وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ**﴾ واستكبروا عن امتثاله، وهو ما بلغهم صالح عليه الصلاة والسلام بقوله: فَذَرُوها ﴿**وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾**﴾.

(٧٨) ﴿**فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ**﴾ الزلزلة ﴿**فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾**﴾ خامدين ميتين.

(٧٩) ﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾**﴾ ظاهِرُهُ أن توليه عنهم كان بعد أن أبصرهم جاثمين، ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم كما خاطب رسولُ الله ﷺ أهل قليب بدر، وقال: «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً» [متفق عليه]. أو ذَكَرَ ذلك على سبيل التحسُّر عليهم.

(٨٠) ﴿**وَلُوطًا**﴾ أي: وأرسلنا لوطاً ﴿**إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ**﴾ توبيخٌ وتقريعٌ على تلك الفعلة المتمادية في القبح ﴿**مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾**﴾ ما فعلها قبلكم أحد قط.

(٨١) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهو أبلغ في الإنكار والتوبيخ، وفي التقييد بها ﴿شَهْوَةً﴾ وصفهم بالبهيميَّة الصِّرفة، وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلبَ الولد وبقاء النوع، لا قضاء الوطر ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم التي أدَّت بهم إلى ارتكاب أمثالها، وهي اعتياد الإسراف في كلِّ شيء؛ أو عن الإنكار عليها إلى الذمِّ على جميع معايبهم.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

(٨٢) ﴿**وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ**﴾ أي: ما جاؤوا بما يكون جواباً عن كلامه، ولكنهم قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه فيمن معه من المؤمنين من قريتهم والاستهزاء بهم، فقالوا: ﴿**إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ أي: من الفواحش.

(٨٣) ﴿**فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ**﴾ أي: مَنْ آمن به ﴿**إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ**﴾ استثناء من أهله، فإنها كانت تُسِرُّ الكفر ﴿**كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾**﴾ من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا.

(٨٤) ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ**﴾ أي: نوعاً من المطر عجيباً، وهو مبيَّن بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] ﴿**فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾**﴾ (الكافرين).

(٨٥) ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ**﴾ يريد المعجزة التي كانت له، وليس في القرآن أنها ما هي ﴿**فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ**﴾ ولا تنقصوهم حقوقهم. وإنما قال أشياءهم للتعميم، تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير ﴿**وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ بالكفر والحيف (أي: الظلم) ﴿**بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ**﴾ بعد ما أصلح أمرها أو أهلها الأنبياءُ وأتباعُهم بالشرائع ﴿**ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾**﴾ إشارةٌ إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه.

(٨٦) ﴿**وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ**﴾ بكل طريق من طرق الدين كالشيطان. وقيل: كانوا يقطعون الطريق ﴿**وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ**﴾ وتطلبون لسبيل الله تعالى عوجاً بإلقاء الشبه، أو وصفها للناس بأنها معوجَّة ﴿**وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا**﴾ عَددكم أو عُددكم ﴿**فَكَثَّرَكُمْۖ**﴾ بالبركة في النسل أو المال ﴿**وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾**﴾ من الأمم قبلكم فاعتبروا بهم.

(٨٧) ﴿**وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ**﴾ فتربصوا ﴿**حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ**﴾ أي: بين الفريقين، بنصر المحقين على المبطلين. فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ﴿**وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾**﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه (أي: لا ظلم فيه).

۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

(٨٨) ﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾ أي: ليكوننَّ أحد الأمرين: إما إخراجكم من القرية، أو عودكم في الكفر. وشعيب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غلَّبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجرى الجواب في قوله ﴿**قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾**﴾ أي: كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدوننا في حال كراهتنا؟

(٨٩) ﴿**قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾ قد اختلقنا عليه ﴿**إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا**﴾ أي: قد افترينا الآن إن هممنا بالعود بعد الخلاص منها، حيث نزعم أن لله تعالى نداً (فرض محال)، وأنه قد تبين لنا أنَّ ما كنَّا عليه باطل وما أنتم عليه حق ﴿**وَمَا يَكُونُ لَنَا**﴾ وما يصحُّ لنا ﴿**أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا**﴾ خذلاننا وارتدادنا. وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله تعالى. وقيل: أراد به حسم طمعهم في العود بالتعليق على ما لا يكون ﴿**وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء مما كان ومما يكون منا ومنكم ﴿**عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا**﴾ في أن يثبِّتنا على الإيمان (نعوذ بالله أن نخالف الإيمان بالله تعالى) ويخلِّصنا من الأشرار ﴿**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ**﴾ احكم بيننا وبينهم ﴿**وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾**﴾.

(٩٠) ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا**﴾ وتركتم دينكم ﴿**إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾**﴾ لاستبدالكم ضلالته بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف.

(٩١) ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**﴾ الزلزلة. وفي سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣] ولعلها كانت من مباديها ﴿**فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾**﴾ أي: في مدينتهم.

(٩٢) ﴿**الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا**﴾ أي: استؤصلوا كأن لم يقيموا بها (و﴿لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾: لم يقيموا في دارهم منعمين) ﴿**الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾**﴾ ديناً ودنيا، لا الذين صدَّقوه واتبعوه كما زعموا، فإنهم الرابحون في الدارين.

(٩٣) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ قاله (بعد هلاكهم) تأسفاً بهم لشدة حزنه عليهم، ثم أنكر على نفسه فقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم، أو قاله اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم. والمعنى: لقد بالغت في الإبلاغ والإنذار، وبذلت وسعي في النصح والإشفاق، فلم تصدِّقوا قولي، فكيف آسى عليكم.

(٩٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالبؤس والضرِّ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ حتى يتضرَّعوا ويتذلَّلوا.

(٩٥) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامةَ والسعةَ، ابتلاءً لهم بالأمرين ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ حتى كثروا عَدَداً وعُدَداً ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ كفراناً لنعمة الله تعالى ونسياناً لذكره، واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء، وقد مسَّ آباءنا منه مثل ما مسَّنا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ بنزول العذاب.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

(٩٦) ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ**﴾ يعني القرى المدلول عليها بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤]، وقيل: مكة وما حولها ﴿**ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟**﴾ مكان كفرهم وعصيانهم ﴿**لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ لوسَّعنا عليهم الخير ويسَّرناه لهم من كل جانب. وقيل: المراد المطر والنبات ﴿**وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟**﴾ الرسل ﴿**فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾**﴾ من الكفر والمعاصي.

(٩٧) ﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ**﴾ المعنى: أبَعْدَ ذلك أمن أهل القرى ﴿**أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا**﴾ (أي: عذابنا) ﴿**بَيَٰتًا**﴾ (أي: ليلًا) ﴿**وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾**﴾.

(٩٨) ﴿**أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾**﴾ يلهون من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم.

(٩٩) ﴿**أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ**﴾ مَكْرُ الله تعالى استعارةٌ لاستدراج العبد، وأخذه من حيث لا يحتسب ﴿**فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ**﴾ (أي: عذاب الله تعالى) ﴿**إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾**﴾ الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار.

(١٠٠) ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ**﴾ أي: يخلفون من خلا قبلهم ويرثون ديارهم ﴿**أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ**﴾ أي: بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم ﴿**وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾**﴾ سماع تفهُّم واعتبار.

(١٠١) ﴿**تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ**﴾ يعني قرى الأمم المارِّ ذكرهم ﴿**نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ**﴾ بالمعجزات ﴿**فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟**﴾ عند مجيئهم بها (أي: بالمعجزات) ﴿**بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ**﴾ بما كذبوه من قَبل الرسل عليهم السلام، بل كانوا مستمرين على التكذيب. أي: فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل عليهم السلام، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة ﴿**كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾**﴾ فلا تلين شكيمتهم (عنادهم) بالآيات والنذر.

(١٠٢) ﴿**وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم**﴾ لأكثر الناس ﴿**مِّنْ عَهْدٍ ۖ**﴾ من وفاءِ عهدٍ، فإن أكثرهم نقضوا ما عهد

الله تعالى إليهم في الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، أو ما عهدوا إليه حين كانوا في ضرٍّ ومخافةٍ مثل: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: علمناهم ﴿لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (أقول: أي: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين).

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ الضمير للرسل في قوله: ﴿وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٠١]، أو للأمم ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني المعجزات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ بأن كفروا بها مكان الإيمان الذي هو من حقها لوضوحها ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ (حيث صاروا مُغرَقين [النسفي]).

(١٠٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ إليك.

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

(١٠٥) ﴿**حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ**﴾ المعنى: أنه حق واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله ﴿**قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾**﴾ فخلِّهم حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدَّسة التي هي وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال.

(١٠٦) ﴿**قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ**﴾ من عند من أرسلك ﴿**فَأْتِ بِهَآ**﴾ فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك ﴿**إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾**﴾ في الدعوى.

(١٠٧) ﴿**فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾**﴾ ظاهرٌ أمرُه لا يُشك في أنه ثعبان. وهو الحية العظيمة. روي: أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعر فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وصاح فرعون: يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه فعاد عصا.

(١٠٨) ﴿**وَنَزَعَ يَدَهُۥ**﴾ من جيبه أو من تحت إبطه ﴿**فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾**﴾ أي: بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة، تجتمع عليها النظارة. أو بيضاء للنظار، لا أنها كانت بيضاء في جبلَّتها (خلقيتها). روي: أنه عليه السلام كان آدم (أي: أسمر) شديد الأدمة، فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه ثم نزعها، فإذا هي بيضاء نورانية غلب شعاعها شعاع الشمس.

(١٠٩) ﴿**قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾**﴾ قيل: قاله هو وأشراف قومه على سبيل التشاور في أمره، فحكى عنه في سورة الشعراء [آية: ٣٤] وعنهم هُهنا.

(١١٠) ﴿**يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾**﴾ ماذا تشيرون في أن نفعل.

(١١١) ﴿**قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾**﴾ والإرجاء: التأخير، أي: أخِّرْ أمره.

(١١٢) ﴿**يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾**﴾ كأنه اتفقت عليه آراؤهم، فأشاروا به على فرعون.

(١١٣) ﴿**وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ**﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم ﴿**قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾**﴾ كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر.

(١١٤) ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إنَّ لكم لأجراً ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ زيادة على الجواب لتحريضهم.

(١١٥) ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ خيَّروا موسى مراعاة للأدب أو إظهاراً للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يلقوا قبله.

(١١٦) ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ كرماً وتسامحاً، أو ازدراء (أي: احتقاراً) بهم ووثوقاً على شأنه ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيَّلوا إليها ما الحقيقة بخلافه ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ في فنِّه. روي: أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيَّات ملأت الوادي، وركب بعضها بعضاً.

(١١٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت حية ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: ما يزوِّرونه من الإِفك، وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه. روي: أنها لما تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها أقبلت على الحاضرين، فهربوا وازدحموا حتى هلك جمعٌ عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت، فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا.

(١١٨) ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ فثبت لظهور أمره ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ من السحر والمعارضة.

(١١٩) ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: صاروا أذلاء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين.

(١٢٠) ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ لله تعالى. جعلهم مُلْقَيْنَ على وجوههم تنبيهاً على أن الحق بَهَرهم واضطرهم إلى السجود بحيث لم يبقَ لهم تمالك، أو أن الله تعالى ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كَسْرَ موسى عليه السلام، وينقلب الأمر عليه، أو مبالغة في سرعة خرورهم وشدته.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

(١٢١) ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ (أي: آمنا بالله الواحد الأحد مالك الملك ربِّ العالمين سبحانه وتعالى [المقتطف من عيون التفاسير]).

(١٢٢) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

(١٢٣) ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بالله تعالى، أو بموسى عليه السلام. والاستفهام فيه للإنكار ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ﴾ أي: إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ في مصر قبل أن تخرجوا للميعاد ﴿لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ يعنى القبط، وتخلص لكم ولبني إسرائيل ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ عاقبة ما فعلتم. وهو تهديد مجمل، تفصيله:

(١٢٤) ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ من كل شق طرفاً ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم.

(١٢٥) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ بالموت لا محالة، فلا نبالي بوعيدك، أو إنا منقلبون إلى ربنا وثوابه إن فعلت بنا ذلك، كأنهم استطابوه شغفاً (محبة) على لقاء الله تعالى. أو مصيرُنا ومصيرك إلى ربنا فيحكم بيننا.

(١٢٦) ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ وما تُنكر منا ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ﴾ وهو خير الأعمال وأصل المناقب، ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلباً لمرضاتك، ثم فزعوا إلى الله سبحانه وتعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أفض علينا صبراً يغمرنا كما يفرغ الماء، أو صب علينا ما يطهِّرنا من الآثام، وهو الصبر على وعيد فرعون ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ ثابتين على الإِسلام. قيل: إنه فعل بهم ما أوعدهم به (أقول: فلم يرجع فرعون، وهم لم يرجعوا عن الإسلام).

(١٢٧) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بتغيير الناس عليك ودعوتهم إلى مخالفتك ﴿وَيَذَرَكَ﴾ على معنى: أيكون منك ترك موسى ويكون منه تركه إياك ﴿وَءَالِهَتَكَۚ﴾ معبوداتك. قيل: كان يعبد الكواكب. وقيل: صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ كما كنا نفعل من قبل، ليُعلم أنا على ما كنا عليه من

القهر والغلبة، ولا يُتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ غالبون، وهم مقهورون تحت أيدينا.

(١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكيناً لهم ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ تسليةً لهم وتقريراً للأمر بالاستعانة بالله تعالى والتثبت في الأمر ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ وعدٌ لهم بالنصرة، وتذكيرٌ لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له.

(١٢٩) ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: بنو إسرائيل ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ﴾ بإعادته ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تصريحاً بما كنَّى عنه أولاً، لمّا رأى أنهم لم يتسلوا بذلك. ولعله أتى بفعل الطمع لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم. وقد روي أن مصر إنما فتح لهم في زمن داود عليه السلام ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ فيرى ما تعملون من شكر وكفران وطاعة وعصيان، فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم.

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ بالجدوب، لقلة الأمطار والمياه ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بكثرة العاهات ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ لكي يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم فيتعظوا، أو ترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله تعالى ويرغبوا فيما عنده.

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣١) ﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ**﴾ من الخصب والسعة ﴿**قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ**﴾ لأجلنا ونحن مستحقوها ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**﴾ جدب وبلاء ﴿**يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ**﴾ يتشاءموا بهم، ويقولوا: ما أصابتنا إلا بشؤمهم. وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك (أي: الطبائع) وتزيل التماسك، سيما بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثر فيهم، بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي ﴿**أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ**﴾ أي: سبب خيرهم وشرهم عنده، وهو حكمته ومشيئته. أو سبب شؤمهم عند الله تعالى، وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾**﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى، أو من شؤم أعمالهم.

(١٣٢) ﴿ **وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾**﴾ أي: لتسحر بها أعيننا وتشبِّه علينا.

(١٣٣) ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ** ﴾ ماء طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل ﴿**وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ**﴾ روي: أنهم مُطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة، وركد على أراضيهم، فمنعهم من الحرث والتصرف فيها، ودام ذلك عليهم أسبوعاً، فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فكشف عنهم، ونبت لهم من الكلأ والزرع ما لم يعهد مثله، ولم يؤمنوا، فبعث الله تعالى عليهم الجراد، فأكلت زروعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب، ففزعوا إليه ثانياً، فدعا وخرج إلى الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها، فلم يؤمنوا، فسلط الله تعالى عليهم القمل، فأكل ما أبقاه الجراد، وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصها، ففزعوا إليه، فرُفع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، ثم أرسل الله تعالى عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تمتلئ

منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي، وأفواههم عند التكلم، ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود، ودعا فكشف الله تعالى عنهم، ثم نقضوا العهود، ثم أرسل الله تعالى عليهم الدم، فصارت مياههم دماً، حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبينات، لا تُشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته عليهم ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

(١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ يعني العذاب ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك وهو النبوة، أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: أقسمنا بعهد الله تعالى عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ولنرسلنَّ.

(١٣٥) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ إلى حدٍّ من الزمان هم بالغوه فمعذَّبون فيه أو مهلكون، وهو وقت الغرق أو الموت. وقيل: إلى أجلٍ عيَّنوه لإيمانهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ من غير تأمل وتوقُّفٍ فيه.

(١٣٦) ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأردنا الانتقام منهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: البحر الذي لا يدرك قعره ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها، حتى صاروا كالغافلين عنها.

(١٣٧) ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء من مستضعِفيهم ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني أرض الشام ومصر. ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة العيش ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ومضت عليهم واتصلت بالإنجاز عِدَتُه إياهم بالنصرة والتمكين ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ بسبب صبرهم على الشدائد ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ وخرَّبنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من القصور والعمارات ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان.

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(١٣٨) ﴿**وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ**﴾ وما بعده. ذكَرَ ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن مَنَّ الله تعالى عليهم بالنعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام، تسليةً لرسول الله ﷺ مما رأى منهم، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم (أقول: هذه طبيعة البشر، إذا أكلوا وشبعوا لا يحمدون الله تعالى، وإذا أُهلكوا أو أُخذوا بما كسبوا يرجعون إلى الله تعالى، فإذا زال ما بهم ينسون النعم وكذلك النقم) روي: أن موسى عليه السلام عبَر بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصاموه شكراً ﴿**فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ**﴾ فمرُّوا عليهم ﴿**يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ**﴾ يقيمون على عبادتها ﴿**قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا**﴾ مثالاً نعبده ﴿**كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ**﴾ يعبدونها ﴿**قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾**﴾ وصَفهم بالجهل المطلق، وأكده لبُعد ما صدر عنهم عن العقل بعد ما رأوا من الآيات الكبرى.

(١٣٩) ﴿**إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ**﴾ إشارة إلى القوم ﴿**مُتَبَّرٞ**﴾ مكسَّر مدمَّر ﴿**مَّا هُمۡ فِيهِ**﴾ يعني أن الله تعالى يهدم دينهم الذي هم عليه، ويحطِّم أصنامهم ويجعلها رِضاضاً (فتاتاً) ﴿**وَبَٰطِلٞ**﴾ مضمحِلٌّ ﴿**مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾**﴾ من عبادتها، وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى. وإنما بالَغَ في هذا الكلام للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة.

(١٤٠) ﴿**قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا**﴾ أطلب لكم معبوداً ﴿**وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾**﴾ والحال أنه خصَّكم بنعم لم يعطها غيركم.

(١٤١) ﴿**وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ**﴾ واذكروا صنيعه جل وعلا معكم في هذا الوقت ﴿**يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾**﴾ وفي الإنجاء أو العذاب نعمةٌ أو محنةٌ عظيمة.

(١٤٢) ﴿**وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ**﴾ ذا القعدة ﴿**وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ**﴾ من ذي الحجة ﴿**فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ**﴾ روي: أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله

تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره الله تعالى بصوم ثلاثين، فلما أتمَّ أنكر خُلُوف فيه (أي: فمه) فتسوَّك، فقالت الملائكة: كنا نشمُّ منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ كن خليفتي فيهم ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم، أو كن مصلحاً ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ ولا تتبع من سلك الإِفساد، ولا تطعْ من دعاك إليه.

(١٤٣) ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقَّتناه ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ من غير وسيط كما يكلم الملائكة. وفيما روي: أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيهٌ على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدَثين ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أرني نفسك بأن تمكنني من رؤيتك، أو تتجلى لي فأنظر إليك وأراك. وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة، لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله تعالى (أقول: يعني إذا أعطى الله تعالى القابلية للرائي يرى) ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ استدراكٌ يريد أن يبيِّن به أنه لا يطيقه. وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على الجواز، ضرورة أن المعلَّق على الممكن ممكن ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ ظهر له عظمته، وتصدى له اقتداره وأمره، وقيل: أعطى له حياة ورؤية حتى رآه ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مدكوكاً مفتتاً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مغشياً عليه من هول ما رأى ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ﴾ تعظيماً لما رأى ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجراءة والإِقدام على السؤال من غير إذن ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

(١٤٤) ﴿**قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ**﴾ اخترتك ﴿**عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ أي: الموجودين في زمانك؛ وهارونُ وإن كان نبياً كان مأموراً باتباعه، ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع ﴿**بِرِسَٰلَٰتِي**﴾ يعني: أسفار التوراة ﴿**وَبِكَلَٰمِي**﴾ وبتكليمي إياك ﴿**فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ**﴾ أعطيتك من الرسالة ﴿**وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾**﴾ على النعمة فيه. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وإعطاء التوراة كان يوم النحر.

(١٤٥) ﴿ **وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ**﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين ﴿**مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ**﴾ أي: وكتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام ﴿**فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ**﴾ بجدٍّ وعزيمة (أقول: على المؤمن أن يأخذ بالقرآن والسنة النبوية، فهذا سيدنا موسى عليه السلام وهو من أولي العزم يقول له ربه: خذ ما آتيتك بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها. هل نحن خارجون عن هذا؟ لا، ولكن بطبيعتنا البشرية الفرعونية نبعد عنه ونغتر. فلا تغتر بركعات أنت تصليها ولا تدري هل تُقبَل أو لا تُقبَل) ﴿**وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ**﴾ أي: بأحسن ما فيها، كالصبر والعفو، بالإضافة إلى الانتصار والاقتصاص، على طريقة الندب والحث على الأفضل ﴿**سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾**﴾ دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها، أو منازل عاد وثمود وأضرابهم لتعتبروا فلا تفسقوا، أو دارهم في الآخرة وهي جهنم.

(١٤٦) ﴿ **سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ**﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس ﴿**ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿**بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ**﴾ أي: يتكبرون بما ليس بحق، وهو دينهم الباطل ﴿**وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ**﴾ منزلَة، أو معجزة ﴿**لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا**﴾ لعنادهم واختلال عقولهم، بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد ﴿**وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا**﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم ﴿**وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾**﴾ أي: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم للآيات.

(١٤٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أي: ولقائهم الدار الآخرة، أو ما وعد الله تعالى في الدار الآخرة ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾ لا ينتفعون بها ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾ إلا جزاء أعمالهم.

(١٤٨) ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه إلى الميقات ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ التي استعاروا من القبط حين همُّوا بالخروج من مصر ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ بدناً ذا لحم ودم، أو جسداً من الذهب خالياً من الروح ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ صوت البقر ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾ تقريعٌ على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر. والمعنى: ألم يروا حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلامٍ ولا على إرشادِ سبيلٍ كآحاد البشر، حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ إلهاً ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ واضعين الأشياء في غير مواضعها، فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم (أي: ليس غريباً عليهم).

(١٤٩) ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ كنايةٌ عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسِّر يعضُّ يده غماً (يعضُّ على أصابعه) ﴿وَرَأَوۡاْ﴾ وعلموا ﴿أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ باتخاذ العجل ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوراة ﴿وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ بالتجاوز عن الخطيئة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ (أقول: هذا قدر الله تعالى، ولكن الطبيعة البشريَّة معرَّضة للمخالفة).

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

(١٥٠) ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ شديد الغضب ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ فعلتم بعدي حيث عبدتم العجل، والخطاب للعبَدَة. أو قمتم مقامي فلم تكفوا العبدة. والخطاب لهارون عليه السلام والمؤمنين معه ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين، وقدَّرتم موتي وغيَّرتم بعدي كما غيرَت الأمم بعد أنبيائهم؟ ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ طرحها من شدَّة الغضب حميَّة للدِّين ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ توهماً بأنه قصَّر في كفهم. وهارونُ عليه السلام كان أكبر منه بثلاث سنين، وكان حمولاً (أي: حليماً) ليناً، ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيل ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ ذكرَ الأمَّ ليرقِّقه عليه، وكانا من أب وأم ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ إزاحةً لتوهم التقصير في حقه. والمعنى: بذلت وسعي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة أو نسبة التقصير.

(١٥١) ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ بما صنعت بأخي ﴿وَلِأَخِى﴾ إن فرَّط في كفهم؛ ضمَّه إلى نفسه في الاستغفار ترضية له ودفعاً للشماتة عنه ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا.

(١٥٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو ما أمَرهم به من قتل أنفسهم ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي خروجهم من ديارهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ على الله تعالى، ولا فرية أعظم من فريتهم، وهي قولهم: هذا إلهكم (أي: العجل) وإله موسى عليه السلام؛ ولعله لم يفترِ مثلها أحدٌ قبلهم ولا بعدهم (أقول: ما سمعنا مثله).

(١٥٣) ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد السيئات

﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضاه من الأعمال الصالحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾ وإنْ عَظُم الذنب كجريمة عبَدَة العجل، وكثُرَ كجرائم بني إسرائيل.

(١٥٤) ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سكن ﴿عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ باعتذار هارون عليه السلام، أو بتوبتهم ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾ وفيما نُسِخَ فيها أي: كُتِب ﴿هُدٗى﴾ بيان للحقِّ ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ إرشاد إلى الصلاح والخير ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾ (أي: يرهبون معصية الله تعالى، أو عقابَه، لأجل ربِّهم لا رياءً ولا سمعة [حاشية شيخ زاده]).

(١٥٥) ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ أي: من قومه ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ فلما دنوا من الجبل غشيه غمام، فدخل موسى عليه السلام بهم الغمام وخروا سجداً، فسمعوه تعالى يكلِّم موسى عليه السلام، يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي: الصاعقة، أو رجفة الجبل فصعقوا منها (وماتوا) ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ ابتلاؤك، حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ ضلالَهُ بالتجاوز عن حدِّه ﴿وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾ هُداهُ، فيقوى بها إيمانه ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ القائم بأمرنا ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ بمغفرة ما قارفنا (أي: اكتسبنا) ﴿وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة.

۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

(١٥٦) ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ حُسْنَ معيشةٍ وتوفيقَ طاعةٍ ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الجنة ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ تبنا إليك ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ تعذيبه ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ في الدنيا المؤمنَ والكافرَ، بل المكلف وغيره ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ فسأثبتها في الآخرة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خصها بالذكر لإنافتها (لشرفها) ولأنها كانت أشق عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ فلا يكفرون بشيء منها.

(١٥٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾ المراد مَنْ آمن منهم بمحمد ﷺ، وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى، ونبياً بالإضافة إلى العباد ﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ. وصَفه به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ اسماً وصفة ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما حرِّم عليهم كالشحوم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ كالدم ولحم الخنزير، أو كالربا والرشوة ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة؛ كتعيين القصاص في العمد والخطأ، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظموه بالتقوية ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: مع نبوته يعني القرآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية.

(١٥٨) ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ الخطاب عام، وكان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقلين (أقول: يدخل فيه الملائكة للتشريف)، وسائر الرسل إلى أقوامهم ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

(١٥٩) ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يهدون الناس مُحقِّين، أو بكلمة الحق ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ بينهم في الحكم. والمراد بها الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه.

وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

(١٦٠) ﴿**وَقَطَّعۡنَٰهُمُ**﴾ وصيَّرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض ﴿**ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا**﴾ أي: اثنتي عشرة قبيلة ﴿**أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ**﴾ في التيه ﴿**أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ**﴾ (أي: فانفجرت) ﴿**ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ**﴾ كل سبط ﴿**مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ**﴾ ليقيهم حرَّ الشمس ﴿**وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ**﴾ أي: وقلنا لهم كلوا ﴿**مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾**﴾ بالكفران.

(١٦١) ﴿**وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ**﴾ بيت المقدس ﴿**وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾**﴾ وعدٌ بالغفران والزيادة عليه بالإثابة.

(١٦٢) ﴿**فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ**﴾ بدَّلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار بطلب ما يشتهون من أعراض الدنيا ﴿**فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾**﴾ عذاباً مقدَّراً من السماء بسبب ظلمهم، والمراد به الطاعون.

(١٦٣) ﴿**وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ**﴾ عن خبرها وما وقع بأهلها ﴿**ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ**﴾ قريبة منه، وهي أيلة ﴿**إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ**﴾ يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت ﴿**إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ**﴾ يوم تعظيمهم أمر السبت ﴿**شُرَّعٗا**﴾ أي: ظاهرةً على وجه الماء ﴿**وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ**﴾ لا يدخلون في السبت ﴿**لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾**﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

(١٦٤) ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ**﴾ جماعة من أهل القرية، يعني صلحاءهم الذين اجتهدوا في موعظتهم حتى أيسوا من اتّعاظهم ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ في الآخرة لتماديهم في العصيان ﴿**قَالُوا۟**﴾ (أي: الصلحاء) ﴿**مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ**﴾ أي: موعظتنا إنهاء عذر إلى الله تعالى حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر ﴿**وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾**﴾ إذ اليأس لا يحصل إلا بالهلاك.

(١٦٥) ﴿**فَلَمَّا نَسُوا۟**﴾ تركوا تركَ الناسي ﴿**مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ**﴾ ما ذكَّرهم به صلحاؤهم ﴿**أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟**﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله تعالى ﴿**بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ**﴾ شديد (أقول: القرآن الكريم لم يبيِّن القسم الثالث الساكتين عن النهي هل نجَوا أم لا) ﴿**بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾**﴾ بسبب فسقهم.

(١٦٦) ﴿**فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ**﴾ تكبروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿**قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾**﴾ الظاهرُ يقتضي أن الله تعالى عذَّبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم (قلنا لهم على لسان نبيهم داود عليه السلام).

(١٦٧) ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ المعنى: وإذ أوجب ربك على نفسه ليسلطنَّ على اليهود ﴿**مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ**﴾ كالإذلال وضرب الجزية. بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخرب ديارهم وقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدُّونها إلى المجوس حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ، ففعل ما فعل بهم، ثم ضرب عليهم الجزية ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ**﴾ عاقبهم في الدنيا ﴿**وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾**﴾ لمن تاب وآمن.

(١٦٨) ﴿**وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا**﴾ وفرَّقناهم فيها بحيث لا يكاد يخلو قُطر منهم، تتمة لإدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط ﴿**مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ**﴾ وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم ﴿**وَمِنْهُمْ دُونَ**

ذَٰلِكَۖ﴾ أي: منحطُّون عن الصلاح، وهم كفرَتُهم وفسَقتُهم ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالنعم والنقم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ عما كانوا عليه.

(١٦٩) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ المرادُ به الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة من أسلافهم، يقرؤونها ويقفون على ما فيها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يعني الدنيا ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنه ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: يرجون المغفرة مصرِّين على الذنب، عائدين إلى مثله، غير تائبين عنه ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في الكتاب ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ المراد توبيخهم على البتِّ (القطع) بالمغفرة مع عدم التوبة. والدلالةُ على أنه افتراء على الله تعالى وخروج عن ميثاق الكتاب ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ﴾ مما يأخذ هؤلاء ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ فيعلموا ذلك ولا يستبدلوا الأدنى الدنيء المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلَّد.

(١٧٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ (أقول: أي والذين يستمسكون بكتاب الله تعالى ويلتزمون بأحكامه ويحافظون على أداء الصلاة بأركانها وآدابها فلن نضيع لهم أجرهم لتقواهم وصلاحهم).

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

(١٧١) ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: قلعناه ورفعناه فوقهم ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ سقيفة، وهي كلُّ ما أظلَّك ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ وتيقنوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ساقطٌ عليهم، لأن الجبل لا يثبت في الجو، ولأنهم كانوا يوعدون به ﴿خُذُوا۟﴾ أي: وقلنا خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِدٍّ وعزم على تحمل مشاقِّه ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ بالعمل به، ولا تتركوه كالمنسيِّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

(١٧٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أخرجَ من أصلابهم نسلَهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: ونصب لهم دلائل ربوبيته، وركَّب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى، فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكُّنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف. ويدلُّ عليه قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: كراهة أن تقولوا ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ لم ننبَّه عليه بدليل.

(أقول: هذا الوعد ثابت، لكنهم إذا جاؤوا إلى الدنيا فالذين أراد الله تعالى أن لا ينسوه لم ينسوا، وبقوا على هذا الوعد، والذين نسوا وعْدَهم لله تعالى بقوا في الدنيا كافرين).

(١٧٣) ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم، لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكُّن من العلم به لا يصلح عذراً ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك. وقيل: لما خلق الله تعالى آدم أخرج من ظهره ذرية كالذر، وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك. والمقصود من إيراد هذا الكلام هٰهنا إلزام اليهود بمقتضى الميثاق العام بعدما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية، ومنعهم عن التقليد، وحملهم على النظر والاستدلال، كما قال:

(١٧٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: عن التقليد واتباع الباطل.

(١٧٥) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ هو أحد علماء بني إسرائيل، وهو بلعم بن باعوراء، من الكنعانيين، أوتي علمَ بعض كتب الله تعالى ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات، بأن كفر بها

وأعرض عنها ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ حتى لحقه وأدركه قريناً له ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ فصار من الضالين.

(١٧٦) ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿بِهَا﴾ أي: بسبب تلك الآيات وملازمتها ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ مالَ إلى الدنيا أو إلى السفالة ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه، وأعرض عن مقتضى الآيات، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ فصفته التي هي مثلٌ في الخسة ﴿كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ كصفته في أخسِّ أحواله، وهو ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ أي: يلهث دائماً، سواء حُمل عليه بالزجر والطرد أو تُرك ولم يتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ تفكراً يؤدي بهم إلى الاتعاظ.

(١٧٧) ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم بها ﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧﴾ (اللهم لا تجعلنا من الذين يأمنون من عذابك إن عذابك غير مأمون).

(١٧٨) ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ تصريحٌ بأن الهدى والضلال من الله تعالى، وأن هداية الله تعالى تختص ببعضٍ دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتداء (أقول: والاهتداء متعلِّق بمشيئته جل وعلا)، والاقتصارُ في الإِخبار عمن هداه الله تعالى بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء، وتنبيهٌ على أنه في نفسه كمالٌ جسيمٌ ونفعٌ عظيمٌ، لو لم يحصل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوانُ لها.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٧٩) ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا**﴾ خلقنا ﴿**لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ**﴾ يعني المصرِّين على الكفر في علمه تعالى ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا**﴾ أي: لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله ﴿**وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا**﴾ أي: لا ينظرون إلى ما خلَقَ الله تعالى نظر اعتبار ﴿**وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ الآيات والمواعظ سماعَ تأمُّلٍ وتذكُّر ﴿**أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ**﴾ في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر، أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها ﴿**بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار، وتجتهد في جلبها ودفعها غاية جهدها، وهم ليسوا كذلك، بل أكثرهم يعلم أنه معانِد فيقدم على النار ﴿**أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾**﴾ الكاملون في الغفلة.

(١٨٠) ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ لأنها دالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ، وقيل: الصفات (أقول: وأسماء الله تعالى توقيفيَّة) ﴿**فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ فسمُّوه بتلك الأسماء ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**﴾ واتركوا تسمية الزائغين فيها، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه ﴿**سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾**﴾.

(١٨١) ﴿**وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾**﴾ ذكَرَ ذلك بعد ما بيَّن أنه خلق للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق، للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة أمة هادين بالحق عادلين في الأمر. واستُدِلَّ به على صحة الإجماع، لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة،لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] إذ لو اختص بعهد الرسول ﷺ أو غيره لم يكن لذكره فائدة فإنه معلوم.

(١٨٢) ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم**﴾ سنستدنيهم إلى الهلاك قليلاً قليلاً ﴿**مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾**﴾ ما نريد بهم، وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغيِّ حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

(١٨٣) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ وأُمهِلهم ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ إن أخذي شديد. وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

(١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾ من جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ موضِّحٌ إنذارَه بحيث لا يخفى على ناظر.

(١٨٥) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ نظر استدلال ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها، ليدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكها ومتولي أمرها، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ﴾ المعنى: أو لم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مغافصة (أي: مفاجأة) الموت ونزول العذاب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ أي: بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان. كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر.

(١٨٦) ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ (أي: من يضللِ اللهُ تعالى لا يهده أحد) ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ (كفرهم) ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ (يتحيَّرون).

(١٨٧) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: عن القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ﴾ متى إرسَاؤهَا، أي: إثباتها واستقرارها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ استأثر به، لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ لا يُظهر أمرها في وقتها ﴿إِلَّا هُوَۚ﴾ والمعنى أن الخفاء بها مستمر على غيره جل وعلا إلى وقت وقوعها ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ عظُمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ﴾ إلا فجأة على غفلة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ﴾ عالمٌ بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ أن عِلْمَها عِندَ الله تعالى لم يؤته أحداً من خلقه.

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

(١٨٨) ﴿**قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا**﴾ جلبَ نفعٍ ولا دفعَ ضرٍّ؛ وهو إظهار العبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب ﴿**إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ**﴾ من ذلك، فيلهمني إياه ويوفقني له ﴿**وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ**﴾ ولو كنت أعلمه لخالفتُ حالي ما هي عليه من استكثار المنافع واجتناب المضار حتى لا يمسني سوء ﴿**إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ**﴾ ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ﴿**لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾**﴾ فإنهم المنتفعون بهما.

(١٨٩) ﴿**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ**﴾ هو آدم ﴿**وَجَعَلَ مِنۡهَا**﴾ من جسدها من ضلع من أضلاعها، أو من جنسها ﴿**زَوۡجَهَا**﴾ حواء ﴿**لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ**﴾ ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا**﴾ أي: جامعها ﴿**حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا**﴾ خفَّ عليها، ولم تلق منه ما تلقى منه الحوامل غالباً من الأذى ﴿**فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ**﴾ فاستمرت به، أي: قامت وقعدت ﴿**فَلَمَّآ أَثۡقَلَت**﴾ صارت ذات ثقل بكبر الولد في بطنها ﴿**دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا**﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنه ﴿**لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾**﴾ لك على هذه النعمة المجدّدة.

(١٩٠) ﴿**فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ**﴾ (أقول: المقصود هنا ذريتهما وليس هما) أي: جعل أولادهما له شركاء ﴿**فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾**﴾.

(١٩١) ﴿ **أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾**﴾ يعني الأصنام.

(١٩٢) ﴿ **وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا**﴾ أي: لعبدَتهم ﴿**وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾**﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها.

(١٩٣) ﴿**وَإِن تَدۡعُوهُمۡ**﴾ أي: المشركين ﴿**إِلَى ٱلۡهُدَىٰ**﴾ إلى الإسلام ﴿**لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾**﴾.

(١٩٤) ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿**عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ**﴾ من حيث إنها مملوكة مسخرة ﴿**فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾**﴾ أنهم آلهة.

(١٩٥) ﴿ **أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ**﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿**ثُمَّ كِيدُونِ**﴾ فبالغوا فيما تقدرون عليه من مكروهي أنتم وشركاؤكم ﴿**فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾**﴾ فلا تمهلون، فإني لا أبالي بكم لوثوقي على ولاية الله تعالى وحفظه.

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾

(١٩٦) ﴿**إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ**﴾ القرآن ﴿**وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾**﴾ أي: ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده، فضلاً عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

(١٩٧) ﴿**وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾**﴾ من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم.

(١٩٨) ﴿**وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾**﴾ يشْبِهون الناظرين إليك، لأنهم صُوِّروا بصورةِ من ينظر إلى من يواجهه.

(١٩٩) ﴿**خُذِ ٱلۡعَفۡوَ**﴾ أي: خذ مَا عفا لك من أفعال الناس وتسهَّلْ ولا تطلب ما يشق عليهم، أو خذ العفو عن المذنبين ﴿**وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ**﴾ المعروف، المستحسن من الأفعال ﴿**وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾**﴾ فلا تمارِهم (أي: فلا تجادلهم) ولا تكافئهم بمثل أفعالهم. وهذه الآية جامعةٌ لمكارم الأخلاق، آمرةٌ للرسول ﷺ باستجماعها.

(٢٠٠) ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ**﴾ يسمع استعاذتك ﴿**عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾**﴾ يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه، أو سَمِيعٌ بأقوال من آذاك، عَلِيمٌ بأفعاله، فيجازيه عليها مغنياً إياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان.

(٢٠١) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ**﴾ لَمَّة (أي: خاطر) منه. كأنها طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم. أو مِن طاف به الخيال (أقول: كلُّ ما يوسوس به الشيطان خيال) ﴿**تَذَكَّرُواْ**﴾ مَا أَمَرَ الله تعالى بِهِ ونهى عنه ﴿**فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾**﴾ (لحيل الشيطان وحيل النفس الأمارة) فيتحرزون عنها ولا يتبعونها.

(٢٠٢) ﴿**وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ**﴾ أي: وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا يمدهم الشياطين ﴿**فِي ٱلۡغَيِّ**﴾ بالتزيين والحمل عليه ﴿**ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾**﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يُرْدوهم.

(٢٠٣) ﴿**وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ**﴾ من القرآن أو مما اقترحوه ﴿**قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ**﴾ هلَّا جمعتها تقوُّلًا من

نفسك كسائر ما تقرؤه، أو هلَّا طلبتها من الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ لست بمختلِقٍ للآيات، أو لست بمقترح لها ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب، بها يبصَر الحقُّ ويدرَك الصواب ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ نزلت في الصلاة، كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له. وظاهر اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقاً، وعامة العلماء على استحبابهما خارج الصلاة. واحتجَّ به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف (أقول: ليس ضعيفاً، لأنه هذا قول المجتهد، وهو الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه، وإن كانوا في صلاة السر يقرؤون الفاتحة وراء الإمام في مذهب الأحناف، كما قال الإمام محمد رحمه الله تعالى).

(٢٠٥) ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ عامٌّ في الأذكار، من القراءة والدعاء وغيرهما، أو أمرٌ للمأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته، كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه (أقول: وهو كذلك ليس ممنوعاً عند الأحناف كما قال الإمام محمد رحمه الله تعالى) ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعاً وخائفاً ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً فوق السرِّ ودون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ بأوقات الغدو والعشيات ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ عن ذكر الله تعالى.

(٢٠٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني ملائكة الملأ الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ ويخصُّونه بالعبادة والتذلل، لا يشركون به غيره. وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين، ولذلك شُرع السجود لقراءته.

وعن النبي ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، فيقول: يا ويلهُ أُمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمِرتُ بالسجود فعصيت فلي النار» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الأعراف
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ الأَنفَالِ ٨ ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال

مدنيَّة، وآياتها خمس وسبعون

(١) ﴿**يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ**﴾ أي: الغنائم، يعني حكمَها؛ وإنما سميت الغنيمة نَفَلًا لأنها عطية من الله تعالى وفضل منه جل وعلا ﴿**قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ**﴾ أي: أمرُها مختصٌّ بهما، يقسمها الرسول ﷺ على ما يأمره الله تعالى به. وسبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم ومن يقسم، المهاجرون منهم أو الأنصار. وقيل: شَرَطَ رسول الله ﷺ لمن كان له غَناء أن ينفله، فتسارَعَ شبانهم حتى قَتلوا سبعين وأسَروا سبعين، ثم طلبوا نفلهم (أي: طلبوا ما غنموا). وكان المال قليلاً، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رِدْءاً لكم وفئة تنحازون إلينا، فنزلت، فقسَّمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء. ولهذا قيل: لا يلزم الإمام أن يفي بما وعد، وهو قول الشافعي رضي الله عنه. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير، فقتلتُ به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، فأتيتُ به رسول الله ﷺ واستوهبته منه فقال: ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القبض (مكان مال الغنائم)، فطرحته وبي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قَتْلِ أخي وأَخْذِ سَلبي، فما جاوزتُ إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي، فاذهب فخذه [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى مختصراً].

﴿**فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ**﴾ في الاختلاف والمشاجرة ﴿**وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾ الحالَ التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتسليم أمره إلى الله تعالى والرسول ﷺ ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ**﴾ فيه ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾**﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك (أقول: لأن من أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله تعالى). أو إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان. (اللهم اجعلنا من المؤمنين الموافقين للكتاب والسنة)

(٢) ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ أي: الكاملون في الإيمان ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ فَزِعت لذكره

استعظاماً له وتهيباً من جلاله ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لزيادة المؤمَن به، أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ يفوِّضون إليه أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ (جمع بين أعمال القلوب من الوَجَل والإخلاص والتوكُّل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة [المدارك للنسفي]).

(٤) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حقَّقوا إيمانهم بأن ضمُّوا إليه مكارم أعمال القلوب، من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسنَ أفعال الجوارح التي هي العيار عليها (أي: المعيار)، من الصلاة والصدقة ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كرامةٌ وعلوُّ منزلةٍ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لِما فرط منهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ أُعِدَّ لهم في الجنة، لا ينقطع عدده ولا ينتهي أمده.

(٥) ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ أي: أخرجك في حال كراهتهم. وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة النجاءَ النجاء (أي: الزموا الإسراع) على كل صعب وذلول، عيركم وأموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً. وقد رأت قبل ذلك بثلاثٍ عاتكة بنت عبد المطلب أن ملَكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها، فلم يبق بيت في مكة إلا أصابه شيء منها، فحدثت بها العباس، وبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما يرضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة، ومضى بهم إلى بدر، وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسُوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله ﷺ بوادي ذفران، فنزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين، إما العير وإما قريش، فاستشار فيه أصحابه، فقال بعضهم: هلَّا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له، إنما خرجنا للعير، فردَّ عليهم وقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله! عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وقالا فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه فقال: انظر أمرك فامض فيه، فوالله لو سرتَ إلى عدن أبيَن ما تخلَّف عنك رجل من الأنصار، ثم قال مقداد بن عمرو رضي الله تعالى عنه: امضِ لِما أمرك الله، فإنا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وهو يريد الأنصار لأنهم كانوا عددهم، وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم برآء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوَّف أن لا يروا نصرته إلا على عدوٍّ دَهَمه (أي: هاجمه) بالمدينة، فقام سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: أجل، قال: قد آمنَّا بك وصدَّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على

السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لِما أردتَ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصُبُرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللقاء، ولعل الله تعالى يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله تعالى، فنشَّطه قوله، ثم قال: «سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» [رواه البيهقي في الدلائل وابن هشام في السيرة].

(٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق، لإيثارهم تلقي العير عليه ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لَهم أنهم يُنصرون أينما توجهوا بإعلام الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ أي: يكرهون القتال كراهة من يُساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه. وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم، إذ روي أنهم كانوا رَجَّالة (أي: مشاة) وما كان فيهم إلا فارسان. وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

(٧) ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ يعني العير، فإنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، ولذلك يتمنونها ويكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِمْ وعُدَدِهِم (وذاتُ الشوكة: هي الحرب، كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما) ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: يثبته ويعليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الموحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمداد ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ ويستأصلهم. والمعنى أنكم تريدون أن تصيبوا مالاً ولا تلقوا مكروهاً، واللهُ يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصِّل لكم فوز الدارين.

(٨) ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ أي: فعل ما فعل، وليس بتكرير، لأن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول ﷺ على اختيار ذات الشوكة ونصره عليها ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾ ذلك.

إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾

(٩) ﴿**إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ**﴾ واستغاثتُهم أنهم لما علموا أنْ لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي ربِّ انصرنا على عدوك، أغثنا يا غياث المستغيثين. وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة السلام نظر إلى المشركين وهم ألفٌ وإلى أصحابه وهم ثلاث مئة، فاستقبل القبلة ومدَّ يديه يدعو: «اللهم أنجزْ لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه، فقال أبو بكر: يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك ﴿**فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾**﴾ مُتْبِعين المؤمنين، أو بعضَهم بعضاً.

(١٠) ﴿**وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ**﴾ أي: الإمداد ﴿**إِلَّا بُشۡرَىٰ**﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿**وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ**﴾ فيزول ما بها من الوجل لقلَّتكم وذلَّتكم ﴿**وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾**﴾ وإمدادُ الملائكة وكثرةُ العدد والأهب (أي: الاستعداد) ونحوهما وسائطُ لا تأثير لها، فلا تحسبوا النصر منها، ولا تيأسوا منه بفقدها.

(١١) ﴿**إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ**﴾ أمناً من الله تعالى. لأنه كان من حقه أن لا يغشاهم لشدة الخوف، فلما غشيهم فكأنه حصلت لهم أمنة من الله تعالى لولاها لم يغشَهم ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ**﴾ من الحدث والجنابة ﴿**وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ**﴾ يعني الجنابة لأنها من تخييله، أو وسوستَه وتخويفَه إياهم من العطش. روي أنهم نزلوا في كثيب أَعْفَرَ تسوخ (أي: رمل أحمر تغوص) فيه الأقدام، على غير ماء، وناموا فاحتلم أكثرهم، وقد غلب المشركون على الماء، فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء وأنتم تصلُّون مُحْدِثين مُجْنِبين وتزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله ﷺ، فأشفقوا، فأنزل الله تعالى المطر، فمُطروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عُدْوَته (أي: جانبه)، وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبَّد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت الوسوسة ﴿**وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ**﴾ بالوثوق على لطف الله تعالى بهم ﴿**وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾**﴾ أي: بالمطر حتى لا تسوخ (أي: تغوص) في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

(١٢) ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في إعانتهم وتثبيتهم ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبشارة، أو بتكثير سوادهم، أو بمحاربة أعدائهم ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ فيه دليل على أنهم قاتلوا. ومَن مَنَع ذلك جعَلَ الخطاب فيه مع المؤمنين، كأنه قال: قولوا لهم قوْلي هذا ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ أصابع، أي: حُزُّوا رقابهم واقطعوا أطرافهم.

(١٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الضرب أو الأمر به ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ وعيدٌ بما أُعِدَّ لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

(١٤) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات، أي: ذلكم واقع ﴿فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ المعنى ذوقوا ما عُجِّل لكم مع ما أُجِّل لكم في الآخرة.

(١٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ كثيراً، بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ بالانهزام، فضلاً عن أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم.

(١٦) ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ يريد الكرَّ بعد الفرِّ وتغرير العدو، فإنه من مكايد الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضِّعْف.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

(١٧) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقوتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم. روي: أنه لما طلعت قريش من العقنقل (اسم مكان، وهو كثيب يُرى من ماء بدر) قال عليه الصلاة والسلام: هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدْتني، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذ قبضة من تراب فارْمِهم بها، فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصباء فرمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه»، فلم يبقَ مشرك إلا شُغل بعينيه، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر، فيقول الرجل: قَتلتُ وأَسرتُ، فنزلت [والحديث أصله في صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد ﷺ رمياً توصله إلى أعينهم، ولم تقدِرْ عليه ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي: إذ أتيت بصورة الرمي ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ أتى بما هو غاية الرمي، فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم ﴿عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ بنيَّاتهم وأحوالهم.

(١٨) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: المقصود توهينُ كيد الكافرين وإبطالُ حيلهم.

(١٩) ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ﴾ خطابٌ لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لمحاربته ﴿نَعُدْ﴾ لنصرته عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾ ولن تدفع ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء أو المضار ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ بالنصر والمعونة.

(٢٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي: ولا تتولوا عن الرسول ﷺ، فإن المراد من الآية الأمرُ بطاعته والنهيُ عن الإعراض عنه. وذكرَ طاعة الله تعالى للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله

تعالى في طاعة الرسول ﷺ، لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ القرآن والمواعظ سماعَ فهمٍ وتصديقٍ.

(٢١) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ كالكفرة والمنافقين الذين ادَّعوا السماع ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ سماعاً ينتفعون به، فكأنهم لا يسمعون رأساً (أقول: وفي هذا تنبيه للمؤمنين، فإنهم مع وجود إيمانهم يسمعون كلام الله جل وعلا ويخالفونه. علينا معشر المؤمنين جميعاً أن نتمسك بأوامر الله تعالى ونواهيه. والنتيجةُ أن المؤمنين على الحق، سواء ربحوا وفازوا أو لم يفوزوا).

(٢٢) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ شرَّ ما يدب على الأرض، أو شرَّ البهائم ﴿الصُّمُّ﴾ عن الحق ﴿الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ إياه. عدَّهم من البهائم ثم جعلهم شرَّها، لإبطالهم ما مُيِّزوا به وفُضِّلوا لأجله.

(٢٣) ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ سعادةً كُتِبت لهم أو انتفاعاً بالآيات ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماعَ تفهمٍ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ ولم ينتفعوا به، أو ارتدوا بعد التصديق والقبول ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لعنادهم.

(٢٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام مرَّ على أبي بن كعب رضي الله تعالى وهو يصلي، فدعاه فعجَّل في صلاته ثم جاء، فقال: ما منعك عن إجابتي؟ قال: كنت أصلي، قال: «ألم تخبَر فيما أوحي إليَّ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾» [رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى]. واختُلِف فيه، فقيل: هذا لأن إجابته لا تقطع الصلاة، فإن الصلاة أيضاً إجابة. وقيل: لأن دعاءه كان لأمر لا يَحتمل التأخير. وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، وظاهر الحديث يناسب الأول (أقول: وأما بعد وفاته ﷺ فأمْرُه قائم مكانه في الحياة، فلا بدَّ للمؤمن أن يهتمَّ بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام وسنَّته، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]) ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينية، فإنها حياة القلب، والجهل موته. أو مما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال. أو من الجهاد، فإنه سبب بقائكم، إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تمثيلٌ لغاية قربه من العبد، كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وتنبيهٌ على أنه مطلع على مكنونات القلوب مما عسى يغفل عنه صاحبها. أو حثٌّ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله تعالى بينه وبين قلبه بالموت أو غيره. أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ويغير مقاصده ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته، وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته (أقول: الله تعالى قادر أن يتجلى على قلب المؤمن ويغيِّر عزيمته) ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فيجازيكم بأعمالكم (أقول: يعني إذا تجلى الله تعالى على قلب المرء يحول بسطوات أنوار جماله وجلاله بين مرآة قلبه وظلمة أوصاف قالبه ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: اعلموا يا معشر المؤمنين أن الله تعالى يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه

البشر، فيفسخ عزيمة الإنسان ويغيِّر مقاصده، ويلهمه الرشاد أو يزيغ قلبه، فهو المتصرِّف في شؤون الكون، ولهذا كان ﷺ يدعوا بهذا الدعاء: «اللهم يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك» [رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى]. ومرجعُكم إلى الله تعالى فيجازكم على أعمالكم، فسارعوا إلى طاعته؛ وفي الآية حثٌّ على إخلاص القلوب وتصفيتها، وأن لا يغترَّ العبد بعمله ولا يعتمد عليه، عليه أن يطيع الله تعالى والرسول صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين).

(٢٥) ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ اتقوا ذنباً يعمُّكم أثرُهُ، كإقرار المنكر بين أظهركم، والمداهنة في الأمر بالمعروف، وافتراق الكلمة، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

(٢٦) ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ**﴾ أرض مكة، يستضعفكم قريش. والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة، فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم ﴿**تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ**﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تتحصنون به عن أعاديكم ﴿**وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ**﴾ على الكفار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر ﴿**وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**﴾ من الغنائم ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾**﴾ هذه النعم.

(٢٧) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**﴾ بتعطيل الفرائض والسنن، أو بأن تضمروا خلاف ما تظهرون، أو بالغلول (وهو الخيانة في المغانم) روي: «أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوه الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء بأرض الشام، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسلْ إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمتُ أني قد خنت الله ورسوله ﷺ ، فنزلت. فشدَّ نفسه على سارية في المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله تعالى علي، فمكث سبعة أيام حتى خرَّ مغشياً عليه، ثم تابَ الله تعالى عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحُلَّ نفسك، فقال: لا والله لا أحلُّها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلُّني، فجاءه فحلَّه بيده، فقال: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال عليه الصلاة والسلام: يجزيك الثلث أن تتصدق به» [رواه البيهقي بطوله، والإمام أحمد وأبو داود رحمهم الله تعالى مختصراً] ﴿**وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ**﴾ فيما بينكم ﴿**وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾**﴾ أنكم تخونون.

(٢٨) ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ لأنهم سبب الوقوع في الإثم أو العقاب. أو محنةٌ من الله تعالى ليبلوكم فيهم، فلا يحملنَّكم حبهم على الخيانة كأبي لبابة ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾**﴾ لمن آثر رضا الله تعالى عليهم وراعى حدوده فيهم، فأنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه.

(٢٩) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا**﴾ هدايةً في قلوبكم تفرِّقون بها بين الحق والباطل (أقول: الحق من الله تعالى، والباطل والخطرات والوساوس من الشيطان)، أو نصراً يفرِّق بين المحقِّ والمبطل بإعزاز

المؤمنين وإذلال الكافرين ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ تنبيهٌ على أن ما وعده لهم على التقوى تفضُّلٌ منه وإحسانٌ (أقول: وليس واجباً عليه جلَّ وعلا، ولا هو محتاج إلى التقوى منكم).

(٣٠) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تذكارٌ بمكر قريش به حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله تعالى في خلاصه من مكرهم واستيلائه عليهم. والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوثاق، أو الحبس، أو الإثخان بالجرح ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ﴾ من مكة. وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم فزعوا واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد، سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت، فقال الشيخ: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع، فقال بئس الرأي، يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل (أي: الدية) عقلناه (أي: أدَّينا ديته)، فقال: صدق هذا الفتى (عليهما اللعنة)، فتفرَّقوا على رأيه، فأتى جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ وأخبره الخبر وأمره بالهجرة، فبيَّت علياً رضي الله تعالى عنه في مضجعه، وخرج مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى الغار ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ﴾ بردِّ مكرهم عليهم، أو بمجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين معهم بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقُتِلوا ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره؛ وإسناد أمثال هذا مما يحسن للمزاوجة ولا يجوز إطلاقها ابتداء، لِما فيه من إيهام الذم (أقول: لأن ظاهر اللفظ لا يليق بذاته جل وعلا، وإنما هو لمقابلة اللفظ باللفظ، كما سمى جزاء السيئة سيئة؛ ومثلُ هذا يسمى مشاكلة).

(٣١) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ﴾ هو قول النضر بن الحارث، وإسنادُه إلى الجميع إسنادُ ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاضيهم. أو قول الذين ائتمروا في أمره عليه الصلاة والسلام. وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاؤوا، وقد تحداهم وقرَّعهم بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف، فلم يعارضوا سورة مع أَنَفَتهم وفرط استنكافهم أن يُغلبوا (والاستنكاف الامتناع عن الشيء تكبُّراً)، خصوصاً في باب البيان ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ ما سطَّره الأولون من القصص (وهو قول الكفار).

(٣٢) ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ هذا أيضاً من كلام ذلك القائل، أبلغ في الجحود. والمعنى: إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبة على إنكاره، أو ائتنا بعذاب أليم سواه. والمراد منه التهكم وإظهار اليقين والجزم التام منهم على كونه باطلاً.

(٣٣) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ بيانٌ لِما كان الموجب لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم. واللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم عذابَ استئصالٍ والنبيُّ ﷺ بين أظهرهم خارجٌ عن عادته جل وعلا، غيرُ مستقيم في قضائه. والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين، أو قولهم اللهم غفرانك، أو فرْضُه على معنى: لو استغفروا لم يعذبوا.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

(٣٤) ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وكيف لا يعذبون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ومِن صدِّهم عنه إلجاءُ رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة، وإحصارُهم عام الحديبية ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ مستحقين ولاية أمره مع شركهم. وهو ردٌّ لما كانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم، فنصدُّ من نشاء ونُدخل من نشاء ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ من الشرك، الذين لا يعبدون فيه غيره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أنْ لا ولاية لهم عليه.

(٣٥) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: دعاؤهم، أو ما يسمونه صلاة ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ صفيراً ﴿وَتَصْدِيَةًۚ﴾ تصفيقاً ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني القتل والأسر يوم بدر. وقيل: عذابَ الآخرة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ اعتقاداً وعملاً.

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ نزلت في المطعِمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جُزُرٍ (جمع جَزور، وهو الجمل)، أو في أبي سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من العرب سوى من استجاش من العرب (من طلبهم للجيش)، وأنفق عليهم أربعين أوقية. والمراد بسَبيلِ الله تعالى دينُهُ واتباعُ رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ بتمامها ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندماً وغماً، لفواتها من غير مقصود ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ آخر الأمر، وإن كان الحرب بينهم سجالاً قبل ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: الذين ثبتوا على الكفر منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يساقون.

(٣٧) ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الكافرَ من المؤمن، أو الفساد من الصلاح ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ﴾ كله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

(٣٨) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عن معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذنوبهم ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى قتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ

﴿ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ الذين تحزَّبوا على الأنبياء بالتدمير، كما جرى على أهل بدر، فليتوقعوا مثل ذلك.

(٣٩) ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ لا يوجد فيهم شرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ وتضمحِلَّ عنهم الأديان الباطلة ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن الكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم.

(٤٠) ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ (يعني: وإن أعرضوا عن الإيمان، وأصرُّوا على الكفر، وعادوا إلى قتال المؤمنين وإيذائهم [الخازن]) ولم ينتهوا ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ ناصركم فثقوا به، ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ لا يُغلَب مَنْ نصرَهُ.

۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾

(٤١) ﴿**وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم**﴾ أي: الذي أخذتموه من الكفار قهراً ﴿**مِّن شَيۡءٖ**﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط ﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ**﴾ أي: فثابت أن لله تعالى خمسه، وأن المراد قسم الخمس على الخمسة المعطوفين ﴿**وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ**﴾ فكأنه قال: فأن لله خمسه يصرف إلى هؤلاء الأخصين به. وحكمه بعده باق غير أن سهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين كما فعله الشيخان (أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما) ﴿**إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ**﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله تعالى فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية ﴿**وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا**﴾ محمد ﷺ من الآيات والملائكة والنصر ﴿**يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ**﴾ يوم بدر فإنه فرق فيه بين الحق والباطل ﴿**يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ**﴾ المسلمون والكافرون ﴿**وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾**﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة.

(٤٢) ﴿**إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا**﴾ العدوة شط الوادي (الدنيا: القريبة إلى جهة المدينة) ﴿**وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ**﴾ البعدى من المدينة ﴿**وَٱلرَّكۡبُ**﴾ أي: العير أو قوادها ﴿**أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ**﴾ في مكان أسفل من مكانكم. وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم، وضعف شأن المسلمين والتياث (أي: اختلاط وضعف) أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة، ولذا ذكر مراكز الفريقين فإن العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ (أي: تغوص) فيها الأرجل ولا يمشى فيها إلا بتعب ولم يكن بها ماء، بخلاف العدوة القصوى ﴿**وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ**﴾ أي: لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبة منهم، ويأساً من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعاً من الله تعالى خارقاً للعادة فيزدادوا إيماناً وشكراً ﴿**وَلَٰكِن**﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ﴿**لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا**﴾ حقيقاً بأن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه ﴿**لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ**﴾ المعنى:

ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة. أو ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه.

(٤٣) ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ إذ يقللهم في عينك في رؤياك ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجبنتم ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ يعلم ما سيكون فيها وما يغير من أحوالها.

(٤٤) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وإنما قللهم في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لمن إلى جنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مئة، تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أَكَلة جزور، وقللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترؤوا عليهم ولا يستعدوا لهم، ثم كثرهم حتى يرونهم مثليهم لتفجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات تلك الوقعة فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله تعالى الأبصار عن إبصار بعض دون بعض مع التساوي في الشروط ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كرره لأن المراد بالأمر ثمة الاكتفاء على الوجه المحكي، وههنا إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الإشراك وحزبه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

(٤٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ حاربتم جماعة ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء مما غلب في القتال ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ للقائهم ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب داعين له مستظهرين بذكره مترقِّبين لنصره ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ويقبل عليه بشراشره (أي: بكلِّـيَّته) فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال.

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾

(٤٦) ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ**﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أحد ﴿**فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ**﴾ والريح مستعارة للدولة (أي: للغلبة) من حيث إنها في تمشّي أمرها ونفاذه مشبهة بها في هبوبها ونفوذها. وقيل: المراد بها الحقيقة فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى، وفي الحديث: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. والصبا: ريح من جهة الشرق، والدبور: ريح من جهة الغرب. ﴿**وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾**﴾ بالكلاءة (بالحفظ والرعاية) والنصرة.

(٤٧) ﴿**وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم**﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير ﴿**بَطَرٗا**﴾ فخراً وأشراً ﴿**وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ**﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدراً ونشرب فيها الخمور وتعزف علينا القيان ونطعم بها مَن حَضرنا من العرب، فوافوها ولكن سُقوا كأس المنايا وناحت عليهم النوائح، فنهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث إن النهي عن الشيء أمر بضدِّه (أقول: الإخلاص جوهر عالٍ يقرِّب العبد من الله تعالى) ﴿**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾**﴾ فيجازيهم عليه.

(٤٨) ﴿**وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ**﴾ في معاداة الرسول ﷺ وغيرها بأن وسوس إليهم ﴿**وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ**﴾ المعنى: أنه ألقى في رُوعهم (أي: في قلوبهم) وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عَددهم وعُددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه مجير لهم ﴿**فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ**﴾ أي: تلاقى الفريقان ﴿**نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ**﴾ رجع القهقرى أي: بطل كيده وعاد ما خيل إليهم أنه مجيرهم سبب هلاكهم ﴿**وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ**﴾ أي: تبرّأ منهم وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله تعالى المسلمين بالملائكة ﴿**وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾**﴾.

(٤٩) ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون المؤمنين ﴿دِينُهُمْ﴾ حتى تعرضوا لما لا يد لهم به فخرجوا وهم ثلاث مئة وبضعة عشر إلى زهاء ألف ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جواب لهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُذلُّ من استجار به وإن قلَّ ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

(٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ببدر ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ أي: ويقولون ذوقوا، بشارةً لهم بعذاب الآخرة (هذا تهكُّم).

(٥١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ (أقول: وصيغة ظلَّام للتسبُّب وليست للمبالغة، أي: ليس منسوباً إلى الظلم أصلًا، فهي لنفي الظلم بأنواعه).

(٥٢) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون وهو عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي: داموا عليه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾

(٥٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما حل بهم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنقمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ بما يفعلون.

(٥٤) ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله: بِآياتِ رَبِّهِمْ وبيان ما أخذ به آل فرعون ﴿وَكُلّٞ﴾ من الفِرق المكذبة، أو من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

(٥٥) ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فلا يتوقع منهم إيمان.

(٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا (أي: لا يعاونوا العدوَّ) عليه، فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا: نسينا ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ سُبَّة الغدر ومغَبَّته (أي: عار الغدر عاقبته، والغدر نقض العهد)، أو لا يتقون الله تعالى فيه أو نصره للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

(٥٧) ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾ فإما تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم﴾ ففرق عن مناصبتك ونكل عنها بقتلهم والنكاية فيهم ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ مَن وراءهم من الكفرة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ لعل المشردين يتعظون.

(٥٨) ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةٗ﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ فاطرح إِلَيْهِمْ عهدهم (أي: فافسخ العهد بينك وبينهم) ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ على عدل وطريق قصد في العداوة ولا تناجزهم الحرب فإنه يكون خيانة منك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (الناقضين للعهود [النسفي]).

(٥٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ فأفلتوا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ٥٩﴾ أي: لا يفوتون الله تعالى، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم.

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لناقضي العهد أو الكفار ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب. وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر: «ألا إنَّ القوة الرمي، قالها ثلاثاً» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تربط في سبيل الله تعالى ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ تخوفون به ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ٦٠﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب.

(٦١) ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ للصلح أو الاستسلام ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ وعاهد معهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولا تخف من إبطانهم خداعاً فيه، فإن الله تعالى يعصمك من مكرهم ويحيقه بهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ ٦١﴾ بنياتهم.

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾

(٦٢) ﴿**وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ**﴾ كافيك ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾**﴾ جميعاً.

(٦٣) ﴿**وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ**﴾ مع ما فيهم من العصبية والضغينة في أدنى شيء ﴿**لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ**﴾ أي: تناهي عداوتهم إلى حد لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ**﴾ بقدرته البالغة، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء ﴿**إِنَّهُۥ عَزِيزٌ**﴾ تام القدرة والغلبة ﴿**حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾**﴾ يعلم أنه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده، وقيل: الآية في الأوس والخزرج كان بينهم إحن (أي: أحقاد) لا أمد لها ووقائع هلكت فيها ساداتهم، فأنساهم الله تعالى ذلك وألف بينهم بالإسلام حتى تصافوا وصاروا أنصاراً.

(٦٤) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ**﴾ كافيك ﴿**وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾**﴾ والآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر، وقيل: أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلًا، وست نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله تعالى عنه، فنزلت، ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: نزلت في إسلامه.

(٦٥) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ**﴾ بالغ في حثهم عليه ﴿**إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ شرط في معنى الأمر بمصابرة الواحد للعشرة، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا بعون الله تعالى وتأييده ﴿**بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾**﴾ بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر، لا يثبتون ثبات المؤمنين رجاء الثواب وعوالي الدرجات قَتَلُوا أو قُتِلُوا، ولا يستحقون من الله تعالى إلا الهوان والخذلان (وهم الكفار).

(٦٦) ﴿**ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ**﴾ لما أوجب على الواحد مقاومة العشرة والثبات لهم وثقل ذلك عليهم

خفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، وقيل: كان فيهم قلة فأمروا بذلك ثم لما كثروا خفف عنهم ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يَغلبون.

(٦٧) ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الإسلام ويستولي أهله ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذكم الفداء ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغلّب أولياءه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها، كما أمر بالإثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين وخيّر بينه وبين المنِّ لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين.

روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: قومك وأهلك استبقهم لعل الله تعالى يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر، وإن الله تعالى أغناك عن الفداء، مَكِّنّي من فلان ـ لنسيب له ـ ومكّن علياً وحمزة رضي الله تعالى عنهما من أخويهما فلنضرب أعناقهم، فلم يَهْوَ ذلك (أي: فلم يَمِل إليه) رسول الله ﷺ وقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦]» فخيَّر أصحابه فأخذوا الفداء، فنزلت، فدخل عمر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله أخبرني فإن أجد بكاء بكيت، وإلا تباكيت، فقال: «ابك على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

(٦٨) ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله تعالى سبق إثباته في اللوح المحفوظ (أو في علم الله تعالى)، وهو أن لا يعاقب المخطئ في اجتهاده (أقول: ولذا فالمجتهدون إذا أصابوا لهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد). أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوماً بما لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

(٦٩) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم، وقيل: أمسَكوا عن الغنائم فنزلت ﴿حَلَٰلًا﴾ أي: أكلاً حلالاً، وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على الأولين ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ غفر لكم ذنبكم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ أباح لكم ما أخذتم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

(٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ إيماناً وإخلاصاً ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفداء. روي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت فقال عليه الصلاة والسلام: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم؟ فقال العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي تعالى. قال: فأشهد أنك صادق وأن لا إله إلَّا الله وأنك رسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى بلفظ قريب]، قال العباس: فأبدلني الله تعالى خيراً من ذلك لي الآن عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يعني الموعود بقوله: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾﴾.

(٧١) ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ يعني الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نقض ما عاهدوك ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعقل ﴿مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ أي: فأمكنك منهم كما فعل يوم بدر فإن أعادوا الخيانة فسيمكنك منهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾﴾.

(٧٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ هم المهاجرون هاجروا أوطانهم حباً لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ فصرفوها في الكراع (اسم يطلق على البقر والغنم والخيل والحمير والبغال) والسلاح وأنفقوها على المحاويج ﴿وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمباشرة القتال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ أي: من توليهم

في الميراث ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

(٧٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث أو المؤازرة (أي: النصرة) ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ إلا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولي بعضكم لبعض حتى في التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تحصل فتنة فيها عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ في الدين.

(٧٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بيّن أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق، ووعد لهم الموعد الكريم فقال: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ لا تبعة له ولا منة فيه، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتّسم بسِمَتِهم (أي: بعلامتهم).

(٧٥) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ أي: من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث من الأجانب ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه، أو في اللوح أو في القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ من المواريث والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولًا، واعتبار القرابة ثانياً.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الأنفال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ التَّوْبَةِ ٩ ١٢٩

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

سورة التوبة

مدنيَّة، وقيل: إلا آيتين من قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ وآيها مئة وتسع وعشرون

(١) ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: هذه براءة واصلة من الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ المعنى: أنَّ اللهَ تعالى ورسولَهُ ﷺ برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين.

(٢) ﴿فَسِيحُوا﴾ (أي: فسيروا) ﴿فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾ بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

(٣) ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ أي: إعلام ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ يوم العيد، لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه، ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. وقيل: يوم عرفة، لقوله ﷺ: «الحج عرفة» [رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى]. ووُصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ أي: بأن الله تعالى ﴿بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: من عهودهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ (أي: ورَسُولُه بريءٌ) ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكفر والغدر ﴿فَهُوَ﴾ فالتوب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة، أو ثبتُّم على التولي عن الإسلام والوفاء ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً في الدنيا ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ في الآخرة (هذا تهكم).

(٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهد ولم ينكثوه، أو لم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى تمام مدتهم، ولا تُجروهم مجرى الناكثين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ تعليلٌ وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى.

(٥) ﴿فَإِذَا انسَلَخَ﴾ انقضى ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها (أي: يسافروا) ﴿فَاقْتُلُوا﴾

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من حِلٍّ أو حَرَمٍ ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأْسروهم ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ واحبسوهم، أو حِيلوا بينهم وبين المسجد الحرام ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ كلَّ ممرٍّ، لئلا يتبسَّطوا في البلاد ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الشرك بالإيمان ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ أي: فخلوهم لأن الله تعالى غفور رحيم، غفر لهم ما قد سلف (بعد أن تابوا).

(٦) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمِّنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ موضع أمنه إن لم يسلم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمن أو الأمر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه، فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون.

كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣

(٧) ﴿**كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ**﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وَغْرَةِ صدورهم (أي: حقدهم)، أو لأن يفي الله تعالى ورسوله ﷺ بالعهد وهم نكثوه ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ**﴾ هم المستثنون قبلُ ﴿**فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ**﴾ أي: فتربصوا أمرهم، فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧**﴾ (الذين يوفون بالعهود ويخافون الموعود [المقتطف]).

(٨) ﴿**كَيۡفَ**﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد ﴿**وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ**﴾ أي: وحالهم أنهم إن يظفروا بكم ﴿**لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ**﴾ لا يراعوا فيكم ﴿**إِلّٗا**﴾ حِلفاً، وقيل: قرابة ﴿**وَلَا ذِمَّةٗۚ**﴾ أي: عهداً، أو حقاً يعاب على إغفاله ﴿**يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ**﴾ استئنافٌ لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد، المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر ﴿**وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ**﴾ ما تتفوه به أفواههم ﴿**وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨**﴾ متمردون لا عقيدة تزعهم (أي: تمنعهم) ولا مروءة تردعهم. وتخصيصُ الأكثر لما في بعض الكفرة من التفادي (أي: التجنب) عن الغدر، والتعفف عما يجرُّ إلى أحدوثة السوء.

(٩) ﴿**ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ**﴾ استبدلوا بالقرآن ﴿**ثَمَنٗا قَلِيلٗا**﴾ عوضاً يسيراً، وهو اتباع الأهواء والشهوات (أقول: وحب الدنيا) ﴿**فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ**﴾ دينه الموصل إليه، أو سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار ﴿**إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩**﴾.

(١٠) ﴿**لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ**﴾ هو تفسير لا تكرير. وقيل: الأول عام في المنافقين وهذا خاص بالذين اشتروا، وهم اليهود أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠**﴾ في الشرارة.

(١١) ﴿**فَإِن تَابُواْ**﴾ عن الكفر ﴿**وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ**﴾ فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿**وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١**﴾ وهو حثٌّ على تأمل ما فصَّل من أحكام المعاهدين أو خصال التائبين.

(١٢) ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ ﴾ وإن نكثوا ما بايعوا عليه من الأيمان أو الوفاء بالعهود ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: رؤساء المشركين ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ أي: لا أيمان لهم على الحقيقة، وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا. وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإِسلام فقد نكث عهده ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾ أي: ليكن غرضكم في المقاتلة أن ينتهوا عما هم عليه (من الكفر أو الخيانة)، لا إيصال الأذية بهم.

(١٣) ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا ﴾ تحريضٌ على القتال ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ التي حلفوها مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بني بكر على خزاعة ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة. وقيل: هم اليهود، نكثوا عهد الرسول ﷺ وهَمُّوا بإخراجه من المدينة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ بالمعاداة والمقاتلة ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ فقاتلوا أعداءه ولا تتركوا أمره ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ فإِن قضية الإِيمان أن لا يُخشى إلا منه جل وعلا.

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

(١٤) ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ أمرٌ بالقتال بعد بيان موجبه والتوبيخ على تركه والتوعد عليه ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وعدٌ لهم إن قاتلوهم بالنصر عليهم والتمكن من قتلهم وإذلالهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ يعني بني خزاعة.

(١٥) ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم. وقد أوفى الله تعالى بما وعدهم. والآية من المعجزات ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ إخبارٌ بأن بعضهم يتوب عن كفره، وقد كان ذلك أيضاً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان وما سيكون ﴿حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة.

(١٦) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطابٌ للمؤمنين حين كره بعضهم القتال. وقيل: للمنافقين ﴿أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ ولم يتبين الخلَّص منكم، وهم الذين جاهدوا من غيرهم ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانةً يوالونهم ويُفشون إليهم أسرارهم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ يعلم غرضكم منه. وهو كالمزيح لما يُتوهَّم من ظاهر قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾.

(١٧) ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم ﴿أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ شيئاً من المساجد فضلًا عن المسجد الحرام ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام. والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين؛ عمارة بيت الله تعالى وعبادة غيره. روي أنه لما أسر العباس عيَّره المسلمون بالشرك وقطيعة الرحم، وأغلظ له عليٌّ رضي الله تعالى عنه في القول، فقال: ما بالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟ إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني (أي: الأسير) فنزلت ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ لأجله.

(١٨) ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: إنما تستقيم عمارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية. ومن عمارتها تزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج

وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها، وصيانتها عما لم تُبْنَ له كحديث الدنيا. وإنما لم يذكر الإِيمان بالرسول ﷺ لما عُلم أن الإِيمان بالله تعالى قرينه وتمامه الإِيمان به عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: في أبواب الدين، فإن الخشية عن المحاذير جِبلِّية، لا يكاد العاقل يتمالك عنها ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون. فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنُّك بأضدادهم؟! ومنعاً للمؤمنين أن يغترُّوا بأحوالهم ويتَّكلوا عليها.

(١٩) ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن. والمعنى إنكار أن يشبَّه المشركون وأعمالُهم المحبَطة بالمؤمنين وأعمالِهم المثبَتة. ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وبيَّن عدم تساويهم بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: الكفرة؛ ظلمة بالشرك ومعاداة الرسول ﷺ منهمكون في الضلالة، فكيف يساوون الذين هداهم الله تعالى ووفَّقهم للحقِّ والصواب!

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تستجمع فيه هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ بالثواب ونيل الحسنى عند الله تعالى دونكم.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

(٢١) ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ دائم.

(٢٢) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ أكَّد الخلود بالتأبيد، لأنه قد يستعمل للمكث الطويل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ يُستحقر دونه ما استوجبوه لأجله أو نعيم الدنيا.

(٢٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجاراتنا وبقينا ضائعين. والمعنى: لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة، لقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ﴾ إن اختاروه وحرَّضوا عليه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها.

(٢٤) ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقرباؤكم ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاقها (أي: رواجها والرغبة فيها) ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ الحب الاختياري دون الطبيعي (أي: حب الطبيعة البشرية) فإنه لا يدخل تحت التكليف في التحفُّظ عنه ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾ جوابٌ ووعيدٌ. والأمر عقوبة عاجلة أو آجلة. وقيل: فتح مكة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ لا يرشدهم. وفي الآية تشديد عظيم، وقلَّ من يتخلص منه (أقول: وهذا الترجيح ثابت في القلوب النورانية، والروح العلوية، والعقلية القدسيَّة الربانيَّة المتيقظة بترك حبِّ الدنيا، وملازمة خدمة المولى، والله نسأل التوفيق والاستقامة، اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا. وفي الآية وعيد شديد لا يتخلَّص منه إلا أقل قليل، فإنك لو تتبعت إخوان زماننا من الزهاد الورعين لوجدتهم يتحيَّرون ويتحزَّنون بفوات أحقر شيء من الأمور الدنيوية، ولا يبالون بفوات أجلِّ حظٍّ من الحظوظ الدينية؛ فإنَّ محصول الآية أنَّ من آثر هذه المشتهيات الدنيوية على طاعة الرحمن، فليستعدَّ لنزول عقوبة آجلة أو عاجلة، ولينظر أن ما آثره من الحظوظ العاجلة هل يخلص من الأهوال والدواهي النازلة؟ اللهم عفوك وغفرانك يا أرحم الراحمين).

(٢٥) ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يعني مواطن الحرب، وهي مواقعها ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وموطن يوم حنين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ وحنين وادٍ بين مكة والطائف حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون ـ وكانوا اثني عشر ألفاً ـ هوازنَ وثقيفاً ـ وكانوا أربعة آلاف ـ فلما التقوا قال بعض المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فأدرك المسلمين إعجابهم واعتمادهم على كثرتهم فانهزموا حتى بلغ فلُّهم (المنهزمون) مكة، وبقي رسول الله ﷺ في مركزه ليس معه إلا عمه العباس وابن عمه أبو سفيان بن الحارث رضي الله تعالى عنهما. وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته عليه الصلاة والسلام، فقال للعباس رضي الله تعالى عنه ـ وكان صَيِّتاً ـ: «صِحْ بالناس»، فنادى: يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، فكَرُّوا عُنقاً واحداً (أي: دفعة واحدة) يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين، فقال ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس (أي: اشتدت الحرب)»، ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة» فانهزموا [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى بلفظ قريب] ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ أي: الكثرة ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء أو من أمر العدو ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برَحبها أي: بسعتها، لا تجدون فيها مفرّاً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب، أو لا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ الكفار ظهوركم ﴿مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ منهزمين.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها وأمنوا ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا. وقيل: هم الذين ثبتوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يفروا ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم يعني الملائكة وكانوا خمسة آلاف أو ثمانية أو ستة عشر على اختلاف الأقوال ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والسبي ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا.

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾

(٢٧) ﴿**ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ**﴾ منهم بالتوفيق للإسلام (أقول: لم يبين هنا من هم التائبون، بقوا في علمه جل وعلا) ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾**﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم (أقول: هذا الانهزام وترك الرسول عليه الصلاة والسلام من الكبائر، والله غفور رحيم، عفى عنهم وغفر لهم) روي «أن أناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرهم، وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا. وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى. فقال ﷺ: اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم؟ فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقام رسول الله ﷺ وقال: إن هؤلاء جاؤوا مسلمين، وإنا خيَّرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب (أي: بالأهل) شيئاً ، فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومَن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه، فقالوا: رضينا وسلَّمنا، فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا، فرفعوا أنهم قد رضوا» [هذه القصة رواها الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

(٢٨) ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ** ﴾ لخبث باطنهم، أو لأنه يجب أن يجتنب عنهم كما يجتنب عن الأنجاس، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يتجنبون عن النجاسات فهم ملابسون لها غالباً ﴿**فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ**﴾ لنجاستهم. وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم. وقيل: المراد به النهي عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً ﴿**بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ**﴾ يعني سنةَ بَرَاءة، وهي التاسعة، وقيل: سنة حجة الوداع ﴿**وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ**﴾ فقراً، بسبب منعهم من الحرم وانقطاع ما كان لكم من قدومهم من المكاسب والأرزاق ﴿**فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ**﴾ من عطائه أو تفضله بوجه آخر. وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً، ووفَّق أهل تبالة (وهي أرض مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن) وجرش (موضع باليمن) فأسلموا وامتاروا لهم (أي: جلبوا المِيرة الكثيرة، وهي الطعام)، ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض ﴿**إِن شَآءَۚ**﴾ قيَّده بالمشيئة لتنقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبِّه

على أنه تعالى متفضل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعضٍ دون بعض وفي عام دون عام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فيما يعطي ويمنع.

(٢٩) ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: لا يؤمنون بهما على ما ينبغي، فإن إيمانهم كَلَا إيمان ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الأديان ومبطلها ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بيانٌ للذين لا يؤمنون ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ ما تقرر عليهم أن يعطوه ﴿عَن يَدٖ﴾ أي: عن يدٍ مؤاتية بمعنى منقادين. أو عن يدهم بمعنى مسلِّمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم، ولذلك منع من التوكيل فيه. أو عن غنى، ولذلك قيل: لا تؤخذ من الفقير. أو عن يد قاهرة عليهم، بمعنى عاجزين أذلاء. أو عن إنعام عليهم، فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أذلاء. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تؤخذ الجزية من الذمِّي وتوجأ عنقه (أي: يضرب قفاه باليد).

(٣٠) ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبقَ فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة، وهو لما أحياه الله تعالى بعد مئة عام أملى عليهم التوراة حفظاً، فتعجَّبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بلا أب، أو لأن يفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلهاً ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم، أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: يضاهي قولهم قول الذين كفروا ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: من قبلهم. والمراد قدماؤهم على معنى أن الكفر قديم فيهم، أو المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله، أو اليهود على أن الضمير للنصارى. والمضاهاة: المشابهة ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دعاءٌ عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله تعالى هلك. أو تعجبٌ من شناعة قولهم ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

(٣١) ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرَّم الله تعالى، أو بالسجود لهم ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ بأن جعلوه ابناً لله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي: وما أُمر المتخِذون أو المتخَذون أرباباً، فيكون كالدليل على بطلان الاتخاذ ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ﴾ ليطيعوا ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ وهو الله تعالى. وأما طاعة الرسول ﷺ وسائر من أَمر الله تعالى بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله تعالى ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك سبحانه.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٢) ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟**﴾ يخمدوا ﴿**نُورَ ٱللَّهِ**﴾ حجته الدالة على وحدانيته وتقدسه عن الولد، أو هو القرآن، أو نبوة محمد ﷺ ﴿**بِأَفْوَٰهِهِمْ**﴾ بشركهم أو بتكذيبهم ﴿**وَيَأْبَى ٱللَّهُ**﴾ أي: لا يرضى ﴿**إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ**﴾ بإعلاء التوحيد وإعزاز الإسلام ﴿**وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾**﴾.

(٣٣) ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ**﴾ كالبيان لقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، ولذلك كرر ﴿**وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ غير أنه وضع ﴿المُشْرِكُونَ﴾ موضع الكافرين للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله تعالى.

(٣٤) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ**﴾ يأخذونها بالرشا في الأحكام. سمي أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه (يقول الفخر الرازي رحمه الله تعالى عند هذه الآية: ولعمري من تأمل أحوال أهل الفساد والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا في شأنهم وفي شرح أحوالهم، فترى الواحد منهم يدَّعي أنه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات، وأنه في الطهارة والعظمة مثل الملائكة المقربين، حتى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله. وهذه الخصال بأسرها في زماننا، وهو الطريق لأكثر الجهال والمزوِّرين إلى أخذ أموال العوام والحمقى من الخلق) ﴿**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ دينه ﴿**وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ يجوز أن يراد به الكثير من الأحبار والرهبان، فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص على المال والضن (أي: البخل) به، وأن يراد المسلمون الذين يجمعون المال ويقتنونه ولا يؤدون حقه، ويكون اقترانه بالمرتشين من أهل الكتاب للتغليظ (أقول: التغليظ لا يدل على أنه يكون كافراً، لكن هذا الفعل ليس لائقاً بالمسلم)؛ ويدل عليه أنه لما نزل كبُر على المسلمين، فذكر عمر رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم» [رواه أبو داود رحمه الله تعالى]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أُدي زكاته فليس بكنز» [رواه أبو داود رحمه الله تعالى] أي: ليس بكنزٍ أُوعِدَ عليه، فإن الوعيد على الكنز مع عدم

الإِنفاق فيما أمر الله تعالى أن ينفق فيه. وأما قوله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء (هما الذهب والفضة) كوي بها» [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] ونحوه فالمراد منها ما لم يؤد حقها، لقوله عليه الصلاة والسلام فيما أورده الشيخان مروياً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره» ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ هو الكي بهما.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يوم توقد النار ذات حمي شديد عليها ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ لأن جمعهم وإمساكهم إياه كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية (والسيارات الفارهة) (أقول: ليتفكر من يهتم ببطنه ويقول: هذا أشتهيه وهذا لا أشتهيه، وأحياناً يخاصم زوجته لأجل ذلك؛ كلُّ هذا في حقِّ المسلم)، أو لأنهم ازورُّوا (أي: انحرفوا) عن السائل وأعرضوا عنه وولوه ظهورهم ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لمنفعتها، وكان عينَ مضرتها وسببَ تعذيبها ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: وبال كنزكم (أقول: يستثنى من هذا زينة الذهب والفضة للنساء في مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى).

(٣٦) ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ (أقول: أو في العلم الإلهي، أو في الكتاب المبين) ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ المعنى: أن هذا أمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله تعالى الأجرام والأزمنة ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: تحريم الأشهر الأربعة هو الدين القويم، دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، والعرب ورثوه منهما ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرامها. والجمهور على أن حرمة المقاتلة فيها منسوخة، وأوَّلوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهنَّ، فإنه أعظم وزراً كارتكابها في الحرم وحال الإِحرام ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعاً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ بشارةٌ وضمانٌ لهم بالنصرة بسبب تقواهم.

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

(٣٧) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ أي: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر. كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلُّوه وحرَّموا مكانه شهراً آخر ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرَّمه الله تعالى، فهو كفر آخر ضموه إلى كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ضلالاً زائداً ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا﴾ يحلون النَّسيء من الأشهر الحرم سنة ويحرمون مكانه شهراً آخر ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ فيتركونه على حرمته ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا عدة الأربعة المحرمة ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ بمواطأة العدة وَحْدَها من غير مراعاة الوقت ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ والمعنى خذلهم وأضلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ هدايةً موصلة إلى الاهتداء.

(٣٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ تباطأتم، والاستفهام للتوبيخ ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وكان ذلك في غزوة تبوك، أمروا بها بعد رجوعهم من الطائف في وقت عسرة وقيظ (حرٍّ شديد) مع بعد الشُّقَّة (أي: المسافة التي تُقطع بمشقَّة) وكثرة العدو فشقَّ عليهم ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وغرورها ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بدل الآخرة ونعيمها ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فما التمتع بها ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ مستحقر.

(٣٩) ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ إن لا تنفروا إلى ما استنفرتم إليه ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ بالإهلاك بسبب فظيع كقحط وظهور عدو ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ ويستبدل بكم آخرين مطيعين ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾ إذ لا يقدح تثاقلكم في نصرة دينه شيئاً، فإنه الغني عن كل شيء وفي كل أمر. وقيل: الضمير للرسول ﷺ، أي: ولا تضروه فإن الله سبحانه وتعالى وعدَ له بالعصمة والنصر، ووعْدُه حق ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد كما قال تعالى:

(٤٠) ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إن لم تنصروه فسينصره الله تعالى كما نصره ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ ولم يكن معه إلا رجل واحد. أو إن لم تنصروه فقد أوجب الله تعالى له النصر حتى نصره في مثل ذلك الوقت، فلن يخذله في غيره ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ والغار نقب في أعلى ثور، وهو جبل في يمنى مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاث ليالٍ ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بالعصمة والمعونة. روي أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. فأعماهم الله تعالى عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل: لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أمنته التي تسكن عندها القلوب ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على صاحبه وهو الأظهر لأنه كان منزعجاً (أي: قلقاً) ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ يعني الشرك أو دعوة الكفر ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ يعني التوحيد أو دعوة الإسلام. والمعنى: وجعل ذلك بتخليص الرسول ﷺ من أيدي الكفار إلى المدينة فإنه المبدأ له، أو بتأييده إياه بالملائكة في هذه المواطن، أو بحفظه ونصره له حيث حضر ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ في أمره وتدبيره جل وعلا.

ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

(٤١) ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا﴾ لنشاطكم له ﴿وَثِقَالًا﴾ عنه لمشقته عليكم، أو لقلة عيالكم ولكثرتها، أو ركباناً ومشاة، أو خفافاً وثقالاً من السلاح، أو صحاحاً ومراضاً ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ بما أمكن لكم منهما، كليهما أو أحدهما ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تركه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أنه خير، إذ إخبار الله تعالى به صدق فبادروا إليه.

(٤٢) ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ أي: لو كان ما دُعوا إليه نفعاً دنيوياً ﴿قَرِيبًا﴾ سهل المأخذ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطاً ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ أي: المسافة التي تقطع بمشقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وهذا من المعجزات، لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بإيقاعها في العذاب، لأن الحلف الكاذب إيقاع للنفس في الهلاك ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في ذلك، لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

(٤٣) ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بيانٌ لما كني عنه بالعفو ومعاتبة عليه. والمعنى: لأي شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتلُّوا بأكاذيب، وهلا توقفت ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في الاعتذار ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فيه.

(٤٤) ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ﴾ أي: ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، فإن الخلص منهم يبادرون إليه ولا يتوقفون على الإذن فيه فضلاً أن يستأذنوك في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ شهادة لهم بالتقوى وعِدةٌ لهم بثوابه.

(٤٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في التخلُّف ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله عزَّ وجل واليوم الآخر في الموضعين للإشعار بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ (أي: شكِّهم) ﴿يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ يتحيرون.

(٤٦) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أهبةً ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ استدراكٌ عن مفهوم قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ كأنه قال: ما خرجوا ولكن تثبطوا، لأنه تعالى كره انبعاثهم أي: نهوضهم للخروج ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ تمثيلٌ لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود (أقول: الشيطان ضد المؤمن، فإذا أراد شيئاً يدخل في قلبه ويحركه، فعلى ذلك المؤمن أن يتمسَّك بأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، وإذا كان أمر الله تعالى وأمر الرسول ﷺ مقدَّماً عنده فإنه لا ينظر إلى وسوسة الشيطان. فإذا عرض على الإنسان المؤمن شيء في استقباله، هل يذهب أو يفعل أو يترك، لا بد له أن يأخذ بالشريعة، فإذا أخذ بالشريعة وسنة الرسول ﷺ تزول الوسوسة فيما بينه وبين ما يطلب). أو حكاية قول بعضهم لبعض. أو إذن الرسول عليه الصلاة والسلام لهم. والقاعدين: يحتمل المعذورين وغيرهم، وعلى الوجهين لا يخلو عن ذم.

(٤٧) ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشراً (أقول: كما حصل في غزوة أحد) ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة، أو الهزيمة والتخذيل ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ ضَعَفةٌ يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نمامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم (أقول: من اعتمد على علم الله تعالى بضميره فإنه لا يفعل إلا ما يوافق الشريعة والسنة النبوية عليه الصلاة والسلام، وإذا كان في علم الله تعالى أنه يقع في المخالفة لا يمكن له أن يفرَّ، فإذا وقع عليه القدر لا بدَّ أن يستقبله بالتوبة والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]).

لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

(٤٨) ﴿**لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ**﴾ تشتيت أمرك وتفريق أصحابك ﴿**مِن قَبْلُ**﴾ يعني يوم أُحُد فإن ابن أُبي وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعد ما خرجوا مع الرسول ﷺ إلى ذي جدة أسفل من ثنية الوداع (اسم مكان) انصرفوا يوم أحد ﴿**وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ**﴾ ودبَّروا لك المكايد والحيل ودوَّروا الآراء في إبطال أمرك ﴿**حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ**﴾ النصر والتأييد الإلهي ﴿**وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ**﴾ وعلا دينه ﴿**وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾**﴾ أي: على رغم منهم. والآيتان لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين على تخلُّفهم، وبيان ما ثبَّطهم الله تعالى لأجله وكره انبعاثهم له وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة اعتذارهم.

(٤٩) ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي**﴾ في القعود ﴿**وَلَا تَفْتِنِّيٓ**﴾ ولا توقعني في الفتنة، أي: في العصيان والمخالفة بأن لا تأذن لي. وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلّف أذن له أم لم يأذن. أو في الفتنة بسبب ضياع المال والعيال، إذ لا كافل لهم بعدي ﴿**أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ**﴾ وهي فتنة التخلف أو ظهور النفاق لا ما احترزوا عنه ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾**﴾ جامعة لهم يوم القيامة، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها.

(٥٠) ﴿**إِن تُصِبْكَ**﴾ في بعض غزواتك ﴿**حَسَنَةٌ**﴾ ظفر وغنيمة ﴿**تَسُؤْهُمْ**﴾ لفرط حسدهم ﴿**وَإِن تُصِبْكَ**﴾ في بعضها ﴿**مُصِيبَةٌ**﴾ كسر أو شدة كما أصاب يوم أحد ﴿**يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ**﴾ تبجَّحوا (أي: تباهوا) بانصرافهم واستحمدوا رأيهم في التخلف ﴿**وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾**﴾ مسرورون.

(٥١) ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا**﴾ إلا ما اختصَّنا بإثباته وإيجابه من النصرة أو الشهادة، أو ما كتب لأجلنا في اللوح المحفوظ (أي: في علمه جل وعلا) لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم ﴿**هُوَ مَوْلَىٰنَا**﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾**﴾ لأنَّ حقَّهم أن لا يتوكَّلوا على غيره.

(٥٢) ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ**﴾ تنتظرون بنا ﴿**إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ**﴾ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى العواقب: النُصرة أو الشهادة ﴿**وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ**﴾ أيضاً إحدى السوأيين ﴿**أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ**﴾

﴿بِعَذَابٍ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ بقارعة من السماء ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ أو بعذاب بأيدينا، وهو القتل على الكفر ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ ما هو عاقبتكم.

(٥٣) ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ﴾ أمرٌ في معنى الخبر، أي: لن يتقبل منكم نفقاتكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣﴾ (متمرِّدين عاتين [النسفي]).

(٥٤) ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

(٥٥) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ﴾ فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك استدراجاً لهم.

(٥٦) ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ إنهم لمن جملة المسلمين ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين، فيُظهرون الإِسلام تقية.

(٥٧) ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حصناً يلجؤون إليه ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ نفقاً ينجحرون فيه (أي: يدخلون فيه) ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا نحوه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح.

(٥٨) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يُعيبك ﴿فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ في قَسْمها ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ قيل: إنها نزلت في أبي الجواظ المنافق، قال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل. وقيل: في ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال: اعدل يا رسول الله! فقال: «ويلك إن لم أعدلْ فمن يعدل» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

(٥٩) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ما أعطاهم الرسول ﷺ من الغنيمة أو الصدقة. وذكر الله تعالى للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام كان بأمره جل وعلا ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كفانا فضله ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ فيؤتينا أكثر مما آتانا ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ في أن يغنينا من فضله.

ثم بيَّن مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ فقال جلَّ وعلا:

(٦٠) ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أي: الزكوات لهؤلاء المعدودين دون غيرهم. والفقير: من لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته. والمسكين: من له مال أو كسب لا يكفيه ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فيستألف قلوبهم. أو أشراف قد يترقب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظرائهم، وقد أعطى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس لذلك. وقيل أشراف يستألفون على أن يسلموا فإنه ﷺ كان يعطيهم. والأصحُّ أنه كان يعطيهم من خمس الخمس الذي كان خاصَّ ماله ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب، أو بأن يُفدى الأسارى ﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾ والمديونين لأنفسهم في غير معصية ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء، أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء، لقوله ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغني إلا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني، أو لعامل عليها» [رواه الإمام أحمد وأبو داود رحمهما الله تعالى] ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على المتطوعة وابتياع الكراع (أي: الخيل والبقر والغنم) والسلاح، وقيل: وفي بناء القناطر والمصانع ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ المسافر المنقطع عن ماله ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: فرض لهم الله تعالى الصدقات فريضة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ يضع الأشياء في مواضعها.

(٦١) ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدقه. روي أنهم قالوا: محمد أذن سامعة، نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ تصديقٌ لهم بأنه أذن، ولكن لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يصدق به لما قام عنده من الأدلة ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ويصدقهم لما علم من خلوصهم ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي: وهو رحمة ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ لمن أظهر الإيمان، حيث يقبله ولا يكشف سره. وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم، بل رفقاً بكم وترحُّماً عليكم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ بإيذائه.

يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۗ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾

(٦٢) ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ﴾ على معاذيرهم فيما قالوا ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ لترضوا عنهم. والخطاب للمؤمنين ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق. وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ صدقاً.

(٦٣) ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يشاقق ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ يعني الهلاك الدائم.

(٦٤) ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ﴾ على المؤمنين ﴿سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ (أي: بما في قلوب المنافقين) وتهتك عليهم أستارهم ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ﴾ مبرزٌ أو مظهرٌ ﴿مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم.

(٦٥) ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ روي: أن ركب المنافقين مروا على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فأخبر الله تعالى به نبيه فدعاهم فقال: «قلتم كذا وكذا»، فقالوا: لا والله ما كنا في شيء من أمرك وأمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصّر بعضنا على بعض السفر ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به، وإلزاماً للحجة عليهم.

(٦٦) ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾ لا تشتغلوا باعتذارتكم فإنها معلومة الكذب ﴿قَدۡ كَفَرۡتُم﴾ قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، أو لتجنُّبهم عن الإيذاء والاستهزاء ﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ مصرين على النفاق، أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء.

(٦٧) ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ أي: متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحد. وقيل: إنه تكذيب لهم في حلفهم بالله تعالى ﴿إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾، وتقريرٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم

مِّنكُمْ ﴾ [التوبة: ٥٦]، وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدلُّ على مضادة حالهم لحال المؤمنين، وهو قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن المبارِّ. وقبضُ اليد كناية عن الشح (أي البخل) ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أغفلوا ذكر الله تعالى وتركوا طاعته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من لطفه وفضله ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ الكاملون في التمرُّد والفسوق عن دائرة الخير (الخارجون عن طاعة الله تعالى).

(٦٨) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ﴾ عقابًا وجزاء؛ وفيه دليل على عظم عذابها ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ لا ينقطع؛ والمراد به ما وُعدوه، أو ما يقاسونه من تعب النفاق.

كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

(٦٩) ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: أنتم مثل الذين من قبلكم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ بيانٌ لتشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ نصيبهم من ملاذ الدنيا ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المخدجة (أي: الناقصة) من الشهوات الفانية والتهائهم (أي: اشتغالهم) بها عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم ﴿وَخُضۡتُمۡ﴾ ودخلتم في الباطل ﴿كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ كالخوض الذي خاضوه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

(٧٠) ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أغرقوا بالطوفان ﴿وَعَادٖ﴾ أهلكوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أهلك نمروذ ببعوض، وأهلك أصحابه ﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾ وأهل مدين، وهم قوم شعيب عليه السلام، أهلكوا بالنار يوم الظلة (وهو عذابهم بسحابة أمطرتهم ناراً فاحترقوا) ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ قريات قوم لوط، ائتفكت بهم أي: انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ يعني الكل ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ أي: لم يك من عادته ما يشابه ظلم الناس، كالعقوبة بلا جرم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ حيث عرَّضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

(٧١) ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ في سائر الأمور ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ لا محالة، فإن السين مؤكِّدة للوقوع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده ﴿حَكِيمٞ ﴿٧١﴾﴾ يضع الأشياء مواضعها.

(٧٢) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾

تستطيبها النفس أو يطيب فيها العيش ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ إقامةٍ وخلود. وعنه عليه الصلاة والسلام: «عدنٌ دار الله التي لم ترها عين قط ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة؛ النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك» [رواه البزار وابن جرير رحمهما الله تعالى].

ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء. وعنه ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرضوان، أو جميع ما تقدم ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ الذي تُستحقر دونه الدنيا وما فيها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

(٧٣) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ**﴾ بالسيف ﴿**وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ**﴾ بإلزام الحجة وإقامة الحدود ﴿**وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ**﴾ في ذلك ولا تُحابِهم (أي: ولا تتساهل معهم) ﴿**وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾**﴾ مصيرهم.

(٧٤) ﴿**يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ**﴾ روي أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين، فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد لإخواننا حقاً لنحن شر من الحمير، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضره فحلف بالله ما قاله، فنزلت فتاب الجلاس وحسنت توبته [أخرجه البيهقي رحمه الله تعالى في الدلائل] ﴿**وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ**﴾ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿**وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ**﴾ من قتل الرسول. وهو أن خمسة عشر منهم توافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه عن ظهر راحلته إلى الوادي إذا تسنَّم العقبة (أي: علاها) بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى بمعناه]. أو إخراجه وإخراج المؤمنين من المدينة. أو بأن يتوِّجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرضَ رسول الله ﷺ ﴿**وَمَا نَقَمُوٓاْ**﴾ و ما وجدوا ما يورث نقمتهم ﴿**إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ**﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج في ضنك (أي: ضيق) من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ أَثْرَوا بالغنائم (أي: كثر مالهم). وقُتِل للجلاس مولى فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألف درهم فاستغنى ﴿**فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ**﴾ وهو الذي حمل الجلاس على التوبة ﴿**وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ**﴾ بالإصرار على النفاق ﴿**يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ**﴾ بالقتل والنار ﴿**وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾**﴾ فينجيهم من العذاب.

(٧٥) ﴿**وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ**﴾ (ومعنى الآية: ومن المنافقين من أعطى الله تعالى عهداً إنْ رزقنا من فضله بأن وسَّع علينا في الرزق) ﴿**لَنَصَّدَّقَنَّ**﴾ (يعني: لنتصدقنَّ ولنخرجنَّ من ذلك

المال صدقته) ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (يعني: ولنعملنَّ في ذلك المال ما يعمله أهلُ الصلاح بأموالهم؛ من صلة الأرحام، والإنفاق في سبيل الله تعالى، وجميع وجوه البرِّ والخير، وإخراج الزكاة وإيصالها إلى أهلها [الخازن]).

(٧٦) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ منعوا حقَّ الله تعالى منه ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن طاعة الله تعالى ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها.

(٧٧) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يلقون الله تعالى بالموت، أو يلقون عملهم أي: جزاءه، وهو يوم القيامة ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدُّق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وبكونهم كاذبين فيه، فإن خُلف الوعد متضمِّن للكذب مستقبَح من الوجهين.

(٧٨) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: المنافقون، أو من عاهد الله تعالى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسرُّوه في أنفسهم من النفاق أو العزم على الإخلاف ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ فلا يخفى عليه ذلك.

(٧٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ (أي: يعيبون) ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوِّعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ روي: أنه ﷺ حثَّ على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه بأربعة آلاف درهم وقال: كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت»، فبارك الله تعالى له حتى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثُمن على ثمانين ألف درهم. وتصدَّق عاصم بن عدي رضي الله تعالى عنه بمئة وسق من تمر (الوسق: ستون صاعاً). وجاء أبو عقيل الأنصاري رضي الله تعالى عنه بصاع تمر فقال: بتُّ ليلتي أجر بالجرير على صاعين (أي: أستقي للناس على أجرة صاعين) فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات، فلمزهم المنافقون (أي: عابوهم) وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنَّه أحبَّ أن يُذكِّره بنفسه ليعطى من الصدقات [وأصل القصة في الصحيحين] ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ إلا طاقتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يستهزئون بهم ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سخريتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ على كفرهم.

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾

(٨٠) ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم، كما نص عليه بقوله: ﴿**إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾ روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي، وكان من المخلصين، سأل رسول الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدنَّ على السبعين فنزلت: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] [وأصل الحديث في الصحيحين] ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخلٍ منا ولا قصورٍ فيك، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾**﴾ المتمرِّدين في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق، والمنهمكُ في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي. والتنبيه على عذر الرسول ﷺ في استغفاره، وهو عدم يأسه من إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم، لقوله تعالى: ﴿مَا كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

(٨١) ﴿**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ**﴾ بقعودهم عن الغزو خلفه ﴿**وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ إيثاراً للدعة (أي: للراحة) والخفض (أي: رفاه العيش) على طاعة الله تعالى. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج (أي: الأرواح) ﴿**وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ**﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً (أي: تأخيراً) ﴿**قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا**﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة ﴿**لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾**﴾ أن مآبهم إليها أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

(٨٢) ﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ إخبارٌ عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة، أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب. ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم. والمرادُ من القلة العدم.

(٨٣) ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ فإن ردَّك الله تعالى إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين، يعني منافقيهم، فإن كلهم لم يكونوا منافقين، أو مَن بقي منهم، وكان المتخلفون اثني عشر رجلاً ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ ﴾ إخبارٌ في معنى النهي للمبالغة ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ تعليلٌ لهم. وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم. وأَوَّل مَرَّةٍ: هي الخروج إلى غزوة تبوك ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: المتخلفين، لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان.

(٨٤) ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ روي: «أن عبد الله بن أُبي دعا رسول الله ﷺ في مرضه، فلما دخل عليه سأله أن يستغفر له ويكفنه في شعاره (أي: لباسه) الذي يلي جسده ويصلي عليه، فلما مات أرسل قميصه ليكفن فيه، وذهب ليصلي عليه» فنزلت [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. وإنما لم يُنهَ عن التكفين في قميصه ونُهيَ عن الصلاة عليه لأن الضنَّ (أي: البخل) بالقميص كان مخلًّا بالكرم، ولأنه كان مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين أسر ببدر، والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكافر ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ تعليلٌ للنهي أو لتأبيد الموت.

(٨٥) ﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ تكريرٌ للتأكيد. والأمرُ حقيق به، فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد، والنفوسَ مغتبطة عليها. ويجوز أن تكون هذه في فريق غير الأول.

(٨٦) ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ ﴾ من القرآن، ويجوز أن يراد بها بعضها ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾ ذوو الفضل والسَّعة ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ الذين قعدوا لعذرٍ.

رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

(٨٧) ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ مع النساء ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول ﷺ من السعادة، وما في التخلُّف عنه من الشقاوة.

(٨٨) ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ أي: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ﴾ منافع الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ الفائزون بالمطالب.

(٨٩) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ بيانٌ لما لهم من الخيرات الأخروية.

(٩٠) ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ يعني أسداً وغطفان، استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا إن غزونا معك أغارت طيئ على أهالينا ومواشينا. والمعذِّر من قصَّر في الأمر موهماً أن له عذراً ولا عذر له ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ وهم منافقو الأعراب، كذبوا الله ورسوله ﷺ في ادعاء الإيمان ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ من الأعراب، أو من المعذِّرين، فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ بالقتل والنار.

(٩١) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ لفقرهم، كجهينة ومزينة وبني عذرة ﴿حَرَجٌ﴾ إثمٌ في التأخر ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية، كما يفعل المُوالي الناصح، أو بما قدروا عليه فعلًا أو قولًا يعود على الإسلام والمسلمين بالصلاح ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ أي: ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ لهم، أو للمسيء فكيف للمحسن؟

(٩٢) ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ وهم البكَّاؤون، سبعة من الأنصار: معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مغفل، وعُلَيَّة بن زيد رضي الله تعالى عنهم، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال

المخصوفة نَغْزُ معك ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ في مغزاتهم (أقول: هذا مقتضى الإيمان، فمقتضى إيمانكم أن لا تخالفوا اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام).

(٩٣) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ وَاجِدُون الأهبة (أي: العدة) ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ استئنافٌ لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر، وهو رضاهم بالدناءة والانتظام في جملة الخوالف إيثاراً للدعة (أي: الراحة) ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ مغبَّته (أي: عاقبته).

يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾

(٩٤) ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾ في التخلف ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ من هذه السفرة ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ بالمعاذير الكاذبة لأنه ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ لن نصدقكم لأنه ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ أعلَمَنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم، وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه؟ فكأنه استتابة وإمهال للتوبة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: إليه، فهو جلَّ وعلا مطَّلع على سرِّهم وعلنهم، لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه.

(٩٥) ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ فلا تعاتبوهم ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ ولا توبِّخوهم ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾ لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة الإعراض وترك المعاتبة ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ (أي: يُجزون جزاء كسبهم [النسفي]).

(٩٦) ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله تعالى، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله تعالى وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يُلبِّسوا عليكم لا يمكنهم أن يُلبِّسوا على الله تعالى فلا يهتك سترهم ولا ينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم.

(٩٧) ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ من أهل الحضر، لتوحشهم وقساوتهم وعدم مخالطتهم لأهل العلم وقلة استماعهم للكتاب والسنة ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾ وأحق (وأحرى) بأن لا يعلموا ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ مِنْ الشرائع فرائضِها وسننِها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر (سكان الخيام) والمدر (سكان البيوت المبنية) ﴿حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقاباً وثواباً.

(٩٨) ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ يَعُدُّ ﴿مَا يُنفِقُ﴾ يصرفه في سبيل الله تعالى ويتصدَّق به ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً، إذ لا يحتسبه قربة عند الله تعالى ولا يرجو عليه ثواباً، وإنما ينفق رياء أو تقية ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ دوائر الزمان ونُوَبَه (أي: مصائبه) لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الإنفاق ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاءٌ عليهم بنحو ما يتربصونه، أو إخبارٌ عن وقوع ما يتربصون عليهم. والدائرة: عقبة الزمان ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند الإنفاق ﴿عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ بما يُضمرون.

(٩٩) ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ شهادةٌ من الله تعالى بصحة معتقدهم، وتصديق لرجائهم ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وعدٌ لهم بإحاطة الرحمة عليهم. والسين لتحقيقه، وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ لتقريره.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾

(١٠٠) ﴿**وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ**﴾ هم الذين صلَّوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدراً، أو الذين أسلموا قبل الهجرة ﴿**وَٱلۡأَنصَارِ**﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة، وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير رضي الله عنه ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ**﴾ اللاحقون بالسابقين من القبيلين، أو مَن اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة ﴿**رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ**﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿**وَرَضُواْ عَنۡهُ**﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية ﴿**وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠**﴾.

(١٠١) ﴿**وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم**﴾ أي: وممن حول بلدتكم، يعني المدينة ﴿**مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ**﴾ هم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿**وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ**﴾ لا تعرفهم بأعيانهم ﴿**نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ**﴾ ونطَّلع على أسرارهم؛ إن قدَروا أن يلبِّسوا عليك لم يقدِروا أن يلبِّسوا علينا ﴿**سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ**﴾ بالفضيحة والقتل، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان (أي: جعلها ضعيفة) ﴿**ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١**﴾ إلى عذاب النار (أقول: تعذيبهم مرتين: في الدنيا قتل وأسر، وفي الآخرة عذاب عظيم).

(١٠٢) ﴿**وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ**﴾ ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سَوَاري المسجد لما بلغهم ما نزل في المتخلفين، فقدِم رسول الله ﷺ فدخل المسجد على عادته، فصلى ركعتين فرآهم، فسأل عنهم فذُكر له أنهم أقسموا أن لا يحلُّوا أنفسهم حتى تَحُلَّهم، فقال: وأنا أقسم أن لا أحلَّهم حتى أُؤمر فيهم، فنزلت فأطلقهم ﴿**خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا**﴾ خلطوا العمل الصالح ـ الذي هو إظهارُ الندم والاعترافُ بالذنب ـ بآخرَ سيئ، هو التخلُّف وموافقة أهل النفاق ﴿**عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ**﴾ أن يقبل توبتهم ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢**﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضَّل عليه.

(١٠٣) ﴿**خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ**﴾ روي: أنهم لما أُطلِقُوا قالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا التي خلَّفَتْنا

فتصدَّق بها وطهِّرنا، فقال: «ما أُمِرت أن آخذ من أموالكم شيئاً» فنزلت [أخرجه ابن جرير رحمه الله تعالى] ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى مثله ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم، وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ باعترافهم ﴿عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ بندامتهم.

(١٠٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ الضمير إما للمتوب عليهم، والمراد أن يمكّن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم، أو لغيرهم، والمراد به التحضيض عليها ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا صحَّت ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

(١٠٥) ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ ما شئتم ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإنه لا يخفى عليه خيراً كان أو شراً ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى لا يُخفي عنهم كما رأيتم وتَبيَّنَ لكم ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالموت ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ بالمجازاة عليه.

(١٠٦) ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المتخلفين ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مؤَّخرون، أي: موقوف أمرهم ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في شأنهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا على النفاق ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ فيما يفعل بهم. والمراد بهؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع رضي الله تعالى عنهم، أمر الرسول ﷺ أصحابه أن لا يسلِّموا عليهم ولا يكلِّموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نيَّاتهم وفوَّضوا أمرهم إلى الله فرحمهم الله تعالى.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

(١٠٧) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ مضارة للمؤمنين. روي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوانهم بنو غُنم بن عوف، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلة والليلة المطيرة والشاتية، فصلِّ فيه حتى نتخذه مصلى، فأخذ ثوبه ليقوم معهم فنزلت، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن والوحشي، فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، ففعل واتخذ مكانه كُناسة ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد الذي كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ترقباً ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني الراهب، فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، ومات بقنسرين (اسم بلدة بالشام) وحيداً، وقيل: كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب فلما انهزموا خرج إلى الشام ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ ما أردنا ببنائه إلا الخصلة الحسنى أو الإرادة الحسنى؛ وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ في حلفهم.

(١٠٨) ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ يعني مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء من الاثنين إلى الجمعة، لأنه أوفق للقصة، أو مسجد رسول الله ﷺ لقول أبي سعيد رضي الله عنه: «سألت رسول الله ﷺ عنه فقال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أولى بأن تصلي فيه ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ من المعاصي والخصال المذمومة، طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى إدناء المحب حبيبه. قال ﷺ: «يا معشر الأنصار! إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط»؟ فقالوا: يا رسول الله! نُتبِع الغائطَ الأحجارَ الثلاثة، ثم

نتبع الأحجار الماء، فتلا قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ﴾ [رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بألفاظ متقاربة].

(١٠٩) ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ بنيان دينه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ على قاعدة محكمة هي التقوى من الله تعالى وطلب مرضاته بالطاعة ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾ فأدى به لخوره (أي: لضعفه) وقلة استمساكه إلى السقوط في النار ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم.

(١١٠) ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً ونفاقاً. والمعنى أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وسمه (أي: علامته) عن قلوبهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ﴾ قِطَعاً بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك. وقيل: المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل أو في القبر أو في النار. وقيل: التقطع بالتوبة ندماً وأسفاً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم ﴿حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ فيما أمر بهدم بنيانهم.

(١١١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ﴾ تمثيل لإثابة الله تعالى إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾ استئنافٌ ببيان ما لأجله الشراء ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ مبالغةٌ في الإنجاز، وتقريرٌ لكونه حقاً ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ﴾ فافرحوا به غاية الفرح، فإنه أوجبَ لكم عظائمَ المطالب كما قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾

(١١٢) ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ المراد بهم المؤمنون المذكورون ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ الذين عبدوا الله تعالى مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ لنعمائه أو لما ناهم من السراء والضراء ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون، شبِّه بها لأنه يعوق عن الشهوات، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا المُلك والملكوت. أو السائحون للجهاد أو لطلب العلم ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ في الصلاة ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: فيما بيَّنه وعيَّنه من الحقائق والشرائع ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ يعني به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل. ووضعَ المُؤْمِنِينَ موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشَّر به للتعظيم، كأنه قيل: وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

(١١٣) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ روي: أنه ﷺ قال لأبي طالب لما حضرته الوفاة: «قل كلمة أحاجُّ لك بها عند الله» فأبى، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أزال استغفر لك ما لم أُنْهَ عنه» فنزلت [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ بأنْ ماتوا على الكفر؛ وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طلبُ توفيقِهم للإيمان.

(١١٤) ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ وعدها إبراهيم أباه بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] أي: لأطلبنَّ مغفرتك بالتوفيق للإيمان فإنه يَجُبُّ (أي: يقطع) ما قبله (قال الآلوسي رحمه الله تعالى: والذي عوَّل عليه الجمُّ الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام، وأنه ليس في آباء النبي ﷺ كافر أصلاً، لقوله ﷺ: لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات [تفسير الألوسي: ٧/ ١٩٤]) ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ﴾ بأن مات على الكفر، أو أوحي إليه بأنه لن يؤمن ﴿تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ قطع استغفاره ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ لكثير التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه ﴿حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾﴾ صبور على الأذى.

(١١٥) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا﴾ أي: ليسمِّيهم ضُلاَّلاً ويؤاخذهم مؤاخذتهم ﴿بَعۡدَ إِذۡ

﴿هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ حتى يبيِّن لهم خطر ما يجب اتقاؤه، وكأنه بيان عذرٍ للرسول عليه الصلاة والسلام في قوله لعمه أو لمن استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ فيعلم أمرهم في الحالين.

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ لمّا منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبرؤ عنهم رأساً، بيَّن لهم أن الله تعالى مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا بشراشرهم (يعني بجميع موجوداتهم) إليه ويتبرؤوا مما عداه، حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه.

(١١٧) ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ من إذن المنافقين في التخلف، أو برأهم عن علقة الذنوب كقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وقيل: هو بعثٌ على التوبة. والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة، حتى النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار، لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً﴾ [النور: ٣١]. إذ ما من أحد إلا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه، والترقي إليه توبةٌ من تلك النقيصة، وإظهار لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ في وقتها. هي حالهم في غزوة تبوك، كانوا في عُسْرَة الظَّهر (أي: قلة المركوب)، تعتقب العشرة على بعير واحد، و(عُسرة) الزاد حتى قيل: إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة، و(عُسرة) الماء حتى شربوا الفظَّ (أي: ماء الكرش) ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ عن الثبات على الإيمان أو اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكريرٌ للتأكيد، وتنبيهٌ على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

(١١٨) ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ وتاب على الثلاثة: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ تخلفوا عن الغزو، أو خُلِّف أمرهم فإنهم المرجؤون (أي: المؤخَّرون) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي: برحبها، لإعراض الناس عنهم بالكلية، وهو مثل لشدة الحيرة ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ قلوبهم، من فرط الوحشة والغم، بحيث لا يسعها أُنس ولا سرور ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وعلموا ﴿أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من سخطه ﴿إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ إلا إلى استغفاره ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالتوفيق للتوبة (أقول: مقتضى إيمانكم أن لا تخالفوا من اتبع الرسول عليه الصلاة والسلام) ﴿لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليُعدوا من جملة التائبين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مئة مرة (أقول: لو قُدِّر على الإنسان أن يقع في المعصية مئة مرة في اليوم عليه أن يتوب) ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ المتفضل عليه بالنعم.

(١١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله تعالى نيةً وقولاً وعملاً (أقول: أمر بالتقوى ولم يكتفِ بها بل أمر بالكينونة مع الصادقين لأن الإنسان بنفسه لا يطلع على نقصه ونقصانه، وإذا كان مع الصادقين فإنهم لا يهملونه بل يوقظونه، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، الحكمة علوم القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام).

(أقول: مراتب الصدق كثيرة، أقلها أن يكون السر والعلانية متفقين، وتكون صادقاً في موافقة ربك أمراً ونهياً وفي اتباع رسولك ﷺ، حتى تتحقق بالعبودية لله تعالى، فهي أمنية السالكين. وبمجرد الإيمان لا يكون المؤمن صادقاً، فلا بد له أن يعمل بمقتضى الإيمان، ومن مقتضيات الإيمان الصدق. والصادق له أوصاف:

١- أن يكون صادقاً في نيته، لا يبتغي إلا مرضاة الله تعالى.

٢- أن يكون صادقاً بلسانه، ويكون باستواء السريرة مع العلانية.

٣- أن يكون صادقاً في الوفاء بالعزم، ويكون توكله على الله تعالى.

٤- أن يكون صادقاً في عزمه على خير نواه، فلا يسوِّل ولا يسوِّف.

٥- أن يكون صادقاً في مقاماته، من خوف ورجاء وحب وشوق.

٦- أن يكون صادقاً في مناجاته لربه تبارك وتعالى).

(١٢٠) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن حُكمه. نهيٌ عبَّر عنه بصيغة النفي للمبالغة ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ولا يصونوا أنفسهم عما لم يَصُنْ نفسه عنه، ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال (أقول: لا يترفعوا بها ولا يصرفوا ما لا يكون على أنفسهم أشق من نفس النبي ﷺ). روي: «أن أبا خيثمة بلغ بستانه، وكانت له زوجة حسناء، فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقرَّبت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظلٌّ ظليل، ورطبٌ يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الضح (أي: الشمس) والريح! ما هذا بخير، فقام فرحَّل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرَّ كالريح، فمدَّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب (أي: يرفعه)، فقال: كن أبا خيثمة، فكان هو، ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دلَّ عليه قولُه: «ما كان» من النهي عن التخلف ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ شيء من العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعبٌ ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ﴾ ولا يدوسون ﴿مَوْطِئًا﴾ مكاناً ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يغضبهم وَطؤه ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ كالقتل والأسر والنهب ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ إلا استوجبوا به الثواب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ على إحسانهم.

(١٢١) ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثلَ ما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أثبت لهم ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ جزاء أحسن أعمالهم، أو أحسن جزاء أعمالهم.

(١٢٢) ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزوٍ أو طلب علمٍ، كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا (أي: يتأخروا) جميعاً، فإنه يخلُّ بأمر المعاش ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة أو أهل بلدة جماعةٌ قليلة ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ ليتكلَّفوا الفقاهة (أي: الفقه) فيه ويتجشموا (أي: يتحملوا) مشاقَّ تحصيلها ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم. وتخصيصه بالذكر لأنه أهم. وفيه دليل على أن التفقُّه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم، لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ إرادة أن يحذروا عما يُنذَرون منه. وقد قيل: للآية معنى آخر، وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون إلى النفير وانقطعوا عن التفقُّه، فأُمِروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة، فيكون الضمير في ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي ﴿رَجَعُوٓاْ﴾ للطوائف. أي: ولينذر البواقي قومَهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصَّلوا أيام غيبتهم من العلوم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

١٠ سُورَةُ يُونُسَ ١٠٩

(١٢٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ أمِروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب، كما أمِر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل: هم يهود حوالي المدينة؛ كقريظة والنضير وخيبر. وقيل: الروم، فإنهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة (أقول: قاتلوا الذين يَلُونَكُم لأنهم أقربُ إلى دياركم لتأمنوا شرَّهم وكيدَهم) ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ شدَّة وصبراً على القتال ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ بالحراسة والإعانة.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ إنكاراً واستهزاءً ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورة ﴿إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة وانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ بنزولها، لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم.

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ كفرٌ ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه.

(١٢٦) ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ﴾ يعني المنافقين ﴿أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾ يبتلون بأصناف البليات، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات ﴿فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا ينتهون ولا يتوبون من نفاقهم ﴿وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ ولا يعتبرون (أقول: هذه الأوصاف توجد في المسلمين مع وجود إيمانهم، لكن منهم من يتوب ويرجع ومنهم من لا يتوب ولا يرجع).

(١٢٧) ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية، أو غيظاً لما فيها من عيوبهم ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ أي: يقولون هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يرَهم أحد قاموا، وإن رآهم أحد أقاموا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان. وهو يحتمل الإخبار والدعاء ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ لسوء فهمهم أو لعدم تدبُّرهم.

(١٢٨) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم عربي مثلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديدٌ شاقٌّ ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عَنتكم (أي: مشقتكم) ولقاؤكم المكروه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على إيمانكم وصلاح شأنكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ والرأفة شدَّة الرحمة.

(١٢٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإنه يكفيك معرَّتهم (أي: إيذاءهم) ويعينك عليهم ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ المُلك العظيم، أو الجسم العظيم المحيط، الذي تنزل منه الأحكام والمقادير. والله تعالى أعلم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة التوبة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس

مكيَّة وهي مئة وتسع آيات

(١) ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ إشارةٌ إلى ما تضمَّنته السورة أو القرآن من الآي، والمراد من الكتاب أحدهما، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحِكم، أو لأنه كلام حكيم.

(٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ من أفناء (أي: من عامة) رجالهم دون عظيمٍ من عظمائهم. قيل: كانوا يقولون: العَجَبُ أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب. وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الأمور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة. هذا وإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلا في المال، وهو أهون شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عمَّمَ الإنذار إذ قلما من أحد ليس فيه ما ينبغي أن ينذَر منه، وخصَّصَ البشارة بالمؤمنين إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشَّروا به ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ سابقةٌ ومنزلة رفيعة. سميت قَدَماً لأن السبق بها. وإضافتُها إلى الصدق لتحققها والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا﴾ يعنون الكتاب وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة معجزة إياهم عن المعارضة.

(٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الممكنات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾ (أقول: بلا أين وكيف وكم، هذا مذهب السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ﴾ يقدِّر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته، ويهيئ بتحريكه أسبابها وينزلها منه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ تقريرٌ لعظمته وعِزِّ جلاله، وردٌّ على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى. وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية ﴿رَبُّكُمْ﴾

لا غيره، إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ وحِّدوه بالعبادة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ تتفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحقُّ للربوبيَّة والعبادة، لا ما تعبدونه.

(٤) ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ بالموت والنشور لا إلى غيره، فاستعدوا للقائه ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد بَدئه وإهلاكه ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: بعدله جل وعلا. أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم. أو بإيمانهم، لأنه العدل القويم، كما أن الشرك ظلم عظيم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ معناه: ليجزي الذين كفروا بشراب من حَميم وَعَذَاب أَلِيم بسبب كفرهم. وفيه تنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة والعقاب، وهو واقع بالعرَض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، ولذلك لم يعيّنه، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه إليهم سوءُ اعتقادهم وشؤم أفعالهم (أقول: شؤم الأفعال وسوء الاعتقاد يوجد كذلك في المسلمين مع وجود إيمانهم، لكنهم لا ينتبهون لهذا).

(٥) ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾ أي: ذات ضياء ﴿وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ أي: ذا نور. وقد نبَّه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيِّرة في ذاتها والقمرَ نيراً بعرَض مقابلة الشمس والاكتساب منها ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ الضمير لكلِّ واحد، أي: قدَّر مسير كل واحد منهما منازل. أو للقمر، وتخصيصُه للقمر بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازله وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علَّله بقوله: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ إلا ملتبساً بالحق مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥﴾ فإنهم المنتفعون بالتأمل فيها.

(٦) ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من أنواع الكائنات ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته جلَّ وعلا ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾ العواقب، فإنه يحملهم على التفكر والتدبر (أقول: هذا للمؤمنين لا للكافرين).

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

(٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم للبعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ وسكنوا إليها مقْصِرين هممهم على لذائذها وزخارفها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ لا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يضادها.

(٨) ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ بما واظبوا عليه وتمرَّنوا به من المعاصي (أقول: وهذا قد يحصل للمسلمين).

(٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيلٍ يؤدي إلى الجنة أو إلى إدراك الحقائق. أو لِما يريدونه في الجنة. ومفهوم الترتيب وإن دلَّ على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح لكن دلَّ منطوق قوله: ﴿بِإِيمانِهِمْ﴾ على استقلال الإيمان بالسببية، وأن العمل الصالح كالتتمة والرديف له ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾.

(١٠) ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ أي: دعاؤهم ﴿سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ اللهم إنا نسبِّحك تسبيحاً ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ ما يحيِّي به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم ﴿فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ وآخر دعائهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: أن يقولوا ذلك؛ ولعلَّ المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجَّدوه ونعتوه بنعوت الجلال، ثم حيَّاهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز بأصناف الكرامات؛ أو اللهُ تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام.

(١١) ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ ولو يسرعه إليهم ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ إشعارٌ بسرعة إجابته لهم في الخير ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأُميتوا وأهلكوا ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ كأنه قيل: ولكن لا نعجِّل ولا نقضي، فنذرُهم إمهالاً لهم واستدراجاً.

(١٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصاً فيه ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي: مضطجعاً ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وفائدةُ الترديدِ تعميمُ الدعاء لجميع الأحوال، أو لأصناف المضارِّ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ يعني

مضى على طريقته واستمر على كفره ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ كأنه لم يدعُنا ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ إلى كشف ضرٍّ ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ حين ظلموا بالتكذيب واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج الدالة على صدقها ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى لهم وعلمِه بأنهم يموتون على كفرهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء، وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ نجزي كل مجرم.

(١٤) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلافَ من يَختبر ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أتعملون خيراً أو شراً، فنعاملكم على مقتضى أعمالكم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

(١٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني المشركين ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ بكتاب آخر نقرؤه، ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت، أو ما نكرهه من معايب آلهتنا ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ ما يصحُّ لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ﴾ من قِبَل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فإن المتَّبع لغيره في أمر لا يستبدُّ (أي: لا ينفرد) بالتصرُّف فيه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ أي: بالتبديل ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ وفيه إيماء (أي إشارة) إلى أنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

(١٦) ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ غيرَ ذلك ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أعْلَمَكم به على لساني. والمعنى أن الأمر بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتي حتى أجعلَه على نحو ما تشتهونه. ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مقدارَ عمرِ أربعين سنة ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه. فإنه إشارة إلى أن القرآن مُعجز خارق للعادة، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً ولم يشاهد عالِماً ولم ينشئ قريضاً (أي: شِعراً) ولا خطبة (أي: كلاماً منثوراً مسجَّعاً) ثم قرأ عليهم كتاباً بَزَّت (أي: غلبت) فصاحته فصاحة كل مِنْطِيق (أي: بليغ)، وعلا عن كلِّ منثور ومنظوم، واحتوى على قواعد عِلمَي الأصول والفروع، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه، عُلِم أنه مُعلَّم به من الله تعالى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبُّر والتفكُّر فيه لتعلموا أنه ليس إلا من الله تعالى.

(١٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تظليم للمشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم: إنه لَذو شريك وذو ولد ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فكفر بها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

(١٨) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فإنه جماد لا يقدر على نفع ولا ضرٍّ، والمعبود ينبغي أن يكون مُثيباً ومعاقِباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضرٍّ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾

الأوثان ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ تشفع لنا فيما يهمُّنا من أمور الدنيا أو في الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكِّين فيه، وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة الموجِد الضارِّ النافع سبحانه إلى عبادة ما يُعلم قطعاً أنه لا يضرُّ ولا ينفع على توهُّم أنه ربما يشفع لهم عنده ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ أتخبرونه ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ وهو أن له شريكاً، أو هؤلاء شفعاء عنده ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تنبيهٌ على أن ما يعبدون مِن دونِ الله تعالى إما سماوي وإما أرضي، ولا شيء من الموجودات فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم، لا يليق أن يشرَك به ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾.

(١٩) ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ موحِّدين على الفطرة، أو متفقين على الحق. وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى أن قَتلَ قابيلُ هابيلَ، أو بعد الطوفان. أو على الضلال في فترةٍ من الرسل ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ باتباع الهوى والأباطيل، أو ببعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام، فتبعتهم طائفة وأصرَّت أخرى ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الحكم بينهم أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة، فإنه يوم الفصل والجزاء ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق.

(٢٠) ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ أي: من الآيات التي اقترحوها ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ هو المختصُّ بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة مفاسد تصرف عن إنزالها ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لنزول ما اقترحتموه ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ لما يفعل الله تعالى بكم بجحودكم ما نزَّل عليَّ من الآيات العظام واقتراحكم غيره.

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿**وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ**﴾ صحة وسَعة ﴿**مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ**﴾ كقحط ومرض ﴿**إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ**﴾ بالطعن فيها والاحتيال في دفعها ﴿**قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ**﴾ منكم، قد دبَّر عقابكم قبل أن تدبِّروا كيدكم. والمكرُ إخفاء الكيد، وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر ﴿**إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾**﴾ تحقيقٌ للانتقام وتنبيهٌ على أن ما دبَّروا في إخفائه لم يخفَ على الحَفَظة فضلاً عن أن يخفى على الله تعالى.

(٢٢) ﴿**هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ**﴾ في السفن ﴿**وَجَرَيۡنَ بِهِم**﴾ بمن فيها ﴿**بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ**﴾ ليِّنة الهبوب ﴿**وَفَرِحُواْ بِهَا**﴾ بتلك الريح ﴿**جَآءَتۡهَا**﴾ تلقَّتها ﴿**رِيحٌ عَاصِفٞ**﴾ ذات عصف شديدة الهبوب ﴿**وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ**﴾ يجيء الموج منه ﴿**وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ**﴾ أهلكوا وسُدَّت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدو ﴿**دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**﴾ من غير إشراك، لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف ﴿**لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ**﴾ (الأهوال، أو من هذه الريح) ﴿**لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾**﴾ (لنعمتك، مؤمنين بك، متمسِّكين بطاعتك [النسفي]).

(٢٣) ﴿**فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ**﴾ إجابةً لدعائهم ﴿**إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ فاجؤوا الفساد فيها وسارعوا إلى ما كانوا عليه ﴿**بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ**﴾ مبطلين فيه ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ**﴾ فإن وباله عليكم، أو إنه على أمثالكم وأبناء جنسكم ﴿**مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ**﴾ منفعة الحياة الدنيا لا تبقى ويبقى عقابها ﴿**ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ**﴾ في القِيامة ﴿**فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾**﴾ بالجزاء عليه.

(٢٤) ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا**﴾ حالها العجيبة في سرعة تقضِّيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ﴿**كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ**﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿**مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ**﴾ من الزروع والبقول والحشيش ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا**﴾ حُسْنها وبهجتها ﴿**وَٱزَّيَّنَتۡ**﴾ تزيَّنت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة كعروس أخذت من ألوان الثياب والزينة فتزينت بها ﴿**وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ**﴾ متمكِّنون من حصْدها ورفعِ غلَّتها ﴿**أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا**﴾ ضَرب زرعَها ما

يجتاحُه (أي: يهلكه) ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ فجعلنا زرعها ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما حُصِد من أصله ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ أي: كأن لم يغنَ زرعُها، أي: لم يلبث ﴿بِالْأَمْسِ﴾ فيما قُبيلَه ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٢٥) ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ دار السلامة من التقضِّي (أي: الانقضاء) والآفة، أو دار الله تعالى. وتخصيصُ هذا الاسم للتنبيه على ذلك. أو دار يسلِّم الله تعالى والملائكة فيها على من يدخلها، والمراد الجنة ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتوفيق ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ هو طريقها. وذلك الإسلام والتدرُّع بلباس التقوى. وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة، وأن المصرَّ على الضلالة لم يُرِدِ الله تعالى رشدَه.

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

(٢٦) ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى ﴿وَزِيَادَةٌۖ﴾ وما يزيد على المثوبة تفضلاً. وقيل: الحسنى مِثل حسناتهم، والزيادةُ عَشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف وأكثر (كما في الأحاديث الصحيحة). وقيل: الزيادة مغفرة من الله تعالى ورضوان. وقيل: الحسنى الجنة، والزيادة هي اللقاء (أقول: والنظرُ إلى وجهه الكريم فيها سبحانه جلَّ جلاله، يرحم عباده في الدنيا والآخرة، الحمد له والشكر له، نحن مقصِّرون في جنبه، لا إله إلا الله، هو الخالق ونحن عبيده) ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ هوانٌ. والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار، أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها، بخلاف الدنيا وزخارفها.

(٢٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا﴾ أي: أن تجازى سيئة بسيئة مثلها، لا يُزاد عليها ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ﴾ ما من أحد يعصمهم من سخط الله تعالى ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ﴾ غُطيت ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ﴾ لفرط سوادها وظلمتها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وهي مما يَحتجُّ به الوَعيديَّة (الوعيدية: هم الخوارج والمعتزلة، سُمُّوا وعيدية لأنهم يقولون بوجوب إنفاذ الوعيد على الله تعالى، ويرون أن مرتكب الكبيرة يخرج من الإيمان). والجواب أن الآية في الكفار، لاشتمال السيئات على الكفر والشرك، ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة، فلا يتناولهم قسيمه.

(٢٨) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني الفريقين جميعاً ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ﴾ الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يُفعل بكم ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ﴾ ففرَّقنا بينهم، وقطعنا الوُصَلَ التي كانت بينهم ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ مجازٌ عن براءة ما عبدوه من عبادتهم، فإنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم، لأنها الآمرة بالإشراك لا ما أشركوا به. وقيل: يُنطق الله تعالى الأصنام فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي يتوقعون منها.

(٢٩) ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه العالِم بكُنهِ الحال ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

(٣٠) ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ﴾ تختبر ما قَدَّمتْ من عمل فتعاين نفعَه وضرَّه ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى جزائه إياهم بما أسلفوا ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ﴾ ربهم ومتولي أمرهم على الحقيقة، لا ما اتخذوه مولى ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وضاع عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدَّعون أنها آلهة.

(٣١) ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: منهما جميعاً، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية وموادَّ أرضية، أو مِنْ كلِّ واحد منهما توسعةً عليكم ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أم مَنْ يستطيع خلقهما وتسويتهما، أو مَنْ يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالها من أدنى شيء ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ ومن يحيي ويميت، أو من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة منه ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالَم ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك لفرط وضوحه ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

(٣٢) ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ﴾ أي: المتولي لهذه الأمور المستحق للعبادة هو ربكم الثابت ربوبيته، لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبَّر أموركم ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ استفهام إنكار، أي: ليس بَعْدَ الحق إلاَّ الضلال، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ عن الحق إلى الضلال.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: كما حقَّت الربوبيَّة لله تعالى كذلك حقَّت كلمة الله تعالى وحُكمه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ تمرَّدوا في كفرهم وخرجوا عن حدِّ الاستصلاح ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ والمراد بها العِدَةُ بالعذاب.

قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٤) ﴿**قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ**﴾ جعل الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها. ولذلك أمَرَ الرسول ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب فقال: ﴿**قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ**﴾ لأن لجاجهم (أي: عنادهم) لا يدَعُهم أن يعترفوا بها ﴿**فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾**﴾ تصرفون عن قصد السبيل.

(٣٥) ﴿**قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ**﴾ بنصب الحُجج وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والتوفيق للنظر والتدبُّر ﴿**قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ**﴾ أم الذي لا يهتدي إلا أن يُهدى، أو لا يَهدي غيره إلا أن يهديه الله تعالى ﴿**فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾**﴾ بما يقتضي صريحُ العقل بطلانَه.

(٣٦) ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ**﴾ فيما يعتقدونه ﴿**إِلَّا ظَنًّاۚ**﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة، كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة ﴿**إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ**﴾ من العلم والاعتقاد الحق ﴿**شَيۡـًٔاۚ**﴾ من الإِغناء ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾**﴾ وعيدٌ على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان.

(٣٧) ﴿**وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ افتراءً من الخلق ﴿**وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ**﴾ مطابقاً لما تقدَّمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها، ولا يكون كذباً، كيف وهو لكونه معجزاً دونها عيَّارٌ (أي: مقياس) عليها شاهدٌ على صحتها ﴿**وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ**﴾ وتفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع ﴿**لَا رَيۡبَ فِيهِ**﴾ منتفياً عنه الريب (أي: الشك) ﴿**مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾**﴾.

(٣٨) ﴿**أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ**﴾ محمد ﷺ؛ ومعنى الهمزة فيه الإنكار ﴿**قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ**﴾ في البلاغة وحسن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة، وأشد تمرُّناً في النظم والعبارة ﴿**وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم**﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به ﴿**مِّن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ سوى الله تعالى، فإنه وحده قادر على ذلك ﴿**إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾**﴾ أنه اختلقه (من عند نفسه).

(٣٩) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ بل سارعوا إلى التكذيب ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ بالقرآن، أولَّ ما سمعوه، قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً من ذكر البعث والجزاء وسائر ما يخالف دينهم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ ولم يقفوا بعدُ على تأويله، ولم تبلغ أذهانهم معانيه. أو ولم يأتهم بعدُ تأويل ما فيه من الإِخبار بالغيوب حتى يتبيَّن لهم أنه صدق أم كذب. والمعنى أن القرآن معجزٌ من جهة اللفظ والمعنى، ثم إنهم فاجؤوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءَهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ فيه وعيدٌ لهم بمثل ما عوقب به مَن قبلهم.

(٤٠) ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المكذِّبين ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ من يصدِّق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو مَن سيؤمن به ويتوب عن الكفر ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أو فيما يُستقبل بل يموت على الكفر ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ بالمعاندين أو المصرِّين.

(٤١) ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وإن أصرُّوا على تكذيبك بعد إلزام الحجة ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ فتبرَّأ منهم فقد أعذرتَ (أي: قدَّمت الحجَّة فلا لوم عليك). والمعنى: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم، حقاً كان أو باطلاً ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ لا تؤاخَذون بعملي ولا أؤاخَذ بعملكم.

(٤٢) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن وعلَّمتَ الشرائع ولكن لا يقبلون، كالأصم الذي لا يسمع أصلاً ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ تقدر على إسماعهم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم. وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهمُ المعنى المقصود منه، ولذلك لا توصف به البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبُّره.

وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾

(٤٣) ﴿**وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ**﴾ يعاينون دلائل نبوَّتك ولكن لا يصدِّقونك ﴿**أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ**﴾ تقدر على هدايتهم ﴿**وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾**﴾ وإن انضمَّ إلى عدم البصر عدمُ البصيرة، فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار، والعمدةُ في ذلك البصيرة، ولذلك يحدس (أي: يتفرَّس) الأعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق.

(٤٤) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا**﴾ بسلب حواسِّهم وعقولهم ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾**﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليهم. وفيه دليل على أن للعبد كسباً، وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت المجبرة (أي: الجبرية). ويجوز أن يكون وعيداً لهم، بمعنى أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدلٌ من الله تعالى لا يظلمهم به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه.

(٤٥) ﴿**وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ**﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور لهول ما يرون ﴿**يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ**﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً. وهذا أول ما نُشروا، ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم ﴿**قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ**﴾ استئنافٌ للشهادة على خسرانهم والتعجب منه ﴿**وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾**﴾ لطُرُق استعمال ما مُنحوا من المعاوِن في تحصيل المعارف، فاستكسبوا بها جهالاتٍ أدَّت بهم إلى الردى والعذاب الدائم.

(٤٦) ﴿**وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ**﴾ من العذاب في حياتك، كما أراه يوم بدر ﴿**أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ**﴾ قبل أن نريك ﴿**فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ**﴾ فنريكه في الآخرة ﴿**ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾**﴾ مُجازٍ عليه. ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها.

(٤٧) ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٖ**﴾ من الأمم الماضية ﴿**رَّسُولٞۖ**﴾ يُبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق ﴿**فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ**﴾ بالبينات فكذَّبوه ﴿**قُضِيَ بَيۡنَهُم**﴾ بين الرسول ومكذبيه ﴿**بِٱلۡقِسۡطِ**﴾ بالعدل، فأُنجِيَ الرسولُ وأهلِك المكذبون ﴿**وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾**﴾ وقيل: معناه لكل أمة يوم القيامة رسول تُنسَب إليه، فإذا جاء رسولهم الموقفَ ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قُضِيَ بينهم بإنجاء المؤمنين وعقاب الكفار.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استبعاداً له واستهزاءً به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ خطابٌ منهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

(٤٩) ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيف أملك لكم فأستعجل في جلب العذاب إليكم؟! ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملكه. أو ولكن مَا شَاء الله تعالى من ذلك كائنٌ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروب لهلاكهم ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ لا يتأخرون ولا يتقدمون، فلا تستعجلوا، فسَيَحِينُ وقتكم ويُنجز وعدكم.

(٥٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به ﴿بَيَٰتًا﴾ وقتَ بياتٍ واشتغالٍ بالنوم ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حين كنتم مشتغلين بطلب معاشكم ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أيُّ شيء من العذاب يستعجلونه، وكله مكروه لا يلائم الاستعجال؟!

(٥١) ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ بمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتم به ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ تكذيباً واستهزاء؟!

(٥٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ المؤلم على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ من الكفر والمعاصي.

(٥٣) ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ ويستخبرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أحقٌّ ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة؟ تقوله بجد أم باطل تهزل به؟ قاله حيي بن أخطب لما قدم مكة ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ إن العذاب لكائن أو ما ادعيته لثابت؛ وإي بمعنى نعم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ بفائتين العذاب.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

(٥٤) ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ**﴾ بالشرك أو التعدي على الغير ﴿**مَا فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ من خزائنها وأموالها ﴿**لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ**﴾ لجعلته فدية لها من العذاب ﴿**وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ**﴾ لأنهم بهتوا (أي: تحيَّروا) بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر وهَوْلِه، فلم يقدروا أن ينطقوا. ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ**﴾ (أي: بالعدل) ﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾**﴾.

(٥٥) ﴿**أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ تقريرٌ لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب ﴿**أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ**﴾ ما وعده من الثواب والعقاب كائن لا خُلف فيه ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾**﴾ لقصور عقولهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

(٥٦) ﴿**هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾**﴾ بالموت و النشور.

(٥٧) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾**﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها، المرغِّبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمةِ النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم فنجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان.

(قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى: فالحاصل أن الموعظة إشارة إلى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة، والشفاء إشارة إلى تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وهو الطريقة، والهدى وهو إشارة إلى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة، والرحمة وهي إشارة إلى كونها بالغة في الكمال والإشراق إلى حيث تصير مكمِّلة للناقصين وهي النبوة [التفسير الكبير: ١٧/ ٩٤]).

(٥٨) ﴿**قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ**﴾ بإنزال القرآن ﴿**فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ**﴾ أي: أن مجيء الكتاب الجامع بين هذه الصفات موجب للفرح ﴿**هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾**﴾ من حطام الدنيا، فإنها إلى زوالٍ قريب.

(٥٩) ﴿**قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ**﴾ جعل الرزق منزَّلاً لأنه مقدَّر في السماء محصَّل

بأسباب منها ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التحريم والتحليل فتقولون ذلك بحكمِهِ ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ في نسبة ذلك إليه.

(٦٠) ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيحسبون أن لا يُجازَوا عليه؟ وفي إبهام الوعيد تهديدٌ عظيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ هذه النعمة.

(٦١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ولا تكون في أمرٍ ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ يتناول الجليل والحقير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رقباء مطلعين عليه ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون فيه وتندفعون ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ ولا يَبعد عنه ولا يغيب عن علمه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ موازن نملة صغيرة، أو هباء ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في الوجود والإمكان، فإن العامة لا تعرف ممكناً غيرهما ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ المراد بالكتاب اللوح المحفوظ (أو علمه الأزلي جل وعلا).

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٢) ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الذين يتولَّونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة (أقول: هذا لمن انقطع عن نفسه، أما من لم ينقطع عنها فنفسُه متولية عليه) ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لفوات مأمول (أقول: وهم المنخلعون عن لوازم البشرية بالكلية، المنسلخون عن مقتضيات أهوية نفوسهم رأساً، إذ الخوف والحزن من لوازم الطبيعة ومن ارتكاب مقتضياتها).

(٦٣) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بيانٌ لتوليهم إياه جل وعلا (أقول: الإيمان جوهر وقع بأمر الله تعالى في قلب المؤمن، فلا بد أن يميِّز بهذا الجوهر حصة النفس عن حقِّ الله جل وعلا).

(٦٤) ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهو ما بشَّر به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، وما يريهم من الرؤيا الصالحة، وما يسنح لهم من المكاشفات، وبشرى الملائكة عند النزع ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلِّمين مبشِّرين بالفوز والكرامة ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كونهم مبشَّرين في الدارين ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

(٦٥) ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم. ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبالِ بهم لأن الغلبة لله تعالى جميعاً، لا يملك غيره شيئاً منها، فهو يقهرهم وينصرك عليهم ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ بعزماتهم (أي: بما عزموا عليه) فيكافئهم عليها.

(٦٦) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ من الملائكة والثقلين، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيداً لا يصلح أحد منهم للربوبية فما لا يَعقل منها أحق أن لا يكون له نداً أو شريكاً، فهو كالدليل على قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون يقيناً، وإنما يتبعون ظنهم أنها شركاء ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ يكذِبون فيما ينسبون إلى الله تعالى.

(٦٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ تنبيهٌ على كمال قدرته وعظم

نعمته المتوحد هو بهما، ليدلَّهم على تفرُّده باستحقاق العبادة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ سماع تدبُّر واعتبار.

(٦٨) ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: تبنَّاه! ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ له عن التبني، فإنه لا يصح إلا ممن يُتصور له الولد. وتعجبٌ من كلمتهم الحمقاء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ علَّةٌ لتنزيهه، فإن اتخاذ الولد مسبَّب عن الحاجة ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقريرٌ لغناه ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ نفيٌ لمعارض ما أقامه من البرهان، مبالغةً في تجهيلهم وتحقيقاً لبطلان قولهم ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ توبيخٌ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم.

(٦٩) ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة.

(٧٠) ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: افتراؤهم متاعٌ في الدنيا، يقيمون به رئاستهم في الكفر أو حياتهم أو تقلبهم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت، فيلقون الشقاء المؤبَّد ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بسبب كفرهم.

۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾

(٧١) ﴿**وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ**﴾ خبرَه مع قومه ﴿**إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم**﴾ عظم عليكم وشقَّ ﴿**مَّقَامِي**﴾ أي: كوني وإقامتي بينكم مدة مديدة، أو قيامي على الدعوة ﴿**وَتَذۡكِيرِي**﴾ إياكم ﴿**بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ**﴾ وثقت به ﴿**فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ**﴾ فاعزموا عليه ﴿**وَشُرَكَآءَكُمۡ**﴾ أي: مع شركائكم؛ والمعنى: أَمَرهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم، ثقةً بالله تعالى وقلةَ مبالاةٍ بهم ﴿**ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ**﴾ في قصدي ﴿**عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ**﴾ مستوراً، واجعلوه ظاهراً مكشوفاً، أو ثم لا يكن حالكم عليكم غماً إذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري ﴿**ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ**﴾ أدُّوا ﴿**إِلَيَّ**﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي ﴿**وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾**﴾ ولا تمهلوني.

(٧٢) ﴿**فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ**﴾ أعرضتم عن تذكيري ﴿**فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ**﴾ يوجبُ توليكم لثقله عليكم واتهامكم إياي لأجله ﴿**إِنۡ أَجۡرِيَ**﴾ ما ثوابي على الدعوة والتذكير ﴿**إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ**﴾ لا تعلُّقَ له بكم، يثيبني به آمنتم أو توليتم ﴿**وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾**﴾ المنقادين لحكمه، لا أخالف أمره ولا أرجو غيره.

(٧٣) ﴿**فَكَذَّبُوهُ**﴾ فأصرُّوا على تكذيبه بعد ما ألزمهم الحجة وبيَّن أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمرُّدهم، لا جَرَمَ (أي: لا محالة) حقَّتْ عليهم كلمة العذاب ﴿**فَنَجَّيۡنَٰهُ**﴾ من الغرق ﴿**وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ**﴾ وكانوا ثمانين ﴿**وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ**﴾ من الهالكين به ﴿**وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ**﴾ بالطوفان ﴿**فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾**﴾ تعظيمٌ لما جرى عليهم، وتحذيرٌ لمن كذَّب الرسول ﷺ، وتسليةٌ له عليه الصلاة والسلام.

(٧٤) ﴿**ثُمَّ بَعَثۡنَا**﴾ أرسلنا ﴿**مِنۢ بَعۡدِهِۦ**﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿**رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ**﴾ كلَّ رسول إلى قومه ﴿**فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ**﴾ بالمعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿**فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ**﴾ فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم (أي: عنادهم) في الكفر وخذلان الله تعالى إياهم ﴿**بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ**﴾ أي: بسبب تعوُّدهم تكذيب الحق وتمرُّنهم عليه قبل بعثةِ الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿**كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾**﴾ بخذلانهم، لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف. وفي أمثال ذلك دليل على أن الأفعال واقعةٌ بقدرة الله تعالى وكسب العبد.

(أقول: الداعي مخلوق من الله تعالى في قلب الإنسان، وتحريك الداعي من الله تعالى، فإذا نزل إلى قدرة العبد إما أن يستعمله في الموافق وإما في المخالف، وهذا هو الجزء الاختياري).

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن اتباعها ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥﴾ معتادين الإجرام، فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترؤوا (أي: تجاسروا) على ردِّها.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وعرفوه بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك ﴿قَالُوٓا۟﴾ مِن فرطِ تمرُّدهم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦﴾ ظاهرٌ أنه سحر.

(٧٧) ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ إنه لسحر ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ إنكارٌ لما قالوه ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧﴾ من تمام كلام موسى عليه السلام، للدلالة على أنه ليس بسحر، فإنه لو كان سحراً لاضمحلَّ ولم يُبطِلْ سحرَ السحرة.

(٧٨) ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصْرِفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الملكُ فيها ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾ بمصدِّقين فيما جئتما به.

وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيۡهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(٧٩) ﴿**وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾**﴾ حاذقٍ فيه (أي: ماهر فيه).

(٨٠) ﴿**فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾**﴾ (أي: ما استقرَّ رأيكم على إلقائه كائناً ما كان من أصناف السحر، ولا يخفى ما في الإبهام من التحقير والإشعار بعدم المبالاة [المقتطف من عيون التفاسير]).

(٨١) ﴿**فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ**﴾ أي: الذي جئتم به هو السحر، لا ما سماه فرعون وقومه سحراً ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ**﴾ سيمحقه أو سيُظهر بطلانه ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾**﴾ لا يُثبته ولا يقويه.

(٨٢) ﴿**وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ**﴾ ويثبته ﴿**بِكَلِمَٰتِهِۦ**﴾ بأوامره وقضاياه ﴿**وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ ذلك.

(٨٣) ﴿**فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ**﴾ في مبدأ أمره ﴿**إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ**﴾ والذرية: طائفة من شبان بني إسرائيل آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنُه وزوجتُه وماشطتُه ﴿**عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيۡهِمۡ**﴾ أي: مع خوف منهم ﴿**أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ**﴾ أن يعذبهم فرعون ﴿**وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ لغالبٌ فيها ﴿**وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾**﴾ في الكِبْر والعتوِّ حتى ادَّعى الربوبية واسترقَّ أسباط الأنبياء (أي: ذرِّيتهم).

(٨٤) ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ**﴾ لما رأى تخوُّف المؤمنين ﴿**يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ**﴾ فثقوا به واعتمدوا عليه ﴿**إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾**﴾ مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له.

(٨٥) ﴿**فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا**﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين، ولذلك أجيبت دعوتهم ﴿**رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ**﴾ موضع فتنة ﴿**لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾**﴾ أي: لا تسلِّطهم علينا فيفتنونا.

(٨٦) ﴿**وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾**﴾ من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم. وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيهٌ على أن الداعي ينبغي له أن يتوكَّل أولًا لتجاب دعوته.

(٨٧) ﴿**وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا**﴾ أي: اتخذا مباءة (أي: مكاناً) ﴿**لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا**﴾ تسكنون فيها أو ترجعون إليها للعبادة ﴿**وَٱجۡعَلُواْ**﴾ أنتما وقومكما ﴿**بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ**﴾ مصلى، وقيل: مساجد متوجهة

نحو القبلة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها، أُمِروا بذلك أولَّ أمرهم لئلا يظهر عليهم الكَفَرَة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ بالنصرة في الدنيا والجنة في العقبى.

(٨٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ ما يُتزين به من الملابس والمراكب ونحوهما ﴿وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وأنواعاً من المال ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ دعاءٌ عليهم بلفظ الأمر، بما عَلم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: أهلكها، والطمس: المحق ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: وأقسِها واطبعْ عليها حتى لا تنشرح للإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ جوابٌ للدعاء، أو دعاءٌ بلفظ النهي.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

(٨٩) ﴿**قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا**﴾ يعني موسى وهارون عليهما السلام، لأنه كان يؤمِّن (أقول: فقد كان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مسؤولاً عن تبليغ الأحكام، أما سيدنا هارون عليه السلام فلم يكن مأموراً بالتبليغ مثله، ولذلك لما كان سيدنا موسى يدعو كان سيدنا هارون يقول آمين) ﴿**فَٱسْتَقِيمَا**﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة، ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائنٌ ولكنْ في وقته. روي: أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة (أقول: لا يقال كيف دعا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عليهم بعدم الإيمان وهو رسول من أولي العزم؟ لأن الله تعالى أفهمه أو أوحى إليه أنهم لن يؤمنوا، فدعاؤه عليهم بإلهام من الله تعالى وليس من عنده) ﴿**وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾**﴾ طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى.

(٩٠) ﴿**وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ**﴾ أي: جوّزناهم في البحر حتى بلغوا الشطَّ حافظين لهم ﴿**فَأَتْبَعَهُمْ**﴾ فأدركهم ﴿**فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا**﴾ باغين وعادين ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ**﴾ لَحِقَهُ ﴿**قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾**﴾ فنكَبَ (أي: عدل) عن الإيمان أوان القبول، وبالغ فيه حين لا يُقبل.

(٩١) ﴿**ءَآلْـَٰٔنَ**﴾ أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك ولم يبقَ لك اختيار ﴿**وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ**﴾ قبلَ ذلك مدة عمرك ﴿**وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾**﴾ الضالين المضلين عن الإيمان.

(٩٢) ﴿**فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ**﴾ ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً، أو نلقيك على نجوَة (أي: مكان مرتفع) من الأرض ليراك بنو إسرائيل ﴿**بِبَدَنِكَ**﴾ أي: ببدنك عارياً عن الروح، أو كاملاً سوياً، أو عرياناً من غير لباس، أو بدرعك، وكانت له درعٌ من ذهب يُعرف بها ﴿**لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً**﴾ لمن وراءك علامة، وهم بنو إسرائيل، إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خيّل إليهم أنه لا يهلك، حتى كذّبوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطروحاً على ممرِّهم من الساحل. أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا

سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرةً ونكالاً عن الطغيان، أو حجةً تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء المُلك مملوكٌ مقهورٌ بعيدٌ عن مظان الربوبية ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً، وهو الشام ومصر ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من اللذائذ ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد ما قرؤوا التوراة وعلِموا أحكامها. أو في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهرِ معجزاتِه ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ فيميز المحقَّ من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

(٩٤) ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القصص على سبيل الفرَض والتقدير ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنه محقَّق عندهم، ثابتٌ في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك. والمرادُ تحقيق ذلك، والاستشهادُ بما في الكتب المتقدمة، وأن القرآن مصدِّق لما فيها. أو وصفُ أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إليه. أو تهييج الرسول ﷺ وزيادة تثبيته، لا إمكان وقوع الشك له. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لا أشكُّ ولا أَسأل» [أخرجه ابن جرير عن قتادة بسند صحيح]. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته. أو لكل من يسمع، أي: إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك. وفيه تنبيه على أن كل من خالجته (أي: خطرت له) شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ واضحاً أنه لا مدخل للمرية (أي: للشك) فيه، بالآيات القاطعة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين.

(٩٥) ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أيضاً من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه.

(٩٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثبتت عليهم ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ إذ لا يَكذِب كلامُه ولا يُنتقض قضاؤه جلَّ وعلا.

(٩٧) ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ فإن السبب الأصلي لإيمانهم وهو تعلُّق إرادة الله تعالى (ومشيئته) به مفقود ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ وحينئذ لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

(٩٨) ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ**﴾ فهلَّا كانت قرية من القرى التي أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخَّر إليها كما أُخِّر فرعون ﴿**فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ**﴾ بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف العذاب عنها ﴿**إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟**﴾ أولَّ ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخِّروه إلى حلوله ﴿**كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾**﴾ إلى آجالهم. روي: «أن يونس عليه السلام بُعث إلى أهل نينوى من الموصل، فكذَّبوه وأصرُّوا عليه فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث، وقيل إلى ثلاثين، وقيل إلى أربعين. فلما دنا الموعد أغامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد، فهبط حتى غشي مدينتهم، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه، فأيقنوا صدقه، فلبسوا المُسوح (وهو كساء من نسيج الشَّعر يُلبس تقشفاً وقهراً للجسد) وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابِّهم، وفرقوا بين كل والدة وولدها، فحنَّ بعضها إلى بعض، وعلت الأصوات والعجيج (أي: الصياح)، وأخلصوا التوبة وأظهروا الإيمان وتضرَّعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة».

(٩٩) ﴿**وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ**﴾ بحيث لا يشذُّ منهم أحد ﴿**جَمِيعًا ۚ**﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ**﴾ بما لم يشأ الله تعالى منهم ﴿**حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾**﴾ وفيه دليل على أن خلاف المشيئة مستحيل، فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلاً عن الحث والتحريض عليه، إذ روي أنه ﷺ كان حريصاً على إيمان قومه شديد الاهتمام به فنزلت. ولذلك قرَّره بقوله تعالى:

(١٠٠) ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ**﴾ بالله تعالى ﴿**إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ**﴾ إلا بإرادته وألطافه وتوفيقه، فلا تُجهدْ نفسك في هداها فإنه إلى الله تعالى ﴿**وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ**﴾ العذاب أو الخذلان، فإنه سببه ﴿**عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾**﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات، أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع.

(١٠١) ﴿**قُلِ ٱنظُرُوا۟**﴾ أي: تفكروا ﴿**مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ**﴾ من عجائب صنعه تعالى، لتدلَّكم على وحدته وكمال قدرته جل وعلا ﴿**وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾**﴾ في علم الله تعالى وحكمه.

(١٠٢) ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل وقائعهم ونزول بأس الله تعالى بهم، إذ لا يستحقون غيره ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ لذلك، أو فانتظروا هلاكي إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرِينَ هلاككم.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كأنه قيل: نُهلك الأمم ثم ننجي رسلنا ومَن آمن بهم، على حكاية الحال الماضية ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ كذلك ننجي محمداً ﷺ وصحبه رضي الله تعالى عنهم حين نهلك المشركين.

(١٠٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابٌ لأهل مكة ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ وصحته ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً، فاعرضوها على العقل الصِّرف، وانظروا فيها بعين الإِنصاف لتعلموا صحتها، وهو أني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه، ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدكم ويتوفاكم. وإنما خصَّ التوفي بالذكر للتهديد ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ بما دلَّ عليه العقل ونطق به الوحي.

(١٠٥) ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ المعنى: وأمِرتُ بالاستقامة في الدين والاشتداد فيه بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح، أو في الصلاة باستقبال القبلة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

(١٠٦) ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بنفسه إن دعوته أو خذلته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي: فإن دَعوتَه ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (فإنه لا ظلمَ أعظم من الشرك [النسفي]).

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

(١١) سُورَةُ هُودٍ (١٢٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

(١٠٧) ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وإن يصبك به ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ يرفعه ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله تعالى ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ﴾ فلا دافع ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾ الذي أرادك به ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ فتعرَّضوا لرحمته جلَّ وعلا بالطاعة، ولا تيئسوا من غفرانه بالمعصية (اللهم ارحمنا بفضلك).

(١٠٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ رسوله ﷺ أو القرآن، ولم يبق لكم عذر ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان والمتابعة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن نفعه لها ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر بهما ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال الضلال عليها ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ بحفيظ موكول إليَّ أمرُكم، وإنما أنا بشير ونذير.

(١٠٩) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ بالامتثال والتبليغ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على دعوتهم وتحمَّل أذيتهم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بالنصرة أو بالأمر بالقتال ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه جل وعلا، لاطِّلاعِه على السرائر اطِّلاعَه على الظواهر.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة يونس وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة هود

مكيَّة وهي مئة وثلاث وعشرون آية

(١) ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نُظِمت نظماً محكماً لا يعتريه اختلال من جهة اللفظ والمعنى. أو أحكمت بالحجج والدلائل ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالفرائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ وهو تقرير لأحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي باعتبار ما ظهر أمره وما خفي.

(٢) ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: لأن لا تعبدوا إلا الله تعالى ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾ من الله تعالى ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد.

(٣) ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ثم توصَّلوا إلى مطلوبكم بالتوبة، فإن المُعرِض عن طريق الحق لا بدَّ له من الرجوع (أقول:هذا لمن كان له قسمة). وقيل: استغفروا من الشرك ثم توبوا إلى الله تعالى بالطاعة ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يعيِّشكم في أمْنٍ ودَعَة (أي: راحة) ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو آخر أعمارِكم المقدَّرة ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ ويعطِ كل ذي فضل في دينه جزاءَ فضلِه في الدنيا والآخرة. وهو وعدٌ للموحِّد التائب بخير الدارين ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وإن تتولَّوا ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ يوم القيامة. وقيل يوم الشدائد، وقد ابتُلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف.

(٤) ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ رجوعكم في ذلك اليوم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤﴾ فيقدر على تعذيبكم أشد عذاب.

(٥) ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ عن الحق وينحرفون عنه. أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﷺ. أو يولُّون ظهورهم ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ من الله تعالى بسرِّهم فلا يُطلِع رسوله ﷺ والمؤمنين عليه. قيل: إنها نزلت في طائفة من المشركين قالوا: إذا أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد ﷺ كيف يعلم؟ ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ ألا حين يأوون إلى فراشهم ويتغطون بثيابهم ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ بأفواههم، يستوي في علمه تعالى سرُّهم وعلنهم، فكيف يخفى عليه ما عسى يظهرونه! ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ بالأسرار ذات الصدور، أو بالقلوب وأحوالها.

۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

(٦) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها، لتكفُّلِه إيَّاه تفضُّلًا ورحمة. وإنما أتى بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصوله وحملاً على التوكل فيه ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ أماكنها في الحياة والممات، أو الأصلاب والأرحام ﴿كُلّٞ﴾ كلُّ واحد من الدواب وأحوالها ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾﴾ مذكور في اللوح المحفوظ (أو علم الله تعالى الأزلي كما قال أولياؤنا رضي الله عنهم). وكأنه أريد بالآية بيان كونه عالماً بالمعلومات كلها، وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها (أقول: فمثلاً: لا يمكن عادةً دخول السموات والأرض في ثقب إبرة، لكن يمكن لله جل وعلا أن يوسِّع ثقب الإبرة – مع ضيقها – ويُدخل الكونين في ثقبها). تقريراً للتوحيد ولِما سبق من الوعد والوعيد.

(٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أي: خلقهما وما فيهما. أو ما في جهتي العلوِّ والسفل. وجَمَعَ السموات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات (وفي سورة الطلاق عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] قال البيضاوي رحمه الله تعالى: أي وخلق مثلهنَّ من العدد في الأرض) ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ قبل خلقهما لم يكن حائل بينهما، لا أنه كان موضوعاً على متن الماء (أقول: لأن العرش مخلوق قبل الماء). واستُدِلَّ به على إمكان الخلاء، وأن الماء أولُ حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم. وقيل: كان الماء على متن الريح والله تعالى أعلم بذلك ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ أي: خلق ذلك ليعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم كيف تعملون؟ فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم وما تحتاج إليه أعمالكم، ودلائل وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها. والمراد بالعمل ما يعمُّ عمل القلب والجوارح ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾﴾ أي: ما البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان.

(٨) ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ الموعود ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ إلى جماعة (أي: مدة) من الأوقات قليلة ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ استهزاءً ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾ ما يمنعُه من الوقوع (أي: النزول)؟ ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾ كيوم بدر ﴿لَيۡسَ

﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم﴾ وأحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: العذاب الذي كانوا به يستعجلون. فوضعَ يَسْتَهْزِئونَ موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء.

(٩) ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ولئن أعطيناه نعمة بحيث يجد لذتها ﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ قطوعٌ رجاءَه من فضل الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به ﴿كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

(١٠) ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ كصحة بعد سقم، وغنى بعد عدم ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي: المصائب التي ساءتني ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ بَطِرٌ بالنعم مغترٌّ بها ﴿فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ على الناس، مشغولٌ عن الشكر والقيام بحقها.

(١١) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على الضراء إيماناً بالله تعالى واستسلاماً لقضائه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ شكراً لآلائه سابقِها ولاحقِها ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ أقلُّه الجنة (أقول: قال أقلُّه الجنة لأن فوقه رؤية الله تعالى).

(١٢) ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك؛ وهو ما يخالف رأي المشركين مخافة ردِّهم واستهزائهم به ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ وعارض لك أحياناً ضيق صدرك بأن تتلوه عليهم مخافة ﴿أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ ينفقه في الاستتباع (أي: طلب الأتباع) كالملوك ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يصدِّقه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ليس عليك إلا الإِنذار بما أوحي إليك، ولا عليك رَدُّوا أو اقترحوا، فما بالك يضيق به صدرك ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ فتوكل عليه فإنه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

(١٣) ﴿**أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ**﴾ في البيان وحسن النظم. تحدَّاهم أولاً بعشر سور، ثم لما عجزوا عنها سهَّل الأمر عليهم وتحدَّاهم بسورة ﴿**مُفْتَرَيَٰتٍ**﴾ مختلَقات من عند أنفسكم. إن صحَّ أني اختلقته من عند نفسي فإنكم عرب فصحاء مثلي، تقدرون على مثل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر لتعلمكم القصص والأشعار وتعودكم القريض (أي: الشعر) والنظم (أي: الكلام الموزون) ﴿**وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ إلى المعاونة على المعارضة ﴿**إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾**﴾ أنه مفترى.

(١٤) ﴿**فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ**﴾ بإتيان ما دعوتم إليه ﴿**فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ**﴾ ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله تعالى ولا يقدر عليه سواه ﴿**وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ واعلموا أن لا إله إلا الله، لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره، ولظهور عجز آلهتهم ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾**﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقاً. أي: فإن لم يستجيبوا لكم لعجزهم، وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة، فاعلموا أنه نظم لا يعلمه إلا الله، وأنه منزل من عنده، وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حقٌّ فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة.

(١٥) ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا**﴾ بإحسانه وبرِّه ﴿**نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا**﴾ نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا؛ من الصحة والرئاسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد ﴿**وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾**﴾ لا يُنقصون شيئاً من أجورهم. والآية في أهل الرياء، وقيل: في المنافقين، وقيل: في الكفرة بربهم.

(١٦) ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ**﴾ مطلقاً، في مقابلة ما عملوا، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة ﴿**وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا**﴾ لأنه لم يبقَ لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا به وجه الله تعالى، والعمدةُ في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص ﴿**وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾**﴾ لأنه لم يُعمل على ما ينبغي.

(١٧) ﴿**أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ**﴾ برهان من الله تعالى يدلُّه على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره

(أي: يتركه). والمعنى: أَفَمن كَان على بيِّنةٍ كمن كان يريد الحياة الدنيا. وهو حكمٌ يعم كل مؤمن مخلص. وقيل: المراد به النبي ﷺ، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويَتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ شاهد من الله تعالى يشهد بصحته، وهو القرآن ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ وَمن قَبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ يعني التوراة، فإنها أيضاً تتلوه في التصديق ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزل عليهم، لأنه الوصلة إلى الفوز بخير الدارين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى من كان على بينة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ (وهم جميع الكفار) من أهل مكة ومن تحزَّب معهم على رسول الله ﷺ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يَرِدُها لا محالة ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: شكٍّ من الموعد، أو القرآن ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ لقلة نظرهم واختلال فكرهم.

(١٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كأنْ أَسنَد إليه ما لم ينزله، أو نفى عنه ما أنزله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الكاذبون ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الموقف، بأن يُحبسوا وتُعرض أعمالهم ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ من الملائكة والنبيين، أو من جوارحهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ تهويلٌ عظيم مما يحيق بهم حينئذ لظلمهم بالكذب على الله تعالى.

(١٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب، أو يبغون أهلها أن يَعْوَجُّوا بالردَّة ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ والحال أنهم كافرون بالآخرة، وتكرير ﴿هُمْ﴾ لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

(٢٠) ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ أي: ما كانوا معجزين الله تعالى في الدنيا أن يعاقبهم ﴿**وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ**﴾ يمنعونهم من العقاب، ولكنه أخَّر عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشدَّ وأدومَ ﴿**يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ**﴾ لتصامِّهم (أي: لتظاهرهم بالصمم) عن الحق وبغضهم له ﴿**وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾**﴾ لتعاميهم (أي: لتظاهرهم بالعمى) عن آيات الله تعالى، وكأنه العلة لمضاعفة العذاب.

(٢١) ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ**﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى ﴿**وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾**﴾ من الآلهة وشفاعتها. أو خسروا بما بدلوا، وضاع عنهم ما حصَّلوا، فلم يبقَ معهم سوى الحسرة والندامة.

(٢٢) ﴿**لَا جَرَمَ**﴾ (أي: حقاً) ﴿**أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾**﴾ لا أحد أبيَن وأكثر خسراناً منهم.

(٢٣) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ**﴾ اطمأنوا إليه وخشعوا (وتواضعوا) له ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾**﴾ دائمون.

(٢٤) ﴿**مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ**﴾ الكافرِ والمؤمنِ ﴿**كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ**﴾ يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله تعالى، وبالأصمِّ لتصامِّه عن استماع كلام الله تعالى، وتأبِّيه (أي: امتناعه) عن تدبُّر معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضدَّيها ﴿**هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ**﴾ هل يستوي الفريقان ﴿**مَثَلًاۚ**﴾ أي: تمثيلاً ﴿**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾**﴾ بضرب الأمثال والتأمل فيها.

(٢٥) ﴿**وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾**﴾ أبيِّن لكم موجبات العذاب ووجْهَ الخلاص.

(٢٦) ﴿**أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾**﴾ مؤلم.

(٢٧) ﴿**فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا**﴾ لا مزيَّة لك علينا تخصك بالنبوَّة ووجوب الطاعة ﴿**وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا**﴾ أخِسَّاؤنا ﴿**بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ**﴾ ظاهرَ الرأي من

غير تعمق. وإنما استرذلوهم لذلك أو لفقرهم، فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأحظُّ بها أشرفَ عندهم، والمحرومُ منها أرذلَ ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ لك ولمتَّبعيك ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يؤهِّلكم للنبوة واستحقاق المتابعة ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إياك (يعني: نوحاً عليه السلام) في دعوى النبوَّة، وإياهم (أي: متبعيه) في دعوى العلم بصدقك، فغلَّب المخاطب على الغائبين.

(٢٨) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ حجَّةٍ شاهدة بصحة دعواي ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإيتاء البيِّنة أو النبوَّة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيت عليكم فلم تهدِكم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنُكرِهُكم على الاهتداء بها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ لا تختارونها ولا تتأمَّلون فيها.

وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾

(٢٩) ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على التبليغ ﴿مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فإنه المأمول منه ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ جوابٌ لهم حين سألوا طردهم ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ فيُخاصِمون طاردَهم عنده. أو إنهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردهم! ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ بلقاء ربكم أو بأقدارهم (أي: بمنزلتهم). أو تتسفَّهون عليهم بأن تدعوهم أراذل.

(٣٠) ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ بدفع انتقامه ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ لتعرفوا أن التماس طردهم وتوقيف الإيمان عليه ليس بصواب.

(٣١) ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ خزائن رزقه وأمواله حتى جحدتم فضلي ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: ولا أقول لكم أنا أعلم الغيب حتى تكذبوني استبعاداً ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ ولا أقول في شأن من استرذلتموهم لفقرهم ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ فإن ما أعدَّه الله تعالى لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ إنْ قلتُ شيئاً من ذلك.

(٣٢) ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ فأطلته، أو أتيت بأنواعه ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرَتك لا تؤثر فينا.

(٣٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ عاجلاً أو آجلاً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه.

(٣٤) ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ أن يهلككم ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾ هو خالقكم والمتصرف فيكم وفقَ إرادته ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فَيجازيكم على أعمالكم.

(٣٥) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ وبالُه ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليَّ.

(٣٦) ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ (فلا تحزن ولا تتأسف)

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ أقنطَهُ الله تعالى من إيمانهم، ونهاهُ أن يغتمَّ بما فعلوه من التكذيب والإِيذاء.

(٣٧) ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً بأعيننا. عبَّر بكثرة آلة الحسِّ الذي يُحفظ به الشيء ويُراعى عن الاختلال والزيغ عن المبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل ﴿وَوَحْيِنَا﴾ إليك كيف تصنعها ﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ ولا تراجعني فيهم، ولا تدْعُني باستدفاع العذاب عنهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧﴾ محكومٌ عليهم بالإِغراق، فلا سبيل إلى كفِّه.

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

(٣٨) ﴿**وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ**﴾ حكايةُ حالٍ ماضية ﴿**وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ**﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في بريّة بعيدة من الماء أوان عزّته (أي: قلّة الماء)، وكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً ﴿**قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾**﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل: المراد بالسخرية الاستجهال.

(٣٩) ﴿**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ**﴾ يعني به إياهم، وبالعذابِ الغرقَ ﴿**وَيَحِلُّ عَلَيْهِ**﴾ وينزل عليه ﴿**عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾**﴾ دائم، وهو عذاب النار.

(٤٠) ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ**﴾ نبع الماء منه وارتفع كالقدر تفور. والتَّنُّورُ تنور الخبز ابتدأ منه النبوع على خرق العادة ﴿**قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا**﴾ في السفينة ﴿**مِن كُلٍّ**﴾ من كل نوع من الحيوانات المنتفَع بها ﴿**زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ**﴾ ذكراً وأنثى ﴿**وَأَهْلَكَ**﴾ المراد امرأته وبنوه ونساؤهم ﴿**إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ**﴾ بأنه من المغرقين، يريد ابنه كنعان وأمه واعِلة، فإنهما كانا كافرَين ﴿**وَمَنْ ءَامَنَۚ**﴾ والمؤمنين من غيرهم ﴿**وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾**﴾ قيل: كانوا تسعة وسبعين؛ زوجته المسلمة، وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث، ونساؤهم، واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم.

(٤١) ﴿**وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا**﴾ أي: صيروا فيها ﴿**بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ**﴾ أي: اركبوا فيها مسمِّين الله تعالى أو قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسائها (أي: وقوفها)، أو مكانهما. وروي أنه كان إذا أراد أن تجري قال: «بسم الله» فَجَرَتْ، وإذا أراد أن تَرسُوَ قال: «بسم الله» فَرَسَتْ ﴿**إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾**﴾ أي: لولا مغفرته لفرطاتِكم (أي: لتقصيراتكم) ورحمتُه إياكم لما نجاكم.

(٤٢) ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ**﴾ في موج من الطوفان، وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه، كلُّ موجة منها كجبل في تراكمها وارتفاعها ﴿**وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ**﴾ كنعان ﴿**وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ**﴾ عزَلَ فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه ﴿**يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا**﴾ في السفينة ﴿**وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾**﴾ في الدين والانعزال.

(٤٣) ﴿**قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ**﴾ أن يغرقني ﴿**قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن**

﴿رَّحِمَۚ﴾ إلا الراحمَ وهو الله تعالى. أَو إلا مكانَ مَنْ رحمهم الله تعالى وهم المؤمنون. ردَّ بذلك أن يكون اليوم معتصَم من جبل ونحوه يعصم اللائذ به إلا معتصَم المؤمنين وهو السفينة ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فصار من المهلكين بالماء.

(٤٤) ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ نُوديا بما ينادى به أولو العلم وأُمِرا بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالآمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه المبادر إلى امتثال أمره، مهابةً من عظمته وخشيةً من أليم عقابه. والبلع: النشف، والإقلاع: الإمساك ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نقص ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ جبل بالموصل (أو: قرب الموصل) ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ هلاكاً لهم.

(٤٥) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وإنَّ كلَّ وعدٍ تعدُه حقٌّ، لا يتطرق إليه الخُلف، وقد وعدتَ أن تنجي أهلي فما حاله، أو فما له لم ينجُ؟ ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم.

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾

(٤٦) ﴿**قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ**﴾ لقطع الولاية بين المؤمن والكافر. وأشار إليه بقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ**﴾ فإنه تعليل لنفي كونه من أهله. وأصلُهُ إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة ﴿**فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ**﴾ ما لا تعلم أصوابٌ هو أم ليس كذلك؟ وإنما سمَّاه جهلاً وزُجر عنه بقوله: ﴿**إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾**﴾ لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دلَّه على الحال وأغناه عن السؤال، لكن أشغله حبُّ الولد عنه حتى اشتبه عليه الأمر.

(٤٧) ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ**﴾ فيما يُستقبَل ﴿**مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ**﴾ ما لا علم لي بصحته ﴿**وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي**﴾ وإن لم تغفر لي ما فرط مني في السؤال ﴿**وَتَرۡحَمۡنِيٓ**﴾ بالتوبة والتفضل عليَّ ﴿**أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾**﴾ أعمالاً.

(٤٨) ﴿**قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا**﴾ انزلْ من السفينة مسلَّماً من المكاره من جهتنا، أو مسلَّماً عليك ﴿**وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ**﴾ ومباركاً عليك، أو زيادات في نسلك ﴿**وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ**﴾ وعلى أممٍ هم الذين معك. سُمُّوا أمماً لتحزُّبهم، أو لتشعب الأمم منهم. أو: وعلى أمم ناشئة ممن معك. والمراد بهم المؤمنون لقوله تعالى: ﴿**وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ**﴾ أي: وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا ﴿**ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾**﴾ في الآخرة. والمراد بهم الكفار من ذرية من معه. وقيل: هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، والعذابُ ما نزل بهم.

(٤٩) ﴿**تِلۡكَ**﴾ إشارةٌ إلى قصة نوح عليه السلام ﴿**مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ**﴾ أي: بعضِها ﴿**نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ**﴾ أي: مجهولةٌ عندك وعند قومك من قبل ايحائنا إليك ﴿**فَٱصۡبِرۡۖ**﴾ على مشاقِّ الرسالة وأذية القوم كما صبر نوح عليه السلام ﴿**إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ**﴾ في الدنيا بالظفر وفي الآخرة بالفوز ﴿**لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾**﴾ عن الشرك والمعاصي.

(٥٠) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ على الله تعالى باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء.

(٥١) ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ خاطبَ كلُّ رسولٍ به قومه إزاحة للتهمة وتمحيضاً للنصيحة فإنها لا تنجع (أي: لا تنفع) ما دامت مشوبة بالمطامع ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحقَّ من المبطِل والصوابَ من الخطأ.

(٥٢) ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ اطلبوا مغفرة الله تعالى بالإيمان، ثم توسَّلوا إليها بالتوبة ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثير الدرِّ (أي: غزير المطر) ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ويضاعفْ قوتكم. وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ﴾ ولا تُعرضوا عما أدعوكم إليه ﴿مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ مصرِّين على إجرامكم.

(٥٣) ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بحجة تدل على صحة دعواك. وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ بتاركي عبادتهم ﴿عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ إقناطٌ له من الإِجابة والتصديق.

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةٗ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدٗا لِّعَادٖ قَوْمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّٗا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾

(٥٤-٥٥) ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أي: ما نقول إلا أصابك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ﴾ بجنونٍ لسبِّكَ إياها وصدِّك عنها، ومن ذلك تهذي وتتكلم بالخرافات ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ أجاب به عن مقالتهم الحمقاء بأن أشهَدَ الله تعالى على براءته من آلهتهم وفراغه عن إضرارهم تأكيداً لذلك وتثبيتاً له، وأمَرَهُم بأن يشهدوا عليه استهانة بهم، وأن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنظار، حتى إذا اجتهدوا فيه ورأوا أنهم عجزوا عن آخرهم - وهم الأقوياء الأشداء - أن يضروه لم يبق لهم شبهة أن آلهتهم التي هي جماد لا يضرُّ ولا ينفع لا تتمكن من إضراره انتقاماً منه. وهذا من جملة معجزاته فإن مواجهة الواحد الجمَّ (أي: الجمع) الغفير من الجبابرة الفُتَّاك (أي: الأشداء) العطاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلا لثقته بالله تعالى، وتثبُّطهم (أي: تعوُّقهم) عن إضراره ليس إلا بعصمته جلَّ وعلا إياه عليه السلام، ولذلك عقَّبه بقوله تعالى:

(٥٦) ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ تقريراً له. والمعنى أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضروني، فإني متوكل على الله تعالى واثقٌ بكلاءته (أي: بحفظه)، وهو مالكي ومالككم لا يحيق بي ما لم يرِدْهُ، ولا تقدرون على ما لم يقدِّرْهُ. ثم برهن عليه بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ أي: إلا وهو مالك لها قادر عليها يصرفها على ما يريد بها ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ أي: إنه على الحق والعدل، لا يضيع عنده معتصِم، ولا يفوته ظالم.

(٥٧) ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ فإن تتولوا ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ﴾ فقد أديت ما عليَّ من الإبلاغ وإلزام الحجة فلا تفريط مني ولا عذر لكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وعيدٌ لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ بتوليكم ﴿شَيْـًٔاۚ﴾ من الضرر ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾﴾ رقيبٌ، فلا تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم. أو حافظٌ مستَولٍ عليه فلا يمكن أن يضره شيء.

(٥٨) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابُنا أو أمرُنا العذاب ﴿نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا﴾ وكانوا

أربعة آلاف ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ تكريرٌ لبيان ما نجاهم منه، وهو السموم (أي: الريح الحارة)، كانت تدخل أنوف الكفَرَة وتخرج من أدبارهم فتقطع أعضاءهم. أو المراد به تنجيتُهم من عذاب الآخرة أيضاً. والتعريضُ بأن المهلكين كما عُذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أنَّثَ اسم الإشارة باعتبار القبيلة، أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ لأنهم عصوا رسولهم عليه السلام، ومَن عصى رسولاً فكأنما عصى الكلَّ، لأنهم أمِروا بطاعة كل رسول ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾ يعني كبراءَهم الطاغين. والمعنى: عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يُرديهم (أي: يهلكهم).

(٦٠) ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: جُعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبُّهم في العذاب ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي: جحدوه، أو كفروا نِعَمه، أو كفروا به ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ دعاءٌ عليهم بالهلاك. والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم ﴿قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ عطفُ بيانٍ لعاد، وفائدتُه تمييزهم عن عاد الثانية عاد إرم، والإيماءُ إلى أن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود عليه السلام.

(٦١) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هو كوَّنكم منها لا غيره، فإنه خلق آدم عليه السلام ومواد النطف التي خلق نسله منها من التراب ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ عمَّركم فيها واستبقاكم، أو أقدَرَكم على عمارتها وأمركم بها، أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم، ثم تتركونها لغيركم ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ قريب الرحمة ﴿مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ لداعيه.

(٦٢) ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ لِما نرى فيك من مخايل (أي: علامات) الرشد والسداد أن تكون لنا سيداً ومستشاراً في الأمور، أو أن توافقنا في الدين، فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا عنك ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والتبري عن الأوثان ﴿مُرِيبٍ ۝٦٢﴾ مُوقِع في الريبة (أي: الشكّ).

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾

(٦٣) ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ بيانٍ وبصيرةٍ ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ نبوَّةً ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ فمن يمنعني من عذابه ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ في تبليغ رسالته والمنعِ عن الإشراك به ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾﴾ غير أن تخسّروني بإبطال ما منحني الله تعالى به والتعرض لعذابه. أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخسران.

(٦٤) ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ ترعَ نباتها وتشرب ماءها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾﴾ عاجلٌ لا يتراخى عن مسِّكم لها بالسوء إلا يسيراً، وهو ثلاثة أيام.

(٦٥) ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ﴾ عِيشوا في منازلكم أو في داركم الدنيا ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة ثم تُهلكون ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾﴾ أي: غير مكذوب فيه.

(٦٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ أي: ونجيناهم من خزي يومئذ، وهو هلاكهم بالصيحة، أو ذلِّهم وفضيحتهم يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ القادر على كل شيء والغالب عليه.

(٦٧) ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (خامدين ميتين).

(٦٨) ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾ (أي: يقيموا) ﴿فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

(٦٩) ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يعني الملائكةُ ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ ببشارة الولد. وقيل: بهلاك قوم لوط ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ أي: وعليكم سلام ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾﴾ فما أبطأ في المجيء به. والحنيذ: المشوي بالرضف (أي: بالحجارة المحماة).

(٧٠) ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ لا يمدُّون إليه أيديهم ﴿نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ أنكرَ ذلك منهم وخاف أن يريدوا به مكروهاً ﴿قَالُواْ﴾ له لما أحسوا منه أثر الخوف ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾﴾ إنا ملائكة مرسَلة إليهم بالعذاب، وإنما لم نمدَّ إليه أيدينا لأنا لا نأكل.

(٧١) ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ سروراً بزوال الخيفة، أو بهلاك أهل الفساد. وقيل: فضحكت، أي: فحاضت ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ وتوجيه البشارة إليها للدلالة على أن الولد المبشَّر به يكون منها لا من هاجر، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد.

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

(٧٢) ﴿**قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ**﴾ يا عجباً ﴿**ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ**﴾ ابنة تسعين أو تسع وتسعين ﴿**وَهَٰذَا بَعْلِى**﴾ زوجي ﴿**شَيْخًا**﴾ ابن مئة أو مئة وعشرين ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾**﴾ يعني الولد من هرِمَين. وهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة (الإلهية)، ولذلك:

(٧٣) ﴿**قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ**﴾ منكرين عليها، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع (غريبٍ) ولا حقيقٍ (لائق) بأن يستغربه عاقلٌ فضلاً عمن نشأت وشابت في ملاحظة الآيات ﴿**إِنَّهُۥ حَمِيدٌ**﴾ فاعلٌ ما يستوجب به الحمدَ ﴿**مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾**﴾ كثير الخير والإحسان.

(٧٤) ﴿**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ**﴾ أي: ما أوجس من الخيفة، واطمأن قلبُه بعرفانهم ﴿**وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ**﴾ بدلَ الرَّوع ﴿**يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾**﴾ يجادل رسلنا في شأنهم. ومجادلتُه إياهم قوله: إِنَّ فِيها لُوطاً.

(٧٥) ﴿**إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ**﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه ﴿**أَوَّٰهٌ**﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ﴿**مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾**﴾ راجع إلى الله تعالى. والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه وفرطُ ترحُّمه.

(٧٦) ﴿**يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ**﴾ أي: قالت الملائكة يا إِبْراهِيمُ ﴿**أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ**﴾ الجدال ﴿**إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ قدَرُه بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم، وهو أعلم بحالهم ﴿**وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾**﴾ غير مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

(٧٧) ﴿**وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ**﴾ ساءه مجيئهم، لأنهم جاءوه في صورة غلمان، فظنَّ أنهم أناس، فخاف عليهم أن يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم ﴿**وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا**﴾ وضاق بمكانهم صدره، وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه ﴿**وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾**﴾ شديد.

(٧٨) ﴿**وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ**﴾ يسرعون إليه كأنهم يُدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿**وَمِن**

﴿قَبۡلُ﴾ أي: ومن قبل ذلك الوقت ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ الفواحشَ، فتمرَّنوا بها ولم يستحيوا منها حتى جاؤوا يُهرعون لها مجاهرين ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ فَدى بهنَّ أضيافه كرماً وحميَّة. والمعنى: هؤلاء بناتي فتزوَّجوهن. وكانوا يطلبونهن قبلُ فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم، لا لحرمة المسلمات على الكفار، فإنه شرع طارئ. وقيل: المراد بالبنات نساؤهم، فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والتربية ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك الفواحش أو بإيثارهن عليهم ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ ولا تفضحوني، أو ولا تخجلوني ﴿فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ في شأنهم، فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاؤه ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ يهتدي إلى الحق ويرعوي (أي: يمتنع) عن القبيح.

(٧٩) ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ من حاجةٍ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ وهو إتيان الذكران.

(٨٠) ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ لو قويتُ بنفسي على دفعكم ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ إلى قويٍّ أتمنع به عنكم. شبهه بركن الجبل في شدته. وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى].

(٨١) ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا، فهوِّنْ عليك ودعْنا وإياهم، فخلَّاهم أن يدخلوا، فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فخرجوا يقولون: النجاءَ النجاءَ، فإن في بيت لوط سحَرة ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ بطائفة منه ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ ولا يتخلف، أو لا ينظر إلى ورائه ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ استثناءٌ من قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ كأنه علةُ الأمر بالإسراء ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ جوابٌ لاستعجال لوط عليه السلام واستبطائه العذاب.

فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

(٨٢) ﴿**فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا**﴾ عذابُنا، أو أمرُنا به ﴿**جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا**﴾ روي: أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم ﴿**وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا**﴾ على المدن، أو على شُذَّاذها (أي: منفرديها) ﴿**حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ**﴾ من طين متحجِّر (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حجر من طين كالآجر المطبوخ) ﴿**مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾**﴾ (أي: متراكم) نُضِّد مُعدّاً لعذابهم

(٨٣) ﴿**مُّسَوَّمَةً**﴾ معلَّمةً للعذاب ﴿**عِندَ رَبِّكَۖ**﴾ في خزائنه ﴿**وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾**﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن يُمطر عليهم. وفيه وعيدٌ لكل ظالم.

(٨٤) ﴿**وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًاۚ**﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو أهل مدين وهو بلدٌ بناه فسمي باسمه ﴿**قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ**﴾ أمَرَهم بالتوحيد أولاً فإنه مَلاك الأمر، ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس (أي: النقص) المنافي للعدل، المخلِّ بحكمة التعاوض (أي: التبادل) ﴿**إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ**﴾ بسعة تغنيكم عن البخس. أو بنعمة حقُّها أن تتفضلوا على الناس شكراً عليها، لا أن تنقصوا حقوقهم. (أقول: ولذا فإنه من السنة في الشريعة أن يزيد البائع في المثقال شيئاً حتى يثبت له الإحسان) ﴿**وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾**﴾ لا يشذُّ منه أحد منكم. وقيل عذاب مهلك.

(٨٥) ﴿**وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ**﴾ صرَّح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضدِّهِ مبالغةً وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكفُّ عن تعمُّدهم التطفيف، بل يلزمهم السعيُ في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها ﴿**بِٱلۡقِسۡطِۖ**﴾ بالعدل والتسوية، من غير زيادة ولا نقصان، فإن الازدياد إيفاء، وهو مندوب غير مأمور به ﴿**وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ**﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، فإنه أعمُّ من أن يكون في المقدار أو في غيره، وكذا قولُه: ﴿**وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾**﴾ فإن العثوَّ يعمُّ تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. والعثوُّ: السرقة وقطع الطريق والغارةُ.

(٨٦) ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تجمعون بالتطفيف ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ﴾ بشرطِ أن تؤمنوا، فإن خيريَّتها باستتباع الثواب مع النجاة، وذلك مشروط بالإيمان. أو إن كنتم مصدِّقين لي في قولي لكم ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝٨٦﴾ أحفظكم عن القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها، وإنما أنا ناصح مبلِّغٌ، وقد أعذرت حين أنذرت، أو لستُ بحافظٍ عليكم نعم الله تعالى لو لم تتركوا سوء صنيعكم.

(٨٧) ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأصنام ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ أي: وأن نترك فعلَنا ما نشاء في أموالنا ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ تهكَّموا به وقصدوا وصفَه بضدِّ ذلك.

(٨٨) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ إشارةٌ إلى ما آتاه الله تعالى من العلم والنبوة ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ إشارةٌ إلى ما آتاه الله تعالى من المال الحلال. وجواب الشرط محذوف تقديره فهل يسع مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ أي: وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه لأستبد به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته ولم أُعرِضْ عنه فضلاً عن أن أنهى عنه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ما دمت أستطيع الإصلاح، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه. ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأنٌ: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة، أهمُّها وأعلاها حق الله تعالى، وثانيها حق النفس، وثالثها حق الناس. وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء، وما عداه عاجزٌ في حدِّ ذاته، بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ إشارةٌ إلى معرفة المَعاد (أي: الحشر). وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتيه ويذره من الله تعالى، والاستعانة به في مجامع أمره، والإقبال عليه بشراشره (أي: بجميعه)، وحسمُ أطماع الكفار، وإظهارُ الفراغ عنهم، وعدمُ المبالاة بمعاداتهم، وتهديدُهم بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء.

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾

(٨٩) ﴿**وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ**﴾ لا يكسبنَّكم ﴿**شِقَاقِيٓ**﴾ معاداتي ﴿**أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ**﴾ من الغرق ﴿**أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ**﴾ من الريح ﴿**أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ**﴾ من الرجفة ﴿**وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾**﴾ زماناً أو مكاناً، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم فاعتبروا بهم.

(٩٠) ﴿**وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ**﴾ عما أنتم عليه ﴿**إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ**﴾ عظيمُ الرحمة للتائبين ﴿**وَدُودٞ ﴿٩٠﴾**﴾ فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يَفعل البليغُ المودةِ بمن يودُّه. وهو وعدٌ على التوبة بعد الوعيد على الإصرار. (أقول: ودودٌ: أي: كثير الرحمة والودِّ والمحبة لمن تاب، ويتفضل عليكم).

(٩١) ﴿**قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ**﴾ ما نفهم ﴿**كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ**﴾ كوجوب التوحيد وحرمة البخس وما ذكرت دليلاً عليهما. وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكرهم. وقيل: قالوا ذلك استهانةً بكلامه، أو لأنهم لم يُلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم عنه ﴿**وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ**﴾ لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوءاً، أو مَهيناً لا عزَّ لك ﴿**وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ**﴾ قومُك وعزَّتُهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم ﴿**لَرَجَمۡنَٰكَۖ**﴾ لقتلناك برمي الأحجار أو بأصعب وجهٍ ﴿**وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾**﴾ فتمنعنا عزتُك عن الرجم. وهذا ديدن السفيه المحجوج، يقابل الحجج والآيات بالسبِّ والتهديد.

(٩٢) ﴿**قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ**﴾ وجعلتموه كالمنسيِّ المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به والإهانة برسوله، أفلا تُبقون عليّ لله وتُبقون عليّ لرهطي؟ وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب ﴿**إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾**﴾ فلا يخفى عليه شيء منها فيجازي عليها.

(٩٣) ﴿**وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ**﴾ (يعني: اعملوا قارّين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشَّنَآن لي [النسفي]) ﴿**إِنِّي عَٰمِلٞۖ**﴾ (على حسب ما يؤتيني الله تعالى من النصرة والتأييد ويمكِّنني [النسفي]) ﴿**سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ**﴾ لمَّا أوعدوه وكذَّبوه قال: سوف تعلمون من

المعذَّب والكاذب مني ومنكم ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ وانتظروا ما أقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ منتظر.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ (بالعذاب) ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قيل: صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ميِّتين.

(٩٥) ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ كأن لم يقيموا فيها ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ شبَّههم بهم لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحةُ مدين كانت من فوقهم.

(٩٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بالتوراة أو المعجزات ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ وهو المعجزات القاهرة أو العصا.

(٩٧) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فاتَّبعوا أمره بالكفر بموسى عليه السلام. أو فما اتبعوا موسى عليه السلام الهادي إلى الحق المؤيَّد بالمعجزات القاهرة الباهرة، واتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان، الداعي إلى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة (أي: قليل) من العقل، لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ ذي رشد، وإنما هو غيٌّ محضٌ وضلال صريح.

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

(٩٨) ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال (أقول: فكما كان لهم في الدنيا رائداً يكون لهم إلى نار الجحيم قائداً) ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ذكَره بلفظ الماضي مبالغةً في تحقيقه، ونزَّل النار لهم منزلة الماء، فسمى إتيانها مورداً ثم قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ أي: بئس المورد الذي وردوه، فإنه يراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش، والنارُ بالضدِّ.

(٩٩) ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يُلعنون في الدنيا والآخرة ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ بئس العون المُعان، أو العطاء المعطى. وهو اللعنة في الدارين.

(١٠٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك النبأ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ المهلَكة ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ من تلك القرى باقٍ كالزرع القائم ﴿وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ ومنها عافي الأثر (أي: الذي هلك وفني وما بقي منه أثره) كالزرع المحصود.

(١٠١) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن عرَّضوها له بارتكاب ما يوجبُه ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ فما نفعتهم ولا قدِرَت أن تدفع عنهم، بل ضرَّتهم ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حين جاءهم عذابُه ونقمته ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ هلاكٍ أو تخسير.

(١٠٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلك أهلها ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ وفائدتُها الإشعار بأنهم أخِذوا بظلمهم، وإنذارُ كل ظالم ظلم نفسه أو غيره من وخامة (أي: فساد) العاقبة ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ وجيعٌ، غيرُ مرجوّ الخلاص منه. وهو مبالغةٌ في التهديد والتحذير.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما نزل بالأمم الهالكة، أو فيما قصَّه الله تعالى من قصصهم ﴿لَءَايَةً﴾ لعبرةً ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعتبر بها عِظةً، لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعدَّ الله تعالى للمجرمين في الآخرة، أو ينزجر بها عن موجباته، لعلمه بأنها من إله مختار يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى يوم القيامة وعذاب الآخرة. دلَّ عليه قولُهُ: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ لما فيه من المحاسبة والمجازاة ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: مشهود فيه أهل السموات والأرضين.

(١٠٤) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: اليوم ﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾ إلا لانتهاء مدةٍ معدودة متناهية.

(١٠٥) ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ أي: الجزاء أو اليوم ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي من جوابٍ أو شفاعةٍ ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ إلا بإذن الله تعالى. وهذا في موقفٍ، وقولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦] في موقفٍ آخر. أو المأذون فيه هي الجوابات الحقة، والممنوع عنه هي الأعذار الباطلة ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد ﴿وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد.

(١٠٦) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾ الزفير إخراج النفس، والشهيق ردُّه، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمِّهم، وتشبيهُ حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه، أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير.

(١٠٧) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ليس لارتباط دوامهم في النار بدوامهما، فإن النصوص دالةٌ على تأبيد دوامهم وانقطاع دوامهما. بل التعبير عن التأبيد والمبالغة بما كانت العرب يعبِّرون به عنه على سبيل التمثيل. ولو كان للارتباط لم يلزم أيضاً من زوال السموات والأرض زوال عذابهم، ولا من دوامهما دوامُه إلا من قَبيل المفهوم، لأن دوامهما كالملزوم لدوامه، وقد عرفتَ أن المفهوم لا يقاوم المنطوق ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ استثناءٌ من الخلود في النار، لأن بعضهم - وهم فساق الموحِّدين - يخرجون منها، وذلك كافٍ في صحة الاستثناء، لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض، وهم المراد بالاستثناء الثاني، فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأبيد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم.

(وقال قتادة رحمه الله تعالى: الله تعالى أعلم بثنياه، يعني بمراده. المثنيات أي: تعلق إرادته ومشيئته لإخراج بعض منها كفساق المؤمنين) ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ من غير اعتراض.

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ غيرَ مقطوع. وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع، وتنبيهٌ على أن المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع، ولأجله فرَّق بين الثواب والعقاب بالتأبيد (أقول: إن العمل يُقطع والثواب لا يقطع، لأنه من فضل الله تعالى وكرمه، فالعمل ينقضي والثواب يدوم، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد الخالق جل وعلا).

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

(١٠٩) ﴿**فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ**﴾ شكٍّ بعد ما أنزل عليك من مآل أمر الناس ﴿**مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ**﴾ من عبادة هؤلاء المشركين، في أنها ضلالٌ مؤدٍّ إلى مثل ما حلَّ بمن قبلهم ممن قصصت عليك سوء عاقبة عبادتهم ﴿**مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ**﴾ أي: هم وآباؤهم سواء في الشرك، وقد بلغك ما لحق آباءهم من ذلك فسيلحقهم مثله، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات ﴿**وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ**﴾ حظَّهم من العذاب كآبائهم. أو من الرزق، فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه ﴿**غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾**﴾ (أي: كاملاً [النسفي]).

(١١٠) ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ**﴾ فآمن به قومٌ وكفر به قومٌ، كما اختلف هؤلاء في القرآن ﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ**﴾ يعني كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ﴿**لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**﴾ بإنزال ما يستحقُّه المبطل ليتميز به عن المحق ﴿**وَإِنَّهُمْ**﴾ وإنَّ كفار قومك ﴿**لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ**﴾ من القرآن ﴿**مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾**﴾ مُوقعٍ في الريبة (أي: الشك).

(١١١) ﴿**وَإِنَّ كُلًّا**﴾ وإن كل المختلفين المؤمنين منهم والكافرين ﴿**لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ**﴾ أي: لمن الذين يوفينَّهم ربك جزاء أعمالهم ﴿**إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾**﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

(١١٢) ﴿**فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ لمَّا بيَّن أمْرَ المختلفين في التوحيد والنبوَّة، وأطنب (أي: بالغ وأكثر) في شرح الوعد والوعيد، أمَرَ رسوله ﷺ بالاستقامة مثل ما أُمِر بها ﴿**وَمَن تَابَ مَعَكَ**﴾ أي: تاب من الشرك والكفر وآمن معك ﴿**وَلَا تَطْغَوْا**﴾ ولا تخرجوا عما حُدَّ لكم ﴿**إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾**﴾ فهو مجازيكم عليه. وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرُّف وانحراف بنحو قياس واستحسان.

(١١٣) ﴿**وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ ولا تميلوا إليهم أدنى ميل، فإن الركون هو الميل اليسير، كالتزيِّي بزيهم وتعظيم ذكرهم واستدامته ﴿**فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ**﴾ بركونكم إليهم. وإذا كان الركون إلى من وُجد منه ما يسمى ظلماً كذلك فما ظنك بالركون إلى الظالمين، ثم بالميل إليهم كل الميل، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه؟! ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه. وخطابُ الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بها

للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفريط ظلمٌ على نفسه أو غيره، بل ظلمٌ في نفسه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: ثم لا ينصركم الله تعالى إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يبقي عليكم.

(١١٤) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غدوةً وعشيةً ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ وساعات منه قريبة من النهار. وصلاة الغداة صلاة الصبح، لأنها أقرب الصلوات من أول النهار، وصلاة العشية العصر، وقيل الظهر والعصر، لأن ما بعد الزوال عشيٌّ، وصلاة الزلَفِ المغرب والعشاء ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ يكفِّرْنَها. وفي الحديث: «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله فاستقم وما بعده. وقيل: إلى القرآن ﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ عظةٌ للمتعظين.

(١١٥) ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ على الطاعات وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ وهو دليلٌ على أن الصلاة والصبر إحسان، وإيماءٌ بأنه لا يُعتدُّ بهما دون الإخلاص (أقول: وهو عند أكثر الناس مفقود).

(١١٦) ﴿فَلَوۡلَا كَانَ﴾ فهلا كان ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ من الرأي والعقل. أو أولو فضل ﴿يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ لكن قليلاً منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ ما أنعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك ﴿وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ كافرين. كأنه أراد أن يبيِّن ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشوُّ الظلم فيهم، واتباعُهم للهوى، وترك النهي عن المنكرات مع الكفر.

(١١٧) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾ بشرك ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فيما بينهم، لا يضمون إلى شركهم فساداً وتباغياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ يُوسُفَ ١٢ — ١١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

(١١٨) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ﴾ مسلمين كلهم. وهو دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة، وأنه تعالى لم يردْ الإيمان من كل أحد، وأن ما أراده يجب وقوعه ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل، لا تكاد تجد اثنين يتفقان مطلقاً.

(١١٩) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ إلا ناساً هداهم الله تعالى من فضله فاتفقوا على ما هو أصول دين الحق والعمدة فيه ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وعيدُه أو قوله للملائكة ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي: من عُصاتهما ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: منهما أجمعين لا من أحدهما.

(١٢٠) ﴿وَكُلًّا﴾ وكلَّ نبأ ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ نخبرك به ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص، وهو زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه عليه الصلاة والسلام على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ السورة أو الأنباء المقتصة عليك ﴿ٱلْحَقُّ﴾ ما هو حقٌّ ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ إشارةٌ إلى سائر فوائده العامة.

(١٢١) ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ على حالنا.

(١٢٢) ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أن ينزل بكم نحو ما نزل على أمثالكم.

(١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خاصةً، لا يخفى عليه خافية مما فيهما ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فيرجع لا محالة أمرهم وأمرك إليه جل وعلا ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ فإنه كافيك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ أنت وهم، فيجازي كلًّا ما يستحقُّه.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة هود وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف

مكيَّة وآيُها مئة وإحدى عشرة آية

(١) ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ أي: تلك الآيات آيات السورة الظاهر أمرها في الإِعجاز، أو الواضحة معانيها، أو المبينة لمن تدبرها أنها من عند الله تعالى.

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: الكتاب ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ أي: أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه وتستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص معجزٌ لا يُتصوَّر إلا بالإِيحاء (أي: بالوحي).

(٣) ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ لأنه اقتص على أبدع الأساليب أو أحسن ما يُقص، لاشتماله على العجائب والحكم والآيات والعبر ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ أي: بإيحائنا ﴿إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يعني السورة ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط، وهو تعليل لكونه موحى.

(٤) ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. وعنه عليه الصلاة السلام «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ (هما أبواه، أو أبوه وخالته، والكواكب إخوته [النسفي]) ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾.

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾ ۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

(٥) ﴿**قَالَ يَٰبُنَيَّ**﴾ بتصغير ابن، صغَّرهُ للشفقة أو لصغر السن لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة ﴿**لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ**﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة؛ فَهِمَ يعقوب عليه السلام من رؤياه أن الله تعالى يصطفيه لرسالته، ويفوِّقه على إخوته، فخاف عليه حسدهم وبغيهم. والرؤيا هي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك (أي: إلى الحفظ) فتصير مشاهدة، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير، وإلا احتاجت إليه ﴿**إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾**﴾ ظاهر العداوة لِما فعل بآدم عليه السلام وحواء، فلا يألو جهداً في تسويلهم وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد.

(٦) ﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ أي: وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالَّة على شرفٍ وعزٍّ وكمالِ نفسٍ ﴿**يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ**﴾ للنبوة والمُلك أو لأمورٍ عظام ﴿**وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ**﴾ من تعبير الرؤيا، لأنها أحاديث المَلَك إن كانت صادقة، وأحاديث النفس أو الشيطان إن كانت كاذبة. أو من تأويل غوامض كُتبِ الله تعالى وسنن الأنبياء وكلمات الحكماء ﴿**وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ**﴾ بالرسالة ﴿**مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ**﴾ بمن يستحق الاجتباء ﴿**حَكِيمٞ ﴿٦﴾**﴾ يفعل الأشياء على ما ينبغي.

(٧) ﴿**لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ**﴾ أي: في قصتهم ﴿**ءَايَٰتٞ**﴾ دلائل قدرة الله تعالى وحكمته، أو علامات نبوتك ﴿**لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾**﴾ لمن سأل عن قصتهم.

(٨) ﴿**إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ**﴾ بنيامين. وتخصيصه بالإضافة لاختصاصه بالأخوة من الطرفين (أي: من الأم والأب) ﴿**أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ**﴾ والحال أنا جماعة أقوياء أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية

فيهما ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ لتفضيله المفضول، أو لترك التعديل في المحبة. روي أنه كان أحب إليه لما يرى فيه من المخايل (أي: العلامات)، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه، فتبالغ حسدهم حتى حملهم على التعرض له. (أقول: الإنسان لا يخلو عن الحسد ولو كانت درجته عالية، إلا من غلب إيمانه بإعطاء الله تعالى، فلا يحصل له الحسد، بل يخرج الحسد من البين).

(٩) ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ من جملة المحكي. كأنهم اتفقوا على ذلك الأمر إلا مَن قال لا تقتلوا يوسف، وقيل: إنما قاله شمعون أو دان ورضي به الآخرون ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورةً (أي: مجهولة) بعيدة من العمران ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: يَصْفُ لكم وجه أبيكم فيُقبل بكلِّيته عليكم، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم، ولا ينازعكم في محبته أحد ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد يوسف عليه السلام، أو الفراغ من أمره، أو قتله، أو طرحه ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتم، أو صالحين مع أبيكم، يصلح ما بينكم وبينه بعذرٍ تمهِّدونه (أي: تظهرونه)، أو صالحين في أمر دنياكم، فإنه ينتظم لكم بعده بخلوِّ وجه أبيكم.

(١٠) ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإن القتل عظيم ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ في قعره ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بعض الذين يسيرون في الأَرض ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ بمشورتي.

(١١) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لِمَ تخافنا عليه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ ونحن نشفق عليه ونريد له الخير.

(١٢) ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ﴾ (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أي: يذهب ويجيء وينشط) ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالاستباق والانتضال (أي: رمي السهام) ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ من أن يناله مكروه.

(١٣) ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ لشدة مفارقته عليَّ، وقلة صبري عنه ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأن الأرض كانت مَذْأَبة (أي: كثيرة الذئاب) ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب، أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

(١٤) ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ ضعفاء مغبونون.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

(١٥) ﴿**فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ**﴾ وعزموا على إلقائه فيها. فقد روي أنهم لما برزوا به إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث، فقال يهوذا: أما عاهدتموني أن لا تقتلوه؟ فأْتوا به إلى البئر، فدلوه فيها فتعلق بشفيرها (أي: حافتها) فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فلما بلغ نصفها ألقوه وكان فيها ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكي فجاءه جبريل بالوحي كما قال: ﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ**﴾ وكان ابن سبع عشرة سنة، وقيل: أوحي إليه في صغره، كما أوحي إلى يحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ﴿**لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا**﴾ لتحدثنهم بما فعلوا بك ﴿**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾**﴾ أنك يوسف، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغيِّر للهيئات.

(١٦) ﴿**وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً**﴾ أي: آخر النهار ﴿**يَبْكُونَ ﴿١٦﴾**﴾ متباكين. روي أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال: ما لكم يا بَنيَّ وأين يوسف؟

(١٧) ﴿**قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ**﴾ نتسابق في العَدْوِ أو في الرمي ﴿**وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا**﴾ بمصدِّق لنا ﴿**وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾**﴾ لسوء ظنِّك بنا، وفرط محبتك ليوسف عليه السلام.

(١٨) ﴿**وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾ أي: مكذوب فيه. روي: أنه لما سمع بخبر يوسف عليه السلام صاح وسأل عن قميصه، فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خُضِّب (أي: لُوِّن) وجهه بدم القميص وقال: ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزِّق عليه قميصه، ولذلك ﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**﴾ أي: سهَّلتْ لكم أنفسكم وهوَّنتْ في أعينكم أمراً عظيماً ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾**﴾ على احتمال ما تصفونه من هلاك يوسف عليه السلام.

(١٩) ﴿**وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ**﴾ رفقة يسيرون من مدين إلى مصر، فنزلوا قريباً من الجب، وكان ذلك بعد ثلاثة

أيام من إلقائه فيه ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء ويستقي لهم، وكان مالك بن ذعر الخزاعي ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ فأرسلها في الجب ليملأها فتدلى بها يوسف عليه السلام، فلما رآه ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أي: الواردُ وأصحابه من سائر الرفقة. وقيل: أخفَوا أمره، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر ﴿بِضَـٰعَةً﴾ أي: أخفوه متاعاً للتجارة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ لم يَخْفَ عليه إسرارهم. أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم.

(٢٠) ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ مبخوس لنقصانه ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة ﴿وَكَانُواْ فِيهِ﴾ في يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ الراغبين عنه.

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر، واسمه قِطفير أو إطفير، وكان الملك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي، وقد آمن بيوسف ومات في حياته. روي: أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره الريان (أي: جعله وزيراً) وكان ابن ثلاثين، وآتاه الله تعالى الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مئة وعشرين ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل أو زليخا ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً أي: حسناً. والمعنى أحسني تعهده ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضِياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ نتبنَّاه ـ وكان عقيماً ـ لِما تفرَّس فيه من الرشد ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وكما مكنا محبته في قلب العزيز، أو كما مكناه في منزله، أو كما أنجيناه وعطَّفنا عليه العزيز، مكنا له فيها ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس ويَعلَم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفذها، أو يعبِّر المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليُستعَدَّ لها ويُشتغَل بتدبيرها قبل أن تحل ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يرده شيء، ولا ينازعه فيما يشاء. أو على أمر يوسف عليه السلام، أراد به إخوته شيئاً وأراد الله تعالى غيره، فلم يكن إلا ما أراده الله جل وعلا ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أن الأمر كله بيده (أي: بمشيئته)، أو لطائف صنعه وخفايا لطفه.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوَّته، وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا﴾ حكمة، وهو العلم المؤيَّد بالعمل. أو حكماً بين الناس ﴿وَعِلْمًا﴾ يعني علمَ تأويل الأحاديث ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ تنبيهٌ على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاءً على إحسانه في عمله وإتقانه في عنفوان أمره (أي: وقت شبابه).

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

(٢٣) ﴿**وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ**﴾ طلبت منه وتمحَّلت (أي: احتالت) أن يواقعها ﴿**وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ**﴾ قيل: كانت سبعة. والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق ﴿**وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**﴾ أي: أقبِلْ وبادِرْ، أو تهيأتُ ﴿**قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ**﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿**إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾ سيدي قطفير أحسنَ تعهُّدي، إذ قال لكِ فيَّ: أَكْرِمِي مَثْواهُ، فما جزاؤه أن أخونه في أهله ﴿**إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾**﴾ المجازون الحسَنَ بالسيِّئ. وقيل: الزناة، فإن الزنى ظلم على الزاني والمزني بأهله.

(٢٤) ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا**﴾ قصدت مخالطته وقصد مخالطتها. والهمُّ بالشيء: قصدُه والعزمُ عليه. والمراد بهمِّه عليه السلام ميلُ الطبع ومنازعةُ الشهوة، لا القصدُ الاختياري (أقول: فهذا من الطبيعة البشرية)، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف، بل الحقيقُ بالمدح والأجر الجزيل من الله تعالى مَن يَكُفُّ نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهمِّ، أو مشارفة الهمِّ، كقولك: قتلته لو لم أخف الله تعالى ﴿**لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ**﴾ في قبح الزنى وسوء مغبَّته (أي: عاقبته) لخالطها لشبق الغلمة (أي: لشدة الشهوة). وقيل: رأى جبريل عليه السلام. وقيل: تمثَّل له يعقوب عاضّاً على أنامله ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ أي: مثل ذلك التثبيت ثبَّتناه ﴿**لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ**﴾ خيانة السيد ﴿**وَٱلْفَحْشَآءَ**﴾ الزنى ﴿**إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾**﴾ الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته (هذه شهادة الله تعالى له).

(٢٥) ﴿**وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ**﴾ أي: تسابقا إلى الباب. وذلك أن يوسف عليه السلام فرَّ منها ليخرج، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج ﴿**وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ**﴾ اجتذبته من ورائه فانقد قميصه. والقدُّ: الشقُّ طولاً ﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا**﴾ وصادفا زوجها ﴿**لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾**﴾ إيهاماً بأنها فرَّت منه تبرئة لساحتها عند زوجها، وتغييره على يوسف، وإغراءه به انتقاماً منه (أقول: هكذا حيل النساء) والمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن.

(٢٦) ﴿**قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي**﴾ طالبتني بالمؤاتاة (أي: الموافقة). وإنما قال ذلك دفعاً لما عرَّضته له من السجن أو العذاب الأليم، ولو لم تكذب عليه لما قاله ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ**﴾ قيل: ابن عمٍّ لها،

وقيل: ابن خال لها وكان صبياً في المهد، وإنما ألقى الله تعالى الشهادة على لسان أهلها لتكون أَلْزَمَ عليها ﴿**إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ** ﴿٢٦﴾﴾ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قدامه بالدفع عن نفسها.

(٢٧) ﴿**وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴿٢٧﴾﴾ لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدَّتْهُ.

(٢٨) ﴿**فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ**﴾ أي: إن قولك: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ﴿**مِن كَيْدِكُنَّ**﴾ من حيلتكن. والخطاب لها ولأمثالها أو لسائر النساء ﴿**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴿٢٨﴾﴾ فإن كيد النساء ألصق وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس، ولأنهن يواجهن به الرجال، والشيطان يوسوس به مسارَقة.

(٢٩) ﴿**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا**﴾ أي: اكتمه ولا تذكره ﴿**وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ**﴾ يا راعيل ﴿**إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ** ﴿٢٩﴾﴾ من القوم المذنبين.

(٣٠) ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ**﴾ أَشَعْنَ الحكاية في مصر، وكنَّ خمساً: زوجة الحاجب والساقي والخباز والسجان وصاحب الدواب ﴿**ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ**﴾ تطلب مواقعة غلامها إياها ﴿**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾ شق شغاف قلبها، وهو حجابه، حتى وصل إلى فؤادها حباً ﴿**إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴿٣٠﴾﴾ في ضلال عن الرشد وبُعْدٍ عن الصواب.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

(٣١) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهن. وإنما سماه مكراً لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره، أو لأنها استكتمتهن سرَّها فأفشينه عليها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهنَّ. قيل: دعت أربعين امرأة فيهنَّ الخمس المذكورات ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ حتى يتكئن والسكاكين بأيديهنَّ، فإذا خرج عليهن يُبهتن ويُشغلن عن نفوسهنَّ فتقع سكينهن على أيديهنَّ فتقطعنها، فيُبْكَتن بالحجة (أي: يُغلَبن)، أو يهاب يوسف من مكرها إذا خرج وحده على أربعين امرأة في أيديهن الخناجر ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ عظَّمنه وهِبْنَ حسنه الفائق ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جَرَحْنها بالسكاكين من فرط الدهشة ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً له من صفات العجز، وتعجباً من قدرته على خلق مثله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة، أو لأن جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه إلا المَلَك.

(٣٢) ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: فهو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني بالافتتان به قبل أن تتصوَّرنه حقَّ تصوُّره، ولو تصوَّرتُنَّه بما عاينتُنَّ لعذرتُنَّني ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ فامتنع طلباً للعصمة. أقرَّت لهنَّ حين عرفت أنهنَّ يعذرنها كي يعاوِنَّها على إلانة عريكته (لَيِّن العريكة: سهل الانقياد) ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ به ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ من الأذلاء.

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي: آثَرُ عندي من مواتاتها (موافقتها على الزنى) نظراً إلى العاقبة، وإن كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى﴾ وإن لم تصرف عني ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليَّ وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِلْ إلى جانبهنَّ، أو إلى أنفسهنَّ بطبعي ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه، فإن الحكيم لا يفعل القبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون، فإنهم والجهَّال سواء.

(٣٤) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فأجاب الله تعالى دعاءه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فثبَّته بالعصمة حتى وطَّن

نفسه على مشقة السجن، وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء الملتجئين إليه ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

(٣٥) ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ ثم ظهر للعزيز وأهله من بعد ما رأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف عليه السلام؛ كشهادة الصبي وقَدِّ القميص وقطع النساء أيديهنَّ واستعصامه عنهنَّ ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ وذلك لأنها خدعت زوجها وحملته على سجنه زماناً حتى تبصر ما يكون منه، أو يحسب الناس أنه المجرم، فلبث في السجن سبع سنين.

(٣٦) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي: أُدخل يوسفُ عليه السلام السجنَ، واتفق أنْ أُدخل حينئذ آخران من عبيد الملك؛ شرابيُّه وخَبازُه للاتهام بأنهما يريدان أن يَسُمَّاه ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ يعني الشرابيُّ ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ﴾ أي: أرى في المنام ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنباً. وسماه خمراً باعتبارِ ما يؤول إليه ﴿وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ﴾ أي: الخباز ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ تنهش منه ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين. وإنما قالا ذلك لأنهما رأياه في السجن يُذكِّر الناس ويُعبِّر رؤياهم. أو من المحسنين إلى أهل السجن. فأحسِنْ إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

(٣٧) ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: بتأويل ما قصصتما عليَّ، أو بتأويل الطعام، يعني ببيان ماهيته وكيفيته، فإنه يشبه تفسير المشكِل. كأنه أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الطريق القويم قبل أن يُسعِف إلى ما سألاه منه، كما هو طريقة الأنبياء والنازلين منازلهم من العلماء في الهداية والإرشاد، فقدَّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا﴾ أي: ذلك التأويل ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ بالإلهام والوحي، وليس من قَبيل التكهن أو التنجيم ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ تعليل لما قبله، أي: علَّمني ذلك لأني تركت مِلَّة أولئك.

وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾

(٣٨) ﴿**وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ**﴾ كلام مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق عليه ﴿**مَا كَانَ لَنَآ**﴾ ما صحَّ لنا معشر الأنبياء ﴿**أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ**﴾ أيّ شيء كان ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: التوحيد ﴿**مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا**﴾ بالوحي ﴿**وَعَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ وعلى سائر الناس يبعثنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ**﴾ المبعوث إليهم ﴿**لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾**﴾ هذا الفضل، فيُعرضون عنه ولا يتنبهون. أو من فضل الله تعالى علينا وعليهم بنصب الدلائل وإنزال الآيات، ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ولا يستدلون بها فيلغونها، كمن يكفر النعمة ولا يشكرها.

(٣٩) ﴿**يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ**﴾ أي: يا ساكنيه، أو يا صاحبيَّ فيه ﴿**ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ**﴾ شتى متعددة ﴿**خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ**﴾ المتوحّد بالألوهية ﴿**ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾**﴾ الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره.

(٤٠) ﴿**مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ**﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر ﴿**إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ**﴾ أي: إلا أشياء باعتبار أسامٍ أطلقتم عليها من غير حجة تدلُّ على تحقُّق مسمياتها فيها، فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة ﴿**إِنِ ٱلۡحُكۡمُ**﴾ في أمر العبادة ﴿**إِلَّا لِلَّهِۚ**﴾ لأنه المستحقُّ لها بالذات من حيث إنه الواجب لذاته، الموجِدُ للكل والمالِكُ لأمره ﴿**أَمَرَ**﴾ على لسان أنبيائه عليهم السلام ﴿**أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ**﴾ الذي دلت عليه الحجج ﴿**ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ**﴾ الحق وأنتم لا تميزون المعوجَّ عن القويم ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾**﴾ فيخبطون (أي: فيتخبَّطون) في جهالاتهم.

(٤١) ﴿**يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا**﴾ يعني الشرابيُّ ﴿**فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ**﴾ كما كان يسقيه قبلُ، ويعود إلى ما كان عليه ﴿**وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ**﴾ يريد به الخباز ﴿**فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ**﴾ فقالا: كذبنا، فقال: ﴿**قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾**﴾ أي: قطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وهو ما يؤول إليه أمركما.

(٤٢) ﴿**وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا**﴾ الظانُّ يوسف إن ذكر ذلك عن اجتهادٍ، وإنْ ذكره عن وحيٍ

فهو الناجي ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ اذكر حالي عند الملك كي يخلصني ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ فأنسى الشرابيَّ أن يذكره لربه. والاستعانةُ بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محمودة في الجملة لكنها لا تليق بمنصب الأنبياء. (أقول: وذلك كالمظلوم الذي يعطي أجرة للمحامي حتى يدافع عنه ويخلصه من الشدائد، فهذا جائز شرعاً، والله تعالى يقول: ﴿مَّنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]) ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع.

(٤٣) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ لما دنا فَرَجُه (أقول: من جانب الله تعالى) رأى الملك سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات مهازيل، فابتلعت المهازيلُ السمانَ ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ﴾ قد انعقد حَبُّها ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾ وسبعاً أخر يابسات قد أدركت، فالْتَوَتِ اليابسات على الخضر حتى غلبت عليها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ عبِّروها ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ۝٤٣﴾ إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا؛ وهي الانتقال من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالها.

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

(٤٤) ﴿**قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ**﴾ أي: هذه أضغاث أحلام، وهي تخاليطها ﴿**وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾**﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة، أي: ليس لها تأويل عندنا، وإنما التأويل للمنامات الصادقة، فهو كأنه مقدمة ثانية للعذر في جهلهم بتأويله.

(٤٥) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا**﴾ من صاحبي السجن؛ وهو الشرابيُّ ﴿**وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ**﴾ وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة، أي: مدة طويلة ﴿**أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾**﴾ أي: إلى من عنده علمه، أو إلى السجن.

(٤٦) ﴿**يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ**﴾ أي: فأُرسل إلى يوسف فجاءه فقال يا يوسف. وإنما وصفه بالصديق وهو المبالغ في الصدق لأنه جرَّب أحواله وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه ﴿**أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ**﴾ أي: في رؤيا ذلك ﴿**لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ**﴾ أعود إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد ﴿**لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾**﴾ تأويلها أو فضلك ومكانك.

(٤٧) ﴿**قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا**﴾ أي: على عادتكم المستمرة ﴿**فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ**﴾ لئلا يأكله السوس ﴿**إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾**﴾ في تلك السنين.

(٤٨) ﴿**ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ**﴾ أي: يأكل أهلهنَّ ما ادخرتم لأجلهنَّ ﴿**إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾**﴾ تُحرزون لبذور الزراعة.

(٤٩) ﴿**ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ**﴾ يُمْطَرون من الغيث، أو يغاثون من القحط ﴿**وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾**﴾ ما يُعْصَر؛ كالعنب والزيتون، لكثرة الثمار. وقيل: يحلبون الضروع. وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجافِ السمانَ بأكل ما جُمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة، ولعله عَلِمَ ذلك بالوحي، أو بأن انتهاء الجدب بالخصب، أو بأن السُّنة الإلهية على أن يوسِّع على عباده بعد ما ضيَّق عليهم.

(٥٠) ﴿**وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ**﴾ بعد ما جاءه الرسول بالتعبير ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ**﴾ ليخرجه ﴿**قَالَ ٱرۡجِعۡ**

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ إنما تأنَّى (أي: تأخَّر) في الخروج وقدَّم سؤال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته ويُعلَم أنه سُجن ظلماً، فلا يَقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره. وإنما قال: ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ ولم يقل: فاسأله أن يفتش عن حالهنَّ، تهييجاً له على البحث وتحقيق الحال. وإنما لم يتعرَّض لسيدته مع ما صنعت به كرماً ومراعاة للأدب ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾﴾ حين قلن لي: أطع مولاتك. وفيه تعظيم كيدهن والاستشهادُ بعلم الله تعالى عليه، وعلى أنه بريء مما قُذِف به، والوعيد لهنَّ على كيدهنَّ.

(٥١) ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ قال الملِك لهنَّ: ما شأنكنَّ ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له سبحانه وتعالى وتعجُّب من قدرته على خَلْقِ عفيفٍ مثلِهِ ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ من ذنب ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ ثبت واستقر ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ في قولهِ: هِيَ راوَدَتْني عَنْ نَفْسِي.

(٥٢) ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ قاله يوسف عليه السلام لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهنَّ. أي: ذلك التثبت ليعلم العزيز ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بظهر الغيب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ لا ينفذه ولا يسدده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم.

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

(٥٣) ﴿**وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ**﴾ أي: لا أنزهها. تنبيهاً على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه والعجبَ بحاله، بل إظهارَ ما أنعم الله تعالى عليه من العصمة والتوفيق ﴿**إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ**﴾ من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات، فتهم بها وتستعمل القوى والجوارح في أثرها كل الأوقات ﴿**إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ**﴾ (أي إلا من رحم ربي) أو إلا وقت رحمة ربي، أو إلا ما رحمه الله تعالى من النفوس فعصمه من ذلك ﴿**إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾**﴾ يغفر هَمَّ النفس، ويرحم من يشاء بالعصمة. أو يغفر للمستغفر لذنبه المعترف على نفسه، ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

(٥٤) ﴿**وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ**﴾ أجعلْه خالصاً لنفسي ﴿**فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ**﴾ أي: فلما أتوا به فكلمه وشاهد منه الرشدَ والدهاء ﴿**قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ**﴾ ذو مكانة ومنزلة ﴿**أَمِينٞ ﴿٥٤﴾**﴾ مؤتمَن على كلِّ شيء.

(٥٥) ﴿**قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ**﴾ ولِّني أمرها. والأرض: أرض مصر ﴿**إِنِّي حَفِيظٌ**﴾ عليها ممن لا يستحقها ﴿**عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾**﴾ بوجوه التصرف فيها. ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة آثر ما تعمُّ فوائده وتجلُّ عوائده. وفيه دليل على جواز طلب التولية وإظهار أنه مستعد لها، والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الملِك أسلم على يده.

(٥٦) ﴿**وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ في أرض مصر ﴿**يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ**﴾ ينزل من بلادها حيث يهوى ﴿**نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ**﴾ في الدنيا والآخرة ﴿**وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾**﴾ بل نوفِّي أجورهم عاجلاً وآجلاً.

(٥٧) ﴿**وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾**﴾ الشركَ والفواحش لعِظمِه ودوامه.

(٥٨) ﴿**وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ**﴾ روي: أنه لما استوزره الملك أقام العدل واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات، حتى دخلت السنون المجدبة وعمَّ القحط مصر والشام ونواحيهما، وتوجه إليه الناس، فباعها أولاً بالدراهم والدنانير حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحليِّ والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياع والعقار،

ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً، ثم عرض الأمر على الملك، فقال: الرأي رأيك، فأعتقهم وردَّ عليهم أموالهم. وكان قد أصاب كنعانَ ما أصاب سائر البلاد، فأرسل يعقوب بنيه - غير بنيامين - إليه للميرة (أي: لأخذ الطعام) ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: عرفهم يوسف ولم يعرفوه، لطول العهد، ومفارقتهم إياه في سنِّ الحداثة، ونسيانهم إياه، وتوهُّمهم أنه هلك، وبُعدِ حاله التي رأوه عليها من حاله حين فارقوه، وقلةِ تأمُّلهم في حلاه (أي: صورته وأوصافه) من التهيب والاستعظام.

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أصلحهم بعدتِّهم وأوقر (أي: حمّل) ركائبهم بما جاؤوا لأجله. وأصل الجهاز ما يعدُّ من الأمتعة للنقلة، كعُدد السفر وما يُحمل من بلدة إلى أخرى وما تزفُّ به المرأة إلى زوجها ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ روي: أنهم لما دخلوا عليه قال: مَن أنتم، وما أمركم؟ لعلكم عيون (أي: جواسيس)؟ قالوا: معاذ الله! إنما نحن بنو أبٍ واحد، وهو شيخ كبير صدِّيق نبيٌّ من الأنبياء اسمه يعقوب عليه السلام، قال: كم أنتم؟ قالوا كنا اثني عشر، فذهب أحدنا إلى البرية فهلك، قال: فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الحادي عشر؟ قالوا: عند أبينا يتسلَّى به عن الهالك، قال: فمن يشهد لكم؟ قالوا: لا يعرفنا أحد هاهنا فيشهد لنا، قال: فدَعُوا بعضكم عندي رهينة، وائتوني بأخيكم من أبيكم حتى أصدِّقكم، فاقترعوا فأصابت شمعون. وقيل: كان يوسف عليه السلام يعطي لكلِّ نفر حملاً، فسألوه حملاً زائداً لأخٍ لهم من أبيهم، فأعطاهم وشرط عليهم أن يأتوه به ليعلم صدقهم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أُتمُّه ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ للضيف والمضيفين لهم، وكان أحسنَ إنزالَهم وضيافتهم.

(٦٠) ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ أي: ولا تقربوني ولا تدخلوا دياري.

(٦١) ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ذلك لا نتوانى (أي: لا نتكاسل) فيه.

(٦٢) ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لغلمانه الكيَّالين ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ فإنه وكَّل بكلِّ رحل واحداً يعبِّي فيه بضاعتهم التي شروا بها الطعام، وكانت نعالاً وأدماً (أي: جلداً). وإنما فعل ذلك توسيعاً وتفضُّلاً عليهم، وترفُّعاً من أن يأخذ ثمن الطعام منهم، وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لعلهم يعرفون حقَّ ردِّها، أو لكي يعرفوها ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ انصرفوا ورجعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفتحوا أوعيتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع.

(٦٣) ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ حُكِم بمنعه بعد هذا إن لم نذهب ببنيامين ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل ما نحتاج إليه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ من أن يناله مكروه.

قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾

(٦٤) ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ وقد قلتم في يوسف: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ فأتوكل عليه وأفوض أمري إليه ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع عليَّ مصيبتين.

(٦٥) ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ ماذا نطلب؟ هل من مزيد على ذلك؟ أكرَمَنا وأحسن مثوانا وباع منا وردَّ علينا متاعنا. أو لا نطلب وراء ذلك إحساناً. أو لا نبغي في القول ولا نزيد فيما حكينا لك من إحسانه ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ أي: رُدَّت إلينا فنستظهر (أي: نستعين) بها ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ (أي: نجلب لهم الطعام) بالرجوع إلى الملك ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ عن المخاوف في ذهابنا وإيابنا ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ وسق بعير (أي: حمل بعير) باستصحاب أخينا ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾﴾ أي: مكيلٌ قليل لا يكفينا. استقلوا ما كيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك، أو يزدادوا إليه ما يُكال لأخيهم.

(٦٦) ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ﴾ إذ رأيت منكم ما رأيت ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ أي: حتى تحلفوا بالله لتأتنني به ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ إلا أن تُغلبوا فلا تطيقوا ذلك. أو إلا أن تهلكوا جميعاً ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾ عهدهم ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإتيانه ﴿وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾﴾ رقيبٌ مطَّلع.

(٦٧) ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ لأنهم كانوا ذوي جمال وأبَّهة (أي: عظمة)، مشتهرين في مصر بالقربة والكرامة عند الملِك، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبةً (أي: جماعة) واحدة فيعانوا (أي: يصابوا بالعين). ولعله لم يوصهم بذلك في الكرة (أي: المرة) الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ. أو كان الداعي إليها خوفه على بنيامين. وللنفس آثار منها العين، والذي يدلُّ عليه قوله عليه الصلاة والسلام في عوذته: «اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامَّة، من كلِّ شيطان وهامَّة، ومن كلِّ عين لامَّة» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ مما قضى عليكم بما أشرت به إليكم، فإن الحذر لا يمنع القدَر (أقول: ولكن لا يُترك) ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ يصيبكم لا محالة إن قضى عليكم سوءاً ولا ينفعكم ذلك

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ فإنَّ فعل الأنبياء عليهم السلام سببٌ لأن يُقتدى بهم.

(٦٨) ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ أي: من أبواب متفرقة في البلد ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم﴾ رأي يعقوب واتباعهم له ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ مما قضاه عليهم كما قال يعقوب عليه السلام، فسُرِقُوا وَأُخِذ بنيامين بوجدان الصواع في رحله، وتضاعفت المصيبة على يعقوب (والصواع: مكيال تكال به الحبوب) ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ﴾ أي: شفقته عليهم وحِرازته (أي: احترازه وتوقيه) من أن يعانوا ﴿قَضَىٰهَاۚ﴾ أظهرها ووصى بها ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ بالوحي ونصب الحجج، ولذلك قال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾، ولم يغترَّ بتدبيره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ سرَّ القدر وأنه لا يغني عنه الحذر.

(٦٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ ضمَّ إليه بنيامين على الطعام أو في المنزل. روي: أنه أضافهم فأجلسهم مثنى مثنى، فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته، ثم قال: لينزل كل اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات عنده، وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، قال: من يجد أخاً مثلك! ولكن لم يلدْك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه وعانقه و﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾ في حقنا فيما مضى.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

(٧٠) ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ المشربة ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيل: كانت مشربة جعلت صاعاً يُكال به. وقيل: كانت تسقى الدواب بها ويكال بها ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ لعله لم يقله بأمر يوسف عليه الصلاة والسلام، أو كان تعبية السقاية والنداء عليها برضا بنيامين. وقيل: معناه إنكم لسارقون يوسف من أبيه. أو أئنكم لسارقون؟ والعير: القافلة، وهو اسم الإبل التي عليها الأحمال.

(٧١) ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ أيُّ شيء ضاع منكم؟

(٧٢) ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جَعلاً (أي: أجراً) له ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ كفيلٌ، أؤديه إلى من ردَّه.

(٧٣) ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ﴾ قسَمٌ فيه معنى التعجب ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لِما عرفوا منهم في كرَّتَي (أي: مَرَّتَي) مجيئهم ومداخلتهم للملِك، مما يدل على فرط أمانتهم، كردِّ البضاعة التي جُعلت في رحالهم.

(٧٤) ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ فما جزاء السارق؟ ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ في ادعاء البراءة.

(٧٥) ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: جزاء سرقته أخْذُ من وُجد فى رحله واسترقاقُه. هكذا كان شرعُ يعقوب عليه الصلاة والسلام. وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تقريرٌ للحكم وإلزامٌ له ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ بالسرقة.

(٧٦) ﴿فَبَدَأَ﴾ المؤذِّن. وقيل: يوسف عليه السلام ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين، نفياً للتهمة ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي: السقاية أو الصواع ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ بأن علَّمناه إياه وأوحينا به إليه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ ملك مصر، لأن دينه الضرب وتغريم ضعف ما أخذ، دون الاسترقاق. وهو بيانٌ للكيد ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملِك. أو لكن أخذه بمشيئة

الله تعالى وإذنه ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ بالعلم كما رفعنا درجته (أي: يوسف عليه السلام) ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ أرفع درجة منه.

(٧٧) ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ بنيامين ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يعنون يوسف. قيل: ورثت عمته من أبيها مِنطقة إبراهيم عليه السلام (والمنطقة: ما يُشدُّ به الوسط)، وكانت تحضن يوسف وتحبُّه، فلما شبَّ أراد يعقوب انتزاعه منها، فشدَّت المنطقة على وسطه، ثم أظهرت ضياعها، فتفحَّص عنها فوُجدت محزومة عليه، فصارت أحقَّ به في حكمهم ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ أي: لم يظهرها لهم ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ أي: قال في نفسه: أنتم شرٌّ مكاناً، أي: منزلة في السرقة، لسرقتكم أخاكم. أو في سوء الصنيع مما كنتم عليه ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

(٧٨) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ في السنِّ أو القدر. ذكروا له حاله استعطافاً له عليه ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ بَدَلَه، فإن أباه ثَكْلَانُ (أي: محزون) على أخيه الهالك (أي: المفقود)، مستأنس به ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ إلينا فأتمم إحسانك. أو من المتعوِّدين الإِحسان فلا تغيِّرْ عادتك.

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

(٧٩) ﴿**قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ**﴾ فإنَّ أخْذَ غيره ظلمٌ على فتْواكُم، فلو أخذنا أحدكم مكانه ﴿**إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾**﴾ في مذهبكم هذا. أو إن مراده أن الله تعالى أذن في أخذ من وجدنا الصاع في رحله، فلو أخذتُ غيره كنت ظالماً.

(٨٠) ﴿**فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ**﴾ يئسوا من يوسف وإجابته إياهم ﴿**خَلَصُوا۟**﴾ انفردوا واعتزلوا ﴿**نَجِيًّا ۖ**﴾ متناجين ﴿**قَالَ كَبِيرُهُمْ**﴾ في السن، وهو روبيل؛ أو في الرأي، وهو شمعون، وقيل: يهوذا ﴿**أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ عهداً وثيقاً ﴿**وَمِن قَبْلُ**﴾ ومن قبلِ هذا ﴿**مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ**﴾ قصَّرتم في شأنه؟ ﴿**فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ**﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿**حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ**﴾ في الرجوع ﴿**أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ**﴾ أو يقضي الله تعالى لي بالخروج منها. أو بخلاص أخي منهم، أو بالمقاتلة معهم لتخليصه.

روي: أنهم كلموا العزيز في إطلاقه، فقال روبيل: أيها الملِك! والله لتتركنا أو لأصيحنَّ صيحة تضع منها الحوامل، ووقفت شعور جسده فخرجت من ثيابه، فقال يوسف عليه السلام لابنه: قم إلى جنبه فمُسَّه، وكان بنو يعقوب عليه السلام إذا غضب أحدهم فمسَّه الآخر ذهب غضبه. فقال روبيل: من هذا؟ إن في هذا البلد لبذراً (أي: ذرية) من بذر يعقوب ﴿**وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾**﴾ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

(٨١) ﴿**ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ**﴾ على ما شاهدناه من ظاهر الأمر ﴿**وَمَا شَهِدْنَآ**﴾ عليه ﴿**إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا**﴾ بأن رأينا أن الصواع استخرج من وعائه ﴿**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ**﴾ لباطن الحال ﴿**حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾**﴾ فلا ندري أنه سرق أو سُرِق ودُسَّ الصواع في رحله. أو وما كنا للعواقب عالمين، فلم ندر حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق. أو أنك تصاب به كما أُصِبت بيوسف عليه السلام.

(٨٢) ﴿**وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا**﴾ يعنون مصر أو قرية بقربها لَحِقهم المنادي فيها. والمعنى: أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة ﴿**وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ**﴾ وأصحاب العير التي توجهنا فيهم وكنا معهم ﴿**وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ تأكيدٌ في محل القسم.

(٨٣) ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أي: زَيَّنت وسهَّلت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أردتموه فقرَّرتموه، وإلا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقته؟ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ بيوسف وبنيامين وأخيهما الذي توقَّف بمصر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ في تدبيرهما.

(٨٤) ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ وأعرضَ عنهم كراهةً لما صادف منهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي: يا أسفي تعالَ فهذا أوانك. والأسفُ: أشدُّ الحزن والحسرة. وفي الأثر: «لم تُعطَ أمة من الأمم ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ». ألا ترى إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع، وقال: يَا أَسَفى. (أقول: هذا من خصوصيات الأمة المحمدية عليه الصلاة والسلام كما ذكر المفسرون، ولذا قال سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾. وهذا لا يدلُّ على نقصه عليه السلام لأنه حقَّق هذا المعنى بقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وقولِه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيم﴾ [يوسف: ٨٣]، و﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]. فهو عليه السلام علمَ ولم يقل لهم).

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ لكثرة بكائه من الحزن، كأن العبرة محقت سوادهما. وقيل: ضعف بصره. وقيل عمي. وفيه دليل على جواز التأسُّف والبكاء عند التفجُّع، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف، فإنه قلَّ من يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ممسكٌ له في قلبه لا يُظهره.

(٨٥) ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أي: لا تزال تذكره تفجُّعاً عليه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مشفياً على الهلاك (أي: مشرفاً على الهلاك) ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: الميتين.

(٨٦) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ همِّي الذي لا أقدر الصبر عليه، من البثِّ بمعنى النشر ﴿إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لا إلى أحد منكم ومن غيركم، فخلُّوني وشكايتي ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ من صنعه ورحمته، فإنه لا يخيِّب داعيه، ولا يدَعُ الملتجئ إليه. أو من الله تعالى بنوع من الإلهام ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ من حياة يوسف عليه السلام. قيل: رأى ملَكَ الموت في المنام فسأله عنه، فقال: هو حيٌّ. وقيل: علم من رؤيا يوسف عليه السلام أنه لا يموت حتى يخرَّ له إخوته سجداً.

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

(٨٧) ﴿**يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾ فتعرَّفوا منهما وتفحَّصوا عن حالهما ﴿**وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ**﴾ ولا تقنطوا من فرجه وتنفيسه ﴿**إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾**﴾ بالله تعالى وصفاته، فإن العارف المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال.

(٨٨) ﴿**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ**﴾ (أي: قالوا ليوسف عليه السلام) بعدَ ما رجعوا إلى مصر رجعة ثانية ﴿**مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ**﴾ شدةُ الجوع ﴿**وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ**﴾ رديئة أو قليلة تُردُّ وتُدفع رغبة عنها ﴿**فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ**﴾ فأتمْ لنا الكيل ﴿**وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ**﴾ بردِّ أخينا أو بالمسامحة وقبول المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾**﴾ أحسن الجزاء. والتصدُّقُ: التفضُّل مطلقاً، لكنه اختُصَّ عرفاً بما يُبتغى به ثواب من الله تعالى.

(٨٩) ﴿**قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾ أي: هل علمتم قبحه فتبتم عنه. وفعلُهم بأخيه إفرادُه عن يوسف وإذلاله حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة ﴿**إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾**﴾ قبحه، فلذلك أقدمتم عليه. أو عاقبتَه. وإنما قال ذلك تنصيحاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقة عليهم لِما رأى من عجزهم وتمسكنهم، لا معاتبة وتثريباً (أي: تأنيباً أو لوماً). وقيل: أعطوه كتاب يعقوب في تخليص بنيامين، وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه، فقال لهم ذلك. وإنما جهَّلهم لأن فعلهم كان فعل الجهال، أو لأنهم كانوا حينئذ صبياناً طياشين.

(٩٠) ﴿**قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ**﴾ استفهام تقرير. قيل: عرفوه بروائه (أي: بمنظره) وشمائله حين كلمهم به. وقيل: تبسم فعرفوه بثناياه. وقيل: رفعَ التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه (أي: بجانب رأسه) تشبه الشامة البيضاء، وكانت لسارة ويعقوب مثلها ﴿**قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ**﴾ من أبي وأمي، ذكَره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له في قوله: ﴿**قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ**﴾ أي: بالسلامة والكرامة ﴿**إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ**﴾ أي: يتق الله تعالى ﴿**وَيَصۡبِرۡ**﴾ على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ**

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ وضَعَ المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر.

(٩١) ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾ والحال أنَّ شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك.

(٩٢) ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا تأنيب عليكم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ والمعنى: لا أثربكم (أي: لا ألومكم) اليوم الذي هو مظنته، فما ظنكم بسائر الأيام! ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنه صفح عن جريمتهم حينئذ واعترفوا بها ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب. ومن كرم يوسف عليه السلام أنهم لما عرفوه أرسلوا إليه وقالوا: إنك تدعونا بالبكرة والعشي إلى الطعام ونحن نستحيي منك لما فرط منا فيك، فقال إن أهل مصر كانوا ينظرون إلي بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلَّغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرُفت بكم وعظمت في عيونهم، حيث علموا أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه السلام.

(٩٣) ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ هذا القميص الذي كان عليه ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: يرجع ذا بصر ﴿وَأْتُونِى﴾ أنتم وأبي ﴿بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾ بنسائكم وذراريكم ومواليكم.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ من مصر وخرجت من عمرانها ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أَوْجَدَهُ الله تعالى ريحَ ما عبقَ بقميصِهِ من ريحه حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخاً ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾ تنسبوني إلى الفند، وهو نقصان عقل يحدث من هرم.

(٩٥) ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الحاضرون ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾ لفي ذهابك عن الصواب قُدُماً بالإِفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره والتوقُّع للقائه.

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

(٩٦) ﴿**فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ**﴾ يهوذا. روي: أنه قال: كما أحزنته بحمل قميصه الملطَّخ بالدم إليه فأُفرحُه بحمل هذا إليه ﴿**أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ**﴾ طرح البشيرُ القميصَ على وجه يعقوب عليه السلام، أو طرحه يعقوب نفسه ﴿**فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ**﴾ عاد بصيراً لما انتعش فيه من القوة ﴿**قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾**﴾ من حياة يوسف عليه السلام، وإنزال الفرح.

(٩٧) ﴿**قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾**﴾ ومن حق المعترف بذنبه أن يُصفح عنه ويُسأل له المغفرة.

(٩٨) ﴿**قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾**﴾ أخَّره إلى السحر، أو إلى صلاة الليل، أو إلى ليلة الجمعة، تحرياً لوقت الإجابة. أو إلى أن يستحل لهم من يوسف ويعلم أنه عفا عنهم، فإن عفو المظلوم شرط المغفرة.

(٩٩) ﴿**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾ روي: أنه وجَّه إليه رواحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه، واستقبله يوسف عليه السلام والملك بأهل مصر، وكان أولاده الذين دخلوا معه مصر اثنين وسبعين رجلاً وامرأة ﴿**ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ**﴾ ضمَّ إليه أباه وخالته واعتنقهما؛ نزَّلها منزلة الأم ﴿**وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾**﴾ من القحط وأصناف المكاره.

(١٠٠) ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ**﴾ تحية وتكرمة له، فإن السجود كان عندهم يجري مجراها. وقيل معناه خروا لأجله سجداً لله شكراً. والمراد بالعرش هنا السرير الذي كان يجلس عليه يوسف عليه السلام ﴿**وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ**﴾ التى رأيتها أيام الصبا ﴿**قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ**﴾ صدقاً ﴿**وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ**﴾ ولم يذكر الجبَّ لئلا يكون تثريباً عليهم ﴿**وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ**﴾ أي: من البادية، لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو ﴿**مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ**﴾ أفسدَ بيننا وحرَّش ﴿**إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ**﴾ لطيفُ التدبير له، إذ ما من صعب إلا وتنفُذ فيه مشيئته ويتسهل دونها. (قال الكواشي: ذو لطفٍ بمن يشاء. واللطف: الإحسان الخفي).

(وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: إنما يستحقُّ هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دقَّ منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف. وحظُّ العبد من هذا الوصف الرفقُ بعباد الله تعالى والتلطفُ بهم [من تفسير روح البيان]) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بوجود المصالح والتدابير ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة.

(١٠١) ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ بعضَ الملك وهو ملك مصر ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ الكتب أو الرؤيا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مبدعَهما ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ ناصري ومتولي أمري ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أَو الذي يتولاني بالنعمة فيهما ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ اقبضني (أقول: صار رئيس مصر والتقى بأبويه، ومع هذا لم يكتفِ ببقائه في الدنيا) ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ من آبائي، أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة. روي أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم توفي، وأوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه، فذهب به ودفنه ثمة، ثم عاد وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ثم تاقت نفسه إلى المُلك المخلد فتمنى الموت، فتوفاه الله تعالى طيباً طاهراً.

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من نبأ يوسف عليه السلام. والخطاب فيه للرسول ﷺ ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ۝١٠٢﴾ المعنى: أن هذا النبأ غيبٌ لم تعرفه إلا بالوحي، لأنك لم تحضر إخوة يوسف عليه السلام حين عزموا على ما همُّوا به من أن يجعلوه في غيابة الجب، وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه.

(١٠٣) ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ على إيمانهم وبالغت في إظهار الآيات عليهم ﴿بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر (أقول: هذا العناد يحصل من أهل الكفر، وكذا يحصل من أهل الإيمان، وأهل الإيمان يعلمون أنَّ كلَّ مخلوق بمخلوقية الخالق، لكنهم لا يتعلَّقون بمراد الله جل وعلا، بل يتعلقون بنفوسهم بأمور الدنيا، كأنهم باقون فيها، لكن هيهات، لا يبقون. والكافر متعلِّق بالكفر، ومع كفرهم منهم من يُرزق الإيمان ومنهم من لا يُرزق، وينطبق عليه قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾) [هود: ١١٩].

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(١٠٤) ﴿**وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ**﴾ على الإنباء أو القرآن ﴿**مِنْ أَجْرٍ**﴾ كما يفعله حمَلة الأخبار ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ**﴾ عِظة من الله تعالى ﴿**لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾**﴾ عامة.

(١٠٥) ﴿**وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ**﴾ وكم من آية، والمعنى: وكأيٍّ عدد شئت من الدلائل الدالَّة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده ﴿**فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا**﴾ على الآيات ويشاهدونها ﴿**وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾**﴾ لا يتفكَّرون فيها ولا يعتبرون بها.

(١٠٦) ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ**﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته ﴿**إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾**﴾ بعبادة غيره، أو باتخاذ الأحبار أرباباً، ونسبة التبني إليه تعالى. أو النظر إلى الأسباب ونحو ذلك.

(١٠٧) ﴿**أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ**﴾ عقوبةٌ تغشاهم وتشملهم ﴿**أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً**﴾ فجأةً من غير سابقةِ علامةٍ ﴿**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾**﴾ بإتيانها، غير مستعدين لها.

(١٠٨) ﴿**قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ**﴾ يعني الدعوة إلى التوحيد والإعداد للمَعاد (أقول: علينا أن نكون هكذا، نغمض عيوننا عن أهلنا وأزواجنا، ونفتح عيوننا للآخرة)، ولذلك فسَّر السبيل بقوله: ﴿**أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾ بيانٍ وحجة واضحة غير عمياء ﴿**أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾**﴾ وأنزهه تنزيهاً عن الشركاء.

(١٠٩) ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا**﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ [فصِّلت: ١٤]. وقيل: معناه نفيُ استنباء النساء ﴿**نُّوحِىٓ إِلَيْهِم**﴾ كما نوحي إليك، ويميَّزون بذلك عن غيرهم ﴿**مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ**﴾ لأن أهلها أعلم وأحلم من أهل البدو ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ من المكذبين بالرسل والآيات، فيحذروا تكذيبك. أو من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها، فيقلعوا عن حبها (أقول: هذا ليس صفة المؤمنين، لكنه يوجد فيهم) ﴿**وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟**﴾ الشرك والمعاصي ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾**﴾ أي: يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير.

(١١٠) ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ**﴾ أي: لا يغررهم تمادي أيامهم، فإن مَن قبلهم أمهلوا حتى أيس

الرسل عن النصر عليهم في الدنيا، أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر، مترفِّهين متمادين فيه من غير وازع (أي: رادع) ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ أي: كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون، أو كذبهم القوم بوعد الإيمان. وقيل: الضمير للمرسَل إليهم، أي: وظنَّ المرسَل إليهم أنَّ الرسل قد كذَبوهم بالدعوة والوعيد ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ النبيَّ ﷺ والمؤمنين. وإنما لم يعيِّنهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم، لا يشاركهم فيه غيرهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ إذا نزل بهم.

(١١١) ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ في قصص الأنبياء وأممهم، أو في قصة يوسف عليه السلام وإخوته ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ لذوي العقول المبرَّأة من شوائب الإِلف (أي: المألوفات) والركون إلى الحسِّ ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ ما كان القرآن حديثاً يفترى ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب الإِلهية ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يُحتاج اليه في الدين، إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط (أي: بواسطة أو بغير واسطة) ﴿وَهُدٗى﴾ من الضلال ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ يُنال بها خير الدارين ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ يصدِّقونه.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة يوسف

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

مدنيَّة، وقيل: مكيَّة إلا قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية. وهي ثلاث وأربعون آية

(١) ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ يعني بالكتاب السورة، وتِلْكَ إشارة إلى آياتها. أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة أو القرآن ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القرآن كله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ جمع عماد ﴿تَرَوْنَهَاۖ﴾ وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية، واختصاصها بما يقتضي ذلك لا بد وأن يكون بمخصِّص ليس بجسم ولا

سُورَةُ الرَّعْدِ ١٣ — ٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ① ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ② وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ③ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ⑤

جسماني، يرجِّح بعض الممكنات على بعض بإرادته، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ بالحفظ والتدبير ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ﴾ ذلَّلهما لِما أراد سبحانه وتعالى منهما، كالحركة المستمرة على حدٍّ من السرعة ينفع في حدوث الكائنات وبقائها ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ لمدة معينة يُتِم فيها أدوارَه. أو لغاية مضروبة ينقطع دونها سيره ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمْرَ ملكوته، من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وغير ذلك ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ينزلها ويبيِّنها مفصَّلة. أو يُحْدث الدلائل واحداً بعد واحد ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ②﴾ لكي تتفكروا فيها وتتحققوا كمال قدرته، فتعلموا أن من قَدِر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قَدِر على الإعادة والجزاء.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسَطها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام وينقلب عليها الحيوان ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿وَأَنْهَٰرًاۖ﴾ ضمَّها إلى الجبال، وعلَّق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها (أي: لتولد الأنهار. فإن الجبال تخزِّن المطر، وإذا احتيج إليه فإن الله تعالى يأمره فيجري للناس) ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ﴾ أي: وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين؛ كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والصغير والكبير ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ يُلبسه مكانه فيصير الجوُّ مظلماً بعد ما

كان مضيئاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ فيها. فإن تكوُّنها وتخصُّصها بوجه دون وجه دليلٌ على وجود صانع حكيم دبَّر أمرها وهيأ أسبابها.

(٤) ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ بعضها طيبة وبعضها سبخة (المالحة التي لا تنبت)، وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها تصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس. ولولا تخصيصُ قادرٍ مُوقِعٍ لأفعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية وما يلزمها ويَعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث أنها متضامة متشاركة في النسب والأوضاع ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ وبساتينُ فيها أنواع الأشجار والزروع ﴿صِنْوَانٌ﴾ نخلاتٌ أصلها واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ متفرقاتٌ مختلفات الأصول ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ في الثمر شكلاً وقدراً ورائحة وطعماً، وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم، فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ يستعملون عقولهم بالتفكر.

(٥) ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد عليه الصلاة والسلام من إنكارهم البعث ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ حقيقٌ بأن يُتعجَّب منه، فإن من قدر على إنشاء ما قصَّ عليك كانت الإِعادة أيسرَ شيء عليه. والآيات المعدودة كما هي دالة على وجود المبدأ فهي دالة على إمكان الإِعادة من حيث إنها تدل على كمال علمه وقدرته وقبول المواد لأنواع تصرفاته ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ﴾ لأنهم كفروا بقدرته على البعث ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ﴾ مقيَّدون بالضلال لا يرجى خلاصهم، أو يُغَلّون يوم القيامة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ لا ينفكُّون عنها.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

(٦) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالعقوبة قبل العافية؛ وذلك أنهم استعجلوا ما هُددوا به من عذاب الدنيا استهزاءً ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها ولم يجوِّزوا حلول مثلها عليهم؟ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ مع ظلمهم أنفسهم (فهو أرحم الراحمين يرحمنا) والتقييد به دليل على جواز العفو قبل التوبة (أقول: وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]) فإن التائب ليس على ظلمه، ومَن منع ذلك خَصَّ الظلم بالصغائر المكفَّرة لمجتنِب الكبائر، أو أوَّل المغفرة بالستر والإمهال ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ للكفار أو لمن شاء.

(٧) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات المنزلة عليه، واقتراحاً لنحو ما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مرسَل للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإِتيان بما تتضح به نبوتك من جنس المعجزات، لا بما يُقترح عليك ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ نبيٌّ مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم، يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب. أو قادرٌ على هدايتهم وهو الله تعالى، لكن لا يهدي إلا من يشاء هدايته بما ينزِّل عليك من الآيات. ثم أردف ذلك بما يدلُّ على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره، تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه، وإنما لم ينزل لعلمه بأن اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم، وإنما لم يهدِهم لسبْق قضائه عليهم بالكفر فقال تعالى:

(٨) ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: حَملها، أو ما تحمله على أي حال هو من الأحوال الحاضرة والمترقبة ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وما تنقصه وما تزداده من الجثة والمدة والعدد ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ بقدرٍ لا يجاوزه ولا ينقص عنه، فإنه تعالى خصَّ كلَّ حادثٍ بوقت وحال معينين، وهيَّأ له أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك.

(٩) ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ الغائب عن الحس ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الحاضر له ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء ﴿الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبُر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه.

(١٠) ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لغيره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ طالبٍ للخفاء في مختبأ بالليل ﴿وَسَارِبٌۢ﴾ بارز ﴿بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ يراه كل أحد (من العباد).

(١١) ﴿لَهُۥ﴾ لمن أسرَّ أو جهر أو استخفى أو سرب (أي: برز) ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه. أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ من جوانبه، أو من الأعمال ما قدَّم وأخَّر ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ من بأسه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له، أو يحفظونه من المضارِّ. وقيل: «مِن» بمعنى الباء (أي: بأمر الله تعالى).

(قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: ﴿لَهُ﴾ سبحانه بالنسبة إلى كل الأشياء ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ مسمياتٌ بالملائكة، يعقبن عليها متواليات متتاليات محيطات ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾ عما لا يعنيه وينافره ويؤذيه، وما هو إلا ﴿مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ إياهم وتعلق إرادته ومشيئته لحصانته وحفظه على مقتضى لطفه وجماله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ (المدبِّر لأمور عباده المصلح لأحوالهم) ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فلا ردَّ له ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ ممن يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء. وفيه دليل على أن خلاف مراد الله تعالى محال.

(١٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من أذاه ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث. أي: إراءة خوف وطمع. وقيل يخاف المطر من يضره، ويطمع فيه من ينفعه ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء ﴿ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ وهو جمع ثقيلة.

(١٣) ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ ويسبح سامعوه ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ ملتبسين به، فيضجون بسبحان الله والحمد لله. أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، ملتبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: سئل النبي ﷺ عن الرعد فقال: «ملك موكَّل بالسحاب، معه مخاريق (أي: سيوف) من نار يسوق بها السحاب» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ من خوف الله تعالى وإجلاله. وقيل: الضمير للرعد ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيهلكه ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ حيث يكذبون رسول الله ﷺ فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم. والجدال: التشددُ في الخصومة. روي أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وَفَدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذه عامر بالمجادلة، ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف، فتنبَّه له رسول الله ﷺ وقال: اللهم اكفنيهما بما شئت، فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة فقتلته، ورمى عامراً بغدة فمات في بيت سلولية (وهي قبيلة من العرب أقلهم وأرذلهم)، وكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فنزلت. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ المماحلة: المكايدة لأعدائه.

لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾

(١٤) ﴿**لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ**﴾ الدعاء الحق، فإنه الذي يحقُّ أن يعبد ويدعى إلى عبادته دون غيره. أو له الدعوة المجابة، فإن من دعاه أجابه. وقيل: الحَقُّ هو الله تعالى، وكل دعاء إليه دعوة الحق. والمراد بالجملتين إن كانت الآية في عامر وأربد أن إهلاكهما من حيث لم يشعرا به مِحال من الله تعالى إجابة لدعوة رسوله ﷺ، أو دلالة على أنه على الحق. وإن كانت عامة فالمراد وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول مِحاله بهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول ﷺ عليهم، أو بيان ضلالهم وفساد رأيهم ﴿**وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ**﴾ أي: والأصنام الذين يدعوهم المشركون ﴿**لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ**﴾ من الطلبات ﴿**إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ**﴾ إلا كاستجابة من بسط كفيه ﴿**إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ**﴾ يطلب منه أن يبلغه ﴿**وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ**﴾ لأنه جماد لا يشعر بدعائه، ولا يقدر على إجابته والإتيان بغير ما جُبل عليه، وكذلك آلهتهم. وقيل: شُبِّهوا في قلة جدوى دعائهم لها بمن أراد أن يغترف الماء ليشربه فبسط كفيه ليشربه ﴿**وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾**﴾ في ضياع وخسار وباطل.

(١٥) ﴿**وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا**﴾ يُحتمل أن يكون السجود على حقيقته، فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعاً حالتي الشدة والرخاء، والكفرةُ كرهاً حال الشدة والضرورة ﴿**وَظِلَٰلُهُم**﴾ بالعرَض. أو أن يراد به انقيادهم لإحداث ما أراده منهم شاؤوا أو كرهوا، وانقياد ظلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص ﴿**بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿١٥﴾**﴾ المراد بهما الدوام. والغدوُّ: جمع غداة، والآصالِ جمع أصيل، وهو ما بين العصر والمغرب.

(١٦) ﴿**قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ**﴾ خالقُهما ومتولي أمرهما ﴿**قُلِ ٱللَّهُۚ**﴾ أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه البيِّن الذي لا يمكن المراء (الجدل) فيه، أو لقِّنهم الجواب به ﴿**قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ**﴾ ثم ألزمهم بذلك لأن اتخاذهم منكرٌ بعيد عن مقتضى العقل ﴿**أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ**﴾ لا يقدرون على أن يجلبوا إليها نفعاً أو يدفعوا عنها ضراً، فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه؟! وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاء أن يشفعوا لهم ﴿**قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي**

﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجبِ لها والموحِّدُ العالمُ بذلك. وقيل: المعبود الغافل عنكم والمعبود المطلع على أحوالكم ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ الشرك والتوحيد ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ خلقُ الله تعالى وخلقُهم. والمعنى: أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله تعالى فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: لا خالق غيره فيشاركه في العبادة. جعلَ الخلق موجب العبادة ولازِمَ استحقاقها، ثم نفاه عمن سواه ليدل على قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المتوحِّد بالألوهية ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ الغالب على كل شيء.

(١٧) ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ من السحاب ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ أنهارٌ ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضارٍّ، أو بمقدارها في الصغر والكبر ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا﴾ رفعه ﴿رَّابِيٗاۖ﴾ عالياً ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ يعمُّ الفلزَّات؛ كالذهب والفضة والحديد والنحاس، على وجه التهاون بها إظهاراً لكبريائه ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ أي: طلب حلية (أي: زينة) ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحرث. والمقصود من ذلك بيان منافعها ﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ أي: ومما يوقدون عليه زبد مثل زبد الماء، وهو خبَثه ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ مثل الحق والباطل، فإنه مثَّلَ الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع، ويمكث في الأرض بأن يثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى (جمع قناة) والآبار، وبالفلز (أي: معادن الأرض) الذي ينتفع به في صوغ الحلي واتخاذ الأمتعة المختلفة، ويدوم ذلك مدة متطاولة. والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبَدهما. وبيَّن ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ أي: يرمي به السيل، أو الفلزُّ المذاب ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ كالماء وخلاصة الفلز ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ينتفع به أهلها ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ لإيضاح المشتبهات.

(١٨) ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ للمؤمنين الذين استجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ الاستجابة الحسنى ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ وهم الكفرة ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ لبيان مآل غير المستجيبين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ وهو المناقشة فيه، بأن يحاسَب الرجل بذنبه لا يغفر منه شيء ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ مرجعهم ﴿جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ المستقر.

(١٩) ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فيستجيب ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عمى القلب لا يستبصر فيستجيب؟ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ ذوو العقول المبرَّأة عن مشايعة الإلف (أي: متابعة المألوف) ومعارضة الوهم.

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى. أو ما عهده الله تعالى عليهم في كتبه ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ٢٠﴾ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد.

(٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الرحم وموالاة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويندرج في ذلك مراعاة جميع حقوق الناس ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيدَه عموماً ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ٢١﴾ خصوصاً، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسَبوا.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩) ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤) وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٢٥) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ (٢٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (٢٨)﴾

(٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على ما تكرهه النفس ومخالفة الهوى ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه لا لجزاء وسمعة ونحوهما ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ بعضه الذي وجب عليهم إنفاقه ﴿سِرًّا﴾ لمن لم يُعرف بالمال ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن عُرف به ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعونها بها، فيجازون الإِساءة بالإِحسان. أو يُتبعون السيئة الحسنة فتمحوها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾ عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أهلها وهي الجنة.

(٢٣) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ والعدن: الإِقامة. أي: جناتٌ يقيمون فيها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ والمعنى: أنه يُلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم، تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم (أقول: ولكن مثلُ ذلك أن من الناس من يرى بالمكبرة من القريب إلى البعيد، ومنهم من لا يرى بالمكبرة، فالذين يصلون إلى مراتب مَن قبلهم لا يرون مثل ما هم يرون)؛ وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة، أو أن الموصوفين بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أنسهم. وفي التقييد بالصلاح دلالةٌ على أن مجرد الأنساب لا تنفع ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ٢٣﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف (أي: الهدايا) قائلين:

(٢٤) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ بشارة بدوام السلامة ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ أي: هذا بما صبرتم ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾.

(٢٥) ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالظلم وتهييج الفتن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ عذاب جهنم أو سوء عاقبة الدنيا.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ يوسّعه ويضيّقه ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي: أهل مكة ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: في جنب الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾ إلا متعةٌ لا تدوم، كعجالة الراكب وزاد الراعي. والمعنى أنهم أَشِروا (أي: بطِروا) بما نالوا من الدنيا، ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة، واغتروا بما هو في جنبه نزر (شيء) قليل النفع سريع الزوال.

(٢٧) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ أقبل إلى الحق ورجَع عن العناد.

(٢٨) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أنساً به واعتماداً عليه ورجاء منه. أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته. أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته. أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المعجزات ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ تسكن إليه (وكما أشار القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى في تفسيره في هذه الآية، أقول: إذا صفا قلب المؤمن عن محبة الدنيا وحطامها يحصل فيه اليقين، أي: يقذف الله تعالى نوراً في قلوب عباده الذين يجاهدون أنفسهم ويطهرون بواطنهم من الخبائث امتثالًا لأمره تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فعلى العبد العاقل أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين، فإن اليقين هو رأسمال الدين، قال رسول الله ﷺ: «اليقين الإيمان كله» [أخرجه البيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بإسناد حسن]. فلا بد من تعلم علم اليقين، ثم ينفتح للقلب طريقه، قال رسول الله ﷺ: «تعلَّموا اليقين» [أخرجه أبو نُعيم رحمه الله تعالى]. وإذا ثبت عند المؤمن أن الآخرة أبدية والدنيا فانية فإن إيمانه ويقينه لا يسمح له بترجيح الفاني على الباقي، فيتقرب إلى الله تعالى، ويقصِّر المسافة البعيدة بينه وبين ربه جلَّ وعلا بكثرة الذكر، لأن القرب صفة ذاتية لله تعالى، سواء كان العبد غافلاً عن الله تعالى أو حاضراً بقلبه معه، فالله قريب من العبد على كل حال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، والبعد صفة العبد، وتقرب العبد إلى الله جل وعلا يكون بقلبه، لا بجسده وبدنه وجوارحه، فإذا استولى نور القلب على الجوارح الظاهرية واللطائف الباطنية يرى العبد بقلبه أنه مع ربه جل وعلا في كل الأحوال).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانٗا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٞ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾

(٢٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فرح وقرة عين لهم) ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾﴾ (المرجع والمقرّ، وهي الجنة [المقتطف من عيون التفاسير]).

(٣٠) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل إرسال الرسل قبلك ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ﴾ تقدَّمتها ﴿أُمَمٞ﴾ أرسلوا إليهم، فليس ببدع (غريب) إرسالك إليهم ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ وحالهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كلَّ شيء رحمته، فلم يشكروا نعمه، وخصوصاً ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية عليهم. وقيل: نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم: اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ، فقالُوا: وَمَا الرَّحْمنُ؟ ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ أي: الرحمن خالقي ومتولي أمري ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحقَّ للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ مرجعي ومرجعكم.

(٣١) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانٗا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ والمراد منه تعظيم شأن القرآن، أو المبالغة في عناد الكفرة وتصميمهم. أي: ولو أن كتاباً زعزعت (أي: حُرِّكت) به الجبال عن مقارِّها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ تصدعت من خشية الله تعالى عند قراءته، أو شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ﴾ فتسمع وتجيب عند قراءته، لكان هذا القرآن لأنه الغاية في الإعجاز والنهاية في التذكير والإنذار. أو لَمَا آمنوا به. وقيل: إن قريشاً قالوا يا محمد إنْ سَرَّك أن نتبعك فسيِّر بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها بساتين وقطائع (جمع قطعة، وهي الأرض التي يزرع بها)، أو سخِّر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام، أو ابعث لنا به قصي ابن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك، فنزلت. ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾ بل لله القدرة على كل شيءٍ. أي: بل الله تعالى قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك، لعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم (أي: عنادهم)، ويؤيد ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ فإن معناه نفيُ هدى بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من الكفر وسوء الأعمال ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تفزعهم وتقلقهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها. وقيل: الآية في كفار مكة، فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ الموت أو القيامة أو فتح مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ لامتناع الكذب في كلامه جلَّ وعلا.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ، ووعيدٌ للمستهزئين به والمقترِحين عليه. والإملاء أن يُترك ملاوة (أي: حيناً وبرهة) من الزمان في دَعة (راحة) وأمنٍ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: عقابي إياهم.

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ﴾ رقيب عليها ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، لاَ يخفى علَيه شيء من أعمالهم ولا يفوت عنده شيء من جزائهم ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تنبيهٌ على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها. والمعنى: صِفُوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ بل أتنبئونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بشركاء يستحقُّون العبادة لا يعلمهم الله، أو بصفات لهم يستحقونها لأجلها لا يعلمها وهو العالم بكل شيء ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنى ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ تمويههم، فتخيَّلوا أباطيل ثم خالوها حقاً. أو كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الحق ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ يخذله ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ يوفقه للهدى.

(٣٤) ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لشدته ودوامه ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِن عذابه أو من رحمته ﴿مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ حافظ.

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

(٣٥) ﴿**مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ**﴾ لا ينقطع ثمرها ﴿**وَظِلُّهَا**﴾ أي: وظلها كذلك لا يُنسخ كما يُنسخ في الدنيا بالشمس ﴿**تِلْكَ**﴾ أي: الجنة الموصوفة ﴿**عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا**﴾ مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿**وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾**﴾ لا غير.

(٣٦) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب؛ كابن سلام وأصحابه ومَن آمن من النصارى، فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم ﴿**وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ**﴾ يعني كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة؛ ككعب بن الأشرف وأصحابه والسيد والعاقب وأشياعهما ﴿**مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ**﴾ وهو ما يخالف شرائعهم، أو ما يوافق ما حرَّفوه منها ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ**﴾ أي: قل لهم إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله تعالى وأوحِّده، وهو العمدة في الدين، ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم فليس ببدع (بغريب) مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام ﴿**إِلَيْهِ أَدْعُوا**﴾ لا إلى غيره ﴿**وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾**﴾ وإليه مرجعي للجزاء لا إلى غيره. وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم، فلا معنى لإنكاركم المخالفة فيه.

(٣٧) ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا**﴾ يحكم في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة ﴿**عَرَبِيًّا**﴾ مترجماً بلسان العرب ليسهل لهم فهمه وحفظه ﴿**وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم**﴾ التي يدعونك إليها، كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حولت عنها ﴿**بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ**﴾ بنسخ ذلك ﴿**مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾**﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك. وهو حسمٌ لأطماعهم، وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم.

(٣٨) ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ**﴾ بشَراً مثلك ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً**﴾ نساءً وأولاداً كما هي لك ﴿**وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ**﴾ وما يصح له ولم يكن في وسعه ﴿**أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ**﴾ تُقترَح عليه وحكمٍ يُلتمَس منه ﴿**إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ فإنه المليُّ بذلك (أي: الذي يأتي به) ﴿**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾**﴾ لكل وقت وأمد حكمٌ يُكتب على العباد على ما يقتضيه استصلاحهم.

(٣٩) ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ينسخ ما يَستصوب نسخه ﴿وَيُثْبِتُۖ﴾ ما تقتضيه حكمته. وقيل: يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها. وقيل: يمحو من كتاب الحفظة ما لا يتعلق به جزاء، ويترك غيره مثبتاً ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ أصل الكتب وهو اللوح المحفوظ (أو علم الله تعالى الأزلي) إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه.

(٤٠) ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وكيفما دارت الحال أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لا غير ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠﴾ للمجازاة لا عليك، فلا تحتفل (فلا تبالِ) بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم، فإنا فاعلون له.

(٤١) ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ بما نفتحه على المسلمين منها. (أقول: فديار المسلمين تزداد، وأوطان المشركين تنقص وتتقلص) ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ﴾ لا رادَّ له. والمعنى: أنه حكم للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار، وذلك كائن لا يمكن تغييره ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤١﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

(٤٢) ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم والمؤمنين منهم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ﴾ (أقول: وهذا من مقابلة اللفظ باللفظ) إذ لا يؤبه بمكرٍ دون مكره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ﴾ فيعدَّ جزاءها ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٤٢﴾ من الحزبين، حيثما يأتيهم العذاب المعدُّ لهم وهم في غفلة منه، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ ١٤ — ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾ قيل: المراد بهم رؤساء اليهود ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه أظهرَ من الأدلة على رسالتي ما يُغني عن شاهد يشهد عليها ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ علمُ القرآن وما ألف عليه من النظم المعجز؛ أو علمُ التوراة، وهو ابن سلام رضي الله تعالى عنه وأضرابه؛ أو علم اللوح المحفوظ، وهو الله تعالى؛ أي: وكفى بالذي يستحقُّ العبادة، وبالذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا هو، شهيداً بيننا، فيخزي الكاذب منا.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الرعد. وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة إبراهيم

مكيَّة وهي اثنتان وخمسون آية

(١) ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائك إياهم إلى ما تضمَّنه ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من أنواع الضلال ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه وتسهيله ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ وتخصيصُ الوصفين (أي: العزيز والحميد) للتنبيه على أنه لا يذلُّ سالكه ولا يخيب سابله (أي: سالكه).

(٢) ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ (خلقاً وملكاً [النسفي]) وهو (أي: لفظ الجلالة) كالعلَم لاختصاصه بالمعبود على الحق ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ وعيدٌ لمن كفر بالكتاب ولم يَخرج به من الظلمات إلى النور.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأٓخِرَةِ﴾ يختارونها عليها، فإن المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحبَّ إليها من غيره (أقول: هذا من شؤون أهل الدنيا الذين ينغمسون في حبِّ الدنيا ويتركون شؤون الآخرة التي تحصل في الدنيا وتكون ثمرتها في الآخرة، وبذلك يخسرون. مَن قدَّم دينه وآخرته على الدنيا يكون

من الناجين، ومن كان عكسه نفوِّض أمره الى الله تعالى إذا كان من أهل الايمان، فإذا رجع عفا الله عنه، وإذا لم يرجع إما أن يعفو عنه باستنكافه عن المنكرات الكبائر، أو يكون أمره مفوَّضاً إلى الله تعالى. لكن حق المؤمن أن يرجِّح آخرته ويقدِّمها على دنياه، ويشتغل بدنياه بقدر الحاجة) ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بتعويق الناس عن الإيمان ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ ويبغون لها زيغاً ونكوباً (أي: ميلاً) عن الحق ليقدحوا فيه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ٣﴾ أي: ضلوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحل.

(٤) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ إلا بلغة قومه الذي هو منهم وبُعث فيهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ ما أمِروا به فيفقهوه عنه بيُسر وسرعة، ثم ينقلوه ويترجموه إلى غيرهم، فإنهم أَولى الناس إليه بأن يدعوَهم، وأحق بأن ينذرَهم، ولذلك أمِر النبي ﷺ بإنذار عشيرته أولاً ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ فيخذله عن الإيمان ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ بالتوفيق له ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلا يُغلب على مشيئته ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ الذي لا يُضِلُّ ولا يَهدي إلا لحكمةٍ.

(٥) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني اليد والعصا وسائر معجزاته ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ بوقائعه التي وقعت على الأمم الدارجة. وأيامُ العرب حروبُها. وقيل: بنعمائه وبلائه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾ يصبر على بلائه ويشكر على نعمائه. فإنه إذا سمع بما أنزل على مَن قبلهُ من البلاء وأفيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. وقيل: المراد لكل مؤمن، وإنما عبَّر عنه بذلك تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن.

وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿**وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ**﴾ أي: اذكروا نعمته عليكم وقت إنجائه إياكم ﴿**يَسُومُونَكُمۡ**﴾ (أي: يذيقونكم) ﴿**سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ**﴾ (أي: يستبقون) ﴿**نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم**﴾ من حيث إنه بإقدار الله تبارك وتعالى إياهم وإمهالهم فيه ﴿**بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾**﴾ ابتلاء منه.

(٧) ﴿**وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ**﴾ بمعنى آذن (أي: أعْلَمَ. وهو من كلام موسى عليه السلام) ﴿**لَئِن شَكَرۡتُمۡ**﴾ يا بني إسرائيل ما أنعمت عليكم من الإنجاء وغيره بالإيمان والعمل الصالح ﴿**لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ**﴾ نعمة إلى نعمة ﴿**وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ**﴾ ما أنعمت عليكم ﴿**إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾**﴾ فلعلي أعذبكم على الكفران عذاباً شديداً، ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرِّح بالوعد ويعرِّض بالوعيد.

(٨) ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا**﴾ من الثقلين ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ**﴾ عن شكركم لنعمته ﴿**حَمِيدٌ ﴿٨﴾**﴾ مستحقٌّ للحمد في ذاته، محمود تحمده الملائكة، وتنطق بنعمه ذرات المخلوقات. فما ضررتم بالكفران إلا أنفسكم حيث حرمتموها مزيد الإنعام وعرَّضتموها للعذاب الشديد.

(٩) ﴿**أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ**﴾ من كلام موسى عليه الصلاة والسلام أو كلام مبتدأ من الله تعالى ﴿**وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ**﴾ أي: أنهم لكثرتهم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ﴿**جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ**﴾ فعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام. أو وضعوها عليها تعجباً منه أو استهزاء عليه كمن غلبه الضحك. أو إسكاتاً للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمراً لهم بإطباق الأفواه. أو ردُّوها في أفواه الأنبياء يمنعونهم من التكلم. وقيل: الأيدي بمعنى الأيادي، أي: ردوا أيادي الأنبياء التي هي مواعظهم وما أوحيَ إليهم من الحكم والشرائع في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردوها إلى حيث جاءت منه ﴿**وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ**﴾ على زعمكم ﴿**وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ**﴾ من الإيمان ﴿**مُرِيبٖ ﴿٩﴾**﴾ أي: ذي ريبة، وهي قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الشيء.

(١٠) ﴿**قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ**﴾ أي: إنما ندعوكم إلى الله تعالى وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة

وظهور دلالتها عليه. وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿**فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ**﴾ إلى الإِيمان ببعثه إيانا ﴿**لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ**﴾ بعضَ ذنوبكم، وهو ما بينكم وبينه تعالى، فإن الإسلام يجبُّه دون المظالم. وقيل جيء بمِن في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن تفرقةً بين الخطابين، ولعل المعنى فيه أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفار مرتبةٌ على الإِيمان، وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعةٌ بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك، فتتناول الخروج عن المظالم ﴿**وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ**﴾ إلى وقت سماه الله تعالى وجعله آخر أعماركم ﴿**قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾ لا فضلَ لكم علينا، فلمَ تُخَصُّون بالنبوة دوننا؟ ولو شاء الله تعالى أن يبعث إلى البشر رسلاً لبعث من جنسٍ أفضل ﴿**تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا**﴾ بهذه الدعوى ﴿**فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠**﴾ يدلُّ على فضلكم واستحقاقكم لهذه المزية، أو على صحة ادعائكم النبوة. كأنهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البينات والحجج، واقترحوا عليهم آية أخرى تعنُّتاً ولِجاجاً (أي: تمادياً).

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

(١١) ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ**﴾ سلَّموا مشاركتهم في الجنس، وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضلَ الله تعالى ومَنَّهُ عليهم. وفيه دليل على أن النبوة عطائية، وأن ترجيح بعض الجائزات على بعض بمشيئة الله تعالى (أقول: ولذا يقولون: كلُّ الدرجات عند الله تعالى بالعمل إلا النبوَّة) ﴿**وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ أي: ليس لنا الإتيان بالآيات ولا تستبدُّ (أي: تنفرد) به استطاعتنا حتى نأتي بما اقترحتموه، وإنما هو أمرٌ يتعلق بمشيئة الله تعالى، فيخص كل نبيٍّ بنوع من الآيات ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾**﴾ فلنتوكلْ عليه في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم. عمَّموا الأمر للإشعار بما يوجب التوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً. ألا ترى قوله تعالى:

(١٢) ﴿**وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ**﴾ أي: أيُّ عذرٍ لنا في أن لا نتوكل عليه؟ ﴿**وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا**﴾ التي نعرفه بها، ونعلم أن الأمور كلها بيده (أي: بإرادته جل وعلا) ﴿**وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا**﴾ أكَّدوا به توكلهم وعدم مبالاتهم بما يجري من الكفار عليهم ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾**﴾ فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكُّلهم المسبَّب عن إيمانهم.

(١٣) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا**﴾ حلفوا على أن يكون أحدُ الأمرين: إما إخراجهم للرسل، أو عوْدُهم إلى ملتهم، وهو بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا على ملَّتهم قطُّ ﴿**فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ**﴾ أي: إلى رسلهم ﴿**لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾**﴾.

(١٤) ﴿**وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ**﴾ أي: أرضَهم وديارَهم ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ إشارةٌ إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ﴿**لِمَنْ خَافَ مَقَامِى**﴾ موقفي؛ وهو الموقف الذي يقيم فيه العبادَ للحكومة يوم القيامة، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله ﴿**وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾**﴾ أي: عذابي الموعود للكفار.

(١٥) ﴿**وَٱسْتَفْتَحُوا۟**﴾ سألوا من الله تعالى الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم. والضمير للأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل: للكفرة وقيل للفريقين. فإن كلهم سألوه أن ينصر المحقَّ ويهلك المبطل

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ أي: ففتح لهم، فأفلح المؤمنون وخاب كل عاتٍ متكبر على الله تعالى معاند للحق فلم يفلح.

(١٦) ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من بين يديه، فإنه واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوثٌ إليها في الآخرة ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾ وهو ما يسيل من جلود أهل النار.

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يتكلف جرعه (أي: بلعه) ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يُقارب أن يسيغه فكيف يسيغه؟ بل يغصُّ به فيطول عذابه. والسوغ: جواز الشراب على الحلق بسهولة وقبولِ نفسٍ ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: أسبابه من الشدائد، فتحيط به من جميع الجهات. وقيل: من كل مكان من جسده، حتى من أصول شعره وإبهام رجله ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريح ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ أي: يستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه. وقيل: هو الخلود في النار (أقول: لا يقال إن عمر الكفار في الدنيا قليل، فلمَ يخلَّدون في جهنم؟ لأن الكافر لو بقي في الدنيا آلاف السنين يبقى على كفره، ولذا فإن خلوده في جهنم يكون بمقابلة ذلك).

(١٨) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: فيما يتلى عليكم ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ حملته وأسرعت الذهاب به ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: شديد الريح؛ شبَّه صنائعهم من الصدقة وصلة الرحم وإغاثة الملهوف وعتق الرقاب ونحو ذلك من مكارمهم في حبوطها وذهابها هباء منثوراً - لبنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والتوجه بها إليه - أو أعمالهم للأصنام برماد طيرته الريح العاصفة ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لحبوطه، فلا يرون له أثراً من الثواب ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون ﴿هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾ فإنه الغاية في البعد عن طريق الحق.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

(١٩) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطابٌ للنبي ﷺ، والمراد به أمته. وقيل: لكل واحد من الكفرة على التلوين (أي: التشكيل) ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ بالحكمة والوجه الذي يحق أن تخلق عليه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ يُعدمكم ويخلق خلقاً آخر مكانكم. رتَّب ذلك على كونه خالقاً للسموات والأرض استدلالاً به عليه، فإن من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم ثم كوَّنهم بتبديل الصور وتغيير الطبائع قادر على أن يبدلهم بخلق آخر، ولم يمتنع عليه ذلك، كما قال تعالى:

(٢٠) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ بمتعذر أو متعسِّر، فإنه قادر لذاته لا اختصاص له تعالى بمقدور دون مقدور (فالكل متساوٍ عنده) ومَن كان هذا شأنه كان حقيقاً بأن يُؤمَن به ويُعبد رجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه يوم الجزاء.

(٢١) ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرزون من قبورهم يوم القيامة لأمر الله تعالى ومحاسبته. أو للهِ على ظنِّهم، فإنهم كانوا يخفون ارتكاب الفواحش ويظنون أنها تخفى على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ الأتباع. جمع ضعيف، يريد به ضعاف الرأي ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ لرؤوسائهم الذين استتبعوهم واستغوَوْهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ﴾ أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله تعالى ﴿قَالُواْ﴾ أي: الذين استكبروا جواباً عن معاتبة الأتباع واعتذاراً عما فعلوا بهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمان ووفقنا له ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْۖ﴾، ولكن ضللنا فأضللناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ منجى ومهرب من العذاب.

(٢٢) ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أُحكِم وفُرِغ منه ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيباً في الأشقياء من الثقلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وعداً من حقه أن ينجز، أو وعداً أنجزه. وهو الوعد بالبعث والجزاء ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعد الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، وإن كانا فالأصنام تشفع لكم ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ تسلُّطٍ، فألجئكم إلى الكفر والمعاصي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلا

دعائي إياكم إليهما بتسويلي، وهو ليس من جنس السلطان ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ﴾ أسرعتم إجابتي ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بوسوستي، فإن من صرَّح بالعداوة لا يلام بأمثال ذلك ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ حيث أطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم.

واحتجت المعتزلة بأمثال ذلك على استقلال العبد بأفعاله، وليس فيها ما يدل عليه، إذ يكفي لصحتها أن يكون لقدرة العبد مدخلٌ ما في فعله، وهو الكسب الذي يقوله أصحابنا (أي: أهل السنة والجماعة). (أقول: العبد مسؤول عن الجزء الاختياري، لأن الله تعالى وضَّح الموافق والمخالف، فإذا أخذتم بالمخالفات يكون ذلك بالجزء الاختياري، وهو وإن كان ضعيفاً لكن العبد يؤاخذ به).

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ بمغيثكم من العذاب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ بمغيثيَّ ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ أي: إني كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم، أي في الدنيا، بمعنى تبرأت منه واستنكرته. أو كفرت بالذي أشركتمونيه وهو الله تعالى بطاعتكم إياي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها من قبل إشراككم، حين ردَدْتُ أمره بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ تتمةُ كلامِه، أو ابتداءُ كلامٍ من الله تعالى. وفي حكاية أمثال ذلك لطفٌ للسامعين وإيقاظٌ لهم حتى يحاسِبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم.

(٢٣) ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾ بإذن الله تعالى وأمره، والمدخِلون هم الملائكة عليه السلام ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣﴾ أي: تحييهم الملائكة فيها بالسلام بإذن ربهم جلَّ وعلا.

(٢٤) ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ كيف اعتمده ووضعه ﴿كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ أي: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿وَفَرۡعُهَا﴾ وأعلاها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾.

تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

(٢٥) ﴿**تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا**﴾ تعطي ثمرها ﴿**كُلَّ حِينِۭ**﴾ وقّته الله تعالى لإثمارها ﴿**بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ**﴾ بإرادة خالقها وتكوينه ﴿**وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥**﴾ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنه تصوير للمعاني وإدناء لها من الحسّ.

(٢٦) ﴿**وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ**﴾ أي: كمثل شجرة خبيثة ﴿**ٱجۡتُثَّتۡ**﴾ استؤصلت وأخِذت جثتها بالكلية ﴿**مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ**﴾ لأن عروقها قريبة منه ﴿**مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦**﴾ استقرار. واختُلف في الكلمة والشجرة، ففسِّرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد ودعوة الإسلام والقرآن، والكلمةُ الخبيثة بالشرك بالله تعالى والدعاء إلى الكفر وتكذيب الحق. ولعل المراد بهما ما يعم ذلك، فالكلمة الطيبة ما أعرَب عن حق أو دعا إلى صلاح، والكلمة الخبيثة ما كان على خلاف ذلك. وفُسِّرت الشجرة الطيبة بالنخلة، وروي ذلك مرفوعاً، وبشجرة في الجنة. والخبيثةُ بالحنظل (وهو نبات عشبي شديد المرارة)، ولعل المراد بهما أيضاً ما يعمُّ ذلك.

(٢٧) ﴿**يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ**﴾ الذي ثبتَ بالحجة عندهم وتمكَّن في قلوبهم ﴿**فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا**﴾ فلا يزالون إذا فتِنوا في دينهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وجرجيس وشمعون والذين فتنهم أصحاب الأخدود ﴿**وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ**﴾ فلا يتلعثمون (أي: لا يتردَّدون أو لا يتلكَّؤون) إذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف، ولا تدهشهم أهوال يوم القيامة. وروي: أنه ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيُجلسانه في قبره ويقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربيَ الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي. فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾» [الحديث أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿**وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالاقتصار على التقليد، فلا يهتدون إلى الحق، ولا يثبتون في مواقف الفتن ﴿**وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧**﴾ من تثبيت بعضٍ وإضلال آخرين من غير اعتراض عليه جل وعلا.

(٢٨) ﴿**أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا**﴾ أي: بدّلوا شكرَ نعمته كفراً، بأن وضعوه مكانه. أو بدَّلوا نفس النعمة كفراً، فإنهم لما كفروها سلبت منهم فصاروا تاركين لها محصلين للكفر بدَلها، كأهل مكة، خلقهم الله تعالى وأسكنهم حرَمه وجعلهم قوّام بيته ووسَّع عليهم أبواب رزقه وشرَّفهم بمحمد ﷺ، فكفروا

ذلك فقُحِطوا سبع سنين وأُسِروا وقتلوا يوم بدر، وصاروا أذلاء، فبقوا مسلوبي النعمة وموصوفين بالكفر ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ الذين شايعوهم (أي: تابعوهم) في الكفر ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾ دار الهلاك، بحملهم على الكفر.

(٢٩) ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ أي: داخلين فيها مقاسين لحرِّها ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾ أي: وبئس المقرُّ جهنم.

(٣٠) ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾ الذي هو التوحيد ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾ بشهواتكم، أو بعبادة الأوثان فإنها من قبيل الشهوات التي يُتمتع بها ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾.

(٣١) ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خصَّهم بالإضافة تنويهاً (تعظيماً) لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمون لحقوق العبودية ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ فيكون إيذاناً بأنهم لفرط مطاوعتهم للرسول ﷺ بحيث لا ينفكُّ فِعلهم عن أمره ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أي: إنفاقَ سرٍّ وعلانيةٍ. والأحبُّ إعلانُ الواجب وإخفاءُ المتطوَّعِ به ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ فيَبتاع المقصِّر ما يتدارك به تقصيره، أو يَفدى به نفسه ﴿وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ ولا مخالَّة فيشفع لك خليل. أو من قبل أن يأتي يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة، وإنما يُنتفع فيه بالإنفاق لوجه الله تعالى.

(٣٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ تعيشون به؛ وهو يشمل المطعوم والملبوس ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ﴾ بمشيئته إلى حيث توجَّهتم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢﴾ فجعلها مُعَدَّة لانتفاعكم وتصرفكم. وقيل: تسخير هذه الأشياء تعليمُ كيفية اتخاذها.

(٣٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ﴾ يدأبان (أي: يستمران) في سيرهما وإنارتهما وإصلاح ما يصلحانه من المكوَّنات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ يتعاقبان لسُباتكم ومعاشكم.

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾

(٣٤) ﴿**وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ**﴾ أي: بعضَ ما سألتموه، فإن الموجود من كل صنف بعضُ ما في قدرة الله تعالى ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ**﴾ لا تحصُروها ولا تطيقوا عدَّ أنواعها فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية ﴿**إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ**﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها، أو يظلم نفسه بأن يعرِّضها للحرمان ﴿**كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾**﴾ شديد الكفران (أي: النكران). وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كَفارٌ في النعمة يَجمع ويَمنع.

(٣٥) ﴿**وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ**﴾ بلدة مكة ﴿**ءَامِنٗا**﴾ ذا أمْنٍ لمن فيها ﴿**وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ**﴾ بعِّدْني وإياهم ﴿**أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾**﴾ واجعلنا منها في جانب. وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه إياهم، وهو بظاهره لا يتناول أحفاده وجميع ذريته.

(٣٦) ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ**﴾ فلذلك سألتُ منك العصمة واستعذتُ بك من إضلالهن. وإسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية ﴿**فَمَن تَبِعَنِي**﴾ على ديني ﴿**فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ**﴾ أي: بعضي، لا ينفك عني في أمر الدين ﴿**وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾**﴾ تقدِرُ أن تغفر له وترحمه ابتداء، أو بعد التوفيق للتوبة. وفيه دليل على أن كل ذنب فلِلَّهِ أن يغفره حتى الشرك، إلا أن الوعيد فرَّق بينه وبين غيره.

(٣٧) ﴿**رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي**﴾ أي: بعض ذريتي؛ وهم إسماعيل ومن وُلد منه، فإن إسكانه متضمِّن لإسكانهم ﴿**بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ**﴾ يعني وادي مكة، فإنها حجرية لا تنبت ﴿**عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ**﴾ الذي حرَّمت التعرض له والتهاون به. أو لم يزل معظماً ممنَّعاً يهابه الجبابرة. أو مُنع منه الطوفان فلم يستولِ عليه، ولذلك سمي عتيقاً، أي أعتق منه. ودعا بهذا الدعاء أول ما قدِمَ، فلعله قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤول إليه. روي أن هاجر كانت (جارية) لسارة رضي الله عنها، فوهبتها لإبراهيم عليه السلام، فولدت منه إسماعيل عليه السلام، فغارت عليهما، فناشدته أن يخرجها من عندها، فأخرجها إلى أرض مكة، فأظهر الله تعالى عين زمزم، ثم إن جرهم (اسم قبيلة) رأوا ثَمَّ طيوراً فقالوا: لا طير إلا على الماء، فقصدوه فرأوهما وعندهما عينٌ، فقالوا: أشركينا في مائك نشركك في ألباننا ففعلتْ ﴿**رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾ أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع

(أي: الخالي) من كل مرتفَق ومرتزَق (أي: شيء ينتفع به) إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرَّم، والمقصود من الدعاء توفيقهم لها ﴿**فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ**﴾ أي: أفئدة من أفئدة الناس ﴿**تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ**﴾ تسرع إليهم شوقاً ووداداً ﴿**وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ**﴾ مع سكناهم وادياً لا نبات فيه ﴿**لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧**﴾ تلك النعمة. فأجاب الله عز وجل دعوته، فجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء حتى توجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد.

(٣٨) ﴿**رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ**﴾ تعلم سرَّنا كما تعلم علننا. والمعنى إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكنا ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستعجالاً لنيل ما عندك ﴿**وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨**﴾ لأن العالِمَ بعلمٍ ذاتيٍّ يستوي نسبته إلى كل معلوم.

(٣٩) ﴿**ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ**﴾ أي: وهب لي وأنا كبير آيس من الولد. قيَّد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة، وإظهاراً لما فيها من الآية ﴿**إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ**﴾ روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمئة واثنتي عشرة سنة ﴿**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩**﴾ أي: لمجيبُه. وفيه إشعارٌ بأنه دعا ربه وسأل منه الولد فأجابه ووهب له سؤله حينما وقع اليأس منه، ليكون من أجلِّ النعم وأجلاها.

(٤٠) ﴿**رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ**﴾ معدِّلاً لها، موَاظباً عليها ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ**﴾ والتبعيض لعلمه بإعلام الله تعالى أو استقراء عادته في الأمم الماضية أنه يكون في ذريته كفار ﴿**رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠**﴾ واستجب دعائي، أو وتقبل عبادتي.

(٤١) ﴿**رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ**﴾ وقد تقدم عذرُ استغفاره لهما ﴿**وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١**﴾ أي: يثبت.

(٤٢) ﴿**وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ**﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ. والمراد به تثبيته على ما هو عليه من أنه تعالى مطلعٌ على أحوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه خافية، والوعيدُ بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة ﴿**إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ**﴾ يؤخر عذابهم ﴿**لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢**﴾ أي: تشخص فيه أبصارهم، فلا تقرُّ في أماكنها من هول ما ترى.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

(٤٣) ﴿**مُهْطِعِينَ**﴾ أي: مسرعين إلى الداعي (وهو سيدنا إسرافيل عليه السلام) أو مقبلين بأبصارهم لا يطرفون هيبة وخوفاً ﴿**مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ**﴾ رافعيها ﴿**لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ**﴾ بل تثبت عيونهم شاخصة لا تطرف ﴿**وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾**﴾ خلاءٌ. أي خالية عن الفهم لفرط الحيرة والدهشة. وقيل: خالية عن الخير، خاوية عن الحق.

(٤٤) ﴿**وَأَنذِرِ النَّاسَ**﴾ يا محمد ﷺ ﴿**يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ**﴾ يعني يوم القيامة. أو يوم الموت، فإنه أولُ أيام عذابهم ﴿**فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ بالشرك والتكذيب ﴿**رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ**﴾ أخِّر العذاب عنا، أو ردَّنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى حد من الزمان قريب، أو أخِّر آجالنا وأبقِنا مقدار ما نؤمن بك ﴿**نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾**﴾ أي: أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تُزالون بالموت. ولعلهم أقسموا بطراً وغروراً، أو دلَّ عليه حالهم حيث بنَوا شديداً وأمَّلوا بعيداً. وقيل: أقسموا أنهم لا ينتقلون إلى دار أخرى.

(٤٥) ﴿**وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ**﴾ بالكفر والمعاصي؛ كعاد وثمود ﴿**وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ**﴾ بما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم، وما تواتر عندكم من أخبارهم ﴿**وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾**﴾ من أحوالهم. أي: بيَّنا لكم أنكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب. أو صفات ما فَعلوا وفُعِل بهم، التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة.

(٤٦) ﴿**وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ**﴾ المستفرَغ فيه جهدُهم لإبطال الحق وتقرير الباطل ﴿**وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ**﴾ ومكتوب عنده فعلُهم، فهو مجازيهم عليه. أو عنده ما يمكرهم به جزاءً لمكرهم وإبطالاً له ﴿**وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ**﴾ في العِظم والشدة ﴿**لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾**﴾ المعنى أنهم مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال الراسية ثباتاً وتمكُّناً من آيات الله تعالى وشرائعه.

(٤٧) ﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**﴾ غالبٌ لا يماكَر، قادرٌ لا يدافَع ﴿**ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾**﴾ لأوليائه من أعدائه.

(٤٨) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عطفٌ على الأرض، وتقديره: والسموات غير السموات. والتبديل يكون في الذات وفي الصفة، والآية تحتملهما، فعن علي رضي الله تعالى عنه: تبدل أرضاً من فضة، وسماوات من ذهب. وعن ابن مسعود وأنس رضي الله تعالى عنهما: يُحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هي تلك الأرض، وإنما تغير صفاتها ﴿وَبَرَزُواْ﴾ من أجداثهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ لمحاسبته ومجازاته. وتوصيفه بالوصفين (أي: الواحد والقهار) للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة، فإن الأمر إذا كان لواحد غَلَّاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار.

(٤٩) ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرِنَ بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم في العقائد والأعمال، أو قُرنوا مع الشياطين، أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة والملكات الباطلة. أو قُرِنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال، وهو يحتمل أن يكون تمثيلاً لمؤاخذتهم على ما اقترفته (أي: اكتسبته) أيديهم وأرجلهم ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾ الصفد: القيد، وقيل الغل.

(٥٠) ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قمصانهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو ما يتحلَّب (أي: يسيل) من الأبهل (نوع من الشجر) فيطبخ فتهنأ (أي: تطلى) به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحدته، وهو أسود منتن، تشتعل فيه النار بسرعة، تطلى به جلود أهل النار حتى يكون طلاؤه لهم كالقمص (جمع قميص)، ليجتمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه ونتن ريحه مع إسراع النار في جلودهم. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ أي: وتتغشاها لأنهم لم يتوجَّهوا بها إلى الحق، ولم يستعملوا في تدبُّره مشاعرهم وحواسهم التي خلقت فيها لأجله.

(٥١) ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ أي: يفعل بهم ذلك ليجزي كل نفس مجرمة ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أو كل نفس من مجرمة أو مطيعة، لأنه إذا بيّن أن المجرمين يعاقبون لإجرامهم عُلِمَ أن المطيعين يثابون لطاعتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾ لأنه لا يشغله حساب عن حساب.

(٥٢) ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى القرآن أو السورة أو ما فيه من العظة والتذكير ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كفايةٌ لهم في الموعظة ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: لينصحوا ولينذروا بهذا البلاغ ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة عليه أو المنبهة على ما يدل عليه ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ فيرتدعوا عما يرديهم ويتدرعوا بما يُحظيهم (أي: يُنيلهم مكانة ومنزلة). واعلمْ أنه سبحانه وتعالى ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد، هي الغاية والحكمة في إنزال الكتب: تكميل الرسل للناس، واستكمال القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، واستصلاح القوة العملية الذي هو التدرُّع بلباس التقوى؛ جعلنا الله تعالى من الفائزين بها.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة إبراهيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحِجْر

مكيَّة، وهي تسع وتسعون آية

سُورَةُ الحِجْرِ ١٥ ٩٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥

(١) ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ الإِشارةُ إلى آيات السورة. والْكِتابُ هو السورة وكذا القرآن.

(٢) ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾ حين عاينوا حال المسلمين عند نزول النصر أو حلول الموت أو يوم القيامة. ومعنى التقليل فيه الإيذان بأنهم لو كانوا يودُّون الإِسلام مرة فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه كل ساعة! وقيل: تدهشهم أهوال القيامة، فإن حانت منهم إفاقةٌ في بعض الأوقات تمنوا ذلك.

(٣) ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ دعهم ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾ ويشغلهم توقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن الاستعداد للمَعاد (أقول: هذه القاعدة ليست للمؤمن، بل هي للكافر. الله تعالى خلق الكافر ومع ذلك فهو يرجِّح الدنيا على الآخرة، أما المؤمن فليس هكذا. بعض الناس سكارى بالدنيا ولو كانوا مؤمنين، لكن حقَّ المؤمن أن لا يكون هكذا، بل حقه أن يشتغل بدنياه، ويقدِّم آخرته على دنياه) ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه. والغرض إقناط الرسول ﷺ من ارعوائهم (أي: رجوعهم)، وإيذانُه بأنهم من أهل الخذلان، وأنَّ نصْحَهم بعدُ اشتغالٌ بما لا طائل تحته. وفيه إلزام للحجة وتحذير عن ايثار التنعم وما يؤدي إليه طول الأمل.

(٤) ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾ أجلٌ مقدَّر كُتب في اللوح المحفوظ (أو في علم الله تعالى الأزلي).

(٥) ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ (أي: لا يجيء هلاكها قبل مجيء أوانه [المقتطف])﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾ أي: وما يستأخرون عنه.

(٦) ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ نادَوا به النبي ﷺ على التهكم (أي: الاستهزاء) ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ أي: إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أن الله تعالى نزل عليك الذكر، أي القرآن.

(٧) ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ليصدِّقوك ويعضُدوك (أي: يعينوك) على الدعوة. أو للعقاب على

تكذيبنا لك كما أتت الأمم المكذبة قبلُ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾ في دعواك.

(٨) ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق، أي بالوجه الذي قدَّره واقتضته حكمته جلَّ وعلا. ولا حكمة في أن تأتيكم بصورٍ تشاهدونها، فإنه لا يزيدكم إلا لبساً (أي: اختلاطاً)، ولا في معاجلتكم بالعقوبة، فإن منكم ومن ذراريكم من سبقت كلمتنا له بالإيمان ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ أي: ولو نزَّلنا الملائكة ما كانوا منظَرين.

(٩) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ ردٌّ لإنكارهم واستهزائهم ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ أي: من التحريف والزيادة والنقص، بأن جعلناه معجزاً مبايناً لكلام البشر، بحيث لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان. أو نفيُ تطرُّق الخلل إليه في الدوام بضمان الحفظ له. كما نفى أن يُطعن فيه بأنه المُنزِل له. وقيل: الضمير في ﴿لَهُ﴾ للنبي ﷺ.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾ أي: في فِرَقهم. جمع شيعة، وهي الفرقة المتفقة على طريق ومذهب. والمعنى: نبَّأنا رجالاً فيهم وجعلناهم رسلاً فيما بينهم.

(١١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾ كما يفعل هؤلاء، وهو تسليةٌ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام.

(١٢) ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ ندخله ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢﴾ (أقول: أي ندخله في قلوب الذين تعلَّقت إرادتنا ومشيئتنا بإهلاكهم) وفيه دليل على أن الله تعالى يوجد الباطل في قلوبهم.

(١٣) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ أي: سنة الله تعالى فيهم بأن خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم. أو بإهلاك من كذَّب الرسل منهم، فيكون وعيداً لأهل مكة.

(١٤) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء المقترِحين ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤﴾ يصعدون إليها ويرَون عجائبها طول نهارهم مستوضحين لما يرون. أو تصعد الملائكة وهم يشاهدونهم.

(١٥) ﴿لَقَالُوٓاْ﴾ من غلوِّهم في العناد وتشكيكهم في الحق ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ سُدَّتْ عن الإبصار بالسحر ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾ قد سَحَرنا محمد ﷺ بذلك، كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

(١٦) ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا**﴾ اثني عشر، مختلفة الهيئات والخواص، على ما دلَّ عليه الرصد (أي: علم الأرصاد) والتجربة ﴿**وَزَيَّنَّٰهَا**﴾ بالأشكال والهيئات البهيّة ﴿**لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾**﴾ المعتبرين المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها.

(١٧) ﴿**وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾**﴾ فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس إلى أهلها ويتصرف في أمرها ويطَّلع على أحوالها.

(١٨) ﴿**إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ**﴾ استراقُ السمع: اختلاسُه سرّاً. شبَّه به خطفتهم اليسيرة من قُطّان (أي: سكان) السماوات لِما بينهم من المناسبة في الجواهر. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنهم كانوا لا يُحجَبون عن السماوات، فلما وُلد عيسى عليه الصلاة والسلام مُنعوا من ثلاث سماوات، فلما وُلد محمد ﷺ مُنعوا من كلها بالشهُب ﴿**فَأَتْبَعَهُۥ**﴾ فتبعه ولحقه ﴿**شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾**﴾ ظاهرٌ للمبصِرين. والشهاب: شعلة نار ساطعة.

(١٩) ﴿**وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا**﴾ بسطناها ﴿**وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ**﴾ جبالاً ثوابت ﴿**وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا**﴾ في الأرض، أو فيها وفي الجبال ﴿**مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾**﴾ مقدَّر بمقدار معيَّن تقتضيه حكمته جل وعلا، أو مستحسَن متناسب.

(٢٠) ﴿**وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ**﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس ﴿**وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾**﴾ يريد به العيال والخدم والمماليك وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم ظناً كاذباً، فإن الله تعالى يرزقهم وإياهم. والتفرُّدُ في الألوهية والامتنانُ على العباد بما أنعم عليهم في ذلك ليوحِّدوه ويعبدوه. ثم بالغَ في ذلك وقال:

(٢١) ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ**﴾ أي: وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وُجد منه، فضرَبَ الخزائن مثلاً لاقتداره، أو شبَّه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يُحوِج إخراجُها إلى كلفة واجتهاد ﴿**وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ**﴾ من يَفاعٍ (أي: علوّ) القدرة ﴿**إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾**﴾ حدَّته الحكمة وتعلقت به المشيئة، فإن تخصيص بعضها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتملاً على بعض الصفات والحالات لا بدَّ له من مخصِّص حكيم.

(٢٢) ﴿**وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ**﴾ أي: حوامل. شبَّه الريح التي جاءت بخير من إنشاء سحاب ماطر بالحامل، كما شبه ما لا يكون كذلك بالعقيم. أو ملقِّحاتٍ للشجر أو السحاب ﴿**فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً**

﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سقيا **﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾** قادرين متمكنين من إخراجه. نفى عنهم ما أثبته لنفسه. أو حافظين في الغدران (جمعُ غدير: وهو النهر الصغير) والعيون والآبار. وذلك أيضاً يدل على المدبِّر الحكيم، كما تدل حركة الهواء في بعض الأوقات من بعض الجهات على وجه ينتفع به الناس. فإن طبيعة الماء تقتضي الغور (أي: الذهاب في الأرض)، فوقوفه دون حدٍّ لا بدَّ له من مخصِّص (وهو الحكيم القادر).

(٢٣) **﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾** بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها **﴿وَنُمِيتُ﴾** بإزالتها. وقد أُوِّلَت الحياة بما يعمُّ الحيوان والنبات **﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾** الباقون إذا ماتت الخلائق كلها.

(٢٤) **﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾** مَن استقدم ولادةً وموتاً ومن استأخر، أو مَن خرج من أصلاب الرجال ومَن لم يخرج بعدُ، أو مَن تقدَّم في الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة ومن تأخر، لا يخفى علينا شيء من أحوالكم. وهو بيانٌ لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه (أقول: لا بد للمؤمن أن يستحيي من علم الله تعالى الذي يعمُّ الحال والماضي والمستقبل، فحقُّ المؤمن أن يتفكَّر في ذلك). وقيل: رغَّب رسول الله ﷺ في الصف الأول فازدحموا عليه فنزلت.

وقيل: إن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ، فتقدَّم بعض القوم لئلا ينظر إليها، وتأخر بعض ليبصرها، فنزلت [أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي].

(٢٥) **﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾** لا محالة للجزاء **﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾** باهر الحكمة، متقنٌ في أفعاله **﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾** وسِعَ علمُه كلَّ شيء.

(٢٦) **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾** من طين يابس يُصلصِل، أي: يصوِّت إذا نُقِر **﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾** طينٍ تَغيَّر واسودَّ من طول مجاورة الماء **﴿مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾** أي: مصبوب لييبس ويتصوَّر. كأنه أفرغ الحَمأ فصوَّر منها تمثالَ إنسان أجوفَ، فيبس حتى إذا نُقر صَلْصَل، ثم غَيَّر ذلك طوراً بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه (أقول: لا نافخ ولا منفوخ، بل بالإرادة).

(٢٧) **﴿وَٱلْجَآنَّ﴾** أبا الجنِّ، وقيل إبليس. ويجوز أن يراد به الجنس كما هو الظاهر من الإنسان، لأنَّ تشعب الجنس لَمَّا كان من شخص واحد خُلق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقاً منها **﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾** من قبل خلق الإنسان **﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾** من نار الحر الشديد النافذ في المسام. ومساقُ الآية كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر، وهو قبول المواد للجمع والإحياء.

(٢٨) **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾** واذكر وقت قوله **﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾**.

(٢٩) **﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾** عدَّلتُ خِلقته وهيأته لنفخ الروح فيه **﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾** (وجعلت فيه الروح وأحييته، وليس ثمة نفخ، وإنما هو تمثيل، والإضافة للتخصيص [النسفي]) **﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾** فاسقطوا له **﴿سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾** (أقول: أضاف الروح إليه سبحانه على سبيل التشريف والتكريم، كقوله: ناقةَ الله).

(٣٠) **﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾** أكّد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ومنْعِ التخصيص.

(٣١) **﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾** أي: لكن إبليس أبى.

قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾

(٣٢) ﴿**قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ**﴾ أيُّ غرضٍ لك في أن لا تكون ﴿**مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾**﴾ لآدم.

(٣٣) ﴿**قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ**﴾ أي: لا يصحُّ مني وينافي حالي أن أسجد ﴿**لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾**﴾ وهو أخسُّ العناصر، وخلقتني من نار وهي أشرفها. استنقصَ آدمَ عليه السلام باعتبار النوع والأصل.

(٣٤) ﴿**قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا**﴾ من السماء، أو الجنة، أو زمر الملائكة ﴿**فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾**﴾ مطرودٌ من الخير والكرامة. فإن من يُطرد يُرجم بالحجر. أو شيطانٌ يُرجم بالشهب. وهو وعيدٌ يتضمن الجواب عن شبهته.

(٣٥) ﴿**وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ**﴾ هذا الطردَ والإبعاد ﴿**إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾**﴾ فإنه منتهى أمدِ اللعن، فإنه يناسب أيام التكليف، ومنه زمان الجزاء.

(٣٦) ﴿**قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ**﴾ فأخِّرني ﴿**إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾**﴾ أراد أن يجد فسحةً في الإغواء، أو نجاة من الموت، إذ لا موت بعد وقت البعث. فأجابه إلى الأول دون الثاني.

(٣٧) ﴿**قَالَ**﴾ (الربُّ سبحانه) ﴿**فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾**﴾ (أي: إنك من جملة الذين أخَّرتُ آجالهم أزلًا، حسبما تقتضيه حكمة التكوين [المقتطف من عيون التفاسير]).

(٣٨) ﴿**إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾**﴾ المسمى فيه أجلُك عند الله تعالى، أو انقراض الناس كلهم، وهو النفخة الأولى عند الجمهور؛ وهذه المخاطبة وإن لم تكن بواسطة لم تدلَّ على علوِّ منصب إبليس، لأن خطاب الله تعالى له على سبيل الإهانة والإذلال.

(٣٩) ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي**﴾ الباء للقسَم، والمعنى: أُقسِمُ بإغوائك إياي. وقيل: الباء للسببية، والمعنى: بسبب إغوائك إياي ﴿**لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ لأزيننَّ لهم المعاصي في الدنيا التي هي دار الغرور ﴿**وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾**﴾ ولأحملنَّهم أجمعين على الغواية.

(٤٠) ﴿**إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾**﴾ الذين أخلصتهم لطاعتك وطهَّرتهم من الشوائب، فلا يعمل فيهم كيدي (اللهم اجعلنا من المخلصين).

(٤١) ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ حقٌّ علي أن أراعيه ﴿مُسْتَقِيمٌ ۝٤١﴾ لا انحراف عنه. والإِشارةُ إلى ما تضمنه الاستثناء؛ وهو تخليص المخلَصين من إغوائه.

(٤٢) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ تصديقٌ لإِبليس فيما استثناه، وتغيير الوضع لتعظيم المُخْلَصِينَ، ولأن المقصود بيانُ عصمتهم وانقطاع مخالب الشيطان عنهم. أو تكذيبٌ له فيما أوهَمَ أن له سلطاناً على من ليس بمخلَص من عباده، فإن منتهى تزيينه التحريضُ والتدليسُ، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

(٤٣) ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ لموعد الغاوين أو المتبِّعين ﴿أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾.

(٤٤) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ يدخلون منها لكثرتهم. أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة، وهي: جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من الأتباع ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾ أُفرِز له؛ فأعلاها للموحِّدين العصاة، والثاني للنصارى، والثالث لليهود، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين.

(٤٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من اتِّباعه في الكفر والفواحش، فإن غيرَها مكفَّرة ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾ لكل واحد جنة وعين، أو لكلٍّ عِدَّةٌ منهما.

(٤٦) ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ سالمين، أو مسلَّما عليكم ﴿ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ من الآفات والزوال.

(٤٧) ﴿وَنَزَعْنَا﴾ في الدنيا بما أُلِّف بين قلوبهم. أو في الجنة بتطييب نفوسهم ﴿مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ من حقدٍ كان في الدنيا. أو من التحاسد على درجات الجنة ومراتب القرب. وعن علي رضي الله تعالى عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم (أقول: هذا مَن ثبتت له الشهادةُ والجنة على لسان الرسول ﷺ يقول بدعائه: أرجو... فالذين يغترون في الدنيا بأعمالهم وأموالهم وأولادهم عليهم أن يقتدوا بما قاله سيدنا علي رضي الله تعالى عنه. لو نزنُ أعمالنا بالقرآن نجدها كلها معلولة، فإذا مُدح الإنسان بكلمة واحدة يغترُّ بها. ولذا وُضع التصوف لكسر مخالفات الطبيعة البشرية) ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧﴾ (وفي كونهم على سُرُرٍ إشارة إلى أنهم في رفعة وكرامة، وجهُ بعضهم لبعض، وهذا معنى التقابل. وروي عن مجاهد رحمه الله تعالى أن الأسرَّة تدور بهم حيثما داروا [المقتطف من عيون التفاسير]).

(٤٨) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ (أي: تعبٌ) ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨﴾ فإن تمام النعمة بالخلود.

(٤٩) ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ (أخبر عبادي المؤمنين والكافرين) ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ .

(٥٠) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ وفي ذكر المغفرة دليلٌ على أنه لم يُردْ بالمتقين من يتقي الذنوب بأسرها كبيرها وصغيرها. وفي توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيحُ الوعد وتأكيده.

(٥١) ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ (وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكاً [النسفي]).

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

(٥٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ خائفون، وذلك لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت. أو لأنهم امتنعوا من الأكل. والوجلُ: اضطراب النفس لتوقُّع ما تكره.

(٥٣) ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ فإن المبَشِّر لا يُخافُ منه ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاق عليه السلام ﴿عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ إذا بلغ.

(٥٤) ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ تعجَّبَ من أن يولد له مع مسِّ الكبَر إياه ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: فبأي أعجوبة تبشِّروني؟

(٥٥) ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بما يكون لا محالة، أو باليقين الذي لا لبس فيه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ من الآيسين من ذلك، فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ وعجوزٍ عاقر؟ وكان استعجابُ إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة، ولذلك:

(٥٦) ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: المخطئون طريق المعرفة، فلا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمالَ علمه وقدرته.

(٥٧) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: فما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة. ولعله علمَ أن كمال المقصود ليس البشارة، لأنهم كانوا عدداً، والبشارةُ لا تحتاج إلى العدد.

(٥٨) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ يعني قوم لوط.

(٥٩) ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ والمعنى: إنَّا أُرْسِلْنا إلى قَوْمٍ أجرَمَ كلهم إلا آل لوط منهم، لنهلك المجرمين وننجي آل لوط، ويدلُّ عليه قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: مما نُعذب به القوم.

(٦٠) ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ الباقين مع الكفرة لتَهلك معهم.

(٦١-٦٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ تُنكِرُكم نفسي وتنفرُ عنكم مخافة أن تطرقوني بِشَرٍ.

(٦٣) ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما يسرُّك

ويشفي لك من عدوِّك؛ وهو العذاب الذي توعَّدتَهم به فيمترون (أي: يشكُّون) فيه.

(٦٤) ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤﴾ فيما أخبرناك به.

(٦٥) ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فاذهب بهم ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في طائفة من الليل ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ وكنْ على أثرهم تذودهم (أي: تدفعهم) وتسْرعُ بهم وتطَّلع على حالهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لينظر ما وراءه فيرى من الهول (أي: الأمر الشديد) ما لا يطيقه، أو فيصيبه ما أصابهم. أو ولا ينصرف أحدكم ولا يتخلف امرؤ لغرض فيصيبه العذاب ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ٦٥﴾ إلى حيث أمركم الله تعالى بالمضي إليه، وهو الشام أو مصر.

(٦٦) ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: وأوحينا إليه مقضياً ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ وهو مبهمٌ، يفسّرُه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ أي: أنهم يُستأصَلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿مُّصْبِحِينَ ٦٦﴾ داخلين في الصبح.

(٦٧) ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ سدوم (اسم إحدى القرى التي خسفها الله تعالى بأهلها) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ٦٧﴾ بأضياف لوط طمعاً فيهم.

(٦٨) ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ٦٨﴾ بفضيحة ضيفي، فإن من أُسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه.

(٦٩) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ركوب الفاحشة ﴿وَلَا تُخْزُونِ ٦٩﴾ ولا تذلوني بسببهم. أو ولا تخجلوني فيهم.

(٧٠) ﴿قَالُوٓاْ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٠﴾ عن أن تجير منهم أحداً أو تمنع بيننا وبينهم. فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان لوط يمنعهم عنه بقدر وسعه. أو عن ضيافة الناس وإنزالهم.

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

(٧١) ﴿**قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ**﴾ يعني نساء القوم، فإن نبيَّ كلِّ أمة بمنزلة أبيهم ﴿**إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾**﴾ قضاءَ الوطرِ أو ما أقول لكم.

(٧٢) ﴿**لَعَمۡرُكَ**﴾ قسَمٌ بحياة المخاطَب. والمخاطَبُ في هذا القسَم هو النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وقيل لوط عليه السلام، قالت الملائكة له ذلك ﴿**إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ**﴾ لفي غِوايتهم أو شدة غَلمتهم (أي: شهوتهم) التي أزالت عقولهم وتمييزَهم بين خطئهم والصواب الذي يشار به إليهم (أقول: كل إنسان له جنون، وجنون الشباب أشدُّ وأقبح بسبب شهوتهم. الجنون فنون، والجنون بقدر الهوى، وهذا الهوى يأتي من الشباب) ﴿**يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾**﴾ يتحيرون، فكيف يسمعون نصحك!

(٧٣) ﴿**فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ**﴾ يعني صيحةٌ هائلة مهلكة. وقيل: صيحة جبريل عليه السلام. ﴿**مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾**﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

(٧٤) ﴿**فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا**﴾ عاليَ المدينة أو عالي قراهم ﴿**سَافِلَهَا**﴾ فصارت منقلبة بهم ﴿**وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾**﴾ من طينٍ متحجِّر. أو طين عليه كتاب من السجلِّ (أي: مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به).

(٧٥) ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾**﴾ للمتفكِّرين المتفرسين الذين يتثبَّتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسِمَته (أي: بعلامته).

(٧٦) ﴿**وَإِنَّهَا**﴾ وإن المدينة أو القرى ﴿**لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾**﴾ ثابتٍ يسلكه الناس ويرون آثارها.

(٧٧) ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾**﴾ بالله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام.

(٧٨) ﴿**وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾**﴾ هم قوم شعيب عليه السلام، كانوا يسكنون الغيضة (أي: الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف) فبعثه الله تعالى إليهم فكذبوه فأُهلكوا بالظُّلَّة (وهو عذابهم بسحابة أمطرتهم ناراً فاحترقوا). والأَيْكةُ: الشجر المتكاثف.

(٧٩) ﴿**فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ**﴾ بالإهلاك ﴿**وَإِنَّهُمَا**﴾ يعني سدوم والأيكة. وقيل: الأيكة ومدين. فإنه كان مبعوثاً إليهما، فكان ذكرُ إحداهما منبِّهاً على الأخرى ﴿**لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾**﴾ لبطريق واضح.

(٨٠) ﴿**وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾**﴾ يعني ثمود، كذَّبوا صالحاً. ومن كذَّب واحداً من

الرسل فكأنما كذَّب الجميع. ويجوز أن يكون المراد بالمرسلين صالحاً ومن معه من المؤمنين. والحِجْر: وادٍ بين المدينة والشام يَسْكنونه.

(٨١) ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾ يعني آيات الكتاب المنزل على نبيهم، أو معجزاته؛ كالناقة وسَقيها وشربها ودرِّها. أو ما نُصب لهم من الأدلة.

(٨٢) ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لوثاقتها (أي: لقوتها)، أو من العذاب لفرط غفلتهم، أو حسبانهم أن الجبال تحميهم منه.

(٨٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ (أي: العذاب) ﴿مُصْبِحِينَ ۝٨٣﴾ (في اليوم الرابع وقت الصبح [النسفي]).

(٨٤) ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعُدد.

(٨٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق، لا يلائم استمرار الفساد ودوام الشرور، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء وإزاحة إفسادهم من الأرض ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ﴾ فينتقم الله تعالى لك فيها ممن كذبكَ ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ ولا تعجل بالانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم.

(٨٦) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ﴾ الذي خلقك وخلقهم، وبيده أمرك وأمرهم ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾ بحالك وحالهم، فهو حقيق بأن تكِل ذلك إليه ليحكم بينكم. أو هو الذي خلقكم وعلمَ الأصلح لكم، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا﴾ سبع آيات وهي الفاتحة. وقيل: سبعَ سُور وهي الطوال وسابعتها «الأنفال» و «التوبة» فإنهما في حكم سورة، ولذلك لم يُفصل بينهما بالتسمية ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ المثاني: من التثنية أو الثناء؛ فإن كل ذلك مَثنى تُكرَّرُ قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه. أو مُثنى عليه بالبلاغة والإعجاز، أو مُثنى على الله تعالى بما هو أهله من صفاته العظمى وأسمائه الحسنى ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ إن أريد بالسبع الآياتُ أو السورُ.

(٨٨) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمحْ ببصرك طموح راغبٍ ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار، فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيتَه، فإنه كمالٌ مطلوبٌ بالذات، مُفْضٍ إلى دوام اللذات ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم لم يؤمنوا ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ وتواضعْ لهم وارفقْ بهم.

(٨٩) ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾ أنذركم ببيانٍ وبرهانٍ أنَّ عذاب الله تعالى نازلٌ بكم إن لم تؤمنوا.

(٩٠) ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾ مثل العذاب الذي أنزلناه عليهم. والمقتسمون هم الإثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم لينفِّروا الناس عن الإيمان بالرسول ﷺ فأهلكهم الله تعالى يوم بدر. وقيل: المقتسمون هم أهل الكتاب.

ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

سُورَةُ النَّحْلِ ١٦ — ١٢٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

(٩١) ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أجزاء. وقيل: أسحاراً. وعن عكرمة رحمه الله تعالى: العِضَةُ: السِّحر؛ حيث قالوا عناداً: بعضه حقٌّ موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطلٌ مخالف لهما. أو قسَّموه إلى شِعر وسِحر وكهانة وأساطير الأولين.

(٩٢-٩٣) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ من التقسيم، أو النسبة إلى السحر، فنجازيهم عليه. وقيل: هو عامٌّ في كل ما فعلوا من الكفر والمعاصي.

(٩٤) ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به. أو فافرُقْ به بين الحق والباطل ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ ولا تلتفت إلى ما يقولون.

(٩٥) ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ بقمعهم (أي: بقهرهم) وإهلاكهم.

(٩٦) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ عاقبة أمرهم في الدارين.

(٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك.

(٩٨) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافزعْ إلى الله تعالى فيما نابَكَ بالتسبيح والتحميد يكفِكَ ويكشف الغم عنك. أو فنزِّهه عمّا يقولون حامداً له على أنْ هداك للحق ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ من المصلين. وعنه عليه الصلاة والسلام: «أنه كان إذا حَزبه أمر فزع إلى الصلاة» [رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى].

(٩٩) ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ أي: الموت، فإنه متيقَّنٌ لحاقُهُ كلَّ حيٍّ مخلوق. والمعنى: فاعبده ما دمت حياً، ولا تخلَّ بالعبادة لحظة. والله تعالى أعلم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الحجر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النحل

مكيَّة غير ثلاث آيات في آخرها، وهي مئة وثمان وعشرون آية

(١) ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ﴾ كانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول ﷺ من قيام الساعة، أو

إهلاك الله تعالى إياهم كما فعل يوم بدر استهزاءً وتكذيباً، ويقولون إن صح ما تقوله فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت، والمعنى أن الأمر الموعود به بمنزلة الآتي المتحقق من حيث إنه واجب الوقوع، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه.أو على أن الخطاب للمؤمنين أو لهم ولغيرهم ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾ تبرأ وجلَّ عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم.

(٢) ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ بالوحي أو القرآن، فإنه يحيي به القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ بأمره أو من أجله ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ أن يتخذه رسولاً ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ بأن أنذروا أي: اعلموا ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ أن الشأن: لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ؛ أو خوفوا أهل الكفر والمعاصي بأنه لا إِلهَ إِلَّا أَنَا، وقوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود.

والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة وأن حاصله التنبيه على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمال القوة العملية. وأن النبوة عطائية والآيات التي بعدها دليل على وحدانيته من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾ منهما أو مما يفتقر في وجوده أو بقائه إليهما ومما لا يقدر على خلقهما. وفيه دليل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام (أقول: كل شيء يخطر على القلب فالله بخلافه. قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(٤) ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ جماد لا حس بها ولا حراك سيالة لا تحفظ الوضع والشكل ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ﴾ منطيق (أي بليغ) مجادل ﴿مُّبِينٞ ۝٤﴾ للحجة أو خصيم لخالقه قائل: مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. روي أن أُبَي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم رميم (أي: بالٍ) وقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمّ. فنزلت.

(٥) ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ﴾ وخلقها لكم بيان ما خلقت لأجله وما بعده تفصيل له ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾ ما يدفأ به فيقي البرد ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ نسلها ودرها وظهورها ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾ أي: تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان

(٦) ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾ تخرجونها بالغداة إلى المراعي فإن الأفنية (الساحات أمام الدور) تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين إليها، وتقديم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر فإنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع، ثم تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها.

وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾

(٧) ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ أحمالكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ أي: إن لم تكن الأنعام ولم تخلق فضلاً أن تحملوها على ظهوركم إليه ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ إلا بكلفة ومشقة ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾﴾ حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم وتيسير الأمر عليكم.

(٨) ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾ عطف على الأَنعامَ ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ أي: لتركبوها وتتزينوا بها زينة ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ لما فصل الحيوانات التي يحتاج إليها غالباً احتياجاً ضرورياً أو غير ضروري أجمل غيرها، ويجوز أن يكون إخباراً بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به، وأن يراد به ما خلق في الجنة والنار مما لم يخطر على قلب بشر.

(٩) ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحق، أو إقامة السبيل وتعديلها رحمة وفضلاً، أو عليه قصد السبيل يصل إليه من يسلكه لا محالة ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ حائد عن القصد أو عن الله تعالى، وتغيير الأسلوب لأنه ليس بحق على الله تعالى أن يبين طرق الضلالة، أو لأن المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل إلى القصد (الاستقامة) والجائر (المخالف) إنما جاء بالعرض ﴿وَلَوۡ شَآءَ﴾ الله تعالى ﴿لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ أي: ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل هداية مستلزمة للاهتداء.

(١٠) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السحاب أو من جانب السماء ﴿مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾ ما تشربونه ﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ﴾ ومنه يكون شجر يعني الشجر الذي ترعاه المواشي. وقيل كل ما نبت على الأرض شجر ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ ترعون مواشيكم.

(١١) ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ على وجود الصانع جل وعلا وحكمته، فإن من تأمل أن الحبة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة (أي: رطوبة) تنفذ فيها، فينشق أعلاها ويخرج منه ساق الشجرة، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها. ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطباع مع اتحاد المواد ونسبة الطبائع السفلية والتأثيرات الفلكية إلى الكل، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد سبحانه وتعالى.

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ﴾ بأن هيَّأها لمنافعكم ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ خلقها ودبَّرها كيف شاء، أو لما خلقن له بإيجاده وتقديره أو لحكمه (قال في روح البيان: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ مبتدأ وخبر، أي: سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها مُسخَّرات، أي: مُذَلَّلات لله تعالى خلقها ودبَّرها كيف شاء، أو لما خلقْنَ له، بأمره، أي: بارادته ومشيئته؛ وحيث لم يكن عَوْدُ منافع النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من المَلَوَيْنِ [أي: الليل والنهار] والقمرين [أي: الشمس والقمر] لم ينسب تسخيرها إليهم بأداة الاختصاص، بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملوكته تعالى، من غير دلالة على شيء آخر، ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالَّة على الحدوث، إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ جمع الآية وذكر العقل لأنها تدل أنواعاً من الدلالة ظاهرةً لذوي العقول السليمة غير محوجة إلى استيفاء فكر كأحوال النبات.

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وسخَّر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أصنافه فإنها تتخالف باللون غالباً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ إن اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلا بصنع صانع حكيم جل وعلا.

(١٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والاصطياد والغوص ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك، ووصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم يسرع إليه الفساد فيسارع إلى أكله، ولإظهار قدرته في خلقه عذباً طرياً في ماء زعاق (أي: مالح) ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان أي تلبسها نساؤكم، فأسند إليهم لأنهن من جملتهم ولأنهن يتزين بها لأجلهم ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواري فيه تشقه بحيزومها (أي: بوسط صدورها)، من المَخْر، وهو شق الماء. وقيل: صوت جري الفلك ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: تعرفون نعم الله تعالى فتقومون بحقها، ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى في باب الإنعام من حيث إنه جعل المهالك سبباً للانتفاع وتحصيل المعاش.

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

(١٥) ﴿**وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ**﴾ جبالاً رواسي ﴿**أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب. وقيل: لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تمور (تتحرك) فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ﴿**وَأَنْهَٰرًا**﴾ وجعل فيها أنهاراً ﴿**وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾**﴾ لمقاصدكم، أو إلى معرفة الله سبحانه وتعالى.

(١٦) ﴿**وَعَلَٰمَٰتٍۚ**﴾ معالم يَستدل بها السابلة (المسافرون) من جبل وسهل وريح ونحو ذلك ﴿**وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾**﴾ بالليل في البراري والبحار، والمراد بالنجم الجنس. وقيل: الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي، ولعل الضمير لقريش لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء في مسايرهم بالنجوم.

(١٧) ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ**﴾ إنكار بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وتناهي حكمته، والتفرد بخلق ما عدد من مبدعاته لأن يساويه ويستحق مشاركته ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك بل على إيجاد شيء ما، والمراد بمن لا يخلق كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلَّباً فيه أولو العلم منهم أو الأصنام، وكأنه قيل: إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده ﴿**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾**﴾ فتعرفوا فساد ذلك فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بأدنى تذكر والتفات.

(١٨) ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ**﴾ لا تضبطوا عددها فضلا أن تطيقوا القيام بشكرها، أتبع ذلك تعداد النعم وإلزام الحجة على تفرده باستحقاق العبادة تنبيهاً على أن وراء ما عَدَّدَ نعماً لا تنحصر، وأن حق عبادته تعالى غير مقدور ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ**﴾ حيث يتجاوز عن التقصير في أداء شكرها ﴿**رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾**﴾ لا يقطعها لتفريطكم فيه ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها.

(١٩) ﴿**وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾**﴾ من عقائدكم وأعمالكم.

(٢٠) ﴿**وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ أي: والآلهة الذين تعبدونهم من دونه ﴿**لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا**﴾ لما نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق بيّن أنهم لا يخلقون شيئاً لينتج أنهم لا يشاركونه، ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم

صفات تنافي الألوهية فقال: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾ لأنهم ذوات ممكنة مفتقرة الوجود إلى التخليق، والإله ينبغي أن يكون واجب الوجود.

(٢١) ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ هم أموات لا تعتريهم الحياة، أو أموات حالاً أو مآلاً ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ بالذات ليتناول كل معبود، والإله ينبغي أن يكون حياً بالذات لا يعتريه المات ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ ولا يعلمون وقت بعثهم، أو بعث عبدتهم فكيف يكون لهم وقت جزاء على عبادتهم، والإله ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب مقدراً للثواب والعقاب، وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف.

(٢٢) ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ تكرير للمدعى بعد إقامة الحجج ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ بيان لما اقتضى إصرارهم بعد وضوح الحق وذلك عدم إيمانهم بالآخرة، فإن المؤمن بها يكون طالباً للدلائل متأملاً فيما يسمع فينتفع به، والكافر بها يكون حاله بالعكس وإنكار قلوبهم ما لا يعرف إلا بالبرهان إتباعاً للأسلاف وركوناً إلى المألوف، فإنه ينافي النظر ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢﴾ عن اتباع الرسول ﷺ وتصديقه والالتفات إلى قوله.

(٢٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ فيجازيهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾ فضلاً عن الذين استكبروا عن توحيده أو اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٢٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ القائل بعضهم على التهكم أو الوافدون عليهم أو المسلمون ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ أي: ما تدعون نزوله أساطير الأولين

(٢٥) ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس فحملوا أوزار ضلالهم كاملة فإن إضلالهم نتيجة رسوخهم في الضلال ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ وبعض أوزار ضلال من يضلونهم وهو حصة التسبب ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم، إذ كان عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق والمبطل ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ بئس شيئاً يزرونه فعلهم.

(٢٦) ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: سووا منصوبات (أي: حيل) ليمكروا بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ فأتاها أمره من جهة العمد التي بنوا عليها بأن ضُعضِعت (أي: هدمت حتى الأرض) ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ وصار سبب هلاكهم ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ لا يحتسبون ولا يتوقعون، وهو على سبيل التمثيل. وقيل: المراد به نمروذ بن كنعان، بنى الصرح ببابل سمكه خمسة آلاف ذراع ليترصَّد أمر السماء، فأهبَّ الله تعالى الريح فخرَّ عليه وعلى قومه فهلكوا.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

(٢٧) ﴿**ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ**﴾ يذلهم أو يعذبهم بالنار كقوله تعالى: ﴿رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] ﴿**وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ**﴾ أضاف إلى نفسه استهزاء، أو حكاية لإضافتهم زيادة في توبيخهم ﴿**ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ**﴾ تعادون المؤمنين في شأنهم. ومشاقة المؤمنين كمشاقة الله عز وجل (أقول: هذا يدل على حرمة المؤمن) ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ**﴾ أي: الأنبياء والعلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد فيشاقونهم ويتكبرون عليهم، أو الملائكة ﴿**إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ**﴾ الذلة والعذاب ﴿**عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾**﴾ وفائدة قولهم إظهار الشماتة بهم وزيادة الإهانة، وحكايته لأن يكون لطفاً ووعظاً لمن سمعه.

(٢٨) ﴿**ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ**﴾ بأن عرضوها للعذاب المخلد ﴿**فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ**﴾ فسالموا وأخبتوا حين عاينوا الموت قائلين ﴿**مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ**﴾ كفر وعدوان ﴿**بَلَىٰٓ ۚ**﴾ أي: فتجيبهم الملائكة: بلى ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾**﴾ فهو يجازيكم عليه، وقيل قوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ إلى آخر الآية استئناف ورجوع إلى شرح حالهم يوم القيامة ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ﴾ بأنا لم نكن في زعمنا واعتقادنا عاملين سوءاً، واحتمل أن يكون الراد عليهم هو الله تعالى، أو أولوا العلم.

(٢٩) ﴿**فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ**﴾ كل صنف بابها المعد له، وقيل: أبواب جهنم أصناف عذابها ﴿**خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾**﴾ جهنم.

(٣٠) ﴿**وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟**﴾ يعني المؤمنين ﴿**مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ**﴾ أي: أنزل خيراً، معترفين بالإنزال على خلاف الكفرة. روي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد من المقتسمين (الذين اقتسموا مداخل مكة لينفِّروا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام) قالوا له ما قالوا وإذا جاء المؤمنين قالوا له ذلك ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ**﴾ مكافأة في الدنيا ﴿**وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ**﴾ أي: ولثوابهم في الآخرة خير منها ﴿**وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾**﴾ دار الآخرة.

(٣١) ﴿**جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ**﴾ من أنواع المشتهيات ﴿**كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾**﴾ مثل هذا الجزاء يجزيهم.

(٣٢) ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ. وقيل: فرحين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجُّه نفوسهم بالكليَّة إلى حضرة القدس ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ لا يلحقكم بعد مكروه ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٢﴾ حين تبعثون فإنها معدة لكم على أعمالكم. وقيل: هذا التوفي وفاة الحشر؛ لأن الأمر بالدخول حينئذ.

(٣٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظر الكفار المار ذكرهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابوا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٣٣﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية إليه.

(٣٤) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي: جزاء سيئات أعمالهم على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٤﴾ وأحاط بهم جزاؤه والحيق (أي: ما يشمل الإنسان ويلازمه من مكروه فعله) وهو لا يستعمل إلا في الشر.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٥) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖۚ**﴾ إنما قالوا ذلك استهزاء أو منعاً للبعثة والتكليف متمسكين بأن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع فما الفائدة فيهما، أو إنكاراً لقبح ما أنكر عليهم من الشرك وتحريم البحائر ونحوها (والبَحِيرة: الناقة كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبْطُن شَقُّوا أُذُنَها، وأَعْفَوْها أن يُنْتَفَعَ بها، ولم يمنعوها من مَرْعَى، ولا ماء وقد أبطلها الإسلام) محتجين بأنها لو كانت مستقبحة لما شاء الله تعالى صدورها عنهم ولشاء خلافه ﴿**كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ**﴾ فأشركوا بالله تعالى وحرموا حِلَّه وردُّوا رُسُله ﴿**فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾**﴾ إلا الإبلاغ الموضح للحق وهو لا يؤثر في هدى من شاء الله تعالى هداه لكنه يؤدي إليه على سبيل التوسط، وما شاء الله تعالى وقوعه إنما يجب وقوعه، ثم بين أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها سبباً لهدى من أراد اهتداءه وزيادة لضلال من أراد ضلاله، كالغذاء الصالح فإنه ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المنحرف ويفنيه، بقوله تعالى:

(٣٦) ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ**﴾ أي: يأمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت (وهو كلُّ ما عُبد من دون الله تعالى، أو الشيطان) ﴿**فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ**﴾ وفقهم للإيمان بإرشادهم ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ**﴾ إذ لم يوفقهم ولم يرد هداهم ﴿**فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ يا معشر قريش ﴿**فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾**﴾ من عاد وثمود وغيرهم لعلكم تعتبرون.

(٣٧) ﴿**إِن تَحْرِصْ**﴾ يا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿**عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّۖ**﴾ من يريد ضلاله وهو المعني بمن حقت عليه الضلالة ﴿**وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾**﴾ من ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

(٣٨) ﴿**وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ**﴾ إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين عليه زيادة في البت (أي: القطع) على فساده، ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغ رد فقال: ﴿**بَلَىٰ**﴾ يبعثهم ﴿**وَعْدًا عَلَيْهِ**﴾ إنجازه لامتناع الخلف في وعده سبحانه، أو لأن البعث مقتضى حكمته ﴿**حَقّٗا**﴾ صفة

أخرى للوعد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ أنهم يبعثون إما لعدم علمهم بأنه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناعه، ثم إنه تعالى بين الأمرين فقال:

(٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: يبعثهم لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴿ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو الحق ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ فيما يزعمون، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له من حيث الحكمة، وهو المميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل بالثواب والعقاب ثم قال:

(٤٠) ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ وهو بيان إمكانه وتقريره أن تكوين الله تعالى بمحض قدرته ومشيئته لا توقف له على سبق المواد والمُدد، فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة ومثال أمكن له تكوينها إعادة بعده.

(٤١) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هم رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرون ظلمهم قريش فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وبعضهم إلى المدينة، أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله ﷺ وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل رضي الله تعالى عنهم، وقوله: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في حقه ولوجهه ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ مباءة حسنة وهي المدينة أو تبوئة حسنة ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا. وعن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال له: خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ الضمير للكفار أي: لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم، أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

(٤٢) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الشدائد كأذى الكفار ومفارقة الوطن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾ منقطعين إلى الله تعالى، مفوِّضين إليه الأمر كلَّه.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾

(٤٣) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ رد لقول قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أي جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً يوحي إليه على ألسنة الملائكة، فإن شككتم فيه ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أهل الكتاب أو علماء الأخبار ليُعلموكم (أنهم كانوا رجالًا) ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وفي الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكاً للدعوة العامة وقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. و في الآية دليل على وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.

(٤٤) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ أي: أرسلناهم بالبينات والزبر، أي: المعجزات والكتب، كأنه جواب: قائل قال: بم أرسلوا؟ ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: القرآن وإنما سمي ذكراً لأنه موعظة وتنبيه ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ في الذكر بتوسط إنزاله إليك مما أمروا به ونهوا عنه (أقول: وعلى العاقل أن يتمسك بالكتاب والسنة لأنه سبب خلاصه بعد الموت والحشر، عليكم أن لا تتمسَّكوا بعقلكم الدنيوي الفاسد) ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وإرادة أن يتأملوا فيه فيتنبهوا للحقائق.

(٤٥) ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: المكرات السيئات، وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء، أو الذين مكروا برسول الله ﷺ وراموا صدَّ أصحابه عن الإيمان ﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كما خسف بقارون ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ بغتة من جانب السماء كما فُعل بقوم لوط عليه السلام.

(٤٦) ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ أي: متقلِّبين في مسايرهم ومتاجرهم ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (أي: لا يُعجِزون الله تعالى على أيِّ حال كان [المقتطف]).

(٤٧) ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ على مخافة بأن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون، أو على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة.

(٤٨) ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ استفهام إنكار أي قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالهم لم

يتفكروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه جلَّ وعلا ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي: أو لم ينظروا إلى المخلوقات التي لها ظلال متفيئة ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ عن أيمانها وعن شمائلها أي عن جانبي كل واحد منها ﴿سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ والمراد من السجود الاستسلام سواء كان بالطبع أو الاختيار. والمعنى: ترجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها، أو باختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله تعالى من جانب إلى جانب منقادة لما قدر لها من التفيؤ، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد. والأجرام في أنفسها أيضاً داخرة، أي: صاغرة منقادة لأفعال الله تعالى فيها.

(٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ينقاد انقياداً يعم الانقياد لإرادته وتأثيره طبعاً والانقياد لتكليفه وأمره طوعاً ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض وقوله: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ بيان لهما لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية سواء كانت في أرض أو سماء ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المراد بها ملائكتها من الحفظة وغيرهم ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ عن عبادته.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم، أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، أو بيان له وتقرير لأن من خاف الله تعالى لم يستكبر عن عبادته ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ من الطاعة والتدبير، وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء.

(٥١) ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ ذكر العدد مع أن المعدود يدل عليه دلالة على أن مساق النهي إليه، أو إيماء بأن الاثنينية تنافي الألوهية كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإلهية، أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير.

(٥٢) ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ أي: الطاعة ﴿وَاصِبًاۚ﴾ لازماً لما تقرر من أنه الإله وحده والحقيق (أي: واللائق) بأن يرهب منه. وقيل: واصِباً من الوصب، أي: وله الدين ذا كلفة (أي: مشقة). وقيل: الدين الجزاء، أي: وله الجزاء دائماً لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ولا ضار سواه كما لا نافع غيره كما قال تعالى:

(٥٣) ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: وأيُّ شيء اتصل بكم من نعمة فهو من الله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والجؤار رفع الصوت في الدعاء والاستغاثة.

(٥٤) ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم﴾ وهم كفاركم ﴿بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ بعبادة غيره.

لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾

(٥٥) ﴿**لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ**﴾ من نعمة الكشف عنهم كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، أو إنكار كونها من الله تعالى ﴿**فَتَمَتَّعُواْ**﴾ أمر تهديد ﴿**فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾**﴾ أَغْلَظَ وعيدِهِ.

(٥٦) ﴿**وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ**﴾ أي: لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد، أو التي لا يعلمونها فيعتقدون فيها جهالات مثل أنها تنفعهم وتشفع لهم ﴿**نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ**﴾ من الزروع والأنعام ﴿**تَٱللَّهِ**﴾ (أُقسم لكم أيها المشركون) ﴿**لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾**﴾ من أنها آلهة حقيقة بالتقرب إليها وهو وعيد لهم عليه.

(٥٧) ﴿**وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ**﴾ كانت خزاعة وكنانة يقولون: الملائكة بنات الله ﴿**سُبۡحَٰنَهُۥ**﴾ تنزيه له من قولهم، أو تعجب منه ﴿**وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾**﴾ يعني البنين.

(٥٨) ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ**﴾ أخبر بولادتها ﴿**ظَلَّ وَجۡهُهُۥ**﴾ صار أو دام النهار كله ﴿**مُسۡوَدّٗا**﴾ من الكآبة والحياء من الناس. واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشوير (أي: التخجيل) ﴿**وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾**﴾ مملوءٌ غيظاً من المرأة.

(٥٩) ﴿**يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ**﴾ يستخفي منهم ﴿**مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ**﴾ من سوء المبشَّر به عرفاً ﴿**أَيُمۡسِكُهُۥ**﴾ محدِّثاً نفسه متفكِّراً في أن يتركه ﴿**عَلَىٰ هُونٍ**﴾ ذل ﴿**أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ**﴾ أي: يخفيه فيه ويئده (أي: يدفنه) ﴿**أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾**﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عن الولد ما هذا محلُّه عندهم.

(٦٠) ﴿**لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ**﴾ صفة السوء وهي الحاجة إلى الولد المنادية بالموت واستبقاء الذكور استظهاراً بهم وكراهة الإناث ووأدهنَّ خشية الإملاق (أي: الافتقار. أقول: وردَّ الله تعالى عليهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾ [الإسراء: ٣١]) ﴿**وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ**﴾ وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق والجود الفائق والنزاهة عن صفات المخلوقين ﴿**وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾**﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة.

(٦١) ﴿**وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم**﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿**مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا**﴾ على الأرض ﴿**مِن دَآبَّةٖ**﴾ قط بشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كاد الجُعَل (نوع من الخنفساء) يهلك في جحره

بذنب ابن آدم، أو من دابة ظالمة. وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء ﴿**وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ سماه لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا ﴿**فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٦١**﴾ بل هلكوا أو عذبوا حينئذ لا محالة، ولا يلزم من عموم الناس وإضافة الظلم إليهم أن يكونوا كلهم ظالمين حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لجواز أن يضاف إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم.

(٦٢) ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ**﴾ أي: ما يكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة، والاستخفاف بالرسل وأراذل الأموال ﴿**وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ**﴾ مع ذلك وهو ﴿**أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ**﴾ أي: عند الله تعالى كقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ [فصلت: ٥٠] ﴿**لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ**﴾ رد لكلامهم وإثبات لضده ﴿**وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ٦٢**﴾ مقدَّمون إلى النار.

(٦٣) ﴿**تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ**﴾ فأصروا على قبائحها وكفروا بالمرسلين ﴿**فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ**﴾ أي: في الدنيا. والولي: القرين أو الناصر، فيكون نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣**﴾ في القيامة.

(٦٤) ﴿**وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ**﴾ للناس ﴿**ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ**﴾ من التوحيد والقدر وأحوال المعاد وأحكام الأفعال ﴿**وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٤**﴾.

وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

(٦٥) ﴿**وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾**﴾ سماع تدبُّر وإنصاف.

(٦٦) ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً**﴾ دلالةً يُعبَر بها من الجهل إلى العلم ﴿**نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا**﴾ فإنه يُخلق من بعض أجزاء الدم المتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث؛ وهو الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش. ومَن تدبَّر صنع الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مقارِّها ومجاريها والأسباب المولدة لها والقوى المتصرفة فيها كلَّ وقت على ما يليق به اضطر إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته ﴿**خَالِصًا**﴾ صافياً، لا يستصحب لون الدم ولا رائحة الفرث. أو مُصفًّى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه ﴿**سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾**﴾ سهلَ المرور في حلقهم.

(٦٧) ﴿**وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ**﴾ أي: ونُسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب، أي من عصيرهما ﴿**تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا**﴾ السَّكَرُ: الخمر ﴿**وَرِزْقًا حَسَنًا**﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخل. والآية إن كانت سابقة على تحريم الخمر فدالَّةٌ على كراهتها، وإلا فجامعة بين العتاب والمنَّة. وقيل السَّكَرُ: النبيذ، وقيل: الطُّعْم (أي: الطعام) ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾**﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات.

(٦٨) ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**﴾ ألهمها ﴿**أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾**﴾ ذُكِر بحرف التبعيض لأنها لا تبني في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش (أي: ما يُستظل به) من كرْمٍ أو سقف، ولا في كل مكان منها، وإنما سُمِّيَ ما تبنيه لتعسِّل (أي: تخرج العسل) فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان، لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقوى عليها حُذاق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة. ولعل ذِكره للتنبيه على ذلك.

(٦٩) ﴿**ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**﴾ من كل ثمرة تشتهينها؛ مُرِّها وحلوِها ﴿**فَاسْلُكِي**﴾ ما أكلتِ ﴿**سُبُلَ رَبِّكِ**﴾ في مسالكه التي يُحيل فيها بقدرته النَّوْرَ (أي: الأزهار) المُرَّ عسلاً من أجوافك. أو فَاسْلُكِي الطرق التي ألهمكِ في عمل العسل ﴿**ذُلُلًا**﴾ أي: مذلَّلة، ذلَّلها الله تعالى وسهَّلها لكِ ﴿**يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ**﴾ يعني العسل، لأنه مما يشرب ﴿**مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**﴾ أبيض وأصفر وأحمر وأسود ﴿**فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ**﴾ إما بنفسه أو مع غيره. وعن قتادة أن

رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه، فقال: «اسقه العسل»، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: «اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك» فسقاه فشفاه الله تعالى فبرئ [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ فإن من تدبَّر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حقَّ التدبُّر علِمَ قطعاً أنه لا بدَّ من خالق قادر حكيم يُلهمها ذلك ويحملها عليه.

(٧٠) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ بآجال مختلفة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ يعاد ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أخسِّه؛ يعني الهَرَم الذي يشابه الطفولية في نقصان القوة والعقل ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية في النسيان وسوء الفهم (أقول: ويستثنى من ذلك أهل القرآن، أيْ مَن عمل بأمر القرآن. وقد ورَدَ ذكر أرذل العمر في القرآن مرتين؛ هنا وفي سورة الحج [آية: ٥]، حيث قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ قال الصاوي رحمه الله تعالى في حاشيته على تفسير الجلالين: قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا...﴾ أي: لأجل انتفاء علمه بالأشياء التي كان يعلمها قبل هذه الحالة، فيرجع إلى مبدئه في عدم المعرفة والعلم كالطفل الذي لا يدري شيئاً. قوله: قال عكرمة رحمه الله تعالى: من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة؛ أي: عاملًا به، وكذلك العلماء العاملون لا يصيرون بهذه الحالة، بل كلما ازدادوا في العمر ازدادوا في العلم والمعرفة والعقل كما هو مشاهَد، ولذا قالوا: أعلى كلام العارفين ما صدر في آخر عمرهم) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ يميت الشاب النشيط ويُبقي الهَرِم الفاني. وفيه تنبيه على أن تفاوت آجال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ركَّب أبنيتهم وعدَّل أمزجتهم على قدر معلوم، ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ.

(٧١) ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ فمنكم غنيٌّ ومنكم فقير، ومنكم مَوالي يتولَّون رزقهم ورزق غيرهم ومنكم مماليك حالهم على خلاف ذلك ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ﴾ بمعطي رزقهم ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ على مماليكهم، فإنما يَرُدُّون عليهم رزقهم الذي جعله الله تعالى في أيديهم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ فالموالي والمماليك سواء في أن الله تعالى رزقهم ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ حيث يتخذون له شركاء، فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله تعالى عليهم ويجحدوا أنه من عند الله تعالى، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعد ما أنعم الله تعالى عليهم بإيضاحها.

(٧٢) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: من جنسكم، لتأنسوا بها ولتكون أولادكم مثلكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أي: أولاد أولاد أو بنات، فإن الحافد هو المسرع في الخدمة، والبنات يخدمن في البيوت أتمَّ خدمة (أقول: أما الآن فالحال عكس ذلك، مع أن الشريعة المحمَّدية تدعو النساء إلى بيوتهنَّ) ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من اللذائذ أو الحلالات ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم. أو أن من الطيبات ما يحرِّم كالبحائر (والبَحِيرة: الناقة كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبْطُن شَقُّوا أُذُنَها، وأَعْفَوْها أن يُنْتَفَعَ بها، ولم يمنعوها من مَرْعَى ولا ماء، وقد أبطلها الإسلام) والسوائب (والسائبة: الناقة التي كانت تسيب في الجاهلية لنذر ونحوه، فترعى حيث شاءت) ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ حيث أضافوا نعمه إلى الأصنام، أو حرَّموا ما أحلَّ الله تعالى لهم.

وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾

(٧٣) ﴿**وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا**﴾ من مطر ونبات ﴿**وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾**﴾ أن يتملكوه إذ لا استطاعة لهم أصلاً. أو لا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرِّفون شيئاً من ذلك فكيف بالجماد!

(٧٤) ﴿**فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ**﴾ فلا تجعلوا له مثلاً تشركونه به أو تقيسونه عليه، فإن ضَرْبَ المثل تشبيهُ حال بحال ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ**﴾ فساد ما تعوِّلون (أي: تعتمدون) عليه من القياس ﴿**وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾**﴾ ذلك، ولو علمتموه لما جرأتم عليه. أو أنه يعلم كُنْهَ الأشياء وأنتم لا تعلمونه، فدَعُوا رأيكم دون نصّه.

(٧٥) ﴿**ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ**﴾ مثَّل ما يُشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً، ومثَّل نفسه بالحرِّ المالك الذي رزقه الله تعالى مالاً كثيراً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء، واحتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بين الأصنام التي هي أعجز المخلوقات وبين الله تعالى الغني القادر على الإطلاق. وقيل: هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفَّق، فإن المعنى: هل يستوي الأحرار والعبيد؟ ﴿**ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ**﴾ كل الحمد له، لا يستحقه غيره فضلاً عن العبادة، لأنه مولى النعم كلها ﴿**بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾**﴾ فيضيفون نعمه إلى غيره ويعبدونه لأجلها.

(٧٦) ﴿**وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ**﴾ وُلِد أخرس لا يَفهمُ ولا يُفْهِمُ ﴿**لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ**﴾ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله ﴿**وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ**﴾ عيال وثقلٌ على من يلي أمره ﴿**أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ**﴾ حيثما يرسله مولاه في أمر ﴿**لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ**﴾ بنَجْحٍ وكفايةِ مهمٍّ ﴿**هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ**﴾ ومَن هو فَهِمٌ مِنطيقٌ (أي: بليغ) ذو كفاية ورُشدٍ ينفع الناس بحثهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾**﴾ وهو في نفسه على طريق مستقيم، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعي.

(٧٧) ﴿**وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ**﴾ يختصُّ به علمُه لا يعلمه غيره؛ وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوساً ولم يدل عليه محسوس ﴿**وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ**﴾ وما أمرُ قيام الساعة في سرعته وسهولته ﴿**إِلَّا كَلَمۡحِ**

﴿ٱلۡبَصَرِ﴾ إلا كرَجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ أو أمرُها أقرب منه، بأن يكون في زمان نصف تلك الحركة، بل في الآن الذي يُبتدأ فيه، فإنه تعالى يحيي الخلائق دفعة، وما يوجد دفعة كان في آن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ فيَقدِر أن يحيي الخلائق دفعة كما قَدِرَ أن أحياهم متدرجاً. ثم دلَّ على قدرته فقال:

(٧٨) ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ جُهَّالاً، مستصحبين جهل الجمادية ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ أداةً تتعلمون بها، فتحسون بمشاعركم جزئيات الأشياء فتدركونها، ثم تتنبهون بقلوبكم لمشارَكات ومبايَنات بينها بتكرر الإِحساس حتى تتحصل لكم العلوم البديهية، وتتمكنوا من تحصيل المعالم الكسبية بالنظر فيها ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ كي تعرفوا ما أنعم عليكم طوراً بعد طور فتشكروه.

(٧٩) ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ﴾ مذلَّلات للطيران بما خُلق لها من الأجنحة والأسباب المؤاتية له ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ فيه ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ فإن ثِقلَ جسدها يقتضي سقوطها، ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ تسخير الطير للطيران، بأن خلقها خلقة يمكن معها الطيران، وخلق الجوَّ بحيث يمكن الطيران فيه، وإمساكها في الهواء على خلاف طبعها ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ لأنهم هم المنتفعون بها.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾

(٨٠) ﴿**وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا**﴾ موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر ﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا**﴾ هي القباب المتخَذة من الأدم (أي: الجلد)، ويجوز أن تتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر من حيث إنها نابتة على جلودها يَصدُق عليها أنها من جلودها ﴿**تَسۡتَخِفُّونَهَا**﴾ تجدونها خفيفة، يَخفُّ عليكم حملها ونقلها ﴿**يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ**﴾ وقت ترحالكم ﴿**وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ**﴾ ووضعها أو ضربها وقت الحضر أو النزول ﴿**وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ**﴾ الصوف للضأن والوبر للإبل والشعر للمعز ﴿**أَثَٰثٗا**﴾ ما يُلبس ويُفرش ﴿**وَمَتَٰعًا**﴾ ما يُتَّجر به ﴿**إِلَىٰ حِينٖ ٨٠**﴾ إلى مدة من الزمان، فإنها لصلابتها تبقى مدة مديدة. أو إلى حين مماتكم. أو إلى أن تقضوا منها أوطاركم (أي: حاجاتكم).

(٨١) ﴿**وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ**﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ﴿**ظِلَٰلٗا**﴾ تتقون بها حرَّ الشمس ﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا**﴾ مواضع تسكنون بها؛ من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها ﴿**وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ**﴾ ثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها ﴿**تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ**﴾ خصَّه بالذكر اكتفاء بأحد الضدين، أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم ﴿**وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ**﴾ يعني الدروع والجواشن (الجوشن: الصدر والدرع)، والسربال يعمُّ كل ما يُلبس ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ كإتمام هذه النعم التي تقدمت ﴿**يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١**﴾ أي: تنظرون في نعمه فتؤمنون به وتنقادون لحكمه.

(٨٢) ﴿**فَإِن تَوَلَّوۡاْ**﴾ أعرضوا ولم يقبلوا منك ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢**﴾ فلا يضرُّك، فإنما عليك البلاغ وقد بلَّغتَ.

(٨٣) ﴿**يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ**﴾ أي: يعرف المشركون نعمة الله تعالى التي عدَّدها عليهم وغيرها، حيث يعترفون بها وبأنها من الله تعالى ﴿**ثُمَّ يُنكِرُونَهَا**﴾ بعبادتهم غير المنعِم بها، وقولهم إنها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا. أو بإعراضهم عن أداء حقوقها. وقيل: نعمةُ الله تعالى نبوَّة محمد ﷺ (أقول: ليس هناك نعمة أفضل ولا أكبر من هذه النعمة) عرفوها بالمعجزات ثم أنكروها عناداً ﴿**وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣**﴾ الجاحدون عناداً.

وذكرَ الأكثر إما لأن بعضهم لم يعرف الحق لنقصان العقل أو التفريط في النظر، أو لم تقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حدَّ التكليف، وإما لأنه يُقام مقام الكل.

(٨٤) ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ وهو نبيُّها، يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الاعتذار، إذ لا عُذر لهم. وقيل: في الرجوع إلى الدنيا ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤﴾ ولا هم يُسترضون.

(٨٥) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ عذاب جهنم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ أي: العذاب ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥﴾ يُمهلون.

(٨٦) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ﴾ أوثانهم التي دعَوها شركاء. أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ نعبدهم أو نطيعهم. وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦﴾ أي: أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله تعالى، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة وإنما عبدوا أهواءهم، ولا يمتنع إنطاق الله تعالى الأصنام به حينئذ، أو في أنهم حملوهم على الكفر وألزموهم إياه.

(٨٧) ﴿وَأَلۡقَوۡاْ﴾ وألقى الذين ظلموا ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ وضاع عنهم وبطلَ ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرَّؤوا منهم.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(٨٨) ﴿**ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر ﴿**زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا**﴾ لصدِّهم ﴿**فَوْقَ ٱلْعَذَابِ**﴾ المستحَقِّ بكفرهم ﴿**بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾**﴾ بكونهم مفسدين بصدِّهم.

(٨٩) ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ يعني نبيَّهم، فإن نبيَّ كل أمة بُعث منهم ﴿**وَجِئْنَا بِكَ**﴾ يا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿**شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ**﴾ على أمتك ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا**﴾ بياناً بليغاً ﴿**لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ من أمور الدين على التفصيل أو الإجمال بالإحالة إلى السُّنة أو القياس ﴿**وَهُدًى وَرَحْمَةً**﴾ للجميع، وإنما حرمان المحروم من تفريطه ﴿**وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾**﴾ خاصةً (أي: المتمسكين بالشريعة والسنة النبوية).

(٩٠) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ**﴾ بالتوسُّط في الأمور: اعتقاداً؛ كالتوحيد المتوسِّط بين التعطيل والتشريك، والقول بالكسب المتوسِّط بين محض الجبر والقدَر. وعملاً؛ كالتعبد بأداء الواجبات المتوسِّط بين البطالة والترهب. وخُلقاً؛ كالجود المتوسِّط بين البخل والتبذير ﴿**وَٱلْإِحْسَٰنِ**﴾ إحسان الطاعات؛ وهو إما بحسب الكمية، كالتطوع بالنوافل؛ أو بحسب الكيفية، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] ﴿**وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ**﴾ وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه ﴿**وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ**﴾ عن الإفراط في متابعة القوة الشهويَّة كالزنى، فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها ﴿**وَٱلْمُنكَرِ**﴾ ما يُنكر على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية ﴿**وَٱلْبَغْيِ**﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبُّر عليهم، فإنها الشيطنة التي هي مقتضى القوة الوهمية. ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج في هذه الأقسام صادر بتوسُّط إحدى هذه القوى الثلاث، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر. وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه. ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين.

(أقول: هذه الأمور كلها تأتي في التصوف، وإذا اطلعنا على حقيقته ومصدره نرى أنه إما أن يكون من القرآن وإما من السنة النبوية، هذا لا يوجد إلا في التصوف، لا اسم التصوف، بل تطبيق التصوف).

﴿يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي والمَيْز (أي: التفريق) بين الخير والشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ تتعظون.

(٩١) ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يعني البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ﴿إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ وقيل: النذور. وقيل: الإيمان بالله ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ أي: أيمان البيعة، أو مطلق الأيمان ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ شاهداً بتلك البيعة، فإن الكفيل مراعٍ لحال المكفول به رقيبٌ عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾ من نقض الأيمان والعهود.

(٩٢) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ أي: ما غزلته ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: نقضت غزلها من بعد إبرام وإحكام ﴿أَنكَـٰثًا﴾ طاقات نُكث فَتلها. والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تكونوا متشبهين بامرأة هذا شأنها، متخذي أيمانكم مَفسَدة ودخلاً (أي: مكراً وخديعة) بينكم ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ﴾ بأن تكون جماعة أزيد عدداً وأوفر مالاً من جماعة. والمعنى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ﴾ أي: يختبركم بكونهم أربى (أي: أزيد) لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله تعالى وبيعة رسوله عليه الصلاة والسلام أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب.

(٩٣) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام ﴿وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بالخذلان ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ بالتوفيق ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ سؤالَ تبكيتٍ (أي: تقريع) ومجازاة.

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

(٩٤) ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ (أي: مكراً وخديعة) ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ أي: عن محجَّة الإسلام ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بصدودكم عن الوفاء أو صدِّكم غيرَكم عنه، فإن من نقضَ البيعة وارتدَّ جعل ذلك سُنَّة لغيره ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾ في الآخرة.

(٩٥) ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ ولا تستبدلوا عهد الله تعالى وبيعة رسوله ﷺ ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ عرَضاً يسيراً. وهو ما كانت قريش يَعِدون لضعفاء المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النصر والتغنيم في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ مما يَعِدونكم ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

(٩٦) ﴿مَا عِندَكُمۡ﴾ من أعراض الدنيا ﴿يَنفَدُ﴾ ينقضي ويفنى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بَاقٖۗ﴾ لا ينفد ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم﴾ على الفاقة وأذى الكفار، أو على مشاقِّ التكاليف ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ بما يُرجَّحُ فعله من أعمالهم؛ كالواجبات والمندوبات. أو بجزاءٍ أحسن من أعمالهم.

(٩٧) ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ بيَّنه بالنوعين دفعاً للتخصيص ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما المتوقَّع عليها تخفيف العذاب ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ في الدنيا. يعيش عيشاً طيباً، فإنه إن كان موسراً فظاهرٌ، وإن كان معسرا يطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الأجر العظيم في الآخرة، بخلاف الكافر، فإنه إن كان معسراً فظاهرٌ، وإن كان موسراً لم يدَعْه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه. وقيل: في الآخرة ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ من الطاعة.

(٩٨) ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: إذا أردت قراءته ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ فاسأل الله تعالى أن يعيذك من وساوسه لئلا يوسوسك في القراءة.

(٩٩) ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ﴾ تسلُّطٌ وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه، فإنهم لا يطيعون أوامره ولا يَقبلون وساوسه إلا فيما يحتقرون على ندورٍ (أي: قلة وجود) وغفلةٍ، ولذلك أمِروا بالاستعاذة. فذكَرَ السلطنةَ بعد الأمر بالاستعاذة لئلا يُتوهَّم منه أن له سلطاناً.

(١٠٠) ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ يُحبُّونه ويطيعونه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ أي: بالله تعالى، أو بسبب الشيطان.

(١٠١) ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بالنسخ، فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً (أقول: قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه آية فيها شدة أخذ الناس وعملوا ما شاء الله تعالى أن يعملوا، فيشقُّ ذلك عليهم، فينسخ الله تعالى هذه الشدة ويأتيهم بما هو أليَنُ منها وأهون عليهم رحمة من الله تعالى لمصالح العباد. من تفسير روح البيان. وقال الفخر الرازي: فائدة النسخ والتبديل أن ذلك لمصالح العباد) ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من المصالح، فلعل ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه، وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيثبته مكانه ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الكفرة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۢ﴾ متقوِّل على الله تعالى، تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ حكمة الأحكام، ولا يميزون الخطأ من الصواب.

(أقول: كما أن الرسول ﷺ لم يخلص من لسان الخلق، كذلك المؤمن إذا تمسك بالشريعة والسنة النبوية لا يخلص من لسانهم).

(١٠٢) ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ يعني جبريل عليه السلام ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ملتبساً بالحكمة. ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإيمان بأنه كلامُه، وأنهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾ المنقادين لحكمه.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

(١٠٣) ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ**﴾ يعنون جبراً الرومي غلام عامر بن الحضرمي. وقيل: جبراً ويساراً، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل، وكان الرسول ﷺ يمرُّ عليهما ويسمع ما يقرآنه. وقيل: عائشاً غلام حويطب بن عبد العزى، قد أسلم وكان صاحب كتب، وقيل: سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه ﴿**لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ**﴾ لغة الرجل الذي يُميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسانٌ أعجميٌّ غيرُ بيِّن ﴿**وَهَٰذَا**﴾ أي: القرآن ﴿**لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾**﴾ ذو بيان وفصاحة. وهو يحتمل وجهين؛ أحدهما: أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون ما تلقفه (أي: أخذه وتناوله بسرعة) منه؟ وثانيهما: هبْ أنه يفهم منه المعنى باستماع كلامه لكن لم يتلقف منه اللفظ، لأن ذاك أعجمي وهذا عربي، والقرآنُ كما هو معجز باعتبار المعنى فهو معجز من حيث اللفظ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة، فكيف تعلَّمَ جميع ذلك من غلام سوقي سمع منه في بعض أوقات مروره عليه كلمات أعجمية تعلَّمها لم يعرف معناها. وطعْنُهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة (أي: الضعيفة) دليلٌ على غاية عجزهم.

(١٠٤) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ**﴾ أي: لا يصدِّقون أنها من عند الله تعالى ﴿**لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ**﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاة، وقيل: إلى الجنة ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾**﴾ في الآخرة. هدَّدهم على كفرهم بالقرآن بعد ما أماط (أي: أزال) شبهتهم وردَّ طعنهم فيه، ثم قلب الأمر عليهم فقال تعالى:

(١٠٥) ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ**﴾ لأنهم لا يخافون عقاباً يردَعهم (أي: يمنعهم) عنه ﴿**وَأُو۟لَٰٓئِكَ**﴾ إشارةٌ إلى الذين كفروا، أو إلى قريش ﴿**هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾**﴾ أي: الكاذبون على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب؛ لأن تكذيب آيات الله تعالى والطعن فيها بهذه الخرافات أعظم الكذب، أو الذين عادتهم الكذب، لا يصرفهم عنه دين ولا مروءة.

(١٠٦) ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ على الافتراء أو كلمة الكفر ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ لم تتغير عقيدته. وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ اعتقده وطاب به نفساً ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ إذ لا أعظم من جرمه. روي أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ، قال: فما تقول فيَّ؟ فقال: أنت أيضاً. فخلَّاه، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ، قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله تعالى، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له» [أخرجه ابن أبي شيبة عن الحسن مرسلًا]. وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إعزازاً للدين.

(١٠٧) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان، أو الوعيد ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بسبب أنهم آثروها عليها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾ أي: الكافرين في علمه، إلى ما يوجب ثبات الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ.

(١٠٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾ فأبتْ عن إدراك الحق والتأمل فيه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ الكاملون في الغفلة، إذ أغفلتهم الحالة الراهنة عن تدبر العواقب.

(١٠٩) ﴿لَا جَرَمَ﴾ (حقاً) ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ إذ ضيَّعوا أعمارهم وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد.

(١١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ أي: عُذِّبوا كعمار رضي الله تعالى عنه ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر ﴿لَغَفُورٞ﴾ لما فعلوا قبلُ ﴿رَّحِيمٞ ١١٠﴾ منعمٌ عليهم، مجازاةً على ما صنعوا بعدُ.

۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

(١١١) ﴿**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا**﴾ تجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها، لا يهمها شأن غيرها، فتقول: نفسي نفسي ﴿**وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ**﴾ أي: جزاءَ ما عملت ﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾**﴾ لا ينقصون أجورهم.

(١١٢) ﴿**وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً**﴾ أي: جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا، فأنزل الله تعالى بهم نقمته، أو لمكة ﴿**كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً**﴾ لا يزعج أهلَها خوفٌ ﴿**يَأْتِيهَا رِزْقُهَا**﴾ أقواتها ﴿**رَغَدًا**﴾ واسعاً ﴿**مِّن كُلِّ مَكَانٍ**﴾ من نواحيها ﴿**فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ**﴾ بنعمه ﴿**فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ**﴾ استعارَ الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباسَ لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف ﴿**بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾**﴾ أي: بصنيعهم.

(١١٣) ﴿**وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ**﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾**﴾ أي: حال التباسهم بالظلم والعذاب ما أصابهم من الجدب الشديد، أو وقعة بدر.

(١١٤) ﴿**فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا**﴾ أمَرَهم بأكل ما أحل الله تعالى لهم وشكرِ ما أنعم عليهم بعد ما زجرهم عن الكفر وهدَّدهم عليه بما ذَكرَ من التمثيل والعذاب الذي حلَّ بهم، صداً لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة ﴿**وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾**﴾ تطيعون، أو إن صحَّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته.

(١١٥) ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾**﴾ لمَّا أمرهم بتناول ما أحلَّ لهم عدَّد عليهم محرَّماته ليُعلم أن ما عداها حلٌّ لهم، ثم أكَّد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال تعالى:

(١١٦) ﴿**وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ**﴾ ومقتضى سياق الكلام وتصدير الجملة بـ ﴿إِنَّمَا﴾ حصرُ المحرَّمات في الأجناس الأربعة إلا ما أقيم عليه دليل؛ كالسباع والحمر الأهلية. أي: لا تحرِّموا ولا تحللوا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل ﴿**لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ**

﴿ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ لَمَّا كان المفتري يفتري لتحصيل مطلوب نفى عنهم الفلاح وبيَّنه بقوله تعالى:

(١١٧) ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ أي: ما يفترون لأجله، أو ما هم فيه منفعة قليلة تنقطع عن قريب ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ في الآخرة.

(١١٨) ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ أي: في سورة «الأنعام» في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ﴿مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بالتحريم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا عليه.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

(١١٩) ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ**﴾ بسببها، أو ملتبسين بها، لتعمَّ الجهلَ بالله تعالى وبعقابه وعدم التدبُّر في العواقب لغلبة الشهوة ﴿**ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا**﴾ من بعد التوبة ﴿**لَغَفُورٞ**﴾ لذلك السوء ﴿**رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾**﴾ يثيب على الإنابة (أي: الرجوع) (أقول: تبتُ إليك ربي مما حصل من الطبيعة البشرية ما يخالف لرضاك).

(١٢٠) ﴿**إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ**﴾ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا متفرقة في أشخاص كثيرة. وهو عليه السلام رئيس الموحِّدين وقدوة المحققين، الذي جادل فرق المشركين وأبطل مذاهبهم الزائغة بالحجج الدامغة، ولذلك عقَّبَ ذكره بتزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن في النبوة وتحريم ما أحله ﴿**قَانِتٗا لِّلَّهِ**﴾ مطيعاً له قائماً بأوامره ﴿**حَنِيفٗا**﴾ مائلاً عن الباطل ﴿**وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾**﴾ كما زعموا. فإن قريشاً كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم صلوات الله عليه.

(١٢١) ﴿**شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ**﴾ ذكر الأنعُم بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يُخِلُّ بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة؟ ﴿**ٱجۡتَبَىٰهُ**﴾ للنبوة ﴿**وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾**﴾ في الدعوة إلى الله تعالى.

(١٢٢) ﴿**وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ**﴾ بأن حبَّبه إلى الناس، حتى أن أرباب الملل يتولونه ويُثنون عليه، ورزَقه أولاداً طيبة وعمراً طويلاً في السعة والطاعة ﴿**وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾**﴾ لمن أهل الجنة.

(١٢٣) ﴿**ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ**﴾ يا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿**أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ**﴾ في التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حسب فهمه ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾**﴾ بل كان قدوة الموحِّدين.

(١٢٤) ﴿**إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ**﴾ أي: تعظيمُ السبت، أو التخلي فيه للعبادة ﴿**عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ**﴾ أي: على نبيِّهم، وهم اليهود، أمَرَهم موسى عليه الصلاة السلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة، فأبوا وقالوا: نريد يوم السبت، لأنه تعالى فرغ فيه من خلَق السموات والأرض، فألزمهم الله تعالى السبتَ وشدَّد الأمر عليهم. وقيل: معناه إنما جُعل وبال السبت ـ وهو المسخ ـ على الذين اختلفوا فيه، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرَّموه

أخرى، واحتالوا له الحيل. وذكَرهم ههنا لتهديد المشركين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق بما يستحقه.

(١٢٥) ﴿ٱدْعُ﴾ مَن بُعثتَ إليهم ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالمقالة المحكمة، وهو الدليل الموضِّح للحق المزيحُ للشبهة ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الخطابات المقنعة والعبر النافعة. فالأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق، والثانية لدعوة عوامهم ﴿وَجَـٰدِلْهُم﴾ وجادل معانديهم ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وإيثار الوجه الأيسر والمقدمات التي هي أشهر، فإن ذلك أنفع في تسكين لهَبهم (أي: هياجهم) وتبيين شغبهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: إنما عليك البلاغ والدعوة، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا إليك، بل الله تعالى أعلم بالضالين والمهتدين، وهو المجازي لهم.

(١٢٦) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ لمَّا أمره بالدعوة وبيَّن له طرُقَها أشار إليه وإلى من يتابعه بترك المخالفة ومراعاة العدل مع من يناصبهم (أي: يعاديهم)، فإن الدعوة لا تنفك عنه من حيث إنها تتضمن رفض العادات وترك الشهوات والقدح في دين الأسلاف والحكم عليهم بالكفر والضلال. وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة وقد مُثِّل به قال: والله لئن أظفرني الله تعالى بهم لأمثلنَّ بسبعين مكانك. فنزلت، فكفَّر عن يمينه. وفيه دليل على أن للمقتصِّ أن يماثل الجاني وليس له أن يجاوزه. وحثَّ على العفو تعريضاً بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾، وتصريحاً على الوجه الآكد بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ﴾ أي: الصبر ﴿خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ من الانتقام للمنتقمين، ثم صرَّح بالأمر به لرسول الله ﷺ لأنه أولى الناس به، لزيادة علمه بالله تعالى ووثوقه عليه فقال تعالى:

(١٢٧) ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ إلا بتوفيقه وتثبيته ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين، أو على المؤمنين وما فُعل بهم ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ في ضيق صدر من مكرهم.

(١٢٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ المعاصي ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ في أعمالهم بالولاية والفضل. أو مع الذين اتقوا الله تعالى بتعظيم أمره، والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه جلَّ وعلا.

(أقول: سعادة المرء في شيئين: تعظيم أوامر الله تعالى، والشفقة على خلق الله تعالى).

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة النحل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإسراء

مكيَّة، وقيل: إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى آخر ثمان آيات، وهي مئة وإحدى عشرة آية

١٧ سُورَةُ الإِسۡرَاءِ ١١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴿٣﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴿٧﴾

(١) ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ سبحانَ: اسم بمعنى التسبيح الذى هو التنزيه. وتصديرُ الكلام به للتنزيه عن العجز عما ذُكر بعده ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ بعينه، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى]؛ أو من الحرم، وسماه المسجد الحرام لأنه كله مسجد، لما روي أنه ﷺ كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء، فأسري به ورجع من ليلته، وقص القصة عليها، وقال: «مُثِّل لي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصليت بهم»، ثم خرج إلى المسجد الحرام، وأخبر به قريشاً، فتعجبوا منه استحالةً، وارتدَّ ناس ممن آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال: إن كان قال لقد صدق، فقالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدِّقه على أبعد من ذلك، فسمي الصدِّيق؛ واستَنْعَتَه (أي: طلب منه أن ينعته) طائفةٌ سافروا إلى بيت المقدس، فجُلي له، فطفق (أي: أخذ) ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعت (أي: الوصف) فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال تَقْدُمُ يوم كذا مع طلوع الشمس، يَقدُمُها جمل أورق (أي: فيه بياض)، فخرجوا يشتدون إلى الثنية (أي: مكان قرب المدينة)، فصادفوا العير كما أخبر، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلَّا سِحْرٌ مبِينٌ. وكان ذلك قبل الهجرة بسنة [أخرجه الحاكم رحمه الله تعالى في المستدرك وصححه، وأكثره مُزج في الصحيحين]. وقد أسري بجسده عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس، ثم عُرج به إلى السموات حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، ولذلك تعجَّب قريش واستحالوه (أقول: كان الإسراء والمعراج يقظة بروحه وجسده ﷺ، وأهلُ الطرق يعرجون بروحهم فقط في ظل معراج الرسول عليه الصلاة والسلام) ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ أي: بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ ببركات الدين والدنيا، لأنه مهبط الوحي، ومتعبَّد الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام من لدن موسى عليه الصلاة والسلام، ومحفوف بالأنهار والأشجار ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ كذهابه في برهة (أي: جزء) من الليل مسيرة شهر، ومشاهدته بيت المقدس، وتمثُّلِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له، ووقوفه على مقاماتهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال محمد ﷺ ﴿ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾ بأفعاله، فيكرمه ويقرِّبه على حسب ذلك.

(٢) ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ على أن لا تتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلٗا ۝٢﴾ رباً تكلون إليه أموركم غيري.

(٣) ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ يعني: قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح. وفيه تذكير بإنعام الله تعالى عليهم في إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح عليه الصلاة والسلام في السفينة ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن نوحاً عليه الصلاة والسلام ﴿كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ يحمد الله تعالى على مجامع حالاته. وفيه إيماءٌ بأن إنجاءه ومَن معه كان ببركة شكره، وحثٌّ للذرية على الاقتداء به.

(٤) ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضيّاً مبتوتاً (أي: قطعياً) ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في التوراة ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ إفسادتين؛ أولاهما مخالفة أحكام التوراة وقتلُ شعياء، وثانيتهما قتلُ زكريا ويحيى وقَصْدُ قتل عيسى عليهم الصلاة والسلام ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤﴾ ولتستكبرُنَّ عن طاعة الله تعالى، أو لتظلمن الناس.

(٥) ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: وعدُ عقابِ أولاهما ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ﴾ بختنصر وجنوده ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ ذوي قوة وبطش في الحرب شديد ﴿فَجَاسُواْ﴾ فتردَّدوا لطلبكم ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ وسطها للقتل والغارة، فقتلوا كبارهم وسبَوا صغارهم وحرَّقوا التوراة وخرَّبوا المسجد ﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ وكان وعدُ عقابهم لا بدَّ أن يُفعل.

(٦) ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ﴾ أي: الدولة والغلبة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الذين بُعثوا عليكم ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ مما كنتم. والنفير: من ينفر مع الرجل من قومه.

(٧) ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ لأن ثوابه لها ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ فإن وباله عليها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وعدُ عقوبة المرَّة الآخرة ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي: بعثناهم لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ أي يجعلوها باديةً آثارُ المساءةِ فيها ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ ليهلِكوا ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ ما غلبوه واستولوا عليه، أو مدة علوِّهم ﴿تَتۡبِيرًا ۝٧﴾ ذلك بأن سلط الله تعالى عليهم الفرس مرة أخرى، فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

(٨) ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الآخرة ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ نوبة (أي: مرة) أخرى ﴿عُدْنَا﴾ مرة ثالثة إلى عقوبتكم، وقد عادوا بتكذيب محمد ﷺ وقصْدِ قتلِهِ فعاد الله تعالى بتسليطه عليهم، فقتلَ قريظة وأجلى بني النضير وضرب الجزية على الباقين. هذا لهم في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ محبساً لا يقدرون على الخروج منها أبد الآباد. وقيل: بساطاً كما يُبسط الحصير.

(٩) ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة أو الطريقة التي هي أقوم الحالات أو الطرق ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾.

(١٠) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ والمعنى: أنه يبشر المؤمنين ببشارتين؛ ثوابِهم وعقابِ أعدائهم.

(١١) ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ ويدعو اللهَ تعالى عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله (أقول: وهذا منهي عنه في الشريعة) أو يدعوه بما يحسبه خيراً وهو شرٌّ ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ مثل دعائه بالخير ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر عاقبته. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافرَ، وبالدعاء استعجالَه بالعذاب استهزاءه، كقول النضر بن الحارث: اللهم انصر خير الحزبين ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فأجيب له، فضُرب عنقه صبراً يوم بدر (يقال: قتل صبراً إذا حُبس لأجل القتل).

(١٢) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ تدلان على القادر الحكيم بتعاقبهما على نسق واحد مع إمكان غيره ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: الآية التي هي الليل بالإشراق ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتطلبوا في بياض النهار أسباب معاشكم، وتتوصلوا به إلى استبانة أعمالكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ باختلافهما أو بحركاتهما ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تفتقرون إليه في أمر الدين والدنيا ﴿فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ بيَّناه بياناً غير ملتبس.

(١٣) ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ﴾ عَمَله وما قُدِّر له ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ لزوم الطوق في عنقه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ هو صحيفة عمله ﴿يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ لكشف الغطاء.

(١٤) ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ (أي: كتاب أعمالك؛ وكلٌّ يُبعث قارئاً [النسفي]) ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ (أي: محاسباً).

(١٥) ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ لا يُنجي اهتداؤه غيرَه، ولا يُردي ضلالُه سواه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾ ولا تحمل نفس حاملةٌ وزراً وزرَ نفس أخرى، بل إنما تحمل وزرها ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ يبيِّن الحجج ويمهد الشرائع فيلزمهم الحجة. وفيه دليل على أنْ لا وجوب قبل الشرع (أقول: لكن بعض العلماء الأحناف يقولون: إذا كان الإنسان في مكان بعيد لم تصل إليه أحكام الشريعة لا بدَّ أن يتفكَّر بعقله).

(١٦) ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ وإذا تعلقت إرادتنا بإهلاك قوم لإنفاذ قضائنا السابق، أو دنا وقته المقدَّر ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ متنعِّميها بالطاعة على لسان رسولٍ بعثناه إليهم. ويدل على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة والتمردُ في العصيان، فيدل على الطاعة من طريق المقابلة ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ وتخصيص المترفين لأن غيرهم يتبعهم، ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدرُ على الفجور ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ يعني كلمة العذاب السابقة بحلوله، أو بظهور معاصيهم ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم.

(١٧) ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ وكثيراً أهلكنا ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ كعاد وثمود ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ يدرك بواطنها وظواهرها فيعاقِبُ عليها.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

(١٨) ﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ**﴾ مقصوراً عليها همُّه ﴿**عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ**﴾ قيَّد المعجَّل والمعجَّل له بالمشيئة والإرادة، لأنه لا يجد كلُّ متمنٍّ ما يتمناه، ولا كلُّ واجدٍ جميعَ ما يهواه ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾**﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى.

(١٩) ﴿**وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا**﴾ حقها من السعي، وهو الإتيان بما أمِر به والانتهاء عما نهي عنه، لا التقرب بما يخترعون بآرائهم ﴿**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**﴾ إيماناً صحيحاً لا شرك معه ولا تكذيب، فإنه العمدة ﴿**فَأُو۟لَٰٓئِكَ**﴾ الجامعون للشروط الثلاثة ﴿**كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾**﴾ من الله تعالى، أي: مقبولًا عنده مثاباً عليه، فإن شكرَ الله تعالى الثوابُ على الطاعة.

(٢٠) ﴿**كُلًّا**﴾ كلَّ واحد من الفريقين ﴿**نُّمِدُّ**﴾ بالعطاء مرة بعد أخرى ﴿**هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾**﴾ ممنوعاً، لا يمنعه في الدنيا عن مؤمن ولا كافر تفضُّلاً.

(٢١) ﴿**ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ**﴾ في الرزق ﴿**وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾**﴾ أي: التفاوت في الآخرة أكبر، لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها.

(٢٢) ﴿**لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ**﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته، أو لكل أحد ﴿**فَتَقْعُدَ**﴾ فتصير ﴿**مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾**﴾ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلانَ من الله تعالى. ومفهومه أن الموحِّد يكون ممدوحاً منصوراً.

(٢٣) ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ**﴾ وأمَرَ أمراً مقطوعاً به ﴿**أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ**﴾ لأن غاية التعظيم لا تحقُّ إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام ﴿**وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ**﴾ وأحسنوا بالوالدين لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا**﴾ ومعنى «عِنْدَكَ» أن يكونا في كنفك وكفالتك ﴿**فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ**﴾ فلا تتضجَّر مما يُستقذر منهما وتستثقلْ من مُؤنتهما، وهو صوت يدل على تضجر. والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء قياساً بطريق الأولى. ولذلك منع رسولُ الله ﷺ حذيفة رضي الله تعالى عنه من قتل أبيه وهو في صفِّ المشركين ﴿**وَلَا تَنْهَرْهُمَا**﴾ ولا تزجرْهما عما لا يعجبك بإغلاظ ﴿**وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾**﴾ جميلاً لا شراسة فيه (أي: لا قبح فيه).

(٢٤) ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ تذللْ لهما وتواضعْ معهما ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ من فرط رحمتك عليهما، لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله تعالى إليهما بالأمس ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ وادعُ الله تعالى أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكتفِ برحمتك الفانية وإن كانا كافرين لأن من الرحمة أن يهديهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ رحمةً مثل رحمتهما عليَّ وتربيتهما وإرشادهما لي في صغري، وفاء بوعدك للراحمين.

(٢٥) ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ مِن قصْدِ البرِّ إليهما واعتقاد ما يجب لهما من التوقير. وكأنه تهديد على أن يضمر لهما كراهةً واستثقالاً ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين للصلاح ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ﴾ للتوابين ﴿غَفُورٗا ٢٥﴾ ما فرط منهم عند حرج الصدر من أذيةٍ أو تقصير، وفيه تشديد عظيم. ويجوز أن يكون عاماً لكل تائب، ويندرج فيه الجاني على أبويه التائبُ من جنايته لوروده على إثْره.

(٢٦) ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبرِّ عليهم. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: حقُّهم إذا كانوا محارم فقراء أن ينفق عليهم. وقيل: المراد بذي القربى أقارب الرسول ﷺ (أقول: هذه الآية تدل على جواز إعطاء الصدقة لآل البيت، لأن حقهم قُطع من الخمس، فإذا كانوا محتاجين لا بد أن يعطوا) ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ بصرف المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على وجه الإِسراف. وأصلُ التبذير التفريقُ. وعن النبي ﷺ أنه قال لسعد رضي الله تعالى عنه وهو يتوضأ: «ما هذا السرف؟ فقال: أوَفي الوضوء سرف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جارٍ» [رواه الامام أحمد رحمه الله تعالى].

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ أمثالَهم في الشرارة، فإن التضييع والإتلاف شرٌّ. أو أصدقاءهم وأتباعهم لأنهم يطيعونهم في الإِسراف والصرف في المعاصي ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ مبالغاً في الكفر به، فينبغي أن لا يطاع.

وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾

(٢٨) ﴿**وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ**﴾ وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياءً من الرد ﴿**ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا**﴾ لانتظار رزقٍ من الله تعالى ترجوه أن يأتيك فتعطيه ﴿**فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾**﴾ أي: فقل لهم قولاً ليناً ابتغاء رحمة الله تعالى برحمتك عليهم بإجمال القول لهم. وقيل: القول الميسور الدعاءُ لهم بالميسور، وهو اليُسرُ؛ مثل أغناكم الله تعالى ورزقنا الله تعالى وإياكم.

(٢٩) ﴿**وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ**﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذر. نهى عنهما آمراً بالاقتصاد بينهما الذي هو الكرم ﴿**فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا**﴾ فتصير ملوماً عند الله تعالى وعند الناس بالإسراف وسوء التدبير ﴿**مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾**﴾ نادماً، أو منقطعاً بك، لا شيء عندك.

(٣٠) ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ**﴾ يوسِّعه ويضيِّقه بمشيئته التابعة للحكمة البالغة، فليس ما يرهقك من الإضاقة إلا لمصلحتك ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾**﴾ يعلم سرَّهم وعلنهم، فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم. ويجوز أن يراد أن البسط والقبض من أمر الله تعالى العالم بالسرائر والظواهر، فأما العباد فعليهم أن يقتصدوا. أو أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى، فاستنُّوا بسنَّته ولا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط.

(٣١) ﴿**وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ**﴾ مخافة الفاقة. وقتلُهم أولادَهم هو وأدُهم بناتِهم مخافة الفقر، فنهاهم عنه وضمِن لهم أرزاقهم فقال: ﴿**نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾**﴾ ذنباً كبيراً، لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النوع.

(٣٢) ﴿**وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ**﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات، فضلاً عن أن تباشروه ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ**﴾ فعلة ظاهرة القبح زائدَته ﴿**وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾**﴾ وبئس طريقاً طريقُه المؤدي إلى قطع الأنساب وتهييج الفتن.

(٣٣) ﴿**وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ**﴾ إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل مؤمنٍ معصوم عمداً ﴿**وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا**﴾ غير مستوجب للقتل ﴿**فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ**﴾ للذي يلي أمره بعد وفاته، وهو الوارث ﴿**سُلۡطَٰنٗا**﴾ تسلُّطاً بالمؤاخذة بمقتضى القتل على من قتله، أو بالقصاص على

القاتل ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي: القاتل ﴿فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ بأن يقتل من لا يستحق قتله، فإن العاقل لا يفعل ما يعود عليه بالهلاك. أو الوليُّ بالمُثلة أو قتل غير القاتل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾ والضمير إما للمقتول فإنه منصور في الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالثواب، وإما لوليِّه فإن الله تعالى نصره حيث أوجب القصاص له وأمر الولاة بمعونته.

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ فضلاً أن تتصرفوا فيه ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالطريقة التي هي أحسن بأن ينمِّيه أو يثمِّره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لجواز التصرف الذي دلَّ عليه الاستثناء ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ بما عاهدكم الله تعالى من تكاليفه. أو ما عاهدتموه وغيره ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ مطلوباً، يُطلب من المعاهِد أن لا يضيعه ويفي به. أو مسؤولاً عنه، يُسأل الناكث ويُعاتَب عليه لمَ نكثتَ؟ أو يُسأل العهدُ تبكيتاً (أي: تأنيباً) للناكث.

(٣٥) ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ ولا تبخسوا فيه ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السوي. وهو روميٌّ عُرِّب، ولا يقدح ذلك في عربية القرآن، لأن العجمي إذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم في الإِعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربياً ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾ وأحسن عاقبة. مِن آلَ إذا رجع.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبعْ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما لم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً (أي: ظناً) بالغيب ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: كل هذه الأعضاء، فأجراها مجرى العقلاء لَمَّا كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على صاحبها ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ في ثلاثتها. أي كان كلُّ واحد منها مسؤولاً عن نفسه، يعني عما فعل به صاحبه.

(٣٧) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: ذا مرح، وهو الاختيال ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بشدة وطأتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ بتطاولك. وهو تهكُّمٌ بالمختال، وتعليل للنهي بأن الاختيال حماقة مجردة لا تعود بجدوى.

(٣٨) ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخصال الخمس والعشرين المذكورة، من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢] ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ يعني المنهي عنه فإن المذكورات مأموراتٌ ومناهٍ ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ والمراد به المبغوضُ المقابل للمَرْضِيِّ، لا ما يقابل المراد.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾

(٣٩) ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ إشارةٌ إلى الأحكام المتقدمة ﴿**مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ**﴾ التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به ﴿**وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ**﴾ كرَّره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، فإن من لا قصْدَ له بطل عمله، ومن قصَدَ بفعله أو ترْكِهِ غيره ضاع سعيُه، وأنه رأسُ الحكمة وملاكُها ﴿**فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا**﴾ تلوم نفسك ﴿**مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾**﴾ مُبْعدًا من رحمة الله تعالى (أقول: ولا تجعل أيها الإنسان مع الله تعالى إلهاً آخر فتُلقى يوم الدين في نار جهنم... الخطاب للرسول ﷺ والمراد غيره ممن يُتصوَّر منه المنهيُّ).

(٤٠) ﴿**أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ**﴾ خطابٌ لمن قالوا: الملائكة بنات الله. والمعنى: أفخصَّكم ربكم بأفضل الأولاد وهم البنون ﴿**وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ**﴾ بناتٍ لنفسه؟ وهذا خلاف ما عليه عقولكم وعادتكم ﴿**إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾**﴾ بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصة بعض الأجسام لسرعة زوالها، ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بجعل الملائكة الذين هم من أشرف خلق الله تعالى أدْونَهم.

(٤١) ﴿**وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا**﴾ كرَّرنا هذا المعنى بوجوه من التقرير ﴿**فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ**﴾ في مواضع منه. ويجوز أن يراد بهذا القرآن إبطالُ إضافة البنات إليه على تقدير: ولقد صرَّفنا القول في هذا المعنى ﴿**لِيَذَّكَّرُواْ**﴾ ليتذكروا ﴿**وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾**﴾ عن الحق، وقلة طمأنينة إليه.

(٤٢) ﴿**قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾**﴾ أي: لطلبوا إلى من هو مالك الملك سبيلاً بالمعازة (أي: المقابلة بالعز) كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض (أقول: أي إذاً لطلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال، وهذا محال البتة)، أو بالتقرُّب إليه والطاعة لعلمهم بقدرته وعجزهم.

(٤٣) ﴿**سُبۡحَٰنَهُۥ**﴾ تنزَّهَ تنزيهاً ﴿**وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا**﴾ تعالياً ﴿**كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾**﴾ متباعداً غاية البعد عما يقولون، فإنه في أعلى مراتب الوجود، وهو كونه واجب الوجودِ والبقاءِ لذاته، واتخاذُ الولد من أدنى مراتبه، فإنه من خواصِّ ما يمتنع بقاؤه.

(٤٤) ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ**﴾ ينزهِّه عما هو من

لوازم الإِمكان وتوابع الحدوث بلسان الحال، حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجب لذاته جل وعلا ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ أيها المشركون لإِخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يُفهم تسبيحهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وشرككم ﴿غَفُورًا ٤٤﴾ لمن تاب منكم.

(٤٥) ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابًا﴾ يحجبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم ﴿مَّسۡتُورًا ٤٥﴾ ذا ستر، أو مستوراً عن الحسِّ، أو بحجاب آخر لا يَفهمون، ولا يَفهمون أنهم لا يَفهمون. نفى عنهم أن يفهموا ما أنزل عليهم من الآيات بعد ما نفى عنهم التفقه للدلالات المنصوبة في الأنفس والآفاق، تقريراً له وبياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة، كما صرَّح به بقوله تعالى:

(٤٦) ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ تكنُّها (أي: تسترها) وتحول دونها عن إدراك الحق وقبوله ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه، أو منعناهم أن يفقهوه ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ يمنعهم عن استماعه استماع تأمُّلٍ في لفظه وتدبُّرٍ في معناه. ولمّا كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى أثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ﴾ واحداً غير مشفوع به آلهتُهم ﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦﴾ هرباً من استماع التوحيد ونفرةً.

(٤٧) ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ بسببه ولأجله من الهزء بك وبالقرآن ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ أي: نحن أعلم بغرضهم من الاستماع حين هم مستمعون إليك مضمِرون له، وحين هم ذوو نجوى يتناجون به ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧﴾ تَناجيهم بقولهم هذا من باب الظلم. والمسحور هو الذي سُحِرَ فزال عقله.

(٤٨) ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ مثَّلوك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون ﴿فَضَلُّواْ﴾ عن الحق في جميع ذلك ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨﴾ إلى طعنٍ موجَّهٍ، فيتهافتون ويخبطون كالمتحيِّر في أمره لا يدري ما يصنع، أو إلى الرشاد.

(٤٩) ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ أي: حطاماً ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾ على الإِنكار والاستبعاد لما بين غضاضة الحي ويبوسة الرميم من المباعدة والمنافاة.

۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

(٥٠) ﴿**قُلْ**﴾ جواباً لهم ﴿**كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾**﴾.

(٥١) ﴿**أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ**﴾ أي: مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعدَ شيء منها، فإن قدرته تعالى لا تقصر عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعراض، فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوتة (أي: مفتَّتة) وقد كانت غضة موصوفة بالحياة قبلُ؟ ﴿**فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ وكُنتم تراباً وما هو أبعد منه من الحياة ﴿**فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ**﴾ فسيحرِّكونها نحوك تعجباً واستهزاء ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾**﴾ فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ.

(٥٢) ﴿**يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ**﴾ أي: يوم يبعثكم فتنبعثون. استعار لهما الدعاء والاستجابة للتنبيه على سرعتهما وتيسُّر أمرهما، وأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء ﴿**بِحَمْدِهِۦ**﴾ أي: حامدين الله تعالى على كمال قدرته، كما قيل إنهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك. ﴿**وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾**﴾ وتستقصرون مدة لبثكم في القبور، ﴿كَالَّذِي مَرَّ على قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أو مدةَ حياتكم لما ترون من الهول.

(٥٣) ﴿**وَقُل لِّعِبَادِى**﴾ يعني المؤمنين ﴿**يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**﴾ الكلمةَ التي هي أحسن، ولا يخاشِنوا المشركين ﴿**إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾ يهيِّج بينهم المراءَ والشرَّ، فلعل المخاشنة (وهي: ضدُّ الليونة) بهم تفضي إلى العناد وازدياد الفساد ﴿**إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾**﴾ ظاهر العداوة.

(٥٤) ﴿**رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ**﴾ أي: قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا تصرِّحوا بأنهم من أهل النار، فإنه يهيِّجهم على الشر، مع أن ختام أمرهم غيبٌ لا يعلمه إلا الله تعالى ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾**﴾ موكولاً إليك أمرُهم تقسرهم (أي: تجبرهم) على الإيمان، وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً فدارِهم وأْمُرْ أصحابك بالاحتمال منهم.

(٥٥) ﴿**وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ وبأحوالهم، فيختار منهم لنبوَّته وولايته من يشاء. وهو ردٌّ لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجوَّع أصحابه ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ**

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ بالفضائل النفسانية والتبري من العلائق الجسمانية، لا بكثرة الأموال والأتباع، حتى داود عليه الصلاة والسلام فإن شرفه بما أوحى إليه من الكتاب لا بما أوتيه من المُلك. وقيل: هو إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ تنبيهٌ على وجه تفضيله ﷺ، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأمته خيرُ الأمم، المدلول عليه بما كُتب في الزبور من أن الأرض يرثها عبادي الصالحون.

(٥٦) ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ أنها آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ كالملائكة والمسيح وعزير ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون ﴿كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ كالمرض والفقر والقحط ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ ولا تحويل ذلك منكم إلى غيركم.

(٥٧) ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء الآلهة (أي: الذين زعم المشركون أنهم آلهة وهم الملائكة والمسيح وعزير) يبتغون إلى الله تعالى القربة بالطاعة ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ أي: يبتغي مَن هو أقرب منهم إلى الله تعالى الوسيلة (أي: أن أقربهم إلى الله تعالى يطلب إليه الوسيلة)، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ كسائر العباد، فكيف تزعمون أنهم آلهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ حقيقاً (أي: جديراً) بأن يحذره كل أحد حتى الرسل والملائكة.

(٥٨) ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بالموت والاستئصال ﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ بالقتل وأنواع البلية ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ (أقول: أي الذي هو عبارة عن حضرة علمنا ولوح قضائنا) ﴿مَسۡطُورٗا ٥٨﴾ مكتوباً.

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾

(٥٩) ﴿**وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ**﴾ وما صرَفَنا عن إرسال الآيات التي اقترحتها قريش ﴿**إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ**﴾ إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع كعاد وثمود، وأنها لو أُرسِلت لكذَّبوا بها تكذيب أولئك، واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سنَّتنا، وقد قضينا أن لا نستأصلهم، لأن فيهم مَنْ يؤمنُ أو يَلِدُ مَنْ يؤمن. ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترَحة فقال: ﴿**وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ**﴾ بسؤالهم ﴿**مُبۡصِرَةٗ**﴾ بيِّنة ذات إبصار أو بصائر ﴿**فَظَلَمُواْ بِهَاۚ**﴾ فكفروا بها، أو فظلموا أنفسهم بسبب عَقرها ﴿**وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ**﴾ أي: الآيات المقترَحة ﴿**إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾**﴾ من نزول العذاب المستأصِل، فإن لم يخافوا أُنزِل. أو بغير المقترحة كالمعجزات وآيات القرآن إلا تخويفاً بعذاب الآخرة، فإنّ أمْر من بُعثتَ إليهم مؤخَّر إلى يوم القيامة.

(٦٠) ﴿**وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ**﴾ واذكر إذ أوحينا إليك ﴿**إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ**﴾ فهم في قبضة قدرته. أو أحاط بقريش بمعنى أهلكهم ﴿**وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ**﴾ ليلة المعراج، وكان ذلك في اليقظة، وفُسِّرت الرؤيا بالرؤية. أو عامَ الحديبية حين رأى أنه دخل مكة ﴿**إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ**﴾ ما حدث في أيامهم ﴿**وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ**﴾ وهي شجرة الزقوم، لَمَّا سمع المشركون ذكرها قالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول: ينبت فيها الشجر ﴿**وَنُخَوِّفُهُمۡ**﴾ بأنواع التخويف ﴿**فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾**﴾ إلا عتوّاً متجاوز الحد.

(٦١) ﴿**وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾**﴾ لمن خلقته من طين. (أقول: وهذا حال من اتبع هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] هذا الإله خفيٌّ، لا يطلع عليه إلا من أعطاه الله تعالى الفراسة).

(٦٢) ﴿**قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ**﴾ والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرَّمته عليَّ بأمري بالسجود له لِمَ كرَّمته عليَّ؟ ﴿**لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾**﴾ أي: لأستأصلنهم بالإغواء إلا قليلاً لا أقدر أن أقاوم شكيمتهم (أي: إباءَهم). وإنما علم أن ذلك يتسهل له إما استنباطاً من قول الملائكة أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا مع التقرير، أو تفرساً من خلق الإنسان ذا وهم وشهوة وغضب.

(٦٣) ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ امضِ لما قصدته، وهو طردٌ وتخلية بينه وبين ما سوَّلت له نفسه ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ جزاؤك وجزاؤهم ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣﴾ مكمَّلاً (أقول: لم يقل له: لا يمكن لك أن تخدعهم، لأن الإنسان بطبيعته يتبع الشيطان ويُخدع).

(٦٤) ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ واستخفَّ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ أن تستفزَّه ﴿بِصَوْتِكَ﴾ بدعائك إلى الفساد ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ وصِحْ عليهم ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ بأعوانك من راجل وراكب. ويجوز أن يكون تمثيلاً لتسلطه على من يغويه بمغوار (أي: مقاتل شجاع) صوَّت على قوم فاستفزَّهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده حتى استأصلهم ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام، والتصرف فيها على ما لا ينبغي ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بالحث على التوصل إلى الولد بالسبب المحرم، والإِشراك فيه بتسميته عبد العزى، والتضليل بالحمل على الأديان الزائغة والحِرَف الذميمة والأفعال القبيحة ﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة لطول الأمل ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤﴾ والغرور تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب (أقول: ولذا لا بد أن نرجع إلى الشريعة).

(٦٥) ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ يعني المخلَصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: ليس لك على إغوائهم قدرة ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ يتوكلون به في الاستعاذة منك على الحقيقة (أقول: النفس تأخذ حصتها من هذه الآية، فتقول لصاحبها: أنت من عباد الله تعالى، فليس للشيطان عليك سلطان، لكن الله تعالى جعل من عباده المؤمن والكافر، فعلينا أن لا نعتمد على تقوانا ولا على عبادتنا).

(٦٦) ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾ هو الذي يُجري ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الربح وأنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٦٦﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسهَّل عليكم ما تعسَّر من أسبابه.

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

(٦٧) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ خوفُ الغرق ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ ذهب عن خواطركم كلُّ من تدعونه في حوادثكم ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ وحده، فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواه جلَّ وعلا، فلا تدعون لكشفه إلا إياه. أو ضلَّ كل من تعبدونه عن إغاثتكم إلا الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من الغرق ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ﴾ عن التوحيد. وقيل: اتسعتم في كفران النعمة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ (أي: الكافر) ﴿كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (للنِّعَم [النسفي]).

(٦٨) ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ أي: أنَجَوْتم فأمِنتم فحملكم ذلك على الإعراض، فإن من قدِر أن يهلككم في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البر بالخسف وغيره ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أن يقلبه الله تعالى وأنتم عليه، أو يقلبه بسببكم. وفي ذكر الجانب تنبيه على أنهم لما وصلوا الساحل كفروا وأعرضوا، وأن الجوانب والجهات في قدرته سواءٌ، لا معقلَ (أي: لا ملجأ) يؤمَنُ فيه من أسباب الهلاك ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصب؛ أي: ترمي بالحصباء (أي: بالأحجار) ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ يحفظكم من ذلك، فإنه لا رادَّ لفعله.

(٦٩) ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بخلقِ دواعٍ تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوه ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ لا تمرُّ بشيء إلا قصفته؛ أي كسرته ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم أو كفرانكم نعمة الإنجاء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ مطالباً يتبعنا بانتصار أو صرف.

(٧٠) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بحسن الصورة، والمزاج الأعدل، واعتدال القامة، والتمييز بالعقل، والإفهام بالنطق والإشارة والخط (أي: الكتابة)، والتهدي إلى أسباب المعاش والمعاد، والتسلط على ما في الأرض، والتمكن من الصناعات، وانسياق الأسباب والمسبَّبات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع، إلى غير ذلك مما يقف الحصر (أي: العدُّ) دون إحصائه. ومن ذلك ما ذكره ابن عباس: وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده. (أقول: هذا مشترك بين المؤمن والكافر، ولكن المؤمن يأكل فيشكر الله تعالى ويحمده، والكافر أخسأ من الحيوان) ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ على الدواب والسفن. أو حملناهم فيهما حتى لم تخسف بهم الأرض ولم يغرقهم الماء ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المستلذات مما يحصل بفعلهم وبغير فعلهم ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ بالغلبة والاستيلاء، أو بالشرف

والكرامة. والمستثنى جنس الملائكة عليهم السلام أو الخواص منهم (من الملائكة)، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدمُ تفضيل بعض أفراده. (أقول: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّة﴾ [البينة: ٧]).

(٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ بمن ائتموا به من نبيٍّ أو مقدَّم في الدين أو كتاب أو دين. وقيل: بكتاب أعمالهم التي قدَّموها، فيقال: يا صاحب كتاب كذا، أي تنقطع علقة الأنساب وتبقى نسبة الأعمال. وقيل: بأمهاتهم، والحكمة في ذلك إجلال عيسى عليه الصلاة والسلام، وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله عنهما، وأن لا يفتضح أولاد الزنى ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ﴾ من المدعوِّين ﴿كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: كتاب عمله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ ابتهاجاً وتبجحاً (أي: فرحاً) بما يرون فيه ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١﴾ ولا ينقصون من أجورهم أدنى شيء. وتعليق القراءة بإيتاء الكتاب باليمين يدلُّ على أن مَنْ أُوتِيَ كتابه بِشِمَالِهِ إذا اطلع على ما فيه غشيهم من الخجل والحيرة ما يحبس ألسنتهم عن القراءة، ولذلك لم يذكرهم مع أن قوله:

(٧٢) ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ أيضاً مشعرٌ بذلك، فإن الأعمى لا يقرأ الكتاب. والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب لا يبصر رشده كان في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾ منه في الدنيا، لزوال الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة.

(٧٣) ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ نزلت في ثقيف، قالوا لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب؛ لا نُعشَّر (أي: لا يؤخذ عشر أموالهم) ولا نُحْشر (أي: لا يبعثوا على الغزو) ولا نحني في صلاتنا (أي: لا ينحنون للركوع والسجود)، وكل رباً لنا فهو لنا، وكل رباً علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سَنةً، وأن تحرِّم وادينا كما حرَّمت مكة، فإن قالت العرب: لم فعلتَ ذلك؟ فقل: إن الله تعالى أمرني. وقيل: في قريش، قالوا لا نمكِّنك من استلام الحجر حتى تلمَّ بآلهتنا (أي: تأتيها وتزورها) وتمسَّها بيدك. والمعنى أنهم قاربوا بمبالغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستنزال ﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ من الأحكام ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ غير ما أوحينا إليك ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك بافتتانك ولياً لهم بريئاً من ولايتي.

(٧٤) ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ ولولا تثبيتنا إياك ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم. والمعنى أنك كنت على صدد الركون إليهم لقوة خدعهم وشدة احتيالهم، لكن أدركتك عصمتنا فمُنعت أن تقرب من الركون فضلاً عن أن تركن إليهم. وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هَمَّ بإجابتهم مع قوة الدواعي إليها، ودليلٌ على أن العصمة بتوفيق الله تعالى وحفظه.

(٧٥) ﴿٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ﴾ أي: لو قاربتَ لأذقناك ﴿ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ أي: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما نعذِّب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرَك، لأن خطأ الخطير (ذي الرفعة والشرف) أخطرُ. وقيل المراد بـ«ضِعْفَ الحَياةِ» عذابُ الآخرة وبـ«ضِعْفَ المَماتِ» عذابُ القبر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾ يدفع العذاب عنك.

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

(٧٦) ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ وإن كاد أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليزعجوك بمعاداتهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ إلا زماناً قليلاً. وقد كان كذلك، فإنهم أهلِكوا ببدر بعد هجرته بسنةٍ.

(٧٧) ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ﴾ أي: سَنَّ الله تعالى ذلك سنَّةً، وهو أن يهلك كل أمة أخرَجوا رسولهم من بين أظهرهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ أي: تغييراً.

(٧٨) ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لزوالها. وقيل: لغروبها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى ظلمته، وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ وصلاة الصبح. سميت قرآناً لأنه ركنُها، كما سميت ركوعاً وسجوداً ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، أو شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضياء والنوم الذي هو أخو الموت بالانتباه، أو مِن حقه أن يشهده الجمُّ الغفير (أي: مجتمعون كثيرون).

(٧٩) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ وبعضَ الليل فاترك الهجود (أي: النوم) للصلاة ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة. أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ مقاماً يحمده القائم فيه وكلُّ من عرفه. وهو مطلق في كل مقام يتضمَّن كرامة، والمشهور أنه مقام الشفاعة. أو لإشعاره بأن الناس يحمدونه لقيامه فيه، وما ذاك إلا مقام الشفاعة.

(٨٠) ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ أي: في القبر ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ إدخالاً مرضياً ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ أي: منه عند البعث ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إخراجاً ملقى بالكرامة. وقيل: المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة. وقيل: إدخاله في كل ما يلابسه من مكان أو أمْرٍ وإخراجه منه ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ حجة تنصرني على من خالفني، أو مَلِكاً ينصر الإسلام على الكفر.

(٨١) ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ الإسلام ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ﴾ وذهب وهلك الشرك ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ مضمحلاً غير ثابت. عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح وفيها

ثلاث مئة وستون صنماً، فجعل ينكث بمخصرة (أي: بعصا) في عين واحد واحد منها، فيقول: جاء الحق وزهق الباطل، فينكب لوجهه حتى ألقي جميعها وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من صُفر (أي: ذهب) فقال: يا عليُّ! ارمِ به، فصعد فرمى به وكسره [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى بنحوه].

(٨٢) ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى، و«مِن» للبيان، فإن كله كذلك. وقيل: إنها للتبعيض، والمعنى أن منه ما يشفي من المرض كالفاتحة وآيات الشفاء ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ لتكذيبهم وكفرهم به.

(٨٣) ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالصحة والسعة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكر الله تعالى ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ لوى عطفه (أي: أعرض) وبعُد بنفسه عنه، كأنه مستغنٍ مستبدٌّ بأمره. ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبرين ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ مِن مرضٍ أو فقرٍ ﴿كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ شديد اليأس من رَوْح الله تعالى.

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قل كلُّ أحد يعمل على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة، أو جوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ أسدُّ طريقاً وأبينُ منهجاً. وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين.

(٨٥) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبِّره ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ من الإبداعيات الكائنة بكنْ من غير مادة وتولدٍ من أصل كأعضاء جسده. أو وُجد بأمره وحدث بتكوينه. وقيل: مما استأثره الله تعالى بعلمه، لِما روي أن اليهود قالوا لقريش: سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبيَّن لهم القصتين وأبْهَمَ أمر الروح. وهو مبهمٌ في التوراة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ تستفيدونه بتوسُّط حواسكم، فإن اكتساب العقل للمعارف النظرية إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل: من فقد حساً فقدْ فَقَدَ علماً. وهو إشارة إلى أن الروح مما لا يمكن معرفة ذاته إلا بعوارض تميزه عما يلتبس به، فلهذا اقتصر على هذا الجواب.

(٨٦) ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ من يتوَّكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً.

إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾

(٨٧) ﴿**إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ**﴾ فإنها إن نالتك فلعلها تستردُّه عليك. ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً، بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به، فيكون امتناناً بإبقائه بعد المنَّة في تنزيله ﴿**إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾**﴾ كإرساله، وإنزال الكتاب عليه، وإبقائه في حفظه.

(٨٨) ﴿**قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ**﴾ في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى ﴿**لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ**﴾ وفيهم العرب العرباء وأرباب البيان وأهل التحقيق ﴿**وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾**﴾ ولو تظاهروا (أي: تعاونوا) على الإتيان به.

(٨٩) ﴿**وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا**﴾ كرَّرنا بوجوه مختلفة زيادةً في التقرير والبيان ﴿**لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ**﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه موقعها في الأنفس ﴿**فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾**﴾ إلا جحوداً.

(٩٠) ﴿**وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾**﴾ تعنتاً واقتراحاً بعد ما لزمتهم الحجة ببيان إعجاز القرآن وانضمام غيره من المعجزات إليه. والأرضُ: أرضُ مكة، والينبوع: عين لا ينضب (أي: لا يغور في الأرض) ماؤها.

(٩١) ﴿**أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾**﴾ أو يكون لك بستان يشتمل على ذلك.

(٩٢) ﴿**أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا**﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾ [سبأ: ٩]، وهو كقِطَع لفظاً ومعنى ﴿**أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾**﴾ كفيلاً بما تدعيه، أي شاهداً على صحته ضامناً لدركه. أو جماعة، فيكون حالاً من الملائكة.

(٩٣) ﴿**أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ**﴾ من ذهب ﴿**أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ**﴾ في معارجها ﴿**وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ**﴾ وحده ﴿**حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ**﴾ وكان فيه تصديقك ﴿**قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي**﴾ تعجباً من اقتراحاتهم، أو تنزيهاً لله تعالى من أن يأتي أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد في القدرة ﴿**هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا**﴾

كسائر الناس ﴿رَّسُولًا ۝٩٣﴾ كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله تعالى عليهم على ما يلائم حال قومهم، ولم يكن أمرُ الآيات إليهم، ولا لهم أن يتحكموا على الله تعالى حتى يتخيرونها عليَّ.

(٩٤) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: وما منعهم الإيمان بعد نزول الوحي وظهور الحق ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤﴾ إلا قولهم هذا. والمعنى أنه لم يبق لهم شبهة تمنعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن إلا أنكارهم أن يرسل الله تعالى بشراً.

(٩٥) ﴿قُل﴾ جواباً لشبهتهم ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يمشي بنو آدم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾ لِتمكُّنهم من الاجتماع به والتلقي منه، وأما الإِنس فعامَّتهم عُماة عن إدراك المَلَك والتلقف منه (أي: الأخذ عنه)، فإن ذلك مشروط بنوع من التناسب والتجانس.

(٩٦) ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني رسول الله تعالى إليكم بإظهاره المعجزة على وفق دعواي. أو على أني بلغت ما أُرْسِلْتُ بِهِ إليكم وأنكم عاندتم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٩٦﴾ يعلم أحوالهم الباطنة منها والظاهرة فيجازيهم عليها. وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

(٩٧) ﴿**وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ**﴾ (أي: من وفَّقه الله تعالى لقبول ما كان من الهدى فهو المهتدي عند الله تعالى [النسفي]) ﴿**وَمَن يُضْلِلْ**﴾ (أي: ومن يخذله ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان [النسفي]) ﴿**فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ**﴾ (أي: أنصاراً) يهدونهم ﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ**﴾ يُسحبون عليها، أو يمشون بها. روي أنه قيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وُجُوهِهِمْ» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿**عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ**﴾ لا يبصرون ما يُقِرُّ أعينهم، ولا يسمعون ما يُلِذُّ مسامعهم، ولا ينطقون بما يُقبل منهم، لأنهم في دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعبر وتصامُّوا عن استماع الحق وأبَوا أن ينطقوا بالصدق. ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار مؤوفي القوى والحواس (والمؤوف: من أصابته آفة، أي: مرضٌ) ﴿**مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ**﴾ سكن لهبها بأن أكلت جلودَهم ولحومَهم ﴿**زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾**﴾ توقُّداً، بأن نبدل جلودهم ولحومهم فتعود ملتهبة مستعرة. فإنهم لما كذَّبوا بالإعادة بعد الإفناء جزاهم الله تعالى بأن لا يزالون على الإعادة والإفناء. وإليه أشار بقوله تعالى:

(٩٨) ﴿**ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾**﴾ لأن الإشارة إلى ما تقدم من عذابهم.

(٩٩) ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْاْ**﴾ أو لم يعلموا ﴿**أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**﴾ فإنهم (أي: الإنس) ليسوا أشدَّ خلقاً منهنَّ، ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء ﴿**وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ**﴾ هو الموت أو القيامة ﴿**فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ مع وضوح الحق ﴿**إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾**﴾ إلا جحوداً.

(١٠٠) ﴿**قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ**﴾ خزائن رزقه وسائر نعمه ﴿**إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ**﴾ لبخلتم مخافة النفاد بالإنفاق، إذ لا أحد إلا ويختار النفع لنفسه، ولو آثر غيره بشيء فإنما يؤثره لعوضٍ يفوقه، فهو إذن بخيل بالإضافة إلى جود الله تعالى وكرمه. هذا وإن البخلاء أغلب فيهم ﴿**وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾**﴾ بخيلاً، لأن بناء أمره على الحاجة والضنة (أي: البخل) بما يحتاج إليه وملاحظة العوض فيما يبذله.

(١٠١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ هي العصا واليد والجراد والقمَّل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق (أي: رفع) الطور على بني إسرائيل. وقيل: الطوفان والسنون ونقص الثمرات، مكان الثلاثة الأخيرة. وعن صفوان أن يهودياً سأل النبي ﷺ عنها فقال: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، وَلا تَقْتُلُوا النفس التي حَرَّمَ الله إِلَّا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفرّوا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لَا تَعْدُوا فِي السبت. فقبَّل اليهودي يده ورجله [أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، والترمذي وحسَّنه]. فعلى هذا: المراد بالآيات الأحكامُ العامة للملل الثابتة في كل الشرائع، سميت بذلك لأنها تدل على حال من يتعاطى متعلقها في الآخرة من السعادة أو الشقاوة ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ فقلنا له: سلهم من فرعون (أي: اطلبهم منه) ليرسلهم معك. أو سلهم عن إيمانهم وحال دينهم. أو فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم، أو عن الآيات ليظهر للمشركين صدقك، أو لتعلم أنه تعالى لو أتى بها اقترحوا لأصروا على العناد والمكابرة كمَن قبلهُم ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ سُحرتَ فتخبط عقلك.

(١٠٢) ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ بينات تبصِّرك صدقي، ولكنك تعاند ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشر، أو هالكاً؛ قارَعَ ظنَّه (أي: ردَّ على ظنِّه) بظنه، وشتان ما بين الظنين، فإن ظنَّ فرعون كذِبٌ محضٌ وظنَّ موسى يحوم حوم اليقين من تظاهر أماراته.

(١٠٣) ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أن يستخفَّ موسى وقومه وينفيهم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر، أو الأرض مطلقاً، بالقتل والاستئصال ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ فعكسنا عليه مكره، فاستفززناه وقومَه بالإِغراق.

(١٠٤) ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد فرعون أو إغراقه ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني قيام القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ مختلطين إياكم وإياهم، ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم. واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾

١٨ سُورَةُ الكَهۡفِ ١١٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾

(١٠٥) ﴿**وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ**﴾ أي: وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله، وما نزل على الرسول إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه. وقيل: وما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصد (أي: بالمراقبة) من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين. ولعله أراد به نفي اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره (أقول: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: ما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المطابق للواقع بلا عروض الباطل عليه أصلاً ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ أي: ما نزل فيه من الأحكام والأوامر والنواهي والعبر والأمثال والرموز والإشارات والمعارف والحقائق كلها نزل بالحق الصريح الثابت الخالص عن توهم الباطل مطلقاً؛ كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم) ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا**﴾ للمطيع بالثواب ﴿**وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾**﴾ للعاصي بالعقاب. فلا عليك إلا التبشير والإنذار.

(١٠٦) ﴿**وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ**﴾ نزَّلناه مفرَّقاً منجماً. وقيل: فرَّقنا فيه الحق من الباطل ﴿**لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ**﴾ على مَهَلٍ وتؤدة (أي: تأنٍّ)، فإنه أيسر للحفظ وأعون في الفهم ﴿**وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾**﴾ على حسب الحوادث.

(١٠٧) ﴿**قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ**﴾ فإن إيمانكم بالقرآن لا يزيده كمالاً، وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً. وقوله: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ**﴾ تعليلٌ له. أي: إن لم تؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منكم؛ وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة وتمكنوا من الميز بين المحق والمبطل، أو رأوا نعتك وصفة ما أنزل إليك في تلك الكتب ﴿**إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ**﴾ القرآن ﴿**يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾**﴾ يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله تعالى أو شكراً لإنجاز وعده في تلك الكتب ببعثة محمد ﷺ على فترةٍ من الرسل وإنزال القرآن عليه.

(١٠٨) ﴿**وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ**﴾ عن خلف الموعد ﴿**إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾**﴾ إنه كان وعده كائناً لا محالة.

(١٠٩) ﴿**وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ**﴾ كرَّره لاختلاف الحال والسبب، فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد، والثاني لِما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله تعالى ﴿**وَيَزِيدُهُمۡ**﴾ سماع القرآن ﴿**خُشُوعٗا**﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً بالله تعالى.

(١١٠) ﴿**قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ**﴾ نزلت حين سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول: يا الله يا

رحمن، فقالوا: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر. أو قالت اليهود: إنك لتقِلُّ ذكرَ الرحمن وقد أكثره الله تعالى في التوراة. والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظين بأنهما يطلقان على ذات واحدة وإن اختلف اعتبار إطلاقهما، والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود المطلق. وعلى الثاني أنهما سيَّان في حسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود، وهو أجود لقوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والدعاء في الآية بمعنى التسمية. وكونُها حسنى لدلالتها على صفات الجلال والإكرام ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءة صلاتك حتى تسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى لا تسمع مَن خلفك من المؤمنين ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ وسطاً، فإن الاقتصاد في جميع الأمور محبوب.

روي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان يخفت ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وعمر رضي الله تعالى عنه كان يجهر ويقول: أطردُ الشيطان وأوقظُ الوسنان (أي: الناعس)، فلما نزلت أمَرَ رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمر أن يخفض قليلاً. وقيل: معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها، وابتغ بين ذلك سبيلاً، بالإخفات نهاراً والجهر ليلاً.

(١١١) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي: في الألوهية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ولي يواليه من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته. نفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه، اختياراً واضطراراً، وما يعاونه ويقويه، ورتَّب الحمد عليه للدلالة على أنه الذي يستحق جنس الحمد، لأنه الكامل الذات، المتفرِّد بالإيجاد، المنعم على الإطلاق، وما عداه ناقصٌ مملوك، نعمة أو منعم عليه، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه في ذلك. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الإسراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الكهف

مكيَّة، وقيل: إلا قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، وهي مئة وإحدى عشرة آية

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآن. رتَّب استحقاق الحمد على إنزاله تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمَعاد ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴿١﴾﴾ شيئاً من العوج؛ باختلالٍ في اللفظ وتنافٍ في المعنى، أو انحرافٍ من الدعوة إلى جناب الحق.

(٢) ﴿قَيِّمًا﴾ مستقيماً معتدلاً، لا إفراط فيه ولا تفريط. أو قَيِّماً بمصالح العباد، أو على الكتب السابقة يشهد بصحتها ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي: لينذر الذين كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ صادراً من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ هو الجنة.

(٣) ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ في الأجر ﴿أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ بلا انقطاع.

(٤) ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ خصَّهم بالذكر وكرَّر الإنذار متعلقاً بهم استعظاماً لكفرهم.

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

(٥) ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: إنهم يقولونه عن جهلٍ مفرط وتوهُّمٍ كاذب أو تقليدٍ لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به، فإنهم كانوا يطلقون الأب والابن بمعنى المؤثِّر والأثر. أو عن جهلٍ بالله تعالى، إذ لو علِموه لما جوَّزوا نسبة اتخاذ الولد إليه ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ﴾ الذين تقوَّلوه بمعنى التبني ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾ أي: عظُمَتْ مقالتُهم هذه في الكفر، لما فيها من التشبيه والتشريك وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يعينه ويخلفه، إلى غير ذلك من الزيغ ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

(٦) ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتِلُها ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ شَبَّهه لِما يداخله من الوجد على توليهم بمن فارقته أعِزَّتُه فهو يتحسَّر على آثارهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ بهذا القرآن ﴿أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ للتأسف عليهم. والأسف: فرْطُ الحزن والغضب.

(٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ في تعاطيه. وهو مَن زَهِدَ فيه ولم يغتر به وقنع منه بما يزجي به أيامه (أي: بما يدفعها به) وصَرَفه على ما ينبغي. وفيه تسكين لرسول الله ﷺ.

(٨) ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ تزهيدٌ فيها (أي: في الدنيا) والجُرُز: الأرض التي قُطِع نباتها. والمعنى: إنا لنعيد ما عليها من الزينة تراباً مستوياً بالأرض ونجعله كصعيد أملس لا نبات فيه.

(٩) ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ بل أحسبت ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ في إبقاء حياتهم مدةً مديدة ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ وقصتهم بالإضافة إلى خلق ما على الأرض من الأجناس والأنواع الفائتة للحصر على طبائع متباعدة وهيئات متخالفة تُعْجب الناظرين من مادة واحدة ثم ردِّها إليها ليس بعجيب، مع أنه من آيات الله تعالى كالنزر (أي: كالقليل) الحقير. والكَهْف: الغار الواسع في الجبل. والرَّقِيم: اسم الجبل أو الوادي الذي فيه كهفهم، أو اسم قريتهم. أو لوحٌ رصاصيٌّ أو حجريٌّ رُقِمت فيه أسماؤهم وجُعل على باب الكهف.

(١٠) ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ يعني فتيةً من أشراف الروم، أرادهم دقيانوس على الشرك فأبوا وهربوا إلى الكهف ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ توجِبُ لنا المغفرة والرزق والأمن من العدو ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ نصيرُ بسببه راشدين مهتدين.

(١١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: ضربنا عليها حجاباً يمنع السماع. بمعنى: أَنَمْناهم إنامَةً لا تنبِّههم فيها الأصوات ﴿فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي: ذوات عدد.

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أيقظناهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ليتعلق علمنا تعلقاً حالياً مطابقاً لتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً (وإنما قال لنعلم مع أنه تعالى لم يزل عالماً بذلك لأن المراد ماتعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيماناً [تفسير النسفي]) ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين منهم أو من غيرهم في مدة لبثهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ ضبطَ أمَداً لِزمان لبثهم.

(١٣) ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شُبَّان، جمْعُ فتى ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ بالتثبيت.

(١٤) ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وقوّيناها بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال، والجراءة على إظهار الحق، والردِّ على دقيانوس الجبار ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ بين يديه ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ والله لقد قلنا قولاً ذا شطط، أي ذا بُعدٍ عن الحق مفرطٍ في الظلم.

(١٥) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ وهو إخبار في معنى إنكار ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ هلا يأتون ﴿عَلَيْهِم﴾ على عبادتهم ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ﴾ ببرهانٍ ظاهر، فإن الدين لا يؤخذ إلا به. وفيه دليل على أن ما لا دليل عليه من الديانات مردودٌ، وأن التقليد فيه غير جائز ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ بنسبة الشريك إليه.

وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿**وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ**﴾ خطاب بعضهم لبعض ﴿**وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ**﴾ أي: وإذ اعتزلتم القوم ومعبوديهم إلا الله تعالى، فإنهم كانوا يعبدون الله تعالى ويعبدون الأصنام كسائر المشركين ﴿**فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم**﴾ يبسط الرزق لكم ويوسع عليكم ﴿**مِّن رَّحۡمَتِهِۦ**﴾ في الدارين ﴿**وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾**﴾ ما ترتفقون به، أي: تنتفعون. وجزْمهم بذلك لنصوع (أي: لخلوص) يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى.

(١٧) ﴿**وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ**﴾ لو رأيتهم. والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد ﴿**إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ**﴾ تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم، لأن الكهف كان جنوبياً، أو لأن الله تعالى زوَرَها (أي: أمالها) عنهم ﴿**ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ**﴾ جهة اليمين ﴿**وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ**﴾ (أي: تتركهم وتعدل عنهم) ﴿**ذَاتَ ٱلشِّمَالِ**﴾ يعني يمين الكهف وشماله، لقوله: ﴿**وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ**﴾ أي: وهم في متسع من الكهف، يعني في وسطه، بحيث ينالهم رَوْح الهواء (أي: بردُ النسيم والهواء الطيب) ولا يؤذيهم كرب الغار (أي: ظلمة الغار وفيؤه) ولا حرُّ الشمس فيقع شعاعها على جانبيه، ويحللُ عفونته ويعدِّل هواءه، ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويبلي ثيابهم ﴿**ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ**﴾ أي: إيواؤهم إلى كهف شأنه كذلك، أو إخبارك قصتهم، أو ازورار الشمس وقرضها طالعةً وغاربةً من آياته ﴿**مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ**﴾ بالتوفيق ﴿**فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ**﴾ الذي أصاب الفلاح. والمراد به إما الثناء عليهم أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة، ولكن المنتفِع بها من وفَّقه الله تعالى للتأمل فيها والاستبصار بها ﴿**وَمَن يُضۡلِلۡ**﴾ ومن يخذله ﴿**فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾**﴾ من يليه ويرشده.

(١٨) ﴿**وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا**﴾ لانفتاح عيونهم أو لكثرة تقلبهم ﴿**وَهُمۡ رُقُودٞۚ**﴾ نيام ﴿**وَنُقَلِّبُهُمۡ**﴾ في رقدتهم ﴿**ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ**﴾ كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم على طول الزمان ﴿**وَكَلۡبُهُم**﴾ هو كلب مرُّوا به فتبعهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال: أنا أُحِبُّ أحبَّاءَ الله، فناموا وأنا أحرسكم. أو كلبُ راعٍ مرُّوا به فتبعهم وتبعه الكلب ﴿**بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ**﴾ بفناء الكهف، وقيل: الوصيد الباب، وقيل: العتبة ﴿**لَوِ**

﴿ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فنظرت إليهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لهربت منهم ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨﴾ خوفاً يملأ صدرك لما ألبسهم الله تعالى من الهيبة، أو لِعِظَم أجرامهم وانفتاح عيونهم. وقيل: لوحشة مكانهم.

(١٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ وكما أَنَمْناهم آيةً بعثناهم آيةً على كمال قدرتنا ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً فيتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم، فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله تعالى، ويستبصروا به أمر البعث، ويشكروا ما أنعم به عليهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾ بناءً على غالب ظنهم، لأن النائم لا يحصي مدة نومه، ولذلك أحالوا العلم إلى الله تعالى ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ويجوز أن يكون ذلك قول بعضهم وهذا إنكار الآخرين عليهم. وقيل: إنهم دخلوا الكهف غدوة وانتبهوا ظهيرة وظنوا أنهم في يومهم أو اليوم الذي بعده قالوا ذلك، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا هذا، ثم لَمّا علموا أن الأمر ملتبس لا طريق لهم إلى علمه أخذوا فيما يهمهم وقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ والورِقُ: الفضة، مضروبةً كانت أو غيرَ مضروبةٍ. والمدينة: طرسوس ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾ أيُّ أهلِها ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أحلُّ وأطيب وأكثر وأرخص ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة حتى لا يُغبن (أي: لا يخدع)، أو في التخفي حتى لا يُعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ ولا يفعلنَّ ما يؤدي إلى الشعور.

(٢٠) ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يطَّلعوا عليكم أو يظفروا بكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أو يصيروكم إليها كرهاً ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾ إن دخلتم في ملَّتهم.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

(٢١) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أَنَمْناهم وبعثناهم لتزداد بصيرتهم أَطْلَعْنا عليهم ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ ليعلم الذين أَطْلعناهم على حالهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ لأن نومهم وانتباهم كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ وأن القيامة لا ريب في إمكانها. فإن من تَوفّى نفوسهم وأمسكها ثلاث مئة سنين حافظاً أبدانها عن التحلل والتفتت، ثم أرسلها إليها قَدِرَ أن يتوفى نفوس جميع الناس ممسكاً إياها إلى أن يحشر أبدانهم فيردَّها عليها ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ أي: أعثرنا عليهم حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أمرَ دينهم. وكان بعضهم يقول تُبعث الأرواح مجرَّدة، وبعضهم يقول يُبعثان معاً، ليرتفع الخلاف ويتبيَّن أنهما يُبعثان معاً ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ وقوله: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ إما من الله تعالى ردّاً على الخائضين (أي: المتكلمين) في أمرهم من أولئك المتنازعين في زمانهم، أو مِنَ المتنازعين فيهم على عهد الرسول ﷺ. حُكيَ أن المبعوث لما دخل السوق وأخرج الدراهم وكان عليها اسم دقيانوس، اتهموه بأنه وَجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك - وكان نصرانياً موحداً - فقصَّ عليه القصص، فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فرُّوا بدينهم من دقيانوس، فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكلَّموهم، ثم قالت الفتية للملِك: نستودعك الله ونعيذك به من شرِّ الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فدفنهم الملِك في الكهف وبنى عليهم مسجداً. وقيل: لمّا انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانَكم حتى أدخل أولاً لئلا يفزعوا (أي: يخافوا)، فدخل فعُمِّيَ عليهم المدخل، فبنوا ثَمَّ (أي: هناك) مسجداً.

(٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي: هم ثلاثة رجال يربعهم كلبهم بانضمامه إليهم. قيل: هو قول اليهود، ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قاله النصارى ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: ظناً بالغيب ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ إنما قاله المسلمون بإخبار الرسول ﷺ لهم عن جبرائيل عليه السلام وإيماءِ الله تعالى إليه بأن أَتبعَه قوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ

بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنا من ذلك القليل) **﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾** فلا تجادل في شأن الفتية إلاَّ جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقصَّ عليهم ما في القرآن من غير تجهيل لهم والردِّ عليهم **﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾** ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤالَ مسترشِدٍ، فإن فيما أوحي إليك لمندوحة من غيره، مع أنه لا علم لهم بها. ولا سؤال متعنِّتٍ تريدُ تفضيح المسؤول وتزييف ما عنده، فإنه مُخِلٌّ بمكارم الأخلاق.

(٢٣ـ٢٤) **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾** نهيُ تأديبٍ من الله تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الرُّوح وأصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه فقال: «ائتوني غداً أخبركم» ولم يستثنِ، فأبطأ عليه الوحي بضعة عشر يوماً حتى شقَّ عليه وكذبته قريش. والاستثناء من النهي أي: ولا تقولن لأجل شيء تعزم عليه إني فاعله فيما يستقبل إلا بأَنْ يَشاءَ الله تعالى، أي: إلا ملتبساً بمشيئته قائلاً: إن شاء الله تعالى **﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾** مشيئةَ ربِّك، وقل: إن شاء الله تعالى **﴿إِذَا نَسِيتَ﴾** إذا فرط (أي: سبق) منك نسيان لذلك ثم تذكَّرْته. ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء (أي: إذا نسيت أن تقول: إن شاء الله تعالى)، مبالغةً في الحث عليه. أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك على التدارك **﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾** يدلني **﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾** لأقرب رشداً وأظهرَ دلالةً على أني نبيٌّ من نبأ أصحاب الكهف. وقد هداه لأعظم من ذلك؛ كقصص الأنبياء المتباعدة عنه أيامهم، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة في الأعصار المستقبَلة إلى قيام الساعة. أو لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنسيِّ.

(٢٥) **﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾** يعني لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم.

(٢٦) **﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾** له ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما، فلا خلقَ يخفى عليه عِلماً **﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾** ذُكِرَ بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره في الإدراك خارجٌ عما عليه إدراك السامعين والمبصرين، إذ لا يحجبه شيء ولا يتفاوت دونه لطيف وكثيف وصغير وكبير وخفي وجلي **﴿مَا لَهُم﴾** الضمير لأهل السموات والأرض **﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾** مَن يتولى أمورهم **﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾** في قضائه **﴿أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾** منهم، ولا يجعل له فيه مدخلاً.

(٢٧) **﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾** من القرآن، ولا تسمع لقولهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:١٥] **﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾** لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيرُه **﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾** ملتجأ تعدل إليه (أي: تُقبل إليه) إذ هممت به.

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

(٢٨) ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ**﴾ احبسْها وثبِّتها ﴿**مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ**﴾ في مجامع أوقاتهم، أو في طرفي النهار ﴿**يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ**﴾ رضا الله تعالى وطاعته ﴿**وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ ولا يجاوزْهم نظرُك إلى غيرهم. والمراد نهيُ الرسول ﷺ أن يزدري بفقراء المؤمنين وتعلوَ عينه عن رَثاثة زيِّهم (أي: اهتراء ألبستهم) طموحاً إلى طراوة زيِّ الأغنياء ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ**﴾ مَن جعلنا قلبه غافلاً ﴿**عَن ذِكْرِنَا**﴾ كأميَّةَ بن خلف في دعائك إلى طرد الفقراء عن مجلسك لصناديد قريش. وفيه تنبيهٌ على أن الداعي له إلى هذا الاستدعاء غفلة قلبه عن المعقولات وانهماكه في المحسوسات، حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد ﴿**وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾**﴾ أي: تقدُّماً على الحق ونبذاً له وراء ظهره.

(٢٩) ﴿**وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ الحقُّ ما يكون من جهة الله تعالى لا ما يقتضيه الهوى (أقول: من اتبع الهوى ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، لكن لو سألته: هل جعلتَ إلهك هواك؟ يقول: لا، لكنه يتبع هواه فجعل إلهه هواه) ﴿**فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ لا أبالي بإيمان من آمن ولا كفر من كفر. وهو لا يقتضي استقلال العبد بفعله، فإنه وإن كان بمشيئته فمشيئته ليست بمشيئة ﴿**إِنَّآ أَعْتَدْنَا**﴾ هيَّأنا ﴿**لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**﴾ فسطاطها (وهو الخيمة). شبّه به ما يحيط بهم من النار. وقيل: السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط. وقيل: سرادقها دخانها. وقيل: حائط من نار ﴿**وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟**﴾ من العطش ﴿**يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ**﴾ كالجسد المذاب. وقيل: كدرديِّ الزيت (أي: عكَره) ﴿**يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ**﴾ إذا قُدِّم ليُشرَب من فرط حرارته ﴿**بِئْسَ ٱلشَّرَابُ**﴾ المُهْل ﴿**وَسَآءَتْ**﴾ النار ﴿**مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾**﴾ متَّكأ. وهو لمقابلة قوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، وإلا فلا ارتفاق لأهل النار.

(٣٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾ (بيان من اختار الإيمان، كأنه قيل: والذين آمنوا بالحقِّ الذي أوحي إليك) ﴿**إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾**﴾ (أي: لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً، بل نجزيهم عليها أفضل الجزاء [المقتطف من عيون التفاسير]).

(٣١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾ لأن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة ﴿مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ مما رَقَّ من الديباج وما غَلُظَ منه. جمعَ بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ على السرر كما هو هيئة المتنعِّمين ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الجنةُ ونعيمُها ﴿وَحَسُنَتۡ﴾ الأرائكُ ﴿مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾ متكأ.

(٣٢) ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا﴾ للكافر والمؤمن ﴿رَّجُلَيۡنِ﴾ هما أخوان من بني إسرائيل؛ كافرٌ اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا، وَرِثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فتشاطرا، فاشترى الكافر بها ضِياعاً وعقاراً، وصرَفها المؤمن في وجوه الخير، وآلَ أمرُهما إلى ما حكاه الله تعالى. وقيل: الممثَّلُ بهما أخوان من بني مخزوم؛ كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، ومؤمن وهو أبو سلمة عبد الله زوج أم سلمة قَبل رسول الله ﷺ ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ بستانين ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ من كروم ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾ وجعلنا النخيل محيطة بهما مؤزراً (أي: ملتفاً) بها كرومهما ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا﴾ وسطهما ﴿زَرۡعٗا ٣٢﴾ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه، متواصل العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق.

(٣٣) ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ ثمرَها ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ﴾ ولم تنقص من أكلها ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ يُعهد في سائر البساتين، فإن الثمار تتمُّ في عام وتنقص في عام غالباً ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ ليدوم شربهما فإنه الأصل، ويزيد بهاؤهما.

(٣٤) ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾ أنواع من المال سوى الجنتين ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ حَشَماً وأعواناً. وقيل: أولاداً ذكوراً، لأنهم الذين ينفرون معه.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

(٣٥) ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ**﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها ﴿**وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ**﴾ ضارٌّ لها بعُجْبه وكُفْره ﴿**قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ**﴾ أنْ تفنى هذِهِ الجنة ﴿**أَبَدًا ﴿٣٥﴾**﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته.

(٣٦) ﴿**وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً**﴾ كائنة ﴿**وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى**﴾ بالبعث كما زعمتَ ﴿**لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا**﴾ من جنته ﴿**مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾**﴾ مرجعاً وعاقبة، لأنها فانية وتلك باقية. وإنما أقسم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه لاستئهاله واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما يلقاه.

(٣٧) ﴿**قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ**﴾ لأنه مادة أصلك ﴿**ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ**﴾ فإنها مادتك القريبة ﴿**ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾**﴾ ثم عدلك وكمَّلك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال. جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى، لأن منشأه الشكُّ في كمال قدرة الله تعالى، ولذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب، فإن من قَدِرَ على بدء خلقه منه قَدِرَ أن يعيده منه.

(٣٨) ﴿**لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾**﴾ (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه: لكن أنا أقول هو الله تعالى ربي).

(٣٩) ﴿**وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ**﴾ وهلَّا قلت عند دخولها ﴿**مَا شَآءَ ٱللَّهُ**﴾ ما شاء الله تعالى كائنٌ، إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها ﴿**لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ**﴾ فهلا قلت: لا قوة إلا بالله تعالى، اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله جلَّ وعلا، وأن ما تيسَّر لك من عمارتها وتدبير أمرها فبمعونته وإقداره ﴿**إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾**﴾ (ولأجل ذلك تكبَّرت عليَّ وتعظَّمت [المقتطف]).

(٤٠) ﴿**فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ**﴾ في الدنيا أو في الآخرة لإيماني ﴿**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا**﴾ على جنتك لكفرك ﴿**حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ**﴾ وهي الصواعق. وقيل: بمعنى الحساب. والمراد به التقدير بتخريبها، أو عذاب حساب الأعمال السيئة ﴿**فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾**﴾ أرضاً ملساء يزلق عليها باستئصال نباتها وأشجارها.

(٤١) ﴿**أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا**﴾ أي: غائراً في الأرض ﴿**فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾**﴾ للماء الغائر تردداً في ردِّه.

(٤٢) ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وأهلكت أمواله حسبما توقعه صاحبه وأنذره منه ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ ظهراً لبطن تلهفاً وتحسراً ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ في عمارتها، لأن تقليب الكفين كناية عن الندم ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بأن سقطت عروشها على الأرض وسقطت الكروم فوقها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٤٢﴾ كأنه تذكَّر موعظة أخيه، وعلم أنه أُتِيَ مِن قِبَلِ شِرْكه، فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يهلك الله تعالى بستانَه. ويحتمل أن يكون توبة من الشرك وندماً على ما سبق منه.

(٤٣) ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدرون على نصره بدفع الإِهلاك أو رد المهلك أو الإِتيان بمثله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝٤٣﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله تعالى منه.

(٤٤) ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وتلك الحال ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ النصرة له وحده، لا يقدر عليها غيره ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ۝٤٤﴾ أي: لأوليائه.

(٤٥) ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ واذكر لهم ما تشبهه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها، أو صفتها الغريبة ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فالتفَّ بسببه، وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾ مهشوماً مكسوراً ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ تفرِّقه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الإِنشاء والإِفناء ﴿مُّقۡتَدِرًا ۝٤٥﴾ قادراً.

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

(٤٦) ﴿**ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**ۖ﴾ يتزيَّن بها الإنسان في دنياه وتفنى عنه عما قريب ﴿**وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ**﴾ وأعمال الخيرات التي تبقى له ثمرتها أبد الآباد. ويندرج فيها ما فسِّرتْ به من الصلوات الخمس وأعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والكلام الطيب ﴿**خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ**﴾ من المال والبنين ﴿**ثَوَابًا**﴾ (أي: جزاءً) ﴿**وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾**﴾ لأن صاحبها ينال بها في الآخرة ما كان يأمل بها في الدنيا (أقول: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: خير ما يرجو به العباد من أعمالهم الصلاة وغيرها من الأعمال الصالحات).

(٤٧) ﴿**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ**﴾ واذكر يوم نقلعها ونسيِّرها في الجو. أو نذهب بها فنجعلها هباء منبثاً ﴿**وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً**﴾ بادية، برزت من تحت الجبال ليس عليها ما يسترها ﴿**وَحَشَرْنَٰهُمْ**﴾ وجمعناهم إلى الموقف ﴿**فَلَمْ نُغَادِرْ**﴾ فلم نترك ﴿**مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾**﴾.

(٤٨) ﴿**وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ**﴾ شبَّهَ حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان لا ليعرفهم، بل ليأمر فيهم ﴿**صَفًّا**﴾ مصطفين، لا يحجب أحدٌ أحداً ﴿**لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ**ۚ﴾ عراةً لا شيء معكم من المال والولد، أو أحياء كخلقتكم الأولى، لقوله: ﴿**بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾**﴾ وقتاً لإنجاز الوعد بالبعث والنشور، وأن الأنبياء كذبوكم به (أقول: أي أن الأنبياء عليهم السلام قالوا لكم وما صدَّقتم).

(٤٩) ﴿**وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ**﴾ صحائف الأعمال، في الأيمان والشمائل أو في الميزان ﴿**فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ**﴾ خائفين ﴿**مِمَّا فِيهِ**﴾ من الذنوب ﴿**وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا**﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوا بها من بين الهلكات (نداؤوها على تشبيهها بشخص يطلب إقباله أي: الهلاك [تفسير الألوسي]) ﴿**مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ**﴾ تعجُّباً من شأنه ﴿**لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً**﴾ هَنَة صغيرة (أي: ذنباً صغيراً) ﴿**وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا**ۚ﴾ إلا عدَّها وأحاط بها ﴿**وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا**ۗ﴾ مكتوباً في الصحف ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾**﴾ فيكتب عليه ما لم يفعل، أو يزيد في عقابه الملائم (أي: الموافق) لعمله.

(٥٠) ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ**﴾ كرَّره في مواضع لكونه مقدِّمَةً للأمور المقصود بيانها في تلك المحالّ. وهٰهنا لما شنَّع على المفتخرين واستقبح صنيعهم قرَّر ذلك بأنه من سنن إبليس.

أو لمّا بيَّن حال المغرور بالدنيا والمعرض عنها وكان سبب الاغترار بها حب الشهوات وتسويل الشيطان زهَّدهم أولاً في زخارف الدنيا بأنها عرضة الزوال، والأعمال الصالحة خير وأبقى من أنفَسها وأعلاها، ثم نفَّرهم عن الشيطان بتذكير ما بينهم من العداوة القديمة ﴿**كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ**﴾ فخرج عن أمره بترك السجود. وفيه دليل على أن الملَك لا يعصى ألَبتة، وإنما عصى إبليس لأنه كان جنّياً في أصله ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ**﴾ أعَقيبَ ما وُجد منه تتخذونه ﴿**وَذُرِّيَّتَهُۥٓ**﴾ أولاده ﴿**أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى**﴾ فتستبدلونهم بي، فتطيعونهم بدل طاعتي ﴿**وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠**﴾ من الله تعالى، إبليسُ وذريته.

(٥١) ﴿**مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ**﴾ نفى إحضار إبليس وذريته خلق السموات والأرض وإحضارَ بعضهم خلق بعض، ليدل على نفي الاعتضاد (الاستعانة) بهم في ذلك، كما صرَّح به بقوله: ﴿**وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١**﴾ أي: أعواناً، رداً لاتخاذهم أَوْلِيَاء مِن دُونِ الله تعالى شركاءَ له في العبادة. فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقية، والاشتراكُ فيه يستلزم الاشتراكَ فيها. وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: ما أشهدتهم خلق ذلك وما خصصتهم بعلوم لا يعرفها غيرهم حتى لو آمنوا تبعهم الناس كما يزعمون، فلا تلتفتْ إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين، فإنه لا ينبغي لي أن أعتضد (أي: أستعين وأتقوى) بالمضلين لديني.

(٥٢) ﴿**وَيَوْمَ يَقُولُ**﴾ أي: الله تعالى للكافرين ﴿**نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ**﴾ أنهم شركائي أو شفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي. وإضافة الشركاء على زعمهم للتوبيخ. والمراد ما عُبد من دونه. وقيل: إبليس وذريته ﴿**فَدَعَوْهُمْ**﴾ فنادَوهم للإغاثة ﴿**فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ**﴾ فلم يغيثوهم ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم**﴾ بين الكفار وآلهتهم ﴿**مَّوْبِقًا ۝٥٢**﴾ مهلكاً يشتركون فيه وهو النار. أو عداوةً هي في شدتها هلاك. وقيل: البين الوَصْل، أي: وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة.

(٥٣) ﴿**وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ**﴾ فأيقنوا ﴿**أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا**﴾ مخالطوها واقعون فيها ﴿**وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣**﴾ انصرافاً، أو مكانًا ينصرفون إليه.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾

(٥٤) ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ**﴾ من كل جنس يحتاجون إليه ﴿**وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٖ**﴾ يتأتى منه الجدل ﴿**جَدَلٗا ﴿٥٤﴾**﴾ خصومة بالباطل.

(٥٥) ﴿**وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ**﴾ وهو الرسول الداعي والقرآن المبين ﴿**وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ**﴾ من الذنوب ﴿**إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ**﴾ إلا طلب أو انتظار أن تأتيهم سنة الأولين، وهي الاستئصال ﴿**أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ**﴾ عذاب الآخرة ﴿**قُبُلٗا ﴿٥٥﴾**﴾ عياناً.

(٥٦) ﴿**وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ**﴾ للمؤمنين والكافرين ﴿**وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ**﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات، والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتاً ﴿**لِيُدْحِضُواْ بِهِ**﴾ ليزيلوا بالجدال ﴿**ٱلْحَقَّۖ**﴾ عن مقرِّه ويبطلوه ﴿**وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي**﴾ يعني القرآن ﴿**وَمَآ أُنذِرُواْ**﴾ أي: والذي أنذروا به من العقاب ﴿**هُزُوٗا ﴿٥٦﴾**﴾ استهزاء.

(٥٧) ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ**﴾ بالقرآن ﴿**فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ فلم يتدبَّرها ولم يتذكر بها ﴿**وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ**﴾ من الكفر والمعاصي ولم يتفكر في عاقبتها ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً**﴾ (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أي أغطية) ﴿**أَن يَفْقَهُوهُ**﴾ كراهة أن يفقهوه ﴿**وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗاۖ**﴾ يمنعهم أن يستمعوه حق استماعه ﴿**وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾**﴾ تحقيقاً ولا تقليداً، لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون.

(٥٨) ﴿**وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ**﴾ البليغ المغفرة ﴿**ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ**﴾ الموصوفُ بالرحمة ﴿**لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ**﴾ استشهادٌ على ذلك بإمهال قريش مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ ﴿**بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ**﴾ وهو يوم بدر، أو يوم القيامة ﴿**لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلٗا ﴿٥٨﴾**﴾ مَنجى ولا ملجأ.

(٥٩) ﴿**وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ**﴾ يعني قرى عاد وثمود وأضرابهم ﴿**أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ**﴾ كقريش بالتكذيب والمراء وأنواع المعاصي ﴿**وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدٗا ﴿٥٩﴾**﴾ أي: وجعلنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم.

(٦٠) ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ**﴾ واذكر إذ قال موسى ﴿**لِفَتَىٰهُ**﴾ يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليهم

الصلاة والسلام، فإنه كان يخدمه ويتبعه، ولذلك سماه فتاه ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال أسير ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق. وُعِدَ لقاء الخضر فيه ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ أو أسير زماناً طويلاً. والمعنى: حتى يقع إما بلوغ المجمع أو مُضِيُّ الحُقُب. والحُقُب: الدهر، وقيل: ثمانون سنة. روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام خطب الناس بعد هلاك القبط ودخوله مصر خطبة بليغة فأعجب بها، فقيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا. فأوحى الله تعالى إليه: بل عبدنا الخضر، وهو بمجمع البحرين [الحديث أخرجه الشيخان]. وقيل: إن موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه: أيُّ عبادك أحبُّ إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأيُّ عبادك أقضى؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. (أقول: هذا الهوى قلَّ من يخلص منه، إلا من أعانه الله تعالى). قال: فأيُّ عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو تردُّه عن ردى (أي: هلاك). فقال: إن كان في عبادك أعلم مني فاذْللني عليه، قال: أعلم منك الخضر عليه السلام. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً (مشوياً) في مِكتل (أي: زنبيل)، فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدتَ الحوت فأخبرْني، فذهبا يمشيان.

(٦١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى عليه الصلاة والسلام أن يطلبه ويتعرَّف حاله، ونسي يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام رقد، فاضطرب الحوت المشويُّ ووثب في البحر معجزة لموسى أو الخضر عليهما السلام. وقيل: توضَّأ يوشع من عين الحياة، فانتضح الماءَ عليه، فعاش ووثب في الماء. وقيل: نسيا تفقُّدَ أمْرِه وما يكون منه أمارةً على الظفَرِ بالمطلوب ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

(٦٢) ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا**﴾ مجمع البحرين ﴿**قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا**﴾ ما نتغدى به ﴿**لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾**﴾ قيل: لم يَنصَب حتى جاوز الموعد، فلمّا جاوزه وسار الليلة والغد إلى الظهر أُلقِيَ عليه الجوع والنصَب (أي: التعب). وقيل: لم يَعْيَ (أي: لم يَتعَبْ) موسى في سفرٍ غيره.

(٦٣) ﴿**قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ**﴾ أرأيتَ ما دهاني (أي: أصابني) إذ أوينا ﴿**إِلَى ٱلصَّخْرَةِ**﴾ يعني الصخرة التي رقد عندها موسى. وقيل: هي الصخرة التي دون نهر الزيت (وهو علَمٌ لمكان هناك، سُمِّي بنهر الزيت لكثرة أشجار الزيت على جانبه) ﴿**فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ**﴾ فقدتُه. أو نسيت ذكرَه بما رأيتُ منه ﴿**وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ**﴾ أي: وما أنساني ذكره إلا الشيطان. وهو اعتذار عن نسيانه بشغل الشيطان له بوساوسه. والحال وإن كانت عجيبة لا يُنسى مثلها، لكنه لما ضَرِيَ (أي: اعتاد) بمشاهدة أمثالها عند موسى عليه الصلاة والسلام وألِفَها قلَّ اهتمامُه بها. ولعله نسي ذلك لاستغراقه في الاستبصار وانجذاب شراشره (أي: جميع موجوداته) إلى جناب القدس بما عراه من مشاهدة الآيات الباهرة. وإنما نسَبَه إلى الشيطان هضماً لنفسه ﴿**وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾**﴾ أي: اتخاذاً عجباً.

(٦٤) ﴿**قَالَ ذَٰلِكَ**﴾ أي: أمرُ الحوت ﴿**مَا كُنَّا نَبْغِ**﴾ نطلب، لأنه أمارة المطلوب ﴿**فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا**﴾ فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه ﴿**قَصَصًا ﴿٦٤﴾**﴾ يقصَّان قصصاً، أي يتَّبعان آثارهما اتباعاً حتى أتيا الصخرة.

(٦٥) ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ**﴾ والجمهور على أنه الخضر عليه السلام، واسمه بليا بن ملكان ﴿**ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا**﴾ هي الوحي والنبوة (أقول: الخضر عليه السلام مختلَفٌ في نبوته، فلا بد أن نفوِّض الأمر إلى الله تعالى) ﴿**وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾**﴾ مما يختص بنا ولا يُعلم إلا بتوفيقنا، وهو علم الغيوب.

(٦٦) ﴿**قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ**﴾ على شرط أن تعلمني ﴿**مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾**﴾ علماً ذا رشد، وهو إصابة الخير. ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليه فيما بُعث به من أصول الدين وفروعه لا مطلقاً، وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه، واستأذن أن يكون تابعاً له، وسأل منه أن يرشده ويُنعم عليه بتعليم بعضِ ما أنعم الله تعالى عليه.

(٦٧) ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد، كأنه مما لا يصحُّ ولا يستقيم، وعللَ ذلك واعتذر عنه بقوله:

(٦٨) ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ أي: وكيف تصبر وأنت نبيٌّ على ما أتولى من أمورٍ ظواهرُها مناكير وبواطنُها لم يحط بها خبرك.

(٦٩) ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غير مُنكِر عليك ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾ أي: ستجدني صابراً وغير عاصٍ. وتعليق الوعد بالمشيئة إما للتيمن (أي: التبرُّك) أو لِعلمه بصعوبة الأمر؛ فإن مشاهدة الفساد والصبرَ على خلاف المعتاد شديدٌ بلا خلاف. وفيه دليل على أن أفعال العباد واقعةٌ بمشيئة الله تعالى.

(٧٠) ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ فلا تفاتحني بالسؤال عن شيء أنكرتَه مني ولم تعلمْ وجهَ صحته ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾ حتى أبتدئك ببيانه.

(٧١) ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ على الساحل يطلبان السفينة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أخذ الخضر عليه السلام فأساً فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ فإنَّ خرْقها سببٌ لدخول الماء فيها المفضي إلى غرق أهلها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١﴾ أتيت أمراً عظيماً.

(٧٢) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢﴾ تذكيرٌ لِما ذكره قبلُ.

(٧٣) ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذي نسيته، يعني وصيَّته بأن لا يعترض عليه. وهو اعتذار بالنسيان أخرجه في معرض النهي عن المؤاخذة مع قيام المانع لها. وقيل: أراد بالنسيان التركَ؛ أي: لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣﴾ ولا تغشَني (أي: لا تُلحِقني) عسراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذة على المنسيِّ، فإن ذلك يعسر على متابعتك.

(٧٤) ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي: بعدما خرجا من السفينة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ والفاء للدلالة على أنه لمّا لقيه قتله من غير تروٍّ واستكشافِ حالٍ، ولذلك: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةَۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: طاهرةً من الذنوب. فإنها كانت صغيرة ولم تبلغ الحلم. أو أنه لم يرَها قد أذنبت ذنباً يقتضي قتلها، أو قتلت نفساً فتقاد بها. نبَّه به على أن القتل إنما يباح حدّاً أو قِصاصاً، وكلا الأمرين منتفٍ ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤﴾ أي: منكَراً.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

(٧٥) ﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴿٧٥﴾﴾ زادَ فيه لَكَ مكافحةً (أي: مواجَهةً) بالعتاب على رفض الوصية، ووسْماً (أي: وصْفاً) بقلة الثبات والصبر لمّا تكرَّر منه الاشمئزاز (أي: التكرُّه) والاستنكار ولم يرْعَوِ (أي: لم ينزجر) بالتذكير أولَ مرة حتى زاد في الاستنكار ثاني مرة.

(٧٦) ﴿**قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا** ﴿٧٦﴾﴾ قد وجدتَ عذراً من قِبَلي لمّا خالفتك ثلاث مرات. وعن رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي موسى استحيى فقال ذلك، ولو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب» [أخرجه أبو داود والترمذي وأخرجه مسلم رحمهم الله تعالى بلفظ قريب].

(٧٧) ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ**﴾ قرية أنطاكية ﴿**اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ**﴾ يداني (أي: يقارب) أن يسقط ﴿**فَأَقَامَهُ**﴾ بعمارته أو بعمود عمده به. وقيل: مسحه بيده فقام. وقيل: نقضه وبناه ﴿**قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا** ﴿٧٧﴾﴾ تحريضاً على أخذ الجَعل لينتعشا (أي: يعيشا) به. أو تعريضاً بأنه فضول؛ كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسَه.

(٧٨) ﴿**قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**﴾ الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله: فَلا تُصاحِبْني، أو إلى الاعتراض الثالث ﴿**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴿٧٨﴾﴾ بالخبر الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكراً من حيث الظاهر.

(٧٩) ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ**﴾ أي: لمحاويج. وهو دليل على أن المسكين يُطلق على من يملك شيئاً إذا لم يكفِه. وقيل: سُمُّوا مساكين لعجزهم عن دفع الملِكِ ولزمانتهم (الزمانة: الضعف من كِبَر أو مرض)، فإنها كانت لعشرة إخوة؛ خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر ﴿**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾ أجعلها ذات عيب ﴿**وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ**﴾ قدامهم، أو خلفهم وكان رجوعهم عليه، واسمه جلندى بن كركر ﴿**يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا** ﴿٧٩﴾﴾ من أصحابها.

(٨٠) ﴿**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا** ﴿٨٠﴾﴾ لنعمتهما، بعقوقه فيلحقهما

شراً، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر. أو يُعْديهما بعلته فيرتدا بإضلاله، أو بممالأته (أي: مساعدته) على طغيانه وكفره حبّاً له؛ وإنما خشي ذلك لأن الله تعالى أعلمه.

(٨١) ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أن يرزقهما بدَله ولداً خيراً منه ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ رحمة وعطفاً على والديه.

(٨٢) ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ من ذهب وفضة. وقيل: من كتب العلم. وقيل: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: عجبتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلُّبَها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ تنبيهٌ على أن سعيه في ذلك كان لصلاحه. وقيل: كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا فيه سبعة آباء، وكان سياحاً (أي: كثير السياحة)، واسمه كاشح ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: الحلم وكمال الرأي ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ مرحومين من ربك. ولعل إسناد الإِرادة أولاً إلى نفسه لأنه المباشِر للتعييب، وثانياً إلى الله تعالى وإلى نفسه لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله تعالى بدَله، وثالثاً إلى الله تعالى وحده لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين. أو لأن الأول في نفسه شرٌّ، والثالث خيرٌ، والثاني ممتزج. أو لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسائط ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ وما فعلت ما رأيتَه ﴿عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ عن رأيي، وإنما فعلته بأمر الله عز وجل. ومبنى ذلك على أنه إذا تعارض ضرران يجب تحمُّل أهونهما لدفع أعظمهما، وهو أصل ممهّد، غير أن الشرائع في تفاصيله مختلفة ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ أي: ما لم تستطع. ومن فوائد هذه القصة أن لا يُعجب المرء بعلمه (أقول: وهذه الحالة يلزم لها عقل، ويلزم لها صبر، ويلزم لها تفكر)، ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سراً لا يعرفه، وأن يداوم على التعلم، ويتذلل للمعلم، ويراعي الأدب في المقال، وأن ينبِّه المجرم على جرمه ويعفو عنه، حتى يتحقق إصراره، ثم يهاجر عنه.

(٨٣) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ﴾ يعني إسكندر الرومي. ملَكَ فارس والروم، وقيل: المشرق والمغرب، ولذلك سُمي ذا القرنين. أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها. وقيل: لأنه انقرض في أيامه قرنان من الناس. واختُلِف في نبوَّته، مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه. والسائلون هم اليهود، سألوه امتحاناً، أو مشركو مكة ﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ خطاب للسائلين، والهاء لذي القرنين. وقيل: لله سبحانه وتعالى.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

(٨٤) ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ أي: مكَّنّا له أمره من التصرُّف فيها كيف شاء ﴿**وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ**﴾ أراده وتوجَّهَ إليه ﴿**سَبَبًا ﴿٨٤﴾**﴾ وصلة توصله إليه، من العلم والقدرة والآلة.

(٨٥) ﴿**فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾**﴾ أي: فأراد بلوغ المغرب، فاتبع سبباً يوصله إليه.

(٨٦) ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾ ذات حمأة (أي: طين أسود منتِن) ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك، إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ﴿**وَوَجَدَ عِندَهَا**﴾ عند تلك العين ﴿**قَوْمًا ۗ**﴾ قيل: كان لباسهم جلود الوحش، وطعامهم ما لفَظه البحر، وكانوا كفاراً، فخيَّره الله تعالى بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان، كما حكى بقوله: ﴿**قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ**﴾ أي: بالقتل على كفرهم ﴿**وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾**﴾ بالإرشاد وتعليم الشرائع.

(٨٧) ﴿**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾**﴾ أي: فاختار الدعوة وقال: أما من دعوته فظلم نفسه بالإصرار على كفره أو استمر على ظلمه الذي هو الشرك فنعذبه أنا ومن معي في الدنيا بالقتل، ثم يعذبه الله تعالى في الآخرة عذاباً منكراً لم يعهد مثله.

(٨٨) ﴿**وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا**﴾ وهو ما يقتضيه الإيمان ﴿**فَلَهُۥ**﴾ في الدارين ﴿**جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ**﴾ أي: فله المثوبة الحسنى مجزياً بها. ونداء الله تعالى إياه إن كان نبياً فبوحي، وإن كان غيره فبإلهامٍ أو على لسان نبيٍّ ﴿**وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا**﴾ بما نأمر به ﴿**يُسْرًا ﴿٨٨﴾**﴾ سهلاً متيسراً غير شاق.

(٨٩) ﴿**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾**﴾ ثم اتبع طريقاً يوصله إلى المشرق.

(٩٠) ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ**﴾ يعني الموضع الذي تطلع الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض ﴿**وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾**﴾ من اللباس أو البناء، فإن أرضهم لا تمسك الأبنية، أو أنهم اتخذوا الأسراب (والسربُ: جحر الوحش، أو الحفير تحت الأرض) بدل الأبنية.

(٩١) ﴿**كَذَٰلِكَ ۖ**﴾ أي: أمْرُ ذي القرنين ﴿**وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ**﴾ من الجنود والآلات والعُدد والأسباب ﴿**خُبْرًا ﴿٩١﴾**﴾ عِلماً تعلق بظواهره وخفاياه. والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير جل وعلا.

(٩٢) ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٩٢﴾ يعني طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

(٩٣) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدُّه، وهما جبلا أرمينية وأذربيجان. وقيل: جبلان منيفان (أي: مرتفعان) في أواخر الشمال، في منقطع أرض الترك، من ورائهما يأجوج ومأجوج ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمًا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا ۝٩٣﴾ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم.

(٩٤) ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ أي: قال مترجمهم ﴿إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ﴾ قبيلتان من ولد يافث بن نوح ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع. قيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه. وقيل: كانوا يأكلون الناس ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ جَعلا نخرجه من أموالنا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدًّا ۝٩٤﴾ يحجز دون خروجهم علينا.

(٩٥) ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٌ﴾ ما جعلني فيه مكيناً من المال والمُلك خير مما تبذلون لي من الخراج، ولا حاجة بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بقوةِ فعلةٍ، أو بما أتقوى به من الآلات ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝٩٥﴾ حاجزاً حصيناً، وهو أكبر من السد.

(٩٦) ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ قِطَعَهُ، والزبرة: القطعة الكبيرة. وهو لا ينافي ردَّ الخراج والاقتصار على المعونة لأن الإيتاء بمعنى المناولة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ بين جانبي الجبلين بتنضيدها (أي: بضمِّ بعضها إلى بعض) ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ﴾ أي: قال للعمَّال انفخوا في الأكوار والحديد (الأكوار: جمع كور، وهو مجمرة الحدَّاد) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ جعل المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ كالنار بالإحماء ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا ۝٩٦﴾ أي: نحاساً مذاباً.

(٩٧) ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أن يعلوه بالصعود لارتفاعه وانملاسه ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا ۝٩٧﴾ لثخنه وصلابته. وقيل: حفرَ للأساس حتى بلغ الماء، وجعله من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زُبَرِ الحديد، بينها الحطب والفحم، حتى ساوى أعلى الجبلين، ثم وضع المنافيخ حتى صارت كالنار، فصب النحاس المذاب عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

(٩٨) ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ هذا السدُّ، أو الإقدارُ على تسويته ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ على عباده ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقتُ وعده بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة، بأن شارف يوم القيامة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: أرضاً مستوية ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾ كائناً لا محالة.

(٩٩) ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وجعلنا بعض يأجوج ومأجوج حين يخرجون مما وراء السد يموجون بعضهم في بعض مزدحمين في البلاد. أو يموج بعض الخلائق في بعض ويضطربون ويختلطون إنسهم وجنّهم حيارى، ويؤيده قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾ للحساب والجزاء.

(١٠٠) ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)﴾ وأبرزناها وأظهرناها لهم.

(١٠١) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ عن آياتي التي ينظر إليها فأُذكَر بالتوحيد والتعظيم ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾ استماعاً لذكري وكلامي، لإفراط صممهم عن الحق، فإن الأصم قد لا يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء كأنهم أُصِمَّتْ مسامعهم بالكلية.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أفظنوا. والاستفهام للإنكار ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ اتخاذَهم الملائكة والمسيح ﴿مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ معبودين نافعهم، أو لا أعذبهم به ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)﴾ ما يقام للنزيل. وفيه تهكُّمٌ وتنبيهٌ على أن لهم وراءها من العذاب ما تُستحقر دونه.

(١٠٣) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ (الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ) ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣)﴾ (وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة في نفسها وفي حسبانهم، حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها [المقتطف من عيون التفاسير]).

(١٠٤) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ضاع وبطل لكفرهم وعُجبهم، كالرَّهابنة فإنهم خسروا دنياهم وآخرتهم ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ بعجبهم واعتقادهم أنهم على الحق.

(١٠٥) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بالقرآن، أو بدلائله المنصوبة على التوحيد والنبوَّة. ﴿وَلِقَائِهِ﴾ بالبعث على ما هو عليه، أو لقاء عذابه ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بكفرهم، فلا يثابون عليها ﴿فَلَا نُقِيمُ

لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ فنزدري بهم (أي: نحتقرهم) ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً. أو لا نضع لهم ميزاناً توزن به أعمالهم لانحباطها.

(١٠٦) ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: بسبب ذلك.

(١٠٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده. والْفِرْدَوْسُ: أعلى درجات الجنة.

(١٠٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ تحوُّلاً، إذ لا يجدون أطيب منها حتى تنازعَهم إليه أنفسهم. ويجوز أن يراد به تأكيد الخلود.

(١٠٩) ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ ما يُكتب به. وهو اسم ما يمد الشيء كالحبر للدواة والسليط (أي: الزيت) للسراج ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ لكلمات علمه وحكمته ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ لنفد جنس البحر بأسره، لأن كل جسم متناهٍ ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ فإنها غير متناهية، لا تنفد كعلمه ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ بمثل البحر الموجود ﴿مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ زيادة ومعونة، لأن مجموع المتناهين متناهٍ، بل مجموع ما يدخل في الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً، للدلائل القاطعة على تناهي الأبعاد، والمتناهي ينفَد قبل أن ينفد غير المتناهي لا محالة.

(١١٠) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدَّعي الإحاطة على كلماته ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإنما تميَّزتُ عنكم بذلك ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يأمل حسن لقائه، أو يخاف سوء لقائه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يرتضيه الله تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ بأن يرائيَه أو يطلب منه أجراً (أقول: هذا للمؤمن، فالرياء ليس للكافر فقط). وعنه عليه الصلاة والسلام: «اتقوا الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء» [روى نحوه الإمام أحمد رحمه الله تعالى]. والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل؛ وهما التوحيد والإِخلاص في الطاعة.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الكهف
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ مَرْيَمَ ١٩ — ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة مريم

مكيَّة إلا آية السجدة، وهي ثمان أو تسع وتسعون آية

(١) ﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾.

(٢) ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: هذا المتلوُّ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ②﴾.

(٣) ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ③﴾ لأن الإخفاء والجهر عند الله تعالى سِيَّان، والإخفاء أشد إخباتاً (أي: خشوعاً) وأكثر إخلاصاً. أو لئلا يُلام على طلب الولد في إبان (أي: في وقت) الكبر. أو لئلا يطلع عليه مواليهِ الذين خافهم.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ الوهن: الضعف. وتخصيصُ العظم لأنه دعامة البدن وأصل بنائه ولأنه أصلب ما فيه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبَّه الشيب في بياضه وإنارته بشواظ النار (أي: لهبها)، وانتشارَه في الشعر باشتعالها ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④﴾ بل كلما دعوتُكَ استجبتَ لي. وهو توسّلٌ بما سَلف معه من الاستجابة، وتنبيهٌ على أن المدعو له وإن لم يكن معتاداً فإجابته معتادة، وأنه تعالى عوَّده بالإجابة وأطمعه فيها، ومِن حقِّ الكريم أن لا يخيِّب مَن أطمعه.

(٥) ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ يعني بني عمِّه، وكانوا أشرار بني إسرائيل، فخاف أن لا يُحسنوا خلافته على أمّته ويبدِّلوا عليهم دينهم ﴿مِن وَرَآءِي﴾ بعد موتي ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ فإن مثله لا يرجى إلا من فضلك وكمال قدرتك، فإني وامرأتي لا نصلح للولادة ﴿وَلِيًّا ⑤﴾ من صُلبي.

(٦) ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ المراد وراثة الشرع والعلم، فإن الأنبياء لا يورِّثون المال ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥﴾ ترضاه قولاً وعملاً.

(٧) ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ جوابٌ لندائه، ووعدٌ بإجابة دعائه. وإنما تولى تسميته تشريفاً له ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦﴾ لم يُسمَّ أحدٌ بيحيى قبله.

(٨) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧﴾ جساوةً (قساوةً) وقحولاً (يبساً) في المفاصل. وإنما استعجَبَ الولدَ من شيخ فانٍ وعجوزٍ عاقرٍ اعترافاً بأن المؤثِّر فيه كمالُ قدرته

جلَّ وعلا، وأن الوسائط (بالنسبة للقدرة والمشيئة) عند التحقيق ملغاة، ولذلك:

(٩) ﴿قَالَ﴾ أي: الله تعالى أو الملَك المبلِّغ للبشارة تصديقاً له: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ لا أحتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ٩﴾ بل كنتَ معدوماً صِرفاً.

(١٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ علامةً أعلمُ بها وقوع ما بشرَّتني به ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠﴾ سَوِيَّ الخَلْقِ ما بك من خرس ولا بكم. وإنما ذكَرَ الليالي هٰهنا والأيامَ في «آل عمران» [آية: ٤١] ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام ولياليهن.

(١١) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ من المصلَّى أو من الغرفة ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ فأومأ (أي: أشار) إليهم. وقيل: كتبَ لهم على الأرض ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾ صَلُّوا أو نزِّهوا ربكم ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١﴾ طرَفي النهار. ولعله كان مأموراً بأن يسبِّح ويأمر قومه بأن يوافقوه (أقول: وفي هذا دليل على توجيه المسلمين إلى كثرة الذكر).

يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾

(١٢) ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿بِقُوَّةٖۖ﴾ بجدٍّ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾﴾ يعني الحكمة وفَهْمَ التوراة. وقيل: النبوَّة. أحكم الله تعالى عقله في صباه واستنبأه (أي: جعله نبياً).

(١٣) ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ ورحمة منَّا عليه، أو رحمة وتعطُّفاً في قلبه على أبويه وغيرهما ﴿وَزَكَوٰةٗۖ﴾ وطهارة من الذنوب. أو صدقة، أي: تصدَّق الله تعالى به على أبويه، أو وفَّقه للتصدُّق على الناس ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾﴾ مطيعاً متجنِّباً عن المعاصي.

(١٤) ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ وبارّاً بهما ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾﴾ عاقّاً أو عاصيَ ربِّه.

(١٥) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ مِن الله تعالى ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم (قال عليه الصلاة والسلام: «ما من مولود إلا نحسه الشيطان فيستهلُّ صارخاً» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]) ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ من عذاب القبر ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾﴾ من عذاب النار وهوْل القيامة.

(١٦) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في القرآن ﴿مَرۡيَمَ﴾ يعني قصَّتَها ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ اعتزلت ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾﴾ شرقيَّ بيت المقدس، أو شرقيَّ دارها. ولذلك اتخذ النصارى المشرقَ قبلةً.

(١٧) ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ ستراً ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾﴾ أتاها جبرائيل عليه السلام متمثِّلاً بصورة شاب سويِّ الخَلق لتستأنس بكلامه.

(١٨) ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ من غاية عفافها ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾﴾ تتقي الله تعالى وتحتفل بالاستعاذة (أي: تُعنى بها)، ويجوز أن يكون للمبالغة؛ أي إن كنت تقيّاً متورِّعاً فإني أعوذ منك، فكيف إذا لم تكن كذلك؟

(١٩) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذتِ به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا﴾ أي: لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع (أي: القميص) ﴿زَكِيّٗا ﴿١٩﴾﴾ طاهراً من الذنوب. أو نامياً على الخير، أي: مترقِّياً من سِنٍّ إلى سِنٍّ على الخير والصلاح.

(٢٠) ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي﴾ ولم يباشِرني ﴿بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾﴾ (أي: فاجرة).

(٢١) ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ﴾ أي: ونفعل ذلك لنجعله ﴿ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ علامةً

لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ على العباد، يهتدون بإرشاده ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ أي: تعلَّقَ به قضاء الله تعالى في الأزل. أو قُدِّرَ وسُطِّرَ في اللوح (أقول: أي في علمه ومشيئته جلَّ وعلا).

(٢٢) ﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾ بأن نفخ في درعها (أي: قميصها) فدخلت النفخة في جوفها ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ فاعتزلت وهو في بطنها ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل. وقيل: أقصى الدار.

(٢٣) ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ فألجأها المخاض ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة. وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة فيها، وكان الوقت شتاء. ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آياته ما يسكِّن روعتها (أي: خوفها) ويطعمها الرطب الذي هو خرسة النفساء (أي: طعامها) الموافقة لها ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ استحياء من الناس ومخافةَ لومِهم ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا﴾ ما من شأنه أن يُنسى ولا يُطلب ﴿مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ منسيَّ الذكر بحيث لا يخطر ببالهم.

(٢٤) ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ عيسى عليه الصلاة والسلام. وقيل: جبريل عليه السلام، كان يقبِّل الولد. وقيل: تحتها أسفل من مكانها ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ جدولاً (وهو النهر الصغير).

(٢٥) ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ وأميليه إليك، أو هُزِّي الثمرة بهزِّه. والهزُّ تحريكٌ بجذب ودفع. ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ روي أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر، وكان الوقت شتاء، فهزتها فجعل الله تعالى لها رأساً وخوصاً (الخوص: ورق النخل) ورطباً. وتسليتها بذلك لما فيه من المعجزات الدالة على براءة ساحتها، فإن مثلها لا يُتصوَّر لمن يرتكب الفواحش، والمنبِّهة لمن رآها عليه على أنَّ من قَدِرَ أن يُثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدِرَ أن يُحبلها من غير فحلٍ، وأنه ليس ببِدعٍ (أي: ليس بغريب) من شأنها مع ما فيه من الشراب والطعام. ولذلك رتَّبَ عليه الأمرين فقال تعالى:

فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

(٢٦) ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ أي: من الرُّطَب وماء السري (أي: ماء الجدول)، أو من الرطب وعصيره ﴿وَقَرِّي عَيْنًاۖ﴾ وطيِّبي نفسك وارفضي عنها ما أحزنك ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فإن تري آدمياً ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ صمتاً، أو صياماً، وكانوا لا يتكلَّمون في صيامهم ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ بعد أن أخبرتكم بنذري، وإنما أكلِّم الملائكة وأناجي ربي. وقيل: أخبرَتهم بنذرها بالإِشارة. وأمَرَها بذلك لكراهة المجادلة والاكتفاء بكلام عيسى عليه الصلاة والسلام، فإنه كافٍ في قطع الطاعن (أي: العائب لها).

(٢٧) ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾ أي: مع ولدها ﴿قَوْمَهَا﴾ راجعة إليهم، بعد ما طهُرت من النفاس ﴿تَحْمِلُهُۥۖ﴾ حاملة إياه ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ أي: بديعاً (مدهشاً) منكراً.

(٢٨) ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ يعنون هارون النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت من أعقاب من كان معه في طبقة الأخوة. وقيل: كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة. وقيل: هو رجل صالح أو طالح كان في زمانهم شبَّهوها به تهكُّماً، أو لِما رأوا قبلُ من صلاحها، أو شتموها به ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ تقرير لأن ما جاءت به فريٌّ (أي: عجيب)، وتنبيه على أن الفواحش من أولاد الصالحين أفحشُ.

(٢٩) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ﴾ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أن كلِّموه ليجيبكم ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ ولم نعهَد صبياً في المهد كلَّمَه عاقل.

(٣٠) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقه الله تعالى به أولاً لأنه أول المقامات وللرد على من يزعم ربوبيته ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾.

(٣١) ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ نفَّاعاً معلماً للخير. والتعبير بلفظ الماضي إما باعتبار ما سبق في قضائه، أو بجعل المحقَّق وقوعه كالواقع. وقيل: أكمل الله تعالى عقله واستنبأه طفلاً ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ حيث كنت ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾ وأمرني ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ زكاة المال إنْ ملكته، أو تطهير النفس عن الرذائل ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

(٣٢) ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ وباراً بها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ عند الله تعالى من فرط تكبُّره.

(٣٣) ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ (أي: وسلام الله تعالى عليَّ في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، ويوم خروجي حيّاً من قبري [المقتطف]) وفيه تعريض باللعن على أعدائه.

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ أي: الذي تقدَّم نعتُه هو عيسى ابن مريم عليه السلام، لا ما يصفه النصارى؛ وهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الأبلغ والطريق البرهاني، حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: هو قول الحق الذي لا ريب فيه ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ أي: في أمره يشكُّون أو يتنازعون؛ فقالت اليهود: ساحرٌ، وقالت النصارى: ابنُ الله.

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ تكذيب للنصارى وتنزيه لله تعالى عما بَهَتوه ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ تبكيتٌ (أي: توبيخ) لهم. فإن من إذا أراد شيئاً أوجده بـ«كُنْ» كان منزَّهاً عن شبَهِ الخلق إلى الحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الإِناث (أقول: أمْرُه جلَّ وعلا ليس باللفظ، إنما هو بإرادته ومشيئته جلَّ وعلا).

(٣٦) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾ (وهو من كلام عيسى عليه السلام، يعني كما أنا عبده فأنتم عبيده، عليَّ وعليكم أن نعبده، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً [النسفي]).

(٣٧) ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ اليهود والنصارى. أو فِرَق النصارى: نسطورية قالوا: إنه ابن الله، ويعقوبية قالوا: هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، وملكانية قالوا: هو ثالث ثلاثة، وموحِّدون قالوا: هو عبد الله ونبيُّه ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ من شهود يوم عظيمٌ هولُه وحسابُه وجزاؤه، وهو يوم القيامة.

(٣٨) ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾ تعجُّبٌ معناه أن استماعهم وأبصارهم ﴿يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ﴾ أي: يوم القيامة جدير بأن يُتعجَّب منهما بعد ما كانوا صُمّاً عُمياً في الدنيا. أو التهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ إشعارٌ بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم، وسجل على إغفالهم بأنه ضلال بيِّن.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾

(٣٩) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ يوم يتحسَّر الناس؛ المسيءُ على إساءته والمحسنُ على قلة إحسانه ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فُرِغ من الحساب، وتصادر الفريقان إلى الجنة أو النار ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ (هنا عن الاهتمام لذلك المقام) ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (أي: لا يصدِّقون به [النسفي]).

(٤٠) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم مُلك ولا مَلِك. أو نتوفى الأرض ومن عليها بالإفناء والإهلاك توفِّيَ الوارثِ لإرثه ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يردُّون للجزاء.

(٤١) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق. أو كثير التصديق لكثرة ما صدَّق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله ﴿نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ استنبأه الله تعالى.

(٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فيعرف حالك ويسمع ذكرك ويرى خضوعك؟ (قال الألوسي رحمه الله تعالى: والذي عوَّل عليه الجمع الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام، وأنه ليس في آباء النبي ﷺ كافر أصلًا، لقوله ﷺ: «لم أزل أُنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» [تفسير الألوسي: ٧/ ١٩٤]) ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ في جلبِ نفعٍ ودفعِ ضرٍّ. دعاه إلى الهدى وبيَّن ضلاله واحتجَّ عليه أبلغ احتجاج وأرشقه (أي: ألطفه) برفق وحسن أدب، حيث لم يصرح بضلاله، بل طلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يَستخِفُّ به العقل الصريح ويأبى الركون (أي: الميل) إليه، فضلاً عن عبادته التي هي غاية التعظيم، ولا تحقُّ إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام، وهو الخالق الرازق المحيي المميت المعاقب المثيب. ونبَّهَ على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يفعل لغرض صحيح، والشيءُ لو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على النفع والضرِّ ولكن كان ممكناً لاستنكف (أي: امتنع) العقلُ القويم من عبادته وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين، لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر؟ ثم دعاه إلى أن يتَّبعه ليهديه إلى الحق القويم والصراط المستقيم لما لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلًّا بالنظر السويِّ، فقال تعالى:

(٤٣) ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ ولم يُسمِّ أباه بالجهل

المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرف بالطريق، ثم ثبَّطه (أخَّره) عما كان عليه بأنه مع خلوِّه عن النفع مستلزمٌ للضرِّ، فإنه في الحقيقة عبادة للشيطان من حيث إنه الآمر به، فقال:

(٤٤) ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ ولما استهجن (أي: استقبح) ذلك بيَّن وجه الضرِّ فيه بأن الشيطان مستعص على ربك (خارج عن طاعة ربك) المُولي للنعم كلها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ ومعلومٌ أن المطاوع للعاصي عاصٍ، وكلّ عاص حقيق بأن تستردَّ منه النعم ويُنتقم منه، ولذلك عقَّبه بتخويفه سوء عاقبته وما يجرُّه إليه فقال:

(٤٥) ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ قريناً في اللعن والعذاب، تليه ويليك. أو ثابتاً على موالاته، فإنه أكبر من العذاب، كما أن رضوان الله تعالى أكبر من الثواب. وذكْرُ الخوف والمسِّ وتنكيرُ العذاب إما للمجاملة أو لخفاء العاقبة. ولعل اقتصاره على عصيان الشيطان من بين جناياته لارتقاء همته في الربانية، أو لأنه مَلاكها، أو لأنه من حيث إنه نتيجة معاداته لآدم وذريته منبّه عليها.

(٤٦) ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ قابَلَ استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة (أي: الخشونة) وغلظة العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل «يَا أَبَتِ» بـ«يا بنيَّ»، ثم هدَّده فقال: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن مقالك فيها أو الرغبة عنها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بلساني؛ يعني الشتم والذم، أو بالحجارة حتى تموت، أو تبعد عني. ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ زماناً طويلاً.

(٤٧) ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ توديعٌ ومتاركةٌ ومقابلةٌ للسيئة بالحسنة. أي لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بعدُ ما يؤذيك، ولكن: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ لعلَّه يوفقك للتوبة والإيمان. فإن حقيقة الاستغفار للكافر استدعاء التوفيق لما يوجب مغفرته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ بليغاً في البرِّ والإلطاف.

(٤٨) ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ وأعبده وحده ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ خائباً ضائع السعي مثلكم في دعاء آلهتكم. وفي تصدير الكلام بـ«عَسى» التواضعُ وهضمُ النفس والتنبيهُ على أن الإجابة والإثابة تفضُّلٌ غير واجب، وأن مَلاكَ الأمر خاتمته وهو غيب.

(٤٩) ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالهجرة إلى الشام ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدَلَ مَنْ فارقهم من الكفَرَة. قيل إنه لما قصد الشام أتى أولاً حرَّان، وتزوج بسارة، وولدت له إسحاق (أقول: وكان هذا بعد ولادة إسماعيل من هاجر) ووُلد من إسحاق يعقوب. ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء، أو لأنه أراد أن يذكر إسماعيل بفضله على الانفراد ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ وكلاً منهما أو منهم.

(٥٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ النبوة والأموال والأولاد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ يفتخر بهم الناس ويُثنون عليهم استجابةً لدعوته: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

(٥١) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ (أي: أخلصه الله تعالى واصطفاه) ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قدَّم «رَسُولًا» مع أنه أخصُّ وأعلى.

وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾

(٥٢) ﴿**وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ**﴾ من ناحيته اليمنى، وهي التي تلي يمين موسى عليه الصلاة والسلام من جانبه الميمون من اليُمن، بأن تمثَّل له الكلام من تلك الجهة. (أقول: قيِّد بيمين موسى لأن الله تعالى منزَّه عن الجهة) ﴿**وَقَرَّبۡنَٰهُ**﴾ تقريبَ تشريفٍ ﴿**نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾**﴾ مناجياً.

(٥٣) ﴿**وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ**﴾ معاضدةَ (أي: معاونةَ) أخيه وموازرته إجابةً لدعوته: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩] فإنه كان أسَنَّ من موسى؟ ﴿**هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾**﴾.

(٥٤) ﴿**وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ**﴾ ذكَرَهُ بذلك لأنه المشهور به والموصوف بأشياء في هذا الباب لم تُعهَد من غيره، وناهيك أنه وَعَدَ الصبر على الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فوفَّى ﴿**وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾**﴾ يدلُّ على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته.

(٥٥) ﴿**وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ**﴾ اشتغالاً بالأهمِّ، وهو أن يُقبل الرجل على نفسه ومَن هو أقرب الناس إليه بالتكميل. وقيل: أهلُهُ أمَّته، فإن الأنبياء آباء الأمم ﴿**وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾**﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله.

(٥٦) ﴿**وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ**﴾ وهو سبط شيث وجدُّ أبي نوح عليهم الصلاة والسلام، واسمه أخنوخ ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾**﴾.

(٥٧) ﴿**وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾**﴾ يعني شرفَ النبوَّة والزلفى عند الله تعالى. وقيل: الجنة. وقيل: السماء السادسة أو الرابعة (أقول: هذا علمُه مفوَّض إلى الله تعالى).

(٥٨) ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ**﴾ إشارةٌ إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس عليهم الصلاة السلام ﴿**ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم**﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية ﴿**مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ**﴾ أي: ومن ذرية من حملنا خصوصاً، وهم من عدا إدريس عليه السلام، فإن إبراهيم عليه السلام كان من ذرية سام بن نوح عليه السلام ﴿**وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ**﴾ الباقون ﴿**وَإِسۡرَٰٓءِيلَ**﴾ أي: ومن ذرية إسرائيل أي: يعقوب عليه السلام، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام. وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية

(أقول: أولاد البنات من الذرية، لكنهم ليسوا من النسب، كما بيَّن الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]) ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ ومن جملة من هديناهم إلى الحق ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ للنبوة والكرامة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ بيانٌ لخشيتهم من الله تعالى وإخباتهم (أي: تواضعهم) له مع ما لهم من علوِّ الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى (أي: القربى) من الله تعالى. وعن النبي ﷺ: «اتلوا القرآن وابْكوا فإن لم تبكوا فتباكُوا» [أخرجه ابن ماجه رحمه الله تعالى بإسناد جيد].

(٥٩) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ فعقبهم وجاء بعدهم عقبُ سوءٍ ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوها أو أخروها عن وقتها ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ كشرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك في المعاصي. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ شراً، أو غياً (أي: ضلالاً) عن طريق الجنة. وقيل: هو واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها.

(٦٠) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يدلُّ على أن الآية في الكفَرَة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ (أي: التائبون) ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ ولا يُنقصون شيئاً من جزاء أعمالهم. وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرُّهم ولا ينقص أجورهم. (أقول: هذا من فضل الله تعالى).

(٦١) ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾ أي: وعدها إياهم وهي غائبة عنهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الله تعالى ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ الذي هو الجنة ﴿مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ يأتيها أهلها الموعود لهم لا محالة.

(٦٢) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فضولَ كلامٍ ﴿إِلَّا سَلَٰمًاۖ﴾ ولكن يسمعون قولاً يَسلَمون فيه من العيب والنقيصة. أو إلا تسليم الملائكة عليهم، أو تسليم بعضهم على بعض. أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وأهلُها أغنياء عنه، فهو من باب اللغو ظاهراً، وإنما فائدته الإِكرام ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ على عادة المتنعِّمين والتوسط بين الزهادة والرغابة. وقيل: المراد دوام الرزق ودروره (أي: كثرته).

(٦٣) ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ نُبقيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مالُ مورِّثه. والوراثة أقوى لفظ يُستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقَّب بفسخ ولا استرجاع، ولا تَبطل بِرَدٍّ ولا إسقاط. وقيل: يورث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا، زيادةً في كرامتهم (أي: كرامة أهل الجنة).

(٦٤) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ﴾ حكايةُ قول جبريل عليه السلام حين استبطأه رسول الله ﷺ لمّا سُئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدْرِ ما يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل أربعين يوماً، حتى قال المشركون: ودَّعه ربه وقلاه (أي: تركه)، ثم نزل ببيان ذلك. والتنزل: النزول على مهل. والمعنى وما ننزلُ وقتاً غبَّ وقت (أي: وقتاً بعد وقت) إلا بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمته سبحانه ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأحايين (أي: الأزمنة)، لا ننتقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ تاركاً لك. أي ما كان عدمُ النزول إلا لعدم الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله تعالى لك وتوديعه إياك كما زعمت الكفرة، وإنما كان لحكمة رآها فيه. وقولُه تعالى:

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

(٦٥) ﴿**رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا**﴾ بيانٌ لامتناع النسيان عليه ﴿**فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ**﴾ خطاب للرسول ﷺ مرتَّبٌ عليه. أي لما عرفت ربك بأنه لا ينبغي له أن ينساك، أو (ينسى) أعمال العمال فأقبلْ على عبادته واصطبر عليها (أي: ودُمْ عليها) ولا تتشوش بإبطاء الوحي وهزء الكفرة ﴿**هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾**﴾ مثلاً يستحق أن يسمى إلهاً، أو أحداً سُمِّي «الله»؟ فإن المشركين وإن سمَّوا الصنم إلهاً لم يسمُّوه «الله» قط، وذلك لظهور أحديته وتعالي ذاته عن المماثلة، بحيث لم يقبل اللبس والمكابرة، وهو تقريرٌ للأمر؛ أي: إذا صحَّ أن لا أحد مثله ولا يستحق العبادة غيره لم يكن بدٌّ من التسليم لأمره والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها (أي: تحمُّلها).

(أقول: هل تعلم لربك شبيهاً أونظيراً؟ أي: ليس له تعالى من يشابهه ويماثله في الألوهية والعظمة والوحدة والوحدانية جل وعلا).

(٦٦) ﴿**وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ**﴾ المراد به الجنس بأسره. أو بعضهم المعهود وهم الكفرة. أو أبيّ بن خلف، فإنه أخذ عظاماً بالية ففتَّها وقال: يزعم محمد أنا نبعث بعد ما نموت! ﴿**أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾**﴾ من الأرض. أو من حال الموت.

(٦٧) ﴿**أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ**﴾ فإنه لو تذكَّر وتأمَّل ﴿**أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾**﴾ بل كان عَدَماً صِرفاً لم يقل ذلك، فإنه أعجب من جمع المواد بعد التفريق وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض.

(٦٨) ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ**﴾ إقسامٌ باسمه تعالى مضافاً إلى نبيِّه عليه الصلاة والسلام تحقيقاً للأمر وتفخيماً لشأن رسول الله ﷺ. ﴿**وَٱلشَّيَٰطِينَ**﴾ لما رُوي أن الكفرة يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغوَوْهم، كلّ مع شيطانه في سلسلة. وهذا وإن كان مخصوصاً بهم ساغَ نسبته إلى الجنس بأسره، فإنهم إذا حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حُشروا جميعاً معهم ﴿**ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ**﴾ ليرى السعداءُ ما نجَّاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما ادخَّروا لَمعادهم عُدَّةً ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم عليهم ﴿**جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾**﴾ على رُكَبهم لِما يَدهَمهم (أي:

يَفجَؤهم) من هول المطلع. أو لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، وأهل الموقف جاثون. وإن كان المراد بالإنسان الكفَرَةَ فلعلهم يُساقون جُثاة من الموقف إلى شاطئ جهنم إهانةً بهم، أو لعجزهم عن القيام لِما عَراهم (أي: أصابهم) من الشدة.

(٦٩) ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة شايَعتْ (أي: تبعتْ) ديناً ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ مَن كان أعصى وأعتى (أي: أفجر) منهم فنطرحهم فيها (أي: في جهنم). وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن كثير من أهل العصيان. ولو خُصَّ ذلك بالكفرة فالمراد أنه يميز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب، أو يُدخل كلًّا طبقتها التي تليق بها.

(٧٠) ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ أي: لنحن أعلم بالذين هم أولى بالصليِّ (أي: بالإلقاء في النار)، وهم المنتزَعون. ويجوز أن يُراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساء الشيع (أي: الفِرَق)، فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم.

(٧١) ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ وما منكم ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إلا واصلها وحاضرٌ دونها، يمرُّ بها المؤمنون وهي خامدة، وتنهار بغيرهم (والمراد هنا تحرقهم). وعن جابر رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام سُئل عنه فقال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدَنا ربُّنا أن نَرِدَ النار؟ فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة» (أقول: سألتُ شيخي الشيخ إبراهيم حقي رحمه الله تعالى عن قوله جل وعلا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال: الورود بمعنى الرؤية). وأما قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فالمراد عن عذابها. وقيل: ورودُها الجوازُ على الصراط، فإنه ممدود عليها ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ كان ورودُهم واجباً أوجبه الله تعالى على نفسه، وقضى بأن وَعَدَ به وعداً لا يمكن خُلفه.

(٧٢) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ فيُساقون إلى الجنة ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ منهارةً بهم كما كانوا. وهو دليل على أن المراد بالورود الجثوُّ حواليها، وأن المؤمنين يفارقون الفجَرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الفجرة فيها منهارةً بهم على هيئاتهم.

(٧٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ مرتَّلات الألفاظ مبيَّنات المعاني بنفسها أو ببيان الرسول ﷺ أو واضحاتِ الإعجاز ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ مكاناً ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ مجلساً ومجتمعاً. والمعنى أنهم لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها والدخل عليها أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله تعالى، لقصور نظرهم على الحال، وعلمهم بظاهرٍ من الحياة الدنيا، فردَّ عليهم ذلك أيضاً مع التهديد نقضاً بقوله:

(٧٤) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ الأثاثُ: متاع البيت، وقيل: هو ما جَدَّ منه. والرِّئيُ: المنظر. ثم بيَّن أن تمتيعهم استدراجٌ وليس بإكرام، وإنما العيار على الفضلِ والنقصِ ما يكون في الآخرة بقوله تعالى:

(٧٥) ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ فيمدُّه ويمهله بطول العمر والتمتع به ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيلٌ للموعود، فإنه إما العذاب في الدنيا؛ وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبُهم إياهم قتلاً وأسراً، وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي (أي: الذل) والنكال (أي: العقاب) ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين، بأن عايَنوا الأمر على عكس ما قدَّروه، وعاد ما مُتِّعوا به خذلاناً (أي: ذلاً وهواناً) ووبالاً عليهم ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا ٧٥﴾ أي: فئةً وأنصاراً.

(٧٦) ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ كأنه لمّا بيَّن أن إمهال الكافر وتمتيعَه بالحياة الدنيا ليس لفضله، أراد أن يبين أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه، بل لأن الله عز وجل أراد به ما هو خيرٌ له وعوَّضَه منه ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الطاعات التي تبقى عائدتها أبد الآباد، ويدخل فيها ما قيل من الصلوات الخمس وقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ عائدةً مما مُتِّع به الكفرة من النعم المخدجة (أي: الناقصة) الفانية التي يفتخرون بها، سيَّما ومآلها النعيم المقيم، ومآل هذه الحسرةُ والعذابُ الدائم، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ٧٦﴾ (أي: مرجعاً وعاقبة).

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

(٧٧) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ نزلت في العاص بن وائل، كان لخبّاب عليه مالٌ فتقاضاه فقال له: لا، حتى تكفرَ بمحمد، فقال: لا والله لا أكفر بمحمد حيّاً ولا ميتاً ولا حين تبعث، قال: فإذا بُعثتُ جئني فيكون لي ثَمَّ مالٌ وولدٌ فأعطيك.

(٧٨) ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ أقدْ بَلغ من عظمة شأنه إلى أن ارتقى إلى عالم الغيب الذي توحَّد به الواحد القهار حتى ادَّعى أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً وتألى (أي: حلف) عليه ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ أو اتخذ من علام الغيوب عهداً بذلك، فإنه لا يُتوصَّل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين.

(٧٩) ﴿كَلَّا ۚ﴾ ردعٌ وتنبيهٌ على أنه مخطئ فيما تصوَّره لنفسه ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ سنُظهر له أنّا كتبْنا قوله. أو سننتقم منه انتقام مَن كتبَ جريمة العدو وحَفِظها عليه ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ ونطوِّل له من العذاب ما يستأهله. أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافترائه واستهزائه على الله جلَّتْ عظمَتُه.

(٨٠) ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني المالَ والولدَ ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ لا يصحبه مالٌ ولا ولدٌ كان له في الدنيا، فضلاً عن أن يُؤتى ثمَّة زائداً.

(٨١) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ ليتعزَّزوا بهم، حيث يكونون لهم وصلة إلى الله تعالى وشفعاءَ عنده.

(٨٢) ﴿كَلَّا ۚ﴾ ردعٌ وإنكارٌ لتعزُّزهم بها ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ستجحَدُ الآلهةُ عبادتَهم ويقولون: ما عبدتمونا، أو سينكِر الكفرة لسوء العاقبة أنهم عبَدوها ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ أي: ويكونون عليهم ذلّا، أو بضدِّهم على معنى أنها تكون معونة في عذابهم بأن توقد بها نيرانهم.

(٨٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بأن سلَّطناهم عليهم، أو قيَّضنا (أي: هيَّأنا) لهم قرناء ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ تهزُّهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات. والمراد تعجيب رسول الله ﷺ من أقاويل الكفرة وتماديهم في الغيِّ وتصميمهم على الكفر بعد وضوح الحق على ما نطقت به الآيات المتقدمة.

(٨٤) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ بأن يُهلكوا حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهِّر الأرض من

فسادهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ أيام آجالهم ﴿عَدًّا ۝٨٤﴾ والمعنى: لا تعجَل بهلاكهم، فإنه لم يبقَ لهم إلا أيامٌ محصورة وأنفاسٌ معدودة.

(٨٥) ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نجمعهم ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إلى ربهم الذي غمَرهم برحمته. ولاختيار هذا الاسم في هذه السورة شأنٌ، ولعله لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام (أي: الكبيرة) وشرحِ حال الشاكرين لها والكافرين بها ﴿وَفْدًا ۝٨٥﴾ وافدين عليه كما يفد الوُفّاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم.

(٨٦) ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تُساق البهائم (إلى الماء) ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ عطاشاً، فإن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش، أو كالدواب التي تَرِدُ الماء.

(٨٧) ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾ إلا من تحلَّى بما يستعدُّ به ويستأهلُ أن يَشفع للعصاة، من الإيمان والعمل الصالح، على ما وَعَدَ الله تعالى. أو إلا من اتخذ من الله تعالى إذناً فيها.

(٨٨) ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨﴾ (أي: النصارى واليهود ومن زعم أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى [النسفي]).

(٨٩) ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩﴾ والإِدُّ: العظيمُ المُنكَر.

(٩٠) ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن مرَّة بعد أخرى ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ تُهَدُّ هدّاً.

(٩١) ﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ والمعنى أن هول هذه الكلمة وعِظَمَها بحيث لو تُصُوِّرت بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفتَّت من شدتها. أو لأن فظاعتها مُجْلبة لغضب الله جل وعلا، بحيث لولا حلمه لخرَّب العالم وبدَّد (أي: شتَّتَ) قوائمه غضباً على من تفوَّه بها.

(٩٢) ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ ولا يليق به اتخاذ الولد، ولا يَنطلب (أي: لا يحصل) له لو طُلب مثلاً (على سبيل الفرض)، لأنه مستحيل. ولعلَّ ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كلَّ ما عداه نعمةٌ ومنعَمٌ عليه، فلا يجانِس مَن هو مَبدأ النعم كلِّها ومُولي أصولها وفروعها، فكيف يمكن أن يتَّخذه ولداً؟ ثم صرَّح به في قوله تعالى:

(٩٣) ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما منهم ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ إلا وهو مملوكٌ له يأوي إليه بالعبودية والانقياد.

(٩٤) ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ حصَرَهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوزة علمه وقبضة قدرته جلَّ وعلا ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤﴾ أي: عدَّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، فإن كلَّ شيء عنده بمقدار.

(٩٥) ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ منفرداً من الأتباع والأنصار، فلا يجانسه شيء من ذلك ليتخذه ولداً، ولا يناسبه ليشرَك به.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾

سُورَةُ طه ٢٠ — ١٣٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾

(٩٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾ سيُحدِث لهم في القلوب مودَّة من غير تعرُّضٍ منهم لأسبابها. وعن النبي ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً يقول لجبرائيل: أحببتُ فلاناً فأحبَّه، فيحبُّه جبرائيل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحبَّ فلاناً فأحبوه، فيحبّه أهل السماء، ثم توضع له المحبة في الأرض» [والحديث أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى]. والسين (في قوله تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ﴾) إما لأن السورة مكيَّة وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة، فوَعَدهم ذلك إذا دجا الإسلام (أي: قوي وكثُر أهله). أو لأن الموعود في القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤوس الأشهاد فينزع ما في صدورهم من الغلِّ.

(٩٧) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ بأن أنزلناه بلغتك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾﴾ أشداء الخصومة آخذين في كل لديد (واللديد: الخصمُ الشديد الخصومة).

(٩٨) ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ تخويفٌ للكفرة وتجسيرٌ للرسول ﷺ على إنذارهم ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ هل تشعر بأحد منهم وتراه ﴿أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾﴾ والركز: الصوت الخفي.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة مريم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة طه

مكيَّة، وهي مئة (وخمس) وثلاثون آية

(١-٢) ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ مؤوَّل بالسورة أو القرآن. والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك على كفر قريش، إذ ما عليك إلا أن تبلّغ. أو لتتعب بكثرة الرياضة وكثرة التهجد والقيام على ساقٍ.

(٣) ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ لكن تذكيراً ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ لمن في قلبه خشية ورقّة يتأثر بالإنذار. أو لمن علم الله تعالى منه أنه يخشى بالتخويف منه، فإنه المنتفع به.

(٤) ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ مع ما بعده إلى قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تفخيمٌ لشأن المُنزَل بعرض تعظيم المُنزِل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل؛ فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، وقدَّم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهرُ عنده من السموات العُلى، ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش فأجرى منه الأحكام والتقادير، وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير حسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، فقال تعالى:

(٥) ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ (تقدَّم الكلام عنه في سورة الأعراف [آية: ٥٤] وفيه: استوى أمره أو استولى. وعن أصحابنا أنَّ الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف. والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه، منزَّهاً عن الاستقرار والتمكُّن. وقال النسفي رحمه الله تعالى: والمذهب قول علي رضي الله تعالى عنه: الاستواء غير مجهول، والتكييف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، لأنه تعالى كان ولا مكان، فهو على ما كان قبل خلق المكان، لم يتغيَّر عما كان. قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: أي استوى على عروش الذرائر، بحيث لا يخرج عن حيطة علمه ذرة من الذرات، بل استوى على جميعها).

(٦) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ ليدلَّ بذلك على كمال قدرته وإرادته. والثرى: الطبقةُ الترابية من الأرض، وهي آخر طبقاتها (أقول: القدرة تابعة للإرادة، فإذا أراد جلَّ وعلا شيئاً وتعلَّقت به مشيئته تجري عليه القدرة).

ولمّا كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفكُّ عن العلم عقَّبَ ذلك بإحاطة علمه تعالى بجليَّات الأمور وخفيَّاتها على سواء فقال سبحانه:

(٧) ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ أي: وإن تجهر بذكر الله تعالى ودعائه فاعلم أنه غنيٌّ عن جهرك، فإنه سبحانه يعلم السرَّ وأخفى منه؛ وهو (أي: الأخفى) ضميرُ النفس. وفيه تنبيه على أن شرع الذكر والدعاء والجهر فيهما ليس لإعلام الله تعالى، (فهو جلَّ وعلا ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩])، بل لتقرير النفس بالذكر ورسوخه فيها ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع والجؤار (أي: رفع الصوت بالدعاء). ثم لمَّا ظهر بذلك أنه المستجمع لصفات الألوهية بيَّن أنه المتفرد بها والمتوحِّد بمقتضاها فقال تعالى:

(٨) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ وتفخيم المُنزَل من وجهين: إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبته إلى المختصِّ بصفات الجلال والإكرام، والتنبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث أنه كلامُ مَنْ هذا شأنه. وفضلُ أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحُسْن لدلالتها على معانٍ هي أشرف المعاني وأفضلها.

(٩) ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ قفَّى تمهيد نبوَّته ﷺ (أي: إظهارها) بقصة موسى عليه السلام ليأتمَّ به في تحمُّل أعباء النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل.

(١٠) ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ قيل: إنه استأذن شعيباً عليهما الصلاة والسلام في الخروج إلى أمه (في مصر)، وخرج بأهله، فلما وافى وادي طوى (اسم مكان) وفيه الطور (جبل الطور) وُلد له ابنٌ في ليلة شاتية مظلمة مُثلِجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضلَّ الطريق وتفرَّقت ماشيته، إذ رأى من جانب الطور ناراً ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أقيموا بمكانكم ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أبصرتها إبصاراً لا شبهة فيه. وقيل: الإيناس إبصار ما يؤنس به ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ بشعلة من النار. وقيل: جمرة ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ هادياً يدلني على الطريق. أو يهديني أبواب الدين، فإن أفكار الأبرار مائلة إليها في كل ما يعِنُّ لهم (أي: يخطر لهم) (أقول: عارٌ علينا بعد هذا أن ننشغل بهذه الدنيا، لكن عقلنا ناقص، وفكرنا ليس موافقاً للإيمان).

ولما كان حصولهما مترقَّباً بنى الأمرَ فيهما على الرجاء، بخلاف الإيناس فإنه كان محققاً.

(١١) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أتى النار، وجد ناراً بيضاء تتقد في شجرة خضراء ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١﴾.

(١٢) ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ قيل: إنه لما نودي قال: مَن المتكلم؟ قال: إني أنا الله. فوسوس إليه إبليس: لعلك تسمع كلام شيطان (أي: خطرات)، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأني أسمعه من جميع الجهات وبجميع الأعضاء (لا بالأذن فقط). وهو إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام تلقى من ربه كلامه تلقياً روحانياً، ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه، فانتقل إلى الحس المشترَك، فانتقش (أي: ثبت) به من غير اختصاص بعضو وجهة. ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمَره بذلك لأن الحفْوَة تواضعٌ وأدبٌ، ولذلك طاف السلَف حافين. وقيل: لنجاسةِ نعليه، فإنهما كانتا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل: معناه فرِّغْ قلبك من الأهل والمال ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تعليلٌ للأمر باحترام البقعة. والمقدَّسُ يحتمل المعنيين ﴿طُوًى ۝١٢﴾ (اسم مكان).

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

(١٣) ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ اصطفيتك للنبوة ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ للذي يوحى إليك.

(١٤) ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ وهو على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم، والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ (أقول: أي لتعظيم عظمتي وجلالي). خصَّها بالذكر وأفرَدَها بالأمر للعلة التي أناط (أي: علَّق) بها إقامتها؛ وهي تَذكُّرُ المعبودِ وشغلُ القلب واللسان بذكره. (أقول: لا صلاةَ كنقر الديك) أو لِذِكْرِي خاصة لا ترائي بها ولا تشوبها بذكر غيري. أو لذكر صلاتي. لِما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من نام عن صلاة أو نسيها فليقضِها إذا ذكرها، إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] (أقول: وهذا يدلُّ على أن من له تهجُّدٌ إذا نام عنه يستحبُّ له أن يقضيه وقت الضحى).

(١٥) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ كائنة لا محالة ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أريد إخفاء وقتها، ولولا ما في الأخبار بإتيانها من اللطف وقطع الأعذار لما أخبرت به ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ (بسعيها من خير أو شر [النسفي]).

(١٦) ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ عن تصديق الساعة، أو عن الصلاة ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ نهى الكافرَ أن يصدَّ موسى عليه الصلاة والسلام عنها، والمراد نهيُه أن ينصَدَّ عنها، تنبيهاً على أَن فطرته السليمة لو خُلِّيت بحالها لاختارها ولم يُعرِض عنها (أقول: لكن أبواه يحرفانه، أو الدنيا تأخذه)، وأنه ينبغي أن يكون راسخاً في دينه، فإنَّ صدَّ الكافر إنما يكون بسبب ضعفه فيه ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ميلَ نفسه إلى اللذات المحسوسة المخدجة (أي: الناقصة) فقصر نظره عن غيرها ﴿فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ فتهلك.

(١٧) ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ استفهام يتضمن استيقاظاً لِما يريه فيها من العجائب ﴿بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ تكريرٌ لزيادة الاستئناس (بكلام الله تعالى) والتنبيه.

(١٨) ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أعتمد عليها إذا أعييت (أي: تعبت) أو وقفت على رأس القطيع (أي: قطيع الغنم) ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ حاجات أُخَر؛ مثل أن كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته وعرض الزندين على شعبتيها (والزندان

هما العودان اللذان تُقدح بهما النار، وهما شجر المرخ والعفار، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السِّواكين وهما خضروان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار، فتنقدح النار بإذن الله تعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] [المقتطف من عيون التفاسير: ٤/ ٣٦٥]).

وألقى عليها الكساء واستظل به، وإذا قصر الرشاء (أي: الحبل) وصله بها، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها، وكأنه عليه الصلاة والسلام فَهِمَ أن المقصود من السؤال أن يتذكر حقيقتها وما يرى من منافعها، حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة، مثل أن تشتعل شعبتاها بالليل كالشمع، وتصيران دلواً عند الاستقاء، وتطول بطول البئر، وتحارب عنه إذا ظهر عدوٌّ، وينبع الماء بركزها (أي: بوضعها)، وينضب (أي: ينفد) بنزعها، وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فركزها، عَلِمَ أن ذلك آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله تعالى فيها لأجله وليست من خواصها، فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلاً ومجملاً على معنى أنها من جنس العصي، تنفع منافع أمثالها، ليطابق جوابُه الغرضَ الذي فهمه.

(١٩ـ٢٠) ﴿**قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾**﴾ قيل: لمّا ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصا، ثم تورَّمت وعَظُمت، فلذلك سماها جانّاً تارة نظراً إلى المبدأ، وثعباناً مرة باعتبار المنتهى، وحيَّة أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحالين. وقيل: كانت في ضخامة الثعبان وجلادة الجانِّ.

(٢١) ﴿**قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ**﴾ فإنه لمّا رآها حيَّة تسرع وتبتلع الحجر والشجر خاف وهرب منها. ﴿**سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾**﴾ هيأتها وحالتها المتقدمة، فتنتفع بها ما كنت تنتفع قبلُ. قيل: لمّا قال له ربه ذلك اطمأنت نفسه حتى أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها.

(٢٢) ﴿**وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ**﴾ إلى جنبك تحت العضد ﴿**تَخْرُجْ بَيْضَآءَ**﴾ كأنها مشعَّة ﴿**مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ**﴾ من غير عاهة وقبح، كنَّى به عن البرص ﴿**ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾**﴾ معجزة ثانية.

(٢٣) ﴿**لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾**﴾ أي: فعَلنا ذلك لنريك.

(٢٤) ﴿**ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ**﴾ بهاتين الآيتين وادْعُهُ إلى العبادة ﴿**إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾**﴾ عصى وتكبَّر.

(٢٥ـ٢٦) ﴿**قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾**﴾ لمّا أمره الله تعالى بخَطْبٍ (أي: شأنٍ) عظيم وأمرٍ جسيم (أي: خطير) سأله أن يشرح صدره ويفسح قلبه لتحمُّل أعبائه والصبر على مشاقِّه، والتلقي لما ينزل عليه ويسهِّل الأمرَ له بإحداث الأسباب ورفع الموانع.

(٢٧ـ٢٨) ﴿**وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾**﴾ فإنما يَحْسُنُ التبليغ من البليغ، وكان في لسانه رَتَّةٌ (أي: تردُّدٌ في النطق) من جمرة أدخلها فاه. وذلك أن فرعون حمله يوماً فأخذ بلحيته ونتفها، فغضب وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبيٌّ لا يفرق بين الجمر والياقوت، فأُحضِرا بين يديه فأخذ الجمرة ووضعها في فيه. ولعل تبييض يده كان لذلك. وقيل: احترقت يده واجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ، ثم لما دعاه قال: إلى أيِّ رب تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأَ يدي، وقد عجزتَ عنه.

(٢٩-٣٠) ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾ يُعينني على ما كلفتني به.

(٣١-٣٢) ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝٣٢﴾ (أي: قوِّ به ظهري واجعله شريكاً لي في أمر الرسالة).

(٣٣-٣٤) ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾ فإن التعاون يهيِّج الرغبات ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايده.

(٣٥) ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ۝٣٥﴾ عالماً بأحوالنا وأن التعاون مما يصلحنا، وأن هارون نعم المُعين لي فيما أمرتني به.

(٣٦) ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ أي: مسؤولك.

(٣٧) ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ۝٣٧﴾ أي: أنعمنا عليك في وقت آخر.

إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾

(٣٨) ﴿**إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ**﴾ بإلهام أو في منامٍ أو على لسان نبيٍّ في وقتها أو مَلَك، لا على وجه النبوَّة، كما أوحي إلى مريم ﴿**مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾**﴾ ما لا يُعلَم إلا بالوحي، أو مما ينبغي أن يوحى.

(٣٩) ﴿**أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ**﴾ القذفُ: يقال للإلقاء وللوضع ﴿**فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ**﴾ لمّا كان إلقاء البحر إياه إلى الساحل أمراً واجب الحصول لتعلق الإرادة (الإلهية) به، جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمره بذلك ﴿**يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ**﴾ جوابُ فلْيلقه وتكرير «عَدُوّ» للمبالغة. قيل إنها جَعلت في التابوت قطناً ووضعته فيه ثم قيَّرته (أي: طلته بالقير، وهو الزفت) وألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهرٌ، فدفعه الماء إليه، فأدَّاه إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً على رأسها مع امرأته آسية بنت مزاحم، فأمَر به فأُخرِج، ففُتِح فإذا هو صبي أصبحُ الناس وجهاً، فأحبه حباً شديداً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي**﴾ أي: محبة كائنة مني قد زرعتُها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، فلذلك أحبَّك فرعون. وظاهرُ اللفظ أن اليمَّ ألقاه بساحله وهو شاطئه، لأن الماء يسحله فالتُقط منه، لكن لا يبعد أن يتأول الساحل بجنب فُوَّهَة (أي: فتحة) نهره ﴿**وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾**﴾ لتُربَّى ويُحْسَنَ إليك وأنا راعيك وراقبك.

(٤٠) ﴿**إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ**﴾ وذلك لأنه كان لا يقبل ثدي المَراضع، فجاءت أخته مريم متفحصة خبرَه، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يَقبل ثديها، فقالت: ﴿**هَلۡ أَدُلُّكُمۡ**﴾ فجاءت بأمه فقبِل ثديها ﴿**فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ**﴾ وفاءً بقولنا: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص: ٧] ﴿**كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا**﴾ بلقائك ﴿**وَلَا تَحۡزَنَۚ**﴾ هي بفراقك، أو أنت على فراقها وفقدِ إشفاقها ﴿**وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا**﴾ نفس القبطيِّ الذي استغاثه عليه الإسرائيليُّ ﴿**فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ**﴾ غمِّ قتله خوفاً من عقاب الله تعالى واقتصاص فرعون، بالمغفرة والأمن منه بالهجرة إلى مدين ﴿**وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ**﴾ وابتليناك ابتلاء، أو أنواعاً من الابتلاء، فخلصناك مرة بعد أخرى. وهو إجمالٌ لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الأُلّاف (جمع آلِف، من الألفة)، والمشي راجلاً على حذر، وفقدِ الزاد وأجْرِ نفسه، إلى غير ذلك ﴿**فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ**﴾ لبث فيهم عشر سنين

قضاءً لأوفى الأجلين. ومديَنُ: على ثمان مراحل من مصر ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قدَّرتُه لأن أكلمك وأستنبئك غير مستقدِمٍ وقته المعيَّن ولا مستأخِر. أو على مقدارٍ من السنِّ يوحى فيه إلى الأنبياء ﴿يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ كرَّره عَقيب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك. (أقول: ثم جئت الآن على موعد محدد كتبه الله تعالى لك لإكرامك بالنبوة والرسالة).

(٤١) ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾ واصطفيتك لمحبتي. مثَّلَهُ فيما خوَّله من الكرامة بمن قرَّبه المَلِك واستخلصَه لنفسه.

(٤٢) ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ بمعجزاتي ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تفتُرا ولا تُقصِّرا ﴿فِى ذِكْرِى ۝٤٢﴾ ولا تنسياني حيثما تقلبتما. وقيل: في تبليغ ذكري والدعاء إليَّ.

(٤٣) ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ أمَرَ به أولاً موسى عليه الصلاة والسلام وحده، وههنا إياه وأخاه، فلا تكرير. قيل: أوحى إلى هارون أن يتلقى موسى. وقيل: سمع بمقبَلِه فاستقبله.

(٤٤) ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ مِثْلَ: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٨ـ١٩]، فإنه دعوة في صورة عرْضٍ ومَشورة حَذَراً أن تحمله الحماقة على أن يسطوَ (أي: يهجم) عليكما. أو احتراماً لِما له من حقِّ التربية عليك. وقيل: كنِّياه، وكان له ثلاث كنى: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة. وقيل: عِدَاهُ شباباً لا يهرم بعده ومُلكاً لا يزول إلا بالموت (أقول: علَّمهما هذا الأدب مع فرعون مع أنه كافر، فكيف يجب أن يكون المؤمن مع المؤمن! نرى بعضهم إذا وجد الفرصة يضرب بكلام مثل السم).

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ أي: باشِرا الأمرَ على رجائكما وطمعكما أنه يثمر ولا يخيب سعيكما، فإن الراجي مجتهدٌ والآيسَ متكلِّف. والفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه بأنه لا يؤمن إلزامُ الحجة وقطعُ المعذرة وإظهارُ ما حدَثَ في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكُّر للمتحقق والخشية للمتوهِّم. ولذلك قدَّم الأول، أي إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقلَّ من أن يتوهمه فيخشى.

(٤٥) ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أن يعجِّل علينا بالعقوبة ولا يصبرَ إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾ أن يزداد طغياناً فيتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي، لجراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب (أي: عدم تقيُّده به).

(٤٦) ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ بالحفظ والنصر ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأُحْدِث في كل حال ما يصرف شرَّه عنكما ويوجبُ نصرتي لكما.

(٤٧) ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أطلِقْهم ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بالتكاليف الصعبة وقتل الولدان، فإنهم كانوا في أيدي القبط يستخدمونهم ويُتعبونهم في العمل، ويقتلون ذكور أولادهم في عام دون عام. وتعقيبُ الإتيان بذلك دليلٌ على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهمُّ من دعوتهم إلى الإيمان. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ وإنما وحَّدَ الآية وكان معه آيتان لأن المراد إثباتُ الدعوى ببرهانها لا الإشارة إلى

وحدة الحجة وتعدُّدِها ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين. أو السلامة في الدارين لهم.

(٤٨) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي: على المكذبين للرسل.

(٤٩) ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ أي: بعد ما أتياه وقالا له ما أُمِرا به. وإنما خاطب الاثنين وخَصَّ موسى عليهما الصلاة والسلام بالنداء لأنه الأصل وهارون وزيره وتابعه، أو لأنه عرف أن له رتَّةً (أي: تردُّداً في النطق) ولأخيه فصاحة فأراد أن يُفحمه.

(٥٠) ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأنواع ﴿خَلْقَهُۥ﴾ صورتَه وشكله الذي يطابق كماله الممكن له. أو أعطى خليقته كلَّ شيء يحتاجون إليه ويرتفقون (أي: ينتفعون) به ﴿ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ ثم عرَّفه كيف يرتفق (أي: ينتفع) بما أعطِي، وكيف يتوصل به إلى بقائه وكماله اختياراً أو طبعاً. وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره وإعرابه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودلالته على أن الغني القادر بالذات المنعِم على الإِطلاق هو الله تعالى، وأن جميع ما عداه مفتقرٌ إليه منعَمٌ عليه في حدِّ ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بُهت الذي كفر وأُفحِم عن الدَّخْل عليه (أي: إدخال الريبة فيه)، فلم يرِ إلا صَرْفَ الكلام عنه.

(٥١) ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة.

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾

(٥٢) ﴿**قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي**﴾ أي: هو غيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وإنما أنا عبدٌ مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرَني به ﴿**فِي كِتَٰبٖۖ**﴾ مثبَت في اللوح المحفوظ (أو في علمه جل وعلا)، ويجوز أن يكون تمثيلاً لتمكُّنه في علمه بما استحفظه العالم وقيَّده بالكتبة، ويؤيِّدُه: ﴿**لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾**﴾ والضلالُ أن تخطئَ الشيءَ في مكانه فلم تهتدِ إليه، والنسيانُ أن تذهب عنه بحيث لا يخطر ببالك، وهما مُحالان على العالِم بالذات جل وعلا، فيكون معنى الجواب: أن علمه تعالى محيط بذلك كله، وأنه مثبَت عنده لا يضلُّ ولا ينسى.

(٥٣) ﴿**ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا**﴾ أي: كالمهد، وهو اسم ما يمهد كالفراش ﴿**وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا**﴾ وجَعل لكم فيها سُبُلاً بين الجبال والأودية والبراري، تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها ﴿**وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ**﴾ مطراً ﴿**فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ**﴾ عَدَلَ به من لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى، تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، وإيذاناً بأنه مطاعٌ تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته ﴿**أَزۡوَٰجٗا**﴾ أصنافاً. سُمِّيت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ﴿**مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾**﴾ أي: متفرِّقات في الصور والأغراض والمنافع، يصلح بعضها للناس وبعضها للبهائم، فلذلك قال جلَّ وعلا:

(٥٤) ﴿**كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ**﴾ أي: فأخرجنا أصناف النبات قائلين: كُلُوا وَارْعَوْا. والمعنى: مُعدِّيها لانتفاعكم بالأكل والعلف، آذنين فيه ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾**﴾ لذوي العقول الناهية عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح.

(٥٥) ﴿**مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ**﴾ فإن التراب أصلُ خلقة أولِّ آبائكم، وأول مواد أبدانكم ﴿**وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ**﴾ بالموت وتفكيك الأجزاء ﴿**وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾**﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الصورة السابقة وردِّ الأرواح إليها (أقول: فالأرواح خارج هذه الأجزاء المتفتته، وهي لا تموت).

(٥٦) ﴿**وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا**﴾ بصَّرناه إياها. أو عرَّفناه صحَّتها ﴿**كُلَّهَا**﴾ تأكيدٌ لشمول الأنواع، أو لشمول الأفراد. على أن المراد بآياتنا آياتٌ معهودة؛ هي الآيات التسع المختصة بموسى عليه السلام. أو أنه

عليه الصلاة والسلام أراه آياتِه وعدَّدَ عليه ما أوتي غيرَه من المعجزات ﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى من فرط عناده ﴿وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ الإيمانَ والطاعة لعتوِّه.

(٥٧) ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ أرض مصر ﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ هذا تعلُّلٌ وتحيُّرٌ ودليلٌ على أنه عَلِمَ كونه محِقاً حتى خاف منه على مُلكه، فإن الساحر لا يقدر أن يُخرج مَلِكاً مثله من أرضه.

(٥٨) ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ مثل سحرك ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ وعداً ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ (أي: منصفاً بيننا وبينك [النسفي]).

(٥٩) ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ ويوم الزينة يدل على مكانٍ مشتهرٍ باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم أو يوم عيدٍ كان لهم في كل عام. وإنما عيَّنه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع ذلك في الأقطار ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

(٦٠) ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ ما يُكادُ به؛ يعني السحرة وآلاتهم ﴿ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ بالموعد.

(٦١) ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدعوا آياته سحراً ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ﴾ فيهلككم ويستأصلكم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ كما خاب فرعون، فإنه افترى واحتال ليبقى الملك عليه فلم ينفعه.

(٦٢) ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تنازعت السحرة في أمر موسى حين سمعوا كلامه، فقال بعضهم: هذا ليس من كلام السَّحَرة ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ بأن موسى إن غلبَنا اتبعناه. أو تنازعوا واختلفوا فيما يعارضون به موسى، وتشاوروا في السرِّ.

(٦٣) ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ كأنهم تشاوروا في تلفيقه حذراً أن يَغلِبا فيتبعهما الناس ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ بالاستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما. وقيل: أرادوا أهل طريقتكم، وهم بنو إسرائيل، فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم. وقيل: الطريقة اسمٌ لوجوه القوم وأشرافهم من حيث إنهم قدوةٌ لغيرهم.

(٦٤) ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ فأزمعوه (أي: فاعزموا) واجعلوه مُجمَعاً عليه لا يتخلف عنه واحد منكم ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ﴾ مصطفِّين، لأنه أهيبُ في صدور الرائين. قيل: كانوا سبعين ألفاً، مع كل واحد منهم حبلٌ وعصا، وأقبلوا عليه إقبالةً واحدةً ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ فاز بالمطلوب مَن غَلَب.

قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

(٦٥) ﴿**قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾**﴾ أي: بعد ما أتوا، مراعاةً للأدب.

(٦٦) ﴿**قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟**﴾ مقابلةُ أدبٍ بأدب، وعدم مبالاة بسحرهم، وإسعافاً (أي: معاجلة) إلى ما أَوْهموا من الميل إلى البدء بذكر الأول في شقِّهم، وتغيير النظم إلى وجهٍ أبلغ، ولأن يُبرزوا ما معهم ويستنفدوا أقصى وسعهم ثم يظهر الله تعالى سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه ﴿**فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾**﴾ أي: فألقوا ففوجئ موسى عليه الصلاة والسلام وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم، وذلك بأنهم لطَّخوها بالزئبق، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت، فخُيِّل إليه أنها تتحرك.

(٦٧) ﴿**فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾**﴾ فأضمرَ فيها خوفاً من مفاجأته على ما هو مقتضى الجبِلَّة البشرية، أو مِنْ أن يخالج الناس شكٌّ فلا يتبعوه.

(٦٨) ﴿**قُلْنَا لَا تَخَفْ**﴾ ما توهَّمْتَ ﴿**إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾**﴾ تعليلٌ للنهي، وتقريرٌ لغلبته.

(٦٩) ﴿**وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ**﴾ أبهَمَه ولمْ يقلْ عصاك تحقيراً لها، أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العُويدة (أي: العود الصغير) التي في يدك. أو تعظيماً لها، أي: لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعظمها، فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثراً فألقِهِ ﴿**تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟**﴾ تبتلعه بقدرة الله تعالى ﴿**إِنَّمَا صَنَعُوا۟**﴾ إن الذي زوَّروا وافتعلوا ﴿**كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾**﴾ أي: حيث كان، وأين أقبل.

(٧٠) ﴿**فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا**﴾ أي: فألقى فتلقفت، فتحقَّقَ عند السحرة أنه ليس بسحر، وإنما هو من آيات الله تعالى ومعجزة من معجزاته، فألقاهم ذلك على وجوههم سُجَّداً لله تعالى، توبةً عمّا صنعوا، وإعتاباً (أي: إرضاء بعد العتاب) وتعظيماً لِما رأوا ﴿**قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾**﴾ روي: أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنازلهم فيها.

(٧١) ﴿**قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ**﴾ أي: لِموسى عليه السلام ﴿**قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ**﴾ في الإيمان له ﴿**إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ**﴾ لَعظيمُكم في فنِّكم وأعلمكم به، أو لَأستاذُكم ﴿**ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ**﴾ وأنتم تواطأتم على ما

فعلتم ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ وهو أوَّلُ من صَلَبَ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾ يريد نفسه وموسى عليه السلام؛ أراد به توضيع موسى (أي: إهانته) والهزء به، فإنه لم يكن من التعذيب في شيء ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾ وأدومُ عقاباً.

(٧٢) ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ موسى به ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ (أي: خَلَقَنا) عطفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا﴾، أو قَسَمٌ ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ ما أنت قاضيه، أي: صانعُه أو حاكمٌ به ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢﴾ إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الدنيا، والآخرةُ خيرٌ وأَبْقى.

(٧٣) ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ في معارضة المعجزة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣﴾ جزاءً، أو خير ثواباً وأبقى عقاباً.

(٧٤) ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ بأن يموت على كفره وعصيانه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤﴾ حياة مُهنَّأة.

(٧٥) ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في الدنيا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥﴾ المنازل الرفيعة.

(٧٦) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ تطهَّرَ من أدناس الكفر والمعاصي.

وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

(٧٧) ﴿**وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي**﴾ أي: من مصر ﴿**فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ**﴾ فاجعل لهم ﴿**طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا**﴾ يابساً ﴿**لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا**﴾ أي: آمِناً من أن يدرككم العدوُّ ﴿**وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾**﴾ أي: ولا تخشى الغرق.

(٧٨) ﴿**فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ**﴾ وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أوَّلَ الليل فَأُخْبِرَ فرعون بذلك فقصَّ (أي: فتتبَّع) أثرهم. والمعنى: فاتَّبعهم فرعونُ نفسُه ومعه جنوده ﴿**فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾**﴾ أي: غشيهم ما سمعتَ قصَّته، ولا يَعرف كُنهَهُ (أي: حقيقته) إلا الله تعالى.

(٧٩) ﴿**وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾**﴾ أي: أضلَّهم في الدين وما هداهم. أو أضلَّهم في البحر وما نجا.

(٨٠) ﴿**يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ**﴾ خطابٌ لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك فرعون. أو للذين منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما فُعِلَ بآبائهم ﴿**قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ**﴾ فرعون وقومه ﴿**وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ**﴾ لمناجاة موسى عليه الصلاة والسلام وإنزال التوراة عليه ﴿**وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾**﴾ يعني في التيه.

(٨١) ﴿**كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ**﴾ لذائذه أو حلالاته ﴿**وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ**﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدي لما حَدَّ الله تعالى لكم فيه؛ كالسرَف والبطر والمنع عن المستحِقّ ﴿**فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ**﴾ فيلزمكم عذابي ويجب لكم ﴿**وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾**﴾ فقد تردَّى وهلك. وقيل: وقع في الهاوية (أي: في جهنم).

(٨٢) ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ**﴾ عن الشِّرْك ﴿**وَءَامَنَ**﴾ بما يجب الإيمان به ﴿**وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾**﴾ ثم استقام على الهُدى المذكور.

(٨٣) ﴿**وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾**﴾ سؤالٌ عن سبب العجَلة يتضمَّن إنكارَها من حيث إنها نقيصةٌ في نفسها انضمَّ إليها إغفالُ القوم وإيهامُ التعظُّمِ عليهم، فلذلك أجاب موسى عن الأمرين، وقدَّم جواب الإنكار لأنه أهمُّ.

(٨٤) ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي: ما تقدَّمتُهم إلا بخطىً يسيرة لا يُعتَدُّ بها عادةً، وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدَّم بها الرفقة بعضُهم بعضاً ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجِبُ مرضاتك.

(٨٥) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ ابتليْناهم بعبادة العجل بعد خروجك من بينهم. وهم الذين خلَّفهم مع هارون، وكانوا ست مئة ألف، ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾ باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته. والسَّامِرِيُّ منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة، وكان منافقاً.

(٨٦) ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿غَضْبَٰنَ﴾ عليهم ﴿أَسِفًاۚ﴾ حزيناً بما فعلوا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: الزمان، يعني زمانَ مفارقته لهم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ (أي: ينزل بكم) ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعبادة ما هو مَثَلٌ في الغَباوة ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ۝٨٦﴾ وعدَكم إيايَ بالثبات على الإيمان بالله تعالى والقيام على ما أمرتكم به.

(٨٧) ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ (أي: باقتدارنا وبقصدنا)، إذ لو خُلِّينا وأمرَنا ولم يُسوِّل لنا السامريُّ لما أخلفناه ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ حُمِّلنا أحمالاً من حُليِّ القبط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس. وقيل: استعاروا لعيدٍ كان لهم، ثم لم يَردّوا عند الخروج مخافة أن يُعلَّموا به ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: في النار حتى ذابت ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧﴾ أي: ما كان معه منها. رُوي أنهم لما حسبوا أن العدَّة قد كمُلت قال لهم السامري: إنما أخلفَ موسى ميعادكم لِما معكم من حُليِّ القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حُفَيرة ونَسْجُرَ (أي: نوقد) فيها ناراً ونقذف كلَّ ما معنا فيها، ففعلوا.

فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾

(٨٨) ﴿**فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا**﴾ من تلك الحُليِّ المذابة ﴿**لَّهُۥ خُوَارٞ**﴾ صوت العجل ﴿**فَقَالُواْ**﴾ يعني: السامريّ ومَن افتتن به أوّلَ ما رأوه: ﴿**هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾**﴾ أي: فنسيه موسى عليه السلام وذهب يطلبه عند الطور. أو فنسيَ السامريُّ، أي: ترَكَ ما كان عليه من إظهار الإيمان.

(٨٩) ﴿**أَفَلَا يَرَوۡنَ**﴾ أفلا يعلمون ﴿**أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا**﴾ أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يردُّ عليهم جواباً ﴿**وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾**﴾ ولا يقدر على إنفاعهم وإضرارهم!

(٩٠) ﴿**وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ**﴾ أي: من قبلِ رجوع موسى عليه الصلاة والسلام. أو من قبل قولِ السامريِّ؛ كأنه أوّلَ ما وقع عليه بصره حين طلع من الحفرة توهَّمَ ذلك وبادرَ تحذيرهم ﴿**يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ**﴾ بالعجل ﴿**وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ**﴾ لا غير ﴿**فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾**﴾ في الثبات على الدين.

(٩١) ﴿**قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ**﴾ على العجل وعبادته ﴿**عَٰكِفِينَ**﴾ مقيمين ﴿**حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾**﴾.

(٩٢) ﴿**قَالَ يَٰهَٰرُونُ**﴾ أي: قال له موسى حين رجع ﴿**مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾**﴾ بعبادة العجل.

(٩٣) ﴿**أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ**﴾ لا مزيدة، والمعنى أن تتبعني في الغضب لله والمقاتلة مع مَنْ كفر به. أو أن تأتي عقِبي وتلحقني؟ ﴿**أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾**﴾ بالصلابة في الدين والمحاماة عليه؟

(٩٤) ﴿**قَالَ يَبۡنَؤُمَّ**﴾ خصَّ الأم استعطافاً وترقيقاً. وقيل: لأنه كان أخاه من الأم، والجمهورُ على أنهما كانا من أب وأم ﴿**لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ**﴾ أي: بشعر رأسي. قبضَ عليهما يجرُّه إليه من شدة غيظه وفرط غضبه لله تعالى، وكان عليه الصلاة والسلام حديداً (أي: في دين الله تعالى) خشناً متصلِّباً في كلِّ شيء، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ﴿**إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ**﴾ لو قاتلتُ أو فارقتُ بعضهم ببعض ﴿**وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾**﴾ حين قلتَ: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فإن الإِصلاح كان في حفظ الدهماء (أي: عامة الناس) والمداراة بهم إلى أن ترجع إليهم فتتداركَ الأمر برأيك.

(٩٥) ﴿**قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾**﴾ أي: ثم أقبل عليه وقال له منكراً: ما خطبك؟ أي: ما طلبك له؟ أو ما الذي حملك عليه؟

(٩٦) ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: علمت بما لم يعلموه، وفطنت لما لم يفطنوا له، وهو أن الرسول الذي جاءك روحانيٌّ محض، لا يمسُّ أثرُه شيئاً إلا أحياه. أو رأيتُ ما لم يروه، وهو أن جبرائيل عليه السلام جاءك على فرس الحياة. وقيل: إنما عرفه لأن أمه ألقته حين ولدته خوفاً من فرعون، وكان جبرائيل يغذوه حتى استقلَّ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ من تربةِ موطئه. والرسول جبرائيل عليه السلام، ولعله لم يسَمِّهِ لأنه لم يعرف أنه جبرائيل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في الحُليِّ المذاب، أو في جوف العجل حتى حييَ ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ٩٦﴾ زيَّنَتْهُ وحسَّنَتْهُ لي.

(٩٧) ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾ عقوبةً على ما فعلتَ ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خوفاً من أن يمسَّك أحدٌ فتأخذَك الحُمَّى ومَن مسَّك، فتتحامى الناس ويتحامَوك (أي: فتتجنَّبهم ويتجنَّبوك)، وتكون طريداً وحيداً كالوحش النافر ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ لن يُخلِفكه الله تعالى وينجزه لك في الآخرة بعدما عاقبك في الدنيا ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ ظللت على عبادته مقيماً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ ثم لنذرينَّه رماداً ﴿فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ٩٧﴾ فلا يصادَفُ منه شيء. والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهارُ غباوة المفتتنين به لمن له أدنى نظر.

(٩٨) ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ المستحِقُّ لعبادتكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا أحدَ يماثله أو يدانيه في كمال العلم والقدرة ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٩٨﴾ وسع علمه كل ما يصحُّ أن يُعلم. لا العجلُ الذي يُصاغ ويُحرق، وإن كان حياً في نفسه كان مثلاً في الغباوة.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

(٩٩) ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ مِثلَ اقتصاص قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿**نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ**﴾ من أخبار الأمور الماضية والأمم الدارجة تبصرةً لك وزيادةً في علمك وتكثيراً لمعجزاتك وتنبيهاً وتذكيراً للمستبصرين من أمّتك ﴿**وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾**﴾ كتاباً مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار، حقيقاً بالتفكر والاعتبار (أقول: أي القرآنَ، ذكراً يُتلى على مدى الأزمان والدهور).

(١٠٠) ﴿**مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ**﴾ عن الذكر الذي هو القرآن الجامع لوجوه السعادة والنجاة ﴿**فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾**﴾ عقوبةً ثقيلةً فادحةً على كفره وذنوبه.

(١٠١) ﴿**خَٰلِدِينَ فِيهِ**﴾ في الوزر، أو في حَمله ﴿**وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾**﴾ أي: ساء حملاً وزرُهم.

(١٠٢) ﴿**يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾**﴾ أي: زرق العيون. وُصِفوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق العيون. أو عمياً، فإن حدقة الأعمى تزراقُّ.

(١٠٣) ﴿**يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ**﴾ يخفضون أصواتهم لِما يملأ صدورهم من الرعب والهول ﴿**إِن**﴾ ما ﴿**لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾**﴾ أي: في الدنيا؛ يستقصرون مدة لبثهم فيها لزوالها، أو لاستطالتهم مدة الآخرة، أو لتأسفهم عليها لمّا عاينوا الشدائد وعلموا أنهم استحقُّوها على إضاعتها في قضاء الأوطار (أي: تحصيل الحاجات) واتباع الشهوات.

(١٠٤) ﴿**نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ**﴾ وهو مدةُ لبثهم ﴿**إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً**﴾ أعْدَلُهم رأياً أو عملاً ﴿**إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾**﴾.

(١٠٥) ﴿**وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ**﴾ عن مآل أمرها. وقد سأل عنها رجل من ثَقيف ﴿**فَقُلْ**﴾ لهم ﴿**يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾**﴾ يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فيفرِّقها.

(١٠٦) ﴿**فَيَذَرُهَا**﴾ فيذر مقارَّها (أي: أماكنها) أو الأرض ﴿**قَاعًا**﴾ خالياً ﴿**صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾**﴾ مستوياً، كأن أجزاءها على صف واحد.

(١٠٧) ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ اعوجاجاً ولا نتوءاً (أي: بروزاً).

(١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ داعي الله تعالى إلى المحشر. قيل هو إسرافيل عليه السلام، يدعو الناس قائماً على صخرة بيت المقدس، فيُقبِلون من كل أوب (أي: جهة) إلى صوبه (أي: نحوه) ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يَعوَجُّ له مدعوٌّ ولا يَعدلُ عنه ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خفضت لمهابته ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ صوتاً خفياً. ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل، وقد فُسِّر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر.

(١٠٩) ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: إلا شفاعة من أذن له الرحمن. أو إلا من أذن في أن يُشفَع له، فإن الشفاعة تنفعه ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۝١٠٩﴾ أي: ورضي لمكانه عند الله تعالى قوله في الشفاعة. أو رضي لأجله قول الشافع في شأنه (أقول: القرآن يشفع يوم القيامة للمؤمنين الذين يقرؤونه).

(١١٠) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدَّمهم من الأحوال ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما بعدَهم مما يستقبلونه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ ولا يحيط علمهم بمعلوماته. وقيل: بذاته.

(١١١) ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ ذَلَّتْ وخضعت له خضوع العُناة - وهم الأسارى - في يد الملك القهار. وظاهرُها يقتضي العموم، ويجوز أن يراد بها وجوه المجرمين ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ (أي: يئس من رحمة الله تعالى) ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝١١١﴾ (من حمل إلى موقف القيامة شركاً [النسفي]).

(١١٢) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعضَ الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ الإيمان شرطٌ في صحة الطاعات وقبول الخيرات ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ منعَ ثوابٍ مستحقٍّ بالوعد ﴿وَلَا هَضْمًا ۝١١٢﴾ بنقصانٍ.

(١١٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ كله على هذه الوتيرة (أي: النسق) ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ مكرِّرين فيه آيات الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي، فتصير التقوى لهم مَلَكة ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾ عظةً واعتباراً حين يسمعونها فتثبطهم (أي: تؤخرهم) عنها.

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

(١١٤) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين، لا يماثل كلامُه كلامَهم كما لا تماثل ذاتُه ذاتَهم ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ النافذُ أمرُه ونهيُه، الحقيقُ بأن يُرجى وعدُه ويُخشى وعيدُه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في ملكوته يستحقه لذاته. أو الثابت في ذاته وصفاته ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ نهيٌ عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل عليه السلام ومساوقته (أي: متابعته) في القراءة حتى يُتِمَّ وحيَه. وقيل: نهيٌ عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ أي: سَلِ الله تعالى زيادة العلم بدلَ الاستعجال، فإن ما أوحي إليك تناله لا محالة.

(١١٥) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ ولقد أمرناه. وإنما عطَفَ قصةَ آدم على قوله: ﴿وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ [طه: ١١٣] للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان، وعرقهم راسخ في النسيان ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذا الزمان ﴿فَنَسِىَ﴾ العهدَ ولم يُعنَ به (أي: لم يهتم به) حتى غفل عنه، أو ترك ما وُصِّي به من الاحتراز عن الشجرة ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ تصميمَ رأيٍ وثباتٍ على الأمر، إذ لو كان ذا عزيمة وتصلُّبٍ لم يُزِلَّهُ الشيطان ولم يستطع تغريره. ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يجرِّب الأمور ويذوق شريها (وهو الحنظل) وأريها (وهو العسل) (أقول: وهذا يجري على أفراد بني آدم، فالشيطان يغرس في قلب الإنسان شيئاً وهو لا يرجع إلى القرآن ولا إلى السنة، وينحرف بما طلبته منه نفسه. والحديث في الآية عن سيدنا آدم عليه السلام، وقد خرج من الجنة، فالله تعالى ذكره لنا حتى نعتبر). وعن النبي ﷺ: «لو وُزنت أحلام (أي: عقول) بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾» [أخرجه الطبري رحمه الله تعالى]. وقيل: لم نجد له عزْماً على الذنب، لأنه أخطأ ولم يتعمَّدْهُ.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ أي: أظهرَ الإباءة عن المطاوعة.

(١١٧) ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ فلا يكوننَّ سبباً لإخراجكما. والمرادُ نهيُهما عن أن يكون بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ أفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائِه شقاءَها، من حيث إنه قيِّمٌ عليها. أو لأن المراد بالشقاء التعبُ في طلب المعاش، وذلك وظيفة الرجال. ويؤيده قوله تعالى:

(١١٨) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ (في الجنة) ﴿وَلَا تَعْرَىٰ ۝﴾ (عن الملابس لأنها معدَّة أبداً فيها [النسفي]).

(١١٩) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝﴾ فإنه بيانٌ وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشبع والريُّ والكسوة والسكن مستغنياً عن اكتسابها، ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذَّر عنها.

(١٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ الشجرةِ التي مَن أكل منها خلَّد ولم يمت أصلاً ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝﴾ لا يزول ولا يضعف.

(١٢١) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أخذا يلزقان الورق على سوآتهما للتستر، وهو ورق التين ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بأكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ ۝﴾ فضلَّ عن المطلوب وخاب، حيث طلب الخلود بأكل الشجرة، أو عن المأمور به، أو عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو. وفي النعي عليه بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيمٌ للزلة وزجرٌ بليغ لأولاده عنها.

(١٢٢) ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اصطفاه وقرَّبه بالحَمل على التوبة والتوفيق لها ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فقَبِلَ توبته لمّا تاب ﴿وَهَدَىٰ ۝﴾ إلى الثبات على التوبة والتشبث (أي: التمسك) بأسباب العصمة.

(١٢٣) ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ الخطاب لآدم وحواء. ولمّا كانا أصلَي الذرية خاطبهما مخاطبتهم فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأمر المعاش، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ كتابٌ ورسولٌ ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ ۝﴾ في الآخرة.

(١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ عن الهدى الذاكر لي والداعي إلى عبادتي (أقول: أي كتابي الجاري على ألسنة رسلي الهادين عن الضلال) ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقاً. وذلك لأن مجامع همِّه ومطامحَ نظره تكون إلى أعراض الدنيا، متهالكاً على ازديادها، خائفاً على انتقاصها (أقول: هذه طبيعة الإنسان، همُّه المال والمقامات)، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة. مع أنه تعالى قد يضيِّق بشؤم الكفر ويوسِّع ببركة الإيمان ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝﴾ أعمى البصر أو القلب. ويؤيد الأول:

(١٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝﴾ (في الدنيا).

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

(١٢٦) ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ واضحةً نيِّرةً ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾ فعميتَ عنها وتركتها غير منظور إليها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل تركك إياها ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ تُترَكُ في العمى والعذاب.

(١٢٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾ بل كذَّبها وخالفها ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهو الحشر على العمى. وقيل: عذاب النار ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ من ضنك (أي: ضيق) العيش.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: الله تعالى، أو الرسولُ ﷺ، أو ما دلَّ عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي: إهلاكنا إياهم ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۗ﴾ ويشاهدون آثار إهلاكهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي.

(١٢٩) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَة بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لكان مثلُ ما نزل بعادٍ وثمودَ لازماً لهؤلاء الكفرة (في الدنيا) ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ أي: ولولا العِدَة بتأخير العذاب وأجل مسمّى لأعمارهم. أو لعذابهم، وهو يوم القيامة أو بدرٍ لكان العذاب لزاماً.

(١٣٠) ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وصلِّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه. أو نزِّهْهُ عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص، حامداً له على ما ميَّزك بالهدى معترفاً بأنه المُولي للنعم كلها ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ يعني الظهر والعصر، لأنهما من آخر النهار. أو العصر وحده ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ ومن ساعاته ﴿فَسَبِّحْ﴾ يعني المغرب والعشاء. وإنما قدَّم زمان الليل فيه لاختصاصه بمزيد الفضل، فإن القلب فيه أجمعُ والنفسَ أميلُ إلى الاستراحة، فكانت العبادة فيه أحمزُ (أي: أقوى وأمتن). ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ تكريرٌ لصلاتي الصبح والمغرب إرادةَ الاختصاصِ. أو أمرٌ بصلاة الظهر، فإنها نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الآخر ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: سبِّح في هذه الأوقات طمعاً أن تنال عند الله تعالى ما به ترضي نفسك.

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: نَظَرَ عينيك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ استحساناً له وتمنياً أن يكون لك مثله ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وصفٌ لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعُّمهم وبهاء زيِّهم، بخلاف ما عليه المؤمنون الزُّهَّاد ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ لنبلوهم ونختبرهم فيه. أو لنعذبهم في الآخرة بسببه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ وما ادَّخر لك في الآخرة، أو ما رَزَقك من الهدى والنبوَّة ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحَهم في الدنيا ﴿وَأَبْقَىٰ ١٣١﴾ فإنه لا ينقطع.

(١٣٢) ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أَمَرَهُ بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعدما أَمَرَهُ بها، ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم (أي: حاجتهم)، ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ﴾ وداومْ عليها (أقول: داومْ عليها، فإن الوعظ بالفعل أبلغ من القول) ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ﴾ أي: أن ترزق نفسك ولا أهلك ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ﴾ وإياهم، ففرِّغ بالك لأمر الآخرة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلتَّقْوَىٰ ١٣٢﴾ لذوي التقوى. روي «أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهله ضرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية» [أخرجه الطبراني في الأوسط والهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رجاله ثقات].

(١٣٣) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ بآية تدلُّ على صدقه في ادِّعاء النبوة. أو بآية مقترَحة، إنكاراً لما جاء به من الآيات، أو للاعتداد به تعنتاً وعناداً. فألزمَهم بإتيانه بالقرآن الذي هو أمُّ المعجزات وأعظمُها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدَّعي النبوَّة بنوعٍ من العلم أو العمل على وجهٍ خارق للعادة. ولا شك أن العلم أصلُ العمل وأعلى منه قدراً وأبقى أثراً، فكذا ما كان من هذا القبيل (أقول: العمل بدون علم لا يُقبَل). ونبَّههم أيضاً على وجهٍ أَبْيَن من وجوه إعجازه المختصة بهذا الباب فقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٣٣﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، فإن اشتمالها على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية مع أن الآتي بها أُميٌّ لم يرَها ولم يتعلم ممن علِمَها إعجازٌ بيِّن. وفيه إشعار بأنه - كما يدلُّ على نبوته - برهانٌ لما تقدَّمه من الكتب، من حيث أنه معجز وتلك ليست كذلك، بل هي مفتقرة إلى ما يشهد على صحتها.

(١٣٤) ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل محمَّد عليه الصلاة والسلام. أو من قبل البينة والتذكير، لأنها في معنى البرهان. أو المراد بها القرآن ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالقتل والسبي في الدنيا ﴿وَنَخْزَىٰ ١٣٤﴾ بدخول النار يوم القيامة.

(١٣٥) ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحد منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظرٌ لِما يَؤول إليه أمرُنا وأمرُكم ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ المستقيم ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ١٣٥﴾ من الضلالة.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة طه
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء

مكيَّة، وآيها مئة واثنتا عشرة آية

(٢١) سُورَةُ الأَنبيَاءِ (١١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

(١) ﴿**ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ**﴾ بالإضافة إلى ما مضى، أو عند الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ [المعارج: ٦-٧]. وخُصَّ الناس بالكفار لتقييدهم بقوله: ﴿**وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ**﴾ أي: في غفلة عن الحساب ﴿**مُّعْرِضُونَ ١**﴾ عن التفكر فيه.

(٢) ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ**﴾ ينبِّههم عن سِنَةِ الغفلة والجهالة ﴿**مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ**﴾ تنزيلُه ليكرِّر على أسماعهم التنبيه كي يتعظوا ﴿**إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ٢**﴾ يستهزئون به ويستسخرون منه، لتناهي غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكر في العواقب (أقول: وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والتكذيب والغفلة).

(٣) ﴿**لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**﴾ أي: استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهي والذهول عن التفكر فيه (والذهول: هو النسيان لشغل) ﴿**وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى**﴾ بالغوا في إخفائها ﴿**ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ٣**﴾ كأنهم لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً، استلزموا منه أن ما جاء به من الخوارق - كالقرآن - سحرٌ.

(٤) ﴿**قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ جهراً كان أو سراً، فضلاً عما أسرُّوا به، فهو آكد ﴿**وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٤**﴾ فلا يخفى عليه ما يُسرُّون ولا ما يُضمرون (أقول: علينا معشر المسلمين أن نتمسَّك بهذه العقيدة، ولكنَّنا ننسى بالغفلة، يا حفيظ احفظ علينا الحضور).

(٥) ﴿**بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ**﴾ إضرابٌ لهم عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام افتراه ثم إلى أنه قول شاعر. والظاهر أنَّ «بَلْ» الأولى لتمام حكاية والابتداء بأخرى، أو للإضراب عن تحاورهم في شأن الرسول ﷺ وما ظهر عليه من الآيات إلى تقاولهم في أمر القرآن، والثانية والثالثة لإضرابهم عن كونه أباطيل خُيِّلت إليه وخلطت عليه إلى كونه مفتريات اختلقها من تلقاء نفسه، ثم إلى أنه كلام شعري يُخيِّل إلى السامع معاني لا حقيقة لها ويُرغِّبه فيها ﴿**فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ٥**﴾ أي: كما

أرسل به الأوَّلون؛ مثل اليد البيضاء والعصا وإبراء الأكمه وإحياء الموتى.

(٦) ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾ باقتراح الآيات لما جاءتهم ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ لو جئتَهم بها وهم أعتى (أي: أشد) منهم! وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترَح للإبقاء عليهم، إذ لو أتى به ولم يؤمنوا استوجبوا عذاب الاستئصال كمَن قبلهم.

(٧) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾ فأمَرَهم أن يسألوا أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة لتزول عنهم الشبهة. والإحالةُ عليهم إما للإلزام (أي: لإقامة الحجة)، فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام ويثقون بقولهم، أو لأن إخبار الجمِّ الغفير (أي: الجمع الكثير) يوجب العلم وإن كانوا كفاراً.

(٨) ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ نفيٌ لِما اعتقدوا أنها من خواص المَلَك عن الرسل، تحقيقاً لأنهم كانوا أبشاراً (أي: بشراً) مثلهم.

(٩) ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ﴾ أي: في الوعد ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ﴾ يعني المؤمنين بهم ومَنْ في إبقائه حكمةٌ؛ كمن سيؤمن هو أو أحد من ذريته. ولذلك حُميت (أي: حُفظت) العرب من عذاب الاستئصال ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩﴾ في الكفر والمعاصي.

(١٠) ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ يا قريش ﴿كِتَٰبٗا﴾ يعني القرآن ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ صِيتكم (أي: شرفكم) أو موعظتكم ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠﴾ فتؤمنون به.

وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾

(١١) ﴿**وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٍ**﴾ (وهذه العقوبة واردةٌ عن غضب عظيم، لأن القصم كسرٌ يُبين (يفصل) تلاؤم الأجزاء ﴿**كَانَتۡ ظَالِمَةً**﴾ صفةٌ لأهلها ﴿**وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا**﴾ بعد إهلاك أهلها ﴿**قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾**﴾ مكانهم.

(١٢) ﴿**فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ**﴾ فلما أدركوا شدة عذابنا إدراكَ المشاهَد المحسوس ﴿**إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾**﴾ يهربون مسرعين.

(١٣) ﴿**لَا تَرۡكُضُواْ**﴾ أي: قيل لهم استهزاءً: لا تركضوا، إما بلسان الحال أو المقال. والقائلُ مَلَكٌ أو مَنْ ثَمَّة (هناك) من المؤمنين ﴿**وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ**﴾ من التنعم والتلذذ. والإتراف: إبطار النعمة (أي: التكبر بسببها) ﴿**وَمَسَٰكِنِكُمۡ**﴾ التي كانت لكم ﴿**لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾**﴾ غداً عن أعمالكم. أو تعذَّبون، فإن السؤال من مقدمات العذاب.

(١٤) ﴿**قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾**﴾ لمّا رأوا العذاب ولم يروا وجه النجاة، فلذلك لم ينفعهم. وقيل: إن أهل حَضُور من قرى اليمن بُعث إليهم نبيٌّ فقتلوه، فسلَّط الله تعالى عليهم بختنصر، فوضع السيف فيهم، فنادى منادٍ من السماء: يا لَثاراتِ الأنبياء! (الثأر: هو الانتقام)، فندموا وقالوا ذلك.

(١٥) ﴿**فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ**﴾ فما زالوا يردّدون ذلك. وإنما سماه دعوى لأن المُوَلْوِلَ كأنه يدعو الويل ويقول: يا ويلُ تعالَ فهذا أوانُك ﴿**حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا**﴾ مثل الحصيد، وهو النبت المحصود ﴿**خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾**﴾ ميتين.

(١٦) ﴿**وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾**﴾ وإنما خلقناها مشحونة (أي: مملوءة) بضروب (أي: أنواع) البدائع تبصرةً للنظار وتذكرةً لذوي الاعتبار وتسبباً لما تنتظم به أمور العباد في المعاش والمَعاد، فينبغي أن يتسلقوا بها (أي: يرتقوا بسببها) إلى تحصيل الكمال، ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعة الزوال.

(١٧) ﴿**لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا**﴾ ما يُتلهَّى به ويُلعب ﴿**لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ**﴾ من جهة قدرتنا، أو من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجردات، لا من الأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتكم في رفع السقوف وتزويقها وتسوية الفرش وتزيينها. وقيل: اللهو: الولدُ بلغة اليمن. وقيل: الزوجة. والمراد به الردُّ على النصارى ﴿**إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾**﴾ ذلك.

(١٨) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: بل من شأننا أن نُغَلِّب الحقَّ الذي من جملته الجِدُّ على الباطل الذي من عِداده اللهْوُ ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ فيمحقه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ هالك ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ مما تصفونه به مما لا يجوز عليه.

(١٩) ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَلقاً ومُلكاً ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكة المُنْزَلين منه لكرامتهم عليه منزلة المقرَّبين عند الملوك ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يتعظَّمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩﴾ ولا يَعيَوْن منها (أي: لا يتعبون).

(٢٠) ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ينزِّهونه ويعظِّمونه دائماً ﴿لَا يَفْتُرُونَ ٢٠﴾ (أي: لا يقصِّرون).

(٢١) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ بل اتخذوا ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ٢١﴾ الموتى. وهم وإن لم يصرِّحوا به لكن لَزِمَ من ادِّعائهم لها الإلهية، فإنَّ مِنْ لوازمها الاقتدارُ على جميع الممكنات. والمراد به تجهيلُهم والتهكُّمُ بهم.

(٢٢) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ غير الله تعالى ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لبطلتا، لِما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع (أي: التنازع) ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ المحيط بجميع الأجسام، الذي هو محلُّ التدابير ومنشأ التقادير ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد.

(٢٣) ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفرُّده بالألوهية والسَّلطنة الذاتية ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ٢٣﴾ لأنهم مَملوكون مُستعبَدون.

(٢٤) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ كرَّره استعظاماً لكفرهم واستفظاعاً لأمرهم وتبكيتاً وإظهاراً لجهلهم، أو ضَمّاً لإنكار ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلاً من العقل ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على ذلك إما من العقل أو من النقل، فإنه لا يصح القول بما لا دليل عليه، كيف وقد تطابقت الحجج على بطلانه عقلاً ونقلاً؟ ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ من الكتب السماوية. فانظروا هل تجدون فيها إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك و﴿مَن مَّعِىَ﴾: أمَّتُه، و﴿مَن قَبْلِى﴾: الأمم المتقدمة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ ولا يُميِّزون بينه وبين الباطل ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ ٢٤﴾ عن التوحيد واتباع الرسول ﷺ من أجل ذلك.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾

(٢٥) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (أي: وحِّدوني، فهذه الآية مقرِّرة لما سبقها من آي التوحيد [النسفي]).

(٢٦) ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾ نزلت في خزاعة؛ حيث قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ تنزيهٌ له عن ذلك ﴿بَلۡ عِبَادٞ﴾ بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون وليسوا بأولاد ﴿مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ مقرَّبون.

(٢٧) ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ لا يقولون شيئاً حتى يقولَه، كما هو دَيْدَنُ العبيد المؤدَّبين (عند سيدهم) ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ لا يعملون قطُّ ما لم يأمرهم به جل وعلا.

(٢٨) ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ لا تَخفى عليه خافية مما قدَّموا وأخَّروا ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ أن يُشفَع له مهابةً (أي: خوفاً) منه ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ﴾ من عظمتِه ومهابتِه جل وعلا ﴿مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ مرتعِدون.

(٢٩) ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ﴾ من الملائكة أو من الخلائق ﴿إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ يريد به نفيَ النبوة وادِّعاءَ ذلك عن الملائكة، وتهديدَ المشركين بتهديد مدَّعي الربوبية ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ مَنْ ظَلَمَ بالإشراك وادِّعاء الربوبية.

(٣٠) ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أوَلَمْ يعلموا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾ ذات رَتْقٍ، أو مرتوقتين، وهو الضمُّ والالتحام. أي: كانتا شيئاً واحداً وحقيقة متحدة ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ بالتنويع والتمييز ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ وخلقنا من الماء كل حيوان، وذلك لأنه من أعظم موادِّه في التركيب، أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ مع ظهور الآيات.

(٣١) ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ ثابتات ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ كراهةَ أن تميل بهم وتضطرب ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو الرواسي ﴿فِجَاجٗا سُبُلٗا﴾ مسالك واسعة ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ إلى مصالحهم.

(٣٢) ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ عن الوقوع بقدرته، أو عن الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته، أو عن استراق السمع بالشهب ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا﴾ عن أحوالها الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته وتناهي حكمته ﴿مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ غير متفكرين.

(٣٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ بيانٌ لبعض تلك الآيات ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلٌّ واحد منهما ﴿فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يسرعون على سطح الفَلَكِ إسراع السابح على سطح الماء.

(٣٤) ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ نزلت حين قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] (أي: ننتظر أن تَحلَّ به حوادثُ الدهر ومصائبُه).

(٣٥) ﴿كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ ذائقةٌ مرارةَ مفارقتها جسدَها. وهو برهانٌ على ما أنكروه ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ ونعاملكم معاملة المختبِر ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾ بالبلايا والنعم ﴿فِتۡنَةًۖ﴾ ابتلاءً (أقول: أي: فتنةً لكم واختباراً منا إياكم لحكمة ومصلحة لنا فيها) ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فنجازيكم حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر (هذا للمؤمن). وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاءُ والتعريضُ للثواب والعقاب.

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

(٣٦) ﴿**وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ**﴾ ما يتخذونك ﴿**إِلَّا هُزُوًا**﴾ إلا مهزوءاً به، ويقولون: ﴿**أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ**﴾ أي: بسوء ﴿**وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ**﴾ بالتوحيد. أو بإرشاده الخلقَ ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمةً عليهم. أو بالقرآن ﴿**هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾**﴾ منكِرون، فهم أحقُّ بأن يُهزأ بهم.

(٣٧) ﴿**خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ**﴾ كأنه خُلق منه لفرط استعجاله وقلة تأنِّيه، ومن عجلته مبادرتُه إلى الكفر واستعجالُ الوعيد. روي أنها نزلت في النضر بن الحارث حين استعجل العذاب ﴿**سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى**﴾ نقماتي في الدنيا؛ كوقعة بدر، وفي الآخرة عذاب النار ﴿**فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾**﴾ بالإتيان بها. والنهيُ عمّا جُبلت عليه نفوسُهم ليُقعدوها عن مُرادها.

(٣٨) ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ**﴾ وقتُ وعدِ العذابِ، أو وقتُ القيامة ﴿**إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾**﴾ يَعْنون النبيَّ عليه الصلاة والسلام وأصحابَه رضي الله عنهم.

(٣٩) ﴿**لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾**﴾ أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعجلون منه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وهو حين تحيط بهم النار من كل جانب بحيث لا يقدرون على دفعها ولا يجدون ناصراً يمنعها لَمَا استعجلوا.

(٤٠) ﴿**بَلْ تَأْتِيهِم**﴾ العِدَةُ، أو النار، أو الساعة ﴿**بَغْتَةً**﴾ فجأة ﴿**فَتَبْهَتُهُمْ**﴾ فتغلبهم أو تحيِّرهم ﴿**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾**﴾ يُمهَلون. وفيه تذكير بإمهالهم في الدنيا.

(٤١) ﴿**وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ**﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ ﴿**فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾**﴾ وعدٌ له بأنَّ ما يفعلونه به يَحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا، يعني جزاءه.

(٤٢) ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد (عليه الصلاة والسلام) للمستهزئين ﴿**مَن يَكْلَؤُكُم**﴾ يحفظكم ﴿**بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ**﴾ مِن بأسِه إن أراد بكم ﴿**بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾**﴾ لا يُخطِرونه ببالهم (أي: بخاطرهم) فضلاً أن يخافوا بأسه.

(٤٣) ﴿**أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ**﴾ بل أَلَهُمْ آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز مَنْعَنا ﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ**

﴿نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فإنَّ من لا يَقدر على نصر نفسه ولا يصحبُه نصرٌ من الله تعالى، فكيف ينصر غيره!

(٤٤) ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾ بيانٌ للداعي إلى حفظهم؛ وهو الاستدراج والتمتيع بما قُدِّر لهم من الأعمار. أو بيانٌ لِما أوهمهم ذلك؛ وهو أنه تعالى متَّعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارُهم، فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه. ولذلك عقَّبه بما يدل على أنه أملٌ كاذب، فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ أرض الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾ بتسليط المسلمين عليها. وهو تصوير لما يُجريه الله تعالى على أيدي المسلمين ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ رسولَ الله ﷺ والمؤمنين (أي: أفلا يعتبرون بذلك؟ وخلاصة الآية هي: بيانُ نصرة الله تعالى لأوليائه وخذلانه لأعدائه، فديارُ المسلمين تزداد، وأوطان المشركين تنقص وتتقلص [الواضح الميسر]).

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

(٤٥) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ بما أوحي إليَّ ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ وإنما سمَّاهم الصُّمَّ للدلالة على تصامِّهم وعدم انتفاعهم بما يسمعون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (أي: يُخوَّفون).

(٤٦) ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أدنى شيء ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ مِن الذي يُنذَرون به ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ لَدَعَوْا على أنفسهم بالويل واعترفوا عليها بالظلم.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ العدلَ، توزَن بها صحائفُ الأعمال ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لجزاء يوم القيامة. أو لأهله ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ مِن حقها ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: وإن كان العمل مقدار حبة ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ إذ لا مزيد على عِلمنا وعدْلنا.

(٤٨) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: الكتابَ الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل ﴿وَضِيَآءً﴾ يُستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة، ﴿وَذِكْرًا﴾ يتَّعظ به المتقون، أو ذكرَ ما يحتاجون إليه من الشرائع.

(٤٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ خائفون.

(٥٠) ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُّبَارَكٌ﴾ كثيرٌ خيرُه ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ استفهام توبيخ.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ الاهتداء لوجوه الصلاح ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ موسى وهارون عليهما السلام. أو محمَّد عليه الصلاة والسلام. وقيل: من قبل استنبائه أو بلوغه ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ عَلِمنا أنه أهلٌ لِما آتيناه. أو جامعٌ لمحاسن الأوصاف ومكارم الخصال. وفيه إشارة إلى أن فعله سبحانه وتعالى باختيارٍ وحكمةٍ، وأنه عالمٌ بالجزئيات.

(٥٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ تحقيرٌ لشأنها وتوبيخ على إجلالها، فإن التمثال صورةٌ لا روح فيها، لا يضرُّ ولا ينفع.

(٥٣) ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ فقلَّدناهم.

(٥٤) ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾ منخرطين في سلكِ ضلالٍ لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل. والتقليدُ وإن جاز فإنما يجوز لمن عَلِمَ في الجملة أنه على حق.

(٥٥) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝﴾ كأنهم لاستبعادهم تضليله إياهم ظنوا أن ما قاله إنما قاله على وجه الملاعبة، فقالوا: أَبِجِدٍّ تقولُه أم تلعب به؟

(٥٦) ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ إضرابٌ عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادَّعاه. و«هنَّ»: للسموات والأرض أو للتماثيل. وهو أَدْخَلُ في تضليلهم وإلزامِ الحجة عليهم ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ المذكور من التوحيد ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝﴾ من المتحققين له والمبرهِنين عليه.

(٥٧) ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ وقرئ بالباء وهي الأصل (أقول: قال الآلوسي في تفسيره: وقرأ معاذ بن جبل وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما: «بالله»، وهي أصل حروف القَسَم. وتعقَّبه في البحر بأنه لا يقوم على ذلك دليل، وقد ردَّه السهيلي. والذي يقتضيه النظر أنه ليس شيء من هذه الأحرف أصلاً لآخر، وفرَّق بعضهم بين الباء والتاء بأن في التاء زيادةُ معنى وهو التعجب) ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ لأجتهدَنَّ في كَسْرها ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ﴾ عنها ﴿مُدْبِرِينَ ۝﴾ إلى عيدكم. ولعله قال ذلك سراً.

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

(٥٨) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ قِطَعاً ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ للأصنام؛ كَسَرَ غيرَه واستبقاه، وجعل الفأس على عنقه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ لأنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه (أي: إلى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام) لتفرُّده واشتهاره بعداوة آلهتهم، فيحاجُّهم بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فيحجُّهم. أو أنهم يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن كاسرها، إذ من شأن المعبود أن يُرجَع إليه في حلِّ العقد، فيُبكِّتهم بذلك (أي: يغلبهم بالحجة).

(٥٩) ﴿قَالُوا۟﴾ حين رجعوا ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ بجراءته على الآلهة الحقيقة بالإعظام. أو بإفراطه في حطمها. أو بتوريط نفسه للهلاك.

(٦٠) ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يَعيبهم، فلعلَّه فَعَله ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

(٦١) ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ بمرأى منهم، بحيث تتمكَّنُ صورته في أعينهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ بفعلِه أو قولِه، أو يحضرون عقوبتنا له.

(٦٢) ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ حين أحضروه.

(٦٣) ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أَسْنَدَ الفعل إليه تجوزاً، لأن غيظه لِما رأى من زيادة تعظيمهم له تسبَّبَ لمباشرته إياه. أو تقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت، على أسلوب تعريضيٍّ. وما رُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لإبراهيم ثلاث كذبات» تسميةٌ للمَعاريض كذباً، لما شابهتْ صورتُها صورتَه [الحديث أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى].

(٦٤) ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وراجعوا عقولهم ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ فقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ بهذا السؤال. أو بعبادة من لا ينطق ولا يضرُّ ولا ينفع، لا من ظلمتموه بقولكم: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

(٦٥) ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ انقلبوا إلى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة. شبَّهَ عَوْدَهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه (وقالوا) ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها؟

(٦٦) ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ إنكارٌ لعبادتهم لها بعد اعترافهم بأنها جماداتٌ لا تنفع ولا تضرُّ، فإنه ينافي الألوهية.

(٦٧) ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ تضجُّرٌ منه على إصرارهم بالباطل البيِّن. و«أُفٍّ» صوتُ المتضجِّر، ومعناه: قُبْحاً ونتناً ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ قبحَ صنيعكم!

(٦٨) ﴿قَالُواْ﴾ أخذاً في المضارَّة لمّا عجزوا عن المحاجّة: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإن النار أهوَلُ (أي: أشد) ما يُعاقَب به ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ بالانتقام لها ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ إن كنتم ناصرين لها نصراً مؤزراً (أي: قوياً).

(٦٩) ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ ذاتَ بردٍ وسلام. أي: ابردي برداً غير ضارٍّ. رُوي أنهم بنَوْا حظيرة بكوثي (اسم قرية، ويقال: إنها أورفة)، وجمعوا فيها ناراً عظيمة، ثم وضعوه في المنجنيق مغلولاً، فرمَوا به فيها، فقال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: فسل ربك؟ فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فجعل الله تعالى - ببركة قوله - الحظيرةَ روضةً، ولم يحترق منه إلا وِثاقه (أي: قيْدُهُ). فاطَّلع عليه نمروذ من الصَّرح، فقال إني مقرِّبٌ إلى إلهك، فذبح أربعة آلاف بقرة، وكفَّ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وكان إذ ذاك ابن ست عشرة سنة. وانقلاب النار هواء طيباً ليس ببِدع (أي: ليس بغريب)، غير أنه هكذا على خلاف المعتاد، فهو إذن من معجزاته. وقيل: كانت النار بحالها، لكنه سبحانه وتعالى دفع عنه أذاها.

(٧٠) ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ مكراً في إضراره ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾ أخسرَ من كلِّ خاسرٍ لِما عاد سعيُهم برهاناً قاطعاً على أنهم على الباطل وإبراهيم عليه السلام على الحق، وموجباً لمزيد درجته واستحقاقهم أشدَّ العذاب.

(٧١) ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ أي: من العراق إلى الشام. وبركاتُه العامة أن أكثر الأنبياء بُعثوا فيه، فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادئ الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية. وقيل: كثرة النعم والخصب الغالب. روي أنه عليه الصلاة والسلام نزل بفلسطين، ولوطاً عليه الصلاة والسلام بالمؤتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة.

(٧٢) ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾ عَطيَّة، أو ولدَ ولدٍ (وُلد إسحاق بعد إسماعيل عليهما السلام) ﴿وَكُلّٗا﴾ يعني الأربعة (قال النسفي في المدارك: ثلاثة؛ وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام) ﴿جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ بأن وفَّقناهم للصلاح وحملناهم عليه فصاروا كاملين.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

(٧٣) ﴿**وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً**﴾ يُقتدى بهم ﴿**يَهْدُونَ**﴾ الناس إلى الحق ﴿**بِأَمْرِنَا**﴾ لهم بذلك، وإرسالِنا إياهم، حتى صاروا مكمِّلين ﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ**﴾ ليحُثُّوهم عليها، فيتم كمالهم بانضمام العمل إلى العلم ﴿**وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾**﴾ موحِّدين مخلصين في العبادة.

(٧٤) ﴿**وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا**﴾ حكمةً، أو نبوَّة، أو فصلاً بين الخصوم ﴿**وَعِلْمًا**﴾ بما ينبغي عِلمه للأنبياء ﴿**وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ**﴾ قرية سدوم ﴿**ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ**﴾ يعني اللواطة. وَصَفَها بصفةِ أهلها ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾**﴾.

(٧٥) ﴿**وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ**﴾ في أهل رحمتنا، أو في جنَّتنا ﴿**إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾**﴾ الذين سبقَتْ لَهُمْ منَّا الحسنى.

(٧٦) ﴿**وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ**﴾ إذ دعا الله سبحانه على قومه بالهلاك ﴿**مِن قَبْلُ**﴾ من قبلِ المذكورين ﴿**فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ**﴾ دعاءه ﴿**فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾**﴾ من الطوفان، أو من أذى قومه. والكربُ: الغمُّ الشديد.

(٧٧) ﴿**وَنَصَرْنَٰهُ**﴾ أي: جعلناه منتصراً ﴿**مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾**﴾ لاجتماع الأمرين: تكذيبِ الحقِّ، والانهماكِ في الشرِّ. ولم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

(٧٨) ﴿**وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ**﴾ أي: في الزرع. وقيل: في كَرْمٍ تدلت عناقيده ﴿**إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ**﴾ رَعَتْه ليلاً ﴿**وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾**﴾ لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما عالِمين.

(٧٩) ﴿**فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ**﴾ أي: الحكومة، أو الفتوى. روي أن داود حكم بالغنم لصاحب الحرث، فقال سليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة: غيرُ هذا أرفقُ بهما، فأمَرَ بدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها، والحرثِ إلى أرباب الغنم يقومون عليه، حتى يعود إلى ما كان ثم يترادَّان ﴿**وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ دليلٌ على أن خطأ المجتهد لا يقدح فيه ﴿**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ**﴾ يقدِّسْنَ الله تعالى معه؛ إما بلسان الحال، أو بصوتٍ يتمثل له، أو بخلق الله تعالى فيها الكلام ﴿**وَٱلطَّيْرَ**﴾ عطفٌ على الجِبالَ ﴿**وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾**﴾ لأمثاله، فليس ببِدع (أي: ليس بغريب) منا وإن كان عجيباً عندكم.

(٨٠) ﴿**وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ**﴾ أي: عملَ الدِّرع، وهو في الأصل اللباس. قيل: كانت صفائح فحلَّقها وسرَدها (أي: نسجها دروعاً) ﴿**لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ**﴾ (أي: لتمنعكم من حرب عدوكم) ﴿**فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠**﴾ ذلك؟ (أقول بدلًا عنهم: الحمد لله والشكر لله).

(٨١) ﴿**وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ**﴾ وسخرنا له الريح ﴿**عَاصِفَةً**﴾ شديدةَ الهبوب، من حيث إنها تبعد بكرسيه في مدة يسيرة كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]. وكانت رخاء في نفسها طيبة. وقيل: كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته ﴿**تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ**﴾ بمشيئته ﴿**إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا**﴾ إلى الشام رواحاً، بعد ما سارت به منه بكرة ﴿**وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١**﴾ فنُجْريه على ما تقتضيه الحكمة (الإلهية).

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

(٨٢) ﴿**وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ**﴾ في البحار، ويُخرجون نفائسها ﴿**وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ**﴾ ويتجاوزون ذلك إلى أعمال أُخَرَ؛ كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة، كقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَماثِيلَ﴾ [سبأ: ١٣] ﴿**وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾**﴾ أن يزيغوا (أي: الشياطين) عن أمره أو يفسدوا، على ما هو مقتضى جبلَّتهم.

(٨٣) ﴿**وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾**﴾ وصَفَ ربَّه بغاية الرحمة بعد ما ذكَرَ نفسه بما يوجبها، واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفاً في السؤال. وكان رومياً من وَلَدِ عيص بن إسحاق، استنبأه الله تعالى (أي: جعله نبياً) وكثرَ أهله وماله، فابتلاه ربُّه بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم، وذهاب أمواله، والمرض في بدنه ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة. روي أن امرأته قالت له يوماً: لو دعوتَ الله تعالى؟ فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال: أستحيي من الله تعالى أن أدعوه وما بلغتْ مدةُ بلائي مدةَ رخائي.

(٨٤) ﴿**فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ**﴾ بالشفاء من مرضه ﴿**وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ**﴾ بأن وُلد له ضعف ما كان، أو أُحيي ولده، ووُلدَ له منهم نوافل (أي: أحفاد) ﴿**رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾**﴾ رحمة على أيوب، وتذكرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر، فيثابوا كما أثيب. أو لرحمتنا للعابدين، فإنا نذْكُرهم بالإحسان ولا ننساهم (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون).

(٨٥) ﴿**وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ**﴾ يعني إلياس، وقيل: يوشع، وقيل: زكريا عليهم السلام، سُمِّي به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفُّلٍ منه، أوْ لَهُ ضعفُ عملِ أنبياء زمانه وثوابِهم ﴿**كُلّٞ**﴾ كلُّ هؤلاء ﴿**مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾**﴾ على مشاقِّ التكاليف وشدائد النوائب (أي: المصائب).

(٨٦) ﴿**وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ**﴾ يعني: النبوَّة. أو نعمة الآخرة ﴿**إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾**﴾ الكاملين في الصلاح. وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد.

(٨٧) ﴿**وَذَا ٱلنُّونِ**﴾ وصاحبَ الحوت؛ يونس بن متى عليه السلام ﴿**إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا**﴾ لقومه لما برم

(أي: ضجر) بطول دعوتهم وشدة شكيمتهم (أي: عنادهم) وتمادي إصرارهم، مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر (من الله تعالى). وقيل: وعَدَهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم، ولم يَعرف الحال، فظنَّ أنه كذَبهم وغضب من ذلك، أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نضيّق عليه، أو لن نقضي عليه بالعقوبة من القَدَرِ ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ بأنه لاَّ إله إلاَّ أَنتَ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ مِن أن يُعجزك شيء ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة. وعن النبي عليه الصلاة والسلام: «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له» [الحديث رواه الحاكم رحمه الله تعالى في المستدرك وصححه] (أقول: ولكن يستجيب كما يريد هو جل وعلا).

(٨٨) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان في بطنه، وقيل: ثلاثة أيام. والغمُّ: غم الالتقام، وقيل: غمُّ الخطيئة ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ من غمومٍ دعَوا الله تعالى فيها بالإخلاص.

(٨٩) ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ وحيداً، بلا ولدٍ يرثني ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي به (فإنك خير وارث، أي: باق [النسفي]).

(٩٠) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي: أصلحناها للولادة بعد عقرها. أو أصلحناها لزَكَرِيَّا بتحسين خُلُقها ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني المتوالدين أو المذكورين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يبادرون إلى أبواب الخير ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ذوي رغَبٍ ورهَبٍ. أو راغبين في الثواب، راجين للإجابة، أو في الطاعة، وخائفين من العقاب أو المعصية ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ مخبِتين (أي: متواضعين) أو دائمي الوجلِ. والمعنى أنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بهذه الخصال.

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾

(٩١) ﴿**وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا**﴾ من الحلال والحرام، يعني مريم عليها السلام ﴿**فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا**﴾ من الروح الذي هو بأمرنا وحده. أو من جهة روحنا، يعني جبريل عليه السلام (أقول: أضاف تعالى الروح إليه ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ على جهة التشريف والتعظيم، لا نافخ ولا منفوخ، بل بإرادته سبحانه) ﴿**وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ**﴾ أي: قصتَّهما أو حالَهما ﴿**ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١**﴾ فإن من تأمَّل حالهما تحقَّق كمالَ قدرة الصانع تعالى.

(٩٢) ﴿**إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ**﴾ أي: إن ملة التوحيد والإسلام ملتُكم التي يجب أن تكونوا عليها، فكونوا عليها ﴿**أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ**﴾ غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا مشارِكة لغيرها في صحة الاتباع ﴿**وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ**﴾ لا إله لكم غيري ﴿**فَٱعۡبُدُونِ ٩٢**﴾ لا غير.

(٩٣) ﴿**وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ**﴾ أي: وجعلوا أمرَهُ قِطَعاً موزَّعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم ﴿**كُلّٞ**﴾ من الفرق المتحزِّبة ﴿**إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣**﴾ فنجازيهم.

(٩٤) ﴿**فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ**﴾ بالله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام ﴿**فَلَا كُفۡرَانَ**﴾ فلا تضييعَ ﴿**لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ**﴾ أي: لسعيه ﴿**كَٰتِبُونَ ٩٤**﴾ مُثْبتون في صحيفة عمله لا يضيع بوجهٍ ما.

(٩٥) ﴿**وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ**﴾ وممتنعٌ على أهلها، غيرُ متصوَّرٍ منهم ﴿**أَهۡلَكۡنَٰهَآ**﴾ حكَمْنا بإهلاكها، أو وجدناها هالكة ﴿**أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥**﴾ إلى التوبة، أو إلى الحياة.

(٩٦) ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ**﴾ أي: يستمر الامتناع أو الهلاك أو عدم الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها؛ وهو فتحُ سدِّ يأجوج ومأجوج ﴿**وَهُم**﴾ يعني: يأجوج ومأجوج، أو الناس كلهم ﴿**مِّن كُلِّ حَدَبٖ**﴾ نَشَزٍ من الأرض (وهو ما ارتفع وظهر من الأرض) ﴿**يَنسِلُونَ ٩٦**﴾ يُسرعون.

(٩٧) ﴿**وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ**﴾ وهو القيامة ﴿**فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ يقولون ﴿**يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا**﴾ لَمْ نعلمْ أنه حقٌّ ﴿**بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧**﴾ لأنفسنا، بالإخلال بالنظر وعدم الاعتداد بالنُّذُر.

(٩٨) ﴿**إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ يَحتمِل الأوثان وإبليس وأعوانه، لأنهم بطاعتهم لهم في حكم عبدتهم. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما تلا الآية على المشركين قال له ابن الزبعرى: قد خصمتك ورب

الكعبة، أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة؟ فقال ﷺ: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك» [أخرجه الحاكم في المستدرك وصحَّحه، ووافقه الذهبي رحمهما الله تعالى] فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما يُرمى به إليها وتهيج به ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

(٩٩) ﴿لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ لأن المؤاخَذ بالعذاب لا يكون إلهاً ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ لا خلاص لهم عنها.

(١٠٠) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنينٌ وتنفس شديد ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ من الهول وشدة العذاب. وقيل: لاَ يسمعون ما يَسُرُّهم.

(١٠١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ أي: الخصلة الحسنى؛ وهي السعادة، أو التوفيق للطاعة، أو البشرى بالجنة. (أقول: مثل العشرة المبشَّرين بالجنة، والعمل وإن كان موافقاً، فإن دخول الجنة برحمة الله تعالى) ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ لأنهم يُرفعون إلى أعلى عليين.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

سُورَةُ الحَجّ (٢٢) (٧٨)

(١٠٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ﴾ سِيق للمبالغة في إبعادهم عنها. والحسيسُ: صوتٌ يُحَسُّ به ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ دائمون في غاية التنعُّم.

(١٠٣) ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ النفخة الأخيرة، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ [النمل: ٨٧]. أو الانصراف إلى النار. أو حين يُطبَق على النار. أو يُذبَح الموت على صورة كبش أملح ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تستقبلهم مهنئين، قائلين لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ يوم ثوابكم ﴿ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ في الدنيا.

(١٠٤) ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ المُراد بالطيّ: ضدُّ النشر أو المحو. وذلك لأنها نُشرت مظلةً لبني آدم، فإذا انتقلوا قُوِّضت عنهم (أي: انتقضت وتفرَّقت) ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ﴾ طياً كطي الطومار (أي: الصحيفة) للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه. وقيل: «السِّجِلُّ» ملَكٌ يطوي كتُبَ الأعمال إذا رُفعت إليه ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ﴾ أي: نُعيد ما خلقناه مبتدأ إعادة مثل بدئنا إياه في كونهما إيجاداً من العدم، أو جمعاً بين الأجزاء المتبدِّدة (أي: المتفرِّقة). والمقصودُ بيان صحة الإعادة بالقياس على الإبداء، لشمول الإمكان الذاتي المصحِّح للمقدورية، وتناول القدرة القديمة لهما على السواء ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ﴾ أي: علينا إنجازُهُ ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ ذلك لا محالة.

(١٠٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ في كتاب داود عليه السلام ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: التوراة. وقيل: المراد بـ «الزَّبُورِ» جنسُ الكتب المنزلة (على رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام)، وبـ«الذِّكْرِ» اللوحُ المحفوظ (أو علم الله تعالى الأزلي) ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة (هذا بعد الحشر) أو الأَرض المقدسة (هذا في الدنيا) ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ يعني: عامةُ المؤمنين. أو الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها، أو أمة محمَّد ﷺ.

(١٠٦) ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ أي: فيما ذكرنا من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿لَبَلَٰغًا﴾ لكفايةً. أو لَسببَ بلوغٍ إلى البغية (أي: المطلب) ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ همّهم العبادةُ دون العادة.

(١٠٧) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ لأن ما بُعثتَ به سببٌ لإسعادهم، وموجبٌ لصلاح معاشهم ومَعادهم. وقيل: كونُهُ رحمةً للكفار أمْنُهم به من الخسف والمسخ وعذاب الاستئصال.

(١٠٨) ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أي: ما يوحى إليَّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد. وذلك لأن المقصود الأصليَّ من بعثته مقصورٌ على التوحيد ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾ مخلِصون العبادة لله تعالى على مقتضى الوحي المصدَّق بالحجة؟

(١٠٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن التوحيد ﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ﴾ أي: أعلمتكم ما أُمِرت به. أو أعلمتكم حَرْبي لكم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ مستوين في الإِعلام به (المؤمن والكافر) أو مستوين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ من غلَبَةِ المسلمين، أو من الحشر، لكنه كائن لا محالة.

(١١٠) ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ ما تجاهرون به من الطعن في الإِسلام ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ من الإِحَن (أي: الضغائن) والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه.

(١١١) ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾ وما أدري لعل تأخير جزائكم استدراجٌ لكم وزيادةٌ في افتتانكم. أو امتحان لينظر كيف تعملون ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾ وتمتيعٌ إلى أجل مقدَّر تقتضيه مشيئته جل وعلا.

(١١٢) ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ اقضِ بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لاستعجال العذاب والتشديد عليهم ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ كثير الرحمة على خلقه ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ المطلوب منه المعونة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ من الحال بأن الشوكة تكون لهم، وأن راية الإِسلام تخفق أياماً ثم تسكن، وأن المُوعَد به لو كان حقاً لنزل بهم. فأجاب الله تعالى دعوة رسوله ﷺ فخيَّب أمانيهم ونَصَرَ رسوله ﷺ عليهم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الأنبياء

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الحج

مكيَّة إلا ست آيات،

من ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ إلى ﴿صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾،

وآيها ثمان وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

(١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾**﴾ هائل؛ علَّل أمرهم بالتقوى بفظاعة الساعة ليتصوَّروها بعقولهم ويعلموا أنه لا يؤمِّنهم منها سوى التدرُّع بلباس التقوى.

(٢) ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ**﴾ تصويرٌ لِهَوْلِها. والمقصود الدلالة على أن هولها (أي: هول القيامة) بحيث إذا دُهِشت التي ألقمت الرضيعَ ثديَها نزعته من فيه وذهلت عنه ﴿**وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**﴾ جنينها (قال الخطيب الشربيني رحمه الله تعالى: قال الحسن رحمه الله تعالى: على أنَّ ذلك يوم القيامة، وقال البقاعي في المرضعة: هي من ماتت مع ابنها رضيعاً، وفي ذات الحمل: من ماتت حاملاً، فإنَّ كل أحد يقوم على ما مات عليه. وهذا أولى فإني في حال كتابتي في هذا المحل حضر عندي سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني نفعنا الله تعالى ببركته فانشرح صدره لهذا القول [انظر السراج المنير]) ﴿**وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ**﴾ كأنهم سكارى ﴿**وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ**﴾ على الحقيقة ﴿**وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾**﴾ فأَرْهقهم هولُه بحيث طيَّر عقولَهم وأذهَبَ تمييزهم. وأثرُ السُّكْرِ إنما يراه كلُّ أحدٍ على غيره.

(٣) ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وكان جَدِلًا (أي: شديد الخصومة) يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعثَ بعد الموت. هي تَعمُّه وأضرابَهُ (أي: أمثاله) ﴿**وَيَتَّبِعُ**﴾ في المجادلة أو في عامة أحواله ﴿**كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾**﴾ متجرِّد للفساد.

(٤) ﴿**كُتِبَ عَلَيْهِ**﴾ على الشيطان ﴿**أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ**﴾ تبعه ﴿**فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ**﴾ أي: كُتب عليه إضلال من يتولاه لأنه جُبِلَ عليه ﴿**وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾**﴾ بالحَمْلِ على ما يؤدي إليه.

(٥) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ**﴾ مِن إمكانِه وكونه مقدوراً ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم**﴾ أي: فانظروا في بدء خلقكم، فإنه يزيح ريبكم (أي: يُزيل شكَّكم) فإنا خلقناكم ﴿**مِّن تُرَابٍ**﴾ إذْ خَلَقَ آدمَ منه،

والأغذيةَ التي يتكوَّن منها المنيُّ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ منيٍّ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة من الدم جامدة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مُسَوَّاةٍ لا نقص فيها ولا عيب وغير مسوَّاة. أو تامةٍ وساقطةٍ. أو مصوَّرةٍ وغير مصوَّرة ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدريج قدرتَنا وحكمتنا، وأن ما قَبِلَ التغيرَ والفساد والتكوُّن مرَّةً قَبلَها أخرى، وأن من قَدِرَ على تغييره وتصويره أوَّلاً قَدِرَ على ذلك ثانياً ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ أن نقرَّه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع. وأدناه بعد ستة أشهر، وأقصاه أربع سنين ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ كمالكم في القوة والعقل ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشُدِّ أو قبله ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الهرم والخرف (اللهم لاتردَّنا إليه يا أرحم الراحمين) ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية؛ من سخافة العقل (أي: ضعف العقل) وقلة الفهم، فينسى ما علمه وينكر من عرفه (أقول: ويستثنى من ذلك أهل القرآن، أيْ: مَن عمل بأمر القرآن. قال الصاوي رحمه الله تعالى في حاشيته على تفسير الجلالين: وقوله ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ لأجل انتفاء علمه بالأشياء التي كان يعلمها قبل هذه الحالة، فيرجع إلى مبدئه في عدم المعرفة والعلم كالطفل الذي لا يدري شيئاً. قوله: قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة؛ أي: عاملًا به، وكذلك العلماء العاملون لا يصيرون بهذه الحالة، بل كلما ازدادوا في العمر ازدادوا في العلم والمعرفة والعقل كما هو مشاهَد، ولذا قالوا: أعلى كلام العارفين ما صدر في آخر عمرهم). والآية استدلالٌ ثانٍ على إمكان البعث بما يعتري الإنسان في أسنانه (جمع سنٍّ، وهو العمر) من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، فإن من قَدِرَ على ذلك قَدِرَ على نظائره ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة يابسة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تحرّكت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ من كل صنف ﴿بَهِيجٍ ٥﴾ حسنٍ رائقٍ. وهذه دلالةٌ ثالثة كرَّرها الله تعالى في كتابه لظهورها وكونها مشاهَدَةً.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويله على أحوال متضادة، وإحياء الأرض بعد موتها ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابت في نفسه الذي به تتحقق الأشياء ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وأنه يَقدِر على إحيائها، وإلا لَمَا أحيى النطفة والأرض الميتة. (أقول: لأن النطفة ميتة، ثم يحييها في الأرحام بقدرته جل وعلا) ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ لأن قدرته لذاته الذي نسبته إلى الكل على سواء (كبيرِها وصغيرِها). فلمّا دلَّت المشاهدةُ على قدرته على إحياء بعض الأموات لَزِمَ اقتدارُه على إحياء كلها.

(٧) ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإن التغيُّر من مقدمات الانصرام (أي: الانقضاء) وطلائعِه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ بمقتضى وعدِه الذي لا يَقبل الخُلْفَ.

(٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ على أنه لا سَنَدَ له من استدلالٍ أو وحيٍ. والمراد بالعلمِ العلمُ الفطريُّ لِيَصِحَّ عطفُ الهُدى والكِتاب عليه.

(٩) ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: متكبِّراً (يحوِّل عنقه عن الحق)، أو معرضاً عن الحقّ استخفافاً به ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ المُحرق؛ وهو النار.

(١٠) ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: يقال له يوم القيامة: ذلك الخزي والتعذيب بسبب ما اقترفتَه (أي: ما اكتسبتَه) من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ وإنما هو مجازٍ لهم على أعمالهم.

(١١) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ﴾ على طرَفٍ من الدِّين لاَ ثَبَاتَ له فيه، كالذي يكون على طرف الجيش، فإن أحسَّ بظَفَر قرَّ، وإلا فرَّ ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ روي أنها نزلت في أعاريب قدِموا إلى المدينة، وكان أحدهم إذا صحَّ بدنُه ونتجت فرسُه مُهراً سرياً (أي: خطيراً كريماً) وولدت امرأته غلاماً سوياً وكثُر مالُه وماشيتُه قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً فاطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال ما أصبت إلا شراً وانقلبَ. وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه، أن يهودياً

أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أقِلْني (أي: اعفِني)، فقال: «إن الإسلام لا يُقال» فنزلت ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ﴾ بذهاب عصمته (أي: حفظه) وحبوط عمله بالارتداد ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ إذ لا خسران مثله.

(١٢) ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ يعبد جماداً (صنماً) لا يضرُّ بنفسه ولا ينفع ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ عن المقصد.

(١٣) ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ بكونه معبوداً؛ لأنه يوجب القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ﴾ الذي يُتوَقع بعبادته؛ وهو الشفاعة والتوسل بها إلى الله تعالى، أي: يقول الكافر ذلك بدعاء وصراخ حين يرى استضراره به ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الناصرُ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ الصاحبُ.

(١٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ من إثابةِ الموحِّد الصالح وعقاب المشرك الطالح، لا دافع له ولا مانع (أقول: قيَّد الإيمان بالعمل الصالح ولو لم يكن من أصله، بل هو مقتضاه).

(١٥) ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي: إن الله تعالى ناصرٌ رسولَه في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ فليستقصِ في إزالة غيظه أو جزَعه بأن يفعل كلَّ ما يفعله الممتلئ غيظاً، أو المبالغ جزَعاً حتى يَمُدَّ حبلاً إلى سماء بيته فيختنق به ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ فليَتصوَّر في نفسه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ فِعلُه ذلك ﴿مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ أي: الذي يُغيظه مِنْ نصر الله تعالى.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

(١٦) ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ**﴾ أنزلنا القرآن كله ﴿**ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ**﴾ واضحات ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى**﴾ ولأن الله تعالى يهدي به أو يثبِّت على الهدى ﴿**مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾**﴾ هدايته أو ثباته أنزله كذلك مبيناً.

(١٧) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ**﴾ بالحكومة بينهم وإظهار المُحِقِّ منهم من المبطل. أو بالجزاء، فيجازي كلا ما يليق به ويدخله المحلَّ المُعَدَّ له ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾**﴾ عالمٌ به مراقبٌ لأحواله.

(١٨) ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ يتسخَّر لقدرته ولا يتأبى عن تدبيره. أو يَدُلُّ بِذِلَّتِه على عظمة مدبِّره ﴿**وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ**﴾ أفردها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها ﴿**وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ**﴾ أي: ويسجد له كثير من الناس سجودَ طاعةٍ ﴿**وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ**﴾ بكفره وإبائه عن الطاعة ﴿**وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ**﴾ بالشقاوة ﴿**فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ**﴾ يكرمه بالسعادة ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾**﴾ من الإكرام والإهانة.

(١٩) ﴿**هَٰذَانِ خَصْمَانِ**﴾ أي: فَوْجان مختصمان ﴿**ٱخْتَصَمُوا۟**﴾ المراد بهما المؤمنون والكافرون ﴿**فِى رَبِّهِمْ ۖ**﴾ في دينه، أو في ذاته وصفاته. وقيل: تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقال اليهود: نحن أحقُّ بالله تعالى، وأقدم منكم كتاباً ونبيُّنا قبلَ نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله تعالى، آمنا بمحمد ﷺ وبنبيِّكم كذلك وبما أَنزَلَ الله تعالى مِن كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبيَّنا ثم كفرتم به حسداً، فنزلت ﴿**فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ**﴾ قُدِّرت لهم على مقادير جثثهم ﴿**ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ**﴾ نيران تحيط بهم إحاطة الثياب ﴿**يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾**﴾ وهو الماء الحار.

(٢٠) ﴿**يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾**﴾ أي: يُؤَثِّر من فرط حرارته في باطنهم تأثيرَه في ظاهرهم، فتذاب به أحشاؤهم كما تذاب به جلودهم.

(٢١) ﴿**وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾**﴾ سياط (أو مطارق) منه يُجلدون بها.

(٢٢) ﴿**كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا**﴾ من النار ﴿**مِنْ غَمٍّ**﴾ من غمومها ﴿**أُعِيدُوا۟ فِيهَا**﴾ (يعني: كلّما

أرادوا الخروج من النار من أجل غمٍّ يلحقهم [النسفي]) فخرجوا أعيدوا، لأن الإِعادة لا تكون إلا بعد الخروج. وقيل: يضربهم لهب النار فيرفعهم إلى أعلاها، فيُضرَبون بالمقامع فيهوون (أي: يسقطون) فيها ﴿**وَذُوقُواْ**﴾ أي: وقيل لهم: ذُوقُوا ﴿**عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢**﴾ أي: النارَ البالغة في الإِحراق.

(٢٣) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ**﴾ وهو إحمادٌ لحال المؤمنين وتعظيمٌ لشأنهم ﴿**يُحَلَّوْنَ فِيهَا**﴾ مِنْ حلَّيْتُ المرأة إذا ألبستُها الحُلِيَّ ﴿**مِنْ أَسَاوِرَ**﴾ جمع أَسْوِرة، وهي جمع سِوار ﴿**مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا**﴾ (أي: ويُؤتَونَ لؤلؤاً) ﴿**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣**﴾.

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

(٢٤) ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤] أو كلمة التوحيد (أقول: يعني أُرْشِدوا. ويقال: دُعوا إلى قول التوحيد لا إله إلا الله. ويقال: القرآن) ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ وهو الجنة. أو الحق. أو المستحِقُّ لذاته الحمد، وهو الله سبحانه وتعالى. وصراطُه: الإسلام (أقول: وهو الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ديناً).

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي: المقيمُ والطارئ (أي: الغريب) ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ عدولٍ عن القصد ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حق ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

(٢٦) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: واذكر إذ عيَّناه وجعلناه له مباءة (أي: مكاناً). قيل: رُفع البيت إلى السماء. أو انطمس (أي: انمحى) أيام الطوفان، فأعلمه الله تعالى مكانه بريح أرسلها فكنست ما حوله، فبناه على أُسِّه (أي: أساسه) القديم ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وتطهِّر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي فيه.

(٢٧) ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ نادِ فيهم ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوة الحج والأمرِ به. روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حُجُّوا بيت ربكم، فأسمعه الله تعالى مَنْ في أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق في علمه أن يَحُجَّ [قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في فتح الباري: إسناده قوي] ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مُشاة، جمع راجل ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: وركباناً على كلِّ بعير مهزول أتعبه بُعْدُ السفر فهزَّله ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: طريق بعيد.

(٢٨) ﴿لِّيَشْهَدُواْ﴾ ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ دينية ودنيوية ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ هي عشر ذي الحجة. وقيل: أيام النحر ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ من لحومها. أَمَرَ بذلك إباحةً وإزاحة لما عليه أهل الجاهلية من التحرُّج فيه، أو ندباً إلى مواساة الفقراء ومساواتهم. وهذا في المتطوَّع به دون الواجب (أقول: فالواجب للفقراء فقط) ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ﴾ الذي أصابه بؤس، أي: شدة ﴿ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ المحتاج. والأمرُ فيه للوجوب.

(٢٩) ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظفار ونتف الإِبط والاستحداد عند الإِحلال ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ ما يَنذرون من البِرِّ في حجهم. وقيل: مواجبُ الحج ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ طواف الركن الذي به تمام التحلل، فإنه قرينة قضاء التفث. وقيل: طواف الوداع ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ القديم، لأنه أول بيت وضع للناس. أو المُعْتَق من تسلط الجبابرة، فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أحكامَه وسائرَ ما لا يَحل هتكُه. أو الحرمَ وما يتعلق بالحج من التكاليف. وقيل: الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمُحْرِم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ فالتعظيم خَيْرٌ لَهُ ﴿عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ ثواباً ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ﴾ إلا المتلوَّ عليكم تحريمُه. وهو ما حُرِّم منها لعارضٍ؛ كالميتة وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله تعالى، فلا تحرِّموا منها غير ما حرَّمه الله تعالى؛ كالبحيرة والسائبة ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تُجتنب الأنجاس. وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزُّور. وقيل: شهادة الزور، لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام قال: «عَدَلَتْ شهادة الزور الإِشراكَ بالله تعالى» ثلاثاً، وتلا هذه الآية) [رواه الإمام أبو داود والترمذي رحمهما الله تعالى].

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

(٣١) ﴿**حُنَفَآءَ لِلَّهِ**﴾ مخلصين له ﴿**غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ**﴾ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿**فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ**﴾ فإن الأهواء الرديئة توزِّع أفكاره ﴿**أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾**﴾ بعيد. فإن الشيطان قد طوَّح به (أي: رمى به) في الضلالة. والمعنى: ومن يشرك بالله تعالى فقد هلكت نفسه هلاكاً يشبه أحد الهلاكين.

(٣٢) ﴿**ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ**﴾ دينَ الله تعالى. أو فرائض الحج ومواضع نسكه. أو الهدايا، لأنها من معالم الحج، وهو أوفق لظاهر ما بعده. وتعظيمُها أن تُختارَ حساناً سماناً غالية الأثمان. روي أنه ﷺ أهدى مئة بدنة، فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرَّة (أي: حلقة) من ذهب، وأن عمر رضي الله تعالى عنه أهدى نجيبة (أي: ناقة كريمة) طُلبت منه بثلاث مئة دينار ﴿**فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾**﴾ فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب. وذَكَرَ القلوب لأنها منشأ التقوى والفجور والآمرةُ بهما.

(٣٣) ﴿**لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾**﴾ أي: لكم فيها منافع درِّها ونسلِها وصوفِها وظهرِها إلى أن تُنحر، وبعده منافع دينية أعظم منها.

(٣٤) ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٖ**﴾ ولكلِّ أهل دين (والدين عند الله تعالى الإسلام) ﴿**جَعَلۡنَا مَنسَكٗا**﴾ متعبَّداً، أو قرباناً يتقربون به إلى الله تعالى ﴿**لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ**﴾ دون غيره، ويجعلوا نسيكتهم (أي: ذبيحتهم) لوجهه تعالى ﴿**عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ**﴾ عند ذبحها ﴿**فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ**﴾ أخلصوا التقرب أو الذكر، ولا تشوبوه بالإشراك ﴿**وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾**﴾ المتواضعين أو المخلِصين.

(٣٥) ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ**﴾ هيبةً منه لإشراق أشعة جلاله عليها ﴿**وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ**﴾ من الكلف والمصائب ﴿**وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ**﴾ في أوقاتها ﴿**وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾**﴾ في وجوه الخير.

(٣٦) ﴿**وَٱلۡبُدۡنَ**﴾ جمع بَدَنَة ﴿**جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ**﴾ من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى. ﴿**لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ**﴾ منافع دينية ودنيوية ﴿**فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا**﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك ﴿**صَوَآفَّۖ**﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿**فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا**﴾

سقطت على الأرض، وهو كناية عن الموت ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ﴾ الراضيَ بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ﴿وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ (المتعرِّض للسؤال من غير أن يَسأل) ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ مع عِظمها وقوَّتها حتى تأخذوها منقادة فتَعْقِلُوها (أي: تربطوها بالعِقال لتبقى باركة) وتحبسوها صافَّةً قوائمها، ثم تطعنون في لَبَّاتها (اللَّبَّة: محل النَّحر من أسفل العنق) ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ إنعامنا عليكم بالتقرُّب والإخلاص.

(٣٧) ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ لن يصيب رضاهُ ولن يقع منه موقعَ القبول ﴿لُحُومُهَا﴾ أي: المتصدَّقُ بها ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المُهراقة بالنحر، من حيث إنها لحوم ودماء ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ ولكن يصيبه ما يصحبه من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمره تعالى والتقرب إليه والإخلاص له. وقيل: كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا القرابين لطَّخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله تعالى، فهمَّ به المسلمون فنزلت ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يَقدر عليه غيرُه فتوحِّدوه بالكبرياء. وقيل: هو التكبير عند الإِحلال أو الذبح ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ أرشدَكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾ المخلِصين فيما يأتونه ويذرونه.

(٣٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ أي: يبالغ في الدفع عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ﴾ في أمانة الله تعالى ﴿كَفُورٍ ٣٨﴾ لنعمته؛ كمن يتقرَّب إلى الأصنام بذبيحته، فلا يرتضي فعلهم ولا ينصرهم.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

(٣٩) ﴿**أُذِنَ**﴾ رُخِّص ﴿**لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ**﴾ أي: للذين يقاتلهم المشركون ﴿**بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ**﴾ بسبب أنهم ظُلموا، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وكان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونه من بين مضروب ومشجوج، يتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجر فأنزلت. وهي أول آية نزلت في القتال بعد ما نُهي عنه في نيف وسبعين آية ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾**﴾ وعَدَ لهم بالنصر كما وعدَ بدفع أذى الكفار عنهم.

(٤٠) ﴿**ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم**﴾ يعني مكة ﴿**بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ بغير موجب استحقوه به ﴿**إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ**﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين ﴿**لَّهُدِّمَتْ**﴾ لخُرِّبت باستيلاء المشركين على أهل الملل ﴿**صَوَٰمِعُ**﴾ صوامع الرهبانية ﴿**وَبِيَعٌ**﴾ بيع النصارى ﴿**وَصَلَوَٰتٌ**﴾ كنائس اليهود ﴿**وَمَسَٰجِدُ**﴾ مساجد المسلمين ﴿**يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ**﴾ صفةٌ للأربع، أو لـ«مساجدُ» خُصَّت بها تفضيلاً ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ**﴾ من ينصر دينه. وقد أنجزَ وعده بأن سلَّط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ**﴾ على نصرهم ﴿**عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾**﴾ لا يمانعه شيء.

(٤١) ﴿**ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ**﴾ وصف للذين أُخرجوا، وهو ثناء قبل بلاء. وفيه دليل على صحَّة أمر الخلفاء الراشدين، إذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين (وعن الحسن رضي الله تعالى عنه: هم أمَّة محمَّد ﷺ [النسفي]) ﴿**وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾**﴾ فإنَّ مَرجعها إلى حكمه.

(٤٢-٤٣-٤٤) ﴿**وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ**﴾ تسليةٌ له ﷺ بأن قومه إن كذبوه فهو ليس بأوحديٍّ في التكذيب، فإن هؤلاء قد كَذَّبوا رسلهم قبل قومه ﴿**وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ**﴾ غيَّر فيه النَّظم وبنى الفعل للمفعول، لأن قومه بنو إسرائيل ولم يكذبوه، وإنما كذبه القبط. ولأن تكذيبه كان أشنع، وآياته كانت أعظم وأشيع ﴿**فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ**﴾ فأمهلتهم حتى انصرمت (أي: انقضت) آجالهم المقدَّرة ﴿**ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾**﴾ أي: إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكاً والعمارة خراباً.

(٤٥) ﴿**فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا**﴾ بإهلاك أهلها ﴿**وَهِيَ ظَالِمَةٞ**﴾ أي: أهلُها ﴿**فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا**﴾ ساقطةٌ حيطانها على سقوفها، بأن تعطَّل بنيانها فخرَّت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها ﴿**وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ**﴾ أي: وكم بئرٍ عامرة في البوادي تُركت لا يستقى منها لهلاك أهلها ﴿**وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥**﴾ مرفوعٍ أو مجصَّص (أي: مطلي بالجِصِّ) أخليناه عن ساكنيه.

(٤٦) ﴿**أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ حثٌّ لهم على أن يسافروا ليروا مصارع المهلَكين فيعتبروا. وهم وإن كانوا قد سافروا فلم يسافروا لذلك ﴿**فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ**﴾ ما يجب أن يُعقل من التوحيد بما حصل لهم من الاستبصار والاستدلال ﴿**أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ**﴾ ما يجب أن يُسمع من الوحي والتذكير بحال من شاهدوا آثارهم ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦**﴾ عن الاعتبار. أي: ليس الخلل في مشاعرهم وإنما أيِفَتْ (أي: ضَعُفت) عقولهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد. وذكر ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ للتأكيد ونفي التجوُّز (أي: المجاز)، وفصَّل للتنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخصُّ البصر. قيل: لمّا نزلت: ﴿وَمَنۡ كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] قال ابن أم مكتوم: يا رسول الله! أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

(٤٧) ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ**﴾ المتوعَّد به ﴿**وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ**﴾ لامتناع الخُلف في خبره، فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين، لكنه صبور لا يعَجِّل بالعقوبة ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾**﴾ بيانٌ لتناهي صبره وتأنيه، حتى استقصر المُدَدَ الطِّوال. أو لتمادي عذابه وطول أيامه حقيقة.

(٤٨) ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ**﴾ وكم من أهل قرية ﴿**أَمْلَيْتُ لَهَا**﴾ كما أمهلتكم ﴿**وَهِىَ ظَالِمَةٌ**﴾ مثلكم ﴿**ثُمَّ أَخَذْتُهَا**﴾ بالعذاب ﴿**وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾**﴾ وإلى حكمي مرجع الجميع.

(٤٩) ﴿**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ**﴾ (هذا خطاب للمسلمين والكافرين جميعاً) ﴿**إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾**﴾ أوضِّح لكم ما أَنذَركم به. والاقتصارُ على الإِنذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لأن صدر الكلام ومَساقه للمشركين، وإنما ذَكَرَ المؤمنين وثوابَهم زيادةً في غيظهم (أي: غيظ الكفار).

(٥٠) ﴿**فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ**﴾ لِما بَدَرَ منهم ﴿**وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾**﴾ هي الجنة.

(٥١) ﴿**وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا**﴾ بالردِّ والإِبطال ﴿**مُعَٰجِزِينَ**﴾ مسابقين ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾**﴾ النارِ الموقدة. وقيل: اسم دَرَكة (من دركات جهنم).

(٥٢) ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ**﴾ الرسولُ مَن بعثه الله تعالى بشريعة مجددة يدعو الناس إليها، والنبيَّ يعمُّه ومَن بعثه لتقرير شرع سابق؛ كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. ولذلك شَبَّهَ النبي ﷺ علماء أمته بهم ﴿**إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ**﴾ أي: إذا زوَّر (أي: هيَّأ) في نفسه ما يهواه ﴿**أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ**﴾ ما يوجب اشتغاله بالدنيا، كما قال عليه الصلاة والسلام: «وإنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] ﴿**فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ**﴾ فيُبطلُه ويَذهبُ به بعصمته عن الركون إليه والإِرشاد إلى ما يزيحه (أي: يُزيله) ﴿**ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ**﴾ ثم يُثْبت آياته الداعية إلى الاستغراق في أمر الآخرة ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمٌ**﴾ بأحوال الناس ﴿**حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾**﴾ فيما يفعله بهم.

(٥٣) ﴿**لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ**﴾ علةٌ لتمكين الشيطان منه. وذلك يدلُّ على أن الملقى أمرٌ ظاهر عرفه

المحق والمبطل ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكٌّ ونفاق ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني الفريقين ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ عن الحق. أو عن الرسول ﷺ والمؤمنين.

(٥٤) ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أن القرآن هو الحقَّ النازل من عند الله تعالى ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ بالقرآن، أو بالله تعالى ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ (فتخضع) بالانقياد والخشية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فيما أشكَلَ عليهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ هو نظرٌ صحيح يوصلهم إلى ما هو الحق.

(٥٥) ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو الرسول ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة، أو أشراطها، أو الموت ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ يوم حربٍ يُقتلون فيه كيوم بدر. أو يوم القيامة (أقول: وَصَفَه بالعقم لأنه لا يُقبل فيه توبة ولا إيمان ولا شفاعة، كأنه عقيم لا يلد لهم خيراً ولا يثمر فيه عملُهم ثواباً ولا تقبلهم قبولاً).

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

(٥٦) ﴿**ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ**﴾ أي: يوم تزول مريتهم (أي: شكُّهم) (أقول: أي بعد انقضاء دار الابتلاء والاختبار، وإن كان في النشأة الأولى أيضاً كذلك، كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم) ﴿**يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ**﴾ بالمجازاة ﴿**فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾**﴾.

(٥٧) ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾**﴾ وإدخال الفاء في الخبر الثاني دون الأول تنبيهٌ على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضُّلٌ من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبَّبٌ عن أعمالهم. فلذلك قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: هم في عذاب.

(٥٨) ﴿**وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟**﴾ في الجهاد ﴿**أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا**﴾ الجنةَ ونعيمَها. وإنما سوَّى بين من قُتِل في الجهاد ومَن مات حتف أنفه في الوعد لاستوائهما في القصد وأصل العمل. روي أن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا: يا نبي الله! هؤلاء الذين قُتِلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا؟ فنزلت ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾**﴾ فإنه يرزق بغير حساب.

(٥٩) ﴿**لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ**﴾ هو الجنة فيها ما يُحبونه ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ**﴾ بأحوالهم وأحوال مَعادهم ﴿**حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾**﴾ لا يعاجل في العقوبة.

(٦٠) ﴿**ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ**﴾ ولم يَزِدْ في الاقتصاص ﴿**ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ**﴾ بالمعاودة إلى العقوبة ﴿**لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ**﴾ لا محالة ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾**﴾ للمنتصر. حيث اتبع هواه في الانتقام (لأجل نفسه) وأعرض عما ندب الله تعالى إليه بقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. وفيه تعريض بالحثِّ على العفو والمغفرة، فإنه تعالى مع كمال قدرته وتعالي شأنه لما كان يعفو ويغفر فغيرُه بذلك أولى. وتنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة، إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده.

(٦١) ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: ذلك النصر ﴿**بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ**﴾ بسبب أن الله تعالى قادر على تغليب الأمور بعضها على بعض، جارٍ عادتُه على المداولة بين الأشياء المتعاندة، ومن ذلك

إيلاج أحد المَلَوَيْنِ (أي: الليل والنهار) في الآخر، بأن يزيد فيه ما ينقص منه، أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغييب الشمس، وعكس ذلك بإطلاعها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ يسمع قول المعاقِب والمعاقَب ﴿بَصِيرٞ ٦١﴾ يرى أفعالهما فلا يهملهما.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصف بكمال القدرة والعلم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الواجب لذاته وحده. فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأً لكل ما يوجد سواه، عالماً بذاته وبما عداه ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً ﴿هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ المعدوم في حدِّ ذاته، أو باطل الألوهية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ على الأشياء ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ على أن يكون له شريك، لا شيء أعلى منه شأناً وأكبر منه سلطاناً.

(٦٣) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه أو لطفه إلى كل ما جَلَّ ودَقَّ ﴿خَبِيرٞ ٦٣﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة.

(٦٤)﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خَلقاً ومُلكاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ في ذاته عن كلِّ شيء ﴿ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ المستوجِبُ للحمد بصفاته وأفعاله.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسْتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنٗا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

(٦٥) ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ جعلها مذلَّلة لكم مُعَدَّة لمنافعكم ﴿**وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ**﴾ أي: من أن تقع، بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك ﴿**إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ**﴾ إلا بمشيئته، وذلك يوم القيامة. وفيه ردٌّ لاستمساكها بذاتها، فإنها مساويةٌ لسائر الأجسام في الجسمية، فتكون قابلةً للميل الهابط قبول غيرها ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾**﴾ حيث هيَّأ لهم أسباب الاستدلال، وفتَحَ عليهم أبواب المنافع، ودفع عنهم أنواع المضار.

(٦٦) ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ**﴾ بعد أن كنتم جماداً؛ عناصر ونطفاً ﴿**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**﴾ إذا جاء أجلكم ﴿**ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ**﴾ في الآخرة ﴿**إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾**﴾ لجحودٌ لنعم الله تعالى مع ظهورها.

(٦٧) ﴿**لِّكُلِّ أُمَّةٖ**﴾ أهل دين ﴿**جَعَلْنَا مَنسَكًا**﴾ متعبَّداً، أو شريعة تعبّدوا بها (أقول: اللهم اجعلنا من المتعبدين بشرعك، واجعل همَّنا ديننا وأمر شريعتنا وسنة نبينا متمسِّكين بأخلاق الرسول ﷺ وأصحابه والمحبة لأولياء الله تعالى) ﴿**هُمْ نَاسِكُوهُۖ**﴾ ينسكونه ﴿**فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ**﴾ سائرُ أرباب الملل ﴿**فِي ٱلْأَمْرِۚ**﴾ في أمر الدين أو النسائك (جمع نُسُك، وهي العبادة)، لأنهم بين جهال وأهل عناد، أو لأن أمر دينك أظهرُ من أن يَقبل النزاع ﴿**وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ**﴾ إلى توحيده وعبادته ﴿**إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسْتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾**﴾ طريقٍ إلى الحق سويٍّ.

(٦٨) ﴿**وَإِن جَٰدَلُوكَ**﴾ وقد ظهر الحق ولزمت الحُجة ﴿**فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾**﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها، فيجازيكم عليها. وهو وعيدٌ فيه رِفْقٌ.

(٦٩) ﴿**ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب ﴿**يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ كما فصل في الدنيا بالحجج والآيات ﴿**فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾**﴾ من أمر الدين.

(٧٠) ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ**﴾ فلا يخفى عليه شيء ﴿**إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ**﴾ هو اللوح المحفوظ (أو علم الله تعالى)، كتبه فيه قبل حدوثه فلا يهمَّنك أمرُهم مع علمنا به وحفظنا له ﴿**إِنَّ ذَٰلِكَ**﴾ إن الإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ، أو الحكم بينكم ﴿**عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾**﴾.

(٧١) ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ حُجَّةً تدل على جواز عبادته ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم ﴿مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾ يقرِّر مذهبهم أو يدفع العذاب عنهم.

(٧١) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحاتِ الدلالة على العقائد الحقِّيَّة والأحكام الإِلهية ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ الإنكار، لفرط نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيلَ أخذوها تقليداً. وهذا منتهى الجهالة ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ يثبون ويبطشون بهم ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾ من غيظكم على التالين وسطوتكم عليهم؟ أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوا عليكم؟ ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ النار.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

٢٣ سُورَةُ المُؤْمِنُونَ ١١٨

(٧٣) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ**﴾ بيّن لكم حالاً مستغرَبة أو قصةً رائعة، ولذلك سماها مثلاً. أو جُعِل لله مَثَلٌ؛ أي: مَثَلٌ في استحقاق العبادة ﴿**فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ**﴾ للمثل أو لشأنه، استماع تدبر وتفكر ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ يعني الأصنام ﴿**لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا**﴾ لا يقدرون على خلقه مع صغره ﴿**وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ**﴾ أي: للخلق، أي: لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين! ﴿**وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ**﴾ جهَّلهم غاية التجهيل بأن أشركوا إلهاً قَدِرَ على المقدورات كلها وتفرَّد بإيجاد الموجودات بأسرها تماثيلَ هي أعجز الأشياء. وبيَّن ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلِّها ولو اجتمعوا له، بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقلِّ الأذلِّ، وتعجز عن ذبِّه (أي: دفعه) عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه من عندها. قيل: كانوا يطلونها بالطيب والعسل، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكُوى فيأكله ﴿**ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣**﴾ عابدُ الصنم ومعبودُه. أو الصنم والذباب، كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه. ولو حققتَ وجدت الصنم أضعفَ بدرجات.

(٧٤) ﴿**مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ**﴾ ما عرفوه حقَّ معرفته، حيث أشركوا به وسَمُّوا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبةً ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ**﴾ على خلق الممكنات بأسرها (أقول: فلو أراد الله جل وعلا أن يُدخل السموات في ثقب إبرة يوسِّع ثقب الإبرة ويضيِّق السموات ويُدخلها، فهذا من الممكنات) ﴿**عَزِيزٌ ٧٤**﴾ لا يغلبه شيء. وآلهتهم التي يعبدونها عاجزةٌ عن أقلِّها مقهورةٌ من أذلِّها.

(٧٥) ﴿**ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا**﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ**﴾ يَدْعون سائرهم إلى الحق، ويبلِّغون إليهم ما نزل عليهم. كأنه لما قرَّر وحدانيته في الألوهية ونفى أن يشاركه غيره في صفاتها بيَّن أن له عباداً مصطفَين للرسالة يُتوسَّل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى. وهو أعلى المراتب ومنتهى الدرجات لمن سواه من الموجودات، تقريراً للنبوة، وتزييفاً لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، و: الملائكة بنات الله، ونحو ذلك ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥**﴾ مدرك للأشياء كلها.

(٧٦) ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ عالمٌ بواقِعها ومتوقَّعها ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ كلها، لأنه مالكها بالذات لا يُسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيره، وهم يُسألون.

(٧٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ﴾ في صلاتكم. أمَرَهم بهما لأنهم ما كانوا يفعلونها أول الإِسلام. أو صلُّوا، وعبَّر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها. أو اخضعوا لله تعالى وخرُّوا له سجداً (أقول: الشيطان يتغلب علينا في صلاتنا، وهي ركن ديننا بعد الإيمان، فهو يخربها علينا بوساوس وخطرات تتعلق بأشياء تافهة؛ إما مضت وانتهت، وإما بشيء في المستقبل قد لا يأتي) ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بسائر ما تعبَّدكم به ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ وتحرَّوا ما هو خير وأصلح فيما تأتون وتذرون؛ كنوافل الطاعات وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧﴾ أي: افعلوا هذه كلها وأنتم راجون الفلاح غير متيقنين له واثقين على أعمالكم.

(٧٨) ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: لله تعالى ومن أجله، أعداءَ دينه الظاهرة؛ كأهل الزيغ، والباطنة؛ كالهوى والنفس ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ أي: جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ اختاركم لدينه ولنصرته. وفيه تنبيه على المقتضي للجهاد والداعي إليه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ أي: ضيق، بتكليف ما يشتد القيام به عليكم. وهو إشارةٌ إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم في تركه. أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به حيث شَقَّ عليهم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. وقيل: ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجاً، بأن رخَّص لهم في المضايق، وفتح عليهم باب التوبة، وشرع لهم الكفارات في حقوقه والأروش (أي: دية الجراحات) والديات في حقوق العباد ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ أي: وسَّع دينكم توسعة ملة أبيكم. وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ، وهو كالأب لأمته، من حيث أنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة. أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته فغلِّبوا على غيرهم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ من قبل القرآن في الكتب المتقدمة ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ وفي القرآن، والضمير لله تعالى أو لإِبْراهِيمَ عليه السلام ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يوم القيامة ﴿شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ بأنه بلَّغكم، فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته، أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ بتبليغ الرسل إليهم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فتقربوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات لِما خصَّكم بهذا الفضل والشرف ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وثِقوا به في مجامع أموركم، ولا تطلبوا الإِعانة والنصرة إلا منه ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ ناصرُكم ومتولي أموركم ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ هو، إذ لا مثل له سبحانه في الولاية والنصرة، بل لا مولى ولا نصير سواه في الحقيقة.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الحج
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المؤمنون

مكيَّة، وهي مئة وتسع عشرة آية عند البصريين، وثماني عشرة عند الكوفيين

(١) ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾ قد فازوا بأمانيِّهم.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ خائفون من الله سبحانه وتعالى، متذللون له.

(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ عمّا لا يَعنيهم من قولٍ أو فعلٍ (قال عليه الصلاة والسلام: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]) ﴿مُعۡرِضُونَ ٣﴾ لِما بهم من الجِدِّ ما يشغلهم عنه.

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤﴾ وَصَفَهم بذلك بعد وَصْفهم بالخشوع في الصلاة ليدلَّ على أنهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما تُوجِبُ المروءةُ اجتنابَه.

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥﴾ لا يبذلونها.

(٦) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ زوجاتهم أو سُرِّيَّاتهم (جمع سُرِّيَّة: وهي الجارية المملوكة) ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦﴾ أي: فإنْ بذلوها لأزواجهم أو إمائهم فإنهم غير ملومين على ذلك.

(٧) ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ المستثنى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧﴾ الكاملون في العدوان.

(٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾ لما يؤتَمَنون عليه ويعاهِدون من جهة الحق أو الخلق ﴿رَٰعُونَ ٨﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها.

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾ يواظبون عليها ويؤدُّونها في أوقاتها. وفي تصدير الأوصاف وختمِها بأمر الصلاة تعظيمٌ لشأنها.

(١٠) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠﴾ الأحقاء بأن يُسَمَّوا (وُرَّاثاً) دون غيرهم.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ أي: يرثون من الكفار منازلَهم فيها حيث فوَّتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ أي: في الجنة أو في طبقتِها العليا.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ١٢﴾ من خلاصة سُلَّتْ (انتُزعت) من بين الكدر (أي: العكر). والإنسانُ: آدم عليه الصلاة والسلام، خُلق من صفوة سُلَّتْ من الطين. أو الجنس: فإنهم خُلقوا من سلالات جُعلت نُطَفاً بعد أدوار.

(١٣) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ ثم جعلنا نسله ﴿نُطْفَةً﴾ بأن خلقناه منها ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٣﴾ مستقرٍّ حَصين؛ يعني الرحم.

(١٤) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ بأن أَحلْنا النطفةَ البيضاء علقةً حمراء ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ فصيَّرناها قطعة لحم ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ بأن صلَّبْناها ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ وهو صورةُ البدن أو الروح ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى شأنه في قدرته وحكمته ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ (أقول: أي المقدِّرين تقديراً وخَلقاً، وأتمَّها إبداعاً واختراعاً، لو فُرض مقدَّرٌ غيره، مع أنه مُحالٌ عقلاً وعادة؛ كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم).

(١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥﴾ لصائرون إلى الموت لا محالة.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ١٦﴾ للمحاسبة والمُجازاة.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ سبع سموات، لأنها طُورِقَ بعضُها فوق بعض (أي: جُعل بعضها على بعض مطابقةً) أو لأنها طرق الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هو السموات. أو عن جميع المخلوقات ﴿غَٰفِلِينَ ١٧﴾ مهمِلين أمرَها، بل نحفظها عن الزوال والاختلال، وندبِّرُ أمرها حتى تبلغ منتهى ما قُدِّرَ لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة.

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

(١٨) ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ**﴾ بتقديرٍ يَكثُرُ نفعُه ويَقِلُّ ضررُه. أو بمقدار ما عَلِمنا من صلاحهم ﴿**فَأَسْكَنَّاهُ**﴾ فجعلناه ثابتاً مستقراً ﴿**فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ**﴾ على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطه (أي: استخراجه) ﴿**لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾**﴾ كما كنا قادرين على إنزاله.

(١٩) ﴿**فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ**﴾ بالماء ﴿**جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا**﴾ في الجنات ﴿**فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ**﴾ تتفكَّهون بها ﴿**وَمِنْهَا**﴾ ومن الجنات، ثمارِها وزروعِها ﴿**تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾**﴾ تغذياً. أو ترتزقون وتحصِّلون معايشكم.

(٢٠) ﴿**وَشَجَرَةً**﴾ أي: ومما أنشأنا لكم به شجرة ﴿**تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ**﴾ وهو جبل موسى عليه الصلاة والسلام، بين مصر وأيلة ﴿**تَنبُتُ بِالدُّهْنِ**﴾ أي: تُنبِتُ زيتونَها ملتبساً بالدهن ﴿**وَصِبْغٍ**﴾ (أي: إدام) ﴿**لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾**﴾ أي: تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يُدهَن به ويسرج منه.

(٢١) ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً**﴾ تعتبرون بحالها وتستدلُّون بها ﴿**نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا**﴾ من الألبان. أو من العلَف، فإن اللبن يتكوَّن منه ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ**﴾ في ظهورها وأصوافها وشعورها ﴿**وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾**﴾ فتنتفعون بأعيانها.

(٢٢) ﴿**وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾**﴾ أي: (على الأنعام) في البَرِّ (وعلى الفُلك) في البحر.

(٢٣) ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾ إلى آخر القصص مَسوق لبيان كفران الناس ما عُدِّد عليهم من النعم المتلاحقة وما حاق (أي: أحاط) بهم من زوالها ﴿**مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾**﴾ أفلا تخافون أن يُزيل عنكم نعمَه فيهلككم ويعذبكم برفضكم عبادته إلى عبادة غيره وكفرانِكم نعمَه التي لا تحصونها؟

(٢٤) ﴿**فَقَالَ الْمَلَأُ**﴾ الأشراف ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ**﴾ لعوامِّهم: ﴿**مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ**﴾ أي: يطلب الفضل عليكم ويَسُودَكم ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ**﴾ أن يرسل رسولاً ﴿**لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً**﴾ رسلاً ﴿**مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾**﴾ يَعنون نوحاً عليه الصلاة والسلام. أي: ما سمعنا به

أنه نبيٌّ. أو ما كلَّمَهم به من الحث على عبادة الله سبحانه وتعالى ونفي إله غيره. أو من دعوى النبوة. وذلك إما لفرط عنادهم، أو لأنهم كانوا في فترة متطاولة (قبل نوح عليه الصلاة والسلام).

(٢٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾ فاحتملوه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ۝٢٥﴾ لعله يُفيق من جنونه.

(٢٦) ﴿قَالَ﴾ بعد ما أَيِسَ من إيمانهم: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ بإهلاكهم، أو بإنجاز ما وعدتَهم من العذاب. ﴿بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦﴾ بسبب تكذيبهم إياي.

(٢٧) ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ بحِفظنا. نحفظه أن تخطئ فيه، أو يفسده عليك مفسِد. ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ وأمْرِنا وتعليمِنا كيف تصنع ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بالركوب. أو نزول العذاب ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ روي أنه قيل لنوح: إذا فار الماء من التنور اركب أنت ومن معك، فلما نبع الماء منه (أي: من التنور) أخبرته امرأته فركب. ومحلُّهُ في مسجد الكوفة، عن يمين الداخل مما يلي باب كندة ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾ فأدخل فيها ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أي: من كل نوعٍ زوجين ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ وأهلَ بيتك. أو ومن آمن معك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي: القول من الله تعالى بإهلاكه لكفره ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بالدعاء لهم بالإنجاء ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ۝٢٧﴾ لا محالة، لظلمهم بالإشراك والمعاصي. ومَن هذا شأنه لا يُشفَع له ولا يُشَفَّعُ فيه.

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

(٢٨) ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ (فإذا تمكَّنتم عليها راكبين) ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ (أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم [النسفي]).

(٢٩) ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السفينة. أو في الأرض ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ يتسبَّبُ لمزيد الخير في الدارين ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ثناءٌ مطابِق لدعائه. أمَرَهُ بأن يَشْفعه (أي: يقرنه) به مبالغةً فيه وتوسلاً به إلى الإجابة.

(٣٠) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما فُعِل بنوح وقومه ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ يَستدِلُّ بها ويَعتبر أولو الاستبصار والاعتبار ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ لَمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم. أو ممتحنين عبادنا بهذه الآيات.

(٣١) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ هم عادٌ أو ثمود.

(٣٢) ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو هود أو صالح عليهما الصلاة والسلام ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: قلنا لهم على لسان الرسول ﷺ: اعبدوا الله تعالى ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ عذاب الله تعالى؟

(٣٣) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بلقاء ما فيها من الثواب والعقاب. أو بمَعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ ونعَّمناهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصِفة والحال ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

(٣٤) ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما يأمُركم به ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ حيث أذللتم أنفسكم.

(٣٥) ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ مجرَّدة عن اللحوم والأعصاب ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ من الأجداث. أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود.

(٣٦) ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ بَعُدَ التصديق أو الصحة ﴿لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أو بَعُدَ ما توعدون.

(٣٧) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا حياة إلا هذه الحياة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت بعضنا ويولد بعض ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ بعد الموت.

(٣٨) ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدَّعيه من إرساله له. أو فيما يَعِدُنا من

البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾ بمصدِّقين.

(٣٩) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾ بسبب تكذيبهم إياي.

(٤٠) ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ عن زمانٍ قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ على التكذيب، إذا عاينوا العذاب.

(٤١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحةُ جبريل عليه السلام. صاح عليهم صيحة هائلة تصدَّعت منها قلوبهم فماتوا. واستُدِلَّ به على أن القوم قومُ صالح عليه الصلاة والسلام ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالوجه الثابت الذي لا دافع له. أو بالعدل من الله تعالى ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ شبَّههم في دمارهم بغثاء السيل ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ يَحتمِل الإخبار والدعاء.

(٤٢) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢﴾ هي: قوم صالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام وغيرهم.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

(٤٣) ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ الوقتَ الّذي حُدَّ لهلاكها ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ الأجلَ.

(٤٤) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ متواترين واحداً بعد واحد ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الإهلاك ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم نُبْقِ منهم إلا حكايات يُسمَر بها (من السمَر: وهو الحديث ليلاً)، وهي ما يُتحدَّثُ به تلهِّياً ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

(٤٥) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بالآيات التسع ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ وحُجَّةٍ واضحة ملزِمَةٍ للخصم. ويجوز أن يُراد بالسلطان المعجزاتُ، وبالآيات الحُجَجُ، وأن يراد بهما المعجزات؛ فإنها آيات للنبوة، وحجةٌ بينة على ما يدعيه النبي عليه الصلاة والسلام.

(٤٦) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان والمتابعة ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ متكبِّرين.

(٤٧) ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ (وهما موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام) ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ خادِمون منقادون كالعباد.

(٤٨) ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ بالغرَق في بحر قلزم (وهو البحر الأحمر).

(٤٩) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل ﴿يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ إلى المعارف والأحكام.

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ بولادتها إياه من غير مَسيس. أو جعلنا ابنَ مريم آية؛ بأن تكلم في المهد وظهرت منه معجزات أُخَر، وأمَّهُ آية؛ بأن وَلدت من غير مسيس ﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أرض بيت المقدس فإنها مرتفعة. أو دمشق ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقرٌّ من الأرض منبسطة. وقيل: ذات ثمار وزروع، فإن ساكنيها يستقرُّون فيها لأجلها ﴿وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ وماءٍ مَعينٍ ظاهرٍ جارٍ.

(٥١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ (أقول: فيها تحذيرٌ من مخالفة ما أمَرهم به، وإذا كان الرُّسل مع عُلُوِّ شأنهم كذلك فلأن يكون تحذيراً لغيرهم أولى. لِما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى طيِّب لا يقبل إلا طيِّباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]» [الخازن]) ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم جلَّ وعلا ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ فأجازيكم عليه.

(٥٢) ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ واعلموا أن هذه ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ملَّتكم ملَّةً واحدة؛ أي متحدة في العقائد وأصول الشرائع. أو جماعتُكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ في شق العصا (أي: مفارقة الجماعة) ومخالفة الكلمة.

(٥٣) ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ فتقطعوا أمر دينهم وجعلوه أدياناً مختلفة. أو فتفرَّقوا وتحزَّبوا ﴿زُبُرًا﴾ قِطَعاً ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من المتحزِّبين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين ﴿فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ معجَبون معتقدون أنهم على الحق.

(٥٤) ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ في جهالتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ إلى أن يُقتلوا أو يموتوا.

(٥٥-٥٦) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أنَّ ما نعطيهم ونجعله لهم مدداً ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: أيحسبون أن الذي نُمِدُّهم به نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ بل هم كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعورَ ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الإمداد استدراجٌ لا مسارعةٌ في الخير.

(٥٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ من خوف عذابه ﴿مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ حذرون (والمعنى الذين هم من خشية ربهم دائمون في طاعته، جادُّون في طلب مرضاته؛ والتحقيق أنَّ من بلغ في الخشية إلى حدِّ الإشفاق وهو كمال الخشية، كان في نهاية الخوف من سخط الله تعالى عاجلًا، ومن عقابه آجلًا، فكان في نهاية الاحتراز عن المعاصي [تفسير الرازي]).

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبة والمنزَّلة ﴿يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ بتصديق مدلولها.

(٥٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ شركاً جلياً ولا خفياً.

وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

(٦٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ يُعطُون ما أعطَوْه من الصدقات ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة أن لا يُقبل منهم وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا به ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ لأن مرجعهم إليه، وهو يعلم ما يَخفى عليهم (أقول: هذا يدلُّ على الإخلاص في العبادة والصدقة، لا بد للمؤمن أن يطهِّر قلبه من الوساوس ومما يُغرَس في قلبه من العجب والكبر والفخر مما هو خلاف الإخلاص، وإذا لم يوجد الإخلاص في العمل فإنه لا يُقبل).

(٦١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يرغبون في الطاعات أشدَّ الرغبة فيبادرونها. أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ لأجلها سابقون الناس إلى الطاعة أو الثواب أو الجنة.

(٦٢) ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قدْرَ طاقتها. يريد به التحريضَ على ما وَصَفَ به الصالحين وتسهيله على النفوس ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ يريد به اللوح أو صحيفة الأعمال ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق. لا يوجد فيه ما يخالف الواقع ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ بزيادة عقاب أو نقصان ثواب.

(٦٣) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوب الكفرة ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ في غفلة غامرة لها ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ من الذي وُصِف به هؤلاء، أو من كتاب الحَفَظَة ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ خبيثة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ متجاوزة لما وُصِفوا به ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ معتادون فِعْلَها.

(٦٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعِّميهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني القتلَ يوم بدر. أو الجوع حين دعا عليهم الرسول ﷺ فقال: «اللهم اشددْ وطأتك على مُضر، واجعلها عليهم سِنين كسِني يوسف» [رواه الشيخان رحمهما الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه]. فقُحِطوا حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحرَّقة ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (يصرخون) بالاستغاثة.

(٦٥) ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: قيل لهم لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ (أي: لا تتضرعوا) ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: لاَ تجأروا فإنه لا ينفعكم؛ إذ لا تُمنَعون منا، أو لا يلحقكم نصرٌ ومعونةٌ من جهتنا.

(٦٦) ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦﴾ تُعرِضون مدبرين عن سماعها وتصديقها والعمل بها.

(٦٧) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت ﴿سَٰمِرًا﴾ أي: تَسمَرون بذكر القرآن والطعن فيه ﴿تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾ أي: تعرضون عن القرآن، أو تَهْذُون (والهذيان: كلام غير معقول) في شأنه.

(٦٨) ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: القرآنَ، ليعلموا أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ بإعجاز لفظه ووضوح مدلوله ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾ من الرسول والكتاب. أو من الأمن من عذاب الله تعالى، فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون.

(٦٩) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ بالأمانة والصدق وحسن الخلق وكمال العلم مع عدم التعلم إلى غير ذلك مما هو صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾ دَعْواه لأحَدِ هذه الوجوه؟!

(٧٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ فلا يبالون بقوله؟ وكانوا يعلمون أنه ﷺ أرجحُهم عقلاً وأدقُّهم نظراً. ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾ لأنه يخالف شهواتهم وأهواءَهم فلذلك أنكروه. وإنما قيَّد الحكم بالأكثر لأنه كان منهم من ترك الإيمان استنكافاً من توبيخ قومه أو لقلة فطنته وعدم فكرته، لا كراهةً للحق.

(٧١) ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بأن كان في الواقع آلهة شتى ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ كما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذي هو ذِكْرُهم؛ أي: وعْظُهم أو صِيتهم (شرفهم)، أو الذكر الذي تمنَّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٦٨] ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١﴾ لا يلتفتون إليه.

(٧٢) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أجْراً على أداء الرسالة ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ رِزقُه في الدنيا، أو ثوابُه في العقبى ﴿خَيْرٌ﴾ لِسَعته ودوامه. ففيه مندوحة (أي: سَعة) لك عن عطائهم (فيمكنك تركه) ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢﴾.

(٧٣) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾ تشهَد العقول السليمة على استقامته، لا عوج فيه يوجب اتهامهم له.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ عن الصراط السويِّ ﴿لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾ لَعادلون عنه. فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه.

۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

(٧٥) ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ يعني القحطَ ﴿لَّلَجُّواْ﴾ لثبتوا ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحق وعداوة الرسول ﷺ والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ عن الهدى. رُوي أنهم قُحِطوا حتى أكلوا العلهز (وهو طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في سِني المجاعة)، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أُنشِدك الله والرحم، ألست تزعُم أنك بُعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، فقال: قتلتَ الآباء بالسيف، والأبناءَ بالجوع، فنزلت [سبب النزول أخرجه الإمام النسائي رحمه الله تعالى].

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ بل أقاموا على عتوهم واستكبارهم ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ وليس من عادتهم التضرع.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني الجوع، فإنه أشدُّ من القتل والأسر ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ متحيِّرون آيسون من كل خير، حتى جاءك أعتاهم (أي: أشدُّهم) يستعطفك.

(٧٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتُحِسُّوا بها ما نصب من الآيات ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكروا فيها وتستدلوا بها، إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ تشكرونها شكراً قليلاً، لأن العمدة في شكرها استعمالُها فيما خلقت لأجله، والإذعان لمانِحِها من غير إشراك.

(٧٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خلقكم وبثَّكم فيها بالتناسل ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ تُجمَعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

(٨٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ويَختصُّ به تعاقبُهما، لا يقدر عليه غيره، فيكون رداً لنسبته إلى الشمس حقيقة أو مجازاً. أو لأمره وقضائه تعاقبهما، أو انتقاص أحدهما وازدياد الآخر. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ بالنظر والتأمل أن الكل منا وأن قدرتنا تعمُّ الممكنات كلها وأن البعث من جملتها (أقول: لو تفكَّر المؤمنون بهذا لحصل لهم اهتمام عظيم بدينهم، ولم نرَ المخالفات ولا شرب الخمر ولا أكل الربا ولا ترك الصلاة).

(٨١) ﴿بَلْ قَالُواْ﴾ أي: كفار مكة ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝﴾ آباؤهم ومَنْ دانَ (أي: تديَّنَ) بدينهم.

(٨٢) ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝﴾ استبعاداً لذلك، ولم يتأمَّلوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخُلقوا.

(٨٣) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾ إلا أكاذيبُهم التي كتبوها.

(٨٤) ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ إن كنتم من أهل العلم، أو من العالمين بذلك. فيكون استهانةً بهم وتقريراً لفرط جهالتهم، حتى جهلوا مثل هذا الجليِّ الواضح إلزاماً بما لا يمكن لمن له مسكة (أي: بقيَّة) من العلم إنكاره، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال:

(٨٥) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ لأن العقل الصريح قد اضطرهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ فتعلمون أن مَن فطر (أي: خلق) الأرض ومن فيها ابتداءً قادرٌ على إيجادها ثانياً؟ فإن بدء الخلق ليس أهون من إعادته.

(٨٦) ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾ فإنها أعظم من ذلك.

(٨٧) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝﴾ عقابَه، فلا تشركوا به بعض مخلوقاته، ولا تنكروا قدرته على بعض مقدوراته.

(٨٨) ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مُلْكُه غايةَ ما يمكن. وقيل: خزائنُه ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ يُغيث من يشاء ويحرسه ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ ولا يُغاث أحد ولا يُمنع منه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾.

(٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝﴾ فمن أين تُخدَعون فتُصرَفون عن الرشد مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة.

بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

(٩٠) ﴿**بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ**﴾ من التوحيد والوعد بالنشور (أي: بالقيامة) ﴿**وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾**﴾ حيث أنكروا ذلك.

(٩١) ﴿**مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ**﴾ لتقدُّسه عن مماثلة أحد ﴿**وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ**﴾ يساهمه (أي: يقاسمه) في الألوهية ﴿**إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ أي: لو كان معه آلهة كما تقولون لذهب كل منهم بما خلقه واستبدَّ به وامتاز مُلكه عن ملك الآخرين وظهر بينهم التحارب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا، فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء. واللازم باطل بالإجماع والاستقراء (أي: التتبع) وقيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب واحد جل وعلا ﴿**سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾**﴾ من الولد والشريك، لما سبق من الدليل على فساده.

(٩٢) ﴿**عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ**﴾ (أي: السر والعلانية [النسفي]) وهو دليلٌ آخر على نفي الشريك بناء على توافقهم في أنه المتفرِّد بذلك ﴿**فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾**﴾.

(٩٣) ﴿**قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى**﴾ إن كان لا بد من أن تريني ﴿**مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾**﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة.

(٩٤) ﴿**رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾**﴾ قريناً لهم في العذاب. وهو إما لهضم النفس، أو لأن شؤم الظَّلَمة قد يَحيق بمن وراءهم، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. عن الحَسَن أنه تعالى أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام أنه له في أمته نقمة، ولم يُطلعه على وقتها، فأمره بهذا الدعاء.

(٩٥) ﴿**وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾**﴾ لكنَّا نؤخرُه علماً بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون، أو لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم. ولعله ردٌّ لإنكارهم الموعودَ واستعجالهم له استهزاء به. وقيل: قد أراه؛ وهو قتل بدر أو فتح مكة.

(٩٦) ﴿**ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ**﴾ وهو الصفح عنها والإحسانُ في مقابلتها، لكن بحيث لم يؤدِّ إلى وَهْنٍ (أي: ضعف) في الدين (وهو المداهنة). وقيل: هي كلمة التوحيد، والسيئةُ الشرك ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾**﴾ أي: بوصفهم إياك على خلاف حالك، وأقدَرُ على جزائهم، فكِلْ إلينا أمرهم.

(٩٧) ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧﴾ وساوسهم.

(٩٨) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ۝٩٨﴾ يحوموا حولي في شيء من الأحوال. وتخصيصُ حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل لأنها أحرى الأحوال بأن يخاف عليه.

(٩٩) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ متعلّق بـ﴿يَصِفُونَ﴾ وما بينهما اعتراض لتأكيد الإغضاء (أي: عدم الالتفات إليه) بالاستعاذة بالله تعالى من الشيطان أن يزلَّهُ عن الحِلم ويغريَه على الانتقام ﴿قَالَ﴾ تحسُّراً على ما فرَّط فيه من الإيمان والطاعة لمّا اطَّلع على الأمر: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩﴾ رُدُّوني إلى الدنيا.

(١٠٠) ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ في الإيمان الذي تركته؛ أي: لعلي آتي بالإيمان وأعمل فيه. وقيل: في المال أو في الدنيا (أقول: وهذا يشترك فيه المؤمن والكافر) ﴿كَلَّآۚ﴾ ردعٌ عن طلب الرجعة واستبعادٌ لها ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ يعني قوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الخ. والكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض. ﴿هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ لا محالة لتسلُّط الحسرة عليه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أمامَهم ﴿بَرۡزَخٌ﴾ حائلٌ بينهم وبين الرجعة ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٠٠﴾ يوم القيامة. وهو إقناط كليٌّ عن الرجوع إلى الدنيا، لما عُلم أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا، وإنما الرجوع فيه إلى حياة تكون في الآخرة.

(١٠١) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ تنفعُهم، لزوال التعاطف والتراحم من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث ﴿يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ـ٣٦]. أو يفتخرون بها ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ كما يفعلون اليوم ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١﴾ ولا يسأل بعضهم بعضاً لاشتغاله بنفسه. وهو لا يناقض قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] لأنه عند النفخة، وذلك بعد المحاسبة أو دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

(١٠٢) ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ موزوناتُ عقائدِه وأعماله. أي فمن كانت له عقائد وأعمال صالحة يكون لها وزن عند الله تعالى وقدْرٌ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٢﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات.

(أقول: العمل مع الاعتقاد الصحيح ينفع، أما العمل بدون اعتقاد فإنه لا ينفع، لأن العمل الصالح يُبنى على الاعتقاد الصحيح).

(١٠٣) ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: ومن لم يكن له ما يكون له وزنٌ، وهم الكفار، لقوله تعالى: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ غبَنوها، حيث ضيَّعوا زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾.

(١٠٤) ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تُحرقها ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾ من شدة الاحتراق. والكلوح: تقلُّص الشفتين عن الأسنان.

أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

سُورَةُ النُّورِ (٢٤) (٦٤)

(١٠٥) ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يقال لهم: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ تأنيبٌ وتذكير لهم بما استحقوا هذا العذاب لأجله.

(١٠٦) ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ مَلَكتْنا بحيث صارت أحوالُنا مؤديةً إلى سوء العاقبة ﴿وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ عن الحق.

(١٠٧) ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾ من النار ﴿فَإِنۡ عُدۡنَا﴾ إلى التكذيب ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ لأنفسنا.

(١٠٨) ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ اسكتوا سكوتَ هوانٍ في النار، فإنها ليست مقامَ سؤال ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ في رفع العذاب، أو لا تكلمونِ رأساً. قيل: إن أهل النار يقولون ألف سنة: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] فيُجابون: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]. فيقولون ألفاً: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، فيجابون: ﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ [غافر: ١٢]. فيقولون ألفاً: ﴿يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ﴾، فيُجابون: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. فيقولون ألفاً: ﴿رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فيقولون ألفاً: ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالحاً﴾، فيجابون: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ﴾ [فاطر: ٣٧] فيقولون ألفاً: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، فيجابون: ﴿اخْسَؤُا فِيها﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، ثم لا يكون لهم فيها إلا زفير وشهيق وعواء.

(١٠٩) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي﴾ يعني المؤمنين. وقيل: الصحابة. وقيل: أهل الصفة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

(١١٠) ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ أي: هزؤاً ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ من فرط تشاغلكم بالاستهزاء بهم، فلمْ تخافوني في أوليائي ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ استهزاءً بهم.

(١١١) ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على أذاكم ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ بمجامع مراداتهم.

(١١٢) ﴿قَٰلَ﴾ الله تعالى، أو المَلَك المأمور بسؤالهم: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أحياء، أو أمواتاً في القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

(١١٣) ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم في النار ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣﴾ الذين يتمكنون من عدِّ أيامها إن أردت تحقيقها، فإنا لِما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها. أو فاسأل الملائكة الذين يَعدُّون أعمار الناس ويُحصون أعمالهم.

(١١٤) ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾ تصديقٌ لهم في مقالهم.

(١١٥) ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ توبيخٌ على تغافلهم؛ أي: إنا لم نخلقكم تلهياً بكم، وإنما خلقناكم لنتعبَّدكم ونجازيكم على أعمالكم؛ وهو كالدليل على البعث ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾.

(١١٦) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ الذي يحق له المُلك مطلقاً، فإن من عَداه مملوك بالذات، مالِك بالعرَض من وجهٍ دون وجهٍ وفي حالٍ دون حالٍ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن ما عداه عبيدٌ له ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ الذي يحيط بالأجرام، وتنزل منه مُحكَمات الأقضية والأحكام، ولذلك وصفه بالكرم، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين. وقرئ بالرفع (أي: الكريمُ) على أنه صفة الرب جل وعلا (وقيل: الكريم بمعنى الحسن).

(١١٧) ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعبُده إفراداً أو إشراكاً ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ فإن الباطل لا برهان به ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾ فهو مُجازٍ له مقدارَ ما يستحقه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ أي: حسابه عدم الفلاح. بدأ السورة بتقرير فلاح المؤمنين وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين، ثم أمر رسوله ﷺ بأن يستغفره ويسترحمه فقال تعالى:

(١١٨) ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لقد أنزلت عليَّ عشرُ آيات من أقامهنَّ دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العشر» [رواه الامام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه].

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المؤمنون وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النور

مدنيَّة، وهي أربع وستون آية

(١) ﴿سُورَةٌ﴾ أي: هذه سورة ﴿أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ وفرضنا ما فيها من الأحكام ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾ فتتقون المحارم.

(٢) ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ أي: فيما فرضنا أو أنزلنا حكمهما؛ وهو الجَلد ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ وإنما قدم الزَّانِيَة لأن الزنى في الأغلب يكون بتعرُّضها للرجل وعَرْضِ نفسها عليه، ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها. والجَلد: ضربُ الجِلدِ. وهو حكم يخصُّ بمن ليس بمُحصَن، لِما دلَّ على أن حَدَّ المُحصَن هو الرجم، وزاد الشافعي عليه تغريبَ الحُرِّ سنة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «البكر بالبكر جلد مئة وتغريب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ① ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ② ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ③ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ④ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ⑥ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ⑦ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ⑧ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ⑨ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ⑩

عام» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى، وكذلك الإمام البخاري رحمه الله تعالى بلفظ آخر]. والإحصان: بالحرية والبلوغ والعقل والإصابة في نكاح صحيح، واعتبرت الحنفية الإسلام أيضاً ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رحمةٌ ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته وإقامة حَدِّه فتعطِّلوه أو تسامحوا فيه ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ فَإن الإيمان يقتضي الجِدَّ في طاعة الله تعالى والاجتهاد في إقامة حدوده وأحكامه ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ②﴾ زيادةً في التنكيل (أي: الردع)، فإن التفضيح قد ينكِّل أكثر مما ينكِّل التعذيب. والطائِفَة: فرقة يمكن أن تكون حافَّةً حول شيء، وأقلُّها ثلاثة، وقيل: واحد أو اثنان، والمراد جمعٌ يحصل به التشهير.

(٣) ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إذ الغالب أن المائل إلى الزنى لا يرغب في نكاح الصوالح، والمسافِحَةُ لا يَرغب فيها الصلحاء (أقول: هذا ليس على إطلاقه، لأن الزاني قد يتوب ويرجع إلى الله تعالى). والآية نزلت في ضَعَفة المهاجرين لَمّا همُّوا أن يتزوجوا بغايا يكرين (يؤجرن) أنفسهن لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية، ولذلك قدَّم الزاني ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ③﴾ لأنه تشبُّه بالفسّاق وتعرضٌ للتهمة وتسبب لسوء المقالة والطعن في النسب وغير ذلك من المفاسد، ولذلك عبَّر عن التنزيه بالتحريم مبالَغةً. ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: «أوله

سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال» [أخرجه الإمام البيهقي رحمه الله تعالى] (أقول: فُهم من ذلك عدم المنع، فالشريعة لا تمنع ذلك).

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ يقذفونهنَّ بالزنى ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ والقذفُ بغيره؛ مثل: يا فاسق ويا شارب الخمر يوجب التعزير، كقذف غير المحصن. والإِحصانُ هٰهنا بالحرية والبلوغ والعقل والإِسلام والعفة عن الزنى، ولا فرق فيه بين الذكر والأنثى ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً﴾ أيَّ شهادة كانت، لأنه مفترٍ ﴿أَبَدٗاۚ﴾ ما لم يتب. وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى إلى آخر عمره ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ المحكوم بفسقهم.

(٥) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عن القذف ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ أعمالَهم بالتدارك؛ ومنه الاستسلام للحَدِّ، أو الاستحلال من المقذوف ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾.

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾ فالواجبُ شهادةُ أحدهِم ﴿أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾ أي: فيما رماها به من الزنى.

(٧) ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾ والشهادة الخامسة ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧﴾ في الرمي.

(٨) ﴿وَيَدۡرَؤُاْ﴾ (أي: يدفع) ﴿عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ أي: الحَدَّ ﴿أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨﴾ فيما رماني به.

(٩) ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ﴾ (أي: الزوج) ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾ في ذلك.

(١٠) ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾

(١١) **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾** أي: بأبلغِ ما يكون من الكذب. والمراد ما أُفِك به على عائشة رضي الله تعالى عنها؛ وذلك أنه عليه الصلاة والسلام استصحبها في بعض الغزوات، فأذن ليلة في القفول (أي: الرجوع) بالرحيل، فمشت لقضاء حاجةٍ ثم عادت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عقد من جزع ظفار (أي: من خرزٍ من مدينة ظفار في اليمن) قد انقطع، فرجعت لتلتمسه، فظنَّ الذي كان يُرحِّلها أنها دخلت الهودج، فرحَّله على مطيتها وسار، فلما عادت إلى منزلها لم تجد ثمة أحداً، فجلست كي يرجع إليها منشدٌ (أي: من يعرف الطريق ويدلُّ عليه)، وكان صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه قد عرَّس (أي: تأخر) وراء الجيش، فأدلج (أي: في الظلمة) فأصبح عند منزلها فعرفها، فأناخ راحلته فركبتها، فقادها حتى أتيا الجيش، فاتُّهِمَتْ به [الحديث في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى] **﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾** جماعةٌ منكم؛ وهي من العشرة إلى الأربعين. يريد عبد الله بن أُبَيّ وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومَنْ ساعدهم **﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾** والخطاب للرسول ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم **﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾** لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهورِ كرامتكم على الله بإنزال ثماني عشرة آية في براءتكم، وتعظيمِ شأنكم، وتهويلِ الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناءِ على من ظَنَّ بكم خيراً **﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾** لكلٍّ جزاءُ ما اكتسب بقدْرِ ما خاض فيه **﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾** مُعْظمَه **﴿مِنۡهُمۡ﴾** من الخائضين؛ وهو ابن أُبَيّ، فإنه بدأ به وأذاعه عداوةً لرسول الله ﷺ، أو هو وحسان ومسطح، فإنهما شايعاه (أي: تابعاه) بالتصريح به **﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾﴾** في الآخرة أو في الدنيا؛ بأن جُلدوا، وصار ابن أُبَيٍّ مطروداً مشهوراً بالنفاق.

(١٢) **﴿لَّوۡلَآ﴾** هلَّا **﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾** بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات **﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾﴾** كما يقول المستيقن المطَّلع على الحال.

(١٣) **﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾** تقريرٌ لكونه كذباً، فإن ما لا حجة عليه كذبٌ عند الله؛ أي في حكمه، ولذلك رتَّبَ الحَدَّ عليه.

(١٤) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لولا فضل الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة، وَرَحْمَتُهُ في الآخرة بالعفو والمغفرة المقدَّران لكم ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ خضتم (أي: دخلتم) ﴿فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٤﴾ يُستحقَر دونه اللومُ والجَلْدُ.

(١٥) ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يأخذُه بعضكم من بعض بالسؤال عنه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ أي: وتقولون كلاماً مختصاً بالأفواه بلا مساعدة من القلوب ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبكم ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ سهلاً لا تَبِعةَ له ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ في الوزر واستجرار العذاب. فهذه ثلاثة آثام مترتبة، علَّقَ بها مسَّ العذاب العظيم: تلقي الإفك بألسنتهم، والتحدث به من غير تحقق، واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم.

(١٦) ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما ينبغي وما يصح لنا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ يجوز أن تكون الإشارة إلى القول المخصوص وأن تكون إلى نوعه؛ فإن قذف آحاد الناس محرَّم شرعاً، فضلاً عن تعرُّض الصِّدِّيقة ابنة الصِّديق حرمةِ رسول الله ﷺ (بعض الشيعة يثبتون هذا. نعوذ بالله، هؤلاء لا شك في كفرهم) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجُّبٌ ممن يقول ذلك، أو تنزيهٌ لله تعالى من أن تكون حرمة نبيه ﷺ فاجرةً، فإن فجورها ينفِّر عنه ويُخِلُّ بمقصود الزواج، بخلاف كفرها ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝١٦﴾ لعظمة المبهوت عليه، فإن حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلَّقاتها.

(١٧) ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ كراهة أن تعودوا لمثله ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء مكلَّفين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾ فإن الإيمان يمنع عنه.

(١٨) ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأحوال كلها ﴿حَكِيمٌ ۝١٨﴾ في تدابيره.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يريدون ﴿أَن تَشِيعَ﴾ أن تنشر ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالحَدِّ والسعير إلى غير ذلك ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مَا فِي الضمائر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩﴾ فعاقِبوا في الدنيا على ما دلَّ عليه الظاهر، والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة.

(٢٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكريرٌ للمِنَّة بترك المعاجلة بالعقاب، للدلالة على عِظَمِ الجريمة، ولذا عطَفَ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ على حصول فضله ورحمته عليهم وحذَفَ الجواب، وهو مُستغنَى عنه بذكره مرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٢١) وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٢٣) يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٤) يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ (٢٥) ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ (٢٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾

(٢١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ بإشاعة الفاحشة ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ والفحشاء: ما أَفرَط قبحُه، والمنكَر ما أنكره الشرع ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشَرْعِ الحدود المكفِّرة لها ﴿مَا زَكَىٰ﴾ ما طهُر من دنسها ﴿مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ بحمله على التوبة وقبولها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالهم ﴿عَلِيمٞ (٢١)﴾ بنيَّاتهم (أقول: إياكم إياكم أن تتبعوا خطوات الشيطان، فإنه يدخل بينكم وبين ربكم، وبينكم وبين نبيكم، وبينكم وبين شيخكم، وبينكم وبين إخوانكم. وإذا أورَدَ عليكم إشكالاً فلا تجادلوه وتعاندوه، لأنه يسترسل معكم وينقلكم من إشكال إلى آخر، بل عليكم أن تستعيذوا بالله تعالى منه، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]).

(٢٢) ﴿وَلَا يَأۡتَلِ﴾ أي: ولا يحلف. نزل في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وقد حلف أن لا ينفق على مسطح بعدُ، وكان ابن خالته، وكان من فقراء المهاجرين ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ﴾ في الدين ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال. وفيه دليل على فضل أبي بكر رضي الله تعالى عنه وشرفه ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ﴾ على أن لا يُؤْتُوا ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ﴾ عمّا فرَط منهم ﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ بالإغماض عنه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم؟ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ مع كمال قدرته، فتخلَّقوا بأخلاقه. روي أنه عليه الصلاة والسلام قرأها على أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال: بلى أحب، ورجَّع إلى مسطح نفقته [الحديث أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى].

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ العفائف ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ عمَّا قُذفنَ به ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بالله وبرسوله، استباحةً لعرضهنَّ وطعناً في الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين، كابن أبيٍّ ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لما طعنوا فيهن ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٢٣)﴾ لعظم ذنوبهم. وقيل هو حكم كل قاذف ما لم يتب. وقيل مخصوص بمن قذف أزواج النبي ﷺ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا توبة له. ولو فتَّشتَ وعيداتِ القرآن لم تجد أغلظَ مما نزل في إفك عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٢٤) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهور آثاره عليها.

(٢٥) ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ جزاءهم المستحق ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ لمعاينتهم الأمر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ الثابت بذاته، الظاهرُ ألوهيَّتُه، لا يشاركه في ذلك غيره، ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه. أو ذو الحق البيِّنِ؛ أي: العادل الظاهر عدلُه. ومَنْ كان هذا شأنه ينتقم من الظالم للمظلوم لا محالة.

(٢٦) ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الخبائث يتزوَّجنَ الخِباث وبالعكس، وكذلك أهل الطِّيب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: أهل بيت النبي ﷺ أو الرسول وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إذ لو صدق لم تكن زوجتَهُ عليه الصلاة والسلام ولم يقرَّر عليها ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ يعني الجنة. ولقد برَّأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف عليه الصلاة والسلام بشاهد من أهلها، وموسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم بإنطاق ولدها عليهما السلام، وعائشة رضي الله عنها بهذه الآيات الكريمة مع هذه المبالغة، وما ذلك إلا لإظهار منصب الرسول ﷺ وإعلاء منزلته.

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي لا تسكنونها؛ فإن الآجر والمُعير أيضاً لا يدخلان إلا بإذن ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ أي: تستأذنوا، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، فإن المستأذِن مستعلمٌ للحال مستكشف أنه هل يراد دخوله أو لا يؤذن له. أو من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش، فإن المستأذن مستوحش خائف أن لا يؤذن له فإذا أُذِنَ له استأنس ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا: السلام عليكم أأدخل؟ وعنه عليه الصلاة والسلام: «التسليم أن يقول السلام عليكم، أأدخل؟ ثلاث مرات، فإن أُذن له دخل وإلا رجع» [أخرجه أبو داود رحمه الله تعالى في سننه] ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: الاستئذان أو التسليم خير لكم من أن تدخلوا بغتةً. أو خيرٌ لكم من تحية الجاهلية. كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال: حُييتم صباحاً أو حُييتم مساء ودخل، فربما أصاب الرجلَ مع امرأته في لحاف. وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «أأستأذن على أمي؟ قال: نعم، قال: إنها ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحبُّ أن تراها عريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذِنْ» [أخرجه الإمام مالك رحمه الله تعالى في الموطأ] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: أنزل عليكم إرادة أن تذكروا وتعملوا بما هو أصلح لكم.

(أقول: التمسك بالشريعة خير الدنيا والآخرة، والمخالفاتُ ضررُهما، فلا بد للمؤمن العاقل أن لايضيع أوقاته، وأن لا ينسى مرجعه، ويتذكر وقوفه بين قدرة ربه، وأن لا يعتمد على عمله، لأن العمل لا بد له من شرطين: موافقتِهِ للشريعة، والإخلاصِ، والعبدُ لا يخلو من تقصيرٍ ما. و إن كنت في شكٍّ من ذلك فانظر إلى صلاتك التي هي من أركان دينك كيف أنت معها بحضورك تعرفْ مقدار مناجاتك لربك سبحانه وتعالى).

فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿**فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا**﴾ يأذنُ لكم ﴿**فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ**﴾ حتى يأتي من يأذن لكم، فإن المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط، بل وعلى ما يخفيه الناس عادة، مع أن التصرف في ملك الغير بغير إذنه محظور. واستُثني ما إذا عرض فيه حرق أو غرق أو كان فيه منكرٌ ونحوها ﴿**وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ**﴾ ولا تُلِحُّوا ﴿**هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ**﴾ الرجوع أطهرُ لكم مما لا يخلو الإلحاح والوقوف على الباب عنه من الكراهة وترك المروءة. أو أنفعُ لدينكم ودنياكم ﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾**﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما خوطبتم به فيجازيكم عليه.

(٢٩) ﴿**لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ**﴾ كالرُبُط والحوانيت والخانات والخانقات (أي: رباطات الصوفية وهي الزوايا) ﴿**فِيهَا مَتَٰعٞ**﴾ استمتاع ﴿**لَّكُمۡۚ**﴾ كالاستكنان (أي: الاستتار) من الحر والبرد وإيواء الأمتعة والجلوس للمعاملة. وذلك استثناءٌ من الحكم السابق لشموله البيوت المسكونة وغيرها ﴿**وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾**﴾ وعيدٌ لمن دخل مدخلاً لفسادٍ أو تطلَّعٍ على عورات.

(٣٠) ﴿**قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ**﴾ أي: ما يكون نحوَ محرَّم ﴿**وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ**﴾ إلاَّ على أزواجهم أَوْ ما ملكت أيمانهم. وقيل: حفظ الفروج ههنا خاصةً سترُها ﴿**ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ**﴾ أنفع لهم أو أطهر، لِما فيه من البعد عن الريبة ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾**﴾ لا يخفى عليه إجالةُ (أي: دوران) أبصارهم واستعمالُ سائر حواسهم وتحريكُ جوارحهم وما يقصدون بها، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون.

(فائدة: ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى: «لو أن امرأ اطَّلع عليك بغير إذن، فخذفته بحصاة، ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح». وكذلك ما رواه الامام مسلم رحمه الله تعالى من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ: «من اطَّلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حلَّ لهم أن يفقؤا عينه»).

(٣١) ﴿**وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ**﴾ فلا ينظرنَ إلى ما لا يحلُّ لهن النظر إليه من الرجال

﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر، أو التحفظ عن الزنى، وتقديم الغضِّ لأن النظر بريد الزنى ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحليِّ والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها لمن لا يحلُّ أن تبدى له ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ عند مزاولة الأشياء – كالثياب – فإن في سترها حرجاً. وقيل: المراد بالزينة مواضِعُها، أو ما يعمُّ المحاسن الخلقية والتزيينية. والمستثنى هو الوجه والكفان، لأنها ليست بعورة. والأظهَرُ أن هذا في الصلاة لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة (أقول: الوجه والكفان ليست بعورة عند الأحناف، لكن كشفها فتنة، فيجب سترها)، لا يحلُّ لغير الزوج والمحرم النظرُ إلى شيء منها إلا لضرورةٍ؛ كالمعالجة وتحمُّلِ الشهادة (أقول: ولذا جاز ذهاب المرأة إلى الطبيب الحاذق من الرجال ليعالجها) ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ ستراً لأعناقهن ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرَّره لبيان من يحل له الإبداء ومن لا يحل له ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنهم المقصودون بالزينة، ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج بكُرْهٍ (أقول: قال أبو حنيفة: ليس بمكروه) ﴿أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وقلة توقع الفتنة من قِبَلهم لما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة. وإنما لم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم في معنى الإخوان، أو لأن الأحوط أن يتستَّرْنَ عنهم حذراً أن يصفوهن لأبنائهم ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني المؤمنات، فإن الكافرات لا يتحرَّجن عن وصفهن للرجال. أو النساء كلِّهن. وللعلماء في ذلك خلاف ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ المراد بها الإِماء، وعبدُ المرأة كالأجنبي منها ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: غير أولي الحاجة إلى النساء. وقيل البُلهُ الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ لعدم تمييزهم. أو لعدم بلوغهم حَدَّ الشهوة ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ ليتقعقع خلخالها فيُعلم أنها ذات خلخال، فإن ذلك يورث ميلاً في الرجال. وهو أبلغ من النهي عن إظهار الزينة وأدلُّ على المنع من رفع الصوت ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إذ لا يكاد يخلوا أحد منكم من تفريطٍ سيَّما في الكف عن الشهوات. وقيل: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية، فإنه وإن جُبَّ بالإِسلام لكنه يجب الندم عليه والعزمُ على الكفِّ عنه كلما يُتذكر ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ بسعادة الدارين.

وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾

(٣٢) ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ لمَّا نهى عما عسى أن يفضي إلى السفاح المخلِّ بالنسب المقتضي للألفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية إلى بقاء النوع بعدَ الزجر عنه مبالغة فيه عقَّبَهُ بالأمر بالنكاح الحافظ له، والخطابُ للأولياء والسادة، وأيامى: جمعُ أيِّم، وهو العزب، ذكراً كان أو أنثى، بِكراً كان أو ثيباً. وتخصيص الصَّالِحِينَ لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهمُّ. وقيل: المراد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ ردٌّ لما عسى أن يمنع من النكاح. والمعنى لا يَمنعنَّ فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة، فإن في فضل الله تعالى غُنيَةً عن المال، فإنه غادٍ ورائحٌ (أي: يذهب ويرجع) أو وعدٌ من الله تعالى بالإغناء، لكن مشروط بالمشيئة، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨] ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ ذو سعة لا تنفد نعمته إذ لا تنتهي قدرته ﴿عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾﴾ يبسط الرزق ويقدر على ما تقتضيه حكمته.

(٣٣) ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ وليجتهد في العفة وقمع الشهوة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: أسبابه ﴿حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المكاتبة، وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا ﴿مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ عبداً كان أو أمة، ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ والأمر فيه للندب عند أكثر العلماء ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ أمانةً وقُدرةً على أداء المال بالاحتراف. وقيل: صلاحاً في الدين ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ أمرٌ للموالي كما قَبْله بأن يبذلوا لهم شيئاً من أموالهم. وفي معناه حطُّ شيء من مال الكتابة، وهو للوجوب عند الأكثر ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ﴾ إماءَكم ﴿عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ على الزنى؛ كانت لعبد الله بن أبيٍّ ستُّ جَوارٍ يُكرههن على الزنى، وضرب عليهنَّ الضرائب، فشكا بعضهنَّ إلى رسول الله ﷺ فنزلت. ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ تعففاً. شرطٌ للإكراه فإنه لا يوجد دونه، وإن جعل شرطاً للنهي لم يلزم من عدمه جواز الإكراه (أقول: فلا مفهوم للشرط، كما قال الصاوي رحمه الله تعالى) ﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ (أي: لتبتغوا بإكراههنَّ على الزنى أجورهنَّ [النسفي]) ﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾﴾ أي: لهنَّ.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بَيَّنت الأحكام والحدود ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: وقصةً عجيبةً مثل قصصهم؛ وهي قصة عائشة رضي الله تعالى عنها، فإنها كقصة يوسف ومريم عليهما السلام ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ يعني ما وُعظ به في تلك الآيات. وتخصيصُ المتقين لأنهم المنتفعون بها.

(٣٥) ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: منوِّر السموات والأرض. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه هادي من فيهما، فهم بنوره يهتدون ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ وقد ذُكر في معنى التمثيل وجوه؛ الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دلت عليه الآيات المبينات في جلاء مدلولها وظهور ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة، والثاني: تمثيل لما نوَّر الله تعالى به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبثِّ (أي: المنتشر) فيها من مصباحها (أقول: مثاله رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم والأولياء، وهذا يكون للأنبياء بالوحي وللأولياء بالإلهام. ولم نأخذ هنا جميع ما ذكره البيضاوي رحمه الله تعالى لأنه ليس في بيان معنى الآية) ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ لهذا النور الثاقب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فإن الأسباب دون مشيئته لاغِيةٌ إذ بها تمامها ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ إدناءً للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو خفياً. وفيه وعد ووعيد لمن تدبرها ولمن لم يكترث (أي: لم يهتمَّ) بها.

(٣٦) ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ المراد بها المساجد ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ بالبناء أو التعظيم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ عامٌّ فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في أفعاله والمباحثة في أحكامه ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ ينزِّهونه، أي: يصلُّون له فيها بالغدوات والعشيات.

رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾

(٣٧) ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمًا﴾ مع ما هم عليه من الذكر والطاعة ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ تضطرب وتتغير من الهول. أو تتقلب أحوالها فتفقَهُ القلوب ما لم تكن تفقه، وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصر. أو تتقلب القلوب من توقُّع النجاة وخوف الهلاك، والأبصارُ من أيِّ ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم.

(٣٨) ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: الموعود لهم من الجنة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ أشياء لم يَعِدْهم بها على أعمالهم ولم تخطر ببالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ تقريرٌ للزيادة، وتنبيهٌ على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسَعة الإحسان.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ﴾ والذين كفروا حالُهم على ضدِّ ذلك، فإن أعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله يجدونها لاغيةً مخيِّبةً في العاقبة كالسراب؛ وهو ما يرى في الفلاة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيُظَن أنه ماء يسرب، أي يجري. والقيعة بمعنى القاع، وهو الأرض المستوية ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ أي: العطشان. وتخصيصُه لتشبيه الكافر به في شدة الخيبة عند مسيس الحاجة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ جاء ما توهَّمه ماءً ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ مما ظنَّه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عقابَه أو زبانيته، أو وجده محاسباً إياه ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ استعراضاً أو مُجازاةً ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ لا يشغله حساب عن حساب.

(٤٠) ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ فإن أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب، ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لجِّ البحر والأمواج والسحاب. أو للتنويع؛ فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب، وإن كانت قبيحة فكالظلمات. أو للتقسيم باعتبار وقتين؛ فإنها كالظلمات في الدنيا، وكالسراب في الآخرة ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ ذي لجٍّ، أي عميق ﴿يَغۡشَىٰهُ﴾ يغشى البحرَ ﴿مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ أي: أمواج مترادفة متراكمة ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ﴾ من فوق الموج الثاني ﴿سَحَابٞۚ﴾ غطَّى النجومَ وحَجبَ أنوارَها ﴿ظُلُمَٰتُۢ﴾ أي: هذه ظلمات ﴿بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾ وهي أقرب ما يرى إليه ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ لم يَقرُبْ أن يراها فضلاً عن أن يراها ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا﴾ ومن لم يقدِّر له الهداية ولم يوفِّقه لأسبابها ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

بخلاف الموفَّق الذي له نور على نور.

(٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة بالوحي أو الاستدلال ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينزِّه ذاتَه عن كل نقص وآفة أهلُ السموات والأرض ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ فإن إعطاء الأجرام الثقيلة ما به تقوى على الوقوف في الجو باسطةً أجنحتها بما فيها من القبض والبسط حجَّةٌ قاطعة على كمال قدرة الصانع تعالى ولطف تدبيره ﴿كُلٌّ﴾ كلُّ واحدٍ مما ذُكر أو من الطير ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي: قد علم الله تعالى دعاءه وتنزيهه اختياراً أو طبعاً لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ أو عَلمَ كلٌّ على تشبيه حاله في الدلالة على الحق والميل إلى النفع على وجه يخصُّه بحالِ مَنْ علم ذلك، مع أنه لا يَبعُد أن يلهم الله تعالى الطير دعاء وتسبيحاً كما ألهمها علوماً دقيقة في أسباب تعيشها لا تكاد تهتدي إليها العقلاء.

(٤١) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنه الخالق لهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال، من حيث إنها ممكنةٌ واجبةُ الانتهاءِ إلى الواجب ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ وإليه مرجع الجميع.

(٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ يسوقُهُ ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ بأن يكون قزعاً (جمع قزعة، وهي قطعة من السحاب رقيقة) فيضمُّ بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ من فتوقه ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الغمام ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ من قطعٍ عظامٍ تشبه الجبال في عِظَمِها أو جمودها ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ أي: يُنَزِّلُ مبتدأ مِنَ السماء مِنْ جبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ بَرَداً. والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحلِّلها حرارةٌ فبلغت الطبقةَ الباردة من الهواء وقوي البرد هناك اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتد البرد تقاطرَ مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً، وإلا نزل بَرَداً. وكلُّ ذلك لا بد أن يستند إلى إرادة الواجب الحكيم ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ ضوءُ برقه ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإِضاءة. وذلك أقوى دليلٍ على كمال قدرته جل وعلا من حيث إنه توليد للضد من الضد.

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾

(٤٤) ﴿**يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ**﴾ بالمعاقبة بينهما، أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد والظلمة والنور، أو بما يعمُّ ذلك ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ فيما تقدم ذكره ﴿**لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾**﴾ لدلالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزُّهه عن الحاجة وما يفضي إليها لمن يرجع إلى بصيرة.

(٤٥) ﴿**وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ**﴾ حيوانٍ يدبُّ على الأرض ﴿**مِّن مَّآءٖۖ**﴾ هو جزءُ مادَّته. أو ماءٌ مخصوص هو النطفة ﴿**فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ**﴾ كالحية. وإنما سمى الزحفَ مشياً على الاستعارة أو المشاكلة ﴿**وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ**﴾ كالإنس والطير ﴿**وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ**﴾ كالنَّعَم والوحش، ويندرج فيه ما له أكثر من أربع كالعناكب، فإن اعتمادها إذا مشت على أربع ﴿**يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ**﴾ مما ذُكِر ومما لم يُذكر، بسيطاً ومركباً، على اختلاف الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾**﴾ فيفعل ما يشاء.

(٤٦) ﴿**لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ**﴾ للحقائق بأنواع الدلائل ﴿**وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ**﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبُّر لمعانيها ﴿**إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾**﴾ هو دين الإسلام الموصل إلى دَرْك الحق والفوز بالجنة.

(٤٧) ﴿**وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ**﴾ (نزلت في بِشْرٍ المنافق، كان بينه وبين يهودي خصومة في أرض، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد (ﷺ)، وقال المنافق: بل نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، فإن محمداً يحيف، فأنزل الله تعالى هذه الآية [المدارك للنسفي رحمه الله تعالى]). وقيل: في مغيرة بن وائل خاصم عليّاً رضي الله عنه في أرض فأبى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ ﴿**وَأَطَعۡنَا**﴾ أي: وأطعناهما ﴿**ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ**﴾ بالامتناع عن قبول حكمه ﴿**فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ**﴾ بعد قولهم هذا ﴿**وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾**﴾ إشارةٌ إلى القائلين بأسرهم، فيكون إعلاماً من الله تعالى بأن جميعهم - وإن آمنوا بلسانهم - لم تؤمن قلوبهم، أو إلى الفريق المتولي منهم. وسلبُ الإيمان عنهم لتوليهم.

(٤٨) ﴿**وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ**﴾ أي: ليحكم النبي ﷺ فإنه الحاكم ظاهراً أو المدعوُّ

إليه. وذَكَرَ اللهَ لتعظيمه والدلالة على أن حكمه ﷺ في الحقيقة حكمُ الله تعالى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فاجأ فريقٌ منهم الإِعراض إذا كان الحق عليهم، لعلمهم بأنك لا تحكم لهم.

(٤٩) ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الحكم لا عليهم ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ منقادين، لعلمهم بأنه يحكمُ لهم.

(٥٠) ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفرٌ، أو ميلٌ إلى الظلم ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ بأن رأوا منك تهمةً فزال يقينهم وثقتهم بك ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ (أي: يظلمهم) في الحكومة ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وظلمهم يعمُّ خللَ عقيدتهم وميلَ نفوسهم إلى الحيف (أي: الظلم).

(٥١) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ على عادته تعالى في إتباع ذكر المُحِقِّ المُبطِلَ، والتنبيهِ على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي.

(٥٢) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما يأمرانِه، أو في الفرائض والسنن ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ على ما صدر عنه من الذنوب ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقي من عمره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بالنعيم المقيم.

(٥٣) ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ إنكارٌ للامتناع عن حكمه ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بالخروج عن ديارهم وأموالهم ﴿لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ﴾ على الكذب ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ﴾ أي: المطلوب منكم طاعةٌ معروفة، لا اليمينُ على الطاعة النِّفاقيَّة المنكَرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ فلا تخفى عليه سرائركم.

قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾

(٥٤) ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ أمرٌ بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغة في تبكيتهم ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ﴾ أي: على محمد ﷺ ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ من الامتثال ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ في حكمه ﴿تَهۡتَدُواْۚ﴾ إلى الحق ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ التبليغ الموضِّح لما كُلِّفتم به، وقد أدَّى، وإنما بقي ما حُمِّلْتُمْ، فإن أدَّيتم فلكم، وإن توليتم فعليكم (أقول: أي قل لهم: أطيعوا الله تعالى بإخلاص النية وترك النفاق، وأطيعوا الرسول ﷺ بالاستجابة لأمره والتمسك بهديه، فإن أعرضتم عن طاعته فعلى الرسول ﷺ ما كُلِّفَ به من تبليغ الرسالة، وعليكم ماكُلِّفتم به من السمع والطاعة، وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم، وليس على الرسول ﷺ إلا تبليغ أوامر الله تعالى، لا أن يَضَعَ الإيمانَ في قلوب الناس).

(٥٥) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خطابٌ للرسول ﷺ وللأمة. أوْ لَهُ ولمن معه ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليجعلنهم خلفاء متصرِّفين في الأرض تصرُّفَ الملوك في مماليكهم ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني بني إسرائيل؛ استخلفهم في مصر والشام بعد الجبابرة ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ وهو الإسلام، بالتقوية والتثبيت ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾ من الأعداء ﴿أَمۡنٗاۚ﴾ منهم. وكان رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة، وكانوا يُصبِحون في السلاح ويُمسون فيه، حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب. وفيه دليل على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به، وخلافة الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعود والموعود عليه لغيرهم بالإجماع. وقيل: الخوف من العذاب والأمن منه في الآخرة ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي: يعبدونني غير مشركين ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ومن ارتدَّ، أو كفر هذه النعمة ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد الوعد، أو حصول الخلافة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ الكاملون في فسقهم؛ حيث ارتدّوا بعد وضوح مثل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمة العظيمة.

(٥٦) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في سائر ما أمركم به ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (لكي تُرحَموا، فإنها من مستجلبات الرحمة [النسفي]).

(٥٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ لا تَحسبن يا محمد عليه الصلاة والسلام الكفارَ معجِزين لله تعالى عن إدراكهم وإهلاكهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزين ومأواهم النار، لأن من النهي عن الحسبان تحقيق نفي الإعجاز ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ٥٧﴾ المأوى الّذي يصيرون إليه.

(٥٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ رجوعٌ إلى تتمة الأحكام السالفة بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها والوعد عليها والوعيد على الإِعراض عنها. والمراد به خطاب الرجال والنساء، غلَّبَ فيه الرجال لما روي أن غلام أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقتٍ كَرِهتْه، فنزلت. وقيل: أرسل رسول الله ﷺ مدلج بن عمرو الأنصاري رضي الله تعالى عنه – وكان غلاماً – وقت الظهيرة ليدعو عمر رضي الله تعالى عنه، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لوَدِدْتُ أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا هذه الساعات علينا إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ والصبيان الذين لم يبلغوا من الأحرار ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ في اليوم والليلة، مَرَّةً ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ أي: ثيابكم للقيلولة ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ﴾ لأنه وقتُ التجرُّد عن اللباس والالتحاف باللحاف ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ﴾ أي: هي ثلاث أوقات يختل فيها تَسَتُّرُكم. وأصلُ العورة الخَلَلُ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ﴾ بعد هذه الأوقات في ترك الاستئذان. وليس فيه ما ينافي آية الاستئذان فينسخها، لأنه في الصبيان ومماليك المدخول عليه، وتلك في الأحرار البالغين ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ وهو بيانُ العذر المرخِّص في ترك الاستئذان؛ وهو المخالطة وكثرة المداخلة ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ يطوف بعضكم على بعض ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِۗ﴾ أي: الأحكام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ ٥٨﴾ فيما شَرَعَ لكم.

وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾

(٥٩) ﴿**وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ**﴾ الذين بَلَغوا من قبلهم في الأوقات كلها. واستدل به من أوجب استئذان العبد البالغ على سيدته (أقول: بلغ الأطفال منكم الحلم وظهر منهم أمارات الميل والشهوات، سواء كانوا ذكر أم أنثى) ﴿**كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾**﴾ كرَّره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

(٦٠) ﴿**وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ**﴾ العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل ﴿**ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا**﴾ لا يطمعْنَ فيه لكِبرهنَّ ﴿**فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ**﴾ أي: الثياب الظاهرة كالجلباب ﴿**غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ**﴾ غيرَ مظهرات زينةً ممّا أُمِرْنَ بإخفائه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] ﴿**وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ**﴾ من الوضع، لأنه أبعد من التهمة ﴿**خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ**﴾ لمقالتهنَّ للرجال ﴿**عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾**﴾ بمقصودهنَّ (أقول: سيف الشريعة الطاهرة مسلط على عاتق المؤمن، فإذا لم يتقيد بالأوامر والنواهي الشرعية ، فإن سيف الشريعة يقطع عزته ويسلمه إلى نفسه الأمارة بالسوء والعياذ بالله تعالى ، فيضيع عمره بالمخالفات ، ويكون مثله مثل البهائم التي تأكل وترعى في المرعى ، ثم ترجع إلى المأوى ، فالقانون الإلهي في الأرض هو القرآن الكريم فلا يجوز للمسلم أن يخالف مواد هذا القانون كما أن الدول لا تسمح لأي شخص كان أن يخالف مواد قانونها).

(٦١) ﴿**لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ**﴾ نفيٌ لما كانوا يتحرَّجون من مؤاكلة الأصحاء حذراً من استقذارهم. أو أكلهم من بيت من يدفع إليهم المفتاح ويبيح لهم التبسط فيه إذا خرج إلى الغزو وخلَّفهم على المنازل مخافة أن لا يكون ذلك عن طِيبِ قلب. أو من إجابة مَن دعوهم إلى بيوت آبائهم وأولادهم وأقاربهم فيطعمونهم كراهة أن يكونوا كَلًّا (أي: عِبئاً) عليهم. وهذا إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذنٍ أو قرينةٍ (أي: دلالة ظاهر الحال) ﴿**وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ**﴾ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم، فيدخل فيها بيوت الأولاد، لأن بيت الولد كبيته؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك» [أخرجه ابن ماجه رحمه الله تعالى]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن أطيب ما يأكل

المؤمن من كسبه، وإنَّ ولده من كسبه» [أخرجه أصحاب السنن رحمهم الله تعالى] ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وهو ما يكون تحت أيديكم وتصرُّفِكم من ضيعة أو ماشية، وَكالَةً أو حفظاً. وقيل: بيوت المماليك ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أو بيوت صديقكم، فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسرُّ به. هذا كله إنما يكون إذا عَلِمَ رضا صاحب البيت بإذنٍ أو قرينةٍ، ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسط بينهم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ مجتمعين أو متفرقين. نزلت في بني ليث بن عمرو من كِنانة، كانوا يتحرَّجون أن يأكل الرجل وحده. أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه. أو في قوم تحرَّجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في القذارة والنهمة (أي: افراط الشهوة في الطعام) ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثابتةً بأمره، مشروعةً من لدنه ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ لأنها يرجى بها زيادة الخير والثواب ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيب بها نفس المستمع. وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال لي: «متى لقيتَ أحداً من أمتي فسلِّمْ عليه يطُلْ عمرك، وإذا دخلت بيتك فسلِّم عليهم يكثرْ خير بيتك، وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين» [رواه البيهقي رحمه الله تعالى في شعب الإيمان] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ كرَّره ثالثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتَمَة به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦١﴾ أي: الحقَّ والخيرَ في الأمور.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

٢٥ سُورَةُ الفُرْقَانِ ٧٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

(٦٢) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكاملون في الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من صميم قلوبهم ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كالجُمُعة والأعياد والحروب والمشاورة في الأمور ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ يستأذنوا رسول الله ﷺ فيأذن لهم. واعتباره في كمال الإيمان لأنه كالمصداق لصحته والمميِّز للمخلص فيه عن المنافق، فإن دَيدنه التسلل والفرار، ولتعظيم الجرم في الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، ولذلك أعاده مؤكَّداً على أسلوب أبلغ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإنه يفيد أنَّ المستأذِن مؤمنٌ لا محالة، وأن الذاهبَ بغير إذن ليس كذلك ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ ما يَعرِض لهم من المهام ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويضٌ للأمر إلى رأي الرسول ﷺ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد الإذن؛ فإن الاستئذان ولو لعذرٍ قُصورٌ، لأنه تقديمٌ لأمر الدنيا على أمر الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفرَطات العباد ﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ بالتيسير عليهم.

(٦٣) ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته عليه الصلاة والسلام واجبةٌ، والمراجعة بغير إذنه محرَّمةٌ. وقيل لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به والنداء من وراء الحجرات، ولكن بلقبه المعظَّم؛ مثل: يا نبيَّ الله ويا رسولَ الله، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ أي: ينسلُّون قليلاً قليلاً من الجماعة ﴿لِوَاذًا﴾ بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج. أو يَلوذ بمن يؤذن له فينطلق معه كأنه تابِعُهُ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: يخالفون أمرَه بترك مقتضاه، ويذهبون سمتاً خلاف سمته (أي: طريقاً خلاف طريقه) أو يَصدُّون عن أمره دون المؤمنين ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محْنة في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ في الآخرة. واستُدِلَّ به على أن الأمر للوجوب.

(٦٤) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلَّفون من المخالفة والموافقة

والنفاق والإخلاص. وإنما أكَّدَ علمه بـ«قَدْ» لتأكيد الوعيد ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم يرجع المنافقون إليه للجزاء ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من سوء الأعمال بالتوبيخ والمجازاة عليه ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ لا تخفى عليه خافية.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة النور وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان

مكيَّة، وآيها سبع وسبعون آية

(١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ تَكاثَرَ خيرُه. من البركة، وهي كثرة الخير. أو تَزايَدَ على كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، فإن البركة تتضمن معنى الزيادة، وترتيبه على إنزال الفُرْقان لِما فيه من كثرة الخير، أو لدلالته على تعاليه. والفرقان مصدرُ فرَّق بين الشيئين إذا فصل بينهما، سُمِّي به القرآن لفصله بين الحق والباطل بتقريره، أو بين المُحِقِّ والمبطل بإعجازه، أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في الإنزال ﴿لِيَكُونَ﴾ العبد (أي: رسول الله عليه الصلاة والسلام) أو الفرقان ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس ﴿نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ مُنذراً.

(٢) ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كزعم النصارى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أحدثه إحداثاً مراعى فيه التقدير حسب إرادته؛ كخلقِهِ الإنسانَ من مواد مخصوصة وصور وأشكال معينة ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ فقدَّره وهيَّأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال؛ كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط (أي: استخراج) الصنائع المتنوِّعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك. أو فَقَدَّرَهُ للبقاء إلى أجل مسمّى.

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

(٣) ﴿**وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ لأن عَبَدَتهم يَنحتونهم ويُصوِّرونهم ﴿**وَلَا يَمْلِكُونَ**﴾ ولا يستطيعون ﴿**لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا**﴾ دفعَ ضرٍّ ﴿**وَلَا نَفْعًا**﴾ ولا جلبَ نفعٍ ﴿**وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾**﴾ ولا يملكون إماتةَ أحدٍ ولا إحياءه أوَّلاً وبَعْثه ثانياً. ومن كان كذلك فبمَعزلٍ عن الأُلوهية لعَرائه (أي: لتجرده) عن لوازمها واتصافه بما ينافيها. وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء.

(٤) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ**﴾ كذِبٌ ﴿**ٱفْتَرَىٰهُ**﴾ اختلقه ﴿**وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ**﴾ أي: اليهود؛ فإنهم يُلقون إليه أخبار الأمم وهو يعبِّر عنها بعبارته. وقيل: جبر ويسار وعداس، وقد سبق في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ﴿**فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا**﴾ بجعْلِ الكلام المُعجِز إِفْكاً مختلَقاً متلقَّفاً من اليهود ﴿**وَزُورًا ﴿٤﴾**﴾ بنسبة ما هو بريء منه إليه.

(٥) ﴿**وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ**﴾ ما سطَّره المتقدِّمون ﴿**ٱكْتَتَبَهَا**﴾ كتبَها لنفسه، أو استكتبها (أي: واحد كتبها له) ﴿**فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾**﴾ ليحفظها.

(٦) ﴿**قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ لأنه أعجزَكم عن آخِركم بفصاحته وتضمُّنِه أخباراً عن مغيَّبات مستقبلة وأشياء مكنونة (أي: مستورة) لا يعلمها إلا عالِمُ الأسرار، فكيف تجعلونه أَساطِير الأوَّلين؟ ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾**﴾ فلذلك لا يعجِّل في عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقكم أن يَصُبَّ عليكم العذاب صبّاً.

(٧) ﴿**وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ**﴾ ما لهذا الذي يزعم الرسالة. وفيه استهانةٌ وتهكُّم ﴿**يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ**﴾ كما نأكل ﴿**وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ**﴾ لطلب المعاش كما نمشي. والمعنى: إنْ صحَّ دعواه فما بالُه لم يخالف حالُه حالَنا. وذلك لعَمَهِهم (أي: تحيُّرهم وتردُّدهم) وقصور نظرهم على المحسوسات، فإنَّ تميُّز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأحوال نفسانية، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] ﴿**لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾**﴾ لنعلَم صدقه بتصديق المَلَك.

(٨) ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾ فيستظهرَ به (أي: فيستعين)، ويستغنيَ عن تحصيل المعاش ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾ هذا على سبيل التنزُّل؛ أي: إن لم يُلْقَ إليه كنزٌ فلا أقلَّ من أن يكون له بستان كما للدهاقين (أي: رؤساء القرى) والمياسير (أي: الأغنياء) فيتعيش بريعه (أي: من غلته) ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتبعون ﴿إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨﴾ سُحِر فغُلب على عقله.

(٩) ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾ أي: قالوا فيك الأقوال الشاذة، واخترعوا لك الأحوال النادرة ﴿فَضَلُّواْ﴾ عن الطريق الموصل إلى معرفة خواصِّ النبي والمَيْزِ بينه وبين المتنبِّي (أي: مدعي النبوة)، فخبطوا خبط عشواء ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩﴾ إلى القدح في نبوَّتك. أو إلى الرشد والهدى.

(١٠) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا ﴿خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ﴾ مما قالوه، ولكن أخَّره إلى الآخرة لأنه خيرٌ وأبقى ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠﴾.

(١١) ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾ فقصرَتْ أنظارهم على الحطام الدنيوية، وظنُّوا أن الكرامة إنما هي بالمال، فطَعنوا فيك لِفَقرك. أو فلذلك كذبوك لا لِما تمحَّلوا (أي: احتالوا) من المطاعن الفاسدة ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾ ناراً شديدة الاستعار (أي: التوقد)، وقيل: هو اسم لجهنم.

إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾

(١٢) ﴿إِذَا رَأَتۡهُم﴾ إذا كانت بمرأى منهم ﴿مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ وهو أقصى ما يمكن أن يُرى منه ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾﴾ صوت تغيُّظٍ. شبَّهَ صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره، وهو صوت يُسمع من جوفه.

(١٣) ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾ أي: في مكان ضيِّق لزيادة العذاب، فإن الكرب مع الضيق، والرَّوْح (أي: الراحة) مع السَّعة ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرِّنَتْ أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان ﴿ثُبُورٗا ﴿١٣﴾﴾ هلاكاً. أي: يتمنون الهلاك وينادونه فيقولون: تعالَ يا ثبوراه فهذا حِينُكَ.

(١٤) ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا﴾ أي: يقال لهم ذلك ﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾﴾ لأن عذابكم أنواع كثيرة، كلُّ نوع منها ثبور (أي: هلاك) لشدته. أو لأنه يتجدَّد، لقوله تعالى: ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ﴾ [النساء: ٥٦]. أو لأنه لا ينقطع، فهو في كل وقت ثُبور.

(١٥) ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ الإشارة إلى العذاب، والاستفهامُ والتفضيل والترديد للتقريع مع التهكم ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ في علم الله أو اللوح. أو لأن ما وعده الله تعالى في تحققه كالواقع. ﴿جَزَآءٗ﴾ على أعمالهم بالوعد ﴿وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾﴾ ينقلبون إليه

(١٦) ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ ما يشاءونه من النعيم. ولعله تَقْصُر هِممُ كل طائفة على ما يليق برتبته، إذ الظاهر أن الناقص لا يدرك شأوَ (أي: همَّةَ) الكاملِ بالتشهي. وفيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة ﴿خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾﴾ أي: كان ذلك موعوداً حقيقاً بأن يُسأل ويُطلب. أو مسؤولاً سأله الناس في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]. أو الملائكةُ بقولهم: ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ [غافر: ٨].

(١٧) ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ للجزاء ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَعُمُّ كل معبود سواه تعالى ﴿فَيَقُولُ﴾ للمعبودين ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح. وهو استفهامُ تقريعٍ وتبكيت للعَبَدَة.

(١٨) ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ تعجُّباً مما قيل لهم، لأنهم إما ملائكةٌ أو أنبياءُ معصومون، أو جماداتٌ لا تقدر على شيء. أو إشعاراً بأنهم الموسومون (أي: الموصوفون) بتسبيحه وتوحيده، فكيف يليق بهم إضلال عبيده! أو تنزيهاً لله تعالى عن الأنداد ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ ما كان يصحُّ لنا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ للعصمة. أو لعدم القدرة. فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا أن يتولى أحداً دونك؟ ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ بأنواع النعم، فاستغرقوا في الشهوات ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك، أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك. وهو نسبةٌ للضلال إليهم من حيث إنه بِكَسْبهم، وإسنادٌ له (أي: للضلال) إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه ﴿وَكَانُواْ﴾ في قضائك ﴿قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨﴾ هالكين.

(١٩) ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم﴾ أي: فقد كذَّبكم المعبودون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ في قولكم إنهم آلهة، أو هؤلاء أضلونا ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ﴾ خطابٌ للعابدين ﴿صَرۡفٗا﴾ دفعاً للعذاب عنكم ﴿وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ يعينكم عليه ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ أيها المكلَّفون ﴿نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾ هي النار.

(٢٠) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ ابتلاء. ومِنْ ذلك ابتلاءُ الفقراء بالأغنياء، والمرسَلين بالمرسَل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم لهم. وهو تسليةٌ لرسول الله ﷺ على ما قالوه بعدَ نقضه. وفيه دليل على القضاء والقدر ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ أي: وجعلْنا بَعْضكم لبعضٍ فتنةً لِنَعلم أيّكم يصبر. أو حثٌّ على الصبر على ما افتُتِنوا به ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ بمن يصبر. أو بالصواب فيما يَبتلي به وغيرِه.

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ﴾ لا يأملون ﴿لِقَآءَنَا﴾ بالخير لكفرهم بالبعث ﴿لَوۡلَآ﴾ هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فتخبرنا بصدق محمد ﷺ. وقيل: فيكونوا رسلاً إلينا ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ فيأمرنا بتصديقه واتباعه ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: في شأنها، حتى أرادوا لها ما يتفق لأفرادٍ من الأنبياء الذين هم أكمل خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظم من ذلك ﴿وَعَتَوۡ﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم ﴿عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾﴾ بالغاً أقصى مراتبه، حيث عاينوا المعجزات القاهرة فأعرضوا عنها، واقترحوا لأنفسهم الخبيثة ما سُدَّت دونه مطامح النفوس القدسية.

(٢٢) ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ملائكة الموت أو العذاب ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فإنه بمعنى يُمنَعون البشرى أو يُعدَمونها ﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾﴾ أي: ويقول الكفرة حينئذ هذه الكلمةَ استعاذةً وطلباً من الله تعالى أن يمنع لقاءهم. أو تقولها الملائكة بمعنى حراما محرَّماً عليكم الجنة أو البشرى.

(٢٣) ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: وعمَدنا (أي: قصدنا) إلى ما عملوا في كفرهم من المكارم؛ كقِرى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف فأحبطناه لفقْدِ ما هو شرطُ اعتبارِه (وهو الإيمان).

(٢٤) ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ مكاناً يُستقَّر فيه أكثر الأوقات للتجالس والتحادث. ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾﴾ مكاناً يُؤوى إليه للاسترواح بالأزواج والتمتع بهم. روي (عن ابن مسعود رضي الله عنه) أنه يُفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم، فيَقيلُ أهل الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار.

(٢٥) ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أصله تتشقق ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ بسبب طلوع الغمام منها، وهو الغمام المذكور في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] (أي: يأتي عذابُهم) ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ في ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد.

(٢٦) ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ الثابت له لأن كل مُلكٍ يَبطل يومئذ ولا يبقى إلا مُلكه ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾﴾ شديداً.

(٢٧) ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من فرط الحسرة. والمراد بالظالم الجنس. وقيل: عقبة ابن أبي معيط، كان يُكثر مجالسة النبي ﷺ، فدعاه إلى ضيافته، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل، وكان أبيُّ بن خلف صديقه فعاتبه وقال صبأت (أي: خرجت عن دينك) فقال: لا، ولكن آلى أن لا يأكل (أي: أقسم أن لا يأكل) من طعامي وهو في بيتي، فاستحييتُ منه فشهدت له، فقال: لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوتُ رأسك بالسيف، فأُسِرَ يوم بدر فأمر علياً فقتله، وطَعَن أبيّاً بأُحُدٍ في المبارزة، فرجع إلى مكة ومات ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ٢٧﴾ طريقاً إلى النجاة. أو طريقاً واحداً، وهو طريق الحق ولم تتشعب (أي: تتفرق) بي طرق الضلالة.

(٢٨) ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ٢٨﴾ يعني مَنْ أضَلَّه.

(٢٩) ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ عن ذكر الله تعالى، أو كتابه، أو موعظة الرسول ﷺ، أو كلمة الشهادة (أقول: ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: عن الهدى والإيمان) ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ وتمكَّنْتُ منه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني الخليلُ المضِلُّ. أو إبليس لأنه حَمَلَه على مخالته (أي: صداقته ومحبته) ومخالفة الرسول ﷺ. أو كلُّ من تشيطن من جنٍّ وإنس ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ٢٩﴾ يواليه حتى يؤدِّيه إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه.

(٣٠) ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام، يومئذ أو في الدنيا بثّاً (أي: شكوى) إلى الله تعالى: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قريشاً ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ٣٠﴾ بأن تركوه وصَدُّوا عنه، أو هَجَرُوا فيه (أي: قالوا قولًا قبيحاً) ولَغَوْا فيه إذا سمعوه، أو زعموا أنه هُجْرٌ (أي: هذيان) وأساطير الأولين. وفيه تخويف لقومه، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجَّل لهم العذاب.

(٣١) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما جعلناه لك، فاصبر كما صبروا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ إلى طريق قهرهم ﴿وَنَصِيرًا ٣١﴾ لك عليهم.

(٣٢) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ دفعَةً واحدة كالكتب الثلاثة ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: كذلك أنزلناه مفرَّقاً لنقوِّيَ بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه. لأن حاله يخالف حال موسى وداود وعيسى عليهم الصلاة والسلام، حيث كان ﷺ أمِّيّاً وكانوا يكتبون، فلو أُلقِيَ عليه جملة تعنّى (تعب) بحفظه، ولعله لم يستتبَّ له، فإن التلقف لا يتأتى إلا شيئاً فشيئاً، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوصٍ في المعنى، ولأنه إذا نزل منجَّماً وهو يتحدى بكل نجمٍ فيعجزون عن معارضته زاد ذلك قوة قلبه، ولأنه إذا نزل به جبريل حالاً بعد حال يثبِّت به فؤاده؛ ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ٣٢﴾ وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تُؤَدةٍ وتمهُّل في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين.

(٣٣) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ سؤالٍ عجيبٍ كأنه مثلٌ في البطلان يريدون به القدح في نبوَّتك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الدامغ له في جوابه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ وبما هو أحسنُ بياناً أو معنى من سؤالهم. أو ولا يأتونك بحال عجيبة يقولون: هلّا كانت هذه حاله إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا، وما هو أحسن كشفاً لِما بُعثتَ له.

(٣٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: مقلوبين أو مسحوبين عليها. أو متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهّة وجوههم إليها. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف على الدواب، وصنف على الأقدام، وصنف على الوجوه» [رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ كأنَّه قيلَ: إن حاملهم على هذه الأسئلة تحقيرُ مكانه وتضليل سبيله، ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

(٣٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ يوازره في الدعوة وإعلاء الكلمة.

(٣٦) ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: فذهبا إليهم فكذبوهما فدمَّرناهم.

(٣٧) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ كذَّبوا نوحاً ومَنْ قبله. أو نوحاً وحده، ولكن تكذيب واحد من الرسل كتكذيب الكلِّ ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عبرة ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ (أي: هيَّأنا) ﴿لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ وهم قوم كان يعبدون الأصنام، فبعث الله تعالى إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه، فبينما هم حول الرَّسِّ ـ وهي البئر غيرُ المطويَّة ـ فانهارت، فخُسِفت بهم وبديارهم. وقيل: الرسُّ قرية عظيمة بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود، فبُعث إليهم نبي فقتلوه فهلكوا. وقيل: الأخدود ﴿وَقُرُونًا﴾ وأهلَ أعصارٍ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر ﴿كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ لا يعلمها إلا الله تعالى.

(٣٩) ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ بيَّنا له القصص العجيبة من قصص الأولين إنذاراً وإعذاراً، فلما أصَرُّوا أهلكوا، كما قال: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾ فتَّتناه تفتيتاً.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ يعني قريشاً، مَرُّوا مِراراً في متاجرهم إلى الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني سدوم – عظمى قرى قوم لوط – أُمطرت عليها الحجارة ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ في مِرار مُرورهم فيتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله تعالى؟ ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۝٤٠﴾ بل كانوا كفرة لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة، فلذلك لم ينظروا ولم يتعظوا، فمرُّوا بها كما مرَّت ركابهم.

(٤١) ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ ما يتخذونك إلا مهزوءاً به ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾.

(٤٢) ﴿إِن كَادَ﴾ إنه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ لَيصرفُنا عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة ما يُوردها مما يسبق إلى الذهن بأنها حُجَجٌ ومعجزات ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ثَبَتْنا عليها واستمسكنا بعبادتها ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ وفيه وعيدٌ ودلالة على أنه لا يهملهم وإن أمهلهم.

(٤٣) ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ بأن أطاعه وبنى عليه دينه، لا يَسمع حجَّةً ولا يُبصر دليلاً ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾ حفيظاً تمنعه عن الشرك والمعاصي وحالُهُ هذا؟

أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾

(٤٤) ﴿**أَمۡ تَحۡسَبُ**﴾ بل أتحسب ﴿**أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ**﴾ فتجدي لهم (أي: فتؤثِّر فيهم) الآيات أو الحجج، فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم. وهو أشدُّ مذمَّةً مما قبله حتى حقَّ بالإضراب عنه إليه. وتخصيصُ الأكثر لأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحقَّ وكابر استكباراً وخوفاً على الرئاسة ﴿**إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ**﴾ في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانَهم، وعدم تدبُّرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات ﴿**بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾**﴾ من الأنعام، لأنها تنقاد لمن يتعهَّدُها، وتميِّز من يُحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرُّها، وهؤلاء لا ينقادون لربِّهم، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضارِّ، ولأنها إن لم تَعْتَقِد حقاً ولم تكتسب خيراً لم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شراً، بخلاف هؤلاء، ولأن جهالتها لا تضرُّ بأحد، وجهالةُ هؤلاء تؤدي إلى هيج الفتن وصدِّ الناس عن الحق، ولأنها غيرُ متمكِّنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذمَّ، وهؤلاء مقصِّرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم.

(٤٥) ﴿**أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ**﴾ ألم تنظر إلى صنعه ﴿**كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ**﴾ كيف بَسَطه؟ أو ألم تنظر إلى الظلِّ كيف مدَّه ربُّكَ؟ ﴿**وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا**﴾ ثابتاً. أو غيرَ متقلِّص، بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد ﴿**ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾**﴾ فإنه لا يظهر للحس حتى تطلُعَ، فيقع ضوؤها على بعض الأجرام (أي: الأجسام) أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها.

(٤٦) ﴿**ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا**﴾ أي: أزلناه بإيقاع الشعاع موقعه ﴿**قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾**﴾ قليلاً قليلاً، حسبما ترتفع الشمس لتنتظم بذلك مصالح الكون، ويتحصل به ما لا يُحصى من منافع الخلق.

(٤٧) ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا**﴾ شبَّهَ ظلامه باللباس في ستره ﴿**وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا**﴾ راحةً للأبدان بقطع المشاغل ﴿**وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾**﴾ ذا نشور أي انتشار، ينتشر فيه الناس للمعاش. أو بعثٍ من النوم بعْثَ الأموات، فيكون إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور. وعن لقمان عليه السلام: يا بنيَّ كما تنام فتوقَظ كذلك تموت فتنشَر.

(٤٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا﴾ أي: مبشِّرات ﴿بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ يعني قُدَّام المطر ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ مطهِّراً، لقوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]. وهو اسم لما يُتَطَهَّرُ به. وتوصيف الماء به إشعارٌ بالنعمة فيه، وتتميمٌ للمنة فيما بعده، فإن الماء الطهور أهنأُ وأنفعُ مما خالطه ما يزيل طَهوريَّته، وتنبيهٌ على أن ظواهرهم لمّا كانت مما ينبغي أن يطهِّروها فبواطنُهم بذلك أولى.

(٤٩) ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا﴾ بالنبات ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ وإن مساق هذه الآيات كما هو للدلالة على عِظَمِ القدرة فهو لتعداد أنواع النعمة. والأنعامُ قُنيةُ الإنسان (أي: يقتنيها)، وعامَّةُ منافعهم وعِلْيَةُ معايشهم (أي: أرفعها) منوطةٌ بها، ولذلك قدَّم سَقيها على سَقيهم، كما قدَّم عليها إحياء الأرض، فإنه سبب لحياتها وتعيُّشِها. وأناسيّ هو جمع إنسيّ أو إنسان.

(٥٠) ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾ صرَّفنا هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب. أو المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابلٍ وطَلٍّ وغيرهما. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «ما عامٌ أمطرَ من عامٍ، ولكن الله تعالى قسم ذلك بين عباده على ما شاء، وتلا هذه الآية» [أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي]. أو في الأنهار والمنابع ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة وحقَّ النعمة في ذلك، ويقوموا بشكره. أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث (أي: الاعتبار) لها. أو جحودها بأن يقولوا مُطرنا بنَوْء كذا. ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء (أي: النجوم) كان كافراً، بخلاف من يرى أنها من خَلق الله تعالى، والأنواء وسائط وأمارات بجعله تعالى.

(٥١) ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾﴾ نبياً ينذر أهلها، فتُخفَّفُ عليك أعباءُ النبوَّة، لكن قَصَرْنَا الأمرَ عليك إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل، فَقَابِلْ ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق.

(٥٢) ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه. وهو تهييجٌ له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾﴾ لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف. أو لأن مخالفتهم ومعاداتهم فيما بين أظهرهم مع عتوِّهم وظهورهم. أو لأنه جهاد مع كل الكفرة لأنه مبعوث إلى كافة القرى.

(٥٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ خَلَّاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ قامعٌ للعطش من فرط عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ بليغُ الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا﴾ حاجزاً من قدرته ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾﴾ وتنافراً بليغاً، كأن كلاً منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوِّذ للمتعوَّذ منه. وقيل: حَدّاً محدوداً. وذلك كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها.

(٥٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ يعني الذي خمَّر به طينة آدم. أو جعله جزءاً من مادة البشر

لتجتمع وتسلس (أي: تسهل وتلين) وتقبل الأشكال والهيئات بسهولة، أو النطفة ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ﴾ أي: قسمَهُ قسمين: ذوي نَسَبٍ، أي ذكوراً يُنسَب إليهم، وذواتِ صِهر، أي: إناثاً يصاهَر بهنَّ (وتكون القرابة) ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ٥٤﴾ حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة، وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى.

(٥٥) ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ يعني الأصنام أو كلَّ ما عُبِدَ من دون الله تعالى، إذ ما من مخلوق يستقلُّ بالنفع والضرّ ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ٥٥﴾ يُظاهرُ (أي: يُعِين) الشيطان بالعداوة والشرك.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾

(٥٦) ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾**﴾ للمؤمنين والكافرين.

(٥٧) ﴿**قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ**﴾ على تبليغ الرسالة ﴿**مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ**﴾ إلا فِعْلَ مَن شاء ﴿**أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾**﴾ أن يتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة. فصوَّر ذلك بصورة الأجر، من حيث إنه مقصودٌ فعلُه، واستثناه منه قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة، حيث اعتدَّ بإنفاعك نفسَك بالتعرض للثواب والتخلص من العقاب أجراً وافياً مرضياً به مقصوراً عليه.

(٥٨) ﴿**وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ**﴾ في استكفاء شرورهم والإغناء عن أجورهم، فإنه الحقيق بأن يُتوكَّل عليه دون الأحياء الذين يموتون، فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكَّل عليهم ﴿**وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ**﴾ ونزِّهْهُ عن صفات النقصان، مُثْنياً عليه بأوصاف الكمال، طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على سوابغه (أي: إتمام نعمه) ﴿**وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ**﴾ ما ظهر منها وما بطن ﴿**خَبِيرًا ﴿٥٨﴾**﴾ مطَّلعاً. فلا عليك أن آمنوا أو كفروا.

(٥٩) ﴿**ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ**﴾ (أي: استوى أمره، أو استولى. وعن أصحابنا أنَّ الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف. والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه، منزَّهاً عن الاستقرار والتمكُّن). ولعل ذكره زيادةُ تقريرٍ لكونه حقيقاً بأن يُتوكَّل عليه من حيث إنه الخالق للكل والمتصرِّف فيه، وتحريض على الثبات والتأني في الأمر، فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعة نفاذ أمره في كل مُرادٍ خلقَ الأشياء على تؤدة (أي: تأنٍّ) وتدرُّجٍ (أقول: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: عروش جميع المظاهر بالاستيلاء التام والبسطة العامة؛ كما قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم) ﴿**ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾**﴾ فاسأل عما ذُكِرَ من الخلق والاستواء عالماً يخبرك بحقيقته وهو الله تعالى، أَوْ جبريل، أو مَنْ وجده في الكتب المتقدمة ليَصدُقَك فيه. وقيل: الضمير للرحمن، والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم.

(قال الإمام الصاوي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿**فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا**﴾ المعنى: اِسأل عنه خبيراً، عالماً

بصفاته يطلعك على ما خفي عليك؛ والخبير يختلف باختلاف السائل، فإن كان السائل النبيَّ عليه الصلاة والسلام فالخبير هو الله تعالى، وإن كان السائل أصحابه فالخبير النبي ﷺ، وإن كان السائل التابعين فالخبير الصحابة عن النبي ﷺ عن الله تبارك وتعالى، وهكذا، فآل الأمر إلى أن المشايخ العارفين يفيدون الطالب عن الله تعالى [حاشية الصاوي]).

(٦٠) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ**﴾ لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله. أو لأنهم ظنوا أنه أراد به غيره، ولذلك قالوا: ﴿**أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا**﴾ أي: للذي تأمرناه، يعني تأمرنا بسجوده، أو لأمرك لنا من غير عرفان ﴿**وَزَادَهُمْ**﴾ أي: الأمرُ بالسجود للرحمنِ ﴿**نُفُورًا۩ ٦٠**﴾ عن الإيمان.

(٦١) ﴿**تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا**﴾ يعني البروج الاثني عشر. سُمِّيت به - وهي القصور العالية - لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا**﴾ يعني الشمس ﴿**وَقَمَرًا مُّنِيرًا ٦١**﴾ مضيئاً بالليل.

(٦٢) ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً**﴾ أي: ذوي خِلفةٍ، يخلف كلٌّ منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يُعمَل فيه، أو بأن يعتقبا ﴿**لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ**﴾ أن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أن لا بدَّ له من صانع حكيم واجبِ الذات رحيم على العباد ﴿**أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ٦٢**﴾ أن يشكر الله تعالى على ما فيه من النعم. أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين، مَنْ فاتَهُ وِرْدُه في أحدهما تداركه في الآخر.

(٦٣) ﴿**وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ**﴾ وإضافتهم إلى الرَّحْمٰنِ للتخصيص والتفضيل. أو لأنهم الراسخون في عبادته ﴿**هَوْنًا**﴾ هيِّنين، أو مشياً هيِّناً. والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ٦٣**﴾ أي: سداداً من القول يَسْلَمون فيه من الإِيذاء والإِثم. والمراد به الإِغضاء (أي: السكوت) عن السفهاء (أي: الجُهَّال) وترك مقابلتهم في الكلام.

(٦٤) ﴿**وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ٦٤**﴾ في الصلاة. وتخصيص البيتوتة لأن العبادة بالليل أحمز (أشقُّ) وأبعد عن الرياء.

(٦٥) ﴿**وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥**﴾ لازماً. وهو إيذانٌ بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق وَجِلون (أي: خائفون) من العذاب، مبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم، لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم.

(٦٦) ﴿**إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٦٦**﴾ أي: بئست مستقراً.

(٦٧) ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ**﴾ لم يجاوِزوا حَدَّ الكرم ﴿**وَلَمْ يَقْتُرُواْ**﴾ ولم يضيِّقوا تضييق الشحيح (أي: البخيل) وقيل: الإِسراف هو الإِنفاق في المحارم، والتقتيرُ منعُ الواجب ﴿**وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ٦٧**﴾ وسَطاً وعدلاً.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

(٢٦) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ (٢٢٧)

(٦٨) ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ**﴾ أي: حرَّم قتلها ﴿**إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ**﴾ نفى عنهم أمَّهاتِ المعاصي بعد ما أثبت لهم أصول الطاعات، إظهاراً لكمال إيمانهم، وإشعاراً بأن الأجر المذكور موعودٌ للجامع بين ذلك، وتعريضاً للكفرة بأضداده، ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال: ﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾**﴾ جزاء إثم.

(٦٩) ﴿**يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾**﴾ وتضعيف العذاب مضاعفته لانضمام المعصية إليه.

(٧٠) ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبتَ مكانها لواحق طاعتهم. أو يبدِّل مَلَكَة المعصية في النفس بملكة الطاعة. وقيل: بأن يوفِّقه لأضداد ما سلف منه. أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثواباً ﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾**﴾ فلذلك يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات.

(أقول: ما رأينا مثل هذا الرب؛ فإذا أمضى الكافر طول عمره في الكفر ثم آمَنَ يَقبل منه ولا يضرب وجهه، وكذلك المؤمن إذا زنى وشرب الخمر ثم تاب يَقبل منه جل وعلا).

(٧١) ﴿**وَمَن تَابَ**﴾ عن المعاصي بتركها والندم عليها ﴿**وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ يتلافى به ما فرط. أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة ﴿**فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ**﴾ يرجع إلى الله تعالى بذلك ﴿**مَتَابًا ﴿٧١﴾**﴾ مرضياً عند الله تعالى، ماحياً للعقاب، محصِّلاً للثواب. أو يتوب متاباً إلى الله تعالى الذي يحبُّ التائبين (كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]). أو فإنه يرجع إلى الله تعالى وإلى ثوابه مرجعاً حسناً.

(٧٢) ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾ لا يقيمون الشهادة الباطلة. أو لا يحضرون محاضِر الكذب، فإن مشاهدة الباطل شَرِكَةٌ فيه ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ**﴾ ما يجب أن يُلقى ويُطرح ﴿**مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾**﴾ معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه. ومن ذلك الإِغضاء (أي: الإغماض) عن الفواحش، والصفح عن الذنوب، والكناية فيما يُستهجَن (أي: يُستقبَح) التصريح به.

(٧٣) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ بالوعظ أو القراءة ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾﴾ لم يقيموا عليها غير واعين لها ولا متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر، بل أكبُّوا عليها سامعين بآذان واعية، مبصرين بعيون راعية.

(٧٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة (أي: تحصيل) الفضائل، فإن المؤمن إذا شاركه أهله في طاعة الله تعالى سُرَّ بهم قلبُه، وقَرَّت بهم عينُه، لما يرى من مساعدتهم له في الدين، وتوقُّعِ لحوقهم به في الجنة ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ يقتدون بنا في أمر الدين، بإفاضة العلم والتوفيق للعمل.

(٧٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ أعلى مواضع الجنة. وقيل: هي من أسماء الجنة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على المشاقِّ من مضض (أي: تعب) الطاعات ورفض الشهوات وتحمُّل المجاهدات ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ دعاءً بالتعمير والسلامة، أي: يحييهم الملائكة ويسلمون عليهم. أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه. أو تبقيةً دائمة وسلامة من كل آفة.

(٧٦) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ لا يموتون فيها ولا يخرجون ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾﴾ (موضع قرار وإقامة [النسفي]).

(٧٧) ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ ما يصنع بكم، أو لا يَعتَدُّ بكم ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ لولا عبادتكم، فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة، وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء. وقيل: معناه ما يصنعُ بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ بما أخبرتكم به، حيث خالفتموه. وقيل: فقد قصَّرتم في العبادة ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾﴾ يكون جزاء التكذيب لازماً يحيق (أي: يحيط) بكم لا محالة. أو أثره لازماً بكم حتى يكبَّكم في النار.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الفرقان
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشعراء

مكيَّة إلا قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخرها، وهي مئتان وسبع وعشرون آية

(١-٢) ﴿طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝﴾ الظاهر إعجازُه وصحتُه. والإشارةُ إلى السورة أو القرآن.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتل نفسك ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ خيفةَ أن لا يؤمنوا.

(٤) ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ دلالةً مُلجئةً إلى الإيمان. أو بليَّة قاسرة (أي: قاهرة) عليه ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝﴾ منقادين.

(٥) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ موعظةٍ. أو طائفة من القرآن ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يوحيه إلى نبيِّه ﷺ ﴿مُحْدَثٍ﴾ مجدَّد إنزالُه بتكرير التذكير وتنويع التقرير ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝﴾ إلا جدَّدوا إعراضاً عنه وإصراراً على ما كانوا عليه.

(٦) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ أي: بالذكر بعد إعراضهم، وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أي: إذا مسَّهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝﴾ من أنه كان حقاً أم باطلاً، وكان حقيقاً بأن يصدَّق ويعظَّم قدرُه أو يكذَّب فيُستخفَّ أمرُه.

(٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أولم ينظروا إلى عجائبها ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿كَرِيمٍ ۝﴾ محمودٍ كثير المنفعة.

(٨) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف. أو في كل واحد ﴿لَءَايَةً﴾ على أن مُنبِتَها تامُّ القدرة والحكمة، سابغُ النعمة والرحمة جلَّ وعلا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ في علم الله تعالى وقضائه، فلذلك لا ينفعهم أمثال هذه الآيات العظام.

(٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ حيث أمهلهم. أو العزيزُ في انتقامه ممن كفر، الرحيمُ لمن تاب وآمن.

(١٠) ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ﴾ أي: بأن ائتِ ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبح أولادهم.

(١١) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ولعل الاقتصار على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك ﴿أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ استئناف أتبعه إرساله إليهم للإنذار تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه. وفيه مزيد من الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل مورده.

(١٢-١٣) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ رتَّب استدعاء ضمِّ أخيه إليه وإشراكه له في الأمر على الأمور الثلاثة: خوف التكذيب، وضيق القلب انفعالاً عنه، وازدياد الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق، لأنها إذا اجتمعت مَسَّتِ الحاجة إلى مُعينٍ يقوي قلبه، وينوب منابه متى تعتريه (أي: تَعرِض له) حبسته، حتى لا تختل دعوته ولا تنبتر (أي: ولا تنقطع) حجته. وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في تلقي الأمر، بل طلباً لما يكون معونةً على امتثاله وتمهيدَ عذره فيه.

(١٤) ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ أي: تبِعةُ ذنبٍ، والمراد قتل القبطي. وإنما سماه ذنباً على زعمهم ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ به قبل أداء الرسالة. وهو أيضاً ليس تعللاً، وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة، كما أن ذاك استمدادٌ واستظهار في أمر الدعوة. وقولُه:

(١٥) ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ﴾ إجابةٌ له إلى الطِّلبتين بوعده، لدفع بلائهم اللازم ردعه عن الخوف، وضمِّ أخيه إليه في الإرسال ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يعني موسى وهارون وفرعون ﴿مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ سامعون لما يجري بينكما وبينه فأُظهركُما عليه. مثَّل نفسَه تعالى بمن حَضَرَ (بعلمه لا بذاته) مجادلةَ قومٍ استماعاً له لما يجري بينهم، وترقباً لإمداد أوليائه منهم، مبالغةً في الوعد بالإعانة.

(١٦) ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ أفرد الرسول لأنه مصدر وُصف به مشترك بين المرسل والرسالة، أو لوحدة المرسل والمرسل به (قال النسفي رحمه الله تعالى: أي لاتِّحادهما واتِّفاقهما على شريعة واحدة كأنَّهما رسول واحد).

(١٧) ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي: خَلِّهِمْ ليذهبوا معنا إلى الشام.

(١٨) ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لموسى، بعد ما أتياه فقالا له ذلك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ في منازلنا ﴿وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ قيل: لبث فيهم ثلاثين سنة، ثم خرج إلى مدين عشر سنين، ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثين، ثم بقي بعد الغرق خمسين.

(١٩) ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني قتلتَ القبطي. وبَّخه به معظِّماً إياه بعد ما عدَّد عليه نعمته ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ بنعمتي، حتى عمدتَ إلى قتل خواصي.

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

(٢٠) ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: من الجاهلين، والمعنى: من الفاعلين فعلَ أولي الجهل والسفه. أو من الخاطئين، لأنه لم يتعمَّد قتله. أو من الذاهلين عما يؤول إليه الوكز، لأنه أراد به التأديب.

(٢١) ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ حكمة ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ ردَّ أولاً بذلك ما وبَّخه به قدحاً في نبوته، ثم كرَّ على ما عدَّ عليه من النعمة، ولم يصرِّح بردِّه لأنه كان صدقاً غير قادح في دعواه، بل نبَّه على أنه كان في الحقيقة نقمة، لكونه مسبَّباً عنها، فقال تعالى:

(٢٢) ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وتلك التربية نعمة تمنها عليَّ ظاهراً، وهي في الحقيقة تعبيدُك بني إسرائيل (أقول: أي جعلتهم خدماً لك ولقومك). وقصدُهم بذبح أبنائهم، فإنه السبب في وقوعي إليك وحصولي في تربيتك.

(٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ لمَّا سمع جواب ما طَعَنَه به ورأى أنه لم يَرْعَوِ (أي: لم يكفَّ) بذلك شَرَعَ في الاعتراض على دعواه، فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسِل.

(٢٤) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ عرَّفه بأظهر خواصه وآثاره ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إن كنتم موقنين الأشياء محقِّقين لها علمتم أن هذه الأجرام المحسوسة ممكنةٌ لتركُّبها وتعدُّدها وتغيُّر أحوالها، فلها مُبدئ واجبٌ لذاته، وذلك المُبدئ لا بد وأن يكون مَبدأً لسائر الممكنات.

(٢٥) ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ جوابه؟ سألتُهُ عن حقيقته وهو يذكر أفعاله، أو يزعم أنه رَبُّ السَّماواتِ وهي واجبة متحركة لذواتها.

(٢٦) ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ عُدولاً إلى ما لا يمكن أن يَتوهَّم فيه مثلُه ويُشكَّ في افتقاره إلى مصوِّرٍ حكيم، ويكون أقرب إلى الناظر وأوضح عند التأمل.

(٢٧) ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ أسْألُهُ عن شيء ويجيبني عن آخر. وسمّاه رسولاً على السخرية.

(٢٨) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ تشاهدون كل يوم أنه يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق، ويحرِّكها على مدارٍ غير مدار اليوم الذي قبله حتى يُبَلِّغها إلى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمور الكائنات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ٢٨﴾ إن كان لكم عقل علمتم أن لا جواب لكم فوق ذاك. لايَنَهُمْ أوّلاً (أي: عامَلهم باللين)، ثم لمّا رأى شدة شكيمتهم خاشَنَهُم وعارضهم بمثل مقالهم.

(٢٩) ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ٢٩﴾ عُدولاً إلى التهديد عن المحاجَّة بعد الانقطاع. وهكذا دَيْدَنُ المعاند المحجوج (أي: الذي قامت عليه الحجة).

(٣٠) ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ٣٠﴾ أي: أتفعل ذلك ولو جئتك بشيء يبيِّن صدق دعواي - يعني المعجزة - فإنها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته والدلالة على صدق مدَّعي نبوته.

(٣١) ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١﴾ في أن لك بيِّنة. أو في دعواك. فإن مدعي النبوة لا بُدَّ له من حجة.

(٣٢) ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢﴾ ظاهرٌ ثُعبانيَّتُه.

(٣٣) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾ روي أن فرعون لما رأى الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأخرَجَ يده، قال: فما فيها؟ فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسدُّ الأفق.

(٣٤) ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ فائقٌ في علم السحر.

(٣٥) ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٥﴾ بَهَرَهُ (أي: أدهشه وحيَّره) سلطان المعجزة حتى حطَّه عن دعوى الربوبية إلى مؤامرة القوم وائتمارهم وتنفيرهم عن موسى وإظهار الاستشعار بظهوره واستيلائه على ملكه.

(٣٦) ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخِّرْ أمْرَهُما ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ شُرَطاً يحشرون السحرة.

(٣٧) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ٣٧﴾ يَفضُلون عليه في هذا الفن.

(٣٨) ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٣٨﴾ لِما وُقِّتَ به من ساعات يوم معيَّن، وهو وقت الضحى من يوم الزينة.

(٣٩) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ٣٩﴾ فيه استبطاءٌ لهم في الاجتماع حثاً على مبادرتهم إليه.

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

(٤٠) ﴿**لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾**﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غَلبوا.

(٤١-٤٢) ﴿**فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾**﴾ التزم لهم الأجر والقربة عنده زيادةً عليه إن غَلبوا.

(٤٣) ﴿**قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾**﴾ أي: بعد ما قالوا له: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] ولم يُرِدْ به أمْرَهم بالسحر والتمويه (أي: الخداع)، بل الإِذنَ في تقديم ما هم فاعلوه لا محالة، توسُّلاً به إلى إظهار الحق.

(٤٤) ﴿**فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾**﴾ أقسموا بعزته على أن الغلبة لهم لفرط اعتقادهم في أنفسهم، أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر.

(٤٥) ﴿**فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ**﴾ تبتلع ﴿**مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾**﴾ ما يَقلِبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرهم، فيخيِّلون حبالهم وعصيَّهم أنها حيات تسعى.

(٤٦) ﴿**فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾**﴾ لِعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر.

(٤٧-٤٨) ﴿**قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾**﴾ وهو للتوضيح ودفع التوهُّم والإِشعارِ على أن الموجب لإيمانهم ما أجراه على أيديهما.

(٤٩) ﴿**قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ**﴾ فعلَّمَكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم، أو فَوادعكم (أي: صالحكم) على ذلك وتواطأتم عليه. وأراد به التلبيس على قومه كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهورِ حقٍّ ﴿**فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ وبالَ ما فعلتم ﴿**لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾**﴾ (هدَّدهم بالقتل والصلب تخويفاً لهم ليرجعوا وترهيباً للعامة لئلا يتَّبعوهم في الإيمان [المقتطف والنسفي]).

(٥٠) ﴿**قَالُواْ لَا ضَيْرَ**﴾ لا ضرر علينا في ذلك ﴿**إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾**﴾ بما تُوعِدُنا به، فإن الصبر عليه محَّاء للذنوب موجبٌ للثواب والقرب من الله تعالى. أو بسبب من أسباب الموت، والقتلُ أنفعُها وأرجاها.

(٥١) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ﴾ لأن كنا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ من أتباع فرعون، أو من أهل المشهد.

(٥٢) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ وذلك بعد سنين أقامها بين أظهرهم يدعوهم إلى الحق ويُظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتواً (أي: إنكاراً) وفساداً (أقول: ولذا فإن الإنسان إذا تجاوز عن حده بنفسه لا يمنعه إلا قتلٌ أو إهلاك أو إصلاح) ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾ يتبعكم فرعون وجنوده. أي: أَسْرِ بهم، حتى إذا اتَّبعوكم مصبحين كان لكم تقدُّمٌ عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر، بل يكونون على إثْرِكم حين تَلِجون (أي: تدخلون) البحر، فيدخلون مدخلكم، فأُطبقه عليهم فأغرقهم.

(٥٣) ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أُخبِر بسُراهم (أي: بذهابهم) ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾ العساكر ليتبعوهم.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ وإنما استقلَّهم - وكانوا ست مئة ألف وسبعين ألفاً - بالإضافة إلى جنوده، إذ روي أنه خرج وكانت مقدمته سبع مئة ألف. والشرذمة: الطائفة القليلة.

(٥٥) ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾ لفاعِلون ما يُغيظنا (أقول: أي فعلوا ما يغضبنا ويغيظنا).

(٥٦) ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ وإنا لجميعٌ من عادتنا الحذرُ واستعمالُ الحزم في الأمور. أشار أوَّلاً إلى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم، ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فرط عداوتهم ووجوب التيقظ في شأنهم حثاً عليه. أو اعتذرَ بذلك إلى أهل المدائن كي لا يُظَنَّ به ما يكسر سلطانه.

(٥٧) ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ بأن خلَقْنا داعيةَ الخروج بهذا السبب فحمَلَتْهم عليه ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧﴾.

(٥٨) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾ يعني: المنازل الحسنة والمجالس البهية.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجناهم ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ (عن الحسن رحمه الله تعالى: لمّا عبروا النهر رجعوا وأخذوا ديارهم وأموالهم [النسفي]).

(٦٠) ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

(٦١) ﴿**فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ**﴾ تقارَبا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر ﴿**قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾**﴾ لَمُلحَقون.

(٦٢) ﴿**قَالَ كَلَّآ**﴾ لن يُدرِكوكم، فإن الله وعدكم بالخلاص منهم ﴿**إِنَّ مَعِىَ رَبِّى**﴾ بالحفظ والنصرة ﴿**سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾**﴾ طريق النجاة منهم. روي أن مُؤمنَ آلِ فرعون كان بين يدي موسى عليه السلام فقال: أين أُمرتَ؟ فهذا البحر أمامك، وقد غشيك آل فرعون، فقال: أُمِرت بالبحر، ولعلي أؤمَر بما أصنع.

(٦٣) ﴿**فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ**﴾ بحر القلزم (وهو البحر الأحمر) ﴿**فَٱنفَلَقَ**﴾ أي: فضرب فانفلق، وصار اثني عشر فِرقاً بينها مسالك ﴿**فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾**﴾ كالجبل المنيف (أي: المرتفع) الثابت في مقرِّه، فدخلوا في شِعابها، كلّ سِبط في شِعْبٍ (والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب).

(٦٤) ﴿**وَأَزْلَفْنَا**﴾ وقرَّبنا ﴿**ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾**﴾ فرعون وقومه، حتى دخلوا على إثرهم مداخلَهم.

(٦٥) ﴿**وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾**﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عَبَروا.

(٦٦) ﴿**ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾**﴾ بإطباقه عليهم.

(٦٧) ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً**﴾ وأيَّةُ آيةٍ! ﴿**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾**﴾ وما تنبَّهَ عليها أكثرهم، إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقي في مصر من القبط. وبنو إسرائيل بعد ما نجَوا سألوا بقرة يعبدونها، واتخذوا العجل، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

(٦٨) ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ المنتقم من أعدائه ﴿**ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾**﴾ بأوليائه.

(٦٩) ﴿**وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ**﴾ على مشركي العرب ﴿**نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾**﴾ (أي: خبره [النسفي]).

(٧٠) ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾**﴾ سألَهم ليريَهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة.

(٧١) ﴿**قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾**﴾ فأطالوا جوابهم بشرح حالهم معه تبجُّحاً (أي: فَرحاً) به وافتخاراً. و«نظل» هٰهنا بمعنى ندوم.

(٧٢) ﴿**قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ**﴾ يسمعون دعاءكم؟ فحذفَ ذلك لدلالةِ ﴿**إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾**﴾ عليه.

(٧٣) ﴿**أَوْ يَنفَعُونَكُمْ**﴾ على عبادتكم لها ﴿**أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾**﴾ مَنْ أعرض عنها؟

(٧٤) ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾ أضربوا (أي: أعرضوا) عن أن يكون لهم سمع أو يُتوقع منهم ضرٌّ أو نفعٌ، والتجؤوا إلى التقليد.

(٧٥-٧٦) ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾ فإن التقدُّمَ لا يدلُّ على الصحة، ولا ينقلب به الباطل حقاً.

(٧٧) ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ يريدُ أنهم أعداء لعابديهم، من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوِّه. أو إن المغري بعبادتهم أعدى أعدائهم؛ وهو الشيطان. لكنه صوَّر الأمرَ في نفسه تعريضاً لهم، فإنه أنفعُ في النصح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه، ليكون أدعى إلى القبول ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾.

(٧٨) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ لأنه يهدي كل مخلوق لِما خلق له من أمور المعاش والمَعاد، كما قال: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣] هدايةً مدرَّجةً من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله، يتمكَّن بها من جلب المنافع ودفع المضارِّ.

(٧٩-٨٠) ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ عطفٌ على ﴿يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ لأنه من رَوَادِفهما من حيث إن الصحة والمرض في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب. وإنما لم ينسب المرض إليه تعالى لأن المقصود تعديدُ النعم، ولا ينتقض بإسناد الإماتة إليه، فإن الموت من حيث إنه لا يُحَسُّ به لا ضررَ فيه، وإنما الضرر في مقدماته؛ وهي المرض، ثم إنه لأهل الكمال وصْلةٌ إلى نيل المحابِّ التي تُستحقَر دونها الحياة الدنيوية، وخلاصٌ من أنواع المحن والبليات، ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدث بتفريطٍ من الإنسان في مطاعمه ومشاربه، وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر، والصحةُ إنما تحصل باستحفاظ اجتماعها والاعتدال المخصوص عليها قهراً، وذلك بقدرة الله العزيز العليم (أقول: من أخذ بقول الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] على الأغلب تدوم صحته بشرط أن لا يتجاوز الحدَّ في الأكل. وعلى المؤمن أن يأكل ويشرب ليتقوى على العبادة، لا أن يأكل بالشهوة، فهذا مخالف. ومن عمل بخلاف هذه الآية يحصل له المرض. لا تتجاوزوا عن حدِّ القرآن، فالذي حدَّ لنا أعلم بحالنا. كلْ بقدر الاحتياج لا بقدر الاشتهاء، وإلا تتضرر، إما حالياً أو مستقبلاً، ولا تلتفتوا إلى من ينقد عليكم).

(٨١) ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾ في الآخرة.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ ذَكَرَ ذلك هضماً لنفسه، وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر، وطلباً لأن يغفر لهم ما يفرط منهم، واستغفاراً لما عسى يندر منه من الصغائر.

(٨٣) ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣﴾ كمالاً في العلم والعمل أستعدُّ به لخلافة الحق ورئاسة الخلق ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ووفقني للكمال في العمل لأنتظم به في عِداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره.

وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾

(٨٤) ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ جاهاً وحُسْنَ صيتٍ في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين. ولذلك ما من أمة إلا وهم محبُّون له مُثنون عليه. أو صادقاً من ذريتي يجدِّد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه؛ وهو محمّد ﷺ.

(٨٥) ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ في الآخرة. وقد مرَّ معنى الوراثة (في سورة المؤمنون [آية: ١٠] حيث قال: يرثون من الكفار منازلَهم فيها حيث فوَّتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار).

(٨٦) ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ طريقَ الحق (أقول: اتفق أهل السنة أنه ليس والدَه بل هو عمه. وإذا أراد المؤمن أن يدعو على الكافر فلا بد أن يقيِّد بقوله: إذا مات على الكفر، وإذا أراد أن يدعو له فإنه يحوِّل أمره إلى الله تعالى).

(٨٧) ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ بمعاتبتي على ما فرَّطتُ. أو بنقص رتبتي عن رتبة بعض الورَّاث. أو بتعذيبي، لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلاً.

(٨٨ـ٨٩) ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾ أي: لا ينفعان أحداً إلا مخلِصاً سليم القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائر آفاته. أو لا ينفعان إلا مالُ من هذا شأنُه وبنوه، حيث أنفق ماله في سبيل البرِّ، وأرشدَ بنيه إلى الحق، وحثَّهم على الخير، وقَصَدَ بهم أن يكونوا عباد الله تعالى مطيعين شفعاء له يوم القيامة (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: القلب السليم هو الخالص من الذنوب وحب الدنيا، ويقال: سليم من بغض أصحاب النبي ﷺ [من تنوير المقباس من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما]) (أقول: لا بد للمؤمن أن يفتش نفسه، ويزنَ عمله بالشريعة والسنة النبوية، لأننا إذا متنا لا يبقى تفتيش ولا توبة ولا رجوع).

(٩٠) ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ بحيث يرونها من الموقف فيتبجحون (أي: يفرحون) بأنهم المحشورون إليها.

(٩١) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ فيرونها مكشوفة، ويتحسرون على أنهم المَسُوقون إليها.

(٩٢ـ٩٣) ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أين آلهتكم الذين تزعمون أنهم شفعاؤكم؟ ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ بدفعه عن أنفسهم؟ لأنهم وآلهتهم

يدخلون النار، كما قال تعالى:

(٩٤) ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝﴾ أي: الآلهةُ وعبَدتهم؛ والكبكبةُ: تكرير الكبِّ، كأن مَن ألقي في النار ينكبُّ مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝﴾ مُتَّبعوه من عُصاة الثقلين، أو شياطينه.

(٩٦-٩٧) ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾ على أن الله تعالى يُنطق الأصنامَ فتخاصم العبَدة.

(٩٨) ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ أي: في استحقاق العبادة. والمعنى: أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة متحسِّرون عليها.

(٩٩-١٠٠) ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء.

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝﴾ إذ ﴿الأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ممن نعدُّهم شفعاء وأصدقاء. أو وقعنا في مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق.

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ أي: لو أن لنا أن نكرَّ (أي: نرجع) فنكون من المؤمنين.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من قصة إبراهيم عليه السلام ﴿لَءَايَةً﴾ لَحجَّةً وعِظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر، فإنها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير، يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه، لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلائلها، وحسن دعوته للقوم، وحسن مخالقته معهم، وكمال إشفاقه عليهم، وتصور الأمر في نفسه، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً لهم، ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أكثر قومه ﴿مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ به.

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على تعجيل الانتقام ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحدٌ من ذريتهم.

(١٠٥) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ (والمراد بالمرسلين نوح عليه السلام، لأنه من كذَّب واحداً منهم فقد كذَّب الكلَّ [النسفي]).

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ لأنه كان منهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝﴾ اللهَ تعالى، فتتركوا عبادة غيره.

(١٠٧) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝﴾ مشهورٌ بالأمانة فيكم.

(١٠٨) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله سبحانه.

(١٠٩) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا عليه من الدعاء والنصح ﴿مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾.

(١١٠) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝﴾ كرَّره للتأكيد.

(١١١) ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝﴾ الأقلُّون جاهاً ومالاً. وهذا من سخافة عقلهم وقصور رأيهم على الحطام الدنيوية حتى جعلوا اتباع المقلِّين فيها مانعاًعن اتباعهم وإيمانهم بما يدعوهم إليه دليلاً على بطلانه.

قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

(١١٢) ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أنهم عملوه إخلاصاً أو طمعاً في طعمة، وما عليَّ إلا اعتبار الظاهر.

(١١٣) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ ما حسابهم على بواطنهم إلا على الله تعالى فإنه المطَّلع عليها ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ لَعَلِمتم ذلك، ولكنكم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون.

(١١٤) ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ جوابٌ لِما أَوْهَمَ قولُهم من استدعاء طردهم وتوقُّف إيمانهم عليه، حيث جعلوا اتباعهم المانع عنه.

(١١٥) ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ أي: ما أنا إلا رجل مبعوث لإنذار المكلَّفين عن الكفر والمعاصي، سواء كانوا أعزاء أو أذلاء، فكيف يليق بي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء!

(١١٦) ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عمَّا تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ من المشتومين. أو المضروبين بالحجارة.

(١١٧) ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ إظهاراً لما يدعو عليهم لأجله؛ وهو تكذيب الحق لا تخويفهم له واستخفافهم عليه.

(١١٨) ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ فاحكمْ بيني وبينهم ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ مِنْ قصْدِهم، أو شؤم عملهم.

(١١٩) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ أي: المملوء.

(١٢٠) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعدَ إنجائه ﴿ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ من قومه.

(١٢١) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ شاعت وتواترت ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

(١٢٢) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ (المنتقم بإهانة من جحد وأصرَّ) ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ (المنعم بإعانة من وحَّد وأقرَّ [النسفي]).

(١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ وهو في الأصل اسم أبيهم.

(١٢٤-١٢٧) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧﴾ تصديرُ القصص بها دلالةٌ على أن البعثة مقصورةٌ على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرِّب المدعوَّ إلى ثوابه ويبعده عن عقابه. وكان الأنبياء متَّفقين على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع، مبرَّئين عن المطامع الدنيئة والأغراض الدنيوية (أقول: أكثر بلاء المسلمين من الدنيا).

(١٢٨) ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ بكل مكان مرتفع ﴿ءَايَةً﴾ علَماً للمارَّة ﴿تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ ببنائها؟ إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها. أو قصوراً يفتخرون بها.

(١٢٩) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مآخذ الماء، وقيل: قصوراً مشيدة وحصوناً ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩﴾ فتُحكِمون بنيانها.

(١٣٠) ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم﴾ بسيف أو سوط ﴿بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ متسلِّطين غاشمين (أي: ظالمين)، بلا رأفةٍ ولا قصدِ تأديبٍ ونظرٍ في العاقبة (أقول: أي أعطاكم ربكم القوة المتفوقة حتى صرتم جبارين في الأرض، فإذا بطشتم بخصومكم بطشتم بقوة وعنف ظالمين).

(١٣١) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم.

(١٣٢) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢﴾ كرَّره مرتَّباً على إمداد الله إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلاً وتنبيهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد، والوعيدِ على تركه بالانقطاع.

(١٣٣-١٣٤) ﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤﴾ ثمَّ أوعدهم فقال:

(١٣٥) ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥﴾ في الدنيا والآخرة، فإنه كما قَدِرَ على الإنعام قَدِرَ على الانتقام.

(١٣٦) ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ فإنا لا نرعوي (لا نرجع ولا نرتدع) عما نحن عليه.

إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

(١٣٧) ﴿**إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾**﴾ أي: ما هذا الذي جئتَ به إلا عادةُ الأولين؛ كانوا يلفقون مثله. أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خُلُقُ الأولين وعادتهم، ونحن بهم مقتدون.

(١٣٨) ﴿**وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾**﴾ على ما نحن عليه.

(١٣٩) ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ**﴾ بسبب التكذيب بريح صَرْصَرٍ (أي: شديدة البرد) ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾**﴾.

(١٤٠ـ١٤٥) ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾**﴾ (هذه كلمة كلِّ رسول يذكِّر بها قومه بالغاية من بعثته ورسالته [المقتطف]).

(١٤٦) ﴿**أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾**﴾ إنكارٌ لأن يُتركوا كذلك. أو تذكيرٌ بالنعمة في تخلية الله تعالى إياهم وأسباب تنعُّمِهم آمنين. ثم فسره بقوله:

(١٤٧ـ١٤٨) ﴿**فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾**﴾ أي: لطيفٌ ليِّن، لِلُطف الثمر.

(١٤٩) ﴿**وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾**﴾ بَطِرين. أو حاذقين، من الفراهة: وهي النشاط، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب.

(١٥٠ـ١٥٢) ﴿**فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ وصفٌ موضِّحٌ لإسرافهم، ولذلك عَطَفَ ﴿**وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾**﴾ على يفسدون، دلالةً على خلوص فسادهم.

(١٥٣) ﴿**قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾**﴾ الذين سُحِروا كثيراً حتى غلب على عقلهم.

(١٥٤) ﴿**مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾**﴾ في دعواك.

(١٥٥) ﴿**قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ**﴾ أي: بعد ما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه كما اقترحوها ﴿**لَّهَا شِرۡبٞ**﴾ نصيب من الماء ﴿**وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾**﴾ فاقتصروا على شربكم ولا تزاحموها في شربها.

(١٥٦) ﴿**وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ**﴾ كضربٍ وعَقرٍ (أي: ذبحٍ) ﴿**فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾**﴾ عَظَّمَ اليوم لعِظَمِ ما يحلُّ فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب.

(١٥٧) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أسندَ العقر إلى كلهم لأن عاقرها إنما عقرها برضاهم، ولذلك أُخِذوا جميعاً ﴿فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ۝﴾ على عقرها، خوفاً من حلول العذاب لا توبة. أو عند معاينة العذاب، ولذلك لم ينفعهم.

(١٥٨ـ١٥٩) ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ﴾ أي: العذاب الموعود ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماءٌ بأنه لو آمن أكثرهم أو شطرُهم لما أُخِذوا بالعذاب، وأن قريشاً إنما عُصِموا من مثله ببركة مَنْ آمن منهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾.

كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

(١٦٠-١٦٤) ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾.

(١٦٥) ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ أي: أتأتون من بين من عَداكم من العالمين الذكرانَ لا يشارككم فيه غيركم. أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم وغلبة الإِناث فيهم كأنهنَّ قد أعوزنكم (أي: أحوجنكم).

(١٦٦) ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم﴾ لأجل استمتاعكم ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ وفيه تعريض بأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم أيضاً (نعوذ بالله) ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ متجاوزون عن حَدِّ الشهوة، حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات. أو مفرطون في المعاصي، وهذا من جملة ذاك. أو أحِقّاءُ بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمة.

(١٦٧) ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عما تدَّعيه، أو عن نهينا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ من المنفيِّين من بين أظهرنا. ولعلهم كانوا يُخرجون من أخرجوه على عنفٍ وسوءِ حالٍ.

(١٦٨) ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ من المبغضين غاية البغض، لا أقف عن الإِنكار عليه بالإِبعاد.

(١٦٩) ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: من شؤمه وعذابه.

(١٧٠) ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ أهل بيته والمتبِّعين له على دينه بإخراجهم من بينهم وقت حلول العذاب بهم.

(١٧١) ﴿إِلَّا عَجُوزٗا﴾ هي امرأة لوط ﴿فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ مقدَّرةً في الباقين في العذاب، إذ أصابها حجرٌ في الطريق فأهلكها، لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم. وقيل: كائنة فيمن بقي في القرية، فإنها لم تخرج مع لوط.

(١٧٢) ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أهلكناهم.

(١٧٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ قيل: أمطر الله تعالى على شذاذ القوم (أي: الخارجين منهم من بلادهم) حجارة فأهلكهم ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾.

(١٧٤ـ١٧٥) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

(١٧٦) ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ الأيكة: غيضةٌ (أي: أرض) تُنبِت ناعم الشجر. يريد غيضة بقرب مدين، تسكنها طائفة، فبعث الله تعالى إليهم شعيباً عليه السلام كما بعثه إلى مدين، وكان أجنبياً منهم، فلذلك قال تعالى:

(١٧٧) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ ولم يقل: أخوهم شعيب. وقيل: الأيكة شجر ملتفٌّ، وكان شجرهم الدوم وهو المقلُّ (والدوم شجر ذو ألياف، وثمره المقل).

(١٧٨ـ١٨٠) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

(١٨١) ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أتمُّوه ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ حقوق الناس بالتطفيف.

(١٨٢) ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ بالميزان السوي.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا شيئاً من حقوقهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق.

وَاتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

(١٨٤) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ وذوي الجبلة الأولين؛ يعني مَنْ تقدَّمهم من الخلائق.

(١٨٥) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ (أي: المسحورين [المقتطف]).

(١٨٦) ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ في دعواك.

(١٨٧) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قطعةً منها ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ في دعواك.

(١٨٨) ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ وبعذابه المنزل عليكم مما أوجبَه لكم عليه في وقته المقدَّر له لا محالة.

(١٨٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ على نحو ما اقترحوا، بأن سلَّط الله تعالى عليهم الحرَّ سبعة أيام، حتى غلت أنهارهم، وأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ (أي: علامة) ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

(١٩١) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ هذا آخر القصص السبع (أقول: وهي قصة موسى ونوح وإبراهيم وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام) المذكورة على سبيل الاختصار تسليةً لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به. واطرادُ نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به، واقتراحِهم له استهزاءً وعدمَ مبالاة به يَدفعُ أن يقال: إنه كان بسبب اتصالات فلكية، أو كان ابتلاء لهم، لا مؤاخذةً على تكذيبهم.

(١٩٢-١٩٤) ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ تقريرٌ لحقيَّة تلك القصص، وتنبيهٌ على إعجاز القرآن ونبوةِ محمّد ﷺ، فإن الإخبار عنها ممن لم يتعلَّمها لا يكون إلا وحياً من الله عز وجل. والرُّوحُ الأَمِينُ: جبريل عليه السلام، فإنه أمين الله تعالى على وحيه (أقول: والقلب هو القلب الرباني، لأن القلب قلبان: قلب جسماني صنوبري، وقلبي رباني) ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ عمّا يؤدي إلى عذابٍ مِنْ فعلٍ أو تركٍ.

(١٩٥) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ واضحِ المعنى، لئلا يقولوا: ما نصنع بما لا نفهمه؟

(١٩٦) ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ وإنَّ ذكره أو معناه لفي الكتب المتقدمة (والزبر: الصحف أو الكتب).

(١٩٧) ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ على صحة القرآن أو نبوة محمد ﷺ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ أن يعرفوه بنعته المذكور في كتبهم؟ وهو تقرير لكونه دليلاً.

(١٩٨) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ كما هو، زيادةً في إعجازه. أو بلغة العجم.

(١٩٩) ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ لفرط عنادهم واستكبارهم. أو لعدم فهمهم واستنكافهم (أي: امتناعهم) من اتباع العجم.

(٢٠٠) ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أدخلناه ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ والضمير للكفر المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فتدل الآية على أنه بخلق الله تعالى. وقيل: للقرآن، أي أدخلناه فيها فعرفوا معانيه وإعجازه، ثم لم يؤمنوا به عناداً.

(٢٠١) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ المُلجئ إلى الإيمان.

(٢٠٢) ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ بإتيانه.

(٢٠٣) ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ تحسُّراً وتأسُّفاً.

(٢٠٤) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ فيقولون: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾ [الأعراف: ٧٠]، وحالهم عند نزول العذاب طلبُ النظرة (أي: الإمهال).

(٢٠٥-٢٠٦) ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ (من العذاب).

مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

٢٧ سُورَةُ النَّمۡلِ ٩٣

(٢٠٧) ﴿**مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾**﴾ لم يغنِ عنهم تمتُّعُهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه.

(٢٠٨) ﴿**وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾**﴾ أنذروا أهلها إلزاماً للحجة.

(٢٠٩) ﴿**ذِكۡرَىٰ**﴾ تذكرة، أو بجعلهم ذكرى لإمعانهم في التذكرة ﴿**وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾**﴾ فنهلك غير الظالمين، أو قبل الإنذار.

(٢١٠) ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾**﴾ كما زعم المشركون أنه من قبيل ما يلقي الشياطين على الكهنة.

(٢١١) ﴿**وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ**﴾ وما يصح لهم أن يتنزلوا به ﴿**وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾**﴾ وما يقدرون.

(٢١٢) ﴿**إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ**﴾ لكلام الملائكة ﴿**لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾**﴾ لأنه مشروط بمشاركة في صفاء الذات، وقبول فيضان الحق، والانتقاش (أي: الاتِّسام) بالصور الملكوتية، ونفوسُهم خبيثةٌ ظلمانيةٌ شِريرةٌ بالذات، لا تقبل ذلك. والقرآن مشتملٌ على حقائق ومغيَّبات لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة (بالوحي الإلهي).

(٢١٣) ﴿**فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾**﴾ تهييجٌ لازدياد الإخلاص، ولطفٌ لسائر المكلَّفين.

(٢١٤) ﴿**وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾**﴾ الأقرب منهم فالأقرب، فإن الاهتمام بشأنهم أهمُّ.

روي أنه لما نزلت صعد النبي ﷺ الصفا، وناداهم فخذاً فخذاً (أي: فرع من العشيرة) حتى اجتمعوا إليه، فقال: «لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقيَّ؟» قالوا: نعم، قال: «فإني نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عذاب شديد» [الحديث أصله في البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى].

(٢١٥) ﴿**وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾**﴾ ليّن جانبك لهم. مستعارٌ من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحطَّ.

(٢١٦) ﴿**فَإِنۡ عَصَوۡكَ**﴾ ولم يتبعوك ﴿**فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾**﴾ أي: مما تعملونه، أو من أعمالكم.

(٢١٧) ﴿**وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾**﴾ الذي يَقدِر على قهر أعدائه ونصر أوليائه، يكفِكَ شرَّ من يعصيك منهم ومن غيرهم.

(٢١٨) ﴿**ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾**﴾ إلى التهجُّد.

(٢١٩) ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ وتردُّدَك في تصفُّح أحوال المجتهدين.

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ بما تنويه.

(٢٢١-٢٢٢) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ لمّا بيَّن أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطين أكَّد ذلك بأنْ بيَّن أن محمّداً ﷺ لا يصحُّ أن يتنزلوا عليه من وجهين: أحدهما: أنه إنما يكون على شرِّير كذاب كثير الإِثم، فإن اتصال الإِنسان بالغائبات لما بينهما من التناسب والتوادِّ، وحالُ محمّد ﷺ على خلاف ذلك. وثانيهما: قوله تعالى:

(٢٢٣) ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ أي: الأفَّاكون يلقون السمع إلى الشياطين، فيتلقون منهم ظنوناً وأمارات لنقصان علمهم، فيضمُّون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها، كما جاء في الحديث: «الكلمة يخطفها الجنيُّ فيقرّها في أذن وليّه فيزيد فيها أكثر من مئة كذبة» [الحديث رواه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. ولا كذلك محمَّد ﷺ، فإنه أخبرَ عن مغيبات كثيرة لا تحصى وقد طابق كلها. وقيل: الضمائر للشياطين، أي: يُلقون السمع إلى الملأ الأعلى قبل أن يُرجموا، فيَختطفون منهم بعض المغيَّبات ويوحون بها إلى أوليائهم. أو يلقون مسموعهم منهم إلى أوليائهم، وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم، إذ يسمعونهم لا على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم، أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم.

(٢٢٤) ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ (الضالُّون) وأتباع محمَّد ﷺ ليسوا كذلك.

(٢٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها، وأغلب كلماتهم في الغزَل وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والوعد الكاذب والافتخار الباطل ومدح من لا يستحقه والإطراء فيه. وإليه أشار بقوله تعالى:

(٢٢٦) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ فكأنه لمّا كان إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى، وقد قَدَحوا في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء، تكلَّمَ في القسمين، وبيَّن منافاة القرآن لهما، ومضادَّة حال الرسول ﷺ لحال أربابهما.

(٢٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ استثناءٌ للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله تعالى ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته، ولو قالوا هجواً أرادوا به الانتصار ممن هجاهم ومكافحة هجاة المسلمين؛ كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكعبين (كعب بن مالك وكعب بن زهير) رضي الله تعالى عنهم. وكان عليه الصلاة والسلام يقول لحسان: «قل وروحُ القدس معك» [رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] وعن كعب بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام قال له: «اهجُهُمْ فوالّذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى بلفظ قريب] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ تهديدٌ شديد، لِما في «سيعلم» من الوعيد البليغ وفي ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ من الإطلاق والتعميم وفي ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أي: بعد الموت من الإيهام والتهويل.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الشعراء

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة النمل

مكيَّة، وهي ثلاث وتسعون آية

(١) ﴿**طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١**﴾ الإشارة إلى آي السورة. والكتابُ المبين: إما اللوح المحفوظ؛ وإبانتُه (أي: معنى كونه مبيناً) أنه خُطَّ فيه ما هو كائن، فهو يبينه للناظرين فيه. أو هو القرآن؛ وإبانته لِما أُودِع فيه من الحِكم والأحكام، أو لصحته بإعجازه.

(٢) ﴿**هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢**﴾ (أي: تلك آيات هادية من الضلالة، ومبشِّرة بالجنة. وقيل: هدًى لجميع الخلق، وبشرى للمؤمنين خاصة [النسفي]).

(٣) ﴿**ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾ الذين يعملون الصالحات من الصلاة والزكاة ﴿**وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣**﴾ كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، لأن تحمل المشاقِّ إنما يكون لخوف العاقبة والوثوق على المحاسبة.

(٤) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ**﴾ زيَّن لهم أعمالهم القبيحة بأن جعلها مشتهاة للطبع (البشري) محبوبة للنفس (الأمارة)، أو زيَّن لهم الأعمال الحسنة التي وجب عليهم أن يعملوها بترتيب المثوبات عليها ﴿**فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤**﴾ عنها. أي: لا يدركون ما يتبعها من ضرٍّ أو نفع.

(٥) ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ**﴾ كالقتل والأسر يوم بدر ﴿**وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥**﴾ أشدُّ الناس خسراناً، لفوات المثوبة واستحقاق العقوبة.

(٦) ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ**﴾ لتُؤتاه ﴿**مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ أيّ حكيم وأيّ عليم. والجمع بينهما مع أن العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل والإشعار بأن علوم القرآن منها ما هي حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والإخبار عن المغيَّبات، ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم بقوله تعالى:

(٧) ﴿**إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ**﴾ أي: اذكر قصته إذْ قالَ لأهله: ﴿**إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ**﴾ (أي: أبصرتُ) ﴿**نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ**﴾ أي: عن حال الطريق، لأنه قد ضله ﴿**أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ**﴾ شُعلة نار مقبوسة (أي: مأخوذة) ﴿**لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧**﴾ رجاءَ أن تستدفئوا بها. والصِّلاء: النارُ العظيمة.

(٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ﴾ أي: بُورِكَ ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ مَنْ في مكان النَّارِ؛ وهو البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مكانُه. والظاهرُ أنه عامٌّ في كل مَنْ في تلك البقعة وحواليها من أرض الشام الموسومة (أي: المميزة) بالبركات لكونها مبعثَ الأنبياء وكفاتَهم (أي: ما يضمُّهم ويجمعُهم) أحياء وأمواتاً، وخصوصاً تلك البقعة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام. وقيل: المراد موسى عليه السلام والملائكة الحاضرون. وتصدير الخطاب بذلك بشارةٌ بأنه قد قُضي له أمرٌ عظيم تنتشر بركته في أقطار الشام ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾ مِن تمام ما نوديَ به، لئلا يَتوهَّم من سماع كلامه تشبيهاً، وللتعجيب من عظمة ذلك الأمر. أو هو تعجُّبٌ من موسى عليه السلام لما دهاه (أي: أصابه) من عظمته.

(٩) ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ صفتان لله تعالى. يريد أنا القوي القادر على ما يَبعُد عن الأوهام؛ كقلب العصا حية، الفاعلُ كلَّ ما أفعله بحكمة وتدبير.

(١٠) ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على بورك. أي: نودي أن بورك من في النار وأن ألقِ عصاك ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك باضطراب ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حيَّة خفيفة سريعة ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجع. وإنما رَعَب لظنه أن ذلك الأمر أريد به. ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي: من غيري، ثقةً بي. أو مطلقاً، لقوله: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ حين يوحى إليهم من فرط الاستغراق، فإنهم أخوف الناس من الله تعالى. أو لا يكون لهم عندي سوءُ عاقبة فيخافون منه.

(١١) ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾ استدرَكَ به ما يختلج في الصدر من نفي الخوف عن كلهم، وفيهم من فَرَطتْ منه صغيرة. فإنهم وإنْ فعلوها أتبعوا فعلها ما يُبطلها، ويستحقُّون به من الله تعالى مغفرة ورحمة، فإنه لا يخاف أيضاً. وقَصَدَ تعريض موسى بوكزه القبطي.

(١٢) ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ لأنه كان مدرعةَ صوفٍ لا كُمَّ لها (والمدرعة: ما يُلبَس بدل الدرع). وقيل: الجيبَ: القميص، لأنه يجاب، أي: يُقطَع ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ آفةٍ كبرَص ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ في جملتها أو معها. على أن التسع هي: الفلق (أي: فلق البحر)، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، والطمسة (وهي دعاؤه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] فجعل الله تعالى أموالهم حجارة)، والجدب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم. ولمن عَدَّ العصا واليد من التسع أن يَعُدَّ الأخيرين واحداً ولا يعدَّ الفلق، لأنه لم يُبعث به إلى فرعون ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾ تعليل للإرسال.

(١٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ بأن جاءهم موسى بها ﴿مُبْصِرَةً﴾ بيِّنةً ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضحٌ سحريَّتُه.

وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

(١٤) ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ وكذَّبوا بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ لأنفسهم ﴿وَعُلُوًّاۚ﴾ ترفُّعاً عن الإيمان ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ وهو الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة.

(١٥) ﴿ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ﴾ طائفةً من العلم؛ وهو علم الحكم والشرائع. أو علماً: أيَّ علمٍ ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كأنه قال: ففعَلا شكراً له ما فعَلا، وقالا: الحمدُ للهِ ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ يعني مَنْ لم يؤتَ علماً. أو مثل علمهما. وفيه دليل على فضل العلم وشرف أهله، حيث شَكَرا على العلم وجعلاه أساس الفضل، ولم يَعتبرا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤت غيرهما، وتحريضٌ للعالِم على أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله، وأن يتواضع ويعتقد أنه وإن فُضِّل على كثيرٍ فقد فُضِّلَ عليه كثيرٌ.

(١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ النبوَّة أو العلم أو الملك؛ بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيه، وكانوا تسعة عشر ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى، وتنويهاً بها، ودعاءً للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير، وغير ذلك من عظائم ما أوتيه. ولعل سليمان عليه الصلاة والسلام مهما سمع صوت حيوان علم بقوَّته الحدسية التخيل الذي صوَّته والغرض الذي توخَّاه (أي: قصده) به ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ الذي لا يخفى على أحد.

(١٧) ﴿وَحُشِرَ﴾ وجمع ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ يُحبسون، بحبس أوَّلهم على آخرهم ليتلاحقوا.

(١٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ وادٍ بالشام كثير النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ (التاء تاء الوحدة وليست تاء التأنيث) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ كأنها لما رأتهم متوجِّهين إلى الوادي فرَّت عنهم مخافة حطمهم، فتبِعَها غيرُها، فصاحت صيحةً نبَّهت بها ما بحضرتها من النمال فتبعتها. فشبَّه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم، ولذلك أُجْرُوا مجراهم، مع أنه لا يمتنع أنْ خَلَقَ الله سبحانه وتعالى فيها العقل والنطق ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهيٌ لهم عن الحطم (أي: الكسر)، والمراد نهيُها عن التوقف

بحيث يحطمونها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨﴾ أنهم يحطمونكم، إذ لو شعروا لم يفعلوا. كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الظلم والإِيذاء.

(١٩) ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تعجُّباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها، أو سروراً بما خصَّه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم غرضها، ولذلك سأل توفيق شكره ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ اجعلني أزَعُ شكرَ نعمتك عندي؛ أي: أكفُّه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أدْرَجَ فيه ذكر والديه تكثيراً للنعمة أو تعميماً لها، فإن النعمة عليهما نعمةٌ عليه، والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما سيَّما الدينية ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ إتماماً للشكر واستدامةً للنعمة. ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ في عِدادِهم الجنة.

(٢٠) ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ وتعرَّف الطير، فلم يجد فيها الهدهد ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾ كأنه لمّا لم يرَهُ ظنَّ أنه حاضر ولا يراه لساتر أو غيره، فقال: ما لي لا أراه؟ ثم احتاط فلاحَ له أنه غائب، فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاحَ له.

(٢١) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كنتْفِ ريشه وإلقائه في الشمس أو حيث النمل يأكله. أو جعْله مع ضدِّه في قفص ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾ بحجَّةٍ تبيِّن عذره.

(٢٢) ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ زماناً غير مديد. يريد به الدلالة على سرعة رجوعه خوفاً منه ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يعني حالَ سبأ. وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيهٌ له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به، لتتحاقر إليه نفسُه، ويتصاغر لديه علمه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ بخبر محقَّق.

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾

(٢٣) ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ**﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل ﴿**وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ**﴾ يحتاج إليه الملوك ﴿**وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾**﴾ عظمه بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها. وقيل: كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عرضاً وسمكاً، أو ثمانين في ثمانين، من ذهب وفضة مكلَّلا بالجواهر.

(٢٤) ﴿**وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ كأنهم كانوا يعبدونها ﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ**﴾ عبادةَ الشمس وغيرَها من مقابح أعمالهم ﴿**فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ**﴾ عن سبيل الحق والصواب ﴿**فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾**﴾ إليه.

(٢٥) ﴿**أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ**﴾ فصدَّهم لئلا يسجدوا. أو زيَّن لهم أن لا يسجدوا لله تعالى ﴿**ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾**﴾ وصفٌ له تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود؛ من التفرُّد بكمال القدرة والعلم، حثاً على سجوده ورداً على من يسجد لغيره. والخَبْء: ما خفي في غيره، وإخراجُه: إظهاره. وهو يعمُّ إشراق الكواكب وإنزال الأمطار وإنبات النبات، بل الإنشاء، فإنه إخراج ما في الشيء بالقوة إلى الفعل والإبداع، فإنه إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود، ومعلوم أنه يختصُّ بالواجب لذاته.

(٢٦) ﴿**ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾**﴾ الذي هو أوَّلُ الأجرام وأعظمها والمحيط بجملتها. فبيْنَ العظيمين بونٌ عظيم (أي: قياس بعيد بين عرش بلقيس وعرش الرب جل وعلا).

(٢٧) ﴿**قَالَ سَنَنظُرُ**﴾ سنتعرَّف، من النظر بمعنى التأمل ﴿**أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾**﴾ أي: أم كذبت.

(٢٨) ﴿**ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ**﴾ ثم تنحَّ عنهم إلى مكان قريب تتوارى (أي: تستتر) فيه ﴿**فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾**﴾ ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

(٢٩) ﴿**قَالَتۡ**﴾ أي: بعد ما ألقي إليها ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾**﴾ لكرم مضمونه أو مرسِله. أو لأنه كان مختوماً. أو لغرابة شأنه؛ إذ كانت مستلقية في بيت مغلقة الأبواب فدخل الهدهد من كوَّة وألقاه على نحرِها بحيث لم تشعر به.

(٣٠) ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ كأنه قيل لها: ممن هو؟ وما هو؟ فقالت: إنه أي: الكتاب أو العنوان من سليمان ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: وإن المكتوب أو المضمون ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾.

(٣١) ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ المقصودُ أن لا تعلوا ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ مؤمنين أو منقادين. وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود، لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الصانع تعالى وصفاته صريحاً أو التزاماً، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل، والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل، وليس الأمر فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاء للتقليد، فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالات.

(٣٢) ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ أجيبوني في أمري الفتي (أي: الحادث عما قريب)، واذكروا ما تستصوبون فيه ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا﴾ ما أَبُتُّ أمراً ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢﴾ إلا بمحضركم. استعطفتهم بذلك ليمالِئوها (أي: ليعاونوها) على الإجابة.

(٣٣) ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ﴾ بالأجساد والعدد ﴿وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ نجدةٍ وشجاعةٍ ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾ موكول ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾ من المقاتلة أو الصلح، نطعْك ونتبعْ رأيك.

(٣٤) ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً﴾ (أي: بلداً) عنوةً (أي: قسراً) وغلبةً ﴿أَفۡسَدُوهَا﴾ تزييفٌ لما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القوى الذاتية والعرضية، وإشعارٌ بأنها ترى الصلح مخافة أن يتخطى سليمان خططهم فيسرع إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعماراتهم، ثم إن الحرب سجال لا تُدرى عاقبتها ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم إلى غير ذلك من الإهانة والأسر ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾ تأكيدٌ لما وصفت من حالهم، وتقريرٌ بأن ذلك من عاداتهم الثابتة المستمرة. أو تصديقٌ لها من الله عز وجل.

(٣٥) ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ بيان لما ترى تقديمه للمصالحة. والمعنى: إني مرسلة رسلاً بهدية أدفعه بها عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾ من حاله، حتى أعمل بحسب ذلك. روي أنها بعثت منذر بن عمرو في وفدٍ وأرسلت معهم غلماناً على زيِّ الجواري وجواري على زيِّ الغلمان، وحُقاً (أي: إناء صغير من خزف أو زجاج) فيه درَّةٌ عذراء (أي: لم تُثقب) وجزعة (أي: خرزة) معوجة الثقب، وقالت: إن كان نبياً ميَّز بين الغلمان والجواري، وثقبَ الدرة ثقباً مستوياً، وسلك في الخرزة خيطاً. فلما وصلوا إلى معسكره ورأوا عظمة شأنه تقاصرت إليهم نفوسهم، فلما وقفوا بين يديه وقد سبقهم جبريل بالحال فطلب الحُقَّ وأَخْبَرَ عما فيه، فأمر الأَرَضة (وهي حشرة بيضاء تأكل الخشب ونحوه) فأخذت شعرة ونفَذت في الدرة، وأمر دودة بيضاء فأخذت الخيط ونفَذت في الجزعة، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم ردَّ الهدية.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: الرسولُ. أو ما أهدت إليه ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ خطابٌ للرسول ومن معه. أو للرسول والمرسَل على تغليب المخاطَب ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوة والملك الذي لا مزيد عليه ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ﴾ فلا حاجة لي إلى هديتكم ولا وَقْعَ (أي: لا قيمة) لها عندي ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فتفرحون بما يُهدى إليكم حباً لزيادة أموالكم. أو بما تُهدُونه افتخاراً على أمثالكم.

(٣٧) ﴿ٱرۡجِعۡ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ إلى بلقيس وقومها ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقة لهم بمقاومتها، ولا قدرة لهم على مقاتلتها ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾ من سبأ ﴿أَذِلَّةٗ﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العزِّ ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أسرى مهانون.

(٣٨) ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾ أراد بذلك أن يريها بعض ما خصَّه الله تعالى به من العجائب الدالة على عِظَم القدرة وصدقه في دعوى النبوة، ويختبر عقلها بأن ينكِّر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره؟ ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ فإنها إذا أتت مسلمة لم يحلَّ أخذه إلا برضاها.

(٣٩) ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ﴾ ماردٌ ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وكان اسمه ذكوان أو صخراً ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ مجلسِك للحكومة، وكان يجلس إلى نصف النهار ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ﴾ على حَمْله ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾﴾ لا أختزل منه شيئاً ولا أبدِّله.

(٤٠) ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ آصف بن برخيا وزيرُه ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ والمعنى أنك ترسل طرفك نحو شيء فقبل أن تردَّه أُحضِر عرشها بين يديك. وهذا غايةٌ في الإِسراع ومثلٌ فيه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ رأى العرش ﴿مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ حاصلاً بين يديه ﴿قَالَ﴾ تلقِّياً للنعمة بالشكر على شاكلة المخلصين من عباد الله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ تفضَّل به عليَّ من غير استحقاق. والإِشارةُ إلى التمكُّن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ﴾ بأن أراه فضلاً من الله تعالى بلا حول مني ولا قوة وأقوم بحقه ﴿أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ أو أقصِّر في أداء مواجبه؟ ﴿وَمَن

شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ﴾ لأنه به يستجلب لها دوام النعمة ومزيدها، ويحط عنها عبء الواجب، ويحفظها عن وصمة الكفران ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ بالإنعام عليه ثانياً.

(٤١) ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ بتغيير هيئته وشكله ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١﴾ إلى معرفته. أو إلى الجواب الصواب. وقيل: إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام إذا رأت تقدُّم عرشها وقد خلَّفته مغلقةً عليه الأبواب موكَّلةً عليه الحُرَّاسَ.

(٤٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ﴾ تشبيهاً عليها، زيادةً في امتحان عقلها، إذ ذُكرت عنده بسخافة العقل ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ ولم تقل هو هو لاحتمال أن يكون مثله، وذلك من كمال عقلها ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢﴾ من تتمة كلامها. كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها، فقالت: وأوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوَّتك قبل هذه الحالة أو المعجزة مما تقدَّم من الآيات. وقيل: إنه من كلام سليمان عليه الصلاة والسلام وقومه، وعطفوه على جوابها لما فيه من الدلالة على إيمانها بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، حيث جوَّزت أن يكون ذلك عرشها تجويزا غالباً، وإحضاره ثمة (أي: هناك) من المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله تعالى ولا تظهر إلا على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. أي: وأوتينا العلم بالله تعالى وقدرته وصحة ما جاء من عنده قبلها، وكنا منقادين لحكمه ولم نزل على دينه. ويكون غرضُهم فيه التحدثَ بما أنعم الله تعالى عليهم من التقدم في ذلك شكراً لله تعالى.

(٤٣) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: وصدَّها عبادتها الشمس عن التقدم إلى الإِسلام. أو وصدها الله تعالى عن عبادتها بالتوفيق للإِيمان ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ أي: صدَّها نشؤها بين أظهر الكفار.

(٤٤) ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ﴾ أي: القصر ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ﴾ روي أنه أمَرَ قبل قدومها ببناء قصرٍ صحنُه من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه حيوانات البحر، ووضع سريره في صدره فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقيها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ﴾ إن ما تظنينه ماء ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مُمَلَّس ﴿مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ من الزجاج ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادتي الشمس. وقيل: بظني بسليمان عليه السلام، فإنها حسبت أنه يغرقها في اللجة ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٤﴾ فيما أمَرَ به عباده. وقد اختُلف في أنه تزوَّجها أو زوَّجها من ذي تبَّع ملك همدان.

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾

(٤٥) ﴿**وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ**﴾ بأن اعبدوا الله تعالى ﴿**فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾**﴾ ففاجؤوا التفرق والاختصام، فآمن فريق وكفر فريق.

(٤٦) ﴿**قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ**﴾ بالعقوبة، فتقولون: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٧] ﴿**قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ**﴾ قبل التوبة، فتؤخِّرونها إلى نزول العقاب؟ فإنهم كانوا يقولون: إن صَدَقَ إيعادُه تُبْنا حينئذ ﴿**لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ**﴾ قبل نزوله ﴿**لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾**﴾ بقبولها، فإنها لا تقبل حينئذ.

(٤٧) ﴿**قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا**﴾ تشاءمنا ﴿**بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ**﴾ إذ تتابعَتْ علينا الشدائد ووقَعَ بيننا الافتراق منذ اخترعتم دينكم ﴿**قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ**﴾ سببُكم الذي جاء منه شرُّكم ﴿**عِندَ ٱللَّهِۖ**﴾ وهو قَدَرُه. أو عملُكم المكتوبُ عنده ﴿**بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾**﴾ تُختبَرون بتعاقب السراء والضراء.

(٤٨) ﴿**وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ**﴾ تسعة أنفس ﴿**يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾**﴾ أي: شأنهم الإفساد الخالص عن شوب (أي: شائبة) الصلاح.

(٤٩) ﴿**قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ**﴾ (أي: أمَرَ بعضهم بعضاً بالقسم) ﴿**لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ**﴾ لَنباغتَنَّ صالحاً وأهله ليلاً ﴿**ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ**﴾ لوليِّ دمه ﴿**مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ**﴾ فضلاً أن تَولَّينا إهلاكهم ﴿**وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾**﴾ ونحلفُ إنا لصادقون.

(٥٠) ﴿**وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا**﴾ بهذه المواضعة (أي: بالموافقة بينهم) ﴿**وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا**﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم ﴿**وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾**﴾ بذلك. روي أنه كان لصالح عليه الصلاة والسلام في الحجر مسجد في شِعبٍ يصلي فيه، فقالوا: زعم أنه يَفرغ منا إلى ثلاث، فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه، فوقع عليهم صخرة حِيالهم (أي: تجاههم)، فطبقت عليهم فم الشعب، فهلكوا ثمة، وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة. كما أشار إليه قوله تعالى:

(٥١) ﴿**فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾**﴾ (بالصيحة [النسفي]).

(٥٢) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ خاليةً. أو ساقطةً منهدمةً ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ بسبب ظلمهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥٢﴾ فيتَّعظون.

(٥٣) ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صالحاً ومن معه ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ الكفر والمعاصي، فلذلك خُصُّوا بالنجاة.

(٥٤) ﴿وَلُوطًا﴾ واذكر لوطاً عليه السلام ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٥٤﴾ تعلمون فُحشها، مِنْ بَصَرِ القلب، واقترافُ القبائح من العالِمِ بقبحها أقبحُ؛ أو يبصرها بعضكم من بعض، لأنهم كانوا يعلنون بها فتكون أفحشَ.

(٥٥) ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾ بيانٌ لإتيانهم الفاحشة، وتعليلُه بالشهوة للدلالة على قبحه، والتنبيهِ على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل، لا قضاء الوطر ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ اللاتي خُلقنَ لذلك ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝٥٥﴾ تفعلون فعل من يجهل قبحها. أو يكون سفيهاً لا يميِّز بين الحَسَنِ والقبيح. أو تجهلون العاقبة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ٥٨ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٞ يَعْدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرَۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٣﴾

(٥٦) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ أي: يتنزَّهون عن أفعالنا أو عن الأقذار، ويعدُّون فعلنا قذراً (أقول: يقولون استهزاء حتى استحقوا للعذاب).

(٥٧) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٥٧﴾ قدَّرنا كونَها من الباقين في العذاب.

(٥٨) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرٗاۖ﴾ (حجارة مكتوباً عليها اسم صاحبها) ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ٥٨﴾ (الذين لم يقبلوا الإنذار [النسفي]).

(٥٩) ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ أمَرَ رسوله ﷺ - بعد ما قصَّ عليه القصص الدالة على كمال قدرته وعِظم شأنه جلَّ وعلا، وما خَصَّ به رسله من الآيات الكبرى والانتصار من العدا - بتحميده والسلام على المصطفَيْن من عباده، شكراً على ما أنعم عليهم. أو علَّمه ما جَهل من أحوالهم، وعرفاناً لفضلهم وحق تقدمهم واجتهادهم في الدين. أو لوطاً عليه السلام بأن يحمده على هلاك كفرة قومه، ويُسَلِّمَ على من اصطفاه بالعصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٩﴾ إلزامٌ لهم، وتهكُّم بهم، وتسفيهٌ لرأيهم؛ إذ من المعلوم أن لا خير فيما أشركوه رأساً حتى يوازِن بينه وبين من هو مبدأ كلِّ خير.

(٦٠) ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الكائنات ومبادئ المنافع ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ لأجلكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٖ﴾ والتنبيهُ على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع من المواد المتشابهة لا يَقدرُ عليه غيره، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ شجر الحدائق؛ وهي البساتين ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أغيره يُقْرَنُ به ويُجعل له شريكاً وهو المتفرِّد بالخلق والتكوين! ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٞ يَعْدِلُونَ ٦٠﴾ عن الحق الذي هو التوحيد.

(٦١) ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارٗا﴾ بإبداء (أي: بإظهار) بعضها من الماء وتسويتها بحيث يتأتى استقرار الإنسان والدواب عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ وسطها ﴿أَنْهَٰرٗا﴾ جارية ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً تتكون فيها المعادن وتنبع من حضيضها المنابع ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح، أو خليجي فارس والروم

(والخليج من البحر ما تشعَّب منه) ﴿حَاجِزًاۗ﴾ برزخاً. وقد مرَّ بيانه في سورة الفرقان [آية: ٥٣] ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾ الحقَّ فيشركون به.

(٦٢) ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطرُّ: الذي أحوجه شدةُ ما به إلى اللجوء إلى الله تعالى من الاضطرار ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ ويدفع عن الإنسان ما يسوؤه ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ خلفاء فيها، بأن ورَّثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ الذي خصَّكم بهذه النعم العامة والخاصة ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ أي: تذكرون آلاءه تذكراً قليلًا؛ والمراد بالقلة العدمُ أو الحقارة المزيحة للفائدة.

(٦٣) ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ بالنجوم وعلامات الأرض. والظُّلُماتُ ظلمات الليالي أضافها إلى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ للملابسة (لوقوع الظلمات فيهما). أو مشتبهات الطرق ﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ﴾ يعني المطر. ولو صحَّ أن السبب الأكثر في تكون الرياح معاودةُ الأدخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لِانكسار حرِّها وتمويجها الهواء فلا شك أن الأسباب الفاعلية والقابلية لذلك من خَلْقِ الله تعالى، والفاعلُ للسبب فاعلٌ للمسبَّب ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ يقدر على شيء من ذلك! ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٣﴾ تعالى الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق.

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

(٦٤) ﴿**أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ**﴾ والكفرةُ وإن أنكروا الإعادة فهم محجوجون بالحجج الدالَّة عليها ﴿**وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ**﴾ أي: بأسباب سماوية وأرضية؟ ﴿**أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ**﴾ يفعل ذلك؟ ﴿**قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ**﴾ على أن غيره يقدر على شيء من ذلك ﴿**إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾**﴾ في إشراككم، فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية.

(٦٥) ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ**﴾ لمّا بيَّن اختصاصه تعالى بالقدرة التامة الفائقة العامة أتبعَهُ ما هو كاللازم له، وهو التفرد بعلم الغيب ﴿**وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾**﴾ متى يُنشَرون.

(٦٦) ﴿**بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ**﴾ لمّا نفى عنهم علمَ الغيب وأكَّد ذلك بنفي شعورهم بما هو مآلهم لا محالةَ بالغ فيه بأن أضرب عنه وبيَّن أن ما انتهى وتكامل فيه أسباب علمهم من الحجج والآيات وهو أن القيامة كائنة لا محالة لا يعلمونه كما ينبغي ﴿**بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ**﴾ كمن تحيَّر في أمرٍ لا يجد عليه دليلًا ﴿**بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾**﴾ لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم.

(٦٧) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾**﴾ كالبيان لعمَهِهِم (أي: تردُّدهم في الضلال). والمراد بالإخراج الإخراجُ من الأجداث، أو من حال الفناء إلى الحياة.

(٦٨) ﴿**لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ**﴾ من قبلِ وعدِ محمَّد ﷺ ﴿**إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾**﴾ التي هي كالأسمار (جمع سمر، وهو الحديث ليلًا).

(٦٩) ﴿**قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾**﴾ تهديدٌ لهم على التكذيب، وتخويفٌ بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم. والتعبير عنهم بالمُجْرِمِينَ ليكون لطفاً بالمؤمنين في ترك الجرائم.

(٧٠) ﴿**وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ على تكذيبهم وإعراضهم ﴿**وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ**﴾ في حرجِ صدرٍ ﴿**مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾**﴾ من مكرهم، فإن الله تعالى يعصمك من الناس.

(٧١) ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ**﴾ العذاب الموعود ﴿**إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾**﴾.

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ تبعكم ولحقكم ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢﴾ حلوله؛ وهو عذاب يوم بدر.

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لتأخير عقوبتهم على المعاصي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ لا يعرفون حق النعمة فيه، فلا يشكرونه، بل يستعجلون بجهلهم وقوعه.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تخفيه ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤﴾ من عداوتك، فيجازيهم عليه.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خافيةٍ فيهما ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾ بيِّنٍ. والمراد اللوح أو القضاء (أقول: هو لوح القضاء وحضرة العلم الإلهي الذي فصل فيه جميع ماكان ويكون أزلًا وأبداً).

(٧٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ كالتشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح عليهما السلام.

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

(٧٧) ﴿**وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾**﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٧٨) ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم**﴾ بين بني إسرائيل ﴿**بِحُكْمِهِۦ**﴾ بما يحكم به وهو الحق، أو بحكمته جلَّ وعلا ﴿**وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ فلا يُردُّ قضاؤه ﴿**ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾**﴾ بحقيقة ما يقضي فيه وحكمه.

(٧٩) ﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ**﴾ ولا تبالِ بمعاداتهم ﴿**إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾**﴾، وصاحبُ الحق حقيقٌ بالوثوق بحفظ الله تعالى ونصره.

(٨٠) ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ**﴾ تعليل آخر للأمر بالتوكل من حيث إنه يقطع طمعه عن مشايعتهم (أي: متابعتهم) ومعاضدتهم (أي: معاونتهم) رأساً. وإنما شُبِّهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يُتلى عليهم، كما شُبِّهوا بالصم في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾**﴾ فإن إسماعهم في هذه الحالة أبعدُ.

(٨١) ﴿**وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ**﴾ حيث الهداية لا تحصل إلا بالبصر ﴿**إِن تُسْمِعُ**﴾ أي: ما يجدي إسماعُك ﴿**إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا**﴾ مَنْ هو في علم الله تعالى كذلك ﴿**فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾**﴾ مخلِصون.

(٨٢) ﴿**وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ**﴾ إذا دنا وقوع معناه؛ وهو ما وُعدوا به من البعث والعذاب ﴿**أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ**﴾ وهي الجسَّاسة (قيل: سميت الدابة جسَّاسة لأنها تجسُّ الكافر، أي: تطلبه). روي أن طولها ستون ذراعاً، ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان، لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب (والزغب هو الشعرات الصفر على ريش الفرخ). وروي أنه عليه الصلاة والسلام سئل: من أين مخرجها؟ فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى، يعني المسجد الحرام ﴿**تُكَلِّمُهُمْ**﴾ من الكلام. وروي أنها تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما الصلاة والسلام، فتنكت بالعصا في مسجد المؤمن (أي: مكان سجوده) نكتة بيضاء فيبيض وجهه، وبالخاتم في أنف الكافر نكتة سوداء فيسودّ وجهه ﴿**أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا**﴾ خروجِها وسائر أحوالها. فإنها من آيات الله تعالى. وقيل: القرآن ﴿**لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ لا يتيقنون.

(٨٣) ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا**﴾ (أي: جماعة من الناس) يعني: يوم القيامة ﴿**مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا**﴾ أي: فوجاً مكذِّبين ﴿**فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾**﴾ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا. وهو عبارة عن كثرة عددهم وتباعد أطرافهم.

(٨٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى المحشر ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: أكذبتم بها بادئ الرأي غير ناظرين فيها نظراً يحيط علمكم بكنهها (أي: بحقيقتها) وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾ أم أيَّ شيء كنتم تعملونه بعد ذلك؟ وهو للتبكيت (أي: للتوبيخ) إذ لم يفعلوا غير التكذيب من الجهل، فلا يقدرون أن يقولوا فعلنا غير ذلك.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ حلَّ بهم العذاب الموعود؛ وهو كَبُّهم في النار بعد ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ بسبب ظلمهم؛ وهو التكذيب بآيات الله تعالى ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥﴾ باعتذارٍ لشغلهم بالعذاب.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ليتحقق لهم التوحيد ويرشدهم إلى تجويز الحشر وبعثة الرسل عليهم السلام. لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص غير متعين بذاته لا يكون إلا بقدرة قاهر، وأن من قَدِرَ على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحدة قَدِرَ على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان، وأن من جعل النهار ليبصروا فيه سبباً من أسباب معاشهم لعله لا يُخِلُّ بما هو مناط جميع مصالحهم في معاشهم ومَعادهم ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ بالنوم والقرار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ليبصروا فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾ (يصدِّقون فيعتبرون [النسفي]).

(٨٧) ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ في الصور أو القرن (أقول: هذه النفخة هي نفخة الفزع، ثم تتلوها نفخة الصعق – أي: الموت –ثم نفخة الإحياء والخروج من القبور) ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الهول. وعبَّر عنه بالماضي لتحقق وقوعه ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ لا يفزع بأن يثبِّت قلبه. قيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام. وقيل: الحور والخَزَنة وحملة العرش. وقيل: الشهداء. وقيل موسى عليه الصلاة والسلام لأنه صعق مرة (أقول: والمراد الملائكة والأنبياء والشهداء). ولعل المراد ما يعم ذلك ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ حاضرون الموقف بعد النفخة الثانية. أو راجعون إلى أمره ﴿دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ صاغرين.

(٨٨) ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ ثابتةً في مكانها ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ في السرعة. وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت في سمتٍ واحد (أي: هيئة واحدة) لا تكاد تتبيَّن حركتُها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أحكم خلقَه وسوَّاه على ما ينبغي ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾ عالمٌ بظواهر الأفعال وبواطنها، فيجازيكم عليها كما قال تعالى:

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

٢٨ سُورَةُ القَصَصِ ٨٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

(٨٩) ﴿**مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا**﴾ إذ ثبت له الشريف بالخسيس، والباقي بالفاني، وسبع مئة بواحدة (أقول: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ يريد الإضعاف، فإن العمل ينقضي والثواب يدوم، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد الخالق جل وعلا [انظر الكشاف]) ﴿**وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾**﴾ يعني به خوفَ عذابِ يوم القيامة.

(٩٠) ﴿**وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ**﴾ قيل: بالشرك ﴿**فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ**﴾ فكُبُّوا فيها على وجوههم ﴿**هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾**﴾ أي قيل لهم ذلك.

(٩١) ﴿**إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا**﴾ أمَرَ الرسول ﷺ بأن يقول لهم ذلك بعد ما بيَّن المبدأ والمَعاد وشرح أحوال القيامة، إشعاراً بأنه قد أتم الدعوة وقد كملت، وما عليه بعد إلا الاشتغال بشأنه والاستغراق في عبادة ربه جلَّ وعلا. وتخصيصُ مكة بهذه الإضافة تشريف لها وتعظيم لشأنها ﴿**وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ**﴾ خَلقاً ومُلكاً ﴿**وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾**﴾ المنقادين، أو الثابتين على ملة الإسلام.

(٩٢) ﴿**وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ**﴾ وأن أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه في تلاوته شيئاً فشيئاً. أو على اتباعه ﴿**فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ**﴾ باتباعه إياي في ذلك ﴿**فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ**﴾ فإن منافعه عائدة إليه ﴿**وَمَن ضَلَّ**﴾ بمخالفتي ﴿**فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾**﴾ فلا عليَّ من وبالِ ضلاله شيء، إذْ ما علَى الرسول إلَّا البلاغ، وقد بَلَّغْتُ.

(٩٣) ﴿**وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ**﴾ على نعمة النبوَّة، أو على ما علَّمني ووفَّقني للعمل به ﴿**سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ**﴾ القاهرة في الدنيا؛ كوقعة بدر وخروج دابة الأرض، أو في الآخرة ﴿**فَتَعۡرِفُونَهَاۚ**﴾ أنها آيات الله تعالى، ولكن حين لا تنفعكم المعرفة ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾**﴾ فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلته سبحانه عن أعمالكم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة النمل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القصص

مكيَّة، وقيل: إلا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾

وهي ثمان وثمانون آية

(١ـ٢) ﴿**طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢**﴾ (أي: المنزل على قلبك الجامع لجميع المصالح الدنيوية والأخروية و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي: المظهر الحق من الباطل [السراج المنير للشربيني رحمه الله تعالى]).

(٣) ﴿**نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ**﴾ بعضِ نبئهما ﴿**بِٱلْحَقِّ**﴾ مُحقِّين ﴿**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣**﴾ لأنهم المنتفعون به.

(٤) ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ أرضِ مصر ﴿**وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا**﴾ فرقاً يشيعونه (أي: يطيعونه) فيما يريد. أو أصنافاً في استخدامه، استعمل كل صنف في عمل. أو أحزاباً بأن أغرى (أي: ألقى) بينهم العداوة كي لا يتفقوا عليه ﴿**يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ**﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿**يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ**﴾ كان ذلك لأن كاهناً قال له: يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤**﴾ فلذلك اجترأ على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيُّلٍ فاسد.

(٥) ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ أن نتفضَّلَ عليهم بإنقاذهم من بأسه ﴿**وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً**﴾ مقدَّمين في أمر الدين ﴿**وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥**﴾ لِما كان في ملك فرعون وقومه.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

(٦) ﴿**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ أرضِ مصر والشام. والتمكين هو التسليط وإطلاق الأمر ﴿**وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم**﴾ من بني إسرائيل ﴿**مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾**﴾ من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم.

(٧) ﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ**﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿**أَنْ أَرْضِعِيهِۖ**﴾ ما أمكنك إخفاؤه ﴿**فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ**﴾ بأن يُحَسَّ به ﴿**فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ**﴾ في البحر، يريد النيل ﴿**وَلَا تَخَافِي**﴾ عليه ضيعةً (أي: ضياعاً) ولا شدة ﴿**وَلَا تَحْزَنِيٓۖ**﴾ لفراقه ﴿**إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ**﴾ عن قريب، بحيث تأمنين عليه ﴿**وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾**﴾ روي أنها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكَّلات بحُبالى بني إسرائيل فعالجتها، فلما وقع موسى على الأرض هالَها نورٌ بين عينيه وارتعشت مفاصلها ودخل حبُّه في قلبها بحيث منعها من السعاية (أي: الوشاية)، فأرضعته (أمه) ثلاثة أشهر، ثم ألحَّ فرعون في طلب المواليد، واجتهد العيون (أي: الجواسيس) في تفحُّصِها، فأخذت له تابوتاً فقذفته في النيل.

(٨) ﴿**فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ**﴾ تشبيهاً له بالغرض الحامل عليه ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾**﴾ في كل شيء، فليس ببدع (أي: ليس بغريب) منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله، ثم أخذوه يربُّونه ليكبُر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون. أو مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربَّى عدوَّهم على أيديهم.

(٩) ﴿**وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ**﴾ أي لفرعون حين أخرجته من التابوت ﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ**﴾ هو قرَّة عينٍ لنا لأنهما لما رأياه أخرج من التابوت أحبَّاه. أو لأنه كانت له ابنة برصاء (أي: مصابة بالبرص)، وعالجها الأطباء بريق حيوان بحري يشبه الإنسان، فلطَّخت برصها بريقه (أي: بريق موسى عليه الصلاة والسلام) فبرئت. وفي الحديث أنه قال: لك لا لي، ولو قال: هو لي كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها [أخرجه الإمام النسائي رحمه الله تعالى] ﴿**لَا تَقْتُلُوهُ**﴾ خطاب بلفظ الجمع للتعظيم ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ**﴾ فإن فيه مخايل اليمن (أي: البركة) ودلائل النفع، وذلك لِما رأت من نور بين عينيه، وارتضاعه إبهامه لبناً، وبرء البرصاء بريقه ﴿**أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا**﴾ أو نتبنَّاه، فإنه أهل له ﴿**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾**﴾ أي: وهم لا يشعرون أنهم على الخطأ في التقاطه.

(١٠) ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ صفراً من العقل، لِما دَهَمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ أنها كادت لتُظهِر بموسى عليه السلام؛ أي: بأمره وقصته، من فرط الضجر، أو الفرح لتبنِّيه ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ بالصبر والثبات ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ من المصدِّقين بوعد الله. أو من الواثقين بحفظه لا بتبني فرعون وعطفه.

(١١) ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ﴾ مريم ﴿قُصِّيهِۖ﴾ اتبِّعي أثره وتتبَّعي خبره ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾ عن بُعْدٍ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١﴾ أنها تقصُّ، أو أنها أخته.

(١٢) ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ ومنعناه أن يرتضع من المرضعات ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبلِ قصِّها أثره ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ لا يقصِّرون في إرضاعه وتربيته؟ روي أن هامان لما سمعها قال: إنها لتعرفُه وأهلَه فخذوها حتى تخبِرَ بحاله، فقالت: إنما أردتُ (بقولي: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي:) وهم للملك ناصحون، فأمرها فرعون أن تأتي بمن يكفله، فأتت بأمها وموسى على يد فرعون يبكي وهو يعلِّلُه، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها: من أنت منه؟ فقد أبى كلَّ ثدي إلا ثديك، فقالت: إني امرأة طيِّبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبيٍّ إلا قَبِلني، فدفعه إليها وأجرى عليها (أي: أعطاها أجراً)، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وهو قوله تعالى:

(١٣) ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ بولدها ﴿وَلَا تَحۡزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ علمَ مشاهدةٍ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ أنَّ وعدَه حقٌّ، فيرتابون فيه.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

(١٤) ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ**﴾ مبلغه الذي لا يزيد عليه نَشْؤُه، وذلك من ثلاثين إلى أربعين سنة، فإن العقل يكمل حينئذ ﴿**وَٱسۡتَوَىٰٓ**﴾ قَدُّهُ (أي: قامته) وعقله ﴿**ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا**﴾ أي نبوَّةً ﴿**وَعِلۡمٗاۚ**﴾ بالدين، أو علم الحكماء والعلماء وسمْتهم قبل استنبائه (أي: قبل إعطائه النبوَّة)، فلا يقول ولا يفعل ما يُستجهل فيه ﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ ومثل ذلك الذي فعلنا بموسى عليه السلام وأمّه ﴿**نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤**﴾ على إحسانهم.

(١٥) ﴿**وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ**﴾ ودخل مصر آتياً من قصر فرعون ﴿**عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا**﴾ في وقت لا يُعتاد دخولُها ولا يتوقعونه فيه. قيل: كان وقت القيلولة، وقيل: بين العشاءين ﴿**فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ**﴾ أحدُهما ممن شايعه (أي: تبعه) على دينه وهم بنو إسرائيل، والآخر من مخالفيه وهم القبط ﴿**فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ**﴾ فسأله أن يغيثه بالإعانة ﴿**فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ**﴾ فضرب القبطي بجمع كفه ﴿**فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ**﴾ فقتله ﴿**قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ**﴾ لأنه لم يُؤمَر بقتل الكفار. أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكن له اغتيالهم. ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ، وإنما عدَّه من عمل الشيطان وسمَّاه ظلماً واستغفر منه على عادتهم في استعظام محقَّرات فرطتْ منهم ﴿**إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥**﴾ ظاهرُ العداوة.

(١٦) ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي**﴾ بقتله ﴿**فَٱغۡفِرۡ لِي**﴾ ذنبي ﴿**فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ**﴾ لاستغفاره ﴿**إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ**﴾ لذنوب عباده ﴿**ٱلرَّحِيمُ**﴾ بهم.

(١٧) ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ**﴾ أي: أقسم بإنعامك عليَّ بالمغفرة وغيرها لأتوبَنَّ ﴿**فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧**﴾ أو استعطافٌ. أي: بحق إنعامك عليَّ اعصمني فلن أكون معيناً لمن أدَّتْ معاونته إلى جرم. وقيل: معناه بما أنعمت عليَّ من القوة أُعينُ أولياءك، فلن أستعملها في مُظاهرةِ (أي: معاونة) أعدائك.

(١٨) ﴿**فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ**﴾ يترصَّدُ الاستقادة (أي: الاقتصاص) ﴿**فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ**﴾ يستغيثه ﴿**قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ**﴾ (أي: مع ضعفك وقلة قوتك) ﴿**لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨**﴾ بيّن الغواية، لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر.

(١٩) ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والإِسرائيلي. لأنه لم يكن على دينهما، ولأن القبط كانوا أعداء لبني إسرائيل ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ قاله الإِسرائيلي: لأنه لمّا سمّاه غويّاً ظنَّ أنه يبطش عليه، أو القبطي، وكأنه توهَّم من قوله أنه الذي قتل القبطي بالأمس لهذا الإسرائيلي ﴿إِن تُرِيدُ﴾ ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تتطاول على الناس، ولا تنظر في العواقب ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ بين الناس، فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن. ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملئه، فهمُّوا بقتله، فخرج مؤمنٌ من آل فرعون - وهو ابن عمه - ليخبره كما قال تعالى:

(٢٠) ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يسرع ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يتشاورون بسببك ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

(٢١) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوقَ طالبٍ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ خلِّصني منهم واحفظني من لحوقهم.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قبالة مدين قرية شعيب عليه السلام. سُميت باسم مدين بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ولم تكن في سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان (فراسخ) ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ توكُّلًا على الله تعالى وحسنَ ظنٍّ به. وكان لا يعرف الطريق، فعنَّ (أي: فظهر) له ثلاث طرق، فأخذ في أوسطها، وجاء الطلاب عقيبه، فأخذوا في الآخرين.

(٢٣) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وصل إليه. وهو بئرٌ كانوا يسقون منها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ وجد فوق شفيره ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جماعة كثيرة مختلفين ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من مكانهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ﴾ تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾ ما شأنكما تذودان؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ تصرفَ الرعاةُ مواشيَهم عن الماء حذراً عن مزاحمة الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ كبير السن، لا يستطيع أن يخرج للسقي فيرسلنا اضطراراً.

(٢٤) ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مواشيَهما رحمة عليهما. قيل كانت الرعاة يضعون على رأس البئر حجراً لا يُقِلُّه (أي: لا يرفعه) إلا سبعة رجال أو أكثر، فأقلَّهُ وحده مع ما كان به من الوصب (أي: التعب) والجوع وجراحة القدم ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ لأيِّ شيء أنزلت إلي ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلٍ أو كثيرٍ. وحَمَله الأكثرون على الطعام ﴿فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ محتاج سائل. وقيل معناه إني لِما أنزلت إليَّ من خير الدين صرتُ فقيراً في الدنيا، لأنه كان في سَعة عند فرعون. والغرض منه إظهار التبجح (أي: الفرح) والشكرُ على ذلك.

(٢٥) ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي مستحيية ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ ليكافئك ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ جزاءَ سقيك لنا. ولعل موسى عليه الصلاة والسلام إنما أجابها ليتبرك برؤية الشيخ ويستظهر بمعرفته لا طمعاً في الأجر. بل روي أنه لما جاءه قدَّم إليه طعاماً فامتنع عنه، وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا، حتى قال له شعيب عليه الصلاة والسلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا. هذا وإن كلَّ من فعل معروفاً فأُهدِي بشيء لم يَحرُم أخذه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يريد فرعون وقومه.

(٢٦) ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ يعني التي استدعته: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ لرعي الغنم ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ تعليلٌ شائع، يجري مجرى الدليل على أنه حقيق (أي: جدير) بالاستئجار. وروي أن شعيباً قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت إقلال الحجر وأنه صوَّب رأسه (أي: طأطأ رأسه) حين بَلَّغتْهُ رسالتَه، وأمَرَها بالمشي خلفه.

(٢٧) ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ أي: على أن تكون لي أجيراً ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ أي: رَعْيَةَ ثماني حجج (أي: سنين) ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ عملتَ عشر حجج ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ فإتمامه من عندك تفضُّلاً، لا من عندي إلزاما عليك. وهذا استدعاءُ العقدِ لا نفسه، فلعله جرى على أجرة معيَّنة وبمهرٍ آخر، أو برعيته الأجلَ الأول، ووعد له أن يوفي الأخير إن تيسَّر له قبل العقد ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام إتمام العشر، أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ في حسن المعاملة ولِين الجانب والوفاء بالمعاهدة.

(٢٨) ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: ذلك الذي عاهدتَني فيه قائمٌ بيننا لا نخرج عنه ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أطولَهما أو أقصرَهما ﴿قَضَيْتُ﴾ وفَّيتُك إياه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ لا تعتدي علي بطلب الزيادة، فكما لا أطالَب بالزيادة على العشر لا أطالَب بالزيادة على الثمان. أو فلا أكون متعدياً بترك الزيادة عليه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من المشارطة ﴿وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ شاهد حفيظ.

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

(٢٩) ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ**﴾ بامرأته. روي أنه قضى أقصى الأجلين، ومكث بعد ذلك عنده عشراً أخرى، ثم عزم على الرجوع ﴿**ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ**﴾ أبصر من الجهة التي تلي الطور ناراً ﴿**قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ**﴾ بخبر الطريق ﴿**أَوۡ جَذۡوَةٖ**﴾ عودٍ غليظٍ، سواء كان في رأسه نار أو لم يكن، ولذلك بيَّنه بقوله تعالى: ﴿**مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾**﴾ تستدفئون بها.

(٣٠) ﴿**فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ**﴾ أتاه النداء من الشاطئ الأيمن لموسى ﴿**فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ**﴾ أي: يا موسى ﴿**إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾**﴾.

(٣١) ﴿**وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ**﴾ أي: فألقاها فصارت ثعباناً واهتزت، فلمّا رآها تهْتَزُّ ﴿**كَأَنَّهَا جَآنّٞ**﴾ في الهيئة والجثة، أو في السرعة ﴿**وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا**﴾ منهزماً من الخوف ﴿**وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ**﴾ ولم يرجع ﴿**يَٰمُوسَىٰٓ**﴾ نودي يا موسى ﴿**أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾**﴾ من المخاوف، فإنه ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

(٣٢) ﴿**ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ**﴾ أدخلها ﴿**تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ**﴾ عيب ﴿**وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ**﴾ يديك المبسوطتين، تتقي بهما الحيَّة كالخائف الفزع، بإدخال اليمنى تحت عضد اليسرى وبالعكس. أو بإدخالهما في الجيب، فيكون تكريراً لغرض آخر وهو أن يكون ذلك في وجه العدو إظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزة ﴿**مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ**﴾ من أجل الرهب؛ أي إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلداً وضبطاً لنفسك ﴿**فَذَٰنِكَ**﴾ إشارة إلى العصا واليد ﴿**بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ**﴾ مرسَلاً بهما ﴿**إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾**﴾ فكانوا أحقاء بأن يرسَل إليهم.

(٣٣) ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾**﴾ بها.

(٣٤) ﴿**وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا**﴾ معيناً ﴿**يُصَدِّقُنِيٓۖ**﴾ بتخليص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهة ﴿**إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾**﴾ ولساني لا يطاوعني عند المحاجَّة (أي: المجادلة).

(٣٥) ﴿**قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ**﴾ سنقوِّيك به، فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور، ولذلك يعبَّر عنه باليد، وشدتها بشدة العضد (فكأن اليد داخلة في كلمة العضد) ﴿**وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا**﴾ غلبة أو حجة ﴿**فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا**﴾ باستيلاءٍ أو حِجاجٍ ﴿**بِـَٔايَٰتِنَآۚ**﴾ أي: اذهبا بآياتنا، أو تمتنعون منهم بآياتنا ﴿**أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾**﴾.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةًۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةً لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾ سحرٌ تختلقه، لم يفعل قبلُ مثله، أو سحر تعمله ثم تفتريه على الله تعالى ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ يعنون السحر، أو ادعاء النبوة ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ كائناً في أيامهم.

(٣٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ فيعلم أني محقٌّ وأنتم مبطلون ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ العاقبة المحمودة. فإن المراد بالدار الدنيا، وعاقبتها الأصلية هي الجنة، لأنها خُلقت مجازاً (أي: طريقاً) إلى الآخرة. والمقصود منها بالذات هو الثواب والعقاب ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن العاقبة في العقبى.

(٣٨) ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ نفى علمه بإلهٍ غيره دون وجوده، إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه، ولذلك أمرَ ببناء الصرح ليصعد عليه ويتطلع على الحال بقوله: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كأنه توهَّم أنه لو كان لكان جسماً في السماء يمكن الترقي إليه، ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

(٣٩) ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض مصر ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ بغير استحقاق ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بالنشور.

(٤٠) ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ كما مرّ بيانه. وفيه فخامةٌ وتعظيم لشأن الآخذ، واستحقار للمأخوذين، كأنه أخذهم مع كثرتهم في كفٍّ وطرَحهم في اليم ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وحذِّرْ قومَك عن مثلها.

(٤١) ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً﴾ قدوةً للضلال بالحمل على الإضلال ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ إلى موجباتها من الكفر والمعاصي ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ بدفع العذاب عنهم.

(٤٢) ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةًۖ﴾ طرداً عن الرحمة. أو لعن اللاعنين يلعنهم الملائكة والمؤمنون. ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ من المطرودين. أو ممن قبح وجوههم.

(٤٣) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أقوامَ نوح وهود وصالح ولوط عليهم الصلاة والسلام ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أنواراً لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل ﴿وَهُدًى﴾ إلى الشرائع التي هي سبل الله تعالى ﴿وَرَحۡمَةً﴾ لأنهم لو عملوا بها نالوا رحمة الله سبحانه وتعالى ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ليكونوا على حالٍ يرجى منهم التذكر.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

(٤٤) ﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ**﴾ يريد الوادي أو الطور، فإنه كان في شقِّ الغرب من مقام موسى، أو الجانب الغربي منه. والخطاب لرسول الله ﷺ، أي: ما كنت حاضراً ﴿**إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ**﴾ إذ أوحينا إليه الأمر الذي أردنا تعريفه ﴿**وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾**﴾ للوحي إليه. أو على الموحى إليهم؛ وهم السبعون المختارون الميقات. والمراد الدلالة على أن إخباره عن ذلك من قبيل الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي، ولذلك استدرك عنه بقوله:

(٤٥) ﴿**وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ**﴾ أي: ولكنا أوحينا إليك لأنا أنشأنا قروناً مختلفة بعد موسى، فتطاولت عليهم المُدَد، فحُرِّفت الأخبار وتغيرت الشرائع واندرست العلوم ﴿**وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا**﴾ مقيماً ﴿**فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ**﴾ شعيبٍ والمؤمنين به ﴿**تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ**﴾ تقرأ عليهم تعلماً منهم ﴿**ءَايَٰتِنَا**﴾ التي فيها قصتهم ﴿**وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾**﴾ إياك ومخبرين لك بها.

(٤٦) ﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا**﴾ لعل المراد به وقت ما أعطاه التوراة، وبالأول حين ما استنبأه (أي: أعطاه النبوَّة)، لأنهما المذكوران في القصة ﴿**وَلَٰكِن**﴾ علَّمناك ﴿**رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ**﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمس مئة وخمسون سنة. أو بينك وبين إسماعيل، على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببني إسرائيل وما حواليهم ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾**﴾ يتعظون.

(٤٧) ﴿**وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا**﴾ أي: لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربَّنا هلَّا أرسلت إلينا رسولاً يبلغُنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدِّقين ﴿**فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ**﴾ يعني الرسولَ المصدَّق بنوع من المعجزات ﴿**وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾**﴾.

(٤٨) ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ**﴾ (يعني الرسول المصدَّق بنوع من المعجزات) ﴿**مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ**﴾ من الكتاب جملةً واليد والعصا وغيرها، اقتراحاً وتعنتاً ﴿**أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ**﴾ يعني أبناء جنسهم في الرأي والمذهب، وهم كفرة زمان موسى، و كان فرعون عربياً من أولاد عاد ﴿**قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا**﴾ (قال الخازن رحمه الله تعالى: أي التوراة والقرآن، يقوِّي كلٌّ واحد منهما الآخر) ﴿**وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾**﴾ أي بكل منهما.

(٤٩) ﴿**قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ**﴾ مما أُنزل على موسى وعلى محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿**أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾**﴾ أنا ساحران مختلفان، وهذا من الشروط التي يُراد بها الإلزام والتبكيت.

(٥٠) ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ**﴾ دعاءَك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى ﴿**فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ**﴾ إذ لو اتبعوا حجَّةً لأتوا بها ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ فإن هوى النفس قد يوافق الحق ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾**﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى.

۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

(٥١) ﴿**وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ**﴾ أتبَعْنا بعضَه بعضاً في الإنزال ليتّصل التذكير، أو في النظم لتتقرَّر الدعوة بالحجة والمواعظ بالمواعيد والنصائح بالعبر ﴿**لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ** ﴿٥١﴾﴾ فيؤمنون ويطيعون.

(٥٢) ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ** ﴿٥٢﴾﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب. وقيل: في أربعين من أهل الإنجيل؛ اثنان وثلاثون جاؤوا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام.

(٥٣) ﴿**وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ**﴾ أي: بأنه كلام الله تعالى ﴿**إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ** ﴿٥٣﴾﴾ فيه دلالة على أن إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذٍ، وإنما هو أمر تقادَمَ عهدُه لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة، وكونهم على دين الإِسلام قبل نزول القرآن. أو تلاوته عليهم باعتقادهم صحته في الجملة.

(٥٤) ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ**﴾ مرَّةً على إيمانهم بكتابهم ومرَّةً على إيمانهم بالقرآن ﴿**بِمَا صَبَرُواْ**﴾ بصبرهم وثباتهم على الإيمانَيْن، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى المشركين و أذى من هاجرهم (أي: تركهم) من أهل دينهم ﴿**وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ**﴾ ويدفعون بالطاعةِ المعصيةَ، لقوله ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿**وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ** ﴿٥٤﴾﴾ في سبيل الخير.

(٥٥) ﴿**وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ**﴾ تكرُّماً ﴿**وَقَالُواْ**﴾ لِلَّاغين: ﴿**لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ**﴾ متارَكةً لهم وتوديعاً. أو دعاء لهم بالسلامة عما هم فيه ﴿**لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ** ﴿٥٥﴾﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريدها.

(٥٦) ﴿**إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ**﴾ لا تقدرُ على أن تدخله في الإِسلام ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ**﴾ فيدخله في الإِسلام ﴿**وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ** ﴿٥٦﴾﴾ بالمستعدِّين لذلك. والجمهورُ على أنها نزلت في أبي طالب؛ فإنه لما احتُضِر جاءه رسول الله ﷺ وقال: يا عمّ! قل لا إله إلا الله كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله، قال: يا ابن أخي! قد علمتُ أنك لصادق، ولكنْ أكره أن يقال جزع (أي: خاف) عند الموت [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى].

(٥٧) ﴿**وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ**﴾ نُخرَجْ منها. نزلت في الحارث بن عثمان بن

نوفل بن عبد مناف، أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب – وإنما نحن أَكَلَةُ رأس (أي: قليلون) – أن يتخطفونا من أرضنا. فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أو لم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن بحرمة البيت الذي يتناحر العرب (أي: يقتل بعضهم بعضاً) حوله، وهم آمنون فيه ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ يُحمَل إليه ويُجمَع فيه ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من كل أوْبٍ (أي: جهة) ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كان هذا حالهم وهم عبَدَة الأصنام فكيف نعرِّضهم للخوف والتخطف إذا ضَمُّوا إلى حرمة البيت حرمةَ التوحيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ جهَلَةٌ، لا يتفطنون له، ولا يتفكرون ليعلموه. وقيل: أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله تعالى، إذ لو علموا لما خافوا غيره. ثم بيَّن أن الأمربالعكس؛ فإنهم أحقاء بأن يخافوا من بأس الله على ما هم عليه بقوله تعالى:

(٥٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ﴾ أي: وكم من أهل قرية كانت حالهم كحالهم في الأمن وخفض العيش (أي: رفاه العيش) حتى أشِروا (أي: استكبروا) فدمَّر الله تعالى عليهم وخرَّب ديارهم ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاويةٌ ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ إذ لا يسكنها إلا المارَّة يوما أو بعض يوم. أو لا يبقى من يسكنها إلا قليلًا من شؤم معاصيهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾ منهم؛ إذ لم يَخْلُفْهم أحد يتصرَّف تصرُّفهم في ديارهم وسائر متصرَّفاتهم.

(٥٩) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما كانت عادته (أي: سُنته) ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ (أي: في أصلها وأعظمها، التي تلك القرى سوادُها وأتباعُها [من روح البيان])، لأن أهلها تكون أفطن وأنبل ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ بتكذيب الرسل والعتوِّ (أي: الصلابة) في الكفر.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٠) ﴿**وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ**﴾ من أسباب الدنيا ﴿**فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ**﴾ تتمتعون وتتزيَّنون به مدة حياتكم المنقضية ﴿**وَمَا عِندَ ٱللَّهِ**﴾ وهو ثوابه ﴿**خَيۡرٞ**﴾ في نفسه من ذلك، لأنه لذةٌ خالصة وبهجة كاملة ﴿**وَأَبۡقَىٰٓۚ**﴾ لأنه أبديٌّ ﴿**أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾**﴾ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

(٦١) ﴿**أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا**﴾ وعداً بالجنة، فإن حُسْنَ الوعد بحسن الموعود ﴿**فَهُوَ لَٰقِيهِ**﴾ مُدركه لا محالة، لامتناع الخُلف في وعده جل وعلا ﴿**كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا**﴾ الذي هو مشوبٌ بالآلام، مكدَّر بالمتاعب، مستعقَبٌ بالتحسر على الانقطاع ﴿**ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾**﴾ للحساب أو العذاب.

(٦٢) ﴿**وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾**﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي.

(٦٣) ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ**﴾ بثبوت مقتضاه وحصول مؤدَّاه، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. وغيرُه من آيات الوعيد ﴿**رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ**﴾ أي: هؤلاء الذين أغوَيْناهم فغوَوْا غيّاً مثل ما غَوِيْنا. وفيه دلالة على أنهم غوَوْا باختيارهم، وأنهم لم يفعلوا بهم إلا وسوسةً وتسويلاً (أي: تزييناً) ﴿**تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ**﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر هوًى منهم ﴿**مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾**﴾ أي ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم.

(٦٤) ﴿**وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ**﴾ من فرط الحيرة ﴿**فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ**﴾ لعجزهم عن الإجابة والنصرة ﴿**وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ**﴾ لازماً بهم ﴿**لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾**﴾ لوجهٍ من الحيَل يدفعون به العذاب، أو إلى الحقِّ لمّا رأوا العذاب، وقيل: «لَوْ» للتمني؛ أي تمنَّوا أنهم كانوا مهتدين.

(٦٥) ﴿**وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾**﴾ فإنه تعالى يسأل أولاً عن إشراكهم به، ثم عن تكذيبهم الأنبياء.

(٦٦) ﴿**فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ**﴾ فصارت الأنباء كالعُمْيِ عليهم، لا تهتدي إليهم. والمُراد بالأنباء

ما أجابوا به الرسل، أو ما يعمُّها وغيرها. وإذا كانت الرسل يتعتعون (أي: يتردَّدون ويتلعثمون) في الجواب عن مثل ذلك من الهول، ويفوِّضون إلى علم الله تعالى، فما ظنُّك بالضُّلَّال من أممهم؟ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة، والعلم بأنه مثله في العجز.

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وجَمَع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ عند الله تعالى. وعسى تحقيقٌ على عادة الكرام، أو تَرَجٍّ من التائب، بمعنى فليتوقع أن يُفلح.

(٦٨) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ لا مُوجبَ عليه ولا مانع له ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي التخيُّر. وظاهره نفي الاختيار عنهم رأساً، والأمرُ كذلك عند التحقيق، فإن اختيار العباد مخلوق باختيار الله، منوط بدواعٍ لا اختيارَ لهم فيها، وقيل المراد أنه ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهٌ له أن ينازعه أحدٌ أو يزاحمَ اختيارَهُ اختيار ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ عن مشاركة ما يشركونه به.

(٦٩) ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعداوة الرسول عليه الصلاة والسلام وحقدهم عليه ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ كالطعن فيه.

(٧٠) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستحقُّ للعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحدَ يستحقُّها إلا هو جل وعلا ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنه المُولي للنعم كلها، عاجلِها وآجلِها، يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا بقولهم: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]، ابتهاجاً بفضله والتذاذاً بحمده ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالنشور.

قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾

(٧١) **﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا﴾** دائماً **﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾** (لم يقل: هل إله، لإيراد الإلزام على زعمهم أن غيره آلهة [روح البيان]) **﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾** سماعَ تدبُّر واستبصار.

(٧٢) **﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾** باسكانها في وسط السماء، أو تحريكها على مدار فوق الأفق **﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ﴾** استراحةً من متاعب الأشغال **﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾** لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر.

(٧٣) **﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾** في الليل **﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾** في النهار بأنواع المكاسب **﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾** ولكي تعرفوا نعمة الله تعالى في ذلك فتشكروه عليها.

(٧٤) **﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾** تقريعٌ بعد تقريعٍ للإشعار بأنه لا شيء أجلبُ لغضب الله تعالى من الإشراك به.

(٧٥) **﴿وَنَزَعۡنَا﴾** وأخرجنا **﴿مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾** وهو نبيُّهم يشهد عليهم بما كانوا عليه **﴿فَقُلۡنَا﴾** للأمم **﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾** على صحة ما كنتم تدينون به **﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾** حينئذ **﴿أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾** في الألوهية، لا يشاركه فيها أحد **﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾** وغاب عنهم غيبة الضائع **﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾** من الباطل.

(٧٦) **﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾** كان ابنَ عمه يَصهر بن قاهث بن لاوي، وكان ممن آمن به. **﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾** فطلب الفضل عليهم، وأن يكونوا تحت أمره. أو تكبَّر عليهم أو ظلمهم، قيل: وذلك حين ملَّكه فرعون على بني إسرائيل. أو حسدهم، لما روي أنه قال لموسى عليه الصلاة والسلام: لك الرسالة ولهارون الحبورة (أي: الإمامة) وأنا في غير شيء، إلى متى أصبر؟ قال موسى: هذا صنع الله تعالى **﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾** من الأموال المدَّخرة **﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾** مفاتيح صناديقه. وقيل: خزائنه **﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾** وناءَ به الحِمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبةُ الجماعة الكثيرة **﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ﴾** لا تبطرْ، والفرحُ بالدنيا مذمومٌ مطلقاً، لأنه نتيجة حبِّها والرضا بها والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيها من

اللذة مفارَقَةٌ لا محالة يوجب الترَحَ (أي: الحزن) وعلَّل النهي بكونه مانعاً من محبة الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ أي بزخارف الدنيا.

(٧٧) ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الغنى ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بصَرفِهِ فيما يوجبها لك، فإن المقصود منه أن يكون وصلة إليها ﴿وَلَا تَنسَ﴾ ولا تترك تركَ المنسيِّ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله تعالى ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعم الله تعالى عليك. وقيل: أَحْسِنْ بالشكر والطاعة كَما أَحْسَنَ إليك بالإنعام ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأمرٍ يكون علةً للظلم والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ لسوء أفعالهم.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾

(٧٨) ﴿**قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ**﴾ فُضِّلت به على الناس واستوجَبتُ به التفوّق عليهم بالجاه والمال. وهو علم التوراة، وكان أعلمهم بها. وقيل: هو الكيمياء. وقيل: علم التجارة وسائر المكاسب. وقيل: العلم بكنوز يوسف عليه السلام ﴿**أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ**﴾ تعجبٌ وتوبيخٌ على اغتراره بقوَّته وكثرة ماله مع علمه بذلك، لأنه قرأه في التوراة وسمعه من حفاظ التواريخ. أو ردٌّ لادعائه العلمَ وتعظُّمه به بنفي هذا العلم عنه، أي: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادَّعى، ولم يعلم هذا حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿**وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾**﴾ سؤالَ استعلام. فإنه تعالى مطلع عليها. أو معاتبةً، فإنهم يعذَّبون بها بغتة.

(٧٩) ﴿**فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ**﴾ كما قيل إنه خرج على بغلة شهباء (وهي التي يغلب ما فيها من البياض على سوادها)، عليه الأرجوان (أي: قطيفة حمراء)، وعليها سرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيِّه ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا**﴾ على ما هو عادة الناس من الرغبة: ﴿**يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ**﴾ تمنَّوا مثله لا عينه، حذراً عن الحسد ﴿**إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾**﴾ من الدنيا.

(٨٠) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ**﴾ بأحوال الآخرة للمتمنِّين: ﴿**وَيۡلَكُمۡ**﴾ دعاءٌ بالهلاك، استُعمل للزجر عما لا يُرتضى ﴿**ثَوَابُ ٱللَّهِ**﴾ في الآخرة ﴿**خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ**﴾ مما أوتي قارون، بل من الدنيا وما فيها ﴿**وَلَا يُلَقَّىٰهَآ**﴾ أي: المثوبة أو الجنة. أو الإيمان والعمل الصالح ﴿**إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾**﴾ على الطاعات وعن المعاصي.

(٨١) ﴿**فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ**﴾ روي أنه كان يؤذي موسى عليه السلام كل وقت، وهو يداريه لقرابته، حتى نزلت الزكاة، فصالحه عن كل ألفٍ على واحد، فحسبه فاستكثره، فعمد إلى أن يفضح موسى بين بني إسرائيل ليرفضوه، فبرطل بَغيَّةً (أي: أعطاها الرشوة) لترميه بنفسها، فلما كان يوم العيد قام موسى عليه السلام خطيباً فقال: من سرق قطعناه، ومن زنى غير مُحصَن جلدناه، ومن زنى محصناً رجمناه، فقال قارون:

ولو كنتَ؟ قال: ولو كنتُ، قال: إن بني إسرائيل يزعمون أنَّك فجرت بفلانة، فأُحضِرت، فناشدها موسى عليه الصلاة والسلام بالله تعالى أن تصدق، فقالت: جعل لي قارون جُعلًا (والمراد رشوة) على أن أرميك بنفسي، فخرَّ موسى عليه السلام شاكياً منه إلى ربه، فأوحى الله تعالى إليه أن مُرِ الأرض بما شئت، فقال: يا أرض خذيه، فأخذته إلى ركبتيه، ثم قال خذيه، فأخذته إلى وسطه، ثم قال خذيه، فأخذته إلى عنقه، ثم قال خذيه، فخسفت به، وكان قارون يتضرَّع إليه في هذه الأحوال فلم يرحمه، فأوحى الله تعالى إليه: استرحمك مراراً فلم ترحمه، وعزَّتي وجلالي لو دعاني مرَّةً لأجبته. ثم قال بنو إسرائيل: إنما فعله ليرثه، فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله ﴿**فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ**﴾ أعوان ﴿**يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ فيدفعون عنه عذابه ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾**﴾ الممتنعين منه.

(٨٢) ﴿**وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ**﴾ أي: منزلته ﴿**بِٱلْأَمْسِ**﴾ منذ زمان قريب ﴿**يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ**﴾ أي: يَبْسُطُ وَيَقْدِرُ بمقتضى مشيئته، لا لكرامةٍ تقتضي البسط، ولا لهوانٍ يوجب القبض ﴿**لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا**﴾ فلم يعطنا ما تمنَّينا ﴿**لَخَسَفَ بِنَا**﴾ لتوليده فينا ما ولده فيه، فخسف بنا لأجله ﴿**وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ لنعمة الله تعالى، أو المكذِّبون برسله عليهم الصلاة والسلام، وبما وَعدوا لهم من ثواب الآخرة.

(٨٣) ﴿**تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ**﴾ إشارةُ تعظيمٍ. كأنه قال: تلك الّتي سمعتَ خبرها وبلغَكَ وصفُها ﴿**نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ غلبةً وقهراً ﴿**وَلَا فَسَادًا**﴾ ظلماً على الناس كما أراد فرعون وقارون ﴿**وَٱلْعَٰقِبَةُ**﴾ المحمودة ﴿**لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾**﴾.

(٨٤) ﴿**مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا**﴾ ذاتاً وقدراً ووصفاً ﴿**وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾**﴾ أي: إلا مثل ما كانوا يعملون.

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ العَنكَبُوتِ (٢٩) (٦٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

(٨٥) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ**﴾ أوجبَ عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ﴿**لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ**﴾ أيِّ مَعاد، وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه. أو مكة الّتي اعتدْتَ بها، وردَّه إليها يوم الفتح. كأنه لما حكم بأن الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ وأكد ذلك بوعد المحسنين ووعيد المسيئين وعَدَهُ بالعاقبة الحسنى في الدارين. روي أنه لما بلغ جُحفة (موضع بين مكة والمدينة، وهو ميقات أهل الشام) في مُهاجَره اشتاق إلى مولده ومولد آبائه فنزلت ﴿**قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ**﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ﴿**وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾**﴾ وما استحقه من العذاب والإذلال. يعني به نفسه والمشركين.

(٨٦) ﴿**وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ**﴾ أي: سيردُّك إلى مَعادك كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه ﴿**إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ**﴾ ولكن ألقاه رحمة منه سبحانه وتعالى ﴿**فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾**﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابة إلى طلبتهم.

(٨٧) ﴿**وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ**﴾ عن قراءتها والعمل بها ﴿**بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ**﴾ إلى عبادته وتوحيده ﴿**وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾**﴾ بمساعدتهم.

(٨٨) ﴿**وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ**﴾ هذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لَهم. (أقول: ولعل الخطاب له عليه الصلاة والسلام ولكن المراد غيره. فلا تعتمد على غير الله تعالى ولا تتخذ غيره وكيلاً في أمورك، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد) ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ**﴾ إلا ذاتَه، فإن ما عداه ممكنٌ هالكٌ في حَدِّ ذاته معدوم ﴿**لَهُ ٱلْحُكْمُ**﴾ القضاء النافذ في الخلق ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾**﴾ للجزاء بالحق.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة القصص وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة العنكبوت

مكيَّة، وآيها تسع وستون آية

(١ـ٢) ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ معناه: أحسبوا (أي: أظَنُّوا) ترْكَهم غير مفتونين لقولهم آمَنَّا؟ بل يمتحنهم الله تعالى بمشاق التكاليف - كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال - ليتميز المخلص من المنافق، والثابتُ في الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات. فإن مجرَّد الإيمان - وإن كان عن خلوص - لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب.

(٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي إن ذلك سنَّةٌ قديمة جارية في الأمم كلها، فلا ينبغي أن يُتوقع خلافه ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ فلَيتعلقنَّ علمُه بالامتحان تعلقاً حالياً يتميز به الذين صدقوا في الإيمان والذين كذبوا فيه، وينوط به ثوابهم وعقابهم.

(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفر والمعاصي. فإن العمل يعمُّ أفعال القلوب والجوارح ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أن يفوتونا، فلا نقدر أن نجازيهم على مساويهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ أي: بئس الذي يحكمونه.

(٥) ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ في الجنة. وقيل: المراد بلقاء الله الوصول إلى ثوابه، أو إلى العاقبة؛ من الموت والبعث والحساب والجزاء. على تمثيل حاله بحال عبدٍ قَدِمَ على سيِّده بعد زمان مديد، وقد اطلع السيد على أحواله، فإما أن يلقاه ببشْرٍ لِما رضي من أفعاله أو بسخط لِما سخط منها (أقول: لا يمكن للعبد أن تلتقي ذاته بذات الله - حاشا هذا مُحال - ولكنه جل وعلا بعلمه معنا، وما يلقاه العبد إما الثواب وإما العقاب). ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ فإن الوقت المضروب للقائه ﴿لَأٓتٍ﴾ لجاءٍ. وإذا كان وقت اللقاء آتياً كان اللقاء كائناً لا محالة، فليبادر ما يحقق أمله ويصدِّق رجاءه أو ما يستوجب به القربة والرضا (أقول: هذه هي حقيقة التصوف) ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ بعقائدهم وأفعالهم (أقول: لا بد للمؤمن أن لا يموت إلا على التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى).

(٦) ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه بالصبر على مضض الطاعة (أي: تعَبِها) والكفِّ عن الشهوات ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأن منفعته لها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا حاجة به إلى طاعتهم، وإنما كلَّف عباده رحمة عليهم ومراعاة لصلاحهم.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾

(٧) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ**﴾ الكفرَ بالإيمان، والمعاصي بما يتبعها من الطاعات ﴿**وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧**﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم. والجزاءُ الحسَن أن يجازي بحسنة حسنة، وأحسن الجزاء هو أن يجازي الحسنة الواحدة بالعشر وزيادة.

(٨) ﴿**وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ**﴾ بإيتائه فعلاً ذا حُسْنٍ ﴿**وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ**﴾ بإلهيته. عبَّر عن نفيها بنفي العلم بها، إشعاراً بأن ما لا يُعلم صحتُه لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه، فضلاً عما علم بطلانه ﴿**فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ**﴾ في ذلك، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿**إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ**﴾ مرجع مَنْ آمن منكم ومَنْ أشرك، ومن بَرَّ بوالديه ومن عَقَّ ﴿**فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨**﴾ بالجزاء عليه. والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه وأمه حمنة؛ فإنها لمّا سمعت بإسلامه حلفت أنها لا تنتقل من الضحِّ (أي: الموضع الذي يقع عليه ضوء الشمس) ولا تَطعَم ولا تشرب حتى يرتدَّ، ولبثت ثلاثة أيام كذلك [الحديث رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى].

(٩) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩**﴾ في جملتهم. والكمالُ في الصلاح منتهى درجات المؤمنين، ومُتمنَّى أنبياء الله تعالى المرسلين. أو في مُدخلهم وهو الجنة.

(١٠) ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ**﴾ بأنْ عذَّبهم الكفرة على الإيمان ﴿**جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ**﴾ ما يصيبه من أذيَّتهم في الصرف عن الإيمان ﴿**كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ**﴾ في الصرف عن الكفر ﴿**وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ**﴾ فتحٌ وغنيمةٌ ﴿**لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ**﴾ في الدين فأشركونا فيه. والمراد المنافقون أو قومٌ ضَعُفَ إيمانهم فارتدُّوا من أذى المشركين ﴿**أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠**﴾ من الإخلاص والنفاق.

(١١) ﴿**وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ بقلوبهم ﴿**وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١**﴾ فيجازي الفريقين.

(١٢) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا**﴾ الَّذي نسلكه في ديننا ﴿**وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ**﴾ إن كان ذلك خطيئة، أو إن كان بعثٌ ومؤاخذة. وردَّ عليهم وكذَّبهم بقوله تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢**﴾.

(١٣) ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ أثقال ما اقترفته (أي: اكتسبته) أنفسُهم ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ وأثقالاً أُخَرَ معها، لِما تسببوا له بالإِضلال والحمل على المعاصي، من غير أن ينقص من أثقال من تبعهم شيء ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سؤالَ تقريع (أي: تهكُّم) وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾ من الأباطيل التي أَضَلُّوا بها.

(١٤) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ بعد المبعث؛ إِذ روي أنه بُعث على رأس الأربعين، ودعا قوماً تسع مئة وخمسين، وعاش بعد الطوفان ستين. والمقصود من القصة تسليةُ رسول الله ﷺ وتثبيته على ما يُكابده من الكفرة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ طوفانُ الماء ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ بالكفر.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

(١٥) ﴿**فَأَنجَيْنَٰهُ**﴾ أي: نوحاً عليه الصلاة والسلام ﴿**وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ**﴾ ومن أركبه معه من أولاده وأتباعه؛ وكانوا ثمانين، وقيل ثمانية وسبعين، وقيل عشرة، نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿**وَجَعَلْنَٰهَآ**﴾ أي: السفينة أو الحادثة ﴿**ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾**﴾ يتَّعظون ويستدلون بها.

(١٦) ﴿**وَإِبْرَٰهِيمَ**﴾ أي: اذكر إبراهيم (عليه السلام) ﴿**إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ**﴾ أي: أرسلناه حين كمُل عقله وتمَّ نظرُه بحيث عرف الحق وأمَرَ الناس به ﴿**وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ مما أنتم عليه ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾**﴾ الخيرَ والشرَّ، وتميِّزون ما هو خير مما هو شر.

(١٧) ﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا**﴾ وتكْذبون كذباً في تسميتها آلهة وادعاءِ شفاعتها عند الله تعالى. أو تعملونها وتنحتونها. وهو استدلال على شرارة ما هم عليه من حيث إنه زور وباطل ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا**﴾ أي: لا يستطيعون أن يرزقوكم ﴿**فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ**﴾ كلَّه فإنه المالكُ له ﴿**وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ**﴾ متوسِّلين إلى مطالبكم بعبادته، مقيِّدين لما حفَّكم (أي: عمَّكم) من النعم بشكره. أو مستعدين للقائه بهما، فإنه ﴿**إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾**﴾.

(١٨) ﴿**وَإِن تُكَذِّبُوا۟**﴾ وإن تكذبوني ﴿**فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ**﴾ مَنْ قبلي من الرسل، فلم يضرهم تكذيبهم، وإنما ضرَّ أنفسهم؛ حيث تسبَّبَ لما حلَّ بهم من العذاب، فكذا تكذيبكم ﴿**وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾**﴾ الذي يُزال معه الشكُّ، وما عليه أن يُصدِّق ولا يُكذِّب. ومساقُ القصة لتسلية رسول الله ﷺ والتنفيس عنه (أي: التخفيف عنه)، بأنَّ أباه خليلَ الله صلوات الله وسلامه عليهما كان ممنوّاً (أي: مبتلى) بنحو ما مُنِيَ به من شِرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم عليه السلام في قومه.

(١٩) ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ**﴾ يُظهر ﴿**ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ**﴾ من مادة ومن غيرها (كعيسى عليه السلام) ﴿**ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ**﴾ إخبارٌ بالإعادة بعد الموت. ويجوز أن تؤوَّل الإعادة بأن ينشئ في كل سنة مثل ما كان في السنة السابقة من النبات والثمار ونحوهما (كالإنسان) ﴿**إِنَّ ذَٰلِكَ**﴾ الإشارة إلى الإعادة أو إلى ما ذُكِر من الأمرين ﴿**عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾**﴾ إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء.

(٢٠) ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حكايةُ كلامِ الله تعالى لإِبراهيم أو محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ على اختلاف الأجناس والأحوال ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأٓخِرَةَ﴾ بعد النشأة الأولى التي هي الإبداء، فإنه والإِعادة نشأتان من حيث أن كلًّا اختراعٌ وإخراجٌ من العدم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ لأن قدرته لذاته سبحانه وتعالى، ونسبةُ ذاتهِ إلى كل الممكنات على سواء؛ فيَقْدِر على النشأة الأخرى كما قَدِرَ على النشأة الأولى.

(٢١) ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبَه ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ رحمتَه ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ تُرَدُّون (أقول: لا تعتمدوا ولا تتَّكلوا على العمل، اعملوا بالشريعة والسنة بالإخلاص).

(٢٢) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ ربَّكم عن إدراكِكم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ إن فررتم من قضائه بالتواري (أي: بالتخفي) في الأرض أو الهبوط في مهاويها (أي: بين جبالها)، والتحصن فِي السَّماءِ أو القلاع الذاهبة فيها ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢﴾ يحرسكم عن بلاءٍ يَظهر من الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم.

(٢٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلائل وحدانيته. أو بكتبه ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بالبعث ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أي: ييئسون منها يوم القيامة، فعبَّر عنه بالماضي للتحقق والمبالغة. أو أيِسوا في الدنيا لإنكار البعث والجزاء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾ بكفرهم.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٤) ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ**﴾ قوم إبراهيم عليه السلام له ﴿**إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ**﴾ وكان ذلك قولَ بعضهم، لكن لمّا قيل فيهم ورضيَ به الباقون أُسنِد إلى كلهم ﴿**فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ**﴾ أي: فقذفوه في النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ**﴾ في إنجائه منها ﴿**لَءَايَٰتٍ**﴾ هي حِفظُه من أذى النار، وإخمادُها مع عِظَمها في زمان يسير وإنشاء روض مكانها ﴿**لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾**﴾ لأنهم المنتفعون بالتفحُّص (أي: بالتدقيق) عنها والتأمل فيها.

(٢٥) ﴿**وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ**﴾ أي: لتتوادُّوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها (أقول: أهل الفسق مع وجود إيمانهم يجتمع بعضهم مع بعض على مخالفة أمر الله تعالى، يجتمعون على مودَّةٍ بينهم) ﴿**ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا**﴾ أي: يقوم التناكر والتلاعن بينكم (أقول: فعليهم أن لا يرضوا بهذا الحال قبل يوم القيامة، علينا أن نتمسك بالشريعة والسنة النبوية قبل ذلك) أو بينكم وبين الأوثان (أقول: هذا خاص للكفار) ﴿**وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾**﴾ يخلِّصونكم منها.

(٢٦) ﴿**فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ**﴾ هو ابن أخيه، وأولُ من آمن به. وقيل: إنه آمن به حين رأى النار لم تحرقه ﴿**وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ**﴾ من قومي ﴿**إِلَىٰ رَبِّىٓۖ**﴾ إلى حيث أمرني ﴿**إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿**ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾**﴾ الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي. روي أنه هاجر من كوثى (أي: أورفة) مع لوط وامرأته سارة ابنة عمه إلى حرَّان، ثم منها إلى الشام، فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم.

(٢٧) ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ ولداً ونافلة حين أيس من الولادة من عجوز عاقر، ولذلك لم يذكر إسماعيل عليه السلام ﴿**وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ**﴾ فكثُر منهم الأنبياء ﴿**وَٱلْكِتَٰبَ**﴾ يريد به الجنس، ليتناول الكتب الأربعة (القرآن والإنجيل والتوراة والزبور) ﴿**وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ**﴾ على هجرته إلينا ﴿**فِى ٱلدُّنْيَاۖ**﴾ بإعطاء الولد في غير أوانه، والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم، وانتماء أهل الملل إليه، والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر ﴿**وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾**﴾ لفي عداد الكاملين في الصلاح.

(٢٨) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفِعْلة البالغة في القبح ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾ استئنافٌ مقرِّر لفاحشتها، من حيث إنها مما اشمأزت (أي: تنفرت) منه الطباع، وتحاشت عنه النفوس، حتى أقدموا عليها لِخُبث طينتهم.

(٢٩) ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وتتعرَّضون للسابلة (أي: المارَّة) بالقتل وأخذ المال أو بالفاحشة حتى انقطعت الطرق. أو تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ في مجالسكم الغاصَّة (أي: الممتلئة) بأهلها ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ مِنَ القبائحِ عدمَ مبالاةٍ بها ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ في استقباح ذلك. أو في دعوى النبوة المفهومة من التوبيخ.

(٣٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾ بابتداع الفاحشة وسنِّها فيمن بعدهم. وصَفَهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب، وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجّل لهم العذاب.

وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾

(٣١) **﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾** بالبشارة بالولد والنافلة **﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾** قرية سدوم **﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾** تعليلٌ لإهلاكهم لهم بإصرارهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر وأنواع المعاصي.

(٣٢) **﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾** اعتراضٌ عليهم بأن فيها من لم يَظلِم **﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾** تسليمٌ لقوله مع ادعاء مزيد العلم به وأنهم ما كانوا غافلين عنه، وجوابٌ عنه بتخصيص الأهل بمن عداه وأهله. أو تأقيت الإهلاك بإخراجهم منها **﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾** الباقين في العذاب أو القرية.

(٣٣) **﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾** جاءته المَساءة والغمُّ بسببهم مخافةَ أن يقصدهم قومُه بسوء **﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ﴾** وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعُه، أي: طاقتُه **﴿وَقَالُواْ﴾** لمّا رأوا فيه أثر الضجرة (أي: التحير والعجز): **﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾** على تمكُّنهم منا **﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾** (أي: الباقين في العذاب أو القرية).

(٣٤) **﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾** عذاباً منها **﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾** بسبب فسقهم.

(٣٥) **﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ﴾** هي حكايتها الشائعة، أو آثار الديار الخربة. وقيل: الحجارة المطَرَة؛ فإنها كانت باقية بعدُ. وقيل: بقيَّة أنهارها المسوَدَّة **﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾** يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار.

(٣٦) **﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾** وافعلوا ما ترجون به ثوابه. وقيل: إنه من الرجاء بمعنى الخوف **﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾** (أي: لا تفسدوا ما أوجده الله تعالى في الأرض بقصد إفساد التعبد والطاعة؛ كالقتل بغير حق [حاشية شيخ زاده]).

(٣٧) **﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾** الزلزلة الشديدة. وقيل: صيحة جبريل عليه السلام، لأن القلوب ترجف لها **﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾** في بلدهم أو دُورهم (أي: بيوتهم) **﴿جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾** باركين على الركب ميِّتين.

(٣٨) **﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾** أي: تبين لكم بعضُ مساكنهم، أو إهلاكُهم من جهة مساكنهم، إذا نظرتم إليها عند مروركم بها **﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾** من الكفر والمعاصي **﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾** السويِّ الذي بيَّنه الرسل لهم **﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾** متمكنين من النظر والاستبصار، ولكنهم لم يفعلوا. أو متبيِّنين أن العذاب لاحِقٌ بهم بإخبار الرسل لهم، ولكنهم لجُّوا (أي: تمادوا بالعناد) حتى هلكوا.

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(٣٩) ﴿**وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ**﴾ معطوفون على «عاداً». وتقديمُ قارُونَ لشرف نسبه (فهو ابن عم موسى عليه السلام) ﴿**وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾**﴾ فائتين، بل أدركهم أمر الله تعالى.

(٤٠) ﴿**فَكُلًّا**﴾ من المذكورين ﴿**أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ**﴾ عاقبناه بذنبه ﴿**فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا**﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباء (أي: تراب فيه حصى صغاراً) أو ملكاً رماهم بها؛ كقوم لوط عليه السلام ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ**﴾ كمدين وثمود ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ**﴾ كقارون ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا**﴾ كقوم نوح عليه السلام وفرعون وقومه ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ**﴾ ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم، إذ ليس ذلك من عادته عز وجل ﴿**وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾**﴾ بالتعريض للعذاب.

(٤١) ﴿**مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ**﴾ فيما اتخذوه معتمَداً ومتَّكَلاً ﴿**كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا**﴾ مما نسجته في الوهَنِ والخور (أي: الضعف)، بل ذاك أوهن؛ فإن لهذا حقيقة وانتفاعاً ما. أو مَثَلُهم بالإضافة إلى الموحِّد كمثله بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من حجر وجصٍّ ﴿**وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ**﴾ لا بيتَ أوهنُ وأقلُّ وقايةً للحر والبرد منه ﴿**لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾**﴾ يرجعون إلى علم لعلموا أن هذا مثلهم. أو أن دينهم أوهنُ من ذلك.

(٤٢) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ**﴾ أي: قلْ للكفرة: إن الله تعالى يعلم ﴿**وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾**﴾ فإن مِنْ فرْطِ الغباوة إشراك ما لا يُعَدُّ شيئاً بمَنْ هذا شأنه. وإن الجماد بالإضافة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل الغايةَ كالمعدوم. وإن مَنْ هذا وَصْفه قادرٌ على مجازاتهم.

(٤٣) ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ**﴾ يعني هذا المثل ونظائره ﴿**نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ**﴾ تقريباً لما بَعُدَ من أفهامهم ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَآ**﴾ ولا يعقل حُسنَها وفائدتها ﴿**إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾**﴾ الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي (أقول: ويَبعُدون عن النفوس وعن حب الدنيا وعن الخيالات).

(٤٤) ﴿**خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ**﴾ محقاً غير قاصد به باطلاً؛ فإن المقصود بالذات من خلقها

إفاضةُ الخير والدلالةُ على ذاته وصفاته، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لأنهم المنتفعون به (أقول: إن الإنسان لم يُخلق عبثاً، بل ليدلَّ على خالقه جل وعلا. ما خُلق ليجمع المال. وإذا لم يتجرَّد المرء المسلم عن حيل نفسه لا يُعتبر به، فلا بد أن نقطع عن حيلنا).

(٤٥) ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تقرُّباً إلى الله تعالى بقراءته وتحفُّظاً لألفاظه واستكشافاً لمعانيه، فإن القارئ المتأمِّل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أولَّ ما قرع سمعه (أقول: هذا كلُّه حقُّ المؤمن، ولذا لا بد من كثرة قراءة القرآن بالتدبُّر) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ بأن تكون سبباً للانتهاء عن المعاصي حال الاشتغال بها وغيرها؛ من حيث إنها تذكِّر الله تعالى وتورث النفس خشية منه ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ ولَلصلاة أكبر من سائر الطاعات، وإنما عبَّر عنها به للتعليل بأن اشتمالها على ذكره هو العُمدة في كونها مفضَّلة على الحسنات، ناهية عن السيئات. أو ولَذكر الله تعالى إياكم برحمته أكبرُ من ذكركم إياه بطاعته ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ منه ومن سائر الطاعات، فيجازيكم به أحسن المجازاة.

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

(٤٦) ﴿**وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ**﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن؛ كمعارضة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ**﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد، أو بإثبات الولد وقولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أو بنبذ العهد ومنع الجزية ﴿**وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ**﴾ هو من المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي ﷺ «لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم، وقولوا آمنا بالله تعالى وملائكته وبكتبه ورسله، فإن قالوا باطلاً لم تصدقوهم، وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم» [والحديث أصله في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿**وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾**﴾ مطيعون له خاصة. وفيه تعريض باتخاذهم أحبارَهم ورهبانهم أَرْبَاباً من دون الله تعالى.

(٤٧) ﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ ومِثلَ ذلك الإنزال ﴿**أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ**﴾ وحياً مصدقاً لسائر الكتب الإلهية ﴿**فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ**﴾ هم عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأضرابُه. أو مَنْ تقدَّم عهدَ الرسول ﷺ من أهل الكتاب ﴿**وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ**﴾ ومن العرب، أو أهل مكة، أو ممن في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب ﴿**مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ**﴾ بالقرآن ﴿**وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ**﴾ مع ظهورها وقيام الحجة عليها ﴿**إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾**﴾ إلا المتوغِّلون في الكفر؛ فإن جزمهم به يمنعهم عن التأمل فيما يفيد لهم صدقها لكونها معجزة بالإضافة إلى الرسول ﷺ، كما أشار إليه بقوله تعالى:

(٤٨) ﴿**وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ**﴾ فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة على أمِّيٍّ لم يُعرَف بالقراءة والتعلم خارقٌ للعادة ﴿**إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾**﴾ أي: لو كنتَ ممن يخطُّ ويقرأ لقالوا: لعله تعلَّمه أو التقطه من كتب الأولين والأقدمين. وإنما سمَّاهم مبطلين لكفرهم أو لارتيابهم بانتفاء وجه واحد من وجوه الإعجاز المتكاثرة. وقيل: لارتاب أهل الكتاب لوجدانهم نعتَك على خلاف ما في كتبهم، فيكون إبطالُهم باعتبار الواقع دون المقدَّر.

(٤٩) ﴿**بَلۡ هُوَ**﴾ بل القرآن ﴿**ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ**﴾ يحفظونه لا يَقْدِرُ أحد على

تحريفه ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ إلا المتوغلون في الظلم بالمكابرة بعد وضوح دلائل إعجازها، حتى لم يعتدّوا بها.

(٥٠) ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثلُ ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزلها كما يشاء، لستُ أملكها فآتيكم بما تقترحونه ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ليس من شأني إلا الإنذار وإبانتُه بما أُعطِيتُ من الآيات.

(٥١) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آيةً مغنيةً عما اقترحوه ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ تدوم تلاوته عليهم متحدِّين به، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تضمحلُّ بخلاف سائر الآيات. أو يُتلى عليهم - يعني اليهود - بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة مبينة ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ وتذكرةً لمن همُّه الإيمان دون التعنت (أي: العناد). وقيل: إن أناساً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتفٍ كُتِبَ فيها بعض ما يقول اليهود، فقال ﷺ: «كفى بها ضلالة لقوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيُّهم إلى ما جاء به غير نبيهم» فنزلت [رواه الدارمي رحمه الله تعالى مرسلاً بسند صحيح].

(٥٢) ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ بصدقي. وقد صدَّقني بالمعجزات. أو بتبليغي ما أُرْسِلْتُ بِهِ إليكم ونصحي، ومقابلتكم إياي بالتكذيب والتعنت ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه حالي وحالكم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو ما يُعبَد من دون الله تعالى ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ منكم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ في صفقتهم؛ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٥٣) يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ (٥٤) يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٥٥) يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ (٦١) ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٦٢) وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (٦٣)

(٥٣) ﴿**وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ**﴾ بقولهم: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿**وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى**﴾ لكل عذاب أو قوم ﴿**لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ**﴾ عاجلاً ﴿**وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ**﴾ فجأةً في الدنيا؛ كوقعة بدر. أو في الآخرة؛ عند نزول الموت بهم ﴿**وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٥٣)**﴾ بإتيانه.

(٥٤) ﴿**يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ (٥٤)**﴾ ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب. أو هي كالمحيطة بهم الآن لإِحاطة الكفر والمعاصي التي توجبها بهم.

(٥٥) ﴿**يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ**﴾ من جميع جوانبهم ﴿**وَيَقُولُ**﴾ الله تعالى، أو بعضُ ملائكته بأمره: ﴿**ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٥٥)**﴾ أي: جزاءه.

(٥٦) ﴿**يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ (٥٦)**﴾ أي: إذا لم يتسهَّل لكم العبادة في بلدة ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فهاجروا إلى حيث يتمشى لكم ذلك. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام» [أخرجه ابن حجر رحمه الله تعالى في الكافي الشافي مرسلاً عن الحسن البصري رحمه الله تعالى].

(٥٧) ﴿**كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ**﴾ تناله لا محالة ﴿**ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ (٥٧)**﴾ للجزاء. ومَنْ هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد له.

(٥٨) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم**﴾ لننْزِلَنَّهم ﴿**مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا**﴾ علالي ﴿**تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ (٥٨)**﴾.

(٥٩) ﴿**ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ**﴾ على أذية المشركين والهجرة للدين إلى غير ذلك من المحن والمشاق ﴿**وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)**﴾ ولا يتوكَّلون إلا على الله تعالى.

(٦٠) ﴿**وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ**﴾ (أي: وككثير من دابة) ﴿**لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا**﴾ لا تطيق حمله لضعفها أو لا تدخره، وإنما تصبح ولا معيشة عندها ﴿**ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ**﴾ ثم إنها مع ضعفها وتوكُّلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواءٌ في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى، لأن رزق الكل بأسباب هو المسبِّب لها وحده، فلا

تخافوا على معاشكم بالهجرة، فإنهم لمّا أُمِروا بالهجرة قال بعضهم: كيف نَقدُمُ بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولكم هذا ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾ بضميركم.

(٦١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ المسؤولُ عنهم أهل مكة ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لِما تَقَرَّرَ في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحدٍ واجبِ الوجود جلَّ وعلا ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ يُصرَفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك.

(٦٢) ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ يَحتمل أن يكون الموسَّعُ له والمضيَّقُ عليه واحداً، على أن البسط والقبض على التعاقب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢﴾ يعلم مصالحهم ومفاسدهم.

(٦٣) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها، أصولِها وفروعِها، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يَقدِر على شيء من ذلك ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عصَمك من مثل هذه الضلالة، أو على تصديقك وإظهار حجتك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾ فيتناقضون، حيث يُقِرُّون بأنه المُبدئ لكل ما عداه، ثم يشركون به الصنم. وقيل: لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ (٦٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

(٦٤) ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارةُ تحقيرٍ، وكيف لا وهي لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ إلا كما يُلهّى ويُلعَّب به الصبيان، يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون مُتعَبين ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ لهي دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان (أي: جريان) الموت عليها. أو هي في ذاتها حياة، للمبالغة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ لم يُؤْثِروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة، والحياةُ فيها عارضةٌ سريعة الزوال.

(٦٥) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: فإذا ركبوا البحر ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كائنين في صورة مَنْ أخلصَ دينه من المؤمنين؛ حيث لا يذكرون إلا الله تعالى ولا يدعون سواه، لِعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو جلَّ وعلا ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فاجؤوا المعاودةَ إلى الشرك.

(٦٦) ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادّهم عليها ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ عاقبة ذلك حين يعاقَبون.

(٦٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعني أهل مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: جعلنا بلدهم مصوناً عن النهب (أي: الإغارة وأخذ الشيء قهراً) والتعدي، آمناً أهلُه عن القتل والسبي ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يُختلسون (أي: يباغتون) قتلاً وسبياً؛ إذ كانت العرب حوله في تغاور (أي: يُغِير بعضهم على بعض) وتناهب (أي: ينهب بعضهم بعضاً) ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أبعد هذه النعمة المكشوفة وغيرها مما لا يَقدر عليه إلا الله تعالى يؤمنون بالصنم أو الشيطان؟ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ حيث أشركوا به غيره.

(٦٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ يعني الرسولَ أو الكتابَ ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ألا يستوجبون الثواء (أي: الإقامة) فيها وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله تعالى وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب؟ أو لاجترائهم؛ أي: ألم يعلموا أن في جهنم مَثْوىً للكافِرين حتى اجترءوا مثل هذه الجراءة.

(٦٩) ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ في حقِّنا. وإطلاقُ المجاهدة ليعمَّ جهادَ الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعه

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ سبلَ السير إلينا والوصول إلى جنابنا. أو لنزيدنَّهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقاً لسلوكها، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً﴾ [محمد: ١٧] ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ بالنصر والإِعانة.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة العنكبوت

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الروم

مكيَّة، إلا قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ﴾ الآية، وآيُها ستون آية

(١ـ٤) ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضِ العرب منهم، لأنها الأرض المعهودة عندهم ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ روي أن فارس غزَوا الروم فوافوهم (أي: أتوْهم) بأذرُعات وبصرى - وقيل بالجزيرة - وهي أدنى أرض الروم من الفرس، فغَلبوا عليهم، وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمِتوا بالمسلمين، وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أمِّيون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرَنَّ عليكم، فنزلت، فقال لهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه: لا يقرنَّ الله تعالى أعينكم فوالله لتظهرَنَّ الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أُبَيُّ بن خلف: كذبت، اجعل بيننا أجلاً أُناحِبُك (أي: أشارطك) عليه، فناحبه على عشر قلائص (وهي النوق الشابة) من كل واحد منهما، وجعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبَر أبو بكر رضي الله تعالى عنه رسول الله ﷺ فقال: البضعُ ما بين الثلاث إلى التسع، فزايِدْهُ في الخطر (أي: الرهان) ومادّه في الأجل (أي: طوِّل الأجل معه)، فجعلاه مئة قلوص إلى تسع سنين، ومات أُبَيٌّ من جرح رسول الله ﷺ بعد قفوله (أي: رجوعه) من أُحُدٍ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، فأخذ أبو بكر الخطر (أي: الرهان) من ورثة أُبَيٍّ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فقال: تصدَّقْ به [سبب النزول ورد في سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. والآية من دلائل النبوة لأنها إخبار عن الغيب ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ أي: له الأمر حين غُلبوا وحين يَغلبون، ليس شيء منهما إلا بقضائه ﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾ ويوم يَغلب الروم ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾.

(٥) ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ مَنْ له كتاب على مَنْ لا كتاب له، لِما فيه من انقلاب التفاؤل، وظهور صدقهم فيما أخبَروا به المشركين، وغلبتهم في رهانهم، وازدياد يقينهم وثباتهم في دينهم ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ فينصُرُ هؤلاء تارةً وهؤلاء أخرى ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ ينتقم من عباده بالنصر عليهم تارة، ويتفضل عليهم بنصرهم أخرى.

وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾

(٦) ﴿**وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ**﴾ لامتناع الكذب عليه تعالى ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾**﴾ وَعْدَهُ ولا صحةَ وعدِه لجهلهم وعدم تفكرهم.

(٧) ﴿**يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا**﴾ ما يشاهدونه منها والتمتع بزخارفها ﴿**وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ**﴾ التي هي غايتها والمقصود منها ﴿**هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾**﴾ لا تخطر ببالهم، لتَمكُّنِ غفلتهم عن الآخرة المحققة. وهو تقريرٌ لجهالتهم وتشبيهٌ لهم بالحيوانات المقصور إدراكها من الدنيا ببعض ظاهرها، فإن من العلم بظاهرها معرفةُ حقائقها وصفاتها وخصائصها وأفعالها وأسبابها وكيفية صدورها منها وكيفية التصرف فيها، وأما باطنُها فإنها مجازٌ إلى الآخرة ووصلةٌ إلى نيلها وأنموذجٌ لأحوالها. وإشعارٌ بأنه لا فرق بين عدم العلم والعلم الذي يختصُّ بظاهر الدنيا.

(٨) ﴿**أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ**﴾ أَوَلمْ يَتَفكرُوا في أمر أنفسهم، فإنها أقرب إليهم من غيرها، ومرآةٌ يُجتلى (أي: يَظهر) فيها للمستبصر ما يُجتلى له في الممكنات بأسرها، ليتحقق له قدرةُ مبدعها جلَّ وعلا على إعادتها مثل قدرته على إبدائها ﴿**مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ**﴾ تنتهي عنده ولا تبقى بعده ﴿**وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ**﴾ بلقاء جزائه عند انقضاء الأجل المسمى أو قيام الساعة ﴿**لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾**﴾ جاحدون، يحسبون أن الدنيا أبدية وأن الآخرة لا تكون (أقول: هذه الآية وإن كانت في حق الكافرين لكن على المؤمن أن لا يُخرج نفسه منها، إلا أن الكافر ينكر والمؤمن لا ينكر، لكنه يقع في الغفلة).

(٩) ﴿**أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ**﴾ تقريرٌ لسيرهم في أقطار الأرض ونظرهم في آثار المدمَّرين قبلهم ﴿**كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ**﴾ كعادٍ وثمود ﴿**وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ**﴾ وقلبوا وجهها لاستنباط المياه واستخراج المعادن وزرع البذور وغيرها ﴿**وَعَمَرُوهَآ**﴾ وعمروا الأرض ﴿**أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا**﴾ من عمارة أهل مكة إياها، فإنهم أهل وادٍ غيرِ ذي زرع، لا تَبَسُّطَ لهم في غيرها. وفيه تهكُّمٌ بهم من حيث إنهم مغترون بالدنيا مفتخرون بها وهم أضعف حالاً فيها، إذ مدار أمرها على التبسط في البلاد والتسلط على العباد والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة، وهم ضعفاء مُلجَؤون إلى دارٍ لا نفع لها ﴿**وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم**

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات، أو الآيات الواضحات ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليفعل بهم ما تفعلُ الظلمة فيدمِّرهم من غير جرم ولا تذكير ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ حيث عملوا ما أدَّى إلى تدميرهم.

(١٠) ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ أي: ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الذين اقترفوا (أي: اكتسبوا) الخطيئة أن طَبَعَ الله تعالى على قُلُوبِهِمْ حتى كذَّبوا بآيات الله تعالى واستهزؤوا بها.

(١١) ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ يُنشِئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يبعثهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ للجزاء.

(١٢) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ يسكتون متحيِّرين آيسين.

(١٣) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ ممن أشركوهم بالله تعالى ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ يجيرونهم (أي: يخلِّصونهم) من عذاب الله تعالى ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝١٣﴾ يكفرون بآلهتهم حين يئسوا منهم. وقيل: كانوا في الدنيا كافرين بسببهم.

(١٤) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾ أي: المؤمنون والكافرون، لقوله تعالى:

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ أرضٍ ذات أزهار وأنهار ﴿يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾ يُسَرُّون سروراً تهلَّلَتْ له وجوههم.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾

(١٦) ﴿**وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ**﴾ (أي: البعث) ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾**﴾ مُدْخَلون لا يغيبون عنه.

(١٧ـ١٨) ﴿**فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾**﴾ إخبارٌ في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته وتتجدَّد فيها نعمته. أو دلالة على ما يحدث فيها من الشواهد الناطقة بتنزُّهه واستحقاقه الحمدَ ممن له تمييز من أهل السموات والأرض. وتخصيصُ التسبيح بالمساء والصباح لأن آثار القدرة والعظمة فيهما أظهَرُ، وتخصيصُ الحمد بالعشيِّ الذي هو آخر النهار والظهيرةِ التي هي وسطُه لأن تجدُّد النعم فيهما أكثر. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الآية جامعةٌ للصلوات الخمس: «تُمْسُونَ» صلاتا المغرب والعشاء، و«تُصْبِحُونَ» صلاة الفجر، و«عَشِيًّا» صلاة العصر، و«تُظْهِرُونَ» صلاة الظهر. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قال حين يصبح: فسبحان الله حين تمسون إلى قوله وكذلك تخرجون أدرك ما فاته في ليلته، ومن قاله حين يمسي أدرك ما فاته في يومه» [أخرجه أبو داود رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما].

(١٩) ﴿**يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ**﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة ﴿**وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ**﴾ كالنطفة والبيضة. أو يعقِّبُ الحياةَ بالموت وبالعكس ﴿**وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ**﴾ بالنبات ﴿**بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ**﴾ يُبْسها ﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ ومثْلَ ذلك الإخراج ﴿**تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾**﴾ من قبوركم، فإنه أيضاً تعقيب الحياةِ الموتَ.

(٢٠) ﴿**وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ**﴾ أي: في أصل الإنشاء، لأنه خلق أصلهم منه ﴿**ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾**﴾ ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض.

(٢١) ﴿**وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا**﴾ لأن حواء خلقت من ضلع آدم، وسائر النساء خلقن من نُطَفِ الرجال، أو لأنهن من جنسهم لا من جنس آخر ﴿**لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا**﴾ لتميلوا إليها وتألفوا بها، فإن الجنسيَّة عِلَّةٌ للضم، والاختلاف سببٌ للتنافر ﴿**وَجَعَلَ بَيۡنَكُم**﴾ أي: بين الرجال والنساء ﴿**مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ**﴾ بواسطة الزواج، نظماً لأمر المعاش. أو بأنَّ تعيُّش الإنسان متوقِّفٌ على التعارف والتعاون

المحوِج إلى التوادِّ والتراحم (أقول: وإذا لم توجد المودة فلا بد من الرحمة) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ فيعلمون ما في ذلك من الحِكَم.

(٢٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لغاتكم؛ بأن علَّم كلَّ صنف لغته، أو ألهمه وضعَها وأقدَرَه عليها. أو أجناس نطقكم وأشكاله؛ فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ بياضِ الجلد وسوادِه، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها وحِلاها (أي: أوصافها)، بحيث وقع التمايز والتعارف، حتى أن التوأمين مع توافق موادِّهما وأسبابهما والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ لا تكاد تخفى على عاقل؛ مِنْ ملَكٍ أو إنسٍ أو جنٍّ.

(٢٣) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وتقوي القوى الطبيعية، وطلب معاشكم فيهما. أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار، فلفَّ وضمَّ بين الزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأن كلاً من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ سماعَ تفهُّمٍ واستبصارٍ، فإن الحكمة فيه ظاهرة.

(٢٤) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصاعقة للمسافر ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث للمقيم ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يُبْسها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكوُّنها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته جلَّ وعلا.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٥) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾ قيامهما بإقامته لهما وإرادته لقيامهما في حيِّزَيْهما المعيَّنَيْن من غير مقيم محسوس. والتعبيرُ بالأمر للمبالغة في كمال القدرة والغنى عن الآلة ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ كأنه قيل: ومن آياته قيام السموات والأرض بأمره ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوةً واحدة فيقول: أيها الموتى اخرجوا. والمراد تشبيه سرعة ترتُّبِ حصول ذلك على تعلق إرادته بلا توقف واحتياج إلى تجشُّمِ (أي: تكلُّفِ) عملٍ بسرعةِ ترتُّبِ إجابةِ الداعي المطاع على دعائه.

(٢٦) ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ منقادون لفعله فيهم، لا يمتنعون عليه.

(٢٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد هلاكهم ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ والإعادة أسهل من الأصل بالإضافة إلى قَدْرِكم والقياسِ على أصولكم، وإلا فهما عليه جل وعلا سواء ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ﴾ الوصف العجيب الشأن؛ كالقدرة العامة والحكمة التامة. ومَنْ فسَّره بقول: لا إله إلا الله أراد به الوصف بالوحدانية ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ يصف به ما فيهما دلالةً ونطقاً ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يعجز عن إبداءِ ممكنٍ وإعادته ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ الذي يُجري الأفعالَ على مقتضى حكمته جل وعلا.

(٢٨) ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾ منتزَعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ من مماليككم ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وغيرها ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ فتكونون أنتم وهم فيه سواء يتصرَّفون فيه كتصرُّفكم مع أنهم بشر مثلكم وأنها مُعارة لكم (أي: عارية عندكم) ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أن يستبدوا بتصرفٍ فيه ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلَ ذلك التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبيِّنُها، فإن التفصيل مما يكشف المعاني ويوضِّحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ يستعملون عقولهم في تدبُّر الأمثال.

(٢٩) ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالإشراك ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ جاهلين، لا يكفُّهم شيءٌ، فإن العالِمَ إذا اتبع هواه ربما رَدَعه علمُه ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ فمَنْ يقدر على هدايته ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يخلِّصونهم من الضلالة ويحفظونهم عن آفاتها.

(٣٠) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فقوِّمْهُ له، غير ملتفت عنه. وهو تمثيل للإقبال والاستقامة عليه والاهتمام به ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خِلقته ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ خَلَقهم عليها؛ وهي قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه. أو ملة الإسلام، فإنهم لو خُلُّوا وما خلقوا عليه أدَّى بهم إليها. وقيل: العهد المأخوذ من آدم وذريته ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لا يقدر أحد أن يغيِّره. أو ما ينبغي أن يغيَّر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له، أو الفطرة إن فُسِّرت بالملة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ استقامتَهُ لعدم تدبُّرهم.

(٣١) ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه. وقيل: منقطعين إليه. والآية (﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾) خطاب للرسول ﷺ والأمة لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾ غير أنها صُدِّرت بخطاب الرسول ﷺ تعظيماً له.

(٣٢) ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ وتفريقهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ فِرَقاً تشايع كلٌّ إمامها الذي أضلَّ دينها (أي: أضاعه) ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ مسرورون ظناً بأنه الحق.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

(٣٣) ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ**﴾ شدةٌ ﴿**دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ**﴾ راجعين إليه من دعاء غيره ﴿**ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً**﴾ خلاصاً من تلك الشدة ﴿**إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ فاجأ فريق منهم بالإشراك بربهم الذي عافاهم.

(٣٤) ﴿**لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾**﴾ عاقبة تمتعكم.

(٣٥) ﴿**أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا**﴾ حجة. وقيل: ذا سلطان؛ أي ملكاً معه برهان ﴿**فَهُوَ يَتَكَلَّمُ**﴾ تكلم دلالة، كقوله: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]. أو تكلُّم نطق ﴿**بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾**﴾ بإشراكهم وصحته، أو بالأمر الذي بسببه يشركون به في ألوهيته.

(٣٦) ﴿**وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً**﴾ نعمةً؛ من صحة وسعة ﴿**فَرِحُوا۟ بِهَا**﴾ بطِروا (أي: جاوزوا الحدَّ) بسببها ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ**﴾ شدَّةٌ ﴿**بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ بشؤم معاصيهم ﴿**إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾**﴾ فاجؤوا القنوط من رحمته جلَّ وعلا.

(٣٧) ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ**﴾ فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا في السراء والضراء كالمؤمنين؟ ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾**﴾ فيستدلُّون بها على كمال القدرة والحكمة.

(٣٨) ﴿**فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ**﴾ كصلة الرحم. واحتج به الحنفية على وجوب النفقة للمحارم، وهو غير مُشعر به (قال رسول الله ﷺ: «الرَّحِم معلَّقة بين السماء والأرض، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]) ﴿**وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ**﴾ ما وُظِّفَ لهما من الزكاة. والخطاب لرسول الله ﷺ أو لمن بُسِط له (أي: وُسِّع له في الرزق) ﴿**ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ**﴾ ذاتَهُ؛ أي: يقصدون بمعروفهم إياه خالصاً. أو جهة التقرب إليه جل وعلا لا جهة أخرى ﴿**وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾**﴾ حيث حصَّلوا بما بُسِط لهم النعيمَ المقيم.

(٣٩) ﴿**وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا**﴾ زيادة محرمة في المعاملة، أو عطية يتوقع بها مزيدَ مكافأةٍ ﴿**لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ**﴾ ليزيد ويزكوَ في أموالهم ﴿**فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ**﴾ فلايزكو عنده ولا يبارَك فيه ﴿**وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ**﴾ تبتغون بها وجهه خالصاً ﴿**فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾**﴾ ذوو الأضعاف من الثواب. أو الذين ضَعَّفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة.

(٤٠) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أثبت له لوازم الألوهية، ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها، مؤكّداً بالإنكار على ما دلَّ عليه البرهان والعَيان ووقع عليه الوفاق، ثم استنتج من ذلك تقدسَّه عن أن يكون له شركاء فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

(٤١) ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجَدْبِ والمَوْتان (أي: موت عام في الناس والدواب) وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الغاصَةِ (أي: خيبة الذين يغوصون في البحر لاستخراج اللؤلؤ) ومحق البركات وكثرة المضارِّ. أو الضلالة والظلم ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بشؤم معاصيهم. أو بكسبهم إياه ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ بعضَ جزائِه، فإن تمامه في الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ عما هم عليه.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

(٤٢) ﴿**قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ**﴾ لتشاهدوا مصداق ذلك وتتحققوا صدقه ﴿**كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾**﴾ وهو يدلُّ على أن سوء عاقبتهم كان لفشوِّ الشرك (أي: انتشاره) وغلبتِه فيهم. أو كان الشرك في أكثرهم، وما دونه من المعاصي في قليلٍ منهم.

(٤٣) ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ**﴾ البليغ الاستقامة ﴿**مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ**﴾ لا يقدر أن يردَّه أحدٌ ﴿**مِنَ ٱللَّهِ**﴾ أو لا يردُّه الله تعالى لتعلق إرادته القديمة بمجيئه ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾**﴾ يتصدَّعون؛ أي: يتفرَّقون، فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، كما قال تعالى:

(٤٤) ﴿**مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ**﴾ أي: وبالُه؛ وهو النار المؤبدة ﴿**وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾**﴾ يُسوُّون منزلاً في الجنة.

(٤٥) ﴿**لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ**﴾، والاقتصارُ على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات، والاكتفاء على فحوى قوله: ﴿**إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾**﴾ فإن فيه إثبات البغض لهم والمحبة للمؤمنين. وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ دالٌّ على أن الإثابة تفضُّلٌ محض.

(٤٦) ﴿**وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ**﴾ الشمال والصبا والجنوب؛ فإنها رياح الرحمة، وأما الدبور فريح العذاب ﴿**مُبَشِّرَٰتٍ**﴾ بالمطر ﴿**وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ**﴾ يعني المنافعَ التابعة لها. وقيل: الخصب التابع لنزول المطر المسبَّب عنها ﴿**وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ**﴾ (أي: تسوق الرياحُ السفنَ) ﴿**وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ**﴾ يعني تجارة البحر ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾**﴾ ولتشكروا نعمة الله تعالى فيها.

(٤٧) ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟**﴾ بالتدمير ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾**﴾ إشعارٌ بأن الانتقام لهم، وإظهارٌ لكرامتهم، حيث جعلهم مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما من امرئ مسلم يرُدُّ عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله تعالى أن يرُدَّ عنه نار جهنم، ثم تلا ذلك» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى].

(٤٨) ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ**﴾ متصلاً تارة ﴿**فِى ٱلسَّمَآءِ**﴾ في سَمْتها (أي: في

جهتها) ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ سائراً أو واقفاً، مطبقاً وغير مطبق، من جانب دون جانب، إلى غير ذلك ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قِطَعاً تارةً أخرى ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في التارَتَيْن ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يعني بلادَهم وأراضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ بمجيء الخصب (أي: النماء والخير).

(٤٩) ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكريرٌ للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم ﴿لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ لآيسين.

(٥٠) ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أثرِ الغيث؛ من النبات والأشجار وأنواع الثمار ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني: إن الذي قَدِرَ على إحياء الأرض بعد موتها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لقادرٌ على إحيائهم، فإنه إحداثٌ لِمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية، كما أن إحياء الأرض إحداثٌ لمثل ما كان فيها من القوى النباتية ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ لأن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على سواء.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(٥١) ﴿**وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا**﴾ فرأوا الأثر أو الزرع مصفرّاً. وقيل: السحاب؛ لأنه إذا كان مُصْفَرًّا لم يمطر ﴿**لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾**﴾ وهذه الآية ناعية (أي: شاهدة مفضحة) على الكفار بقلة تثبُّتهم، وعدم تدبُّرهم، وسرعة تزلزلهم، لعدم تفكرهم وسوء رأيهم، فإن النظر السويَّ يقتضي أن يتوكلوا على الله تعالى ويلتجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم، ولا ييئسوا من رحمته، وأن يبادروا إلى الشكر والاستدامة بالطاعة إذا أصابهم برحمته، ولا يُفرطوا في الاستبشار، وأن يصبروا على بلائه إذا ضرب زروعهم بالاصفرار، ولا يكفروا نعمه جلَّ وعلا.

(٥٢) ﴿**فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ**﴾ وهم مِثْلُهم لِما سدُّوا عن الحق مشاعرهم ﴿**وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾**﴾ قيَّد الحكمَ به ليكون أشد استحالة، فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام يفطن منه بواسطة الحركات شيئاً.

(٥٣) ﴿**وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ**﴾ سمَّاهم عمياً لفقدهم المقصود الحقيقي من الإبصار، أو لِعمى قلوبهم ﴿**إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا**﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى. ويجوز أن يراد بالمؤمن المشارفُ للإيمان ﴿**فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾**﴾ لِما تأمرهم به.

(٥٤) ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ**﴾ أي: ابتدأكم ضعفاء، وجعل الضعف أساس أمركم، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. أو خلقكم من أصل ضعيف؛ وهو النطفة ﴿**ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً**﴾ وذلك إذا بلغتم الحُلُم، أو تعلق بأبدانكم الروح ﴿**ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً**﴾ إذا أخذ منكم السن (أي: بالشيخوخة) ﴿**يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**﴾ من ضعفٍ وقوةٍ وشبيبةٍ وشيبة ﴿**وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾**﴾ فإن الترديد في الأحوال المختلفة مع إمكان غيره دليلُ العلم والقدرة.

(٥٥) ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ**﴾ القيامة. سُمِّيت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتة، وصارت علَماً لها بالغلَبة ﴿**يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟**﴾ في الدنيا، أو في القبور، أو فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم. وفي الحديث: «ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون» [أصله في الصحيحين]. وهو محتمِلٌ

للساعات والأيام والأعوام ﴿غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ استقلوا مدة لبثهم إضافة إلى مدة عذابهم في الآخرة، أو نسياناً ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝﴾ يُصرفون في الدنيا.

(٥٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ من الملائكة والإنس ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في علمه أو قضائه. أو ما كتبه لكم؛ أي أوجبه. أو اللوح. أو القرآن. وهو قوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ رَدُّوا بذلك ما قالوه وحلفوا عليه ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتموه ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ أنه حقٌّ لتفريطكم في النظر.

(٥٧) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝﴾ لا يُدعَون إلى ما يقتضي إعتابهم؛ أي إزالةَ عتبهم، من التوبة والطاعة، كما دُعوا إليه في الدنيا.

(٥٨) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ ولقد وصفناهم فيه بأنواع الصفات التي هي في الغرابة كالأمثال؛ مثل صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون لهم من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب. أو بيَّنا لهم من كل مثل ينبِّههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ من آيات القرآن ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من فرط عنادهم وقساوة قلوبهم ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝﴾ مزوِّرون.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ لا يطلبون العلم ويصرُّون على خرافات اعتقدوها، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحقِّ.

(٦٠) ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد (عليه الصلاة والسلام) على أذاهم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله ﴿حَقٌّۖ﴾ لا بدَّ من إنجازه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ ولا يحملنَّك على الخفَّة والقلق ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝﴾ بتكذيبهم وإيذائهم، فإنهم شاكُّون ضالُّون لا يُستبدَع (أي: لا يستغرَب) منهم ذلك.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الروم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ لُقْمَانَ ٣١ ٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان

مكيَّة، إلا آية وهي: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فإنَّ وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيف، لأنه لا ينافي شرعيَّتهما بمكة، وقيل: إلا ثلاثاً من قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ وهي أربع وثلاثون آية

(١-٢) ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ (إشارةٌ إلى ما تضمَّنته السورة أو القرآن من الآي، والمراد من الكتاب أحدهما، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحِكم، أو لأنه كلام حكيم).

(٣-٤) ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ بيان لإحسانهم. أو تخصيص لهذه الثلاثة من شُعَبه لفضل اعتدادٍ بها.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ لاستجماعهم العقيدة الحقَّة والعمل الصالح (أقول: قدَّم العقيدة على العمل الصالح لأنها أساسه).

(٦) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ما يُلهي عما يَعني؛ كالأحاديث التي لا أصل لها، والأساطير التي لا اعتبار فيها، والمضاحك (أي: الكلمات التي يضحك بها) وفضول الكلام. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث اشترى كتب الأعاجم وكان يحدِّث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار والأكاسرة. وقيل: كان يشتري القيان (أي: المغنِّيات) ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام ومنْعِه عنه ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينِه، أو قراءةِ كتابه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحالِ ما يشتريه، أو بالتجارة؛ حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ويتخذ السبيلَ سخريةً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ لإهانتهم الحقَّ باستئثار الباطل عليه.

(٧) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبراً لا يعبأ بها (أي: لا يعتبرها) ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ مشابهاً حاله حالَ من لم يسمعها ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ مشابهاً من في أذنيه ثِقَلٌ لا يقدر أن يسمع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ أعْلِمْهُ بأن العذاب يحيق به لا محالة. وذكر البشارة على التهكم.

(٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ أي: لهم نعيم الجنات، فعكس للمبالغة.

(٩) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ فقولُه: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ﴾ وعدٌ حقٌّ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء فيمنعه عن إنجاز وعده ووعيده ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ الذي لا يَفعل إلا ما تستدعيه حكمته.

(١٠) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ (وهو دليل على وجود الصانع الحكيم جلَّ وعلا، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية، واختصاصها بما يقتضي ذلك، لا بد وأن يكون بمخصِّص ليس بجسم ولا جسماني، يرجِّح بعض الممكنات على بعض بإرادته، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات) ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً شوامخ (أي: شواهق مرتفعات) ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ كراهةَ أن تميل بكم، فإنَّ تشابُهَ أجزائها يقتضي تبدُّل أحيازها (أي: أمكنتها) وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته، أو لشيء من لوازمه بحيِّز (أي: مكان) ووضع مُعيَّنَيْن ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾ من كل صنف كثير المنفعة. وكأنه استدلَّ بذلك على عزَّتِه التي هي كمال القدرة، وحكمتِه التي هي كمال العلم، ومهَّدَ به قاعدة التوحيد وقرَّرها بقوله تعالى:

(١١) ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ هذا الذي ذُكِرَ مخلوقُه، فماذا خَلق آلهتُكم حتى استحقوا مشاركته ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾ إضرابٌ عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفى على ناظر.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

(١٢) ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ**﴾ يعني لقمان بن باعوراء من أولاد آزر ابن أخت أيوب أو خالته (أقول: إذا طاب أصل المرء طابت فروعه). وعاش حتى أدرك داود عليه الصلاة والسلام وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعثه، والجمهورُ على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً. والحكمة في عرف العلماء استكمالُ النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملَكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهوراً، وكان يسرد الدرع (أي: ينسجها)، فلم يسأله عنها، فلما أتمَّها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنتِ، فقال: الصمت حِكَمٌ وقليلٌ فاعلُه. وأن داود عليه الصلاة والسلام قال له يوماً: كيف أصبحتَ؟ فقال: أصبحتُ في يدي غيري، فتفكَّرَ داود فيه فصعق صعقة. وأنه أمره بأن يذبح شاةً ويأتي بأطيب مضغتين منها، فأتى باللسان والقلب، ثم بعد أيام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها، فأتى بهما أيضاً، فسأله عن ذلك فقال: هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا (أقول: لأن فساد الإنسان باللسان والقلب، وصلاحه كذلك بهما) ﴿**أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ**﴾ أي: اشكر لله تعالى ﴿**وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ**﴾ لأن نفعه عائد إليها؛ وهو دوام النعمة واستحقاق مزيدها ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ**﴾ لا يحتاج إلى الشكر ﴿**حَمِيدٌ ﴿١٢﴾**﴾ حقيق (أي: لائق) بالحمد وإن لم يُحمَد. أو محمودٌ ينطق بحمده جميعُ مخلوقاته بلسان الحال.

(١٣) ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ**﴾ قوله: يا بني تصغيرُ إشفاقٍ ﴿**لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ**﴾ قيل: كان كافراً، فلم يزل به حتى أسلم ﴿**إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾**﴾ لأنه تسوية بين مَنْ لا نعمة إلا منه جلَّ وعلا، ومَنْ لا نعمة منه.

(١٤) ﴿**وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا**﴾ ذات وَهن ﴿**عَلَىٰ وَهْنٍ**﴾ أي: تضعف ضعفاً فوق ضعف، فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها ﴿**وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ**﴾ وفِطامه في انقضاء عامين، وكانت ترضعه في تلك المدة. وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حولان (أقول: ويجوز فطامه قبل تكميل السنتين إذا اتفق الوالدان على ذلك، ولم يكن فيه ضرر على الطفل) ﴿**أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ**﴾ ومن ثمة قال عليه الصلاة

والسلام لمن قال له: مَنْ أَبَرُّ؟ قال: «أمَّك، ثم أمَّك، ثم أمَّك، ثم قال بعد ذلك: أباك» [والحديث رواه أبو داود رحمه الله تعالى وله شواهد في الصحيحين] ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ١٤﴾ فأحاسبك على شكرك وكفرك.

(١٥) ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ باستحقاقه الإشراك تقليداً لهما. وقيل: أراد بنفي العلم به نفيَه ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صحاباً (أي: مصاحبة) معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ في الدين ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة (أقول: وهو سبيل الرسول الأعظم ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم) ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجعكَ ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥﴾ بأن أجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما.

(١٦) ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إن الخصلة من الإحسان أو الإساءة إن تكُ مثلاً في الصغر كحبة الخردل ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أخفى مكان وأحرزِه (أي: أصْوَنِه) كجوف صخرة، أو أعلاه كمحدَّب السماوات، أو أسفله كمقعر الأرض ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يُحْضرها فيحاسب عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمُه إلى كل خفيٍّ ﴿خَبِيرٌ ١٦﴾ عالم بكُنْهِهِ (أي: بحقيقته).

(١٧) ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلاً لنفسك ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد، سيما في ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى الصبر أو إلى كل ما أَمَرَهُ به ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٧﴾ مما عزمه الله تعالى من الأمور؛ أي: قطعه قطع إيجاب.

(١٨) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُمِله عنهم، ولا تُوَلِّهم صفحةَ وجهك كما يفعله المتكبِّرون ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: فرحاً. أو لأجل المرح؛ وهو البطر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ (متكبر) ﴿فَخُورٍ ١٨﴾ (مَنْ يعدِّد مناقبه تكبُّراً [النسفي]).

(١٩) ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ توسَّطْ فيه بين الدبيب (أي: المشي رويداً) والإسراع ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وأنقِصْ منه وأقصِر ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أوحشَها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ١٩﴾ والحمار مَثَلٌ في الذم سيما نُهاقُه.

أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

(٢٠) ﴿**أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ**﴾ بأن جعله أسباباً محصِّلة لمنافعكم ﴿**وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ بأن مكَّنكم من الانتفاع به بوسَطٍ أو بغير وسط (أي: بواسطة أو بغير واسطة) ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ**﴾ محسوسةً ومعقولةً، ما تعرفونه وما لا تعرفونه ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ**﴾ في توحيده وصفاته ﴿**بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ مستفاد من دليل ﴿**وَلَا هُدًى**﴾ راجع إلى رسول ﴿**وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾**﴾ أنزله الله تعالى، بل بالتقليد كما قال تعالى:

(٢١) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ**﴾ وهو منعٌ صريح من التقليد في الأصول ﴿**أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾**﴾ إلى ما يَؤُول إليه من التقليد أو الإشراك. والاستفهام للإنكار والتعجب.

(٢٢) ﴿**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ بأن فوَّض أمره إليه وأقبل بشراشره (أي: بجميع وجوده) عليه ﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ في عمله ﴿**فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ**﴾ تعلَّق بأوثق ما يُتعلَّق به. وهو تمثيل للمتوكِّل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسَّك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه ﴿**وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾**﴾ إذ الكلُّ صائرٌ إليه.

(٢٣) ﴿**وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ**﴾ فإنه لا يضرُّك في الدنيا والآخرة ﴿**إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ**﴾ في الدارين ﴿**فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ**﴾ بالإهلاك والتعذيب ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾**﴾ فمجازٍ عليه فضلاً عما في الظاهر (أقول: إذا عزم الإنسان على المخالفات فإنه يجازى عليها، أما إذا لم يعزم فلا شيء عليه. فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]).

(٢٤) ﴿**نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا**﴾ تمتيعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً؛ فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل ﴿**ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾**﴾ يَثقُل عليهم ثِقَلَ الأجرام الغلاظ. أو يضم إلى الإحراق الضغطَ.

(٢٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره، بحيث اضطروا إلى إذعانه (أي: الإقرار به) ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٥﴾ أن ذلك يلزمهم.

(٢٦) ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يستحقُّ العبادة فيهما غيرُه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن حمد الحامدين ﴿ٱلْحَمِيدُ ۝٢٦﴾ المستحِقُّ للحمد وإن لم يُحمَد.

(٢٧) ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ ولو ثبت كونُ الأشجار أقلاماً ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والبحرُ المحيط بسعته مداداً ممدوداً بسبعة أبحر ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بكَتْبِها بتلك الأقلام بذلك المداد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ ۝٢٧﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمرٌ.

(٢٨) ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلا كخَلْقِها وبَعْثِها إذ لا يشغله شأن عن شأن، لأنه يكفي لوجود الكلِّ تعلُّقُ إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كل مسموع ﴿بَصِيرٌ ۝٢٨﴾ يبصر كل مبصَر، لا يشغله إدراك بعضها عن بعض، فكذلك الخلق.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

سُورَةُ السَّجْدَةِ ٣٢ — ٣٠

(٢٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ﴾ كلٌّ من النيرين (أي: الشمس والقمر) يجري في فَلَكِهِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى منتهى معلومٍ؛ الشمس إلى آخر السنة، والقمر إلى آخر الشهر. وقيل: إلى يوم القيامة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ عالم بكُنْهِه (أي: بحقيقته).

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الذي ذكر من سَعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بسبب أنه الثابت في ذاته، الواجب من جميع جهاته. أو الثابتُ إلهيَّتُهُ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدوم في حَدِّ ذاته، لأنه لا يوجد ولا يتصف إلا بجعله جل وعلا. أو الباطل إلهيته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ مترفِّعٌ على كل شيء ومتسلِّطٌ عليه.

(٣١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه. وهو استشهادٌ آخر على باهر قدرته وكمال حكمته وشمول إنعامه جلَّ وعلا ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ دلائله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المشاقِّ، فيتعب نفسه بالتفكر في الأفاق والأنفس ﴿شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ يعرف النعم ويتعرَّف مانِحَها (أي: مُعْطِيَها) أو للمؤمنين؛ فإن الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ.

(٣٢) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ عَلاهم وغطاهم ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ كما يظلُّ من جبلٍ أو سحابٍ أو غيرهما ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم (أي: أصابهم) من الخوف الشديد ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ مقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد، أو متوسِّطٌ في الكفر لانزجاره (أي: رجوعه وانكفافه) بعض الانزجار ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدَّارٍ، فإنه نقضٌ للعهد الفطري، أو لِما كان في البحر ﴿كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ للنعم (أقول: الإنسان إذا شبع ينسى القحط، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]).

(٣٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لا يَقضي عنه ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وتغييرُ النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يُجزي (أقول: لأن شفقة الوالد على

المولود أكثر من شفقة المولود على الوالد)، وقطْعِ طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن خُلْفُه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٣٣﴾ الشيطان؛ بأن يُرَجِّيكم التوبة والمغفرة فيجسِّركم على المعاصي.

(٣٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ علمُ وقتِ قيامها. لِما روي أن الحارث بن عمرو أتى رسول الله ﷺ فقال: متى قيام الساعة؟ وإني قد ألقيت حباتي في الأرض فمتى السماء تمطر؟ وحملُ امرأتي أذكرٌ أم أنثى؟ وما أعمل غداً؟ وأين أموت؟ فنزلت. وعنه عليه الصلاة والسلام: «مفاتح الغيب خمس» وتلا هذه الآية [والحديث رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في إبانه (أي: أوانه) المقدَّر له، والمحلِّ المعيَّن له في علمه جلَّ وعلا ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى، أتام أم ناقص ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر. وربما تعزم على شيء وتفعل خلافه ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت. روي «أن ملَك الموت مرَّ على سليمان عليه الصلاة والسلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظم إليه، فقال الرجل: من هذا؟ قال: ملك الموت، فقال: كأنه يريدني، فَمُرِ الريح أن تحملني وتلقيني بالهند، ففعل، فقال الملَك: كان دوام نظري إليه تعجباً منه، إذ أُمِرتُ أن أقبض روحه بالهند وهو عندك» [أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في كتاب الزهد] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها ﴿خَبِيرٌۢ ٣٤﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة لقمان

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة السجدة

مكيَّة، وآيها ثلاثون آية

(١-٢) ﴿**الٓمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ**﴾ على أن التنزيل بمعنى المنزَّل ﴿**لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ②**﴾ (أي: لا شكَّ فيه).

(٣) ﴿**أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ**﴾ فإنه إنكارٌ لكونه من رب العالمين، وقولُه: ﴿**بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**﴾ فإنه تقريرٌ له. وبيَّنَ المقصود من تنزيله فقال: ﴿**لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ**﴾ إذ كانوا أهل الفترة ﴿**لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③**﴾ بإنذارك إياهم.

(٤) ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ**﴾ (استوى أمره أو استولى. وعن أصحابنا أنَّ الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف. والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه، منزَّهاً عن الاستقرار والتمكُّن. والعرش: الجسم المحيط بسائر الأجسام) ﴿**مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ**﴾ مَا لَكُمْ إذا جاوزتم رضا الله تعالى أحدٌ ينصركم ويشفع لكم. أو مَا لَكُمْ سِواه وليٌّ ولا شفيع، بل هو الذي يتولى مصالحكم وينصركم في مواطن نصركم ﴿**أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ④**﴾ بمواعظ الله تعالى!

(٥) ﴿**يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ**﴾ يدبِّر أمر الدنيا بأسباب سماوية - كالملائكة وغيرها - نازلة آثارها إلى الأرض ﴿**ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**﴾ ثم يصعد إليه، ويثبت في علمه موجوداً ﴿**فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤**﴾ في برهة من الزمان متطاولة؛ يعني بذلك استطالة ما بين التدبير والوقوع. وقيل: يدبِّر الأمر بإظهاره في اللوح، فينزل به الملك ثم يعرج إليه في زمان هو كألف سنة، لأن مسافة نزوله وعروجه مسيرة ألف سنة، فإن ما بين السماء والأرض مسيرة خمس مئة سنة. وقيل: يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر. وقيل: يدبِّر الأمر إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمر كله يوم القيامة. وقيل يدبِّر المأمور به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي، ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلِصين والأعمال الخلَّص.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيدبِّر أمرَهما على وَفْق الحكمة ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾ على العباد في تدبيره. وفيه إيماءٌ بأنه يراعي المصالح تفضُّلاً وإحساناً.

(٧) ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ خَلَقَهُ موفَّراً عليه ما يستعدُّ له ويليق به على وفق الحكمة والمصلحة ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ يعني آدم ﴿مِن طِينٖ ۝٧﴾.

(٨) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ ذرِّيَّته. سُمِّيت بذلك لأنها تنسل منه؛ أي: تنفصل ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨﴾ ممتهَن.

(٩) ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ قَوَّمَهُ بتصوير أعضائه على ما ينبغي ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ أضافه إلى نفسه تشريفاً له (أقول: فلا نافخ ولا منفوخ، وأضاف الروح إليه ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ تشريفاً وتكريماً للإنسان، فهي إضافة مُلك إلى مالك ومخلوق إلى خالق)، وإشعاراً بأنه خَلقٌ عجيب، وأن له شأناً له مناسبة ما إلى الحضرة الربوبية، ولأجله قيل: من عرف نفسه فقد عرف ربه (أقول: وقاله السيد محمود الأسكداري شيخ الطريقة الخلوتية. وقال أولياؤنا: لا تُعرَف النفسُ إلا بمعرِّف) ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ خصوصاً لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾ تشكرون شكراً قليلاً.

(١٠) ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا نتميز منه. أو غِبْنا فيها ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ﴾ وهو: أنُبعث أو يُجدَّد خَلقُنا؟ والقائل أبيُّ بن خلف، وإسنادُه إلى جميعهم لرضاهم به ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ بالبعث أو بتلقي ملك الموت وما بعده ﴿كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾ جاحدون.

(١١) ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يستوفي نفوسكم، لا يترك منها شيئاً. أو لا يُبقي منكم أحداً ﴿مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ بقبض أرواحكم وإحصاء آجالكم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾ للحساب والجزاء.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

(١٢) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من الحياء والخزي. والخطابُ للرسول ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ ﴿رَبَّنَآ﴾ قائلين ربنا ﴿أَبْصَرْنَا﴾ ما وعدتنا ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ إذ لم يبقَ لنا شكٌّ بما شاهدنا.

(١٣) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح بالتوفيق له ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ ثبَتَ قضائي وسَبَقَ وعيدي، وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ وذلك تصريح بعدم إيمانهم، لعدم المشيئة المسبَّب عن سَبق الحكم بأنهم من أهل النار. ولا يدفعُه جعلُ ذوق العذاب مسبَّباً عن نسيانهم العاقبةَ وعدم تفكُّرهم فيها، بقوله تعالى:

(١٤) ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ فإنه من الوسائط والأسباب المقتضية له ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تركناكم من الرحمة أو في العذاب تَرْكَ المنسيِّ ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ كرَّر الأمرَ للتأكيد. وتعليلُهُ بأفعالهم السيئة - من التكذيب والمعاصي - كما علَّله بتركهم تدبُّرَ أمر العاقبة والتفكر فيها دلالةٌ على أن كلاً منهما يقتضي ذلك.

(١٥) ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ وُعظوا بها ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ خوفاً من عذاب الله تعالى ﴿وَسَبَّحُوا۟﴾ نزَّهوه عمّا لا يليق به؛ كالعجز عن البعث ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حامدين له شكراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ عن الإيمان والطاعة، كما يفعل من يُصِرُّ مستكبراً.

(١٦) ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع وتتنحَّى ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الفرش ومواضع النوم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ داعين إياه ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته. وعن النبي ﷺ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل» [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد جاء منادٍ ينادي بصوت يُسمِع الخلائقَ كلهم: سَيَعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم، ثم يرجع فينادي: لِيَقُم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي: لِيَقُم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل، فيُسرَّحون (أي: فيُرسَلون) جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسب سائر الناس» [رواه

الإمام أحمد رحمه الله تعالى في المسند]. وقيل: كان أناس من الصحابة يصلون من المغرب إلى العشاء، فنزلت فيهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ في وجوه الخير.

(١٧) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾ لا مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مما تقرُّ به عيونهم. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بَلْهَ (اسم فعل أمر، بمعنى دعْ واترك) ما أُطْلِعْتُمْ عليه، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أخفى للجزاء، فإن إخفاءه لعلوِّ شأنه. وقيل: هذا لقوم أخفَوْا أعمالهم فأخفى الله تعالى ثوابهم.

(١٨) ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ خارجاً عن الإيمان ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ في الشرف والمثوبة.

(١٩) ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ فإنها المأوى الحقيقي، والدنيا منزلٌ مرتَحَلٌ عنه لا محالة. وقيل: المأوى جنة من الجنان ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ بسبب أعمالهم.

(٢٠) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ مكانَ جنةِ المأوى للمؤمنين ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ عبارةٌ عن خلودهم فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ إهانةً لهم وزيادة في غيظهم.

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ الأَحْزَابِ (٣٣) (٧٣)

(٢١) ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدنيا. يريد ما مُحِنوا به من السَّنة (أي: القحط) سبع سنين، والقتل والأسر ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعلَّ من بقي منهم ﴿يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ يتوبون عن الكفر.

(٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ﴾ فلم يتفكر فيها (أقول: هذا يشمل المؤمنين، ومعناه ليس هناك أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه ثم اتبع نفسه وشيطانه) ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فكيف ممن كان أظلم من كل ظالم!

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كما آتيناك ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ في شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ﴾ من لقائك الكتاب، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٦]. فإنا آتيناك من الكتاب مثل ما آتيناه منه، فليس ذلك ببدع (أي: غريب) لم يكن قطُّ حتى ترتاب فيه ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: المنزل على موسى عليه السلام ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾.

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الحِكَم والأحكام ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم به، أو بتوفيقنا لهم ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ أي: لصبرهم على الطاعة، أو عن الدنيا ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ لإمعانهم فيها النظر.

(٢٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يقضي فيميِّز الحقَّ من الباطل بتمييز المحِقِّ من المبطل ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ من أمر الدين.

(٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ (أي: أولم يبيِّن لهم) ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي: كثرة مَنْ أهلكناهم من القرون الماضية ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ﴾ يعني أهلَ مكة، يمرُّون في متاجرهم على ديارهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ سماع تدبُّر واتعاظ.

(٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي جُرِزَ نباتها، أي: قطع وأزيل، لا التي لا تنبت ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتبن والورق ﴿وَأَنفُسُهُمْ ۖ﴾ كالحَبِّ والثمر ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فيستدلُّون به على كمال قدرته وفضله جلَّ وعلا!

(٢٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ النصر. أو الفصل بالحكومة (أي: بالقضاء) ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ في الوعد به.

(٢٩) ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وهو يوم القيامة، فإنه يوم نصر المؤمنين على الكفرة والفصل بينهم. وقيل: يوم بدر، أو يوم فتح مكة.

(٣٠) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبالِ بتكذيبهم ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصرة عليهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الغلَبَة عليك.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة السجدة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحزاب

مدنيَّة، وآيها ثلاث وسبعون آية

(١) ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ**﴾ ناداه بالنبي ﷺ وأمَره بالتقوى تعظيماً له وتفخيماً لشأن التقوى، والمراد به الأمرُ بالثبات عليه ليكون مانعاً له عما نُهِيَ عنه بقوله: ﴿**وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾ فيما يعود بوهن (أي: بضعف) في الدين (أقول: محمد المصطفى ﷺ مثل المرآة لأمته، كلُّهم يُرون فيه. وهو عليه الصلاة والسلام متَّقٍ، فالأمر له والمراد به أمته). روي أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قَدِموا عليه في الموادعة (أي: المهادنة) التي كانت بينه وبينهم، وقام معهم ابن أُبيٍّ ومعتب بن قشير والجد بن قيس، فقالوا له: ارفضْ ذكر آلهتنا وقلْ: إن لها شفاعة وندعُك وربَّك، فنزلت ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا**﴾ بالمصالح والمفاسد ﴿**حَكِيمًا ﴿١﴾**﴾ لا يَحكم إلا بما تقتضيه الحكمة.

(٢) ﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ كالنهي عن طاعتهم ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾**﴾ فمُوحٍ إليك ما تُصلح به أعمالك ويُغني عن الاستماع إلى الكفرة.

(٣) ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾ وكِلْ أمرَك إلى تدبيره ﴿**وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾**﴾ مَوْكولاً إليه الأمور كلها.

(٤) ﴿**مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾ أي: ما جمع قلبين في جوف، لأن القلب معدن الروح الحيواني المتعلق بالنفس الإنساني أوّلاً، ومنبع القوى بأسرها وذلك يمنع التعدد (أقول: القلب قلبان: قلب صنوبري يوجد في الحيوان والموتى، وقلب ربَّاني له تعلُّق بهذا القلب الصنوبري كتعلُّق المغناطيس بالحديد، والعلوم والمعارف كلها محلها هذا القلب الرباني) ﴿**وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ**﴾ وما جمع الزوجية والأمومة في امرأة، ولا الدعوة (أي: ادِّعاء النسب) والبُنوَّة في رجل. والمرادُ بذلك ردُّ ما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الأريب (أي: العاقل الفطن) له قلبان، ولذلك قيل لأبي معمر أو لجميل بن أسد الفهري: ذو القلبين. والزوجة المظاهَر منها كالأم، ودَعِيُّ الرجل ابنه.

ولذلك كانوا يقولون لزيد بن حارثة الكلبي عتيق رسول الله ﷺ ابنَ محمد. أو المراد نفي الأمومة والبنوَّة عن المظاهَر منها والمتبنَّى ونفي القلبين، لتمهيد أصلٍ يُحملان عليه. والمعنى: كما لم يجعل الله تعالى قلبين في جوفٍ لأدائه إلى التناقض؛ وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى وغير أصل، لم يجعل الزوجة والدعِيَّ اللذَين لا ولادة بينهما وبينه أمَّه وابنه اللذين بينهما وبينه ولادة. ومعنى الظهار أن يقول للزوجة: أنتِ عليَّ كظهر أمي ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ لا حقيقة له في الأعيان، كقول الهاذي (أي: الذي يتكلم بغير معقول) ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ ما له حقيقة عينية مطابقة له ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ سبيل الحق.

(٥) ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ انسبوهم إليهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أقسط: من القسط بمعنى العدل، ومعناه: البالغ في الصدق ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ وأولياؤكم فيه، فقولوا: هذا أخي ومولاي بهذا التأويل ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهي أو بعده على النسيان أو سبق اللسان ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الجناح (أي: اللوم) فيما تعمَّدت قلوبكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ لعفوه عن المخطئ.

(٦) ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ في الأمور كلها؛ فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس، فلذلك أُطلِق، فيجب عليهم أن يكون أحبَّ إليهم من أنفسهم، وأمْره أنفَذَ فيهم من أمرها، وشفقتهم عليه أتمَّ من شفقتهم عليها. روي: أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك، فأمر الناس بالخروج، فقال ناسٌ: نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ مُنزَلات مَنزلتهنَّ في التحريم واستحقاق التعظيم، وفيما عدا ذلك فكالأجنبيات. ولذلك قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: لسنا أمَّهات النساء ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وذوو القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث. وهو نسخٌ لِما كان في صدر الإِسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في اللوح، أو فيما أُنزل وهو هذه الآية، أو آية المواريث، أو فيما فَرَض الله تعالى ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: أولوا الأرحام بحقِّ القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحقِّ الدين ومن المهاجرين بحقِّ الهجرة ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ والمراد بفعل المعروف التوصيةُ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ كان ما ذُكِر في الآيتين ثابتاً في اللوح أو القرآن. وقيل: في التوراة.

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾

(٧) ﴿**وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ**﴾ أي: عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القويم ﴿**وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ**﴾ خصَّهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع، وقدَّم نبيَّنا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنه ﴿**وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾**﴾ عظيمَ الشأن، أو مؤكداً باليمين.

(٨) ﴿**لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ**﴾ أي: فعلنا ذلك ليسأل الله تعالى يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهدَهم عما قالوه لقومهم. أو المصدِّقين لهم عن تصديقهم، فإنَّ مصدِّق الصادق صادقٌ. أو المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم ﴿**وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٨﴾**﴾ كأنه قال: فأثاب المؤمنين وأعدَّ للكافرين عذاباً أليماً.

(٩) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ**﴾ يعني الأحزاب؛ وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير، وكانوا زهاء (أي: قرابة) اثني عشر ألفاً ﴿**فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ**﴾ الملائكة. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما سمع بإقبالهم ضَرَبَ الخندق على المدينة ثم خرج إليهم في ثلاثة آلاف، والخندق بينه وبينهم، ومضى على الفريقين قريبٌ من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة، حتى بعث الله تعالى عليهم ريحاً باردة في ليلة شاتية، فأخصرتهم (أي: أبْرَدتهم) وسفَّت التراب (أي: ذرَّته) في وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم، وماجت الخيل (أي: تحركت) بعضها في بعض، وكبرت الملائكة في جوانب العسكر، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أمَّا محمد (عليه الصلاة والسلام) فقد بدأكم بالسحر، فالنجاءَ النجاءَ (أي: الزموا النجاء، وهو الخلاص)، فانهزموا من غير قتال ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ**﴾ مِنْ حفر الخندق ﴿**بَصِيرًا ﴿٩﴾**﴾ رائياً.

(١٠) ﴿**إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ**﴾ من أعلى الوادي من قِبَل المشرق بنو غطفان ﴿**وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ**﴾ من أسفل الوادي من قِبَل المغرب قريشٌ ﴿**وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ**﴾ مالت عن مستوى نظرها حَيْرةً وشخوصاً ﴿**وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ**﴾ رعباً ﴿**وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾**﴾ الأنواع من الظن؛ فَظَنَّ المخلصون الثُّبَّتُ القلوبِ أن الله تعالى منجزٌ وعدَه في إعلاء دينه، أو ممتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال. وظنَّ الضعاف القلوب والمنافقون ما حكي عنهم:

(١١) ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اختُبروا، فظهر المخلص من المنافق والثابتُ من المتزلزل ﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ⑪﴾ من شدة الفزع (أقول: صدق الصادقين وكذب الكاذبين لا يظهر إلا إذا طرح في نار البلاء، قال تعالى: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢] فإذا طرح في نار البلاء خرجت روائح الصبر من جوهر الصادقين، وروائح كفران النعم من الكاذبين، فيجب على المؤمن أن يعلم أن الابتلاء كاللهب للذهب، وأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وما جرى لأصحاب سيدنا محمد ﷺ أكبر دليل على ما قلناه. نسأل الله تعالى الحفظ والسلامة).

(١٢) ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفُ اعتقادٍ ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من الظفر وإعلاء الدين ﴿إِلَّا غُرُورًا ⑫﴾ وعدا باطلاً. قيل: قائله معتب بن قشير، قال يَعِدُنا محمد بفتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فَرَقاً (أي: خوفاً) ما هذا إلا وعدٌ غرور.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني أوس بن قيظي وأتباعه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أهل المدينة. وقيل: هو اسم أرض وقعت المدينة في ناحية منها ﴿لَا مُقَامَ﴾ لا موضعَ قيامٍ ﴿لَكُمْ﴾ هٰهنا ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ إلى منازلكم هاربين. وقيل: المعنى لا مُقام لكم على دين محمد (عليه الصلاة والسلام) فارجعوا إلى الشرك وأسْلِمُوه (أي: سلِّموا النبيَّ ﷺ لأعدائه) لتَسْلَموا. أو لا مقام لكم بيثرب فارجعوا كفاراً ليُمكنكم المُقام بها ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ للرجوع ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غير حصينة. وأصلها الخلل ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينة ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ⑬﴾ أي: ما يريدون بذلك إلا الفرار من القتال.

(١٤) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ دُخِلت المدينةُ أو بيوتُهم ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الرِّدَّة ومقاتلة المسلمين ﴿لَأٓتَوْهَا﴾ لأعطَوْها ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾ بالفتنة أو بإعطائها ﴿إِلَّا يَسِيرًا ⑭﴾ ريثما يكون السؤال والجواب. وقيل: ما لبثوا بالمدينة بعد تمام الارتداد إلا يسيراً.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ يعني بني حارثة، عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد حين فشلوا، ثم تابوا أن لا يعودوا لمثله ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ⑮﴾ عن الوفاء به مجازَى عليه.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

(١٦) ﴿**قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ**﴾ فإنه لا بدَّ لكل شخص من حتفِ أنفٍ (أي: من موتٍ من غير قتل)، أو قتل في وقت معيَّن سبق به القضاء وجرى عليه القلم ﴿**وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾**﴾ أي: وإن نفعكم الفرار مثلاً فمُتِّعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعاً أو زماناً قليلاً.

(١٧) ﴿**قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً**﴾ أي: أو (مَن الذي) يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة ﴿**وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا**﴾ ينفعهم ﴿**وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾**﴾ يدفع الضر عنهم.

(١٨) ﴿**قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ**﴾ المثبِّطين عن رسول الله ﷺ؛ وهم المنافقون ﴿**وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ**﴾ مِنْ ساكني المدينة ﴿**هَلُمَّ إِلَيْنَا**﴾ قرِّبوا أنفسكم إلينا ﴿**وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾**﴾ إلا إتياناً أو زماناً أو بأساً قليلاً، فإنهم يعتذرون ويتثبطون ما أمكن لهم. أو يخرجون مع المؤمنين ولكن لا يقاتلون إلا قليلاً.

(١٩) ﴿**أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ**﴾ بخلاء عليكم بالمعاونة أو النفقة في سبيل الله تعالى أو الظفر أو الغنيمة ﴿**فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ**﴾ في أحداقهم ﴿**كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ**﴾ كنظر المغشيِّ عليه أو كدوران عينيه ﴿**مِنَ ٱلْمَوْتِ**﴾ من معالجة سكرات الموت خوفاً ولواذاً (أي: تحصّناً) بك ﴿**فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ**﴾ وحيزت الغنائم (أي: جمعت) ﴿**سَلَقُوكُم**﴾ ضربوكم ﴿**بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ**﴾ ذَرِبَةٍ (أي: سخَّاطة سليطة) يطلبون الغنيمة. والسلق: البسط بقهرٍ، باليد أو باللسان ﴿**أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ**﴾ وليس بتكرير، لأن كلًّا منهما مفيد من وجهٍ ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟**﴾ إخلاصاً ﴿**فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ**﴾ فأظهرَ بطلانها، إذ لم تثبُتْ لهم أعمال فتُبْطل ﴿**وَكَانَ ذَٰلِكَ**﴾ الإحباط ﴿**عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾**﴾ هيِّناً، لتعلق الإرادة به وعدم ما يمنعه عنه.

(٢٠) ﴿**يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟**﴾ أي: هؤلاء لجُبْنهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا، وقد انهزموا ففرُّوا إلى داخل المدينة ﴿**وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ**﴾ كرَّة ثانية ﴿**يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ**﴾ تمنَّوا أنهم خارجون إلى البدو وحاصلون بين الأعراب ﴿**يَسْـَٔلُونَ**﴾ كل قادم من جانب المدينة ﴿**عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ**﴾ عما

جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ هذه الكرَّة ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتالٌ ﴿مَّا قَتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٠﴾ رياءً وخوفاً من التعيير.

(٢١) ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ خصلةٌ حسنة من حقها أن يؤتسى بها؛ كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد. أو هو في نفسه قدوةٌ يَحْسُن التأسي به ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي: ثواب الله تعالى أو لقاءه ونعيم الآخرة، أو أيامَ الله تعالى واليوم الآخر خصوصاً ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ وقرَنَ بالرجاء كثرة الذكر المؤدية إلى ملازمة الطاعة، فإن المؤتسي بالرسول ﷺ مَنْ كان كذلك.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١٤] ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وظهر صِدْقُ خبرِ الله تعالى ورسوله ﷺ. أو صَدَقا في النصرة والثواب كما صَدَقا في البلاء ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ الخطب (أي: الأمر الشديد) أو البلاء ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله تعالى ومواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ لأوامره ومقاديره جلَّ وعلا.

مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾

(٢٣) ﴿**مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ**﴾ من الثبات مع الرسول ﷺ والمقاتلة لإعلاء الدين، فإن المعاهِد إذا وفَّى بعهده فقد صَدَقَ فيه ﴿**فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ**﴾ نَذْرَهُ بأن قاتل حتى استشهد؛ كحمزة ومصعب بن عمير وأنس ابن النضر رضي الله تعالى عنهم. والنحْبُ: النَّذْرُ، واستعير للموت لأنه كنذرٍ لازم ﴿**وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ**﴾ الشهادة؛ كعثمان وطلحة رضي الله تعالى عنهما ﴿**وَمَا بَدَّلُواْ**﴾ العهدَ ولا غيَّروه ﴿**تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾**﴾ شيئاً من التبديل. روي أن طلحة ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ حتى أصيبت يده، فقال عليه الصلاة والسلام: «أوجَبَ طلحة» (أي: أوجَبَ لنفسه الجنة) [رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى. وفي صحيح البخاري، عن قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالى قال: رأيت يد طلحة شلَّاء وقى بها رسولَ الله ﷺ يوم أحد]. وفيه تعريضٌ لأهل النفاق ومرضِ القلب بالتبديل.

(٢٤) ﴿**لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ**﴾ كأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء، كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى. والتوبة عليهم مشروطة بتوبتهم. أو المراد بها التوفيق للتوبة ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾**﴾ لمن تاب.

(٢٥) ﴿**وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ يعني الأحزاب ﴿**بِغَيۡظِهِمۡ**﴾ متغيِّظين ﴿**لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ**﴾ غير ظافرين ﴿**وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ**﴾ بالريح والملائكة ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا**﴾ على إحداث ما يريده ﴿**عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾**﴾ غالباً على كل شيء.

(٢٦) ﴿**وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم**﴾ ظاهروا الأحزاب ﴿**مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ**﴾ يعني قريظة ﴿**مِن صَيَاصِيهِمۡ**﴾ من حصونهم ﴿**وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ**﴾ الخوف ﴿**فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾**﴾ روي: أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب فقال: أتنزع لأْمَتك (أي: لباس الحرب) والملائكةُ لم يضعوا السلاح؟ إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة، وأنا عامد (أي: قاصد) إليهم، فأَذِّنْ في الناس أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة. فحاصَرَهم إحدى وعشرين أو خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال لهم: تنزلون على حكمي فأبوا، فقال: على حكم سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه فرضوا به،

فحكم سعدٌ بقتل مُقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم، فكبَّر النبي عليه الصلاة والسلام وقال: لقد حكمتَ بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (أي: سموات). فقتل منهم ست مئة أو أكثر، وأسر منهم سبع مئة [والحديث أصله في البخاري، ورواه الإمام أحمد رحمهما الله تعالى كذلك].

(٢٧) ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ مزارعهم ﴿وَدِيَٰرَهُمْ﴾ حصونهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ نقودهم ومواشيهم وأثاثهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام جَعل عقارهم للمهاجرين، فتكلم فيه الأنصار، فقال: إنكم في منازلكم، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: أما تخمِّسُ كما خمَّستَ يوم بدر؟ فقال: لا، إنما جُعلت هذه لي طُعمةً (أي: غنيمة أو رزقاً) (أقول: يقولون في بعض الكتب: هذه الطعمة للإمامة لا للرسالة) (أقول: لقد نقل البيضاوي رحمه الله تعالى هذا الكلام عن الزمخشري، وهو في غير موضعه؛ لأن الحديث في هذه الآيات عن بني قريظة، وهذه القصة في بني النضير. وقد قال عنها الآلوسي رحمه الله تعالى في تفسيره: لا يَحْسُن من الزمخشري ذِكْرُه هٰهنا، مع أن الآية في شأن بني قريظة، وسيأتي الكلام فيما وقع لبني النضير في تفسير سورة الحشر إن شاء الله تعالى [تفسير الآلوسي: ١١/ ١٨٠]) ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ كفارس والروم. وقيل: خيبر. وقيل: كلُّ أرض تُفتح إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ٢٧﴾ فيقدر على ذلك.

(٢٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ السَّعة والتنعُّم فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ زخارفها ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أُعْطِكُنَّ المُتعة (وهي: ما يعطيه الرجل لزوجته إذا طلَّقها) ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ٢٨﴾ طلاقاً من غير ضِرار وبدعة. روي أنهنَّ سألنَهُ ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت، فبدأ بعائشة رضي الله تعالى عنها فخيَّرها، فاختارت الله تعالى ورسوله ﷺ، ثم اختارت الباقيات رضي الله تعالى عنهنَّ اختيارها، فشكر الله تعالى لهنَّ ذلك فأنزل: ﴿لاَّ يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

(٢٩) ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ٢٩﴾ يُستحقَر دونه الدنيا وزينتها. و«مِنْ» للتبيين؛ لأنهن كلهن كنَّ محسِنات.

(٣٠) ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ﴾ ضعفي عذاب غيرهنَّ؛ أي: مِثليْه، لأن الذنب منهنَّ أقبح، فإن زيادة قبحه تتبع زيادة فضلِ المذنب والنعمة عليه ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونهنَّ نساء النبي ﷺ، وكيف وهو بسببه!

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

(٣١) ﴿**وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ**﴾ ومن يَدُمْ على الطاعة ﴿**لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾ ولعلَّ ذِكْرَ الله تعالى للتعظيم ﴿**وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ**﴾ مرَّة على الطاعة ومرَّة على طلبهنَّ رضاء النبي عليه الصلاة والسلام بالقناعة وحسن المعاشرة ﴿**وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾**﴾ في الجنة زيادة على أجرها.

(٣٢) ﴿**يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ**﴾ أي: لستنَّ كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل ﴿**إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ**﴾ مخالفةَ حكم الله تعالى ورضا رسوله ﷺ ﴿**فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ**﴾ فلا تجِئن بقولكنَّ خاضعاً ليِّناً مثل قول المريبات (اللاتي يوقعن الرجال في الريبة والتهمة) ﴿**فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ**﴾ فُجورٌ ﴿**وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾**﴾ حسَناً بعيداً عن الريبة.

(٣٣) ﴿**وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ**﴾ (أي: استقررن في بيوتكن ولا تخرجن من البيوت، وليكن عليكنَّ الوقار [تفسير النسفي]) ﴿**وَلَا تَبَرَّجْنَ**﴾ ولا تتبخترنَ في مشيتكن (والتبختر هو المشي المبنيُّ على الدلال) ﴿**تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ**﴾ تبرُّجاً مثل تبرُّج النساء في أيام الجاهلية القديمة، قيل: هي ما بين آدم ونوح عليهما السلام. وقيل: الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كانت المرأة تلبس درعاً من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال. والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. وقيل: الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق في الإسلام ﴿**وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ**﴾ في سائر ما أمَرَكنَّ به ونهاكنَّ عنه ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ**﴾ الذنب المدنِّس لعرضكم ﴿**أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ**﴾ عن المعاصي ﴿**تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾**﴾.

(٣٤) ﴿**وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ**﴾ من الكتاب الجامع بين الأمرين. وهو تذكيرٌ بما أنعم الله تعالى عليهنَّ من حيث جعلهنَّ أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدنَ من بُرحاء (أي: شدة) الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة، حثاً على الانتهاء والائتمار فيما كُلِّفْنَ به ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾**﴾ يعلم ويدبِّر ما يصلح في الدين، ولذلك خيَّركُنَّ ووعَظَكنَّ. أو يعلم من يصلح لنبوته ومن يصلح أن يكون أهل بيته.

(٣٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الداخلين في السلم المنقادين لحكم الله تعالى ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المصدِّقين بما يجب أن يُصدَّق به ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المداومين على الطاعة ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات وعن المعاصي ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين لله تعالى بقلوبهم وجوارحهم ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وجب في مالهم ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصومَ المفروض ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لما اقترفوا (أي: اكتسبوا) من الصغائر لأنهنَّ مكفَّرات ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ على طاعتهم. والآية وعدٌ لهنَّ ولأمثالهنَّ على الطاعة والتدرُّع (أي: التحصُّن) بهذه الخصال. روي: أن أزواج النبي ﷺ قلن: يا رسول الله! ذَكَر الله تعالى الرجالَ في القرآن بخير، فما فينا خيرٌ نُذكَر به؟ فنزلت [الحديث في مسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى]. وقيل: لمَّا نزل فيهنَّ ما نزل، قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء؟ فنزلت [أخرجه ابن جرير رحمه الله تعالى].

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

(٣٦) ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ**﴾ وما صحَّ له ﴿**إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا**﴾ أي: قضى رسول الله ﷺ، وذكَرَ اللهَ تعالى لتعظيم أمره ﷺ والإشعار بأن قضاءه قضاءُ الله تعالى، لأنه نزل في زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه، فأبت هي وأخوها عبد الله رضي الله تعالى عنهما ﴿**أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ أن يختاروا من أمرهم شيئاً، بل يجب عليهم أن يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختيار الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿**وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾**﴾ بيّن الانحرافِ عن الصواب.

(٣٧) ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ**﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لعتقه واختصاصه ﴿**وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ**﴾ بما وفَّقك الله تعالى فيه؛ وهو زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه ﴿**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**﴾ زينب رضي الله تعالى عنها ﴿**وَٱتَّقِ ٱللَّهَ**﴾ في أمرها، فلا تطلقها ضراراً أو تعلُّلاً بتكبرها ﴿**وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ**﴾ وهو نكاحُها إن طلَّقها. أو إرادةُ طلاقها ﴿**وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ**﴾ تعييرَهم إياك به ﴿**وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ**﴾ إن كان فيه ما يُخشى ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا**﴾ حاجة بحيث ملَّها ولم يبقَ له فيها حاجة وطلَّقها وانقضت عدتها ﴿**زَوَّجْنَٰكَهَا**﴾ وقيل: قضاء الوطر كنايةٌ عن الطلاق، مثلُ لا حاجة لي فيك. والمعنى أنه أُمِر بتزويجها منه أو جعلها زوجته بلا واسطة عقد (أقول: وهذا لم يحصل لأيِّ نبيٍّ ولا لأحد من المؤمنين، إلا لنبينا عليه الصلاة والسلام)؛ ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبي ﷺ: إن الله تعالى تولى إنكاحي، وأنتنَّ زوجكنَّ أولياؤكنَّ. وقيل: كان زيدٌ السفيرَ في خطبتها، وذلك ابتلاء عظيم وشاهد بيِّنٌ على قوة إيمانه رضي الله تعالى عنه ﴿**لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا**﴾ علةٌ للتزويج ﴿**وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ**﴾ أمرُه الذي يريده ﴿**مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾**﴾ مكوَّناً لا محالة، كما كان تزويج زينب رضي الله تعالى عنها.

(٣٨) ﴿**مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ**﴾ قَسَمَ له وقدَّر ﴿**سُنَّةَ ٱللَّهِ**﴾ سَنَّ ذلك سُنَّةً ﴿**فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ**﴾ من الأنبياء. وهو نفي الحرج عنهم فيما أباح لهم ﴿**وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾**﴾ قضاءً مقضياً وحكماً مبتوتاً (أي: قطعياً).

(٣٩) ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٣٩﴾ كافياً للمخاوف أو محاسباً، فينبغي أن لا يُخشى إلا منه جلَّ وعلا.

(٤٠) ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ على الحقيقة، فيثبت بينه وبينه ما بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها. ولا ينتقض عمومُه بكونه أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم رضي الله تعالى عنهم، لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكلُّ رسول أبو أمته لا مطلقاً، بل من حيث إنه شفيق ناصح لهم، واجب التوقير والطاعة عليهم، وزيدٌ رضي الله تعالى عنه منهم، ليس بينه وبينه ولادة ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ وآخرَهم الذي خَتَمَهم، أو خُتِموا به عليهم الصلاة والسلام ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٤٠﴾ فيعلمُ من يليق بأن يختم به النبوَّة وكيف ينبغي شأنه.

(٤١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ٤١﴾ يغلب الأوقات ويعمُّ الأنواع بما هو أهله من التقديس والتحميد والتهليل والتمجيد.

(٤٢) ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ٤٢﴾ أوَّلَ النهار وآخره خصوصاً. وتخصيصهما بالذكر للدلالة على فضلهما على سائر الأوقات، لكونهما مشهودين، كإفراد التسبيح من جملة الأذكار لأنه العُمدة فيها. وقيل: المراد بالتسبيح الصلاة (أقول: من أراد أن يحسن بينه وبين ربه جل وعلا ، بعد تصحيح العبادات المفروضة من الصلاة وغيرها. عليه أن يذكر الله جل وعلا بالقلب والعقل مع الحضور التام ، وبسرِّه وبلبِّه حتى يثبت له نور أمر الرسول الأعظم ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه» وإذا ثبت لك هذا المعنى ببركة الرسول الأعظم ﷺ ، فبها ونعمَت، حينذاك تصدق القوم ، وأما إذا لم يثبت لك، فعليك بالاعتقاد الصحيح والإيمان الغيبي بأن الله تعالى يراك؛ في كلا الوجهين تذوق معنى قول الرسول الأعظم ﷺ عندما سئل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [متفق عليه]).

(٤٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾ بالرحمة (أقول: هو جل وعلا يرحمكم و يثني عليكم ويعتني بأمركم) ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ بالاستغفار لكم والاهتمام بما يصلحكم. وهو العناية بصلاح أمركم وظهور شرفكم. وقيل: الترحُّم والانعطاف المعنوي مأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصُّوري الذي هو الركوع والسجود، واستغفارُ الملائكة ودعاؤهم للمؤمنين ترحُّمٌ عليهم، سيما وهو السبب للرحمة من حيث إنهم مجابو الدعوة ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾ حيث اعتنى بصلاح أمرهم وإنافة (أي: رفعة) قدرهم، واستعمل في ذلك ملائكته المقربين.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

(٤٤) ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: يحيَّون ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يوم لقائه عند الموت أو الخروج من القبور أو دخول الجنة ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ إخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ هي الجنة.

(٤٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على من بُعثت إليهم، بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

(٤٦) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى الإقرار به وبتوحيده وما يجب الإيمان به من صفاته جلَّ وعلا ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتيسيره. وأُطلق له من حيث أنه من أسبابه، وقيَّد به الدعوة إيذاناً بأنه أمر صعب لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه جل وعلا ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ يُستضاء به في ظلمات الجهالات، ويُقتبس من نوره أنوار البصائر.

(٤٧) ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ على سائر الأمم. أو على جزاء أعمالهم. ولعله معطوف على محذوف مثل: فراقب أحوال أمتك (أقول: لا بد أن نستحيي من عرض أعمالنا على رسول الله ﷺ، وهو إذا رآها موافقة للشريعة والسنة يفرح، وإذا رآها مخالفة يتحزَّن علينا. قال رسولُ اللهِ ﷺ: «حياتي خيرٌ لكم تُحدِّثونَ ويُحدَّثُ لكم، ووفاتي خيرٌ لكم تُعرَضُ عليَّ أعمالُكم، فما رأَيْتُ من خيرٍ حمِدْتُ اللهَ عليه، وما رأَيْتُ من شرٍّ استغفَرْتُ اللهَ لكم» [أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رجاله رجال الصحيح] فعلينا أن لا نكون سبباً في تحزُّن رسولنا عليه الصلاة والسلام).

(٤٨) ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تهييجٌ له على ما هو عليه من مخالفتهم ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ اترك إيذاءهم إياك ولا تحتفل به (أي: ولا تهتمَّ به)، أو اترك إيذاءك إياهم مجازاة أو مؤاخذة على كفرهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فإنه يكفيكهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ موكولاً إليه الأمر في الأحوال كلها. ولعله تعالى لمّا وصفه بخمس صفات قابل كلًّا منها بخطاب يناسبه، فحذف مقابل الشاهد وهو الأمر بالمراقبة لأن ما بعده كالتفصيل له، وقابل المبشِّرَ بالأمر ببشارة المؤمنين، والنذيرَ بالنهي عن مراقبة الكفار والمبالاة بأذاهم، والداعيَ إلى الله تعالى بتيسيره بالأمر بالتوكل عليه، والسراجَ المنير بالاكتفاء به، فإن من أناره الله تعالى برهاناً على جميع خلقه كان حقيقاً بأن يكتفي به عن غيره.

(٤٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ تجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾ أيامٍ يتربَّصْنَ فيها بأنفسهن ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾ تستوفون عَدَدَها ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: إن لم يكن مفروضاً لها فإن الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أخرجوهنَّ من منازلكم، إذ ليس لكم عليهن عدة ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ من غير ضِرار ولا منع حق (أقول: وإذا كانت المطالبة من الله سبحانه وتعالى بالسراح الجميل من غير إضرار ولا إيذاء ولا هضم لحقوقهم فكيف بالتظالم! لذا قال ربنا جل وعلا في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» [رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]).

(٥٠) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورَهُنَّ. وتقييد الإِحلال له بإعطائها (أي: المهور) معجَّلةً لا لتوقف الحِلِّ عليه، بل لإيثار الأفضل له، كتقييد إحلال المملوكة بكونها مَسبيَّة بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾، فإن المشتراة لا يُتحقَّق بدء أمرها وما جرى عليها. وتقييد القرائب بكونها مهاجرات معه في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ ويُحتمل تقييد الحلِّ بذلك في حقه خاصة ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ المعنيُّ بالإحلال الإعلام بالحِلِّ، أي: أعلمناك حِلَّ امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ولا تطلب مهراً ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ شرط للشرط الأول في استيجاب الحل، فإن هبتها نفسها منه لا توجب له حِلَّها إلا بإرادته نكاحها، فإنها جارية مجرى القبول ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ إيذانٌ بأنه مما خُصَّ به لشرف نبوَّته، وتقريرٌ لاستحقاق الكرامة لأجله ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ من شرائط العقد ووجوب القسم والمهر بالوطء حيث لم يُسَمَّ ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ﴾ من توسيع الأمر فيها أنه كيف ينبغي أن يفرض عليهم ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ وهو للدلالة على أن الفرق بينه وبين المؤمنين في نحو ذلك لا لمجرد قصد التوسيع عليه، بل لِمعانٍ تقتضي التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة وبالعكس أخرى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ لما يعسُرُ التحرُّز عنه ﴿رَّحِيمٗا ٥٠﴾ بالتوسعة في مظانِّ الحرج (أي: المواضع التي يُظنُّ فيها الحرج).

۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿**تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ**﴾ تؤخِّرُها ﴿**وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ**﴾ وتضمُّ إليك من تشاء، أو تطلِّق من تشاء وتُمسِك من تشاء ﴿**وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ**﴾ طلبتَ ﴿**مِمَّنۡ عَزَلۡتَ**﴾ طلَّقتَ بالرجعة ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ**﴾ في شيء من ذلك ﴿**ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ**﴾ ذلك التفويضُ إلى مشيئتك أقربُ إلى قرَّة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً، لأن حكم كلِّهن فيه سواء. ثم إن سويَّت بينهن وجدْنَ ذلك تفضلاً منك، وإن رجَّحتَ بعضهن علِمْنَ أنه بحكم الله تعالى، فتطمئن به نفوسهن ﴿**وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ**﴾ فاجتهدوا في إحسانه ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا**﴾ بذات الصدور ﴿**حَلِيمٗا ﴿٥١﴾**﴾ لا يعاجِل بالعقوبة، فهو حقيقٌ بأن يُتقى جلَّ وعلا.

(٥٢) ﴿**لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ**﴾ من بعد التسع. وهو في حقه كالأربع في حقنا. أو من بعد اليوم، حتى لو ماتت واحدة لم يحلَّ له نكاحُ أخرى ﴿**وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ**﴾ فتطلِّقَ واحدة وتنكح مكانها أخرى ﴿**وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ**﴾ حسنُ الأزواج المستبدَلة ﴿**إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ**﴾ استثناءٌ من النساء، لأنه يتناول الأزواج والإماء ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾**﴾ فتحفَّظوا أمركم، ولا تتخطَّوا ما حدَّ لكم.

(٥٣) ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ**﴾ إلا وقت أن يؤذن لكم ﴿**إِلَىٰ طَعَامٍ**﴾ وهو متضمِّن معنى يُدعى، للإشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة وإن أُذِن، كما أشعر به قوله تعالى: ﴿**غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ**﴾ غير منتظرين وقته ﴿**وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ**﴾ تفرَّقوا ولا تمكثوا. والآية خطاب لقوم كانوا يتحيَّنون (أي: ينتظرون) طعام رسول الله ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه، مخصوصة بهم وبأمثالهم، وإلا لَمَا جاز لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لُمهمٍّ ﴿**وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ**﴾ لحديث بعضكم بعضاً. أو لحديث أهل البيت بالتسمع له. أي: ولا تدخلوا أو ولا تمكثوا مستأنسين ﴿**إِنَّ ذَٰلِكُمۡ**﴾ اللبث ﴿**كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ**﴾ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله، وإشغاله بما لا يعنيه ﴿**فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ**﴾ من إخراجكم ﴿**وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ**﴾ يعني أن إخراجكم حقٌّ، فينبغي أن لا يُترك حياءً كما لم يتركه الله تعالى ترك الحيي، فأمَرَكم بالخروج ﴿**وَإِذَا**

﴿سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا﴾ شيئاً يُنتفع به ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ﴾ المتاع ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ ستر. روي «أن عمر رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله! يدخل عليك البَرُّ والفاجر، فلو أمرتَ أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فنزلت» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه]. وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام كان يَطعَم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يدُ رجل يدَ عائشة رضي الله تعالى عنها، فكره النبي ﷺ ذلك فنزلت [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] (أقول: وكان ذلك قبل وجوب التستر) ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ من الخواطر النفسانية الشيطانية ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ﴾ وما صحَّ لكم ﴿أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أن تفعلوا ما يَكرهه ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ من بعد وفاته أو فراقه ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ يعني إيذاءه ونكاح نسائه ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ ذنباً عظيماً. وفيه تعظيمٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ، وإيجابٌ لحرمته حياً وميتاً. ولذلك بالغ في الوعيد عليه فقال تعالى:

(٥٤) ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾ كنكاحهنَّ على ألسنتكم ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾﴾ فيعلم ذلك فيجازيكم به. وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد.

لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾

(٥٥) ﴿**لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ**﴾ استثناءٌ لمن لا يجب الاحتجاب عنهم. روي: أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله! أوَنكلمهن أيضاً من وراء حجاب؟ فنزلت. وإنما لم يذكر العمَّ والخالَ لأنهما بمنزلة الوالدين، ولذلك سَمَّى العمَّ أباً في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، أو لأنه كره ترك الاحتجاب عنهما مخافة أن يصفا لأبنائهما ﴿**وَلَا نِسَآئِهِنَّ**﴾ يعني نساء المؤمنات ﴿**وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ**﴾ من العبيد والإماء، وقيل: من الإماء خاصة ﴿**وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ**﴾ فيما أُمِرتنَّ به ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾**﴾ لا يخفى عليه خافية.

(٥٦) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ**﴾ يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ**﴾ اعتنوا أنتم أيضاً فإنكم أَوْلى بذلك، وقولوا: اللهم صلي على سيدنا محمد ﴿**وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾**﴾ وقولوا: السلام عليك أيها النبي. وقيل: وانقادوا لأوامره. والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه في الجملة. وقيل: تجب الصلاة كلما جرى ذكره، لقوله عليه الصلاة والسلام «رغم أنف رجل ذُكِرت عنده فلم يصلِّ عليَّ» [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] (أقول: جدير بك أيها المؤمن ألا تترك الصلاة على النبي ﷺ، وحاول أن تحافظ على الصلاة عليه ﷺ في يومك وليلتك ألف مرة فهو ﷺ: ﴿أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فهذا من حقه ﷺ علينا لأنه بكثرة الصلاة والسلام عليه مع الحضور التام معه ﷺ نعرف شيئاً من قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]).

(٥٧) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصي. أو يؤذون رسول الله ﷺ بكسر رباعيته، وقولهم شاعر مجنون، ونحو ذلك. وذَكَرَ اللهَ تعالى للتعظيم له ﴿**لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ**﴾ أبعدهم من رحمته ﴿**فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾**﴾ يهينهم مع الإيلام.

(٥٨) ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ**﴾ بغير جناية استحقوا بها الإيذاء ﴿**فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾**﴾ ظاهراً. قيل: إنها نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً رضي الله تعالى عنه. وقيل: في أهل الإفك. وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهنَّ كارهات.

(٥٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ﴾ يغطين وجوههنَّ وأبدانهنَّ بملاحفهنَّ إذا برزن لحاجة ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ يُميَّزن من الإِماء والقينات (أي: المغنِّيات) ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ﴾ فلا يؤذيهن أهل الريبة بالتعرض لهنَّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف ﴿رَّحِيمًا ۝٥٩﴾ بعباده، حيث يراعي مصالحهم حتى الجزئيات منها.

(٦٠) ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفُ إيمانٍ وقلةُ ثباتٍ عليه أو فجور، عن تزلزلهم في الدين أو فجورهم ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يرجفون أخبار السوء عن سرايا المسلمين ونحوها. والإرجاف: الإخبار الكاذب ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لَنأمرنَّك بقتالهم وإجلائهم. أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾ زماناً أو جواراً قليلاً.

(٦١) ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ﴾ أي: لاَ يُجاوِرُونَكَ إلا ملعونين ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ (أي: وجدوا) ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١﴾.

(٦٢) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي: سَنَّ الله تعالى ذلك في الأمم الماضية؛ وهو أن يَقتل الذين نافقوا الأنبياءَ، ويسعوا في وهنهم بالإِرجاف ونحوه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ لأنه لا يبدِّلها ولا يقدر أحد أن يبدِّلها.

يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾

(٦٣) ﴿**يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ**﴾ عن وقت قيامها استهزاء وتعنتاً، أو امتحاناً ﴿**قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ**﴾ لم يُطلع عليه ملكاً ولا نبياً ﴿**وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾**﴾ شيئاً قريباً، أو تكون الساعة عن قريب. وفيه تهديدٌ للمستعجلين وإسكاتٌ للمتعنتين.

(٦٤) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾**﴾ ناراً شديدة الاتِّقاد (أي: الاشتعال).

﴿**خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا**﴾ يحفظهم ﴿**وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾**﴾ يدفع العذاب عنهم.

(٦٥) ﴿**يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ**﴾ تُصرف من جهة إلى جهة كاللحم يشوى بالنار. أو من حال إلى حال ﴿**يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾**﴾ فلم نُبتلى بهذا العذاب.

(٦٧) ﴿**وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا**﴾ يعنون قادتهم الذين لقَّنوهم الكفر ﴿**فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾**﴾ بما زيَّنوا لنا.

(٦٨) ﴿**رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ**﴾ مِثلَيْ ما آتيتنا منه، لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿**وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾**﴾ أي: لعناً هو أشد اللعن وأعظمه.

(٦٩) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ**﴾ فأظهرَ براءته من مقولهم؛ يعني مؤداه ومضمونه. وذلك أن قارون حرَّض امرأة على قَذْفه بنفسها، فعصمه الله تعالى. او اتهمه ناس بقتل هارون لمّا خرج معه إلى الطور، فمات هناك، فحملته الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول، وقيل: أحياه الله تعالى فأخبرهم ببراءته. أو قذفوه بعيب في بدنه من برص أو أدرة (وهي نفخة تكون في الخصية) لفرط تستره حياء، فأطلعهم الله تعالى على أنه بريء منه ﴿**وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾**﴾ ذا قربة ووجاهة منه جلَّ وعلا.

(٧٠) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ**﴾ في ارتكاب ما يكرهه فضلاً عما يؤذي رسوله ﴿**وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾**﴾ قاصداً إلى الحق.

(٧١) ﴿**يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ**﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة. أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها ﴿**وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ**﴾ ويجعلها مكفَّرة باستقامتكم في القول والعمل ﴿**وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ في الأوامر والنواهي ﴿**فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾**﴾ يعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً.

(٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تقريرٌ للوعد السابق بتعظيم الطاعة. وسمّاها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء. والمعنى أنها لعظمة شأنها بحيث لو عرضت على هذه الأجرام العظام وكانت ذات شعور وإدراك لَأَبَيْن أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان مع ضعف بنيته ورخاوة قوته، لا جرم (أي: حقّاً) فاز الراعي لها والقائم بحقوقها بخير الدارين ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ حيث لم يفِ بها ولم يراعِ حقها ﴿جَهُولًا ۝﴾ بكُنْه عاقبتها. وهذا وصف للجنس باعتبار الأغلب. وقيل: المراد بالْأَمانَة الطاعةُ التى تعم الطبيعية والاختيارية، وبعرضها استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدوره من غيره، وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن أدائها. وقيل: إنه تعالى لمَّا خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال لها: إني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها، وناراً لمن عصاني، فقلنَ: نحن مسخَّرات على ما خلقتنا، لا نحتمل فريضة ولا نبتغي ثواباً ولا عقاباً، ولمَّا خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحمله، وكان ظلوماً لنفسه بتحمُّله ما يشقُّ عليها جهولاً بوخامة عاقبته. ولعل المراد بالْأَمانَة العقل أو التكليف، وبعرضها عليهنَّ اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن، وبإبائهن الإِباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد، وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها، وكونه ظلوماً جهولاً لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية. وعلى هذا يحسن أن يكون علة للحمل عليه، فإن من فوائد العقل أن يكون مهيمناً على القوتين حافظاً لهما عن التعدي ومجاوزة الحد، ومعظم مقصود التكليف تعديلهما وكسر سورتهما (أي: حدتهما) (أقول: إذا لم يكن العقل منوَّراً بنور الوحي الإلهي - وهو القرآن - تغلب عليه النفس وتغلب عليه الشهوة ويغلب عليه الهوى).

(٧٣) ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ تعليل للحمل من حيث إنه نتيجته. وذِكْرُ التوبة في الوعد إشعارٌ بأن كونهم ظلوماً جهولاً في جبلتهم لا يخليهم عن فرطات (تجاوزات) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾ حيث تاب على فرطاتهم (أي: تجاوزاتهم) وأثاب بالفوز على طاعاتهم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الأحزاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

٣٤ سُورَةُ سَبَإٍ ٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة سبأ

مكيَّة، وقيل: إلا قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الآية، وآيُها أربع وخمسون آية

(١) ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ خَلقاً ونعمة، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته وعلى تمام نعمته ﴿**وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ**﴾ لأن ما في الآخرة أيضاً كذلك. وإن النعم الدنيوية قد تكون بواسطة من يستحق الحمد لأجلها (ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من لم يشكُرِ الناسَ لم يشكُرِ اللهَ» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى])، ولا كذلك نِعَم الآخرة ﴿**وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ**﴾ الذي أحكم أمور الدارين ﴿**ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾**﴾ ببواطن الأشياء.

(٢) ﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ كالغيث، ينفذ في موضع وينبع في آخر، وكالكنوز والدفائن والأموات ﴿**وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**﴾ كالحيوان والنبات والفلزات (أي: المعادن) وماء العيون، ﴿**وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ**﴾ كالملائكة والكتب والمقادير والأرزاق والأنداء (وهو المطر الخفيف) والصواعق ﴿**وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا**﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والأدخنة (وهي ما يتصاعد من النار) ﴿**وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾**﴾ للمفرِّطين في شكر نعمته مع كثرتها (أي: الذين لا يؤدُّون شكرها).

(٣) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ**﴾ إنكارٌ لمجيئها. أو استبطاءُ استهزاءٍ بالوعد به ﴿**قُلْ بَلَىٰ**﴾ ردٌّ لكلامهم وإثبات لما نَفَوْه ﴿**وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ**﴾ (أي: لا يغيب) ﴿**عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾**﴾ (أقول: أي في علم الله جل وعلا).

(٤) ﴿**لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾**﴾ لا تعبَ فيه ولا مَنَّ عليه.

(٥) ﴿**وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا**﴾ بالإبطال وتزهيد الناس فيها ﴿**مُعَٰجِزِينَ**﴾ مسابقين كي يَفُوتونا ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ**﴾ من سيِّئ العذاب ﴿**أَلِيمٌ ﴿٥﴾**﴾ مؤلم.

(٦) ﴿**وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ**﴾ ويعلم أولو العلم من الصحابة ومن شايعهم (أي: تابعهم) من الأمة،

أو من مسلمي أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآن ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق عياناً كما علموه الآن برهاناً ﴿وَيَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾ الذي هو التوحيد والتدرُّعُ بلباس التقوى.

(٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال بعضهم لبعض ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام ﴿يُنَبِّئُكُمۡ﴾ يحدِّثكم بأعجب الأعاجيب ﴿إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧﴾ إنكم تُنشؤون خلقاً جديداً بعد أن تُمزَّقَ أجسادكم كل تمزيق وتفريق، بحيث تصير تراباً.

أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿١٤﴾

(٨) ﴿**أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ**﴾ جنونٌ يوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه (أقول: يقولون: أفترى على الله تعالى متعمداً، أم به جنون! فردَّ الله تعالى عليهم: لا، بل لا يؤمنون بالآخرة) ﴿**بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾**﴾ ردٌّ من الله تعالى عليهم ترديدَهم، وإثباتٌ لهم ما هو أفظع من القسمين؛ وهو الضلال البعيد عن الصواب، بحيث لا يُرجى الخلاص منه، وما هو مؤدَّاه من العذاب.

(٩) ﴿**أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ**﴾ تذكيرٌ بما يعاينونه مما يدل على كمال قدرة الله تعالى وما يحتمل فيه إزاحةً (أي: إزالةً) لاستحالتهم الإحياءَ حتى جعلوه افتراءً وهزءاً وتهديداً عليها. والمعنى: أعَمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض ولم يتفكروا أهم أشد خلقاً أم السماء؟ وإنا إنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ النظر والتفكر فيهما وما يدلَّان عليه ﴿**لَأٓيَةٗ**﴾ لَدلالة ﴿**لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾**﴾ راجعٍ إلى ربه، فإنه يكون كثير التأمل في أمره.

(١٠) ﴿**وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ**﴾ أي: على سائر الأنبياء؛ وهو ما ذُكر بعد. أو على سائر الناس، فيندرج فيه النبوَّةُ والكتابُ والمُلكُ والصوتُ الحسَن ﴿**يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ**﴾ رجِّعي (أي: رددي) معه التسبيح أو النوحة على الذنب. وذلك إما بخلق صوتٍ مثل صوته فيها، أو بحملها إياه على التسبيح إذا تأمل ما فيها، أو سيري معه حيث سار ﴿**وَٱلطَّيۡرَۖ**﴾ أي: ولقد آتينا داود منا فضلاً تأويبَ الجبال والطير، وبُدِّلَ بهذا النظم لما فيه من الفخامة والدلالة على عظم شأنه وكبرياء سلطانه، حيث جعل الجبال والطيور كالعقلاء المنقادين لأمره في نفاذ مشيئته فيها ﴿**وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾**﴾ وجعلناه في يده كالشمع، يصرِّفه كيف يشاء، من غير إحماءٍ وطَرْقٍ بآلاته أو بقوَّته.

(١١) ﴿**أَنِ ٱعۡمَلۡ**﴾ أمَرْناه أن اعمل ﴿**سَٰبِغَٰتٖ**﴾ دروعاً واسعات، وهو أوَّلُ من اتخذها ﴿**وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ**﴾ وقدِّرْ في نسجها بحيث يتناسب حِلقها، أو قدِّرْ مساميرها، فلا تجعلها دقاقاً فتقلق (أي: فتتحرَّك)،

ولا غلاظاً فتُخرَق. ورد بأن دروعه لم تكن مسمَّرة، ويؤيِّده قولُه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ الضمير فيه لداود عليه الصلاة والسلام وأهله ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١﴾ فأجازيكم عليه.

(١٢) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخَّرنا له الريح ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ﴾ جَرْيُها بالغداة مسيرةُ شهرٍ وبالعشي كذلك ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ﴾ النحاسِ المذاب. أسالَهُ له من معدنه، فنبع منه نبوع الماء من الينبوع، ولذلك سماه عيناً، وكان ذلك باليمن ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾ بأمره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومن يعدل منهم ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ عما أمرناه من طاعة سليمان عليه السلام ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾ عذاب الآخرة.

(١٣) ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قصورٍ حصينةٍ ومساكنَ شريفةٍ. سُمِّيت بها لأنها يُذَبُّ (أي: يُدافَعُ) عنها ويُحارَب عليها ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وصوراً هي تماثيل للملائكة والأنبياء عليهم السلام على ما اعتادوا من العبادات، ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم. وحرمةُ التصاوير شرعٌ مجدَّد (هو شرعنا المحمدي عليه الصلاة والسلام) روي أنهم عملوا له أسَدَين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظلَّه النسران بأجنحتهما ﴿وَجِفَانٍ﴾ وصِحاف (أي: آنية من جنس القصعة) ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كالحِياض الكبار (التي يجمع فيها الماء) ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ ثابتات على الأثافي (أي: الأحجار التي يوضع عليها القِدْر) لا تنزل عنها لعظمها ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ أي: اعملوا له واعبدوه شكراً ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ المتوفِّر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه في أكثرِ أوقاته، ومع ذلك لا يوفِّي حقه، لأن توفيقه للشكر نعمةٌ تستدعي شكراً آخر، ولذلك قيل: الشكور من يرى عجزه عن الشكر.

(١٤) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان عليه السلام ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ ما دلَّ الجنَّ ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأرَضَة (وهي حشرة تأكل الخشب) ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ عصاه ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ عَلمت الجنُّ بعد التباس الأمر عليهم (أقول: فلما خرَّ سليمان عليه السلام ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ الشديد من العمل بالسخرة، قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما) ﴿أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ١٤﴾ أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لَعَلموا موته حينما وقع، فلم يلبثوا بعده حولاً في تسخيره (أي: في خدمته) إلى أن خرَّ. وذلك أن داود عليه السلام أَسَّس بيت المقدس في موضع فسطاط (أي: بيت) موسى عليهما الصلاة والسلام، فمات قبل تمامه، فوصى به إلى سليمان عليه السلام، فاستعمل الجنَّ فيه، فلم يتمَّ بعدُ، إذ دنا أجله وأُعلِمَ به، فأراد أن يُعَمِّي عليهم موته ليتموَّه، فدعاهم فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقُبِض روحه وهو متكئ عليها، فبقي كذلك حتى أكلتها الأرَضَة فخرَّ، ثم فتحوا عنه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرَضة على العصا، فأكلت يوماً وليلة مقداراً، فحسَبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة. وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، ومَلَكَ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مَضَيْنَ من مُلكه.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

(١٥) ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ**﴾ لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿**فِي مَسْكَنِهِمْ**﴾ في مواضع سكناهم؛ وهي باليمن يقال لها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ﴿**ءَايَةٌ**﴾ علامةٌ دالَّة على وجود الصانع المختار جل وعلا، وأنه قادر على ما يشاء من الأمور العجيبة، مُجازٍ للمحسن والمسيء ﴿**جَنَّتَانِ**﴾ والمراد جماعتان من البساتين ﴿**عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ**﴾، جماعة (من البساتين) عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله، كل واحدة منهما في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة ﴿**كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ حكايةٌ لما قال لهم نبيهم، أو لسانُ الحال، أو دلالةٌ بأنهم كانوا أحقاء بأن يقال لهم ذلك ﴿**بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴿١٥﴾﴾ أي: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدةٌ طيِّبة، وربُّكم الذي رزقكم وطلب شكركم ربٌّ غفور فرطاتِ (أي: زلات) من يشكره. قيل: كانت أخصب البلاد وأطيبها، لم يكن فيها عاهةٌ ولا هامَّة (كل ذي سمٍّ كالحية).

(١٦) ﴿**فَأَعْرَضُوا**﴾ عن الشكر ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**﴾ (أي: سيلَ المطر الشديد، أو السدِّ)، أضاف إليه السَيْلَ لأنه نقب عليهم سِكْراً (أي: سداً) ضربته لهم بلقيس، فحقنت (أي: منعت) به ماء الشجر وتركت فيه ثقباً على مقدار ما يحتاجون إليه ﴿**وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ**﴾ (أي: ثمر حامض أو مُرٍّ). وقيل: الأراك، أو كل شجر لا شوك له ﴿**وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴿١٦﴾﴾ فإن الأثل هو الطرفاء، ولا ثمر له (والسدر: نوع من الشجر). ووصف السدر بالقلة، فإنَّ جَناهُ وهو النبق (أي: ثمرة السدر) مما يطيب أكله، ولذلك يُغرس في البساتين. وتسمية البدل جَنَّتَيْنِ للمشاكلة والتهكُّم.

(١٧) ﴿**ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا**﴾ بكفرانهم النعمة أو بكفرهم بالرسل، إذ روي أنه بعث إليهم ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم ﴿**وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ** ﴿١٧﴾﴾ وهل نجازي بمثل ما فعلنا بهم إلا البليغ في الكفران أو الكفر.

(١٨) ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾ بالتوسعة على أهلها؛ وهي قرى الشام ﴿**قُرًى ظَاهِرَةً**﴾ متواصلة يظهر بعضها لبعض. أو راكبة متن الطريق (أي: جانبه) ظاهرة لأبناء السبيل ﴿**وَقَدَّرْنَا فِيهَا**

﴿ٱلسَّيْرَۖ﴾ بحيث يَقيل الغادي (أي: القادم) في قريةٍ ويبيت الرائح (أي: الذاهب) في قرية إلى أن يبلغ الشام ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ متى شئتم من ليل أو نهار ﴿ءَامِنِينَ ۝١٨﴾ لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات. أو سيروا آمنين وإن طالت مدة سفركم فيها. أو سيروا فيها ليالي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن.

(١٩) ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أَشِروا (أي: بطِروا) النعمة ومَلُّوا العافية كبني إسرائيل، فسألوا الله تعالى أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز (أي: صحارى) ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وتزوُّد الأزواد، فأجابهم الله تعالى بتخريب القرى المتوسطة ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث بطروا النعمة ولم يعتدُّوا بها ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم تعجباً وضَرْبَ مَثلٍ فيقولون: تفرقوا أيدي سبأ (أي: تفرقوا في طرق شتى) ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ ففرَّقناهم غاية التفريق، حتى لحق غسان منهم بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكِر ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي ﴿شَكُورٍ ۝١٩﴾ على النعم.

(٢٠) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقَّق ظنَّه، أو وجده صادقاً (أقول: حيث ظن أنه يستطيع إغواءهم) ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ إلا فريقاً هم المؤمنون لم يتَّبعوه. وتقليلهم بالإِضافة إلى الكفار. أو إلا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتبعوه في العصيان، وهم المخلصون.

(٢١) ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ تسلُّط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّۗ﴾ إلا ليتعلق علمنا بذلك تعلقاً يترتب عليه الجزاء. أو ليتميَّز المؤمن من الشاكِّ. أو ليؤمن من قُدِّرَ إيمانه ويشك من قُدِّرَ ضلاله (أقول: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: ونميز ونظهر التفرقة بين من يؤمن بالآخرة ممن هو في شك وتردُّد) ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾ محافظ.

(٢٢) ﴿قُلِ﴾ للمشركين: ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: ادعوهم فيما يهمُّكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم، ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعين الجواب وأنه لا يقبل المكابرة (وهي الدعوى بدون دليل)، فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في أمرٍ ما، لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام. أو لأن الأسباب القريبة للشر والخير سماوية وأرضية ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ من شركة، لا خَلقاً ولا مُلكاً ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ يعينه على تدبير أمرهما.

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾

(٢٣) ﴿**وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ**﴾ فلا تنفعهم شفاعة أيضاً كما يزعمون، إذ لا تنفع الشفاعة عند الله تعالى ﴿**إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ**﴾ أذن له أن يَشفع، أو أذن أن يُشفع له لعلوِّ شأنه ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ**﴾ أي: يتربصون فزعين حتى إذا كُشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بالإِذن ﴿**قَالُواْ**﴾ قال بعضهم لبعض: ﴿**مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ**﴾ في الشفاعة؟ ﴿**قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ**﴾ قالوا: قال القولَ الحقَّ؛ وهو الإِذن بالشفاعة لمن ارتضى؛ وهم المؤمنون ﴿**وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾**﴾ ذو العلوِّ والكبرياء، ليس لِمَلَك ولا نبي من الأنبياء أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه جلَّ وعلا.

(٢٤) ﴿**قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ**﴾ إذ لا جواب سواه. وفيه إشعارٌ بأنهم إن سكتوا أو تلعثموا (تردَّدوا وتوقفوا) في الجواب مخافة الإِلزام، فهم مقرُّون به بقلوبهم ﴿**وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾**﴾ أي: وإن أحد الفريقين من الموحِّدين والمشركين به لَعَلى أحد الأمرين من الهدى والضلال المبين.

(٢٥) ﴿**قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾**﴾ هذا أَدْخَلُ في الإنصاف وأبلغُ في الإخبات (أي: التواضع)، حيث أَسندَ الإجرام إلى أنفسهم والعمل إلى المخاطبين.

(٢٦) ﴿**قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا**﴾ يوم القيامة ﴿**ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ**﴾ يحكم ويفصل بأن يُدخل المحِقِّين الجنة والمبطِلين النار ﴿**وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ**﴾ الحاكم الفاصل في القضايا المنغلقة (أي: المشكلة على الفهم) ﴿**ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾**﴾ بما ينبغي أن يُقضى به.

(٢٧) ﴿**قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ**﴾ لأرى بأي صفة ألحقتموهم بالله تعالى في استحقاق العبادة ﴿**كَلَّاۚ**﴾ ردعٌ لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة ﴿**بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾**﴾ الموصوف بالغلبة وكمال القدرة والحكمة، وهؤلاء الملحَقون به متَّسِمون بالذلة متأبية (متمنِّعة) عن قبول العلم والقدرة رأساً.

(٢٨) ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ**﴾ إلا إرسالة عامة لهم. أو إلا جامعاً لهم في الإِبلاغ ﴿**بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾**﴾ فيحملُهم جهلُهم على مخالفتك.

(٢٩) ﴿**وَيَقُولُونَ**﴾ من فرط جهلهم ﴿**مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ**﴾ يعنون المبشَّر به والمنذَر عنه. أو الموعود بقوله: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا﴾ [سبأ: ٢٦] ﴿**إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩**﴾ يخاطبون به رسول الله ﷺ والمؤمنين.

(٣٠) ﴿**قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ**﴾ وعدُ يومٍ ﴿**لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠**﴾ إذا فاجأكم. وهو جوابُ تهديدٍ جاء مطابقاً لما قصدوه بسؤالهم من التعنت والإنكار.

(٣١) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ ولا بما تقدَّمه من الكتب الدالة على النعت. قيل إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم، فغضبوا وقالوا ذلك. وقيل: الذي بين يديه يومُ القيامة ﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ أي: في موضع المحاسبة ﴿**يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ**﴾ يتحاورون ويتراجعون القول ﴿**يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ**﴾ يقول الأتباع ﴿**لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ**﴾ للرؤساء ﴿**لَوْلَآ أَنتُمْ**﴾ لولا إضلالكم وصدُّكم إيّانا عن الإيمان ﴿**لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١**﴾ باتباع الرسول ﷺ.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٢) ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾**﴾ أنكروا أنهم كانوا صادِّين (أي: مانعين) لهم عن الإيمان، وأثبتوا أنهم هم الذين صدُّوا أنفسهم، حيث أعرضوا عن الهدى وآثروا التقليد عليه.

(٣٣) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ**﴾ أي: لم يكن إجرامنا الصادَّ، بل مكركم لنا دائباً (أي: قائماً) ليلاً ونهاراً حتى أعورتم (أي: أعميتم) علينا رأينا ﴿**إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ**﴾ وأضمَرَ الفريقان الندامة على الضلال والإضلال، وأخفاها كلٌّ عن صاحبه مخافة التعيير ﴿**وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ**﴾ أي: في أعناقهم. فجاء بالظاهر تنويهاً (أي: تصريحاً) بذمِّهم وإشعاراً بموجب إغلالهم ﴿**هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ أي: لا يُفعل بهم ما يُفعل إلا جزاءً على أعمالهم.

(٣٤) ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ**﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ مما مُنِيَ (أي: ابتلي) به من قومه. وتخصيص المتنعِّمين بالتكذيب لأنَّ الداعي المعظَم إليه التكبرُ والمفاخرةُ بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظَ منها، ولذلك ضمُّوا التهكُّم والمفاخرة إلى التكذيب فقالوا: ﴿**إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾**﴾.

(٣٥) ﴿**وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا**﴾ فنحن أَوْلى بما تدَّعونه إن أمكن ﴿**وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾**﴾ إما لأن العذاب لا يكون، أو لأنه أكرَمَنا بذلك فلا يهيننا بالعذاب.

(٣٦) ﴿**قُلۡ**﴾ رداً لحُسبانهم: ﴿**إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ**﴾ ولذلك يَختلف فيه الأشخاص المتماثلة في الخصائص والصفات، ولو كان ذلك لِكرامة وهوانٍ يوجبانه لم يكن بمشيئته ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾**﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة، وكثيراً ما يكون للاستدراج كما قال تعالى:

(٣٧) ﴿**وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ**﴾ قربةً ﴿**إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا**﴾ أي: الأموالُ والأولاد لا تقرِّب أحداً إلا المؤمنَ الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله تعالى ويعلِّم ولده الخيرَ

ويربِّيه على الصلاح ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أنْ يُجازَوا الضعفَ إلى عشرٍ فما فوقه ﴿بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ۝٣٧﴾ من المكاره.

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالردِّ والطعن فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقين لأنبيائنا. أو ظانِّين أنهم يفوتوننا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨﴾.

(٣٩) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ يوسِّع عليه تارة ويضيِّق عليه أخرى، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين، وما سبق (في [الآية: ٣٦] في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فإنه) في شخصين، فلا تكرير ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ عوضاً؛ إما عاجلاً أو آجلاً ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ فإنَّ غيره وسطٌ (أي: واسطة) في إيصال رزقه، لا حقيقةَ لرازقيَّته.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

(٤٠) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ المستكبِرين والمستضعَفين ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ تقريعاً للمشركين وتبكيتاً لهم وإقناطاً لهم عما يتوقعون من شفاعتهم. وتخصيصُ الملائكة لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم، ولأن عبادتهم مبدأُ الشرك وأصلُه.

(٤١) ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ﴾ أنت الذي نواليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم. كأنهم بيَّنوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفَوا أنهم عبَّدوهم على الحقيقة بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ﴾ أي: الشياطينَ، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله. وقيل: كانوا يتمثَّلون لهم ويخيِّلون إليهم أنهم الملائكة فيعبدونهم ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ الضمير الأول للإنس أو للمشركين، والأكثرُ بمعنى الكل، والضمير الثاني للْجِنِّ.

(٤٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إذ الأمر فيه كله له جل وعلا، لأن الدار دارُ جزاءٍ وهو المجازي وحده ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ (بوضع العبادة في غير موضعها [النسفي]) ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

(٤٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يَعنون محمَّداً عليه الصلاة والسلام ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيستتبعكم بما يستبدعه (أي: يستحدثه) ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يَعنون القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ لعدم مطابقة ما فيه الواقع ﴿مُّفْتَرًى ۚ﴾ بإضافته إلى الله سبحانه وتعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ لأمرِ النبوة أو للإسلام، أو للقرآن، والأول باعتبار معناه، وهذا باعتبار لفظه وإعجازه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ ظاهرٌ سحريَّتُه.

(٤٤) ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ﴾ فيها دليل على صحة الإشراك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ يدعوهم إليه وينذرهم على تركه. وقد بان من قبلُ أنْ لا وجهَ له، فمن أين وقع لهم هذه الشبهة؟ وهذا في غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم. ثم هدَّدهم فقال تعالى:

(٤٥) ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذَّبوا ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال. أو ما بلغَ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ فحين كذَّبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير، فكيف كان نكيري لهم؟ فليحذرْ هؤلاء من مثله.

(٤٦) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ أُرْشِدكم وأنصحُ لكم بخصلة واحدة؛ هي ما دلَّ عليه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ وهو القيام من مجلس رسول الله ﷺ. أو الانتصابُ في الأمر خالصاً لوجه الله تعالى معرضاً عن المراء والتقليد ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ متفرِّقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، فإن الازدحام يشوِّش الخاطر ويخلط القول ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ في أمر محمّد ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيقته عليه الصلاة والسلام ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ فتعلموا ما به جنونٌ يحمله على ذلك. أو استئنافٌ منبِّه لهم على أنَّ ما عرفوا من رجاحة عقله كافٍ في ترجيح صدقه، فإنه لا يدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقُّقٍ ووثوقٍ ببرهان، فيفتضح على رؤوس الأشهاد، ويلقي نفسه إلى الهلاك، فكيف وقد انضمَّ إليه معجزات كثيرة؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ قُدَّامه، لأنه مبعوث في نسم الساعة (أي: حين ابتدأتْ وأقبلَ أوانها).

(٤٧) ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أيُّ شيء سألتكم من أجر على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْۖ﴾ والمرادُ نفيُ السؤال عنه. كأنه جعل التنبُّؤ مستلزماً لأحد الأمرين: إما الجنون، وإما توقع نفع دنيوي عليه، لأنه إما أن يكون لغرض أو لغيره، وأيّاً ما كان يلزم أحدهما، ثم نفى كلاً منهما. وقيل: «ما» موصولة مرادٌ بها ما سألهم بقوله تعالى: ﴿ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]. واتخاذ السبيل ينفعهم، وقرباه قرباهم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ مطَّلعٌ يعلم صدقي وخلوصَ نيَّتي.

(٤٨) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يلقيه وينزله على من يجتبيه (أي: يختاره) من عباده. أو يرمي به الباطل فيدمغه (أي: يغلبه ويعلوه)، أو يرمي به إلى أقطار الآفاق، فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ (٤٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

(٤٩) ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ وزهق الباطل، أي: الشرك، بحيث لم يبقَ له أثر. وقيل: الباطل إبليس أو الصنم، والمعنى: لا ينشئ خلقاً ولا يعيده، أو لا يبدئ خيراً لأهله ولا يعيده.

(٥٠) ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحق ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ﴾ فإنَّ وبالَ ضلالي عليها لأنه بسببها، إذ هي الجاهلة بالذات والأمارةُ بالسوء ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾ فإنَّ الاهتداء بهدايته وتوفيقه ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ يدرِك قولَ كلِّ ضالٍّ ومهتدٍ وفِعْلَه وإن أخفاه.

(٥١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند الموت أو البعث أو يوم بدر. وجواب «لَوْ» محذوفٌ، تقديره لرأيت أمراً فظيعاً ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون الله تعالى بهرَبٍ أو تحصُّنٍ ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ من ظهر الأرض إلى بطنها. أو من الموقف إلى النار. أو من صحراء بدر إلى القليب.

(٥٢) ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بمحمَّد عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ فإنه في حيِّز التكليف، وقد بَعُدَ عنهم.

(٥٣) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام. أو بالعذاب ﴿مِن قَبْلُ ۖ﴾ من قبلِ ذلك أَوانَ التكليف ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ويَرجمون بالظن، ويتكلمون بما لم يَظهر لهم في الرسول عليه الصلاة والسلام من المطاعن. أو في العذاب من البتِّ على نفيه ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ من جانب بعيد من أمره. وهو الشُّبَهُ التي تمحَّلوها في أمر الرسول ﷺ، أو حال الآخرة كما حكاه من قبلُ (والتمحُّل: شدَّة المكر). ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه.

(٥٤) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان والنجاة به من النار ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة (التي انقرضت) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾ مُوقِعٍ في الريبة.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة سبأ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطر

مكيَّة، وآيُها خمس وأربعون آية

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعِهما (أي: موجدهما على غير مثال) ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وسائط بين الله تعالى وبين أنبيائه عليهم السلام والصالحين من عباده، يبَلِّغون إليهم رسالاته بالوحي والإِلهام والرؤيا الصادقة. أو بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار صنعه جلَّ وعلا ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ذوي أجنحة متعددة متفاوتة بتفاوت ما لهم من المراتب، ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها نحو ما وكَّلهم الله تعالى عليه، فيتصرفون فيه على ما أمَرَهم به. ولعله لم يُرِدْ به خصوصية الأعداد ونفيَ ما زاد عليها، لماروي أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ست مئة جناح [الحديث أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أي: أن تفاوتهم في ذلك بمقتضى مشيئته ومؤدّى حكمته، لا أمرٌ تستدعيه ذواتهم. والآية متناولة زيادات الصور والمعاني؛ كملاحة الوجه وحسن الصوت وحصافة العقل (أي: متانته وإحكامه) وسماحة النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ وتخصيصُ بعض الأشياء بالتحصيل دون بعض إنما هو من جهة الإرادة.

(٢) ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ ما يطلِق لهم ويرسل ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ كنعمةٍ وأمْنٍ وصحةٍ وعلمٍ ونبوَّةٍ ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ يحبسها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ يُطلِقه ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد إمساكه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما يشاء، ليس لأحد أن ينازعه فيه ﴿ٱلْحَكِيمُ ②﴾ لا يَفعل إلا بعلمٍ وإتقانٍ. ثم لما بيَّن أنه الموجد للمُلك والملكوت والمتصرِّفُ فيهما على الإِطلاق أمَرَ الناس بشكر إنعامه فقال تعالى:

(٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ احفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة مُوْلِيها (أي: معطيها). ثم أنكرَ أن يكون لغيره في ذلك مَدخل فيستحقّ أن يُشرك به بقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③﴾ فمن أيِّ وجه تُصرفون عن التوحيد إلى إشراك غيره به؟

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

(٤) ﴿**وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ**﴾ أي: فتأسَّ بهم في الصبر على تكذيبهم. وتنكيرُ «رُسُلٍ» للتعظيم المقتضي زيادة التسلية والحثّ على المصابرة ﴿**وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾**﴾ فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب.

(٥) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ**﴾ بالحشر والجزاء ﴿**حَقٌّ**﴾ لا خُلْفَ فيه ﴿**فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا**﴾ فيذهلكم التمتعُ بها عن طلب الآخرة والسعي لها (أقول: هذا بلاء المسلمين، والذهول عن الآخرة بسبب الغفلة) ﴿**وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾**﴾ الشيطان، بأن يُمَنِّيكم المغفرةَ مع الإِصرار على المعصية، فإنها وإن أمكنت لكن الذنب بهذا التوقع كتناول السُّمِّ اعتماداً على دفع الطبيعة (أقول: لا بد أن نتمسك بالشريعة، لأننا إذا لم نتمسك بالشريعة ننحرف).

(٦) ﴿**إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ**﴾ عداوةً عامة قديمة ﴿**فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ في عقائدكم وأفعالكم، وكونوا على حذر منه في مجامع أحوالكم ﴿**إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾**﴾ تقريرٌ لعداوته، وبيانٌ لغرضه في دعوة شيعته (أي: أتباعه) إلى اتباع الهوى والركون إلى الدنيا.

(٧) ﴿**ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾**﴾ وعيدٌ لمن أجاب دعاءه (أي: دعوة الشيطان)، ووعدٌ لمن خالفه، وقطعٌ للأمانيِّ الفارغة، وبناءٌ للأمر كله على الإِيمان والعمل الصالح.

(٨) ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا**﴾ أي: أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عمله (بتزيين الشيطان) بأن غَلَب وَهْمُه وهواه على عقله حتى انتكس (أي: انقلب) رأيُه فرأى الباطل حقاً والقبيح حسناً كمن لم يُزيَّن له، بل وُفِّق حتى عرَفَ الحقَّ واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه؟ ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ**﴾ أي: فلا تُهلِك نفسك عليهم للحسرات على غيِّهم وإصرارهم على التكذيب. وجَمَعَ الحسرات للدلالة على تضاعف اغتمامه على أحوالهم، أو كثرة مساوي أفعالهم المقتضية للتأسُّف (أقول: ما دام رسول الله ﷺ كان يتحسَّر على من يفعل المخالفات فلا بدَّ للمسلمين أن يتحسَّروا على

ما يتحسَّر عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾ فيجازيهم عليه.

(٩) ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ على حكاية الحال الماضية، استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالمطر النازل منه. وذكرُ السحاب كذكره ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ بعد يَبْسها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ أي: مثل إحياء الموات نشورُ الأموات في صحة المقدوريَّة.

(١٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ الشرف والمَنعة (أي: العزّ والقوة) ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي: فليطلبها من عنده، فإن له كلَّها ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ بيانٌ لما يُطلب به العزة؛ وهو التوحيد والعمل الصالح. وصعودُهما إليه مجازٌ عن قبوله إياهما. أو صعودُ الكتبة بصحيفتهما. وتخصيصُ العمل بهذا الشرف لِما فيه من الكُلفة. والمُصعِد هو الله تعالى أو المتكلِّم به أو المَلَك. وقيل: الْكَلِمُ الطَّيِّبُ يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن (أقول: ورأس الكلِّ قراءة القرآن) وعنه عليه الصلاة والسلام: «هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإذا قالها العبد عَرَجَ بها المَلَكُ إلى السماء فحيَّى بها وجه الرحمن، فإذا لم يكن عمل صالح لم يُقبل» [صححه الحاكم ووافقه الذهبي] ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المَكَراتُ السيئات يعني مكرات قريش للنبي عليه الصلاة والسلام في دار الندوة وتدارسهم الرأيَ في إحدى ثلاث: حبسه وقتله وإجلائه ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ لا يؤبه (أي: لا يبالَى) دونه بما يمكرون به ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ يَفسُد ولا يَنفذ، لأن الأمور مقدَّرةٌ لا تتغير به، كما دلَّ عليه بقوله تعالى:

(١١) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ بخلق آدم عليه الصلاة والسلام منه ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ بخلق ذرِّيته منها ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ إلَّا معلومة له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ﴾ وما يُمَدُّ في عمرِ مَنْ مصيرُه إلى الكبَر ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ من عمر المعمَّر لغيره، بأن يعطى له عمرٌ ناقص من عمره، أو لا يُنقص من عمر المنقوص عمرُه بجعله ناقصاً. وقيل: الزيادة والنقصان في عمرٍ واحدٍ باعتبار أسباب مختلفة أُثبِتتْ في اللوح؛ مثل: أن يكون فيه: إن حجَّ عمرو فعمرُه ستون سنة، وإلا فأربعون. وقيل: المراد بالنقصان ما يمرُّ من عمره وينقضي، فإنه يُكتب في صحيفة عمره يوماً فيوماً ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ هو علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ أو الصحيفة (أقول: اللوح المحفوظ والصحيفة يطَّلع عليهما الملائكة، وعلم الله جل وعلا أزليٌّ لا يطلع عليه أحد، وما يُكتب في اللوح وفي الصحيفة إنما هو من علم الله تعالى) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١١﴾ إشارةٌ إلى الحفظ، أو إلى الزيادة والنقصان.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(١٢) ﴿**وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ**﴾ ضَرْبُ مثلٍ للمؤمن والكافر؛ والفراتُ (هو المتناهي في العذوبة) الذي يكسر العطش، والسائغ الذي يَسهُل انحداره، والأجاج الذي يُحرق بملوحته ﴿**وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا**﴾ استطرادٌ في صفة البحرين وما فيهما من النعم. أو تمام التمثيل. والمعنى: كما أنهما -وإن اشتركا في بعض الفوائد- لا يتساويان من حيث إنهما لا يتساويان فيما هو المقصود بالذات من الماء، فإنه خالَطَ أحدَهما ما أفسده وغيَّرَهُ عن كمال فطرته، لا يتساوى المؤمن والكافر وإن اتفق اشتراكهما في بعض الصفات - كالشجاعة والسخاوة - لاختلافهما فيما هو الخاصيَّة العظمى؛ وهي بقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر. والمراد بالْحِلْيَةِ اللآلئُ واليواقيت ﴿**وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ**﴾ تشقُّ الماء بجريها ﴿**لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ**﴾ من فضل الله تعالى بالنقلة فيها ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾**﴾ على ذلك.

(١٣) ﴿**يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ هي مدةُ دوره، أو منتهاه، أو يوم القيامة ﴿**ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ**﴾ الإشارةُ إلى الفاعل لهذه الأشياء. وفيها إشعارٌ بأن فاعليته لها موجبةٌ لثبوت الأخبار المترادفة ﴿**وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾**﴾ للدلالة على تفرُّده بالألوهية والربوبية. والقطمير: لُفافة النواة (أي: قشرتها الرقيقة).

(١٤) ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ**﴾ لأنهم جمادٌ ﴿**وَلَوْ سَمِعُوا۟**﴾ على سبيل الفرَض ﴿**مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ**﴾ لعدم قدرتهم على الإنفاع، أو لتبرُّئهم منكم مما تدعون لهم ﴿**وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**﴾ بإشراككم لهم. يُقِرُّون ببطلانه. أو يقولون: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾**﴾ ولا يُخبرك بالأمر مخبرٌ مِثْلُ خَبيرٍ به أخبرك، وهو الله سبحانه وتعالى، فإنه الخبير به على الحقيقة دون سائر المخبِرين. والمراد تحقيق ما أَخبَر به من حال آلهتهم، ونفيُ ما يدَّعون لهم.

(١٥) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ في أنفسكم وما يَعِنُّ (أي: يَعرِض) لكم. وتعريف الفقراء

للمبالغة في فقرهم، كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، وأن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غيرُ مُعتَدٍّ به، (أقول: فالفقر خاصٌّ بالإنسان)، ولذلك قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨] ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥﴾ المستغني على الإطلاق، المنعِم على سائر الموجودات، حتى استحقَّ عليهم الحمد.

(١٦) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦﴾ بقوم آخرين أطوع منكم، أو بعالَمٍ آخر غير ما تعرفونه.

(١٧) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ١٧﴾ بمتعذِّرٍ أو متعسِّرٍ.

(١٨) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفسٌ آثمة إثمَ نفس أخرى. وأما قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، ففي الضالين المضِلين، فإنهم يحملون أثقال إضلالهم مع أثقال ضَلالهم، وكلُّ ذلك أوزارُهم، ليس فيها شيء من أوزار غيرهم ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ نفسٌ أثقلها الأوزارُ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ تحمل بعض أوزارها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تُجِبْ لحمل شيء منه. نفى أن يُحمَل عنها ذنبُها كما نفى أن يُحمَل عليها ذنبُ غيرها ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ولو كان المدعوُّ ذا قرابتها ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ غائبين عن عذابه، أو عن الناس في خلواتهم. أو غائباً عنهم عذابُه (أقول: إيمان المؤمن كلُّه غيبيٌّ) ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإنهم المنتفعون بالإنذار لا غير ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ ومن تطهَّر من دنس المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفعُه لها ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾ فيجازيهم على تزكيتهم.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ
﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ
أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنْ
أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ
ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخْتَلِفًا
أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمْرٞ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ
وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ
يَرْجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾

(١٩) ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ الكافر والمؤمن.

(٢٠) ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾ ولا الباطل ولا الحق.

(٢١) ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ ولا الثواب ولا العقاب.

(٢٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ تمثيلٌ آخر للمؤمنين والكافرين أبلغُ من الأول، ولذلك كرَّر الفعلَ. وقيل للعلماء والجهلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ هدايتَه فيوفِّقه لفهم آياته (القرآنية) والاتعاظ بعظاته ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ ترشيحٌ لتمثيل المصرِّين على الكفر بالأموات، ومبالغةٌ في إقناطه عنهم.

(٢٣) ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ فما عليك إلا الإنذار، أما الإسماع فلا إليك، ولا حيلة لك إليه في المطبوع على قلوبهم (أقول: لأن هذا مختص بمشيئته جل وعلا).

(٢٤) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ محقِّين. أو إرسالاً مصحوباً بالحق ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾ أي: بشيراً بالوعد الحق، ونذيراً بالوعيد الحق ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أهلِ عصرٍ ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾ من نبيٍّ أو عالمٍ ينذر عنه. والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قرينة البشارة، سيَّما وقد قُرِنَ به من قبل، أو لأن الإنذار هو المقصود الأهمُّ من البعثة.

(٢٥) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الشاهدة على نبوتهم ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ كالتوراة والإنجيل.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إنكاري بالعقوبة.

(٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾ أجناسُها وأصنافُها، على أن كلا منها ذو أصناف مختلفة. أو هيئاتُها من الصفرة والخضرة ونحوهما ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ﴾ أي: ذو جُدد؛ أي خطط وطرائق ﴿بِيضٞ وَحُمْرٞ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدة والضعف ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾﴾ أي: ومن الجبال ذو جُدد مختلفة اللون ومنها غرابيبُ متحدة اللون (والغربيب هو الأسود المتناهي في السواد).

(٢٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ﴾ كاختلاف الثمار والجبال ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ إذ شرطُ الخشية معرفةُ المخشيِّ والعلمُ بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلمَ به كان أخشى منه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إني أخشاكم لله وأتقاكم له» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] (أقول: إذا رأيتم عالماً ليس له تقوى ولا يخاف الله تعالى فلا تقولوا عنه عالِم) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ تعليلٌ لوجوب الخشية، لدلالته على أنه معاقِبٌ للمصرِّ على طغيانه، غفورٌ للتائب عن عصيانه.

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يداومون على قراءته أو متابعة ما فيه حتى صارت سِمَةً لهم وعنواناً. والمراد بكتاب الله تعالى القرآنُ (أقول: هذه آية القراء) ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ كيف اتفقَ من غير قصد إليهما. وقيل: السرُّ في المسنونة، والعلانيةُ في المفروضة ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ﴾ تحصيلَ ثوابٍ بالطاعة ﴿لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ لن تكسد (أي: هي نافقة) ولن تهلك بالخسران.

(٣٠) ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ أي: ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم بنفاقها أجور أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ على ما يقابل أعمالهم ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لفرَطاتهم (أي: لتجاوزاتهم) ﴿شَكُورٌ ٣٠﴾ لطاعاتهم، أي: مجازيهم عليها.

وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

(٣١) ﴿**وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ**﴾ يعني القرآن ﴿**هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ**﴾ مصدِّقاً لما تقدَّمه من الكتب السماوية، لأن حقيته تستلزم موافقته إياه في العقائد وأصول الأحكام ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾**﴾ عالمٌ بالبواطن والظواهر، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوَّة لم يُوحِ إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار (أي: معيار) على سائر الكتب.

(٣٢) ﴿**ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ حكمنا بتوريثه منك. أو نورِّثه، فعبَّر عنه بالماضي لتحقُّقِه. أو أورثناه من الأمم السالفة (أقول: أورثنا الكتاب أي القرآن العظيم للأمة المحمدية) ﴿**ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ**﴾ يعني علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم. أو الأمة بأسرهم، فإن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم ﴿**فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ**﴾ بالتقصير في العمل به ﴿**وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ**﴾ يعمل به في أغلب الأوقات ﴿**وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ**﴾ بضمِّ التعليم والإرشاد إلى العمل. وقيل: الظالم: الجاهل، والمقتصد: المتعلم، والسابق: العالم. وقيل: الظالم: المجرم، والمقتصد: الذي خلط الصالح بالسيء، والسابق: الذي ترجَّحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفَّرة، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسَبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يُحبسون في طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته» [أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده] ﴿**ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾**﴾ إشارةٌ إلى التوريث أو الاصطفاء أو السبق.

(٣٣) ﴿**جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ**﴾ أي: مِنْ ذَهَبٍ مرصَّع باللؤلؤ. أو مِنْ ذَهَبٍ في صفاء اللؤلؤ ﴿**وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾**﴾.

(٣٤) ﴿**وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ**﴾ همَّهم من خوف العاقبة. أو همَّهم من أجل المعاش وآفاته. أو من وسوسة إبليس وغيرها ﴿**إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ**﴾ للمذنبين ﴿**شَكُورٌ ﴿٣٤﴾**﴾ للمطيعين.

(٣٥) ﴿**ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ**﴾ دار الإقامة ﴿**مِن فَضۡلِهِۦ**﴾ من إنعامه وتفضله، إذ لا واجب عليه ﴿**لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ**﴾ تعبٌ ﴿**وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾**﴾ كَلال (أي: ثِقَلٌ)، إذ لا تكليف فيها ولا كدَّ (أي: ولا تعب).

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُحكم عليهم بموت ثانٍ ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ فيتسريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ بل كلما خبت زيد إسعارها (أي: إيقادها) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ٣٦﴾ مبالغ في الكفر أو الكفران.

(٣٧) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون. من الصراخ وهو الصياح استعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوته ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ بإضمار القول. وتقييدُ العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسُّر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه، وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح والآن تحقَّقَ لهم خلافُه ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ جوابٌ من الله تعالى وتوبيخ لهم، و«ما يَتَذَكَّرُ فيه» يتناول كل عمر يمكِّن المكلف فيه من التفكر والتذكر. وقيل: ما بين العشرين إلى الستين. وعنه عليه الصلاة والسلام: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة» [الحديث أصله في البخاري رحمه الله تعالى] («أَعذَرَ الله تعالى فيه» أي: لم يُبْقِ فيه موضعاً للاعتذار، حيث أمهله طول هذه المدة ولم يعتذر) كأنه قال: عمَّرناكم وجاءكم النذير؛ وهو النبي ﷺ، أو الكتاب، وقيل: العقل أو الشيب أو موت الأقارب ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ يدفع العذاب عنهم.

(٣٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ لا يخفى عليه خافيةٌ، فلا يخفى عليه أحوالهم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾ تعليل له، لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلمَ بغيرها.

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

(٣٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ يلقي إليكم مقاليد التصرف فيها. وقيل: خلفاً بعد خلف ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ﴾ جزاءُ كفره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ بيانٌ له. والتكرير للدلالة على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين مستقل باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه. والمرادُ بالمقت - وهو أشد البغض - مقتُ الله تعالى، وبالخَسار خسارُ الآخرة.

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني آلهتهم. والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله تعالى، أو لأنفسهم فيما يملكونه ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء، أروني أيَّ جزء من الأرض استبدُّوا بخلقه؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أم لهم شركة مع الله تعالى في خلق السموات فاستحقوا بذلك شركة في الألوهية ذاتية؟ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق على أنا اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ﴾ على حُجَّة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جَعلية (أي: مشروطة بأجر) ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ لمّا نفى أنواع الحجج في ذلك أضربَ عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تغرير الأسلافِ الأخلافَ، أو الرؤساءِ الأتباعَ، بأنهم شفعاء عند الله تعالى يشفعون لهم بالتقرب إليه.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ كراهةَ أن تزولا، فإن الممكن حال بقائه لا بد له من حافظ. أو يمنعهما أن تزولا لأن الإمساك منعٌ ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ من بعد الله تعالى، أو من بعد الزوال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تُهدّا هداً، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً﴾ [مريم: ٩٠].

(٤٢) ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ﴾ وذلك أن قريشاً لمّا بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى، لو أتانا رسول لنكونَنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ، أي: من واحدة من الأمم؛ اليهودِ والنصارى وغيرهم. أو من الأمة التي يقال فيها هي إِحْدَى

الْأُمَمِ تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي: النذير، أو مجيئُه ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ تباعداً عن الحق.

(٤٣) ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أصله وإن مكروا المكر السيئ ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ ولا يحيط ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكر، وقد حاق بهم يوم بدر ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سُنَّةَ الله تعالى فيهم بتعذيب مكذِّبيهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ إذ لا يبدِّلها بجعله غير التعذيب تعذيباً، ولا يحوِّلها بأن ينقله من المكذِّبين إلى غيرهم (أقول: فلن تجد لسنة الله تعالى تبديلاً: إن تعلقت مشيئته به وثبت في لوح قضائه، إذ لا يبدَّل الحكم دونه سبحانه، و لن تتغيَّر ولن تتبدَّل سنته تعالى في خلقه).

(٤٤) ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهادٌ عليهم بما يشاهدونه في مَسايرهم (أي: سيرهم) إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ ليسبقه ويفوته ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلها (عِلماً أزلياً لا يُجدَّد ولا يُغيَّر) ﴿قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ عليها.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يسٓ ٣٦ — ٨٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

(٤٥) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من نسمة تدبُّ عليها بشؤم معاصيهم. وقيل: المراد بالدابة الإنس وحده، لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ فيجازيهم على أعمالهم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة فاطر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يس

مكيَّة، وآيُها ثلاث وثمانون آية

(١) ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ (قال أكثر المفسرين: يعني محمداً ﷺ قاله الحسن وسعيد بن جبير وجماعة).

(٢) ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ الواو واو القسَم.

(٣) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ لَمِنَ الذين أُرْسِلوا.

(٤) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وهو التوحيد والاستقامة في الأمور.

(٥) ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ (العزيز: الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهامَ ذوي العناد. الرحيم: الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولي الرشاد [المدارك للنسفي]).

(٦) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قوماً غير منذَرٍ آباؤهم؛ يعني آباءَهم الأقربين، لتطاول مدة الفترة ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم غافلون.

(٧) ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ (حَقَّ القولُ: أي وَجَبَ) يعني قولَه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ لأنهم مِمَّنْ عَلِمَ الله تعالى أنهم لا يؤمنون.

(٨) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ تقريرٌ لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغني عنهم الآيات والنذر، بتمثيلهم بالذين غُلَّت أعناقُهم ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ فالأغلالُ واصلة إلى أذقانهم، فلا

تخلِّيهم يُطأطئون رؤوسهم ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾ رافعون رؤوسهم غاضُّون أبصارَهم في أنهم لا يلتفتون لفتَ الحقِّ ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يُطأطئون رؤوسهم له.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ أحاط بهم سَدّان، فغطَّى أبصارَهم بحيث لا يُبصرون قدَّامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورةِ (أي: حفرةِ) الجهالة، ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل. وقيل: الآيتان في بني مخزوم؛ حَلَفَ أبو جهل أن يرضخ رأس النبي ﷺ، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه (أي: ليضربه)، فلما رفع يده انْثَنَتْ (أي: الْتَوَتْ) إلى عنقه، ولزق الحجر بيده حتى فكُّوه عنها بجهد، فرجع إلى قومه فأخبرهم، فقال مخزوميٌّ آخر: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب فأعمى الله تعالى بصره.

(١٠) ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ (أي: إنَّ الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه، يعني: لا ينفع فيهم الهدى، ولا تُغني عنهم الآيات والنُّذر).

(١١) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً يترتَّب عليه البُغية المَرُومة (أي: المطلوبة) ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآنَ بالتأمل فيه والعمل به ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وخاف عقابه قبل حلوله ومعاينة أهواله. أو في سريرته (أقول: يثبت هذا في سريرة العبد بشرط أن يزول حجاب النفس، حينذاك لا يبقى إلا الإيمان بالغيب والخشية من الرحمن)، ولا يغترّ برحمته (أقول: والذي يعمل المخالفات ويقول: إن الله غفور رحيم هذا مغرور)، فإنه جل وعلا كما هو رحمن، منتقِمٌ قهّار ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾.

(١٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: الأمواتَ بالبعث، أو الجهّال بالهداية ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ الحسنة والسيئة ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ يعني اللوح المحفوظ (أقول: أو علم الله جل وعلا الأزلي، هناك فرق بين اللوح المحفوظ وبين علم الله تعالى، علم الله تعالى لا تطلع عليه الملائكة، أما اللوح المحفوظ فإنهم يطلعون عليه).

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾

(١٣) ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ أي: اجعل لهم مثل أصحاب القرية مثلاً. والقريةُ أنطاكية ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ والمْرسَلون رسُلُ عيسى عليه الصلاة والسلام إلى أهلها. وإضافتُه إلى نفسه جل وعلا في قوله:

(١٤) ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ﴾ لأنه فِعْلُ رسوله وخليفتِه ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ وهما يوحنا ويونس عليهما السلام، وقيل: غيرهما ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا﴾ فقوَّينا ﴿بِثَالِثٖ﴾ وهو شمعون ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ وذلِكَ أنهم كانوا عبَدَة أصنام، فأرسَل إليهم عيسى عليه الصلاة والسلام اثنين، فلما قرُبا من المدينة رَأَيا حبيباً النجار يرعى غنماً، فسألهما فأخبراه فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض، فمسَحاه فبرأ، فآمن حبيب وفشا الخبر، فشفي على أيديهما خلق كثير، وبلغ حديثُهما إلى الملك، وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم، مَنْ أوجدك وآلهتك، قال: حتى أنظر في أمركما، فحبسهما، ثم بعث عيسى عليه الصلاة والسلام شمعون، فدخل متنكراً، وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به وأوصلوه إلى الملك فأَنِس به، فقال له يوماً: سمعتُ أنك حَبست رجلين، فهل سمعتَ ما يقولانه؟ قال: لا، فدعاهما، فقال شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال: صِفاه وأَوْجِزا، قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى المَلِك، فدعا بغلام مطموس العينين، فدعَوَا الله حتى انشق له بصره، وأخذا بُندقتين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما، فقال له شمعون: أرأيتَ لو سألتَ آلهتك حتى تصنع مثل هذا حتى يكون لك ولها الشرف؟ قال: ليس لي عنك سرٌّ، آلهتُنا لا تسمع ولا تبصر ولا تضرُّ ولا تنفع، ثم قال: إن قَدِرَ إلهُكما على إحياء ميت آمنا به، فأتوا بغلام مات منذ سبعة أيام، فدَعَوَا الله فقام وقال: إني أُدخِلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذِّركم ما أنتم فيه فآمِنوا، وقال: فُتِحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسناً يشفع لهؤلاء الثلاثة، فقال المَلِك: ومن هم؟ قال شمعون وهذان، فلما رأى شمعون أن قوله قد أثَّر فيه نصحه فآمن في جَمْعٍ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا.

(١٥) ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ لا مزيَّة لكم علينا تقتضي اختصاصكم بما تدَّعون ﴿وَمَآ أَنزَلَ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ وحيٍ ورسالةٍ ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾ في دعوى الرسالة.

(١٦) ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾ استَشهَدوا بعلم الله تعالى وهو يجري مجرى القسم.

(١٧) ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾ الظاهرُ البين بالآيات الشاهدة لصحته.

(١٨) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ تَشاءَمْنا بكم. وذلك لاستغرابهم ما ادَّعوه واستقباحهم له وتنفُّرِهم عنه ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ (لنقتلنَّكم أو لنطردنَّكم أو لنشتمنَّكم [النسفي]) ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾.

(١٩) ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ سببُ شؤمكم معكم، وهو سوء عقيدتكم وأعمالكم ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ وُعِظتم ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ قومٌ عادتكم الإِسراف في العصيان، فمِنْ ثَمَّ جاءكم الشؤم. أو مسرفون في الضلال، ولذلك توعَّدتم وتشاءَمتم بمن يجب أن يُكرَم ويُتبرَّك به.

(٢٠) ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ هو حبيب النجار، وكان ينحت أصنامهم، وهو ممن آمن بمحمّد عليه الصلاة والسلام، وبينهما ست مئة سنة، وقيل: كان في غار يعبد الله تعالى، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾.

(٢١) ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ على النصح وتبليغ الرسالة ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ إلى خير الدارَين.

(٢٢) ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ تَلَطَّفَ في الإِرشاد بإيرادِه في مَعْرِض المناصحة لنفسه وإمحاض (أي: إخلاص) النصح، حيث أراد لهم ما أراد لها. والمرادُ تقريعهم على تركهم عبادةَ خالقهم إلى عبادة غيره، ولذلك قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ مبالغةً في التهديد. ثم عاد إلى المساق الأول فقال تعالى:

(٢٣) ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ لا تنفعني شفاعتهم ﴿وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ بالنصرة والمظاهرة.

(٢٤) ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾ فإنَّ إيثارَ ما لا ينفع ولا يدفع ضرّاً بوجهٍ ما على الخالق المقتدِر على النفع والضرِّ وإشراكَهُ به ضلالٌ بيِّن لا يخفى على عاقل.

(٢٥) ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي خلقكم ﴿فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾ فاسمعوا إيماني. وقيل: الخطاب للرسل، فإنه لمّا نصح قومه أخذوا يرجمونه، فأسرع نحوهم قبل أن يقتلوه.

(٢٦) ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه بشرى له بأنه من أهل الجنة، أو إكراماً وإذناً في دخولها كسائر الشهداء. أو لما همُّوا بقتله رفعه الله تعالى إلى الجنة على ما قاله الحسن (البصري رحمه الله تعالى) ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

(٢٧) ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ وإنما تمنَّى عِلمَ قومه بحاله ليحملهم على اكتساب مثلها بالتوبة عن الكفر والدخول في الإِيمان والطاعة على دأب الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء. أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حقٍّ.

۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾

(٢٨) ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد إهلاكه، أو رفعه ﴿مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكهم كما أرسلنا يوم بدر والخندق، بل كَفَينا أمرهم بصيحة مَلَك. وفيه استحقارٌ لإهلاكهم، وإيماءٌ بتعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وما صح في حكمتنا أن نُنْزل جنداً لإهلاك قومه، إذ قدَّرنا لكل شيء سبباً، وجعلنا ذلك سبباً لانتصارك من قومك (أقول: والمعنى لم نحتج في اهلاكهم إلى إنزال الملائكة من السماء وما كنا منزلين الملائكة لأجلهم).

(٢٩) ﴿إِن كَانَتۡ﴾ ما كانت الأخذةُ أو العقوبةُ ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صاح بها جبريل عليه السلام (عند باب المدينة) ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ميِّتون. شُبِّهوا بالنار رمزاً إلى أن الحيَّ كالنار الساطعة، والميتَ كرَمَادِها.

(٣٠) ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ تعالَيْ، فهذه من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها، وهي ما دل عليها: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوطِ بنصحهم خيرُ الدارين أحِقَّاءُ بأن يتحسَّروا أو يُتحسَّر عليهم. وقد تلهَّف (أي: تحسَّر) على حالهم الملائكةُ والمؤمنون من الثقلين.

(٣١) ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ألم يعلموا ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: ألم يرَوْا كثرة إهلاكنا مَنْ قبلهم كونَهم غير راجعين إليهم.

(٣٢) ﴿وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (وما كلٌّ إلا جميع القرون عندنا محضّرون للحساب يوم القيامة. من المقباس لابن عباس رضي الله تعالى عنهما).

(٣٣) ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾ جنسَ الحبِّ ﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ لأن الحَبَّ معظمُ ما يؤكل ويعاش به.

(٣٤) ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ من أنواع النخل والعنب ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ أي: شيئاً من العيون (وهي الينابيع).

(٣٥) ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ ثمرِ ما ذُكِر، وهو الجنات ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ المرادُ ما يُتَّخذ منه؛

كالعصير والدبس ونحوهما. وقيل: ما نافيةٌ، والمرادُ أن الثمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم ﴿**أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥**﴾ أمرٌ بالشكر من حيث إنه إنكار لتركه.

(٣٦) ﴿**سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا**﴾ الأنواع والأصناف ﴿**مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ**﴾ من النبات والشجر ﴿**وَمِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ الذكر والأنثى ﴿**وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦**﴾ وأزواجاً مما لم يُطْلعهم الله تعالى عليه ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفته.

(٣٧) ﴿**وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ**﴾ نزيله ونكشفه عن مكانه ﴿**فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧**﴾ داخلون في الظلام.

(٣٨) ﴿**وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا**﴾ لحدٍّ معيَّن ينتهي إليه دورها ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الجرْيُ على هذا التقدير المتضمن للحِكَم التي تكلُّ (أي: تعجز) الفِطَنُ عن إحصائها ﴿**تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ**﴾ الغالبِ بقدرته على كل مقدور ﴿**ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨**﴾ المحيطِ علمُه بكل معلوم.

(٣٩) ﴿**وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ**﴾ قدَّرنا مسيره ﴿**مَنَازِلَ**﴾ أو قدَّرنا سيره في منازل. فإذا كان في آخر منازله دَقَّ وتقوس ﴿**حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ**﴾ كالشمراخ المعوَجِّ (وهو العنقود الذي عليه رطب إذا يَبس واعوجَّ) ﴿**ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩**﴾ العتيق.

(٤٠) ﴿**لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ**﴾ يصحُّ لها ويتسهَّل ﴿**أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ**﴾ في سرعة سيره، فإن ذلك يخل بتكوُّن النبات وتعيُّش الحيوان. أو في آثاره ومنافعه ﴿**وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ**﴾ يسبقه فيفوته، ولكن يعاقبه (أي: يتعاقب معه) ﴿**وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠**﴾ يسيرون فيه بانبساط (أي: بسهولة).

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

(٤١) ﴿**وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾**﴾ المملوء. وقيل: المراد فُلك نوحٍ عليه الصلاة والسلام، وحملُ الله تعالى ذرياتهم فيه أنه حمَلَ فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم ذرياتهم. وتخصيص الذرية لأنه أبلغ في الامتنان.

(٤٢) ﴿**وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ**﴾ من مِثل الفُلْكِ ﴿**مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾**﴾ من الإبل، فإنها سفائن البَرِّ. أو من السفن والزوارق (أي: الفُلك الصغيرة).

(٤٣) ﴿**وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ**﴾ فلا مُغيث لهم يحرسهم عن الغرق ﴿**وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾**﴾ ينجون من الموت به.

(٤٤) ﴿**إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا**﴾ إلا لرحمة ولتمتيع بالحياة ﴿**إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾**﴾ إلى زمانٍ قُدِّرَ لآجالهم.

(٤٥) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ**﴾ الوقائعَ التي خَلَتْ. أو العذاب المُعَدَّ في الآخرة. أو نوازل السماء ونوائب الأرض. أوعذاب الدنيا وعذاب الآخرة. أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾**﴾ لتكونوا راجين رحمة الله تعالى.

(٤٦) ﴿**وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾**﴾ كأنه قال: وَإِذَا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا، لأنهم اعتادوه وتمرَّنوا عليه.

(٤٧) ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ**﴾ على محاويجكم ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟**﴾ بالصانع؛ يعني معطِّلةً كانوا بمكة (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان بمكة زنادقة، فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله، أيُفقره الله ونطعمه نحن؟) ﴿**لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟**﴾ تهكُّماً بهم من إقرارهم به وتعليقهم الأمور بمشيئته ﴿**أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ**﴾ على زعمكم؟ وقيل: قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين إيهاماً بأن الله تعالى لمَّا كان قادراً أن يطعمهم ولم يطعمهم فنحن أحقُّ بذلك. وهذا من فرط جهالتهم، فإن الله تعالى يطعم بأسباب، منها حَثُّ الأغنياء على إطعام الفقراء، وتوفيقُهم له ﴿**إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾**﴾ حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله تعالى. ويجوز أن يكون جواباً من الله تعالى لهم، أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

(٤٨) ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾**﴾ يعنون وعدَ البعث.

(٤٩) ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم أمرها.

(٥٠) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء من أمورهم ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فيرَوا حالهم، بل يموتون حيث تبْغَتُهم الصيحة (أي: تفاجئهم).

(٥١) ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: مرَّة ثانية، وقد سبق تفسيره في سورة «المؤمنون [آية: ١٠١]» عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ يُسرعون.

(٥٢) ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ إشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياماً. و«مَنْ بَعَثَنَا»: ومن هَبَّنا (أي: نبَّهَنا) ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: مَا وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ حَقٌّ، وهو من كلامهم. وقيل: هو جواب الملائكة أو المؤمنين عن سؤالهم، معدولٌ عنه تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم.

(٥٣) ﴿إِن كَانَتْ﴾ ما كانت الفِعلة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأخيرة ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ بمجرَّدِ تلك الصيحة. وفي كلِّ ذلك تهوينُ (أي: تسهيلُ) أمرِ البعث والحشر.

(٥٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ حكايةٌ لِما يقال لهم حينئذ تصويراً للموعود وتمكيناً له في النفوس. وكذا قولُه تعالى:

إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

(٥٥) ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ متلذِّذون في النعمة. وفي تنكيرِ «شُغُلٍ» وإبهامِهِ تعظيمٌ لِما هُمْ فيه من البهجة (أي: السرور) والتلذُّذ، وتنبيهٌ على أنه أعلى ما يحيط به الأفهام ويُعرب (أي: يُظهِر) عن كُنْهه (أي: حقيقته) الكلام.

(٥٦) ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظل ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ على السرر المزيَّنة ﴿مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾.

(٥٧) ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ما يدَّعون به لأنفسهم، أو يتمنَّوْن.

(٥٨) ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أن الله تعالى يسلِّم عليهم بواسطة الملائكة.

(٥٩) ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وانفرِدوا عن المؤمنين. وذلك حين يُسارُ بهم إلى الجنة.

(٦٠) ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ من جملة ما يقال لهم تقريعاً وإلزاماً للحجة. وعهدُهُ إليهم: ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته الزاجرة عن عبادة غيره. وجعلُها عبادةَ الشيطان: لأنه الآمرُ بها والمزيِّن لها ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾﴾ تعليلٌ للمنع عن عبادته بالطاعة (أي: بطاعتهم له) فيما يحملهم عليه.

(٦١) ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾﴾ إشارةٌ إلى ما عهد إليهم، أو إلى عبادته.

(٦٢) ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ رجوعٌ إلى بيان معاداة الشيطان مع ظهور عداوته ووضوحِ إضلاله لمن له أدنى عقل ورأي. والجِبِلُّ: الخلق.

(٦٣-٦٤) ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ذوقوا حرَّها اليوم بكفركم في الدنيا.

(٦٥) ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ نمنعها عن الكلام ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ بظهور آثار المعاصي عليها ودلالتها على أفعالها. أو إنطاق الله تعالى إياها. وفي الحديث: «إنهم يجحدون ويخاصِمون فيُختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم وأرجلهم» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] (أقول: هذه فضاحة فوق الفضاحة، وهي أشد من العذاب، أجارنا الله تعالى من ذلك اليوم).

(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لمسحنا أعينهم حتى تصير ممسوحة ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ فاستبقوا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦﴾ الطريقَ وجِهَةَ السلوك فضلاً عن غيره.

(٦٧) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قِواهُم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ مكانهم بحيث يَجمدون فيه ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا﴾ ذهاباً ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ ۝٦٧﴾ ولا رجوعاً. وقيل لاَ يَرْجعون عن تكذيبهم. والمعنى أنهم بكفرهم ونقضهم ما عُهِد إليهم أحقاء بأن يُفعل بهم ذلك، لكنا لم نفعل لشمول الرحمة لهم واقتضاء الحكمة إمهالهم.

(٦٨) ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ ومن نطلْ عمره ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ نقلِّبْه فيه، فلا يزال يتزايد ضعفه وانتقاص بُنيتِه وقواه، عكس ما كان عليه بدء أمره ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾ أن من قَدِرَ على ذلك قَدِرَ على الطمس والمسخ، فإنه مشتمل عليهما وزيادة، غير أنه على تدرُّجٍ.

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ ردٌّ لقولهم: إن محمداً شاعرٌ. أي ما علَّمناه الشعر بتعليم القرآن، فإنه لا يماثله لفظاً ولا معنى، لأنه غير مُقَفّى ولا موزون، وليس معناه ما يتوخاه الشعراء من التخيلات المرغِّبة والمنفِّرة ونحوها ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما يصح له الشعر ولا يتأتى له إن أراد قَرْضَهُ (أي: قول الشعر) على ما خبرتم طبعه نحواً من أربعين سنة. وقوله عليه الصلاة والسلام: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. وقوله ﷺ: «هَل أَنْتِ إلا إِصبعٌ دَميتِ، وفي سَبِيلِ الله مَا لقيتِ» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. اتفاقيٌّ من غير تكلف وقصد منه إلى ذلك، وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المنثورات. و قيل: الضمير للقرآن، أي: وما يصح للقرآن أن يكون شعراً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ وإرشاد من الله تعالى ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾ وكتاب سماويٌّ يُتلى في المعابد، ظاهرٌ أنه ليس من كلام البشر، لِما فيه من الإِعجاز.

(٧٠) ﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآنُ أو الرسول ﷺ ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً فَهِماً، فإن الغافل كالميت. أو مؤمناً في علم الله تعالى، فإن الحياة الأبدية بالإِيمان. وتخصيصُ الإِنذار به لأنه المنتفِع به ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وتَجِبَ كلمةُ العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ المصرِّين على الكفر. وجَعَلَهم في مقابلة مَنْ كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أمواتٌ في الحقيقة.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

سُورَةُ الصَّافَّاتِ ٣٧ ١٨٢

(٧١) ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا**﴾ مما تولَّينا إحداثه ولم يقدر على إحداثه غيرُنا ﴿**أَنْعَامًا**﴾ خصَّها بالذكر لِما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع ﴿**فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾**﴾ متملكون لها بتمليكنا إياهم. أو متمكنون من ضبطها والتصرُّف فيها بتسخيرنا إياها لهم (أقول: من غير معين ولا ظهير، بل عمِلنا بقدرتنا وإرادتنا).

(٧٢) ﴿**وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ**﴾ وصيَّرناها منقادة لهم ﴿**فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ**﴾ مركوبهم ﴿**وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ**﴾ أي: ما يأكلون لحمه.

(٧٣) ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ**﴾ من الجلود والأصواف والأوبار ﴿**وَمَشَارِبُ**﴾ من اللبن ﴿**أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾**﴾ نِعَمَ الله تعالى في ذلك إذ لولا خلقه لها وتذليله إياها لَما أمكنَ التوسل (أي: التوصُّل) إلى تحصيل هذه المنافع المهمة.

(٧٤) ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً**﴾ أشركوها به في العبادة بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة، وعلموا أنه المتفرِّد بها ﴿**لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾**﴾ رجاء أن ينصروهم فيما حَزَبَهم (أي: أصابهم) من الأمور. والأمر بالعكس لأنهم:

(٧٥) ﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ**﴾ لآلهتهم ﴿**جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾**﴾ مُعَدُّونَ لحفظهم والذَّبِّ (أي: الدفع) عنهم. أو مُحْضَرُونَ إثْرَهم في النار.

(٧٦) ﴿**فَلَا يَحْزُنكَ**﴾ فلا يهمّك ﴿**قَوْلُهُمْ**﴾ في الله تعالى بالإلحاد والشرك، أو فيك بالتكذيب والتهجين (أي: كلام غير لائق) ﴿**إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾**﴾ فنجازيهم عليه، وكفى ذلك أن تتسلى به.

(٧٧) ﴿**أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾**﴾ تسليةٌ ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشرَ. وفيه تقبيح بليغ لإنكاره، حيث عجَّب منه وجعله إفراطاً في الخصومة بيِّناً، ومنافاةً لجحود القدرة على ما هو أهون مما عمله في بدء خلقه، ومقابلةً للنعمة التي لا مزيد عليها - وهي خَلْقُهُ من أخسِّ شيء وأمْهَنِه شريفاً مكرَّماً - بالعقوق والتكذيب. روي «أن أُبَي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم بالٍ يُفتِّته بيده وقال: أترى الله يحيي هذا بعد ما رمَّ (أي: بلِيَ)؟ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم، ويبعثك ويدخلك النار، فنزلت [أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي]. وقيل: معنى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فإذا هو

بعد ما كان – ماءً مَهيناً– مميِّزٌ مِنطيقٌ قادرٌ على الخصام معرِبٌ (أي: مُظهِرٌ) عما في نفسه.

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً، وهو نفي القدرة على إحياء الموتى وتشبيهه جل وعلا بخلقه، بوصفه بالعجز عما عجزوا عنه ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ خَلقَنا إياه ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ منكراً إياه مستبعِداً له. والرميم: ما بليَ من العظام.

(٧٩) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن قدرته كما كانت، لامتناع التغير فيه، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ يعلم تفاصيل المخلوقات بعلمه وكيفية خلقها، فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتبددة أصولَها وفصولَها ومواقعها وطريق تمييزها وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التي كانت فيها أو إحداث مثلها.

(٨٠) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ كالمرخ والعفار ﴿نَارًا﴾ بأن يُسحَق المرخ على العفار وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتنقدح النار ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ لا تشكُّون في أنها نارٌ تخرج منه. فمن قَدِرَ على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادَّة لها بكيفيتها كان أقدرَ على إعادة الغضاضة فيما كان غضاً فيَبس وبلي.

(٨١) ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مع كِبَرِ جِرمهما وعِظم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ في الصغر والحقارة بالإضافة إليهما. أو مِثلهم في أصول الذات وصفاتها؛ وهو المَعاد؟ ﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ من الله تعالى لتقرير ما بعد النفي، مشعرٌ بأنه لا جواب سواه ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾ كثيرُ المخلوقات والمعلومات.

(٨٢) ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ إنَّما شأنه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أي: تَكَوَّنْ ﴿فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ فهو يكون، أي: يَحدث. وهو تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمرِ المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعاً لمادة الشبهة، وهو قياسُ قدرة الله تعالى على قدرة الخلق.

(٨٣) ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنزيهٌ عما ضربوا له، وتعجيبٌ مما قالوا فيه، معلَّلاً بكونه مالكاً للأمر كله، قادراً على كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ وعدٌ ووعيدٌ للمقِرِّين والمنكرين.

وعنه عليه الصلاة والسلام إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى].

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة يس

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾
إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا
مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ
مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ
الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ
وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ
﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ
﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا
يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾
۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات

مكيَّة، وآيُها مئة واثنتان وثمانون آية

(١-٣) ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③**﴾ أَقْسَمَ بالملائكة الصافِّين في مقام العبودية على مراتب باعتبارها تفيض عليهم الأنوار الإلهية، منتظرين لأمر الله تعالى، الزاجرين الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به فيها (والزجر بمعنى السوق والحثّ)، أو الناسَ عن المعاصي بإلهام الخير، أو الشياطين عن التعرض لهم، التالين آيات الله تعالى وجلايا قدسه (أي: كاشفاته وموضِّحاته) على أنبيائه وأوليائه. أو أَقْسَمَ بنفوس العلماء الصافِّين في العبادات، الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح، التالين آيات الله تعالى وشرائعه. أو أَقْسَمَ بنفوس الغزاة الصافِّين في الجهاد، الزاجرين الخيل أو العدوَّ، التالين ذكر الله تعالى لا يشغلهم عنه مبارزة العدوِّ؛ فإن الصفَّ كمالٌ، والزجرَ تكميلٌ بالمنع عن الشر أو الإِشاقة (أي: التشويق) إلى قبول الخير، والتلاوةَ إفاضتُهُ.

(٤) ﴿**إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ④**﴾ جوابٌ للقسم. والفائدةُ فيه تعظيمُ المقسَم به وتأكيد المقسَم عليه.

(٥) ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ⑤**﴾ فإن وجودها وانتظامها على الوجه الأكمل - مع إمكان غيره - دليلٌ على وجود الصانع الحكيم وَوحْدَتِهِ جلَّ وعلا.

(٦) ﴿**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا**﴾ القربى منكم ﴿**بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ⑥**﴾ بزينةٍ هي الْكَواكِبِ.

(٧) ﴿**وَحِفْظًا**﴾ عطفٌ على «زِينَةٍ»، كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء الدنيا وحفظاً ﴿**مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ⑦**﴾ خارج من الطاعة، برمي الشهب.

(٨) ﴿**لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ**﴾ من التسمُّع، وهو طلب السماع. والملأ الأعلى: الملائكة أو أشرافهم ﴿**وَيُقْذَفُونَ**﴾ ويُرْمَوْنَ ﴿**مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ⑧**﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا صعوده.

(٩) ﴿**دُحُورًا**﴾ أي: مدحورين ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ**﴾ أي: عذاب آخر ﴿**وَاصِبٌ ⑨**﴾ دائمٌ أو شديد، وهو عذاب الآخرة.

(١٠) ﴿**إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ**﴾ والخطف: الاختلاسُ. والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارَقةً ﴿**فَأَتْبَعَهُ**

﴿شِهَابٌ﴾ الشهابُ: ما يُرى كأن كوكباً انقضَّ. واختُلِف في أن المرجوم يتأذى به فيرجع أو يحترق به، لكن قد يصيب الصاعدَ مرَّة وقد لا يصيب، ولذلك لا يرتدعون عنه رأساً ﴿ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ مضيء، كأنه يثقب الجوَّ بضوئه.

(١١) ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فاستخبِرْهم. والضميرُ لمشركي مكة أو لبني آدم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يعني ما ذُكِر من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشُّهُبِ الثواقب ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ وتقريرُه أن استحالة ذلك إما لعدم قابلية المادة، ومادَّتُهم الأصلية هي الطين اللازب (أي: الشديد المتماسك الأجزاء) الحاصل من ضمِّ الجزء المائي إلى الجزء الأرضي، وهما باقيان قابلان للانضمام بعدُ، وقد عَلموا أن الإنسان الأول إنما تَولَّد منه، فلزِمَهم أن يجوِّزوا إعادتهم كذلك، وإما لعدم قدرة الفاعل، ومَنْ قَدِرَ على خلق هذه الأشياء قَدِرَ على خلق ما لا يُعتَدُّ به بالإضافة إليها؛ سيَّما ومِنْ ذلك بَدؤهم أولاً، وقدرته ذاتية لا تتغير.

(١٢) ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرة الله تعالى وإنكارهم للبعث ﴿وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾ من تعجُّبك وتقريرِك للبعث.

(١٣) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣﴾ وإذا وُعِظوا بشيء لا يَتَّعظون به. أو إذا ذُكِر لهم ما يدل على صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم وقلة فكرهم.

(١٤) ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً﴾ معجزةً تدل على صدق القائل به ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾ يبالغون في السخرية، ويقولون إنه سحر. أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

(١٥) ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ﴾ يَعنون ما يرونه ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ ظاهرٌ سِحريَّته.

(١٦) ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦﴾ أي: أنُبعثُ إذا متنا؟

(١٧) ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ (أقول: ينظرون الى الشوربة الجاهزة، ولا ينظرون إلى طبخها بالماء والحَبِّ).

(١٨) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨﴾ صاغرون (أي: أذلاء).

(١٩) ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: إذا كان ذلك فإنما البَعْثةُ زَجْرَةٌ - أي: صيحة - واحدة؛ وهي النفخة الثانية. مِنْ زجرَ الراعي غنمه إذا صاح عليها ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾ فإذا هم قيامٌ من مَراقدهم أحياء يبصرون. أو ينتظرون ما يُفعل بهم.

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠﴾ اليومُ الذي نجازى بأعمالنا وقد تمَّ به كلامُهم. وقولُه:

(٢١) ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ جوابُ الملائكة. وقيل: هو أيضاً من كلام بعضهم لبعض. والفصلُ: القضاء، أو الفرق بين المُحسِن والمسيء.

(٢٢-٢٣) ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أمْرُ الله تعالى للملائكة، أو أمْرُ بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف. وقيل: منه إلى الجحيم ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ وأشباهَهُم؛ عابدَ الصنم مع عبدة الصنم، وعابد الكوكب مع عبدته، كقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً﴾ [الواقعة: ٧]. أو نساءهم اللاتي على دينهم. أو قرناءهم من الشياطين ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام وغيرها. زيادةٌ في تحسيرهم وتخجيلهم. وفيه دليل على أن ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هم المشركون ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ فعرِّفوهم طريقاً ليسلكوها.

(٢٤) ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ عن عقائدهم وأعمالهم.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۢ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾

(٢٥) ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾**﴾ لا ينصرُ بعضكم بعضاً بالتخليص. وهو توبيخ وتقريع.

(٢٦) ﴿**بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾**﴾ منقادون، لعجزهم وانسداد الحيَل عليهم.

(٢٧) ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ يعني الرؤساء والأتباع. أو الكفرة والقرناء ﴿**يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾**﴾ يسأل بعضهم بعضاً للتوبيخ.

(٢٨) ﴿**قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾**﴾ عن أقوى الوجوه وأيمَنها، أو عن الدين، أو عن الخير. كأنكم تنفعوننا نفْعَ السانح (وهو ما مرَّ من الطير والوحش من جهة يسارك إلى جهة يمينك، والعرب تتيمَّن به) فتبعناكم وهلكنا. أو عن القوة والقهر؛ فتقسروننا (أي: فتجبروننا) على الضلال. أو عن الحَلف؛ فإنهم كانوا يحلفون لهم إنهم على الحق.

(٢٩ـ٣٠) ﴿**قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۢ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾**﴾ أجابهم الرؤساء أوَّلاً بمنع إضلالهم بأنهم كانوا ضالين في أنفسهم، وثانياً بأنهم ما أجبروهم على الكفر إذ لم يكن لهم عليهم تسلط، وإنما جنحوا (أي: مالوا) إليه لأنهم كانوا قوماً مختارين الطغيان.

(٣١ـ٣٢) ﴿**فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾**﴾ ثم بيَّنوا أن ضلال الفريقين ووقوعهم في العذاب كان أمراً مقضياً لا محيص (أي: لا مهرب) لهم عنه، وأنَّ غاية ما فعلوا بهم أنهم دعَوْهم إلى الغيِّ لأنهم كانوا على الغي فأحبوا أن يكونوا مثلهم.

(٣٣) ﴿**فَإِنَّهُمْ**﴾ فإنَّ الأتباع والمتبوعين ﴿**يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية.

(٣٤) ﴿**إِنَّا كَذَٰلِكَ**﴾ مثلَ ذلك الفعل ﴿**نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾**﴾ بالمشركين. لقوله تعالى:

(٣٥) ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾**﴾ أي: عن كلمة التوحيد. أو على من يدعوهم إليها (أقول: هذا أمر مهمٌّ، نحن نرى الذين يموتون على الكفر، والباقون لا يَعتبرون، فهم بذلك يخسرون الدنيا والآخرة).

(٣٦) ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾**﴾ يَعنون محمداً عليه الصلاة والسلام.

(٣٧) ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٣٧﴾ ردٌّ عليهم بأن ما جاء به من التوحيد حقٌّ قام به البرهان وتطابَقَ عليه المرسلون.

(٣٨) ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ٣٨﴾ بالإشراك وتكذيب الرسل.

(٣٩) ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٩﴾ إلا مثلَ ما عملتم.

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ٤٠﴾ فإن ثوابهم مضاعف.

(٤١) ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ٤١﴾ خصائصُه؛ من الدوام أو تمحُّضِ (أي: خالص) اللذة. ولذلك فسَّره بقوله تعالى:

(٤٢) ﴿فَوَٰكِهُ﴾ فإن الفاكهة ما يُقصد للتلذُّذ دون التغذي، والقوت بالعكس. وأهل الجنة لمّا أعيدوا على خلقة محكمة محفوظة عن التحلُّل كانت أرزاقهم فواكه خالصة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ٤٢﴾ في نيله، يصل إليهم من غير تعب وسؤال.

(٤٣) ﴿فِي جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣﴾ في جنات ليس فيها إلا النعيم.

(٤٤-٤٥) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه خمر ﴿مِّن مَّعِينٍ ٤٥﴾ من شراب مَعينٍ أو نهر معين؛ أي: ظاهر للعيون، أو خارج من العيون. وصفَ به خمر الجنة لأنها تجري كالماء، أو للإِشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامعٌ لما يُطلب من أنواع الأشربة لكمال اللذة.

(٤٦) ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ٤٦﴾ بمعنى لذيذة.

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ غائلة (أي: مفسدة) كما في خمر الدنيا ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ٤٧﴾ يَسْكرون.

(٤٨) ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: قَصَرْنَ أبصارهنَّ على أزواجهنَّ ﴿عِينٌ ٤٨﴾ نُجلُ العيون (واسعات العيون).

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ٤٩﴾ شُبِّهنَ ببيض النعام المصون عن الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة، فإنه أحسن ألوان الأبدان.

(٥٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠﴾ أي: يشربون فيتحادثون على الشراب. وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جرى لهم وعليهم في الدنيا.

(٥١) ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في مكالمتهم ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١﴾ جليسٌ في الدنيا.

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

(٥٢) ﴿**يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ** ﴿٥٢﴾﴾ يوبِّخني على التصديق بالبَعث.

(٥٣) ﴿**أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ** ﴿٥٣﴾﴾ لمجزيُّون.

(٥٤) ﴿**قَالَ**﴾ أي: ذلك القائل: ﴿**هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ** ﴿٥٤﴾﴾ إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين. وقيل: القائل هو الله سبحانه وتعالى أوبعض الملائكة، يقول لهم: هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم؟

(٥٥) ﴿**فَٱطَّلَعَ**﴾ عليهم ﴿**فَرَءَاهُ**﴾ أي: قرينَه ﴿**فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ** ﴿٥٥﴾﴾ وسطه.

(٥٦) ﴿**قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ** ﴿٥٦﴾﴾ لتهلكني بالإغواء.

(٥٧) ﴿**وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى**﴾ بالهداية والعصمة ﴿**لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ** ﴿٥٧﴾﴾ معك فيها.

(٥٨) ﴿**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ** ﴿٥٨﴾﴾ أي: أنحن مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميتين؟

(٥٩) ﴿**إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ**﴾ التي كانت في الدنيا ﴿**وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴿٥٩﴾﴾ كالكفار. وذلك تمام كلامه لقرينه، تقريعاً له، أو معاودةً إلى مكالمة جلسائه تحدُّثاً بنعمة الله تعالى، أو تبجُّحاً (أي: فرحاً) بها، وتعجُّباً منها، وتعريضاً للقرين بالتوبيخ.

(٦٠) ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** ﴿٦٠﴾﴾ يُحتمل أن يكون من كلامهم وأن يكون كلام الله تعالى. والإشارةُ إلى ما هم عليه من النعمة والخلود والأمن من العذاب.

(٦١) ﴿**لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ** ﴿٦١﴾﴾ أي: لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الإنصرام (أي: الانقضاء). وهو أيضاً يحتمل الأمرين.

(٦٢) ﴿**أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ** ﴿٦٢﴾﴾ شجرةٌ ثمرُها نُزُلُ (أي: ضيافة) أهل النار. وفي ذكره دلالةٌ على أن ما ذُكِر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقام للنازل، ولهم فيها وراء ذلك ما تقصُر عنه الأفهام. وكذلك الزقوم لأهل النار. وهو: اسم شجرة صغيرة الورق دفرة (أي: منتنة) مُرَّة.

(٦٣) ﴿**إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ** ﴿٦٣﴾﴾ محنةً وعذاباً لهم في الآخرة. أو ابتلاءً في الدنيا.

(٦٤) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤﴾ منبتُها في قعر جهنم، وأغصانُها ترتفع إلى دركاتها.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا﴾ أي: حَمْلُها ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ في تناهي القبح والهول. وهو تشبيه بالمتخيَّل، كتشبيه الفائق في الحسن بالمَلَك. وقيل: الشَّياطِينُ حيات هائلة قبيحة المنظر لها أعرافٌ، ولعلها سُمِّيت بها لذلك.

(٦٦) ﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرة، أو من طَلعِها ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦﴾ لغلبةِ الجوعِ، أو للجبر على أكلها.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: بعد ما شبعوا منها وغلبَهم العطش وطال استسقاؤهم ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧﴾ لشراباً من غسَّاق (وهو ما يسيل من صديد أهل النار) أو صديد، مشوباً بماءٍ حميمٍ (وهو الماء الحارُّ) يقطِّع أمعاءهم.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرهم ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ إلى دَرَكاتها أو إلى نفسها. فإن الزقوم والحميم نُزُلٌ (أي: ضيافة) يُقدَّمُ إليهم قبل دخولهم. وقيل: الحميم خارجٌ عنها، لقوله تعالى: ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤]. يُوردون إليه كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يُردُّون إلى الجحيم.

(٦٩-٧٠) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ تعليلٌ لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال. والإِهراع: الإِسراع الشديد. وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير توقف على نظر وبحث.

(٧١) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبلَ قومِك ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١﴾.

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢﴾ أنبياءَ أنذروهم من العواقب.

(٧٣) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣﴾ من الشدة والفظاعة.

(٧٤) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾ أي: الذين أخلصهم الله تعالى لدينه. والخطابُ مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمقصودُ خطاب قومه، فإنهم أيضاً سمعوا أخبارهم ورأوا آثارهم.

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أي: ولقد دعانا حين أيس من قومه ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾ أي: فأجبناه أحسن الإجابة، والتقدير فوالله لَنعم المجيبون نحن.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾ من الغرق، أو أذى قومه.

وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

(٧٧) ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ إذ هلك مَنْ عداهم وبقوا متناسلين إلى يوم القيامة. إذ روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم.

(٧٨) ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ من الأمم.

(٧٩) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ والمعنى: يسلِّمون عليه تسليماً. وقيل: هو سلام من الله تعالى عليه ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ ومعناه: الدعاء بثبوت هذه التحية من الملائكة والثقلين جميعاً.

(٨٠) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ تعليلٌ لما فُعل بنوح عليه السلام من التكرمة بأنه مجازاة له على إحسانه.

(٨١) ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ تعليلٌ لإحسانه بالإيمان، إظهاراً لجلالة قدره وأصالة أمره.

(٨٢) ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ يعني كفار قومه.

(٨٣) ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ممن شايعه (أي: تبعَه) في الإيمان وأصول الشريعة ﴿لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾، ولا يبعُدُ اتفاق شرعهما في الفروع أو غالباً. وكان بينهما ألفان وست مئة وأربعون سنة، وكان بينهما نبيَّان: هود وصالح صلوات الله تعالى عليهم.

(٨٤) ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ من آفات القلوب أو من العلائق، خالصٍ لله تعالى، أو مخلص له. وقيل: حزين.

(٨٥ـ٨٦) ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: أتريدون آلهة دون الله تعالى إفكاً؟ (والإفك: الكذب).

(٨٧) ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربّاً للعالمين، حتى تركتم عبادته، أو أشركتم به غيره أو أمِنتم من عذابه؟ والمعنى إنكارُ ما يوجب ظناً، فضلاً عن قطع يصدُّ عن عبادته أو يُجوِّز الإشراكَ به أو يقتضي الأمن من عِقابه على طريقة الإلزام.

(٨٨) ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ فرأى مواقعها واتصالاتها. أو فنظر في علمها أو في كتابها. ولا مَنْعَ منه مع أن قصده إيهامُهم، وذلك حين سألوه أن يعبد معهم.

(٨٩) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾﴾ أراهم أنه استدلَّ بها، لأنهم كانوا منجِّمين، على أنه مشارفٌ للسقم لئلا

يخرجوه إلى معبدهم، فإنه كان أغلبُ أسقامهم الطاعون، وكانوا يخافون العدوى. أو أراد إني سقيمُ القلب لكفركم. أو خارجُ المزاج عن الاعتدال خروجاً قلَّ من يخلو منه.

(٩٠) ﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ هاربين مخافة العدوى.

(٩١) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ فذهب إليها في خفيةٍ ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام استهزاء ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ يعني الطعام الذي كان عندهم.

(٩٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ بجوابي.

(٩٣) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمال عليهم مستخفياً ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ وتقييده باليمين للدلالة على قوَّته، فإن قوة الآلة تستدعي قوة الفعل. وقيل: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بسبب الحَلف، وهو قوله: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد ما رجعوا، فرأوا أصنامهم مكسَّرة، وبحثوا عن كاسرها فظنوا أنه هو، كما شرحه في قوله: ﴿مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنا﴾ [الأنبياء: ٥٩] ﴿يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ يُسرعون.

(٩٥) ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ ما تنحتونه من الأصنام.

(٩٦) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: وما تعملونه. فإن جوهرَها بخَلْقِهِ، وشكلَها - وإن كان بفعلهم - فبإقْدارِه إياهم عليه، وخلقِه ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعي والعُدد. أو عملكم، بمعنى معمولكم، ليطابق ما تنحتون.

(٩٧) ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ في النار الشديدة.

(٩٨) ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فإنه لمّا قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك لئلا يظهر للعامة عجزُهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الأذلِّين، بإبطال كيدهم وجعله برهاناً نيِّراً على علوِّ شأنه، حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً.

(٩٩) ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ إلى حيث أمرَني ربي؛ وهو الشام. أو حيث أتجرَّد فيه لعبادته ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ إلى ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصدي. وإنما بتَّ القول لسبْق وعده، أو لفرط توكُّله (على الله تعالى) أو البناء على عادته معه.

(١٠٠) ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ بعضَ الصالحين، يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة، يعني الولدَ، لأن لفظ الهبة غالب فيه.

(١٠١) ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ بشرَّه بالولد وبأنه ذَكَرٌ يبلغ أوانَ الحُلُم، فإن الصبي لا يوصف بالحلم. أو يكون حليماً، وأيُّ حِلْمٍ مثلُ حِلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وقيل: ما نعتَ الله تعالى نبياً بالحلم لعزَّة وجوده (أي: لقلَّة وجود الحلم) غيرَ إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام.

(١٠٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي: فلما وُجد وبلغ أن يسعى معه في أعماله، وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ يحتمل أنه رأى ذلك، وأنه رأى ما هو تعبيره. وقيل: إنه رأى ليلة التروية أن قائلاً يقول له: إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح روَّى (أي: تفكر) أنه من الله تعالى أو من الشيطان، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره وقال له ذلك، ولهذا سميت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفة والنحر. والأظهَرُ أن المخاطب إسماعيل عليه الصلاة والسلام، لأنه الذي وُهب له إثرَ الهجرة، ولأن البشارة بإسحاق بعدُ معطوفةٌ على البشارة بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «أنا ابن الذبيحين» [أخرج الحاكم رحمه الله تعالى أن أعرابيّاً قال للنبي ﷺ: «يا بن الذبيحين»]، فأحدهما جدُّه إسماعيل، والآخر أبوه عبد الله، فإن جدَّه عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً إن سهَّل الله تعالى له حفر زمزم أو بلغ بنوه عشرة، فلما سهّل أقرَعَ (أي: ضرب القرعة)، فخرج السهم على عبد الله ففداه بمئة من الإِبل، ولذلك سُنَّت الدية مئة. ولأن ذلك كان بمكة، وكان قرنا الكبش معلَّقَيْن بالكعبة حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير، ولم يكن إسحاق ثمَّة. ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه، فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقاً ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ من الرأي؟ وإنما شاوره فيه وهو حتمٌ لِيَعلمَ ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى، فيثبت قَدَمُه إن جزع، ويأمن عليه إن سلم، وليوطِّن نفسه عليه فيهوّن عليه، ويكتسب المثوبة بالانقياد له قبل نزوله ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي: ما تؤمر به. ولعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به. أو علم أن رؤيا الأنبياء حق وأن مثل ذلك لا يُقدِمون عليه إلا بأمر. ولعل الأمر به في المنام دون اليقظة لتكون مبادرتها إلى الامتثال أدلَّ على كمال الانقياد والإخلاص ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ على الذبح، أو على قضاء الله جل وعلا.

فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

(١٠٣) ﴿**فَلَمَّآ أَسْلَمَا**﴾ استسلما لأمر الله تعالى. أو سلَّم الذبيحُ نفسَه وإبراهيمُ ابنَه عليهما السلام ﴿**وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾**﴾ صرَعَه على شقه، فوقع جبينه على الأرض، وهو أحد جانبي الجبهة. وقيل: كَبَّهُ على وجهه بإشارته، لئلا يَرى فيه تغيراً يَرِقُّ له فلا يذبحه. وكان ذلك عند الصخرة بمنى، أو في الموضع المُشرف على مسجده، أو المنحر الذي يُنحر فيه اليوم.

(١٠٤) ﴿**وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾**﴾.

(١٠٥) ﴿**قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ**﴾ بالعزم والإتيان بالمقدِّمات. وقد روي أنه أَمَرَّ السكين بقوَّته على حلقه مِراراً فلم تقطع. وجوابُ «لمّا» محذوف، تقديره: كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال، من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله، والتوفيق بما لم يوفَّق غيرهما لمثله، وإظهار فضلهما به على العالمين، مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك ﴿**إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾**﴾ تعليل لإفراج تلك الشدة عنهما بإحسانهما.

(١٠٦) ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾**﴾ الابتلاء البيِّن الذي يتميز فيه المخلص من غيره. أو المحنة البيِّنةُ الصعوبةِ، فإنه لا أصعب منها.

(١٠٧) ﴿**وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ**﴾ بما يُذبح بدله فيتمّ به الفعل ﴿**عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾**﴾ عظيم الجثة سمين. أو عظيم القَدْر، لأنه يَفدي به الله تعالى نبياً ابن نبي وأيَّ نبي! من نسله سيدُ المرسلين عليه الصلاة والسلام. قيل: كان كبشاً من الجنة.

(١٠٨_١٠٩) ﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾**﴾ سبق بيانُه في قصة نوح عليه الصلاة والسلام (من الآية: ٧٩).

(١١٠_١١٢) ﴿**كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾**﴾ مقضياً نبوَّته مقدَّراً كونُه من الصالحين. أي: وبَشَّرْناهُ بأن يوجد إسحاق نبياً من الصالحين.

(١١٣) ﴿**وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ**﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿**وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ**﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم؛ كأيوب وشعيب عليهما السلام. أو أفضْنا عليهما بركات الدين والدنيا ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا**

مُحۡسِنٞ﴾ في عمله، أو إلى نفسه بالإيمان والطاعة (أقول: أي تارك للحظوظ النفسية من الدنيا) **﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾** بالكفر والمعاصي **﴿مُبِينٞ ١١٣﴾** ظاهرٌ ظلمُه، وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأن الظلم في أعقابهما (أي: أولادهما) لا يعود عليهما بنقيصة وعيب.

(١١٤) **﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤﴾** أنعمنا عليهما بالنبوَّة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية.

(١١٥) **﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ١١٥﴾** من تغلُّب فرعون. أو من الغرق.

(١١٦) **﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦﴾** على فرعون وقومه.

(١١٧) **﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧﴾** البليغَ في بيانه؛ وهو التوراة.

(١١٨) **﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨﴾** الطريق الموصل إلى الحق والصواب.

(١١٩ـ١٢٢) **﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢١ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٢﴾** سبق مثل ذلك (في هذه السورة في الآيات ٨١، ١١١).

(١٢٣) **﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾** هو إلياس بن ياسين سبط هارون أخي موسى عليهم الصلاة والسلام بُعث بعده.

(١٢٤) **﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤﴾** عذاب الله تعالى.

(١٢٥) **﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾** أتعبدونه أو أتطلبون الخير منه. وهو اسم صنم كان لأهل بَكَّ بالشام، وهو البلد الذي يقال له الآن: بعلبك **﴿وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥﴾** وتتركون عبادته.

(١٢٦) **﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٢٦﴾** (أي: الذي هو خالقكم وخالق آبائكم من قبل [المقتطف]).

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

(١٢٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: في العذاب. وإنما أطلقه اكتفاء منه بالقرينة، أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشرِّ عُرفاً.

(١٢٨) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

(١٢٩_١٣٢) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

(١٣٣_١٣٥) ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ (أي: الباقين [النسفي]).

(١٣٦) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ (أهلكناهم).

(١٣٧) ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازلهم في متاجركم إلى الشام، فإن سدوم في طريقه ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ داخلين في الصباح.

(١٣٨) ﴿وَبِٱلَّيْلِ ۚ﴾ أي: ومساء. أو نهاراً وليلاً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ أفليس فيكم عقل تعتبرون به.

(١٣٩_١٤٠) ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ﴾ هرب ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ المملوء.

(١٤١) ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع أهله ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة. روي أنه لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى، فركب السفينة فوقفت، فقالوا: هٰهنا عبدٌ آبق، فاقترعوا فخرجت القرعة عليه، فقال: أنا الآبق ورمى بنفسه في الماء.

(١٤٢) ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ فابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ داخل في الملامة. أو آتٍ بما يلام عليه. أو مليمٌ نفسَه.

(١٤٣) ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ الذاكرين الله تعالى كثيراً بالتسبيح مدة عمره. أو في بطن الحوت، وهو قوله: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وقيل: من المصلين.

(١٤٤) ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ حياً. وقيل: ميتاً. وفيه حثٌّ على إكثار الذكر، وتعظيمٌ لشأنه، ومَنْ أقبل عليه في السراء أخذ بيده عند الضراء.

(١٤٥) ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ بأن حَمَلنا الحوت على لفظه (أي: رميه من جوفه) ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت. روي أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح حتى انتهوا إلى

البرِّ فلفظه. واختُلف في مدة لبثه، فقيل: بعض يوم، وقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة، وقيل: عشرون، وقيل: أربعون ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ مما ناله. قيل: صار بدنه كبدن الطفل حين يولد.

(١٤٦) ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: فوقه مظلة عليه ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ من شجر ينبسط على وجه الأرض ولا يقوم على ساقه. والأكثر على أنها كانت الدباء، غطته بأوراقها عن الذباب فإنه لا يقع عليها.

(١٤٧) ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومه الذين هرب عنهم؛ وهم أهل نينوى. والمراد به ما سبق من إرساله، أو إرسالٌ ثانٍ إليهم أو إلى غيرهم ﴿أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ في مرأى الناظر؛ أي إذا نظر إليهم قال: هم مئة ألف أو يزيدون. والمراد الوصف بالكثرة.

(١٤٨) ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ فصدَّقوه. أو فجدَّدوا الإيمان به بمحضره ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ إلى أجلهم المسمى.

(١٤٩) ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ في أول السورة أَمَرَ رسوله عليه الصلاة والسلام أولاً باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعثَ، وساق الكلام في تقريره جاراً لما يلائمه من القصص موصولاً بعضها ببعض، ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمة، حيث جعلوا لله تعالى البنات ولأنفسهم البنين في قولهم: "الملائكة بنات الله"، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أُخَر؛ كالتجسيم وتجويز الفناء على الله تعالى - فإن الولادة مخصوصة بالأجسام الكائنة الفاسدة - وتفضيلِ أنفسهم عليه، حيث جعلوا أوْضَعَ الجنسين له وأرفعَهما لهم (بزعمهم)، واستهانتِهم بالملائكة، حيث أنَّثوهم. ولذلك كرَّر الله تعالى إنكار ذلك وإبطاله في كتابه مراراً، وجعله مما ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠].

(١٥٠) ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ وإنما خصَّ علمَ المشاهدة لأن أمثال ذلك لا يُعلم إلا به، فإن الأنوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمْكِنَ معرفته بالعقل الصرف، مع ما فيه من الاستهزاء والإشعار بأنهم لفرط جهلهم يبتُّون به كأنهم قد شاهدوا خلقهم.

(١٥١ـ١٥٢) ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ﴾ لعدم ما يقتضيه، وقيام ما ينفيه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ فيما يتديَّنون به.

(١٥٣) ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ استفهامُ إنكار واستبعاد. والاصطفاءُ أخذُ صفوة الشيء.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

سُورَةُ ص (٣٨) (٨٨)

(١٥٤) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ بما لا يرتضيه عقل.

(١٥٥) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أنه منزَّه عن ذلك؟

(١٥٦) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ حجةٌ واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته.

(١٥٧) ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ في دعواكم.

(١٥٨) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ يعني الملائكةَ. ذكَرَهم باسم جنسهم وضعاً منهم أن يبلغوا هذه المرتبة. وقيل: قالوا إن الله تعالى صاهَرَ الجنَّ فخرجت الملائكة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ إن الكفرة. أو الإنس. أو الجنَّ، إن فسِّرت بغير الملائكة ﴿لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ في العذاب.

(١٥٩) ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ من الولد والنسب.

(١٦٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

(١٦١) ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ عَودٌ إلى خطابهم.

(١٦٢) ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ على الله تعالى ﴿بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ مفسدين الناس بالإغواء.

(١٦٣) ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ إلاَّ من سبق في علمه تعالى أنه من أهل النار يصلاها لا محالة.

(١٦٤) ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية للردِّ على عبدتهم. والمعنى: وما منا أحد إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ في المعرفة والعبادة والانتهاء إلى أمر الله تعالى في تدبير العالم لا يتجاوزه.

(١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ في أداء الطاعة ومنازل الخدمة.

(١٦٦) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ المنزِّهون الله تعالى عما لا يليق به.

(١٦٧) ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ أي: مشركو قريش.

(١٦٨) ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ كتاباً من الكتب التي نزلت عليهم.

(١٦٩) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ لأخلصنا العبادة له ولم نخالف مثلهم.

(١٧٠) ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أي: لمّا جاءهم الذكر الذي هو أشرف الأذكار والمهيمن عليها ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ عاقبة كفرهم.

(١٧١_١٧٣) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١﴾ أي: وعدُنا لهم بالنصر والغلبة؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ وهو باعتبار الغالب والمقضي بالذات.

(١٧٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٤﴾ هو الموعد لنصرك عليهم؛ وهو يوم بدر، وقيل: يوم الفتح.

(١٧٥) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما ينالهم حينئذ. والمراد بالأمر الدلالة على أن ذلك كائن قريب كأنه قدَّامه ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٥﴾ ما قضينا لك من التأييد والنصرة والثواب في الآخرة. و«سوف» للوعيد لا للتبعيد.

(١٧٦) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ١٧٦﴾ روي أنه لما نزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا؟ متى هذا؟ فنزلت.

(١٧٧) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ فإذا نزل العذاب بفِنائهم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٧﴾ فبئس صباح المنذَرين صباحُهم.

(١٧٨_١٧٩) ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٩﴾ تأكيد إلى تأكيد، وإطلاق بعد تقييد، للاشعار بأنه يبصر وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أصناف المسرة وأنواع المساءة. أو الأول لعذاب الدنيا والثاني لعذاب الآخرة.

(١٨٠) ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ عما قاله المشركون فيه على ما حكي في السورة. وإضافة الرب إلى العزة لاختصاصها به، إذ لا عزَّة إلا له أو لمن أعزَّه. وقد أدرج فيه جملة صفاته السلبية (وهي: الوحدانية والقِدَم والبقاء والقيام بالنفس والمخالفة للحوادث) والثبوتية (وهي: القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، وزاد الماتريدية صفة التكوين) مع الإِشعار بالتوحيد.

(١٨١) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١﴾ تعميم للرسل بالتسليم بعد تخصيص بعضهم.

(١٨٢) ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ على ما أفاض عليهم وعلى من اتبعهم من النعم وحسن العاقبة، ولذلك أخَّره عن التسليم. والمراد تعليم المؤمنين كيف يحمدونه جل وعلا ويسلمون على رسله عليهم الصلاة والسلام.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الصافات
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة ص

مكيَّة، وآيُها ثمان وثمانون آية

(١) ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ الواو للقسم، والجواب محذوف دلَّ عليه ما في ﴿صٓۚ﴾ من الدلالة على التحدي. أي: إنه لمعجِزٌ، أو لَواجبٌ العملُ به. أو إن محمداً ﷺ لصادق.

(٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ما كفر به من كفر لخللٍ وجدهُ فيه ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ به ﴿فِي عِزَّةٖ﴾ أي: استكبار عن الحق ﴿وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ خلافٍ لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام، ولذلك كفروا به. والمرادُ بالذكر العظةُ أو الشرفُ والشهرةُ، أو ذكر ما يُحتاج اليه في الدين من العقائد والشرائع والمواعيد.

(٣) ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ وعيدٌ لهم على كفرهم به استكباراً وشقاقاً (أي: معاندة) ﴿فَنَادَواْ﴾ استغاثةً أو توبةً أو استغفاراً ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣﴾ أي: ليس الحين حين مناص. والمناصُ: المَنجا (أي: موضع النجاة).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦

(٤) ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ بشرٌ مثلهم. أو أميٌّ من عِدادهم ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ﴾ فِيما يُظهره معجزةً ﴿كَذَّابٌ ۝٤﴾ فيما يقوله على الله تعالى.

(٥) ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ بأن جعل الألوهية التي كانت لهم لواحدٍ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ بليغ في العَجَبِ؛ فإنه خلافُ ما أطبق عليه آباؤنا، وما نشاهده من أن الواحد لا يفي علمُه وقدرته بالأشياء الكثيرة. وروي أنه لما أسلم عمر رضي الله تعالى عنه شَقَّ ذلك على قريش، فأتوا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحْضَرَ رسول الله ﷺ وقال: هؤلاء قومك يسألونك السواء (أي: القول الوسط)، فلا تَمِلْ كل الميل عليهم (أي: لا تظلمْهم)، فقال عليه الصلاة والسلام: ماذا تسألونني؟ فقالوا: ارْفِضْنا وارفض ذكرَ آلهتنا ونَدَعكَ وإلهك، فقال: «أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطيَّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟»، فقالوا: نعم وعشراً، فقال: «قولوا: لا إله إلا الله»، فقاموا وقالوا ذلك [والحديث أخرجه الإمام أحمد والنسائي وحسّنه الترمذي رحمهم الله تعالى].

(٦) ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعد ما بكَّتهم (أي: أسكتهم) رسول الله ﷺ ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ قائلين بعضهم لبعض امْشُوا ﴿وَٱصۡبِرُواْ﴾ واثبُتوا ﴿عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ على عبادتها،

فلا تنفعكم مكالمتُهُ. وقيل المراد بالانطلاق الاندفاعُ في القول ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ إنَّ هذا الأمر لشيء من رَيب الزمان يراد بنا فلا مردَّ له. أو إن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم لشيء يُتمنَّى أو يريده كلُّ أحدٍ. أو إن دينكم لشيء يُطلب ليؤخذ منكم وتُغلبوا عليه.

(٧) ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ بالذي يقوله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ في الملة التي أدركنا عليها آباءنا. أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل؛ فإن النصارى يثلِّثون ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧﴾ كَذِبٌ اختَلَقَه (أي: افتراه).

(٨) ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ إنكارٌ لاختصاصه بالوحي وهو مِثلهم أو أدْوَنُ منهم في الشرف والرئاسة. وأمثال ذلك دليلٌ على أن مبدأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوي ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ من القرآن أو الوحي، لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل، وليس في عقيدتهم ما يبُتُّون به من قولهم: ﴿هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، ﴿إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾ ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨﴾ بل لم يذوقوا عذابي بعدُ، فإذا ذاقوه زال شكُّهم. والمعنى أنهم لا يصدِّقون به حتى يمسَّهم العذاب فيلجئهم إلى تصديقه.

(٩) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩﴾ بل أعندهم خزائن رحمته وفي تصرُّفهم حتى يصيبوا بها من شاؤوا ويصرفوها عمن شاؤوا، فيتخيَّروا للنبوَّة بعض صناديدهم. والمعنى أن النبوَّة عطية من الله تعالى يتفضل بها على مَن يَشَاء مِنْ عباده، لا مانع له فإنه العزيز؛ أي: الغالب الذي لا يُغلب، الوهاب: الذي له أن يهب كلَّ ما يشاء لمن يشاء. ثم رشَّح (أي: قدَّم) ذلك فقال:

(١٠) ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كأنه لما أنكر عليهم التصرف في نبوته بأن ليس عندهم خزائن رحمته التي لا نهاية لها، أردفَ ذلك بأنه ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائنه، فمِنْ أين لهم أن يتصرفوا فيها؟ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝١٠﴾ أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في المعارج التي يُتوصَّل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبِّروا أمر العالم، فيُنزلوا الوحي إلى من يستصوبون. وهو غاية التهكم بهم.

(١١) ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾ أي: هم جندٌ من الكفار المتحزِّبين على الرسل مَهْزُومٌ مكسور عما قريب، فمن أين لهم التدابير الإلهية والتصرف في الأمور الربانية؟ أو فلا تكترثْ بما يقولون.

(١٢) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝١٢﴾ ذو المُلْكِ الثابت بالأوتاد. أو ذو الجموع الكثيرة. سُمُّوا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً كالوتد يشد البناء.

(١٣) ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ﴾ وأصحاب الغيضة (أي: الشجر)؛ وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۝١٣﴾ يعني المتحزِّبين على الرسل، الذين جعل الجند المهزوم منهم.

(١٤) ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ بيانٌ لما أُسْنِد إليهم من التكذيب على الإبهام، مشتملٌ على أنواع من التأكيد، ليكون تسجيلاً على استحقاقهم للعذاب، ولذلك رتَّبَ عليه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾.

(١٥) ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ﴾ وما ينتظر قومك أو الأحزاب ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ من توقُّفٍ مقدار فَواقٍ؛ وهو ما بين الحَلْبتين.

(١٦) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قِسْطَنا من العذاب الذي تُوعِّدْنا به. أو الجنة التي تَعِدُها للمؤمنين. أو عجِّلْ لنا صحيفة أعمالنا ننظرْ فيها ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۝١٦﴾ استعجلوا ذلك استهزاءً.

اَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

(١٧) ﴿**اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ**﴾ واذكر لهم (أي: للكفرَة) قصته تعظيماً للمعصية في أعينهم؛ فإنه مع علوِّ شأنه واختصاصه بعظائم النعم والمكرُمات لمّا أتى صغيرةً نزَل عن منزلته، (وعاتبه) الملائكة بالتمثيل والتعريض فاستغفر ربه وأناب، فما الظنُّ بالكفرة وأهل الطغيان؟ ﴿**ذَا الْأَيْدِ**﴾ ذا القوة ﴿**إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾**﴾ رجَّاعٌ إلى مرضاة الله تعالى. وهو دليل على أن المراد به القوةُ في الدين، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويقوم نصف الليل.

(١٨) ﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ**﴾ (يقدِّسْنَ الله تعالى معه؛ إما بلسان الحال، أو بصوتٍ يتمثَّل له، أو بخلق الله تعالى فيها الكلام) ﴿**بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾**﴾ ووقت الإشراق، وهو حين تشرق الشمس أي تضيء ويصفو شعاعها، وهو وقت الضحى.

(١٩) ﴿**وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً**﴾ إليه من كل جانب ﴿**كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾**﴾ كلٌّ واحدٍ من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجَّاع إلى التسبيح. أو كلٌّ منهما ومن داود عليه السلام مرجِّعٌ لله تعالى التسبيح.

(٢٠) ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ**﴾ وقوّيناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ**﴾ النبوَّة. أو كمال العلم واتقان العمل ﴿**وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾**﴾ وفصل الخصام؛ بتمييز الحق عن الباطل. أو الكلام الملخَّص الذي ينبِّه المخاطَب على المقصود من غير التباسٍ. وإنما سُمِّيَ به «أمَا بَعْدُ» لأنه يفصل المقصود عما سبق مقدِّمة له من الحمد والصلاة.

(٢١) ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ**﴾ استفهامٌ معناه التعجيب والتشويق إلى استماعه ﴿**إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾**﴾ إذ تصعَّدوا سُور الغرفة (أي: اعتلَوا حائطها المرتفع).

(٢٢) ﴿**إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ**﴾ لأنهم نزلوا عليه من فوق في يوم الاحتجاب (أي: اليوم الذي يَحتجب فيه عن الخلق للعبادة) والحرَسُ على الباب لا يتركون من يدخل عليه، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جزَّأ (أي: قسَّم) زمانه: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للوعظ، ويوماً للاشتغال بخاصته، فتسوَّر عليه ملائكة على صور الإنسان في يوم الخلوة ﴿**قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ**﴾ نحن فوجان متخاصمان ﴿**بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ**

﴿بَعۡضٖ﴾ وهو على الفَرَض وقصدِ التعريض إن كانوا ملائكة، وهو المشهور ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ ولا تَجُرْ (أي: لا تظلم) في الحكومة. والشططُ هو مجاوزة الحدِّ ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إلى وسطه؛ وهو العدل.

(٢٣) ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ بالدين، أو بالصحبة ﴿لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ هي الأنثى من الضأن، وقد يُكنَّى بها عن المرأة ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ مَلِّكْنيها. وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي. وقيل: اجعلها كِفْلي، أي: نصيبي ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ وغلبني في مخاطبته إياي محاجَّة بأن جاء بحجج لم أقدِرْ على ردِّه. أو في مغالبته إياي في الخِطبة.

(٢٤) ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ قَصَدَ به المبالغة في إنكار فعلِ خليطه وتهجين (أي: تقبيح) طمَعِه. ولعله قال ذلك بعد اعترافه، أو على تقدير صدق المدَّعي ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ الشركاء ﴿لَيَبۡغِي﴾ ليتعدَّى ﴿بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ أي: وهم قليل ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ابتليناه بالذنب أو امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها؟ ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذنبه ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾ ساجداً على تسمية السجود ركوعاً لأنه مبدؤه. أو خرَّ للسجود راكعاً؛ أي: مُصلِّياً كأنه أحرم بركعتي الاستغفار ﴿وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾﴾ ورجع إلى الله تعالى بالتوبة.

(٢٥) ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: ما استغفر عنه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ لقربةً بعد المغفرة ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾﴾ مرجعٍ إلى الجنة.

(٢٦) ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استخلفناك على المُلك فيها. أو جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحق ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ بحكم الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ ما تهوى النفس. وهو يؤيِّد ما قيل: إن ذنبه المبادرة إلى تصديق المدَّعي وتظليم الآخر قبل مسألته ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: دلائلِه التي نصبها على الحق ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ بسبب نسيانهم. وهو ضلالهم عن السبيل، فإن تذكُّرَه يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلُۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

(٢٧) ﴿**وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ**﴾ خلقاً باطلاً لا حكمةَ فيه. أو ذوي باطل، بمعنى مبطِلين عابثين. أو للباطل الذي هو متابعة الهوى، بل للحق الذي هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدرُّع (أي: التحصُّن) بالشرع ﴿**ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ**﴾ الإشارةُ إلى خلقها باطلاً. والظنُّ بمعنى المظنون ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾**﴾ بسبب هذا الظنِّ.

(٢٨) ﴿**أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ الاستفهام لإنكار التسوية بين الحزبين، التي هي من لوازم خلقها باطلاً، ليدلَّ على نفيه. وكذا التي في قوله: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾**﴾ كأنه أنكرَ التسوية أوَّلاً بين المؤمنين والكافرين، ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم.

(٢٩) ﴿**كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ**﴾ نفَّاعٌ ﴿**لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ**﴾ ليتفكَّروا فيها فيعرفوا ما يدبّر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبَطة ﴿**وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾**﴾ وليتَّعظ به ذوو العقول السليمة. أو ليستحضروا ما هو كالمركوز (أي: الثابت) في عقولهم من فرط تمكُّنهم من معرفته بما نُصب عليه من الدلائل، فإن الكتب الإلهية بيانٌ لما لا يُعرف إلا من الشرع، وإرشادٌ إلى ما لا يستقلُّ به العقل.

(٣٠) ﴿**وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ**﴾ أي: نعم العبد سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿**إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾**﴾ رجَّاع إلى الله تعالى بالتوبة، أو إلى التسبيح مرجِّعٌ (أي: مردِّد) له.

(٣١) ﴿**إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ**﴾ الضمير لسُلَيْمانَ عليه الصلاة السلام عند الجمهور ﴿**بِٱلْعَشِيِّ**﴾ بعد الظهر ﴿**ٱلصَّٰفِنَٰتُ**﴾ الصافِنُ من الخيل: الذي يقوم على طرف سنبكِ يدٍ أو رجلٍ (والسنبك هو مقدَّم الحافر)، وهو من الصفات المحمودة في الخيل الذي لا يكاد يكون إلا في العِراب الخُلَّص (أي: الأصيلة) ﴿**ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾**﴾ جمع جَواد أو جود؛ وهو الذي يسرع في جريه. وقيل: الذي يجود في الركض. وقيل: جمع جيِّد. روي أن سليمان عليه الصلاة والسلام غزا دمشق ونُصيبين وأصاب ألف فرس. وقيل: أصابها أبوه من العمالقة، فورثها منه، فاستعرضها، فلم تزل تُعرَض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن العصر أو عن وِرْدٍ كان له، فاغتمَّ لِما فاته، فاستردَّها فعقرها (أي: ذبحها) تقرُّباً لله تعالى (أقول: وكان أكل لحمها مباحاً).

(٣٢) ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ﴾ أي: آثرتُ ﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ الخيرُ: المال الكثير. والمراد به الخيل التي شغلته. ويُحتمل أنه سمَّاها خيراً لتعلق الخير بها. قال عليه الصلاة والسلام: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ أي: غربت الشمس.

(٣٣) ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ الضمير للصَّافِنات ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا﴾ فأخذ يمسح بالسيف مسحاً ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣﴾ أي: بسوقها وأعناقها يقطعُها. وقيل: جَعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حُبّاً لها.

(٣٤) ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤﴾ وأظهرُ ما قيل فيه ما روي مرفوعاً أنه قال: «لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهنَّ، فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشقِّ رجل، فوالذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرساناً» [رواه البخاري رحمه الله تعالى].

(٣٥) ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ لا يتسهَّل له ولا يكون، ليكون معجزة لي مناسبة لحالي. أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته. وتقديمُ الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين، ووجوب تقديم ما يَجعل الدعاء بصدد الإِجابة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء.

(٣٦) ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ فذلَّلناها لطاعته إجابةً لدعوته ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً﴾ لَيِّنةً لا تزعزع أو لا تخالف إرادته، كالمأمور المنقاد ﴿حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ أي: أراد.

(٣٧) ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطفٌ على الريح ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ﴾ (كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية) ﴿وَغَوَّاصٖ ٣٧﴾ (أي: ويغوصون له في البحر لإخراج اللؤلؤ [النسفي]).

(٣٨) ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾ كأنه فصَل الشياطين إلى عَمَلة استعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص، ومَرَدَةٍ قَرَنَ بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفُّوا عن الشرِّ.

(٣٩) ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي: هذا الذي أعطيناك من المُلك والبسطة والتسلُّط على ما لم يُسلَّط عليه غيرك عطاؤنا ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ فأعطِ من شئت وامنع من شئت ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ أي: غير محاسَبٍ على مَنِّه وإمساكه، لتفويض التصرُّف فيه إليك. أو عطاءٌ جمٌّ (أي: كثير) لا يكاد يمكن حصره. وقيل: الإِشارة إلى تسخير الشياطين. والمراد بالمنِّ والإِمساك إطلاقُهم وإبقاؤهم في القيد.

(٤٠) ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ في الآخرة مع ما لَهُ من المُلك العظيم في الدنيا ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾ وهو الجنة.

(٤١) ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ بأني مسني ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ﴾ بتعبٍ ﴿وَعَذَابٍ ٤١﴾ ألمٍ. والإسناد إلى الشيطان لأنه وسوس إلى أتباعه حتى رفضوه وأخرجوه من ديارهم.أو لأن المراد بالنصَبِ والعذاب ما كان يوسوس إليه في مرضه من عظم البلاء والقنوط من الرحمة، ويغريه على الجزَع.

(٤٢) ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ أي: اضربْ برجلك الأرض ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ أي: فضرَبها فنبعَتْ عين، فقيل: هذا مغتسَل؛ أي: ماءٌ تغتسل به وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهرك. وقيل: نَبعَتْ عينان؛ حارَّة وباردة، فاغتسل من الحارَّة وشرب من الأخرى.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

(٤٣) ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ**﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرُّقهم. أو أحييناهم بعد موتهم. وقيل: وهبنا له مثلهم ﴿**وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ**﴾ حتى كان له ضعف ما كان ﴿**رَحْمَةً مِّنَّا**﴾ لرحمتنا عليه ﴿**وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾**﴾ وتذكيراً لهم لينتظروا الفرجَ بالصبرِ واللجأ إلى الله تعالى فيما يحيق بهم (أي: يصيبهم).

(٤٤) ﴿**وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا**﴾ الضغث: الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه ﴿**فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ**﴾ روي أن زوجته رحمة بنت أفراثيم بن يوسف ذهبت لحاجة فأبطأت، فحلَفَ إن برئ ضربها مئة ضربة، فحلَّلَ اللهُ تعالى يمينه بذلك، وهي رخصةٌ باقيةٌ في الحدود ﴿**إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا**﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال. ولا يُخِلُّ به شكواه إلى الله تعالى من الشيطان، فإنه لا يُسمَّى جزعاً، كتمنِّي العافية وطلب الشفاء، مع أنه قال ذلك خيفة أن يفتنه أو قومَه في الدين ﴿**نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ**﴾ أيوب ﴿**إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾**﴾ مقبلٌ بشراشره (أي: بكلِّيَّته) على الله تعالى.

(٤٥) ﴿**وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾**﴾ أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين. أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة. فعبَّر بالأيدي عن الأعمال لأن أكثرها بمباشرتها، وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مَبادِيها. وفيه تعريض بالبطلة الجُهَّال أنهم كالزمنى (أي: كالمرضى المقعدين) والعماة.

(٤٦) ﴿**إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ**﴾ جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة (أي: صافية) لا شَوْبَ فيها (أي: لا يشوبها غيرها) هي: ﴿**ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾**﴾ تذكُّرهم للدار الآخرة دائماً، فإن خلوصهم في الطاعة بسببها، وذلك لأن مطمح نظرهم -فيما يأتون ويذرون (أي: يتركون) - جوارُ الله تعالى والفوزُ بلقائه، وذلك في الآخرة. وإطلاق الدَّارِ للإشعار بأنها الدار الحقيقية، والدنيا مَعبَر.

(٤٧) ﴿**وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾**﴾ لَمِنَ المختارين من أبناء جنسهم المفضَّلين عليهم في الخير.

(٤٨) ﴿**وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ**﴾ (عليهم السلام) ﴿**وَذَا ٱلْكِفْلِ**﴾ ابن عم يسع، أو بشر بن أيوب،

واختُلف في نبوته ولقبه، فقيل فرَّ إليه مئة نبيٍّ من بني إسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم) ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكلهم ﴿مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨﴾.

(٤٩) ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من أمورهم ﴿ذِكۡرٌۚ﴾ شرفٌ لهم (وموعظة من ذكر القرآن [السراج المنير]) ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ۝٤٩﴾ مرجع.

(٥٠ـ٥١) ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١﴾ والاقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مطاعمهم لمحض التلذُّذ، فإن التغذي للتحلُّل، ولا تحلُّل ثَمَّة.

(٥٢) ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ لا ينظرنَ إلى غير أزواجهنَّ ﴿أَتۡرَابٌ ۝٥٢﴾ لِدَات لهم (جمع لِدَة، أي: متساويات في السن)، فإن التحابَّ بين الأقران أثبت.

(٥٣) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣﴾ لأجله، فإن الحساب علةُ الوصول إلى الجزاء.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ انقطاع.

(٥٥ـ٥٦) ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦﴾ المهد والمفترَش، وهو جهنم، لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١].

(٥٧) ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧﴾ أي: هو حميم (أي: الماء الحار). والغساق: ما يُغسق (أي: يسيل) من صديد أهل النار.

(٥٨) ﴿وَءَاخَرُ﴾ أي: عذابٌ آخر ﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾ من مثل هذا العذاب في الشدة ﴿أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨﴾ أجناس.

(٥٩) ﴿هَٰذَا فَوۡجٌ مُّقۡتَحِمٌ مَّعَكُمۡ﴾ حكايةُ ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار واقتحمها (أي: دخلها) معهم فوجٌ تبعهم في الضلال ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ دعاءٌ من المتبوعين على أتباعهم. أو مقولاً فيهم لا مرحباً ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ۝٥٩﴾ داخلون النار بأعمالهم مثلنا.

(٦٠) ﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباع للرؤساء ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ بل أنتم أحقُّ بما قلتم أو قيل لنا، لضلالكم وإضلالكم ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ قدَّمتم العذاب لنا، بإغوائنا وإغرائنا على ما قدمتموه من العقائد الزائغة والأعمال القبيحة ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝٦٠﴾ فبئس المقرُّ جهنم.

(٦١) ﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباع أيضاً ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابًا ضِعۡفًا فِي ٱلنَّارِ ۝٦١﴾ مضاعفاً. وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين.

وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

(٦٢) ﴿**وَقَالُوا۟**﴾ أي: الطاغون ﴿**مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾**﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين يسترذلونهم ويسخرون بهم (في الدنيا).

(٦٣) ﴿**أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا**﴾ إنكارٌ على أنفسهم وتأنيبٌ لها في الاستسخار منهم ﴿**أَمْ زَاغَتْ**﴾ مالت ﴿**عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾**﴾ فلا نراهم. والمراد نفي رؤيتهم لغيبتهم، كأنهم قالوا: أليسوا ههنا أم زاغت عنهم أبصارنا؟

(٦٤) ﴿**إِنَّ ذَٰلِكَ**﴾ الذي حكيناه عنهم ﴿**لَحَقٌّ**﴾ لا بد أن يتكلموا به. ثم بيّن ما هو فقال: ﴿**تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾**﴾.

(٦٥) ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد (عليه الصلاة والسلام) للمشركين ﴿**إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ**﴾ أنذركم عذاب الله تعالى ﴿**وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ**﴾ الذي لا يقبل الشرِكة والكثرة في ذاته ﴿**ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾**﴾ لكلِّ شيء يريد قهره.

(٦٦) ﴿**رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ منه خَلْقُها وإليه أمرُها جل وعلا ﴿**ٱلْعَزِيزُ**﴾ الذي لا يُغلب إذا عاقب ﴿**ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾**﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب لمن يشاء. وفي هذه الأوصاف تقريرٌ للتوحيد، ووعدٌ ووعيدٌ للموحِّدين والمشركين.

(٦٧) ﴿**قُلْ هُوَ**﴾ أي: ما أنبأتكم به من أني نذير من عقوبة مَنْ هذه صفته، وأنه واحد في ألوهيته. وقيل: ما بعده من نبأ آدم عليه الصلاة والسلام ﴿**نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾**﴾ (لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة [النسفي]).

(٦٨) ﴿**أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾**﴾ لتمادي غفلتكم (أقول: أي هذا القرآن الذي جئتكم به أمرٌ هامٌّ وخبرٌ عظيمُ الشأن لا تتفكَّرون به)، فإن العاقل لا يُعرِض عن مثله، كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة! أما على التوحيد فما مرَّ، وأما على النبوَّة فقوله تعالى:

(٦٩) ﴿**مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾**﴾ فإن إخباره عن تقاول الملائكة وما جرى بينهم على ما ورد في الكتب المتقدمة من غير سماع ومطالعة كتاب لا يُتصوَّر إلا بالوحي.

(٧٠) ﴿**إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾**﴾ أي: لأنما. كأنه لمّا جوَّز أن الوحي يأتيه بيَّن بذلك ما هو المقصود به تحقيقاً لقوله: ﴿إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ﴾ [ص: ٦٥].

(٧١) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ المقصود ههنا إنذارُ المشركين على استكبارهم على النبي عليه الصلاة والسلام بمثل ما حاق (أي: أحاط) بإبليس على استكباره على آدم عليه الصلاة السلام. هذا ومن الجائز أن تكون مقاولة الله تعالى إياهم بواسطة مَلَك.

(٧٢) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدَّلت خِلقته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وأحييته بنفخ الروح فيه (أقول: وفي الحقيقة لا نافخ ولا منفوخ، بل بإرادته جل وعلا). وإضافته الى نفسه لشرفه وطهارته ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾ فخِرُّوا له ﴿سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ تكرمةً وتبجيلاً (أي: تعظيماً) له.

(٧٣ـ٧٤) ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ تعظَّم ﴿وَكَانَ﴾ وصار ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ باستنكاره أمر الله تعالى واستنكافه عن المطاوعة. أو كان منهم (أي: من الكافرين) في علم الله تعالى.

(٧٥) ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ خلقتُه بنفسي من غير توسُّطٍ؛ كأب وأم. وترتيب الإنكار عليه للإشعار بأنه المستدعي للتعظيم، أو بأنه الذي تشبث به في تركه سجوده، وهو لا يصلح مانعاً، إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعضٍ، سيَّما وله مزيد اختصاص ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ تكبرتَ من غير استحقاق. أو كنت ممن علا واستحق التفوق. وقيل: أستكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين.

(٧٦) ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ إبداء للمانع. وقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾ دليلٌ عليه.

(٧٧) ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو من السماء، أو من الصورة المَلَكية ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧﴾ مطرودٌ من الرحمة ومحلِّ الكرامة.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ (أي: يوم الجزاء [النسفي]).

(٧٩) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ (فأمهلْني) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾.

(٨٠ـ٨١) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١﴾ (المسمى فيه أجلُك عند الله تعالى، أو انقراض الناس كلهم، وهو النفخة الأولى عند الجمهور؛ وهذه المخاطبة وإن لم تكن بواسطة لم تدلَّ على علوِّ منصب إبليس، لأن خطاب الله تعالى له على سبيل الإهانة والإذلال).

(٨٢) ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ فبسلطانك وقهرك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾.

(٨٣) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من الضلالة.

قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ ٣٩ ٧٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

(٨٤) ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ أي: فأُحِقُّ الحقَّ وأقولُه.

(٨٥) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ الضمير في «منهم» للناس، إذ الكلام فيهم. والمراد بـ«منك» من جنسك، ليتناول الشياطين. وقيل: للثقلين. و«أجمعين» تأكيد له.

(٨٦) ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على القرآن. أو على تبليغ الوحي ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ المتصنِّعين بما ليسوا من أهله، على ما عرفتم من حالي فأنتحل النبوة (أي: أدَّعيها لنفسي كاذباً) وأتقول القرآن.

(٨٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظةٌ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ للثقلين.

(٨٨) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ وهو ما فيه من الوعد والوعيد. أو صدقُه بإتيان ذلك ﴿بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ بعد الموت، أو يومَ القيامة، أو عند ظهور الإِسلام. وفيه تهديد.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة ص وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزمر

مكيَّة، إلا قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِي﴾ وآيُها خمس وسبعون آية

(١) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ الْكِتاب هو السورة أو القرآن.

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحق. أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ ممحِّضاً (أي: مخلصاً) له الدين من الشرك والرياء.

(٣) ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ أي: ألا هو الذي وجب اختصاصه بأن تُخلَص له الطاعة، فإنه المتفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يَحتمل المتّخِذين من الكفرة والمتّخَذين من الملائكة وعيسى والأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ﴾ من الدين، بإدخال المُحِقِّ الجنةَ والمبطلِ النارَ. والضمير للكفرة ومقابليهم. وقيل: لهم ولمعبوديهم، فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعنونهم **﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي﴾** لا يوفِّق للاهتداء إلى الحق **﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ٣﴾** فإنهما فاقِدا البصيرة.

(٤) **﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾** كما زعموا **﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾** إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوقه، ومن البيّن أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الولد له. ثم قرر ذلك بقوله تعالى: **﴿سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٤﴾** فإن الألوهية الحقيقية تتبع الوجوب المستلزم للوحدة الذاتية، وهي تنافي المماثلة فضلاً عن التوالد.

(٥) **﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ﴾** يُغشي كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفُّه عليه لفَّ اللباس باللابس، أو يغيِّبه به كما يغيَّب الملفوف باللفافة، أو يجعله كارّاً عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة (والتكوير: اللَّفُّ) **﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾** هو منتهى دوره، أو منقطعُ حركته **﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾** القادر على كلِّ ممكن، الغالبُ على كل شيء **﴿ٱلْغَفَّٰرُ ٥﴾** حيث لم يعاجِل بالعقوبة وسلبِ ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ استدلالٌ آخر بما أوجده في العالم السفلي مبدوءاً به من خلق الإنسان لأنه أقرب وأكثر دلالة وأعجبُ. وفيه على ما ذكره ثلاث دلالات: خلقُ آدم عليه الصلاة والسلام أوّلاً من غير أبٍ وأم، ثم خلقُ حواء من قُصَيراه (أي: ضِلعه)، ثم تشعيبُ الخلق الفائت للحصر منهما ﴿**وَأَنزَلَ لَكُم**﴾ وقضى أو قَسَمَ لكم، فإن قضاياه وقَسَمَهُ توصف بالنزول من السماء، حيث كتبت في اللوح المحفوظ. أو أَحْدَثَ لكم بأسبابٍ نازلة؛ كأشعة الكواكب والأمطار ﴿**مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ**﴾ ذكراً وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ**﴾ بيانٌ لكيفية ما ذُكر من الأناسيِّ (أي: الإنس) والأنعام، إظهاراً لما فيها من عجائب القدرة ﴿**خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ**﴾ حيواناً سويّاً من بعد عظام مكسوّة لحماً، من بعد عظام عارية، من بعد مُضَغٍ، من بعد علق، من بعد نُطَفٍ ﴿**فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ**﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة، أو الصلب والرحم والبطن ﴿**ذَٰلِكُمُ**﴾ الذي هذه أفعاله ﴿**ٱللَّهُ رَبُّكُمْ**﴾ هو المستحق لعبادتكم والمالك ﴿**لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ**﴾ إذ لا يشاركه في الخلق غيره ﴿**فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾**﴾ (فكيف تُصرفون) عن عبادته إلى الإشراك.

(٧) ﴿**إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ**﴾ عن إيمانكم (أقول: مَنْ عَبَدَ الله تعالى فإنما يعبد لنفسه، ومن أخلص فإنما يخلص لنفسه، ومن قرأ القرآن وطبَّق على نفسه ففائدته لنفسه لا لله تعالى) ﴿**وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ**﴾ لاستضرارهم به رحمةً عليهم ﴿**وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ**﴾ لأنه سبب فلاحكم ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ**﴾ بالمحاسبة والمجازاة ﴿**إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾**﴾ فلا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

(٨) ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ**﴾ لزوال ما ينازع العقل في الدلالة على أن مبدأ الكل منه ﴿**ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ**﴾ أعطاه ﴿**نِعْمَةً مِّنْهُ**﴾ من الله تعالى ﴿**نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ**﴾ أي: الضرَّ الذي كان يدعو الله تعالى إلى كشفه. أو ربَّه الذي كان يتضرَّع إليه ﴿**مِن قَبْلُ**﴾ من قبلِ النعمة ﴿**وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن**

سَبِيلِهِۦۚ **قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾** أمرُ تهديدٍ فيه إشعارٌ بأن الكفر نوعُ تَشَهٍّ لا سند له، واقناطٌ للكافر من التمتع في الآخرة. ولذلك علَّله بقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨**﴾.

(٩) ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ**﴾ قائم بوظائف الطاعات ﴿**ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ**﴾ ساعاتِه. أي: أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ كمن هو بضدِّه ﴿**سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ**﴾ نفيٌ لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية بعد نفيه باعتبار القوة العملية على وجه أبلغ لمزيد فضل العلم. أي: كما لا يستوي العالِمونَ والجاهِلون لا يستوي القانتون والعاصون ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٩**﴾ بأمثال هذه البيِّنات.

(١٠) ﴿**قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ**﴾ بلزوم طاعته ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ**﴾ أي: للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا مثوبةٌ حسنة في الآخرة. وقيل: معناه للذين أحسنوا حسنةٌ في الدنيا؛ هي الصحة والعافية ﴿**وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ**﴾ فمن تعسَّر عليه التوفُّر على الإِحسان في وطنه فليهاجرْ إلى حيث يتمكن منه ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ**﴾ على مشاقِّ الطاعات؛ من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان ﴿**أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠**﴾ أجراً لا يهتدي إليه حُسَّاب الحساب.

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

(١١) ﴿**قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾**﴾ موحِّداً له جلَّ وعلا.

(١٢) ﴿**وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾**﴾ وأُمِرت بذلك لأجل أن أكون مقدَّمهم في الدنيا والآخرة، لأن قَصَبَ السبْقِ (أي: إحرازه والظفر به) في الدين بالإخلاص. أو لأن أكون أول من أسلم وجهه لله تعلى من قريش ومن دان بدينهم.

(١٣) ﴿**قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي**﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء ﴿**عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾**﴾ لعظمة ما فيه (أقول: تكرَّرَت هذه الآية في ثلاث سور: الأنعام ١٥، ويونس ١٥، والزمر ١٣).

(١٤) ﴿**قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾**﴾ أُمِرَ بالإِخبار عن إخلاصه وأن يكون مخلصاً له دينه بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإِخلاص، خائفاً عن المخالفة من العقاب قطعاً لأطماعهم، ولذلك رتَّب عليه قوله تعالى:

(١٥) ﴿**فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ**﴾ تهديداً وخذلاناً لهم ﴿**قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ**﴾ أي: الكاملين في الخسران ﴿**ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ**﴾ بالضلال ﴿**وَأَهْلِيهِمْ**﴾ بالإِضلال ﴿**يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ**﴾ حين يدخلون النار بدلَ الجنة، لأنهم جمعوا وجوه الخسران. وقيل: خسروا أهليهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده ﴿**أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾**﴾ مبالغةٌ في خسرانهم.

(١٦) ﴿**لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ**﴾ شرحٌ لخسرانهم ﴿**وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ**﴾ أطباقٌ من النار هي ظلل للآخَرين ﴿**ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ**﴾ ذلك العذاب هو الذي يخوِّفهم به ليجتنبوا ما يوقِعُهم فيه ﴿**يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾**﴾ ولا تتعرَّضوا لما يوجب سَخطي.

(١٧) ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ**﴾ البالغ غاية الطغيان. وُصِفَ به للمبالغة في النعت، ولذلك اختصَّ بالشيطان ﴿**أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ وأقبلوا إليه بشراشرهم (أي: بكليَّتهم) عما سواه ﴿**لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ**﴾ بالثواب على ألسِنة الرسل. أو على ألسنة الملائكة عند حضور الموت ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾**﴾.

(١٨) ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ وهو دلالةٌ على مبدأ اجتنابهم، وأنهم نُقّادٌ في الدين، يميِّزون بين الحق والباطل، ويُؤثِرون الأفضل فالأفضل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ لدينه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة. وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها (أقول: إذا كانت العادة موافقة للشريعة فإنها لا تضر، أما إذا كانت مخالفة للشريعة فلا بد من تركها).

(١٩) ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾ أأنت مالِكُ أمرهم فمن حقَّ عليه العذاب أفأنت تنقذه؟

(٢٠) ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ﴾ علاليٌّ (جمع عُلِّيَّة، وهي الغرفة في الطبقات العليا من الدار) بعضها فوق بعض ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ بنيت بناء المنازل على الأرض ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أي: من تحت تلك الغرف ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ لأن قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٌ﴾ في معنى الوعد ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾ لأن الخُلْفَ نقصٌ، وهو على الله تعالى مُحال.

(٢١) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ هو المطر ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ﴿يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي عيونٌ ومجارٍ كائنة فيها. أو مياه نابعات فيها ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ أصنافُه؛ من بُرٍّ وشعير وغيرهما (كالرز). أو كيفياتُه؛ من خُضرة وحُمرة وغيرهما ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتم جفافه، لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور (أي: ينفصل) عن منبته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ من يبْسه ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ فتاتاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾ لتذكيراً بأنه لا بد من صانع حكيم دبَّره وسوَّاه. أو بأنه مثل الحياة الدنيا فلا تغترَّ بها ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾ إِذْ لاَ يَتَذكر به غيرُهم.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

(٢٢) ﴿**أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ**﴾ حتى تمكَّن فيه بيُسر. عبَّر به عمَّن خُلقت نفسُه شديدة الاستعداد لقبوله، غيرُ متأبِّية (أي: غير ممتنعة) عنه، من حيث أن الصدر محلُّ القلب المنبع للروح المتعلق بالنفس القابلة للإسلام ﴿**فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ**﴾ يعني المعرفة والاهتداء إلى الحق. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح، فقيل: فما علامة ذلك قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهُّب (أي: الاستعداد) للموت قبل نزوله» [أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه] ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ**﴾ من أجل ذكره. وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ذكَرَ شرحَ الصدر وأسنده إلى الله تعالى، وقابله بقساوة القلب وأسنده إليهم ﴿**أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾**﴾ يظهر للناظر بأدنى نظر.

(٢٣) ﴿**ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ**﴾ يعني القرآن. روي أن أصحاب رسول الله ﷺ ملُّوا ملَّة، فقالوا له: حدثنا، فنزلت ﴿**كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا**﴾ وتشابُهُهُ تشابُهُ أبعاضِه في الإعجاز وتجاوب النظم وصحة المعنى والدلالة على المنافع العامة ﴿**مَّثَانِىَ**﴾ جمع مَثنى أو مُثنى على ما مرَّ في «الحجر [آية: ٨٧]» عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾. وَصَفَ به «كتاباً» باعتبار تفاصيله، كقولك: القرآن سور وآيات، والإنسان عظام وعروق وأعصاب ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ تشمئزُّ خوفاً مما فيه من الوعيد. وهو مَثَلٌ في شدة الخوف. واقشعرارُ الجلد تقبُّضُه ﴿**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ**﴾ بالرحمة وعموم المغفرة. وذكَرَ القلوب لتقدُّم الخشية التي هي من عوارضها ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: الكتاب. أو الكائن من الخشية والرجاء ﴿**هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ**﴾ هدايته ﴿**وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ**﴾ ومن يخذله ﴿**فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾**﴾ يخرجه من الضلالة.

(٢٤) ﴿**أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ**﴾ يجعله دَرَقَةً (أي: تُرساً) يقي به نفسه، لأنه يكون مغلولة يداه إلى عنقه، فلا يقدر أن يتقي إلا بِوَجْهِهِ ﴿**سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ**﴾ كمن هو آمن منه ﴿**وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾**﴾ أي: وبالَهُ.

(٢٥) ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥﴾ من الجهة التي لا يخطر ببالهم أن الشرَّ يأتيهم منها.

(٢٦) ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ﴾ الذلَّ ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ كالمسخ والخسف والقتل والسبي والإجلاء ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المُعَدُّ لهم ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ لشدته ودوامه ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ لو كانوا من أهل العلم والنظر لعلموا ذلك واعتبروا به.

(٢٧) ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يَحتاج إليه الناظر في أمر دينه (أقول: لو ينظر المؤمن إلى القرآن فإنه يكفيه، وتحصل له بركة القرآن، وتوضَّح له معانٍ لا تخطر بباله) ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ يتعظون به.

(٢٨) ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ﴾ لا اختلال فيه بوجه ما، فهو أبلغ من المستقيم ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾.

(٢٩) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ للمشرك والموحِّد ﴿رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ (أي: متخالفون) ﴿وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ﴾ مَثَّلَ المشركَ على ما يقتضيه مذهبه من أن يدعي كلُّ واحد من معبوديه عبوديته ويتنازعوا فيه بعبدٍ يتشارك فيه جمعٌ يتجاذبونه ويتعاورونه (أي: يتداولونه فيما بينهم) في مهماتهم المختلفة في تحيُّره وتوزُّع قلبه، والموحِّدَ بمن خلص لواحد ليس لغيره عليه سبيل ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ كلُّ الحمد له لا يشاركه فيه على الحقيقة سواه، لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ فيشركون به غيره من فرط جهلهم.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ فإن الكل بصدد الموت وفي عداد الموتى.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾ فتحتجُّ عليهم بأنك كنت على الحق في التوحيد، وكانوا على الباطل في التشريك، واجتهدتَ في الإرشاد والتبليغ، ولجُّوا (أي: لازموا) في التكذيب والعناد، ويعتذرون بالأباطيل؛ مثل: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] و ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ [الشعراء: ٧٤]. وقيل: المراد به الاختصام العام، يخاصم الناس بعضهم بعضاً فيما دار بينهم في الدنيا.

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

(٣٢) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بإضافة الولد والشريك إليه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وهو ما جاء به محمد ﷺ ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ من غير توقُّفٍ وتفكر في أمره ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (أي: مَنزل ومقرٌّ) وذلك يكفيهم مجازاة لأعمالهم.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ للجنس، ليتناول الرسل والمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وقيل: هو النبي ﷺ. والمراد هو ومن تبعه. وقيل: الجائي هو الرسول ﷺ، والمصدِّق أبو بكر رضي الله تعالى عنه.

(٣٤) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ على إحسانهم.

(٣٥) ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ خَصَّ الأسوأ للمبالغة، فإنه إذا كُفِّرَ كان غيره أولى بذلك. أو للإشعار بأنهم لاستعظامهم الذنوب يحسبون أنهم مقصِّرون مذنبون، وأن ما يفرط منهم من الصغائر أسوأ ذنوبهم. ويجوز أن يكون بمعنى السيء ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ ويعطيهم ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فيَعُدُّ لهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر وعِظمه لفرط إخلاصهم فيها.

(٣٦) ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ استفهامُ إنكارٍ للنفي مبالغةً في الإثبات. والعبد رسول الله ﷺ، ويَحتمل الجنس ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني قريشاً، فإنهم قالوا: له إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا (أي: تفسد عقلك) بعيبك إياها. وقيل: إنه ﷺ بعث خالداً رضي الله تعالى عنه ليكسر العُزّى، فقال له سادِنُها (خادمها): أُحَذِّرُكَهَا فإن لها شدة، فعمَدَ إليها خالد فهشم (أي: كسر) أنفها، فنزل تخويف خالد منزلة تخويفه عليه الصلاة والسلام لأنه الآمرُ له بما خُوِّف عليه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتى غفل عن كفاية الله تعالى له وخوفه بما لا ينفع ولا يضر ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ يهديه إلى الرشاد.

(٣٧) ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ لا رادَّ لفعله، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالبٍ منيعٍ ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ ينتقم من أعدائه.

(٣٨) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح البرهان على تفرُّده بالخالقية

﴿**قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ**﴾ أي: أرأيتم بعدما تحققتم أن خالق العالم هو الله تعالى، وأن آلهتكم إن أراد الله تعالى أن يصيبني بضر هل يكشفنه؟ ﴿**أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ**﴾ بنفعٍ ﴿**هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ**﴾ فيمسكنها عني؟ ﴿**قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ**﴾ كافياً في إصابة الخير ودفع الضرّ. إذ تقرَّر بهذا التقرير أنه القادر الذي لا مانع لما يريده من خير أو شر ﴿**عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨**﴾ لِعلمهم بأن الكل منه سبحانه و تعالى.

(٣٩) ﴿**قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ**﴾ على حالكم ﴿**إِنِّي عَٰمِلٞۖ**﴾ أي: على مكانتي. وفيه إشعار بأن حاله لا تقف، فإنه تعالى يزيده على مرِّ الأيام قوة ونصرة، ولذلك توعَّدهم بكونه منصوراً عليهم في الدارين فقال: ﴿**فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩**﴾.

(٤٠) ﴿**مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ**﴾ فإن خزي أعدائه دليلُ غلبته، وقد أخزاهم الله تعالى يوم بدر ﴿**وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٤٠**﴾ دائمٌ؛ وهو عذاب النار.

إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

(٤١) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، فإنه مناط مصالحهم (أي: مكان تعليقها) في معاشهم ومَعادهم ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ متلبساً به ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ إذ نفع به نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ فإن وبالَهُ لا يتخطاها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ وما وُكِّلت عليهم لتجبرهم على الهدى، وإنما أمِرتَ بالبلاغ وقد بلَّغتَ.

(٤٢) ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ أي: يقبضها عن الأبدان بأن يقطع تعلقها عنها وتصرّفها فيها إما ظاهراً وباطناً وذلك عند الموت، أو ظاهراً لا باطناً وهو في النوم ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ ولا يردّها إلى البدن ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ أي: النائمة إلى بدنها عند اليقظة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ هو الوقت المضروب (عند الله تعالى) لموته. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النَّفس والحياة، فيُتوفَّيان عند الموت، وتُتوفى النفس وحدها عند النوم قريب مما ذكرناه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ من التوفي والإمساك والإرسال ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دالَّة على كمال قدرته وحكمته وشمول رحمته ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في كيفية تعلقها بالأبدان، وتوفيها عنها بالكلية حين الموت، وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها، وما يعتريها من السعادة والشقاوة والحكمة في توفيها عن ظواهرها، وإرسالها حيناً بعد حين إلى توفي آجالها (أقول: ولكن الغفلة بلاء للمسلمين، فإذا وُجدت عندهم الغفلة لا يتفكرون).

(٤٣) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بل اتخذت قريش ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ تشفع لهم عند الله تعالى ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أيشفعون ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم؟

(٤٤) ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ لعله ردٌّ لما عسى يجيبون به؛ وهو أن الشفعاء أشخاص مقرَّبون هي تماثيلهم. والمعنى: أنه جل وعلا مالك الشفاعة كلها، ولا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ورضاه، ولا يستقل بها، ثم قرَّر ذلك فقال تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فإنه مالك الملك كله، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه جلَّ وعلا ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ يوم القيامة، فيكون المُلك له أيضاً حينئذ.

(٤٥) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ دون آلهتهم ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ انقبضت ونفرت ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأوثان ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥﴾ لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم حق الله تعالى. ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما، فإن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه، والاشمئزازَ أن يمتلئ غماً حتى ينقبض أديم (أي: جلد) وجهه.

(٤٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ التجِئْ إلى الله تعالى بالدعاء لما تحيرت في أمرهم وضجرت من عنادهم وشدة شكيمتهم (أي: إبائهم)، فإنه القادر على الأشياء والعالم بالأحوال كلها ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٤٦﴾ فأنت وحدك تقدر أن تحكم بيني وبينهم.

(٤٧) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وعيدٌ شديد، وإقناطٌ كليٌّ لهم من الخلاص ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧﴾ زيادةُ مبالغةٍ فيه.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾

(٤٨) ﴿**وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تُعرَض صحائفهم ﴿**وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾**﴾ وأحاط بهم جزاؤه.

(٤٩) ﴿**فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا**﴾ أعطيناه إياها تفضلاً ﴿**قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ مني بوجوه كسبه. أو بأني سأُعطاه لما ليَ من استحقاقه. أو علم من الله تعالى بي واستحقاقي ﴿**بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ**﴾ امتحان له أيشكر أم يكفر؟ ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾**﴾ ذلك.

(٥٠) ﴿**قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ وهم قارون وقومه، فإنه قال ورضي به قومه ﴿**فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾**﴾ من متاع الدنيا.

(٥١) ﴿**فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ جزاءُ سيئات أعمالهم، أو جزاء أعمالهم. وسمّاه سيئة لأنه في مقابلة أعمالهم السيئة، رمزاً إلى أن جميع أعمالهم كذلك ﴿**وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ بالعُتُوِّ (أي: الاستكبار وتجاوز الحدِّ) ﴿**مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ**﴾ المشركين ﴿**سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ كما أصاب أولئك. وقد أصابهم فإنهم قُحطوا سبع سنين وقُتِلَ ببدرٍ صَنَادِيدُهم (أي: أبطالهم) ﴿**وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾**﴾ بفائتين.

(٥٢) ﴿**أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ**﴾ حيث حبس عنهم الرزق سبعاً ثم بسط لهم سبعاً ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾**﴾ بأن الحوادث كلَّها من الله تعالى بوسط أو بغيره (أي: بواسطة أو بغير واسطة).

(٥٣) ﴿**قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ**﴾ أفرَطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي. وإضافةُ العباد تُخصِّصُهُ بالمؤمنين على ما هو عُرْفُ القرآن ﴿**لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ**﴾ لا تيئسوا من مغفرته أولاً وتفضُّله ثانياً ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ عفواً ولو بَعْدَ تعذيب. وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر (أقول: خلاف الظاهر في هذه الآية، ولذا قال: بعد التعذيب. أما في سورة آل عمران [آية: ١٣٥] فقد قيَّد المغفرة بالتوبة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون قبحها). ويدل على إطلاقه فيما عدا الشرك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية [النساء: ٤٨]، والتعليلُ بقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾**﴾

على المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة، وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في «عِبادِيَ» من الدلالة على الذلة والاختصاص المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الإِسراف بأنفسهم، والنهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة.

(٥٤) ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾ فإنها لا تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسَبْقِ تعذيبٍ (كما قال في الآية السابقة رقم ٥٣) لتغني عن التوبة والإِخلاص في العمل، وتُنافي الوعيد بالعذاب.

(٥٥) ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ القرآن. أو المأمور به دون المنهي عنه. أو العزائم دون الرخص. أو الناسخ دون المنسوخ. ولعله ما هو أنجى وأسلم، كالإنابة والمواظبة على الطاعة ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥﴾ بمجيئه فتتداركوا.

(٥٦) ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ كراهةَ أن تقول نفس ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ قصَّرت ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في جانبه، أي: في حقِّه، وهو طاعته. وقيل: في ذاته. وقيل: في قربه ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ المستهزئين بأهله.

أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾

(٥٧) ﴿**أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي**﴾ بالإرشاد إلى الحق ﴿**لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾**﴾ الشركَ والمعاصي

(٥٨) ﴿**أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾**﴾ في العقيدة والعمل.

(٥٩) ﴿**بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾**﴾ ردٌّ من الله تعالى عليه لما تضمَّنه قوله: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ من معنى النفي، لأنه يتحسر بالتفريط، ثم يتعلل بفقد الهداية، ثم يتمنى الرجعة. وهو لا يمنع تأثير قدرة الله تعالى في فعل العبد ولا ما فيه من إسناد الفعل إليه كما عرفت.

(٦٠) ﴿**وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ**﴾ بأن وصفوه بما لا يجوز؛ كاتخاذ الولد ﴿**وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ**﴾ مما ينالهم من الشدة. أو مما يتخيل عليها من ظلمة الجهل ﴿**أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى**﴾ مقامٌ ﴿**لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾**﴾ عن الإيمان والطاعة.

(٦١) ﴿**وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ**﴾ بفلاحهم ﴿**لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾**﴾ (أي: لا يمسُّ أبدانَهم أذًى، ولا قلوبهم خزي [النسفي]).

(٦٢) ﴿**ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ**﴾ من خير وشرٍّ وإيمان وكفر ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾**﴾ يتولى التصرُّف فيه.

(٦٣) ﴿**لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ**﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيرُه. وهو كنايةٌ عن قدرته وحفظه لها، وفيها مزيد دلالة على الاختصاص، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرَّف فيها إلا من بيده مفاتيحها ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾**﴾ المراد بآيات الله تعالى دلائلُ قدرته، واستبدادُه (أي: انفراده جلَّ وعلا) بأمر السموات والأرض. أو كلمات توحيده وتمجيده. وتخصيصُ الخسار بهم لأن غيرهم ذو حظٍّ من الرحمة والثواب.

(٦٤) ﴿**قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾**﴾ أي: أفغير الله تعالى أعبد بعد هذه الدلائل والمواعيد. و«تَأْمُرُونِّي» اعتراضٌ للدلالة على أنهم أمروه به عقيبَ ذلك وقالوا: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك لفرط غباوتهم.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: من الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾ كلامٌ على سبيل الفَرَضِ. والمراد به تهييج (أي: ترغيب) الرسل عليهم الصلاة والسلام (وتقوية عزيمتهم على الثبات على التوحيد [شيخ زاده])، وإقناط الكفرة، والإِشعار على حكم الأمة. وإفرادُ الخطاب باعتبار كل واحد.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ردٌّ لما أمروه به ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ إنعامَه عليك.

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما قَدَروا عظمتَه في أنفسهم حقَّ تعظيمه، حيث جعلوا له شركاء، ووصفوه بما لا يليق به ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ تنبيهٌ على عظمته وكمال قدرته وحقارة الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام بالإِضافة إلى قدرته، ودلالةٌ على أن تخريب العالم أهونُ شيء عليه، على طريقة التمثيل والتخييل، من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقةً ولا مَجازاً ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ ما أبعدَ وأعلى مَنْ هذه قدرتُه وعظمتُه عن إشراكهم. أو ما يضاف إليه من الشركاء.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

(٦٨) ﴿**وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ**﴾ يعني المرة الأولى ﴿**فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ خرَّ ميتاً أو مغشياً عليه ﴿**إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ**﴾ قيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، فإنهم يموتون بعدُ. وقيل: حملة العرش ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ**﴾ نفخةٌ أخرى ﴿**فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ**﴾ قائمون من قبورهم. أو متوقِّفون ﴿**يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾**﴾ أي: يقلِّبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوتين (أي: المدهوشين المتحيِّرين). أو ينتظرون ما يُفعل بهم.

(٦٩) ﴿**وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ بما أقام فيها من العدل. سمّاه نوراً لأنه يزيِّن البقاع ويُظهر الحقوق ﴿**وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ**﴾ للحساب والجزاء. أو صحائف الأعمال. وقيل: اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف ﴿**وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ**﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين. وقيل المُستشهِدون ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُم**﴾ بين العباد ﴿**بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾**﴾ بنقص ثوابٍ أو زيادة عقابٍ على ما جرى به الوعد.

(٧٠) ﴿**وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ**﴾ جزاءَه ﴿**وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾**﴾ فلا يفوتُه شيء من أفعالهم. ثم فصَّل التوفيةَ فقال تعالى:

(٧١) ﴿**وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾ أفواجاً متفرقة، بعضها في إثر بعض، على تفاوت أقدامهم في الضلالة والشرارة ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا**﴾ ليدخلوها ﴿**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ**﴾ تقريعاً وتوبيخاً: ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ**﴾ من جنسكم ﴿**يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا**﴾ وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار. وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث إنهم علَّلوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب ﴿**قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾**﴾ كلمة الله تعالى بالعذاب علينا، وهو الحُكْمُ عليهم بالشقاوة وأنهم من أهل النار. وقيل: هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

(٧٢) ﴿**قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا**﴾ أبهَمَ القائل لتهويل ما يقال لهم ﴿**فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾**﴾ (أي: مكانهم).

(٧٣) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ إسراعاً بهم إلى دار الكرامة. وقيل: سيق مَراكبهم، إذ لا يُذهَب بهم إلا راكبين ﴿زُمَرًاۖ﴾ على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلوِّ الطبقة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ فيه دلالة على أن لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف، وأن أبواب الجنة تفتح لهم قبل مجيئهم غير منتظِرين ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ لا يعتريكم بعدُ مكروهٌ ﴿طِبۡتُمۡ﴾ طهرتم من دنس المعاصي ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ مقدّرين الخلود.

(٧٤) ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ بالبعث والثواب ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه على الاستعارة. وإيراثها: تمليكها مخلَّفة عليهم من أعمالهم (أقول: لا من آبائهم، بل بفضل الله تعالى وكرمه ورحمته وعفوه وبركة الرسول عليه الصلاة والسلام). أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ أي: يتبوأ كلٌّ منا في أيِّ مقام أراده من جنته الواسعة، مع أن في الجنة مقامات معنوية لا يتمانع واردوها ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ الجنة (أقول: والحقيقة أن دخول الجنة بفضل الله جل وعلا لا بعملنا).

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِرٍ ٤٠ — ٨٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

(٧٥) ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ محدقين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ملتبسين بحمده. والمعنى: ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذاً به. وفيه إشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق جل وعلا (أقول: إذا رحمهم الله تعالى وأنعم عليهم برؤيته) ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بين الخلق، بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة. أو بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: على ما قضي بيننا بالحق. والقائلون هم المؤمنون من المقضي بينهم. أو الملائكةُ. وطيُّ ذكرهم لتعيُّنهم وتعظيمهم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد
من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الزمر
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،
وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة غافر

مكيَّة، وآيُها خمس وثمانون آية

(١ـ٢) ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ لعلَّ تخصيص الوصفين «العزيز والعليم» لِما في القرآن من الإِعجاز والحكم الدالِّ على القدرة الكاملة والحكمة البالغة لله تعالى.

(٣) ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ صفات أخرى لتحقيق ما فيه من الترغيب والترهيب والحث على ما هو المقصود منه. والطَّوْلُ: الفضْلُ، بترك العقاب المستحَقِّ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإِقبال الكليُّ على عبادته ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ فيجازي المطيع والعاصي.

(٤) ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لمّا حقَّقَ أمر التنزيل سَجَّل بالكفر على المجادلين فيه بالطعن وإدحاض (أي: إبطال) الحق، فأما الجدال فيه لحلِّ عُقده واستنباط حقائقه وقطع تشبُّثِ (أي: تمسُّك) أهل الزيغ به وقطع مطاعنهم فيه فمن أعظم الطاعات ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ فلا يغررك إمهالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة، فإنهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم كما قال تعالى:

(٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾ والذين تحزَّبوا على الرسل عليهم الصلاة والسلام وناصبوهم (أي: عادَوْهم) بعدَ قوم نوح؛ كعاد وثمود ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ من هؤلاء ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ﴾ ليتمكنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيب وقتل ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بما لا حقيقة له ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليزيلوه به ﴿فَأَخَذْتُهُمْۖ﴾ بالإهلاك جزاءً لِهَمِّهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ فإنكم تمرُّون على ديارهم وترون أثره. وهو تقرير فيه تعجيب.

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وعيده. أو قضاؤه بالعذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لكفرهم ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ الكروبيون؛ أعلى طبقات الملائكة وأوَّلهم وجوداً. وحَمْلُهم إياه وحفيفهم حوله (أي: استدارتهم حوله وإحداقهم به) مجازٌ عن حفظهم وتدبيرهم له، أو كناية عن قربهم من ذي العرش ومكانتهم عنده وتوسُّطِهم في نفاذ أمره ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يذكرون الله تعالى بمجامع الثناء من صفات الجلال والإكرام. وجَعَلَ التسبيح أصلاً والحمدَ حالاً لأن الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ (قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى: فإن قيل: فأيُّ فائدة في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؟ فإن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا وقد سبق الإيمانُ بالله تعالى. أقول: الفائدة ما ذكره صاحب الكشاف فقال: إن المقصود منه التنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضراً بالعرش لكان حملة العرش والحافُّون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه، ولَمَا كان إيمانهم بوجود الله تعالى موجباً للمدح والثناء؛ لأن الإقرار بوجود شيء حاضر مشاهَد معايَن لا يوجب المدح والثناء. ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والثناء، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله عز وجل على سبيل الثناء والمدح والتعظيم عُلِم أنهم آمنوا به، بدليل أنهم ما شاهدوه حاضراً جالساً هناك [تفسير الرازي: ٢٧/ ٣٣-٣٤]) (أقول: واعتقاد أهل السنة والجماعة أن الله جل وعلا منزه عن المكان، لأنه كان ولا مكان، وهو على ما كان. وكذلك يدلُّ على أن الملائكة عليهم السلام - ولو كانوا في السموات - فإنهم لا يشاهدون الله تعالى، فإيمانهم إيمان غيبيٌّ) أخبر عنهم بالإيمان إظهاراً لفضله وتعظيماً لأهله. ومساق الآية لذلك، كما صرَّح به بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ وإشعاراً بأن حملة العرش وسكان الفرش في معرفته سواء، رداً على المجسِّمة. واستغفارُهم شفاعتهم وحملهم على التوبة وإلهامُهم ما يوجب المغفرة. وفيه تنبيه على أن المشاركة في الإيمان توجب النصح والشفقة وإن تخالفت الأجناس، لأنها أقوى المناسبات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] (أقول: هذا قلَّ أن يوجد، فأكثرهم يدعون لأنفسهم، ويجمعون الناس حولهم ليتكبَّروا بهم) ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون رَبَّنا ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعتْ رحمتُك وعلمُك، فأزيل عن أصله للإغراق (أي: الخوض) في وصفه بالرحمة والعلم والمبالغة في عمومها، وتقديمُ الرحمة لأنها المقصودة بالذات ههنا ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ للذين علمتَ منهم التوبة واتباع سبيل الحق ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ واحفظهم منه.

رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾

(٨) ﴿**رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ**﴾ إياها ﴿**وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ**﴾ أي: أدخلهم ومعهم هؤلاء ليتمَّ سرورهم ﴿**إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ**﴾ الذي لا يمتنع عليه مقدور ﴿**ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾**﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته، ومن ذلك الوفاءُ بالوعد.

(٩) ﴿**وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ**﴾ العقوبات. أو جزاء السيئات ﴿**وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ**﴾ أي: ومن تقها في الدنيا فقد رحمته في الآخرة (أقول: لأن سبب الرحمة الوقاية عن المعاصي، فإذا ثبتت الوقاية في الدنيا يثبت بفضله جل وعلا في الآخرة عفو الله تعالى ورحمته) ﴿**وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾**﴾ يعني الرحمة أو الوقاية أو مجموعها.

(١٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ**﴾ يوم القيامة فيقال لهم: ﴿**لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ**﴾ أي: لَمقتُ الله تعالى (أي: بغضه) إياكم أكبرُ من مقتكم أنفسكم الأمارة بالسوء (أقول: ونسبة المقت إلى الله تعالى للمشاكلة) ﴿**إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾**﴾ (فتصرُّون على الكفر [النسفي]).

(١١) ﴿**قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ**﴾ إماتتين، بأن خلقتنا أمواتاً أوّلاً ثم صيّرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالنا ﴿**وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ**﴾ الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. وقيل: الإماتة الأولى عند انخرام الأجل (أي: انقضائه)، والثانية في القبر بعد الإحياء للسؤال. والإحياءان: ما في القبر والبعث، إذ المقصود اعترافهم بعد المعاينة بما غفلوا عنه ولم يكترثوا به، ولذلك تسبَّب بقوله: ﴿**فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا**﴾ فإن اقترافهم لها من اغترارهم بالدنيا وإنكارهم البعث ﴿**فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ**﴾ نوع خروج من النار ﴿**مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾**﴾ طريقٍ فنسلكه، وذلك إنما يقولونه من فرط قنوطهم تعلُّلاً وتحيُّراً، ولذلك أُجيبوا بقوله تعالى:

(١٢) ﴿**ذَٰلِكُم**﴾ الذي أنتم فيه ﴿**بِأَنَّهُۥٓ**﴾ بسبب أنه ﴿**إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ**﴾ بالتوحيد ﴿**وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ**﴾ بالإشراك (أقول: أي وتقروا بالشركاء وتعتقدوا وجودها وتصدقوا من تفوه بها ولا أمل لكم في الخروج من النار) ﴿**فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ**﴾ المستحقِّ للعبادة، حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد (أي: الدائم) ﴿**ٱلۡعَلِيِّ**﴾ عن أن يشرَك به ويسوَّى بغيره ﴿**ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾**﴾ حيث حَكم على من أشرك وسوَّى به بعض مخلوقاته في استحقاق العبادة بالعذاب السرمد.

(١٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على التوحيد وسائر ما يجب أن يُعلم تكميلاً لنفوسكم ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أسبابَ رزقٍ كالمطر مراعاة لمعاشكم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات التي هي كالمركوزة (أي: الثابتة) في العقول لِظهورها المغفول عنها للانهماك في التقليد واتباع الهوى (أقول: اتباع الهوى يشمل المؤمن والكافر، أما التقليد هنا فهو للكافر) ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ يرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكر فيها، فإن الجازم بشيء لا ينظر فيما ينافيه.

(١٤) ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ إخلاصكم وشق عليهم.

(١٥) ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فيه دلالة على علوِّ صمديَّته (أي: سيادته) من حيث المعقول والمحسوس الدالِّ على تفرُّده في الألوهية، فإن من ارتفعت درجات كماله بحيث لا يظهر دونها كمالٌ وكان العرش الذي هو أصل العالم الجسماني في قبضة قدرته لا يصحُّ أن يُشرَك به. وقيل: الدرجات مراتب المخلوقات، أو مصاعد الملائكة إلى العرش أو السموات، أو درجات الثواب ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ فيه دلالة على أن الروحانيات أيضاً مسخرات لأمره بإظهار آثارها وهو الوحي، وتمهيدٌ للنبوة بعد تقرير التوحيد. والروحُ: الوحي. ومن أمره: بيانُه، لأنه أمرٌ بالخير أو مبدؤه، والآمِر هو المَلَك المبلِّغ (بأمر الله تعالى) ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يختاره للنبوة. وفيه دليل على أنها عَطائية (أقول: النبوَّة فضلٌ وليست كسباً، وغيرُ النبوة كل الدرجات عند الله جلَّ وعلا كسبيَّة) ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ يوم القيامة. فإن فيه تتلاقى الأرواح والأجساد وأهل السماء والأرض والمعبودون والعباد والأعمال والعمّال.

(١٦) ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ خارجون من قبورهم. أو ظاهرون لا يسترهم شيء. أو ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الأبدان (أي: أغطيتها)، أو أعمالهم وسرائرهم ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم. وهو تقرير لقوله: ﴿هُم بَٰرِزُونَ﴾ وإزاحة لنحو ما يُتوهَّم في الدنيا ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ حكايةٌ لما يُسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به. أو لما دل عليه ظاهر الحال فيه من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط، وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائماً.

ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾

(١٧) ﴿**ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ**﴾ كأنه نتيجة لما سبق. وتحقيقه أن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذَّتها وألَمها، لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائقَ تشغلها، فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذَّتها وألَمها ﴿**لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ**﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾**﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيصل إليهم ما يستحقونه سريعاً (أقول: لله تعالى أن يجرِّب عباده، وليس للعبد أن يجرِّب ربه).

(١٨) ﴿**وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ**﴾ أي: القيامة. سُمِّيت بها لأزوفها، أي: قُربها ﴿**إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ**﴾ فإنها ترتفع عن أماكنها فتلصق بحلوقهم، فلا تعود فيتروَّحوا، ولا تخرج فيستريحوا ﴿**كَٰظِمِينَۚ**﴾ على الغمِّ (أي: ساكتين حال امتلائهم هماً وكرباً وغيظاً) ﴿**مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ**﴾ قريب مشفق ﴿**وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾**﴾ ولا شفيع مشفَّع.

(١٩) ﴿**يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ**﴾ النظرة الخائنة؛ كالنظرة الثانية إلى المحرَّم واستراق النظر إليه. أو خيانة الأعين (أقول: الاستحياء من الله تعالى مهمّ، قال ربُّنا جل وعلا: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] أي: يغمضوا عيونهم، ولم يقل: يحوِّلوا وجوههم) ﴿**وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾**﴾ من الضمائر. وفيه دلالة على أنه ما من خفيٍّ إلا وهو متعلَّقُ العلم والجزاء.

(٢٠) ﴿**وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ**﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلا وهو حقُّه ﴿**وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ**﴾ تهكُّمٌ بهم، لأن الجماد لا يقال فيه: إنه يقضي أو لا يقضي ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾**﴾ تقريرٌ لعلمه بخائِنَة الأَعْيُن، وقضائه بالحق، ووعيدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحال مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ.

(٢١) ﴿**أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ**﴾ مآل حال الذين كذَّبوا الرسل قبلَهم؛ كعاد وثمود ﴿**كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ**﴾ قدرة وتمكُّناً ﴿**وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ مثل القلاع والمدائن الحصينة. وقيل: المعنى وأكثر آثاراً ﴿**فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾**﴾ يمنع العذاب عنهم.

(٢٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات. أو الأحكام الواضحة ﴿فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾ متمكِّن مما يريده غاية التمكن ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ لا يؤبه (أي: لا يُبالى) بعقابٍ دون عقابه.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني المعجزات ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ وحجة قاهرة ظاهرة

(٢٤) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ يعنون موسى عليه الصلاة والسلام. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، وبيان لعاقبة من هو أشدُّ الذين كانوا من قبلهم بطشاً وأقربهم زماناً.

(٢٥) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ﴾ أي: أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولاً، كي يصدوا عن مظاهرة (أي: مناصرة) موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ في ضياع.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

(٢٦) ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ**﴾ كانوا يكفُّونه (أي: يمنعونه) عن قتله، ويقولون: إنه ليس الذي تخافه بل هو ساحر، ولو قتلته ظُنَّ أنك عجزت عن معارضته بالحجة. وتعلُّله بذلك مع كونه سفاكاً في أهون شيء دليلٌ على أنه تيقن أنه نبيٌّ فخاف من قتله، أو ظن أنه لو جادله لم يتيسر له. ويؤيده قوله: ﴿**وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ**﴾ فإنه تجلُّدٌ وعدم مبالاة بدعاء ربه ﴿**إِنِّيٓ أَخَافُ**﴾ إن لم أقتله ﴿**أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ**﴾ أن يغيِّر ما أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام ﴿**أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾**﴾ ما يُفسد دنياكم من التحارب والتهارج (أي: التقاتل) إن لم يقدر أن يُبطل دينكم بالكلية.

(٢٧) ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰٓ**﴾ أي: لقومه لما سمع كلامه: ﴿**إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾**﴾ صدَّر الكلام بـ«إنَّ» تأكيداً وإشعاراً على أن السبب المؤكَّد في دفع الشر هو العياذ بالله تعالى، وخَصَّ اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية، وإضافته إليه وإليهم حثاً لهم على موافقته لِما في تظاهر الأرواح من استجلاب الإجابة، ولم يُسمِّ فرعون وذكر وصفاً يعمُّه وغيرَه لتعميم الإستعاذة ورعاية الحق والدلالة على الحامل له على القول.

(٢٨) ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ**﴾ من أقاربه ﴿**يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ**﴾ والرجل إسرائيلي ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا**﴾ أتقصدون قتله ﴿**أَن يَقُولَ**﴾ لأن يقول، من غير روِيَّة وتأمل في أمره: ﴿**رَبِّيَ ٱللَّهُ**﴾ وحده ﴿**وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ**﴾ المتكثرة الدالة على صدقه من المعجزات والاستدلالات ﴿**مِن رَّبِّكُمْ**﴾ أضافه إليهم بعد ذكر البيِّنات احتجاجاً عليهم واستدراجاً لهم إلى الاعتراف به، ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال: ﴿**وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ**﴾ لا يتخطاه وبال كذبه فيُحتاج في دفعه إلى قتله ﴿**وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ**﴾ فلا أقلَّ من أن يصيبكم بعضه. وفيه مبالغة في التحذير، وإظهارٌ للإنصاف وعدم التعصب. ولذلك قدَّم كونه كاذباً، أو يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا، وهو بعض مواعيده، كأنه خوفهم بما هو أظهرُ احتمالاً عندهم ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾**﴾ احتجاج ثالث ذو وجهين؛ أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله تعالى إلى البينات ولما عضده (أي: أيَّده) بتلك المعجزات. وثانيهما: أن من خذله الله تعالى

أهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله. ولعله أراد به المعنى الأول وخَيَّل إليهم الثاني لتلين شكيمتهم (أي: عنادهم)، وعرَّض به لفرعون بأنه مُسْرِفٌ كَذَّابٌ لا يهديه الله تعالى سبيل الصواب وسبيل النجاة.

(٢٩) ﴿**يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ**﴾ غالبين عالين ﴿**فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ أرض مصر ﴿**فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا**﴾ أي: فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله تعالى بقتله، فإنه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد. وإنما أدرج (أي: أدخل) نفسه في الضميرَين لأنه كان منهم في القرابة، وليريهم أنه معهم ومساهمهم (أي: مشاركهم) فيما ينصح لهم ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ**﴾ ما أشير عليكم ﴿**إِلَّا مَآ أَرَىٰ**﴾ إلا ما أستصوبه من قتله، ﴿**وَمَآ أَهْدِيكُمْ**﴾ وما أُعْلمكم إلا ما علمت من الصواب، وقلبي ولساني متواطئان (أي: متوافقان) عليه ﴿**إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾**﴾ طريق الصواب.

(٣٠) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم**﴾ في تكذيبه والتعرُّضِ له ﴿**مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾**﴾ مثل أيام الأمم الماضية؛ يعني وقائعهم (أقول: الذين تحزبوا على رسل الله تعالى كقوم عاد وثمود وغيرهم).

(٣١) ﴿**مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ**﴾ مثل جزاء ما كانوا عليه دائباً (أي: عادةً) من الكفر وإيذاء الرسل ﴿**وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ**﴾ كقوم لوط عليه السلام ﴿**وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾**﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، ولا يخلِّي الظالم منهم بغير انتقام. وهو أبلغ من قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] من حيث أن المنفيَّ فيه نفيُ حدوث تعلق إرادته بالظلم.

(٣٢) ﴿**وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾**﴾ يوم القيامة. ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة. أو يتصايحون بالويل والثبور (أي: الهلاك). أو يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار كما حكي في «الأعراف» عند قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آية: ٥٠].

(٣٣) ﴿**يَوْمَ تُوَلُّونَ**﴾ عن الموقف ﴿**مُدْبِرِينَ**﴾ منصرفين عنه إلى النار. وقيل: فارِّين عنها ﴿**مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ**﴾ يعصمكم من عذابه ﴿**وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾**﴾ (أي: مرشد [النسفي]).

وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾

(٣٤) ﴿**وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ**﴾ يوسف بن يعقوب عليه السلام، على أن فرعونه فرعون موسى عليه السلام. أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد ﴿**مِن قَبۡلُ**﴾ من قبلِ موسى عليه السلام ﴿**بِٱلۡبَيِّنَٰتِ**﴾ بالمعجزات ﴿**فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ**﴾ من الدين ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ**﴾ مات عليه الصلاة والسلام ﴿**قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ**﴾ (أقول: من بعده من بعد يوسف عليه الصلاة والسلام) ضمّاً إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة مَنْ بَعدَهُ. أو جزماً بأن لا يُبعث بعده رسول مع الشك في رسالته ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ مثل ذلك الإضلال ﴿**يُضِلُّ ٱللَّهُ**﴾ في العصيان ﴿**مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾**﴾ شاكٌّ فيما تشهد به البينات، لغلبة الوهم والانهماك في التقليد.

(٣٥) ﴿**ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ**﴾ بغير حجة، بل إما بتقليدٍ أو بشبهة داحضة (أي: باطلة) ﴿**كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ**﴾ أي: وجدال الذين يجادلون كبر مقتاً (والمقت: أشد البغض) ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ أي: كبر مقتاً مثل ذلك الجدال، فيكون قوله تعالى: ﴿**يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾**﴾ استئنافاً للدلالة على الموجب لجدالهم.

(٣٦) ﴿**وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا**﴾ بناء مكشوفاً عالياً ﴿**لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾**﴾ الطرق.

(٣٧) ﴿**أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ**﴾ وفي إبهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها ﴿**فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ**﴾ ولعله أراد أن يبني له رَصَداً في موضع عالٍ يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسبابٌ سماويةٌ تدل على الحوادث الأرضية، فيرى هل فيها ما يدلُّ على إرسال الله تعالى إياه. أو أن يرى فساد قول موسى عليه السلام بأن إخباره من إله السماء متوقِّف على اطلاعه ووصوله إليه، وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء، وهو مما لا يقوى عليه الإنسان، وذلك لجهله بالله تعالى وكيفية استنبائه ﴿**وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ**﴾ في دعوى الرسالة ﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ ومثل ذلك التزيين ﴿**زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ**﴾ سبيل الرشاد. والفاعلُ على الحقيقة هو الله تعالى وبتوسط الشيطان ﴿**وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾**﴾ أي: خسار.

(٣٨) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ**﴾ يعني مؤمن آل فرعون. وقيل: موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ**

أَهْدِكُمْ﴾ بالدلالة ﴿**سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨**﴾ سبيلاً يصل سالكُه إلى المقصود. وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغيِّ (أي: الضلال).

(٣٩) ﴿**يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ**﴾ تمتع يسير لسرعة زوالها ﴿**وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩**﴾ لخلودها.

(٤٠) ﴿**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا**﴾ عدلاً من الله تعالى. وفيه دليل على أن الجنايات تغرَّم بمثلها ﴿**وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠**﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل، بل أضعافاً مضاعفة فضلاً منه ورحمة. وتفضيل الثواب لتغليب الرحمة، وجعلُ العمل عمدةً والإِيمانِ حالاً للدلالة على أنه شرط في اعتبار العمل، وأن ثوابه أعلى من ذلك.

۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾

(٤١) ﴿**وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾**﴾ كرَّر نداءهم إيقاظاً لهم عن سِنَةِ الغفلة (والسِّنَة: الفتور الذي يتقدَّم النوم) واهتماماً بالمنادى له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه.

(٤٢) ﴿**تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ**﴾ بربوبيته ﴿**عِلۡمٞ**﴾ والمراد نفي المعلوم، والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان، فاعتقادها لايصح إلا عن إيقان ﴿**وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾**﴾ المستجمع لصفات الألوهية؛ من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة، والتمكن من المجازاة، والقدرة على التعذيب والغفران.

(٤٣) ﴿**لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ**﴾ أي: حقُّ عدمُ دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلاً، لأنها جمادات ليس لها ما يقتضي ألوهيتها. أو حقُّ عدم استجابة دعوة لها ﴿**وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ بالموت ﴿**وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ**﴾ في الضلالة والطغيان؛ كالإشراك وسفك الدماء ﴿**هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾**﴾ ملازموها.

(٤٤) ﴿**فَسَتَذۡكُرُونَ**﴾ أي: فسيذكِّر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿**مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ**﴾ من النصيحة ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ**﴾ ليعصمني من كل سوء ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾**﴾ فيحرسهم. وكأنه جوابُ تَوَعُّدهم المفهوم من قوله تعالى:

(٤٥) ﴿**فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ**﴾ شدائدَ مكرهم. وقيل: الضمير لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿**وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ**﴾ بفرعون وقومه. واستغنى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أوْلى بذلك. وقيل: بطلبة المؤمن من قومه، فإنه فرَّ إلى جبل، فاتبعه طائفة فوجدوه يصلي والوحوش حوله صفوفاً، فرجعوا رعباً فقتلهم ﴿**سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾**﴾ الغرق أو القتل أو النار.

(٤٦) ﴿**ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ**﴾ مثل يَصْلَوْنَ. فإن عَرضهم على النار إحراقُهم بها، وذلك لأرواحهم. وذكرُ الوقتين يَحتمل التخصيص والتأبيد، وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر (أقول: أرواحهم تُعرض على العذاب، وهم يعذَّبون بذلك) ﴿**وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ**﴾ أي: هذا ما دامت الدنيا، فإذا

قامت الساعة قيل للملائكة: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ عذاب جهنم، فإنه أشد مما كانوا فيه. أو أشدَّ عذاب جهنم.

(٤٧) ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ واذكر وقت تخاصمهم فيها ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أتباعاً ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ بالدفع أو الحمل

(٤٨) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ نحن وأنتم، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ جل وعلا.

(٤٩) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي: لخزنتها، فوضع جهنم موضع الضمير للتهويل، أو لبيان محلهم فيها. ويحتمل أن تكون جهنم أبعد دركاتها ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قدر يوم ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ شيئاً من العذاب.

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

(٥٠) ﴿**قَالُوٓاْ أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ**﴾ أرادوا به إلزامهم للحجة وتوبيخهم على إضاعتهم أوقات الدعاء وتعطيلهم أسباب الإجابة ﴿**قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ**﴾ فإنا لا نجترئ فيه، إذ لم يؤذن لنا في الدعاء لأمثالكم. وفيه إقناط لهم عن الإجابة ﴿**وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾**﴾ ضياعٍ لا يُجاب.

(٥١) ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة ﴿**فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾**﴾ أي: في الدارين. ولا ينتقض ذلك بما كان لأعدائهم عليهم من الغلبة أحياناً، إذ العبرة بالعواقب وغالب الأمر. والأَشْهادُ: جمع شاهد، والمراد بهم من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس؛ من الملائكة والأنبياء والمؤمنين.

(٥٢) ﴿**يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ**﴾ وعدم نفع المعذرة لأنها باطلة. أو لأنه لم يؤذن لهم فيعتذرون ﴿**وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ**﴾ البُعد عن الرحمة ﴿**وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾**﴾ جهنم.

(٥٣) ﴿**وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ**﴾ ما يُهتدى به في الدين من المعجزات والصحف والشرائع ﴿**وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾**﴾ وتركنا عليهم بعده التوراة.

(٥٤) ﴿**هُدٗى وَذِكۡرَىٰ**﴾ هداية وتذكرة ﴿**لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾**﴾ لذوي العقول السليمة.

(٥٥) ﴿**فَٱصۡبِرۡ**﴾ على أذى المشركين ﴿**إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ**﴾ بالنصر لا يخلفه. واستشهد بحال موسى عليه السلام وفرعون ﴿**وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ**﴾ وأقبل على أمر دينك، وتداركْ فرَطاتك بترك الأوْلى والاهتمام بأمر العِدى بالاستغفار، فإنه تعالى كافيك في النصر وإظهار الأمر ﴿**وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾**﴾ ودُمْ على التسبيح والتحميد لربِّك (أقول: هذا الخطاب لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فكيف حالنا نحن؟).

(٥٦) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ**﴾ عامٌّ في كل مجادِل مبطِل، وإن نزلت في مشركي مكة ﴿**إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ**﴾ إلا تكبُّرٌ عن الحق وتعظُّمٌ عن التفكر والتعلم. أو إرادة الرياسة. أو أن النبوة والملك لا يكونان إلا لهم ﴿**مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ**﴾ ببالغي دفع الآيات. أو ببالغي المراد ﴿**فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ**﴾ فالتجئ إليه ﴿**إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾**﴾ لأقوالهم وأفعالهم.

(٥٧) ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ فمَنْ قَدِرَ على خلقها مع عِظمها أولاً من غير أصل قَدِرَ على خلق الإنسان ثانياً من أصل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لفرط غفلتهم واتباعهم أهواءهم.

(٥٨) ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الغافل والمستبصر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ والمحسن والمسيء. فينبغي أن يكون لهم حال يظهر فيها التفاوت، وهي فيما بعد البعث ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ (تتعظون).

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

(٥٩) ﴿**إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا**﴾ في مجيئها، لوضوح الدلالة على جوازها وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾**﴾ لا يصدِّقون بها، لقصور نظرهم على ظاهر ما يُحِسُّون به.

(٦٠) ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ**﴾ اعبدوني ﴿**أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ أُثِبْكم، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾**﴾ صاغرين. وإن فُسِّرَ الدعاء بالسؤال كان الاستكبار الصارف عنه مُنَزَّلاً منزلته للمبالغة. أو المراد بالعبادة الدعاء فإنه من أبوابها.

(٦١) ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ**﴾ لتستريحوا فيه، بأنْ خلقه بارداً مظلماً ليؤدي إلى ضعف المحركات وهدوء الحواس ﴿**وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا**﴾ يُبصَر فيه أو به ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ لا يوازيه فضلٌ ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾**﴾ لجهلهم بالمنعم، وإغفالهم مواقع النعم.

(٦٢) ﴿**ذَٰلِكُمُ**﴾ المخصوص بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية ﴿**ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾**﴾ فكيف ومن أيِّ وجه تُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟

(٦٣) ﴿**كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾**﴾ أي: كما أُفِكوا أُفِك عن الحق كلُّ من جحد بآيات الله تعالى ولم يتأمَّلها.

(٦٤) ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا**﴾ (مستقراً) ﴿**وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً**﴾ (سقفاً فوقكم [النسفي]) ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ بأن خلقكم منتصبي القامة بادي البشرة متناسبي الأعضاء والتخطيطات، متهيِّئين لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات ﴿**وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ**﴾ اللذائذ ﴿**ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾**﴾ فإنَّ كلَّ ما سواه مربوبٌ مفتقِر بالذات معرَّض للزوال.

(٦٥) ﴿**هُوَ ٱلْحَىُّ**﴾ المتفرِّد بالحياة الذاتية ﴿**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ إذ لا موجد سواه، ولا موجود يساويه أو يدانيه في ذاته وصفاته جلَّ وعلا ﴿**فَٱدْعُوهُ**﴾ فاعبدوه ﴿**مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**﴾ أي: الطاعة، من الشرك (للكفار) والرياء (للمسلمين) ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾**﴾ قائلين له.

(٦٦) ﴿**قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى**﴾ من الحجج أو من الآيات، فإنها مقوِّية لأدلة العقل منبِّهة عليها ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾**﴾ بأن أنقاد له وأُخلِص له ديني.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

(٦٧) ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**﴾ أطفالاً ﴿**ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ**﴾ أي: ثم يُبقيكم لتبلغوا أشدكم (أي: كمالكم في القوة والعقل) ﴿**ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ**﴾ من قبل الشيخوخة أو بلوغ الأشُدِّ ﴿**وَلِتَبْلُغُوٓاْ**﴾ ويفعل ذلك لتبلغوا ﴿**أَجَلًا مُّسَمًّى**﴾ وهو وقت الموت، أو يوم القيامة ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾**﴾ ما في ذلك من الحجج والعبر.

(٦٨) ﴿**هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا**﴾ فإذا أراده ﴿**فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾**﴾ فلا يحتاج في تكوينه إلى عُدةٍ وتجشُّمِ (أي: تحمُّل) كلفةٍ (أقول: فالحقيقة إنما بإرادته جل وعلا لابقول كن فيكون).

(٦٩) ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾**﴾ عَن التصديق به.

(٧٠) ﴿**ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ**﴾ بالقرآن. أو بجنس الكتب السماوية ﴿**وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا**﴾ من سائر الكتب، أو الوحي والشرائع ﴿**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾**﴾ جزاء تكذيبهم.

(٧١ـ٧٢) ﴿**إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ**﴾ أي: يُسحبون بها ﴿**ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾**﴾ يُحرقون. والمراد أنهم يعذبون بأنواع من العذاب، ويُنقلون من بعضها إلى بعض.

(٧٣ـ٧٤) ﴿**ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ**﴾ (أي: تقول لهم الخزنة [النسفي]) ﴿**أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا**﴾ غابوا عنا، وذلك قبل أن تُقرَن بهم آلهتهم. أو ضاعوا عنا، فلم نجد ما كنا نتوقع منهم ﴿**بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا**﴾ أي: بل تبيَّن لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً بعبادتهم، فإنهم ليسوا شيئاً يعتدُّ به ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ مثل ذلك الضلال ﴿**يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾**﴾ حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم في الآخرة. أو يضلهم عن آلهتهم، حتى لو تطالبوا لم يتصادفوا.

(٧٥) ﴿**ذَٰلِكُم**﴾ الإضلال ﴿**بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ تبطرون وتتكبرون ﴿**بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ**﴾ وهو الشرك والطغيان ﴿**وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾**﴾ تتوسعون في الفرح.

(٧٦) ﴿**ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ**﴾ الأبواب السبعة المقسومة لكم ﴿**خَٰلِدِينَ فِيهَا**﴾ مقدّرين الخلود ﴿**فَبِئْسَ**

﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾ عن الحقِّ جهنَّم (والمثوى: الموضع الذي يُقام فيه).

(٧٧) ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بهلاك الكافرين ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالة ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ فإنْ نُرِكَ ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ وهو القتل والأسر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن تراه ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم. بمعنى: إن نعذبْهم في حياتك أو لم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

(٧٨) ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**ۗ﴾ إذ قيل: عدد الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والمذكور قصصهم أشخاص معدودة ﴿**وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ**ۚ﴾ فإن المعجزات عطايا قسمها بينهم على ما اقتضته حكمته كسائر القِسَم، ليس لهم اختيار في إيثار بعضها والاستبداد بإتيان المقترح بها ﴿**فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ**﴾ بالعذاب في الدنيا أو الآخرة ﴿**قُضِيَ بِٱلْحَقِّ**﴾ بإنجاء المحق وتعذيب المبطل ﴿**وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾**﴾ المعاندون باقتراح الآيات بعد ظهور ما يُغنيهم عنها.

(٧٩) ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾**﴾ فإن من جنسها ما يؤكل كالغنم، ومنها ما يؤكل ويُركب كالإبل والبقر.

(٨٠) ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ**﴾ كالألبان والجلود والأوبار ﴿**وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ**﴾ بالمسافرة عليها ﴿**وَعَلَيْهَا**﴾ في البرِّ ﴿**وَعَلَى ٱلْفُلْكِ**﴾ في البحر ﴿**تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾**﴾.

(٨١) ﴿**وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ**﴾ دلائلَه الدالة على كمال قدرته وفرط رحمته جلَّ وعلا ﴿**فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ**﴾ أي: فأيَّ آية من تلك الآيات ﴿**تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾**﴾ فإنها لظهورها لا تقبل الإنكار.

(٨٢) ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ ما بقي منهم من القصور والمصانع (أي: الحصون) ونحوهما ﴿**فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾**﴾.

(٨٣) ﴿**فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ**﴾ بالمعجزات. أو الآيات الواضحات ﴿**فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ**﴾ واستحقروا علم الرسل. والمراد بالعلم عقائدُهم الزائغة وشُبَهُهُم الداحضة (أي: الباطلة). وسماها علماً على زعمهم تهكُّماً بهم. أو علم الأنبياء، وفرحُهم به ضحكُهم منه واستهزاؤهم به. ويؤيده: ﴿**وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾**﴾ وقيل: الفرح أيضاً للرسل، فإنهم لما رأوا تمادي جهل الكفار وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله تعالى عليه، وحاق بالكافرين جزاءُ جهلهم واستهزائهم.

(٨٤) ﴿**فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا**﴾ شدة عذابنا ﴿**قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾**﴾ يعنون الأصنام.

(٨٥) ﴿**فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا**ۖ﴾ لامتناع قبوله حينئذ (أقول: فقد فات زمان التدارك)، ولذلك قال: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ بمعنى: لم يصحَّ ولم يستقم ﴿**سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ**ۖ﴾ أي: سَنَّ الله تعالى ذلك سُنَّة ماضية في العباد ﴿**وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾**﴾ أي: وقت رؤيتهم البأس.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة غافر

(٤١) سُورَةُ فُصِّلَتْ (٥٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة فصلت

مكيَّة، وآيها أربع وخمسون آية

(١-٢) ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾.

(٣) ﴿كِتَٰبٌ﴾ لعلَّ افتتاح هذه السور السبع بـ﴿حمٓ﴾ وتسميتها به لكونها مصدَّرة ببيان الكتاب، متشاكلة في النظم والمعنى، وإضافة التَنْزِيل إلى الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ للدلالة على أنه مناط المصالح الدينيَّة والدنيويَّة ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ مُيِّزت باعتبار اللفظ والمعنى ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وفيه امتنان بسهولة قراءته وفهمه ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ أي: لقوم يعلمون العربية. أو لأهل العلم والنظر.

(٤) ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ للعاملين به والمخالفين له ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره وقبوله ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ سماع تأمل وطاعة.

(٥) ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أغطية ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صَمَمٌ ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يمنعنا عن التواصل. وهذه تمثيلات لنبوِّ (أي: لِبعد) قلوبهم عن إدراك ما يدعوهم إليه واعتقاده ومجِّ أسماعهم (أي: عدم قبولها) له، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ ﴿فَٱعْمَلْ﴾ على دينك. أو في إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ على ديننا. أو في إبطال أمرك.

(٦) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لستُ مَلَكاً ولا جنيّاً لا يمكنكم التلقي منه، ولا أدعوكم إلى ما تنبو (أي: تنفر) عنه العقول والأسماع، وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل، وقد تدلُّ عليهما دلائل العقل وشواهد النقل ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ فاستقيموا في أفعالكم متوجهين إليه. أو فاستووا إليه بالتوحيد والإخلاص في العمل ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل. ثم هدَّدهم على ذلك فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ من فرط جهالتهم واستخفافهم بالله.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق، وذلك من أعظم الرذائل. وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع (أقول: هذه المسألة مختلف فيها. ففي علم الشريعة لا تترتب على الكافر فروع الدين إلا بعد الإيمان). وقيل: معناه لا يفعلون ما يزكي أنفسهم؛ وهو الإيمان والطاعة ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ

كَٰفِرُونَ ٧﴾ حالٌ مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في طلب الدنيا وإنكارهم للآخرة.

(٨) **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٨﴾** لا يُمَنُّ به عليهم. وقيل: نزلت في المرضى والزَّمْنَى (جمع زَمِن، وهو المريض مرضاً يدوم طويلًا) والْهَرْمَى، إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون.

(٩) **﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾** في مقدار يومين، أو نوبتين. وخلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون. ولعلَّ المراد من الْأَرْض ما في جهة السفل من الأجرام البسيطة، ومِنْ خَلقِها فِي يَوْمَيْنِ أنه خَلقَ لها أصلاً مشتركاً، ثم خلق لها صوراً بها صارت أنواعاً. وكفرُهم به: إلحادُهم في ذاته وصفاته **﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾** ولا يصح أن يكون له ندٌّ (أي: مِثْلٌ ونظير) **﴿ذَٰلِكَ﴾** الذي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ **﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩﴾** خالق جميع ما وُجد من الممكنات ومربِّيها.

(١٠) **﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾** (أي: جبالاً) **﴿مِن فَوْقِهَا﴾** مرتفعة عليها، ليظهر للنظار ما فيها من وجوه الاستبصار، وتكون منافعها معرضة للطلاب **﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾** وأكثر خيرها، بأن خلق فيها أنواع النبات والحيوان **﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾** أقوات أهلها، بأن عيَّن لكل نوع ما يُصلحه ويعيش به. أو أقواتاً تنشأ منها بأن خَصَّ حدوث كل قوت بقِطر من أقطارها **﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾** في تتمة أربعة أيام. ولعله قال ذلك ولم يقل في يومين للإشعار باتصالهما باليومين الأولين **﴿سَوَآءً﴾** أي: استوت سواء، بمعنى استواء **﴿لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾** عن مدة خلق الأرض وما فيها.

(١١) **﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾** قصد نحوها؛ من قولهم: استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه **﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾** أمرٌ ظلماني. ولعله أراد به مادتها، أو الأجزاء المتصغرة التي رُكِّبت منها **﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾** بما خلقتُ فيكما من التأثير والتأثر وأبرزا ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة **﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾** شئتما ذلك أو أبيتما. والمراد إظهار كمال قدرته ووجوب وقوع مراده، لا إثبات الطوع والكره لهما **﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ١١﴾** منقادين بالذات.

فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾

(١٢) ﴿**فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ**﴾ فخلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن ﴿**فِي يَوۡمَيۡنِ**﴾ قيل: خلقَ السموات يوم الخميس، والشمسَ والقمر والنجوم يوم الجمعة ﴿**وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ**﴾ شأنها وما يتأتى منها، بأن حملها عليه اختياراً أو طبعاً. وقيل: أوحى إلى أهلها بأوامره ونواهيه ﴿**وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ**﴾ فإن الكواكب كلها تُرى كأنها تتلألأ عليها ﴿**وَحِفۡظٗاۚ**﴾ أي: وحفظناها من الآفات، أو من المسترقة (أي: من الشياطين) حفظاً ﴿**ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾**﴾ البالغ في القدرة والعلم.

(١٣) ﴿**فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ**﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿**فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ**﴾ فحذِّرهم أن يصيبهم عذاب شديدُ الوقعِ كأنه صاعقة ﴿**مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾**﴾.

(١٤) ﴿**إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ**﴾ أتوهم من جميع جوانبهم، واجتهدوا بهم من كل جهة. أو من جهة الزمن الماضي بالإنذار عما جرى فيه على الكفار، ومن جهة المستقبل بالتحذير عما أُعدَّ لهم في الآخرة ﴿**أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ**﴾ بأن لا تعبدوا إلا الله تعالى ﴿**قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا**﴾ إرسال الرسل ﴿**لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ**﴾ برسالته ﴿**فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ**﴾ على زعمكم ﴿**كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾**﴾ إذ أنتم بَشَرٌ مِّثْلُنا، لا فضل لكم علينا.

(١٥) ﴿**فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ**﴾ فتعظَّموا فيها على أهلها من غير استحقاق ﴿**وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ**﴾ اغتراراً بقوتهم وشوكتهم. قيل: كان من قوتهم أن الرجل منهم ينزع الصخرة فيقتلعها بيده ﴿**أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ**﴾ قدرة. فإنه قادر بالذات، مقتدر على ما لا يتناهى، قويٌّ على ما لا يقدر عليه أحد غيره ﴿**وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾**﴾ يعرفون أنها حقٌّ وينكرونها.

(١٦) ﴿**فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا**﴾ باردة تهلك بشدة بردها. أو شديدة الصوت في هبوبها ﴿**فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ**﴾ (أي: مشؤومات عليهم). وقيل: كنَّ آخرَ شوال من الأربعاء إلى الأربعاء ﴿**لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ**﴾ أضاف العذابَ إلى الخِزْيِ - وهو الذل - على قصد وصفه به لقوله: ﴿**وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾**﴾ بدفع العذاب عنهم.

(١٧) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فدلَلْناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الضلالة على الهدى ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ صاعقة من السماء فأهلكتهم (وعذاب الهون: هو الذي يهينهم) ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ من اختيار الضلالة.

(١٨) ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ من تلك الصاعقة.

(١٩) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ يُحبَس أولُهم على آخرهم لئلا يتفرقوا، وهو عبارة عن كثرة أهل النار.

(٢٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ إذا حضروها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ بأن يُنطقها الله تعالى.

وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

(٢١) ﴿**وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا**﴾ سؤال توبيخ أو تعجب ﴿**قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ**﴾ أي: ما نطقنا باختيارنا، بل أنطقنا الله تعالى الذي أنطق كل شيء. أو ليس نطقنا بعجب من قدرة الله تعالى الذي أنطق كلَّ حيٍّ ﴿**وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾**﴾ يحتمل أن يكون تمام كلام الجلود وأن يكون استئنافاً.

(٢٢) ﴿**وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ**﴾ أي: كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضاحة، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم بها فما استترتم عنها. وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق أنه لا يمرُّ عليه حال إلا وعليه رقيب ﴿**وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾**﴾ فلذلك اجترأتم على ما فعلتم.

(٢٣) ﴿**وَذَٰلِكُمْ**﴾ إشارة إلى ظنهم هذا ﴿**ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾**﴾ إذ صار ما مُنحوا للاستعداد (أي: نيل السعادة) به في الدارين سبباً لشقاء المَنْزِلين.

(٢٤) ﴿**فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ**﴾ لا خلاص لهم عنها ﴿**وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ**﴾ يسألوا العتبى؛ وهي الرجوع إلى ما يحبون ﴿**فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾**﴾ المُجابين إليها.

(٢٥) ﴿**وَقَيَّضْنَا**﴾ وقدَّرنا ﴿**لَهُمْ**﴾ للكفرة ﴿**قُرَنَآءَ**﴾ أخداناً من الشياطين، يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض؛ وهو القشر ﴿**فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ من أمر الدنيا واتباع الشهوات ﴿**وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ مِنْ أمر الآخرة وإنكاره ﴿**وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ**﴾ أي: كلمة العذاب ﴿**فِىٓ أُمَمٍ**﴾ في جملة أمم ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ**﴾ وقد عملوا مثل أعمالهم ﴿**إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾**﴾ تعليلٌ لاستحقاقهم العذاب. والضمير لَهُمْ وللأُمَم.

(٢٦) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ**﴾ وعارِضوه بالخرافات. أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشوه على القارئ ﴿**لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾**﴾ أي: تغلبونه على قراءته.

(٢٧) ﴿**فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ المراد بهم هؤلاء القائلون، أو عامة الكفار ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ**

أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ سيئات أعمالهم.

(٢٨) ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ إشارةٌ إلى الأسوأ ﴿**جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا**﴾ في النار ﴿**دَارُ ٱلْخُلْدِ**﴾ فإنها دار إقامتهم ﴿**جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾**﴾ ينكرون الحق. أو يَلغون، وذَكَرَ الجحود الذي هو سبب اللغو.

(٢٩) ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ**﴾ يعني شيطانَيْ النوعين الحاملين على الضلالة والعصيان. وقيل: هما إبليس وقابيل؛ فإنهما سَنّا الكفر والقتل ﴿**نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا**﴾ ندسْهما انتقاماً منهما. وقيل نجعلهما في الدرك الأسفل ﴿**لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾**﴾ مكاناً، أو ذلاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾

(٣٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته جلَّ وعلا ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ في العمل ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيما يَعِنُّ (أي: يبدو) لهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن. أو عند الموت أو الخروج من القبر ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ ما تقدمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما خلفتم ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ في الدنيا على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام.

(٣١) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نُلهمكم الحق ونحملكم على الخير بدل ما كانت الشياطين تفعل بالكفرة ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ بالشفاعة والكرامة، حيثما يتعادى الكفرة وقرناؤهم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من اللذائذ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ ما تتمنَّوْن.

(٣٢) ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ فيه إشعار بأن ما يتمنَّون بالنسبة إلى ما يُعطَون مما لا يخطر ببالهم كالنُّزُل للضيف (وهو ما هُيِّئ له يأكل فيه وينام).

(٣٣) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى عبادته ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه جلَّ وعلا ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ تفاخراً به واتخاذاً للإسلام ديناً ومذهباً. والآية عامة لمن استجمع تلك الصفات.

(٣٤) ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في الجزاء وحسن العاقبة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ادفع السيئة حيث اعترضتك بالتي هي أحسن منها وهي الحسنة. على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقاً، أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات (أقول: هذه صفة المؤمن، لكن قلَّ من يفعل ذلك) ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: إذا فعلت ذلك صار عدوك المشاقُّ (أي: المخالف) مثل الولي الشفيق.

(٣٥) ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ وما يلقى هذه السجية (أي: الطبيعة)؛ وهي مقابلته الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ فإنها تحبس النفس عن الانتقام ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ من الخير وكمال النفس. وقيل: الحظ العظيم: الجنة.

(٣٦) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ نخسٌ. شبَّه به وسوسته، لأنها تبعث الإنسان على ما لا ينبغي

كالدفع بما هو أسوأ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ من شرِّه ولا تطعه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ بنيتك، أو بصلاحك.

(٣٧) ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ لأنهما مخلوقان مأموران مثلكم ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ فإن السجود أخصُّ العبادات (قال عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]).

(٣٨) ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الامتثال ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: دائماً، لقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ٣٨﴾ أي: لا يمَلُّون.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

(٣٩) ﴿**وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً**﴾ يابسة متطامنة (أي: منخفضة) ﴿**فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾ تزخرفت وانتفخت بالنبات ﴿**إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا**﴾ بعد موتها ﴿**لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾**﴾ من الإحياء والإماتة.

(٤٠) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ**﴾ يميلون عن الاستقامة ﴿**فِىٓ ءَايَٰتِنَا**﴾ بالطعن والتحريف والتأويل الباطل والإلغاء فيها ﴿**لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ**﴾ فنجازيهم على إلحادهم ﴿**أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ قابَلَ الإلقاء في النار بالإتيان آمناً مبالغة في إحماد حال المؤمنين ﴿**ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ**﴾ تهديدٌ شديد ﴿**إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾**﴾ وعيدٌ بالمجازاة.

(٤١) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ**﴾ الذكر: القرآن ﴿**وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾**﴾ كثير النفع عديم النظير (أي: لا يوجد مثله). أو منيع لا يتأتَّى إبطاله وتحريفه.

(٤٢) ﴿**لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ**﴾ لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات، أو مما فيه من الأخبار الماضية والأمور الآتية ﴿**تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ**﴾ وأيُّ حكيم! ﴿**حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾**﴾ يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من نعمه.

(٤٣) ﴿**مَّا يُقَالُ لَكَ**﴾ أي: ما يقول لك كفار قومك ﴿**إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ**﴾ إلا مثلَ ما قال لهم كفار قومهم. ويجوز أن يكون المعنى: ما يقول الله تعالى لك إلا مثل ما قال لهم ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ**﴾ لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ﴿**وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾**﴾ لأعدائهم.

(٤٤) ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا**﴾ جوابٌ لقولهم: هلا أنزل القرآن بلغة العجم ﴿**لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ**﴾ بُيِّنت بلسان نفقهه ﴿**ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ**﴾ أكلام أعجمي ومخاطب عربي؟ ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى**﴾ إلى الحق ﴿**وَشِفَآءٌ**﴾ لِمَا في الصدور من الشكِّ والشُّبَه ﴿**وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى**﴾ وذلك لتصامِّهم عن سماعه، وتعاميهم عما يريهم من الآيات ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾**﴾ وهو تمثيل لهم في عدم قبولهم الحق واستماعهم له بمن يصاح به من مسافة بعيدة.

(٤٥) ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ**﴾ بالتصديق والتكذيب كما اختلف في القرآن ﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ**﴾ وهي العِدَةُ (أي: الوعد) بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ. أو تقدير الآجال ﴿**لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ**﴾ باستئصال المكذبين ﴿**وَإِنَّهُمْ**﴾ وإن اليهود، أو الذين لا يؤمنون ﴿**لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ**﴾ من التوراة، أو القرآن ﴿**مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾**﴾ موجب للاضطراب.

(٤٦) ﴿**مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِ**﴾ نفعُهُ ﴿**وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا**﴾ ضرُّهُ ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾**﴾ فيفعل بهم ما ليس له أن يفعله.

۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

(٤٧) ﴿**إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ**﴾ أي: إذا سئل عنها، إذ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ جل وعلا ﴿**وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا**﴾ من أوعيتها ﴿**وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ**﴾ بِمكان ﴿**إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ**﴾ إلا مقروناً بعلمه، واقعاً حسب تعلقه به ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى**﴾ بزعمكم ﴿**قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ**﴾ أعلمناك ﴿**مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾**﴾ من أحد يشهد لهم بالشركة، إذ تبرَّأنا منهم لمّا عاينًا الحال، فيكون السؤال عنهم للتوبيخ. أو من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنّا. وقيل: هو قول الشركاء؛ أي: ما منا مَنْ يشهد لهم بأنهم كانوا محقّين.

(٤٨) ﴿**وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ**﴾ يعبدون ﴿**مِن قَبْلُۖ**﴾ لا ينفعهم، أو لا يرونه ﴿**وَظَنُّواْ**﴾ وأيقنوا ﴿**مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾**﴾ مهرَب.

(٤٩) ﴿**لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ**﴾ لا يملُّ ﴿**مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ**﴾ من طلب السعة في النعمة ﴿**وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ**﴾ الضيقة ﴿**فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾**﴾ من فضل الله تعالى ورحمته. وهذا صفة الكافر، لقوله: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

(٥٠) ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ**﴾ بتفريجها عنه ﴿**لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى**﴾ حقي أستحقه لمالي من الفضل والعمل. أو لي دائماً لا يزول ﴿**وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً**﴾ تقوم ﴿**وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ**﴾ أي: ولئن قامت على التوهُّم كان لي عند الله تعالى الحالة الحسنى من الكرامة، وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا فلاستحقاقٍ لا ينفك عنه ﴿**فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ فلنخبرنَّهم ﴿**بِمَا عَمِلُواْ**﴾ بحقيقة أعمالهم ولنبصِّرنَّهم عكس ما اعتقدوا فيها ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾**﴾ لا يمكنهم التقصي عنه.

(٥١) ﴿**وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ**﴾ عن الشكر ﴿**وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ**﴾ وانحرف عنه. أو ذهب بنفسه وتباعد عنه بكليته تكبراً ﴿**وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾**﴾ كثيرٍ.

(٥٢) ﴿**قُلْ أَرَءَيْتُمْ**﴾ أخبروني ﴿**إِن كَانَ**﴾ أي: القرآن ﴿**مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ**﴾ من غير نظر واتباع دليل ﴿**مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾**﴾ أي: من أضلُّ منكم؟

(٥٣) ﴿**سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ**﴾ يعني ما أخبرهم النبي عليه الصلاة والسلام به من الحوادث الآتية

وآثار النوازل الماضية، وما يسَّرَ الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجهٍ خارق للعادة ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حلَّ بهم. أو ما في بدن الإنسان من عجائب الصنع الدالة على كمال القدرة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام أو التوحيد ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ أي: أوَلم يكفك أنه تعالى على كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ محقّقٌ له، فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة. أو مطَّلع، فيعلم حالك وحالهم. أو أوَلم يكفِ الإنسانَ رادعاً (أي: مانعاً) عن المعاصي أنه تعالى مطَّلع على كل شيء لا يخفى عليه خافية.

(٥٤) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث والجزاء ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها، مقتدر عليها لا يفوته شيء منها.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة فصلت وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشورى

مكيَّة، وهي ثلاث وخمسون آية

سُورَةُ الشُّورَىٰ (٤٢) (٥٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

(١-٣) ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ أي: مثل ما في هذه السورة من المعاني. أو إيحاء مثل إيحائها أوحى الله تعالى إليك وإلى الرسل من قبلك. و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان له مقرِّرتان لعلوِّ شأن الموحى به.

(٤) ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ تقرير لعزته وحكمته جل وعلا.

(٥) ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن من عظمة الله تعالى. وقيل: من ادعاء الولد له ﴿مِن فَوْقِهِنَّۚ﴾ أي: يبتدئ الانفطار (أي: الانشقاق) من جهتهن الفوقانية (أقول: أي وهي بعضها فوق بعض من عظمة الله تعالى وجلاله أو من شناعة ما يقوله المشركون وينسبونه إلى الله تعالى من اتخاذ الزوجة والولد وهو الغني عن العباد) ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم؛ من الشفاعة والإلهام وإعداد الأسباب المقرِّبة إلى الطاعة. وذلك في الجملة يعمُّ المؤمن والكافر، وحيث خُصَّ بالمؤمنين فالمراد به الشفاعة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ إذ ما من مخلوق إلا وهو ذو حظٍّ من رحمته جلَّ وعلا.

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شركاء وأنداداً ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ بموكَّل بهم، أو بموكول إليك أمرهم.

(٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أهلَ أمِّ القرى وهي مكة (شرَّفها الله تعالى) ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة. يُجمَع فيه الخلائق، أو الأرواح والأشباح، أو الأعمال والعمال ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ (لا شك فيه) ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ أي: بعد جمعهم في الموقف. يُجمَعون أولاً ثم يُفرَّقون.

(٨) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مهتدين أو ضالين ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ﴾

بالهداية والحمل على الطاعة (أقول: لا بد أن نتفكر هل فينا هذا الوصف أم لا؟) ﴿**وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨**﴾ أي: يَدَعهم بغير وليٍّ ولا نصير في عذابه.

(٩) ﴿**أَمِ ٱتَّخَذُواْ**﴾ بل اتخذوا ﴿**مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ**﴾ كالأصنام ﴿**فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ**﴾ بالحق ﴿**وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩**﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية.

(١٠) ﴿**وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ**﴾ أنتم والكفار ﴿**فِيهِ مِن شَيۡءٖ**﴾ من أمر من أمور الدنيا أو الدين ﴿**فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ**﴾ مفوَّض إليه، يميِّز المحقَّ من المبطِل بالنصر أو بالإثابة والمعاقبة. وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويلِ متشابهٍ فارجعوا فيه إلى المُحْكَم من كتاب الله تعالى ﴿**ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ**﴾ في مجامع الأمور ﴿**وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠**﴾ وإليه أرجع في المُعْضلات (أي: الشدائد).

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿**فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ**﴾ (أي: مبدعهما وموجدهما من العدم) ﴿**جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ**﴾ من جنسكم ﴿**أَزۡوَٰجٗا**﴾ نساء ﴿**وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا**﴾ أي: وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً. أو خلق لكم من الأنعام أصنافاً، أو ذكوراً وإناثاً ﴿**يَذۡرَؤُكُمۡ**﴾ يُكثِّركم ﴿**فِيهِۚ**﴾ في هذا التدبير؛ وهو جَعْلُ الناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالد، فإنه كالمنبع للبث (أي: النشر) والتكثير ﴿**لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ**﴾ أي: ليس مثله شيء. والمرادُ مِنْ «مِثْلِهِ»: ذاتُهُ ﴿**وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾**﴾ لكل ما يُسمَع ويُبصَر.

(١٢) ﴿**لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ**﴾ خزائنُها ﴿**يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ**﴾ يوسِّع ويضيِّق على وفق مشيئته جلَّ وعلا ﴿**إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾**﴾ فيفعله على ما ينبغي.

(١٣) ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ**﴾ أي: شرع لكم من الدين دينَ نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومَنْ بينهما من أرباب الشرع، وهو الأصل المشترك فيما بينهم المفسَّرُ بقوله: ﴿**أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ**﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقه والطاعة في أحكام الله تعالى ﴿**وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ**﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصل، أما فروع الشرائع فمختلفة، كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿**كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ**﴾ عَظُمَ عليهم ﴿**مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ**﴾ من التوحيد ﴿**ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ**﴾ يجتلب إليه. والضمير لما تدعوهم أو للدين ﴿**وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ**﴾ بالإرشاد والتوفيق ﴿**مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾**﴾ يُقبِل إليه.

(١٤) ﴿**وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ**﴾ يعني الأممَ السالفة. وقيل: أهل الكتاب ﴿**إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ**﴾ بأن التفرُّقَ ضلالٌ متوعَّدٌ عليه. أو العلم بمبعث الرسول عليه الصلاة والسلام. أو أسباب العلم؛ من الرسل والكتب وغيرهما، فلم يلتفتوا إليها ﴿**بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ**﴾ عداوةً. أو طلباً للدنيا ﴿**وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ**﴾ بالإمهال ﴿**إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى**﴾ هو يوم القيامة، أو آخر أعمارهم المقدَّرة ﴿**لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ**﴾ باستئصال المبطِلين حين افترقوا لِعِظَم ما اقترفوا (أي: اكتسبوا) ﴿**وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ**﴾ يعني أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ. أو المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد أهل الكتاب ﴿**لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ**﴾

من كتابهم، لا يعلمونه كما هو، أو لا يؤمنون به حقَّ الإيمان. أو من القرآن ﴿مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ مُقلِق. أو مُدخِلٍ في الريبة.

(١٥) ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فلأجل ذلك التفرق، أو الكتاب، أو العلم الذي أوتيته ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الاتفاق على الملة الحنيفية. أو الاتباع لما أوتيت ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ (الخطاب لرسول الله ﷺ) واستقم على الدعوة كما أمرك الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ يعني جميع الكتب المنزلة، لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والحكومات ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالق الكل ومتولي أمره ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ وكلٌّ مجازى بعمله ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا حجاج، بمعنى لا خصومة، إذ الحق قد ظهر ولم يبقَ للمحاجَّة مجال ولا للخلاف مبدأ سوى العناد ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ مرجع الكل لفصل القضاء.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِىُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِى حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

(١٦) ﴿**وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ**﴾ في دينه ﴿**مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ**﴾ من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه. أو من بعد ما استجاب الله تعالى لرسوله ﷺ فأظهرَ دينه بنصره يوم بدر. أو من بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقروا بنبوته واستفتحوا به ﴿**حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ**﴾ زائلة باطلة ﴿**وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ**﴾ لمعاندتهم ﴿**وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾**﴾ على كفرهم.

(١٧) ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ جنس الكتاب ﴿**بِٱلۡحَقِّ**﴾ ملتبساً به، بعيداً من الباطل. أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام ﴿**وَٱلۡمِيزَانَۗ**﴾ والشرعَ الذي توزن به الحقوق ويسوَّى بين الناس. أو العدلَ، بأن أنزل الأمر به. أو آلةَ الوزن، بأن أوحى بإعدادها ﴿**وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾**﴾ إتيانُها، فاتبع الكتاب واعمل بالشرع وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه أعمالك وتُوَفّى جزاءَك.

(١٨) ﴿**يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ**﴾ استهزاءً ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا**﴾ خائفون منها مع اغتيابها (أي: تغيبها عن الأنظار) لتوقع الثواب ﴿**وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ**﴾ أي: الكائن لا محالة ﴿**أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ**﴾ يجادلون فيها ﴿**لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾**﴾ عن الحق، فإن البعث أشبهُ الغائبات إلى المحسوسات، فمن لم يهتدِ لتجويزها فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه.

(١٩) ﴿**ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ**﴾ بَرٌّ بهم بصنوف من البرِّ لا تبلغها الأفهام ﴿**يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ**﴾ أي: يرزقه كما يشاء، فيخصُّ كلًّا من عباده بنوع من البرِّ على ما اقتضته حكمته جلَّ وعلا ﴿**وَهُوَ ٱلۡقَوِىُّ**﴾ الباهر القدرة ﴿**ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾**﴾ المنيع الذي لا يُغلب.

(٢٠) ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ**﴾ ثوابَها. شبَّهه بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا، ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة ﴿**نَزِدۡ لَهُۥ فِى حَرۡثِهِۦۖ**﴾ فنعطِهِ بالواحد عشراً إلى سبع مئة فما فوقها ﴿**وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا**﴾ شيئاً منها على ما قسمنا له ﴿**وَمَا لَهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾**﴾ إذ الأعمال بالنيات ولكلِّ امرئ ما نوى.

(٢١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ بل أَلَهُمْ شركاء؟ وشركاؤهم شياطينهم ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ بالتزيين ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا. وقيل: شركاؤهم أوثانهم، وإسنادُ الشرع إليها لأنها سببُ ضلالتهم وافتتانِهم بما تديَّنوا به ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاءِ السابق بتأجيل الجزاء. أو العِدَةِ بأن الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ﴾ بين الكافرين والمؤمنين. أو بين المشركين وشركائهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢١﴾.

(٢٢) ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من السيئات ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ﴾ أي: وبالُهُ لاحِقٌ بهم أشفقوا أو لم يشفقوا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾ في أطيب بقاعها وأنزهها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ أي: ما يشتهونه ثابت لهم عند ربهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما للمؤمنين ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ٢٢﴾ الذي يَصْغُرُ دونه ما لغيرهم في الدنيا.

ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾

(٢٣) ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ ذلك الثواب الذي يبشرهم الله تعالى به ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على ما أتعاطاه (أي: أُباشِره) من التبليغ والبشارة ﴿أَجۡرًا﴾ نفعاً منكم ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ أن تودُّوني لقرابتي منكم. أو تودُّوا قرابتي. أو لا أسألكم أجراً قط ولكني أسألكم المودة في الْقُرْبى. أو في حق القرابة ومن أجلها. وقيل: الْقُرْبى: التقرب إلى الله تعالى، أي: إلا أن تودوا الله تعالى ورسوله ﷺ في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ﴾ ومن يكتسب طاعة، سيَّما حب آل رسول الله ﷺ. وقيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومودته لهم (أقول: ولو أنها نزلت في حقه رضي الله تعالى عنه لكنها تشمل كل المسلمين) ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: في الحسنة ﴿حُسۡنًاۚ﴾ بمضاعفة الثواب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لمن أذنب ﴿شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ لمن أطاع، بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة.

(٢٤) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ افترى محمد ﷺ بدعوى النبوة أو القرآن ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ استبعادٌ للافتراء عن مثله، بالإشعار على أنه إنما يجترئ عليه من كان مختوماً على قلبه جاهلاً بربه، فأما من كان ذا بصيرة ومعرفة فلا. وكأنه قال: إن يشأ الله تعالى خِذلانَك يختمْ على قلبك لتجترئ بالافتراء عليه (حاشاه ﷺ). وقيل: يختم على قلبك: يمسك القرآن أو الوحي عنه، أو يربط عليه بالصبر فلا يشقُّ عليك أذاهم ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ نفيٌ للافتراء عما يقوله، بأنه لو كان مفترى لَمحَقَهُ، إذ من عادته تعالى محوُ الباطل وإثبات الحق، بوحيه أو بقضائه أو بوعده، بمحو باطلهم وإثبات حقه بالقرآن، أو بقضائه الذي لا مردَّ له.

(٢٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه. وقد عرفتَ حقيقة التوبة. وعن علي رضي الله تعالى عنه: هي اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب الندامةُ، ولتضييع الفرائض الإِعادةُ، وردُّ المظالم، وإذابةُ النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقتُها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدلَ كل ضحك ضحكته ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغيرِها وكبيرِها لمن يشاء ﴿وَيَعۡلَمُ مَا

﴿تَفۡعَلُونَ ٢٥﴾ فيجازي ويتجاوز عن إتقان وحكمة.

(٢٦) ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: يستجيب الله تعالى لهم. والمراد إجابة الدعاء. أو الإثابة على الطاعة، فإنها كدعاءٍ وطلبٍ لما يترتب عليه. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أفضل الدعاء الحمد لله» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. أو يستجيبون لله تعالى بالطاعة إذا دعاهم إليها ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾ على ما سألوا واستحقوا واستوجبوا له بالاستجابة ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ٢٦﴾ بَدَلَ ما للمؤمنين من الثواب والتفضل.

(٢٧) ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتكبَّروا وأفسدوا فيها بطراً (أي: استخفافاً بالنعمة). أو لبغى بعضهم على بعض استيلاءً واستعلاءً، وهذا على الغالب ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ﴾ بتقديرٍ ﴿مَّا يَشَآءُۚ﴾ كما اقتضته مشيئته جلَّ وعلا ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ يعلم خفايا أمرهم وجلايا حالهم، فيقدِّر لهم ما يناسب شأنهم. روي أن أهل الصفة تمنَّوا الغنى فنزلت. وقيل: في العرب، كانوا إذا أخصبوا (أي: أصابهم الخصب) تحاربوا وإذا أجدبوا (أصابهم الجدب) انتجعوا (أي: تضرَّعوا).

(٢٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ المطرَ، الذي يغيثهم من الجدب، ولذلك خُصَّ بالنافع ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أيسوا منه ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ﴾ في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان ﴿وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ونشر رحمته ﴿ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾ المستحقُّ للحمد على ذلك.

(٢٩) ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنها بذاتها وصفاتها تدل على وجود صانع قادر حكيم ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ﴾ من حيٍّ. أو مما يدبُّ على الأرض ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ﴾ أي: في أي وقت يشاء ﴿قَدِيرٞ ٢٩﴾ متمكِّنٌ منه.

(٣٠) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فبسبب معاصيكم ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ من الذنوب، فلا يعاقب عليها. والآية مخصوصة بالمجرمين، فإن ما أصاب غيرهم فلأسبابٍ أُخَر؛ منها تعريضه للأجر العظيم بالصبر عليه.

(٣١) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يحرسكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾ يدفعها عنكم.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

(٣٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ كالجبال.

(٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيبقَيْنَ ثوابت على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ لكل من وَكَلَ همَّتَه وحبسَ نفسه على النظر في آيات الله تعالى والتفكر في آلائه. أو لكل مؤمن كامل الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ.

(٣٤) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أو يهلكْهُنَّ بإرسال الريح العاصفة المغرِقة. والمراد إهلاك أهلها لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ إذ المعنى: أو يرسلْها عاصفةً فيوبقْ (أي: يُهلك) ناساً بذنوبهم، ويُنْجِ ناساً على العفو عنهم.

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ نَصَبَ «يَعلمَ» نَصْبَ الواقع جواباً للأشياء الستة (وهي: الأمر والنهي والنفي والاستفهام والتمني والعرض) ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ محيدٍ (أي: مهرب) من العذاب.

(٣٦) ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تُمتَّعون به مدة حياتكم ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لخلوص نفعه ودوامه.

(٣٧) ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فيه دلالة على أنهم الأحقاء بالمغفرة حال الغضب.

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا له ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ذو شورى. لا يتفرَّدون برأي حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه، وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم في الأمور ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ في سبيل الخير.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ على ما جعله الله تعالى لهم كراهةَ التذلل، وهو وصفهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر أمهات الفضائل. وهو لا يخالف وصفهم بالغفران، فإنه يُنْبئ عن عجز المغفور، والانتصار عن مقاومة الخصم. والحلمُ على العاجز محمودٌ وعلى المتغلِّب مذموم، لأنه إجراء (أي: موافقة ومساعدة) وإغراء على البغي. ثم عقَّب وصفهم بالانتصار للمنع عن التعدي، فقال تعالى:

(٤٠) ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ وسَمَّى الثانية سَيِّئَةً للازدواج، أو لأنها تسوء من تنزل به ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين عدوِّه ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ عِدَةٌ مبهَمة تدلُّ على عِظَمِ الموعود ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ المبتدِئين بالسيئة، والمتجاوزين في الانتقام.

(٤١) ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ بعد ما ظُلِمَ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ بالمعاتبة والمعاقبة.

(٤٢) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالإِضرار. أو يطلبون ما لا يستحقونه تجبُّراً عليهم ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢﴾ على ظلمهم وبغيهم.

(٤٣) ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣﴾ أي: إن ذلك منه.

(٤٤) ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله تعالى إياه ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ حين يرونه ﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ۝٤٤﴾ هل إلى رجعة إلى الدنيا؟

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

(٤٥) ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متذلِّلين متقاصرين مما يلحقهم من الذل ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ﴾ أي: يبتدئ نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتعريض للعذاب المخلَّد ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ والقول في الدنيا، أو يقولون إذا رأوهم على تلك الحال ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ تمامُ كلامهم، أو تصديق من الله تعالى لهم.

(٤٦) ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ إلى الهدى أو النجاة.

(٤٧) ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ لا يردُّه الله تعالى بعد ما حكَمَ به. أو من قبل أن يأتي يوم من الله تعالى لا يمكن ردُّه ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ مفرٌّ ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ إنكارٌ لما اقترفتموه، لأنه مدوَّن (أي: مكتوب) في صحائف أعمالكم، تشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم.

(٤٨) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ رقيباً أو محاسباً ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ وقد بَلَّغتَ ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ﴾ أراد بالإنسان الجنس، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ بليغ الكفران، ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويعظِّمُها ولا يتأمل سببها. وهذا وإن اختص بالمجرمين جاز إسناده إلى الجنس لغلبتهم واندراجهم فيه.

(٤٩-٥٠) ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فله أن يقسم النعمة والبلية كيف يشاء ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ من غير لزوم ومجال اعتراض ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ أي: يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة؛ فيهب لبعضٍ إما صنفاً واحداً من ذَكَرٍ أو أنثى أو الصنفين جميعاً، ويُعقِّم آخرين ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ فيفعل ما يَفعل بحكمة واختيار.

(٥١) ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحَّ له ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ كلاماً خفياً يُدرَك بسرعة، لأنه تمثيل ليس في ذاته مركَّباً من حروف مقطعة تتوقف على تموجات متعاقبة، وهو ما يعمُّ المشافَهَ به كما روي في حديث

المعراج، وما وُعِدَ به في حديث الرؤية، والمهتَفَ به (بأن يُسمَع الصوت ولا يُرى الشخص) كما اتفق لموسى في طوى والطور، لكن عطف قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ عليه يَخصُّه بالأول. وقيل: المراد به الإِلهام والإِلقاء في الروع (أي: في القلب). أو الوحي المنزَّل به المَلَك إلى الرسل فيكون المراد بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ أو يرسل إليه نبياً فيبلغ وحيه كما أمره. وعلى الأول: المراد بالرسول الملَكَ الموحي إلى الرسل ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ ۝٥١﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته؛ فيكلِّم تارة بوسط (أي: بواسطة) وتارة بغير وسط، إما عياناً وإما من وراء حجاب (أقول: قال في الواضح الميسَّر: وما صحَّ لأحد من البشر أيًّا كان أن يكلِّمه الله تعالى إلا بطريق الوحي في المنام، أو بالإلهام، أو يكلِّمه من وراء حجاب كما كلَّم موسى عليه الصلاة والسلام، أو يرسل إليه ملَكاً فيبلِّغه الوحي كما هو الغالب من إرسال جبريل إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: لأنه سبحانه متعالٍ عن صفات المخلوقين، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواطنها؛ فهذه طرق ثلاثة للوحي:

١- إما بواسطة الإلهام.

٢- أو يُسمعه الكلام من وراء الحجاب.

٣- أو بواسطة جبريل عليه السلام).

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سُورَةُ الزُّخْرُفِ (٤٣) (٨٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

(٥٢) ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ**﴾ يعني ما أوحي إليه. وسَمَّاه روحاً لأن القلوب تحيا به. وقيل: جبريل عليه السلام، والمعنى أرسلناه إليك بالوحي ﴿**مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ**﴾ أي: قبل الوحي. وهو دليل على أنه لم يكن متعبَّداً قبل النبوة بشرع. وقيل: المراد هو الإيمان بما لا طريق إليه إلا السمع ﴿**وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ**﴾ أي: الروح أو الكتاب أو الإيمان ﴿**نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ**﴾ بالتوفيق للقبول والنظر فيه ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾**﴾ هو الإسلام.

(٥٣) ﴿**صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ**﴾ خَلقاً ومُلكاً ﴿**أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾**﴾ بارتفاع الوسائط والتعلقات. وفيه وعد ووعيد للمطيعين والمجرمين.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الشورى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزخرف

مكيَّة، وقيل: إلا قوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلِنَا﴾ وآيُها خمس وسبعون آية

(١-٣) ﴿**حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا**﴾ أقسَمَ بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً. وهو من البدائع، لتناسب القسَمِ والمُقسَمِ عليه. ولعل إقسام الله تعالى بالأشياء استشهادٌ بما فيها من الدلالة على المقسَم عليه. وإقسامه بالقرآن من حيث إنه معجزٌ عظيم مبيِّنٌ لطرق الهدى وما يُحتاج إليه في الديانة، أو بيَّن للعرب ما يدل على أنه تعالى صيَّره كذلك ﴿**لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾**﴾ لكي تفهموا معانيه.

(٤) ﴿**وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ**﴾ في اللوح المحفوظ (أو في علم الله تعالى الأزليِّ) فإنه أصل الكتب السماوية ﴿**لَدَيْنَا**﴾ محفوظاً عندنا عن التغيير ﴿**لَعَلِىٌّ**﴾ رفيع الشأن في الكتب، لكونه معجزاً من بينها ﴿**حَكِيمٌ ﴿٤﴾**﴾ ذو حكمة بالغة، أو مُحْكَمٍ لا ينسخه غيره.

(٥) ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أفنذوده ونبعده عنكم إعراضاً. أي: أنهملكم فنضرب عَنْكُمُ الذِّكْرَ. والمراد إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه ﴿أَن كُنتُمْ﴾ أي: لأن كنتم ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإِعراض عنهم.

(٦) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ (أي: كثيراً من الرسل أرسلنا إلى مَنْ تَقَدَّمَكَ [النسفي]).

(٧) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

(٨) ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: من القوم المسرفين ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ وسلَفَ في القرآن قصتهم العجيبة. وفيه وعدٌ للرسول عليه الصلاة والسلام ووعيدٌ لهم بمثل ما جرى على الأولين.

(٩) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ لعلَّه لازمُ مقولهم، أو ما دلَّ عليه إجمالاً، أُقيمَ مقامه تقريراً لإِلزام الحجة عليهم. فكأنهم قالوا: «الله» كما حكي عنهم في مواضع أخر، وهو الذي من صفته ما سرد من الصفات.

(١٠) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فتستقرون فيها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم، أو إلى حكمة الصانع جل وعلا بالنظر في ذلك.

وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

(١١) ﴿**وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ**﴾ بمقدار ينفع ولا يضرُّ ﴿**فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا**﴾ زال عنها النماء (يعني أن البلدة الميتة من قبيل التشبيه البليغ، شُبِّهت البلدة التي زال عنها النماء بالجسد الذي زالت الحياة عنه [شيخ زاده]) ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ مثل ذلك الإنشار ﴿**تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾**﴾ تُنشَرون من قبوركم.

(١٢) ﴿**وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا**﴾ أصناف المخلوقات ﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾**﴾ ما تركبونه.

(١٣ـ١٤) ﴿**لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ**﴾ أي: ظهور ما تركبون ﴿**ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**﴾ تذكروها بقلوبكم معترفين بها حامدين عليها ﴿**وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾**﴾ مطيقين. وعنه عليه الصلاة والسلام «أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال، سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا إلى قوله: ﴿**وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾**﴾» أي: راجعون [الحديث أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]. واتصاله بذلك لأن الركوب للتنقل، والنقلة العظمى هو الانقلاب إلى الله تعالى. أو لأنه مُخطِر (أي: موقع في خطر الهلاك)، فينبغي للراكب أن لا يغفل عنه ويستعدَّ للقاء الله تعالى.

(١٥) ﴿**وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا**﴾ أي: وقد جعلوا له بعد ذلك الاعتراف من عباده ولداً، فقالوا: الملائكة بنات الله، ولعله سَمّاه جزءاً كما سُمِّي بعضاً لأنه بضعةٌ من الوالد، دلالة على استحالته على الواحد الحق في ذاته جلَّ وعلا ﴿**إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾**﴾ ظاهر الكفران. ومن ذلك نسبةُ الولد إلى الله تعالى، لأنها من فرط الجهل به والتحقير لشأنه.

(١٦) ﴿**أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾**﴾ إنكارٌ وتعجبٌ من شأنهم، حيث لم يقنعوا بأن جعلوا له جزءاً حتى جعلوا له من مخلوقاته أجزاء أخسَّ مما اختير لهم وأبغض الأشياء إليهم، بحيث إذا بُشِّرَ أحدهم بها اشتدَّ غمُّه به، كما قال تعالى:

(١٧) ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا**﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً، إذ الولد لا بد وأن يماثل

الوالد ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ صار وجهه أسود في الغاية لما يعتريه (أي: يصيبه) من الكآبة (أي: من الغمّ والحزن) ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ مملوء قلبه من الكرب. وفي ذلك دلالات على فساد ما قالوه.

(١٨) ﴿أَوَ مَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: أوَجعلوا له، أو أتخذ من يتربَّى في الزينة؛ يعني البنات ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ﴾ في المجادلة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾ مقرِّر لما يدعيه من نقصان العقل وضعف الرأي (أقول: هذه الآية تدلُّ على ضعف النساء، ولذا أحلَّ لهنَّ الزينة وحرَّمها على الرجال).

(١٩) ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ كفرٌ آخر تضمنَّه مقالهم، شنَّع (أي: قبَّح) به عليهم. وهو جعلُهم أكمل العباد وأكرمهم على الله تعالى أنقصَهم رأياً ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ أحَضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم إناثاً؟ فإن ذلك مما يُعلم بالمشاهدة. وهو تجهيل وتهكُّمٌ بهم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة ﴿وَيُسْـَٔلُونَ ١٩﴾ أي: عنها يوم القيامة. وهو وعيدٌ شديد.

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أي: لو شاء عدم عبادة الملائكة ما عبدناهم. ولذلك جهلهم فقال: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠﴾ يتمحَّلون تمحُّلاً باطلاً (أي: يحتالون ويكذبون). ويجوز أن تكون الإِشارة إلى أصل الدعوى، كأنه لما أبدى وجوه فسادها وحكى شبهتهم المزيفة نفى أن يكون لهم بها علم من طريق العقل، ثم أضرب عنه إلى إنكار أن يكون لهم سند من جهة النقل فقال تعالى:

(٢١) ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل القرآن، أو من قبل ادعائهم ينطق على صحة ما قالوه ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ٢١﴾ بذلك الكتاب متمسكون.

(٢٢) ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢﴾ أي: لا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهلة. والأُمَّة: الطريقة.

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

(٢٣) ﴿**وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾**﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وأن مقدَّميهم أيضاً لم يكن لهم سند منظور إليه. وتخصيص المترَفين إشعارٌ بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد.

(٢٤) ﴿**قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ**﴾ أي: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم. وهي حكاية أمر ماضٍ أوحي إلى النذير ﴿**قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾**﴾ أي: وإن كان أهدى؛ إقناطاً للنذير عليه الصلاة والسلام من أن ينظروا ويتفكَّروا فيه.

(٢٥) ﴿**فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ بالاستئصال ﴿**فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾**﴾ ولا تكترثْ (أي: لا تعتدَّ) بتكذيبهم.

(٢٦) ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ**﴾ واذكر وقت قوله هذا، ليروا كيف تبرَّأ من التقليد وتمسَّكَ بالدليل. أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بدٌّ من التقليد، فإنه أشرف آبائهم ﴿**لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾**﴾ بريء من عبادتكم أو معبودكم (أقول: قال الآلوسي رحمه الله تعالى: اتفق الجمُّ الغفير من أهل السنة أن آزر ليس أباه، وإنما هو عمُّه).

(٢٧) ﴿**إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى**﴾ أي: إنني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني ﴿**فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾**﴾ سيثبتني على الهداية. أو سيهديني إلى ما وراء ما هداني إليه.

(٢٨) ﴿**وَجَعَلَهَا**﴾ أي: وجعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام كلمة التوحيد ﴿**كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ**﴾ في ذرِّيته، فيكون فيهم أبداً من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيده جلَّ وعلا ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾**﴾ يرجع من أشرك بدعاء من وحَّدَ.

(٢٩) ﴿**بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ**﴾ هؤلاء المعاصرين للرسول ﷺ من قريش وآباءهم بالمدِّ في العمر والنعمة، فاغتروا لذلك وانهمكوا في الشهوات ﴿**حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ**﴾ دعوةُ التوحيد. أو القرآن ﴿**وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾**﴾ ظاهر الرسالة بما له من المعجزات. أو مُبِيِّنٌ للتوحيد بالحجج والآيات.

(٣٠) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لينبِّههم عن غفلتهم ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾ زادوا شرارة، فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به، فسَمَّوا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٣١) ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي: من إحدى القريتين؛ مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ ۝٣١﴾ بالجاه والمال؛ كالوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، فإن الرسالة منصبٌ عظيم لا يليق إلا بعظيم. ولم يعلموا أنها رتبة روحانية تستدعي عِظَمَ النفس بالتحلي بالفضائل والكمالات القدسية، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية.

(٣٢) ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكارٌ فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم. والمراد بالرحمة النبوة ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم عاجزون عن تدبيرها، وهي خويصة (تصغير خاصة) أمرهم في دنياهم، فمن أين لهم أن يدبِّروا أمر النبوة التي هي أعلى المراتب الإنسية؟ وإطلاقُ المعيشة يقتضي أن يكون حلالها وحرامها من الله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ وأوقعنا بينهم التفاوت في الرزق وغيره ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليستعمل بعضهم بعضاً في حوائجهم، فيحصل بينهم تآلف وتضامٌّ ينتظم بذلك نظام العالم، لا لكمالٍ في الموسَّع ولا لنقصٍ في المقتَّر. ثم إنه لا اعتراض لهم علينا في ذلك ولا تصرف، فكيف يكون فيما هو أعلى منه؟ ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني هذه النبوة وما يتبعها ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ من حطام الدنيا.

(٣٣) ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لولا أن يرغبوا في الكفر إذا رأوا الكفار في سَعة وتنعُّمٍ لِحُبِّهم الدنيا فيجتمعوا عليه ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ ومصاعدَ ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣﴾ يعلون السطوح، لحقارة الدنيا.

وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾

(٣٤) ﴿**وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾**﴾ أي: أبواباً وسرراً من فضة.

(٣٥) ﴿**وَزُخۡرُفٗاۚ**﴾ وزينة أو ذهباً ﴿**وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾**﴾ الكفرَ والمعاصي. وفيه دلالة على أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا، وإشعارٌ بما لأجله لم يجعل ذلك للمؤمنين حتى يجتمع الناس على الإيمان، وهو أنه تمتُّعٌ قليل بالإضافة إلى ما لهم في الآخرة مخلٌّ به في الأغلب، لما فيه من الآفات قلَّ من يتخلَّص منها (أقول: قلَّ من يتخلَّص من الدنيا حتى يستكسب الآخرة).

(٣٦) ﴿**وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ**﴾ يتعامَ ويُعرِضْ عنه لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات ﴿**نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾**﴾ يوسوسه ويغويه دائماً.

(٣٧) ﴿**وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ**﴾ عن الطريق الذي من حقه أن يُسلك ﴿**وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾**﴾.

(٣٨) ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا**﴾ أي: العاشي (المتعامي) ﴿**قَالَ**﴾ أي: العاشي للشيطان: ﴿**يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ**﴾ بُعدَ المشرق من المغرب ﴿**فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾**﴾ أنت.

(٣٩) ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ**﴾ أي: ما أنتم عليه من التمني ﴿**إِذ ظَّلَمۡتُمۡ**﴾ إذ صح أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا ﴿**أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾**﴾ لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وشياطينكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه.

(٤٠) ﴿**أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ**﴾ إنكارُ تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم بعد تمرُّنهم على الكفر واستغراقهم في الضلال بحيث صار عشاهم عمى مقروناً بالصمم ﴿**وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾**﴾ فيه إشعار بأن الموجب لذلك تمكنهم في ضلال لا يخفى.

(٤١) ﴿**فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ**﴾ أي: فإن قبضناك قبل أن نبصِّرك عذابهم ﴿**فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾**﴾ بعذاب في الدنيا والآخرة.

(٤٢) ﴿**أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ**﴾ أو إن أردنا أن نريك ما وعدناهم من العذاب ﴿**فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾**﴾ لا يفوتوننا.

(٤٣) ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ من الآيات والشرائع ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ لا عوج له.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ لشرف لك ﴿وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: عنه يوم القيامة، وعن قيامكم بحقه.

(٤٥) ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي: واسأل أممهم وعلماء دينهم ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ هل حكمنا بعبادة الأوثان؟ وهل جاءت في ملة من مللهم؟ والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والدلالة على أنه ليس ببِدْع (أي: ليس بغريب) ابتدعه فيُكذَّب ويعادى له، فإنه كان أقوى ما حملهم على التكذيب والمخالفة.

(٤٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ يريد باقتصاصه تسلية رسول الله ﷺ ومناقضة قولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. والاستشهاد بدعوة موسى عليه الصلاة والسلام إلى التوحيد ليتأملوا فيها.

(٤٧) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: استهزؤوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

(٤٨) ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ إلا هي بالغة أقصى درجات الإعجاز، بحيث يحسب الناظر فيها أنها أكبر مما يقاس إليها من الآيات. والمراد وصف الكل بالكبر. أو إلَّا وهي مختصة بنوع من الإعجاز، مفضَّلة على غيرها بذلك الاعتبار ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالسنين والطوفان والجراد ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ على وجه يرجى رجوعهم.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادَوه بذلك في تلك الحال لشدة شكيمتهم (أي: عنادهم) وفرط حماقتهم. أو لأنهم كانوا يُسمُّون العالم الماهر ساحراً ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي: لِتدعُ لنا فيكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك من النبوة. أو من أن يستجيب دعوتك. أو أن يكشف العذاب عمن اهتدى. أو بما عَهِدَ عِنْدَكَ فوفيت به وهو الإيمان والطاعة ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ بشرط أن تدعو لنا.

(٥٠) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فاجؤوا نكث عهدهم بالاهتداء.

(٥١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه أو بمناديه ﴿فِى قَوْمِهِۦ﴾ في مجمعهم. أو فيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمن بعضهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار النيل ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ تحت قصري أو أمري. أو بين يديَّ في جناتي ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ ذلك.

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير لا يستعد للرئاسة ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ الكلامَ، لما به من الرِّتة (أي: العقدة الحاصلة في اللسان) فكيف يصلح للرسالة؟ والمعنى: أفلا تبصرون؟ أم تبصرون فتعلمون أني خير منه.

(٥٣) ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: فهلا ألقي عليه مقاليد المُلْك إن كان صادقاً. إذ كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه وطوَّقوه بسوار وطوق من ذهب ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ مقرونين به، يعينونه أو يصدِّقونه.

(٥٤) ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فطلب منهم الخفَّة في مطاوعته، أو فاستخفَّ أحلامهم (أي: عقولهم) ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق.

(٥٥) ﴿**فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا**﴾ أغضبونا بالإفراط في العناد والعصيان ﴿**ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥**﴾ في اليمِّ.

(٥٦) ﴿**فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا**﴾ قدوةً لمن بعدهم من الكفار، يقتدون به في استحقاق مثل عقابهم ﴿**وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦**﴾ وعظةً لهم. أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال، فيقال لهم: مَثَلُكم مَثَلُ قوم فرعون.

(٥٧) ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا**﴾ أي: ضربه ابن الزبعري لما جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. أو غيره بأن قال: النصارى أهل كتاب وهم يعبدون عيسى عليه الصلاة والسلام ويزعمون أنه ابن الله، والملائكة أولى بذلك. أو على قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا﴾ [الزخرف: ٤٥]. أو أن محمداً عليه الصلاة والسلام يريد أن نعبده كما عُبد المسيح ﴿**إِذَا قَوْمُكَ**﴾ قريش ﴿**مِنْهُ**﴾ من هذا المثل ﴿**يَصِدُّونَ ۝٥٧**﴾ يضجُّون فرحاً لظنهم أن الرسول ﷺ صار ملزَماً به.

(٥٨) ﴿**وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ**﴾ أي: آلهتنا خير عندك أم عيسى عليه الصلاة والسلام؟ فإن كان في النار فلتكن آلهتنا معه. أو آلهتنا الملائكة خير أم عيسى عليه الصلاة والسلام؟ فإذا جاز أن يعبد ويكون ابن الله تعالى كانت آلهتنا أولى بذلك. أو آلهتنا خير أم محمد ﷺ؟ فنعبده وندع آلهتنا ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا**﴾ ما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل والخصومة، لا لتمييز الحق من الباطل ﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨**﴾ شداد الخصومة، حراص على اللَّجاج (أي: التمادي في الخصومة).

(٥٩) ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ**﴾ بالنبوة ﴿**وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا**﴾ أمراً عجيباً كالمثل السائر ﴿**لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩**﴾ وهو كالجواب المزيح لتلك الشبهة.

(٦٠) ﴿**وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم**﴾ لولَّدنا منكم يا رجالُ كما ولَّدنا عيسى من غير أب. أو لجعلنا بدلكم ﴿**مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠**﴾ ملائكة يخلفونكم في الأرض. والمعنى أن حال عيسى عليه الصلاة والسلام وإن كانت عجيبة فالله تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك، وأن الملائكة مثلكم من حيث أنها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليداً كما جاز خلقها إبداعاً، فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله سبحانه وتعالى؟

وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾

(٦١) ﴿**وَإِنَّهُۥ**﴾ وإن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿**لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ**﴾ لأن حدوثه أو نزوله من أشراط الساعة يُعلم به دنوُّها. أو لأن احياء الموتى يدل على قدرة الله تعالى عليه. وقيل: الضمير للقرآن، فإن فيه الإعلام بالساعة والدلالة عليها ﴿**فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا**﴾ فلا تشكُّنَّ فيها ﴿**وَٱتَّبِعُونِۚ**﴾ واتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي. وقيل: هو قول الرسول ﷺ أُمِر أن يقوله ﴿**هَٰذَا**﴾ الذي أدعوكم إليه ﴿**صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾**﴾ لا يضل سالكه.

(٦٢) ﴿**وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ**﴾ عن المتابعة ﴿**إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٢﴾**﴾ ثابت عداوته، بأن أخرجكم عن الجنة وعرضكم للبلية.

(٦٣) ﴿**وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ**﴾ بالمعجزات. أو بآيات الإِنجيل. أو بالشرائع الواضحات ﴿**قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ**﴾ بالإنجيل، أو بالشريعة ﴿**وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ**﴾ وهو ما يكون من أمر الدين، لا ما يتعلق بأمر الدنيا، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يبعثوا لبيانه ﴿**فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾**﴾ فيما أبلغه عنه جل وعلا.

(٦٤) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ**﴾ بيانٌ لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿**هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾**﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين، وهو تتمة كلام عيسى عليه الصلاة والسلام، أو استئناف من الله تعالى يدل على ما هو المقتضي للطاعة في ذلك.

(٦٥) ﴿**فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ**﴾ الفِرَقُ المتحزِّبة ﴿**مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ**﴾ من بين النصارى. أو اليهود والنصارى من بين قومه المبعوث هو إليهم ﴿**فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ**﴾ من المتحزِّبين ﴿**مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾**﴾ هو القيامة.

(٦٦) ﴿**هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ**﴾ الضمير لقريش أو لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿**أَن تَأۡتِيَهُم**﴾ أي: هل ينظرون إلا إتيان الساعة ﴿**بَغۡتَةٗ**﴾ فجأة ﴿**وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾**﴾ غَافِلُونَ عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا وإنكارهم لها؟

(٦٧) ﴿**ٱلۡأَخِلَّآءُ**﴾ الأحبَّاء ﴿**يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ**﴾ أي: يتعادون يومئذ لانقطاع العُلَق (أي: العلاقة) لظهور ما كانوا يتخالُّون (أي: يتحابُّون) له سبباً للعذاب ﴿**إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾**﴾ فإنَّ خلتَّهم لما كانت في الله تعالى تبقى نافعة أبد الآباد (أقول: علينا أن نكون من هؤلاء، فالله تعالى أعطانا العقل وأنزل القرآن وأرسل

محمداً المصطفى عليه الصلاة والسلام، لكن بسبب غفلتنا عن الرب جل وعلا ضعفت هذه الخلَّة فيما بيننا).

(٦٨) ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٨﴾ حكايةٌ لما ينادى به المتقون المتحابُّون في الله تعالى يومئذ.

(٦٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صفة للمنادى ﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٦٩﴾ أي: مخلصين.

(٧٠) ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ نساؤكم المؤمنات ﴿تُحۡبَرُونَ ۝٧٠﴾ تسرُّون سروراً يظهر أثره على وجوهكم، أو تكرمون إكراماً يبالغ فيه.

(٧١) ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ الصحاف: جمع صحفة، والأكواب: جمع كوب، وهو كوز لاعروة له ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنة ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ بمشاهدته. وذلك تعميم بعد تخصيص ما يُعَدُّ من الزوائد في التنعم والتلذذ ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١﴾ فإن كل نعيم زائلٍ موجبٌ لكلفة (أي: لمشقة) الحفظ وخوف الزوال ومستعقب للتحسر.

(٧٢) ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧٢﴾ شبَّه جزاء العمل بالميراث، لأنه يخلفه عليه العامل.

(٧٣) ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٧٣﴾ بعضَها تأكلون، لكثرتها ودوام نوعها. ولعل تفصيل التنعم بالمطاعم والملابس وتكريره في القرآن وهو حقير بالإضافة إلى سائر نعائم الجنة لِما كان بهم من الشدة والفاقة (في الدنيا).

إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾

(٧٤) ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الكاملين في الإِجرام، وهم الكفار ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

(٧٥) ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ لا يخفف عنهم ﴿وَهُمۡ فِيهِ﴾ في العذاب ﴿مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ آيسون من النجاة.

(٧٦) ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ (بالعذاب) ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (لتعريض أنفسهم للعذاب الخالد [المقتطف]).

(٧٧) ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ والمعنى: سلْ ربنا أن يقضي علينا. وهو لا ينافي إبلاسهم (أي: يأسهم) فإنه جؤار (أي: رفع الصوت بالتضرُّع) وتمنٍّ للموت من فرط الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ لا خلاص لكم بموت ولا بغيره.

(٧٨) ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ بالإِرسال والإِنزال. فكأنه تعالى تولى جوابهم بعد جواب مالك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ لما في اتباعه من إتعاب النفس وإدآب (أي: إتعاب) الجوارح.

(٧٩) ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾ في تكذيب الحق وردِّه ولم يقتصروا على كراهته ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أمراً في مجازاتهم. أو أم أحكم المشركون أمراً من كيدهم بالرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ كيدنا بهم. ويؤيده قوله:

(٨٠) ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ﴾ حديثَ أنفسهم بذلك ﴿وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ وتناجيهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ والحفظة مع ذلك ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾ ملازمة لهم ﴿يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ذلك.

(٨١) ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ منكم. فإن النبي ﷺ يكون أعلم بالله تعالى وبما يصحُّ له وبما لا يصحُّ، وأولى بتعظيم ما يوجب تعظيمه، ومِنْ تعظيم الوالد تعظيم ولده، ولا يلزم من ذلك صحة كينونة الولد وعبادته له، إذ المحال قد يستلزم المحال، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] (أقول: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ﴾: هذا مستحيل، ﴿فَأَنَا۠﴾ أعبده وأقوم بأمره ﴿أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾: أي: المعظِّمين له إكراماً لوالده، لكن المقدَّم باطل بداهة واستدلالاً [أبدع البيان لجميع أي القرآن]).

(٨٢) ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢﴾ عن كونه ذا ولد.

(٨٣) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٨٣﴾ أي: يوم القيامة. وهو دلالة على أن قولهم هذا جهل واتباع هوى، وأنهم مطبوع على قلوبهم معذبون في الآخرة.

(٨٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ مستحِقٌّ لأن يُعبد فيهما ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٤﴾ كالدليل عليه.

(٨٥) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ للجزاء.

(٨٦) ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ بالتوحيد.

(٨٧) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ سألت العابدين أو المعبودين ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ يُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره.

(٨٨) ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ وقول الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾.

(٨٩) ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن دعوتهم آيساً من إيمانهم ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ تسلُّمٌ منكم ومتارِكةٌ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ تسليةٌ للرسول عليه الصلاة والسلام وتهديد لهم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الزخرف وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الدخان

مكيَّة، إلا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ وهي تسع وخمسون آية

سُورَةُ الدُّخَانِ (٤٤) (٥٩)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾

(١ـ٢) ﴿حمٓ ① وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ②﴾ الواو للقسَم. والكتاب المبين: القرآن.

(٣) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ في ليلة القدر أو البراءة (أقول: وهي ليلة النصف من شعبان على اختلاف بين العلماء). ابتُدِئ فيها إنزاله. أو أُنزِل فيها جملة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم أُنزِل على الرسول ﷺ نجوماً. وبركتُها لذلك؛ فإن نزول القرآن سبب للمنافع الدينية والدنيوية، أو لما فيها من نزول الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وقَسْمِ النعمة وفَصْلِ الأقضية ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③﴾ هو المقتضي للإنزال.

(٤) ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ④﴾ فَإِنَّ كونها مفرق الأمور المحكمة استدعى أن ينزل فيها القرآن الذي هو من عظائمها. ويجوز أن يكون في ذلك دلالة على أن الليلة ليلة القدر، لقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

(٥) ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ أي: حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا. وهو مزيد تفخيم للأمر ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ⑤﴾.

(٦) ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ أي: إنا أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل الرحمة عليهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ⑥﴾ يسمع أقوال العباد ويعلم أحوالهم. وهو بما بعده تحقيق لربوبيته، فإنها لا تحق إلا لمن هذه صفاته جل وعلا.

(٧) ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦﴾ أي: إن كنتم من أهل الإيقان في العلوم. أو كنتم موقنين في إقراركم إذا سُئلتم: من خلقها؟ فقلتم الله، علمتم أن الأمر كما قلنا.

(٨) ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه سبحانه وتعالى ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ كما تشاهدون ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ⑧﴾.

(٩) ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩﴾ ردٌّ لكونهم موقنين.

(١٠) ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ فانتظر لهم ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾ (قال النسفي في المدارك: قيل: إن قريشاً لمّا استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيَف، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان، وكان يحدِّث الرجلَ فيسمع صوته ولا يراه من الدخان) أو يوم ظهور الدخان المعدود من أشراط الساعة، أو يوم القيامة.

(١١) ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ يحيط بهم ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١﴾. يقولون:

(١٢) ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢﴾ وهو وعدٌ بالإيمان إن كشف العذاب عنهم.

(١٣) ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ من أين لهم وكيف يتذكرون بهذه الحالة؟ ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣﴾ بيَّن لهم ما هو أعظم منها في إيجاب الإذكار من الآيات والمعجزات.

(١٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤﴾ أي: قال بعضهم: يعلِّمه غلامٌ أعجميٌّ لبعضِ ثقيفٍ، وقال آخرون: إنه مَجْنُونٌ.

(١٥) ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾ بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام، فإنه لمّا دعا رُفع القحط ﴿قَلِيلًاۚ﴾ أي: زماناً قليلاً ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾ إلى الكفر غِبَّ الكشف (أي: عقب كشف العذاب). ومَن فسَّر الدخان بما هو من الأشراط قال: إذا جاء الدخان غوَّث الكفار بالدعاء (أي: صاحوا ونادَوا طلباً للغوث)، فيكشفه الله تعالى عنهم بعد أربعين، فريثما يكشفه عنهم يرتدُّون.

(١٦) ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ يوم القيامة. أو يوم بدر (والبطش: الأخذ بشدة) ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾ أي: نجعل البطشة الكبرى باطشة بهم. أو نحمل الملائكة على بطشهم؛ وهو التناول بِصَولة (أي: بِسَطوة).

(١٧) ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ امتحنَّاهم بإرسال موسى عليه الصلاة والسلام إليهم. أو أوقعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ۝١٧﴾ على الله تعالى، أو على المؤمنين، أو في نفسه لشرف نسبه وفضل حسبه.

(١٨) ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ بأن أدُّوهم إليَّ وأرسلوهم معي. أو بأن أدُّوا إليَّ حق الله تعالى من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله تعالى ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٨﴾ غيرُ متَّهَم، لدلالة المعجزات على صدقه، أو لائتمان الله تعالى إياه على وحيه.

وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ٢٢ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ٣٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ٣٤ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٦ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٣٧ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩

(١٩) ﴿**وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ**﴾ ولا تتكبَّروا عليه بالاستهانة بوحيه ورسوله ﷺ ﴿**إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩**﴾ (أي: بحجة واضحة).

(٢٠) ﴿**وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ**﴾ التجأتُ إليه وتوكلت عليه ﴿**أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠**﴾ أن تؤذوني ضرباً أو شتماً، أو أن تقتلوني.

(٢١) ﴿**وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ٢١**﴾ فكونوا بمعزل مني، لا عليَّ ولا لِيَ، ولا تتعرَّضوا إليَّ بسوء فإنه ليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحُكُمْ.

(٢٢) ﴿**فَدَعَا رَبَّهُۥٓ**﴾ بعد ما كذبوه ﴿**أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ٢٢**﴾ وهو تعريضٌ بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به، ولذلك سماه دعاء.

(٢٣) ﴿**فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا**﴾ أي: فقال: أَسْرِ ﴿**إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣**﴾ يتَّبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم.

(٢٤) ﴿**وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ**﴾ مفتوحاً ذا فجوة (أي: فرجة) واسعة. أو ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته، ولا تضربه بعصاك، ولا تغيِّر منه شيئاً ليدخله القبط ﴿**إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤**﴾.

(٢٥ـ٢٦) ﴿**كَمۡ تَرَكُواْ**﴾ كثيراً تركوا ﴿**مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦**﴾ محافِل مزيَّنة ومنازلَ حسنة (والمحافل: جمع محفل، وهو مكان الاحتفال).

(٢٧) ﴿**وَنَعۡمَةٖ**﴾ وتنعُّم ﴿**كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧**﴾ متنعِّمين.

(٢٨) ﴿**كَذَٰلِكَۖ**﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ﴿**وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨**﴾ ليسوا منهم في شيء؛ وهم بنو إسرائيل، وقيل: غيرهم؛ لأنهم لم يعودوا إلى مصر.

(٢٩) ﴿**فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ**﴾ مجازٌ عن عدم الاكتراث (أي: عدم الاعتبار) بهلاكهم والاعتداد بوجودهم. وقيل: تقديرُه: فما بكت عليهم أهل السماء والأرض ﴿**وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩**﴾ ممهلين إلى وقت آخر.

(٣٠) ﴿**وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٣٠**﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءَهم.

(٣١) ﴿**مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا**﴾ متكبراً ﴿**مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١**﴾ في العتوِّ والشرارة.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ﴾ اخترنا بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالِمين بأنهم أحقَّاء بذلك. أو مع علمٍ منا بأنهم يَزيغون في بَعض الأحوال ﴿عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ لكثرة الأنبياء فيهم. أو على عالمي زمانهم.

(٣٣) ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى ﴿مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ نعمةٌ جليَّة. أو اختبارٌ ظاهرٌ.

(٣٤) ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار قريش. لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلُهُم في الإِصرار على الضلالة، والإِنذارِ عن مثل ما حلَّ بهم ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

(٣٥) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المُزيلة للحياة الدنيوية ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ بمبعوثين.

(٣٦) ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطابٌ لمن وَعَدَهم بالنشور من الرسول والمؤمنين ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ في وعدكم ليدلَّ عليه.

(٣٧) ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والمنعة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ تبَّع الحِمْيَري، الذي سار بالجيوش وحيَّر الحيرة (أي: بناها) وبنى سمرقند. وقيل: هدمها، وكان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمَّهم دونه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ بيانٌ للجامع المقتضي للإهلاك.

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ لاهين. وهو دليل على صحة الحشر.

(٣٩) ﴿مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا بسبب الحق الذي اقتضاه الدليل من الإِيمان والطاعة. أو البعث والجزاء ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ لقلَّة نظرهم.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

٤٥ سُورَةُ الجَاثِيَةِ ٣٧

(٤٠) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ فصلِ الحق عن الباطل، أو المحقِّ عن المبطل بالجزاء. أو فصلِ الرجل عن أقاربه وأحبَّائه ﴿مِيقَـٰتُهُمْ﴾ وقتُ موعِدهم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

(٤١) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ (والمولى: هو القريب أو الصاحب).

(٤٢) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ﴾ بالعفوِ عنه وقبول الشفاعة فيه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ لا يُنصَر منه مَنْ أراد تعذيبه ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ لمن أراد أن يرحمه.

(٤٣) ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ (ومعنى الزقوم شجرةٌ ثمرها نُزُلُ (أي: ضيافة) أهل النار. والزقوم هو: اسم شجرة صغيرة الورق دَفِرة (أي: منتنة) مُرَّة).

(٤٤) ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ الكثيرِ الآثام، والمرادُ به الكافر.

(٤٥) ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو ما يُمهل في النار حتى يذوب. وقيل: دَرْدِيُّ الزيت (وهو عَكَرُه) ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

(٤٦) ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ (وهو الماء الحار).

(٤٧) ﴿خُذُوهُ﴾ أي: يقال للزبانية: خذوه ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ فجُرُّوه ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ وسطِه.

(٤٨) ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ أي: يُصبُّ من فوق رؤوسهم عذاب هو الحميم.

(٤٩) ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: قولوا له ذلكَ استهزاءً به وتقريعاً على ما كان يزعمه. (أقول: بعض المفسرين يقولون إن هذه الآية خاصة بأبي جهل وأمثاله. قال الخازن: وذلك أن أبا جهل كان يقول: أنا أعز أهل الوادي وأكرمهم فيقول له خزنة النار هذا على طريق الاستخفاف والتوبيخ).

(٥٠) ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ إنَّ هذا العذاب ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ تشكُّون. أو تمارون فيه.

(٥١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ﴾ في موضع إقامةٍ ﴿أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ يأمَنُ صاحبُه عن الآفة والانتقال.

(٥٢) ﴿فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ للدلالة على نزاهته واشتماله على ما يُستلذُّ به من المآكل والمشارب.

(٥٣) ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ والسندس: ما رَقَّ من الحرير، والإستبرق: ما غلُظ منه ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾ في مجالسهم، ليستأنس بعضهم ببعض.

(٥٤) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر كذلك ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ قرنَّاهم بهنَّ. والحوراء: البيضاء. والعيناءُ: عظيمة العينين. واختلف في أنهنَّ نساء الدنيا أو غيرهنَّ (أقول: الأصحُّ أن نساء الدنيا أفضل من الحور العين إذا كنَّ صالحات في الدنيا وأُدخلن الجنة).

(٥٥) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه، لا يتخصص شيء منها بمكان ولا بزمان ﴿ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ من الضرر.

(٥٦) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بل يَحْيَون فيها دائماً. والضمير للآخرة، والْمَوْتُ أولُ أحوالها. أو للجنة، والمؤمن يشارفها بالموت ويشاهدها عنده فكأنه فيها ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾.

(٥٧) ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أُعْطوا كلَّ ذلك عطاءً وتفضلاً منه جل وعلا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾ لأنه خلاصٌ عن المكاره وفوزٌ بالمطالب.

(٥٨) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ سهَّلناه حيث أنزلناه بلغتك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ لعلهم يفهمونه فيتذكرون به ما لم يتذكروا.

(٥٩) ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحلُّ بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾ منتظِرون ما يحلُّ بك.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الدخان

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

مكيَّة، وآيُها سبع وثلاثون آية

(١ـ٢) ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ (في انتقامه) ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ (في تدبيره [النسفي]).

(٣) ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ وهو يَحتمل أن يكون على ظاهره، وأن يكون المعنى: إن في خَلْقِ السموات، لقوله تعالى:

(٤) ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ فإن بثه وتنوُّعَه واستجماعَه لما به يتمُّ معاشه إلى غير ذلك دلائلُ على وجود الصانع المختار جل وعلا ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

(٥) ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ من مطرٍ. وسَمَّاه رزقاً لأنه سببه ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باختلاف جهاتها وأحوالها ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

(٦) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: تلك الآيات دلائلُه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبسين به ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: بعد آيات اللهِ تعالى، أو بعد حديث الله تعالى، وهو القرآن.

(٧) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ كثير الآثام.

(٨) ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقيم على كفره ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: يُصِرُّ مثل غير السامع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ على إصراره. والبشارةُ على التهكم.

(٩) ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ وإذا بَلغه شيء من آياتنا وعَلِمَ أنه منها ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لذلك، من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزؤ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾ (مُخْزٍ).

(١٠) ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ من قُدَّامهم، لأنهم متوجِّهون إليها. أو مِنْ خلفهم، لأنها بعدَ آجالهم ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم﴾ ولا يدفع عنهم ﴿مَّا كَسَبُوا۟﴾ من الأموال والأولاد ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله تعالى ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: الأصنام ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ لا يتحمَّلونه.

(١١) ﴿هَٰذَا هُدًىۖ﴾ الإِشارة إلى القرآن (قال أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم: أي الذي ذُكِر في كتابك يا أكمل الرسل ﴿هُدًى﴾ يبيِّن طريق الهداية والرشاد لأهل العناية والتوفيق) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾ والرِجْزُ أشدُّ العذاب.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ بأن جعله أملس السطح يطفو عليه (أي: يرتفع ويعلو) ما يتخلخل كالأخشاب، ولا يمنع الغوص فيه (لاستخراج اللؤلؤ والمرجان) ﴿لِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ بتسخيره وأنتم راكبوها ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ التجارةَ والغوصَ والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾ هذه النعم.

(١٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ بأن خلقها نافعة لكم ﴿مِّنۡهُۚ﴾ أي: سخر هذه الأشياء كائنة منه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ في صنائعه تبارك وتعالى.

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾

(١٤) ﴿**قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ**﴾ أي: قل لهم: اغفروا يغفروا؛ أي: يعفوا ويصفحوا (أقول: قل يا أيها الرسول - ﷺ - لعبادي المؤمنين يعفوا ويصفحوا عن الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يعتقدون بلقاء الله تعالى وجزائه، ويتركوا جزاءهم إلى الله تعالى) ﴿**لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ**﴾ لاَ يتوقعون وقائعه بأعدائه. أو لا يأملون الأوقات التي وقَّتها الله تعالى لنصر المؤمنين وثوابهم ووعدهم بها. والآية نزلت في عمر رضي الله تعالى عنه، شتمه غفاري فهم أن يبطش به ﴿**لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤**﴾ والقوم هم المؤمنون، أو الكافرون، أو كلاهما. والكسبُ: المغفرة، أوالإساءة، أو ما يعمُّهما.

(١٥) ﴿**مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ**﴾ أي: لها ثواب العمل وعليها عقابه ﴿**ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١٥**﴾ فَيجازيكم على أعمالكم.

(١٦) ﴿**وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ التوراة ﴿**وَٱلۡحُكۡمَ**﴾ والحكمة النظرية والعملية. أو فصل الخصومات ﴿**وَٱلنُّبُوَّةَ**﴾ إذ كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثروا في غيرهم ﴿**وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ**﴾ مما أحلَّ الله تعالى من اللذائذ ﴿**وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦**﴾ (أي: عالمي زمانهم) حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم.

(١٧) ﴿**وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ**﴾ أدلَّةٍ في أمر الدين، ويندرج فيها المعجزات. وقيل: آيات من أمر النبي عليه الصلاة والسلام مبيِّنة لصدقه ﴿**فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ**﴾ في ذلك الأمر ﴿**إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ**﴾ بحقيقة الحال ﴿**بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ**﴾ عداوة وحسداً ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧**﴾ بالمؤاخذة والمجازاة.

(١٨) ﴿**ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ**﴾ طريقة ﴿**مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ**﴾ من أمر الدين (أقول: أي: ما شرعه الله تعالى لعباده من الدين) ﴿**فَٱتَّبِعۡهَا**﴾ فاتبِّع شريعتك الثابتة بالحجج ﴿**وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨**﴾ آراء الجهال التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش، قالوا له: ارجع إلى دين آبائك.

(١٩) ﴿**إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ**﴾ مما أراد بك ﴿**وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ**﴾ إذ الجنسيَّة (أي: التناسب) علةُ الانضمام، فلا تواِلهم باتِّباع أهوائهم ﴿**وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩**﴾ فوالِهِ بالتقى واتباع الشريعة.

(٢٠) ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن. أو اتباع الشريعة ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ بيِّنات تبصِّرهم وجهَ الفلاح ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وَنعمة من الله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾ يطلبون اليقين.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ معنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. والاجتراحُ: الاكتساب ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أن نصيِّرهم ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِثلَهم ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ والمعنى إنكارُ أن يكون حياتهم ومماتهم سِيَّين (أي: متساويَيْن) في البهجة والكرامة كما هو للمؤمنين. أو إنكار أن يستوُوا بعد المات في الكرامة أو تركِ المؤاخذة كما استوَوا في الرزق والصحة في الحياة ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ ساءَ حكمُهم هذا.

(٢٢) ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه دليل على الحكم السابق، من حيث أن خَلْقَ ذلك بالحقِّ المقتضي للعدل يستدعي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوتَ بين المسيء والمحسن، وإذا لم يكن في المحيا كان بعد المات ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليدلَّ بها على قدرته جل وعلا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب.

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

(٢٣) ﴿**أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ**﴾ ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى، فكأنه يعبده ﴿**وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ**﴾ وخذله ﴿**عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ عالماً بضلاله وفساد جوهر روحه ﴿**وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ**﴾ فلا يبالي بالمواعظ ولا يتفكر في الآيات ﴿**وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً**﴾ فلا ينظر بعين الاستبصار والاعتبار ﴿**فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ**﴾ من بعد إضلاله ﴿**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾**﴾.

(٢٤) ﴿**وَقَالُوا۟ مَا هِىَ**﴾ ما الحياة أو الحال ﴿**إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا**﴾ التي نحن فيها ﴿**نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾ أي: نكون أمواتاً نُطَفاً وما قبلها ونحيا بعد ذلك. أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا. أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا. أو يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة. ويُحتمَل أنهم أرادوا به التناسخ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ**﴾ إلا مرورُ الزمان ﴿**وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ**﴾ يعني نسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الاستقلال. أو إنكار البعث. أو كليهما ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾**﴾ إذ لا دليل لهم عليه، وإنما قالوه بناء على التقليد والإنكار لمّا لم يُحِسُّوا به.

(٢٥) ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ**﴾ واضحاتِ الدلالة على ما يخالف معتقدهم ﴿**مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ**﴾ ما كان لهم متشبَّث (أي: ما يُتمسَّك به) يعارضونها به ﴿**إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾**﴾ وإنما سَمَّاه حجة على حسبانهم ومساقهم. فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعُه مطلقاً.

(٢٦) ﴿**قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**﴾ على ما دلَّتْ عليه الحُجج ﴿**ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾ فإنَّ مَنْ قَدَرَ على الإبداء قَدَرَعلى الإعادة، والحكمةُ اقتضت الجمع للمجازاة على ما قُرِّرَ مراراً، والوعدُ المصدَّق بالآيات دلَّ على وقوعها، وإذا كان كذلك أمكن الإتيان بآبائهم، لكن الحكمة اقتضت أن يُعادوا يوم الجمع للجزاء ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾**﴾ لِقلة تفكرهم وقصور نظرهم على ما يُحِسُّونه (أي: ما يدركونه بالحواس الظاهرة).

(٢٧) ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ**﴾ تعميمٌ للقدرة بعد تخصيصها ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾**﴾.

(٢٨) ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ مجتمعةً. أو باركةً مستوفزة على الركب (أي: قعوداً منتصباً غيرَ مطمئن هيبة واحتراماً) ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ صحيفةِ أعمالها ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٨﴾ محمولٌ على القول.

(٢٩) ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه لأنه أمرَ الكتَبَةَ أن يكتبوا فيها أعمالهم ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان (أقول: أي الذي سُجِّلت فيه أعمالكم، يشهد عليكم بالحق، لا زيادة ولا نقصان) ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ نستكتِب الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٩﴾ أعمالكم.

(٣٠) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ التي من جملتها الجنة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ٣٠﴾ الظاهرُ، لخلوصه عن الشوائب.

(٣١) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيقال لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإِيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ٣١﴾ عادتُكم الإِجرام.

(٣٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كائنٌ ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيُّ شيء الساعة؟ استغراباً لها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢﴾ أي: لإِمكانه. ولعلَّ ذلك قول بعضهم، تحيَّروا بين ما سمعوا من آبائهم وما تليت عليهم من الآيات في أمر الساعة.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

(٤٦) سُورَةُ الأَحْقَافِ (٣٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

(٣٣) ﴿**وَبَدَا لَهُمْ**﴾ ظهرَ لهم ﴿**سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ**﴾ على ما كانت عليه، بأن عرفوا قبحها وعاينوا وخامة عاقبتها أو جزاءَها ﴿**وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ وهو الجزاء.

(٣٤) ﴿**وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ**﴾ نتركهم في العذاب تركَ ما يُنسى ﴿**كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا**﴾ كما تركتم عِدَتَهُ ولم تبالوا به ﴿**وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾**﴾ يخلِّصونكم منها.

(٣٥) ﴿**ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا**﴾ استهزأتم بها، ولم تتفكروا فيها ﴿**وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا**﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿**فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾**﴾ لا يُطلَب منهم أن يُعتِبوا ربَّهم؛ أي يُرضوه لفوات أوانه.

(٣٦) ﴿**فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾**﴾ إذ الكلُّ نعمةٌ منه ودالٌّ على كمال قدرته جلَّ وعلا.

(٣٧) ﴿**وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ إذ ظهرَ فيها آثارها ﴿**وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ الذي لا يُغلب ﴿**ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾**﴾ فيما قدَّر وقضى، فاحمدوه وكبِّروه وأطيعوا له.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الجاثية

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأحقاف

مكيَّة، وآيُها خمس وثلاثون آية

(١-٣) ﴿**حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ**﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق، وهو ما تقتضيه الحكمة والمَعْدَلَةُ (أي: العدل). وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم، والبعثِ للمجازاة ﴿**وَأَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ وبتقدير أجل مسمى ينتهي إليه الكلُّ؛ وهو يوم القيامة. أو كلُّ واحد؛ وهو آخر مدة بقائه المقدَّرة له ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ**﴾ من هول ذلك الوقت ﴿**مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾**﴾ لا يتفكرون فيه، ولا يستعدُّون (أي: لا يتهيَّؤون) لحلوله.

(٤) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أخبِروني عن حال آلهتكم بعد تأمُّل فيها، هل يُعقل أن يكون لها في أنفسها مدخل في خلق شيء من أجزاء العالم فتستحق به العبادة؟ ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ من قبل هذا الكتاب؛ يعني القرآن، فإنه ناطق بالتوحيد ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأوَّلين، هل فيها ما يدل على استحقاقهم للعبادة أو الأمر به؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾ في دعواكم. وهو إلزام بعدم ما يدلُّ على ألوهيتهم بوجه ما نقلاً، بعد إلزامهم بعدم ما يقتضيها عقلاً.

(٥) ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إنكارٌ أن يكون أحدٌ أضلَّ من المشركين، حيث تركوا عبادة السميع البصير المجيب القادر الخبير إلى عبادة من لا يستجيب لهم لو سمع دعاءهم، فضلاً أن يعلم سرائرهم ويراعي مصالحهم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ما دامت الدنيا ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ لأنهم إما جمادات، وإما عباد مسخَّرون مشتغلون بأحوالهم (أقول: منهم من يعبد الصنم، ومنهم من يعبد الملائكة، والملائكة لا يشتغلون بهم، بل يشتغلون بعبادة ربهم جل وعلا).

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

(٦) ﴿**وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً**﴾ يضرُّونهم ولا ينفعونهم (أقول: أي كانت الآلهة التي عبدوها لهم أعداء) ﴿**وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾**﴾ مكذِّبين، بلسان الحال أو المقال.

(٧) ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ**﴾ واضحات، أو مبيِّنات ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ**﴾ لأجله وفي شأنه. والمراد به الآيات ﴿**لَمَّا جَآءَهُمْ**﴾ حينما جاءهم، من غير نظر وتأمل ﴿**هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾**﴾ ظاهرٌ بطلانه.

(٨) ﴿**أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ**﴾ إضرابٌ عن ذكر تسميتهم إياه سحراً إلى ذكر ما هو أشنع منه، وإنكارٌ له وتعجيبٌ ﴿**قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ**﴾ على الفرَض ﴿**فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا**﴾ أي: إن عاجلني الله تعالى بالعقوبة فلا تقدرون على دفع شيء منها، فكيف أجترئ عليه وأعرِّض نفسي للعقاب من غير توقُّع نفعٍ ولا دفعِ ضرٍّ من قِبَلِكم؟ ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ**﴾ أي: تندفعون فيه، مِنَ القدْح (أي: الطعن) في آياته ﴿**كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والإنكار. وهو وعيدٌ بجزاء إفاضتهم (أي: خوضهم)، ﴿**وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾**﴾ وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن، وإشعارٌ بحلم الله تعالى عنهم مع عِظَم جرمهم.

(٩) ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ بديعاً منهم (والبديع: المبتدَعُ الذي لا سبقَ له) أدعوكم إلى ما لا يدعون إليه، أو أقْدِر على ما لم يقدروا عليه، وهو الإتيان بالمقترحات كلها (أقول: أي قل لهم أيها الرسول: لستُ أوَّلَ رسول أرسل للناس، بل جاء قبلي رسل كثيرون، وما أنا الرسول المبتدَع الذي لا نظير له) ﴿**وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ**﴾ في الدارين على التفصيل، إذ لا علم لي بالغيب ﴿**إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ**﴾ لا أتجاوزه. وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوحَ إليه من الغيوب. أو استعجال المسلمين أن يتخلَّصوا من أذى المشركين ﴿**وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ**﴾ من عقاب الله تعالى ﴿**مُّبِينٌ ﴿٩﴾**﴾ يبيِّن الإنذار بالشواهد المبيِّنة والمعجزات المصدِّقة.

(١٠) ﴿**قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ أي: القرآن ﴿**وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ**﴾

والشاهد هو عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه. وقيل: موسى عليه الصلاة والسلام. وشهادته ما في التوراة من نعت الرسول ﷺ ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ مثل القرآن. وهو ما في التوراة من المعاني المصدِّقة للقرآن المطابقة له. أو مثل ذلك، وهو كونه من عند الله تعالى ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي: بالقرآن لمّا رآه من جنس الوحي مطابقاً للحق ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ مشعرٌ بأن كفرهم به لضلالهم المسبَّب عن ظلمهم.

(١١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأجلهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمان أو ما أتى به محمد عليه الصلاة والسلام ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾ وهم سُقَّاط (وهم الذين لا يُعبأ بهم لعدم جاههم ومالِهم وأشياعهم) إذ عامتهم فقراء وموالٍ ورُعاة. وإنما قاله قريش، وقيل: بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لمّا أسلم جهينة ومُزينة وأسلم وغفار. وقيل: اليهود حين أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه رضي الله تعالى عنهم ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١﴾ مسبَّب عنه، وهو كقولهم: أساطير الأولين.

(١٢) ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ ومِن قَبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى عليه السلام، أو لما بين يديه (من الكتب الإلهية مطلقاً [شيخ زاده]) ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ وفائدتها الإشعار بالدلالة على أن كونه مصدِّقاً للتوراة كما دلَّ على أنه حقٌّ دلَّ على أنه وحيٌ وتوقيفٌ من الله سبحانه ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢﴾.

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ جَمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامةِ في الأمور التي هي منتهى العمل. و«ثُمَّ» للدلالة على تأخُّر رتبة العمل وتوقُّف اعتباره على التوحيد ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣﴾ على فوات محبوب.

(١٤) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ من اكتساب الفضائل العلمية والعملية.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

(١٥) ﴿**وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ**﴾ أي: حَملًا ذا كُرْهٍ، وهو المشقَّة ﴿**وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ**﴾ ومدة حَمْله وفِصاله. والفصالُ: الفِطام. والمرادُ به الرضاع التام المنتهى به ﴿**ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ**﴾ كلُّ ذلك بيانٌ لما تكابده الأم (أي: تعاني شدته) في تربية الولد، مبالغةً في التوصية بها. وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه إذا حطَّ منه للفصال حولان لقوله: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بقي ذلك، وبه قال الأطباء. ولعلَّ تخصيص أقل الحمل وأكثر الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط حكم النَّسَبِ والرضاع بهما ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ**﴾ إذا اكتهل (أي: صار كهلاً) واستحكم قوته وعقله ﴿**وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً**﴾ (أقول: ولذا يقال: إن الولد يبقى محتاجاً لوالده حتى يبلغ الأربعين). قيل: لم يُبعث نبي إلا بعد الأربعين ﴿**قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ**﴾ ألهمني ﴿**أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ**﴾ يعني نعمة الدين، أو ما يعمُّها وغيرَها. وذلك يؤيده ما روي أنها نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه، لأنه لم يكن أحدٌ أسلمَ هو وأبواه من المهاجرين والأنصار سواه ﴿**وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ**﴾ نكَّرَهُ للتعظيم، أو لأنه أراد نوعاً من الجنس يستجلب رضا الله عز وجل ﴿**وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ**﴾ واجعلْ لي الصلاح سارياً في ذريَّتي راسخاً فيهم ﴿**إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ**﴾ عما لا ترضاه أو يُشغل عنك ﴿**وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾**﴾ المخلِصين لك.

(١٦) ﴿**أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟**﴾ يعني طاعاتِهم، فإن المباح حَسَنٌ ولا يُثاب عليه ﴿**وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ**﴾ لتوبتهم ﴿**فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ**﴾ كائنين في عدادهم، أو مثابين أو معدودين فيهم ﴿**وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾**﴾ أي: في الدنيا.

(١٧) ﴿**وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ**﴾ والمراد به الجنس ﴿**أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ**﴾ أُبعَث ﴿**وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى**﴾ فلم يرجع أحد منهم ﴿**وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ**﴾ يقولان: الغياث بالله تعالى منك. أو يسألانه أن يغيثه بالتوفيق للإيمان ﴿**وَيْلَكَ ءَامِنْ**﴾ أي: يقولان له وَيْلَكَ، وهو الدعاء بالثبور (أي: الهلاك) بالحث على ما يُخاف على تركه ﴿**إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾**﴾ أباطيلُهم التي كتبوها.

(١٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بأنهم أهل النار ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾.

(١٩) ﴿وَلِكُلّٖ﴾ من الفريقين ﴿دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ مراتبُ من جزاء ما عملوا من الخير والشر، أو من أجل ما عملوا. والدَرَجاتُ غالبة في المثوبة، وههنا جاءت على التغليب ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ جزاءَها ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾ بنقصِ ثوابٍ وزيادةِ عقابٍ.

(٢٠) ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يُعذَّبون بها. وقيل: تعرض النار عليهم فقُلبَ مبالغةً ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾ أي: يقال لهم: أذهبتم ﴿طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ لذَّاتكم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ باستيفائها ﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ فما بقي لكم منها شيء ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ الهوان ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾ بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله تعالى.

۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

(٢١) ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هوداً عليه الصلاة والسلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمع حِقْف؛ وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء. وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشجر من اليمن ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ الرسل عليهم السلام ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ قبل هود عليه السلام وبعده ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: بأن لا تعبدوا إلا الله تعالى، فإن النهي عن الشيء إنذار من مضرَّته ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ هائل بسبب شرككم.

(٢٢) ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب على الشرك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ في وعدك.

(٢٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا علم لي بوقت عذابكم ولا مدخل لي فيه فأستعجل به، وإنما علمه عند الله تعالى فيأتيكم به في وقته المقدَّر له ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم، وما على الرسول إلاَّ البلاغ ﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لا تعلمون أن الرسل عليهم السلام بُعثوا مبلِّغين منذِرين، لا معذِّبين مقترِحين.

(٢٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ سحاباً عَرَض في أفق السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ متوجِّهَ أوديتهم ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ﴾ أي: يأتينا بالمطر ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود عليه الصلاة والسلام ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ﴾ من العذاب ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾.

(٢٥) ﴿تُدَمِّرُ﴾ تهلك ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ من نفوسهم وأموالهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ إذ لا توجد نابضةُ حركةٍ ولا قابضةُ سكونٍ إلا بمشيئته جلَّ وعلا ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ﴾ أي: فجاءتهم الريح فدمَّرتهم، فأصبحوا بحيث لو حضرتَ بلادَهم لا ترى إلا مساكنهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾. روي أن هوداً عليه الصلاة والسلام لما أحسَّ بالريح اعتزل بالمؤمنين في الحظيرة (أي: في مكان محفوظ) وجاءت الريح فأمالت الأحقاف على الكفرة، وكانوا تحتها سبع ليالٍ وثمانية أيام، ثم كُشفت عنهم واحتملتهم فقذفتهم في البحر.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ﴾ أي: ولقد مكنَّاهم في شيء إن مكناكم فيه كان بغيُكم

أكثر ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على مانحها تعالى، ويواظبوا على شكرها ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ من الإغناء وهو القليل ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ﴾ (أي: حلَّ) ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾ من العذاب.

(٢٧) ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ كحِجْرِ ثمودٍ وقرى قوم لوط عليه السلام ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بتكريرها ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧﴾ عن كفرهم.

(٢٨) ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ فهلَّا مَنَعَتْهم من الهلاك آلهتُهم الذين يتقربون بهم إلى الله تعالى، حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله تعالى ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ﴾ غابوا عن نصرهم، وامتنع أن يستمِدُّوا بهم امتناع الاستمداد بالضالِّ ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ﴾ وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره صرفهم عن الحق ﴿وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٨﴾.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

سُورَةُ مُحَمَّدٍ (٤٧) (٣٨)

(٢٩) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أَمَلْناهُم (أي: وجَّهناهم) إليك. والنفرُ: دون العشرة ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآن، أو الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنسمعه ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أتمَّ وفرغ من قراءته ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: منذِرين إياهم بما سمعوا. روي أنهم وافَوا (أي: وجدوا) رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصَرَفه من الطائف يقرأ في تهجُّده.

(٣٠) ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قيل: إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهوداً، أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ من العقائد ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ من الشرائع.

(٣١) ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعض ذنوبكم. وهو ما يكون في خالص حق الله تعالى، فإن المظالم (بين العبد والعبد) لا تُغفَر بالإيمان ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ هو مُعَدٌّ للكفار.

(٣٢) ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذ لا يُنجي منه مَهرَب ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يمنعونه منه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه.

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ ولم يتعب ولم يعجز. والمعنى أن قدرته واجبةٌ لا تنقص ولا تنقطع بالإيجاد أبد الآباد ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولذلك أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ تقريرٌ للقدرة على وجهٍ عامٍّ يكون كالبرهان على المقصود. كأنه لمّا صَدَّرَ السورة بتحقيق المبدأ (بقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ١-٣]) أراد ختمها بإثبات المَعاد.

(٣٤) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ والإشارةُ إلى العذاب ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ بكفركم في الدنيا. ومعنى الأمر هو الإهانة بهم والتوبيخ لهم.

(٣٥) ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أولوا الثبات والجدِّ منهم فإنك من جملتهم. وأُولُوا الْعَزْمِ أصحاب الشرائع، اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمُّل مشاقِّها ومعاداة الطاعنين فيها. ومشاهيرُهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلّى الله وسلم عليهم. وقيل: الصابرون على بلاء الله تعالى: كنوح عليه السلام صبر على أذى قومه كانوا يضربونه حتى يُغشى عليه، وإبراهيم عليه السلام على النار وذبح ولده، والذبيح عليه السلام على الذبح، ويعقوب عليه السلام على فقد الولد والبصر، ويوسف عليه السلام على الجبِّ والسجن، وأيوب عليه السلام على الضُّرِّ، وموسى عليه السلام قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]، وداود عليه السلام بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى عليه السلام لم يضع لبنة على لبنة، صلى الله وسلَّم عليهم أجمعين ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ لكفار قريش بالعذاب، فإنه نازل بهم في وقته لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ استقصروا من هوله مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة ﴿بَلَٰغٌۚ﴾ هذا الذي وُعظتم به، أو هذه السورة بلاغٌ؛ أي: كفاية. أو تبليغ من الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ الخارجون عن الاتعاظ أو الطاعة.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الأحقاف وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة محمد ﷺ

وتسمَّى سورة القتال، وهي مدنيَّة، وقيل: مكيَّة، وآيها ثمان وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

(١) ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ امتنعوا عن الدخول في الإسلام وسلوك طريقه، أو منعوا الناس عنه؛ كالمُطْعِمين يوم بدر (قيل: هم ستة نفر من أغنياء قريش أطعم كل واحد منهم الجنود الذين اجتمعوا لحرب رسول الله عليه الصلاة والسلام يوماً واحداً إلى انقضاء يوم بدر، وقال مقاتل كانوا اثني عشر رجلاً. [حاشية شيخ زاده])، أو شياطين قريش، أو المصرِّين من أهل الكتاب، أو عامٌّ في جميع من كفَرَ وصَدَّ ﴿**أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ①**﴾ جعلَ مكارمهم - كصِلة الرحم وفك الأسارى وحفظ الجِوار - ضالَّة، أي: ضائعة محبَطة بالكفر، أو ضَلالاً حيث لم يقصدوا بها وجه الله تعالى. أو أبطلَ ما عملوه من الكيد لرسوله عليه الصلاة والسلام والصدِّ عن سبيله بنصر رسوله عليه الصلاة والسلام وإظهارِ دينه على الدين كله.

(٢) ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ يعمُّ المهاجرين والأنصار والذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرهم ﴿**وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ**﴾ تخصيصٌ للمنزَّل عليه ﷺ مما يجب الإيمان به تعظيماً له، وإشعاراً بأن الإيمان لا يتمُّ دونه، وأنه الأصل فيه، ولذلك أكَّده جلَّ وعلا بقوله: ﴿**وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ حقِّيته لكونه ناسخاً لا يُنسَخ ﴿**كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**﴾ سترها بالإيمان وعملِهم الصالح ﴿**وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ②**﴾ في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد.

(٣) ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاح ﴿**بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ بسبب اتباع هؤلاء الباطلَ واتباع هؤلاء الحقَّ ﴿**كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ**﴾ يبيِّن لهم ﴿**أَمْثَالَهُمْ ③**﴾ أحوالَ الفريقين، أو أحوال الناس. أو يضرب أمثالهم بأن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، والإضلالَ مثلاً لخيبتهم، واتباعَ الحق مثلاً للمؤمنين، وتكفيرَ السيئات مثلاً لفوزهم.

(٤) ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ في المحاربة ﴿**فَضَرْبَ الرِّقَابِ**﴾ أي: فاضربوا الرقابَ ضرباً. والتعبير به

عن القتل إشعارٌ بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقاب حيث أمكن، وتصويرٌ له بأشنع صورة ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ**﴾ أكثرتم قتلَهم وأغلظتموه ﴿**فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ**﴾ فأسُروهم واحفظوهم ﴿**فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً**﴾ أي: فإما تمُنُّون مَنّاً أو يُفدَون فداءً. والمراد التخيير بعد الأسر بين المَنِّ والإطلاق وبين أخذ الفداء ﴿**حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ**﴾ آلاتِها وأثقالَها التي لا تقوم إلا بها؛ كالسلاح والكراع (أي: الخيل) أي: تنقضي الحرب ولم يبقَ إلا مسْلمٌ أو مُسالم. وقيل: آثامَها، والمعنى حتى يضع أهل الحرب شِرْكَهم ومعاصيهم، وهو غاية للضرب أو الشد، أو للمن والفداء، أو للمجموع، بمعنى أن هذه الأحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم، وقيل بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿**ذَٰلِكَۖ**﴾ أي: افعلوا بهم ذلك ﴿**وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ**﴾ لانتقم منهم بالاستئصال ﴿**وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍۗ**﴾ ولكن أمَرَكم بالقتال ليبلوَ المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فيستوجبوا الثواب العظيم، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجِلهم على أيديهم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر ﴿**وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ أي: استُشهدوا ﴿**فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤**﴾ فلن يضيعها.

(٥) ﴿**سَيَهۡدِيهِمۡ**﴾ إلى الثواب. أو سيثبِّت هدايتهم ﴿**وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥**﴾ (أي: يرضي خصماءهم، ويقبل أعمالهم [السراج المنير للشربيني رحمه الله تعالى]).

(٦) ﴿**وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦**﴾ وقد عرَّفها لهم في الدنيا حتى اشتاقوا إليها فعملوا ما استحقوها به. أو بيَّنَها لهم بحيث يعلم كل واحد منزله ويهتدي إليه كأنه كان ساكنَه منذ خُلق.

(٧) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ**﴾ إن تنصروا دينه ورسوله عليه الصلاة والسلام ﴿**يَنصُرۡكُمۡ**﴾ على عدوِّكم ﴿**وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧**﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدة مع الكفار (أقول: حقوق الإسلام يجب أن تكون عند المسلم أهمَّ من روحه، أَجرِ الأحكام الشرعية على جوارحك الظاهرة والباطنة، وكن ناصراً وغالباً وقاهراً نفسك حتى يموت هواك، تكون عبداً لربك وتكون معه قالاً، وحالاً، وفعلاً، فتكون ناصراً للدين فتفيد المؤمنين بحالك، ولذا يقولون: حال رجل في ألف رجل أفضل من قال ألف رجل في رجل، لأن المسلم مُقدِم إلى الأبد، ولابد من اكتساب مؤونة الأبد، ألا وهي التقوى، كالمسافر الذي يتزود بمؤونة المال والطعام في سفره من مكان إلى آخر في دنياه، ولا تغر بهذه الحياة الفانية، واجعل دنياك مزرعة للآخرة.عليك أن تكتسب زاد الآخرة منها بالتقوى والمجاهدات، من لم يقدر أن يكون منتصراً على نفسه لا يمكن أن ينصر غيره، إذا لم ينتصر على نفسه ولم يصلحها كيف ينصر غيره؟! وبالنصرة على النفس تتحقق نصرة الدين، والإفادة لعباد الله تعالى، أي: من استطاع أن ينتصر على نفسه، ويصلحها يمكن له أن ينصر دين الله تعالى بتوجيه المؤمنين إلى دين الله جل وعلا وإلى إطاعة رسول الله ﷺ بصدق وإخلاص. نسأل الله تعالى التوفيق لذلك آمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم).

(٨) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ فعثوراً وانحطاطاً (العثور: هو الزلَق وزلة الرجل) ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾ أي: جعلها ضائعة محبَطة بالكفر.

(٩) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: القرآنَ، لِما فيه من التوحيد والتكاليف المخالفة لما أَلِفوه واشتهته أنفسهم (أقول: لا بدَّ للمؤمن أن يطبق الشريعة والسنة النبوية ولو كان فرداً، فهو مكلَّف ومسؤول عن نفسه لا عن العالم، ويوم القيامة يظهر فضل ذلك) ﴿فَأَحۡبَطَ﴾ الله تعالى ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾.

(١٠) ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ استأصل عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ أمثالُ تلك العاقبة أو العقوبة أو الهلكة، لأن التدمير يدل عليها. أو السُّنَّة، لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ [غافر: ٨٥].

(١١) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ناصرُهم على أعدائهم ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ فيدفع العذاب عنهم.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾

(١٢) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ**﴾ (أقول: لا بد للمؤمن أن لا يضيِّع ما أُعِدَّ له من الجنة والرضا) ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ**﴾ ينتفعون بمتاع الدنيا ﴿**وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ**﴾ حريصين غافلين عن العاقبة ﴿**وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾**﴾ مَنزِلٌ ومقام (أقول: هذا شأن الكفار، أما المؤمن فعليه أن لا يترك دينه ويتبع دنياه، بل عليه أن يميِّز، حتى بالنسبة للأكل، عليه أن يأكل بقدر ما أمر الله تعالى، لا بقدر ما تريد نفسه. عليه أن يقيد نفسه بالإسلام وبالشريعة المحمدية. قال ربنا جل وعلا: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]).

(١٣) ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ**﴾ بأنواع العذاب ﴿**فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾**﴾ يدفع عنهم.

(١٤) ﴿**أَفَمَن كَانَ**﴾ كالنبي ﷺ والمؤمنين ﴿**عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ**﴾ حجَّةٍ من عنده؛ وهو القرآن. أو ما يعمُّه والحجج العقلية ﴿**كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ**﴾ كالشرك والمعاصي ﴿**وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾**﴾ في ذلك، لا شبهة لهم عليه فضلاً عن حجة (أقول: نزل القرآن ليعمل المؤمنون به قرناً بعد قرن حتى انتهاء الدنيا، لكنهم يركضون وراء النفوس الأمارة ويفعلون ما تشتهي أنفسهم الخبيثة. هذا ليس من الدين، فالقرآن قيَّدنا بزمام الحق وعدم التجاوز عن الحدود).

(١٥) ﴿**مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ**﴾ مبتدأٌ خبره: ﴿كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ﴾. وتقدير الكلام: أمَثَلُ أهل الجنة كمثل من هو خالد في النار؟ تقريراً لإنكار المساواة ﴿**فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ**﴾ وآسِن: من أسنَ الماء إذا تغير طعمه وريحه ﴿**وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ**﴾ لم يصِر قارصاً (أي: يقرص اللسان) ولا حازراً (أي: حامضاً) ﴿**وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ**﴾ لذيذةٍ، لا يكون فيها كراهةُ غائلةِ ريحٍ ولا غائلةِ سُكرٍ ﴿**وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ**﴾ لم يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها. وفي ذلك تمثيل لما يقوم مقام الأشربة في الجنة بأنواع ما يستلذ منها في الدنيا، بالتجريد عما ينقصها وينغِّصها، والتوصيف بما يوجب غزارتها واستمرارها ﴿**وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ**﴾ (أقول: الذي يتفكر في الآخرة ويجد هذا أمامه

كيف يخرِّبه بأيام قليلة في الدنيا! أين آباؤنا؟ كلهم ذهبوا، ونحن كذلك لا بد أن نذهب، فعلينا قبل ذهابنا أن نتهيأ للذهاب. قناعتي أن من آمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبالآخرة لا يخرب آخرته بلذائذ الدنيا. لا بد للمؤمن أن يستعمل عقله، فهذا أمامنا) ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكان تلك الأشربة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ من فرط الحرارة (أقول: هل أخذ أحد سنداً بأن يرضى ربه عنه يوم القيامة، باستثناء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ لا سند إلا سند التمسك بالشريعة والسنة النبوية وتقديم الآخرة على الدنيا).

(١٦) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ يعني المنافقين، كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ ويسمعون كلامه فإذا خرجوا ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: لعلماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ ما الذي قال الساعةَ؟ استهزاءً أو استعلاماً، إذ لم يلقوا له آذانهم تهاوناً به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ فلذلك استهزؤوا وتهاونوا بكلامه.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: زادهم الله تعالى بالتوفيق والإلهام أو قولِ الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ بيَّن لهم ما يتقون، أو أعانهم على تقواهم، أو أعطاهم جزاءَها.

(١٨) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ فهل ينتظرون غيرها ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ والمعنى: أن تأتيهم الساعة بغتة، لأنه قد ظهر أماراتها؛ كمبعث النبي عليه الصلاة والسلام وانشقاق القمر، فكيف لهم ذِكْراهُمْ، أي: تذكُّرهم إذا جاءتهم الساعة بغتة؟ وحينئذ لا يُفرَغ له ولا يَنفع.

(١٩) ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فاثبُتْ على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية وتكميل النفس بإصلاح أحوالها وأفعالها وهضمها بالاستغفار لِذَنْبِكَ (أقول: لا يمكن أن لا يصدر عنا ذنب، لكن الله تعالى جعل لنا التوبة والاستغفار) ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ولذنوبهم، بالدعاء لهم والتحريض على ما يستدعي غفرانهم (أقول: فعلى المؤمن أن يستغفر لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات) ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا، فإنها مراحل لا بد من قطعها ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ في العقبى، فإنها دار إقامتكم، فاتقوا الله تعالى واستغفروه وأعدُّوا لَمعادكم (أقول: لم يقل أعدُّوا لدنياكم. خذوا بالأسباب في الدنيا، لكن أعدوا لِمَعادكم).

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾

(٢٠) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ أي: هلَّا نُزِّلَتْ سُورَةٌ في أمر الجهاد! ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ مبيَّنة لا تشابه فيها ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ أي: الأمرُ به ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ ضعفٌ في الدين، وقيل: نفاقٌ ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ جُبْناً ومخافة ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾﴾ فويل لهم.

(٢١) ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾ أي: طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ خير لهم ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: جَدَّ ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو الإيمان ﴿لَكَانَ﴾ الصدقُ ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾﴾.

(٢٢) ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ فهل يتوقع منكم ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أمور الناس وتأمَّرتم عليهم. أو أعرضتم وتوليتم عن الإسلام ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾﴾ تناحراً على الولاية وتجاذباً لها؟ أو رجوعاً إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من التغاور (أي: هجوم بعضهم على بعض) ومقاتلة الأقارب؟ والمعنى أنهم لضعفهم في الدين وحرصهم على الدنيا أحقاء بأن يَتوقَّع ذلك منهم مَنْ عرف حالهم.

(٢٣) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لإفسادهم وقطعهم الأرحام ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ عن استماع الحق ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾﴾ فلا يهتدون سبيله.

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يتصفَّحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يجسُروا (أي: لا يجرُؤوا) على المعاصي ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ لا يصل إليها ذكرٌ ولا ينكشف لها أمر (أقول: ألا يشملنا هذا؟! والله يشملنا).

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾ أي: إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ (إما شيطان الإنس أو شيطان الجن) ﴿سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ (أي: زيَّن) وسهَّل لهم اقتراف الكبائر ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾﴾ ومدَّ لهم في الآمال والأماني.

(٢٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي: قال اليهود الذين كفروا بالنبي عليه الصلاة والسلام بَعْد مَا تَبيَّنَ لَهُم نعته للمنافقين، أو قال المنافقون لهم، أو قال أحد الفريقين للمشركين: ﴿سَنُطِيعُكُمۡ

﴿فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ في بعض أموركم. أو في بعض ما تأمرون به؛ كالقعود عن الجهاد، والموافقة في الخروج معهم إن أخرجوا، والتظافر (أي: التعاون) على الرسول ﷺ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ٢٦﴾ ومنه قولهم هذا الذي أفشاه الله تعالى عليهم.

(٢٧) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فكيف يعملون ويحتالون حينئذ؟ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ٢٧﴾ تصويرٌ لتوفيهم بما يخافون منه ويجبُنون عن القتال له.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر وكتمان نعت الرسول عليه الصلاة والسلام وعصيان الأمر ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: ما يرضاه من الإِيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ٢٨﴾ لذلك.

(٢٩) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ﴾ أن لن يُبرز الله تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين ﴿أَضْغَٰنَهُمْ ٢٩﴾ أحقادهم.

وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

(٣٠) ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ لعرَّفناكهم بدلائل تَعرِفهم بأعيانهم ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ بعلاماتهم التي نسِمُهم (أي: نعلِّمهم) بها ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ ولحْنُ القَوْلِ: أسلوبه. أو إمالتُه إلى جهة تعريض وتورية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾﴾ فيجازيكم على حسب قصدكم، إذ الأعمال بالنيات.

(٣١) ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقِّها (أقول: الله جل وعلا يعلم، ولكن حتى يُظهر لنا) ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾ (أي: نُظهر أسراركم وبغضكم وعداوتكم ومخالفتكم لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما).

(٣٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ هم قريظة والنضير. أو المطعِمون يوم بدر ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ بكفرهم وصدِّهم. أو لن يضرُّوا رسول الله ﷺ بمُشاقَّته (أي: بعداوته) ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾﴾ ثوابَ حسناتِ أعمالهم بذلك. أو مكايدَهم التي نصبوها في مُشاقته، فلا يصلون بها إلى مقاصدهم، ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

(٣٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾ بما أبطل به هؤلاء؛ كالكفر والنفاق والعجب والرياء والمَنِّ والأذى ونحوها (أقول: هذا التوجيه كله للمسلمين، رأس كل العبادات الإخلاص، والبناء على الصحيح صحيح، والبناء على الفاسد فاسد، والإخلاص محله القلب، فلابد من تفتيش القلب عن إرادته بالكلية، فإن وجد فيه خلاف الإخلاص وجب رميه، لأن العبد قد يقوم بالعبادات، وتكون في شبحها موافقة للشرع، ونحن نقول صلى وصام وذكر وأمر ونهى، ولكن ماذا ينفعه ذلك إذا فقد من تلك الأعمال روحها، وروحها سر الإخلاص فيها. فلابد لك أيها التقي من صحبة الصادقين حتى يسري إليك سرهم، فالجليس متأثر من جليسه، ولو لم يكن ذلك لما قال ربنا جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتمسكين بأذيال الصادقين الصديقين لنفوز بسعادة الدارين، إنه على كل شيء قدير، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ولا

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم).

(٣٤) ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾**﴾ عامٌّ في كل من مات على كفره، وإن صحَّ نزوله في أصحاب القليب. ويدل بمفهومه على أنه قد يَغفِر لمن لم يمت على كفره سائرَ ذنوبه.

(٣٥) ﴿**فَلَا تَهِنُواْ**﴾ فلا تضعفوا ﴿**وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ**﴾ ولا تدعوا إلى الصلح خَوَراً (أي: جُبْناً وضَعفاً) وتذلُّلاً ﴿**وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ**﴾ الأغلبون ﴿**وَٱللَّهُ مَعَكُمْ**﴾ ناصرُكم ﴿**وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾**﴾ ولن يضيع أعمالكم.

(٣٦) ﴿**إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ**﴾ لا ثباتَ لها ﴿**وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ**﴾ ثوابَ إيمانكم وتقواكم ﴿**وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾**﴾ جميعَ أموالِكم بل يقتصر على جزء يسير؛ كربع العشر والعشر.

(٣٧) ﴿**إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ**﴾ فيجهدْكُم بطلب الكلِّ ﴿**تَبْخَلُواْ**﴾ فلا تُعطُوا ﴿**وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾**﴾ (أي: ويُظهر الله تعالى بغضكم وحقدكم لرسول الله ﷺ [النسفي]).

(٣٨) ﴿**هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ**﴾ أي: أنتم يا مخاطَبون هؤلاء الموصوفون ﴿**تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ وهو يعمُّ نفقةَ الغزوِ والزكاةِ وغيرهما ﴿**فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ**﴾ ناسٌ يبخلون ﴿**وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ**﴾ فإن نفْعَ الإنفاق وضرَّ البخل عائدان إليه ﴿**وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ**﴾ فما يأمركم به فهو لاحتياجكم، فإن امتثلتم فلكم وإن توليتم فعليكم ﴿**وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ**﴾ يُقِمْ مقامكم قوماً آخرين ﴿**ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾**﴾ في التولي والزهد في الإيمان؛ وهم الفُرْس، لأنه سئل عليه الصلاة والسلام عنه وكان سلمان إلى جنبه، فضرب فخذه وقال: «هذا وقومُهُ» [أخرجه الترمذي، وصححه الحاكم رحمهما الله تعالى]. أو الأنصار، أو اليمن، أو الملائكة.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة محمد

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ الفَتْح ٤٨ ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفتح

مدنيَّة، نزلت في مرجع رسول الله ﷺ من الحديبية، وآيها تسع وعشرون آية

(١) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ وعدٌ بفتح مكة عظَّمها الله. والتعبيرُ عنه بالماضي لتحققه، أو بما اتفق له في تلك السنة؛ كفتح خيبر وفدك (أرض قرب خيبر). أو إخبار عن صلح الحديبية [رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. وإنما سمّاه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين، حتى سألوا الصلح وتسبَّبَ لفتح مكة، وفرغ به رسول الله ﷺ لسائر العرب فغزاهم وفتح مواضع وأدخل في الإسلام خلقاً عظيماً، وظهر له في الحديبية آية عظيمة؛ وهي أنه نُزِحَ ماؤها بالكليَّة، فتمضمض عليه الصلاة والسلام ثم مجَّ فيها فدرَّت بالماء حتى شرب جميع من كان معه [رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] أو فتح الروم، فإنهم غَلبوا الفرس في تلك السنة. وقد عُرِفَ كونُه فتحاً للرسول عليه الصلاة والسلام في سورة «الروم». وقيل: الفتح بمعنى القضاء؛ أي قضينا لك أن تدخل مكة من قابِل [رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى].

(٢) ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ علّةٌ للفتح، من حيث إنه مسبَّبٌ عن جهاد الكفار والسعي في إزاحة الشرك وإعلاء الدين وتكميل النفوس الناقصة قهراً ليصير ذلك بالتدريج اختياراً، وتخليص الضعفة من أيدي الظلمة ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ جميعَ ما فرَط منك مما يصحُّ أن يُعاتَب عليه ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين وضمِّ المُلك إلى النبوَّة ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرئاسة.

(٣)﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ نصراً فيه عزٌّ ومَنَعَةٌ.

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الثبات والطمأنينة ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى ثبتوا حيث تقلق النفوس وتدحض الأقدام (أي: تزلُّ) ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها. أو أنزل فيها السكون إلى ما جاء به الرسول ﷺ ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانهم بالله تعالى واليوم الآخر ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يدبِّر أمرها فيسلط بعضها على بعض تارة ويوقع فيما بينهم

السِّلم أخرى كما تقتضيه حكمته جلَّ وعلا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمصالح ﴿حَكِيمًا ۝٤﴾ فيما يقدِّر ويدبِّر.

(٥) ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دبَّر ما دبَّر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله تعالى فيه ويشكروها فيدخلهم الجنة ويعذب الكفار والمنافقين لِما غاظهم من ذلك ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يغطِّيها ولا يُظهرها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ لأنه منتهى ما يُطلب من جلب نفع أو دفع ضُرٍّ.

(٦) ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ ظنَّ الأمر السَّوء؛ وهو أن لا يَنصرَ رسوله ﷺ والمؤمنين ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دائرة ما يظنونه ويتربَّصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطفٌ لما استحقوه في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ جهنم.

(٧) ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (فيدفع كيد من عادى نبيه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بما شاء منها [المدارك للنسفي]) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

(٨) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على أمتك ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾ على الطاعة والمعصية.

(٩) ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والأمة. أو لهم على أن خطابه مُنْزَلٌ منزلة خطابهم ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقوّوه بتقوية دينه ورسوله ﷺ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتنزِّهوه، أو تُصلُّوا له ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ غدوة وعشياً، أو دائماً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنه المقصود ببيعته ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ على سبيل التخييل (قال النسفي في المدارك: الله تعالى منزَّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، والمعنى: تقريرُ أن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله جل وعلا) ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي: نقضَ العهد ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ وَفَّى في مبايعته ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ هو الجنة. والآية نزلت في بيعة الرضوان.

(١١) ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم أسلمُ وجُهينة ومُزينة وغفار، استنفرهم رسول الله ﷺ عام الحديبية (أي: طلب منهم أن ينفروا ويخرجوا معه) فتخلَّفوا واعتلُّوا (أي: اعتذروا) بالشغل بأموالهم وأهاليهم، وإنما خلَّفهم الخذلانُ وضعفُ العقيدة والخوفُ من مقاتلة قريش ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ﴾ من الله تعالى على التخلف ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ تكذيبٌ لهم في الاعتذار والاستغفار ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فمن يمنعكم من مشيئته وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضرُّكم؛ كقتل وهزيمة، أو خلل في المال والأهل وعقوبةٍ على التخلف ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ﴾ ما يضادُّ ذلك ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾ فيعلم تخلُّفكم وقصدكم فيه.

(١٢) ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لظنكم أن المشركين يستأصلونهم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فتمكَّن فيها ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ الظن المذكور. والمراد التسجيل عليه بالسَّوْءِ. أو هو وسائر ما يظنون بالله تعالى ورسوله من الأمور الزائغة ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ هالكين عند الله تعالى، لفساد عقيدتكم وسوء نيتكم.

(١٣) ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فهو كافر، وأنه مستوجب للسعير بكفره. وتنكيرُ «سعيراً» للتهويل، أو لأنها نارٌ مخصوصة.

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ يدبِّره كيف يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ إذ لا وجوب عليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٤﴾ فإن الغفران والرحمة من ذاته، والتعذيب داخلٌ تحت قضائه بالعَرَض، ولذلك جاء في الحديث الإلهي: «سبقت رحمتي غضبي» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى].

(١٥) ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني المذكورين ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانم خيبر، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ستٍّ وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة فخصَّها بهم ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ أن يغيِّروه، وهو وعدُه لأهل الحديبية أن يعوِّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر. وقيل: قوله: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً﴾ [التوبة: ٨٣]. والظاهرُ أنه في تبوك ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ نفيٌ في معنى النهي ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ﴾ من قبلِ تهيُّئهم للخروج إلى خيبر ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ﴾ أن نشارككم في الغنائم ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾ إلا فهماً قليلاً؛ وهو فطنتهم لأمور الدنيا.

قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

(١٦) **﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾** كرَّرَ ذكرهم بهذا الاسم مبالغةً في الذم وإشعاراً بشناعة التخلف **﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾** بني حنيفة أو غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله ﷺ. أو المشركين، فإنه قال: **﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾** أي: يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أو الإسلام لا غير. وقيل: فارس والروم، ومعنى يُسْلِمُونَ: ينقادون، ليتناولَ تقبُّلَهم الجزية **﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾** هو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة **﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾** عن الحديبية **﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾** لتضاعف جرمكم.

(١٧) **﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾** لمَّا أوْعَدَ على التخلُّف نفى الحرجَ عن هؤلاء المعذورين استثناء لهم من الوعيد **﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾** فصَّل الوعد وأجمَلَ الوعيد مبالغةً في الوعد لسبق رحمته، ثم جبَرَ ذلك بالتكرير على سبيل التعميم، فقال: **﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾** إذ الترهيب ههنا أنفع من الترغيب.

(١٨) **﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾** روي أنه ﷺ لَّما نزل الحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى أهل مكة، فهمُّوا به فمنعه الأحابيش فرجع (والأحابيش: نسبةً إلى مكان في البادية، وسيدُهم هو الحليس بن علقمة الكناني)، فبعث عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فحبسوه فأُرْجِف (فأُشيع) بقتله، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه، وكانوا ألفا وثلاث مئة أو أربع مئة أو خمس مئة، وبايعهم على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا منهم، وكان جالساً تحت سمُرة أو سدرة (اسمان لشجرتين) **﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾** من الإخلاص **﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾** الطمأنينة وسكون النفس بالتشجيع أو الصلح **﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾** فتحَ خيبر غَبَّ (أي: بعدَ) انصرافهم: وقيل: مكة أو هجر (وهي قرية قريبة من المدينة، أو قرية بالبحرين).

(١٩) **﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾** يعني مغانم خيبر **﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾** غالباً مراعياً مقتضى الحكمة.

(٢٠) **﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾** وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة **﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ**

﴿هَٰذِهِۦ﴾ يعني مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ أي: أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان. أو أيدي قريش بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكَفَّة أو الغنيمة ﴿ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أمارةً يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان. أو يعرفون صدق الرسول ﷺ في وعدهم فتح خيبر في حين رجوعه من الحديبية، أو وعد المغانم، أو عنواناً لفتح مكة ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢٠﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه.

(٢١) ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ ومغانم أخرى ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ بعدُ لِما كان فيها من الجولة (أي: تكرُّر الهزيمة والرجوع إلى القتال) ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ استولى عليها فأظفركم بها، وهي مغانم هوازن أو فارس ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١﴾ لأن قدرته ذاتيَّةٌ لا تختص بشيء دون شيء.

(٢٢) ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْ أَهْلِ مكة ولم يصالحوا ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ لانهزموا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرٗا ٢٢﴾ ينصرهم.

(٢٣) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي: سَنَّ غَلَبَة أنبيائه سُنَّةً قديمة فيمن مضى من الأمم، كما قال تعالى: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ تغييراً.

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

(٢٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: أيدي كفار مكة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ في داخل مكة ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أظهركم عليهم. وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمس مئة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مقاتلتهم أولاً طاعة لرسوله عليه الصلاة والسلام، وكفِّهم ثانياً لتعظيم بيته جل وعلا ﴿بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ فيجازيهم عليه.

(٢٥) ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ﴾ يدل على أن ذلك كان عام الحديبية. والهديُ: ما يهدى إلى مكة. ومحِلُّه: مكانُه الذي يَحِلُّ فيه نحره ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم، لاختلاطهم بالمشركين ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أن توقعوا بهم وتبيدوهم (أي: تقتلوهم) ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ من جهتهم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: مكروه؛ كوجوب الدية والكفارة بقتلهم، والتأسف عليهم، وتعيير الكفار بذلك، والإثم بالتقصير في البحث عنهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ﴾ أي: تطؤوهم غيرَ عالمين بهم. والمعنى: لَولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كفَّ أيديكم عنهم ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ عِلَّة لِما دل عليه كفُّ الأيدي عن أهل مكة صوناً لمن فيها من المؤمنين. أي: كان ذلك ليدخل الله تعالى في رحمته، أي في توفيقه لزيادة الخير أو للإسلام ﴿مَن يَشَآءُ ۚ﴾ من مؤمنيهم أو مشركيهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ لو تفرَّقوا، أو تميَّز بعضهم من بعض ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ بالقتل والسبي.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأنفَة ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ التي تمنع الإذعان للحق ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنزل عليهم الثبات والوقار. وذلك ما روي «أنه عليه الصلاة والسلام لمَّا هم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع من عامه على أن تخلِّي له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام، فأجابهم وكتبوا بينهم كتاباً، فقال عليه الصلاة والسلام لعليٍّ رضي الله تعالى عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا: ما نعرف هذا اكتب باسمك اللهم،

ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة، فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك، اكتب: هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله أهل مكة، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون» [أصله في البخاري كما قال ابن حجر رحمهما الله تعالى في بلوغ المرام] فَهَمَّ المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم، فأنزل الله تعالى السكينة عليهم، فتوقَّروا وتحمَّلوا (أي: تحلَّوا بالحلم والوقار) ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ**﴾ كلمة الشهادة، أو بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ محمد رسول الله ﷺ، اختارها لهم، أو الثبات والوفاء بالعهد ﴿**وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا**﴾ من غيرهم ﴿**وَأَهْلَهَاۚ**﴾ والمستأهلين لها ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾**﴾ فيعلم أهل كلِّ شيء وييسِّره له.

(٢٧) ﴿**لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا**﴾ رأى عليه الصلاة والسلام أنه وأصحابَه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه ففرحوا بها وحسبوا أن ذلك يكون في عامهم، فلما تأخر قال بعضهم: والله ما حلقنا ولا قصَّرنا ولا رأينا البيت فنزلت [رواه الإمام البيهقي رحمه الله تعالى في الدلائل]. والمعنى صدقه في رؤياه ﴿**بِٱلْحَقِّۖ**﴾ ملتبساً به، فإن ما رآه كائن لا محالة في وقته المقدَّر له؛ وهو العام القابل ﴿**لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ**﴾ تعليقٌ للعِدَةِ بالمشيئة تعليماً للعباد، أو إشعاراً بأن بعضهم لا يدخل لِموت أو غَيبة. أو حكايةٌ لِما قاله مَلَكُ الرؤيا في النوم، أو النبيُّ ﷺ لأصحابه ﴿**ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ**﴾ أي: محلِّقاً بعضكم ومقصِّراً آخرون ﴿**لَا تَخَافُونَۖ**﴾ أي: لا تخافون بعد ذلك ﴿**فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ**﴾ من الحكمة في تأخير ذلك ﴿**فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ**﴾ من دون دخولكم المسجد، أو فتح مكة ﴿**فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾**﴾ هو فتح خيبر، لتستروح (أي: لتطمئن) إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسَّر الموعود.

(٢٨) ﴿**هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ**﴾ ملتبساً به. أو بسببه. أو لأجله ﴿**وَدِينِ ٱلْحَقِّ**﴾ وبدين الإِسلام ﴿**لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ**﴾ ليُغلِّبَه على جنس الدين كله، بنسخ ما كان حقاً وإظهار فساد ما كان باطلاً، أو بتسليط المسلمين على أهله، إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون. وفيه تأكيد لِما وعده من الفتح ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾**﴾ على أن ما وعده كائن. أو على نبوَّته بإظهار المعجزات.

مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الحُجُرَاتِ ٤٩ — ١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

(٢٩) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ جملةٌ مبيِّنة للمشهود به ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ والمعنى أنهم يغلظون على من خالف دينهم ويتراحمون فيما بينهم ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لأنهم مشتغلون بالصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ﴾ الثواب والرضا ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ (قال عطاء رحمه الله تعالى: استنارت وجوههم من طول ما صلَّوا بالليل) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الوصف المذكور ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾ صفتُهم العجيبة الشأن المذكورة فيها ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: فِراخَهُ. يقال: أشطأ الزرع إذا أفرخ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوَّاه ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظة ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على قصبه. جمعُ ساقٍ ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وقوته وغلظه وحسن منظره. وهو مَثَلٌ ضربه الله تعالى للصحابة، قلُّوا في بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا، فترقى أمرُهم بحيث أعجب الناس ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾ علةٌ لتشبيههم بالزرع في زكاته واستحكامه. أو لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ فإن الكفار لَمَّا سمعوه غاظهم ذلك.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الفتح

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحجرات

مدنيَّة، وآيها ثماني عشرة آية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ أي: لا تقدِّموا أمراً. أو لا تتقدَّموا ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ أي: لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكما به. وقيل: المراد بين يدي رسول الله ﷺ، وذَكَرَ الله تعالى تعظيماً له وإشعاراً بأنه من الله تعالى بمكانٍ يوجب إجلاله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ﴾ في التقديم. أو مخالفة الحكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ بأفعالكم.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: إذا كلَّمتموه فلا تجاوزوا أصواتكم عن صوته عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته محاماة (أي: محافظة) على الترحيب ومراعاة للأدب. وقيل: معناه ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً، وخاطبوه بالنبي والرسول ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ كراهةَ أن تحبط، فيكون علَّةً للنهي. أو لأن تُحبَط، على أن النهي عن الفعل المعلَّلِ باعتبار التأدية، لأن في الجهر والرفع استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبِط، وذلك إذا انضمَّ إليه قصدُ الإِهانة وعدمُ المبالاة. وقد روي: أن ثابت بن قيس رضي الله تعالى عنه كان في أذنه وقرٌ (أي: صَمَمٌ) وكان جهورياً (أي: جهير الصوت)، فلما نزلت تخلَّف عن رسول الله ﷺ، فتفقَّده ودعاه، فقال: يا رسول الله! لقد أنزلت إليك هذه الآية، وإني رجل جهير الصوت، فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال عليه الصلاة والسلام: «لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة» [وردت القصة في الصحيحين] (وقوله ﷺ: «لست هناك» كناية عن نزاهته رضي الله تعالى عنه عمَّا ظنَّه بنفسه) ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ أنها محبَطة.

(٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾ يخفضونها ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ مراعاةً للأدب، أو مخافةً من مخالفة النهي. قيل: كان أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما بعد ذلك يُسِرَّانِهِ حتى يستفهمهما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ جرَّبها للتقوى ومرَّنها (أي: عوَّدها) عليها. أو عَرَفها كائنة للتقوى خالصة لها، فإن الامتحان سبب المعرفة. أو أخلصها للتقوى، من امتحن الذهب إذا أذابه وميَّز إبريزه (أي: خالصه) من خبَثه ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ لغضِّهم وسائر طاعاتهم.

(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ من خارجها؛ خلفها أو قدَّامها. والمراد حجرات نساء النبي عليه الصلاة والسلام، وفيها كنايةٌ عن خلوته بالنساء. ومناداتُهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها، أو بأنهم تفرَّقوا على الحجرات متطلبين له. فأسند فعل الأبعاض إلى الكلِّ. وقيل إن الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، وَفَدا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقدٌ، فقالا يا محمد اخرج إلينا. وإنما أسند الفعل إلى جميعهم لأنهم رضوا بذلك أو أمروا به، أو لأنه وُجد فيما بينهم ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة، سيما لمن كان بهذا المنصب.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

(٥) ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ**﴾ أي: ولو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم ﴿**لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ لكان الصبرُ خيراً لهم من الاستعجال، لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام الموجبَيْن للثناء والثواب والإسعاف بالمسؤول، إذ روي أنهم وَفَدوا شافعين في أسارى بني العنبر، فأطلقَ النصفَ وفادى النصفَ ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥**﴾ حيث اقتصر على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين للأدب التاركين تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام (أقول: حرمة سيدنا محمد ﷺ عظيمة عند الله تعالى، فمن تمسك بجنابه الشريف ﷺ واتبع سنته بعد التسليم، فإنه يسري إليه من ذلك النور شيء، فمن قوى ذاك الخيط النوراني بالاتباع في ظاهره وباطنه، فإنه لا يسقط من عناية الله عز وجل، ومن جملة حفظ حرمة النبي ﷺ التأدب مع وراثه رضي الله تعالى عنهم، لأن الأدب مع الوارث من الأدب مع مورِّثه).

(٦) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ**﴾ فتعرَّفوا وتفحَّصوا. روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بن عقبة مُصَّدقاً (أي: يجمع الصدقات) إلى بني المصطلق، وكان بينه وبينهم إحنة (أي: حقد وبغض)، فلما سمعوا به استقبلوه، فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فهمَّ بقتالهم فنزلت [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى]. وقيل: بعث إليهم خالد بن الوليد بعده، فوجدهم منادين بالصلاة مجتهدين، فسلَّموا إليه الصدقات فرجع ﴿**أَن تُصِيبُواْ**﴾ كراهةَ إصابتكم ﴿**قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ**﴾ جاهلين بحالهم ﴿**فَتُصۡبِحُواْ**﴾ فتصيروا ﴿**عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦**﴾ مغتمِّين غماً لازماً، متمنِّين أنه لم يقع.

(أقول: إذا خالطت الناس فلا تقل إلا حقاً، ولا يجر على لسانك كلامٌ، والله تبارك وتعالى يعلم خلافه في قلبك، والناس في أحاديثهم على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: يتكلم مع الخلق ولا يراقب إلا الله تعالى، ولا ينظر إلا للشرع الشريف، فلا يقول إلا حقاً ابتغاء مرضاة الله عز وجل ولا يبالي بأحوال الناس سخطوا أم رضوا.

الصنف الثاني: يتكلم مع الخلق ويصدق معهم، بدون مراقبة الله عز وجل، لأنه يستحي أن يعرف بين

الناس كذابا، فهو يراقب الخلق ويطلب منزلة عندهم.

الصنف الثالث: لا يعرف الحق ولا قوله، فهو يكذب ويتحرى الكذب، ويشعل نار العداوة بين المسلمين ولا يستحي من الله تعالى ومن لم يستح من الله تعالى فمع الخلق من باب أولى.

أيها المؤمن لا تنس قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١])

(٧) ﴿**وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**﴾ والمعنى: أن فيكم رسول الله عليه الصلاة والسلام على حال يجب تغييرها، وهي أنكم تريدون أن يتبع رأيكم في الحوادث، ولو فعل ذلك لَعَنِتُّمْ، أي: لوقعتم في العَنَتِ، وهو الجهد والهلاك. وفيه إشعار بأن بعضهم أشار عليه بالإيقاع ببني المصطلق. وقوله تعالى: ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ**﴾ استدراكٌ ببيان عذرهم، وهو أنه من فرط حبِّهم للإيمان وكراهتهم للكفر حَمَلهم على ذلك لمّا سمعوا قول الوليد. أو بصفة من لم يفعل ذلك منهم إحماداً لفعلهم وتعريضاً بذم من فعل، ويؤيده قوله تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧**﴾ أي: أولئك المستثنون هم الذين أصابوا الطريق السوي. والْكُفْرُ: تغطية نعم الله تعالى بالجحود. وَالْفُسُوقُ: الخروج عن القصد. وَالْعِصْيانُ: الامتناع عن الانقياد.

(٨) ﴿**فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ**﴾ تعليل لـ«كَرَّهَ» أو «حَبَّبَ». فإن الفضل فعلُ الله تعالى، والرشدَ وإن كان مسبباً عن فعله أو مصدر لغير فعله فإن التحبيب والرشد فضل من الله تعالى وإنعام ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمٌ**﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿**حَكِيمٌ ۝٨**﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق عليهم.

(٩) ﴿**وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ**﴾ تقاتلوا ﴿**فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ**﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى ﴿**فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ**﴾ تعدَّت عليها ﴿**فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ**﴾ ترجع إلى حكمه أو ما أمر به ﴿**فَإِن فَآءَتْ**﴾ (أي: رجعت) ﴿**فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ**﴾ بفصل ما بينهما على ما حكم الله تعالى. وتقييد الإِصلاح بالعدل ههنا لأنه مظنة الحيف (أي: الظلم) من حيث إنه بعد المقاتلة ﴿**وَأَقْسِطُوٓاْۖ**﴾ واعدلوا في كل الأمور ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩**﴾ يحمد فعلهم بحسن الجزاء. والآية نزلت في قتالٍ حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسعف (وهي أغصان النخل إذا يبس) والنعال. وهي تدل على أن الباغي مؤمنٌ، وأنه إذا قبض عن الحرب تُرِك، كما جاء في الحديث، لأنه فاء إلى أمر الله تعالى، وأنه يجب معاونة من بُغِيَ عليه بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة.

(١٠) ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ من حيث إنهم منتسبون إلى أصل واحد؛ وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ﴿**فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ**﴾ وخصَّ الاثنين بالذكر لأنهما أقلُّ من يقع بينهم الشقاق. وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ**﴾ في مخالفة حكمه والإهمال فيه ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠**﴾ على تقواكم.

(١١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ**﴾ أي: لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض، إذ قد يكون المسخور منه خيراً عند

الله تعالى من الساخر ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: ولا يَعِبْ بعضكم بعضاً، فإن المؤمنين كنفس واحدة. أو لا تفعلوا ما تُلمَزون به، فإن من فعل ما يستحق به اللمزَ فقد لمَزَ نفسه. واللمز: الطعن باللسان ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ ولا يَدْعُ بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفاً ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أي: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يُذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به. والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين خصوصاً، إذ روي أن الآية نزلت في صفية بنت حيي رضي الله تعالى عنها، أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقلنَ لي يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها: «هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد عليهم الصلاة السلام» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. أو الدلالة على أن التنابز فسقٌ، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ عما نهي عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب (أقول: إن كنت تحب الله تعالى ورسوله ﷺ، لا بد عليك أولاً أن تحبَّ أمَّة سيدنا محمد ﷺ، لأنهم كالأولاد لرسول الله ﷺ، وإذا أحببت أمَّته ﷺ يفرح بك، فبحبِّك إيَّاهم تحصل على محبَّة رسول الله ﷺ، وإن محبَّة المؤمن للمؤمن ليست خالية من الإكرام الإلهي، واحذر أن تهجم على من تهجّم عليك بالشدة، ولكن عليك بالسكوت، وفوِّض أمرك إلى الله عزَّ وجل، واحذر أن تؤذي أحداً).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾

(١٢) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ**﴾ كونوا منه على جانب. وإبهامُ الكثير ليحتاط في كل ظنٍّ ويتأمل حتى يعلم أنه من أيِّ القبيل، فإن من الظن ما يجب اتباعه؛ كحسن الظن بالله سبحانه وتعالى. وما يحرم؛ كالظن في الإلهيات والنبوات، وحيث يخالفه قاطع، وظن السوء بالمؤمنين. وما يباح؛ كالظن في الأمور المعاشية ﴿**إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ**﴾ تعليل مستأنِف للأمر. والإِثم: الذنب الذي يستحق العقوبة عليه ﴿**وَلَا تَجَسَّسُواْ**﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين. وفي الحديث: «لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبَّع عوراتهم تتبَّع الله تعالى عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿**وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ**﴾ ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته. وسئل عليه الصلاة والسلام عن الغيبة فقال: «أن تذكر أخاك بما يكره، فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته» [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا**﴾ تمثيلٌ لما يناله المغتابُ من عرض المغتاب على أفحش وجهٍ مع مبالغات الاستفهام المقرَّر. وإسناد الفعل إلى أحدٍ للتعميم، وتعليقُ المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيلُ الاغتياب بأكل لحم الإِنسان، وجعلُ المأكول أخاً وميتاً، وتعقيبُ ذلك بقوله: ﴿**فَكَرِهۡتُمُوهُۚ**﴾ تقريرٌ وتحقيقٌ لذلك. والمعنى إن صحَّ ذلك أو عُرِض عليكم هذا فقد كرهتموه ولا يمكنكم إنكار كراهته ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾**﴾ لمن اتقى ما نُهي عنه وتاب مما فرط منه. والمبالغةُ في التَوَّاب لأنه بليغ في قبول التوبة، إذ يجعل صاحبها كمن لم يذنب. أو لكثرة المتوب عليهم. أو لكثرة ذنوبهم (أقول: لم يترك القرآن شيئاً إلا ذكَره، فلا بد من قراءة القرآن بالتدبر، فإنه يحلُّ جميع الأمور الموافقة والمخالفة) (أقول: اقرأ كتاب أعمالك في الدنيا قبل أن تقرأه في الآخرة، لأن قراءة هذا الكتاب، أمر لابد منه في الآخرة. فما لك ولعيوب الناس؟! مالك وللسخرية واللمز والنبز؟! مالك وللظن السيء والتجسس والغيبة؟! وخصوصاً مما يقع به المؤمن من حصائد لسانه، لأنك ستسأل عنه يوم القيامة خصوصاً إذا تعلق بأخيك المؤمن، إذ لا يعفو الله تعالى عن ذلك إلا بعد عفو أخيك عنك لأن ذلك حقه عندك، وعفوه هذا مشكوك، لذا عليك أن تستنكف فلا تتكلم على أخيك المسلم

بالشك والظن والأخذ بكلام الغير، فيحصل لك من ذلك الشك والظن والسماع غم أو ضيق صدر، عند ذلك تغلب عليك نفسك، فتهجم عليه فتتجاوز أدبك الشرعي وتمسكك بالكتاب والسنة، وبالتالي تقع في الورطة. فما دامت هذه الورطة أمامك عليك أن تحفظ لسانك، ولا تظننَّ بالمؤمنين إلا خيراً، وإن سمعت منهم شيئاً قل: الله تعالى يسمع قولهم، فإن كنت مستحقاً ذاك الذي يقولونه فافرح، واقبل بهذه النصيحة واعمل بها، وإن كان هذا الوصف ليس فيك فاعف عنهم واصفح، والله تعالى يعفو عن عباده؛ علينا أن نشتغل بربنا لا بأنفسنا، فضلًا عن غيرنا).

(١٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ من آدم وحواء عليهما السلام. أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم. فالكل سواء في ذلك، فلا وجه للتفاخر بالنسب. ويجوز أن يكون تقريراً للأخوَّة المانعة عن الاغتياب ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ الشعبُ: الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، لا للتفاخر بالآباء والقبائل ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ فإن التقوى بها تكمل النفوس وتتفاضل الأشخاص، فمن أراد شرفاً فليلتمسه منها. وقال عليه الصلاة السلام «يَا أَيُّهَا الناس إِنَّمَا الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيِّن على الله» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم ﴿خَبِيرٞ ١٣﴾ ببواطنكم.

(١٤) ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ نزلت في نفر من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون الصدقة ويَمُنُّون ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ إذ الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لَمَا مننتم على الرسول عليه الصلاة والسلام بالإسلام وترك المقاتلة، كما دل عليه آخر السورة ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ فإن الإسلام انقيادٌ ودخول في السلم وإظهار الشهادتين، وتركُ المحاربة يشعر به ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ أي: وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا ولم تواطئ قلوبُكم ألسنتَكم بعدُ ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾ لا ينقصكم من أجورها ﴿شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لما فَرَطَ من المطيعين ﴿رَّحِيمٌ ١٤﴾ بالتفضُّل عليهم.

(١٥) ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ لم يشكُّوا. وفيه إشارة إلى ما أوجب نفي الإيمان عنهم ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ في طاعته. والمجاهدةُ بالأموال والأنفس تصلح للعبادات المالية والبدنية بأسرها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ الذين صدقوا في ادعاء الإيمان.

(١٦) ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ أتخبرونه به بقولكم: آمَنَّا ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾ لا يخفى عليه خافية. وهو تجهيل لهم وتوبيخ. روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة جاؤوا وحلفوا أنهم مؤمنون معتقدون، فنزلت هذه الآية.

(١٧) ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ يعدُّون إسلامَهم عليك مِنَّةً، وهي النعمة التي لا يستثيب (أي: لا

يطلب الثواب) مُوليها (أي: معطيها) ممن بذلها إليه ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي: بإسلامكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ على ما زعمتم. مع أن الهداية لا تستلزم الاهتداء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ في ادعاء الإيمان. أي: فلله المنَّة عليكم. وفي سياق الآية لطفٌ؛ وهو أنهم لما سَمَّوا ما صدر عنهم إيماناً ومَنُّوا به فنفى أنه إيمانٌ وسَمّاه إسلاماً بأن قال: يمنُّون عليك بما هو في الحقيقة إسلام، وليس بجدير (أي: بلائق) أن يُمَنَّ به عليك، بل لو صح ادعاؤهم للإيمان فلله المِنَّة عليهم بالهداية له لا لهم.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨﴾ في سرِّكم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الحجرات

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ قٓ ٥٠ — ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة ق

مكيَّة، وهي خمس وأربعون آية

(١) ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ الكلامُ فيه كما مرَّ في ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]. و﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾ ذو المجد والشرف على سائر الكتب. أو لأنه كلام المجيد. أو لأن من عَلِمَ معانيَه وامتثل أحكامه مَجُدَ (أي: صار ذا عِزَّة ورفعة وشرف).

(٢) ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ إنكارٌ لتعجُّبهم مما ليس بعَجَب، وهو أن ينذرهم أحدٌ من جنسهم أو من أبناء جلدتهم ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢﴾ حكايةٌ لتعجُّبهم. وهذا إشارة إلى اختيار الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام للرسالة.

(٣) ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾ أي: أنرجعُ إذا متنا وصرنا تراباً ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ أي: بعيدٌ عن الوهم أو العادة أو الإمكان.

(٤) ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾ ما تأكل من أجساد موتاهم. وهو ردٌّ لاستبعادهم، بإزاحة ما هو الأصل فيه ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾ حافظٌ لتفاصيل الأشياء كلها. أو محفوظ عن التغيير (قال الشربيني رحمه الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: جامع لكلِّ شيء ﴿حَفِيظُۢ﴾ أي: بالغ في الحفظ لا يشذُّ عنه شيء من الأشياء جلَّ أو دَقَّ. وقيل: محفوظ من الشياطين ومن أن يندرس أو يغيَّر. وعلى الحالين الحفيظ هو اللوح المحفوظ، قال الرازي: والأول هو الأصح، لأن الحفيظ بمعنى الحافظ واردٌ في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]) (أقول: بعد إثبات ما أراده الله تعالى من علمه الذاتي في اللوح المحفوظ يطلع عليه من أذن الله تعالى له من الملائكة والأنبياء والأولياء، أما علمه الذاتي فلا يطلع عليه أحد).

(٥) ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ يعني النبوة الثابتة بالمعجزات. أو النبي ﷺ. أو القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾ مضطرِب؛ وذلك قولهم تارة إنه شاعِرٌ، وتارة إنه ساحِرٌ، وتارة إنه كاهن.

(٦) ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالَم ﴿كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ رفعناها بلا عَمَدٍ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾ فتوق، بأن خلقها ملساء متلاصقة الطباق.

(٧) ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: من كل صنف ﴿بَهِيجٍ ۝٧﴾ حَسَن.

(٨) ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ راجعٍ إلى ربه، متفكّرٍ في بدائع صنعه.

(٩) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ أشجاراً وأثماراً ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ وحبَّ الزرع الذي من شأنه أن يحصد؛ كالبُرِّ والشعير.

(١٠) ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ طوالاً أو حوامل ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ منضود بعضه فوق بعض. والمراد تراكم الطلع، أو كثرة ما فيه من الثمر.

(١١) ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ فإن الإنبات رزق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أرضاً جَدبَة لا نماء فيها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ كما حييت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم.

(١٢_١٣) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أراد بفرعون إياه وقومَه ليلائم ما قبله وما بعده ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣﴾ (أقول: فهو عليه السلام ليس منهم)، وسمَّاهم إخوانَه لأنهم كانوا أصهاره.

(١٤) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ (وهم قوم شعيب عليه السلام، والأيكة: الشجر المتكاثف) ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ (تُبَّع الحِمْيَري، وكان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمَّهم دونه) ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كلُّ واحد، أو قومٌ منهم، أو جميعهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ فوجب وحلَّ عليه وعيدي. وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديدٌ لهم.

(١٥) ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفَعَجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ أي: هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأوَّل، بل هم في خلط وشبهة في خلق مستأنَف، لما فيه من مخالفة العادة.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

(١٦) ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ**﴾ ما تحدِّثُه به نفسه وهو ما يخطر بالبال. والوسوسةُ: الصوت الخفي ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾**﴾ أي: ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه مِنْ حبل الْوريد. تجوَّز بقرب الذات لقرب العلم، لأنه موجبُهُ. وحبل الوريد مثلٌ في القرب. والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدَّمها متصلان بالوتين (وهو عرق يخرج من القلب إذا انقطع مات صاحبه).

(١٧) ﴿**إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ**﴾ أي: هو أعلم بحاله من كل قريبٍ حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به. وفيه إيذان بأنه غنيٌّ عن استحفاظ الملَكين، فإنه أعلم منهما، ومطَّلعٌ على ما يخفى عليهما، لكنه لحكمةٍ اقتضته - وهي ما فيه من تشديد تثبُّط (أي: تعويق) العبد عن المعصية - وتأكيدٍ في اعتبار الأعمال وضبطها للجزاء، وإلزامِ للحجة يوم يقوم الأشهاد ﴿**عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾**﴾ أي: عَنِ الْيمِينِ قعيد وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ.

(١٨) ﴿**مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ**﴾ ما يرمي به مِنْ فيه ﴿**إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ**﴾ ملَك يرقُب عمله ﴿**عَتِيدٌ ﴿١٨﴾**﴾ مُعَدٌّ حاضر. ولعله يكتب عليه ما فيه ثواب أو عقاب.

(١٩) ﴿**وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ**﴾ لَمَّا ذَكَرَ استبعادهم البعث للجزاء، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه، أعلَمَهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب عند الموت وقيام الساعة، ونبَّه على اقترابه بأن عبَّر عنه بلفظ الماضي. وسكرة الموت: شدته الذاهبة بالعقل ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: الموت ﴿**مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾**﴾ تميلُ وتفِرُّ عنه. والخطاب للإنسان.

(٢٠) ﴿**وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ**﴾ يعني نفخة البعث ﴿**ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾**﴾ أي: وقتُ ذلك يوم تحقق الوعيد وإنجازِه.

(٢١) ﴿**وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾**﴾ ملَكان؛ أحدهما يسوقه والآخر يشهد بعمله. أو ملَكٌ جامع للوصفين. وقيل: السائق كاتب السيئات، والشهيد كاتب الحسنات.

(٢٢) ﴿**لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا**﴾ (أقول: واللهِ هذا أمامنا جميعاً) والخطاب لِكُلِّ نَفْسٍ، إذ ما من

أحد إلا وله اشتغال ما عن الآخرة. أو الخطاب للكفار ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغطاء الحاجب لأمور المَعاد، وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والإِلْف بها وقصور النظر عليها ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ نافذٌ، لزوال المانع للأبصار.

(٢٣) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قال الملَك الموكَّل عليه: ﴿هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ (أي: مهيَّأ) هذا ما هو مكتوب عندي حاضر لديَّ. أو قال الشيطان الذي قيِّض له: هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم، هيأته لها بإغوائي وإضلالي.

(٢٤) ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطابٌ من الله تعالى للسائق والشهيد، أو لملكين من خزنة النار ﴿عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ معاند للحق.

(٢٥) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة. وقيل: المراد بالخير الإِسلام، فإن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لمّا منع بني أخيه عنه ﴿مُعْتَدٍ﴾ متعَدٍّ ﴿مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ شاكٍّ في الله تعالى وفي دينه.

(٢٦) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الَّذِي قَالَ لله ولد وَشريك) ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ (أي: الغليظ).

(٢٧) ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الشيطان المقيَّض له ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ كأن الكافر قال: هو أطغاني، فقالَ قَرِينُهُ: رَبَّنا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴿وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ فأعنته عليه. فإن إغواء الشياطين إنما يؤثِّر فيمن كان مختلَّ الرأي مائلاً إلى الفجور، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [ابراهيم: ٢٢].

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ أي: الله تعالى ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: في موقف الحساب، فإنه لا فائدة فيه ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ على الطغيان في كتبي وعلى ألسِنةِ رُسُلي فلم تبقَ لكم حجة.

(٢٩) ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي: بوقوع الخلف فيه، فلا تطمعوا أن أبدِّل وعيدي. وعفوُ بعض المذنبين لبعض الأسباب ليس من التبديل، فإن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ فأعذِّب من ليس لي تعذيبُه.

(٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ سؤال وجواب جيء بهما للتخييل والتصوير. والمعنى أنها مع اتساعها تطرح فيها الجِنَّة والناس فوجاً فوجاً حتى تمتلئ، لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨]. أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعدُ فراغ. أو أنها من شدة زفيرها (أي: صوت لَهَبِها) وحدَّتها وتشبُّثها بالعصاة كالمستكثرة لهم والطالبة لزيادتهم.

(٣١) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قُرِّبتْ لهم ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ مكاناً غير بعيد.

(٣٢) ﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ على إضمار القول. والإِشارةُ إلى الثواب ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجَّاع إلى الله تعالى ﴿حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ حافظٍ لحدوده.

(٣٣) ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي: خشيةً ملتبسة بالغيب، حيث خشي عقابه وهو غائب. أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد. وتخصيصُ الرَّحْمن للإِشعار بأنهم يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ويخافون عَذَابَهُ، أو بأنهم يخشونه مع علمهم بسعة رحمته. ووصف القلب بالإِنابة إذ الاعتبار برجوعه إلى الله تعالى (أقول: خوف العبد من الله تعالى بينه وبين الله جل جلاله، لا يعلمه أحد من الخلق ولا يطَّلع عليه أحد من الملائكة، لأن محل الخوف هو القلب. والخوف من الله تعالى إما أن يكون لعظمته أو لعقابه؛ فإذا كان لعظمته يحصل الاستحياء منه تعالى، وأما إذا كان لعقابه فهو أقل درجة. والخوف من الإيمان؛ لأن الله تعالى لا يُرى في الدنيا، لكن الإيمان يقع معنىً مكان الرؤية، يعني كأنه يراه، فمن كان يؤمن بمعيته كأنه يراه فإن هذا يقع مكان الرؤية. وإن حصل هذا فليس من طهارة قلوبنا، بل من فضله تعالى أعطانا شعوراً إيمانياً بالغيب رغم عدم الرؤية؛ هذه منة كبيرةٌ، حتى نبقى مع هذا الإيمان أبد الأبد، ونبقى -في الآخرة- على المحبة لله لا للجنة، وهذا أمر لا يوازيه شيء. اللهم اجعلنا كذلك يا أكرم الأكرمين).

(٣٤) ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لهم ادْخُلُوها ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ سالمين من العذاب وزوال النعم. أو مسلَّماً عليكم من الله تعالى وملائكته ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ يومُ تقديرِ الخلود.

(٣٥) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ وهو ما لا يخطر ببالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(٥١) سُورَةُ الذَّارِيَاتِ (٦٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾

(٣٦) ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم**﴾ قبل قومك ﴿**مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا**﴾ قوّةً؛ كعاد وثمود وفرعون ﴿**فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ**﴾ فخرقوا في البلاد وتصرفوا فيها. أو جالوا في الأرض كل مجال حذر الموت ﴿**هَلْ مِن مَّحِيصٍ** ﴿٣٦﴾﴾ (أي: مهرَب) لهم من الله تعالى، أو من الموت. أو: ساروا في أسفارهم في بلاد القرون، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم.

(٣٧) ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ**﴾ فيما ذُكر في هذه السورة ﴿**لَذِكْرَىٰ**﴾ لتذكرةٌ ﴿**لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ**﴾ أي: قلب واعٍ يتفكر في حقائقه ﴿**أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ**﴾ أي: أصغى لاستماعه ﴿**وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴿٣٧﴾﴾ حاضرٌ بذهنه ليفهم معانيه. أو شاهدٌ بصدقه فيتعظ بظواهره وينزجر بزواجره. وفي تنكير القَلْب وإبهامه تفخيمٌ وإشعارٌ بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كَلَا قلبٍ.

(٣٨) ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾ (أي: في ستة أوقات، أو في مقدار ستة أيام، فإن المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن حينئذ. وفي خلق الأشياء مدرّجاً مع القدرة على إيجادها دفعةً دليلٌ للاختيار، واعتبارٌ للنُّظَّار، وحثٌّ على التأنِّي في الأمور) ﴿**وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ** ﴿٣٨﴾﴾ من تعب وإعياء. وهو ردٌّ لما زعمت اليهود من أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش (نعوذ بالله تعالى من هذا الاعتقاد).

(٣٩) ﴿**فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**﴾ ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإن من قَدِرَ على خلق العالم بلا إعياء قَدِرَ على بعثهم والانتقام منهم. أو ما يقول اليهود من الكفر والتشبيه ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ ونزِّهْهُ عن العجز عما يمكن، والوصف بما يوجب التشبيه، حامداً له على ما أنعم عليك من إصابة الحق وغيرها ﴿**قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ** ﴿٣٩﴾﴾ يعني الفجر والعصر وقد عرفت فضيلة الوقتين.

(٤٠) ﴿**وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ**﴾ أي: وسبحه بعض الليل ﴿**وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ** ﴿٤٠﴾﴾ وأعقاب الصلوات. وقيل المراد بالتسبيح الصلاة؛ فالصلاة قبل الطلوع: الصبحُ، وقبل الغروب: الظهرُ والعصرُ، ومن الليل: العشاءان والتهجد، وأدبار السجود: النوافلُ بعد المكتوبات، وقيل: الوتر بعد العشاء.

(٤١) ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ لِما أُخْبِرُك به من أحوال القيامة. وفيه تهويلٌ وتعظيم للمخبَرِ به ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ إسرافيل عليه السلام، فيقول: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة، إن الله تعالى يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء.

(٤٢) ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ المرادُ به البعث للجزاء ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ من القبور. وهو من أسماء يوم القيامة.

(٤٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣﴾ للجزاء في الآخرة.

(٤٤) ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ تتشقق ﴿ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ مسرعين ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ بعثٌ وجمعٌ ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ هيِّنٌ. فإن ذلك لا يتيسَّر إلا على العالِمِ القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

(٤٥) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ وتهديدٌ لهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمسلَّط، تقسرهم (أي: تُجبرهم) على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد، وإنما أنت داعٍ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ فإنه لا ينتفع به غيره.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة ق

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الذاريات

مكيَّة، وآيها ستون آية

(١) ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١﴾ يعني الرياح تذرو التراب وغيره. أو النساء الوُلَّدُ (جمع وَلود) فإنهن يذرين الأولاد. أو الأسباب التي تذري الخلائق؛ من الملائكة وغيرهم.

(٢) ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾ فالسُّحُب الحاملة للأمطار. أو الرياح الحاملة للسحاب. أو النساء الحوامل. أو أسبابُ ذلك.

(٣) ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ فالسفن الجارية في البحر سهلاً. أو الرياح الجارية في مهابِّها. أو الكواكب التي تجري في منازلها. ويسراً: أي جرياً ذا يسر.

(٤) ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ الملائكة التي تُقَسِّم الأمور؛ من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو ما يعمُّهم وغيرَهم من أسباب القسمة. أو الرياح التي تقسِّم الأمطار بتصريف السحاب.

(٥) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ جوابٌ للقسم. كأنه استدل باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث للجزاء الموعود.

(٦) ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾ الجزاءَ ﴿لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ لحاصلٌ.

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

(٧) ﴿**وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾**﴾ ذات الطرائق. والمراد إما الطرائق المحسوسة التي هي مسير الكواكب، أو المعقولة التي يسلكها النُظَّار ويُتوصَّل بها إلى المعارف. أو النجوم، فإن لها طرائق.

(٨) ﴿**إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾**﴾ في الرسول ﷺ؛ وهو قولهم تارة إنه شاعِرٌ، وتارة إنه ساحِر، وتارة إنه مجْنُون، أو في القرآن، أو القيامة، أو أمر الديانة. ولعلَّ النكتة في هذا القَسَم تشبيهُ أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها.

(٩) ﴿**يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾**﴾ أي: يُصرف عنه - والضمير للرسول ﷺ، أو القرآن، أو الإيمان - مَنْ صُرِفَ. إذ لا صرْفَ أشدُّ منه، فكأنه لا صرف بالنسبة إليه. أو يُصرَف مَنْ صُرِفَ في علم الله تعالى وقضائه.

(١٠) ﴿**قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾**﴾ الكذابون من أصحاب القول المختلف. وأصله الدعاء بالقتل، أُجْرِيَ مجرى اللعن.

(١١) ﴿**ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ**﴾ في جهل يغمرهم ﴿**سَاهُونَ ﴿١١﴾**﴾ غافلون عما أُمِروا به.

(١٢) ﴿**يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾**﴾ أي: فيقولون متى يوم الجزاء؟

(١٣) ﴿**يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾**﴾ يُحرَقون. جوابٌ للسؤال. أي: يقع يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ.

(١٤) ﴿**ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ**﴾ أي: مقولاً لهم هذا القول ﴿**هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾**﴾ هذا العذاب هو الذى كنتم به تستعجلون.

(١٥-١٦) ﴿**إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ**﴾ قابلين لِما أعطاهم راضين به. ومعناه أن كل ما آتاهم حَسَنٌ مَرْضِيٌّ مُتلقّى بالقبول ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾**﴾ قد أحسنوا أعمالهم. وهو تعليل لاستحقاقهم ذلك.

(١٧) ﴿**كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾**﴾ أي: يهجعون في طائفة من الليل، أو يَهْجَعُونَ هجوعاً قليلاً. وفيه مبالغات لتقليل نومهم واستراحتهم بذكر القليل واللَّيْلِ الذي هو وقت السبات، والهجوعِ الذي هو الفرار إلى النوم.

(١٨) ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ أي: إنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجُّدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. وهم أحقاء في ذلك لوفور علمهم بالله تعالى وخشيتهم منه (أقول: حقُّكم جميعاً في وقت السحر أن تستغفروا مئة مرة، وإذا جعلتم هذا قاعدة لكم دوموا عليه، وإذا لم تجعلوه قاعدة لكم لعدم الاهتمام لا بد أن تتمسَّكوا بهذه الآية).

(١٩) ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقرُّباً إلى الله تعالى وإشفاقاً على الناس (أقول: لكن العطاء صعب على النفس. ومن لم يكن له إشفاق على الناس لا خير فيه) ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ للمستجدي (أي: طالب العطاء) والمتعفِّفِ الذي يُظَنُّ غنياً فيُحرَم الصدقة.

(٢٠) ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ أي: فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوانات. أو وجوه دلالات من الدحو (أي: البسط) والسكون وارتفاع بعضها عن الماء واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص والمنافع، تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته جل وعلا.

(٢١) ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: وفي أنفسكم آياتٌ، إذ ما في العالم شيء إلا وفي الإنسان له نظير يدل دلالَتَه، مع ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكُّن من الأفعال الغريبة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ تنظرون نَظَرَ من يَعتبر.

(٢٢) ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أسبابُ رزقكم. أو تقديرُه. وقيل: المراد بالسَّماءِ السحابُ، وبالرزقِ المطرُ، فإنه سببُ الأقوات ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ من الثواب. لأن الجنة فوق السماء السابعة. أو لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدَّرة في السماء.

(٢٣) ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ أي: مثلَ نطقكم. كما أنه لا شكَّ لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكُّوا في تحقق ذلك.

(٢٤) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث، وتنبيهٌ على أنه أوحي إليه. والضيف يطلق للواحد والمتعدد، قيل: كانوا إثني عشر ملَكاً، وقيل: ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، وسمَّاهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤﴾ أي: مكرَمين عند الله تعالى، أو عند إبراهيم عليه السلام؛ إذ خدمهم بنفسه وزوجته.

(٢٥) ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: نسلِّم عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلامٌ ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ أي: أنتم قوم منكَرون. وإنما أنكرهم لأنه ظنَّ أنهم بنو آدم ولم يعرفهم. أو لأن السلام لم يكن تحيتهم، فإنه عَلَمُ الإسلام. وهو كالتعرُّف عنهم.

(٢٦) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ فذهب إليهم في خِفية من ضيفانه، فإن من أدب المضيف أن يبادر بالقِرى (أي: بالطعام﴾ حذراً من أن يكفَّه الضيف أو يصير منتظراً ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦﴾ لأنه كان عامَّةُ مالِهِ البقر (أقول: كان عليه الصلاة والسلام يشتغل في الدنيا ويجمع البقر وهو خليل الله تعالى. أما نحن فبالدنيا نبعد عن الله جل وعلا، وإلا فإن الدنيا ليست ممنوعة).

(٢٧) ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ بأن وضعه بين أيديهم ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾ أي: منه. وهو مُشعِرٌ بكونه حنيذاً (أي: مشوياً). والاستفهام فيه للعرض والحثِّ على الأكل على طريقة الأدب إن قاله أوَّلَ ما وضعه، وللإنكار إن قاله حينما رأى إعراضهم.

(٢٨) ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ فأضمر منهم خوفاً لَمّا رأى إعراضهم عن طعامه لظنه أنهم جاءوه لشرٍّ (أقول: يخاف لأنه عبد، ولو كان خليل الله تعالى) ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ إنا رُسُل الله تعالى. قيل: مسح جبريل العجلَ بجناحه فقام يدرُج (أي: يمشي) حتى لِحق بأمه. فعرفهم وأَمِنَ منهم ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحق عليه الصلاة السلام ﴿عَلِيمٖ ٢٨﴾ يكمُل علمُه إذا بَلغ.

(٢٩) ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ سارة رضي الله تعالى عنها إلى بيتها، وكانت في زاوية تنظر إليهم ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ في صيحة شديدة ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ فلطمت بأطراف الأصابع جبهتها فِعْلَ المتعجب. وقيل: وجدت حرارة دم الحيض فلطمت وجهها من الحياء ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ أي: أنا عجوز عاقرٌ فكيف أَلِدُ.

(٣٠) ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك الذي بشَّرنا به ﴿قَالَ رَبُّكِۖ﴾ وإنما نخبِرُك به عنه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ فيكون قوله حقاً وفعله محكماً.

۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

(٣١) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ لمّا علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم سأل عنه.

(٣٢) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يعنون قوم لوط عليه السلام.

(٣٣) ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ يريد السجِّيل، فإنه طين متحجِّر.

(٣٤) ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ مرسَلةً، أو معلَّمة ﴿لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ المجاوِزين الحدَّ في الفجور.

(٣٥) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قرى قوم لوط ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ ممَّن آمنَ بلوط عليه السلام.

(٣٦) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ غير أهل بيت من المسلمين (يعني من المؤمنين).

(٣٧) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي: علامة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ فإنهم المعتبِرون بها، وهي تلك الأحجار. أو صخر منضود فيها. أو ماء أسود منتِن.

(٣٨) ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ على معنى: وجعلنا في موسى عليه الصلاة والسلام آيةً ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ بحجَّة ظاهرة هي معجزاته؛ كالعصا واليد.

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فأعرض عن الإيمان به، أو فتولَّى بما كان يتقوى به من جنوده. والركنُ: اسم لما يَركن إليه الشيء ويتقوى به ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي: هو ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ كأنه جعل ما ظهر عليه من الخوارق منسوباً إلى الجِن. وتردَّد في أنه حصل ذلك باختياره وسعيه أو بغيرهما.

(٤٠) ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فأغرقناهم في البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ آتٍ بما يُلام عليه من الكفر والعناد.

(٤١) ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ سمّاها عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم. أو لأنها لم تتضمن منفعة.

(٤٢) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ﴾ مرّت ﴿عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ كالرماد. من الرمِّ: وهو البِلَى والتفتت.

(٤٣) ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ تفسيرُه قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

(٤٤) ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ فاستكبروا عن امتثاله ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: العذاب بعد الثلاث (وهي: نار تسقط من السماء في رعد شديد) ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٤٤﴾ إليها فإنها، جاءتهم معاينة بالنهار.

(٤٥) ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ﴾ كقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١] (أي: لاصِقين بمكانهم من الأرض لا يقدرون على الحركة والقيام) ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾ ممتنعين منه.

(٤٦) ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح عليه السلام ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾ من قبلِ هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٤٦﴾ خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان.

(٤٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ لقادرون. أو لَمُوسِعُونَ السماء أو ما بينها وبين الأرض، أو الرزق.

(٤٨) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ مهَّدناها لتستقروا عليها ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ أي: نحن.

(٤٩) ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ من الأجناس ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ نوعين ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ فتعلمون أن التعدُّدَ من خواص الممكنات، وأن الواجب بالذات لا يَقبل التعدد والانقسام.

(٥٠) ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ من عقابه؛ بالإِيمان والتوحيد وملازمة الطاعة ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ﴾ أي: من عذابه المُعَدِّ لمن أشرك أو عصى (إذا لم يتب) ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ بيِّن كونه منذِراً من الله تعالى بالمعجزات. أو مُبِيِّنٌ ما يجب أن يُحذر عنه.

(٥١) ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ إفرادٌ لأعظم ما يجب أن يُفَرَّ منه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١﴾ تكريرٌ للتأكيد. أو الأوَّلُ مرتَّبٌ على ترك الإِيمان والطاعة، والثاني على الإِشراك.

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

٥٢ سُورَةُ الطُّورِ ٤٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

(٥٢) ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ أي: الأمر مثل ذلك. والإشارة إلى تكذيبهم الرسولَ وتسميتهم إياه ساحراً أو مجنوناً. وقولُه: ﴿**مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾**﴾ كالتفسير له.

(٥٣) ﴿**أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ**﴾ أي: كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً ﴿**بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾**﴾ إضرابٌ عن أن التواصي جامعُهم – لتباعد أيامهم – إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتُهم في الطغيان الحامل عليه.

(٥٤) ﴿**فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ**﴾ فأعرِضْ عن مجادلتهم بعد ما كرَّرتَ عليهم الدعوة فأبوا إلا الإصرار والعناد ﴿**فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾**﴾ على الإعراض، بعد ما بذلتَ جهدك في البلاغ.

(٥٥) ﴿**وَذَكِّرۡ**﴾ ولا تَدَعِ التذكير والموعظة ﴿**فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾**﴾ أي: مَنْ قدَّر الله تعالى إيمانه، أو مَنْ آمن فإنه يزداد بها بصيرة.

(٥٦) ﴿**وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾**﴾ لمّا خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة مغلِّبةٍ لها، جعل خَلقهم مُغَيّاً بها (أي: جُعل غاية لما مرَّ). وقيل: معناه إلا لنأمرهم بالعبادة، أو ليكونوا عباداً لي.

(٥٧) ﴿**مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾**﴾ أي: ما أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي، فاشتغِلوا بما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به. والمراد أن يبيِّن أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يَملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم.

(٥٨) ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ**﴾ الذي يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق. وفيه إيماء باستغنائه عنه ﴿**ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾**﴾ شديد القوة جلَّ وعلا.

(٥٩) ﴿**فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا**﴾ أي: للذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب نصيباً من العذاب ﴿**مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ**﴾ مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة ﴿**فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾**﴾ جوابٌ لقولهم: ﴿مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

(٦٠) ﴿**فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾**﴾ من يوم القيامة، أو يوم بدر.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الذاريات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطور

مكيَّة، وآيها تسع وأربعون آية

(١) ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ يريدُ طورَ سينين، وهو جبل بمديَن سمع فيه موسى عليه الصلاة والسلام كلام الله تعالى. وَالطُّور: الجبل بالسريانية، أو ما طار من أوج الإيجاد إلى حضيض المواد، أو من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

(٢) ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢﴾ مكتوبٍ. والسطرُ: ترتيب الحروف المكتوبة. والمراد به القرآن، أو ما كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ، أو في ألواح موسى عليه الصلاة والسلام، أو في قلوب أوليائه من المعارف والحكم، أو ما تكتبه الحفظة.

(٣) ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣﴾ الرَّقُّ: الجلد الذي يُكتب فيه. استعير لما كتب فيه الكتاب. وتنكيرهما للتعظيم والإشعار بأنهما ليسا من المتعارَف فيما بين الناس.

(٤) ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾ يعني الكعبةَ، وعمارتُها بالحُجّاج والمجاورين. أو الضُّراح: (وهو بيت في السماء مُقابِل الكعبة في الأَرض) وهو في السماء الرابعة، وعمرانه كثرةُ غاشيته من الملائكة. أو قلب المؤمن، وعمارته بالمعرفة والإخلاص.

(٥) ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماء.

(٦) ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾ أي: المملوء؛ وهو المحيط. أو الموقَد من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]. روي أنه تعالى يجعل يوم القيامة البحار ناراً يسجر بها نار جهنم.

(٧) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ لَنازِلٌ.

(٨) ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝٨﴾ يدفعه. ووجه دلالة هذه الأمور المُقسَم بها على ذلك أنها أمور تدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته وصدق إخباره وضبطه أعمال العباد للمجازاة.

(٩) ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩﴾ تضطرب. وقيل: تتحرَّك في تموّج.

(١٠) ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ أي: تسير عن وجه الأرض فتصير هباء.

(١١) ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ أي: إذا وقع ذلك فويلٌ لهم.

(١٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾ أي: في الخوض في الباطل.

(١٣) ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾ يُدفَعون إليها دفعاً بعنف، وذلك بأن تُغَلَّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجمَع نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار.

(١٤) ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ أي: فيقال لهم ذلك.

أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

(١٥) ﴿**أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ**﴾ أي: كنتم تقولون للوحي: هذا سحرٌ، أفهذا المصداق أيضاً سحر؟ ﴿**أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾**﴾ هذا أيضاً كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ما يدل عليه. وهو تقريع وتهكم. أو: أم سُدَّتْ أبصارُكم كما سدت في الدنيا على زعمكم حين قلتم: ﴿إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا﴾ [الحجر: ١٥].

(١٦) ﴿**ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ**﴾ أي: ادخلوها على أيِّ وجهٍ شئتم من الصبر وعدمه، فإنه لا محيص (أي: لا مَهرَب) لكم عنها ﴿**سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ**﴾ أي: الأمْرَان، الصبر وعدمه ﴿**إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾**﴾ تعليلٌ للاستواء، فإنه لما كان الجزاء واجبَ الوقوع كان الصبرُ وعدمُه سِيَّين (أي: متساويين) في عدم النفع.

(١٧) ﴿**إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾**﴾ في أيّة جنات وأيِّ نعيم! أو في جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ مخصوصة بهم.

(١٨) ﴿**فَٰكِهِينَ**﴾ ناعمين متلذِّذين ﴿**بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾**﴾.

(١٩) ﴿**كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا**﴾ أي: أكلاً وشرباً هَنِيئاً، وهو الذي لا تنغيصَ (أي: لا تكدير) فيه ﴿**بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾**﴾ بسببه أو بَدَله. والمعنى هنأكم مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، أي: جزاؤه.

(٢٠) ﴿**مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ**﴾ مصطفَّة ﴿**وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾**﴾ أي: صيَّرناهم أزواجاً بسببهنَّ (أقول: الله تعالى أرحم الراحمين، يكثر في الآيات من ذكر الحور العين لأنه يعلم أن عباده منغمسين في الشهوات، فينصحهم بأنهم إذا حافظوا على عفَّتهم في الدنيا يكون لهم هذا في الآخرة).

(٢١) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ**﴾ أي: جعلناهم تابعين لهم في الإيمان. أو الإشعار بأنه يكفي للإلحاق المتابعة في أصل الإيمان ﴿**أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ**﴾ في دخول الجنة، أو في الدرجة (أقول: لكن الذي عمل حقيقة العمل وألِحقَتْ به ذريته يوم القيامة يختلف عنهم في تنعُّمه، كمن ينظر في المنظار فيرى ما لا يراه مَنْ حوله) ﴿**وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم**﴾ وما نقصناهم بهذا الإلحاق ﴿**مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ**﴾ فإنه كان يحتمل أن يكون بنقص مرتبة الآباء، أو بإعطاء الأبناء بعض مثوباتهم، ويحتمل أن يكون بالتفضُّل عليهم، وهو اللائق بكمال لطفه جلَّ وعلا ﴿**كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾**﴾ بعمله مرهون عند الله تعالى، فإنْ عمل صالحاً فكَّه وإلا أهلكه.

(٢٢) ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وزدناهم وقتاً بعد وقت ما يشتهون من أنواع النِّعم.

(٢٣) ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ يتعاطَون هم وجلساؤهم بتجاذبٍ ﴿كَأْسًا﴾ أي: خمراً. سمَّاها باسم محلها ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: لا يتكلمون بلغو الحديث في أثناء شربها، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله كما هو عادة الشاربين في الدنيا.

(٢٤) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالكأس ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: مماليك مخصوصون بهم. وقيل: هم أولادهم الذين سبقوهم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ مصونٌ في الصدف (غشاء الدُّرِّ) من بياضهم وصفائهم.

(٢٥) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله.

(٢٦) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ خائفين من عصيان الله تعالى، معتنين (أي: مهتمِّين) بطاعته. أو وجلين من العاقبة.

(٢٧) ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرحمة والتوفيق ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم (وهي الريح الحارَّة التي تدخل المسام).

(٢٨) ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ ذلك في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده. أو نسأله الوقاية ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ المحسن ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ الكثير الرحمة جلَّ وعلا.

(٢٩) ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبُتْ على التذكير ولا تكترث بقولهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمدِ الله تعالى وإنعامه ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ كما يقولون.

(٣٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ ما يُقلق النفوسَ من حوادث الدهر. وقيل: المَنُونُ: الموت.

(٣١) ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ أتربَّص (أي: أنتظر) هلاككم كما تتربَّصون هلاكي.

أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

(٥٣) سُورَةُ النَّجۡمِ (٦٢)

(٣٢) ﴿**أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم**﴾ عقولهم ﴿**بِهَٰذَآۚ**﴾ بهذا التناقض في القول، فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر، والمجنونَ مغطى عقلُه، والشاعرَ يكون ذا كلام موزون متسق مخيَّل (أي: متناسق)، ولا يتأتى ذلك من المجنون ﴿**أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢**﴾ مجاوِزون الحدَّ في العناد.

(٣٣) ﴿**أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ**﴾ اختلقه من تلقاء نفسه ﴿**بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣**﴾ فيرمونه بهذه المطاعن لكفرهم وعنادهم.

(٣٤) ﴿**فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ**﴾ مثل القرآن ﴿**إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤**﴾ في زعمهم، إذ فيهم كثير ممن عُدُّوا فصحاء. فهو ردٌّ للأقوال المذكورة بالتحدي. ويجوز أن يكون ردّاً للتقول، فإن سائر الأقسام من الأقوال ظاهرُ الفساد.

(٣٥) ﴿**أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ**﴾ أم أُحدِثوا وقُدِّروا من غير محدِثٍ ومقدِّرٍ فلذلك لا يعبدونه؟ ﴿**أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥**﴾ أم خلقوا أنفسهم.

(٣٦) ﴿**أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ**﴾ والاستفهام فيها للإنكار ﴿**بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦**﴾ إذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله. إذ لو أيقنوا ذلك لما أعرضوا عن عبادته جلَّ وعلا.

(٣٧) ﴿**أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ**﴾ خزائن رزقه، حتى يَرزقوا النبوة من شاؤوا؟ أو خزائنُ علمه حتى يختاروا لها من اختارته حكمته؟ ﴿**أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧**﴾ الغالبون على الأشياء يدبِّرونها كيف شاؤوا؟

(٣٨) ﴿**أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ**﴾ مرتقى إلى السماء ﴿**يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ**﴾ إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن؟ ﴿**فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨**﴾ بحجة واضحة تصدِّق استماعه.

(٣٩) ﴿**أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٩**﴾ فيه تسفيه لهم وإشعار بأن مَنْ هذا رأيه لا يُعَدُّ من العقلاء، فضلاً عن أن يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيطَّلع على الغيوب.

(٤٠) ﴿**أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا**﴾ على تبليغ الرسالة؟ ﴿**فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ**﴾ من التزام غُرمٍ (أي: خسارة) ﴿**مُّثۡقَلُونَ ٤٠**﴾ محمَّلون الثقل، فلذلك زهدوا في اتباعك.

(٤١) ﴿**أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ**﴾ اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيَّبات ﴿**فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤١**﴾ يحكمون منه.

(٤٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله ﷺ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ هم الذين يحيق بهم الكيد، أو يعود عليهم وبالُ كيدهم، وهو قتلهم يوم بدرٍ.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يُعينهم ويحرسهم من عذابه ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ عن إشراكهم.

(٤٤) ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ هذا سحاب تراكم بعضه على بعض. وهو جواب قولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

(٤٥) ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وهو عند النفخة الأولى.

(٤٦) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: شيئاً من الإغناء في ردِّ العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يُمنعون من عذاب الله تعالى.

(٤٧) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون عذاب الآخرة. وهو عذاب القبر أو المؤاخذة في الدنيا؛ كقتلهم ببدر، والقحط سبع سنين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ذلك.

(٤٨) ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ (أقول: مُرِّه وحُلوه). بإمهالهم وإبقائك في عَنائهم ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في حفظنا، بحيث نراك ونكلؤك (أي: نحفظك ونحرسك) ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ من أيِّ مكان قمتَ. أو من منامك. أو إلى الصلاة.

(٤٩) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فإن العبادة فيه أشقُّ على النفس وأبعدُ عن الرياء ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الطور وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النجم

مكيَّة، وآيها اثنتان وستون آية

(١) ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾ أقسَمَ بجنس النجوم – أو الثريا فإنه غُلِّب فيها – إذا غرب، أو انتثر يوم القيامة، أو انقضَّ، أو طلع. أو بالنجم من نجوم القرآن إذا نزل. أو النبات إذا سقط على الأرض، أو إذا نما وارتفع. على قوله تعالى:

(٢) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ما عَدَلَ محمد ﷺ عن الطريق المستقيم ﴿وَمَا غَوَىٰ ②﴾ وما اعتقد باطلاً. والخطابُ لقريش، والمراد نفيُ ما ينسبون إليه.

(٣) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③﴾ وما يصدر نطقه عليه الصلاة والسلام بالقرآن عَنِ الهوى.

(٤) ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآن، أو الذي ينطق به ﴿إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ④﴾ أي: إلا وحيٌ يوحيه الله تعالى إليه.

(٥) ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ⑤﴾ ملَك شديدُ قِواه، وهو جبريل عليه السلام، فإنه الواسطة في إبداء الخوارق.

(٦) ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ حصافةٍ في عقله ورأيه (والحصافة: استحكام العقل وصحة الرأي) ﴿فَٱسْتَوَىٰ ⑥﴾ فاستقام على صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها. قيل ما رآه أحد من الأنبياء في صورته غير محمد عليه الصلاة والسلام مرتين، مرة في السماء ومرة في الأرض. وقيل استوى بقوَّته على ما جُعل له من الأمر.

(٧) ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ⑦﴾ في أفق السماء. والضميرُ لجبريل عليه السلام.

(٨) ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من النبي عليه الصلاة والسلام ﴿فَتَدَلَّىٰ ⑧﴾ فتعلَّق به. وهو تمثيل لعروجه بالرسول ﷺ. وقيل: ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من الرسول عليه الصلاة والسلام، فيكون إشعاراً بأنه عرج به غير منفصل عن محله تقريراً لشدة قوته.

(٩) ﴿فَكَانَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدارهما ﴿أَوْ أَدْنَىٰ ⑨﴾ على تقديركم. والمقصود تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحي إليه بنفي البعد الملبِّس.

(١٠) ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ عبدِ الله تعالى ﴿مَآ أَوْحَىٰ ⑩﴾ جبريل عليه السلام. وفيه تفخيم للموحى به. أو أوحى الله تعالى إليه. وقيل: الضمائر كلها لله تعالى، وهو المعنيُّ بـ ﴿شَدِيدُ

﴿ٱلْقُوَىٰ﴾. ودنوُّه منه: برفع مكانته. وتدلِّيه: جذبُه بشَرَاشِرِهِ (أي: بكلِّيَّته) إلى جناب القدس.

(١١) ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ ما رأى ببصره من صورة جبريل عليه السلام، أو الله تعالى. أي: ما كذب بصره بما حكاه له، فإن الأمور القدسية تدرَك أوَّلاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر. أو ما قال فؤاده لما رآه: لمْ أعرِفْك، لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره. أو ما رآه بقلبه. والمعنى أنه لم يكن تخيُّلاً كاذباً.

(١٢) ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ أفتجادلونه عليه؟

(١٣) ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ مرة أخرى. وفيه إشعارٌ بأن الرؤية في هذه المرة كانت أيضاً بنزولٍ ودنوٍّ. وقيل: تقديره ولقد رآه نازلاً نزلة أخرى. والمراد به نفي الريبة عن المرة الأخيرة.

(١٤) ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ التي تنتهي إليها أعمال الخلائق وعلمهم. أو ما ينزل من فوقها ويصعد من تحتها. ولعلها شبهت بالسدرة – وهي شجرة النبق – لأنهم يجتمعون في ظلها. وروي مرفوعاً أنها في السماء السابعة.

(١٥) ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ الجنةُ التي يأوي إليها المتقون أو أرواح الشهداء.

(١٦) ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ تعظيمٌ وتكثيرٌ لما يغشاها، بحيث لا يكتنهها (أي: لا يدرك حقيقتَها) نعتٌ ولا يحصيها عَدٌّ. وقيل: يغشاها الجَمُّ الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها.

(١٧) ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ وما تجاوزه، بل أثبته إثباتاً صحيحاً مستيقناً. أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أُمِر برؤيتها وما جاوزها.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ أي: واللهِ لقد رأى الكبرى من آياته وعجائبه المُلكية والملكوتية ليلة المعراج. وقد قيل: إنها المعنيَّة بما رَأى.

(١٩ـ٢٠) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ هي أصنام كانت لهم؛ فاللات كانت لثقيف بالطائف أو لقريش بنخلة، وَالْعُزَّى سَمُرَةٌ (هي نوع من الشجر) لغطفان كانوا يعبدونها فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، وَمَنَاةَ صخرة كانت لهذيل وخزاعة أو لثقيف فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين.

(٢١) ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١﴾ إنكارٌ لقولهم: الملائكة بنات الله، وهذه الأصنام استوطنها جنِّيَّاتٌ هنَّ بناتُه أو هياكل الملائكة.

(٢٢) ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ جائرة، حيث جعلتم له ما تستنكفون منه.

(٢٣) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ الضمير للأصنام. أي: ما هي باعتبار الألوهية إلا أسماء تطلقونها عليها، لأنهم يقولون: إنها آلهة، وليس فيها شيء من معنى الألوهية. أو للصفة التي تصفونها بها من كونها آلهة وبناتٍ وشفعاء. أو للأسماء المذكورة، فإنهم كانوا يطلقون اللات عليها باعتبار استحقاقها للعكوف على عبادتها، والعُزَّى لعزتها، ومناة لاعتقادهم أنها تستحق أن يُتقرب إليها بالقرابين ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ سَمَّيتم بها ﴿أَنتُمْ

﴿وَءَابَآؤُكُم﴾ بهواكم ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ برهانٍ تتعلقون به ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا توهُّمَ أنَّ ما هم عليه حقٌّ تقليداً وتوهماً باطلاً ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ وما تشتهيه أنفسهم ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام، أو الكتاب، فتركوه.

(٢٤) ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤﴾ أي: ليس له كل ما يتمناه. والمراد نفي طمعهم في شفاعة الآلهة.

(٢٥) ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥﴾ يعطي منهما ما يشاء لمن يريد، وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

(٢٦) ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ وكثيرٌ من الملائكة لا تغني شفاعتهم شيئاً ولا تنفع ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾ في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من الملائكة أن يَشفع، أو من الناس أن يُشفَع له ﴿وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ ويراه أهلاً لذلك. فكيف تشفع الأصنام لعبدتهم؟

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: كلَّ واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ بأن يسموه بنتاً.

(٢٨) ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بما يقولون ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ فإن الحق الذي هو حقيقة الشيء لا يدرَك إلا بالعلم. والظنُّ لا اعتبار له في المعارف الحقيقية.

(٢٩) ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ فأعرضْ عن دعوته والاهتمام بشأنه، فإن من غفل عن الله تعالى وأعرض عن ذكره وانهمك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته ومبلغ علمه لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: أمرُ الدنيا، أو كونها شهيةً ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ لا يتجاوزه علمهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ أي: إنما يعلم الله تعالى من يجيب ممن لا يجيب، فلا تتعبْ نفسك في دعوتهم، إذ ما عليك إلا البلاغ وقد بلَّغْتَ.

(٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلقاً وملْكاً ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ بعقاب ما عملوا من السوء. أي: خلق العالَمَ وسوّاه للجزاء. أو ميَّز الضال من المهتدي وحفظ أحوالهم لذلك ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ بالمثوبة الحسنى؛ وهي الجنة. أو بأحسنَ من أعمالهم. أو بسبب الأعمال الحسنى.

(٣٢) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ما يكبُرُ عقابه من الذنوب؛ وهو ما رُتِّب عليه الوعيد بخصوصه. وقيل: ما أوجبَ الحَدَّ ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وما فحُش من الكبائر خصوصاً ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ إلا ما قلَّ وصغُر، فإنه مغفور من مجتنبي الكبائر ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر. أو له أن يغفر ما شاء من الذنوب، صغيرِها وكبيرِها. ولعله عقَّبَ به وعيد المسيئين ووعد المحسنين لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته، ولا يُتوهَّم وجوب العقاب على الله تعالى ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أعلم بأحوالكم منكم ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ عَلِمَ أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتدأ خلقكم من التراب بخلق آدم، وحينما صوَّركم في الأرحام ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تُثنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير، أو

بالطهارة عن المعاصي والرذائل ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ فإنه يعلم التقيَّ وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه الصلاة والسلام.

(٣٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ عن اتباع الحق والثبات عليه.

(٣٤) ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ وقطعَ العطاء. والأكثر على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان يتبع رسول الله ﷺ فعيَّره بعض المشركين وقال: تركتَ دين الأشياخ وضلَّلتهم، فقال أخشى عذاب الله تعالى، فضمن أن يتحمل عنه العقاب إن أعطاه بعض ماله، فارتدَّ وأعطى بعض المشروط ثم بخل بالباقي.

(٣٥) ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ يعلم أن صاحبه يتحمَّل عنه.

(٣٦ـ٣٧) ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ وفَّى وأتمَّ ما التزمه أو أُمِر به. أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله تعالى. وتخصيصُه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره؛ كالصبر على نار نمروذ حتى أتاه جبريل عليه السلام حين ألقي في النار فقال: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، وذبْحِ الولد، وأنه كان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد (أي: يلتمس) ضيفاً، فإن وافقه أكرمَه وإلا نوى الصوم. وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صُحُفه - وهي التوراة - كانت أشهر وأكبر عندهم.

(٣٨) ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ كأنه قيل: ما في صحفهما؟ فأجاب به. والمعنى أنه لا يؤاخَذ أحدٌ بذنب غيره.

(٣٩) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ إلا سعيَه. أي: كما لا يؤاخذ أحد بذنب الغير لا يثاب بفعله.

(٤٠ـ٤١) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أي: يجزى العبدُ سعيه بالجزاء الأوفر.

(٤٢) ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ انتهاء الخلائق ورجوعهم.

(٤٣ـ٤٤) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ لا يقدر على الإِماتة والإِحياء غيرُه، فإن القاتل ينقض البُنية، والموتُ يحصل عنده بفعل الله تعالى على سبيل العادة.

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

٥٤ سُورَةُ القَمَرِ ٥٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

(٤٥-٤٦) ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ تُدفَقُ في الرحم، أو تُخلَق، أو يقدَّرُ منها الولد.

(٤٧) ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ الإِحياء بعد الموت وفاءً بوعده.

(٤٨) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ وأعطى القنية؛ وهو ما يُتأثل من الأموال (أي: يُدَّخر بقصد الاستثمار)، وإفرادها لأنها أشف الأموال (أي: أنفَسُها).

(٤٩) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ يعني العبور (اسم نجم) وهي أشدُّ ضياء من الغميصاء (اسم نجم آخر)، عبَدَها أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ وخالف قريشاً في عبادة الأوثان، ولذلك كانوا يسمُّون الرسول ﷺ ابن أبي كبشة. ولعل تخصيصها للإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وإن وافق أبا كبشة في مخالفتهم خالَفَهُ أيضاً في عبادتها.

(٥٠) ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ القدماء، لأنهم أُولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه الصلاة والسلام.

(٥١) ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ الفريقين.

(٥٢) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ﴾ من قبلِ عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ من الفريقين، لأنهم كانوا يؤذونه وينفِّرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك.

(٥٣) ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقرى التي ائتفكت بأهلها - أي: انقلبت - وهي قرى قوم لوط عليه السلام ﴿أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ بعد أن رفعها فقلبها.

(٥٤) ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ فيه تهويلٌ وتعميمٌ لما أصابهم.

(٥٥) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ تتشكَّك؟ والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد. والمعدودات وإن كانت نعماً ونقماً سمّاها آلاء من قِبَلِ ما في نِقَمِه من العبر والمواعظ للمعتبِرين، والانتقامِ للأنبياء والمؤمنين.

(٥٦) ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هذا القرآن إنذارٌ من جنس الإِنذارات المتقدمة. أو هذا الرسول عليه الصلاة والسلام نذير من جنس المنذرين الأولين.

(٥٧) ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ دَنَتِ الساعة.

(٥٨) ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ ليس لها نفسٌ قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله تعالى، لكنه لا يكشفها. أو الآن بتأخيرها إلا الله تعالى. أوْ ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله تعالى، إذ لا يطلع عليه سواه جل وعلا.

(٥٩) ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿تَعۡجَبُونَ ۝٥٩﴾ إنكاراً.

(٦٠) ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠﴾ تحزناً على ما فرّطتم.

(٦١) ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ لاهون. أو مستكبرون. أو مغنُّون لتشغلوا الناس عن استماعه

(٦٢) ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ۩ ۝٦٢﴾ أي: واعبدوه جل وعلا دون الآلهة.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة النجم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القمر

مكيَّة، وآيها خمس وخمسون آية

(١) ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ روي أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ آيةً فانشق القمر [أخرجه الشيخان رحمهما الله تعالى] (وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشقَّ القمر ونحن مع النبيِّ ﷺ بمنًى، فقال: «اشهدوا» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]) أي: اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها انشقاق القمر.

(٢) ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ﴾ عن تأمُّلِها والإيمانِ بها ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ۝٢﴾ مطَّرِدٌ (أي: متتابع). وهو يدلُّ على أنهم رأوا قبله آيات أخر مترادفة ومعجزات متتابعة حتى قالوا ذلك.

(٣) ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ وهو ما زيَّن لهم الشيطان من ردِّ الحق بعد ظهوره ﴿وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ ۝٣﴾ مُنْتَهٍ إلى غايةٍ من خذلان أو نصر في الدنيا، وشقاوةٍ أو سعادة في الآخرة، فإن الشيء إذا انتهى إلى غايته ثبت واستقر.

(٤) ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم﴾ في القرآن ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤﴾ ازدجارٌ (أي: نهيٌ وزجرٌ) من تعذيب أو وعيد.

(٥) ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ غايتَها، لا خلل فيها ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ نفيٌ أو استفهامُ إنكارٍ. أي: فأيَّ غناء تغني النذر؟

(٦) ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ لِعلمك أن الإنذار لا يغني فيهم ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ إسرافيل عليه السلام (بأمر ربه سبحانه وتعالى) ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ فظيعٍ تُنكِره النفوس لأنها لم تعهد مثله؛ وهو هول يوم القيامة.

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

(٧) ﴿**خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ**﴾ أي: يخرجون من قبورهم ذليلةً أبصارُهم من الهول ﴿**كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾**﴾ في الكثرة والانتشار في الأمكنة.

(٨) ﴿**مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ**﴾ (وهو اسرافيل عليه السلام بأمر ربه سبحانه وتعالى) مُسرعين مادِّي أعناقهم إليه، أو ناظرين إليه ﴿**يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾**﴾ صعب.

(٩) ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ**﴾ قبلَ قومك ﴿**فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا**﴾ نوحاً عليه السلام. وقيل: معناه كذبوه تكذيباً على عَقِبِ تكذيب، كلما خلا منهم قرنٌ مكذِّب تبعه آخرون مكذبون. أو كذَّبوه بعد ما كذبوا الرسل ﴿**وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ**﴾ هو مجنون ﴿**وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾**﴾ وزُجِرَ (أي: نُهِيَ) عن التبليغ بأنواع الأذية.

(١٠) ﴿**فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ**﴾ غلبني قومي ﴿**فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾**﴾ فانتقِمْ لي منهم. وذلك بعد يأسه منهم، فقد روي أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخرَّ مغشياً عليه، فيفيق ويقول: «اللَّهُم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى بلفظ آخر].

(١١) ﴿**فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾**﴾ مُنْصَبٍّ. وهو مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها.

(١٢) ﴿**وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا**﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة ﴿**فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ**﴾ ماء السماء وماء الأرض ﴿**عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾**﴾ على حال قدَّرها الله تعالى في الأزل من غير تفاوت. أو على حال قُدِّرت وسُوِّيَتْ؛ وهو أن قَدَّر ما أَنزَلَ على قدر ما أَخرَجَ. أو على أمر قدَّره الله تعالى؛ وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

(١٣) ﴿**وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ**﴾ ذات أخشاب عريضة ﴿**وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾**﴾ ومسامير.

(١٤) ﴿**تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا**﴾ بمرأى منا، أي: محفوظة بحفظنا ﴿**جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾**﴾ أي: فعَلنا ذلك جزاءً لنوحٍ عليه السلام لأنه نعمةٌ كفَروها، فإن كل نبيٍّ نعمة من الله تعالى ورحمة على أمته.

(١٥) ﴿**وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ**﴾ أي: السفينة. أو الفِعْلَة ﴿**ءَايَةً**﴾ يُعتبَر بها، إذ شاع خبرُها واشتهر ﴿**فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾**﴾ مُعتبِر؟

(١٦) ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾**﴾ استفهامُ تعظيمٍ ووعيد.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ سهَّلناه، أو هيَّأناه ﴿لِلذِّكْرِ﴾ للادِّكار والاتعاظ؛ بأن صرَّفنا فيه أنواع المواعظ والعبر. أو للحفظ؛ بالاختصار وعذوبة اللفظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ متَّعِظ؟

(١٨) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٨﴾ وإنذاراتي لهم بالعذاب قبل نزوله؟ أو لمن بعدهم في تعذيبهم؟

(١٩) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة، أو شديدة الصوت ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شُؤْمٍ ﴿مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ أي: استمر شؤمه. أو استمر عليهم حتى أهلكهم. أو على جميعهم كبيرهم وصغيرهم فلم يُبقِ منهم أحداً. أو اشتدت مرارته، وكان يوم الاربعاء آخر الشهر.

(٢٠) ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تقلعهم. روي أنهم دخلوا في الشعاب والحُفَرِ (والشعاب: جمع شعب، وهو ما انفرج بين الجبلين)، وتمسَّك بعضهم ببعض، فنزعَتْهم الريح منها وصرعتهم موتى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ أصولُ نخلٍ منقلعٍ عن مغارسه، ساقط على الأرض. وقيل: شُبِّهوا بالأعجاز لأن الريح طيَّرت رؤوسهم وطرحت أجسادهم.

(٢١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١﴾ كرَّره للتهويل. وقيل: الأول لِما حاق بهم في الدنيا، والثاني لِما يحيق بهم في الآخرة.

(٢٢ـ٢٣) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣﴾ بالإنذارات أو المواعظ أو الرسل.

(٢٤) ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ من جِنْسنا، أو من جملتنا لا فضل له علينا ﴿وَٰحِدًا﴾ منفرداً لا تَبَعَ له. أو من آحادهم دون أشرافهم ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤﴾ جمعُ سعير. كأنهم عكسوا عليه فرتَّبوا على اتباعهم إياه ما رتَّبه على ترك اتباعهم له. وقيل: السُّعُرُ: الجنون.

(٢٥) ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ﴾ الكتاب، أو الوحي ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا من هو أحق منه بذلك؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥﴾ حَمَلَهُ بَطَرُهُ على الترفُّع علينا بادِّعائه إياه.

(٢٦) ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عند نزول العذاب بهم. أو يوم القيامة ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾ الذي حمله أَشَرُهُ على الاستكبار عن الحق وطلبِ الباطل، أصالحٌ عليه الصلاة والسلام أم مَنْ كذَّبه؟

(٢٧) ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ مخرجوها وباعثوها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ امتحاناً لهم ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصَّر ما يصنعون ﴿وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧﴾ على أذاهم.

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)

(٢٨) ﴿**وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ**﴾ مقسومٌ لها يوم ولهم يوم ﴿**كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ** (٢٨)﴾ يحضره صاحبه في نوبته، أو يَحضرُهُ عنه غيره.

(٢٩) ﴿**فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ**﴾ قدار بن سالف أُحَيْمر ثمود ﴿**فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ** (٢٩)﴾ فاجترأ على تعاطي قتلها فقتلها. أو فتعاطى السيف فقتلها.

(٣٠-٣١) ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** (٣٠) **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً**﴾ صيحةَ جبريل عليه السلام ﴿**فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ** (٣١)﴾ كالشجر اليابس المتكسِّر الذي يتخذه من يعمل الحظيرة لأجلها. أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء.

(٣٢-٣٤) ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** (٣٢) **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ** (٣٣) **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا**﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة، أي: ترميهم ﴿**إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ** (٣٤)﴾ في سَحَرٍ، وهو آخر الليل.

(٣٥) ﴿**نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا**﴾ إنعاماً مِنّا ﴿**كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ** (٣٥)﴾ نعمتَنا بالإيمان والطاعة.

(٣٦) ﴿**وَلَقَدْ أَنذَرَهُم**﴾ لوط عليه الصلاة والسلام ﴿**بَطْشَتَنَا**﴾ أخذَتنا بالعذاب ﴿**فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ** (٣٦)﴾ فكذَّبوا بالعذاب متشاكِّين.

(٣٧) ﴿**وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ**﴾ قصَدوا الفجور بهم ﴿**فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ**﴾ فمسحناها وسوَّيناها بسائر الوجه. روي أنهم لما دخلوا داره عنوةً صفقهم (أي: ضربهم) جبريل عليه السلام صفقةً فأعماهم ﴿**فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ** (٣٧)﴾ فقلنا لهم: ذوقوا، على ألسِنة الملائكة.

(٣٨) ﴿**وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً**﴾ المراد بها أولَّ نهارٍ مُعيَّنٍ ﴿**عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ** (٣٨)﴾ يستقر بهم حتى يُسْلِمهم إلى النار

(٣٩) ﴿**فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ** (٣٩)﴾ (حكاية لما قيل من جهة الله تعالى تشديداً للعذاب [المقتطف]).

(٤٠) ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** (٤٠)﴾ كَرَّر ذلك في كل قصة إشعاراً بأن تكذيب كل رسول مقتضٍ لنزول العذاب، واستماعَ كل قصة مستدعٍ للادكار والاتعاظ، واستئنافاً للتنبيه والإيقاظ لئلا يغلبهم السهو والغفلة.

(٤١) ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ اكتفى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أَوْلى بذلك منهم.

(٤٢) ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني الآيات التسع (وهي: اليد والعصا والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم والسنون وانفلاق البحر) ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغالَبُ ﴿مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ لا يُعجزه شيء جلَّ وعلا.

(٤٣) ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الكفار المعدودين قوَّةً وعُدَّةً، أو مكانةً وديناً عند الله تعالى؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ أم أنزل لكم في الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو في أمان من العذاب؟

(٤٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جماعةٌ أمرُنا ﴿مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ ممتنِعٌ لا نُرام (أي: لا نُزال عن موضعنا)، أو منتصرٌ من الأعداء لا نُغلب، أو متناصر ينصر بعضنا بعضاً.

(٤٥) ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: الأدبار. وقد وقع ذلك يوم بدر، وهو من دلائل النبوة.

(٤٦) ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ موعدُ عذابهم الأصلي، وما يحيق بهم في الدنيا فمِنْ طلائعه ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أشدُّ ﴿وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا.

(٤٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ ونيرانٍ في الآخرة.

(٤٨) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُجَرُّون عليها ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: يقال لهم ذوقوا حرَّ النار وألَمها، فإن مسها سببٌ للتألم بها. وسقَر: عَلَمٌ لجهنم.

(٤٩) ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ أي: إنا خلقنا كل شيء مقدَّراً مرتَّباً على مقتضى الحكمة. أو مقدَّراً مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل وقوعه.

وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

(٥٥) سُورَةُ الرَّحْمَٰن (٧٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

(٥٠) ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ إلا فِعْلَةٌ واحدةٌ (أقول: وهي كن، والحقيقة ليس بلفظ كن بل بإرادته جل جلاله)، وهو الإيجاد بلا معالجة ومعاناة ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ في اليُسْر والسُّرعة.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهَكم في الكفر ممن قبلكم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ متَّعِظ؟

(٥٢) ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ مكتوبٌ في كتب الحفظة (أقول: أي في صحف أعمالهم).

(٥٣) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال ﴿مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ مسطورٌ في اللوح المحفوظ.

(أقول: وقبل اللوح المحفوظ موجود في علمه جل وعلا).

(٥٤) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ أنهار.

(٥٥) ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضِيٍّ ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ مقرَّبين عند مَنْ تعالى أمْرُه في الملك والاقتدار.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة القمر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الرحمن

مكيَّة، أو مدنيَّة، أو متبعِّضة، وآيها ثمان وسبعون آية

(١-٢) ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ لَمَّا كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والآخروية صدَّرها بـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وقدَّم ما هو أصل النعم الدينية وأجلُّها؛ وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، فإنه أساس الدين ومنشأ الشرع وأعظم الوحي وأعزُّ الكتب، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها مصدِّق لنفسه ومصداق لها. ثم أتبعَه قوله تعالى:

(٣-٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ إيماء بأن خَلْقَ البشرِ وما يُميَّز به عن سائر الحيوان من البيان - وهو التعبير عما في الضمير، وإفهامُ الغير لِما أدركه - لتلقِّي الوحي وتعرُّفِ الحق وتعلُّمِ الشرع.

(٥) ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ يجريان بحساب معلوم مقدَّر في بروجهما ومنازلهما، وتتَّسق (أي: تنتظم) بذلك أمور الكائنات السفلية، وتختلف الفصول والأوقات، وتُعلم السنون والحساب.

(٦) ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ والنباتُ الذي ينجم؛ أي: يطلع من الأرض ولا ساق له ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ الذي له ساق ﴿يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ ينقادان لله تعالى فيما يريد بهما طبعاً، انقيادَ الساجد من المكلَّفين طوعاً.

(٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ خَلَقَها مرفوعة محلاً ومَرْتبة، فإنها مَنشأ أقضيته ومتنزَّل أحكامه ومحلُّ ملائكته ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ أي: العدلَ، بأن وفَّر على كل مستعِدٍّ مستحقه، ووفَّى كل ذي حق حقه، حتى انتظم أمر العالم واستقام. كما قال عليه الصلاة والسلام «بالعدل قامت السموات والأرض» [رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى] أو هو ما تُعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوهما. كأنه لما وصف السماء بالرفعة من حيث إنها مصدر القضايا والأقدار أراد وصف الأرض بما فيها مما يَظهر به التفاوت ويُعرف به المقدار وتسوَّى به الحقوق والمواجب.

(٨) ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾ لئلا تطغوا فيه؛ أي: لا تعتدوا ولا تتجاوزوا الإنصاف.

(٩) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ ولا تُنقِصوه، فإن من حقه أن يُسوَّى، لأنه المقصود من وضعه. وتكريرُه مبالغة في التوصية به، وزيادةُ حثٍّ على استعماله.

(١٠) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ خفَضها مدحوَّة (أي: مبسوطة ممهَّدة للسكنى) ﴿لِلۡأَنَامِ ۝١٠﴾ للخلق. وقيل: الأنامُ كلُّ ذي روح.

(١١) ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ ضروبٌ (أي: أنواع) مما يُتفكَّه به ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١﴾ أوعيةُ التمر.

(١٢) ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ كالحنطة والشعير وسائر ما يُتغذى به. و«العَصْفُ»: ورق النبات اليابس؛ كالتبن ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢﴾ يعني المشموم. أو الرزق.

(١٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ الخطاب للثقلَيْن المدلول عليهما بقوله تعالى: ﴿لِلۡأَنَامِ﴾ وقولِهِ: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ (أقول: كلُّ نعم الدنيا لا تخلو من منغِّصات، إلا نعمة المعيَّة مع الله عزَّ وجل، ليس فيها منغِّصات).

(١٤) ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤﴾ الصلصال: الطين اليابس الذي له صلصلة (أي: صوت). والفخار: الخزف. وقد خلق الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام من تراب جعله طيناً، ثم حمأً مسنوناً (وهو الطين الأسود المتغير المنتن) ثم صلصالاً، فلا يخالف ذلك قولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: ٥٩] ونحوه.

(١٥) ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾ الجنَّ. أو أبا الجن ﴿مِن مَّارِجٖ﴾ من صافٍ من الدخان (وهو اللهب) ﴿مِّن نَّارٖ ۝١٥﴾.

(١٦) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾ مما أفاض عليكما في أطوار خِلقتكما حتى صيَّركما أفضل المركَّبات وخلاصة الكائنات.

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

(١٧) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ مشرقَيْ الشتاء والصيف ومغربَيْهما (أقول: أي خالقُ مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربيهما، أو مشرق الشمس و مشرق القمر ومغربيهما).

(١٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ مما في ذلك من الفوائد التي لا تحصى؛ كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك.

(١٩) ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلَهُما. والمعنى: أرسلَ البحر الملح والبحر العذب ﴿يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ يتجاوران وتتماسُّ سطوحُهما.

(٢٠) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجزٌ من قدرة الله تعالى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية.

(٢١_٢٢) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ كبارُ الدرِّ وصغارُه.

(٢٣_٢٤) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ أي: السفن ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ المرفوعات الشُّرُعِ (جمع شراع) ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ كالجبال.

(٢٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ مِنْ خَلْقِ مواد السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يَقدر على خلقها وجمعها غيره جل وعلا.

(٢٦) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ مَنْ على الأرض من الحيوانات أو المركبات. أو من الثقلين.

(٢٧) ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ذاتُه جل وعلا. ولو استقْرَيتَ جهات الموجودات وتفحصتَ وجوهَها وجدتَها بأسرها فانية في حدِّ ذاتها، إلا وجه الله تعالى ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ ذو الاستغناء المطلق والفضل العام.

(٢٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: مما ذكرنا قبلُ؛ من بقاء الرب وإبقاء ما لا يحصى مما هو على صدد الفناء رحمة وفضلاً. أو مما يترتب على فناء الكل من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم.

(٢٩) ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فإنهم مفتقرون إليه في ذواتهم وصفاتهم وسائر ما يهمُّهم ويعِنُّ (أي: يَعرِض) لهم. والمراد بالسؤال ما يدل على الحاجة إلى تحصيل الشيء في ذواتهم وصفاتهم، نطقاً كان أو غيره ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ كلَّ وقت يُحدِث أشخاصاً ويُجدِّد أحوالاً على ما سبق به قضاؤه. وفي

الحديث: «مِنْ شأنه أن يغفر ذنباً ويفرِّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين» [رواه الإمام ابن ماجه رحمه الله تعالى]. وهو ردٌّ لقول اليهود: إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئاً.

(٣٠) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾ أي: مما يُسعِفُ به سؤالَكما، وما يُخرجُ لكما من مَكمَن العدم حيناً فحيناً (والمكمن: محلُّ الاختفاء).

(٣١) ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ أي: سنتجرَّد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة. وفيه تهديد مستعار من قولك لمن تهدده: سأفرغ لك. والثَّقَلان: الإِنس والجن، سُمِّيا بذلك لثقلهما على الأرض، أو لرزانة رأيهما (أي: رجاحته) وقدرهما، أو لأنهما مثقلان بالتكليف.

(٣٢ـ٣٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله فارِّين من قضائه ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ أي: فاخرجوا ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣﴾ إلا بقوة وقهر، وأنَّى لكم ذلك! أو إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا ما في السموات والأرض ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ لتعلموا، لكن ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ ولا تعلمون إلا ببيِّنة نصبها الله تعالى فتعرجون عليها بأفكاركم (أقول: هذا العروج يحصل لبعض الناس المنسوبين إلى الطريق، لكن عروجهم ليس جسمانياً كما عرج رسول الله ﷺ بجسمه وروحه، بل هؤلاء يعرجون بالروح فقط، ويلتقون بعجائب الله تعالى من الحدوث والقدم والمُلك وغيرها. وهذا بإرادته وقدرته جل وعلا).

(٣٤) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤﴾ أي: من التنبيه والتحذير والمساهلة (في الحساب) والعفو مع كمال القدرة. أو مما نَصَبَ من المصاعد العقلية والمعارج النقلية، فتنفذون بها إلى ما فوق السموات العلى (أقول: وذلك بقدر ما أراد الله تعالى لهم من الإخلاص والصفوة. عليكم أن لا تنكروا ذلك، فما لا يحصل للشخص لا يلزم أن لا يكون موجوداً).

(٣٥) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ لهبٌ ﴿مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ ودخان. أو صفر مذاب يُصَبُّ على رؤوسهم ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ فلا تمتنعان.

(٣٦) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦﴾ فإن التهديد لطفٌ، والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار في عداد الآلاء (أي: النعم).

(٣٧) ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: حمراء كوردة ﴿كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ مذابةٍ كالدهن؛ وهو اسم لما يُدهَنُ به (أقول: وفي بعض التفاسير يقولون: كعكر الزيت).

(٣٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨﴾ أي: مما يكون بعد ذلك.

(٣٩) ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: فيوم تنشق السماء ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ لأنهم يُعرفون بسيماهم. وذلك حينما يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف ذوداً ذوداً (أي: طائفة طائفة) على اختلاف مراتبهم.

(٤٠) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾ أي: مما أنعم الله تعالى على عباده المؤمنين في هذا اليوم.

يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

(٤١) ﴿**يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ**﴾ وهو ما يعلوهم من الكآبة والحزن ﴿**فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾**﴾ مجموعاً بينهما. وقيل يؤخذون بِالنَّواصِي تارة وبالأقدام أخرى.

(٤٢-٤٤) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا**﴾ بين النار يُحرَقون بها ﴿**وَبَيۡنَ حَمِيمٍ**﴾ ماءٍ حارٍّ ﴿**ءَانٖ ﴿٤٤﴾**﴾ بلغ النهاية في الحرارة. يُصَبُّ عليهم، أو يُسقون منه. وقيل: إذا استغاثوا من النار أغيثوا بالحميم.

(٤٥-٤٦) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ**﴾ موقفَه الذي يقف فيه العباد للحساب. أو قيامه على أحواله. أو مقام الخائف عند ربه للحساب بأحد المعنيين ﴿**جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾**﴾ جنَّةٌ للخائف الإنسيِّ، والأخرى للخائف الجِنِّيِّ، فإن الخطاب للفريقين. أو لكل واحد جنة لعقيدته وأخرى لعمله، أو جنة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصي، أو جنة يثاب بها وأخرى يُتفضَّل بها عليه، أو روحانية وجسمانية.

(٤٧-٤٨) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾**﴾ أنواع من الأشجار والثمار. أو أغصان، وتخصيصُها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر وتمد الظل.

(٤٩-٥٠) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾**﴾ حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل. قيل: إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل.

(٥١-٥٢) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾**﴾ صنفان. غريب ومعروف، أو رطب ويابس.

(٥٣-٥٤) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ**﴾ من ديباج ثخين. وإذا كانت البطائن كذلك فما ظنك بالظهائر! ومتكئين: مدح للخائفين ﴿**وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾**﴾ قريبٌ، يناله القاعد والمضطجع.

(٥٥-٥٦) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ**﴾ في الجنان. فإن جنتان تدل على جنان هي

للخائفين. أو فيما فيهما من الأماكن والقصور. أو في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش ﴿**قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ**﴾ نساءٌ قَصَرْنَ أبصارهُنَّ على أزواجهنَّ ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾**﴾ لم يمسَّ الإنسيات إنسٌ ولا الجنيّاتِ جِنٌّ.

(٥٧ـ٥٨) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾**﴾ أي: في حمرة الوجنة وبياض البشرة وصفائهما.

(٥٩ـ٦٠) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ**﴾ في العمل ﴿**إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾**﴾ في الثواب؛ وهو الجنة.

(٦١ـ٦٢) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾**﴾ ومن دون تينِكَ الجنتين الموعودتين للخائفين المقرَّبين جَنَّتانِ لمن دونهم من أصحاب اليمين.

(٦٣ـ٦٤) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾**﴾ خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة. وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض، وعلى الأولَيَيْن الأشجار والفواكه، دلالة على ما بينهما من التفاوت.

(٦٥ـ٦٦) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾**﴾ فوَّارتان بالماء. وهو أيضاً أقلُّ مما وصف به الأولَيَين، وكذا ما بعده.

(٦٧) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾**﴾.

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الوَاقِعَةِ (٥٦) (٩٦)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾

(٦٨) ﴿**فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾**﴾ عطفَهما على الفاكهة بياناً لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، وثمرةَ الرمان فاكهة ودواء.

(٦٩-٧٠) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ**﴾ أي: خيِّرات ﴿**حِسَانٞ ﴿٧٠﴾**﴾ حسان الخَلق والخُلق (أقول: أو: خيِّرات الأخلاق، حسان الوجوه).

(٧١-٧٢) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾**﴾ قُصِرْنَ في خدورهنَّ. أو مقصورات الطرف على أزواجهنَّ.

(٧٣-٧٤) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾**﴾ كحور الأولَيَين (أقول: لكن نساء الدنيا إذا دخلنَ الجنة فهنَّ أفضل من الحور العين).

(٧٥-٧٦) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ**﴾ وسائدَ أو نمارقَ. وقيل: الرفرف ضرب (أي: نوع) من البُسط، أو ذيل الخيمة ﴿**خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾**﴾ العبقريُّ: منسوب إلى عبقر. تَزْعُمُ العرب أنه اسم بلدٍ للجن، فينسبون إليه كل شيء عجيب.

(٧٧-٧٨) ﴿**فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ**﴾ تعالى اسمُهُ من حيث إنه مُطلَق على ذاته، فما ظنك بذاته؟ وقيل: الاسم بمعنى الصفة ﴿**ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾**﴾.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الرحمن

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الواقعة

مكيَّة، وآيها ستٌّ وتسعون آية

(١) ﴿**إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾**﴾ إذا حدثت القيامة. سمَّاها واقعة لتحقق وقوعها.

(٢) ﴿**لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾**﴾ أي: لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله تعالى، أو تُكذَّب في نفيها كما تُكذَّب الآن.

(٣) ﴿**خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾**﴾ تخفض قوماً وترفع آخرين. وهو تقرير لعظمتها، فإن الوقائع العظام كذلك.

أو بيانٌ لما يكون حينئذ من خفض أعداء الله تعالى ورفع أوليائه. أو إزالة الأجرام عن مقارِّها بنثر الكواكب وتسيير الجبال في الجو.

(٤) ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ حُرِّكت تحريكاً شديداً، بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل.

(٥) ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي: فُتِّتَتْ. أو سيقت وسُيِّرت.

(٦) ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً﴾ غباراً ﴿مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ منتشراً.

(٧) ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً ﴿ثَلَٰثَةً ۝٧﴾.

(٨-٩) ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾ فأصحاب المنزلة السَّنِيَّة وأصحاب المنزلة الدنيئة. من تيمُّنِهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل. أو أَصْحابُ المَيْمَنَةِ وأَصْحابُ المَشْأَمَةِ الذين يؤتَون صحائفهم بأيمانهم والذين يؤتَونها بشمائلهم. أو أصحاب اليُمْن والشؤم، فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم.

(١٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ والذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة بعد ظهور الحق من غير تلعثم (أي: تردُّد) وتَوانٍ (أي: تقصير). أو سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات. أو الأنبياء، فإنهم مقدَّمو أهل الأديان. هم الذين عرفتَ حالهم وعرفتَ مآلهم. أو الذين سبقوا إلى الجنة.

(١١-١٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾ الذين قربت درجاتهم في الجنة وأُعْلِيت مراتبهم.

(١٣) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ أي: هم كثير من الأولين؛ يعني الأمم السالفة من لدن آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام.

(١٤) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤﴾ يعني أمة محمد عليه الصلاة والسلام. وروي مرفوعاً أنهما من هذه الأمة [رواه الطبري في تفسيره وصحَّحه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما].

(١٥) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥﴾ والمَوْضُونَةُ: المنسوجة بالذهب، مشبكة بالدرِّ والياقوت.

(١٦) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾ (ينظر بعضهم في وجوه بعض [النسفي]).

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

(١٧) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ مُبقَوْن أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم.

(١٨) ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ حال الشرب وغيره. والكوب: إناء بلا عروة ولا خرطوم له، والإبريق: إناء له ذلك ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ من خمر

(١٩) ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ (أي: لا يحصل لهم منها صداع ولا ذهاب عقل).

(٢٠) ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يختارون.

(٢١) ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ يتمنَّون.

(٢٢) ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: لهم فيها حور

(٢٣) ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ المصون عما يَضرُّ به في الصفاء والنقاء.

(٢٤) ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: يُفعَل ذلك كله بهم جزاء بأعمالهم.

(٢٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ ولا نسبة إلى الإثم. أي: لا يقال لهم أثمتم.

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي: قولاً ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ والتكرير للدليل على فشوِّ السلام بينهم.

(٢٧ـ٢٨) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ لا شوكَ له. أو مَثنيٍّ أغصانه من كثرة حمله (قال شيخ زاده رحمه الله تعالى: أي: هم في خلال نبق خُضِد شوكه أي: قُطع، والخَضْدُ وإن كان قطعَ الشوك من الشجر ونزعه منه، إلا أنَّ المصنِّف فسَّر المخضود بقوله: «لا شوك له» على معنى أنهم في سِدْرٍ خُلِق بلا شوك، كأنَّه نُزِع منه شوكه بعد أن كان فيه. وعن مجاهد رحمه الله تعالى: مِنْ خَضَدَ الغُصنَ إذا ثناه وهو رطب).

(٢٩) ﴿وَطَلْحٍ﴾ وشجرِ موزٍ ﴿مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ نُضِّدَ حمله من أسفله إلى أعلاه.

(٣٠) ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ منبسط، لا يتقلص ولا يتفاوت.

(٣١) ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ يُسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا بلا تعب. أو مصبوب سائل. كأنه لما شبَّه حال السابقين في التنعم بأعلى ما يُتصوَّر لأهل المدن شبَّه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادي، إشعاراً بالتفاوت بين الحالين.

(٣٢) ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ كثيرة الأجناس.

(٣٣) ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ لا تنقطع في وقتٍ ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ لا تُمنَع عن متناوِلها بوجه.

(٣٤) ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤﴾ رفيعة القدر. أو منَضَّدة (أي: مبسوطة بعضها فوق بعض) مرتفعة.

(٣٥) ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥﴾ أي: ابتدأناهن ابتداء جديداً من غير ولادةٍ إبداءً أو إعادةً.

(٣٦ـ٣٧) ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا﴾ متحبِّبات إلى أزواجهن ﴿أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ فإن كلهن بنات ثلاث وثلاثين، وكذا أزواجهن.

(٣٨ـ٤١) ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٠ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾ (أي: أنهم بحال من الشؤم هو جدير بأن يسأل عنه وسماهم بذلك لأنهم يأخذون كتبهم بشمالهم [السراج المنير]).

(٤٢) ﴿فِى سَمُومٍ﴾ في حرِّ نارٍ ينفذ في المَسام ﴿وَحَمِيمٍ ۝٤٢﴾ وماء مُتناهٍ في الحرارة.

(٤٣) ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣﴾ من دخان أسود.

(٤٤) ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائر الظل ﴿وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ ولا نافع. نفى بذلك ما أوهمَ الظل من الاسترواح.

(٤٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥﴾ منهمكين في الشهوات.

(٤٦) ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦﴾ الذنب العظيم؛ يعني الشرك.

(٤٧) ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧﴾ كُرِّرت الهمزة للدلالة على إنكار البعث مطلقاً.

(٤٨) ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨﴾ للدلالة على أن ذلك أشدُّ إنكاراً في حقهم لتقادم زمانهم.

(٤٩ـ٥٠) ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ إلى ما وُقِّتت به الدنيا وحُدَّت، من يوم معين عند الله تعالى معلوم له جل وعلا.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

(٥١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: بالبعث. والخطاب لأهل مكة وأضرابهم (أي: أمثالهم).

(٥٢-٥٣) ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ من شدة الجوع.

(٥٤) ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ لغلَبَة العطش.

(٥٥) ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ الإِبل التي بها الهيام؛ وهو داء يشبه الاستسقاء (أشار به إلى أنَّ شربهم لا يروي).

(٥٦) ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ يوم الجزاء. فما ظنُّكَ بما يكون لهم بعد ما استقروا في الجحيم. وفيه تهكُّمٌ كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. لأن النُّزُلَ ما يُعَدُّ للنازل تكرمةً له.

(٥٧) ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ بالخلق، متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه. أو بالبعث فإن من قَدِرَ على الإِبداء قَدِرَ على الإِعادة.

(٥٨) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ما تقذفونه في الأرحام من النطف.

(٥٩) ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تجعلونه بشراً سوياً ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (أقول: آمنا بك يا رب).

(٦٠) ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ قسمناه عليكم، وأقّتنا موت كلٍّ بوقت معين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ لا يسبقنا أحد فيهرب من الموت أو يغيِّر وقته. أو لا يغلبنا أحد (أقول: ولو قُتل الإنسان بهدم بيته مثلاً فإن روحه لا تخرج إلا بأمر الله تعالى).

(٦١) ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي: على أن نبدِّل منكم أشباهكم فنخلق بدلكم. أو نبدِّل صفاتكم ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ في خَلْقٍ أو صفات لا تعلمونها.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أنَّ من قَدِرَ عليها قَدِرَ على النشأة الأخرى، فإنها أقل صنعاً، لحصول المواد وتخصيص الأجزاء وسَبْق المثال.

(٦٣) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ تبذرون حَبَّه.

(٦٤) ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تُنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ المُنبتون.

(٦٥) ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ هشيماً ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾ تعجبون أو تندمون على اجتهادكم فيه، أو على ما أصبتم لأجله من المعاصي فتتحدثون فيه.

(٦٦) ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ٦٦﴾ لمُلزَمون غرامةَ ما أنفقنا. أو مُهلَكون لهلاك رزقنا.

(٦٧) ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قوم ﴿مَحْرُومُونَ ٦٧﴾ حُرِمنا رزقنا.

(٦٨) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ٦٨﴾ أي: العذب الصالح للشرب.

(٦٩) ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ٦٩﴾ بقدرتنا

(٧٠) ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً، أو من الأجيج (أي: تلهب النار)، فإنه يحرق الفم ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ٧٠﴾ أمثال هذه النعم الضرورية.

(٧١) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ٧١﴾ تقدَحون.

(٧٢) ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ٧٢﴾ يعني الشجرة التي منها الزناد (أقول: سبق تفصيله في سورة يس [آية: ٨٠] عند قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾. حيث قال: هما المرخ والعفار، يُسحق المرخ على العفار وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتنقدح النار).

(٧٣) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ جعلنا نار الزناد ﴿تَذْكِرَةً﴾ تبصرة في أمر البعث، كما مر في سورة «يس». أو في الظلام. أو تذكيراً وأنموذجاً لنار جهنم ﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومنفعة ﴿لِّلْمُقْوِينَ ٧٣﴾ للذين ينزلون القواء؛ وهي القَفْر (أي: الصحراء). أو للذين خلت بطونهم أو مَزاودهم من الطعام.

(٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ٧٤﴾ فأحدِث التسبيح بذكر اسمه تعالى أو بذكره. وتعقيب الأمر بالتسبيح لَمَّا عدَّد من بدائع صنعه وإنعامه إما لتنزيهه تعالى عما يقول الجاحدون لوحدانيته الكافرون لنعمته، أو للتعجب من أمرهم في غمط نعمه (أي: بطرها)، أو للشكر على ما عدَّها من النعم.

(٧٥) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسَم. أو فأُقسِم، و«لا» مزيدةٌ للتأكيد ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ بمساقطها (أي: لغروبها) أو بمنازلها ومجاريها. وقيل: النجوم نجوم القرآن، ومواقعُها أوقاتُ نزولها.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ لِما في المُقسَم به من الدلالة على عِظَمِ القدرة وكمال الحكمة وفرط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى.

إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

(٥٧) سُورَةُ الحَدِيدِ (٢٩)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

(٧٧) ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾ كثير النفع، لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمَعاد. أو حَسَنٌ مَرضيٌّ في جنسه.

(٧٨) ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾﴾ مصون (أي: محفوظ)، وهو اللوح المحفوظ.

(٧٩) ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ لا يطلع على اللوح إلا المطهَّرون من الكدورات الجسمانية وهم الملائكة. أو لا يمسُّ القرآن إِلَّا المُطَهَّرُونَ من الأحداث، فيكون نفياً بمعنى النهي.

(٨٠) ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: نزل تنزيلاً.

(٨١) ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ متهاونون به، كمن يدهن في الأمر؛ أي: يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به.

(٨٢) ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ﴾ أي: شكرَ رزقكم ﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ بِمانِحِهِ (أي: بمعطيه)، حيث تنسبونه إلى الأنواء (أي: النجوم).

(٨٣) ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: النفس.

(٨٤) ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ حالكم. والخطاب لمن حول المحتضَر.

(٨٥) ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ﴾ بقدرتنا وعلمنا. أو ملائكة الموت. أي: ونحن أعلم بحال المحتضَر ﴿مِنكُمۡ﴾. عبَّر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى سبب الاطِّلاع ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ لا تدركون كُنْهَ (أي: حقيقة) ما يجري عليه (أقول: لكن لا بد من الاعتقاد).

(٨٦) ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: غير مجزيِّين يوم القيامة. أو غير مملوكين مقهورين.

(٨٧) ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ ترجعون النفس إلى مقرِّها. والمعنى إن كنتم غير مملوكين مجزيِّين كما دل عليه جحدكم أفعال الله تعالى وتكذيبكم بآياته ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ في أباطيلكم. فلولا ترجعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم.

(٨٨) ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: إن كان المتوفَّى من السابقين.

(٨٩) ﴿فَرَوۡحٞ﴾ فله استراحة ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ ورزق طيِّبٌ ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾ ذات تنعُّم.

(٩٠ـ٩١) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ يا صاحب اليمين ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾ أي: من إخوانك يسلِّمون عليك.

(٩٢) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢﴾ أي: من أصحاب الشمال. وإنما وصفهم بأفعالهم زجراً عنها وإشعاراً بما أوجب لهم ما أوعدهم به.

(٩٣ـ٩٤) ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾ وذلك ما يجد في القبر من سموم النار ودخانها.

(٩٥) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي ذُكر في السورة أو في شأن الفِرَق ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ أي: حقُّ الخبرِ اليقين.

(٩٦) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾ فنزِّهْهُ بذكر اسمه تعالى عما لا يليق بعظمة شأنه جل وعلا.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الواقعة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحديد

مدنيَّة، وقيل: مكيَّة، وآيها تسع وعشرون آية

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذُكِر ههنا وفي «الحشر» و«الصف» بلفظ الماضي، وفي «الجمعة» و«التغابن» بلفظ المضارع، إشعاراً بأن مِنْ شأن ما أُسند إليه أن يسبِّحه في جميع أوقاته، لأنه دلالة جِبلِّيَّة (أي: فطرية) لا تختلف باختلاف الحالات ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ حالٌ يُشعِر بما هو المبدأ للتسبيح.

(٢) ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنه الموجد لهما والمتصرِّف فيهما ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإحياء والإماتة وغيرهما ﴿قَدِيرٌ ۝٢﴾ تامُّ القدرة.

(٣) ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السابق على سائر الموجودات من حيث إنه موجدها ومحدثها ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها. أو هُوَ الْأَوَّلُ الذي تبتدئ منه الأسباب وتنتهي إليه المسبَّبات ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الظاهر وجودُهُ لكثرة دلائله، والباطن حقيقةُ ذاتِهِ فلا تكتنهها العقول (أي: فلا تدرك حقيقتها). أو الغالب على كل شيء والعالم بباطنه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ يستوي عنده الظاهر والخفي (أقول: باحتجابه بذاته وماهيته. ويقال: لا سبيل إلى إدراك حقه ويقال عالم بالظاهر والباطن. ومعنى الباطن هو الذي تخفى عن العيون رؤيته وهو موجود ولكنه عن خلقه بنور ذاته محجوب. والسرمدية تقضي لا أول ولا آخر).

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

(٤) ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ كالبذور ﴿**وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**﴾ كالزروع ﴿**وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ**﴾ كالأمطار ﴿**وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ**﴾ كالأبخرة ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ**﴾ لا ينفكُّ علمه وقدرته عنكم بحال ﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾**﴾ فيجازيكم عليه.

(٥) ﴿**لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ**﴾ ذكَرهُ مع الإعادة كما ذكره مع الإبداء لأنه كالمقدمة لهما ﴿**وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾**﴾.

(٦) ﴿**يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ**﴾ أي: إيلاج أحد المَلَوَيْنِ (الليل والنهار) في الآخر، بأن يزيد فيه ما ينقص منه، أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغييب الشمس، وعكس ذلك بإطلاعها ﴿**وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾**﴾ بمكنوناتها.

(٧) ﴿**ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ**﴾ من الأموال التي جعلكم الله تعالى خلفاء في التصرف فيها، فهي في الحقيقة له لا لكم. أو التي استخلفكم عمَّن قبلكم في تملكها والتصرف فيها. وفيه حثٌّ على الإنفاق، وتهوين (أي: تسهيل) له على النفس ﴿**فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾**﴾.

(٨) ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ**﴾ أي: أيُّ عذرٍ لكم في ترك الإيمانِ والرسولُ يدعوكم إليه بالحجج والآيات ﴿**وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ**﴾ أي: وقد أخذ الله تعالى ميثاقكم بالإيمان قبل ذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾**﴾ لموجبٍ ما، فإن هذا موجبٌ لا مزيد عليه.

(٩) ﴿**هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ**﴾ (يعني محمداً ﷺ) ﴿**ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم**﴾ أي: الله جل وعلا، أو الرسول عليه الصلاة والسلام بالدعوة ﴿**مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ**﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾**﴾ حيث نبَّهكم بالرسول عليه الصلاة والسلام والآيات ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية.

(١٠) ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟**﴾ وأيّ شيء لكم في أَلَّا تُنفِقُوا ﴿**فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ فيما يكون قربةً إليه جل وعلا ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ**﴾ يرثُ كلَّ شيء فيهما فلا يبقى لأحد مال؛ وإذا كان كذلك فإنفاقه

بحيث يستخلف عوضاً يبقى - وهو الثواب - كان أولى (أقول: عليكم أن لا تضنُّوا بما أعطاكم الله تعالى من فضله، فالمال له ليس لكم، وإن الإنسان - ولو أنفق - طبيعتُه مخالفة للإنفاق، لكنه بإيمانه لا يتبعها) ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ بيانٌ لتفاوت المنفقين باختلاف أحوالهم من السبق وقوة اليقين، وتحري الحاجات حثاً على تحري الأفضل منها بعد الحث على الإنفاق. وذَكَرَ القتالَ للاستطراد (أي: للانتقال من موضوع إلى آخر). وقسيمُ مَنْ أنفق محذوف لوضوحه ودلالة ما بعده عليه. والفتحُ: فتح مكة، إذ عزَّ الإسلام به وكثر أهله وقلَّت الحاجة إلى المقاتلة والإنفاق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد الفتح ﴿وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: وعد الله تعالى كلًّا من المنفقين المثوبة الحسنى؛ وهي الجنة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ عالم بظاهره وباطنه، فيجازيكم على حسبه. والآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه؛ فإنه أول من آمن وأنفق في سبيل الله تعالى وخاصم الكفار حتى ضُرب ضرباً أشرف به على الهلاك.

(١١) ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: من الذي ينفق ماله في سبيله رجاء أن يعوِّضه، فإنه كمن يقرضه. وحُسْنُ الإنفاقِ بالإخلاص فيه وتحري أكرم المال وأفضل الجهات له ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي: يعطي أجره أضعافاً ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أي: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه ينبغي أن يتوخى (أي: يُقصد) وإن لم يضاعف، فكيف وقد يضاعف أضعافاً.

يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١٨﴾

(١٢) ﴿**يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم**﴾ ما يوجبُ نجاتَهم وهدايتَهم إلى الجنة ﴿**بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ**﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ﴿**بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ**﴾ أي: يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة: «بُشْراكُم» أي: المبشَّر به جناتٌ ﴿**تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾**﴾ الإشارة إلى ما تقدَّم من النور والبشرى بالجنات المخلَّدة.

(١٣) ﴿**يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا**﴾ انتظرونا، فإنهم يُسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف. أو انظروا إلينا، فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورٍ بين أيديهم ﴿**نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ**﴾ نُصِبْ منه ﴿**قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ**﴾ إلى الدنيا ﴿**فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ**﴾ بتحصيل المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة، فإنه يتولد منها. أو إلى الموقف فإنه مِنْ ثمة (أي: من هناك) يُقتبس. أو إلى حيث شئتم، فاطلبوا نوراً آخر، فإنه لا سبيل لكم إلى هذا. وهو تهكُّمٌ بهم وتخييب من المؤمنين أو الملائكة ﴿**فَضُرِبَ بَيۡنَهُم**﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿**بِسُورٖ**﴾ بحائط ﴿**لَّهُۥ بَابُۢ**﴾ يدخل منه المؤمنون ﴿**بَاطِنُهُۥ**﴾ باطن السور أو الباب ﴿**فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ**﴾ لأنه يلي الجنة ﴿**وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾**﴾ من جهته، لأنه يلي النار.

(١٤) ﴿**يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ**﴾ يريدون موافقتهم في الظاهر ﴿**قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ**﴾ بالنفاق ﴿**وَتَرَبَّصۡتُمۡ**﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿**وَٱرۡتَبۡتُمۡ**﴾ وشككتم في الدين ﴿**وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ**﴾ كامتداد العمر ﴿**حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ**﴾ وهو الموت ﴿**وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾**﴾ الشيطان أو الدنيا (أقول: ليس معنى هذا أن نترك الأسباب، فالأخذ بالأسباب أمرُ الله تعالى، لكن علينا أن لا نعتمد عليها، بل نعتمد على الله جل وعلا).

(١٥) ﴿**فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ**﴾ فداء ﴿**وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ**﴾ ظاهراً وباطناً ﴿**مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ**﴾ هي أولى بكم ﴿**وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾**﴾ النار.

(١٦) ﴿**أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ**﴾ ألم يأت وقتُه؟ روي أن المؤمنين كانوا مجدبين

(أي: محتاجين) بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة، ففتروا عما كانوا عليه فنزلت ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن. ويجوز أن يراد بالذكر أن يذكر الله تعالى ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ والمراد النهي عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكى عنهم بقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فطال عليهم الأجل لطول أعمارهم وآمالهم. أو ما بينهم وبين أنبيائهم فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾ خارجون عن دينهم، رافضون لما في كتابهم من فرط القسوة.

(١٧) ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيلٌ لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة. أو لإحياءِ الأموات ترغيباً في الخشوع وزجراً عن القساوة ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٧﴾ كي تكمُل عقولكم.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ إنَّ المتصدِّقين والمتصدِّقات ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو للدلالة على أنَّ المعتبَر هو التصدُّق المقرون بالإِخلاص ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾ (أي: الجنة [النسفي]).

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

(١٩) ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ**﴾ أي: أولئك عند الله تعالى بمنزلة الصديقين والشهداء. أو هم المبالغون في الصدق فإنهم آمنوا وصدقوا جميع أخبار الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، والقائمون بالشهادة لله ولهم، أو على الأمم يوم القيامة ﴿**لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ**﴾ أي: لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم، ولكن من غير تضعيف ليحصل التفاوت. أو الأجر والنور الموعودان لهم ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٩﴾**﴾ فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار.

(٢٠) ﴿**ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ**﴾ لَمَّا ذكر حال الفريقين في الآخرة حقَّر أمور الدنيا - أعني ما لا يتوصل به إلى الفوز الآجل - بأن بيَّن أنها أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال لأنها لَعِبٌ يُتعب الناس فيه أنفسَهم جداً، إتعاب الصبيان في الملاعب من غير فائدة، ولهوٌ يُلهون به أنفسهم عما يهمُّهم، وزينةٌ كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة، وتفاخرٌ بالأنساب (أقول: أكثر الناس مبتلون بهذا، مع أنه لا فائدة للنسب في الخلاص من عذاب الله تعالى، كما ورد في أولاد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام)، و تكاثر بالعَدد والعُدد. ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿**كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ**﴾ وهو تمثيل لها في سرعةِ تقضِّيها وقلة جدواها (أي: فائدتها) بحال نباتٍ أنبته الغيث فاستوى وأُعجِب به الحرّاث، أو الكافرون بالله تعالى، لأنهم أشدُّ إعجاباً بزينة الدنيا، ولأن المؤمن إذا رأى معجباً انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها، والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق فيه إعجاباً، ثم هاج أي: يبس بعاهة فاصفرَّ ثم صار حطاماً. ثم عظَّمَ أمور الآخرة الأبدية بقوله: ﴿**وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ**﴾ تنفيراً عن الانهماك في الدنيا، وحثاً على ما يوجب كرامة العقبى. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿**وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾**﴾ أي: لمن أقبل عليها ولم يطلب بها الآخرة.

(٢١) ﴿**سَابِقُوٓاْ**﴾ سارعوا مسارعةَ المسابقين في المضمار (أي: الميدان) ﴿**إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ**﴾ إلى

موجباتها ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ أي: عرضها كعرضهما، وإذا كان العرض كذلك فما ظنُّك بالطول! ﴿**أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ**﴾ فيه دليل على أن الجنة مخلوقة [الآن]، وأن الإيمان وحده كافٍ في استحقاقها (أقول: لكن من كان عمله مخالفاً ولم يشفع فيه الأنبياء والصلحاء والقرآن فإنه يُعذَّب ثم يخرج، ولا يبقى في النار) ﴿**ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ**﴾ ذلك الموعود يتفضل به الله تعالى على مَن يشاء مِنْ غير إيجاب ﴿**وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٢١**﴾ فلا يبعد منه التفضل بذلك وإن عظُم قدرُه.

(٢٢) ﴿**مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ كجدب وعاهة ﴿**وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ**﴾ كمرض وآفة ﴿**إِلَّا فِى كِتَٰبٍ**﴾ إلا مكتوبة في اللوح، مثبتة في علم الله تعالى ﴿**مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ**﴾ أي: نخلقها (أقول: ففي الحديث: قدَّر الله تعالى المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة [رواه الإمام أحمد والترمذي رحمهما الله تعالى]) ﴿**إِنَّ ذَٰلِكَ**﴾ أي: إن إثباته في كتاب ﴿**عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ٢٢**﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العُدَّة والمدة.

(٢٣) ﴿**لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ**﴾ أي: أثبتَ وكَتَبَ كي لا تحزنوا ﴿**عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ**﴾ من نعم الدنيا ﴿**وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ**﴾ بما أعطاكم الله تعالى منها، فإن مَنْ علم أن الكلَّ مقدَّر هان عليه الأمر. وفيه إشعار بأن فواتها يلحقها إذا خُلِّيت وطباعَها (أي: فوات نعيم الدنيا على النفس يُلحقها الأسى إذا خُلِّيت النفس وطباعَها [البلقيني])، وأما حصولها وبقاؤها فلا بدَّ لهما من سبب يوجدها ويبقيها. والمراد به نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى والفرح الموجب للبطر والاختيال (أقول: الإنسان يحزن للآفات والبليات بطبيعته البشرية، وهذا لا يدلُّ على أنه لا يرضى بهذه بقضاء الله تعالى وقدره، فالمؤمن يرضى بالقضاء ولا يلزم أن يرضى بالمقضيِّ. قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً وفرحه شكراً). ولذلك عقَّبه بقوله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٢٣**﴾ إذ قلَّ من تثبُتُ نفسه في حالَي الضراء والسراء.

(٢٤) ﴿**ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ**﴾ فإن المختال بالمال يضنُّ (أي: يبخل) به غالباً ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ٢٤**﴾ أي: ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله تعالى غني عنه وعن إنفاقه، محمودٌ في ذاته، لا يضره الإعراض عن شكره، ولا ينفعه التقرب إليه بشكر نعمه. وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفِق.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

(٢٥) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي: الملائكة إلى الأنبياء. أو الأنبياء إلى الأمم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج والمعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ليتبيَّن الحق ويتميَّز صواب العمل ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ لتُسوَّى به الحقوق ويقام به العدل، كما قال تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾. وإنزالُه إنزالُ أسبابه والأمرُ بإعداده. وقيل: أنزل الميزان إلى نوح عليه الصلاة والسلام. ويجوز أن يراد به العدل، لتقام به السياسة وتدفع به الأعداء، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإن آلات الحروب متخذة منه ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد آلاتُها ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ باستعمال الأسلحة في مجاهدة الكفار ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ (قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينصرونه ولايبصرونه) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه ﴿عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ لا يفتقر إلى نصرة، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به ويستوجبوا ثواب الامتثال فيه.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب ﴿فَمِنْهُم﴾ فمن الذرية. أو من المرسل إليهم ﴿مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ خارجون عن الطريق المستقيم والعدول عن السنن (أقول: خارجون عن جادة العدل والقسط الإلهي).

(٢٧) ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام. والضمير لنوح وإبراهيم عليهما السلام ومَنْ أُرسِلا إليهم. أو مَنْ عاصرهما من الرسل لا للذرية، فإن الرسل المقفَّى بهم من الذرية ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: رهبانية مبتدَعة؛ وهي المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ ما فرضناها عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ولكنهم ابتدعوها ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ أي: فما رعوها جميعاً ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ بضم التثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة والكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ونحوها إليها ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أتوا بالإيمان الصحيح وحافظوا حقوقه، ومِنْ ذلك الإِيمانُ بمحمد ﷺ ﴿مِنْهُمْ﴾ من المتَّسِمين (أي: المتصفين) باتِّباعه ﴿أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ خارجون عن حال الاتِّباع (أي: خارجون عن مقتضى دينهم وكتابهم).

(٢٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالرسل عليهم السلام ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لإيمانكم بمحمد ﷺ وإيمانكم بمن قبله. ولا يبعُد أن يثابوا على دينهم السابق وإن كان منسوخاً ببركة الإسلام. وقيل: الخطاب للنصارى الذين كانوا في عصره ﷺ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يريد المذكور في قوله: ﴿يَسْعى نُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٢]. أو الهدى الذي يسلك به إلى جناب القدس ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

(٢٩) ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: ليعلموا. أو «لا» مزيدة ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: أنه لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله، ولا يتمكنون من نيله لأنهم لم يؤمنوا برسوله، وهو مشروط بالإيمان به. أو لا يَقْدِرُونَ على شَيْء من فضله فضلاً عن أن يتصرفوا في أعظَمِه وهو النبوَّةُ فيخصوها بمن أرادوا. ويؤيده قوله جل وعلا: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ وقيل: «لا» غير مزيدة، والمعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي ﷺ والمؤمنون به على شيء من فضل الله تعالى ولا ينالونه (أقول: الذين دخلوا دائرة الإيمان الشهودي بعد الإيمان الاعتقادي، فأنت أيها المؤمن: مؤمن بالله تعالى ورسوله إيماناً اعتقادياً، ولكن الغفلة قد تعتريك فتوقعك في المخالفات الشرعية، عليك أن تقوي هذا الإيمان الاعتقادي لتدخل في الإيمان الشهودي «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا لايكون إلابكثرة ذكرك لله تعالى بالحضور التام الدائم. ثم لابد على المؤمن ألايبقى ولايتعلق بالشهود فقط. والمحبون إنما تلذذهم بذوق الشهود، والالتذاذ بالعبدية والأنس به، لأن التلذذ بالعبدية فوق التلذذ بالشهود، لأنهم خرجوا من أنفسهم ودنياهم وكذلك من مطلوباتهم الأخروية، إلا أنهم يطلبون الجنة لأن هناك رضا الله عزوجل. اللهم حققنا بالإيمان اليقيني. لأن مقام العبودية فوق كل المقامات، ألا وهو مقام الصديقين: وفوق مقامهم مقام النبوة. لذا خص حضرة الله عزوجل نبيه عليه السلام بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]).

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الحديد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المجادلة

مدنيَّة، وقيل: العشر الأول مكي، والباقي مدني وآيها اثنتان وعشرون آية

(١) ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ روي أن خولة بنت ثعلبة ظاهرَ منها زوجها أوس بن الصامت رضي الله عنهما، فاستفتت رسول الله ﷺ فقال: «حَرُمْتِ عليه»، فقالت: ما طلَّقني، فقال: «حرمتِ عليه»، فاغتمَّت لِصغر أولادها وشكت إلى الله تعالى، فنزلت هذه الآيات الأربع [أخرجه الإمام أحمد والحاكم رحمهما الله تعالى] ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ تراجُعَكما الكلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ للأقوال والأحوال.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ الظِّهار أن يقول الرجل لامرأته أنت عليَّ كظهر أمي ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي: على الحقيقة ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ فلا تُشبَّه بهنَّ في الحرمة إلا من ألحقها الله تعالى بهن؛ كالمرضعات وأزواج الرسول ﷺ ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ إذ الشرع أنكره ﴿وَزُورًاۚ﴾ منحرفاً عن الحق، فإن الزوجة لاتشبه الأم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ لما سلف منه مطلقاً، أو إذا تيب عنه.

(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي: إلى قولهم بالتدارك، وهو بنقض ما يقتضيه ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعليهم أو فالواجب إعتاق رقبة. ومن فوائدها الدلالة على تكرُّر وجوب التحرير بتكرُّر الظهار ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أن يستمتع كل من المُظاهِر والمظاهَر منها بالآخر، لعموم اللفظ ومقتضى التشبيه، أو أن يجامعها. وفيه دليل على حرمة ذلك قبل التكفير ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ذلكم الحكم بالكفارة ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ لأنه يدل على ارتكاب الجناية الموجبة للغرامة فيَردع عنها ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ لا تخفى عليه خافية.

(٤) ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: الرقبةَ. والذي غاب مالُهُ واجدٌ (أي: له حكم الواجد للمال) ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ فإن أفطر بغير عذر لزمه الاستئناف، وإن أفطر لعذر ففيه خلاف. وإن جامع

المظاهَرَ منها ليلاً لم ينقطع التتابع عندنا خلافاً لأبي حنيفة ومالك رضي الله تعالى عنهما ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي: الصومَ، لِهرمٍ أو مرض مزمن ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ ستين مُدّاً بمُدِّ رسول الله ﷺ، وهو رطل وثلث، لأنه أقلُّ ما قيل في الكفارات. وجنسُه المخرَج في الفطرة. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يعطى كل مسكين نصف صاع من بُرٍّ أو صاعاً من غيره ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك البيان أو التعليم للأحكام ﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ أي: فُرِضَ ذَلِكَ لتصدِّقوا بالله تعالى وَرَسُولِهِ في قبول شرائعهِ وَرَفْض مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ في جاهليتكم ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ لا يجوز تعدِّيها ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين لا يقبلونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يُعادونها. أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما ﴿كُبِتُوا۟﴾ أُخزوا، أو أُهْلِكوا ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ يعني كفارَ الأمم الماضية ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ﴾ تدلُّ على صدق الرسول ﷺ وما جاء به ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ يُذهِب عزَّهم وتكبُّرَهم.

(٦) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ كلَّهم، لا يَدَعُ أحداً غير مبعوث. أو مجتمعين ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ۚ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد، تشهيراً لحالهم وتقريراً لعذابهم ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أحاط به عَدداً، لم يَغِبْ عنه شيء ﴿وَنَسُوهُۚ﴾ لكثرته، أو تهاونهم به ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ لا يغيب عنه شيء.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

(٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كليّاً وجزئيّاً ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي: ما يقع من تناجي ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ من حيث إنه يشاركهم في الاطلاع عليها ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ ولا نجوى خمسة ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾. فإن عِلمَه بالأشياء ليس لِقربٍ مكانيٍّ حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تفضيحاً لهم لكشف عيوبهم، وتقريراً لما يستحقونه من الجزاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للعلم إلى الكلِّ على سواء.

(٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، فنهاهم رسول الله ﷺ، ثم عادوا لمثل فعلهم ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواصٍ بمعصية الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيقولون: السامُّ عليك (أي: الموت)، أو أنعِمْ صباحاً. واللهُ سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩] ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما بينهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هلّا يعذِّبنا الله بذلك لو كان محمد نبياً ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ جهنم.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ كما يفعله المنافقون ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ بما يتضمَّن خير المؤمنين والاتقاءَ عن معصية الرسول ﷺ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ فيما تأتون وتذَرون، فإنه مجازيكم عليه.

(١٠) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: النجوى بالإثم والعدوان ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فإنه المزيِّن لها والحامل عليها ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بتوهُّمِهم أنها في نكبة أصابتهم (أي: أمرٍ عظيم نزل بالمسلمين) ﴿وَلَيْسَ﴾ أي: الشيطانُ، أو التناجي ﴿بِضَآرِّهِمْ﴾ بضارِّ المؤمنين ﴿شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بمشيئته ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ ولا يبالوا بنجواهم.

(١١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلۡمَجَـٰلِسِ﴾ توسَّعوا فيها، ولْيفسحْ بعضُكم عن بعض. والمراد بالمجالس مجالس رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا يتضامُّون بها (أي: يجتمع بعضهم إلى بعض) تنافساً على القرب منه، وحرصاً على استماع كلامه ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ فيما تريدون التفسُّح فيه؛ من المكان والرزق والصدر وغيرها ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ انهضوا للتوسعة. أو لِما أُمِرتم به؛ كصلاة أو جهاد. أو ارتفعوا عن المجلس ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ (أي: قوموا) ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ بالنصر وحُسْنِ الذكر في الدنيا، وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَـٰتٖۚ﴾ ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل، فإن العلم مع علوِّ درجته يقتضي العملُ المقرونُ به مزيدَ رفعةٍ، ولذلك يُقتدى بالعالم في أفعاله ولا يُقتدى بغيره. وفي الحديث: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» [أخرجه أصحاب السنن الأربعة] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ تهديدٌ لمن لم يمتثل الأمرَ أو استكرَهَهُ.

(أقول: لا بدَّ لنا أن نتخلَّق بأخلاق الدين والقرآن، لأن القرآن يأمرنا بدين الحنيفية السمحاء، وأن نسعى أن نخلِّص أنفسنا من الأنانيَّة فنؤثر أخانا المؤمن على أنفسنا، ليس في المجلس والتفسُّح فقط، بل في إيصال الخير إلى كلِّ واحد منهم بقدر الاستطاعة حتى ننال الثناء والمدحة في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾

(١٢) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ**﴾ فتصدَّقوا قُدَّامها. وفي هذا الأمر تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنفاع الفقراء، والنهي عن الإفراط في السؤال، والمَيْزُ بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا. واختُلف في أنه للندب أو للوجوب، لكنه منسوخ بقوله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾، وهو وإن اتصل به تلاوة لم يتصل به نزولاً. وعن علي رضي الله تعالى عنه: إن في كتاب الله تعالى آية ما عمل بها أحد غيري، كان لي دينار فصرفته، فكنت إذا ناجيته عليه الصلاة والسلام تصدقت بدرهم [أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي رحمهما الله تعالى].

وهو على القول بالوجوب لا يقدح في غيره، فلعلَّه لم يتفق للأغنياء مناجاة في مدة بقائه (أي: بقاء هذا الحكم)، إذ روي أنه لم يبقَ إلا عشراً، وقيل: إلا ساعة ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: ذلك التصدُّق ﴿**خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ**﴾ أي: لأنفُسِكُم من الريبة وحب المال. وهو يُشعر بالندبية، لكن قوله: ﴿**فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾**﴾ أي: لمن لم يجده، حيث رخّص له في المناجاة بلا تصدُّق أدلُّ على الوجوب.

(١٣) ﴿**ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ**﴾ أخِفتم الفقرَ من تقديم الصدقة؟ أو أخِفتم التقديم لما يَعدُكم الشيطان عليه من الفقر؟ ﴿**فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ**﴾ بأن رخَّص لكم أن لا تفعلوه ﴿**فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾ فلا تفرِّطوا في أدائهما ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ**﴾ في سائر الأوامر، فإن القيام بها كالجابر للتفريط في ذلك ﴿**وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾**﴾ ظاهراً وباطناً.

(أقول: تعظيم حضرة النبي ﷺ هو تعظيم لشعائر الله تعالى، وتعظيم شعائر الله تعالى من تقوى القلوب، ومن تعظيم حضرة النبي ﷺ اتباع سنته المطهرة، لأن التعظيم والاحترام بدون متابعة لايكفي، ولكن نرجو الله تعالى لمن عظم شعائر الله تعالى - ومن أعظمها رسول الله ﷺ - أن يُكرَم بالاتباع لحضرته ﷺ في القول والعمل والحال، وما ذلك على الله تعالى بعزيز).

(١٤) ﴿**أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ**﴾ والَوْا (أي: وَدُّوا وصادقوا) ﴿**قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم**﴾ يعني اليهود ﴿**مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ**﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك ﴿**وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ**﴾ وهو ادعاء الإسلام

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤﴾ أن المحلوف عليه كذب، كمن يحلف بالغموس (واليمين الغموس: هو أن يحلف على أمر وهو يعلم أنه كاذب فيه). وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان في حجرة من حجراته فقال: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق وكان أزرق (أي: أزرق العينين) فقال عليه الصلاة والسلام له: علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله تعالى ما فعل، ثم جاء بأصحابه فحلفوا، فنزلت» [رواه الإمام أحمد والهيثمي وقال: رجاله رجال الصحيح].

(١٥) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً (أي: عظيماً) ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥﴾ فتمرَّنوا (أي: تعوَّدوا) على سوء العمل وأصرُّوا عليه.

(١٦) ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ أي: التي حلفوا بها ﴿جُنَّةٗ﴾ وقايةً دون دمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فصدُّوا الناس في خلال أمنهم عن دين الله تعالى بالتحريش (أي: بالإغراء على المؤمنين لأذاهم) والتثبيط (أي: التعويق) ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٦﴾ وعيدٌ ثانٍ بوصف آخر لعذابهم. وقيل: الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة.

(١٧) ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ من العذاب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ ملازموها ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾.

(١٨) ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى على أنهم مسلمون ﴿كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ في الدنيا إنهم لمنكم ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾ في حلفهم الكاذب، لأن تمكُّن النفاق في نفوسهم بحيث يخيّل إليهم في الآخرة أن الأيمان الكاذبة تروِّج (أي: تزيِّن) الكذب على الله تعالى كما تروِّجه عليكم في الدنيا ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾ البالغون الغايةَ في الكذب، حيث يكذبون مع عالمِ الغيب والشهادة ويحلفون عليه.

(١٩) ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ استولى عليهم ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ لا يذكرونه بقلوبهم ولا بألسنتهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ جنوده وأتباعه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾ لأنهم فوَّتوا على أنفسهم النعيم المؤبَّد، وعرَّضوها للعذاب المخلَّد.

(٢٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ في جملة من هو أذلُّ خلق الله تعالى.

(٢١) ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ (أي: قضى الله تعالى) ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ أي: بالحُجة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على نصر أوليائه ﴿عَزِيزٞ ٢١﴾ لا يَغلب عليه شيء في مراده جلَّ وعلا.

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

(٥٩) سُورَةُ الحَشْرِ (٢٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾

(٢٢) ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: لا ينبغي أن تجدهم وادِّين (أي: يودُّون ويحبُّون) أعداء الله. والمراد أنه لا ينبغي أن يوادُّوهم ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾ ولو كان المحادُّون (أي: المعادون) أقرب الناس إليهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين لم يوادوهم ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أثبته فيها. وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الإيمان، فإن جزء الثابت في القلب يكون ثابتاً فيه، وأعمال الجوارح لا تثبت فيه ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾ أي: من عند الله؛ وهو نور القلب أو القرآن، أو بالنصر على العدو. و قيل: الضمير في «منه» للإيمان، فإنه سبب لحياة القلب ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ بقضائه. أو بما وعدهم من الثواب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ جنده وأنصار دينه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الفائزون بخير الدارين.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المجادلة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحشر

مدنيَّة، وآيها أربع وعشرون آية

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قَدِمَ المدينة صالح بني النضير على أن لا يكونوا له ولا عليه، فلما ظهر (أي: انتصر) يومَ بدر قالوا: إنه النبي المنعوت في التوراة بالنصرة، فلما هُزِمَ المسلمون يوم أُحُدٍ ارتابوا (أي: شكوا) ونكثوا (أي: نقضوا)، وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة وحالفوا أبا سفيان، فأمر رسولُ الله ﷺ محمد بن مسلمة أخا كعب من الرضاعة فقتله غيلة (أي: بحيلة وخدعة)، ثم صبَّحهم بالكتائب وحاصرهم حتى صالحوه على الجلاء،

فجلا أكثرهم إلى الشام، ولحقت طائفة بخيبر والحيرة [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾ أي: في أول حشرهم من جزيرة العرب، إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك. أو في أول حشرهم للقتال أو الجلاء إلى الشام، وآخرُ حشرهم إجلاء عمر رضي الله تعالى عنه إياهم من خيبر إليه. أو في أول حشر الناس إلى الشام، وآخرُ حشرهم أنهم يحشرون إليه عند قيام الساعة فيدركهم هناك. أو أن ناراً تخرج من المشرق فتحشرهم إلى المغرب. والحشر: إخراج جمعٍ من مكان إلى آخر ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن حصونهم تمنعهم من بأس الله تعالى ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: عذابُه، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ﴾ لقوة وثوقهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ﴾ وأثبت فيها الخوف الذي يرعبها أي: يملؤها ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضَناًّ بها على المسلمين (أي: بخلاً بأن يسلموا أموالهم إلى المسلمين) وإخراجاً لما استحسنوا من آلاتها (مثل الخشب والعَمَد ونحوهما) ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم أيضاً كانوا يخربون ظواهرها نكايةً (أي: غيظاً وقهراً) وتوسيعاً لمجال القتال ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢﴾ فاتعِظوا بحالهم، فلا تغدروا ولا تعتمدوا على غير الله تعالى.

(٣) ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الخروجَ من أوطانهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ بالقتل والسبي؛ كما فعل ببني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣﴾ أي: إنهم إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(٤) ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾**﴾ الإشارة إلى ما ذكر مما حاق بهم (أي: أصابهم) وما كانوا بصدده وما هو مُعَدٌّ لهم. أو إلى الأخير (وشاقُّوا بمعنى خالفوا).

(٥) ﴿**مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ**﴾ أيَّ شيء قطعتم من نخلة ﴿**أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ فبأمره ﴿**وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾**﴾ أي: وفعلتم، أو وأُذِنَ لكم في القطع ليجزيهم على فسقهم بما غاظهم منه. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أمر بقطع نخيلهم قالوا: يامحمد! - عليه الصلاة والسلام - قد كنت تنهى عَنِ الفساد فِي الأرض، فما بالُ قطع النخل وتحريقها؟ فنزلت [أخرجه ابن جرير رحمه الله تعالى]. واستُدِلَّ به على جواز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم زيادة لغيظهم.

(٦) ﴿**وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ**﴾ وما أعاده عليه، بمعنى: صيَّره له أو ردَّه عليه. فإنه كان حقيقاً (أي: جديراً) بأن يكون له، لأنه تعالى خلق الناس لعبادته، وخلق ما خلق لهم ليتوسلوا به إلى طاعته، فهو جدير بأن يكون للمطيعين ﴿**مِنْهُمْ**﴾ من بني النضير. أو من الكفرة ﴿**فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ**﴾ فما أجريتم على تحصيله من الوجيف؛ وهو سرعة السير ﴿**مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ**﴾ ما يُركب من الإبل. وذلك إن كان المراد فيءُ بني النضير فلأن قراهم كانت على مِيلين من المدينة، فمشوا إليها رجالاً (أي: مشاة) غير رسول الله ﷺ، فإنه ركب جملاً أو حماراً، ولم يَجرِ مزيد قتال، ولذلك لم يعطِ الأنصار منه شيئاً إلا ثلاثة كانت بهم حاجة ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ**﴾ بقذف الرعب في قلوبهم ﴿**وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾**﴾ فيفعل ما يريد تارة بالوسائط الظاهرة وتارة بغيرها.

(٧) ﴿**مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ**﴾ اختُلِف في قَسم الفيء، فقيل: يسدَّس لظاهر الآية، ويُصرف سهم الله تعالى في عمارة الكعبة وسائر المساجد. وقيل: يخمَّس لأن ذكر الله تعالى للتعظيم، ويُصرف الآن سهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإمام على قولٍ، وإلى العساكر والثغور على قولٍ، وإلى مصالح المسلمين على قولٍ. وقيل: يخمَّس خمسُهُ كالغنيمة، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يقسم الخمس كذلك، ويصرف الأخماس الأربعة كما يشاء. والآن

على الخلاف المذكور ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ﴾ أي: الفيء الذي حقُّه أن يكون للفقراء ﴿دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ الدُولة: ما يتداوله الأغنياء ويدور بينهم كما كان في الجاهلية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ وما أعطاكم من الفيء أو من الأمر ﴿فَخُذُوهُ﴾ لأنه حلال لكم. أو فتمسكوا به لأنه واجب الطاعة ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ عن أخذه. أو عن إتيانه ﴿فَٱنتَهُواْۚ﴾ عنه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ في مخالفة رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ لمن خالفه.

(٨) ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ بأنفسهم وأموالهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ الذين ظهر صدقهم في إيمانهم.

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ المراد بهم الأنصار، فإنهم لزموا المدينة والإيمان وتمكنوا فيهما. وقيل: المعنى تبؤوا دار الهجرة ودار الإيمان ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من قبل هجرة المهاجرين ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ ولا يَثقُل عليهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ﴾ في أنفسهم ﴿حَاجَةٗ﴾ ما تَحْملُ عليه الحاجة؛ كالطلب والحزازة (أي: العداوة) والحسد والغيظ ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ مما أعطي المهاجرون من الفيء وغيره ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ويقدِّمون المهاجرين على أنفسهم، حتى إن من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوَّجها من أحدهم ﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ حاجة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ الفائزون بالثناء العاجل والثواب الآجل.

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

(١٠) ﴿**وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ**﴾ هم الذين هاجروا بعدُ حين قوي الإِسلام. أو التابعون بإحسان، وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، ولذلك قيل: إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين ﴿**يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ**﴾ أي: لإخواننا في الدين ﴿**وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ حقداً لهم (أقول: لا يخلو قلب الإنسان عن الحقد، فعلينا أن لا نكون مع غلِّ أنفسنا وحقدنا على المؤمنين. لِمَ هذا الحقد والحسد؟ التقسيم من الله تعالى) ﴿**رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾**﴾ فحقيقٌ بأن تجيب دعاءنا.

(قال في الواضح الميسر: قسَّم الله تعالى المؤمنين وصنَّفهم ثلاثة أصناف: (١ ـ المهاجرون، ٢ ـ الأنصار، ٣ ـ التابعون لهم بالإحسان)، ولفظ التابعين يشمل جميع المؤمنين إلى قيام الساعة، فمن لم يكن نقيَّ القلب، عفَّ اللسان، محبّاً لإخوانه المسلمين، كان خارجاً عن هذه الأصناف الثلاثة، وليس له في الإسلام نصيب. وقد ظهرت فئات من الخوارج والرافضة تزعم الإسلام، وهي تطعن في أخصِّ صحابة رسول الله ﷺ، وهؤلاء الذين عنَتْهم السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها في حديثها. فقد روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت لعروة بن الزبير رضي الله تعالى عنه: «يا بن أختي، أُمِرُوا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبُّوهم، وتلت الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ...﴾». وروى جابر رضي الله تعالى عنه قال: «قيل لعائشة رضي الله تعالى عنها: إنَّ ناساً يتناولون أصحابَ رسول الله ﷺ، حتى أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما. فقالت: وما تعجبون من ذلك؟! انقطع عنهم العمل، فأحبَّ الله تعالى أن لا يقطع عنهم الأجر» [أخرجه ابن عساكر رحمه الله تعالى]، هؤلاء شرار الخلق عند الله تعالى).

(١١) ﴿**أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ**﴾ يريد الذين بينهم وبينهم أخوَّة الكفر أو الصداقة والموالاة ﴿**لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ**﴾ من دياركم ﴿**لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ**﴾ في قتالكم أو خذلانكم ﴿**أَحَدًا أَبَدٗا**﴾ أي: من رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿**وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ**﴾ لنعاوننكم ﴿**وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾**﴾ لِعِلْمه بأنهم لا يفعلون ذلك كما قال تعالى:

(١٢) ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان كذلك. فإن ابن أبيٍّ وأصحابه راسلوا بني النضير بذلك ثم أخلفوهم. وفيه دليل على صحة النبوة وإعجاز القرآن ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفَرَض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ انهزاماً ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢﴾ بعدُ، بل يخذلهم الله تعالى، ولا ينفعهم نصرة المنافقين، أو نفاقهم.

(١٣) ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشد مرهوبيَّة ﴿فِى صُدُورِهِم﴾، فإنهم كانوا يضمرون مخافتهم من المؤمنين ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على ما يُظهرونه نفاقاً، فإن استبطان رهبتكم سبب لإظهار رهبة الله جل وعلا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ١٣﴾ لا يعلمون عظمة الله جل وعلا حتى يخشوه حقَّ خشيته ويعلموا أنه الحقيق بأن يُخشى.

(١٤) ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ اليهود والمنافقون ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق (والدروب: جمع درب، وهو الباب الكبير) ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ لفرط رهبتهم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: وليس ذلك لضعفهم وجُبنهم، فإنه يشتد بأسُهم إذا حارب بعضهم بعضاً، بل لِقذف الله تعالى الرعبَ في قلوبهم، ولأن الشجاع يَجبُن والعزيز يُذَلُّ إذا حاربَ اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة، لافتراق عقائدهم واختلاف مقاصدهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ١٤﴾ ما فيه صلاحهم. وإنَّ تشتتَ القلوب يوهنُ قواهم (أي: يضعفها).

(١٥) ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مَثَلُ اليهود كمَثَل أهل بدر أو بني قينقاع - إن صح أنهم أخرجوا قبل النضير - أو المهلَكين من الأمم الماضية ﴿قَرِيبًا﴾ في زمان قريب ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوءَ عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٥﴾ في الآخرة.

(١٦) ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: مَثَلُ المنافقين في إغراء اليهود على القتال كمَثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أغراه على الكفر إغراء الآمر للمأمور ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب، ولم ينفعه ذلك كما قال تعالى:

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

٦٠ سُورَةُ المُمْتَحنَةِ ١٣

(١٧) ﴿**فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾**﴾ والمراد من الإنسان الجنس. وقيل: أبو جهل، قال له إبليس يومَ بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨]. وقيل: راهِبٌ حمله على الفجور والارتداد.

(١٨) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ**﴾ ليوم القيامة. سَمّاه به لدنوِّه، أو لأن الدنيا كيوم والآخرة كغَدِهِ ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ**﴾ تكريرٌ للتأكيد. أو الأول في أداء الواجبات لأنه مقرون بالعمل، والثاني في ترك المحارم لاقترانه بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾**﴾ وهو كالوعيد على المعاصي.

(١٩) ﴿**وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ**﴾ نسوا حقه ﴿**فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ**﴾ فجعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلِّصها. أو أراهم يوم القيامة من الهول ما أنساهم أنفسهم ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾**﴾ الكاملون في الفسوق.

(٢٠) ﴿**لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ**﴾ أي: لا يستوي الذين استكملوا نفوسهم فاستأهلوا للجنة والذين استمهنوها (باتباع الشهوات) فاستحقوا النار ﴿**أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾**﴾ بالنعيم المقيم (أقول: لاتضيع أوقاتك عبثاً، فأنفاس عمرك جوهرة لاعوض عنها، كن حريصاً على الوقت، ولاتسوّف فإن التسويف من الشيطان).

(٢١) ﴿**لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ**﴾ تمثيلٌ وتخييل، كما مر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ولذلك عقَّبه بقوله تعالى: ﴿**وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾**﴾ فإن الإشارة إليه وإلى أمثاله. والمراد توبيخ الإنسان على عدم تخشُّعه عند تلاوة القرآن لقساوة قلبه وقلَّة تدبُّره. والتصدُّعُ: التشقُّق (أقول: علينا أن نتفكر في معاني القرآن عند القراءة، والذين يحبُّون أن يعرفوا معاني القرآن يضعون عندهم واحداً من التفاسير المختصرة، يرجعون إليه كلما غاب عنهم المعنى).

(٢٢) ﴿**هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ**﴾ أي: ما غاب عن الحس من الجواهر القدسية وأحوالها، وما حضر له من الأجرام وأعراضها. أو المعدوم والموجود. أو السر والعلانية. وقيل: الدنيا

والآخرة. وتقديمُ الْغَيْبِ لتقدُّمِه في الوجود وتعلق العلم القديم به ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

(٢٣)﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ البالغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ واهب الأمن ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراده، أو جبر حالهم بمعنى أصلحه (أقول: لا جبر في الإيمان والكفر ولا في الطاعة والمعصية، لأن الجبر يتعارض مع الجزء الاختياري للإنسان. والإنسان يُثاب ويُعذب بالجزء الاختياري، والإيمان الجبري غير مقبول) ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبَّر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إذ لا يشاركه في شيء من ذلك.

(٢٤)﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدِّر للأشياء على مقتضى حكمته ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد لها بريئاً من التفاوت ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنها دالة على محاسن المعاني ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لتنزهه عن النقائص كلها ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ الجامع للكمالات بأسرها، فإنها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الحشر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الممتحنة

مدنيَّة، وآيها ثلاث عشرة آية

(١) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، فإنه لما علم أن رسول الله ﷺ يغزو أهل مكة كتب إليهم أن رسول الله ﷺ يريدكم فَخُذوا حذركم، وأرسل كتابه مع سارة مولاة بني المطلب، فنزل جبريل عليه السلام فأعلم رسول الله عليه الصلاة والسلام، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد رضي الله تعالى عنهم، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (اسم مكان بين مكة والمدينة) فإن بها ظعينة (وهي المرأة ما دامت في الهودج) معها كتاب حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلُّوها، فإن أبت فاضربوا عنقها، فأدْرَكوها ثمة (أي: هناك) فجحدت (أي: أنكرت)، فهمُّوا بالرجوع، فسلَّ علي رضي الله تعالى عنه السيف، فأخرجته من عقيصتها (أي: ضفيرة شعرها)، فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال: ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله! ما كفرت منذ أسلمتُ، ولا غششتك منذ نصحتك، ولكني كنت امرأ ملصقاً في قريش (أي: لست منهم) وليس لي فيهم من يحمي أهلي، فأردت أن آخذ عندهم يداً (أي: إحساناً)، وقد علمتُ أن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدَّقه رسول الله ﷺ وعذره [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] ﴿**تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ**﴾ تُفضون إليهم المودة بالمكاتبة. أو إخبار رسول الله ﷺ بسبب المودة ﴿**وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ**﴾ أي: من مكة ﴿**أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ**﴾ بأن تؤمنوا به ﴿**إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ**﴾ عن أوطانكم ﴿**جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي**﴾ علة للخروج ﴿**تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ**﴾ معناه: أيُّ طائل لكم في إسرار المودة، أو الإخبار بسبب المودة؟ ﴿**وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ**﴾ أي: منكم ﴿**وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ**﴾ أي: يفعل الاتخاذ ﴿**فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾**﴾ أخطأه.

(أقول: لقد علمنا أن هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة رضي الله تعالى عنه فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾

يعني المشركين والكفار الذين هم محاربون لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين الذين شرع الله تعالى عداوتهم ومقاطعتهم. فاحذر يا أخي أن تتخذ صديقاً ومحباً من غير المؤمنين، من الكافرين، تحبه وتوده من أجل مصلحتك الدنيوية. وإن كان ليس بينك وبينه علاقة إيمانية، هذه الصداقة والمحبة والموالاة ضد الإيمان، فهي مثل السم للجسد يقتله دون أن يشعر، نرجو الله تعالى جل جلاله أن يكون المؤمنون بعيدين عن هذا الوصف، إلا أن تكون المعاملة ليست على حساب الدين، والإيمان والمحبة الدينية التي موضعها القلب فهذا جائز، وكذلك إذا عاملتهم خوفاً من شرهم ومكيدتهم، قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨] وقلبك مطمئن بالإيمان).

(٢) ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يظفروا بكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بما يسوؤكم؛ كالقتل والشتم ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ وتمنَّوا ارتدادكم.

(٣) ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ﴾ الذين تُوالون المشركين لأجلهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ﴾ يُفرِّق بينكم بما عَراكم (أي: حلَّ بكم) من الهول، فيفِرّ بعضكم من بعض، فما لكم ترفضون اليوم حقَّ الله تعالى لمن يفرُّ منكم غداً ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾ فيجازيكم عليه.

(٤) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوةٌ ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ جميع بريء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بدينكم، أو بمعبودكم، أو بكم وبه، فلا نعتدُّ بشأنكم وآلهتكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فتنقلب العداوة والبغضاء ألفة ومحبة ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناءٌ من قوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فإن استغفاره لأبيه الكافر ليس مما ينبغي أن يأتسَّوا به، فإنه كان قبل النهي، أو لموعدة وعدها إياه ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ﴾ من تمام قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام (قال الآلوسي: اتفق أهل السنة أنه ليس أباه، بل هو عمه) ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ متصل بما قبل الاستثناء. أو أمرٌ من الله تعالى للمؤمنين بأن يقولوه تتميماً لما وصّاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار.

(٥) ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بأن تسلِّطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نتحمله ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا ﴿رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يجير المتوكِّل ويجيب الداعي.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

(٦) ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ تكرير لمزيد الحثِّ على التأسِّي بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿**لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ**﴾ وهو يدل على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التأسي بهم، وأنَّ تَرْكه مُؤذِنٌ (أي: مُشْعِر) بسوء العقيدة ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾**﴾ فإنه جدير بأن يُوعد به الكفرة.

(٧) ﴿**عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً**﴾ لمّا نزل لاَ تَتَّخِذُوا عادى المؤمنون أقاربهم المشركين وتبرؤوا منهم، فوعدهم الله تعالى بذلك وأنجز، إذ أسلم أكثرهم وصاروا لهم أولياء ﴿**وَٱللَّهُ قَدِيرٌ**﴾ على ذلك ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾**﴾ لِما فرط منكم في موالاتهم من قبلُ ولِما بقي في قلوبكم من ميل الرَّحِم.

(٨) ﴿**لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ**﴾ أي: لا ينهاكم عن مبرَّة هؤلاء ﴿**أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ**﴾ وتُفضوا إليهم بالقسط؛ أي: العدل ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾**﴾ العادلين. روي أن قتيلة بنت عبد العزى قَدِمت مشركةً على بنتها أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما بهدايا، فلم تَقبَلْها ولم تأذن لها بالدخول فنزلت [أخرجه الإمام البخاري والإمام أحمد في المسند رحمهما الله تعالى].

(٩) ﴿**إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ**﴾ كمشركي مكة، فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين، وبعضهم أعانوا المخرِجين ﴿**أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾**﴾ لوضعهم الولاية في غير موضعها.

(١٠) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ**﴾ فاختبروهنَّ بما يُغلِّب على ظنكم موافقةَ قلوبهنَّ ألسنتَهنَّ في الإيمان ﴿**ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ**﴾ فإنه المطَّلعُ على ما في قلوبهنَّ ﴿**فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ**﴾ العلمَ الذي يمكنكم تحصيله؛ وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات (أي: العلامات). وإنما سَمّاه علماً إيذاناً بأنه كالعلم في وجوب العمل به ﴿**فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ**﴾ أي: إلى أزواجهنَّ الكفرة، لقوله تعالى: ﴿**لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**﴾ والتكرير للمطابقة والمبالغة. أو الأول لحصول الفرقة، والثاني للمنع عن الاستئناف ﴿**وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟**﴾ ما دفعوا إليهنَّ من المهور. وذلك لأن صلح الحديبية جرى: على

أن من جاءنا منكم رددناه. فلما تعذَّر عليه ردهنَّ لورود النهي عنه لزمه ردُّ مهورهنَّ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإن الإِسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ شرطَ إيتاء المهر في نكاحهن إيذاناً بأن ما أعطى أزواجُهنَّ لا يقوم مقام المهر ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ بما تعتصم (أي: تتمسَّك) به الكافرات من عَقْدٍ وسَبَبٍ؛ والمراد نهي المؤمنين عن المُقام على نكاح المشركات ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ من مهور أزواجهم المهاجرات ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ يعني جميع ما ذُكر في الآية ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ يشرع ما تقتضيه حكمته جل وعلا.

(١١) ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ وإن سبقكم وانفلتَ منكم ﴿شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أحد من أزواجكم (أقول: كلمة «شيء» أعم من أحد). أو شَيْءٌ من مهورهن ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ فجاءت عقبتكم ـ أي: نوبتكم ـ من أداء المهر ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ من مهر المهاجِرة ولا تؤتوه زوجها الكافر. روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة أبى المُشركون أن يؤدُّوا مهر الكوافر فنزلت. وقيل: معناه إن فاتكم فأصبتم من الكفار عقبى ـ وهي الغنيمة ـ فآتُوا بدل الفائت من الغنيمة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ١١﴾ فإن الإِيمان به جلَّ وعلا يقتضي التقوى منه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾

٦١ سُورَةُ الصَّفِّ ١٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

(١٢) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا**﴾ نزلت يوم الفتح، فإنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء ﴿**وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ**﴾ يريدُ وأدَ البنات ﴿**وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ**﴾ (كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدي منك كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً [المدارك للنسفي رحمه الله تعالى]) ﴿**وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ**﴾ في حسنة تأمرهنَّ بها. والتقييد بالمعروف مع أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا به تنبيهٌ على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق ﴿**فَبَايِعۡهُنَّ**﴾ إذا بايعنك بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء ﴿**وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾**﴾.

(١٣) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ**﴾ يعني عامَّة الكفار، أو اليهود. إذ روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم ﴿**قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ**﴾ لكفرهم بها، أو لعلمهم بأنهم لا حظَّ (أي: لا نصيب) لهم فيها، لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيَّد بالآيات ﴿**كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾**﴾ أن يُبعثوا أو يُثابوا أو ينالهم خير منهم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الممتحنة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الصف

مدنيَّة، وقيل: مكيَّة، وآيها أربع عشرة آية

(١) ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾**﴾ (أقول: قال في بعض السور «سبَّح» وفي بعضها «يسبِّح» حتى يدخل بلفظ الماضي والحاضر على تسبيح الله تعالى على الدوام، كما يقول أولياؤنا رضي الله تعالى عنهم).

(٢) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] فولَّوْا يومَ أُحُدٍ فنزلت [أخرجه الطبري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما].

(أقول: الذين يقولون ما لا يفعلون كلُّهم اتَّبعوا الهوى، وباتِّباعهم الهوى وقعوا في الغفلة، فدنسوا أرواحهم بفعل المعاصي، والمنكرات والمخالفات الشرعية، وكان ضلالهم على علم، والعياذ بالله تعالى من الضلال بعد الهدى. نسأل الله تعالى الحفظ والثبات والتمسُّك بأحكام الشرع الشريف ظاهراً وباطناً).

(٣) ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ المقتُ: أشدُّ البغض. وفيه دلالة على أن قولهم هذا مقتٌ خالص كبير عند من يحقر دونه كل عظيم، مبالغة في المنع عنه.

(٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ مصطفِّين ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ في تراصِّهم من غير فرجة.

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ مقدَّر باذكر ﴿يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ بالعصيان والرمي بالأُدْرة (أي: الخُصيْة المنتفخة) ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بما جئتكم من المعجزات. والجملةُ حالٌ مقرِّرة للإنكار، فإن العلم بنبوَّته يوجب تعظيمه ويمنع إيذاءه. و«قَدْ» لتحقيق العلم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ عن الحق ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ صرَفَها عن قبول الحق والميل إلى الصواب (أقول: الله تعالى لا يجبر عبده على الإيمان ولا يجبره على الكفر، ولكن حصل الزيغ منهم أولاً، فأزاغ الله تعالى قلوبهم) ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾ هداية مُوصلة إلى معرفة الحق أو إلى الجنة.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

(٦) ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ**﴾ ولعله لم يقل: «يا قَوْمِ» كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا نَسبَ له فيهم ﴿**إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا**﴾ في حال تصديقي لِما تقدَّمني من التوراة، وتبشيري ﴿**بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ**﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام. والمعنى أن ديني التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه. فذَكَرَ أوَّلَ الكتب المشهورة الذي حكم به النبيونَ، والنبيَّ الذي هو خاتم المرسلين ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾**﴾ الإشارة إلى ما جاء به، أو إليه. وتسميته سحراً للمبالغة.

(٧) ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ**﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يدعى إلى الإسلام الظاهرِ حقِّيَّتُه، المقتضى له خير الدارين، فيضع موضع إجابته الافتراء على الله تعالى بتكذيب رسوله عليه الصلاة والسلام وتسمية آياته سحراً. فإنه يعمُّ إثبات المنفي ونفي الثابت ﴿**وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾**﴾ لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم.

(٨) ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟**﴾ أي: يريدون أن يطفئوا. أو يريدون الافتراء ليطفؤا ﴿**نُورَ ٱللَّهِ**﴾ يعني: دينَه، أو كتابه، أو حجته ﴿**بِأَفْوَٰهِهِمْ**﴾ بطعنهم فيه ﴿**وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ**﴾ مبلِّغُ غايتِهِ بنشْرِهِ وإعلائه ﴿**وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾**﴾ إرغاماً لهم.

(٩) ﴿**هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ**﴾ بالقرآن، أو بالمعجزة ﴿**وَدِينِ ٱلْحَقِّ**﴾ والمِلَّة الحنيفية ﴿**لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ**﴾ ليُعليه على جميع الأديان ﴿**وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾**﴾ لما فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك.

(١٠-١١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾ استئنافٌ مبيِّن للتجارة؛ وهو الجمع بين الإيمان والجهاد المؤدي إلى كمال عزِّهم. والمراد به الأمر، وإنما جيء بلفظ الخبر إيذاناً بأن ذلك مما لا يترك ﴿**ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ يعني ما ذُكِر من الإيمان والجهاد ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾**﴾ إن كنتم من أهل العلم، إذ الجاهلُ لا يُعْتَدُّ بفعله.

(١٢) ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ الإشارة إلى ما ذُكِرَ من المغفرة وإدخال الجنة.

(١٣) ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمةٌ أخرى عاجلة محبوبة. وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ كأنه قال: آمِنوا وجاهِدوا أيها المؤمنون، وبشِّرْهم يا رسول الله بما وعدتهم عليهما عاجلاً وآجلاً.

(١٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَنْ جُندي متوجِّهاً إلى نصرة الله تعالى؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ المراد قل لهم كما قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ عليه الصلاة والسلام. أو كونوا أنصاراً كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام: مَنْ أَنْصارِي إِلَى الله. والحواريون أصفياؤه، وهم أولُ من آمن به. مِنَ الحَوَرِ وهو البياض، وكانوا اثني عشر رجلاً ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أي: بعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بالحجة وبالحرب، وذلك بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ فصاروا غالبين.

(أقول: كل عباد الله جل وعلا محتاج إلى الإعانة، وحثّنا عليها ربنا جل وعلا فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] وعلى هذا فالله جل وعلا غني عن العالمين لأنه رب العالمين، ونبيه ﷺ مؤيد به، وماهذه النصرة والتأييد إلا لفائدتنا، إن الله تعالى يحب الذين يوجهون عباد الله إلى الله تعالى، وإذا نُوَجه عباد الله تعالى وأمة المصطفى ﷺ إلى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام نكون أدينا وظيفتنا، وحققنا عبوديتنا، والفائدة تعود إلينا، فلابد أن نكون معينين متعاونين على ذلك.نسأل الله تعالى التوفيق).

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الصف

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

(٦٢) سُورَةُ الجُمُعَةِ (١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الجمعة

مدنيَّة، وآيها إحدى عشرة آية

(١) ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ سبق تفسيرها في أول سورة الحديد ﴿**ٱلْمَلِكِ**﴾ (أي: الذي يملك كل شيء ولا يزول عنه ملكه) ﴿**ٱلْقُدُّوسِ**﴾ البالغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً ﴿**ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾**﴾

(٢) ﴿**هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ**﴾ أي: في العرب، لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون ﴿**رَسُولًا مِّنْهُمْ**﴾ أي: من جملتهم أمِّياً مثلهم ﴿**يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ**﴾ مع كونه أمياً مثلهم لم يُعهد منه قراءة ولا تعلُّم ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ من خبائث العقائد والأعمال (أقول: أحياناً في القرآن تقدَّم العقائد على الأعمال، وهذا يدل على أن العقيدة إذا صحت صحَّ من الأعمال ما بني عليها) ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ**﴾ القرآن والشريعة. أو معالم الدين من المنقول والمعقول. ولو لم يكن له سواه معجزة لكفاه ﴿**وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾**﴾ من الشرك وخبث الجاهلية. وهو بيان لشدة احتياجهم إلى نبي يرشدهم، وإزاحةٌ لما يُتوهَّم أن الرسول ﷺ تعلَّم ذلك من معلِّم.

(٣) ﴿**وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ**﴾ عطف على الْأُمِّيِّنَ. أو هم الذين جاؤوا بعد الصحابة إلى يوم الدين، فإنَّ دعوته وتعليمه يعمُّ الجميع ﴿**لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ**﴾ لم يلحقوا بهم بعدُ وسيلحقون ﴿**وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ في تمكينه من هذا الأمر الخارق للعادة ﴿**ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾**﴾ في اختياره وتعليمه.

(٤) ﴿**ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ**﴾ ذلك الفضل الذي امتاز به عليه الصلاة والسلام عن أقرانه، فضلُه جل وعلا ﴿**يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ**﴾ تفضلاً وعطية ﴿**وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾**﴾ الذي يُستحقَر دونه نعيم الدنيا، أو نعيم الآخرة، أو نعيمهما.

(٥) ﴿**مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ**﴾ عُلِّموها وكُلِّفوا العمل بها ﴿**ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا**﴾ لم يعملوا بها، أو لم ينتفعوا بما فيها ﴿**كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ**﴾ كتباً من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها ﴿**بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ**﴾ أي: مَثَلُ الذين كذبوا، وهم اليهود المكذبون بآيات الله تعالى الدالة على نبوة محمد

عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾.

(٦) ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ أي: تهوَّدوا ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ إذ كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ فتمنَّوا من الله تعالى أن يميتكم وينقلكم من دار البليَّة إلى محل الكرامة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ في زعمكم (أقول: ولكن هذا الموت مرٌّ، ولأجل مرارته أكثر المؤمنين لا يطلبونه).

(٧) ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ بسبب ما قدَّموا من الكفر والمعاصي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ فيجازيهم على أعمالهم.

(٨) ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ﴾ وتخافون أن تتمنَّوه بلسانكم مخافةَ أن يصيبكم فتؤخذوا بأعمالكم ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ لاحقٌ بكم لا تَفُوتونه. وكأن فرارهم منه يسرِّع لحوقه بهم ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾ بأن يجازيكم عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١

٦٣ سُورَةُ المُنَافِقُونَ ١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أُذِّنَ لها ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ وإنما سُمِّي جمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة. وأول جمعة جمَّعها رسول الله ﷺ أنه لمّا قَدِمَ المدينة نزل قباء فأقام بها إلى الجمعة، ثم دخل المدينة وصلى الجمعة في وادٍ لبني سالم بن عوف [رواه البخاري رحمه الله تعالى في التاريخ] ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ فامضوا إليه مسرعين قصداً (أي: قليلاً)، فإن السعيَ (أي: المشي بسرعة) دون العَدْوِ (أي: الركض). والذِكْرُ: الخُطبة، وقيل: الصلاة. والأمر بالسعي إليها يدلُّ على وجوبها ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ واتركوا المعاملة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: السعي إلى ذكر الله تعالى ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من المعاملة، فإن نفع الآخرة خير وأبقى ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾ الخير والشر الحقيقيين، أو إن كنتم من أهل العلم.

(١٠) ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أُدِّيَتْ وفُرِغَ منها ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ إطلاقٌ لما حُظِرَ عليهم. واحتجَّ به من جَعل الأمر بعد الحظر للإباحة ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ واذكروه في مجامع أحوالكم، ولا تخُصُّوا ذكره بالصلاة ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ بخير الدارين.

(أقول: علينا معاشر المؤمنين أن نوجِّه استعدادنا وهمَّتنا إلى الآخرة ونذكر حسابنا وسؤالنا كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] عن الشريعة المحمدية، من الصلاة والجمعة والسعي إليها والحج والزكاة والصوم والذكر وغير ذلك من العبادات).

(١١) ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب للجمعة، فمرَّت عليه عيرٌ (أي: إبل) تحمل الطعام، فخرج الناس إليهم إلا اثني عشر رجلاً، فنزلت. [والحديث رواه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. وإفراد التجارة برد الكناية لأنها المقصودة، فإن المراد من اللهو الطبلُ الذي كانوا يستقبلون به العير. والترديد للدلالة على أن منهم من انفض لمجرد سماع الطبل ورؤيته، أو للدلالة على أن الانفضاض (أي: الذهاب) إلى التجارة مع الحاجة إليها والانتفاع بها إذا كان مذموماً كان الانفضاض إلى اللهو أَولى بذلك. وقيل: تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها، وإذا رأوا لهواً انفضوا إليه ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾ أي:

على المنبر ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فإن ذلك محقَّقٌ مخلَّدٌ، بخلاف ما تتوهَّمون من نفعهما ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾ فتوكَّلوا عليه واطلبوا الرزق منه.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الجمعة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المنافقون

مدنيَّة، وآيها إحدى عشرة آية

(١) ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الشهادةُ إخبارٌ عن عِلمٍ من الشهود، وهو الحضور والاطلاع، ولذلك صدَّق المشهودَ به وكذَّبهم في الشهادة، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ لأنهم لم يعتقدوا ذلك.

(٢) ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ حَلفهم الكاذب، أو شهادتهم هذه، فإنها تجري في مجرى الحلف بالتوكيد ﴿جُنَّةً﴾ وقايةً من القتل والسبي ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٢﴾ من نفاقهم وصدِّهم (أي: إعراضهم).

(٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكلام المتقدِّم. أي: ذلك القول الشاهد على سوء أعمالهم. أو إلى الحال المذكورة من النفاق والكذب والاستجنان بالإيمان (أي: الاستتار بالإيمان) ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ بسبب أنهم آمنوا ظَاهراً ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ سراً. أو آمَنُوا إذا رأوا آية، ثُمَّ كَفَرُوا حيثما سمعوا من شياطينهم شبهةً ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى تمرَّنوا على الكفر (أي: أعتادوه) فاستحكموا فيه ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ٣﴾ حقيقة الإيمان ولا يعرفون صحته.

(٤) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لضخامتها وصباحتها (أي: حُسنها وجمالها) ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لذلاقتهم (أي: انطلاق ألسنتهم) وحلاوة كلامهم. وكان ابن أبيٍّ جسيماً فصيحاً يحضر مجلس رسول الله ﷺ في جمعٍ مثله، فتعجبه هياكلهم ويصغي إلى كلامهم ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي: مشبَّهين بأخشاب منصوبة مسنَّدة إلى الحائط في كونهم أشباحاً خالية عن العلم والنظر. وقيل: الـ«خُشُب» جمع خشباء، وهي الخشبة التي نُخِرَ جَوْفُهَا، شُبِّهوا بها في حسن المنظر وقبح المخبر ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واقعةً عليهم، لجُبْنهم وهلعهم (أي: خوفهم) ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ الضمير للمنافقين ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاءٌ عليهم، وهو طلب من ذاته جل وعلا أن يلعنهم. أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٤﴾ كيف يُصرَفون عن الحق.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّغَابُنِ (٦٤) (١٨)

(٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ عطَفوها إعراضاً واستكباراً عن ذلك ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يُعرِضون عن الاستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ عن الاعتذار.

(٦) ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾ لرسوخهم في الكفر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ الخارجين عن مظنَّة الاستصلاح، لانهماكهم (أي: لتماديهم) في الكفر والنفاق.

(٧) ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: للأنصار: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ﴾ يعنون فقراء المهاجرين ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيده الأرزاق والقسم ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ ذلك لجهلهم بالله تعالى.

(٨) ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ﴾ روي أن أعرابياً نازع أنصارياً في بعض الغزوات على ماءٍ، فضرب الأعرابي رأسه بخشبة، فشكى إلى ابن أُبيٍّ، فقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا (أي: يتفرَّقوا)، وإذا رجعنا إلى المدينة فليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ [رواه الترمذي وأصله في البخاري ومسلم رحمهم الله تعالى]. عَنَى بالأعزِّ نفسَه، وبالأذلِّ رسولَ الله ﷺ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولله الغَلَبة والقوة ولمن أعزَّه؛ من رسوله والمؤمنين ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ من فرط جهلهم وغرورهم.

(٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ﴾ لا يشغلْكم تدبيرها والاهتمام بها عن ذكره جل وعلا؛ كالصلوات وسائر العبادات المذكِّرة للمعبود جلَّ وعلا. والمراد نهيُهم عن اللهو بها. وتوجيه النهي إليها للمبالغة، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: اللهوَ بها، وهو الشغل ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ لأنهم باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

(١٠) ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ بعضَ أموالكم ادِّخاراً للآخرة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: يَرى دلائله ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ هلّا أمهلتني ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أمدٍ غير بعيد ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدَّق ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ بالتدارك.

(١١) ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ ولن يمهلَها ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ آخرُ عمرها ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١١﴾ فمجازٍ عليه (أقول: العمل في الدنيا ليس فيه ضرر، ولكن تعلق القلب بالدنيا هو الضرر، ولاتبرر انغماسك في الدنيا من أجل أولادك، لأن أولادك إن كانوا صلحاء فالله تعالى يتولاهم: ﴿وَهُوَ يَتَولَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. أين ولايتك من ولايته جل وعلا؟ وإن كانوا قصراً فعليك بالتقوى قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّه وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]. والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب، وإن كانوا أشقياء لا قدر الله تعالى، فلا تكن سبباً في عونهم على الشقاء، فهم يعذبون بسبب عصيانهم، وأنت تعذب بسبب التهائك عن ذكر الله تعالى بجمع المال، فرزقك ورزقهم على الله تعالى، فخذ بالسبب ولايكن ذلك على حساب دينك، واعلم أن الرزّاق هو الله تعالى لا السبب. وخير المال ما استعملته في الحلال).

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المنافقون وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التغابن

مختلف فيها، وآيها ثماني عشرة آية

(١) ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ**﴾ بدلالتها على كماله واستغنائه ﴿**لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١**﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل على سواء.

(٢) ﴿**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ**﴾ مقدَّرٌ كفرُه، موجَّه إلى ما يحمله عليه ﴿**وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ**﴾ مقدَّرٌ إيمانه موفق لِما يدعوه إليه ﴿**وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢**﴾ فيعاملكم بما يناسب أعمالكم.

(٣) ﴿**خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ**﴾ بالحكمة البالغة ﴿**وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ**﴾ فصوَّركم من جملة ما خلق فيهما بأحسن صورة، حيث زيَّنكم بصفوة أوصاف الكائنات، وخصَّكم بخلاصة خصائص المبدَعات، وجعلكم أنموذجَ جميع المخلوقات ﴿**وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣**﴾ فأحسِنوا سرائرَكم حتى لا يَمسخ بالعذاب ظواهرَكم.

(٤) ﴿**يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤**﴾ فلا يخفى عليه ما يصحُّ أن يُعلم، كلياً كان أو جزئياً، لأن نسبة المقتضي لعلمه إلى الكل واحدة.

(٥) ﴿**أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ**﴾ يا أيها الكفار ﴿**نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ**﴾ كقوم نوح وهود وصالح عليهم الصلاة والسلام ﴿**فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ**﴾ ضرَرَ كفرهم في الدنيا ﴿**وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٥**﴾ في الآخرة.

(٦) ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: المذكور من الوبال والعذاب ﴿**بِأَنَّهُۥ**﴾ بسبب أن الشأن ﴿**كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ**﴾ بالمعجزات ﴿**فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا**﴾ أنكروا وتعجَّبوا من أن يكون الرسل بشراً ﴿**فَكَفَرُواْ**﴾ بالرسل ﴿**وَتَوَلَّواْۚ**﴾ عن التدبر في البينات ﴿**وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ**﴾ عن كل شيء فضلاً عن طاعتهم ﴿**وَٱللَّهُ غَنِيٌّ**﴾ عن عبادتهم وغيرها ﴿**حَمِيدٞ ٦**﴾ يدلُّ على حمده كلُّ مخلوق.

(٧) ﴿**زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ**﴾ الزعمُ: ادعاءُ العلم ﴿**قُلۡ بَلَىٰ**﴾ أي: بلى تبعثون ﴿**وَرَبِّي**﴾ قَسَمٌ ﴿**لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ**﴾ بالمحاسبة والمجازاة ﴿**وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧**﴾ لقبول المادة وحصول القدرة التامة.

(٨) ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ يعني القرآن، فإنه بإعجازه ظاهر بنفسه مظهر لغيره مما فيه شرحه وبيانه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾ فمجازٍ عليه.

(٩) ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ لأجل ما فيه من الحساب والجزاء. والجمعُ: جمع الملائكة والثقلين ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ يَغْبُن فيه بعضهم بعضاً (أي: يحرمه بعض حصته)، لنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس. وفيه دلالة على أن التغابن الحقيقي هو التغابن في أمور الآخرة لعظمها ودوامها (أقول: يوم التغابن هو يوم القيامة، والغبن هو النقص والخسران) ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ أي: عملاً صالحاً ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين، ولذلك جعله الفوز العظيم، لأنه جامعٌ للمصالح؛ من دفع المضارِّ وجلب المنافع.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾

(٦٥) سُورَةُ الطَّلَاقِ (١٢)

(١٠) ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾**﴾ كأنها والآية المتقدِّمة بيان للتَّغابُنِ وتفصيل له.

(١١) ﴿**مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ**﴾ إلا بتقديره وإرادته ﴿**وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ**﴾ للثبات والاسترجاع عند حلولها ﴿**وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾**﴾ حتى القلوب وأحوالها.

(١٢) ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ**﴾ أي: فإن توليتم فلا بأس عليه ﴿**فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾**﴾ إذ وظيفته التبليغ وقد بلَّغ.

(١٣) ﴿**ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾**﴾ لأن إيمانهم بأن الكلَّ منه يقتضي ذلك.

(١٤) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ**﴾ يشغلكم عن طاعة الله. أو يخاصمكم في أمر الدين أو الدنيا ﴿**فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ**﴾ ولا تأمنوا غوائلهم (أي: شرورهم) ﴿**وَإِن تَعۡفُواْ**﴾ عن ذنوبهم بترك المعاقبة ﴿**وَتَصۡفَحُواْ**﴾ بالإعراض وترك التثريب (أي: عدم اللوم) عليها ﴿**وَتَغۡفِرُواْ**﴾ بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾**﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم.

(١٥) ﴿**إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ**﴾ اختبارٌ لكم ﴿**وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾**﴾ لمن آثر محبة الله تعالى وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعي لهم.

(١٦) ﴿**فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ**﴾ أي: ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم ﴿**وَٱسۡمَعُواْ**﴾ مواعظه ﴿**وَأَطِيعُواْ**﴾ أوامره ﴿**وَأَنفِقُواْ**﴾ في وجوه الخير خالصاً لوجهه ﴿**خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ**﴾ أي: افعلوا ما هو خير لها. وهو تأكيد للحثِّ على امتثال هذه الأوامر ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ**﴾ حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾**﴾ الفائزون بالثناء العاجل والثواب الآجل.

(١٧) ﴿**إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ**﴾ تصرِفوا المال فيما أمره (أقول: وانظر إلى روعة التعبير في جمال القرآن، فقد شبَّه الإنفاق في وجوه الخير بقرضٍ يقرضه العبدُ لربه) ﴿**قَرۡضًا حَسَنٗا**﴾ مقروناً بإخلاص وطيب قلب ﴿**يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ**﴾ يجعلْ لكم بالواحد عشراً إلى سبع مئةٍ وأكثر ﴿**وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ**﴾ ببركة الإنفاق ﴿**وَٱللَّهُ شَكُورٌ**﴾ يعطي الجزيل بالقليل ﴿**حَلِيمٌ ﴿١٧﴾**﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

(١٨) ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْء ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ تامُّ القدرة والعلم.

(أقول: أما فتنة الأزواج فقد عرفنا ذلك، وهي إذا أطاع الرجل زوجته في مخالفة أمور الدين. ولكن عليكم أن تحفظوا حقوق الشريعة باتجاههن، ولاتسترسلوا معهن اتباعاً لهواهن وشهواتهن، من حب الدنيا والزينة واللباس والتبرج للأجانب. وأما من ناحية الأخلاق، على المؤمن العاقل أن يتحمل ويصبر على أخلاقهن. والصبر على أخلاق النساء من شؤون الإنسان الكامل، فلابد أن يداريهن بالحكمة والموعظة، مع حفظ المودة والرحمة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] على أن لا يسترسل معهنَّ بكلِّ الجهات؛ والمشورة معهن من الأخلاق المحمودة، إذا لم تكن هذه الأمور مخالفة للشريعة.

وأما الأولاد: عليكم أن لايكونوا حجاباً بينكم وبين الله تعالى بكثرة تعلق القلب بهم، ولهم على الوالد حقوق كما قال ﷺ: «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ، ويعلمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ» [رواه ابن النجار في التاريخ] ولكن عليه أن ينتبه من حيث الاهتمام بالرزق لئلا يقع في الحرام من أجل أولاده قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]).

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة التغابن وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الطلاق

مدنيَّة، وآيها اثنتا عشرة آية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خصَّ النداءَ وعمَّم الخطابَ بالحكم لأنه إمامُ أمته، فنداؤه كندائهم. أو لأن الكلام معه، والحكمَ يعمُّهم. والمعنى: إذا أردتم تطليقهن، على تنزيل المُشارِف له (أي: الذي دنا منه) منزلةَ الشارع فيه ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: في وقتها؛ وهو الطُّهر. وظاهره يدلُّ على أن العدة بالأطهار، وأن طلاق المعتدة بالأقراء ينبغي أن يكون في الطهر، وأنه يحرم في الحيض، من حيث إن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده، ولا يدل على عدم وقوعه، إذ النهي لا يستلزم الفساد، كيف وقد صح أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لمّا طلق امرأته حائضاً أمرَهُ النبي ﷺ بالرجعة؟ وهو سبب نزوله [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى] ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ واضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العِدَّة والإضرار بهنَّ ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهن وقت الفراق حتى تنقضي عدتهنَّ ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ باستبدادهنَّ (أي: بانفرادهنَّ برأيهنَّ). أما لو اتفقا على الانتقال جاز، إذ الحقُّ لا يعدوهما. وفي الجمع بين النهيين دلالة على استحقاقها السكنى ولزومها ملازمة مسكن الفراق ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ والمعنى: إلا أن تبذوَ (أي: تفحش بالقول وتطيل اللسان) على الزوج، فإنه كالنشوز في إسقاط حقها. أو إلا أن تزني فتخرج لإقامة الحدِّ عليها ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارة إلى الأحكام المذكورة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بأن عرَّضها للعقاب ﴿لَا تَدْرِى﴾ أي: لا تدري النفس، أو أنت أيها النبي عليه الصلاة والسلام، أو المطلِّقُ ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ①﴾ وهو الرغبة في المطلَّقة برجعة (أي: إذا طُلِّقت بطلقة رجعية) أو استئناف (إذا انقضت عدتها).

(٢) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ شارفْنَ آخرَ عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحُسْنِ عشرة وإنفاقٍ مناسب ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاء الحق واتقاء الضِّرار؛ مثلَ أن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً لعدَّتها ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على الرجعة أو الفُرقة، تبرياً عن الريبة وقطعاً للتنازع ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أيها

الشهود عند الحاجة ﴿لِلَّهِۚ﴾ خالصاً لوجهه ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ يريد الحثَّ على الإِشهاد والإِقامة، أو على جميع ما في الآية ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ فإنه المنتفِع به والمقصود تذكيره ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾.

(٣) ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ جملةٌ اعتراضية مؤكِّدة لما سبق بالوعد على الاتقاء عما نُهي عنه صريحاً أو ضمناً؛ من الطلاق في الحيض، والإِضرار بالمعتدة، وإخراجها من المسكن، وتعدي حدود الله، وكتمان الشهادة، وتوقع جُعْلٍ على إقامتها، بأن يجعل الله تعالى له مخرجاً مما في شأن الأزواج من المضايق والغموم، ويرزقه فرجاً وخلفاً من وجهٍ لم يخطر بباله. أو بالوعد لعامة المتقين بالخلاص عن مضار الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون. وعنه ﷺ: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لَكَفَتهم، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فما زال يقرؤها ويعيدها» [رواه الإمام أحمد وابن ماجه رحمهما الله تعالى]. وروي «أن سالم بن عوف بن مالك الأشجعي أسرَه العدوُّ، فشكا أبوه إلى رسول الله ﷺ، فقال له «اتَّقِ الله وأكثر قول: لا حول ولا قوة إلا بالله. ففعل، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب، ومعه مئة من الإِبل، غفل عنها العدو فاستاقها، فنزلت» [رواه البيهقي رحمه الله تعالى في الدلائل]. وفي روايةٍ «رجع ومعه غُنيماتٌ ومتاع» ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ كافيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ يَبلغ ما يريده، ولا يَفوته مراد ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ تقديراً، أو مقدَّراً، أو أجلاً لا يتأتى تغييره. وهو بيان لوجوب التوكل، وتقريرٌ لِما تقدَّم من تأقيت الطلاق بزمان العِدَّة والأمرِ بإحصائها، وتمهيدٌ لما سيأتي من مقاديرها.

(٤) ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ لِكبَرهن ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ شَكَكْتم في عدتهن، أي: جهلتم ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ روي أنه لما نزل: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. قيل: فما عِدَّةُ اللَّاتي لم يحضن؟ فنزلت: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ أي: واللائي لم يحضن بعدُ كذلك (أقول: إما لصغرهنَّ، أو لم يحضن قطُّ. فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر) ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ منتهى عدَّتِهنَّ ﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ وهو حكم يعمُّ المطلقاتِ والمتوفَّى عنهنَّ أزواجهنَّ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقها ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ يسهِّلْ عليه أمره ويوفقه للخير.

(٥) ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِر من الأحكام ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقها ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾ بالمضاعفة.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

(٦) ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: مكاناً من مكان سُكناكم ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ من وُسعكم، أي: مما تطيقونه ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في السكنى ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ﴾ فتلجئوهن إلى الخروج ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ فيخرجن من العِدَّة. وهذا يدل على اختصاص استحقاق النفقة بالحامل من المعتدات، والأحاديثُ تؤيده ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعد انقطاع عُلْقَةِ النكاح ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإِرْضَاع ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍۖ﴾ وليأمُرْ بعضُكم بعضاً بجميل في الإِرضاع والأجر ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ تضايقتم (أي: ضيَّق بعضكم على الآخر بالبخل في الأجرة أو طلب الزيادة ونحوه) ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ امرأة أخرى. وفيه معاتبة للأم على المعاسرة.

(٧) ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: فلينفقْ كلٌّ من الموسِرِ والمعسِرِ ما بلغه وُسعُه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ فإنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها. وفيه تطييبٌ لقلب المُعسِر، ولذلك وعدَ له باليسر فقال: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ أي: عاجلاً أو آجلاً.

(٨) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أهلِ قرية ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أعرضتْ عنه إعراض العاتي (أي: المتكبِّر) المعاند ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والمناقشة (أي: التشديد) ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ منكَراً. والمراد حساب الآخرة وعذابُها.

(٩) ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ عقوبة كفرها ومعاصيها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ لا ربح فيه أصلاً.

(١٠) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾ تكريرٌ للوعيد، وبيانٌ لما يوجب التقوى المأمور بها في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ويجوز أن يكون المراد بالحساب استقصاءُ ذنوبهم وإثباتُها في صحف الحَفَظة، وبالعذاب ما أصيبوا به عاجلاً ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾.

(١١) ﴿رَّسُولًا﴾ يعني بالذكر جبريلَ عليه السلام؛ لكثرة ذكره، أو لنزوله بالذكر وهو القرآن، أو لأنه مذكور في السموات، أو ذا ذكرٍ أي: شرف. أو محمداً عليه الصلاة والسلام، لمواظبته على تلاوة القرآن، أو

تبليغه ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذين آمنوا بعد إنزاله. أي ليحصل لهم ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح، أو ليخرج من علم أو قدَّر أنه يؤمن ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ من الضلالة إلى الهدى ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ فيه تعجيبٌ وتعظيمٌ لِما رزقوا من الثواب.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّۖ﴾ أي: وخلق مثلهن في العدد من الأرض ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمر الله تعالى وقضاؤه بينهن، وينفذ حكمه فيهن ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الطلاق

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

٦٦ سُورَةُ التَّحۡرِيمِ ١٢

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التحريم

مدنيَّة، وآيها اثنتا عشرة آية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في نوبة عائشة أو حفصة رضي الله تعالى عنهنَّ، فاطَّلعت على ذلك حفصة رضي الله تعالى عنها، فعاتبته فيه، فحرَّم مارية رضي الله تعالى عنها، فنزلت [أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي رحمهما الله تعالى]. وقيل: شَرِبَ عسلاً عند حفصة، فواطأت عائشة سودة وصفية رضي الله تعالى عنهن (أي: اتفقت معهما سراً) فقلنَ له: إنا نشمُّ منك ريح المغافير (وهو صَمغٌ حُلو يسيل من شجر العُرفُط، له رائحة كريهة) فحرَّم العسل، فنزلت [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لكَ، فإنه لا يجوز تحريم ما أحلّه الله جل وعلا ﴿رَّحِيمٞ ١﴾ رحمك، حيث لم يؤاخذك به وعاتبك محاماة على عصمتك.

(٢) ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ قد شرَعَ لكم تحليلها، وهو حلُّ ما عقَّدتهُ بالكفارة والاستثناءِ فيها بالمشيئة، حتى لا تحنث (والحنث في اليمين عدم الوفاء بها) ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ متولي أموركم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾ المتقِن في أفعاله وأحكامه.

(٣) ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ يعني حفصة رضي الله تعالى عنها ﴿حَدِيثٗا﴾ تحريمَ مارية رضي الله تعالى عنها، أو العسل. أو أنَّ الخلافة بعده لأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ أي: فلما أخبرت حفصةُ عائشةَ رضي الله تعالى عنهما بالحديث ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ واطَّلع النبي عليه الصلاة والسلام على الحديث؛ أي: على إفشائه ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ﴾ عرَّف الرسول ﷺ حفصة بعضَ ما فعلت ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾ عن إعلام بعضٍ تكرُّماً. أو جازاها على بعضٍ بتطليقه إياها، وتجاوز عن بعضٍ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ فإنه أوفق للإعلام.

(٤) ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطابٌ لحفصة وعائشة رضي الله تعالى عنهما ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ فقد وُجد منكما ما يوجب التوبة، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من مخالصة رسول الله عليه الصلاة والسلام

بحبِّ ما يحبُّه وكراهةِ ما يَكرهُه ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ وإن تتظاهرا (أي: تتعاونا) عليه بما يسؤوه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلن يَعدم مَنْ يُظاهره من الله تعالى والملائكة وصُلحاء المؤمنين، فإن الله تعالى ناصرُه، وجبريل رئيس الكروبيِّين (أي: المقربين) قرينُه، ومن صلَحَ من المؤمنين أتباعُه وأعوانُه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ متظاهرون (أي: متعاونون). وتخصيصُ جبريل عليه السلام لتعظيمه.

(٥) ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ على التغليب، أو تعميم الخطاب. وليس فيه ما يدلُّ على أنه لم يطلق حفصة رضي الله تعالى عنها، وأن في النساء خيراً منهنَّ، لأن تعليق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة، والمعلَّق بما لم يقع لا يجب وقوعه ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مقِرَّات مخلصات، أو منقادات مصدِّقات ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مصلِّيات، أو مواظبات على الطاعات ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عن الذنوب ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبِّدات، أو متذلِّلات لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات، سُمِّي الصائم سائحاً لأنه يسيح بالنهار بلا زاد. أو مهاجرات ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ مشتملاتٍ على الثيِّبات والأبكار.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالنصح والتأديب ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ ناراً تتَّقِد بهما اتِّقادَ غيرها بالحطب ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ تَلِي أمرها وهم الزبانية ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ غلاظُ الأقوال شِدادُ الأفعال. أو غلاظ الخَلْقِ شِداد الخُلُقِ، أقوياء على الأفعال الشديدة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ فيما مضى ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ فيما يُستقبل. أو لا يمتنعون عن قبول الأوامر والتزامها ويؤدون ما يؤمرون به.

(أقول: من اللائق للمؤمن الذي يوجِّه الناس إلى الله تعالى أن يتفكَّر أولاً أن يوجِّه المؤمنين إلى الله جل جلاله، ويكون من الذين يفدون بأنفسهم ويؤثرون المؤمنين على أنفسهم، بأن ينسى نفسه ويفوض أمره إلى ربه بعد إتيان الفرائض الإلهية، ويحب أن تدخل أمة سيدنا محمد ﷺ في رضا الله تعالى واتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، فهذا أحب إليه من وقاية نفسه بالعبادة الخصوصية لنفسه، لأن خدمة المؤمنين أحب إليه من نجاته من العذاب فضلا عن أن يترك نفسه وأهله، إذ كل واحد يعمل وظيفته).

(٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾ أي: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار. والنهي عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم، أو العذرُ لا ينفعهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

(٨) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا**﴾ بالغةً في النصح. وهو صفة التائب فإنه ينصح نفسه بالتوبة. وسئل علي رضي الله تعالى عنه عن التوبة فقال: يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، وللفرائض الإعادة، وردُّ المظالم، واستحلالُ الخصوم، وأن تعزم على أن لا تعود، وأن تربِّي نفسك في طاعة الله تعالى كما ربيتها في المعصية ﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ**﴾ ذُكِر بصيغة الأطماع جَرْياً على عادة الملوك، وإشعاراً بأنه تفضُّلٌ، والتوبةُ غير موجبة، وأن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء ﴿**يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ**﴾ إحمادٌ لهم (أي: جعلهم محمودين) وتعريضٌ لمن ناوأهم (أي: عاداهم) ﴿**نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ**﴾ أي: على الصراط ﴿**يَقُولُونَ**﴾ إذا طفئ نور المنافقين: ﴿**رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾**﴾ وقيل: تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم، فيسألون إتمامه تفضُّلاً (أقول: لو لم يقع العبد في الخطأ لاغترَّ وظنَّ نفسه كاملاً، ومن طبيعة العبد النقص، والذلة والتقصير. ولو يعذبنا الله تعالى على المخالفات من يمنعه؟! فهو بفضله وكرمه وضع لنا مجالا لأن يتوب العبد، فالتوبة والاستغفار سنة الله تعالى في خلقه، وقد فتح لنا هذا المجال إلى آخر عمرنا ما لم يغرغر، لذا لا بد علينا أن لا نتركها، ونثبت على التوبة النصوح).

(٩) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ**﴾ بالسيف ﴿**وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ**﴾ بالحجة ﴿**وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ**﴾ واستعمل الخشونة فيما تجاهدهم به، إذ بلغ الرفق مداه ﴿**وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾**﴾ جهنم، أو مأواهم.

(١٠) ﴿**ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ**﴾ مَثَّل الله تعالى حالهم في أنهم يُعاقبون بكفرهم ولا يحابَوْن (أي: لا يُتساهل معهم) بما بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين من النسبة بحالهما ﴿**كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ**﴾ يريد به تعظيم نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام ﴿**فَخَانَتَاهُمَا**﴾ بالنفاق (ولم يقيّده بالزنى، لأنه بحقِّ أزواج الأنبياء ممنوع) ﴿**فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا**﴾ فلم يغنِ النَّبيَّانِ عنهما بحق الزواج إغناء ما ﴿**وَقِيلَ**﴾ أي: لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ﴿**ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ**

﴿ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(١١) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ شبَّهَ حالهم في أن وصلة الكافرين لا تضرُّهم بحال آسية رضي الله تعالى عنها ومنزلتها عند الله تعالى مع أنها كانت تحت أعدى أعداء الله تعالى ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ قريباً من رحمتك. أو في أعلى درجات المقربين ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ من نفسه الخبيثة وعمله السيئ ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾ من القبط التابعين له في الظلم.

(١٢) ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ في فرجها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من روحٍ خلقناه بلا توسُّط أصلٍ (أقول: وفي الحقيقة لا نافخ ولا منفوخ، وإنما هو تعلُّق الإرادة) ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بصُحُفِه المنزلة. أو بما أوحى إلى أنبيائه ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ وَما كُتب في اللوح المحفوظ. أو جنس الكتب المنزلة ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ من عِداد المواظبين على الطاعة. والتذكيرُ للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عُدَّتْ من جملتهم أو من نسلهم. عن النبي ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يَكمُل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد. وفضلُ عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» [الحديث ورد في الصحيحين بدون ذكر خديجة وفاطمة رضي الله تعالى عنهما، أما بذكرهما فرواه الثعلبي في التفسير].

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة التحريم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ المُلْكِ (٦٧) (٣٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الملك

مكيَّة، وتسمى الواقية والمنجية، لأنها تقي قارئها وتنجيه من عذاب القبر، وآيها ثلاثون آية

(١) ﴿**تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ**﴾ بقبضةِ قدرته التصرُّفُ في الأمور كلها ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾**﴾ على كل ما يشاء قدير.

(٢) ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ**﴾ قدَّرهما. أو أوجد الحياة وأزالها حسبما قدَّره. وقدَّم الموت لقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، ولأنه أدعى إلى حُسن العمل ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ**﴾ ليعاملكم معاملة المختبر (أي: الممتحن) بالتكليف أيها المكلَّفون ﴿**أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ أحسنُ عقلاً، وأورعُ عن محارم الله تعالى، وأسرع في طاعته ﴿**وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ الغالبُ الذي لا يُعجزه مَن أساء العملَ ﴿**ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾**﴾ لمن تاب منهم.

(٣) ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا**﴾ مطابقة بعضها فوق بعض. أو ذات طباق، جمْع طبَقٍ أو طبَقةٍ ﴿**مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ**﴾ وهو الاختلاف وعدم التناسب. وفيه إشعارٌ بأنه تعالى يخلق مثل ذلك بقدرته الباهرة رحمةً وتفضلاً، وأن في إبداعها نعماً جليلة لا تحصى. والخطابُ فيها للرسول ﷺ أو لكل مخاطَب ﴿**فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾**﴾ أي: قد نظرتَ إليها مراراً فانظرْ إليها مرَّة أخرى متأملاً فيها لتُعاين ما أخبرتُ به من تناسبها واستقامتها واستجماعها ما ينبغي لها. والفُطُور: الشقوق، والمراد الخلل.

(٤) ﴿**ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**﴾ أي: رَجعتين أُخْرَيَيْن في ارتياد الخلل (أي: طلبِه). والمراد بالتثنية التكريرُ والتكثير، ولذلك أجاب الأمرَ بقوله تعالى: ﴿**يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا**﴾ بعيداً عن إصابة المطلوب، كأنه طُرِدَ عنه طرداً بالصَّغار (أي: بالذل) ﴿**وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾**﴾ كليلٌ (أي: ضعيف) من طول المعاودة وكثرة المراجعة.

(٥) ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا**﴾ أقربَ السموات إلى الأرض ﴿**بِمَصَٰبِيحَ**﴾ بالكواكب المضيئة بالليل إضاءةَ السُرُج فيها ﴿**وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ**﴾ وجعلنا لها فائدة أخرى وهي رَجْمُ أعدائكم بانقضاض الشهُب المسببة عنها. وقيل: معناها وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطين الإنس وهم المنجِّمون (والرُّجوم: ما

يُرجَم به) ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ في الآخرة بعد الإِحراق بالشهب في الدنيا.

(٦) ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ من الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦﴾.

(٧) ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾ صوتاً كصوت الحمير ﴿وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾ تغلي بهم غليانَ المِرجل (أي: القِدْر) بما فيه.

(٨) ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ تتفرَّق غضباً عليهم. وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم. ويجوز أن يُراد غيظ الزبانية ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾ جماعةٌ من الكفرة ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨﴾ يخوِّفكم هذا العذاب. وهو توبيخٌ وتبكيت (أي: تقريع).

(٩) ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩﴾ أي: (قالوا): فكذَّبنا الرسل وأفرَطْنا في التكذيب حتى نَفَيْنا الإِنزال والإِرسال رأساً، وبالَغْنا في نسبتهم إلى الضلال.

(١٠) ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ كلامَ الرسل فنَقْبله جملةً من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاحَ من صِدقهم بالمعجزات ﴿أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ فنتفكر في حِكَمِهِ ومعانيه تفكُّرَ المستبصرين ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ في عِدادهم ومن جملتهم.

(١١) ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ حين لا ينفعهم. والمراد بالذنبِ الكفرُ ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ فأسحقهم الله تعالى سحقاً. أي: أبعدهم من رحمته جل وعلا.

(١٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يخافون عذابَه غائباً عنهم لم يُعاينوه بعدُ ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢﴾ تَصْغُر دونه لذائذ الدنيا.

وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

(١٣) ﴿**وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾**﴾ بالضمائر قبل أنْ يُعبَّر عنها سراً أو جهراً.

(١٤) ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ**﴾ ألا يعلم السر والجهر مَنْ أوجد الأشياء حسبما قَدَّرَتْه حكمتُه جلَّ وعلا ﴿**وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾**﴾ المتوصِّل عِلمُه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن. أو ألا يعلم اللهُ جل وعلا مَن خلقه؟ روي: أن المشركين كانوا يتكلَّمون فيما بينهم بأشياء، فيخبر اللهُ جل وعلا بها رسولَه عليه الصلاة والسلام، فيقولون: أسِرُّوا قولكم لئلا يسمع إلهُ محمد (عليه الصلاة والسلام)، فنبَّه الله جل وعلا على جهلهم.

(١٥) ﴿**هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا**﴾ ليِّنةً يَسْهُل لكم السلوك فيها ﴿**فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا**﴾ في جوانبها أو جبالها. وهو مثَلٌ لفرط التذليل ﴿**وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ**﴾ والتمِسوا من نعم الله تعالى ﴿**وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾**﴾ المرجعُ، فيسألكم عن شكر ما أنعم عليكم.

(١٦) ﴿**ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ**﴾ يعني الملائكةَ الموكَّلين على تدبير هذا العالم. أو اللهَ تعالى، على تأويل مَنْ فِي السَّماءِ أمْرُه أو قضاؤه ﴿**أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ**﴾ فيغيِّبكم فيها كما فعل بقارون ﴿**فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾**﴾ تضطرب.

(١٧) ﴿**أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا**﴾ أنْ يُمطر عليكم حصباء (أي: حجارة) ﴿**فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾**﴾ كيف إنذاري إذا شاهدتم المنذَرَ به، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ.

(١٨) ﴿**وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾**﴾ إنكاري عليهم بإنزال العذاب. وهو تسليةٌ للرسول ﷺ، وتهديدٌ لقومه المشركين.

(١٩) ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ**﴾ باسطاتٍ أجنحتَهُنَّ في الجوِّ عند طيرانها، فإنهنَّ إذا بَسَطنَها صَفَفْنَ قوادمَها (أي: مُقدَّم ريش أجنحتها) ﴿**وَيَقْبِضْنَ**﴾ ويَضممْنَها إذا ضربنَ بها جنوبهن وقتاً بعد وقت، للاستظهار (أي: للاستعانة) به على التحرُّك ﴿**مَا يُمْسِكُهُنَّ**﴾ في الجوِّ على خلاف الطبع ﴿**إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ**﴾ الشاملُ رحمتُه كلَّ شيء، بأنْ خلقَهُنَّ على أشكال وخصائص هيَّأتْهنَّ للجري في الهواء ﴿**إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾**﴾ يَعلم كيف يَخلق الغرائب ويدبِّر العجائب.

(٢٠) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عديلٌ (أي: مَثيلٌ) لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، على معنى: أو لم تنظروا في أمثال هذه الصنائع، فلم تعلموا قدرتنا على تعذيبهم بنحو خسف وإرسال حاصب؟ أم لكم جند ينصركم من دون الله تعالى إن أرسل عليكم عذابَه؟ ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ لا مُعتمَد لهم.

(٢١) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ أم من يُشار إليه ويقال: هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر وسائر الأسباب المحصِّلة والموصلة له إليكم؟ ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ تمادَوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ عنادٍ ﴿وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ شِرادٍ عن الحق لِتنفُّرِ طباعهم عنه.

(٢٢) ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ أي: يَعثُرُ (يسقط) كلَّ ساعة ويخرُّ على وجهه لوعورة طريقه واختلاف أجزائه ﴿أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ قائماً سالماً من العِثار (أي: السقوط) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ مستوي الأجزاء والجهة؟ وقيل: المراد بالمُكِبِّ: الأعمى، وبالسوِيِّ البصير. وقيل: من يَمْشِي مُكِبًّا هو الذي يُحشر على وجهه إلى النار، ومن يَمْشِي سَوِيًّا هو الذي يُحشر على قدميه إلى الجنة.

(٢٣) ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا المواعظ ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا صنائعَه ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكَّروا وتعتبروا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ باستعمالها فيما خُلقت لأجله.

(٢٤) ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (أي: خَلَقَكم فيها) ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ للجزاء.

(٢٥) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الحشر، أو ما وُعِدوا به من الخسف والحاصب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يَعنُون النبيَّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنين.

(٢٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي: علمُ وقتِه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يطَّلع عليه غيره جلَّ وعلا ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ والإِنذار يكفي فيه العلمُ - بل الظنُّ - بوقوع المحذَّرِ منه.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ القَلَمِ ٦٨ ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

(٢٧) ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ**﴾ أي: الوعدَ. فإنه بمعنى الموعود ﴿**زُلْفَةً**﴾ ذا زُلفةٍ؛ أي قُرْبٍ منهم ﴿**سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟**﴾ بأنْ علَتها الكآبة (أي: ظهر عليها الغمُّ والحزن) وساءتها رؤيةُ العذاب ﴿**وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾**﴾ تطلبون وتستعجلون. أو بسببه تدَّعون أنْ لا بعثَ.

(٢٨) ﴿**قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ**﴾ أماتني ﴿**وَمَن مَّعِىَ**﴾ مِنَ المؤمنين ﴿**أَوْ رَحِمَنَا**﴾ بتأخير آجالنا ﴿**فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾**﴾ أي: لا ينجيهم أحدٌ من العذاب مِتْنا أو بَقينا.

(٢٩) ﴿**قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ**﴾ الذي أدعوكم إليه مُولي النعم كلِّها ﴿**ءَامَنَّا بِهِۦ**﴾ للعلم بذلك ﴿**وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا**﴾ للوثوق عليه وللعلم بأن غيره بالذات لا يضرُّ ولا ينفع ﴿**فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾**﴾ منّا ومنكم.

(٣٠) ﴿**قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا**﴾ غائراً في الأرض، بحيث لا تناله الدِّلاء ﴿**فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾**﴾ جارٍ، أو ظاهرٍ سهلِ المأخذ.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الملك وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القلم

مكيَّة، وآيها ثنتان وخمسون آية

(١) ﴿**نٓ**﴾ من أسماء الحروف ﴿**وَٱلْقَلَمِ**﴾ وهو الذي خطَّ اللوحَ، أو الذي يُخَطُّ به. أقسَمَ به تعالى لكثرة فوائده ﴿**وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾**﴾ والضمير للقلم؛ بالمعنى الأول على التعظيم، وبالمعنى الثاني على إرادة الجنس. أو الضمير لأصحابه. أو للحفظة.

(٢) ﴿**مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾**﴾ جواب القسم. والمعنى: ما أنت بمجنون منعماً عليك بالنبوَّة وحصافة الرأي (أي: جودته).

(٣) ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ على الاحتمال والإبلاغ ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ غير مقطوع. أو غير ممنونٍ به عليك من الناس، فإنه تعالى يعطيك بلا توسُّط أحد.

(٤) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ إذ تتحمَّل من قومك ما لا يتحمله أمثالك. وسئلت السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلقه ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

(٥-٦) ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ أيّكم الذي فُتن بالجنون. أو بأي الفريقين منكم الجنون؛ أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم.

(٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وهم المجانين على الحقيقة ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾ الفائزين بكمال العقل.

(٨) ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ تهييجٌ للتصميم على معاصاتهم (أي: عصيان رؤسائهم).

(٩) ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ﴾ تُلاينُهم بأن تَدَعَ نهيَهم عن الشرك، أو توافقهم فيه أحياناً ﴿فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ فيُلاينونَك بترك الطعن والموافقة. أي: وَدُّوا التداهُنَ وتمنَّوه، لكنهم أخَّروا ادِّهانَهم حتى تُدْهِنَ.

(١٠) ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثيرِ الحلف في الحق والباطل ﴿مَّهِينٍ ۝١٠﴾ حقير الرأي. من المهانة: وهي الحقارة.

(١١) ﴿هَمَّازٍ﴾ عَيَّابٍ ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ نقَّالٍ للحديث على وجه السِّعاية (أي: الإفساد والضرر).

(١٢) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يمنع الناس عن الخير؛ من الإيمان والإنفاق والعمل الصالح ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوزٍ في الظلم ﴿أَثِيمٍ ۝١٢﴾ كثير الآثام.

(١٣) ﴿عُتُلٍّۭ﴾ جافٍ غليظٍ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما عُدَّ من مثالبه (أي: معايبه) ﴿زَنِيمٍ ۝١٣﴾ دعيٍّ (أي: ملحق بقوم ليس منهم). قيل: هو الوليد بن المغيرة ادَّعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده.

(١٤) ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤﴾.

(١٥) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ قال ذلك حينئذ لأنه كان متموِّلاً مستظهراً (أي: متقوِّياً) بالبنين من فرط غروره. أي: لا تُطِعْ من هذه مثالبُه.

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

(١٦) ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ (أي: نجعل له علامة يُعرَف بها) بالكَيِّ ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ على الأنف، وقد أصاب أنف الوليد جراحة يوم بدر فبقي أثرها. وقيل: هو عبارة عن أن يُذلَّه غايةَ الإِذلال. أو نسوِّد وجهه يوم القيامة.

(١٧) ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ بلونا أهل مكة - شرَّفها الله تعالى - بالقحط (أقول: ابتلاهم الله تعالى بالقحط سبع سنين لكفرانهم ببعثة الرسول ﷺ) ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ يريد بستاناً كان دون صنعاء بفرسخين، وكان لرجل صالح، وكان ينادي الفقراء وقت الصرام (أي: وقت قطع ثمر النخيل)، ويترك لهم ما أخطأه المنجل وألقته الريح أو بَعُدَ من البساط الذي يُبسط تحت النخلة، فيجتمع لهم شيء كثير. فلمّا مات قال بنوه: إنْ فعلنا ما كان يفعله أبونا ضاق علينا الأمر، فحلفوا لَيَصْرِمُنَّها (أي: ليقطعنَّها) وقت الصباح خِفيةً عن المساكين، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ ليقطعنَّها داخلين في الصباح.

(١٨) ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ ولا يقولون: إن شاء الله. أو لا يستثنون حصة المساكين كما كان يُخرِج أبوهم.

(١٩) ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ على الجنة ﴿طَآئِفٌ﴾ بَلاء طائفٌ ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مبتدأً منه ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

(٢٠) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ كالبستان الذي صُرِمت ثمارُه (أي: قُطعت) بحيث لم يبقَ فيه شيء.

(٢١) ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ (نادى بعضهم بعضاً عند الصباح [النسفي]).

(٢٢) ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي: اخرجوا إليه غُدْوَةً (أي: صباحاً) ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ قاطعين له.

(٢٣) ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يتشاورون فيما بينهم.

(٢٤) ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ المراد بنهي المسكين عن الدخول المبالغةُ في النهي عن تمكينه من الدخول.

(٢٥) ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إنهم عزموا أن يتنكَّدوا على المساكين فتنكَّد عليهم بحيث لا يقدرون فيها إلا على النكد (والنكد: هو كلُّ شيء جرَّ على صاحبه شراً). وقيل: الحرد القصد والسرعة، أي: غدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها (أي: قطع ثمرها).

(٢٦) ﴿**فَلَمَّا رَأَوۡهَا**﴾ أوّلَ ما رأوها ﴿**قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦**﴾ طريق جَنَّتنا، وما هي بها.

(٢٧) ﴿**بَلۡ**﴾ أي: بعد ما تأمَّلوا وعرفوا أنها هي قالوا: ﴿**نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧**﴾ حُرِمنا خيرها لجِنايتنا على أنفسنا.

(٢٨) ﴿**قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ**﴾ رأياً، أو سِنّاً ﴿**أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨**﴾ لولا تَذكُرُونَه وتتوبون إليه من خبث نيتكم.

(٢٩) ﴿**قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩**﴾ سَمّى الاستثناء تسبيحاً لتشاركهما في التعظيم، أو لأنه تنزيهٌ على أن يجري في ملكه جل وعلا ما لا يريده.

(٣٠) ﴿**فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠**﴾ يلوم بعضهم بعضاً. فإنَّ منهم من أشار بذلك، ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت راضياً، ومنهم من أنكره.

(٣١) ﴿**قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١**﴾ متجاوزين حدود الله تعالى.

(٣٢) ﴿**عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرًا مِّنۡهَآ**﴾ ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة. وقد روي أنهم أُبدِلوا خيراً منها ﴿**إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢**﴾ راجون العفوَ طالبون الخير.

(٣٣) ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ مِثْلَ ذلك العذاب الذي بَلوْنا به أهل مكة وأصحاب الجنة ﴿**ٱلۡعَذَابُ**﴾ في الدنيا ﴿**وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ**﴾ أعظم منه ﴿**لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣**﴾ لاحترزوا عما يؤديهم إلى العذاب.

(٣٤) ﴿**إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ**﴾ أي: في الآخرة. أو في جوار القدس ﴿**جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤**﴾ جنات ليس فيها إلا التنعُّمُ الخالص.

(٣٥) ﴿**أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥**﴾ إنكارٌ لقول الكفرة، فإنهم كانوا يقولون: إن صحَّ أنّا نبعث كما يزعم محمد (ﷺ) ومَنْ معه لم يَفْضُلونا، بل نكون أحسن حالاً منهم كما نحن عليه في الدنيا.

(أقول: لم يعلموا أن الاعتبار عند الله تعالى بالرضا والطاعة، وعَدُّوا الدنيا نعمة، فقالوا: نحن في الآخرة سنكون كذلك).

(٣٦) ﴿**مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦**﴾ تعجُّبٌ من حكمهم، واستبعادٌ له، وإشعارٌ بأنه صادر من اختلال فكرٍ واعوجاجِ رأيٍ.

(٣٧) ﴿**أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ**﴾ من السماء ﴿**فِيهِ تَدۡرُسُونَ ٣٧**﴾ تقرؤون.

(٣٨) ﴿**إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ٣٨**﴾ إنَّ لكم ما تختارونه وتشتهونه.

(٣٩) ﴿**أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا**﴾ عهودٌ مؤكَّدة بالأيمان ﴿**بَٰلِغَةٌ**﴾ متناهية في التوكيد ﴿**إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ**﴾ أي: ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدتها حتى نحكمكم في ذلك اليوم ﴿**إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ٣٩**﴾ جواب القسم.

(٤٠) ﴿**سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ٤٠**﴾ بذلك الحُكم قائمٌ يدَّعيه ويصحِّحه.

(٤١) ﴿**أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ**﴾ يشاركونهم في هذا القول ﴿**فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٤١**﴾ في دعواهم، إذ لا أقلَّ من التقليد. وقد نبَّه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل يدل عليه الاستحقاق أو وعدٍ أو محضِ تقليدٍ. وقيل: المعنى: أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ - يعني الأصنامَ - يجعلونهم مثل المؤمنين في الآخرة؟ كأنه لمّا نفى أن تكون التسوية من الله تعالى نفى بهذا أن تكون مما يشاركون الله تعالى به.

(٤٢) ﴿**يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ**﴾ يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب. وكشفُ الساق مَثَلٌ في ذلك، أو يوم يُكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً (قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ عن أمر كانوا فيه عمًى منه في الدنيا، ويقال: عن أمر شديد فظيع [تنوير المقباس]) ﴿**وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ**﴾ توبيخاً على تركهم السجود إن كان اليوم يوم القيامة. أو يدعون إلى الصلوات لأوقاتها إن كان وقت النزع ﴿**فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢**﴾ لذهاب وقته أو زوال القدرة عليه.

خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

(٦٩) سُورَةُ الحَاقَّةِ (٥٢)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾

(٤٣) ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ﴾ تلحقهم ذلة ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا، أو زمان الصحة ﴿وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ متمكِّنون منه، مُزاحو العلل فيه (أي: لا علة تمنعهم من السجود).

(٤٤) ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ كِلْهُ إليَّ (أي: اتركْ أمره إليَّ)، فإني أكفيكه ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ سنُدْنيهم من العذاب درجة درجة بالإِمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أنه استدراج. وهو الإِنعام عليهم لأنهم حسبوه تفضيلاً لهم على المؤمنين.

(٤٥) ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾ وأمْهِلُهم ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ لا يُدفع بشيء. وإنما سمّى إنعامَه استدراجاً بالكيدِ (وهو المكر) لأنه في صورته.

(٤٦) ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾ على الإِرشاد ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ﴾ من غرامةٍ ﴿مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ بِحملها، فيُعرِضون عنك.

(٤٧) ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾ اللوح، أو المغيَّبات ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ منه ما يحكمون به، ويستغنون به عن علمك.

(٤٨) ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالُهم وتأخيرُ نصرتك عليهم ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ يونس عليه الصلاة والسلام ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ في بطن الحوت ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾﴾ مملوءٌ غيظاً، فتُبتلى ببلائه.

(٤٩) ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني التوفيقَ للتوبة وقبولها ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ بالأرض الخالية عن الأشجار ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾﴾ مُليم (أي: ملامٌ) مطرودٌ عن الرحمة والكرامة.

(٥٠) ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ بأن ردَّ الوحي إليه ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ من الكاملين في الصلاح، بأن عصمَه من أن يفعل ما تركُهُ أوْلى. والآية نزلت حين همَّ رسول الله ﷺ أن يدعو على ثقيف. وقيل: بأحُدٍ حين حلَّ به ما حلَّ، فأراد أن يدعو على المنهزمين.

(٥١) ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي: إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزَراً (أي: غضباً وعداوةً) بحيث يكادون يُزِلُّون قدمك أو يرمونك. أو إنهم يكادون يصيبونك بالعين؛ إذ روي أنه

كان في بني أسد عَيَّانون، فأراد بعضهم أن يَعِينَ رسول الله ﷺ فنزلت ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن. أي: ينبعث عند سماعه بغضُهم وحسدهم ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾ حيرةً في أمره وتنفيراً عنه.

(٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾ لمّا جَنَّنوه (أي: نسبوه إلى الجنون) لأجل القرآن بيَّن أنه ذكرٌ عامٌّ لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كانَ أكمل الناس عقلاً وأميزَهم رأياً.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة القلم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحاقة

مكيَّة، وآيها اثنتان وخمسون آية

(١) ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ أي: الساعة أو الحالة التي يحق وقوعها، أو التي تحق فيها الأمور - أي: تُعرف حقيقتها - أو تقع فيها حواقُّ الأمور (أي: ثوابتها وواجباتها)؛ من الحساب والجزاء.

(٢) ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ أي: أيُّ شيء هي؟ على التعظيم لشأنها والتهويل لها.

(٣) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ وأيُّ شيء أَعْلَمَك ما هي؟ أي: إنك لا تعلم كُنهها (أي: حقيقتها)، فإنها أعظمُ من أن تبلغها درايةُ أحد.

(٤) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ بالحالة التي تَقرعُ الناسَ (أي: تصيبهم) بالإفزاع، والأجرامَ (أي: الكواكب) بالانفطار (أي: الانشقاق) والانتثار (أي: التفرُّق أو التبعثر).

(٥) ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ أي: بالواقعة المجاوزة للحدِّ في الشدة؛ وهي الصيحة أو الرجفة لتكذيبهم بِالْقارِعَةِ، أو بسبب طغيانهم بالتكذيب وغيره.

(٦) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: شديدةِ الصوتِ أو البردِ ﴿عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ شديدة العصف، كأنها عَتَتْ (أي: تمَرَّدت) على خُزَّانها فلم يستطيعوا ضبطها. أو على عادٍ فلم يَقدروا على ردِّها.

(٧) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ سلَّطها عليهم بقدرته تعالى ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ متتابعات. أو نَحِساتٍ حَسَمَتْ كلَّ خير واستأصلته. أو قاطعاتٍ قَطَعَتْ دابرهم. وهي كانت أيام العجوز (وهي أيامٌ في آخر الشتاء ذات برد ورياح) من صبيحة أربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ﴾ إنْ كنتَ حاضرَهم ﴿فِيهَا﴾ أي: في مهابِّها (يعني: مواضع هبوب الريح)، أو في الليالي والأيام ﴿صَرْعَىٰ﴾ موتى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أصول نخلٍ ﴿خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ متآكلة الأجواف.

(٨) ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ من بقيَّة؟ أو من نفسٍ باقية؟

وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾

(٩) ﴿**وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ**﴾ ومَنْ تَقدَّمه ﴿**وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ**﴾ قرى قوم لوط عليه الصلاة والسلام، والمرادُ أهلُها ﴿**بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾**﴾ بالخطأ. أو بالفعلة أو الأفعال ذات الخطأ.

(١٠) ﴿**فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ**﴾ أي: فعصَتْ كلُّ أمة رسولَها ﴿**فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾**﴾ زائدةً في الشدة زيادةَ أعمالهم في القبح.

(١١) ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ**﴾ جاوزَ حدَّه المعتاد. أو طغى على خُزَّانه؛ وذلك في الطوفان ﴿**حَمَلۡنَٰكُمۡ**﴾ أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم ﴿**فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾**﴾ في سفينة نوح عليه الصلاة والسلام.

(١٢) ﴿**لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ**﴾ لنجعل إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿**تَذۡكِرَةٗ**﴾ عبرةً، ودلالة على قدرة الصانع وحكمته وكمال قهره ورحمته جلَّ وعلا ﴿**وَتَعِيَهَآ**﴾ أي: وتحفظَها ﴿**أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾**﴾ مِنْ شأنها أن تحفظ ما يجب حِفظُه؛ بتذكُّره وإشاعته والتفكر فيه والعمل بموجبه. والتنكير للدلالة على قِلَّتها، وأنَّ مَنْ هذا شأنُه مع قِلَّته تسبَّبَ لإنجاء الجمِّ الغفير وإدامة نسلهم.

(١٣) ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾**﴾ لمّا بالغ في تهويل القيامة وذَكَرَ مآلَ المكذِّبين بها تفخيماً لشأنها وتنبيهاً على مكانها عاد إلى شرحها. والمرادُ بها النفخة الأولى التي عندها خراب العالم.

(١٤) ﴿**وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ**﴾ رُفعتْ من أماكنها بمجرَّد القدرة الكاملة، أو بتوسُّط زلزلة أو ريح عاصفة ﴿**فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾**﴾ فضُربت الجملتان (أي: الأرض والجبال) بعضها ببعض ضربة واحدة فيصير الكل هباءً. أو فبُسطتا بسطة واحدة فصارت أرضاً لا عوج فيها ولا أَمْتاً (أي: ارتفاعاً)، لأن الدك سببٌ للتسوية.

(١٥) ﴿**فَيَوۡمَئِذٖ**﴾ فحينئذ ﴿**وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾**﴾ قامت القيامة.

(١٦) ﴿**وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ**﴾ لنزول الملائكة ﴿**فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾**﴾ ضعيفةٌ مسترخية.

(١٧) ﴿**وَٱلۡمَلَكُ**﴾ والجنس المتعارف بالمَلَك ﴿**عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ**﴾ جوانبها. ولعله تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان وانضواء أهلها (أي: التجائهم وذهابهم) إلى أطرافها وحواليها. وإن كان على ظاهره فلعلَّ هلاك الملائكة إِثْرَ ذلك ﴿**وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ**﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء. أو فوق الثمانية ﴿**يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾**﴾ ثمانية أملاك، لِما روي مرفوعاً: «أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أَمَدَّهم الله بأربعة آخرين» [رواه ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وقال الحديث ثابت]. وقيل: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدَّتهم إلا الله

تعالى. ولعله أيضاً تمثيلٌ لعظمته جل وعلا بما يُشاهَد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام. وعلى هذا قال تعالى:

(١٨) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ تشبيهاً للمحاسبة بعرض السلطان العسكرَ لتعرُّف أحوالِهم. وهذا – وإن كان بعد النفخة الثانية – لكنْ لمّا كان اليوم اسماً لزمان متسع تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب وإدخال أهل الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النارَ صحَّ جعلُه ظرفاً للكل ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ سريرةٌ على الله تعالى حتى يكون العرْض للاطلاع عليها، وإنما المراد منه إفشاء الحال والمبالغة في العدل. أو لا تخفى على الناس؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

(١٩) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ﴾ تبجُّحاً (أي: فرحاً) ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ ۝١٩﴾ ها: اسمٌ لِخُذْ.

(٢٠) ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ أي: علمتُ (أقول: والظنُّ هنا للمؤمن بمعنى اليقين).

(٢١) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ ذاتِ رضاً؛ وذلك لكونها صافية عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم.

(٢٢) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢﴾ مرتفعة المكان؛ لأنها في السماء. أو مرتفعة الدرجات، أو الأبنية والأشجار.

(٢٣) ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمعُ قَطْفٍ؛ وهو ما يُجتنى بسرعة ﴿دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ يتناولها القاعد.

(٢٤) ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أي: يقال لهم ذلك ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ أكلاً وشرباً هَنِيئاً ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ بما قدَّمتم من الأعمال الصالحة ﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ الماضية من أيام الدنيا.

(٢٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ﴾ أي: صحيفة حسابه ﴿بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ﴾ لِما يرى مِنْ قبح العمل وسوء العاقبة: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥﴾ (أي: هذا الذي ذكرني خبائث أعمالي [السراج المنير]).

(٢٦) ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦﴾ (أي: يا ليتني لم أعلم ما حسابي [النسفي]).

(٢٧) ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ يا ليت الموتة التي متُّها ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾ القاطعةَ لأمري، فلمْ أُبعثْ بعدها. أو يا ليت هذه الحالة كانت الموتةَ التي قضت عليَّ، لأنه صادفها أمَرَّ من الموت فتمناه عندها.

(٢٨) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ۝٢٨﴾ ما ليَ من المال والتبع.

(٢٩) ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ ملكي وتسلُّطي على الناس. أو حُجَّتي التي كنت أحتج بها في الدنيا.

(٣٠) ﴿خُذُوهُ﴾ يقوله الله تعالى لخزنة النار ﴿فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ (أي: اجعلوا يده إلى عنقه وشدُّوه بالغُلِّ).

(٣١) ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ ثم لا تُصْلوه (أي: لا تُدخِلوه) إلا الجحيم؛ وهي النار العظمى، لأنه كان يتعظم على الناس.

(٣٢) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أي: طويلة ﴿فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ فأدخِلوه فيها، بأن تَلفُّوها على جسده، وهو فيما بينها مُرهَق (أي: مُضيَّق عليه) لا يقدر على حركة.

(٣٣) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣﴾ ذَكَرَ الْعَظِيمَ للإشعار بأنه هو المستحِق للعظمة، فمن تعظَّم فيها (أي: في الدنيا) استوجب ذلك.

(٣٤) ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ ولا يَحُثُّ على بذل طعامه أو على إطعامه، فضلاً عن أن يبذل من ماله. ويجوز أن يكون ذِكْرُ الحضِّ للإشعار بأن تارك الحضِّ بهذه المنزلة، فكيف بتارك الفعل! ولعلَّ تخصيص الأمرين بالذكر لأن أقبحَ العقائد الكفرُ بالله تعالى، وأشنعَ الرذائل البخلُ وقسوةُ القلب.

فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ المَعَارِج ٧٠ — ٤٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

(٣٥) ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ قريبٌ يحميه.

(٣٦) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ غُسالة أهل النار وصديدهم (أي: قيحهم).

(٣٧) ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ أصحابُ الخطايا.

(٣٨-٣٩) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقَسَم. أو فأقسِم، و«لا» مزيدة ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: بالمشاهَدات والمغيَّبات.

(٤٠) ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلِّغه عن الله تعالى، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يقول عن نفسه ﴿كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ على الله تعالى؛ وهو محمد أو جبريل عليهما الصلاة والسلام.

(٤١) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ﴾ كما تزعمون تارةً ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ تصدِّقون، لِما ظهر لكم صدقه تصديقاً قليلاً لفرط عنادكم.

(٤٢) ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ﴾ كما تدَّعون تارةً أخرى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: تذكرون تذكراً قليلاً، فلذلك يلتبس الأمر عليكم.

(٤٣) ﴿تَنزِيلٌ﴾ هو تنزيل ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ نزَّله على لسان جبريل عليه السلام.

(٤٤) ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ سَمَّى الافتراءَ تقولاً لأنه قول متكلَّف، والأقوالَ المفتراةَ أقاويل تحقيراً لها

(٤٥) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ بيمينه.

(٤٦) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ بضرب عنقه (والوتين: هو الشِّريان الرئيسُ الذي يغذِّي جسمَ الإِنسان بالدّم النقيِّ الخارج من القلب). وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه؛ وهو أن يأخذ القتَّالُ بيمينه ويكفحه (أي: يواجهه) بالسيف ويضرب جِيدَه (أي: عنقه).

(٤٧) ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾ عن القتل أو المقتول ﴿حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ دافعين. والخطاب للناس.

(٤٨) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإن القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ لأنهم المنتفِعون به.

(٤٩) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فنجازيهم على تكذيبهم.

(٥٠) ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ إذا رأوا ثواب المؤمنين به.

(٥١) ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١﴾ اليقين الذي لا ريب فيه.

(٥٢) ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾ فسبِّح الله تعالى بذكر اسمه العظيم، تنزيهاً له عن الرضا بالتقوُّل عليه، وشكراً على ما أوحى إليك.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الحاقة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المعارج

مكيَّة، وآيها أربع وأربعون آية

(١) ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١﴾ أي: دعا داعٍ به، بمعنى استدعاه. والسائل هو: النضر بن الحارث، فإنه قال: ﴿إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. أو أبو جهل، فإنه قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧]. سأله استهزاءً. أو الرسولُ عليه الصلاة والسلام، استعجل بعذابهم.

(٢) ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾ يردُّه.

(٣) ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من جهته، لتعلُّق إرادته به ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣﴾ ذي المصاعد؛ وهي الدرجات التي يصعد فيها الكَلِمُ الطيِّبُ والعملُ الصالح، أو يترقى فيها المؤمنون في سلوكهم أو في دار ثوابهم (أقول: معراج المؤمن ليس كمعراج الرسول ﷺ، بل هو في ظل معراجه عليه الصلاة والسلام، فالمؤمن يعرج بالذكر وبطريق القلب، ومعراجه بالروح فقط، أما معراج رسول الله عليه الصلاة والسلام فبالروح والجسد) أو مراتب الملائكة، أو السموات؛ فإن الملائكة يعرجون فيها.

(٤) ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ بيانٌ لارتفاع تلك المعارج وبُعدِ مداها على التمثيل والتخيُّل. والمعنى أنها بحيث لو قُدِّرَ قطعُها في زمان لكان في زمان يُقدَّر بخمسين ألف سنة من سِني الدنيا. وقيل معناه تعرج الملائكة والروح إلى عرشه فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ كمقدار خمسين ألف سنة، من حيث إنهم يقطعون فيه ما يقطع الإنسان فيها لو فُرِضَ، لا أن ما بين أسفل العالم وأعلى شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة. والمراد به يوم القيامة، واستطالتُه إما لشدته على الكفار، أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات، أو لأنه على الحقيقة كذلك. والروحُ: جبريل عليه السلام، وإفراده لفضله. أو خلقٌ أعظم من الملائكة.

(٥) ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ لا يشوبه (أي: لا يخالطه) استعجالٌ واضطرابُ قلبٍ.

(٦) ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ﴾ الضمير للعذاب، أو يوم القيامة ﴿بَعِيدٗا ۝٦﴾ من الإمكان.

(٧) ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ منه، أو من الوقوع.

(٨) ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨﴾ (وهو المعدِنُ المذاب؛ كالفضَّة والحديد والنُّحاس والذْهب. أو عَكَرُ الزيت المغليِّ).

(٩) ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً، لأن الجبال مختلفة الألوان، فإذا بُسَّت (أي: فُتِّتت) وطُيِّرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيَّرته الريح.

(١٠) ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾ ولا يسأل قريبٌ قريباً عن حاله.

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

(١١-١٢) ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يدلُّ على أن المانع من هذا السؤال هو التشاغل دون الخفاء، أو ما يغني عنه من مشاهدة الحال؛ كبياض الوجه وسواده ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾ يدلُّ على أن اشتغال كلِّ مجرم بنفسه، بحيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه وأعْلَقِهم بقلبه، فضلاً عن أن يهتم بحاله ويسأل عنها.

(١٣) ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وعشيرته الذين فصل عنهم ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾ تضمُّه في النسب أو عند الشدائد.

(١٤) ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين أو الخلائق ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ أي: ثم لو ينجيه الافتداء.

(١٥) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ للمجرم عن الودادة، ودلالةٌ على أن الافتداء لا ينجيه ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير للنار، أو مُبهَمٌ يفسِّره ﴿لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ وهو اللهب الخالص. وقيل: عَلَمٌ للنار.

(١٦) ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ والشوى: الأطراف. أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس.

(١٧) ﴿تَدْعُوا۟﴾ تجذب وتُحضر ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ عن الطاعة.

(١٨) ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ وجمع المال، فجعله في وعاء وكنزه حرصاً وتأميلاً.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ شديدَ الحرص، قليلَ الصبر.

(٢٠) ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضُّرُّ ﴿جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ يُكثِر الجزَع (وهو الخوف الشديد).

(٢١) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ السَّعة ﴿مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ يبالغ في الإمساك (أقول: لا بد للمؤمن أن يتجنب هذه الأوصاف بمخالفة نفسه واتباع الشريعة).

(٢٢) ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ استثناءٌ للموصوفين بالصفات المذكورة بعدُ، مِنَ المطبوعين على الأحوال المذكورة قبلُ، لمضادة تلك الصفات لها، من حيث إنها دالة على الاستغراق في طاعة الحق، والإشفاقِ على الخلق (أقول: سعادة المرء في شيئين: تعظيم أوامر الله تعالى، والشفقة على خلق الله تعالى)، والإيمانِ بالجزاء، والخوفِ من العقوبة، وكسرِ الشهوة، وإيثارِ الآجل على العاجل. وتلك ناشئةٌ من الانهماك في حبِّ العاجل وقصور النظر عليه.

(٢٣) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ لا يشغلهم عنها شاغل.

(٢٤) ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤﴾ كالزكوات والصدقات الموظَّفة.

(٢٥) ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يَسأل ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ الذي لا يَسأل فيُحسب غنياً فيُحرم.

(٢٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦﴾ تصديقاً بأعمالهم؛ وهو أن يُتعب نفسَه ويصرف ماله طمعاً في المثوبة الأخروية، ولذلك ذكر الدِّين.

(٢٧) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧﴾ خائفون على أنفسهم.

(٢٨) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨﴾ اعتراضٌ يدلُّ على أنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله تعالى وإن بالَغَ في طاعته جلَّ وعلا.

(٢٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩﴾ (لا يبذلونها).

(٣٠) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ (زوجاتهم أو سُرِّيَّاتهم [جمع سُرِّيَّة: وهي الجارية المملوكة]) ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠﴾ (أي: فإنْ بذلوها لأزواجهم أو إمائهم فإنهم غير ملومين على ذلك).

(٣١) ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ (المستثنى) ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١﴾ (الكاملون في العدوان).

(٣٢) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٣٢﴾ حافظون.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣﴾ لا يخونون ولا ينكرون ولا يُخفون ما عَلِموه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد.

(٣٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ فيُراعون شرائطها ويكمِّلون فرائضها وسننها. وتكريرُ ذكرِ الصلاة ووصفهم بها أوَّلاً وآخراً باعتبارين للدلالة على فضلها وإنافتها (أي: إعلاء قدرها) على غيرها.

(٣٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥﴾ بثوابِ الله تعالى.

(٣٦) ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ﴾ حَوْلك ﴿مُهْطِعِينَ ۝٣٦﴾ مسرِعين (أقول: ومعنى الآية مال هؤلاء الكفرة المسرعين نحوك يا محمد ﷺ).

(٣٧) ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾ فِرقاً شتى. وكأن كلَّ فرقةٍ تعتزي (أي: تنتسب) إلى غير من تعتزي إليه الأخرى. وكان المشركون يَحتفُّون حول رسول الله ﷺ (أي: يحيطون به) حِلَقاً حِلقاً ويستهزئون بكلامه.

(٣٨) ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨﴾ بلا إيمان. وهو إنكارٌ لقولهم: لو صحَّ ما يقوله لنكون فيها أفضلَ حظاً منهم كما في الدنيا.

(٣٩) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ أي: إنهم مخلَّقون من نطفة مَذِرَةٍ (أي: قذرة) لا تُناسِب عالم القدُس (لخباثتها ونجاستها)، فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة ولم يتخلَّق بالأخلاق المَلَكية لم يستعدّ لدخولها. أو إنكم مخلوقون من أجل ما تعلمون؛ وهو تكميل النفس بالعلم والعمل (أقول: لا بالفساد ولا بالبخل ولا بجمع المال)، فمن لم يستكملها لم يتبوأ (أي: لم ينزل) في منازل الكاملين. أو الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الثانية التي بَنَوْا الطمع على فرْضِها فرضاً مستحيلاً عندهم بعد رَدْعِهم عنه.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

(٧١) سُورَةُ نُوحٍ (٢٨)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾

(٤٠) ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم. أو نعطي محمداً ﷺ بدَلَكم مَنْ هو خيرٌ منكم؛ وهم الأنصار ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ بمغلوبين إن أردنا ذلك.

(٤٢) ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهو عند النفخة الأولى.

(٤٣) ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ مسرعين ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ﴾ منصوبٍ للعبادة. أو عَلَمٍ ﴿يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يسرعون.

(٤٤) ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ مَرَّ تفسيره في سورة القلم [آية ٤٣] ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في الدنيا.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المعارج وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة نوح

مكيَّة، وآيها ثمان وعشرون آية

(١) ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ﴾ أي: بأن قلنا له: أَنْذِرْ ﴿قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾﴾ عذاب الآخرة. أو الطوفان.

(٢-٣) ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ (فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله سبحانه وتعالى) (أقول: والآن يقول لنا القرآن مثلما قال نوح عليه السلام لقومه، فهل نعتقد بالقرآن أم لا؟ نعتقد والحمد لله. إذا كنا نعتقد لا بد أن نعمل به).

(٤) ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ يغفرْ لكم بعض ذنوبكم؛ وهو ما سبق، فإن الإسلام يَجُبُّه (أي: يقطعه) فلا يؤاخذكم به في الآخرة ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ هو أقصى ما قُدِّر لكم بشرط الإيمان والطاعة ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ إن الأجل الذي قدَّره ﴿إِذَا جَآءَ﴾ على الوجه المقدَّر به آجلاً. وقيل: إذا جاء الأجل

الأطول ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾، فبادِروا في أوقات الإمهال والتأخير ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك. وفيه أنهم لانْهِماكهم في حبِّ الحياة كأنهم شاكُّون في الموت.

(٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ﴾ إلى الإيمان ﴿قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ أي: دائماً.

(٦) ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ عن الإِيمان والطاعة.

(٧) ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإِيمان والطاعة ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ سَدُّوا مسامعهم عن استماع الدعوة ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ تغطَّوْا بها لئلا يروني، كراهة النظر إليَّ من فرط كراهة دعوتي. أو لئلا أعرفهم فأدعوهم ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ وأكبُّوا على الكفر والمعاصي ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن اتباعي ﴿ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ عظيماً.

(٨ـ٩) ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ أي: دعوتهم مرَّة بعد أخرى، وكَرَّةً بعد أولى، على أيِّ وجه أمكنني.

(١٠) ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ للتائبين. وكأنهم لمّا أمَرَهُم بالعبادة قالوا: إن كنا على حقٍّ فلا نتركه، وإن كنا على باطل فكيف يقبلنا ويلطف بنا من عصيناه؟ فأمَرَهم بما يَجُبُّ معاصيهم ويجلب إليهم المِنَحَ، ولذلك وعَدَهُم عليه ما هو أوقعُ في قلوبهم (أقول: إذا كان هذا للكافر، فلا بد للمؤمن أن يستغفر ربه من الأخلاق الذميمة). وقيل: لمّا طالت دعوتهم وتمادى إصرارهم حبسَ الله تعالى عنهم القَطْرَ (أي: المطر) أربعين سنة، وأعْقَمَ أرحام نسائهم، فوعدهم بذلك على الاستغفار عما كانوا عليه بقوله تعالى:

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

(١١ـ١٢) ﴿**يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾**﴾ والسَّماء: السحاب، والمدرار: كثير الدرور (أي: الانصباب)، والجَنَّات: البساتين.

(١٣) ﴿**مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾**﴾ لا تأملون له توقيراً - أي تعظيماً - لمن عبده وأطاعه. أو لا تَعتقدون له عظمة فتخافوا عصيانه.

(١٤) ﴿**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾**﴾ فإنه خلقهم أَطْواراً أي: تارات؛ إذ خلقهم أولاً عناصر، ثم مركبات تغذي الإنسان، ثم أخلاطاً، ثم نُطَفاً، ثم علقاً، ثم مُضَغاً، ثم عظاماً ولحوماً، ثم أنشأهم خلقاً آخر، فإنه يدلُّ على أنه يمكن أن يعيدهم تارة أخرى فيعظِّمهم بالثواب، وعلى أنه تعالى عظيمُ القدرة تامُّ الحكمة. ثم أتبع ذلك ما يؤيِّده من آيات الآفاق فقال تعالى:

(١٥ـ١٦) ﴿**أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا**﴾ أي: في السموات. وهو في السماء الدنيا، وإنما نُسب إليهن لما بينهن من الملابسة ﴿**وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾**﴾ مَثَّلها به لأنها تزيل ظلمة الليل عن وجه الأرض كما يزيلها السراج عما حوله.

(١٧) ﴿**وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾**﴾ أنشأكم منها. فاستُعير الإنبات للإنشاء لأنه أدلُّ على الحدوث والتكوُّن من الأرض.

(١٨) ﴿**ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا**﴾ مقبورين ﴿**وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾**﴾ بالحشر.

(١٩) ﴿**وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾**﴾ تتقلَّبون عليها.

(٢٠) ﴿**لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾**﴾ واسعةً، جمعُ فَجٍّ (وهو الطريق الواسعة).

(٢١) ﴿**قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى**﴾ فيما أمرتهم به ﴿**وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾**﴾ واتبعوا رؤساءهم البطِرين (أي: المتكبِّرين) بأموالهم، المغترِّين بأولادهم، بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة. وفيه أنهم إنما اتبعوهم لوجاهةٍ حصلت لهم بالأموال والأولاد وأدت بهم إلى الخسار.

(٢٢) ﴿**وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾**﴾ كبيراً في الغاية؛ وذلك احتيالهم في الدين وتحريش (أي: تحريض) الناس على أذى نوح عليه الصلاة والسلام.

(٢٣) ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: عبادَتَها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ وَلا تَذَرُنَّ هؤلاء خصوصاً. قيل: هي أسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فلما ماتوا صُوِّروا تبرُّكاً بهم، فلما طال الزمان عُبِدوا.

(٢٤) ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ الضمير للرؤساء أو للأصنام ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ لعلَّ المطلوب (أي: المقصود) هو الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم، لا في أمر دينهم. أو الضياع والهلاك.

(٢٥) ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔتِهِمْ﴾ من أجل خطيئاتهم ﴿أُغْرِقُواْ﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ المراد عذاب القبر أو عذاب الآخرة ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ تعريض لهم باتخاذهم آلهة مِن دُونِ الله تعالى لاَ تقدر على نصرهم.

(٢٦) ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: أحداً.

(٢٧) ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ قال ذلك لمّا جرَّبهم واستقرى (أي: تتبَّع) أحوالهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً، فعرف شِيَمَهم وطِباعَهم.

(٢٨) ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وكانا مؤمنَيْن ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ منزلي، أو مسجدي، أو سفينتي ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يوم القيامة ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ هلاكاً.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة نوح
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ الجِنِّ (٧٢) (٢٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الجن

مكيَّة، وآيها ثمان وعشرون آية

(١) ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ**﴾ والنفرُ ما بين الثلاثة إلى العشرة. والجِنُّ أجسام عاقلة خفيَّة تغلب عليهم النارية أو الهوائية ﴿**فَقَالُوٓاْ**﴾ لمّا رجعوا إلى قومهم ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا**﴾ كتاباً ﴿**عَجَبًا ﴿١﴾**﴾ بديعاً مُبايناً (أي: مغايراً مخالفاً) لكلام الناس في حسن نظمه ودقة معناه.

(٢) ﴿**يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ**﴾ إلى الحق والصواب ﴿**فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ**﴾ بالقرآن ﴿**وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾**﴾ على ما نطقت به الدلائل القاطعة على التوحيد.

(٣) ﴿**وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا**﴾ كأنه قيل: صدَّقناه وصدَّقنا أنه تعالى جدُّ ربِّنا، أي: تعالت عَظَمَتُه. والمراد وصْفُه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته أو لسلطانه أو لغناه جلَّ وعلا ﴿**مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾**﴾ كأنهم سمعوا من القرآن ما نبَّههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك واتخاذ الصاحبة والولد.

(٤) ﴿**وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا**﴾ إبليس، أو مَرَدَةُ الجنِّ ﴿**عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾**﴾ قولاً ذا شطط؛ وهو البُعد ومجاوزة الحدِّ. أو هو شطط لفرط ما أشط فيه؛ وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى.

(٥) ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾**﴾ اعتذارٌ عن اتباعهم للسفيه في ذلك بظنِّهم أن أحداً لا يكذب على الله تعالى.

(٦) ﴿**وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ**﴾ فإن الرجل كان إذا أمسى بقَفْرٍ (أي: مكان خالٍ) قال: أعوذ بسيِّد هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه ﴿**فَزَادُوهُمْ**﴾ فزادوا الجنَّ باستعاذتهم بهم ﴿**رَهَقًا ﴿٦﴾**﴾ كِبْراً وعُتوّاً. أو فزاد الجنُّ الإنسَ غيّاً بأن أضلُّوهم حتى استعاذوا بهم.

(٧) ﴿**وَأَنَّهُمْ**﴾ وأن الإنس ﴿**ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ**﴾ أيها الجن. أو بالعكس. والآيتان من كلام الجن بعضهم لبعض. أو استئنافُ كلامٍ من الله تعالى ﴿**أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾**﴾ (أي: بعد موته لما لَبَّسَ به إبليس عليهم حتى رأوا حسناً ما ليس بالحسن، أو أحداً من الرسل يزيل به عماية الجهل، وقد ظهر بالقرآن أن هذا الظنَّ كاذب، وأنه لا بدَّ من البعث في الأمرين [السراج المنير للشربيني رحمه الله تعالى]).

(٨) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ طَلَبنا بلوغَ السماء أو خبَرَها ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ حراساً ﴿شَدِيدًا﴾ قويّاً؛ وهم الملائكة الذين يمنعونهم عنها ﴿وَشُهُبًا ٨﴾ جمعُ شهاب؛ وهو المضيء المتولِّد من النار.

(٩) ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ مقاعد خاليةً عن الحرس والشهب. أو صالحة للترصد والاستماع ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ٩﴾ أي: شهاباً راصداً له، ولأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم.

(١٠) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠﴾ خيراً؟

(١١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ المؤمنون الأبرار ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قومٌ دون ذلك؛ وهم المقتصِدون ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ﴾ ذوي طرائق؛ أي مذاهب. أو مثلَ طرائق في اختلاف الأحوال ﴿قِدَدًا ١١﴾ متفرِّقة مختلفة.

(١٢) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ علمنا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كائنين في الأرض أينما كنا فيها ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ١٢﴾ هاربين منها إلى السماء. أو لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً. أو لن نعجزه هرَباً إن طلَبنا.

(١٣) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ١٣﴾ نقصاً في الجزاء، ولا أن ترهَقه ذلة. أو جزاءَ بخسٍ ولا رهق؛ لأنه لم يبخس لأحد حقاً ولم يرهق ظلماً، لأن من حق الإيمان بالقرآن أن يُجتنَبَ ذلك.

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

(١٤) ﴿**وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ**﴾ الجائرون (أي: المائلون) عن طريق الحق؛ وهو الإيمان والطاعة ﴿**فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾**﴾ توخَّوْا (أي: تقصدوا) رشداً عظيماً يبلِّغُهم إلى دار الثواب.

(١٥) ﴿**وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾**﴾ توقد بهم كما توقد بكفار الإنس.

(١٦) ﴿**وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟**﴾ أي: إن الشأن لو استقام الجن أو الإنس أو كلاهما ﴿**عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ**﴾ أي: على الطريقة المثلى ﴿**لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾**﴾ لوسَّعنا عليهم الرزق. وتخصيص الماء الغدق ـ وهو الكثير ـ بالذكر لأنه أصل المعاش والسعة، ولِعزَّة وجوده بين العرب.

(١٧) ﴿**لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ**﴾ لنختبرهم كيف يشكرونه. وقيل: معناه أن لو استقام الجنُّ على طريقتهم القديمة ولم يُسْلموا باستماع القرآن لوسَّعنا عليهم الرزق مستدرِجين لهم، لِنوقعهم في الفتنة ونعذِّبَهم في كفرانهم ﴿**وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ**﴾ عن عبادته أو موعظته أو وحيه جلَّ وعلا ﴿**يَسْلُكْهُ**﴾ يُدخِله ﴿**عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾**﴾ شاقاً، يَعلو المعذَّب ويغلبه.

(١٨) ﴿**وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ**﴾ مختصة به ﴿**فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾**﴾ فلا تعبدوا فيها غيره جل وعلا. وقيل: المراد بالمساجِد الأرض كلها، لأنها جُعلت للنبي عليه الصلاة والسلام مسجداً. والمراد النهي عن السجود لغير الله جل وعلا.

(١٩) ﴿**وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ**﴾ أي: النبي عليه الصلاة والسلام ﴿**يَدْعُوهُ**﴾ يعبده ﴿**كَادُوا۟**﴾ كادَ الجنُّ ﴿**يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾**﴾ متراكمين من ازدحامهم عليه، تعجباً مما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته. أو كاد الإنس والجن يكونون عليه مجتمعين لإبطال أمره.

(٢٠) ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾**﴾ فليس ذلك ببدع (أي: غريب) ولا منكَر يوجب تعجبَّكم أو إطباقكم على مَقتي (أي: اجتماعكم على بغضي)؛ والأمر للنبي عليه الصلاة والسلام.

(٢١) ﴿**قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾**﴾ ولا نفعاً أو غياً (أي: ضلالاً).

(٢٢) ﴿**قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ**﴾ إن أراد بي سوءاً ﴿**وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾**﴾ منحرفاً أو ملتجأ.

(٢٣) ﴿**إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ**﴾ استثناء من قوله: ﴿لَا أَمْلِكُ﴾، فإن التبليغ إرشادٌ وإنفاعٌ ﴿**وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ في الأمر بالتوحيد ﴿**فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣**﴾.

(٢٤) ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ**﴾ في الدنيا كوقعة بدر، أو في الآخرة ﴿**فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ٢٤**﴾ هو أمْ هُمْ.

(٢٥) ﴿**قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ**﴾ ما أدري ﴿**أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ٢٥**﴾ غايةً تطول مدتُها. كأنه لما سمع المشركون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ قالوا: متى يكون؟ إنكاراً، فقيل: قل إنه كائن لا محالة، ولكن لا أدري وقتَهُ.

(٢٦) ﴿**عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ**﴾ هو عالم الغيب ﴿**فَلَا يُظْهِرُ**﴾ فلا يُطلع ﴿**عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦**﴾ أي: على الغيب المخصوص به عِلمُه جلَّ وعلا.

(٢٧) ﴿**إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ**﴾ لِعِلْمِ بعضه، حتى يكون له معجزة ﴿**مِن رَّسُولٍ**﴾ بيانٌ لـ«مَنْ» ﴿**فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ**﴾ من بين يدي المرتضى ﴿**وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ٢٧**﴾ حرساً من الملائكة، يحرسونه من اختطاف الشياطين وتخاليطهم.

(٢٨) ﴿**لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ**﴾ أي: ليعلم النبي الموحى إليه أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحي ﴿**رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ**﴾ كما هي، محروسةً من التغيير ﴿**وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ**﴾ بما عند الرسل ﴿**وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ٢٨**﴾ حتى القطر والرمل.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الجن

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

(٧٣) سُورَةُ المُزَّمِّلِ (٢٠)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المزمل

مكيَّة، وآيها عشرون آية

(١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١**﴾ أصله المتزمِّل، من تزمَّل بثيابه إذا تلفَّف بها. سُمِّي به النبي عليه الصلاة والسلام تهييجاً لِما كان عليه، لأنه كان نائماً أو مرتعداً مما دهشه من بدء الوحي متزمِّلاً في قطيفة (أي: ثوب). أو تشبيهاً له في تثاقله بالمتزمِّل، لأنه لم يتمرَّن بعدُ في قيام الليل.

(٢) ﴿**قُمِ ٱلَّيۡلَ**﴾ أي: قمْ إلى الصلاة، أو داوم عليها فيه ﴿**إِلَّا قَلِيلٗا ٢**﴾.

(٣ـ٤) ﴿**نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ**﴾ وقلَّتُه بالنسبة إلى الكل. والتخييرُ بين قيام النصف، والزائد عليه كالثلثين، والناقص عنه كالثلث ﴿**وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤**﴾ اقرأه على تُؤدة (أي: تمهُّل) وتبيينِ حروفٍ، بحيث يتمكن السامع من عَدِّها.

(٥) ﴿**إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥**﴾ يعني القرآن؛ فإنه لِما فيه من التكاليف الشاقة ثقيلٌ على المكلَّفين، سيَّما على الرسول ﷺ، إذ كان عليه أن يتحمَّلها ويحمِّلها أمته. والجملة اعتراض يُسهِّل التكليف عليه بالتهجد، ويدل على أنه مُشِقٌّ مضادٌّ للطبع مخالف للنفس. أو رصينٌ (أي: مُحكَم) ؛ لرزانة (أي: لوقار) لفظه ومتانة معناه. أو ثقيل على المتأمِّل فيه؛ لافتقاره إلى مزيد تصفيةٍ للسرِّ وتجريد للنظر. أو ثقيل في الميزان أو على الكفار والفجار. أو ثقيلٌ تلقِّيه؛ لقول عائشة رضي الله تعالى عنها: رأيته عليه الصلاة والسلام ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم (أي: ينفكُّ) عنه وإنَّ جبينه ليرفض (أي: يفيض) عَرَقاً [أخرجه الترمذي رحمه الله تعالى وأصله في الصحيحين].

(٦) ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ**﴾ إن النفس التي تنشأ (أي: تنهض) من مضجعها إلى العبادة أو قيام الليل ﴿**هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا**﴾ أي: كلفةً أو ثباتَ قدمٍ ﴿**وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦**﴾ أي: وأسَدُّ (يعني: أصوب) مقالاً، أو أثبت قراءةً؛ لحضور القلب وهدوء الأصوات.

(٧) ﴿**إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧**﴾ تقلُّباً في مَهمَّاتك واشتغالاً بها، فعليك بالتهجد، فإن مناجاة الحق تستدعي فراغاً.

(٨) ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ ودُمْ على ذكره ليلاً ونهاراً. وذكرُ الله تعالى يتناول كل ما يُذكر به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءةِ قرآنٍ ودراسةِ علمٍ ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾ وانقطع إليه بالعبادة، وجرِّدْ نفسَك عمّا سواه.

(٩) ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ مسبَّبٌ عن التهليل، فإن توحُّدَه بالألوهية يقتضي أن توكَلَ إليه الأمور.

(١٠) ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الخرافات ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ بأن تجانبهم وتداريهم ولا تكافئهم، وتَكِلَ أمْرَهم إلى الله تعالى، فالله تعالى يكفيكهم، كما قال جل وعلا:

(١١) ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ دَعْني وإيّاهم، وكِلْ إليَّ أمرهم، فإن بي غنيةٌ عنك في مجازاتهم ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أربابِ التنعم. يريد صناديد قريش ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ زماناً أو إمهالاً.

(١٢) ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا﴾ والنكل: القيد الثقيل ﴿وَجَحِيمٗا ١٢﴾ (أي: ناراً حامية جدًّا شديدة الاتقاد مما كانوا يتقيدون به من تبريد الشراب والتنعم برقيق اللباس وتكلف أنواع الراحة [السراج المنير للشربيني رحمه الله تعالى]).

(١٣) ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ طعاماً ينشب في الحلق (أي: يتعلق به ولا يسوغ)؛ كالضريع والزقوم (والضريع: نَبْتُ الشِّبْرِقِ، لا تَقرَبُه دابةٌ لخبثه) ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يعرف كنهه (أي: حقيقته) إلا الله تعالى. ولمّا كانت العقوبات الأربع مما تشترك فيها الأشباح والأرواح فإن النفوس العاصية المنهمكة في الشهوات تبقى مقيَّدة بحبها والتعلق بها عن التخلص إلى عالم المجرَّدات، متحرقة بحرقة الفرقة، متجرِّعة غصة الهجران، معذَّبة بالحرمان من تجلي أنوار القدس، فُسِّرَ العذاب بالحرمان عن لقاء الله تعالى.

(١٤) ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ تضطرب وتتزلزل ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا﴾ رملاً مجتمعاً ﴿مَّهِيلًا ١٤﴾ منثوراً.

(١٥) ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾ يا أهل مكة ﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بالإِجابة والامتناع ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾ يعني موسى عليه الصلاة والسلام.

(١٦) ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ ثقيلاً.

(١٧) ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ﴾ تقونَ أنفسكم ﴿إِن كَفَرۡتُمۡ﴾ بَقيتم على الكفر ﴿يَوۡمٗا﴾ عذابَ يومٍ ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ من شدة هوله. وهذا على الفرَض أو التمثيل.

(١٨) ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ﴾ منشَقٌّ ﴿بِهِۦۚ﴾ بشدة ذلك اليوم ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾ الضمير لله عز وجل أو لليوم.

(١٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: الآيات المُوعَدَة ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾ عظةٌ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أن يتَّعظ ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ أي: يتقرب إليه بسلوك التقوى.

۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

(٧٤) سُورَةُ المُدَّثِّرِ (٥٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾

(٢٠) ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ**﴾ أي: أقلَّ ﴿**مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ**﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك ﴿**وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ**﴾ لا يعلم مقادير ساعاتهما كما هي إلا الله تعالى ﴿**عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ**﴾ أي: أن لن تحصوا تقدير الأوقات، ولن تستطيعوا ضبط الساعات ﴿**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾ بالترخيص في ترك القيام المقدَّر ورفع التبعة (أي: المؤاخذة) فيه، كما رفع التبعة عن التائب ﴿**فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ**﴾ فصلُّوا ما تيسَّر عليكم من صلاة الليل. عبَّر عن الصلاة بالقراءة كما عبَّر عنها بسائر أركانها. قيل: كان التهجد واجباً على التخيير المذكور فعسر عليهم القيام به فنسخ به، ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس. أو فاقرؤوا القرآن بعينه كيفما تيسَّر عليكم ﴿**عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ**﴾ والضرب في الأرض ابتغاءً للفضل: المسافرةُ للتجارة وتحصيل العلم ﴿**وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾ المفروضة ﴿**وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾ الواجبة ﴿**وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ يريد به الأمرَ في سائر الإنفاقات في سبل الخيرات، أو بأداء الزكاة على أحسن وجه، والترغيب فيه بوعد العِوض كما صرَّح به في قوله: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا**﴾ مِنَ الذي تؤخِّرونه إلى الوصية عند الموت، أو من متاع الدنيا ﴿**وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ**﴾ في مجامع أحوالكم، فإن الإِنسان لا يخلو من تفريط ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾**﴾.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المزمل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المدثر

مكيَّة، وآيها ستٌّ وخمسون آية

(١) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾**﴾ أي: المتدثِّر؛ وهو لابس الدِّثار (وهو غطاءٌ يُسْتَدْفَأُ به من البرد). روي أنه

عليه الصلاة والسلام قال: «كنت بحراء فنوديت، فنظرت عن يميني وشمالي فلم أرَ شيئاً، فنظرت فوقي فإذا هو على عرش بين السماء والأرض - يعني المَلَك الذي ناداه - فرعبتُ ورجعتُ إلى خديجة، فقلت: دثِّروني، فنزل جبريل عليه السلام وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾. ولذلك قيل: هي أول سورة نزلت [الحديث أصله في البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى].

(٢) ﴿قُمۡ﴾ من مضجعكَ، أو قمْ قيامَ عزم وجِدٍّ ﴿فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ مطلَقٌ للتعميم.

(٣) ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ وخصِّصْ ربَّكَ بالتكبير؛ وهو وصْفُه بالكبرياء عقداً (أي: اعتقاداً) وقولاً. روي أنه لما نزل كبَّر رسول الله ﷺ وأيقن أنه الوحي، وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك.

(٤) ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ من النجاسات. فإن التطهير واجبٌ في الصلوات محبوب في غيرها. أو طهِّرْ نفسك من الأخلاق الذميمة والأفعال الدنيئة.

(٥) ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ فاهجرْ العذاب بالثبات على هجر ما يؤدي إليه؛ من الشرك وغيره من القبائح.

(٦) ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾ أي: ولا تعطِ مستكثِراً. نُهِيَ عن الاستغزار - وهو أن يهَب شيئاً طامعاً في عوضٍ أكثر - نَهْيَ تنزيهٍ، أو نهياً خاصاً به عليه الصلاة والسلام. أو لا تَمْنُنْ على الله تعالى بعبادتك مستكثراً إياها. أو على الناس بالتبليغ مستكثراً به الأجر منهم أو مستكثراً إياه.

(٧) ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ لوجهه، أو أَمْرِه جلَّ وعلا ﴿فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ فاستعمِل الصبر. أو فاصبر على مشاقِّ التكاليف وأذى المشركين.

(٨) ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ نُفِخ ﴿فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ في الصور. كأنه قال: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم زمان صعب، تلقى فيه عاقبة صبرك، وأعداؤك عاقبةَ ضرِّهم.

(٩-١٠) ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فإن معناه عسر الأمر على الكافرين. وذلك إشارةٌ إلى وقت النقر ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ تأكيدٌ يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه، ويُشعِرُ بيسره على المؤمنين.

(١١) ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١﴾ نزلَتْ في الوليد بن المغيرة؛ أي: ذرني وحدي معه فإني أكفيكَهُ. أو ومَنْ خلقتُهُ وحدي لم يُشركني في خلقه أحد. أو مَنْ خلقتُهُ فريداً لا مالَ له ولا ولد. أو ذمٌّ، فإنه كان ملقَّباً به، فسمّاه الله تعالى به تهكُّماً، أو إرادةَ أنه وحيدٌ ولكن في الشرارة. أو عن أبيه، فإنه كان زنيماً (وهو الدَّعيُّ، المُلحَق بقوم وليس منهم).

(١٢) ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢﴾ مبسوطاً كثيراً. أو مُمَدّاً بالنماء. وكان له الزرع والضرع والتجارة.

(١٣) ﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣﴾ حضوراً معه بمكة يتمتع بلقائهم، لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بنعمته، ولا يحتاج إلى أن يرسلهم في مصالحه لكثرة خدمه، أو في المحافل والأندية لوجاهتهم واعتبارهم. قيل: كان له عشرة بنين أو أكثر، كلُّهم رجال، فأسلم منهم ثلاثة خالد وعمارة وهشام رضي الله تعالى عنهم.

(١٤) ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤﴾ وبسطت له الرياسة والجاه العريض، حتى لُقِّبَ ريحانة قريش والوحيد؛ أي: باستحقاقه الرياسة والتقدم.

(١٥) ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾ على ما أوتيَهُ. وهو استبعادٌ لطمعه، إما لأنه لا مزيد على ما أوتي، أو لأنه لا يناسب ما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعِم، ولذلك قال تعالى:

(١٦) ﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾ فإنه ردعٌ له عن الطمع. قيل: ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله حتى هلك.

(١٧) ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ سأُغشيه عقبةً شاقّةَ المصعدِ؛ وهو مَثَلٌ لما يُلقى من الشدائد. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الصَّعودُ جبلٌ من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى].

إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ
﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ
﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ
وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى
مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا
وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى
ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ
نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ
﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ
ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ
ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

(١٨) ﴿**إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾**﴾ أي: فكَّر فيما تخيَّل طعناً في القرآن، وقدَّر في نفسه ما يقول فيه.

(١٩) ﴿**فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾**﴾ تعجُّبٌ من تقديره استهزاءً به. أو لأنه أصاب أقصى ما يمكن أن يقال عليه، من قولهم: قتله الله ما أشجعه. روي أنه مرَّ بالنبي ﷺ وهو يقرأ حم «السجدة»، فأتى قومه وقال: لقد سمعتُ من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإِنس والجنِّ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لُمثِمر وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى. فقالت قريش صَبأَ الوليد، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكُموه، فقعد إليه حزيناً وكلَّمه بما أحماه (أي: أغضبه)، فناداهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يُخنَق (أي: يُصرَع)؟ وتقولون إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهَّن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً؟ فقالوا: لا، فقال: ما هو إلا ساحرٌ، أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ ففرحوا بقوله وتفرَّقوا عنه متعجبين منه.

(٢٠) ﴿**ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾**﴾ تكرير للمبالغة.

(٢١) ﴿**ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾**﴾ أي: في أمر القرآن مرة بعد أخرى.

(٢٢) ﴿**ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾**﴾ قطَّب وجهه لمّا لم يجد فيه مطعناً ولمْ يَدْرِ ما يقول. أو نظر إلى رسول الله ﷺ وقطَّب في وجهه.

(٢٣) ﴿**ثُمَّ أَدْبَرَ**﴾ عن الحق أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿**وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾**﴾ عن اتباعه.

(٢٤) ﴿**فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾**﴾ يُروى ويُتعَلَّم.

(٢٥) ﴿**إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾**﴾ كالتأكيد للجملة الأولى.

(٢٦ـ٢٧) ﴿**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾**﴾ تفخيمٌ لشأنها.

(٢٨) ﴿**لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾**﴾ أي: لا تبقي على شيء يُلقى فيها ولا تدعه حتى تهلكه.

(٢٩) ﴿**لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾**﴾ أي: مسوِّدَةٌ لأعالي الجلد. أو لائحةٌ للناس.

(٣٠) ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾**﴾ مَلَكاً، أو صنفاً من الملائكة، يَلُونَ أمرها. والمخصِّص لهذا العدد أن

اختلال النفوس البشرية في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانية الاثنتي عشرة والطبيعية السبع. أو أن لجهنم سبع دركات؛ ستٌّ منها لأصناف الكفار، وكلُّ صنف يعذَّب بترك الاعتقاد والإقرار والعمل أنواعاً من العذاب تناسبها. وعلى كل نوع مَلَكٌ أو صنف يتولاه، وواحدة لعصاة الأمة يعذَّبون فيها بترك العمل نوعاً يناسبه، ويتولاه مَلَكٌ أو صنف. أو أن الساعات أربع وعشرون، خمسٌ منها مصروفة في الصلاة، فيبقى تسع عشرة، قد تُصرف فيما يؤاخَذ به بأنواع من العذاب يتولاها الزبانية.

(٣١) ﴿**وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً**﴾ ليخالفوا جنس المعذَّبين، فلا يرِقُّون لهم ولا يستروحون إليهم، ولأنهم أقوى الخلق بأساً وأشدهم غضباً لله تعالى. روي أن أبا جهل لما سمع عليها تسعة عشر قال لقريش: أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم فنزلت ﴿**وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم؛ وهو التسعة عشر، فعبَّر بالأثر عن المؤثِّر تنبيهاً على أنه لا ينفك منه. وافتتانُهم به استقلالُهم له واستهزاؤهم به واستبعادهم أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب أكثر الثَّقَلَيْن ﴿**لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ أي: ليكتسبوا اليقين بنبوَّة محمد ﷺ وصدقِ القرآن لمّا رأوا ذلك موافقاً لِما في كتابهم ﴿**وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا**﴾ بالإيمان به وبتصديق أهل الكتاب له ﴿**وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ أي: في ذلك. وهو تأكيدٌ للاستيقان وزيادة الإيمان. أو نفيٌ لِما يعرض للمتيقِّن حيثما عراه (أي: أصابته) شبهة ﴿**وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ شكٌّ أو نفاقٌ. فتكون الآية إخباراً بمكة عمّا سيكون في المدينة بعد الهجرة ﴿**وَٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ الجازمون في التكذيب ﴿**مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا**﴾ أيَّ شيء أراد بهذا العدد المستغرَب استغراب المَثَلِ. وقيل: لمّا استبعدوه حسبوا أنه مثل مضروب ﴿**كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ**﴾ مِثْلَ ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنين ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ**﴾ جموعَ خلقه على ما هم عليه ﴿**إِلَّا هُوَ**﴾ إذ لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات والاطلاع على حقائقها وصفاتها وما يوجب اختصاص كل منها بما يخصُّه من كَمٍّ وكيفٍ واعتبارٍ ونسبةٍ ﴿**وَمَا هِىَ**﴾ وما سقر. أو عِدَّة الخزَنة. أو السورة ﴿**إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ٣١**﴾ إلا تذكرة لهم.

(٣٢) ﴿**كَلَّا**﴾ ردعٌ لمن أنكرها. أو إنكارٌ لأن يتذكروا بها ﴿**وَٱلْقَمَرِ ٣٢**﴾.

(٣٣) ﴿**وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣**﴾ أي: مضى.

(٣٤) ﴿**وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ٣٤**﴾ أي: أضاء.

(٣٥) ﴿**إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ٣٥**﴾ أي: لإِحدى البلايا الكبَر. أي: البلايا الكُبَرُ كثيرةٌ، وسَقَر واحدةٌ منها.

(٣٦) ﴿**نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ٣٦**﴾ أي: إنذاراً.

(٣٧) ﴿**لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧**﴾ أي: نذيراً للمتمكِّنين من السبق إلى الخير والتخلُّف عنه.

(٣٨) ﴿**كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨**﴾ مرهونةٌ عند الله جل وعلا.

(٣٩) ﴿**إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ٣٩**﴾ فإنهم فكُّوا رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم.

(٤٠ـ٤١) ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ لا يُكتنَهُ وصفها (أي: لا تُعرف حقيقتها) ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١﴾ أي: يسأل بعضهم بعضاً، أو يسألون غيرهم عن حالهم.

(٤٢) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢﴾ حكايةٌ لما جرى بين المسؤولين والمجرمين.

(٤٣) ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ الصلاة الواجبة.

(٤٤) ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾ أي: ما يجب إعطاؤه.

(٤٥) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥﴾ نَشْرَعُ في الباطل مع الشارعين فيه.

(٤٦) ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦﴾ أخَّرَهُ لتعظيمِه، أي: وكنا بعد ذلك كلِّه مكذِّبين بالقيامة.

(٤٧) ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧﴾ الموتُ ومقدِّماته.

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ القِيَامَةِ ٧٥ — ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

(٤٨) ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ لو شَفعوا لهم جميعاً.

(٤٩) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: معرضين عن التذكرة؛ يعني القرآن وما يعمُّه.

(٥٠) ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾ شبَّههم في إعراضهم ونفارهم عن استماع الذكر بحُمُرٍ نافرة.

(٥١) ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ أي: أسدٍ.

(٥٢) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ قراطيسَ تُنشَر وتُقرأ. وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كلاً مِنّا بكتاب من السماء فيه: من الله إلى فلان أن اتَّبعْ محمداً عليه الصلاة والسلام.

(٥٣) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عن اقتراحهم الآيات ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة، لا لامتناع إيتاء الصحف.

(٥٤) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عن إعراضهم ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ وأيُّ تذكرة.

(٥٥) ﴿فَمَن شَآءَ﴾ فمن شاء أن يذكره ﴿ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

(٥٦) ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ذِكرَهم أو مشيئَتَهم. وهو تصريح بأن فعل العبد بمشيئة الله تعالى ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ حقيقٌ بأن يُتَّقى عقابُه ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ حقيقٌ بأن يَغفر لعباده، سيَّما المتقين منهم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المدثر

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القيامة

مكيَّة، وآيها أربعون آية

(١) ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ إدخالُ «لا» النافية على فعل القسَم للتأكيد شائعٌ في كلامهم (أي: أُقسم. أو ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾، إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم).

(٢) ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس المقصِّرة في التقوى يوم القيامة على تقصيرها. أو التي تلوم نفسها أبداً وإن اجتهدت في الطاعة.

(٣) ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يعني الجنسَ. أو الذي نزلت فيه؛ وهو عدي بن أبي ربيعة، سأل رسول الله ﷺ عن أمر القيامة، فأخبره به، فقال: لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدِّقْكَ ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ بعد تفرُّقِها.

(٤) ﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ بجَمْعِ سلامياته (جمع سُلامى، وهي ما صغر من عظام اليدين والرجلين) وضمِّ بعضها إلى بعض كما كانت، مع صغرها ولطافتها، فكيف بكبار العظام! أو عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ التي هي أطرافه فكيف بغيرها!

(٥) ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

(٦) ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ متى يكون يوم القيامة استبعاداً له أو استهزاء.

(٧) ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧﴾ تحيَّر فزعاً.

(٨) ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨﴾ ذهب ضوؤه.

(٩) ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾ في ذهاب الضوء، أو الطلوع من المغرب.

(١٠) ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠﴾ أي: الفرار؛ يقوله قولَ الآيِسِ المتمنِّي.

(١١) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن طلب المفر ﴿لَا وَزَرَ ۝١١﴾ لا ملجأ.

(١٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾ إليه وحده استقرار العباد، أو إلى حكمه استقرار أمرهم، أو إلى مشيئته موضع قرارهم، يُدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار.

(١٣) ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۢ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ بما قدَّم من عملٍ عملَه، وبما أخَّر منه لم يعمله. أو بما قدَّم من عملٍ عملَه وبما أخَّر من سُنَّةٍ حسنة أو سيئة عُمِل بها بعده. أو بما قدَّم من مالٍ تَصدَّق به وبما أخَّر فخلَّفه.

(١٤) ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤﴾ حجةٌ بينة على أعمالها لأنه شاهد بها.

(١٥) ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به.

(١٦) ﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾ يا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ قبل أن يتمَّ وحيُه ﴿لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ لتأخذه على عجلة مخافة أن يتفلَّت منك.

(١٧) ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾ في صدرك ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧﴾ وإثبات قراءته في لسانك.

(١٨) ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾ بلسان جبريل عليه السلام عليك ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨﴾ قراءتَه وكرِّرْ فيه حتى يرسخ في ذهنك.

(١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ بيان ما أشكل عليك من معانيه.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ الإِنسَانِ (٧٦) (٣١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

(٢٠) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإِنسان عن الاغترار بالعاجل. وقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ (الدنيا وشهواتها [النسفي]).

(٢١) ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ تعميمٌ للخطاب، إشعاراً بأن بني آدم مطبوعون على الاستعجال.

(٢٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ بهيَّة متهللة.

(٢٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ تراه مستغرقة في مطالعة جماله جل وعلا.

(٢٤) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ شديدة العبوس.

(٢٥) ﴿تَظُنُّ﴾ تتوقع أربابُها ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ داهيةٌ تكسر الفقار (وهو عظم الظهر).

(٢٦) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن إيثار الدنيا على الآخرة ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ إذا بلغت النفس أعالي الصدر.

(٢٧) ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ وقال حاضِروا صاحبها: مَنْ يرقيه مما به. أو قالت ملائكة الموت: أيُّكم يرقى بروحه؟ ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب.

(٢٨) ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ وظن المحتضَر أن الذي نزل به فراق الدنيا ومحابِّها.

(٢٩) ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ والتوت ساقه بساقه، فلا يقدر على تحريكهما. أو شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة.

(٣٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ سوْقُه إلى الله تعالى وحكمه.

(٣١) ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ ما يجب تصديقه. أو فلا صدَّق ماله، أي: فلا زكَّاه ﴿وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ ما فُرض عليه.

(٣٢) ﴿وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ عن الطاعة.

(٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ يتبختر افتخاراً بذلك.

(٣٤) ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ ويلٌ لك. أو أَوْلى لَكَ الهلاك.

(٣٥) ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ أي: يتكرَّر ذلك عليه مرة بعد أخرى.

(٣٦) ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ مهملاً لا يُكلَّف ولا يُجازى. وهو يتضمن تكرير إنكاره للحشر والدلالة عليه، من حيث إن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح، والتكليفُ لا يتحقق إلا بالمجازاة، وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة.

(٣٧ـ٣٨) ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ فقدَّره فعدله.

(٣٩) ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ وهو استدلال آخر بالإِبداء على الإِعادة على ما مرَّ تقريره مراراً، ولذلك رتب عليه قوله تعالى:

(٤٠) ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ عن النبي ﷺ: «أنه كان إذا قرأها قال: سبحانك بلى» [أخرجه أبو داود رحمه الله تعالى].

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة القيامة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإنسان

مكيَّة، وآيها إحدى وثلاثون آية

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ استفهامُ تقريرٍ وتقريب ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ طائفةٌ محدودة من الزمان الممتد غير المحدود ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ بل كان شيئاً منسيّاً غير مذكور بالإِنسانية؛ كالعنصر والنطفة.

(٢) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ والمراد بالإنسان الجنس، أو آدم عليه الصلاة والسلام، بيَّن أولاً خَلْقَه ثم ذَكَرَ خلقَ بَنِيهِ ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاطٍ. وصَفَ النطفة به لأن المراد بها مجموع منيِّ الرجل والمرأة ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: مبتلين له؛ بمعنى مريدين اختباره ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ ليتمكَّن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات.

(٣) ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بنصب الدلائل وإنزال الآيات ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ أي: هَدَيْناهُ في حاليه جميعاً. أو مقسوماً إليهما؛ بعضهم شاكِراً بالاهتداء والأخذ فيه، وبعضهم كفور بالإِعراض عنه.

(٤) ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟﴾ بها يُقادون ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ بها يُقيَّدون ﴿وَسَعِيرًا ۝٤﴾ بها يُحرقون.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع بَرٍّ (أي: طائع) ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ أي: من خمرٍ ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما يُمزج بها ﴿كَافُورًا ۝٥﴾ لبرده وعذوبته وطيب عرفه (أي: رائحته). وقيل: اسم ماء في الجنة يشبه الكافور في رائحته وبياضه.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

(٦) ﴿**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ**﴾ أي: ملتذاً بها. أو ممزوجاً بها ﴿**يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ٦**﴾ يُجْرونها حيث شاؤوا إجراءً سهلاً.

(٧) ﴿**يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ**﴾ وصَفَهم بالتوفُّر على أداء الواجبات (أي: بإتمامها)؛ لأن من وفَّى بما أوَجبه على نفسه لله تعالى كان أوفى بما أوجَبَه الله تعالى عليه ﴿**وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ**﴾ شدائدُه ﴿**مُسْتَطِيرًا ٧**﴾ فاشياً منتشراً غاية الانتشار. وفيه إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي.

(٨) ﴿**وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ**﴾ حبِّ الله تعالى، أو الطعام، أو الإطعام ﴿**مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ٨**﴾ يعني أسارى الكفار. أو الأسير المؤمن؛ ويدخل فيه المملوك والمسجون.

(٩) ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ**﴾ على إرادة القول بلسان الحال أو المقال، إزاحةً لتوهُّم المن وتوقع المكافأة المنقصة للأجر ﴿**لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ٩**﴾ أي: شكراً.

(١٠) ﴿**إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا**﴾ فلذلك نُحسِن إليكم. أو لا نطلب المكافأة منكم ﴿**يَوْمًا**﴾ عذابَ يومٍ ﴿**عَبُوسًا**﴾ تعبس فيه الوجوه ﴿**قَمْطَرِيرًا ١٠**﴾ شديدَ العبوس.

(١١) ﴿**فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ**﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم عنه ﴿**وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ١١**﴾ بَدَلَ عبوس الفجار وحزنهم.

(١٢) ﴿**وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟**﴾ بصبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرمات وإيثار الأموال ﴿**جَنَّةً**﴾ بستاناً يأكلون منه ﴿**وَحَرِيرًا ١٢**﴾ يلبسونه.

(١٣) ﴿**مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ١٣**﴾ أي: يمُرُّ عليهم فيها هواء معتدل، لا حارٌّ مُحِمٌّ (أي: مسخِّن) ولا باردٌ مُؤْذٍ.

(١٤) ﴿**وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا**﴾ أي: وجنة أخرى دانية، على أنهم وُعدوا جنتين، كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ﴿**وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ١٤**﴾ وتذليلُ القطوف أن تُجعل سهلة التناول، لا تمتنع على قطافها كيف شاؤوا.

(١٥) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: أباريق لا عروة لها (أي: لا مقبض لها) ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ١٥﴾.

(١٦) ﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها، وبياض الفضة ولِينها ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ١٦﴾ أي: قدَّروها في أنفسهم، فجاءت مقاديرها وأشكالها كما تمنَّوْه. أو قدَّروها بأعمالهم الصالحة، فجاءت على حسَبها.

(١٧) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧﴾ ما يشبه الزنجبيل في الطعم. وكانت العرب يستلذون الشراب الممزوج به.

(١٨) ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ١٨﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها.

(١٩) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ دائمون ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ١٩﴾ من صفاء ألوانهم وانبثاثهم (أي: انتشارهم وتفرُّقهم) في مجالسهم وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض.

(٢٠) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ معناه: أنَّ بصرك أينما وقع ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ٢٠﴾ واسعاً.

(٢١) ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ تعلوهم ثياب الحرير الخضر، ما رَقَّ منها وما غَلُظَ ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ ولا يخالفه قوله: ﴿أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] لإمكان الجمع والمعاقبة والتبعيض، فإن حليَّ أهل الجنة تختلف باختلاف أعمالهم، فلعله تعالى يفيض عليهم جزاء لما عملوه بأيديهم حلياً وأنواراً تتفاوت تفاوت الذهب والفضة ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ٢١﴾ يريد به نوعاً آخر يفوق على النوعين المتقدمين، ولذلك أسند سقيه إلى الله عز وجل، ووصفه بالطهورية، فإنه يطهِّر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ما سوى الحق جل وعلا، فيتجرد لمطالعة جماله ملتذاً بلقائه باقياً ببقائه، وهو منتهى درجات الصديقين، ولذلك ختم بها ثواب الأبرار.

(٢٢) ﴿إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي: قيل لهم ذلك، والإِشارةُ إلى ما عَدَّ من ثوابهم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ٢٢﴾ مجازىً عليه غير مضيَّع.

(٢٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ٢٣﴾ مفرَّقاً منجَّماً لحكمةٍ اقتضته.

(٢٤) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرك على كفار مكة وغيرهم ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ٢٤﴾ أي: كلَّ واحد؛ من مرتكب الإِثم الداعي لك إليه، ومن الغالي في الكفر الداعي لك إليه. وترتُّبُ النهي على الوصفين مشعرٌ بأنه لهما، وذلك يستدعي أن تكون المطاوعة في الإِثم والكفر محظوراً، فإن مطاوعتهما فيما ليس بإثم ولا كفر غير محظور.

(٢٥) ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٥﴾ ودَاومْ على ذكره. أو دُمْ على صلاة الفجر والظهر أو العصر، فإن الأصيل يتناول وقتيهما.

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾

٧٧ سُورَةُ المُرۡسَلَاتِ ٥٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

(٢٦) ﴿**وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ**﴾ وبعضَ الليل فصلِّ له تعالى. ولعل المراد به صلاة المغرب والعشاء، لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص ﴿**وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا** ﴿٢٦﴾﴾ وتهجَّدْ له طائفة طويلة من الليل.

(٢٧) ﴿**إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ**﴾ أمامهم. أو خلف ظهورهم ﴿**يَوۡمًا ثَقِيلًا** ﴿٢٧﴾﴾ شديداً.

(٢٨) ﴿**نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ**﴾ وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب ﴿**وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا** ﴿٢٨﴾﴾ وإذا شئنا أهلكناهم وبَدَّلنا أَمْثالَهُمْ في الخِلقة وشدَّةِ الأسر؛ يعني: النشأة الثانية. أو بدَّلنا غيرهم ممن يطيع.

(٢٩) ﴿**إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ**﴾ الإشارة إلى السورة، أو إلى الآيات القريبة، ﴿**فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا** ﴿٢٩﴾﴾ تقرَّب إليه بالطاعة.

(٣٠) ﴿**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ**﴾ وما تشاؤون ذلك إلا وقت أن يشاء الله تعالى مشيئتكم ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا**﴾ بما يستأهل كلُّ أحد ﴿**حَكِيمًا** ﴿٣٠﴾﴾ لا يشاء إلا ما تقتضيه حكمته جلَّ وعلا.

(٣١) ﴿**يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ**﴾ بالهداية والتوفيق للطاعة ﴿**وَٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ (أي: الكافرين) ﴿**أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا** ﴿٣١﴾﴾ (أي: مؤلماً فهم فيه خالدون أبد الآبدين [السراج المنير])

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الإنسان وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المرسلات

مكيَّة، وآيها خمسون آية

(١ـ٥) ﴿**وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا** ﴿١﴾ **فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا** ﴿٢﴾ **وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا** ﴿٣﴾ **فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا** ﴿٤﴾ **فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا** ﴿٥﴾﴾ أقسَمَ بطوائفَ من الملائكة أرسلهنَّ الله تعالى بأوامره متتابعة. فعصَفْنَ عصف الرياح في امتثال أمره، ونَشَرْنَ الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالجهل بما أَوْحَيْنَ من العلم، ففرقْنَ بين الحق

والباطل، فألقينَ إلى الأنبياء ذكراً. أو أقسَمَ بآيات القرآن المرسلة بكل عُرْف (أي: بكلِّ معروف) إلى محمد عليه الصلاة والسلام، فعصفنَ (أي: أذهبن) سائر الكتب والأديان بالنسخ، ونشرنَ آثار الهدى والحِكَمِ في الشرق والغرب، وفرقنَ بين الحق والباطل، فألقينَ ذكر الحق فيما بين العالَمين. أو أقسَمَ برياحِ عذابٍ أُرسِلن فعصفنَ، ورياحِ رحمةٍ نشرن السحاب في الجو، ففرقن فألقينَ ذكراً، أي: تسبَّبْنَ له، فإن العاقل إذا شاهد هبوبها وآثارها ذكرَ اللهَ تعالى وتذكَّر كمال قدرته.

(٦) ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ أي: عُذْراً للمحِقِّين، أَوْ نُذْراً للمبطلين.

(٧) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ جوابُ القسَم. ومعناه أن الذي توعدونه من مجيء القيامة كائنٌ لا محالة.

(٨) ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ مُحِقت. أو أُذهِب نورُها.

(٩) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ صدعت (أي: انشقَّت).

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾ كالحَبِّ يُنسف بالمنسف (أي: يطيَّر في الهواء ليتخلص من تِبنِه).

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١﴾ عُيِّنَ لها وقتُها الذي يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله، فإنه لا يتعين لهم قبله.

(١٢) ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢﴾ أي: يقال: لأيِّ يوم أُخِّرت.

(١٣) ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣﴾ بيانٌ ليوم التأجيل.

(١٤) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤﴾ ومن أين تعلم كُنْهه (أي: حقيقته) ولم ترَ مثله.

(١٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ أي: بذلك (والوَيْلُ: كلمة للدُّعاء بالهلاك والعذاب).

(١٦) ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾ كقوم نوح وعاد وثمود.

(١٧) ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧﴾ أي: ثُمَّ نحن نُتْبِعُهُمُ نظراءَهم؛ ككفار مكة.

(١٨) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨﴾ بكلِّ مَنْ أجرم.

(١٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾ بآيات الله تعالى وأنبيائه. فليس تكريراً، لأن الوَيْل الأوَّل لعذاب الآخرة وهذا للإهلاك في الدنيا.

أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾

(٢٠) ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾﴾ نطفة مذرة (أي: قذرة) ذليلة.

(٢١) ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ هو الرحم.

(٢٢) ﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾﴾ إلى مقدار معلوم من الوقت قدَّره الله تعالى للولادة.

(٢٣) ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ على ذلك ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ نحن.

(٢٤) ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بقدرتنا على ذلك، أو على الإعادة.

(٢٥) ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: كافتةً. اسمٌ لِما يكفت؛ أي: يَضُمُّ ويَجمع

(٢٦) ﴿أَحۡيَآءٗ﴾ أي: على ظهرها ﴿وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾﴾ في بطنها في القبور وغيرها.

(٢٧) ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ جبالاً ثوابت طوالاً ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾﴾ بخلق الأنهار والمنابع فيها.

(٢٨) ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ بأمثال هذه النعم.

(٢٩) ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي: يُقال لهم انطلقوا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ من العذاب.

(٣٠) ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ خصوصاً ﴿إِلَىٰ ظِلّٖ﴾ يعني ظلّ دخان جهنم ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾﴾ يتشعَّب لعِظمه، كما ترى الدخان العظيم يتفرَّق تفرُّق الذوائب (وهي شعر مقدَّم الرأس).

(٣١) ﴿لَّا ظَلِيلٖ﴾ تهكُّمٌ بهم (أي: هذا الظل لا يظلهم من حر الشمس) ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ وغيرُ مُغْنٍ عنهم من حر اللهب شيئاً.

(٣٢) ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: كلُّ شررة كَالْقَصْرِ في عِظَمها.

(٣٣) ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ﴾ جمع جمل ﴿صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾﴾ فإن الشرَرَ بما فيه من النارية يكون أصفر.

(٣٤ـ٣٥) ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: بما يستحق، فإن النطق بما لا ينفع كَلا نُطْقٍ. أو بشيء من فرط الدهشة والحيرة. وهذا في بعض المواقف.

(٣٦ـ٣٧) ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يدل على نفي الإذن والاعتذار ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

(٣٨) ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ﴾ بين المحقِّ والمُبطل ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ تقريرٌ وبيانٌ للفصل.

(٣٩) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩﴾ تقريعٌ لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا، وإظهارٌ لعجزهم.

(٤٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾ إذ لا حيلة لهم في التخلص من العذاب.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ أي: تكاثف أشجار إذ لا شمس يظل من حرّها ﴿وَعُيُونٍ ۝٤١﴾ أي: من ماء وعسل ولبن وخمر.

(٤٢) ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢﴾ مستقرُّون في أنواع الترفُّه.

(٤٣) ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ أي: مقولاً لهم ذلك.

(٤٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤﴾ في العقيدة.

(٤٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾ نمحّض لهم العذاب المخلَّد، ولخصومهم الثواب المؤبَّد.

(٤٦) ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾ أي: الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك، تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم المقيم.

(٤٧) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧﴾ حيث عرَّضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل.

(٤٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ أطيعوا واخضعوا. أو صلُّوا. أو اركعوا في الصلاة. وقيل: هو يوم القيامة، حين يُدعَون إلى السجود فلا يستطيعون ﴿لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨﴾ لا يمتثلون.

(٤٩ـ٥٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو معجزٌ في ذاته مشتمل على الحُجج الواضحة والمعاني الشريفة.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المرسلات

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ النَّبَإِ ٧٨ — ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النبأ

مكيَّة، وآيها أربعون آية

(١) ﴿**عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾**﴾ أصله «عن ما». والضمير لأهل مكة؛ كانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم. أو يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين عنه استهزاءً.

(٢) ﴿**عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾**﴾ أي: البعث.

(٣) ﴿**ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾**﴾ بالإقرار والإنكار.

(٤) ﴿**كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾**﴾ ردعٌ عن التساؤل، ووعيدٌ عليه.

(٥) ﴿**ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾**﴾ تكريرٌ للمبالغة. و«ثُمَّ» للإشعار بأن الوعيد الثاني أشدُّ. وقيل: الأول عند النزع، والثاني في القيامة، أو الأول للبعث والثاني للجزاء.

(٦) ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾**﴾ (أي: منخفضة مستوية).

(٧) ﴿**وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾**﴾ (للأرض لئلا تميد بكم) وهو تذكيرٌ ببعض ما عاينوا من عجائب صنعه الدالَّة على كمال قدرته جل وعلا، ليستدلُّوا بذلك على صحَّة البعث.

(٨) ﴿**وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾**﴾ ذكراً وأنثى.

(٩) ﴿**وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾**﴾ قَطْعاً عن الإحساس والحركة، استراحةً للقوى الحيوانية وإزاحة لكَلالِها (أي: إزالةً لِتعبها) أو موتاً، لأنه أحد التوفِّيَيْن.

(١٠) ﴿**وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾**﴾ غطاءً يستتر بظلمته من أراد الاختفاء (أقول: وهذا يشير إلى حديث رسول الله ﷺ: «أغلقوا الباب وأطفئوا السراج» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى]).

(١١) ﴿**وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾**﴾ وقتَ معاشٍ، تتقلَّبون فيه لتحصيل ما تعيشون به. أو حياةً تنبعثون فيها عن نومكم.

(١٢) ﴿**وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾**﴾ سبعَ سمواتٍ أقوياء محكمات، لا يؤثِّر فيها مرور الدهور.

(١٣) ﴿**وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾**﴾ متلألئاً وقَّاداً. أو بالغاً في الحرارة. والمراد الشمس.

(١٤) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ السحائب إذا أُعصرت؛ أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر ﴿مَآءً ثَجَّاجًا ١٤﴾ منصباً بكثرة.

(١٥) ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥﴾ ما يُقتات به، وما يُعتلف من التبن والحشيش.

(١٦) ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ١٦﴾ ملتفَّة بعضها ببعض.

(١٧) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ﴾ في علم الله تعالى، أو في حكمه ﴿مِيقَٰتًا ١٧﴾ حدّاً تُؤَقَّتُ به الدنيا وتنتهي عنده. أو حداً للخلائق ينتهون إليه (أقول: وهذا ليس في اللوح المحفوظ، لأنه لو كان في اللوح المحفوظ يطَّلع عليه الملائكة ويعرفون متى يوم القيامة، لكن تعيين يوم القيامة متعلق بعلم الله تعالى وحده، لا يطَّلع عليه نبيٌّ ولا ملَك).

(١٨) ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨﴾ جماعاتٍ، من القبور إلى المحشر.

(١٩) ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ وشُقَّتْ (أي: تصدَّعت) ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ١٩﴾ فصارت من كثرة الشقوق كأن الكلَّ أبواب. أو فصارت ذاتَ أبواب.

(٢٠) ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: في الهواء كالهباء (وهو الغبار الذي يُرى في شعاع الشمس) ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا ٢٠﴾ مثل سراب، إذ تُرى على صورة الجبال ولم تبقَ على حقيقتها لتفتُّت أجزائها وانبثاثها.

(٢١) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ٢١﴾ موضعَ رصدٍ، يَرصُد فيه خزَنَةُ النار الكفارَ، أو خزَنَةُ الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها (أي: من حرِّ جهنم) في مَجازهم عليها. أو مُجِدَّة (أي: مجتهدة) في ترصُّد الكفرة لئلا يَشُذَّ منها واحد.

(٢٢) ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ٢٢﴾ مرجِعاً ومأوى.

(٢٣) ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣﴾ دهوراً متتابعة.

(٢٤ـ٢٥) ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ٢٥﴾ احتَمَل أن يلبثوا فيها أحقاباً غير ذائقين إلا حميماً وغساقاً، ثم يُبْدَلون جنساً آخر من العذاب. والمراد بالبرد ما يروِّحهم وينفِّس عنهم حرَّ النار، أو النوم. وبالغسّاق ما يغسق ـ أي: يسيل ـ من صديدهم. وقيل: الزمهرير.

(٢٦) ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾ أي: جُوْزُوا بذلك جزاءً ذا وفاقٍ لأعمالهم.

(٢٧) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧﴾ بيانٌ لما وافَقَهُ هذا الجزاء.

(٢٨) ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ٢٨﴾ تكذيباً. وإنما أقيم مقام التكذيب؛ للدلالة على أنهم كَذَبوا في تكذيبهم. أو مقامَ المكاذَبة؛ فإنهم كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون كاذبين عندهم، فكان بينهم مكاذبة.

(٢٩) ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ٢٩﴾ فإن الإحصاء والكتابة يتشاركان في معنى الضبط. أو بمعنى: مكتوباً في اللوح، أو في صحف الحَفَظَة.

(٣٠) ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ وهو مسبَّبٌ عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ ٧٩ ٤٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾

(٣١) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ فوزاً. أو موضعَ فوزٍ (أقول: بكلِّ محبوبٍ فوزاً و ظَفَراً).

(٣٢) ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة.

(٣٣) ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ (هنَّ نساء الجنة، فتيات ناهدات مستويات الأعمار).

(٣٤) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ ملآناً.

(٣٥) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: كذباً أو مكاذبة، إذ لا يكذب بعضهم بعضاً.

(٣٦) ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ بمقتضى وعده ﴿عَطَآءً﴾ تفضُّلاً منه، إذ لا يجب عليه شيء ﴿حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ كافياً. أو على حسب أعمالهم.

(٣٧) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: أهل السموات والأرض ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: لا يملكون خطابه والاعتراضَ عليه في ثواب أو عقاب، لأنهم مملوكون له على الإطلاق، فلا يستحقون عليه اعتراضاً، وذلك لا ينافي الشفاعةَ بإذنه.

(٣٨) ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ (أقول: أي: إلا من أذن الله تعالى له بالكلام والشفاعة، ونَطَقَ بالحق والصواب) فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله تعالى إذا لم يَقدِروا أن يتكلموا بما يكون صواباً - كالشفاعة لمن ارتضى - إلا بإذنه، فكيف يملكه غيرهم؟! والرُّوحُ: مَلَكٌ موكَّل على الأرواح. أو جبريل عليه السلام. أو خلقٌ أعظم من الملائكة عليهم السلام.

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ إلى ثوابه ﴿مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ بالإيمان والطاعة.

(٤٠) ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني عذابَ الآخرة. وقُرْبُهُ لتحقُّقِه، فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ. أو لأنَّ مبدأه الموت ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يرى ما قدَّمه من خير أو شر. والمرء عامٌّ، وقيل: هو الكافر ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ في الدنيا، فلم أُخلَق ولمْ أُكلَّف. أو في هذا اليوم، فلم أُبْعث. وقيل: يُحشر سائر الحيوانات للاقتصاص ثم تُردُّ تراباً، فيوَدُّ الكافرُ حالَها.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة النبأ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة النازعات

مكيَّة، وآيها ست وأربعون آية

(١_٥) ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ① وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ② وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ③ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ④ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ⑤﴾ هذه صفات ملائكة الموت، فإنهم ينزعون أرواح الكفار من أبدانهم غرقاً (أي: نزعاً شديداً مؤلماً)، فإنهم ينزعونها من أقاصي الأبدان (أي: من أناملها ومواضع أظفارها). أو ينزعون نفوساً غَرِقَةً في الأجساد. وينشطون أي: يخرجون أرواح المؤمنين برفقٍ. ويَسْبَحون في إخراجها سبحَ الغوَّاص الذي يُخرج الشيء من أعماق البحر، فيسبقون بأرواح الكفار إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنة، فيدبِّرون أمر عقابها وثوابها، بأن يهيِّئوها لإدراك ما أُعِدَّ لها من الآلام واللذات.

أو هذه صفات النفوس الفاضلة حال المفارقة، فإنها تُنزَع عن الأبدان غرقاً؛ أي نزعاً شديداً، فتنشط إلى عالم الملكوت، وتَسْبَح فيه، فتسبق إلى حظائر القدس، فتصير لشرفها وقوتها من المدبِّرات. أو حالَ سلوكِها، فإنها تنزع عن الشهوات، فتنشط إلى عالم القدس، وتسبح في مراتب الارتقاء، فتسبق إلى الكمالات، حتى تصير من المكمّلات. أو هذه صفات أنفُسِ الغُزاة، أو صفات خيلهم، أو صفات النجوم. أقسم الله تعالى بها على قيام الساعة، وإنما حُذف لدلالة ما بعده عليه.

(٦) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ⑥﴾ المراد بالرَّاجِفَةِ الأجرامُ الساكنة التي تشتد حركتها حينئذ؛ كالأرض والجبال، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ﴾ [المزمل: ١٤]. أو الواقعة التي ترجف الأجرامُ عندها؛ وهي النفخة الأولى.

(٧) ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ⑦﴾ التابعة. وهي السماء والكواكب تنشق وتنتشر. أو النفخة الثانية.

(٨) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑧﴾ شديدةُ الاضطراب.

(٩) ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ⑨﴾ أي: أبصارُ أصحابها ذليلةٌ من الخوف.

(١٠) ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ⑩﴾ يعنون الحياة بعد الموت.

(١١) ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ⑪﴾ بالية.

(١٢) ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ﴾ (أي: مَرَّة من الرجوع) ﴿خَاسِرَةٌ ⑫﴾ ذات خسران. أو خاسرٌ أصحابُها. والمعنى أنها إن صحَّت فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها، وهو استهزاء منهم.

(١٣) ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ⑬﴾ أي: لا تستصعبوها فما هي إلا صيحة واحدة؛ يعني النفخة الثانية.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ⑭﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها. والساهرةُ: الأرض البيضاء المستوية. وقيل: اسم لجهنم.

(١٥) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ⑮﴾ أليس قد أتاك حديثه عليه السلام، فيُسلِّيكَ على تكذيب قومك، ويُهدِّدهم عليه بأن يصيبهم مثل ما أصاب مَنْ هو أعظم منهم.

إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

(٨٠) سُورَةُ عَبَسَ (٤٢)

(١٦) ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ قد مرَّ بيانه في سورة «طه» عند قوله تعالى: ﴿فلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [آية: ١١-١٢].

(١٧) ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ على إرادة القول.

(١٨) ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ هل لك ميلٌ إلى أن تتطهَّر من الكفر والطغيان.

(١٩) ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأُرشِدك إلى معرفته ﴿فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ بأداء الواجبات وترك المحرمات، إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة.

(٢٠) ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي: فذَهَبَ وبلَّغ فأراه المعجزة الكبرى؛ وهي قلبُ العصا حيَّة، فإنه كان المقدَّمَ والأصلَ. أو مجموع معجزاته فإنها باعتبار دلالتها كالآية الواحدة.

(٢١) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ فكذَّب [فرعونُ] موسى عليه الصلاة والسلام، وعصى اللهَ عز وجل بعد ظهور الآية وتحقُّقِ الأمر.

(٢٢) ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ﴾ عن الطاعة ﴿يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ ساعياً في إبطال أمره. أو أدبر بعد ما رأى الثعبان مرعوباً مسرعاً في مشيه.

(٢٣) ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع السحَرَةَ أو جنوده ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ في المجمع، بنفسه أو بمناد.

(٢٤) ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أعلى كل مَنْ يلي أمركم.

(٢٥) ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ أخذاً منكّلاً لمن رآه أو سمعه، في الآخرة بالإحراق وفي الدنيا بالإغراق (والنكال: العقوبة). أو على كلمته الآخرة وهي هذه، وكلمتِه الأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

(٢٦) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ لمن كان من شأنه الخشية.

(٢٧) ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ أصعب خلقاً ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾ ثم بيَّن كيف خلقَها فقال تعالى: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾. ثم بيَّن البناء فقال تعالى:

(٢٨) ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾ أي: جعلَ مقدار ارتفاعها من الأرض، أو ثخنها الذاهب في العلوِّ رفيعاً ﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ فعدَّلها. أو فجعلها مستوية. أو فتمَّمها بما يتمُّ به كمالها من الكواكب والتداوير وغيرهما.

(٢٩) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلَمَهُ ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾ وأبرَزَ ضوءَ شمسها، يريد النهار.

(٣٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ بسَطها. أو مهَّدها للسكنى.

(٣١) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير العيون ﴿وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾ ورِعْيها (أو كلأَها).

(٣٢) ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ أثبتها.

(٣٣) ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَ لِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ تمتيعاً لكم ولمواشيكم.

(٣٤) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾ الداهية التي تطمُّ – أي: تعلو – على سائر الدواهي (أي: الأمور العظام) ﴿ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾ التي هي أكبر الطامّات؛ وهي القيامة، أو النفخة الثانية، أو الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾ بأنْ يراه مدوَّناً في صحيفته، وكان قد نسيه من فرط الغفلة أو طول المدة.

(٣٦) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ وأُظهرت ﴿لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦﴾ لكلِّ راءٍ، بحيث لا تخفى على أحد.

(٣٧) ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾ حتى كفر.

(٣٨) ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨﴾ فانهمك فيها ولم يستعدَّ للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس.

(٣٩) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ هي مأواه (أقول: تهذيب النفس لا يكون إلا بالشريعة والسنة النبوية، وبكثرة الذكر، تحت مراقبة المأذون بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ).

(٤٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ مقامه بين يدي ربه، لعلمه بالمبدأ والمعاد ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ لعلمه بأنه مُرْدٍ (أي: مُهلِك).

(٤١) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ ليس له سواها مأوى.

(٤٢) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢﴾ متى إرسَاؤُهَا؟ أي: إقامتها وإثباتها. أو منتهاها ومستقرها.

(٤٣) ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣﴾ في أيِّ شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم؟ أي: ما أنت من ذكرها لهم وتبيين وقتها في شيء، فإن ذكرَها لا يزيدهم إلا غيّاً. ووقتُها مما استأثره الله تعالى بعلمه. وقيل ﴿فِيمَ﴾ إنكارٌ لسؤالهم، و﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ مستأنَفٌ. ومعناه: أنت ذِكْرٌ من ذكرها؛ أي: علامة من أشراطها، فإن إرساله عليه الصلاة والسلام خاتماً للأنبياء أمارةٌ من أماراتها. وقيل: إنه متصل بسؤالهم، والجواب:

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ أي: منتهى علمها.

(٤٥) ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ إنما بُعثتَ لإنذار من يخاف هَوْلَهَا، وهو لا يناسب تعيين الوقت. وتخصيصُ مَنْ يخشى لأنه المنتفِع به.

(٤٦) ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا، أو في القبور ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ أي: عشية يوم أو ضحاه.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة النازعات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة عبس

مكيَّة، وآيها ثنتان وأربعون آية

(١-٢) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ روي أن ابن أم مكتوم أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش (أي: سادتهم) يدعوهم إلى الإسلام، فقال: يا رسول الله! علمني مما علمك الله، وكرَّر ذلك، ولم يعلم تشاغله بالقوم، فكرِهَ رسولُ الله ﷺ قطعَه لكلامه، وعبَسَ وأعرض عنه، فنزلت. فكان رسول الله ﷺ يُكرِمه ويقول إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي. واستخلفه على المدينة مرتين [أخرجه أبو داود رحمه الله تعالى].

(٣) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ أي: وأيُّ شيء يجعلك دارياً (أي: عالماً) بحاله، لعله يتطهَّر من الآثام بما يتلقَّف منك (أي: من رسول الله عليه الصلاة والسلام). وفيه إيماءٌ بأن إعراضه كان لتزكية غيره.

(٤) ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ أو يتَّعظُ فتنفعه موعظتك. وقيل: الضمير في لَعَلَّهُ للكافر؛ أي: إنك طمعتَ في تزكِّيه بالإسلام وتذكُّره بالموعظة ولذلك أعرضت عن غيره، فما يدريك أنَّ ما طمعتَ فيه كائن؟

(٥-٦) ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ تتعرَّض له بالإِقبال عليه. وأصله تتصدى.

(٧) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم، إنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ يسرعُ طالباً للخير.

(٩) ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ الله تعالى. أو أذيَّة الكفار في إتيانك. أو كبوَة الطريق (أي: السقوط فيه إذا عثر) لأنه أعمى لا قائد له.

(١٠) ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ تتشاغل.

(١١) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن المعاتَبِ عليه، أو عن معاودة مثله ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ (أي: موعظة).

(١٢) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ حفظَهُ، أو اتَّعظ به. والضميران للقرآن أو العتاب المذكور.

(١٣) ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾ عند الله تعالى.

(١٤) ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ مرفوعةِ القدر ﴿مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ منزَّهة عن أيدي الشياطين.

(١٥) ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ كتبَةٍ من الملائكة أو الأنبياء، ينسَخون الكتب من اللوح أو الوحي. أو سفراء يُسفرون بالوحي بين الله تعالى ورسله أو الأمة.

(١٦) ﴿كِرَامٍ﴾ أعزاء على الله تعالى. أو متعطفين على المؤمنين يكلِّمونهم ويستغفرون لهم ﴿بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أتقياء (أقول: هذا الكلام مع المؤمنين ليس عاماً، بل هو خاص بمن أراد الله تعالى من عباده أن تتكلم معه الملائكة، وهذا من الأسرار التي لا يباح بها. أما استغفار الملائكة فهو عامٌّ للمؤمنين).

(١٧) ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾ دعاءٌ عليه بأشنع الدعوات، وتعجُّبٌ من إفراطه في الكفران. وهو مع قصره يدل على سخط عظيم وذمٍّ بليغ.

(١٨) ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾﴾ بيانٌ لما أنعم عليه، خصوصاً من مبدأ حدوثه. والاستفهامُ للتحقير ولذلك أجاب عنه بقوله تعالى:

(١٩) ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾ فهيأه لما يصلح له من الأعضاء والأشكال. أو فَقَدَّرَهُ أطواراً إلى أن أتمَّ خِلقته.

(٢٠) ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾ ثم سهَّل مخرجه من بطن أمه، بأن فتح فويهة (أي: فم) الرحم، وألهمه أن ينتكس (أي: ينقلب عن الهيئة التي كان عليها في بطن أمه) أو ذلَّل له سبيل الخير والشر؛ وفيه على المعنى الأخير إيماءٌ بأن الدنيا طريقٌ والمقصدَ غيرُها، ولذلك عقَّبه بقوله تعالى:

(٢١ـ٢٢) ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ وعدَّ الإماتة والإقبار في النعم، لأن الإماتة وصْلةٌ في الجملة إلى الحياة الأبدية واللذات الخالصة (أقول: الموت جسر بين العبد وربه جل وعلا)، والأمرَ بالقبر تكرمةٌ وصيانة عن السباع. وفي ﴿إِذَا شَاءَ﴾ إشعارٌ بأن وقت النشور غير متعيِّن في نفسه، وإنما هو موكول إلى مشيئته تعالى.

(٢٣) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان عما هو عليه ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾﴾ لم يقضِ بعدُ من لدُنْ آدم عليه السلام إلى هذه الغاية ما أمره الله تعالى بأسره، إذ لا يخلو أحد من تقصيرٍ ما (أقول: أي مهما علت رتبته؛ سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم معصومون بعصمة الله تعالى لهم).

(٢٤) ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾﴾ إتْباع للنعم الذاتية بالنعم الخارجية.

(٢٥) ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ استئنافٌ مبيِّن لكيفية إحداث الطعام.

(٢٦) ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ أي: بالنبات أو بالكراب (أي: بقلب الأرض للحرث). وأسند الشقَّ إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب.

(٢٧) ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ كالحنطة والشعير.

(٢٨) ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨﴾ يعني الرطبة. سُمِّيت بمصدر قَضَبَهُ إذا قطعَهُ، لأنها تُقضَبُ مرَّة بعد أخرى.

(٢٩ـ٣٠) ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾ عِظاماً. وَصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة أشجارها، أو لأنها ذات أشجار غلاظ.

(٣١) ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ أي: ومرعى. أو فاكهة يابسة تُؤَبُّ (أي: تُدَّخر) للشتاء.

(٣٢) ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ فإن الأنواع المذكورة بعضها طعام وبعضها علف.

(٣٣) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ أي: النفخة. وُصفتْ بها مجازاً لأن الناس يُصِخُّون لها (أي: يستمعون).

(٣٤ـ٣٦) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ لاشتغاله بشأنه وعلمه بأنهم لا ينفعونه. أو للحذر من مطالبتهم بما قصَّر في حقهم (في الدنيا). وتأخيرُ الأحبِّ فالأحبِّ للمبالغة، كأنه قيل: يفرُّ من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه.

(٣٧) ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ يكفيه في الاهتمام به.

(٣٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ مضيئةٌ.

(٣٩) ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ بما ترى من النعيم.

(٤٠) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠﴾ غبارٌ وكُدورة.

(٤١) ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ يَغشاها سوادٌ وظُلمة.

(٤٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ الذين جمعوا إلى الكفرِ الفجورَ، فلذلك يجمع إلى سواد وجوههم الغبرةَ.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة عبس
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة التكوير

مكيَّة، وآيها تسع وعشرون آية

(٨١) سُورَةُ التَّكْوِيرِ (٢٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

(٨٢) سُورَةُ الانفِطَارِ (١٩)

(١) ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ لُفَّتْ. مِنْ كوَّرت العمامة إذا لففتها، بمعنى رُفِعتْ، لأن الثوب إذا أريد رفعُه لُفَّ. أو لُفَّ ضوؤها فذهب انبساطه في الآفاق وزال أثره. أو أُلقيتْ عن فَلَكها.

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ انقضتْ، أو أظلمتْ.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ عن وجه الأرض، أو في الجو.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ النوق اللواتي أتى على حملهنَّ عشرة أشهر. جمع عشراء ﴿عُطِّلَتْ﴾ تُركتْ مهملة. أو السحائب عُطِّلتْ عن المطر.

(٥) ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ جُمِعتْ من كل جانب. أو بُعثتْ للقصاص ثمَّ رُدَّت تراباً. أو أُميتَتْ.

(٦) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ أُحميَتْ. أو مُلئتْ بتفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً.

(٧) ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ قُرِنَتْ بالأبدان. أو قُرنت كلٌّ منها بشكلها أو بكتابها وعملها. أو قُرنتْ نفوس المؤمنين بالحور، ونفوس الكافرين بالشياطين.

(٨) ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ المدفونةُ حيَّةً. وكانت العرب تَئِدُ البنات مخافةَ الإِملاق (أي: الفقر) أو لحوق العار بهم من أجلهنَّ ﴿سُئِلَتْ ۝٨﴾.

(٩) ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ تبكيتاً (أي: تقريعاً) لوائِدها.

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ يعني صحف الأعمال، فإنها تُطوى عند الموت وتُنشر وقت الحساب. وقيل: ﴿نُشِرَتْ﴾ فُرِّقتْ بين أصحابها.

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ قُلِعتْ وأُزيلتْ، كما يُكشط الإِهاب (أي: الجلد) عن الذبيحة.

(١٢) ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾ أُوقدت إيقاداً شديداً.

(١٣) ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ قُرِّبت من المؤمنين

(١٤) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ جوابُ إِذَا. وإنما صحَّ - والمذكورُ في سياقها اثنتا عشرة خصلة؛ ستٌّ منها في مبادئ قيام الساعة قبل فناء الدنيا وستٌّ بعده - لأن المراد زمانٌ متسِّعٌ شامل لها ولمجازاة النفوس على أعمالها.

(١٥) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ بالكواكب الرواجع. وهي ما سوى النيِّرين (أي: الشمس والقمر) من الكواكب السيارات.

(١٦) ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ أي: السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس.

(١٧) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ أقبلَ ظلامه، أو أدبر.

(١٨) ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أي: أضاء غبرَته عند إقبال روحٍ ونسيم (الروْح: الاستراحة. والنسيم: الريح الطيبة).

(١٩) ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ يعني جبريل عليه السلام، فإنه قاله عن الله تعالى.

(٢٠) ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥] ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ عند الله جلَّ وعلا ذي مكانة.

(٢١) ﴿مُّطَاعٍ﴾ في ملائكته ﴿ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ على الوحي.

(٢٢) ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ كما تبهَتُهُ (أي: تفتريه) الكفرة. استدَلَّ بذلك بعضهم على فضل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ، حيث عدَّ فضائل جبريل عليه السلام واقتصر على نفي الجنون عن النبيّ ﷺ وهو ضعيف؛ إذ المقصود منه نفي قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقولهم: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨]، وقولهم: ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨] لا تعديد فضله والموازنة بينهما (قال شيخ زاده رحمه الله تعالى في حاشيته: قوله: «وهو ضعيف» يعني أنما ذكره المستدل إنما يدل على مقصوده أن لو كان المقصود من سوق الآية تعداد خصالهما الشريفة وبيان أن من ازدادت خصاله الشريفة فهو أفضل، وليس كذلك بل المقصود إثبات أن القرآن لا سيما هذه السور المصدرة بما يدل على مقدمات القيامة وأهوالها وحي إلهي نزل به الملك المقرب عند ذي العرش نفياً لقول الكفرة إنما يعلمه بشر وإنه لمجنون، وترغيباً للسامعين في استماع القرآن وتصديق جميع ما ذكر فيه. وهذا المقصود يستدعي أن يوصف الملك المتوسط بين يدي الله تعالى ورسوله ﷺ بما وصف به من صفات الشرف والقربة، وذلك لايستلزم كونه أفضل من رسل البشر، بل الظاهر أن وصف جبريل عليه السلام وبما هو أزيد منها وأفضل مما يدلُّ على شرف رسول الله ﷺ بالنسبة إليه؛ من حيث إن جبريل عليه السلام مع اتصافه بهذه المناقب والفضائل الشريفة مبلِّغ الرسالة إليه، فأي مرتبة أعلى من مرتبته بعدما ثبت أن السفير بينه وبين ذي العرش مثل هذا الملك المقرَّب؟!).

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ ولقد رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه السلام ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ بمطلع الشمس الأعلى.

(٢٤) ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما محمد عليه الصلاة والسلام ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ على ما يخبره من الموحى إليه وغيره من الغيوب ﴿بِضَنِينٍ ۝﴾ من الضَّنِّ وهو البخل؛ أي: لا يبخل بالتبليغ والتعليم.

(٢٥) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝﴾ بقولِ بعض المسترِقَة للسمع (الذين يسمعون من الملائكة). وهو نفيٌ لقولهم: إنه لكهانة وسحر.

(٢٦) ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝﴾ استضلالٌ لهم فيما يسلكونه في أمر الرسول ﷺ والقرآن.

(٢٧ـ٢٨) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝﴾ بتحرِّي الحقِّ وملازمة الصواب.

(٢٩) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامة يامن يشاؤها ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا وقتَ أن يشاء الله تعالى مشيئتكم، فله الفضل والحق عليكم باستقامتكم ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ مالِكُ الخلقِ كلِّه.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة التكوير

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

(٨٣) سُورَةُ المُطَفِّفِينَ (٣٦)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الانفطار

مكيَّة، وآيها تسع عشرة آية

(١) ﴿**إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١**﴾ انشقَّتْ.

(٢) ﴿**وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢**﴾ تساقطت متفرِّقةً.

(٣) ﴿**وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣**﴾ فُتِحَ بعضها إلى بعض فصار الكلُّ بحراً واحداً.

(٤) ﴿**وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤**﴾ قُلبَ ترابها وأُخرِج موتاها.

(٥) ﴿**عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ**﴾ من عمل، أو صدقة ﴿**وَأَخَّرَتۡ ٥**﴾ من سنَّة (أي: ما سنَّ عملَهُ للناس من حسنةٍ أو سيئة)، أو تَرِكَةٍ (بمعنى متروك، أي: تركة الميت). ويجوز أن يُراد بالتأخيرِ التضييعُ. وهو جواب إذا.

(٦) ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦**﴾ أيُّ شيء خدعَك وجرَّأك على عصيانه؟ وذكر الْكَرِيمِ للمبالغة في المنع عن الاغترار، فإن محضَ الكرم لا يقتضي إهمال الظالم وتسوية المُوالي والمعادي والمطيع والعاصي، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام والإشعار بما به يغرُّه الشيطان؟ فإنه يقول له: افعل ما شئتَ فربُّك كريم لا يعذب أحداً ولا يعاجل بالعقوبة. والدلالة على أن كثرة كرمه تستدعي الجِدَّ في طاعته لا الانهماك في عصيانه اغتراراً بكرمه جلَّ وعلا.

(٧) ﴿**ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧**﴾ صفةٌ ثانية مقرِّرة للربوبية، مبيِّنة للكرم، منبِّهة على أن من قَدِرَ على ذلك أوَّلاً قَدِرَ عليه ثانياً. والتسويةُ: جعلُ الأعضاء سليمةً مسوَّاة مُعَدَّة لمنافعها، «فَعَدَلَكَ» أي: عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت. أو فصرَفك عن خِلقة غيرك وميَّزك بخلقة فارقَتْ خِلقة سائر الحيوان.

(٨) ﴿**فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨**﴾ أي: ركَّبك في أيِّ صورة شاءها.

(٩) ﴿**كَلَّا**﴾ ردعٌ عن الاغترار بكرم الله تعالى. وقولُهُ تعالى: ﴿**بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩**﴾ إضرابٌ إلى بيان ما هو السبب الأصلي في اغترارهم. والمراد بِالدِّينِ: الجزاءُ أو الإِسلام.

(١٠ـ١٢) ﴿**وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢**﴾ تحقيق لما يكذِّبون به وردٌّ لما يتوقعون من التسامح والإهمال. وتعظيمُ الكتبةِ بكونهم كراماً عند الله تعالى لِتعظيم الجزاء.

(١٣ـ١٤) ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤﴾ بيانٌ لما يَكتبون لأجله.

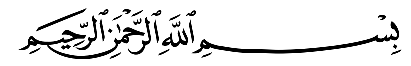
(١٥) ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ يقاسون حرَّها ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾.

(١٦) ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾ لخلودهم فيها. وقيل: معناه: وما يغيبون عنها قبل ذلك، إذ كانوا يجدون سَمومها (أي: حرَّها الشديد) في القبور.

(١٧ـ١٨) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ تعجيبٌ وتفخيمٌ لشأن اليَوْم؛ أي: كنه أمره، بحيث لا تدركه درايةُ دارٍ (أقول: وفيه إشارة إلى أنه ﷺ لم يكن عالماً بذلك قبل الوحي).

(١٩) ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ تقريرٌ لشدة هوله وفخامة (أي: تعظيم) أمره إجمالاً.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الانفطار وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين



سورة المطففين

مختلف فيها، وآيها ست وثلاثون آية

(١) ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ التطفيف: البَخس في الكيل والوزن، لأنَّ ما يُبخس طفيفٌ؛ أي: حقير.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾ أي: إذا اكتالوا من الناس حقوقهم يأخذونها وافية.

(٣) ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ أي: إذا كالوا الناسَ أو وزنوا لهم ﴿يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ (أي: يُنقصون).

(٤) ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤﴾ فإن من ظنَّ ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن تيقَّنه؟ وفيه انكارٌ وتعجيبٌ من حالهم.

(٥) ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥﴾ عِظَمُه لِعِظَمِ ما يكون فيه.

(٦) ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ لِحُكمه. وفي هذا الانكار والتعجيب وذكر الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله تعالى والتعبير عنه برب العالمين مبالغاتٌ في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه.

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

(٧) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ ما يُكتب من أعمالهم ﴿لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ كتاب جامع لأعمال الفَجَرة من الثقلَيْن، كما قال تعالى:

(٨ـ٩) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ أي: مسطور بَيِّن الكتابة، أو معلَّمٌ يعلم من رآه أنه لا خير فيه.

(١٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾ بالحقِّ أو بذلك.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾ صفةٌ مخصِّصة أو موضِّحة أو ذامَّة.

(١٢) ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ متجاوزٍ عن النظر، غالٍ في التقليد، حتى استقصر قدرة الله تعالى وعِلْمَه، فاستحال منه الإعادة ﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ منهمك في الشهوات المخدَّجة (أي: الناقصة) بحيث أشغلته عمّا وراءها، وحملته على الإنكار لما عدَاها.

(١٣) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ مِنْ فرط جهله وإعراضه عن الحق، فلا تنفعه شواهد النقل كما لم تنفعه دلائل العقل.

(١٤) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن هذا القول ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ردٌّ لِما قالوه، وبيانٌ لِما أدَّى بهم إلى هذا القول، بأن غلب عليهم حبُّ المعاصي بالانهماك فيها حتى صار ذلك صدأً على قلوبهم، فعمَّى عليهم معرفة الحق والباطل. فإن كثرة الأفعال سببٌ لحصول الملَكات، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن العبد كلما أذنب ذنباً حصل في قلبه نكتة سوداء حتى يسودَّ قلبه» [أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. والرين: الصدأ.

(١٥) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن الكسب الرائن ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ فلا يرونه، بخلاف المؤمنين.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ ليدخلون النار ويُصْلَوْن (أي: يحترقون) بها.

(١٧) ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ تقوله لهم الزبانية.

(١٨) ﴿كَلَّآ﴾ تكرير ليعقِّبَ بوعد الأبرار كما عقَّبَ الأوَّلَ بوعيد الفجار، إشعاراً بأن التطفيف فجورٌ والإيفاءَ بِرٌّ، أو ردعٌ عن التكذيب ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ (ما كُتب من أعمالهم [النسفي]) ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾.

(١٩ـ٢٠) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي: مسطور بيِّن الكتابة، دُوِّن فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين.

(٢١) ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ يحضرونه فيحفظونه، أو يشهدون على ما فيه يوم القيامة.

(٢٢-٢٣) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ على الأسرَّة في الحِجال (جمع حَجَلَة: وهي بيت العروس) ﴿يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إلى ما يسرُّهم من النعم والمتفرَّجات.

(٢٤) ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ بهجةَ التنعُّم وبريقَه.

(٢٥) ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ شراب خالص ﴿مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾.

(٢٦) ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي: مختوم أوانيه بالمسك مكان الطين. ولعله تمثيلٌ لنفاسته. أو الذي له ختام، أي: مقطع، هو رائحة المسك ﴿وَفِى ذَٰلِكَ﴾ يعني الرحيق أو النعيم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فليرتغب المرتغبون؛ أي يجتهد كلُّ واحد بالرغبة فيه.

(٢٧) ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ عَلَمٌ لعينٍ بعينها، سُمِّيت تسنيماً لارتفاع مكانها أو رفعة شرابها.

(٢٨) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فإنهم يشربونها صرفاً، لأنهم لم يشتغلوا بغير الله تعالى، وتمزج لسائر أهل الجنة.

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ يعني رؤساء قريش ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ كانوا يستهزئون بفقراء المؤمنين.

(٣٠) ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم.

(٣١) ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ متلذّذين بالسخرية منهم.

(٣٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ وإذا رأوا المؤمنين نسبوهم إلى الضلال.

(٣٣) ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ يحفظون عليهم أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم.

(٣٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ حين يرونهم أذلَّاء مغلوبين في النار. وقيل: يُفتَح لهم باب إلى الجنة، فيقال لهم: اخرجوا إليها، فَإِذَا وصلوا إليه أُغلق دونهم، فيضحك المؤمنون منهم.

عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ الانشِقَاقِ ٨٤ ٢٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

(٣٥) ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

(٣٦) ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ أي: هل أُثيبوا ﴿مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المطففين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الانشقاق

مكيَّة، وآيها خمس وعشرون آية

(١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾﴾ بالغمام، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ﴾ [الفرقان: ٢٥]. وعن علي رضي الله تعالى عنه: تنشق من المَجرَّة (وهي مجمُوعة كبيرةٌ من الأجرام السماوية تتراءى من الأرض كوشاح أبيض يعترض السماء).

(٢) ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ واستمعت له؛ أي: انقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها انقيادَ المطواعِ الذي يأذنُ للآمر ويذعنُ (أي: ينقاد) له ﴿وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾﴾ أي: وجُعِلت حقيقةً (أي: جديرةً) بالاستماع والانقياد.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾﴾ بُسِطت؛ بأن تُزال جبالها وآكامها (أي: تلالها).

(٤) ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ ما في جوفها من الكنوز والأموات ﴿وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾﴾ وتكلَّفت في الخلوِّ أقصى جهدها، حتى لم يبقَ شيء في باطنها.

(٥) ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلي ﴿وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾﴾ للإذن.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ والكدحُ إليه: السعيُ إلى لقاء جزائه.

(٧ـ٨) ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾﴾ سهلاً لا يناقَش فيه.

(٩) ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾﴾ إلى عشيرته المؤمنين، أو فريقِ المؤمنين، أو أَهْلِهِ في الجنة من الحور.

(١٠) ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ أي: يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. قيل: تُغَلُّ يُمناه إلى عنقه، وتُجعل يُسراه وراء ظهره.

(١١) ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾﴾ يتمنى الثبور، ويقول: يا ثبوراه؛ وهو الهلاك.

(١٢) ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ (أي: يدخل نار جهنم).

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿مَسۡرُورًا ١٣﴾ بَطِراً بالمال والجاه، فارغاً عن الآخرة.

(١٤) ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾ لن يرجع إلى الله تعالى.

(١٥) ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ إيجابٌ لما بعد «لَنْ» ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ١٥﴾ عالماً بأعماله؛ فلا يهمله بل يُرجِعه ويُجازيه.

(١٦) ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾ الحُمْرة التي تُرى في أفق المغرب بعد الغروب. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: أنه البياض الذي يليها.

(١٧) ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ وما جَمَعَهُ وسترَهُ من الدواب وغيرها.

(١٨) ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ اجتمعَ وتمَّ بدراً.

(١٩) ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ حالاً بعد حالٍ مطابقة لأختها في الشدة، أو مراتب من الشدة بعد المراتب؛ هي الموت ومواطن القيامة وأهوالها، أو هي وما قبلها من الدواهي.

(٢٠) ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ بيوم القيامة.

(٢١) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ٢١﴾ لا يخضعون، أو لَا يَسْجُدُونَ لتلاوته. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سجد فيها وقال: واللهِ ما سجدتُ فيها إلا بعد أن رأيتُ رسول الله ﷺ يسجد فيها [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى].

(٢٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾ أي: بالقرآن.

(٢٣) ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾ بما يُضمرون في صدورهم من الكفر والعداوة.

(٢٤) ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾ استهزاء بهم.

(٢٥) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المراد من تاب وآمن منهم ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾ غير مقطوع. أو غير مَمْنُونٍ به عليهم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الانشقاق

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

٨٥ سُورَةُ البُرُوجِ ٢٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

٨٦ سُورَةُ الطَّارِقِ ١٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة البروج

مكيَّة، وآيها ثنتان وعشرون آية

(١) ﴿**وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ①**﴾ يعني البروجَ الاثني عشر. شُبِّهت بالقصور لأنها تنزلها السيارات (أي: الأجرام السماوية) وتكون فيها الثوابت. أو منازل القمرِ أو عِظامِ الكواكب؛ سُمِّيت بروجاً لظهورها. أو أبواب السماء؛ فإن النوازل تخرج منها.

(٢) ﴿**وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ②**﴾ يوم القيامة.

(٣) ﴿**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③**﴾ ومن يشهد في ذلك اليوم من الخلائق، وما أُحضِر فيه من العجائب. أو النبي عليه الصلاة والسلام وأمته. أو أمته وسائر الأمم. أو كل نبي وأمته. أو الخالق والخلق. أو عكسه فإن الخالق سبحانه وتعالى مطَّلع على خلقه وهو شاهد على وجوده. أو المَلَك الحفيظ والمكلَّف. أو يوم النحر أو عرفة والحجيج. أو يوم الجمعة والجمع فإنه يشهد له. أو كل يوم وأهله.

(٤) ﴿**قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ④**﴾ قيل: إنه جواب القسَم. والأظهرُ أنه دليل جواب محذوف؛ كأنه قيل: إنهم ملعونون - يعني كفار مكة - كما لُعِنَ أصحاب الأخدود، فإن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على مَنْ قبلهم. والأخدود: الخدُّ، وهو الشق في الأرض. روي مرفوعاً: أن مَلِكاً كان له ساحر، فلما كبُر ضمَّ إليه غلاماً ليعلِّمه السحر، وكان في طريقه راهبٌ فمال قلبه إليه، فرأى في طريقه ذات يوم حيَّةً قد حبست الناس، فأخذ حجراً وقال: اللَّهم إن كان الراهب أحبَّ إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها، وكان الغلام بعدُ يُبرئ الأكمهَ والأبرص ويشفي من الأدواء (بإذن الله تعالى)، وعَمي جليس الملك فأبرأه، فسأله الملك عمن أبرأه، فقال: ربي، فغضب فعذَّبه، فدلَّ على الغلام فعذَّبه، فدلَّ على الراهب فقدَّه (أي: شقَّه طولاً) بالمنشار، وأرسل الغلامَ إلى جبل ليُطرح من ذروته، فدعا فرجف بالقوم فهلكوا ونجا، وأجلسه في سفينة ليغرق فدعا فانكفأت (أي: انقلبت) السفينة بمن معه فغرقوا ونجا، فقال للملك: لستَ بقاتلي حتى تجمع الناس وتصلبني وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول: بسم الله ربِّ هذا الغلام، ثم ترميني به، فرماه فوقع في صدغه فمات، فآمن الناس بربِّ الغلام، فأمَرَ بأخاديد وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها،

حتى جاءت امرأة معها صبيٌّ فتقاعست (أي: تأخرت)، فقال الصبي: يا أمَّاه! اصبري فإنك على الحق، فاقتحمت [الحديث أخرجه مسلم رحمه الله تعالى بالمعنى].

(٥) ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ صفةٌ لها بالعَظَمة وكثرةِ ما يرتفع به لهبُها.

(٦) ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ على حافة النار ﴿قُعُودٌ ۝٦﴾ قاعدون.

(٧) ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ يشهد بعضهم لبعض عند المَلِك بأنهم لم يقصِّروا فيما أُمِروا به. أو يشهدون على ما يفعلون يوم القيامة حين تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم.

(٨) ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ﴾ وما أنكروا ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ ووصفهُ بكونه عزيزاً غالباً يُخشى عقابُه، حميداً منعماً يُرجى ثوابُه، وقرنَ ذلك بقوله تعالى:

(٩) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ للإشعار بما يستحق أن يُؤمَن به ويُعبَد.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بلوهم بالأذى ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾ العذاب الزائد في الإحراق بفتنتهم. وقيل: المراد بالَّذِينَ فَتَنُوا أَصْحابُ الْأُخْدُودِ خاصة، وبعَذابِ الْحَرِيقِ ما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم.

(١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾ إذ الدنيا وما فيها تصغر دونه.

(١٢) ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ مضاعَفٌ عُنفُه.

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ يُبْدِئُ الخلقَ ويعيده. أو يُبْدِئُ البطش بالكفرة في الدنيا، ويعيده في الآخرة.

(١٤) ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب ﴿ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ المحبُّ لمن أطاع.

(١٥) ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خالقُهُ. وقيل: المراد بالْعَرْشِ المُلْكُ ﴿ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ العظيمُ في ذاته وصفاته جلَّ وعلا، فإنه واجبُ الوجود، تامُّ القدرة والحكمة.

(١٦) ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ لا يمتنع عليه مرادٌ من أفعاله وأفعال غيره سبحانه وتعالى.

(١٧ـ١٨) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾ المراد بفِرْعَوْنَ هو وقومُه. والمعنى: قد عرفتَ تكذيبهم للرسل وما حاق بهم، فتسَلَّ واصبرْ على تكذيب قومك، وحذِّرْهم مثلَ ما أصابهم.

(١٩) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩﴾ لا يَرعَوون (أي: لا يمتنعون) عنه. ومعنى الإِضراب أن حالهم أعجبُ من حال هؤلاء، فإنهم سمعوا قصتهم، ورأوا آثار هلاكهم، وكذبوا أشد من تكذيبهم.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾ لا يفوتونه، كما لا يفوت المحاطُ المحيطَ.

(٢١) ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾ بل هذا الذي كذبوا به كتاب شريف وحيد في النظم والمعنى.

(٢٢) ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ من التحريف.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة البروج وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

(٨٧) سُورَةُ الأَعْلَى (١٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الطارق

مكيَّة، وآيها سبع عشرة آية

(١) ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾ والكوكبِ البادي بالليل.

(٢-٣) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ المضيءُ، كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه. أو الأفلاك. والمراد الجنس، أو معهودٌ بالثقب وهو زُحَل. عبَّر عنه أوَّلاً بوصفٍ عامٍّ ثم فسَّره بما يخصُّه تفخيماً لشأنه.

(٤) ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا﴾ أي: إن الشان كلُّ نفس لَعليها ﴿حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ رقيبٌ. والجملة جواب القسَم.

(٥) ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ لَمَّا ذكَرَ أن كلَّ نفس عليها حافظ أتبعَه توصيةَ الإنسان بالنظر في مبدئه لِيعلم صحةَ إعادته، فلا يملي على حافظه إلا ما يسُرُّه في عاقبته.

(٦) ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ جوابُ الاستفهام. و﴿مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ بمعنى ذي دفقٍ، وهو صَبٌّ فيه دفعٌ. والمراد الممتزج من الماءين في الرحم، لقوله تعالى:

(٧) ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة؛ وهي عظام صدرها.

(٨) ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ الضمير للخالق جل وعلا، ويدل عليه «خُلِقَ».

(٩) ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ تُتَعَرَّفُ ويُمَيَّز بين ما طاب من الضمائر وما خفي من الأعمال وما خبث منها.

(١٠) ﴿فَمَا لَهُ﴾ فما للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ من منَعَةٍ في نفسه يمتنع بها ﴿وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ يمنعه.

(١١) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ ترجع في كل دورة إلى الموضع الذي تتحرك عنه. وقيل: الرجعُ المطر، سُمِّي به لأن الله تعالى يُرجِعه وقتاً فوقتاً.

(١٢) ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ ما تتصدَّع عنه الأرض من النبات. أو الشق بالنبات والعيون.

(١٣) ﴿إِنَّهُ﴾ إن القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ فاصل بين الحق والباطل.

(١٤) ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ فإنه جِدٌّ كلُّه.

(١٥) ﴿إِنَّهُمۡ﴾ يعني أهل مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾ في إبطاله وإطفاء نوره.

(١٦) ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ وأُقابِلهم بكيد في استدراجي لهم وانتقامي منهم من حيث لا يحتسبون (أقول: الكيد لا يُنسَب إلى الله تعالى، ولكن قاله على سبيل المشاكلة والمقابلة).

(١٧) ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلا تشتغل بالانتقام منهم، أو لا تستعجل بإهلاكهم ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ إمهالاً يسيراً.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الطارق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأعلى

مكيَّة، وآيها تسع عشرة آية

(١) ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ نَزِّهِ اسمَه عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائغة، وإطلاقِهِ (أي: إطلاق اسمه جل وعلا) على غيره زاعماً أنهما فيه سواء، وذكرِهِ لا على وجه التعظيم. وفي الحديث: «لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] قال عليه الصلاة والسلام: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ قال عليه الصلاة والسلام: «اجعلوها في سجودكم» [رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى]. وكانوا يقولون في الركوع: اللهم لك ركعتُ، وفي السجود: اللهم لك سجدتُ.

(٢) ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢﴾ خلق كل شيء فسوَّى خَلقه بأن جعل له ما به يتأتَّى كَمالُهُ ويتمُّ معاشُه.

(٣) ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ﴾ أي: قدَّر أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها ﴿فَهَدَىٰ ٣﴾ فوجَّهَهُ إلى أفعاله طبعاً واختياراً، بخلق الميول والإلهامات ونصْبِ الدلائل وإنزال الآيات.

(٤) ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤﴾ أنبتَ ما ترعاه الدوابُّ.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد خُضرته ﴿غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥﴾ يابساً أسود.

(٦) ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ على لسان جبريل عليه السلام. أو سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ أصلاً من قوة الحفظ، مع أنك أُمِّيٌّ، ليكون ذلك آية أخرى لك. مع أن الإِخبار به عما يُستقبَل ووقوعه كذلك أيضاً من الآيات.

(٧) ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ نسيانَه؛ بأن نَسَخَ تلاوته. وقيل: أراد به القلةَ والندرة، لِما روي أنه عليه الصلاة والسلام: «أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أُبَيٌّ أنها نُسخت، فسأله فقال: نسيتُها» [رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى] (أقول: كلُّ ما نُسِخ من القرآن هو من فضل الله تعالى على عباده، لأنه جل وعلا نَسَخَ آيات فيها شدة وجعل مكانها آيات أسهل منها، كما ذكر الفخر الرازي رحمه الله تعالى). أو أراد به نفيَ النسيان رأساً، فإن القِلة

تُستعمل في النفي ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾ ما ظهر من أحوالكم وما بطن. أو جهرَكَ بالقراءة مع جبريل عليه السلام، وما دعاك إليه من مخافة النسيان، فيعلم ما فيه صلاحكم من إبقاءٍ وإنساءٍ.

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾ ونُعِدُّكَ للطريقة اليسرى في حفظ الوحي أو التدين، ونوفِّقُك لها

(٩) ﴿فَذَكِّرۡ﴾ بعد ما استتبَّ لك الأمر (أي: تهيأ واستقام) ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾ لعلَّ هذه الشرطية إنما جاءت بعد تكرير التذكير وحصول اليأس من البعض لئلا يُتعب نفسه ويتلهف عليهم، أو لِذمِّ المذكَّرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم، أو للإشعار بأن التذكير إنما يجب إذا ظُنَّ نفعه، ولذلك أُمِرَ بالإعراض عمن تولى (أقول: هذا لا يدلُّ على منع التذكير، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقال لمن يطبّق ولمن لا يطبِّق، وبذلك يخلص الإنسان من واجب التبليغ).

(١٠) ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠﴾ سيتعظ وينتفع بها من يخشى الله تعالى بأن يتأمل فيها فيعلم حقيقتها (أقول: وهو من له قلب حتى يخاف الله تعالى ويخشى عقابه ويعظم عظمته جلَّ جلاله).

(١١) ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويتجنب الذِّكْرى ﴿ٱلۡأَشۡقَى ۝١١﴾ الكافر، فإنه أشقى من الفاسق. أو الأشقى من الكفرة، لتوغُّله في الكفر.

(١٢) ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝١٢﴾ نارَ جهنم، فإنه عليه الصلاة والسلام قال: «ناركم هذه جزء من سبعين جزأ من نار جهنم» [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. أو ما في الدرك الأسفل منها.

(١٣)﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ ۝١٣﴾ حياة تنفعه.

(١٤) ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ تطهَّر من الكفر والمعصية. أو تكثَّر من التقوى. أو تطهَّر للصلاة. أو أدى الزكاة.

(١٥) ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبه ولسانه (أقول: وهذا صعب على الذاكرين، إلا من أخرج نفسه من بين قلبه وبين ربه جل وعلا، ويتعلق بربه جل وعلا وهو يذكره. وإلا قلَّ نفع الذكر) ﴿فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. ويجوز أن يراد بالذكر تكبيرةُ التحريم. وقيل: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ تصدَّق للفطر، ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ كبَّرَه يوم العيد ﴿فَصَلَّىٰ﴾ صلاتَه.

(١٦) ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦﴾ فلا تفعلون ما يُسعدكم في الآخرة. والخطاب للأشقين أو للكل، فإن السعي للدنيا أكثر في الجملة.

(١٧) ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ فإن نعيمها مُلِذٌّ بالذات، خالصٌ عن الغوائل (أي: الشرور والمضارّ)، لا انقطاع له.

(١٨) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨﴾ الإِشارة إلى ما سبق من ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ﴾ فإنه جامع أمر الديانة وخلاصة الكتب المنزلة.

(١٩) ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ (وهي: عشر صحف لإبراهيم، والتوراة لموسى عليهما الصلاة والسلام).

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الأعلى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩

سُورَةُ الغَاشِيَةِ ٨٨ — ٢٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الغاشية

مكيَّة، وهي ست وعشرون آية

(١) ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ الداهيةِ التي تَغشى الناس بشدائدها؛ يعني يوم القيامة، أو النار من قوله تعالى: ﴿وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

(٢) ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢﴾ ذليلة.

(٣) ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣﴾ تعمل ما تتعب فيه، كجرِّ السلاسل، وخوضها في النار خوض الإبل في الوحل (أي: الطين)، والصعود والهبوط في تلالها ووهادها (أي: مواطنها المرتفعة والمنخفضة). أو عملتْ ونصبتْ في أعمال لا تنفعها يومئذ.

(٤) ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا﴾ تدخلها ﴿حَامِيَةٗ ٤﴾ متناهية في الحر.

(٥) ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾ بلغتْ أناها (أي: غايتها) في الحر.

(٦) ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦﴾ يَبيس الشبرق؛ وهو شوك ترعاه الإِبل ما دام رطباً. وقيل: شجرة نارية تشبه الضريع، ولعله طعام هؤلاء، والزقوم والغسلين طعام غيرهم. أو المراد طعامهم ما تتحاماه

(أي: تتجنبه) الإبل وتعافه لضرِّه وعدم نفعه، كما قال تعالى:

(٧) ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ والمقصود من الطعام أحد الأمرين.

(٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ ذاتُ بهجة. أو متنعمة.

(٩) ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾ رضيتْ بعملها لمّا رأت ثوابه.

(١٠) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾ عليَّة المحل أو القَدْر.

(١١) ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب. أو الوجوه ﴿فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١﴾ لغواً. أو كلمة ذات لغو. أو نفساً تلغو. فإن كلام أهل الجنة الذكرُ والحِكَمُ.

(١٢) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾ يجري ماؤها ولا ينقطع.

(١٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣﴾ رفيعة السُّمك (أي: الارتفاع)، أو القَدْر.

(١٤) ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ وهي آنية لا عروة لها ﴿مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤﴾ بين أيديهم.

(١٥) ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد ﴿مَصْفُوفَةٌ ۝١٥﴾ بعضها إلى بعض.

(١٦) ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بُسط فاخرة ﴿مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ مبسوطة.

(١٧) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ نظرَ اعتبارٍ ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره، حيث خَلَقَها لجرِّ الأثقال إلى البلاد النائية (أي: البعيدة)، فجعلها عظيمة، باركة للحمل، ناهضة بالحمل، منقادة لمن اقتادها، طِوال الأعناق لتنوء بالأوقار (أي: لتنهض بالأحمال)، وترعى كل نابت، وتحتمل العطش إلى عشرٍ فصاعداً، ليتأتى لها قطع البوادي والمفاوز (أي: الصحارى)، مع مالَها من منافع أخرى، ولذلك خُصَّت بالذكر لبيان الآيات المنبثَّة في الحيوانات التي هي أشرف المَرْكبات وأكثرها صنعاً، ولأنها أعجب ما عند العرب من هذا النوع.

(١٨) ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾ بلا عَمَدٍ.

(١٩) ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩﴾ فهي راسخة لا تميل.

(٢٠) ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ بُسِطت حتى صارت مِهاداً. والمعنى أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى أنواع المخلوقات من البسائط والمَرْكبات ليتحققوا كمال قدرة الخالق سبحانه وتعالى، فلا ينكروا اقتداره على البعث. ولذلك عقَّب به أمر المَعاد ورتَّب عليه الأمرَ بالتذكير فقال تعالى:

(٢١) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾ فلا عليك إن لم ينظروا ولم يذكروا، إذ ما عليك إلا البلاغ.

(٢٢) ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ بمتسلِّط.

(٢٣) ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣﴾ لكن من تولى وكفر.

(٢٤) ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤﴾ يعني عذاب الآخرة.

(٢٥) ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ رجوعهم.

(٢٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ في المحشر.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الغاشية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الفَجْرِ ٨٩ ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾

سورة الفجر

مكيَّة، وآيها ثلاثون آية

(١) ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ أقسَمَ بالصبح أو فلَقِهِ، أو بصلاته.

(٢) ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ عشر ذي الحجة. ولذلك فُسِّر الْفَجْرُ بفجر عرفة، أو النحر. أو عشر رمضان الأخير.

(٣) ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ والأشياءِ كلِّها؛ شفعِها ووترِها. أو والخلقِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] والخالقِ لأنه فردٌ.

(٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ إذا يمضي. والتقييد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة. أو إذا يسري فيه.

(٥) ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ القسَم أو المُقسَم به ﴿قَسَمٌ﴾ حلف أو محلوف به ﴿لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ يعتبره ويؤكِّد به ما يريد تحقيقه. والحِجْرُ: العقلُ؛ سُمِّي به لأنه يحجر (أي: يمنع) عما لا ينبغي. والمقسَم عليه محذوف، وهو لنعذِّبنَّ، يدلُّ عليه قوله تعالى:

(٦) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ يعني أولادَ عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هود عليه السلام.

(٧) ﴿إِرَمَ﴾ أي: سِبْطُ إِرَمَ (أي: أحفاده). أو أَهْلُ إِرَمَ، إن صحَّ أنه إسم بلدتهم ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ ذات البناء الرفيع، أو القدود الطوال (أي: طوال القامات)، أو الرفعة والثبات. وقيل: كان لعادٍ ابنان: شداد وشديد، فمَلَكا وقَهَرا، ثم مات شديد فخلص الأمر لشداد وملك المعمورة ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة، فبنى على مثالها في بعض صحارى عَدَن جنةً وسمَّاها إِرَم، فلما تمَّت سار إليها بأهله، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبله فوقع عليها.

(٨) ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ صفة أخرى لـ ﴿إِرَمَ﴾ والضمير لها، سواء جُعلت اسم القبيلة أو البلدة.

(٩) ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ﴾ قَطعوه واتخذوه منازل، لقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً﴾ [الحجر: ١٤٩] ﴿بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾ وادي القرى.

(١٠) ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾ لكثرة جنوده ومضاربهم (أي: خيامهم) التي كانوا يضربونها إذا نزلوا. أو لتعذيبه بالأوتاد.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١﴾ صفةٌ للمذكورين؛ عادٍ وَثَمُودَ وَفِرْعَوْنَ. أو ذمٌّ.

(١٢) ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾ بالكفر والظلم.

(١٣) ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ ما خلط لهم من أنواع العذاب.

(١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ المكان الذي يترقب فيه الرَّصَد (جمع راصِد، وهو المراقب). وهو تمثيل لإرصاده العصاة بالعقاب.

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، كأنه قيل: إنه لَبِالمِرْصادِ من الآخرة، فلا يريد إلا السعي لها، فأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذَّاتها ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اختبَرَه بالغنى واليُسر ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالجاه والمال ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥﴾ فضَّلني بما أعطاني.

(١٦) ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي: بالفقر والتقتير ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۝١٦﴾ لقصور نظره وسوء فكره. فإن التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين، والتوسعةَ قد تُفضي إلى قصد الأعداء والانهماك في حب الدنيا، ولذلك ذَمَّهُ على قوْليه وردَعَه عنه بقوله تعالى:

(١٧ـ١٨) ﴿كَلَّا﴾ مع أن قوله الأول مطابقٌ لـ«أكرَمَهُ»، ولم يقل: فأهانه وقدَر عليه كما قال: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾، لأن التوسعة تفضُّلٌ والإخلال به لا يكون إهانةً ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ أي: بل فعلُهُم أسوأ من قولهم، وأدلُّ على تهالكهم بالمال، وهو أنهم لا يكرمون اليتيم بالنفقة والمبرَّة (أي: الإحسان)، ولا يَحُثُّون أهلهم على طعام المسكين فضلاً عن غيرهم.

(١٩) ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩﴾ ذا لَمٍّ؛ أي: جَمْعٍ بين الحلال والحرام، فإنهم كانوا لا يورِّثون النساء والصبيان، ويأكلون أنصباءهم. أو يأكلون ما جمعه المورِّث من حلال وحرام عالِمين بذلك.

(٢٠) ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ كثيراً، مع حرصٍ وشَرَهٍ.

(٢١) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عن ذلك، وإنكارٌ لفعلهم. وما بعدَهُ وعيد عليه: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾ أي: دكّاً بعد دكٍّ، حتى صارت منخفضة الجبال والتلال. أو هَباءً مُنْبَثّاً.

(٢٢) ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: ظهرت آياتُ قدرتِهِ وآثارُ قَهْرِهِ. مَثَّلَ ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من آثار هيبته وسياسته (أقول: وتأويله عند المتأوِّلين: جاء أمره وسلطانه، وهذه الآية وأمثالُها من المتشابه لأن الحركات من صفة الحدوث، واللهُ تعالى منزَّه عنها. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: جاء أمرُه وقضاؤه، على حذف المضاف للتهويل) ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ بحسب منازلهم ومراتبهم.

(٢٣) ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ [النازعات: ٣٦]. وفي الحديث: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام (وهو ما يُشَدُّ به) مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها» [أخرجه مسلم رحمه الله تعالى] ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: يتذكر معاصيه أو يتَّعظ، لأنه يعلم قُبْحها فيندم عليها ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣﴾ أي: منفعةُ الذكرى.

يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

سُورَةُ البَلَدِ ٩٠ — ٢٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الشَّمۡسِ ٩١ — ١٥

(٢٤) ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ أي: لحياتي هذه. أو وقتَ حياتي في الدنيا أعمالاً صالحة.

(٢٥ـ٢٦) ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾ أي: لا يتولى عذاب الله تعالى ووثاقه يوم القيامة سواه، إذ الأمر كله له (والوثاق: ما يُشَدُّ به). أو لا يعذَّب أحدٌ من الزبانية مثلَ ما يعذِّبونه.

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ على إرادة القول. وهي التي اطمأنت بذكر الله تعالى، فإن النفس تترقى في سلسلة الأسباب والمسبَّبات إلى الواجب لذاته، فتستقر دون معرفته، وتستغني به عن غيره. أو المطمئنة إلى الحق بحيث لا يريبها شكٌّ. أو الآمنة التي لا يستفزها (أي: لا يزعجها) خوف ولا حزن.

(٢٨) ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى أمْره أو موعده بالموت ﴿رَاضِيَةٗ﴾ بما أوتيتِ ﴿مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾﴾ عند الله تعالى.

(٢٩) ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾ في جملة عبادي الصالحين.

(٣٠) ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ معهم. أو في زمرة المقرَّبين، فتستضيئي بنورهم، فإن الجواهر القدسية كالمرايا المتقابلة. أو ادخلي في أجساد عبادي التي فارقتِ عنها، وادخلي دار ثوابي التي أُعِدَّتْ لكِ.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الفجر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة البلد

مكيَّة، وآيها عشرون آية

(١ـ٢) ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ أقسَمَ سبحانه بالبلد الحرام، وقيَّده بحلول الرسول عليه الصلاة والسلام فيه، إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله.

(٣) ﴿وَوَالِدٖ﴾ الوالد آدم أو إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ﴿وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ ذريَّتُه. أو محمد عليه الصلاة والسلام (أقول: أقسَمَ بآدم ومِنْ بعدِهِ بذريته من الصالحين).

(٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ تعبٍ ومشقَّةٍ. ومنه المكابدة (أي: مقاساة الشدائد)، والإِنسان لا يزال في شدائد مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقه، ومنتهاها الموت وما بعده. وهو تسلية للرسول ﷺ مما كان يكابده من قريش.

(٥) ﴿أَيَحْسَبُ﴾ بعضُهم؛ وهو الذي كان يكابد منه أكثر. أو يغترُّ بقوته؛ كأبي الأشد بن كلدة، فإنه كان يُبسَط تحت قدميه أديمٌ عكاظي (أي: جلد منسوب إلى عكاظ، وهو أقوى الجلود وأحسنها) ويجذبه عشرة فيتقطع ولا تُزال قدماه. أو لكل أحد منهم. أو للإنسان ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ فينتقم منه.

(٦) ﴿يَقُولُ﴾ أي: في ذلك الوقت ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ كثيراً. والمراد ما أنفقه سُمعةً ومفاخرةً، أو معاداةً للرسول عليه الصلاة والسلام.

(٧) ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ حين كان ينفق أو بعد ذلك فيسأله عنه! يعني أن الله سبحانه وتعالى يراه فيجازيه، أو يجده فيحاسبه عليه. ثم بيَّن ذلك بقوله تعالى:

(٨) ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ يبصر بهما.

(٩) ﴿وَلِسَانًا﴾ يترجم به عن ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ يستر بهما فاه، ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها.

(١٠) ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ طريقَي الخير والشر، أو الثديين.

(١١) ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ أي: فلم يشكر تلك الأيادي باقتحام العقبة، وهو الدخول في أمر شديد. والْعَقَبَةَ الطريق في الجبل، استعارها بما فسَّرها به من الفكِّ والإطعام في قوله تعالى:

(١٢ـ١٦) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ لِما فيهما من مجاهدة النفس. والمعنى: فَلاَ فَكَّ رَقَبةً، ولا أَطْعَمَ يَتيماً أو مسكيناً. والمسغبة والمقربة والمتربة: مِنْ سَغَبَ إذا جاع، وقَرُبَ في النسب، وتَرِبَ إذا افتقر.

(١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لاستقلاله واشتراط سائر الطاعات به ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ وأوصى بعضهم بعضاً ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ بالرحمة على عباده، أو بموجبات (أي: أسباب) رحمة الله تعالى.

(١٨) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾ اليمين. أو اليُمْن.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بما نصبناه دليلاً على الحقِّ من كتابٍ وحجةٍ. أو بالقرآن ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩﴾ الشمال أو الشؤم.

(٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ مُطبقة.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة البلد

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾

سُورَةُ اللَّيۡلِ ٩٢ ٢١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشمس

مكيَّة، وآيها خمس عشرة آية

(١) ﴿**وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١**﴾ وضوئها إذا أشرقت. وقيل: الضحوة ارتفاع النهار، والضحى فوق ذلك.

(٢) ﴿**وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢**﴾ تلا طلوعُه طلوعَ الشمس أوَّلَ الشهر، أو غروبَها ليلة البدر، أو في الاستدارة وكمال النور.

(٣) ﴿**وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣**﴾ جلَّى الشمس؛ فإنها تتجلى إذا انبسط النهار، أو جلَّى الظلمة، أو جلَّى الدنيا أو الأرض، وإن لم يَجْرِ ذكرُها للعلم بها.

(٤) ﴿**وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤**﴾ يغشى الشمسَ فيغطِّي ضوءها، أو يغشى الآفاقَ، أو يغشى الأرضَ.

(٥) ﴿**وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥**﴾ ومَنْ بناها، وإنما أوثِرت «ما» على «مَنْ» لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل: والشيء القادر الذي بناها، ودلَّ على وجوده وكمال قدرته بناؤها.

(٦) ﴿**وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦**﴾ (أي: بسطها).

(٧ـ٨) ﴿**وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا**﴾ أي: أفهمها ﴿**فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨**﴾ (أي: خيرَها وشرَّها).

(٩) ﴿**قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩**﴾ أنْماها بالعلم والعمل. جوابُ القسم. وكأنه لمّا أراد به الحثَّ على تكميل النفس والمبالغة فيه أقسَمَ عليه بما يدلُّهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته الذي هو أقصى درجات القوة النظرية، ويذكِّرُهم عظائمَ آلائه ليحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي هو منتهى كمالات القوة العملية.

(١٠) ﴿**وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠**﴾ نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق.

(١١) ﴿**كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١**﴾ بسبب طغيانها. أو بما أُوعِدَتْ به من عذابها ذي الطغوى (أي: الطغيان، وهو مجاوزة الحدِّ).

(١٢) ﴿**إِذِ ٱنۢبَعَثَ**﴾ حين قام ﴿**أَشۡقَىٰهَا ١٢**﴾ أشقى ثمود؛ وهو قدار بن سالف. أو هو ومن مالأَهُ (أي: ناصَرَهُ وأعانه) على قتل الناقة.

(١٣) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذَرُوا ناقة الله تعالى واحذروا عَقْرَها ﴿وَسُقْيَٰهَا ۝١٣﴾ أي: سَقْيَها، فلا تذودوها (أي: فلا تمنعوها) عنه.

(١٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذَّرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ فأطبق عليهم العذاب ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ بسببه ﴿فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾ فسوَّى الدمْدَمَةَ بينهم أو عليهم، فلم يفلت منهم صغير ولا كبير. أو سوَّى ثمود بالإِهلاك.

(١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ أي: عاقبة الدمدمة. أو عاقبة هلاك ثمود وتبِعَتَها، فيُبقي بعضَ الإِبقاء.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الشمس وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الليل

مكيَّة، وآيها إحدى وعشرون آية

(١) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ أي: يغشى الشمسَ، أو النهارَ، أو كلَّ ما يواريه (أي: يستره) بظلامه.

(٢) ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ ظهَرَ بزوال ظلمة الليل. أو تبيَّن بطلوع الشمس.

(٣) ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ والقادر الذي خلق صِنفَيْ الذكر والأنثى من كل نوع له توالد. أو آدم وحواء.

(٤) ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ إنَّ مساعيَكم لَمُختلفة.

(٥ـ٦) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ تفصيل مبيِّن لتشتت المساعي. والمعنى: من أعطى الطاعة واتقى المعصية وصدَّق بالكلمة الحسنى؛ وهي ما دلَّت على حقٍّ ككلمة التوحيد.

(٧) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ فسنهيِّئه للخَلَّة (أي: الخَصْلة) التي تؤدي إلى يُسْرٍ وراحةٍ؛ كدخول الجنة.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بما أُمِرَ به ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى.

(٩) ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ بإنكار مدلولها.

(١٠) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ للخَلَّة المؤدية إلى العسر والشدة؛ كدخول النار.

(١١) ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ نفيٌ. أو استفهامُ إنكارٍ ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ هلك. أو تردَّى في حفرة القبر أو قعر جهنم.

(١٢) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾ لَلإرشاد إلى الحق بموجب قضائنا أو بمقتضى حكمتنا. أو إنَّ عَلَيْنا طريقة الهدى (أقول: لكن لا بدَّ للإنسان أن يستعمل الجزء الاختياري).

(١٣) ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾ فنعطي في الدارين ما نشاء لمن نشاء. أو ثواب الهداية للمهتدين. أو فلا يضرُّنا ترکُكم الاهتداءَ.

(١٤) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ تتلهَّب.

لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

سُورَةُ الضُّحَىٰ ٩٣ — ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سُورَةُ الشَّرْحِ ٩٤ — ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

(١٥) ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ لا يلزمُها مقاسياً شدتها ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ إلا الكافر، فإن الفاسق وإن دخلها لا يلزمُها، ولذلك سَمَّاه أشقى، ووصفه بقوله تعالى:

(١٦) ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: كذَّب الحق وأعرض عن الطاعة.

(١٧) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ الذى اتقى الشرك والمعاصي، فإنه لا يدخلها فضلاً عن أن يدخلها ويَصلاها.

(١٨) ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ يصرِفُه في مصارف الخير، لقوله تعالى: ﴿يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

(١٩) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ فيَقصد بإيتائه مجازاتَها.

(٢٠) ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي: لا يؤتي إلا ابتغاء وجه ربِّه تعالى، لا لمكافأة نعمة.

(٢١) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ وعدٌ بالثواب الذي يرضيه. والآيات نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه حين اشترى بلالاً في جماعة تولاهم المشركون فأعتقهم. ولذلك قيل: المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الليل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الضحى

مكيَّة، وآيها إحدى عشرة آية

(١) ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ أي: ووقتِ ارتفاع الشمس. وتخصيصُه لأن النهار يقوى فيه، أو لأن فيه كلَّم موسى ربه وأُلقيَ السحرةُ سجداً. أو النهار.

(٢) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ سكنَ أهلُه. أو رَكَدَ ظلامه (أي: ثَبَتَ).

(٣) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ما قطَعَكَ قطعَ المودِّع. وهو جواب القَسَم ﴿وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ وما أبغضك (أقول: نزل هذا لمّا قال الكفار عند تأخر الوحي عنه عليه الصلاة والسلام خمسة عشر يوماً: إن ربه ودَّعه وقلاهُ).

(٤) ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ فإنها باقيةٌ خالصةٌ عن الشوائب، وهذه فانيةٌ مشوبةٌ بالمضارِّ. كأنه لما بيَّن أنه سبحانه وتعالى لا يزال يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا وَعَدَ له ما هو أعلى وأجلُّ من ذلك في الآخرة. أو وَلَنِهايةُ أمرك خيرٌ من بدايته؛ فإنه ﷺ لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال.

(٥) ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ وعدٌ شامل لِما أعطاه من كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين، ولِما ادَّخره له مما لا يَعرف كُنهه (أي: حقيقته) سواه جل وعلا.

(٦) ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ تعديدٌ لِما أنعَمَ عليه، تنبيهاً على أنه كما أحسن إليه فيما مضى يُحسن إليه فيما يُستقبَل.

(٧) ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا﴾ عن علم الحِكَمِ والأحكام ﴿فَهَدَىٰ ۝٧﴾ فعلَّمك بالوحي والإلهام والتوفيق للنظر. وقيل: وجدك ضالاً في الطريق حين خرج بك أبو طالب إلى الشام، أو حين فطمتك حليمة وجاءت بك لتردَّك إلى جَدِّك، فأزال ضلالك عن عمِّك أو جدِّك.

(٨) ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا﴾ فقيراً ذا عيال ﴿فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ بما حصل لك من ربح التجارة.

(٩) ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾ فلا تغلبْهُ على ماله لضعفه.

(١٠) ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ فلا تزجُرْه.

(١١) ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ فإن التحدُّثَ بها شكرُها. وقيل: المراد بالنعمة النبوَّة، والتحدُّث بها تبليغُها.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الضحى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشرح

مكيَّة، وآيها ثمان آيات

(١) ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ ألمْ نفسَحْهُ (أي: نوسعه) حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق، فكان غائباً حاضراً. أو ألمْ نفسحه بما أودعنا فيه من الحِكَمِ وأزلنا عنه ضيق الجهل. أو بما يسَّرنا لك تلقي الوحي بعد ما كان يشقُّ عليك (أقول: كلُّنا نعيش بهذا الفضل الذي وصل إلى رسول الله ﷺ). وقيل: إنه إشارة إلى ما روي «أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى رسول الله ﷺ في صِباه أو يوم الميثاق، فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه إيماناً وعلماً» [حادثة شق الصدر الشريف مروية في صحيح مسلم رحمه الله تعالى، وحديث شق الصدر عند المعراج ثابت في البخاري رحمه الله تعالى].

(٢) ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢﴾ عِبأك (أي: حملك) الثقيل.

(٣) ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ (أي: أثقله) من ثقل الحمل أو حيرته، أو من تلقي الوحي، أو ما كان يرى من ضلال قومه مع العجز عن إرشادهم، أو من إصرارهم وتعدِّيهم في إيذائه حين دعاهم إلى الإيمان.

(٤) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ بالنبوَّة وغيرِها. وأيُّ رفعٍ مثلُ أنْ قَرَنَ اسمَه عليه الصلاة والسلام باسمه تعالى في كلمتي الشهادة، وجَعَلَ طاعتَه طاعتَه، وصلى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وخاطبه بالألقاب ﷺ.

(٥) ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ كضيق الصدر، والوزرِ المُنقض للظَّهر، وضلال القوم وإيذائهم ﴿يُسْرًا ۝٥﴾ كالشرح، والوضع، والتوفيق للاهتداء والطاعة، فلا تيئس من رَوْح الله تعالى إذا عراك (أي: أصابك) ما يغمُّك.

(٦) ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ تكريرٌ للتأكيد، أو استئنافٌ. وَعَدَهُ بأن العُسْرَ متبوعٌ بيُسرٍ آخر؛ كثواب الآخرة. وعليه قوله عليه الصلاة والسلام: «لن يغلبَ عسرٌ يُسرَيْن» [رواه عبد الرزاق والحاكم والبيهقي رحمهم الله تعالى. وفي فتح الباري عن قتادة رحمه الله تعالى، وقال: إسناده جيد] فإن العسر معرَّف فلا يتعدد، ويسراً منكَّر فيحتمل أن يراد بالثاني فرداً يغاير ما أريد بالأول.

(٧) ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من التبليغ ﴿فَٱنصَبْ ۝٧﴾ فاتعبْ في العبادة شكراً لما عددنا عليك من النعم السالفة، ووعدناك من النعم الآتية. وقيل: فإذا فرغت من الغزو فانصب في العبادة، أو فَإِذا فَرَغْتَ من الصلاة فانصب بالدعاء.

(٨) ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ بالسؤال، ولا تسألْ غيره، فإنه القادر وحده على إسعافك.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الانشراح وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ التِّينِ ٩٥ — ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

سُورَةُ العَلَقِ ٩٦ — ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة التين

مختلف فيها، وآيها ثمان آيات

(١) ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾**﴾ خصَّهما من بين الثمار بالقسَم لأن التين فاكهة طيبة، وغذاء لطيف سريع الهضم، ودواء كثير النفع. والزيتون فاكهة وإدام ودواء، وله دهن لطيف كثير المنافع، مع أنه قد ينبت حيث لا دهنية فيه كالجبال. وقيل: المراد بهما جبلان من الأرض المقدَّسة، أو مسجدا دمشق وبيت المقدس، أو البَلَدان.

(٢) ﴿**وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾**﴾ يعني الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه الصلاة والسلام ربَّه جل وعلا. و﴿سِينِينَ﴾ وسَيْناءَ اسمان للموضع الذي هو فيه.

(٣) ﴿**وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾**﴾ أي: الآمن. أو المأمون فيه؛ يَأمَنُ فيه من دَخَلَهُ. والمراد به مكة شرَّفها الله تعالى.

(٤) ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ**﴾ يريد به الجنسَ ﴿**فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾**﴾ تعديلٍ؛ بأن خُصَّ بانتصاب القامة وحسن الصورة واستجماع خواصِّ الكائنات ونظائر سائر الممكنات.

(٥) ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾**﴾ بأنْ جعلناه من أهل النار. وقيل: هو أرذل العمر.

(٦) ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾**﴾ لا ينقطع. أو لا يُمَنُّ به عليهم.

(٧) ﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ**﴾ أي: فأيُّ شيء يكذِّبك يا محمد - عليه الصلاة والسلام - دلالةً أو نطقاً ﴿**بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾**﴾ بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل؟

(٨) ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾**﴾ تحقيقٌ لما سَبق. والمعنى: أليس الذي فعل ذلك من الخلق والردِّ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ صنعاً وتدبيراً؟ ومن كان كذلك كان قادراً على الإعادة والجزاء على ما مرَّ مراراً.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة التين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العلق

مكيَّة، وآيها تسع عشرة آية

(١) ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اقرأ القرآن مفتتحاً باسمه سبحانه وتعالى، أو مستعيناً به ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾ أي: الذي له الخَلق. أو الذي خلق كلَّ شيءٍ. ثم أفردَ ما هو أشرف وأظهر صنعاً وتدبيراً وأدلُّ على وجوب العبادة المقصودة من القراءة فقال تعالى:

(٢) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ②﴾ (جمع علقة؛ وهي القطعة اليسيرة من الدم الغليظ). ولمَّا كان أول الواجبات معرفة الله سبحانه وتعالى نزل أولاً ما يدل على وجوده وفرط قدرته وكمال حكمته.

(٣) ﴿ٱقْرَأْ﴾ تكريرٌ للمبالغة. أو الأول مطلقٌ، والثاني للتبليغ أو في الصلاة. ولعله لمَّا قيل له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فقال: ما أنا بقارئ، فقيل له: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③﴾ الزائد في الكرم على كل كريم، فإنه سبحانه وتعالى يُنعم بلا عِوَضٍ، ويحلم من غير تخوُّف، بل هو الكريم وحده على الحقيقة.

(٤) ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④﴾ أي: الخطَّ بالقلم، لتقيَّد به العلومُ ويُعلَّم به البعيد.

(٥) ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ بِخلْقِ القِوى ونصبِ الدلائل وإنزال الآيات، فيعلِّمك القراءة وإن لم تكن قارئاً. وقد عدَّدَ سبحانه وتعالى مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه إظهاراً لِما أنعم عليه من نَقْلِهِ من أخسِّ المراتب إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته، وأشار أوَّلاً إلى ما يدلُّ على معرفته عقلاً، ثم نبَّه على ما يدلُّ عليها سمعاً.

(٦) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه، وإنْ لم يُذكر لدلالة الكلام عليه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ⑥﴾.

(٧) ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ⑦﴾ أي: رأى نفسه.

(٨) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ⑧﴾ الخطابُ للإنسان تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيان.

(٩ـ١٠) ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ⑩﴾ نزلت في أبي جهل، قال: لو رأيتُ محمداً – ﷺ – ساجداً لوطِئت عنقه، فجاءه ثم نكص على عقبيه (أي: رجع عما كان قد اعتزمه) فقيل له: ما لَكَ؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهَوْلاً وأجنحة؛ فنزلت [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى] (الهول: الخوف، والأجنحة: أجنحة الملائكة عليهم السلام).

(١١ـ١٤) ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ⑪ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ⑫ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ⑬ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ⑭﴾. والمعنى: أخبِرْني عمن ينهى بعض عباد الله تعالى عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه، أو آمراً بِالتَّقْوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده، أو إن كان على التكذيب للحق والتولِّي عن الصواب كما تقول، ألم يعلم بأن الله يرى، ويطلع على أحواله مِنْ هُداه وضَلالِه. وقيل: المعنى أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً يصلي، والمنهيُّ على الهدى آمراً بالتقوى، والناهي مكذِّبٌ متولٍّ، فما أعجبُ من ذا! وقيل: الخطاب

في الثانية مع الكافر؛ فإنه سبحانه وتعالى كالحاكم الذي حضره الخصمان، يخاطب هذا مرة والآخر أخرى، وكأنه قال: يا كافر! أخبِرْني إن كان صلاته هدىً ودعاؤه إلى الله سبحانه وتعالى أمراً بالتقوى أتنهاه؟

(١٥) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للناهي ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عما هو فيه ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥﴾ لنأخذن بناصيته (أي: برأسه) ولنسحبنه بها إلى النار. والسفعُ: القبض على الشيء وجذبه بشدة.

(١٦) ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ وصَفَها بالكذب والخطأ، وهما لصاحبها على الإسناد المجازي للمبالغة.

(١٧) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾ أي: أهلَ ناديه لِيُعِينوه. وهو المجلس الذي ينتدي (أي: يجتمع) فيه القوم. روي أنا أبا جهل - لعنه الله - مرَّ برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألَمْ أنهَكَ؟ فاغلَظَ له رسول الله ﷺ، فقال: أتهدِّدُني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فنزلت.

(١٨) ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ ليَجُرُّوه إلى النار.

(١٩) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ أيضاً للناهي ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: اثبتْ أنت على طاعتك ﴿وَٱسْجُدْ﴾ وداوِمْ على سجودك ﴿وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾ وتقرَّبْ إلى ربك. وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد» [أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى].

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة العلق
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة القدر

مختلف فيها، وآيها خمس آيات

(١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ الضمير للقرآن. فخَّمه بإضماره من غير ذكرٍ، شهادةً له بالنباهة (أي: الشهرة في رفعة القدر) المُغْنيةِ عن التصريح، كما عظَّمه بأن أسند إنزاله إليه، وعظَّم الوقت الذي أنزل فيه بقوله تعالى:

(٢ـ٣) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾ وإنزاله فيها بأن ابتدأ بإنزاله فيها. أو أنزله جملةً من اللوح إلى السماء الدنيا على السَفَرَةِ (وهم ملائكة يحصون الأعمال ويدوِّنونها)، ثم كان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة. وقيل: المعنى: أَنْزَلْناهُ في فضلها؛ وهي في أوتار العشر الأخير من رمضان، ولعلها السابعة منها. والداعي إلى إخفائها أن يُحييَ من يريدها ليالي كثيرة. وتسميتُها بذلك لشرفها، أو لتقدير الأمور فيها، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. وذِكرُ الألف إما للتكثير أو لِما روي أنه عليه الصلاة والسلام ذَكَرَ إسرائيلياً يلبس السلاح في سبيل الله تعالى ألف شهر، فعجِبَ المؤمنون وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأُعْطوا ليلةً هيَ خيرٌ من مدة ذلك الغازي

[ذكره السيوطي والبيهقي رحمهما الله تعالى].

(٤) ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ بيانٌ لِما له فُضِّلت على ألف شهر. وتنزُّلُهُم إلى الأرض، أو إلى السماء الدنيا، أو تقرُّبُهم إلى المؤمنين ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④﴾ من أجل كلِّ أمرٍ قُدِّرَ في تلك السنة.

(٥) ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ ما هي إلا سلامةٌ. أي: لا يُقدِّر الله تعالى فيها إلا السلامة، ويقضي في غيرها السلامة والبلاء. أو ما هي إلا سلامٌ لكثرة ما يسلِّمون فيها على المؤمنين ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ⑤﴾ أي: طلوعه.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة القدر

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ القَدْرِ ٩٧ — ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ① وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ⑤

سُورَةُ البَيِّنَةِ ٩٨ — ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ④ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ⑤ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ⑥ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ⑦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البينة

مختلف فيها، وآيها ثمان آيات

(١) ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اليهود والنصارى؛ فإنهم كفروا بالإلحاد في صفات الله سبحانه وتعالى، و«مِنْ» للتبيين ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وعبدةِ الأصنام ﴿مُنفَكِّينَ﴾ (أي: منفصلين) عما كانوا عليه من دينهم، أو الوعد باتباع الحق إذا جاءهم الرسول ﷺ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ الرسولُ عليه الصلاة والسلام. أو القرآن، فإنه مبيِّنٌ للحق. أو معجزة الرسول ﷺ بأخلاقه، والقرآن بإفحامه (أي: بإعجازه وإسكاته) من تحدَّى به.

(٢) ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ والرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان أمياً لكنه لَمَّا تلا مِثْلَ ما في الصحف كان كالتالي لها. وقيل: المراد جبريل عليه السلام. وكونُ الصحفِ مُطَهَّرَةً: أن الباطل لا يأتي ما فيها، أو أنها لا يمسُّها إلا المطهَّرون.

(٣) ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

(٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عما كانوا عليه، بأن آمن بعضهم أو تردَّد في دينه. أو عن وعدهم بالإصرار على الكفر ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ فيكون كقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]. وإفراد أهل الكتاب بعد الجمع بينهم وبين المشركين للدلالة على شناعة حالهم، وأنهم لَمَّا تفرَّقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى.

(٥) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي: في كتبهم بما فيها ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يشركون به ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن العقائد الزائغة ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولكنهم حرَّفوا وعَصَوْا ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ دين المِلَّة القيِّمة.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: يوم القيامة. أو في الحال، لملابستهم ما يوجب ذلك. واشتراكُ الفريقين في جنس العذاب لا يوجب اشتراكهما في نوعه، فلعله يختلف لتفاوت كفرهما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ أي: الخليقة.

(٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ (أي: هم خير الخليقة التي خلقها الله تعالى، وهم السعداء الأبرار [المقتطف]).

جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ ٩٩ ٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨

سُورَةُ العَادِيَاتِ ١٠٠ ١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩

(٨) ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ استئناف بما يكون لهم زيادة على جزائهم ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ لأنه بلَّغهم أقصى أمانيهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكورُ من الجزاء والرضوان ﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ فإن الخشية مَلاكُ الأمر والباعث على كل خير.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة البينة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزلزلة

مختلف فيها، وآيها ثمان آيات

(١) ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١﴾ اضطرابها المقدَّر لها عند النفخة الأولى أو الثانية. أو الممكن لها. أو اللائق بها في الحكمة.

(٢) ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢﴾ ما في جوفِها من الدفائن أو الأموات.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣﴾ لِما يبهرهم (أي: يدهشهم) من الأمر الفظيع. وقيل: المراد بالإِنْسانِ: الكافرُ، فإن المؤمن يعلم ما لها.

(٤) ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ﴾ تحدِّث الخلقَ بلسان الحال ﴿أَخۡبَارَهَا ٤﴾ ما لأجله زلزالُها وإخراجُها. وقيل: يُنطقها الله سبحانه وتعالى فتخبرُ بما عُمِلَ عليها.

(٥) ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾ أي: تحدِّث بسبب إيحاء ربك لها، بأن أحدَثَ فيها ما دلَّ على الأخبار. أو أَنطقها بها.

(٦) ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ من مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿أَشۡتَاتٗا﴾ متفرِّقين بحسب مراتبهم ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦﴾ جزاءَ أعمالهم.

(٧) ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (أي: فمن يعمل شيئاً قليلاً) ﴿خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ (أي: يرَ جزاءه [النسفي]).

(٨) ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ (أقول: إذا كان كافراً ومات على ما هو عليه من الكفر،

ومَنْ كان مسلماً ولم يتبْ نفوِّضْ أمره إلى ربه، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذَّبه). ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب. وقيل: الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة. أو «مَنْ» الأولى مخصوصةٌ بالسعداء، والثانية بالأشقياء، لقوله: «أَشْتاتاً».

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الزلزلة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة العاديات

مختلف فيها، وآيها إحدى عشرة آية

(١) ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ١﴾ أقسَمَ سبحانه بِخَيْل الغزاة تعدو فتضبح ضبحاً؛ وهو صوت أنفاسها عند العَدْوِ (وهو المشي بسرعة).

(٢) ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ٢﴾ فالتي توري النار. والإِيراء: إخراج النار.

(٣) ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ يُغِيرُ أهلُها على العدوِّ ﴿صُبْحًا ٣﴾ أي: في وقته.

(٤) ﴿فَأَثَرْنَ﴾ فهيَّجنَ ﴿بِهِۦ﴾ بذلك الوقت ﴿نَقْعًا ٤﴾ غباراً. أو صياحاً.

(٥) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ فتوسَّطنَ بذلك الوقت. أو بالعَدْوِ. أو بالنَّقْعِ ﴿جَمْعًا ٥﴾ من جموع الأعداء. ويُحتمل أن يكون القسَمُ بالنفوس العادية إثْرَ كَمالِهنَّ (أي: الساعية المسارعة في طريق الارتفاع إلى درجات الكمال»، المُورِيات بأفكارهنَّ أنوار المعارف، والمغيرات على الهوى والعادات إذا ظهر لهنَّ مبدأ أنوار القدس، فَأَثَرْنَ بِهِ شوقاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً من جموع العليين.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ٦﴾ لَكَفور، أو لعاص، أو لبخيل، وهو جواب القسَم.

(٧) ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ وإن الإنسان على كنوده ﴿لَشَهِيدٌ ٧﴾ يشهد على نفسه لظهور أثره عليه، أو أن الله سبحانه وتعالى على كنوده لشهيد، فيكون وعيداً.

(٨) ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ المال ﴿لَشَدِيدٌ ٨﴾ لَبخيلٌ، أو لَقويٌّ مبالِغٌ فيه.

(٩) ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ﴾ بُعِثَ ﴿مَا فِي ٱلْقُبُورِ ٩﴾ من الموتى.

وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

سُورَةُ القَارِعَةِ (١٠١) (١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّكَاثُرِ (١٠٢) (٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

(١٠) ﴿وَحُصِّلَ﴾ جُمِعَ مُحَصَّلاً في الصحف، أو مُيِّزَ ﴿مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ من خيرٍ أو شرٍّ.

(١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ عالِمٌ بما أعلنوا وما أَسَرُّوا، فيجازيهم عليه.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة العاديات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القارعة

مكيَّة، وآيها إحدى عشرة آية

(١ـ٣) ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ سبق بيانه في «الحاقة» عند قوله جل وعلا: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ـ٣].

(٤) ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ في كثرتهم وذِلَّتهم وانتشارهم واضطرابهم.

(٥) ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ كالصوف ذي الألوان ﴿ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ المندوف، لِتفرُّقِ أجزائها وتطايرها في الجو.

(٦) ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾﴾ بأن ترجَّحت مقادير أنواع حسناته.

(٧) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ﴾ في عيش ﴿رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ ذات رضا. أو مرضية.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾ بأن لم يكن له حسنة يُعبأ بها. أو ترجَّحت سيئاته على حسناته.

(٩) ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ فمأواه النار المحرقة. والهاويةُ من أسمائها، ولذلك قال تعالى:

(١٠) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾.

(١١) ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ ذات حِمًى (أي: شديدة الحرارة).

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة القارعة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التكاثر

مختلف فيها، وآيها ثمان آيات

(١) ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ شَغَلكم ﴿ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾ التباهي بالكثرة.

(٢) ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢﴾ إذا استوعبتم عدد الأحياء صِرتم إلى المقابر فتكاثرْتم بالأموات. عبَّر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة المقابر. روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا بالكثرة، فكثرهم بنو عبد مناف (أي: غلبوهم بالكثرة)، فقال بنو سهم: إن البغي أهلكنا في الجاهلية، فعادُّونا بالأحياء والأموات فكثرهم بنو سهم. وإنما حذف المُلهى عنه - وهو ما يَعنيهم من أمر الدين - للتعظيم والمبالغة. وقيل: معناه: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ بالأموال والأولاد إلى أن متُّمْ وقُبرتم مضيِّعين أعمارَكم في طلب الدنيا عما هو أهمُّ لكم؛ وهو السعيُ لأخراكم. فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت.

(٣) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وتنبيه على أن العاقل ينبغي له أن لا يكون جميعُ همِّه ومعظمُ سعيِه للدنيا، فإن عاقبة ذلك وبالٌ وحسرة ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣﴾ خطأَ رأيِكم إذا عاينتم ما وراءكم. وهو إنذارٌ ليخافوا وينتبهوا من غفلتهم.

(٤) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ تكريرٌ للتأكيد. وفي «ثُمَّ» دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول، أو الأول عند الموت أو في القبر والثاني عند النشور.

(٥) ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥﴾ أي: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين - أي كَعِلْمكم ما تستيقنونه - لشَغَلكم ذلك عن غيره، أو لَفَعَلتم ما لا يوصف ولا يُكتنه (أي: لا تُعرف حقيقته).

(٦) ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦﴾ محقَّقَ الوقوع. وهو جواب قسَمٍ محذوف، أكَّد به الوعيد وأوضح به ما أنذرهم منه بعد إبهامه تفخيماً.

(٧) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكريرٌ للتأكيد. أو الأولى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ﴾ [الفرقان: ١٢]، والثانية: إذا وَرَدوها. أو المراد بالأولى المعرفةُ وبالثانية الإبصارُ ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين.

(٨) ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ الذي ألهاكم. والخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه، والنَّعِيمُ مخصوص بما يشغله. وقيل: يعمّان، إذ كلٌّ يُسأل عن شكره. وقيل: الآية مخصوصة بالكفار.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة التكاثر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة العصر

مكيَّة، وآيها ثلاث آيات

(١) ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ أقسَمَ سبحانه بصلاة العصر لفضلها، أو بعصر النبوَّة، أو بالدهر، لاشتماله على الأعاجيب، والتعريضِ بنفي ما يضاف إليه من الخسران.

(٢) ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إن الناس لفي خسران في مساعيهم وصرف أعمارهم في مطالبهم.

(٣) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ الثابت الذي لا يَصِحُّ إنكاره من اعتقاد أو عمل ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ عن المعاصي، أو على الحق، أو ما يَبلو الله تعالى به عباده. ولعلَّه سبحانه وتعالى إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاءً ببيان المقصود، وإشعاراً بأن ما عدا ما عُدَّ يؤدي إلى خسر ونقصِ حظٍّ، أو تكرُّماً؛ فإن الإبهام في جانب الخسر كرَمٌ.

سُورَةُ العَصْرِ ١٠٣ — ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣

سُورَةُ الهُمَزَةِ ١٠٤ — ٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩

سُورَةُ الفِيلِ ١٠٥ — ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة العصر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الهمزة ـ مكيَّة، وآيها تسع آيات

(١) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ الهَمزُ: الكسر، واللَّمْزُ: الطعن، فشاعا في الكسر من أعراض الناس والطعن فيهم. وهو الذي يأتي بالأضاحيك، فيُضْحَك منه ويُشْتَم. ونزولها في الأخنس بن شريق، فإنه كان مِغياباً، أو في الوليد بن المغيرة واغتيابه رسولَ الله ﷺ.

(٢) ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢﴾ وجَعَله عُدَّة (أي: ذخيرة معدَّة) للنوازل. أو عَدَّهُ مرَّة بعد أخرى.

(٣) ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ تركه خالداً في الدنيا، فأحبَّه كما يحب الخلود. أو حبُّ المال أغفله عن الموت أو طوَّلَ أَمَلَهُ، حتى حسب أنه مخلَّد، فعمل عمل من لا يظن الموت. وفيه تعريض بأن المُخلَّد هو السعي للآخرة.

(٤) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له عن حسبانه ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾ أي: لَيُطرحَنَّ ﴿فِي الْحُطَمَةِ ۝٤﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يطرح فيها.

(٥) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾ ما النارُ التي لها هذه الخاصية.

(٦) ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ تفسيرٌ لها ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾ التي أوقدها الله تعالى. وما أوقدَهُ لا يَقْدِرُ غيرُه أن يطفئه.

(٧) ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾ تعلو أوساط القلوب وتشتمل عليها. وتخصيصُها بالذكر لأن الفؤاد ألطفُ ما في البدن وأشدُّه تألُّماً. أو لأنه محلُّ العقائد ومَنشأ الأعمال.

(٨) ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨﴾ مُطْبَقة.

(٩) ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ أي: مُوثَقين في أعمدة ممدودة مثل المقاطر (وهي أخشاب فيها خروق تُدخَل فيها أرجل المحبوسين)، التي يُقطر فيها اللصوص (أي: يُجعَلون قطاراً كقطار الإبل).

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الهمزة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفيل

مكيَّة، وهي خمس آيات

(١) ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾ الخطاب للرسول ﷺ. وهو وإن لم يشهد تلك الوقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها. وإنما قال: «كَيْفَ» ولم يقل: «ما» لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام، فإنها من الإِرهاصات (وهي الأمور الخارقة للعادة الجارية على يد نبيٍّ قبل بعثته). إذ روي أنها وقعت في السنة التي وُلد فيها رسول الله ﷺ. وقصتها أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قِبَل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسمّاها القليس، وأراد أن يصرف الحاجَّ إليها، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً، فأغضبه ذلك، فحلف ليهدِمَنَّ الكعبة، فخرج بجيشه ومعه فيلٌ قويٌّ اسمه محمود وفِيَلة أخرى، فلما تهيأ للدخول وعبَّأ جيشه قدَّمَ الفيلَ، وكان كلما وجَّهوه إلى الحرم بَرَكَ ولم يبرح، وإذا وجَّهوه إلى اليمن أو إلى جهة أخرى هرول، فأرسل الله تعالى طيراً، كل واحد في منقاره حجر وفي رجليه حجران، أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة، فترميهم فيقع الحجر على رأس الرجل فيخرج من دبره، فهلكوا جميعاً.

(٢) ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ﴾ في تعطيل الكعبة وتخريبها ﴿فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢﴾ في تضييع وإبطال، بأن دمَّرهم وعظَّم شأنَها.

(٣) ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ جماعاتٍ.

(٤) ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤﴾ من طين متحجِّر. وقيل: من السَّجْلِ؛ وهو الدلو الكبير. أو الإسجال؛ وهو الإرسال. أو من السِّجِلِّ؛ ومعناه من جملة العذاب المكتوب المدوَّن.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾ كورقِ زرعٍ وقع فيه الأكال؛ وهو أن يأكله الدود. أو أُكِلَ حبُّه فبقي صِفراً منه. أو كَتِبْنٍ أكلته الدواب وراثته (أي: ألقته روثاً).

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الفيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة قريش

مكيَّة، وآيها أربع آيات

(١٠٦) سُورَةُ قُرَيْشٍ (٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

(١) ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١﴾ (الإيلاف: هو التعوُّد). وقريش: ولدُ النضر بن كنانة. والمعنى: أن نِعَمَ الله تعالى عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لأجل:

(٢) ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ٢﴾ أي: الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون (أي: يحملون الميرة؛ وهي الطعام) ويتَّجرون.

(٣) ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٣﴾.

(٤) ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: بالرِّحلتين. وقيل: المراد به شدَّةٌ أكلوا فيها الجِيَفَ والعظام ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ٤﴾ أي: من خوفِ أصحابِ الفيل. أو التخطُّفِ (أي: القتل والسلب) في بلدهم ومسايرهم. أو الجذام، فلا يصيبهم ببلدهم.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة قريش وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

(١٠٧) سُورَةُ المَاعُونِ (٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

(١٠٨) سُورَةُ الكَوْثَرِ (٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الماعون

مختلف فيها، وآيها سبع آيات

(١) ﴿أَرَءَيْتَ﴾ استفهامٌ معناه التعجب ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١﴾ بالجزاء أو الإسلام.

(٢) ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ٢﴾ يدفعه دفعاً عنيفاً؛ وهو أبو جهل، كان وصياً ليتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه. أو أبو سفيان، نَحَرَ جزوراً فسأله يتيمٌ لحماً، فقرعه بعصاه. أو الوليد بن المغيرة. أو منافق بَخيل.

(٣) ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ أهله وغيرَهم ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ٣﴾ لعدم اعتقاده بالجزاء.

(٤ـ٥) ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٥﴾ أي: غافلون غير مبالين بها.

(٦) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ يُرُونَ الناس أعمالهم ليُرُوهم الثناءَ عليهم.

(٧) ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ الزكاةَ. أو ما يُتَعاوَر في العادة (أي: ما اعتاد الناس تداوله بينهم؛ كالفأس والدلو). والمعنى: إذا كان عدم المبالاة باليتيم من ضعف الدين الموجب للذم والتوبيخ فالسهوُ عن الصلاة التي هي عماد الدين، والرياءُ الذي هو شعبة من الكفر، ومنعُ الزكاة التي هي قنطرة الإِسلام أحقُّ بذلك، ولذلك رتب عليها الويل.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الماعون وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الكوثر

مكيَّة، وآيها ثلاث آيات

(١) ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ الخيرَ المفرطَ الكثرَةِ؛ من العلم والعمل وشرف الدارين. وروي عنه عليه الصلاة والسلام: «أنه نهرٌ في الجنة وعَدَنيهِ ربي، فيه خير كثير، أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأبرد من الثلج وألْيَنُ من الزبد، حافَّتاه الزبرجد، وأوانيه من فضة، لا يظمأ من شرب منه» [الحديث في صحيح مسلم رحمه الله تعالى]. وقيل: حوض فيها. وقيل: أولاده أو أتباعه أو علماء أمته عليه الصلاة والسلام أو القرآن العظيم.

(٢) ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فَدُمْ على الصلاة خالصاً لوجه الله تعالى، خلافَ الساهي عنها المرائي فيها، شكراً لإِنعامه، فإن الصلاة جامعة لأقسام الشكر ﴿وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ البُدْنَ التي هي خيار أموال العرب، وتصدَّقْ على المحاويج خلافاً لمن يدعهم ويمنع عنهم الماعون. فالسورة كالمقابلة للسورة المتقدمة. وقد فُسِّرَت الصلاة بصلاة العيد والنحر بالتضحية.

(٣) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ إن مَنْ أبغضك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ الذي لا عَقِبَ له، إذ لا يبقى له نسلٌ ولا حُسْنُ ذِكْرٍ، وأما أنت فتبقى ذريَّتُك وحُسْنُ صِيتك وآثارُ فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الكوثر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الكافرون

مكيَّة، وآيها ست آيات

(١) ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ يعني كفرةً مخصوصين، قد علم الله تعالى منهم أنهم لا يؤمنون. روي أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد! – ﷺ – تعبدُ آلهتَنا سَنَةً ونعبد إلهك سَنَةً، فنزلت.

(٢) ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ أي: فيما يُستقبَل.

(٣) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أي: فيما يُستقبَل.

(٤) ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ أي: في الحال، أو فيما سلف.

(٥) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ أي: وما عبدتم في وقتٍ ما أنا عابده. ويجوز أن يكونا تأكيدين على طريقة أبلغ.

(٦) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركونه ﴿وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ ديني الذي أنا عليه لا أرفضه.

(١٠٩) سُورَةُ الكَافِرُونَ (٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦

(١١٠) سُورَةُ النَّصْرِ (٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣

(١١١) سُورَةُ المَسَدِ (٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الكافرون وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النصر

مدنيَّة، وآيها ثلاث آيات

(١) ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ إظهارُه إياك على أعدائك ﴿وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ فتحُ مكة. وقيل: المراد جنسُ نصرِ الله تعالى المؤمنين، وفتح مكة وسائر البلاد عليهم. وإنما عبَّر عن الحصول بالمجيء تجوُّزاً، للإشعار بأن المقدَّرات متوجِّهةٌ من الأزل إلى أوقاتها المعيَّنة لها، فتقرُب منها شيئاً فشيئاً، وقد قرُب النصر من وقته، فكن مترقباً لوروده مستعداً لشكره.

(٢) ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ جماعات كثيفة؛ كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب.

(٣) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فتعجَّبْ لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببال أحد، حامداً له عليه. أو فَصَلِّ له حامداً على نعمه. روي أنه ﷺ لما دخل مكة بدأ بالمسجد، فدخل الكعبة وصلى ثمان ركعات [رواه الشيخان رحمهما الله تعالى]. أو فنزِّهْهُ تعالى عما كانت الظَّلَمَة يقولون فيه، حامداً له على أنْ صدَقَ وعدَهُ. أو فَأَثْنِ على الله تعالى بصفات الجلال، حامداً له على صفات الإكرام ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ هضماً لنفسك، واستقصاراً لعملك، واستدراكاً لما فَرَطَ منك من الالتفات إلى غيره جل وعلا. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مئة مرة» [رواه الشيخان رحمهما الله تعالى]. وقيل: استغفِرْهُ لأمتك. وتقديمُ التسبيح على الحمد، ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق إلى الخلق، كما قيل: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله تعالى قبله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ لِمَن استغفره مذ خلق المكلَّفين. والأكثر على أن السورة نزلت قبل فتح مكة، وأنه نعيٌ لرسول الله ﷺ، لأنه لما قرأها بكى العباس رضي الله تعالى عنه، فقال عليه الصلاة والسلام ما يبكيك؟ فقال: نعيَتْ إليك نفسُك، فقال: «إنها لكَما تقول» (والنعيُ: خبرُ الموت). ولعلَّ ذلك لدلالتها على تمام الدعوة وكمال أمر الدين، فهي كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. أو لأن الأمر بالاستغفار تنبيه لدنوِّ الأجل، ولهذا سُمِّيت سورةَ التوديع.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة النصر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المسد

مكيَّة، وآيها خمس آيات

(١) ﴿تَبَّتْ﴾ هَلَكَتْ أو خَسِرت ﴿يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ نفسُه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقيل: إنما خُصَّتا لأنه عليه الصلاة والسلام لمَّا نزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] جَمَعَ أقاربه فأنذرهم، فقال أبو لهب: تبّاً لك، ألِهذا دعوتنا، وأخذ حجراً ليرميه به فنزلت [أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى]. وقيل: المراد بهما دنياه وأخراه. وإنما كَنَّاه - والتكنيةُ تكرمة - لاشتهاره بكنيته، ولأن اسمه عبد العزى فاستكرَهَ ذِكْرَهُ، ولأنه لمّا كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله، أو ليجانس قوله تعالى: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ﴿وَتَبَّ ۝١﴾ إخبارٌ بعد دعاء. أو الأول إخبار عما كسبته يداه، والثاني عن نفسه.

(٢) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ نفيٌ لإغناء المال عنه حين نزل به التباب (أي: الهلاك والخسارة). أو استفهامُ إنكارٍ له ﴿وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ وكسْبُه. أو مكسوبُه بماله؛ من النتائج (أي: أولاد البهائم) والأرباح والوجاهة والأتباع. أو عملُه الذي ظن أنه ينفعه. أو ولده عتبة، وقد افترسه أسدٌ في طريق الشام، وقد أحدق به العير (أي: أحاطوا به من كلِّ جهة). ومات أبو لهب بالعدسة (وهي بَثرة أي: دمَّل أو قرحة، تخرجُ في البدن كالطاعون، وقلَّما يسلم صَاحبُها) بعد وقعة بدر بأيام معدودة، وتُرِكَ ميتاً ثلاثاً حتى أنتنَ، ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه. فهو إخبار عن الغيب طابَقَهُ وقوعُه.

(٣) ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣﴾ اشتعالٍ. يريد نار جهنم.

(٤) ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ وهي أم جميل أخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾ يعني حطب جهنم، فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداة الرسول ﷺ، وتحمل زوجها على إيذائه. أو النميمة فإنها كانت توقد نار الخصومة. أو حزمة الشوك والحَسَك (وهو شوك كبير)، فإنها كانت تحملها فتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ.

(٥) ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ أي: مِمَّا مُسِّدَ؛ أي: فُتِلَ. وهو تصوير لها بصورة الحطَّابة التي تحمل الحزمة وتربطها في جيدها (أي: عنقها) تحقيراً لشأنها، أو بياناً لحالها في نار جهنم، حيث يكون على ظهرها حزمة من حطب جهنم؛ كالزقوم (شجرة مرَّة كريهة الرائحة، ثمرها طعام أهل النار) والضريع (نبت الشِّبرق، لا تقربه دابَّة لخُبثه)، وفي جيدها سلسلة من النار.

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة المسد
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

سُورَةُ الإِخْلَاصِ (١١٢) (٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

سُورَةُ الفَلَقِ (١١٣) (٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سُورَةُ النَّاسِ (١١٤) (٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإخلاص

مختلف فيها، وآيها أربع آيات

(١) ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ الضمير للشأن، أو لِما سُئل عنه ﷺ؛ أي: الذي سألتموني عنه هو الله جل وعلا. إذ روي أن قريشاً قالوا: يا محمد ﷺ! صِفْ لنا ربك الذي تدعونا إليه، فنزلت [رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى]. و﴿أَحَدٌ﴾ يدل على مجامع صفات الجلال، كما دلَّ ﴿ٱللَّهُ﴾ على جميع صفات الكمال، إذ الواحد الحقيقي ما يكون منزَّهَ الذاتِ عن أنحاء التركيب والتعدد وما يَستلزم أحدَهما؛ كالجسمية والتحيُّز والمشاركة في الحقيقة وخواصها، كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ السيد المصمود إليه (أي: المتوجَّه إليه) في الحوائج. وهو الموصوف به على الإطلاق، فإنه يَستغني عن غيره مطلقاً، وكلُّ ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته. وتكرير لفظة ﴿ٱللَّهُ﴾ للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحقَّ الألوهية.

(٣) ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لم يجانِسْ ولم يفتقرْ إلى ما يُعينه أو يَخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه ﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ وذلك لأنه لا يفتقر إلى شيء ولا يسبقه عدم.

(٤) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ أي: ولم يكن أحد يكافئه (أي: يماثله) من صاحبة أو غيرها. ولاشتمال هذه السورة مع قصرها على جميع المعارف الإلهية والردِّ على من ألحد فيها جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن [أخرجه مسلم رحمه الله تعالى]. فإن مقاصده محصورة في بيان العقائد والأحكام والقصص. ومَنْ عَدَلَها بكله اعتبرَ المقصود بالذات من ذلك. وعنه ﷺ، أنه سمع رجلاً يقرؤها فقال: «وَجَبَتْ» قيل: يا رسول الله! وما وجبت؟ قال: «وجبت له الجنة» [أخرجه النسائي وحسَّنه الترمذي رحمهما الله تعالى].

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الإخلاص

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الفلق

مختلف فيها، وآيها خمس آيات

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾ ما يُفلَقُ (أي: يُشَقُّ) عنه. وهو يعمُّ جميع الممكنات، فإنه تعالى فَلَقَ ظلمة العدم بنور الإيجاد، سيَّما ما يخرج من أصلٍ؛ كالعيون والأمطار والنبات والأولاد، ويختصُّ عرفاً بالصبح، ولذلك فُسِّرَ به. وتخصيصه لِما فيه من تغيُّر الحال وتبدُّل وحشة الليل بسرور النور ومحاكاة فاتحة يوم القيامة، والإِشعار بأن من قَدِرَ أن يُزيل به ظلمة الليل عن هذا العالم قَدِرَ أن يزيل عن العائذ به ما يخافه. ولفظ الرب ههنا أوقعُ من سائر أسمائه تعالى، لأن الإعاذة من المضارِّ تربية.

(٢) ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ②﴾ خَصَّ عالَمَ الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشرِّ فيه، فإن عالَمَ الأمر خيرٌ كله، وشرُّه اختياري، لازم ومتعدٍّ؛ كالكفر والظلم، وطبيعيٌّ؛ كإحراق النار وإهلاك السموم.

(٣) ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ليلٍ عظيمٌ ظلامُه ﴿إِذَا وَقَبَ ③﴾ دخل ظلامه في كل شيء. وتخصيصه لأن المضارَّ فيه تكثر ويَعسُر الدفع، ولذلك قيل: الليل أخفى للويل. وقيل: المراد به القمر، فإنه يُكسَف فيغسق (أي: يذهب ضوؤه). ووُقوبُه: دخولُه في الكسوف.

(٤) ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④﴾ ومن شرِّ النفوس أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عُقَداً في خيوط ويَنْفُثْنَ عليها. والنَّفْثُ: النفخُ مع ريق. وتخصيصُه لِما روي أن يهودياً سَحَرَ النبي ﷺ في إحدى عشرة عقدة في وَتَرٍ (وهو معلَّق القوس) دَسَّهُ (أي: أخفاه) في بئر، فمرض النبي ﷺ، فنزلت المعوذتان، وأخبره جبريل عليه السلام بموضع السحر، فأرسل علياً رضي الله تعالى عنه فجاء به، فقرأهما عليه، فكان كلما قرأ آية انحلَّت عقدة ووجد بعض الخفة [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى]. ولا يوجب ذلك صِدْقَ الكفرة في أنه مسحور، لأنهم أرادوا به أنه مجنون بواسطة السحر. وقيل: المراد بالنفْث في العقد إبطالُ عزائم الرجال بالحيَل.

(٥) ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾ إذا أظهرَ حسدَهُ وعَمِل بمقتضاه، فإنه لا يعود ضررٌ منه قبل ذلك إلى المحسود، بل يُخَصُّ به لاغتمامه بسروره. وتخصيصه لأنه العمدة في إضرار الإِنسان بل الحيوان و غيره (أقول: كثير من الناس مبتلى بالحسد، وعلاجُه التوكل على الله تعالى وقراءة المعوذتين وآية الكرسي). عن النبي ﷺ: «لقد أُنزلتْ عليَّ سورتان ما أُنزل مثلهما، وإنك لن تقرأ سورتين أحب ولا أرضى عند الله منهما، يعني المعوذتين» [أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى].

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الفلق
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الناس

مختلف فيها، وآيها ست آيات

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ لمّا كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضارِّ البدنية – وهي تعمُّ الإنسانَ وغيرَه – والاستعاذة في هذه السورة من الأضرار التي تعرض للنفوس البشرية وتخصُّها، عَمَّمَ الإضافةَ ثَمَّة (أي: هناك) وخصَّصها بالناس ههنا، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوِس إلى الناس بربهم الذي يملك أمورهم ويستحق عبادتهم.

(٢ـ٣) ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ وفي هذا النَّظْم دلالةٌ على أنه تعالى حقيق (أي: جدير) بالإعاذة قادرٌ عليها غيرُ ممنوعٍ عنها، وإشعارٌ على مراتب الناظر في المعارف، فإنه يَعلم أوَّلاً بما يرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أنَّ له ربّاً، ثم يتغلغل في النظر حتى يتحقق أنه غني عن الكلِّ وذاتُ كل شيء له ومصارف أمره منه، فهو المَلِك الحق، ثم يستدلُّ به على أنه المستحقُّ للعبادة لا غير، وتدرُّجٌ في وجوه الاستعاذة كما يُتدرَّجُ في الاستعاذة المعتادة، تنزيلاً لاختلاف الصفات منزلة اختلاف الذات، إشعاراً بعِظَمِ الآفة المستعاذ منها. وتكريرُ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لما في الإظهار من مزيد البيان، والإشعار بشرف الإنسان.

(٤) ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أي: الوسوسة (وهي الدعوة إلى الشر عن خفية)، والمراد به الموسوِس ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ الذي عادَتُهُ أن يخنس ـ أي: يتأخر ـ إذا ذَكَرَ الإنسانُ ربَّه جل وعلا.

(٥) ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ إذا غفلوا عن ذكر ربهم جل وعلا.

(٦) ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ أي: يوسوس في صدورهم من جهة الجِنَّة والناس.

(أقول: ومن السنة قراءة الإخلاص والمعوذتين قبل النوم لما ورد في صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات).

تمَّ بحمد الله تعالى استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى في سورة الناس وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رَبِّ العالمين

❖❖ ❖❖ ❖❖

قال المصنِّف (القاضي البيضاوي) رحمه الله تعالى: وقد اتَّفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي على فرائد فوائد ذوي الألباب، المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة آراء علماء الأمة، في تفسير القرآن

وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، والتلخيص العاري عن الإضلال، الموسوم بـ«أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، وأسأل الله تعالى أن يتمِّم نفعه للطلاب، ولا يخلي سعي من يتعب فيه من الأجر والثواب، ويختم كل خاتمة امرئ يؤمُّه بتمحيص عن الآثام، ويبلغني أعلى منازل دار السلام، في جوار العليِّين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، وهو سبحانه حقيق بأن يحقِّق رجاء الراجين تحقيقاً، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وأتباعهم أجمعين.

** ** **

تمَّ بحمد الله تعالى وتوفيقه استخلاص معاني الآيات والفوائد من تفسير القاضي البيضاوي رحمه الله تعالى، فله جلَّ وعلا الفضل والمنَّة والثناء الحسن الجميل، ونسأله جلَّ وعلا أن يرحمنا بالقرآن الكريم، ويوفِّقنا لتدبُّره والعمل به، وأن يتقبَّل منَّا، وأن يرحمنا وأشياخنا ووالدينا والمسلمين

وصلى الله وسلَّم على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وأتباعهم أجمعين

وآخر دعوانا أَنِ الحمد للهِ رَبِّ العالمين

الغريب أحمد فتح الله جامي

خادم الطريقة الشاذلية القادرية

مُحتويَاتالكِتابِ

** ** **